الأخلاق الإسلامية

وأسسها

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

دار القلم
دمشق

الأخلاق الإسلامية

وأُسُسُها

الطبعة الخامسة
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله الذي له الأسماء الحسنى والصفات العظمى وله الكمال كله، وسبحان الله المنزّه عن كل صفة من صفات النقصان.

وصلى الله وسلم على محمد خاتم النبيين، وإمام المرسلين؛ من جاء وصفه في الكتاب العزيز بقول الله له في سورة (القلم ٦٨):

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

وصلى الله وسلم على سائر الأنبياء والمرسلين، الذين امتازوا بفضائل الأخلاق ومحاسن الشيم، فكانوا للناس أئمة يُقتدى بهم ويُهتدى بهديهم.

ورضي الله عن الصحابة السابقين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فهذا سِفْر في الأخلاق، جمعت فيه دراسات جديدة اقتبستها بالتأمل المتجرد من القرآن والسُنّة؛ وأنا مدفوع بدافع الأمل في أن أصل إلى معرفة الأسس العامة لمفردات الأخلاق في مفاهيم الإسلام وتعاليمه الربّانية، بالإضافة إلى جمع أهم هذه المفردات، وبيان قيمها وفوائدها وثمراتها.

وحين قمت بهذه الدراسة حاولت أن أبعد عن تصوّري كلّ دراسة للأخلاق قرأتها من قبل، للفلاسفة الإسلاميين ولغيرهم ممن سبقهم أو جاء بعدهم؛ رجاء أن لا أقع فريسة لوجهات نظرٍ معينة، فأعمل من حيث لا أشعر على

تطويع النصوص الإسلامية الأصلية لتحمل وجهات النظر هذه ولتدلّ عليها، ورجاء أن يكون بصري في فهم حقيقة معاني النصوص الإسلامية أقرب إلى السلامة وأكثر نفاذاً وإدراكاً، وأبعد عن المشوِّشات التي قد تفسد الرؤية، أو تغشي على جوانبها. هذا مع أني قد أَفَدتُ من دراساتي الطويلة لما كتب الكثيرون في الأخلاق من إسلاميين وغيرهم ـ متقدمين ومتأخرين ـ فكان ذلك لديَّ أساساً لبدء عملية التدبر المباشر من كتاب الله وسُنّة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ولم أعمد إلى استعراض مذاهب الناس وآرائهم في الأخلاق، وإنما عمدت إلى ما تحصّل لديّ من المفاهيم المقتبسة من الإسلام فأثبتّه.

ولعل القارىء المنصف يجد في هذه الدراسة عملاً فذّاً، لم أنقله عن واحد أو جمعٍ ممّن سبق من العلماء الباحثين، ولعلّه يجد فيها القواعد المهمة لبناء علم الأخلاق الإسلامي؛ الذي لم يتأثر بفكر يوناني، ولا بفكر غربي حديث، ولا بمذهب من مذاهب الناس، وإنما اهتدى بهدي مفاهيم القرآن الكريم، وسُنّة الرسول العظيم، والتزم بضوابط الفكر السليم.

والله أسأل أن يسدّدني، ويبعدني عن الزلل، ويرزقني والقارىء حسن الخلق، وأن ينفع بهذا السفر ويجعله ذخراً لي يربو ما انتفع به منتفع لآخرته أو لدنياه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مكة المكرمة في ١ رجب ١٣٩٨هـ

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

الباب الأوّل

مقدّمات وأسس عامّة

وفيه خمسة فصول

الفصل الأول

تعريفات

١ ـ تعـريف الأخـلاق.
٢ ـ أنواع السلوك الإرادي للإنسان.
٣ ـ دلالة السلوك الأخلاقي على الخلق الثابت في النفس.
٤ ـ الحكمة ومكارم الأخلاق والذكاء.

الفصل الأول

تعريفات

ـ ١ ـ

تعريف الأخلاق

يقتضينا البحث أولاً أن نميز الأخلاق عن غيرها من الصفات الإنسانية، وأن نميز أنواع السلوك التي هي آثار خلقية عن أنواع السلوك التي ليست آثاراً خلقية؛ حتى نعرف موضوع البحث الذي نحن في صدده، فلا يختلط علينا ما ليس من قبيل الأخلاق بما هو منها، وما ليس سلوكاً أخلاقياً بما هو سلوك أخلاقي.

ولدى التأمل وإمعان النظر يتبين لنا أن الخلق صفة مستقرة في النفس ـ فطرية أو مكتسبة ـ ذات آثار في السلوك محمودة أو مذمومة.

فالخلق منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم. والإسلام يدعو إلى محمود الأخلاق، وينهى عن مذمومها.

ونستطيع أن نقيس مستوى الخلق النفسي عن طريق قياس آثاره في سلوك الإنسان: فالصفة الخلقية المستقرة في النفس إذا كانت حميدة كانت آثارها حميدة، وإذا كانت ذميمة كانت آثارها ذميمة، وعلى قدر قيمة الخلق في النفس تكون ـ بحسب العادة ـ آثاره في السلوك، إلّا أن توجد أسباب معوقة أو صوارف صادة عن ظهور آثار الخلق في السلوك.

وليست كلّ الصفات المستقرة في النفس من قبيل الأخلاق، بل منها غرائز

ودوافع لا صلة لها بالخلق، ولكنّ الذي يفصل الأخلاق ويميزها عن جنس هذه الصفات كون آثارها في السلوك قابلة للحمد أو للذمّ، فبذلك يتميز الخلق عن الغريزة ذات المطالب المكافئة لحاجات الإنسان الفطرية.

إنّ الغريزة المعتدلة ذات آثار في السلوك، إلا أنّ هذه الآثار ليست مما يحمد الإنسان أو يذم عليه.

فالأكل عند الجوع بدافع الغريزة ليس مما يُحمد أو يذمّ في باب السلوك الأخلاقي؛ لكنّ الشره الزائد عن حاجات الغريزة العضوية أمرٌ مذموم، لأنه أثر لخلق في النفس مذموم، هو الطمع المفرط، وعكس ذلك أثر لخلق في النفس محمود، هو القناعة.

والحذر من وقوع مكروه أثر من آثار غريزة حبّ البقاء، وليس محلاً للمدح أو الذم في باب السلوك الأخلاقي؛ لكن الخوف الزائد عن حاجات هذه الغريزة أثرٌ لخلق في النفس مذموم، هو الجبن، أما الإقدام الذي لا يصل إلى حدّ التهوّر فهو أثر لخلق في النفس محمود، هو الشجاعة.

وهكذا سائر الغرائز والدوافع النفسية التي لا تدخل في باب الأخلاق، إنما يميزها عن الأخلاق كون آثارها في السلوك أموراً طبيعية ليست مما تُحمد إرادة الإنسان عليه أو تذمّ.

ـ ٢ ـ
أنواع السلوك الإرادي للإنسان

ولدى التدبّر في السلوك الإرادي للإنسان، نلاحظ أنه ينقسم إلى أنواع شتى:

١ ـ فمنه ما هو أثر من آثار خلق في النفس محمود أو مذموم: كالعطاء عن جود، والإمساك عن شح، والإقدام عن شجاعة، والفرار عن جبن، والإقبال عن طمع، والكفّ عن عفّة، والاعتراف عن حب للحق، والإنكار عن كبر وإفراطٍ في الأنانية، والإغضاء عن حلم، والتحمل عن صبر، وهكذا.

٢ ــ ومنه ما هو استجابة لغريزةٍ من غرائز الجسد أو النفس الفطرية، ضمن حدود الحاجات الطبيعية لها: كالأكل المباح عن جوع، والشرب المباح عن ظمأ، ومعاشرة الزوجة عن طلب لذلك، والنوم عن حاجة إليه، والسعي في اكتساب الرزق تلبية لداعي الفطرة، والاستمتاع المباح بالجمال تلبية لطلب النفس، والترويح عن النفس بشيء من مباحات اللهو واللعب، وأمثال ذلك.

٣ ــ ومنه ما هو استجابة إرادية لترجيح فكري: كأن يرى الفكر مصلحة أو منفعة في سلوك ما، فتتوجه الإرادة لممارسته، أصاب الفكر في ذلك أو أخطأ، كمعظم أعمال الناس اليومية في وجوه الكسب وغيره.

وقد يرجع هذا في جذوره إلى تلبية دافع من دوافع الغرائز الجسدية أو النفسية، أو إلى دافع أخلاقي، أو إلى غير ذلك.

٤ ــ ومنه ما هو من قبيل الآداب الشخصية أو الاجتماعية: كآداب الطعام والشراب، واللباس والمشي، والنظافة والنظام، والآداب المتعلقة بالأناقة وإصلاح مظاهر الجسد؛ كتنظيف الشعر وترجيله، وتقليم الأظافر، وإزالة شعر الإبطين والعانة، وإبداء كلّ حَسَنٍ وجميل احتراماً لأذواق الناس، وتكريماً لهم، واسترضاءً لمشاعرهم.

وربما يكون التزام بعض هذه الآداب أثراً من آثار خلق في النفس محمود، وربما يكون إهمالها أثراً من آثار خلق في النفس مذموم.

٥ ــ ومنه ما هو طاعة للأوامر والتكاليف الربانية أو غير الربانية: وقد تكون هذه الأوامر والتكاليف ملزمة بسلوك أخلاقي، أو ملزمة بأعمال هي من قبيل العبادات المحضة، أو بأعمال هي من قبيل الآداب، أو ملزمة بأعمال تحقق المصالح والمنافع للناس، أو غير ذلك مما يخالف ما سبق أو يناقضه.

ومن هذا النوع أوامر الشرائع ونواهيها، وأوامر السلطات الحاكمة ونواهيها؛ ونحو ذلك من الأوامر والنواهي.

٦ ــ ومنه ما هو من قبيل العادات التي تتأصل في السلوك: وقد ترجع

هذه العادات إلى موجه أخلاقي، أو موجه غرزي، أو موجه تكليفي، أو موجه اجتماعي، أو نحو ذلك. وقد لا تكون أكثر من ممارسات عبث استحكمت بالعادة.

٧ ـ ومنه ما هو من قبيل التقاليد الاجتماعية، التي تسري في سلوك الأفراد بعامل التقليد المحض، أو بقوة التأثير الاجتماعي. وقد تكون هذه التقاليد حسنة، وقد تكون سيئة.

وحين تكون قوة التأثير الاجتماعي هي العامل في ممارسة السلوك، فإن السلوك حينئذٍ يرجع إلى نوع الطاعة للمجتمع، في أوامر وتكاليف غير منصوصٍ عليها في العبارة.

وهكذا تبين لنا أن السلوك الإرادي الإنساني له أنواع شتى، فليس كل سلوك مظهراً من مظاهر الأخلاق في النفس الإنسانية.

يضاف إلى ذلك أنه ربما يكون المظهر السلوكي الواحد أثراً لموجه أخلاقيٍ تارة، وأثراً لغير ذلك تارة أخرى.

ويخلط بعض الناس مختلف مظاهر السلوك الإنساني فيجعلها من قبيل السلوك الأخلاقي؛ وهذا يرجع إلى أنهم لا يملكون تحديداً واضحاً للأخلاق، أو يرجع إلى أن رؤيتهم لحقيقة السلوك غير واضحة.

وحشر أنواع السلوك الإنساني تحت عنوان الأخلاق خطأ فادح، يوقع في أخطاء أخرى أكثر وأكبر منه، والذي أوقع كثيراً من الباحثين في موضوعات الأخلاق في أخطاء جوهرية عدم تمييزهم بين أنواع السلوك الإنساني.

إن الأصل في السلوك الإنساني أنه يهدف إلى تحقيق مطالب جسدية أو نفسية أو فكرية أو روحية، سواء أكان ذلك لصالح الفرد أو لصالح الجماعة، وأي سلوك لتحقيق مطلب من هذه المطالب إما أن يكون سلوكاً خلقياً، وإما أن يكون سلوكاً لا علاقة له بالأخلاق إيجاباً ولا سلباً.

فقد يجوع الإنسان فيأكل ملبياً حاجة عضوية لديه، وهنا نقول: إن تناوله

للطعام بتأثير دافع الجوع سلوك لا علاقة له بميدان الأخلاق إيجاباً ولا سلباً، ولكن شرهه فيه الزائد عن الحاجة والموقع له في المضرة سلوك ناتج عن خلق غير محمود، أما قناعته فيه والتزامه بمقدار الحاجة ـ وذلك بضبط نفسه عن دوافع الشره ـ فهو سلوك أخلاقي كريم، ناشىء عن قوة إرادته العاقلة التي تمنعه عن مواقع الضرر. فالشره في الطعام والقناعة فيه لهما أحكام أخلاقية، أما أصل الطعام الناشىء عن حاجة عضوية فهو سلوك فطري طبيعي، وإن وضعت له أحكام غير حكم الإباحة فهي أحكام دينية، أو صحية، أو ذوقية جمالية، أو أحكام تفرضها التقاليد والعادات؛ وهذه الأحكام سواء أكانت مصيبة أو مخطئة فإن مبرراتها ليست من ميدان الأخلاق.

ونستطيع أن نقول في حدود هذا المثال نفسه: إن هذا الذي دفعه الجوع إلى تناول الطعام، إذا اختار أن يأكل طعام غيره ظلماً وعدواناً دون أن يكون له فيه حقٌّ ولا شبهة حق؛ فإن سلوكه هذا سلوك ناتج عن خلق غير محمود، نظراً إلى أنه تضمن عدواناً على حقّ لغيره. أما إذا اختار أن يأكل طعاماً له حق في أن يأكله، وكف نفسه بإرادته عما ليس له به حق، مع تطلع نفسه إليه؛ فهو سلوك ناتج عن خلق محمود، لأنه تضمن ضبطاً للنفس عن هوىً من أهوائها أو شهوة من شهواتها، لتحقيق فضيلة من الفضائل، وهي فضيلة التزام الحق والبعد عن العدوان والظلم.

ونستطيع أن نقول أيضاً في حدود هذا المثال نفسه: إن هذا الذي دفعه الجوع إلى تناول الطعام، إذا اختار أن يأكله نظيفاً محفوفاً بالأناقة والذوق الرفيع والجمال؛ فإن سلوكه هذا سلوك يلبـي فيه حاجة نفسية إلى التمتع بالجمال، ولا علاقة له بميدان الأخلاق إيجاباً ولا سلباً، ولكن له حكماً جمالياً قد يدخل تحت عنوان الآداب. وهذا السلوك نفسه إذا فعله ليمتع غيره بصورة جمالية، فإنه بهذه الغاية يكون سلوكاً أخلاقياً حسناً، أما إذا تركه استهانة بمشاعر الآخرين، وعدم اكتراث بآلامهم الناشئة عن نفورهم من القذارة والقباحة، فإنه حينئذٍ يكون سلوكاً مجانباً لفضيلة خلقية.

ونستطيع أن نقول أيضاً في حدود هذا المثال نفسه: إن هذا الذي دفعه الجوع إلى تناول الطعام، إذا اختار أن يأكل من الأطعمة ما حرّمه الدين لغاية من الغايات الدينية أو الصحية، فإن سلوكه هذا سلوك مخالف لحكم ديني، وربما لا يكون منافياً للأخلاق، إذا قسناه بمقياس الأخلاق، ولكن مخالفة الله الخالق الرازق في أمرٍ من أوامره أو نهي من نواهيه سلوك منافٍ للخلق الكريم، لأن الفضيلة الخلقية توجب طاعة الله، وتحرم معصيته. فتناول الطعام المحرم دينيّاً لا علاقة له بالأخلاق من حيث ذاته، ولكن معصية الأحكام الدينية الربانية بوجه عام سلوك منافٍ لما توجبه الأسس الأخلاقية، وطاعتها سلوك مطابق لما توجبه الأسس الأخلاقية.

أما إذا كانت أحكام مثل هذه الأحكام ناشئةً عن عادات، أو تقاليد، أو طقوس ذات طابع ديني، ولكنها من أوضاع البشر لا من أحكام الله، فإن مخالفتها حينئذٍ لا تكون سلوكاً منافياً لما توجبه الأسس الأخلاقية، لأن المفاهيم الأخلاقية لا توجبها من حيث ذاتها، كما أنها لا توجب طاعة العادات أو التقاليد أو الطقوس التي هي من أوضاع البشر؛ إذ لا حقّ لهذه الأمور على الإنسان حتى تستوجب منه الطاعة، وإن جرى في أعراف الناس خلاف ذلك، فليس كل ما في أعراف الناس وتقاليدهم ومفاهيمهم حقاً.

من خلال مثالٍ واحد استطعنا أن نكتشف الفروق ما بين أنواع السلوك، والفروق بين أحكامها، وظهر لنا أن بعضها أحكام أخلاقية، وبعضها أحكام ذوقية جمالية، يمكن أن تدخل تحت عنوان الآداب، وبعضها أحكام دينية بحتة: فما كان منها منزّلاً في شريعة ربانية صحيحة وجب التزامه طاعة لله وعبودية له، وما كان منها من أوضاع البشر وملصقاً بالدين إلصاقاً دون مستندٍ صحيح من شريعة صحيحة، فلا حقّ له في طاعة ولا التزام، وما كان منها من أحكام فرضتها العادات والتقاليد ــ وهذه أمور تدخل فيها خرافات كثيرة ونقائص يدعو الكمال إلى نبذها ــ فلا تعتبر مخالفتها منافية لمكارم الأخلاق، كما أنه ليس للتقاليد والعادات حقٌّ في طاعة والتزام، حتى تعتبر مخالفة هذا الحق سلوكاً منافياً للخلق الحميد.

وينبغي أن لا يغيب عن بالنا أن كثيراً من الأحكام الدينية هي أحكام أخلاقية، لأنّ الدين الحقّ يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن رذائلها، كما أن كثيراً من أحكام العادات والتقاليد هي أحكام أخلاقية أيضاً، كما أنّ كثيراً من السلوك الأخلاقي مشمول أيضاً بأحكام ذوقية جمالية، فهو من جهة ارتباطه بالأخلاق له حكم أخلاقي، ومن جهةارتباطه بالجمال له حكم جمالي يدخله في باب الآداب. وهكذا تتشابك الجوانب، وتلتقي على سلوك واحد؛ وهذا التشابك هو الذي يلبّس الأمر على الباحثين، ومن أجل ذلك كان التمييز بحاجة إلى بصر علميٍّ نفّاذ، وتحرٍّ دقيق لكل مسألة على حدة، ولكن الذي يهدي سبيل الباحث هو رجوعه إلى الأسس العامة التي تستند إليها مكارم الأخلاق.

فالخلق المحمود: صفة ثابتة في النفس فطرية أو مكتسبة تدفع إلى سلوكٍ إراديّ محمود عند العقلاء. كالأخذ بالحقّ أو الخير أو الجمال وإن خالف الهوى، وترك الباطل والشرّ والقبح وإن وافق الهوى أو الشهوة.

ويمكن تمييز الأخلاق الحميدة عن غيرها بأنّها كلُّ سلوك فرديّ أو اجتماعي تلتقي النفوس البشرية على استحسانه، مهما اختلفت أديانها ومذاهبها وعاداتها وتقاليدها ومفاهيمها. ويلحق به ما كان أثراً من آثاره، أو فرعاً من فروعه.

والخلق المذموم: صفة ثابتة في النفس فطريّة أو مكتسبة تدفع إلى سلوك إرادي مذموم عند العقلاء. كالأخذ بالباطل أو الشرّ أو القبح، وترك الحق أو الخير أو الجمال، اتباعاً للهوى أو الشهوة.

ويمكن تمييز الأخلاق الذميمة عن غيرها بأنها كلّ سلوك فردي واجتماعي تلتقي النفوس البشرية على استقباحه واستنكاره، مهما اختلفت أديانها ومذاهبها وعاداتها وتقاليدها ومفاهيمها، ويلحق به ما كان أثراً من آثاره، أو فرعاً من فروعه.

ـ ٣ ـ

دلالة السلوك الأخلاقي على الخلق الثابت في النفس

ولا بدّ أن نعلم أنّ دلالة السلوك الأخلاقي على الخلق الأصيل الثابت في قرارة النفس دلالة ظنية، وليست دلالة قطعية، فقد لا يكون السلوك الأخلاقي صادراً عن خلق أصيل ثابت في قرارة النفس، إذ ربما يكون صادراً عن تكلُّف وتصنّع، أو عن خوف وطمع، وعندئذ فقد يكون من قبيل الرياء، وقد يكون من قبيل النفاق، وقد يكون صاحبه مخلصاً يريد تطويع نفسه وترويضها، حتى تكتسب الخلق الكريم، ولو لم يكن ذلك من أصل طبعها.

فالخلق في حقيقته تكوين خاصّ ثابت في النفس فطريٌّ أو مكتسب له ظواهر في السلوك، ولكن لا يشترط أن تكون هذه الظواهر دالّة دلالة قطعية على وجود الخلق في النفس، لأنّ باستطاعة الإنسان أن يمارس من ظواهر السلوك ما ليس في خلقه ولا في طبيعة نفسه، إنه يستطيع أن يتصنّع ما لا ترتاح نفسه إليه، ويستطيع لغرض ما أن يتكلّف ما ليس في خلقه النفسي ولا في طبيعته الأصلية، فقد يجود الشحيح لغاية في نفسه، فنسمي العمل عطاءً كريماً، ولكن يظلّ صاحب هذا العطاء الكريم غير متصف بخلق الجود، لأن خلقه الأصيل في نفسه هو خلق الشحّ، ويظلّ كذلك حتى يتحوّل بالتدريب والعادة فيكون جواداً في نفسه، وحتى يكسب خلق الجود، فيحلّ محل خلق الشح، أو يصرفه ويوجّهه لشيء آخر غير الحرص على الدنيا وما فيها من مالٍ ومتاع.

ـ ٤ ـ

الحكمة ومكارم الأخلاق والذكاء

١ ـ نتساءل عن العلاقة بين الحكمة وبين التزام فضائل الأخلاق واجتناب رذائلها؟

فنلاحظ أن الحكمة هي ضبط السلوك وتوجيهه وفق مقتضى العقل السليم والدين القويم.

ففي الحكمة عنصران:

الأول: عنصر الضبط الذي فيه المنع عن الانطلاق والكفّ عن الانحراف.

الثاني: عنصر التوجيه الذي فيه تحديد الاتجاه، والدفع إلى السعي نحوه.

أما مصدر بيان ما ينبغي أن يكون الضبط والتوجيه على وفقه فالعقل السليم والدين القويم، وهذان المصدران لا يختلفان في بيان الحقيقة، ولكن بشرط سلامة العقل من الخلل، أو من الوقوع تحت أي مؤثّر من مؤثرات النفس وأهوائها وشهواتها، أو أي مؤثّر آخر، وبشرط صحة الدين، وصحة ما ورد عن الدين، وصحة فهم النصّ الصحيح الوارد عن الدين.

فالحكمة قد تتناول كلَّ أنواع السلوك الإنساني، سواءً أكان من قبيل الأخلاق، أو من قبيل الآداب، أو من قبيل العبادات أو العادات أو التقاليد أو من قبيل تلبية المطالب الطبيعية الجسدية أو النفسية.

أما التزام فضائل الأخلاق واجتناب رذائلها فهو نوع من أنواع السلوك الحكيم، وبهذا يتبيّن لنا أن الحكمة مقسم عام يتفرع إلى فروع، وأنّ أحد هذه الفروع هو السلوك الأخلاقي الحكيم.

وإذا كان لنا أن نقسّم الحكمة إلى حكمة نفسية وحكمة ظاهرة في السلوك، كان لنا أن نجعل الخلق الكريم الثابت في النفس قسماً من أقسام الحكمة النفسية.

وعلى هذا فالحكمة النفسية من فروعها الأخلاق النفسية الكريمة، والحكمة في السلوك الظاهر من فروعها السلوك الأخلاقي الكريم.

وبهذا التحليل نصل إلى أنّ الحكمة بوجه عام أمرٌ كليٌّ شامل، ولهذا الأمر الكليّ فروع وأقسام، ومن أقسامه وفروعه الحكمة في السلوك النفسيّ، والحكمة في السلوك الظاهر، ومن فروع الحكمة في السلوك النفسي الأخلاق الكريمة الفاضلة، ومن فروع الحكمة في السلوك الظاهر السلوك الأخلاقي الكريم.

٢ ــ ونتساءل عن العلاقة بين الحكمة والذكاء؟

فنلاحظ أنّ الحكمة قد تحتاج إلى قدر جيد من الذكاء لمعرفة وجه الحق، ولكن كثيراً ما يوجد الذكاء ولا توجد الحكمة.

يعرّف بعضهم الذكاء بأنه حسن التكيف والتلاؤم مع البيئة ومع الأحوال والأحداث الطارئة.

وظاهر أنّ مثل هذا التعريف لا يصلح لأن تفسّر به الحكمة، وذلك لأن التكيّف والتلاؤم مع البيئة والأحوال والأحداث الطارئة قد يكون ذكاءً حكيماً، وقد يكون ذكاءً غير حكيم، فالمنافق قد يرى نفسه يتكيّف تكيفاً ذكيّاً، فيتلاءم مع البيئة وينافق لها، ولكنّ من ينافق في الدين الحقّ غير حكيم، لأنه يقذف بنفسه إلى الدرك الأسفل من النار. والذي يجد نفسه في بيئة فاسدة منحرفة عن سواء السبيل فيتكيّف معها، ويجاريها في أعمالها، قد يرى أنه يتكيّف تكيّفاً ذكيّاً، فيتلاءم مع البيئة ويسايرها، ولكنه في ذكائه هذا غير حكيم. واللّصوص والمجرمون قد يكونون أذكياء جدّاً، ولكنهم ليسوا بحكماء.

فالذكاء إذن شيء والحكمة شيء آخر، ولكن قد يكون الذكاء مادّة أو وسيلة للتعرف على وجوه الحكمة.

ولذلك مجّدت النصوص الإسلامية الحكمة تمجيداً عظيماً:

(أ) فجاء في القرآن الكريم وصف الخالق سبحانه بأنه حكيم في نيف وتسعين موضعاً.

(ب) وجاءت الحكمة عنواناً للتعاليم الربانية للناس، فقال الله تعالى في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ . . . ﴿٦٣﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الجمعة ٦٢):

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ

وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ .

(ج) وأرشد الله إلى استعمال الحكمة في الدعوة إلى سبيل الله ، فقال الله تعالى في سورة (النحل ١٦) :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ . . . ﴿١٢٥﴾ ﴾ .

(د) ومجّد الله الحكمة في السلوك الإنساني، فقال تعالى في سورة (البقرة ٢) :

﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا . . . ﴿٢٦٩﴾ ﴾ .

* * *

الفصل الثاني

١ ـ مدارك الأخلاق وأسسها.

٢ ـ تقسيم ما جاءت به الشريعة الإسلامية من وصايا وأحكام إلى كليّات عامّة.

٣ ـ ضرورة مكارم الأخلاق للمجتمعات الإنسانية.

٤ ـ عناية الإسلام بتزكية النفس وتهذيبها وحرصه على تقويم الأخلاق.

٥ ـ تمجيد الإسلام الخلق الحسن وحثه عليه.

٦ ـ الكليّات العامة التي تنضوي تحتها مفردات مكارم الأخلاق.

٧ ـ شمول الأخلاق.

٨ ـ تقسيم الأخلاق باعتبار علاقاتها.

٩ ـ تقسيم السلوك الخلقي إلى بسيط ومركب.

الفصل الثاني

ـ ١ ـ

مدارك الأخلاق وأسسها

لدى التحليل يتبيّن لنا أنّ مدارك الأخلاق فكرية علمية، وفطرية وجدانية، وإيمانية تدعو إلى الأخذ بها القاعدة الإيمانية في الإسلام، لكل ذلك فهي ربّانية، لأنّ الله تبارك وتعالى هو الذي منح العقول موازين إدراكاتها، وأودع في الفطر الوجدانية أحاسيسها ومشاعرها، وهو الذي أنزل على رسله قواعد الإيمان وأحكام التشريع.

أما كونها فكرية علمية: فلأنّ مكارم الأخلاق يؤيدها الفكر العلمي ويستحسنها، ويحثّ عليها، ويوجب ما يوجب منها. ولأن رذائل الأخلاق يؤيّد العقل اجتنابها، ويستقبحها، ويحث على البعد عنها، ويحرّم ما يحرّم منها.

وأمّا كونها فطرية وجدانية: فلأنّ في فطر الناس الوجدانية ميلاً إلى مكارم الأخلاق، ورغبة داخليّة بالتزامها وممارسة كلّ سلوك تدفع إليه، ولأنّ في فطر الناس الوجدانية نفوراً واشمئزازاً من رذائل الأخلاق، ورغبة داخلية باجتنابها واجتناب كل سلوك هو من آثارها.

وأمّا كونها إيمانية: فلأنّ القاعدة الإيمانية في الإسلام تلزم بطاعة الله في أوامره ونواهيه، وترغّب بالعمل بوصاياه. وقد اشتملت أوامر الله ونواهيه

ووصاياه على التوجيه للعمل بمكارم الأخلاق واجتناب رذائلها، وقرنت ذلك بالوعد بالثواب لمن أطاع، والوعيد بالعقاب لمن عصى.

على أنه يوجد تشابك جذريّ بين أسس الأخلاق وأسس الإيمان.

فالفضيلة الخلقية التي يدركها الفكر العلمي ويستحسنها، وتميل الفطر الوجدانية السليمة إلى ممارستها، توجب الاعتراف بعناصر القاعدة الإيمانية في الإسلام، وتوجب الإذعان لها والعمل بما تقتضيه، وتنفر وتشمئزّ من الجحود والاستكبار والتمرّد، وذلك لأنّ عناصر القاعدة الإيمانية عناصر حقّ كبرى، والفضيلة الخلقية توجب الإيمان بالحقّ والإذعان له والعمل بمقتضاه، وتنفر وتشمئزّ من جحود الحقّ، والاستكبار عليه، والتمرّد على العمل بما يقتضيه.

وكذلك عناصر القاعدة الإيمانية في الإسلام، فهي تدفع المؤمنين بها إلى أن يتحلَّوا بالفضائل الخلقية، وأن يتخلّوا عن الرذائل الخلقية، وأن يلتزموا في حياتهم كل سلوك خلقي تدعو إليه مكارم الأخلاق، وتعد على ذلك بالظفر برضوان الله واغتنام الأجر العظيم عنده، وتحذّر من مغبّة ممارسة الرذائل الخلقية المحظورة، وممارسة ظواهرها في السلوك، وتنذر بسخط الله وبالعقاب الأليم عنده. ولذلك جعل الرسول صلى الله عليه وسلم الحياء شعبة من الإيمان وهو من مكارم الأخلاق، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان».

وهكذا فالإيمان بالإسلام سلوكٌ إرادي توجبه فضائل الأخلاق التي تدركها الأفكار العلمية وتستحسنها، كما تستقبح أضدادها، وتميل الفطر الوجدانية السليمة إلى ممارستها، وتنفر وتشمئزّ من أضدادها.

وفضائل الأخلاق وما تقتضيه من سلوك أمور يوجبها أو يرغّب بها الإيمان بالإسلام ويحث عليها.

ولذلك جاء في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم: «أكمل المؤمنين إيماناً

أحسنُهم خلُقاً، وخيارُكم خيارُكم لنسائهم» رواه الترمذي عن أبـي هريرة وقال: حديث حسن صحيح.

فالرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث يبيِّن الترابط بين الإيمان وحُسْنِ الخلُق.

وحين نتدبر في حقيقة الإيمان نجده يستلزم في درجاته المرتقية كل الفضائل الإنسانية، لأنّ الله الذي هو الحقيقة الكبرى التي ترتبط بها جميع أركان الإيمان وفروعه، يأمر بكل الفضائل، ومنها الفضائل الخلقية، وينهى عن كل الرذائل، ومن ضمنها الرذائل الخلقية، والمؤمن يجد نفسه ملزماً باتباع ما أمر الله به، واجتناب ما نهى الله عنه، وللإيمان من التأثير على الإنسان ما ليس لأية قوة أخرى داخلة في النفس أو خارجة عنها.

ومن شواهد هذه الحقيقة قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع عيينة بن حصن.

روى البخاري عن ابن عبّاس قال: «قدم عُيينة بن حصن، فنزل على ابن أخيه الحرّ بن قيس، وكان الحرّ بن قيس من النفر الذين يدنيهم عمر في خلافته رضي الله عنه، وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته ــ كهولاً كانوا أو شبّاناً ــ فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، فاستأذن له، فأذن له عمر، فلما دخل عُيينة قال: هِيْ يا ابنَ الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل. فغضب عمر حتى همّ أن يوقع به، فقال له الحرّ بن قيس: يا أمير المؤمنين، إنّ الله تعالى قال لنبيّه صلى الله عليه وسلم:

﴿خُذِ العفوَ، وأمُرْ بالعرف، وأعرضْ عن الجاهلين﴾ وإنَّ هذا من الجاهلين.

قال ابن عبّاس: والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقّافاً عند كتاب الله تعالى»!!

هذا هو أثر الإيمان في قلب عمر، وهذا هو أثر التزامه أوامر الله. ولولا الإيمان في قلب عمر، لبطش بعيينة على وقاحته وافترائه.

وهكذا ظهر لنا بالتحليل وجود التشابك الجذري بين الأخلاق والقاعدة الإيمانية في الإسلام، وعليه نستطيع أن نقول:

إنّ أسس الأخلاق هي أسس فكرية علمية، وفطرية وجدانية، وإيمانية، كما أنّ أسس القاعدة الإيمانية في الإسلام هي أسس فكرية علمية، وفطرية وجدانية، وأخلاقية.

— ٢ —

تقسيم ما جاءت به الشريعة الإسلامية من وصايا وأحكام إلى كليّات عامّة

الإسلام وحدة كلية متشابكة مترابطة لا انفصال بين أجزائها وعناصرها في الواقع، ولكن باستطاعتنا من الناحية النظرية الفكرية التعليمية، أن نقسم ما جاء فيه إلى فئات تتجمع كل فئة منها تحت كلية من الكليات، وتتميز الأخلاق بواحدة منها.

عنوان العبادة يشمل كلّ أوامر الشريعة ونواهيها:

حين نلاحظ أن الشريعة الإسلامية تنزيل من عند خالق العباد، وأن لله على عباده حق الطاعة، وهو حق طبيعيٌ عقليٌ بدهي، لأن من له الخلق، ومنه العطاء، وبيده المنع، وهو على كل شيءٍ قدير، فمن الطبيعي العقلي البدهي أن يكون من حقه على عباده أن يعترفوا له بالربوبية وبالألوهية، ويدينوا له بالطاعة، وهذا ما أشار إليه قول الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

فالتزام حدود الشريعة في أوامرها ونواهيها بهذا المعنى العامّ هو عبادة لله تعالى، ولذلك قال الله تعالى في سورة (الذاريات ٥١):

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

ولكن نقول مع ذلك: إنّ من أحكام الشريعة الإسلامية تكاليف غايتها عبادة محضة لله تعالى، ومنها تكاليف غايتها تحقيق مصالح العباد وجلب الخير لهم في الحياة الدنيا، إضافة إلى الخير العظيم الذي يظفرون به يوم القيامة بسبب طاعتهم لربهم فيها. ومصالح العباد: منها مصالح للأفراد، ومنها مصالح للجماعة. ومصالح الأفراد هي حقوق شخصية، أي: إن على الإنسان لنفسه حقوقاً يجب عليه تأديتها أو يحسن، حتى يجلب السعادة لنفسه، ويدفع عنها الآلام والمتاعب والشقاء، وهذه الحقوق الشخصية هي حقوق لله على عبده الذي وهبه الوجود والحياة والإرادة والعقل وسائر الخصائص الإنسانية، فهي في الأصل ملك لله، وذوات السلطة في داخل الإنسان مولّاة بالتولية الربانية على مملكة ذاته. ومصالح الجماعة هي حقوق جماعية منحها الله في أصل الخلق للجماعة، وعلى الأفراد أن يرعوها حق رعايتها ولا يفرطوا فيها، وذلك ضمن خطة توفيقية عادلة بينها وبين سائر الحقوق، حتى لا يطغى بعض هذه الحقوق على بعض، وهذه الحقوق الجماعية هي أيضاً بالمعنى العام حقوق لله على عباده.

تقسيم أولي إجمالي:

فنستطيع بتقسيم أولي إجمالي أن نقسم أحكام الشريعة الإسلامية وتكاليفها إلى ثلاثة أقسام:

الأول: حقوق إلهية محضة.

الثاني: حقوق شخصية.

الثالث: حقوق جماعية.

ونمثل للحقوق الإلهية المحضة بما يجب علينا من الإيمان بالله، والخضوع لجلاله، وعبادته على ما يرضيه، وطاعته في أوامره ونواهيه.

ونمثل للحقوق الشخصية بحقوق التملك، وبحقوق التصرف ضمن حدود الخير، وبحقوق إدارة مملكة النفس وفق مصالحها العاجلة والآجلة،

وبالحقوق التي توجب على الإنسان أن يعمل لنفسه ما يكسب به السعادة الخالدة لها.

ونمثل للحقوق الجماعية بحقوق التعاون، وحقوق الدعوة والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحقوق العدل وإقامة السلطان الصالح العادل، وحقوق ضبط المعاملات، وحقوق إيجاد وسائل ضمان الأمن والاستقرار والنظام، ويدخل في الحقوق الجماعية حق الزكاة والصدقة، وحق الجهاد في سبيل الله.

تقسيم تفصيلي:

ونستطيع بشكل تفصيلي أن نقسم أحكام الشريعة الإسلامية وتكاليفها إلى ثمانية أقسام:

القسم الأول: أحكام اعتقادية، وهي ما كانت الغاية منها ابتلاء إرادة الإنسان في أمور علمية اعتقادية، يرافقها اعتراف وتسليم.

القسم الثاني: أحكام تعبدية، وهي ما كانت الغاية منها ابتلاء إرادة الإنسان في مجال العبادة المحضة.

القسم الثالث: أحكام المعاملات المالية، وهي ما كانت الغاية منها ابتلاء إرادة الإنسان في مجال المعاملات المالية.

القسم الرابع: أحكام العلاقات الاجتماعية، وهي ما كانت الغاية منها تنظيم العلاقات الاجتماعية، وابتلاء إرادة الإنسان في هذا المجال، كأحكام العلاقة بين أركان الأسرة وأحكام العلاقة بين الراعي والرعية، ونحو ذلك.

القسم الخامس: أحكام الأحوال الشخصية، وهي ما كانت الغاية منها تنظيم الأحوال الشخصية للإنسان، وابتلاء إرادته في هذا المجال، ويدخل في أحكام الأحوال الشخصية أحكام الزواج والطلاق ونحو ذلك، وأحكام الزنى ونحوه، وأحكام المطاعم والمشارب، وأشباه ذلك.

القسم السادس: أحكام تنظيم العقود، وهي ما كانت الغاية منها ضبط

العقود التي تجري بين الناس على اختلافها، ولهذه صفة التنظيمات الشكلية التي تضمن بها الحقوق.

القسم السابع: أحكام الأخلاق، وهي ما كانت الغاية منها ابتلاء إرادة الإنسان في مجال الأخلاق.

القسم الثامن: أحكام الآداب، وهي ما كانت الغاية منها تهذيب السلوك الإنساني في مجال الآداب الشخصية والاجتماعية، ودوافعها ذوقية جمالية.

وعلى الرغم من هذا التقسيم النظري، فإننا نلاحظ كثيراً من التداخل والتشابك فيما بين الأقسام، وهي كما سبق يمكن إدراجها جميعاً تحت عنوان العبادة.

* * *

ارتباط معظم أحكام الشريعة الإسلامية بالأخلاق:

أما الأخلاق فإن معظم أحكام هذه الأقسام يمكن إدراجها تحت عنوانها، ولو باعتبار من الاعتبارات، لأن دوافعها قد ترجع من قريب أو من بعيد إلى دوافع الأسس الأخلاقية.

١ ــ فلنأخذ قسم الأحكام الاعتقادية باحثين عن وجه ارتباطه بالأسس الأخلاقية.

إن العقائد الإسلامية هي في حقيقة ذاتها حقائق علمية، وهذه الحقائق العلمية منها ما هو متصل بوجود الخالق وبصفاته، ومنها ما هو متصل بالرسل والأنبياء الذين اصطفاهم الله بالوحي إليهم، ومنها ما هو متصل بالكتب الإلهية التي أنزلها الله ليبين فيها لعباده طريق سعادتهم ونجاتهم، ومنها ما هو متصل بحقائق من المغيبات أخبر الله عنها.

والإذعان للحقائق العلمية فضيلة خلقية يدفع إليها أحد الأسس الأخلاقية الجذرية، ألا وهو حب الحق وإيثاره، لا سيما إذا كانت الحقائق العلمية متصلة بصاحب حق فيها، وجحود الحقائق العلمية وإنكارها رذيلة خلقية يدفع إليها كراهية الحق، تحت تأثير دافع من دوافع النفس الجانحة المستكبرة.

فمن يتمتع بخلق حب الحق وإيثاره، فإن خلقه هذا يدفعه إلى الإذعان للحق، والاعتراف لصاحب الحق بحقه، ولذي الفضيلة والميزة بفضيلته وميزته. أما المحروم من هذا الخلق الكريم، الواقع تحت تأثير جنوح خلقي قبيح، كالاستكبار من غير حق والعجب بالنفس بالباطل، فإنه لا يذعن للحق، ولا يعترف لصاحب الحق بحقه، ولا لذي الفضيلة والميزة بفضيلته وميزته.

ومن هذا يتضح لنا أن العقائد الباطلة الشائعة عند كثير من الناس، خرافات تدفع الأسس الأخلاقية إلى نبذها وبيان بطلانها، خدمة للحق وإعلاء له، وتعريفاً بالباطل وإزهاقاً له.

٢ ــ ولنأخذ قسم الأحكام التعبدية باحثين عن وجه ارتباطه بالأسس الأخلاقية.

إن العبادة في الشريعة الإسلامية لا تكون إلا لله تبارك وتعالى، وموجب العبادة لله طاعة أمره، وشكره على نعمه بإعلان الخضوع له، والتقرب إليه، والتحبب إلى جلاله.

أما طاعة من تجب طاعته، فهي ظاهرة خلقية، يدفع إليها أساس أوليٌّ من الأسس الأخلاقية، وهو حب الحق وإيثاره؛ لأن من تجب طاعته فحقه أن يطاع، ومن يتمتع بخلق حب الحق وإيثاره فإن خلقه هذا يدفعه إلى تأدية هذا الحق لمستحقه، فهو إذن يؤدي حق الطاعة لمستحقها، فيعبد الله تبارك وتعالى حسب أمره، وعلى ما يرضيه.

وأما شكر المنعم على نعمه، فهو أيضاً ظاهرة خلقية يدفع إليها حب الحق وإيثاره، لأن المنعم من حقه أن يشكر، ومن يتمتع بخلق حب الحق فلا بد أن يدفعه خلقه هذا إلى شكر من أنعم عليه.

فالذين يستنكفون عن عبادة الله تعالى محرومون من فضيلة خلقية عظيمة، ولذلك نبه القرآن على أن الاستنكاف عن عبادة الله تعالى استكبار موجب للعذاب الأليم، فقال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾.

ومن أجل ذلك وصف الله الملائكة بأنهم لا يستكبرون عن عبادته، فقال تبارك وتعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾.

٣ ـ ولنأخذ قسم أحكام المعاملات المالية، باحثين عن وجه ارتباطه بالأسس الأخلاقية.

إن المعاملات المالية قائمة على أساس الحق والعدل، ومعلوم أن حب الحق أحد الأسس الأخلاقية العامة، فمن كان يتمتع بخلق حب الحق فإنه لا بد أن يجد نفسه مدفوعاً بعامل خلقي للالتزام بأحكام المعاملات المالية التي جاء بها الإسلام، لأنها قائمة على الحق والعدل، والعدل يرجع في حقيقته إلى مبدأ الحق، فأحكام المعاملات المالية التي تفرضها تنظيمات الشريعة الإسلامية تستوجب الالتزام بها أسس الأخلاق العامة.

لا سيما إذا لاحظنا أن في تجاوز حدودهما ظلماً لحقوق الآخرين، والظلم انحراف خلقي أساسه كراهية الحق عند معارضته هوىً من أهواء النفس.

٤ ـ ولنأخذ قسم أحكام العلاقات الاجتماعية، باحثين عن وجه ارتباطه بالأسس الأخلاقية.

إن الأصل في المعاملات الاجتماعية أن تكون ذات ارتباط وثيق بأسس الأخلاق.

فإذا أخذنا من المعاملات الاجتماعية أحكام نظام الأسرة وحقوق أفرادها، وواجباتهم، فإننا نلاحظ أنها قائمة على مبدأ التعاون بين أفرادها، وتوزيع المسؤوليات وفق مصالح الجماعة التي تتوزع بالتالي على الأفراد، كلٌّ بحسب استحقاقه، وبحسب وظيفته الطبيعية. والتعاون مبدأ أخلاقي يدفع إليه الشعور بالحب تجاه الآخرين وكذلك الدافع الجماعي الذي يخفف من غلواء الأنانية الشخصية، وكلا الأمرين من الأسس الأخلاقية العامة.

ويضاف إلى ذلك أن قيام كل فرد بمسؤولياته وواجباته تجاه الجماعة، أو تجاه أي فرد من أفرادها، يدفع إليه حب الحق وإيثاره، ويدفع إليه حب العطاء، ومعلوم أن النظم الجماعية قائمة على تبادل الحقوق من جهة، وعلى الإحسان والتسامح من جهة أخرى، وهذه يدفع إليها حب الحق وإيثاره، وحب العطاء، والشعور بالمحبة تجاه الآخرين، وسماحة النفس، والدافع الجماعي الذي يعتبر التعاون ظاهرة من ظواهره، وهذه جميعها من الأسس الأخلاقية العامة.

ونظير أحكام نظام الأسرة أحكام النظام الجماعي العام الذي يوزع مسؤوليات الأعمال الجماعية بين الرعاة والرعية، ويحدد حقوق الأفراد وواجباتهم، فهي أيضاً ترجع إلى الأسس الأخلاقية التي ترجع إليها أحكام نظام الأسرة.

٥ ـ ولنأخذ قسم أحكام الأحوال الشخصية، باحثين عن وجه ارتباطه بأسس الأخلاق.

إن أحكام الأحوال الشخصية هي التي تنظم أحوال الزواج والطلاق والنفقة والميراث وما إلى ذلك.

ونستطيع أن ندخل تحت عنوانها أيضاً أنواع السلوك الشخصي البحت، كأحكام المطاعم والمشارب والألبسة ونحوها.

هذه الأحوال ترجع إلى فئات: فمنها تنظيمات اجتماعية، ودوافعها

الأخلاقية ما سبق ذكره في شأن نظام الأسرة. ومنها تنظيمات لضبط الحقوق المادية، وهذه يدفع إليها من الأسس الأخلاقية العامة حب الحق وإيثاره. ومنها أمور تعبدية بحتة، وهذه شأنها كشأن سائر العبادات، لا تعدو أنها من قبيل تأدية حق الله على عباده، ويدفع إليها حب الحق. ومنها ما يرجع إلى حق الإنسان على نفسه في أن يعمل ما يسعدها، ويتجنب ما يؤذيها ويضرها، إن عاجلًا أو آجلًا. ومنها ما يرجع إلى حق الجماعة على الفرد في أن لا يعمل ما يسبب أذىً أو ضرراً للجماعة أو لأي فرد من أفرادها، وهذه كلها ذات دوافع أخلاقية ظاهرة.

٦ ــ ولنأخذ قسم أحكام تنظيم العقود، باحثين عن وجه ارتباطه بأسس الأخلاق.

إن أحكام هذا القسم هدفها خدمة الغايات التي تقوم من أجلها المعاملات التي تُضبط بالعقود، وما دامت أحكام هذه المعاملات ذات دوافع أخلاقية بالإضافة إلى كونها تنظيمات شرعية وتعاليم ربانية، فإن كل تنظيم شكلي من شأنه أن يخدم غايتها لا بد أن نجده مرتبطاً عن طريق التسلسل بالأسس الأخلاقية، وإن كانت الشكليات من حيث ذاتها ضعيفة الارتباط بالأسس الأخلاقية.

والأصل في تنظيم شكليات العقود والمعاملات أنه يهدف إلى ضمان الحقوق لأهلها، وعدم تسرّب الظلم والجور إليها، وذلك على قدر الإمكان الذي لا حرج فيه على الناس، ثم تأتي بعد ذلك محاسبة كل إنسان نفسه، ضمن أسس الأخلاق العامة، وضمن تعاليم الشريعة التي يعاقب مخالفها بالعقوبات الإلهية، ويثاب الملتزم بها بالأجر العظيم عند الله.

٧ ــ ولنأخذ قسم أحكام الآداب، باحثين عن وجه ارتباطه بأسس الأخلاق.

إن الآداب الإسلامية بالإضافة إلى كونها لوناً من ألوان الحكمة في السلوك الشخصي، الذي يمتع الإنسان بما فيه من جمال وذوق رفيع، فيها احترام وتقدير

للآخرين وحسن تعامل معهم، وفيها ابتعاد عن كل ما يجرح مشاعرهم التي تألف الجمال وتميل إليه، وتنفر من القبح وتتأذى منه.

ومعلوم أن الإسلام يدعو إلى التجمل للناس والإحسان إلى مشاعرهم التي يمتعها الذوق الرفيع، وينهى عن كل القبائح التي ينفرون ويتقززون منها، بشرط أن لا يكون في التجمل الزائد مضرة اجتماعية أو دينية، كالتجمل المثير للغرائز والشهوات في الأحوال التي تكون تلبيتها عملاً محرماً.

وحين نبحث عن الأساس الخلقي، الذي يدفع الإنسان إلى التجمل للناس، والتعامل معهم بالآداب المحبَّبَة إلى نفوسهم، نستطيع أن نشير إلى حب العطاء بوصفه أحد الأسس الأخلاقية العامة، فمن يحب العطاء يُحسن إلى الناس بآدابه، فيتجمل لهم، ويتأدب معهم بالآداب الرفيعة. ونستطيع أيضاً أن نشير إلى خلق الشعور بالمحبة للآخرين، فالشعور بالمحبة يدفع إلى تقديم ما يسر المحبوب والابتعاد عما يؤذيه. ونستطيع أن نشير أيضاً إلى خلق علو الهمة، إذ يدفع هذا الأساس الخلقي إلى الكمال. ونستطيع أن نشير أيضاً إلى حب الحق، لأن من حق الجماعة على الفرد أن لا يؤذيهم بأية قباحة من القباحات المؤذية، سواء أكان ذلك في السلوك، أو في المنظر، أو في الرائحة الكريهة، أو في الكلمة النابية أو في الصوت المزعج، أو في العمل المنفر، أو في القذارة المؤذية للنفوس. والعدوان على هذا الحق ظلم لا يفعله من خلقه حب الحق وإيثاره.

ـ ٣ ـ
ضرورة مكارم الأخلاق للمجتمعات الإنسانية

إن أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية لا يستطيع أفراده أن يعيشوا متفاهمين متعاونين سعداء ما لم تربط بينهم روابط متينة من الأخلاق الكريمة.

ولو فرضنا احتمالاً أنه قام مجتمع من المجتمعات على أساس تبادل المنافع المادية فقط، من غير أن يكون وراء ذلك غرض أسمى فإنه لا بد لسلامة هذا المجتمع من خُلُقَيْ الثقة والأمانة على أقل التقادير.

فمكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية، لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات، ومتى فقدت الأخلاق التي هي الوسيط الذي لا بد منه لانسجام الإنسان مع أخيه الإنسان، تفكك أفراد المجتمع، وتصارعوا، وتناهبوا مصالحهم، ثم أدى بهم ذلك إلى الانهيار، ثم إلى الدمار.

من الممكن أن تتخيل مجتمعاً من المجتمعات انعدمت فيه مكارم الأخلاق كيف يكون هذا المجتمع؟.

كيف تكون الثقة بالعلوم والمعارف والأخبار وضمان الحقوق لولا فضيلة الصدق؟!.

كيف يكون التعايش بين الناس في أمن واستقرار، وكيف يكون التعاون بينهم في العمل ضمن بيئة مشتركة، لولا فضيلة الأمانة؟.

كيف تكون أمة قادرة على إنشاء حضارة مثلى لولا فضائل التآخي والتعاون والمحبة والإيثار؟

كيف تكون جماعة مؤهلة لبناء مجدٍ عظيم لولا فضيلة الشجاعة في رد عدوان المعتدين وظلم الظالمين، ولولا فضائل العدل والرحمة والإحسان والدفع بالتي هي أحسن؟

كيف يكون إنسان مؤهلاً لارتقاء مراتب الكمال الإنساني إذا كانت أنانيته مسيطرة عليه، صارفة له عن كل عطاء وتضحية وإيثار؟

لقد دلت التجربات الإنسانية، والأحداث التاريخية، أن ارتقاء القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لارتقائها في سلم الأخلاق الفاضلة، ومتناسب معه، وأن انهيار القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لانهيار أخلاقها، ومتناسب معه، فبين القوى المعنوية والأخلاق تناسب طردي دائماً، صاعدين وهابطين.

وذلك لأن الأخلاق الفاضلة في أفراد الأمم والشعوب تمثل المعاقد الثابتة التي تعقد بها الروابط الاجتماعية، ومتى انعدمت هذه المعاقد أو انكسرت في

الأفراد لم تجد الروابط الاجتماعية مكاناً تنعقد عليه، ومتى فُقدت الروابط الاجتماعية صارت الملايين في الأمة المنحلة عن بعضها مزودة بقوة الأفراد فقط، لا بقوة الجماعة، بل ربما كانت القوى المبعثرة فيها بأساً فيما بينها، مضافاً إلى قوة عدوها.

وإذا كانت الأخلاق في أفراد الأمم تمثل معاقد الترابط فيما بينهم فإن النظم الإسلامية الاجتماعية تمثل الأربطة التي تشد المعاقد إلى المعاقد، فتكون الكتلة البشرية المتماسكة القوية، التي لا تهون ولا تستخذي.

وإذا أردنا أن نُوضِّح بالأمثلة حقيقة كون الأخلاق تمثل المعاقد التي تعقد بها الروابط الاجتماعية تواردت علينا أمثلة كثيرة جداً.

١ ـ فلنأخذ فضيلة الصدق مثلاً من أمثلة مكارم الأخلاق:

إن الصدق بوصفه خلقاً ثابتاً في الفرد المسلم معقد من معاقد الروابط الاجتماعية، تنعقد عليه ثقة المجتمع بما يُحدّث به ويخبر عنه في مجال التاريخ والأخبار، وفي مجال العلوم المختلفة، وفي مجال المعاملات المادية والأدبية، وفي مجال العهود والوعود والمواثيق، وغير ذلك من مجالات.

ونستطيع أن نبني على هذه المقدمة أنه متى انهارت في الفرد فضيلة الصدق انقطعت ما بينه وبين مجتمعه رابطة عظمى، وغدا الناس لا يصدقونه فيما يقول، ولا يثقون به فيما يحدّث به أو فيما يَعد، فلا يكلون إليه أمراً، ولا يعقدون بينهم وبينه عهداً، ولا يواسونه إذا اشتكى لهم من شدة، لأنهم يُرجِّحون في كل ذلك كذبه، بعد أن أمست رذيلة الكذب هي الخلق الذي خبروه فيه، ويحدث معه ما حدث مع كذّاب القرية.

يحكى أن رجلاً معروفاً بالمزاح، قام من الليل ظامئاً، فلم يجد ماء يشربه، فصعد إلى سطح داره ونادى أهل القرية قائلاً: حريقٌ أيها القوم، أسعفوني بماء، فتسارع أهل القرية لنجدته، ومعهم الأواني المملوءة ماءً، فلما وصلوا إليه قالوا: أين النار؟ فقال لهم ضاحكاً: نار الظمأ قد أحرقت بطني، ولم أجد ماءً أشربه في داري فناديتكم، فمنهم من ضحك لمزاحه، ومنهم من لامه، ثم انصرفوا عنه.

ثم كرَّر هذا العمل مرة أخرى، فأسرع بعض القوم لنجدته وتخلف آخرون، وانصرف جميع القوم عنه في المرة الثانية لائمين.

لكنه بعد حين شبت النار فعلاً في داره، فنادى القوم لنجدته، إلا أنه لم يستجب لندائه أحد، ووقعت به كارثة الحريق، وذلك لأنه قطع بينه وبين مجتمعه رابطة الثقة به، إذ كسر معقد خلق الصدق عنده.

٢ ــ ولنأخذ فضيلة الأمانة مثلاً من أمثلة مكارم الأخلاق:

إن الأمانة بوصفها خلقاً ثابتاً في الفرد المسلم معقد آخر من معاقد الروابط الاجتماعية، تنعقد عليه ثقة الناس بما يضعون بين يديه من مالٍ أو سلطان، وبما يمنحونه من وجاهة وتقديم، وبما يكلون إليه من أمور عامةٍ أو خاصة.

ونستطيع أن نبني على هذه المقدمة، أنه متى انهارت في الإنسان فضيلة الأمانة انقطعت ما بينه وبين مجتمعه رابطة من الروابط الاجتماعية، وغدا الناس لا يأمنونه على أي شيء ذي قيمة معتبرة لديهم، خاصاً كان ذلك أو عاماً، لأنهم يقدرون أنه سوف يسطو عليه لنفسه، بعد أن أمست رذيلة الخيانة هي الخلق الذي خبروه فيه.

٣ ــ ولنأخذ فضيلة العفة مثلاً من أمثلة مكارم الأخلاق:

إن العفة بوصفها خلقاً ثابتاً في الفرد المسلم معقد من معاقد الروابط الاجتماعية، تنعقد عليه ثقة الناس به في أعراضهم، وبهذه الثقة تأمنه الأسرة على عرضها إذا غابت، ويأمنه الجار على عرضه إذا ترك منزله، وتأمنه الزوجة إذا خرج إلى عمله أن لا يختان نفسه، والمرأة العفيفة كذلك تكون موضعاً للثقة بها عند الغيبة عنها.

ومتى انهارت في الإنسان فضيلة العفة لم يأمنه الناس على أعراضهم، ولم يأمنوه على بلادهم ومصالحهم العامة، لأنهم يقدرون أن أعداءهم سوف يسهل عليهم صيده من مغمز عفته المنهارة، ثم تسخيره في خدمة أغراضهم، وبذلك تنقطع ما بينه وبين مجتمعه رابطة من الروابط الاجتماعية.

وهكذا نستطيع أن نقيس على هذه الأمثلة سائر مكارم الأخلاق، كالعدل، والجود، والوفاء بالعهد والوعد، والإحسان، والعطف على الناس، وغير ذلك من فضائل الأخلاق.

وانهيار كل خلق من مكارم الأخلاق يقابله دائماً انقطاع رابطة من الروابط الاجتماعية، وبانهيارها جميعاً تنهار جميع المعاقد الخلقية في الأفراد، وبذلك تنقطع جميع الروابط الاجتماعية، ويمسي المجتمع مفككاً منحلاً.

* * *

موقف أعداء المسلمين من الأخلاق الإسلامية:

وقد أدرك أعداء المسلمين هذه الحقائق عن مكارم الأخلاق، فعملوا على إفساد أخلاق المسلمين بكل ما أوتوا من مكر ودهاء، وبكل ما أوتوا من وسائل مادية وشياطين إغواء، ليبعثروا قواهم المتماسكة بالأخلاق الإسلامية العظيمة، وليفتتوا وحدتهم التي كانت مثل الجبل الراسخ الصلب قوة، ومثل الجنة الوارفة المثمرة خضرة وبهاءً وثمراً وماءً.

إن أعداء المسلمين قد عرفوا أن الأخلاق الإسلامية في أفراد المسلمين تمثل معاقد القوة، فجندوا لغزو هذه المعاقد وكسرها جيوش الفساد والفتنة.

ولقد كان غزوهم للأخلاق الإسلامية من عدة جبهات:

١ ـ لقد عرفوا أنّ النبع الأساسي الذي يزود الإنسان المسلم بالأخلاق الإسلامية العظيمة، إنما هو الإيمان بالله واليوم الآخر، فصمموا على أن يكسروا مجاري هذا النبع العظيم، ويسدوا عيونه، ويقطعوا شرايينه.

٢ ـ وعرفوا أن تفهُّم مصادر الشريعة الإسلامية تفهماً سليماً هو الذي يمد نبع الإيمان بما يتطلبه من معارف، فمكروا بالعلوم الإسلامية، وبالدراسات المتعلقة بها مكراً بالغاً، وذلك ما بين حجب لها تارة، وتلاعب بمفاهيمها أخرى، وتشويه لها أو جحود ومضايقة لروادها ومبلغيها، كل ذلك في حرب مستمرة لا تعرف كللاً ولا مللاً.

٣ ــ وعرفوا قيمة الإفساد العملي التطبيقي، فوجهوا جنودهم لغمس أبناء المسلمين في بيئات مشحونة بالانحلال الخلقي، بغية إصابتهم بالرذائل الخلقية عن طريق العدوى، وسراية الفساد بقوة تأثير البيئة، واستمراء الشهوات المرتبطة برذائل الأخلاق.

٤ ــ وعرفوا قيمة إفساد المفاهيم والأفكار، فجندوا جيوش المضللين الفكريين، الذين يحملون إلى أبناء المسلمين الأفكار والمفاهيم والفلسفات الباطلة، ضمن واردات المعارف المادية الصحيحة، ذات المنجزات الحضارية المدهشة، وعن طريق هذا الغزو الفكري الخطير يدخلون السم في الدسم.

من أقوال أعداء الإسلام والمسلمين[١]:

١ ــ جاء في خطاب الدكتور (صموئيل زويمر) رئيس إرسالية التبشير في البحرين منذ أوائل القرن العشرين الميلادي، الذي خطبه في مؤتمر القدس التبشيري، الذي انعقد برئاسته سنة (١٩٣٥م) ما يلي:

« . . . ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام، ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي فلا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية، وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام، وهذا ما أهنئكم عليه وتهنئكم دول المسيحية والمسيحيون جميعاً كل التهنئة. . . »!!.

٢ ــ وجاء في نشرة المشرق الأعظم الماسوني الفرنسي لسنة (١٩٢٣) ما يلي:

« . . . وبغية التفريق بين الفرد وأسرته عليكم أن تنتزعوا الأخلاق من أسسها، لأن النفوس تميل إلى قطع روابط الأسرة والاقتراب من الأمور المحرمة، لأنها تفضل الثرثرة في المقاهي على القيام بتبعات الأسرة. . . ».

---

(١) انظر كتاب «أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها» وكتاب «مكايد يهودية عبر التاريخ» للمؤلف.

٣ ــ وجاء في البروتوكول الثاني من المقررات اليهودية السرية ما يلي:

«. . . إن الطبقات المتعلمة ستختال زهواً أمام أنفسها بعلمها، وستأخذ جزافاً في مزاولة المعرفة التي حصلتها من العلم الذي قدمه إليها وكلاؤنا، رغبة في تربية عقولهم حسب الاتجاه الذي توخيناه.

لا تتصوروا أن كلماتنا جوفاء، ولاحظوا هنا أن نجاح (دارون) و(ماركس) و(نيتشه) والأثر غير الأخلاقي لاتجاه هذه العلوم في الفكر الأممي ــ أي عند غير اليهود ــ سيكون واضحاً لنا على التأكيد»!!.

٤ ــ وجاء في البيان الشيوعي الذي أصدره معلم الشيوعية الأول اليهودي (كارل ماركس) ورفيقه (انجلز) ما يلي:

«إن القوانين والقواعد الأخلاقية والأديان أوهام بورجوازية تستتر خلفها مصالح بورجوازية»!!.

ــ ٤ ــ
عناية الإسلام بتزكية النفس وتهذيبها وحرصه على تقويم الأخلاق

لما كان الأصل في السلوك الظاهر أن يكون مظهراً تعبيرياً لأحوال النفس وحركاتها، ولما كان السلوك الظاهر عرضة لدوافع النفاق والرياء أو مؤثرات العادة التي لا تعبر عن صدق في الاتجاه القلبي والنفسي.

لما كان كل ذلك كانت عناية الإسلام موجهة بالدرجة الأولى لتزكية النفس وتهذيبها، والمراد من تزكية النفس تطهيرها من نزغات الشر والإثم، وإزالة حظ الشيطان منها، وتنمية فطرة الخير فيها، ومتى حصلت في النفس هذه التزكية غدت صالحة لغرس فضائل الأخلاق فيها، وتهذيب طباعها تهذيباً مصلحاً ومقوماً وكابحاً وموجهاً، وبتهذيب طباع النفس يتهيأ المناخ النفسي الصالح لتفجر منابع الخير.

وطبيعي أنه متى تزكت النفس وتهذبت طباعها استقام السلوك الداخلي والخارجي لا محالة.

بخلاف توجيه العناية إلى تقويم السلوك الظاهر فقط، فإنه بناء على غير أساس، وكل بناء على غير أساس عرضة للانهيار، يضاف إلى ذلك أن السلوك الظاهر قد لا يكون معبراً تعبيراً صادقاً عن أحوال النفس الداخلية.

ولذلك كان نظر الله تبارك وتعالى في مراقبته لأعمال عباده موجهاً لما في قلوبهم ونفوسهم.

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم».

ولذلك كانت قيمة الأعمال في تقرير الجزاء عند الله على قدر قيمة نيات العاملين لها؛ ففي الحديث الصحيح المشهور: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى».

وأشار الرسول صلوات الله عليه إلى أن القلب هو مكان التقوى.

وأبان القرآن أن من زكى نفسه فقد أفلح، وأن من دسّى نفسه ـ أي غمسها في أدناس الكفر والمعصية ـ فقد خاب، فربط الفلاح بتزكية النفس بالإيمان والتقوى، وربط الخيبة بتدنيس النفس بالكفر والعصيان، قال الله تعالى في سورة (الشمس ٩١):

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾.

وإذ أبان الله أنه قد ألهم كل نفس معرفة طريق فجورها وطريق تقواها؛ علمنا أن تزكية النفس إنما تكون بالتقوى، وأن غمسها في الأدناس إنما يكون بالفجور.

وقال تبارك وتعالى في سورة (الأعلى ٨٧):

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥) ﴾.

وحينما يكون العمل تعبيراً صادقاً عما في النفس يكون ممارسة صادقة من ممارسات تزكية النفس، قال الله تعالى في سورة (الليل ٩٢):

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١) ﴾.

فهذا يؤتي ماله مخلصاً، جاهداً في تزكية نفسه وتطهيرها من حظ الشيطان.

وقد يكون صدق العمل في بعض الطاعات سبباً في تزكية النفس وتطهيرها من ممارسات أخرى فيها دنس، ولذلك جعل الله من وسائل مداواة الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً واعترفوا بذنوبهم، أخذ قسط من أموالهم على سبيل الصدقة لتطهيرهم وتزكيتهم، قال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) ﴾.

وللتربية أثر عظيم في تزكية النفس، ولذلك كانت من مهمات الرسول التربوية تزكية نفوس أصحابه، قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾.

ـ ٥ ـ
تمجيد الإسلام الخلق الحسن وحثه عليه

ولما كانت ثمرات الخلق القويم للسلوك الديني وللسلوك الشخصي عظيمة جداً، وكانت لدى المقارنة أجل من الثمرات التي تحققها المبالغة في أداء كثير من العبادات المحضة.

ولما كانت سلامة النفس من المساوىء الخلقية أهم من سلامة السلوك الظاهر من طائفة من المعاصي والذنوب الظاهرة، وكان ما يتحقق بحسن الخلق من رضوان الله تعالى أكثر مما يتحقق بالاستكثار من نوافل العبادات المحضة، كالصلاة والصيام والأذكار اللسانية.

لما كان كل ذلك وجدنا النصوص الإسلامية توجه الاهتمام العظيم والعناية الكبرى لقيمة حسن الخلق في الإسلام، وتذكر الخلق الحسن بتمجيد كبير، فمنها النصوص التالية:

أولاً: روى الترمذي بإسناد صحيح عن أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم».

وفي حديث عمرو بن عبسة أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الإيمان أفضل؟ قال: «حسن الخلق» رواه أحمد.

فربط الرسول صلى الله عليه وسلم الارتقاء في مراتب الكمال الإيماني بالارتقاء في درجات حسن الخلق، وذلك لأن السلوك الأخلاقي النابع من المنابع الأساسية للخلق النفسي في الإنسان، موصول هو والإيمان وظواهره وآثاره في السلوك ببواعث نفسية واحدة.

فصدق العبادة لله تعالى عملٌ أخلاقيٌّ كريم، لأنه وفاء بحق الله على عبيده.

وحسن المعاملة مع الناس وفاءٌ بحقوق الناس المادية والأدبية، فهي بهذا الاعتبار من الأعمال الأخلاقية الكريمة.

فإذا تعمقنا أكثر من ذلك فكشفنا أن الإيمان إذعان للحق واعتراف به، رأينا أن الإيمان أيضاً هو عملٌ أخلاقي كريم، بخلاف الكفر بالحق فهو دناءة خلقية.

فإذا ضممنا هذه المفاهيم إلى المفهوم الإسلامي العام، الذي يوضح لنا أن كل أنواع السلوك الإنساني الفاضل فروع من فروع الإسلام، والإسلام التطبيقي آثار للإيمان وثمرات عملية له.

إذا جمعنا كل هذه المفاهيم وجدنا أن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم.

فأحسن الناس خُلقاً لا بد أن يكون أصدقهم إيماناً وأخلصهم نية، وأكثرهم التزاماً بما يجب على العباد نحو ربهم من عبادة وحسن توجه له وصلةٍ به، وأكثرهم التزاماً بحقوق الناس المادية والأدبية.

ومن المستبعد جداً أن يكون الإنسان ذا خلق كريم مع الناس، محباً للحق، معطاءً، متواضعاً، صبوراً عليهم، رحيماً بهم، ودوداً لهم، متسامح النفس معهم، ثم لا يكون ذا خلق كريم مع ربه، فلا يؤمن بحق ربوبيته وألوهيته، ولا يذعن له بذلك، ولا يؤدي واجب العبادة له.

كما أنه ليس من المعقول أن يكون ذا خلق كريم مع الناس، وهو يأكل

حقوقهم ويعتدي عليهم، ويتجاوز حدود الواجب الأدبي الذي توصي به الآداب الاجتماعية الإسلامية، فهذا منافٍ لما توجبه فضائل الأخلاق، لو كان حقاً ذا خلق كريم.

فالأسس الأخلاقية والأسس الإيمانية ذات أصولٍ نفسية واحدة، وإن كانت بعض التطبيقات العملية التي يطالب بها الإسلام المستند إلى الإيمان قد لا تستدعيها الأسس الأخلاقية وحدها منفصلة عن الإيمان، فلا يظهر بذلك ارتباطها بها، فهي أحكام شرعية، يقتضي الإيمان العمل بها، نظراً إلى أنها أوامر ربانية، والأوامر الربانية توجب الأسس الأخلاقية طاعتها، بوصف كونها طاعةً لمن تجب طاعته، لا بوصف كون المطلوب بها ظاهرة لأساس خلقي. فحينما يأمرنا الله تعالى بعبادة خاصة على وجه مخصوص كصلاة ركعات معينة محددة بصفات خاصة وشروط خاصة، فليس من اللازم أن تكون هذه الصلاة بصفاتها الخاصة ظاهرة من ظواهر السلوك الأخلاقي، وذات صلة مباشرة بالأسس الأخلاقية العامة، إذ لله تعالى أن يختار لعبادته أي عمل من الأعمال، وعلى أي شكل من الأشكال، سواءً أكان ذلك مما يتصل بالأسس الأخلاقية العامة أو لا يتصل بها. ومع ذلك نقول: إن الفضيلة الخلقية توجب القيام بهذه الطاعة من جهة أن الله أمر بها، إذ الفضيلة الخلقية توجب طاعة الله لأنه الخالق المنعم المالك.

ونظير هذا نقول في طاعة الوالدين وبرهما، وفي طاعة أولي الأمر من المسلمين المؤمنين، وهكذا.

أما قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث: «وخياركم خياركم لنسائهم» فيكشف الرسول صلى الله عليه وسلم فيه أدق الموازين والكواشف التي تكشف عن حقيقة خلق الإنسان، فأحسن الناس خُلقاً في معاملة ومعاشرة النساء هم أحسنهم خلقاً، فهم بسبب ذلك خيارهم، لأن خير الناس هم أحسنهم خلقاً.

ومن المعروف أن الإنسان قادر على أن يتصنع التظاهر بمكارم الأخلاق

وفضائل السلوك إلى فترة معينة، ومع بعض الناس، أما أن يتصنع ذلك في كل الأوقات ومع كل الناس فذلك من غير الممكن ما لم يكن فعلاً ذا خلق كريم.

والمحك الذي يمتحن فيه الإنسان امتحاناً صحيحاً ودقيقاً لمعرفة حقيقة خلقه الثابت، هو المجتمع الذي يكون له عليه سلطة ما، وله معه معاشرة دائمة، ومعاملة مادية وأدبية.

فإرادة التصنع تضعف حينما يشعر الإنسان بأن له سلطة ونفوذاً، ثم تشتد ضعفاً حينما تطول معاشرته لمن له عليه سلطة، ثم تتلاشى هذه الإرادة حينما تتدخل المعاملة المادية والأدبية، فإذا ظل الإنسان محافظاً على كماله الخلقي في مجتمع له عليه سلطة، وله معه معاشرة دائمة، ومعاملة مادية وأدبية، فذلك هو من خيار الناس أخلاقاً.

وأبرز أمثلة هذا المجتمع الذي تتوافر فيه هذه الشروط هو مجتمع أسرة الإنسان، وما له من سلطان فيه على نسائه، وهن الضعيفات بالنسبة إليه. يضاف إلى ذلك أن النساء قد تبدو منهن تصرفات أو مطالب تخرج الحليم عن حلمه، والرصين عن رصانته، والسمح عن سماحته، والصدوق عن التزام الصدق، فإذا ثبت الإنسان على خلقه الفاضل رغم وطأة محرجاتهنّ التي يتبعن فيها أهواءهن، فإنه من خيار الناس خلقاً.

وكم يظهر الإنسان أنه حسن الخلق، فإذا سافرت معه أو عاملته بالدرهم والدينار انكشف عن صاحب خلق سيء.

ثانياً: وروى الترمذي بإسناد صحيح عن أبي الدرداء، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذيء».

أي يبغض الذي يفعل الفحش ويقول الفحش، ويتكلم ببذيء الكلام، وهو رديئه وقبيحه، الذي يتحدث عن العوارت والرذائل وما ينبغي من الأشياء والأعمال ستره.

وفي هذا الحديث يقرر الرسول صلى الله عليه وسلم أن أثقل الفضائل في ميزان المؤمن يوم القيامة الخلق الحسن.

وقد يُشكل هذا على بعض الناس فيقول: إن الإيمان بالله وحسن الصلة به أفضل الأعمال، وكذلك توحيد الله والإخلاص له في العبادة، وإذا كانت هذه أفضل الأعمال فهي أثقل شيء في ميزان المؤمن يوم القيامة؛ فكيف يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق»؟!

ولكن هذا الإشكال لا يلبث أن ينحل إذا عرفنا أن الإيمان وعبادة الله مما توجبه الأسس الأخلاقية، ومن أولى الواجبات التي تفرضها مكارم الأخلاق. وأن الكفر بالله ورفض عبادته وطاعته من أقبح رذائل الأخلاق ـ كما سبق بيانه في شرح الحديث السابق ـ لأنه إنكار للحق من عدة وجوه: فهو إنكار لربوبية الله ـ مع أن كون الله رب كل شيء وخالق كل شيء، حقيقة تفرض نفسها على كل منصف محب للحق ـ وهو جحود لألوهية الله واستكبار عن عبادته، وهو تمرد على حق الله تجاه عباده في أن يعبدوه ويطيعوه، مع أنه المنعم عليهم بالنعم الكثيرة التي لا يحصونها، وظاهر أن جحود النعمة وعدم القيام بواجب الشكر عليها من أقبح رذائل الأخلاق.

فالإيمان الذي هو أثقل الفضائل عند الله تعالى هو مظهر من مظاهر الكمال الخلقي في الإنسان، وإذا تتبعنا الأعمال وجدنا العبادات أيضاً من مظاهر الكمال الخلقي في الإنسان.

وعندئذ يتضح لنا بجلاء أن أثقل شيء في ميزان المؤمن يوم القيامة حسن خلقه، لأن صدق إيمانه وسلامة يقينه وإخلاص نيته، كل ذلك من ثمرات فضائله الخلقية.

ولما كان الفحش والبذاءة من مظاهر الرذائل الخلقية النفسية كان الفاحش البذيء من الذين يبغضهم الله عز وجل.

ثالثاً: وروى الترمذي بإسناد صحيح عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال:

«تقوى الله وحسن الخلق».

وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال:

«الفم والفرج».

فتقوى الله وحسن الخلق من أحب الأعمال إلى الله، فهما أكثر ما يدخل الناس الجنة.

وفي كون الفم والفرج أكثر ما يدخل الناس النار إشارة إلى عناصر متصلة بسوء الخلق، إذ جعلها الرسول صلى الله عليه وسلم في مقابل التقوى وحسن الخلق.

والمراد من الفم والفرج ما يعمل الإنسان بهما من أعمال محرمة، فالفم يصدر عنه الكفر بالله، والكذب، وشهادة الزور، والغيبة، والنميمة، والطعن، والتعيير، والتنقيص، واللمز، والتنابز بالألقاب، والدعوة إلى الباطل، ونشر الباطل، والحكم بغير الحق، وغير ذلك من أمور كثيرة، تنافي التقوى وتنافي مكارم الأخلاق. والفرج يصدر عنه أعمال محرمة أخرى تنافي التقوى وتنافي مكارم الأخلاق.

رابعاً: وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحشاً، وكان يقول:

«إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً».

وروى الترمذي بإسناد حسن عن جابر بن عبدالله، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون».

قالوا: يا رسول الله قد علمنا «الثرثارون والمتشدقون» فما المتفيقهون؟ قال: «المتكبرون».

الثرثارون: هم الذين يكثرون الكلام ويتكلفونه.

المشتدقون: هم الذين يتكلمون بملء أفواههم، ويتصنعون القول تصنعاً مع التعاظم به والتعالي به على الناس.

خامساً: وروى أبو داود عن عائشة قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم».

ويظهر أن السبب في هذا أن من يلتزم التقيد بالأخلاق الحسنة ابتغاء مرضاة الله، لا بد أن يتعرض في حياته الاجتماعية إلى ما يستدعي منه أخلاقاً حسنة في معظم أوقاته، وهذا يجعله في حالة عبادة دائمة، يغالب فيها نفسه بالصبر وتحمل مشقة مخالفة الهوى، لذلك فهو يدرك بحسن خلقه درجة الصائم الذي لا يفطر، ودرجة القائم الذي لا يفتر.

يضاف إلى هذا أن حسن الخلق عبادة ذات آثارٍ اجتماعية تنفع خلق الله، وتوحد كلمتهم، وتبعد عنهم عوامل الفرقة والخلاف، أما الصيام والقيام فهما عبادتان قد لا تنتج عنهما بشكل مباشر آثار اجتماعية تنفع عباد الله، وقد يكون أمرهما قاصراً على فاعلهما، وصلة خاصة يتوجه بها الإنسان إلى ربه، ولا يخفى أن عبادة لله ذات أثرين أعلى من عبادةٍ ذات أثر واحد.

على أن حسن الخلق لا يغني عن فروض العبادات، وكذلك كل الفروض الإسلامية لا يغني بعضها عن بعض، فالصلاة المفروضة لا تغني عن الصيام المفروض، وأداء الصلاة والصيام المفروضين لا يغني عن أداء الزكاة، ولا عن أداء فريضة الحج، وكل هذه الفروض لا تغني عن فريضة الجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

سادساً: وروى أبو داود بإسناد صحيح عن أبـي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«أنا زعيم ببيت في رَبَض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه».

زعيم: أي كفيل. ربض الجنة: ربض المكان نواحيه وما حـوله من خارجه، كحريم المسجد، وكالأبنية التي تكون حول المدن، وهي الأمكنة التي تربض فيها الأنعام.

فمن ترك المراء ــ أي الجدل في أمور الدنيا ولحظ النفس ــ بنى الله له بيتاً في ربض الجنة، أي استحق دخول الجنة لهذا العمل الذي يخالف فيه هوى نفسه.

ومن ترك الكذب في كل الأحوال ومنها حالات المزاح بنى الله له بيتاً في وسط الجنة، لأن من يحفظ لسانه من كل الكذب ابتغاء مرضاة الله هو ذو مرتبة عالية في الأخلاق الحميدة وفي تقوى الله وأعمال البر، إذ ترك الكذب والتزام الصدق مجمع لجملة كبيرة من الفضائل الخلقية، والمصالح الاجتماعية العلمية والعملية.

أما جماع الفضائل كلها فهو حسن الخلق بوجه عام.

سابعاً: وروى مسلم عن النواس بن سمعان قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم فقال:

«البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس».

البر: هو جماع أفعال الخير، وقد عرفه الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه حُسن الخُلق، فهذا يدل على أن حسن الخلق يشتمل على جماع أفعال الخير، والاتساع فيما يقرب إلى الله تعالى ويرضيه سبحانه.

أما كون الإثم ما حاك في نفس الإنسان وكره أن يطلع عليه الناس، ففيه إشارة إلى الضمير الأخلاقي الذي فطر الله الناس عليه، وهذا الضمير يحس بالفضيلة الخلقية كما يحس بالإثم، وحينما يحس بالإثم يلامس نفسه شعور خاص به، وحينما يحدث هذا الشعور في النفس يقدر الإنسان أن ما أحس به من شأنه أن يحس به كل إنسان آخر إذا اطلع عليه، لأن الناس يشتركون معه في القدرة على الإحساس بالإثم، لذلك فهو يكره أن يطلع عليه الناس، لئلا يخسر مكانته في نفوسهم حينما يعلمون أنه امرؤٌ آثم.

وهذا المقياس النبوي مقياسٌ صحيح دقيق عند ذوي القلوب المؤمنة، التي لم تفسد موازينها الفطرية بارتكاب القبائح والآثام.

ثامناً: وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن أبغض الرجال إلى الله الألَدُّ الخصِمُ».

الألدّ: هو شديد الخصومة. الخَصِم: هو كثير الخصومة، المولع بها حتى تصير الخصومة عادة له.

وظاهر أن الخصم الألدّ سيءُ الخلق من درجة شديدة القبح، وقد أبان الرسول صلى الله عليه وسلم أنه أبغض الرجال إلى الله.

تاسعاً: وروى الترمذي بإسناد حسن عن أبي ذر وعن معاذ بن جبل، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«اتقِ الله حيثما كنت، وأتبعِ السيئةَ الحسنة تمحُها، وخالقِ الناسَ بخلق حسنٍ».

ففي هذا الحديث إرشاد إلى قواعد السلوك الكبرى، التي من التزمها فقد أخذ سبيله لارتقاء مراتب المجد والكمال الإنساني.

وهذه القواعد ترشد إلى المنهج الخلقي العام، الشامل لجانبي علاقة الإنسان بربه وعلاقة الإنسان بالناس.

أما ما يدعو إليه الواجب الأخلاقي بالنسبة إلى علاقة الإنسان بربه، فهو تقوى الله في أي مكان ظاهر أو خفي يكون فيه الإنسان، وذلك لأن الواجب الأخلاقي يفرض على الإنسان طاعة من خلقه فسواه فعدله، فأنعم عليه بالنعم التي لا يستطيع إحصاءها، ويفرض عليه أيضاً حمده وشكره وعبادته، وكل هذه الواجبات يجمعها تقوى الله في السر والعلن، وهذا ما دلت عليه القاعدة الأولى: «اتق الله حيثما كنت». وحينما يتقي الإنسان ربه في كل أحواله الظاهرة والباطنة فلا بد أن يكون مخلصاً لله في تقواه، وفي هذا تكمن الروح الأخلاقية السامية البعيدة عن النفاق والرياء والسمعة وطلب الثناء من الناس، أو اجتلاب المصالح النفسية أو المادية منهم.

هذه هي القاعدة الأولى.

وأما القاعدة الثانية وهي قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها» ففيها إرشاد إلى منهج الإصلاح والتقويم، وتدارك النهوض بالنفس بعد سقوطها بارتكاب السيئة، وهذا المنهج ترسمه هذه القاعدة أضبط رسم. فمن سقط بارتكابه السيئة في حالة من حالات الضعف الإنساني فعليه أن يتبع هذه السيئة حسنة مستمدة من منابع الضمير الأخلاقي، فإن للحسنات قوة سبقٍ عجيبة بفضل الله، إذ تمر على السيئات التي كانت قد انطلقت قبلها فتردها وتمحو أثرها عند الله، وتعود نفس المؤمن بالله إلى براءتها ونقائها الخلقي، بعد أن أصابها ما أصابها من أدناس السيئات.

وهذه القاعدة مستمدة من قول الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

وأما القاعدة الثالثة وهي قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «وخالق الناس بخلق حسن»: فهي تحدد المنهج العام الذي يجب على الإنسان أن يسلكه

في علاقاته بالناس، وعنوان هذا المنهج أن يخالق الناس بخلق حسن، أي أن يعاملهم في كل علاقاته معهم بالخلق الحسن.

عاشراً: ولما كان حسن الخلق يحتل هذه القيمة العظيمة في الإسلام؛ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً.

روى البخاري ومسلم عن أنس قال:

«كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً».

واختار الله للثناء على رسوله من دون سائر صفاته العظيمة ما يتحلى به من خلق حسن عظيم، إذ خاطبه بقوله له: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾.

وصح عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: «بعثت لأتمم حسن الخلق».

رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة، ورواه الإمام مالك في الموطأ.

وعن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«إن الله بعثني لتمام مكارم الأخلاق وكمال محاسن الأفعال» رواه في شرح السنة.

— ٦ —
الكليات العامة التي تنضوي تحتها مفردات مكارم الأخلاق

حين يبحث الباحثون في مكارم الأخلاق فإنهم يعددون أفرادها؛ فيذكرون مثلاً من مكارم الأخلاق: الصدق، والأمانة، والعفة، والشجاعة، والجود، والاعتراف لصاحب الحق بحقه وعدم غمطه، والاعتراف لكل ذي ميزة بميزته، والإحسان، والتضحية في سبيل الواجب، والبذل للآخرين، والقناعة، وطهارة القلب من أمراض الحسد والحقد واللؤم وحب الاستيلاء على حقوق الآخرين والعدوان عليهم، إلى غير ذلك من أخلاق.

ولكن أفلا يمكن إرجاع مكارم الأخلاق هذه ونظائرها إلى أصول عامة

تنضوي تحتها، وبذلك يمكن إدراك أي خلق كريم متى اندرج تحت أصل من هذه الأصول؟

وبالتأمل نستطيع اكتشاف عدة أصول وكليات عامة ترجع إليها مفردات مكارم الأخلاق.

الأصل الأول:

كل دافع ذاتي في الإنسان سواء أكان فطرياً أو مكتسباً، يدفعه حتى يعترف لغيره بما له من صفات كمال، أو بما له من حق ــ ولو كان في ذلك الاعتراف مساس بما يشتهي الإنسان لنفسه، من كمال، أو مجد، أو أي حظ من حظوظ النفس أو الجسد ــ هو من أصول مكارم الأخلاق وكلياتها العامة.

ونقيض هذا الأصل أحد أصول الرذائل الخلقية وكلياتها العامة.

فكل دافع ذاتي في الإنسان، فطري أو مكتسب، يدفعه حتى يجحد ما لغيره من كمالٍ أو حق، ابتغاء وجه الشيطان، أو استجابة لعامل الكبر في نفسه، أو لما يشتهي لنفسه من كمالٍ أو مجد، أو استجابة لأي حظ من حظوظ النفس أو الجسد، ضمن المؤثرات الأنانية، هو من أصول الرذائل الخلقية وكلياتها العامة.

وتفريعاً على هذا الأصل العام من أصول مكارم الأخلاق وما يقابله، نستطيع أن نعتبر الاعتراف للخالق العظيم بكمال ربوبيته وألوهيته، والإذعان لذلك بدافع ذاتي في الإنسان، من بدهيات أمثلة الكمال الخلقي فيه. أما الإلحاد بالله، وجحود ربوبيته وألوهيته، بعد قيام الأدلة على ذلك في فكر الإنسان وشعوره، فذلك من أبرز أمثلة الانحطاط الخلقي، ومن أخس دركاته.

وتفريعاً على هذا الأصل العام أيضاً نستطيع أن ندخل في أمثلة مكارم الأخلاق ما يلي:

الاعتراف للوالدين بفضلهما، والاعتراف للمعلم ولكل ذي فضل بفضله، والاعتراف لكل ذي مزية علمية أو فكرية أو إدارية أو عملية أو جسدية

بمزيته وعدم غمطه حقه، والاعتراف لكل ذي حق بحقه، مهما كانت العوامل النفسية محرضة على الغمط والجحود.

ونستطيع أن ندخل في أمثلة رذائل الأخلاق ما يلي:

جحود فضل ذوي الفضل، وإنكار مزايا ذوي المزايا، وغمط الحق لأصحابه، استجابة لدافع من دوافع النفس الأنانية، أولشهوة من شهواتها، ونحو ذلك من رذائل.

الأصل الثاني:

كل دافع ذاتي في الإنسان سواء أكان فطرياً أو مكتسباً يدفعه حتى يؤدي الحقوق التي عليه كاملة، أو حتى يُنعم على غيره بعطاء من علمه، أو من قدرته، أو من جاهه، أو من ماله، متجاوزاً في ذلك عوامل نفسه الأنانية، هو من أصول مكارم الأخلاق وكلياتها العامة.

ونقيض هذا الأصل أحد أصول الرذائل الخلقية وكلياتها العامة.

فكل دافع ذاتي في الإنسان، فطري أو مكتسب، يدفعه حتى يعتدي على ما ليس له به حق، بغية حيازته لنفسه، أو يدفعه حتى يبخل بعطاء ينفع آخذه ولا يضر باذله، أو يبخل بما يدفع الضرورة الملحة عن غيره، مع عدم اضطراره إليه، أو مع عدم حاجته إليه، إلا حاجة الاستجابة للطمع أو الشره وشهوة الاستئثار، أو الاستجابة للرغبة بالاستزادة من الرفاهية المفرطة، هو من أصول الرذائل الخلقية وكلياتها العامة.

وتفريعاً على هذا الأصل العام من أصول مكارم الأخلاق وما يقابله، نستطيع أن نسرد جملة كبيرة من مكارم الأخلاق، ثم جملة كبيرة مما يقابلها من رذائل الأخلاق.

الأصل الثالث:

كل دافع ذاتي في الإنسان، فطري أو مكتسب، يدفعه حتى ينظر إلى المنح التي يختص الله بها عباده، ويوزعها بينهم، إنما هي مظاهر حكمة الله وعدله، فهو ينظر إلى ما لديه منها بعين القناعة والرضا، دون أن تمتد إلى ما وهب الله

غيره منها امتداد اعتراض أو حسد، هو من أصول مكارم الأخلاق وكلياتها العامة.

ونقيض هذا الأصل أحد أصول الرذائل الخلقية وكلياتها العامة.

فكل دافع ذاتي في الإنسان، فطري أو مكتسب، يدفعه حتى يعترض على حكمة الله، أو يحسد الآخرين على ما وهبهم الله من فضله؛ هو من أصول الرذائل الخلقية وكلياتها العامة.

وتفريعاً على هذا الأصل العام من أصول مكارم الأخلاق وما يقابله نستطيع أن نسرد عدداً من مكارم الأخلاق، ثم عدداً من رذائل الأخلاق.

ــ ٧ ــ
شمول الأخلاق

دخول الأخلاق في كل القطاعات الإنسانية:

لكل قطاع من القطاعات الإنسانية المختلفة الداخلية والخارجية أخلاق، للفكر أخلاق، وللاعتقاد أخلاق، وللقلب أخلاق، وللنفس أخلاق، وللسلوك الظاهر أخلاق.

١ ــ فمن فضائل أخلاق الفكر تحري الحقيقة بإنصاف وتجرد وحياد، والصبر على التفكر والتدبر، والبحث عن كل نافع مفيد من الأفكار والمعارف والعلوم، والبعد عن سفاسف الأفكار وتوافهها، والاشتغال بتذكر كل صالح مفيد، ونسيان الأحداث المثيرة للأحقاد والضغائن أو الباعثة على الغضب والانفعالات غير الحسنة، وعدم التطلع إلى مثيرات الحسد، أو مثيرات الشهوات والأهواء المحرمة، إلى غير ذلك من فضائل.

ويقابل هذه الفضائل من فضائل أخلاق الفكر نقائص ورذائل يجب على الإنسان اجتنابها أو يحسن به اجتنابها؛ ليظفر بالارتقاء في سلم الكمال الخلقي في مجال أخلاق الفكر.

٢ ــ ومن فضائل أخلاق الاعتقاد أن لا يسمح الإنسان لنفسه بأن يتتبع

الأوهام والظنون الضعيفة، فيحلها في مراكز عقائده الثابتة الراسخة، وأن لا يجعل مركز عقائده فريسة للتقليد الأعمى، والضلالات الشائعة، أو فريسة لما تمليه الأهواء والشهوات من أفكار ومذاهب، أو فريسة لما يمليه القادة المضلون والشياطين الموسوسون من الإنس والجن، إلى غير ذلك.

ويقابل هذه الفضائل من فضائل أخلاق الاعتقاد نقائص ورذائل يجب على الإنسان اجتنابها، أو يحسن به اجتنابها، ليظفر بالارتقاء في سلم الكمال الخلقي في مجال أخلاق الاعتقاد.

٣ ــ ومن فضائل أخلاق القلب حب الحق وحب الخير، وكراهية الباطل والشر، وعدم تحمل الأحقاد والضغائن، والشجاعة، إلى غير ذلك من أمور.

ويقابل فضائل أخلاق القلب نقائص ورذائل خلقية يطالب الإنسان باجتنابها والبعد عنها.

٤ ــ ومن فضائل أخلاق النفس الصبر والعفة، ومجانبة الحسد، والترفُّع عن سفاسف الأمور، والنظر إلى معاليها، وعلو الهمة، وجود النفس، وتسامحها وعفوها عن إساءة المسيء، إلى غير ذلك من أمور كثيرة.

٥ ــ أما فضائل أخلاق السلوك الظاهر فكثيرة، وهي في حقيقتها الصادقة تعبير عما في داخل الإنسان من أخلاق.

ويقابلها نقائص ورذائل خلقية يطالب الإنسان باجتنابها والبعد عنها.

وبهذا تبين لنا شمول الأخلاق الإسلامية لكل قطاع من القطاعات الإنسانية المختلفة الداخلية والخارجية.

* * *

تناول الأخلاق لجانبي السلوك الفردي والسلوك الاجتماعي:

والأخلاق تتناول جانب السلوك الفردي، وجانب السلوك الاجتماعي.

١ ــ فمن الأخلاق التي تتناول جانب السلوك الفردي: القناعة الذاتية،

والزهد المحمود، والأناة في العمل، وبعض حالات الصبر والإتقان والنظام والحزم والتفاؤل.

٢ ـ ومن الأخلاق التي تتناول جانب السلوك الاجتماعي: الحلم، والصدق، والأمانة، والصبر على أذى الآخرين، والعفة، والتسامح، والعفو، وحب العطاء، والشجاعة، والتواضع، ولين الجانب، والوفاء.

وقاعدة الأخلاق الاجتماعية الكبرى تتلخص بأن يعامل الإنسان الآخرين بما يحب أن يعاملوه به، إنه يحب أن يعاملوه بالعفو إذا أساء فليكن عفوّاً عن إساءاتهم، ويحب أن يكونوا معه أمناء فليكن معهم أميناً، ويحب أن يصدقوه ولا يكذبوه فليصدقهم ولا يكذبهم، ويحب منهم العفة عن محارمه فليكن عفيفاً عن محارمهم، وهكذا.

ويكره منهم أضداد هذه الأمور فلا يعاملهم بما يكره أن يعاملوه به.

وقد أبان الرسول صلى الله عليه وسلم هذه القاعدة للأخلاق الاجتماعية بقوله: «فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه» رواه مسلم عن ابن عمرو[١].

وقد بلغت الأخلاق الاجتماعية في الإسلام مبلغاً من الرقي العظيم، جعلها في مركز القمة، بما اشتملت عليه من تفصيلات موثقةٍ للروابط الاجتماعية بين الأفراد، ومؤثرةٍ تأثيراً عميقاً في تغذية وحدة الجماعة الإسلامية، وتنمية روابط المودة والإخاء بين المسلمين.

وحسبنا أن نذكر في هذا المقام فضائل العفو، والإحسان، والتعاون، والتضحية والإيثار، وإكرام الضيف، وإكرام الجار، والتواضع، ولين الجانب، وحسن المعاشرة، والتزاور في الله وعيادة المرضى، والتهادي والقرض الحسن، ونحو ذلك.

---

(١) انظر رياض الصالحين، رقم الحديث ٦٦٦.

ـ ٨ ـ

تقسيم الأخلاق باعتبار علاقاتها

لدى تصنيف مفردات الأخلاق باعتبار علاقاتها نلاحظ أنها تنقسم إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: ما يتعلق بوجوه الصلة القائمة بين الإنسان وخالقه، أي بين الإنسان وهو من عالم المادة وبين القوة المهيمنة من وراء المادة، التي أبدعت الإنسان وكرمته وجعلته في أحسن تقويم، وأمدته بأنواع من النعم التي لا يستطيع إحصاءها.

والفضيلة الخلقية في حدود هذا القسم تفرض على الإنسان أنواعاً كثيرة من السلوك الأخلاقي: منها الإيمان به لأنه حق، ومنها الاعتراف له بكمال الصفات والأفعال، ومنها شكره على نعمه التي لا تحصى، ومنها طاعته في أوامره ونواهيه، وتقبل نصائحه ووصاياه، والاستجابة له فيما يدعو الناس إليه، لأن له الخلق والأمر، ومنها تصديقه فيما يخبرنا به، لأن من حق الصادق تصديقه، ومنها التسليم التام لما يحكم علينا به، لأنه هو صاحب الحق في أن يحكم علينا بما يشاء.

فكل هذه الأنواع من السلوك أمور تدعو إليها الفضيلة الخلقية.

أما دواعي الكفر بالخالق بعد وضوح الأدلة على وجوده فهي حتماً دواعٍ تستند إلى مجموعة من رذائل الأخلاق، منها الكبر، ومنها ابتغاء الخروج على طاعة من تجب طاعته، استجابة لأهواء الأنفس وشهواتها، ومنها نكران الجميل وجحود الحق.

وقد نبه القرآن على رذيلة خلق الكبر الدافعة إلى إنكار الآخرة وعدم الإيمان بها، فقال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

لقد استكبروا على طاعة الله، فلزم من ذلك أن لا يؤمنوا بالآخرة، فغدت قلوبهم منكرة، لا تتقبل الأنباء الصادقة التي تحدثهم عن يوم الجزاء الأكبر.

ونبه القرآن على رذيلة إرادة الفجور، الدافعة إلى جحود قانون الجزاء الرباني، وإنكار يوم القيامة، فقال الله تعالى في سورة (القيامة ٧٥):

﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦ ﴾.

والفجور: هو التدفق الوقح إلى فعل الشرور والآثام، وهو لا محالة من قبائح رذائل الأخلاق.

القسم الثاني: ما يتعلق بوجوه الصلة بين الإنسان وبين الناس الآخرين.

وصور السلوك الأخلاقي الحميد في حدود هذا القسم معروفة وظاهرة: منها الصدق، والأمانة، والعفة، والعدل، والإحسان، والعفو، وحسن المعاشرة، وأداء الواجب، والاعتراف لذي الحق بحقه، والاعتراف لذي المزية بمزيته والمواساة والمعونة، والجود، وهكذا إلى آخر جدول فضائل الأخلاق التي يتعدى نفعها إلى الآخرين من الناس.

أما صور السلوك الأخلاقي الذميم في حدود هذا القسم فهي أيضاً معروفة وظاهرة: منها الكذب، والخيانة، والظلم، والعدوان، والشح، وسوء المعاشرة، وعدم أداء الواجب، ونكران الجميل، وعدم الاعتراف لذي الحق بحقه، وهكذا إلى آخر جدول رذائل الأخلاق التي يتعدى ضررها إلى الآخرين من الناس.

القسم الثالث: ما يتعلق بوجوه الصلة بين الإنسان ونفسه.

وصور السلوك الأخلاقي الحميد في حدود هذا القسم كثيرة: منها الصبر على المصائب، ومنها الأناة في الأمور، ومنها النظام والإتقان في العمل، ومنها عدم استعجال الأمور قبل أوانها، وكل ذلك يدخل في حسن إدارة الإنسان لنفسه، وحكمته في تصريف الأمور المتعلقة بذاته.

وصور السلوك الأخلاقي الذميم في حدود هذا القسم تأتي على نقيض صور السلوك الأخلاقي الحميد.

القسم الرابع: ما يتعلق بوجوه الصلة بين الإنسان والأحياء غير العاقلة.

ويكفي أن نتصور من السلوك الأخلاقي الحميد في حدود هذا القسم، الرحمة بها، والرفق في معاملتها، وتأدية حقوقها الواجبة. أما الظلم والقسوة وحرمانها من حقوقها؛ فهي من قبائح الأخلاق، وفي هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر: «عُذِّبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»[1].

خشاش الأرض: هوامها وحشراتها.

ولا بد من ملاحظة أن كثيراً من الأخلاق لها عدد من الارتباطات والتعلقات، ولذلك فقد تدخل في عدد من هذه الأقسام في وقت واحد، إذ قد تكون لفائدة الإنسان نفسه، وتكون في الوقت نفسه لفائدة الآخرين، وتكون مع ذلك محققة مرضاة الله تعالى.

ـ ٩ ـ
تقسيم السلوك الخلقي إلى بسيط ومركب

حين يكون الدافع إلى السلوك الإنساني دافعاً واحداً فإن السلوك حينئذ سلوك بسيط، أما حين يكون السلوك ثمرة عدة دوافع فهو سلوك مركب.

ويظهر لنا في المثال التالي الفرق بين السلوك البسيط والسلوك المركب:

إنسان شديد الجوع، يسير في فلاة، فتبعه أسد يريد افتراسه، ففر منه، فوجد شجرة، فتسلقها، فنجا. إن من الواضح في هذا السلوك أنه مظهر من مظاهر الخوف، فالدافع إليه الخوف من الأسد، فهو سلوك بسيط.

أما لو وجد شجرتين إحداهما غير مثمرة، والأخرى مثمرة، فاختار أن

(١) رياض الصالحين، الحديث ١٥٩٧، وفي المشكاة بمثله عن ابن عمر وأبي هريرة، الحديث ١٩٠٣.

يتسلق الشجرة المثمرة، لينجو من الأسد، وليأكل من ثمرها، فيسد جوعه. فسلوكه حينئذ مدفوع بدافعين هما الخوف والجوع، فهو حينئذ سلوك مركب من حركتين نفسيتين.

فلو أنه لاحظ في الشجرة المثمرة سواراً من ذهب معلقاً فيها، فطمع أيضاً بالحصول عليه، فسلوكه حينئذ مدفوع بثلاثة دوافع، هي الخوف والجوع والطمع، فهو سلوك مركب من ثلاث حركات نفسية.

ونجد نظير ذلك في السلوك الخلقي، وقد يكون من القليل النادر العثور على سلوك خلقي بسيط، إذ الغالب في حال الإنسان أن يكون سلوكه الخلقي سلوكاً مركباً.

ونقول على سبيل المثال: إن عطف الأم على ولدها يرجع إلى خلق الرحمة، ومساعدة إنسان لآخر ذي ضرورة يرجع إلى خلق الرحمة، وتحمل الإنسان آلام مصيبة من المصائب يرجع إلى خلق الصبر، وإكرام الضيف بسخاء ظاهرة محمودة ترجع إلى خلق الجود. فإذا لم يكن لهؤلاء أية دوافع أخرى، فسلوكهم الخلقي هذا من نوع السلوك الخلقي البسيط.

ونأخذ العفو مثلاً بوصفه ظاهرة خلقية، فنلاحظ أنه قد يرجع إلى أكثر من أساس خلقي: فإذا كان عفواً عن حق مالي استطعنا أن نرجعه إلى أساسين خلقيين هما الجود والرحمة، وإذا كان عفواً عن إساءة أو مظلمة، استطعنا أن نرجعه إلى أساسَيْ الرحمة والصبر، فهو سلوك خلقي مركب.

ونأخذ الشجاعة بوصفها ظاهرة خلقية، فنلاحظ أنها قد ترجع أيضاً إلى أكثر من أساس خلقي: فإذا كانت شجاعة أدبية استطعنا أن نرجعها إلى مجموعة من الأسس الخلقية الدافعة لها، هي: الصبر، وحب الحق، وعلو الهمة، وقوة الإرادة. وإذا كانت شجاعة مادية، استطعنا أن نرجعها إلى الصبر، وحب العطاء، وعلو الهمة، وقوة الإرادة، فهي سلوك خلقي مركب.

وقد تختلف أسس الظاهرة الخلقية من شخص لآخر في نوعها وفي مقدارها.

وحينما يكون السلوك الخلقي مدفوعاً بدافع ابتغاء مرضاة الله تعالى فقط، فهو سلوك خلقي بسيط، وحينما يكون مدفوعاً به وبالدافع الخلقي في نفسه، فهو سلوك خلقي مركب.

فمن الملاحظ أن الإنسان قد يفعل الفضيلة الخلقية ابتغاء مرضاة الله، ولو لم يشعر بالدافع الخلقي الخاص بها في نفسه، وقد يفعل الفضيلة الخلقية وهو يشعر بالدافع الخلقي الخاص بها في نفسه، وبابتغاء مرضاة الله منها مع ذلك. وهنا نرى أن صاحب الخلق النفسي الرفيع يكون أعلى مقاماً إذا استطاع أن يلاحظ من عمله ابتغاء مرضاة الله تعالى، لأنه يتحلى بالكمال الخلقي النفسي من جهة، وبارتقاء درجة الإيمان من جهة أخرى، والإيمان الصادق ثمرة من ثمرات عدة فضائل خلقية.

قد لا تكون الظاهرة الخلقية نابعة من أساس خلقي:

ولكن لا بد أن نلاحظ أن الظاهرة الخلقية قد لا تكون نابعة من أساس خلقي، فكثير من الناس لا تعبر ظواهر سلوكهم عما في نفوسهم.

وفي هذه الحالة تكون الظاهرة السلوكية غير صادقة الدلالة على ما تنطوي عليه النفس، فهي إما من باب النفاق، أو من باب الرياء، أو من باب المجاملة والمداراة، أو من باب التجارة المادية أو المعنوية لتحقيق مغنم من المغانم، أو غير ذلك.

وكثيراً ما تكون الظاهرة الخلقية غير نابعة من مظانها الخلقية: فالعطاء مثلاً قد يكون بدافع الطمع بمغنم أكبر، أو بدافع الحذر، لا بدافع الجود، ولا بدافع الرحمة. والثبات مثلاً قد لا يكون بدافع الصبر، وإنما بدافع العجز عن الهرب. والزهد قد لا يكون بدافع القناعة والعفة، وإنما يكون بدافع العجز عن المطمع، أو يكون تظاهراً للوصول إلى مطمع أكبر، فالزهد أو التزهد المصطنع في مثل هذا وسيلة للصيد، والصياد المتزهد هنا يترقب عن طريق التزهد الصيد الأثمن.

* * *

الفصل الثالث

١ ـ الحكم الأخلاقي وأسسه.

٢ ـ درجات الحكم الأخلاقي وأنواعه ومصدره وأنواع أصحاب الحقوق.

٣ ـ الحس الأخلاقي أو الضمير الأخلاقي.

٤ ـ الغاية من التزام قواعد الأخلاق.

٥ ـ تفنيد مزاعم الماديين الذين يقولون بنسبية الأخلاق.

الفَصْل الثَالِث

ـ ١ ـ
الحكم الأخلاقي وأسسه

يظهر لنا بالتأمل أن الحكم الأخلاقي على اختلاف درجاته ـ إلزاماً أو ترغيباً ـ وعلى اختلاف نوعه ـ فعلاً أو تركاً ـ يستند إلى ما في العمل من حق أو باطل، أو ما فيه من خير أو شر، أو ما فيه من جمال أو قبح.

على أنه لا يلزم أن يكون كل حق أو خير أو جمال مستنداً وأساساً لفضيلة خلقية، ولا يلزم أن يكون كل باطل أو شر أو قبح مستنداً وأساساً لرذيلة خلقية.

لكن الفضيلة الخلقية لا بد أن يكون لها مستند من الحق أو الخير أو الجمال، والرذيلة الخلقية لا بد أن يكون لها مستند من الباطل أو الشر أو القبح.

فهذه الأسس أمور عامة، يكون منها مستندات للأحكام الأخلاقية، ويكون منها مستندات للأحكام الأخرى.

أمثلــة:

(أ) إقامة العدل، سلوك أخلاقي كريم، أساسه التزام جانب الحق، وهو من الخير، وهو مظهر لفضيلة خلقية.

(ب) الإحسان، أداء اختياري فوق الواجب، وهو من الخير، وهو مظهر لفضيلة خلقية.

(ج) أداء الواجب، سلوك أخلاقي كريم، أساسه إعطاء كل ذي حق حقه، وهو من الخير، لأن فيه مقاومة هوى النفس، التي قد تميل إلى هضم حقوق الآخرين، وهو مظهر لفضيلة خلقية.

(د) التطهر وتنظيف الجسد والثوب والمكان من الأنجاس والأدناس والقذارات، سلوك أخلاقي كريم، أساسه مراعاة ما يوجبه الجمال، وهو من الخير، وهو مظهر لفضيلة خلقية.

(هـ) الجور، سلوك أخلاقي ذميم، أساسه تجاوز حدود الحق، وهو من الشر، وهو مظهر لرذيلة خلقية.

(و) الشح، سلوك أخلاقي ذميم، أساسه عدم بذل ما يوجب الحق بذله، وهو من الشر، وهو مظهر لرذيلة خلقية.

(ز) فعل ما هو مستقبح مستهجن عند الناس، من غير أن تدعو الضرورة إليه، سلوك أخلاقي ذميم، أساسه عدم مراعاة ما يوجبه الجمال، وهو من الشر، وهو مظهر لرذيلة خلقية.

وهكذا إلى غير ذلك من أمثلة كثيرة.

وقد نلاحظ حقاً وخيراً وجمالاً، دون أن تكون هذه أسساً لفضائل خلقية.

فمطالبة صاحب الحق بحقه سلوك إنساني لا يعتبر فضيلة ولا رذيلة خلقية من حيث ذاته، ولكن قد يعتبر فضيلة خلقية إذا كان باستطاعته أن يطالب بأكثر من حقه فلم يفعل، التزاماً بجانب الحق، أو كان الدافع إليه رغبة بأداء حق عليه لا يملك وفاءه إلا عن طريق استيفاء الحق الذي له، ونحو ذلك.

واستمتاع الإنسان بما يشتهي من مباح، دون أن يلاحظ تقيده بالمباح وبعده عما يشتهي من محرم، ودون أن يلاحظ غرضاً حسناً تدعو إليه فضائل الأخلاق، ويمكن تحصيله عن طريق الاستمتاع بالمباح، سلوك إنساني لا يعتبر فضيلة ولا رذيلة خلقية، بل هو سلوك محايد، مع أن صاحب هذا السلوك لم يتجاوز حدود الحق.

لكنه قد يكون سلوكاً أخلاقياً إذا استطاع صاحبه أن يجعل غرضه منه أمراً تدعو إليه فضائل الأخلاق، أو إذا استطاع أن يلاحظ به في أدنى الحدود إعفاف نفسه وكفها عن محارم الله ورذائل الأخلاق.

وتزيين الإنسان بناءه أو أثاثه بأنواع الزينات الجميلة، سلوك إنساني دافعه حب الجمال والرغبة بالاستمتاع به، وهو ما دام في حدود المباح الذي لا شر فيه لا يعتبر فضيلة ولا رذيلة خلقية، بل هو سلوك محايد، مع أن الأساس الدافع إليه هو الجمال وحب الاستمتاع به.

وهكذا نجد أمثلة كثيرة أساسها الحق والخير والجمال، دون أن تكون داخلة في ميدان الأخلاق، فضائلها أو رذائلها.

ـ ٢ ـ

درجات الحكم الأخلاقي وأنواعه ومصدره وأنواع أصحاب الحقوق

تبعاً لاختلاف نسب وجود الحق أو الخير أو الجمال ـ من الناحيتين الكمية والكيفية ـ في القضايا الأخلاقية، يكون الحكم الأخلاقي في الإسلام، وتكون نسبته إلزاماً أو ترغيباً بالفعل أو بالترك.

فبعض القضايا الأخلاقية ترتفع نسبة وجود الأسس فيها إلى مرتبة إيجاب الفعل والإلزام به، وبعضها تنزل فيها هذه النسبة إلى ما دون الوجـوب، وتتفاوت درجات الترغيب بالفعل. وبعض القضايا الأخلاقية ترتفع نسبة وجود الأسس فيها إلى مرتبة التحريم والإلزام بالترك، وبعضها تنزل فيها هذه النسبة إلى ما دون التحريم، وتتفاوت درجات الترغيب بالترك.

وقد تتعارض مقتضيات الفعل والترك في القضية الأخلاقية، ويكون لبعضها رجحان على بعض، وتبعاً لذلك تكون نسبة الحكم الأخلاقي ونوعه.

وحين تتكافأ مقتضيات الفعل والترك تكافؤاً تاماً، من غير ترجيح لأحد

الطرفين على الآخر، أو حين لا يوجد أي مقتضٍ أخلاقي للفعل ولا للترك، فإن مستوى القضية حينئذ يكون صفراً، والحق المطلق حينئذ يكون لحرية الإنسان الشخصية، ومتى كان الحق كله للحرية الشخصية كان الحكم هو حكم الإباحة المطلقة، وعلى الآخرين حينئذ احترام هذا الحق، وعدم التعرض إليه بعدوان أو حَجْر، وفي هذا المجال تنطلق الحريات الشخصية انطلاقاً تاماً، دون أي إلزام أو ترغيب.

أمثلـــة:

(أ) فشكر المنعم بالوجود والحياة والعقل واجب أخلاقي متحتم، وعدم شكره كفر ورذيلة أخلاقية شنيعة، وهنا نلاحظ أن ارتقاء نسبة الحكم الأخلاقي في هذه القضية الأخلاقية تابع لارتقاء نسبة الحق فيها، إذ كمية الحق فيها كمية كبيرة، وكيفية الحق فيها كيفية عظيمة، والشعور بحق المنعم شعور تدركه العقول والنفوس بالبداهة، وهذا الحق في هذه القضية مسلط على إرادة المخلوق تسليطاً قوياً، لذلك كان جحوده والتمرد عليه كفراً.

(ب) بخلاف الصبر على المصيبة، فإن الحق الأخلاقي في هذه القضية ليس مسلطاً على إرادة الإنسان بمثل القوة التي يتمتع بها الحق الملزم بشكر الخالق، لما فيها من حق المصاب بإعلان الألم. ولذلك لم يكن للصبر على المصيبة من الحكم الأخلاقي مثل ما لشكر الخالق من حكم، وهنا يقتصر الحكم الأخلاقي على مستوى الترغيب بمقدار الاستطاعة، والإلزام بترك ما لا تدعو حاجة النفس إليه من لطم خدود وشق جيوب.

(ج) ومن أجل ذلك نلاحظ أن إعطاء الزكاة والنفقة الواجبة سلوك أخلاقي وديني مطلوب بصفة إلزامية، أما إعطاء الصدقة العامة والهدية ونحو ذلك فهو سلوك أخلاقي ديني مطلوب بصفة غير إلزامية؛ لأن حق المجتمع في الأول حق ضروري، أما حقه في الثاني فحق استحساني يدخل في باب ترفيه الآخرين، ويقف في مواجهته حق صاحب الكسب بأن يستمتع بماله استمتاعاً هو من باب الرفاهية، لا من باب الضرورة.

وحين تتعارض مقتضيات الأحكام الأخلاقية، كتعارض الحقوق، فإن الحكمة تقضي بالتوفيق بينها، وبعدم إلغائها أو إلغاء شيء منها إلغاءً كلياً، ما لم تقض الضرورة ذلك.

وإنما تقضي الحكمة بالتوفيق لأن قيمة كل حق من الحقوق المتعارضة تتناقص بسبب التعارض، وبذلك تنخفض قوة مطالبتها بأداء الحق، ويكون التوفيق بإعطاء كل حق منها مقداراً من مساحة الأداء يناسب مداه في عدالة التوزيع.

وقد نبه الرسول صلوات الله عليه على التوفيق الذي تقضي به الحكمة، في الحديث الصحيح الذي رواه عبدالله بن عمرو بن العاص، وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم بلغه أن عبدالله حلف أن يصوم النهار ويقوم الليل ما عاش، فقال له: «صم وأفطر، ونم وقم، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينيك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لِزَوْرك عليك حقاً» وفي رواية: «وإن لولدك عليك حقاً»[1].

وأقر الرسول مقالة سلمان لأبي الدرداء، وصدّقه بها، إذ قال سلمان: «إن لربك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه» فأتى أبو الدرداء النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فقال: «صدق سلمان». من حديث رواه البخاري عن أبي جحيفة.

وهنا نلاحظ أن من الطبيعي أن تتعارض في حياة الإنسان هذه الحقوق، بمعنى أن كل حق منها يتطلب تفريغ الزمن لحسابه، واستنفاد الطاقة لحسابه، ولكن هذا يضيع الحقوق الأخرى، فكان لا بد من التوفيق، وذلك بإجراء القسمة العادلة، فيعطى لكل منها من الزمن ومن الطاقة على مقدار قوته بالنسبة إلى الحقوق الأخرى.

---

(١) قال النووي في رياض الصالحين ــ بعد أن ساق الحديث برواياته ــ: كل هذه الروايات صحيحة، معظمها في الصحيحين، وقليل منها في أحدهما.
الباب الرابع عشر، الاقتصاد في العبادة رقم الحديث ١٥٠.

وحينما يقوى حق الإنسان على نفسه ـ وهو الحق الشخصي ـ تقل قيمة حق غيره عليه في موضوع الحق نفسه، فمن أمثلة ذلك: لو كان الإنسان في حالة ظمأ شديد يخشى منه الهلاك، وأخوه إلى جنبه مثله في ذلك، ثم جاءته شربة ماء تنقذه من الهلاك، إنه في هذه الحالة بين حقين متعارضين: حق نفسه عليه، وحق أخيه عليه، فإذا أمكنه التوفيق بين الأمرين، وذلك بأن يشرب ويسقي أخاه، ويكون بذلك نجاتهما، فهذا هو الواجب عليه، وقد قلل بهذا التوفيق من قيمة حق نفسه عليه، ومن قيمة حق أخيه عليه، فلم يعط هذا ولا هذا كل ما يطلب. وإذا لم يمكنه التوفيق بين الأمرين، كان له أن يقدم حق نفسه على حق أخيه، وفي هذه الحالة لم يُلغِ حق أخيه عليه، إلا أن قيمته قد ضعفت بسبب التعارض، إلى أن وصلت إلى مرتبة الاستحسان لا الوجوب، والاستحسان يرجح جانب الإيثار على الجانب الآخر، فالحكم الأخلاقي في هذا نزل من مرتبة الوجوب إلى مرتبة الاستحسان، وسبب ذلك طبيعة التعارض.

فإذا فرضنا أن نجاة صاحب الحق الشخصي أنفع للجماعة الإسلامية من نجاة أخيه، فإن الحق يكون في جانبه أقوى وأرجح من وجهين:

الأول: حق نفسه عليه.

الثاني: حق الجماعة المسلمة عليه.

وظاهر أن حقين يتواطآن على موضوع واحد أقوى من حق واحد، وقد يصل إلى منع الإيثار في مثل هذه الحالة.

أما إذا كان بقاء أخيه ونجاته أنفع للإسلام والمسلمين من بقائه هو ونجاته، فإن الأمر ينعكس عندئذ، فيقوى جانب الإيثار، وقد يصل إلى درجة وجوب التضحية بالنفس، محافظة على ما هو أرجح من حق نفسه عليه، وذلك لأن حق أخيه وحق الجماعة الإسلامية، وحق الله في تأييد الدين، أقوى بكثير من حق نفسه عليه. وعند التعارض ينبغي التضحية بالحق الأقل، رعاية للحق الأكثر، وفي مثل هذه الحالة تقل قيمة حق نفس الإنسان عليه، بالنظر إلى

الحقوق الأخرى المعارضة له، إلى حد أن يكون هذا الحق كالأمر الملغى، لأنه لم يمكن التوفيق.

وبهذا نلاحظ كيف يكون الحكم الأخلاقي تابعاً لقيمة موجبه من حق أو خير أو جمال في القضية الأخلاقية، وكيف أن هذه القيمة قد تكون عرضة للارتفاع والانخفاض تبعاً لحساب تعارض الحقوق، أو تعارض المصالح والمنافع التي هي من قبيل الخير أو الجمال.

ولكن تحليل نسبة وجود مقتضيات الحكم الأخلاقي في كل قضية أخلاقية يحتاج إلى نظر دقيق، وبحث عميق، وقد تشتبه الأمور، ويختلط بعضها في بعض، فلا يعلم حقيقتها إلا قليل من الناس، والله تبارك وتعالى قد كفانا بالإسلام المهمة، فأنزل لنا الأحكام الأخلاقية جاهزة، مستوفية كل ما تحتاج إليه من بصر ونظر، وموافقة لما هي عليه في واقع الحال، إلا أنه لم ينص لنا على فروق كبيرة في أحكام الأخلاق، غير ما يقع في المراتب التي أوضحناها في مراتب أحكام الأخلاق، تيسيراً على الناس وتبسيطاً على الأفهام.

فالحكم الأخلاقي على اختلاف درجاته معادل لما في القضية الأخلاقية من نسبة الحق والخير والجمال فيها إيجاباً أو سلباً.

ونسبة الثواب أو العقاب عند الله ملائمة لدرجة الحكم الإسلامي في العمل الأخلاقي، وملائمة لوزن العمل من الناحيتين الكمية والكيفية، ولمقدار مغالبة النفس فيه.

والسلوك الأخلاقي المطلوب فيه القيام بعمل ما، منه ما هو واجب شديد الوجوب، ومنه ما هو دون ذلك، حتى أول درجة المباح، وتتفاوت المحرمات وما دونها قوة وضعفاً تفاوتاً ظاهراً.

والسلوك الأخلاقي المطلوب فيه الكف عن عمل ما، منه ما هو محظور شديد الحظر، ومنه ما هو دون ذلك حتى أول درجة المباح، وتتفاوت المحرمات وما دونها تفاوتاً ظاهراً.

وعند مستوى درجة المباح يأتي حق الحرية المطلقة للإرادة الشخصية في أن تختار ما تشاء.

ونظراً إلى التفاوت بين الواجبات وبين ما دونها، وبين المحرمات وبين ما دونها، وجدنا في أحكام الشريعة الإسلامية أن من الواجبات ما تركه كفر، ومنها ما تركه كبيرة، ومنها ما تركه صغيرة، وأن ما دون الواجبات منها ما فعله سنة مؤكدة، ومنها ما فعله سنة غير مؤكدة، ومنها ما هو مستحب. ونظير ذلك نلاحظ في المحرمات وفيما دون المحرمات، على أن التفاوت لا تحده مصطلحات لفظية، فهو أكثر من ذلك في واقع الحال.

وكلٌّ من السلوك الأخلاقي ــ سواءٌ أكان فعلاً أو تركاً ــ حق مسلط على إرادة الإنسان بنسب متفاوتة، فإذا وصلنا إلى درجة المباح جاء حق حرية الإرادة المطلقة في أن تختار ما تشاء، وهذا الحق حينئذ مسلط على الآخرين، إذ يطلب منهم عندئذ أن يحترموه، فيمنحوا الفرد حقه هذا، دون معارضة ولا حجز للحرية.

* * *

مصدر اكتساب الحق:

أما مانح هذه الحقوق فهو الله الخالق تبارك وتعالى، وقد جعل الله في فطر الناس الوجدانية وفي فطرهم الفكرية ما يدركون به هذه الحقوق، إذا كانت هذه الفطر في الأفراد سليمة من العوارض والأمراض، وسليمة مما يغشي عليها.

وتبياناً لهذه الحقوق أنزل الله في شريعته للناس الأحكام الكفيلة بضمانها، وذلك بما بين في النصوص، وبما وضع معها من دلائل وأمارات. وهذه رحمة من الله بعباده حتى لا يضلوا ولا يختلفوا، وعن طريق الشرائع الربانية تصحح أخطاء الأفكار إذا هي أخطأت، وتصحح أخطاء الضمائر إذا اختلط عليها الأمر.

* * *

أنواع أصحاب الحقوق:

إذا كان السلوك الأخلاقي حقاً مسلطاً على إرادة الإنسان بصفة إلزامية أو ترغيبية استحسانية، وكان هذا الحق منحة من الله لصاحب الحق، فإن

صاحب الحق إما أن يكون شيئاً داخلاً في كيان الإنسان، وعندئذ يكون حق ذاته عليه، أي يكون حق ما تحت سلطة إرادته على إرادته نفسها، وإما أن يكون شيئاً خارجاً عن كيان الإنسان، وعندئذ يكون حق غيره عليه وفي هذه الحالة: إما أن يكون حق الله المطلق، وإما أن يكون حق أفراد من الناس عليه، وإما أن يكون حق الجماعة الإنسانية، وإما أن يكون حق غير أولئك من الشركاء في الحياة ذوي الحقوق على الإنسان.

وأما حق الإرادة في أن تختار ما تشاء ـ وهذا الحق هو أيضاً منحة من الله للإرادة ـ فيظهر بشكل مطلق في مجال المباحات، ويظهر بشكل مقيد في مجال ما دون الواجب وما دون المحظور، فلها الخيرة في أن تختار الناقص فيها على الكامل، إلا أنها تحرم نفسها من خير كثير في هذا الاختيار، وحق الإرادة ينبغي أن يحترم من قبل الآخرين.

على أن حرية الإرادة لا تلغى في مجالي الواجبات والمحظورات، إلا أنها تكون ملزمة بتكليف، ومسؤولة عن مخالفته، والمسؤولية تستتبع الجزاء من قبل جهة التكليف.

ـ ٣ ـ
الحسّ الأخلاقي أو الضمير الأخلاقي

لقد أودع الخالق العظيم في مدارك الأفكار وفي مشاعر الوجدان الفطرية ما تدرك به فضائل الأخلاق ورذائلها، ونستطيع أن نسمي ذلك «الحس الأخلاقي».

وهذا ما يجعل الناس يشعرون بقبح العمل القبيح وينفرون منه، ويشعرون بحسن العمل الحسن ويرتاحون إليه، وبذلك يمدحون فاعل الخير، ويذمون فاعل الشر.

وقد أرشدت النصوص الإسلامية إلى وجود هذا الحس الأخلاقي في

الضمائر الإنسانية، وأحالت المسلم المؤمن إلى استفتاء قلبه في حكم السلوك الذي قد تميل نفسه إلى ممارسته.

ففي القرآن الكريم يقول الله تعالى في سورة (الشمس ٩١):

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾.

زكّاها: نمّاها وارتقىٰ بها. وعكسُ ذلك **دسَّاها**: أي دَفَنَها وهبطَ بها.

فالنفس الإنسانية منذ تكوينها وتسويتها أُلهمت في فطرتها إدراك طريق فجورها وطريق تقواها، وهذا هو الحس الفطري الذي تدرك به الخير والشر، ولذلك كان على الإنسان أن يزكي نفسه ويطهرها من الإثم حتى يظفر بالفلاح وإلا خاب سعيه.

ويقول الله تعالى في سورة (القيامة ٧٥):

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾.

فالإنسان لديه بصيرة يستطيع أن يحاسب بها نفسه محاسبة أخلاقية، على أعماله ومقاصده منها، ولو حاول في الجدل اللساني الدفاع عن نفسه وإلقاء معاذيره.

ويقول الله تعالى في سورة (البلد ٩٠):

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾.

لبداً: أي كثيراً مجتمعاً بعضه على بعض.

فالإنسان كما لديه أدوات الحس الظاهر، لديه حس باطن يدرك به طريقي الخير والشر، وهما النجدان الممتدان في أرض حياته الدنيا، يختار منهما

لسلوكه ما يشاء، وعليه بعد ذلك أن يتحمل نتائج عمله، ونتائج اختياره.

وهذا الحس الباطن يشمل ما تدركه الأفكار السليمة بموازينها التي فطرها الله عليها، ويشمل ما تحس به الضمائر بمشاعرها الوجدانية التي فطرها الله عليها، ومن ذلك يتكون في الإنسان حسه الأخلاقي.

وروى الإمام مسلم عن النواس بن سمعان، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس».

فهذا الحديث يدل على أن في النفس الإنسانية حساً خلقياً بالإثم، ولذلك يكره فاعل الإثم أن يطلع عليه الناس، لأنه يعلم أنهم يشعرون بمثل ما يشعر، وذلك بحس أخلاقي موجود في أعماق نفوسهم، وهذا الحس الأخلاقي هو ما اكتشفه الباحثون الأخلاقيون من الفلاسفة، وأسموه (الضمير).

وروى الإمام أحمد والدارمي بإسناد حسن عن وابصة بن معبد قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «جئت تسأل عن البر؟» قلت: نعم. فقال: «استفتِ قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك».

ففي هذا الحديث تبيان واضح للحس الأخلاقي، ولا مانع من أن نسميه الضمير الأخلاقي، وهذا الضمير إذا كان نقياً سليماً من العلل والأمراض، فإنه يستطيع أن يحس بفضائل الأخلاق ومحاسن السلوك، وأن يحس برذائل الأخلاق ومساوىء السلوك، وأن يميز بين الصنفين، وقد جمع الرسول صلوات الله عليه فضائل الأخلاق تحت عنوان (البر) وجمع رذائل الأخلاق تحت عنوان (الإثم).

وفي هذا الحديث أيضاً إشارة إلى مواقع الحس الأخلاقي داخل النفس الإنسانية وهو ما قد يطلق عليه اسم الضمير، وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال في الحديث: «البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب». وهذا يدل على أن في النفس الإنسانية قدرة على الإحساس بالبر، أو حاسة خاصة تحس به، ومثل ذلك يوجد في القلب أيضاً، بل القلب أحرى بمثل هذه

الحاسة وأجدر بها، فالضمير أو الحس الأخلاقي موجود في النفس وموجود في القلب، أو آثاره تظهر فيهما.

وقد نتساءل: هل يوجد انفصال بين النفس والقلب؟.

ونجيب بأنه قد يكون الجهاز العام واحداً غير أن منافذ الإحساس متعددة، ولكل منها خصائصه: فالنفس يغلب عليها أنها مجمع الغرائز والأهواء والشهوات والمخاوف والمطامع، والقلب مجمع التفكير والعواطف الثابتة. وفي الباب الثاني من هذا الكتاب تفصيل المفاهيم الإسلامية المتعلقة بالنفس والقلب والصدر وغيرها.

وعلى الرغم من أنّ النفس هي مجمع الغرائز والأهواء والشهوات والمخاوف والمطامع، فإنها تستحسن محاسن الأخلاق، وتستقبح مساويها، وهي بطبيعتها تميل إلى أن تعامل من قبل الآخرين بالخلق الحسن، وتنفر من أن تُعامل بالخلق القبيح، فلديها إحساس بهما، إذا كانت نفساً سليمة من العلل، بريئة من الأمراض، سواء أكانت هذه أصيلة فيها أو طارئة عليها، وأما القلب الذي هو مركز التفكير مع العواطف أو مجمعهما أو آثارهما تتجمع فيه، فمن الطبيعي فيه أن يكون لديه هذا الإحساس، لأن عمدته الفكر السليم والفطرة الصافية، وحين نرجع إلى ضمائرنا نشعر بذلك.

فالبرّ المفسّر في كلام الرسول بأنه حسن الخلق يفعله الإنسان السوي وهو مطمئن القلب، ومطمئن النفس، أمّا الإثم فإنَّ الإنسان السويّ لا يقدم عليه إلّا وفي نفسه قلق منه، وفي صدره تردّد واضطراب.

والطمأنينة في النفس والقلب علامة على أنّ العمل هو من أعمال البرّ، والتردّد والاضطراب فيهما وخوف اطلاع الناس على العمل أو على الغرض منه علامة على أنه من أعمال الإثم.

ولكن قد يختلط الأمر في بعض الأعمال على العقل والضمير، ويلتبس عليهما وجه الحق، فيكونان حينئذٍ بحاجة إلى هداية وتبصير، وقد تطغى عليهما الأهواء والشهوات أو العادات والتقاليد، أو يؤثر عليهما القادة المضلّون،

أو الشياطين الموسوسون من الجنّ والإنس. وفي هاتين الحالتين تقف الشريعة الربّانية فيها هداية وتبصير، فتدلّ بنصوصها أو بأماراتها على نوع الحكم الأخلاقي وعلى درجته.

وسبب اختلاط الأمر والتباسه على الحسّ الأخلاقي في الإنسان، قد يكون راجعاً إلى اشتباه القضية الأخلاقية، وغموض مدرك الحكم فيها، وعدم ظهور وجه الحقّ والخير.

وطريقة المسلم في هذه الحالة هي اتقاء الشبهات، فإذا كان اتقاء الشبهات في جانب الترك ـ لأن الأمر مشتبه بين الحلال والحرام ـ كان الأفضل والخير للمسلم أن يترك العمل المشتبه فيه، خشية الوقوع في الحرام، وإذا كان اتقاء الشبهات في جانب الفعل ـ لأن الأمر مشتبه بين الحلال والواجب ـ كان الأفضل والخير للمسلم أن يأتي بالعمل المشتبه فيه، خشية الوقوع في ترك الواجب، أي خشية الوقوع في الحرام، لأن ترك الواجب حرام.

والدليل على هذه الطريقة التي ينبغي للمسلم أن يتبعها، ما رواه البخاري ومسلم من عدة طرق، عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنّ الحلال بيّن، وإنّ الحرام بيّن، وبينهما مشتبهات، لا يعلمهنّ كثير من الناس، فمن اتّقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه. ألا وإنّ لكلّ ملكٍ حمىً، ألا وإنّ حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب».

فهذا الحديث يحدّد ويصور بمنتهى الروعة والدقة واقع حال إدراك الناس للخير والشر، والحقّ والباطل، فمن ذلك ما هو واضح لا غموض فيه، ومنه ما هو مشتبه يخفى واقع حاله على كثير من الناس، وهنا يقع الخلاف، ويقع الالتباس، والأفضل للمسلم دائماً اتقاء الشبهات، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه عند الله، واستبرأ لعرضه عند الناس، وسيأتي شرح موسّع لهذا الحديث إن شاء الله.

ويدلّ عليه أيضاً ما رواه الترمذي عن الحسن بن علي بن أبي طالب قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«**دَعْ ما يَريبك إلى ما لا يريبك، فإنّ الصدق طمأنينة والكذب ريبة**»: قال الترمذي: حديث صحيح.

أي دع ما يحدث في قلبك الاضطراب والقلق والشكّ بسوء العاقبة والوقوع في الشرّ والإثم، إلى ما لا يحدث في قلبك شيئاً من ذلك، بل يحدث في قلبك الطمأنينة والراحة والأمن.

ثمّ مثل الرسول صلى الله عليه وسلم لما يحدث الطمأنينة بالصدق، ومثّل لما يحدث الريبة بالكذب، فالكاذب مرتاب قلق، والصادق مطمئنّ النفس آمن.

وفي هذا إشارة إلى أن التزام الفضيلة الخلقية ممّا يورث في النفس سعادة الطمأنينة، بخلاف القلق الذي ينشأ عن الريبة فهو عذاب للنفس، وألم ممضّ مقضٌّ للمضاجع.

وظاهر في هذا الحديث التنبيه على الحسّ الأخلاقي الموجود في ضمير الإنسان، وهذا الحسّ الأخلاقي يتمثل في بعض أحواله بالشكّ والتردّد، وحينما يوجد هذا الريب المقلق للنفس فالحكمة تقضي بالبعد عمّا يحدث الريب، والأخذ في الطريق الذي لا ريب فيه، ما دام يوجد أمام الإنسان طريق فيه طمأنينة وراحة للنفس وأمن.

ولّما كان الإنسان مزوداً في فطرته بحسّ أخلاقي كافٍ لإدراك الخير والشرّ والحقّ والباطل، كان قادراً على أن يحاسب نفسه على عمله حساباً دقيقاً، ولذلك يقال له يوم القيامة عند تسليمه كتاب عمله الذي عمله في الحياة الدنيا:

﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾.

فيحال على محكمة الضمير ليعرف بنفسه ما له وما عليه؛ قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾.

طائره: أي عمله الذي يصدر عنه وينطلق فلا يستطاع إرجاعه.

ثمّ تجري محاسبته بعد ذلك ليرى أنّ محكمة العدل الربّانية محكمة لا تظلم أحداً.

وأشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الحسّ الأخلاقي الموجود في قلب كل مسلم بالحديث الذي رواه رزين والآجريّ والحاكم ـ وقال صحيح على شرط مسلم ـ عن ابن مسعود، ورواه أحمد والترمذي والنسائي عن النواس بن سمعان، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جَنبتي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتّحة، وعلى الأبواب ستورٌ مرخاة، وعند رأس الصراط داعٍ يقول: استقيموا على الصراط ولا تعوجّوا، وفوق ذلك داعٍ يدعو كلّما همّ عبد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنّك إن تفتحه تَلِجْهُ».

ثمّ فسّره فأخبر: «أنّ الصراط هو الإسلام، وأنّ الأبواب المفتحة محارم الله، وأنّ الستور المرخاة حدود الله، وأنّ الداعي على رأس الصراط هو القرآن، وأنّ الداعي من فوقه واعظ الله في قلب كلّ مؤمن».

فهذا الوعظ الذي في قلب كلّ مؤمن هو الحسّ الأخلاقي.

* * *

تربية الضمير الأخلاقي:

يخضع الضمير الأخلاقي الفطري لأصول التربية وقواعدها، إذ هو قابل للتنمية بممارسة عواطف الخير، وبدراسة كمال فضائل الأخلاق، وما تعطيه من ثمرات فردية واجتماعية ـ عاجلة وآجلة ـ وبمواعظ الهداية الدينية والنصائح والوصايا الربّانية، وبوسائل الترغيب والترهيب، والقدوة الحسنة، وقصص البطولات الأخلاقية، وغير ذلك من وسائل تربوية.

وخير ضابط له، وأفضل قائد وموجّه، التزام طاعة الله، وخير صيانة له صيانته لتقوى الله وخوف عقابه ورجاء ثوابه.

وإهمال تربية الضمير الأخلاقي مّما يضعفه، ويجعله يضمر ويتناقص حتى يفقد الحسّ النبيل، ثم يموت. وقد يفسد ويتحول بوسائل التربية المفسدة، حتى يكون جندياً من جنود شيطان الإنسان، ومؤازراً له في وساوسه ونزغاته.

* * *

قواعد لهداية البصيرة الأخلاقية:

إضافة إلى الأسس العامة الموجودة في فطرة النفس الإنسانية فكراً وإحساساً داخلياً ووجداناً، والتي عبّر عنها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: «الحلال بيّن والحرام بيّن» توجد قواعد هادية للبصيرة الأخلاقية، نبّه عليها الرسول صلى الله عليه وسلم، منها ما يلي:

القاعدة الأولى: حفت النار بالشهوات وحفت الجنة بالمكاره.

القاعدة الثانية: عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به.

القاعدة الثالثة: فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه.

(أ) فالقاعدة الأولى جاءت فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره».

وفي رواية لمسلم:

«حُفَّت النار بالشهوات، وحفّت الجنة بالمكاره».

وقد اشتمل هذا البيان النبوي على قاعدة أساسية مرشدة للبصيرة الأخلاقية لدى الإنسان، فإذا عُمِّي أمر السلوك الأخلاقي على هذه البصيرة، هل هو إلى جانب الخير أو إلى جانب الشرّ، استطاعت هذه القاعدة أن تساعد على معرفة الحقيقة. فإذا كان السلوك من الشهوات التي تلذّها الأنفس، كان ذلك مرجّحاً لجانب المنع على جانب الإباحة لأنّ النار حفّت بالشهوات.

وإذا كان السلوك من الأمور الثقيلة على الأنفس والمكروهة لها، لأنه يخالف هوى من أهوائها أو شهوة من شهواتها، كان ذلك مرجّحاً لجانب الخير، لأنّ الجنة حفّت بالمكاره.

وقلّما يفعل الإنسان الفضيلة حتى يقتحم عقبة من عقبات نفسه، وهذا ما أشار إليه القرآن في وصف الإنسان، بقول الله تعالى في سورة (البلد ٩٠):

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ ﴾.

مسغبة: مجاعة. مقربة: قرابة. متربة: فقر ملصق بالتراب.

وعقبات النفس كثيرة، منها عقبة الشحّ التي تمنع الإنسان عن البذل، واقتحامها يكون بمغالبة النفس، وإلزامها بالبذل في سبيل الله، كالبذل في عتق الرقاب، وإطعام الأيتام والمساكين في الأيام التي تكون الحاجة فيها شديدة إلى الطعام. ومنها عقبة المكاره أو المصائب أو المؤلمات، وعقبة الجهاد في سبيل الله، وعقبة ترك المحرمات، وعقبة القيام بالواجبات، واقتحام هذه العقبات إنما يكون بالصبر وسعة الصدر وقوة الإرادة. ومنها عقبة الأنانية المفرطة، واقتحامها يكون بمغالبة النفس وتغذيتها بمشاعر المرحمة.

وكلّ ذلك من قبيل المكاره التي تتحملها النفوس على غير هواها، وعلى غير ما تشتهي، وتحمُّلها من مكارم الأخلاق يتحلّى بها الإنسان. على أنّ الحدّ الفاصل بين الخير والشرّ قد يكون في بعض الأحوال دقيقاً جدّاً، فإمّا أن ينحرف الإنسان فيكون من أهل النار، وإمّا أن يستقيم فيكون من أهل الجنة.

وانزلاق الإنسان إلى مواقع النار قد يكون بخطوة واحدة، وارتقاء الإنسان إلى مراتب الجنة قد يكون بخطوة واحدة. روى البخاري عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«الجنة أقرب إلى أحدكم من شِراكِ نعله، والنار مثل ذلك».

(ب) وأمّاة القاعدة الثانية، وهي: عامل الناس بما تحبّ أن يعاملوك به، فقد جاء معناها في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث طويل رواه مسلم عن عبدالله بن عمرو، وفيه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

«فمن أحبّ أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحبّ أن يُـؤتَى إليه»[1].

وهذه القاعدة تشتمل على ميزان دقيق يهدي البصيرة الأخلاقية إلى فضائل السلوك الأخلاقي، كلّما اشتبه على الإنسان أمر السلوك، وفي تطبيق هذه القاعدة ينبغي للإنسان أن يضع نفسه في مكان الآخرين، ويفترض أنّ الأمر كان معكوساً، فالأمر الذي يستحسنه لنفسه من الآخرين مـمّا لا معصية لله فيه، هو الأمر الذي تدعو إليه الفضيلة الخلقية، أو يدعو إليه السلوك الأحسن في معاملة الناس.

وعلى المؤمن بناءً على هذا أن يحبّ لأخيه المؤمن ما يحبّ لنفسه، وهذا ما جاء بيانه في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

روى البخاري ومسلم عن أنس أنّ النبـيّ صلى الله عليه وسلم قال:

«لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه».

يشتمل هذا الحديث على قاعدة تصلح لأن تكون من كبريات القواعد الهادية للبصيرة الخلقية، فلدى التأمّل يتبينّ لنا أنّ معظم الأخلاق الاجتماعية الكريمة تعتمد على هذه القاعدة، وهي أن يحبّ المرء لأخيه ما يحبّ لنفسه، ومن لاحظ هذه القاعدة والتزم مضمونها في سلوكه الاجتماعي استقام سلوكه، وكان سلوكاً أخلاقياً رفيعاً.

إنّ من يعامل الناس على أساس أن يحبّ لهم ما يحبّ لنفسه تماماً فإنه

---

(١) أول الحديث: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فنزلنا منزلاً. وأول كلام الرسول فيه: إنّه لم يكن نبـي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم. انظر: رياض الصالحين، رقم الحديث ٦٦٦.

سيعاملهم حتماً بكل خلق رفيع، لأن هذا هو ما يحبّ أن يعامله الناس به إذ يحبّه لنفسه، وحين يحبّ الإنسان لغيره ما يحبّ لنفسه يعامله كأنه يعامل نفساً ثانية له. ومن هنا تنبع معظم فضائل الأخلاق الاجتماعية، ومن هنا يندفع المسلم إلى أن يكون صادقاً مع أخيه، لأنه يحبّ أن يصدقه الناس ويكره أن يكذبوه. ويندفع إلى أن يكون أميناً على مال أخيه وعرضه وشرفه، لأنه يحب أن يعامله الناس بأمانة على ماله وعرضه وشرفه، ويكره أن يخونوه في شيء من ذلك. ويندفع إلى مساعدة أخيه ومعاونته في مال، أو علم، أو جاه، أو خدمة جسدية، أو نصيحة طيبة، أو دعوة صالحة، أو شفاعة حسنة، لأنه يحب لنفسه مثل ذلك من إخوانه، ويكره منهم أن يضنّوا عليه بمعونة أو مساعدة في شيء من ذلك. ويندفع إلى دعوة أخيه إلى الإيمان الصادق والعمل الصالح، لأنه قد أحبّ لنفسه هذا فهو يحبّ لأخيه ما أحبّ لنفسه.

ومن هنا يجد المسلم نفسه مدفوعاً إلى الصبر على أخيه المسلم كلّما دعت ظروف التعامل إلى الصبر، لأنه يحبّ من الناس أن يصبروا عليه، كلّما بدر منه ما لا يقبله الناس منه إلاّ بصبر. ويجد المسلم نفسه مدفوعاً إلى العفو والصفح والمسامحة والإغضاء عن الهفوات والسيئات، كلّما وجد من إخوانه ما يسوؤه من تصرفاتهم معه، لأنه يحبّ من الناس أن يعاملوه بالصفح والعفو والمسامحة والإغضاء عن الهفوات والسيئات، كلّما بدر منه من تصرفات تسوء إخوانه. ويجد نفسه مدفوعاً إلى ستر عيوب إخوانه وعدم نشرها بين الناس وعدم فضيحتهم بها، فهو إذن يكفّ عن غيبتهم، والحديث عنهم بما يكرهون، ويحاول جاهداً ستر عيوبهم، ويحرص على أن ينصحهم سراً ما وجد إلى ذلك سبيلاً، لا أن ينصحهم علناً بين الناس، كاشفاً عيوبهم، لأنّ ذلك فضيحة لا نصيحة، وهو يعاملهم بهذا لأنه يحبّ لنفسه من إخوانه مثل ذلك. ويكره منهم أن ينشروا معايبه، ويغتابوه بما يكره، وهو يكره أيضاً منهم أن يوجّهوا له نصائح علنية بترك بعض العيوب التي فيه، لأنّه يرى ذلك فضيحة له، وهو يكره الفضيحة.

وهكذا نلاحظ بالتتبع تدفّق كثير من الفضائل الخلقية الاجتماعية من منبع هذه القاعدة الخلقية: أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه.

ففي هذا الحديث تأصيل لقاعدة عظيمة من قواعد التربية الخلقية، والهاذية للبصيرة الأخلاقية إلى كثير من فضائل الأخلاق.

وربط الحديث هذه القاعدة بالإيمان، لأنّ الإيمان هو المنبع الأساسي الأمثل لكل فضيلة في السلوك، سواء أكان سلوكاً يدخل في باب الأخلاق، أو في باب الآداب، أو في أي باب آخر من أبواب السلوك، وسواء أكان سلوكاً فردياً أو سلوكاً اجتماعياً.

الإيمان الصحيح الكامل طاقة عظيمة مقوّمة لسلوك الإنسان، ومن أجل ذلك اهتم الإسلام في الدرجة الأولى بغرس الإيمان في قلوب المسلمين، وجعله الأساس الأول الذي تبنى عليه كلّ التعاليم الإسلامية، وربط به كلّ الفضائل.

وفي ربط كل سلوك المسلم بالقاعدة الإيمانية توحيد للمنطلق النفسي وللمنطلق الفكري في كيان الإنسان، وفي هذا بُعْدٌ عن التعقيد، ولجوء إلى البساطة الفطرية، التي تناسب واقع حال الإنسان، ومع هذه البساطة الفطرية التي لا تعقيد فيها تتجلّى الحقيقة بكلّ إشراقها ونقائها، وبكلّ نورها وصفائها.

وماذا يطلب الباحث الحصيف غير الحقيقة البسيطة المنسجمة مع أفضل ما يُصلح الإنسان كلَّ الإنسان فكراً ونفساً وقلباً وسلوكاً؟.

وهذا ما يسعى للوصول إليه كلّ المخلصين من العلماء والباحثين الإنسانيين، من الفلاسفة، وعلماء الأخلاق، وعلماء الاجتماع، ولكن يصل إليه منِ يهتدي بهدي الإسلام، أو يسترشد بنور الفكر المشرق بنور الله، ويضلّ عنه من يخوض في متاهات الأهواء، ويتبع خطوات الشياطين، وينخدع بفلسفات المضلين.

الإيمان هو أعظم جوهرة في الوجود تنزّلت من السماء، فتلقّفتها قلوب المؤمنين، فاحتفظت بها كنزاً ثميناً، فأشرقت في حياتهم عملاً صالحاً، وخلقاً كريماً.

والإيمان أعظم عنصر مسعد في حياة الإنسان، لا يعرف قيمته إلّا من ذاق

حلاوته، وللإيمان حلاوة عجيبة يذوقها المؤمنون حينما يعملون أعمالاً يقتضيها الإيمان، وحينما يستجيبون لندائه في عمل من أعماله، أو ظاهرة من ظواهره، يعرف هذا من جرّبه، ويجهله من جهله.

(ج) وأمّا القاعدة الثالثة، وهي: «فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه».

فقد سبق بيانها، وفيما يلي شرح الحديث المشتمل عليها شرحاً موسعاً.

قاعدة السلوك الديني والأخلاقي بالنسبة إلى المشتبهات:

روى البخاري ومسلم من عدّة طرق عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«إنّ الحلال بيّن، وإن الحرام بيّن، وبينهما مشتبهات لا يعلمهنّ كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه. ألا وإنّ لكلّ ملكٍ حمىً، ألا وإنّ حِمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب».

هذا الحديث من الأحاديث الأصول الجوامع، وفيه كليات عظيمة تتصل بأمهاتٍ سلوكية وأخلاقية أوصى بها الإسلام.

وهو يشتمل على قاعدة التقسيم الثلاثي للأحكام الدينية والأخلاقية:

القسم الأول: قسم الحلال، والحلال الصرف الذي لم تخالطه شبهة بيّن واضح، لا يختلف فيه الناس، ولا تتأثم منه النفوس ولا تتحرج، وكل إنسان يأتيه وهو مرتاح الضمير مطمئن الفؤاد، لا يخشى أن يطلع عليه الناس وهو ملتبس به.

ومجالات الحلال في الحياة كثيرة، والنفوس بفطرتها تعرفها وتحس بها، ويهديها إليها الحس الأخلاقي الذي أودعه الخالق العظيم في فطر النفوس.

وهذا القسم هو مادل عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث: «إنّ الحلال بيّن».

القسم الثاني: قسم الحرام، والحرام الصرف هو أيضاً بيّن واضح، لا يختلف فيه عقلاء الناس ومفكروهم وأصحاء البصيرة الأخلاقية منهم، ولا يفعله الفاعل منهم إلاّ وفي نفسه من فعله حرجٌ وشعورٌ بالإثم، وكل سليم البصيرة يأتيه إذا أتاه وهو يشعر بوخز في الضمير، وقلق في الفؤاد، وخوف من سوء المصير ومن سوء العقاب بالعدل.

ومجالات الحرام في الحياة كثيرة، والنفوس بفطرتها تعرفها وتحسّ بها، ويهديها إليها الحس الأخلاقي الذي أودعه الله الخالق العظيم في فطر النفوس.

وهذا القسم هو ما دل عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث: «وإنّ الحرام بيّن».

القسم الثالث: هو ما بين الحلال والحرام، وتدخل هنا أمور مشتبهات الأحكام، لها شبه من الحلال ولها شبه من الحرام. وهذه الأمور تختلط على كثير من الناس فلا يميزون أحكامها، ولا يعلمون وجوه حلالها من وجوه حرامها، لاختلاط العناصر فيها اختلاطاً يصعب معه التميز فيما بينها عند كثير من الناس؛ وهذه قد سماها الرسول صلى الله عليه وسلم مشتبهات، هكذا بصيغة الجمع لا بصيغة الإفراد، إشارة إلى أن هذا الوسط يقع في درجات، فمشتبه من الدرجة الدنيا القريبة من الحلال البيّن، ومشتبه من الدرجة العليا القريبة من الحرام البيّن، ومتوسطات بين هاتين الدرجتين.

والرسول صلى الله عليه وسلم يعطي قاعدة السلوك بالنسبة إلى هذه المشتبهات وهي البعد عن كل ما فيه شبهة.

والشبهة في الأمر هو الالتباس فيه، من جراء اختلاط عناصر مختلفة الأصول اختلاطاً متداخلاً من غير تمييز، والأمر المختلط العناصر المتباينة يعطي شبهاً من كل منها، فتارة يراه الناظر إليه مشبهاً أحد المتباينين، وأخرى يراه مشبهاً الآخر، فيلتبس عليه الأمر، هل يُلْحقه بهذا أو بهذا.

ومن أجل هذا يقال لغة: أمور مشتبهة، أي مشكلة يشبه بعضها بعضاً. والأسلم للإنسان أن يترك ما اشتبه عليه ويعمل ما لا شبهة فيه، وهذا ما أوصى به الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله في الحديث: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه» أي طلب البُرء والسلامة من الإثم لدينه، ومن العيب لعرضه.

والمشتبهات أمور مشكوك في حلها مرتاب في حرمتها، والأسلم الأبرأ للإنسان أن يتركها ولا يأتيها، ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» رواه الترمذي عن الحسن بن علي، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وعن عطية بن عروة السعدي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به بأس».

رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

وما دام الأمر متموجاً بين الحلال والحرام غير بيّن الوجه، فإنّ الواقع فيه مجازف بنفسه، واقع في الحرام لا محالة، وذلك لوجهين:

الوجه الأول: أن يكون في الأمر عناصر محرمة قطعاً، فهو يقع فيها مع خليط الحلال، وترك الحلال من أجل المخالط الحرام هو الواجب للسلامة وبراءة الذمة من الإثم والنقيصة.

الوجه الثاني: أن تكون الشبهة آتية من مجاورة حدود الحرام مجاورة تُلقي ظلال الحرام على المباح، وحينما يقع الإنسان بالمباح المختلط بظلال الحرام يهون عليه القرب من الحرام والدخول في حدوده شيئاً فشيئاً، ثم اجتناء ثمرته الخبيثة، وهذا ما أوضحه الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث بقوله: «ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه».

وبعد أن وضع الرسول صلى الله عليه وسلم قاعدة السلوك الديني

والأخلاقي بالنسبة إلى المشتبهات قال: «ألا وإن لكل ملكٍ حمىً، ألا وإن حمى الله محارمه» الحمى: هو ما يُحْمى ويحفظ من أي داخل إليه.

وفي هذا كشف لخطورة مواقع الحرام، إن مواقع الحرام هي حمى الله، واقتحام حمى الله أمرٌ خطير، وليس باليسير.

إذا كان الناس يخشون حمى ملوكهم، ويحذرون اقتحام حدودها، لأن هؤلاء الملوك يملكون القدرة على العقاب والانتقام، فكيف بمن يقتحم حمى ملك الملوك الذي بيده ملكوت السماوات والأرض والقادر على كل شيء؟!. ألا وإن حمى الله محارمه.

أما الوسيلة الجذرية العميقة لتقويم السلوك وضبط النفس دون حدود حمى الله التي هي محارمه، فهي وسيلة إصلاح أعمق ما في الإنسان، ألا وهو قلبه، المضغة الصغيرة في الجسد التي إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، فالعناية كلها ينبغي أن تتوجه لإصلاح القلب. إنه نواة الإنسان، وبذرة شجرته كلها، والعناية بالظاهر دون القلب لا تغني، وكم من الناس مَنْ تشغلهم الظواهر ويهملون أمر القلوب.

فهذا الحديث من جوامع كلمِ الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أنه اقتصر على جناح الحرام، ولم يذكر جناح الواجب، وباستطاعتنا أن نقيس جناح الواجب على جناح الحرام، في كل ما جاء فيه، أو نُدْخل جناح الواجب في عموم جناح الحرام باعتبار أن الواجب حرام تركه، فنعمم الحرام ونجعله شاملاً لما هو حرام الفعل وحرام الترك.

وهذا من بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن إيجازه، ومن جوامع كلِمِه.

— ٤ —
الغاية من التزام قواعد الأخلاق

لدى التأمل في النصوص الإسلامية والمفاهيم العامة المقتبسة منها: نلاحظ أن الغاية من التزام فضائل الأخلاق والابتعاد عن رذائلها تنقسم إلى عنصرين:

العنصر الأول:

اكتساب مرضاة الله تعالى الخالق الرازق المنعم المحيي المميت، الذي يجازي على الحسنة بأضعافها، ويجازي على السيئة بمثلها، فإنه سبحانه يحب فعل الخير، ويكره فعل الشر، ومن استطاع أن يرضي الله تعالى بعمله الصالح ظفر بمقدار عظيم من سعادة الحياة الدنيا في دار الابتلاء، وظفر بمقدار أجل وأعظم من سعادة الآخرة في دار الجزاء.

والتزام مكارم الأخلاق التي أمر بها الإسلام أو رغب بفعلها، واجتناب نقائص الأخلاق التي نهى عنها الإسلام أو رغب بتركها، من الأعمال الصالحات التي يظفر عاملوها بنسب من مرضاة الله تعالى ملائمة لمقادير أعمالهم ونياتهم، ولذلك يكون نصيبهم من سعادة القلب وسعادة الجزاء المعجّل في الحياة الدنيا؛ على مقدار ما حققوا بأعمالهم ونياتهم من مرضاة الله تعالى، ويكون نصيبهم المضاعف من السعادة العظمى في الآخرة ملائماً لما حققوه بأعمالهم ونياتهم من مرضاة الله جل وعلا.

وباكتساب مرضاة الله تعالى تتحقق النجاة من الشقاوة والتعاسة، التي يجلبها الإنسان لنفسه بإسخاط ربه، فيما يقوم به من أعمال سيئات.

وهذا الجزاء المسعد لا يظفر به إلا من ابتغى مرضاة الله فأخلص له النية فيما يقوم به من صالح العمل.

هذا العنصر يتلخص:

أولاً: بالظفر بسعادة معجلة دنيا، وسعادة مؤجلة أبدية خالدة، وهاتان السعادتان تأتيان جزاءً على أعمال صالحة ابتغي بها وجه الله تبارك وتعالى، وذلك لا يكون إلا مع الإيمان بالله.

ثانياً: بالنجاة من شقاوة يجلبها الإنسان لنفسه، بإسخاط ربه فيما يقوم به من أعمال سيئة، يخالف بها أوامر ربه ونواهيه.

العنصر الثاني:

تحقيق أقساط من السعادة المستطاعة التحقيق في ظروف الحياة الدنيا، وهي أنواع السعادة التي تمنحها سنن الله في كونه، الشاملة لجميع خلقه، من آمن به منهم ومن كفر به، والنجاة من أقساط من الشقاوة التي تجلبها الجرائم والجنايات وفق سنن الله في كونه، الشاملة لجميع خلقه، من آمن به منهم ومن كفر به.

والتزام قواعد الأخلاق الإسلامية كفيل بتحقيق أكبر نسبة من هذه السعادة للفرد الإنساني، وللجماعة الإنسانية، ثم لسائر الشركاء في الحياة على هذه الأرض وذلك بطريقة بارعة جداً يتم فيها التوفيق بالنسب المستطاعة بين حاجات ومطالب الفرد من جهة، وحاجات ومطالب الجماعة من جهة أخرى، ويتم فيها إعطاء كل ذي حق حقه، أو قسطاً من حقه وفق نسبة عادلة اقتضاها التوزيع العام المحفوف بالحق والعدل.

فمن الواضح في هذا العنصر أن أسس الأخلاق الإسلامية لم تهمل ابتغاء سعادة الفرد الذي يمارس فضائل الأخلاق ويجتنب رذائلها، ولم تهمل ابتغاء سعادة الجماعة التي تتعامل فيما بينها بفضائل الأخلاق مبتعدة عن رذائلها.

وروعة الأخلاق التي أرشد إليها الإسلام، تظهر فيما اشتملت عليه من التوفيق العجيب بين المطالب المختلفة للفرد من جهة، وللجماعة من جهة أخرى، وتظهر فيما تحققه من وحدات السعادة الجزئية في ظروف الحياة الدنيا، بقدر ما تسمح به سنن الكون الدائمة الثابتة، التي تشمل جميع العاملين، مؤمنين بالله أو كافرين، أخلصوا له النية أو لم يخلصوا.

بخلاف العنصر الأول فإنه لا يتحقق إلا لمن آمن بالله وأخلص له في العمل.

عناصر السعادة:

وحين نتساءل عن العناصر التي يشعر الإنسان فيها بالسعادة نجد أن أهم هذه العناصر مشاعر اللذات، ومشاعر الخلو من الآلام.

ولذات الجسد وآلام الجسد أهون اللذات والآلام قيمة، ولكنها تدخل ضمن الوحدات الجزئية التي تمنح الإنسان قسطاً من السعادة، كرذاذ سريع الجفاف ولا يملأ ساحة النفس والقلب والروح.

وفوقها تأتي لذات النفس وآلامها، فهي أعمق وأشمل، ومدة بقائها أطول.

وفوقهما تأتي لذات الروح وآلامها، فهي أعمق منهما؛ وأشمل منهما، وأبقى منهما.

وقد تطغى لذة النفس على ألم الجسد فلا يشعر الإنسان بألم الجسد، وقد تطغى لذة الروح على ألم النفس فلا يشعر الإنسان بألم النفس.

فمغانم السعادة تأتي على مقدار قيمتها الحقيقية.

وقد تطغى آلام النفس على لذات الجسد، فلا تكون للذات الجسد أية قيمة، وقد تطغى آلام الروح على لذات النفس، فلا تكون للذات النفس أية قيمة، فمصائب التعاسة والشقاء تأتي على مقدار قيمتها الحقيقية أيضاً.

فأعلى أنواع السعادة ما يأتي عن طريق لذات الروح، وينبع من داخل كيان الإنسان. وأشد أنواع التعاسة والشقاء ما يأتي عن طريق آلام الروح، وينبع من داخل كيان الإنسان، ولا يأتيه من خارج عنه. ودون ما يأتي عن طريق الروح ما يأتي عن طريق النفس، ودونهما ما يأتي عن طريق الجسد.

وهذا الذي نبهت عليه النصوص الإسلامية، هو ما انتهى إليه معظم عقلاء الفلاسفة والأخلاقيين والمفكرين المنصفين.

ومما لا ريب فيه أن أنواع اللذات كلها قد تساهم مساهمة ما في اغتنام

أقساط من السعادة، ما لم تعارضها آلام أشد منها وأقوى وأدخل في أعماق الإنسان. كما أن أنواع الآلام كلها قد تساهم مساهمة ما في الإصابة بأقساط من التعاسة والشقاء، ما لم تعارضها لذات أشد منها وأقوى وأدخل في أعماق كيان الإنسان.

والإسلام لم يهمل أي نوع من أنواع اللذات والآلام، ولكنه قد أدخلها جميعاً في حسابه، ثم أقام قواعد التوفيق الأخلاقي على هذا الأساس.

وبالإضافة إلى ملاحظة اللذات والآلام لاغتنام أكبر قسط مستطاع من السعادة للفرد والمجتمع، أدخلت الأخلاق الإسلامية في حسابها ـ الذي أقامت عليه قواعد الأخلاق ـ المصالح والمفاسد، والمنافع والمضار، العاجل من كل ذاك والآجل للفرد وللجماعة، وأجرت بين المتعارضات منها موازنات وتوفيقات عجيبة، كفيلة بجلب أعظم نسبة مستطاعة من الخير، ودفع أكبر نسبة يستطاع دفعها من الشر، مع المحافظة على العدل بين ذوي الحقوق، ضمن ظروف هذه الحياة الدنيا.

وفي الشريعة الإسلامية وفرة من النصوص المشيرة إلى السعادة بوصفها غاية منشودة، وإلى اللذة بوصفها أمراً قد توجد به أو معه السعادة.

ووفرة أيضاً من النصوص المشيرة إلى الشقاء الذي يدخل الحذر منه واتخاذ الوسائل لتفاديه ضمن الغاية المنشودة، ومن النصوص المشيرة إلى الألم بوصفه أمراً قد يوجد به أو معه الشقاء.

فمن هذه النصوص ما يلي:

(أ) يقول الله تبارك وتعالى في معرض الحديث عن يوم القيامة في سورة (هود ١١):

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ

إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

ففي هذا النص القرآني بيان للغاية العظمى التي ينشدها المؤمنون الذين يعملون الصالحات، ألا وهو نيل السعادة الخالدة والنجاة من الشقاء. وفيه أيضاً بيان أن الناس في النتيجة ينقسمون إلى فريقين:

١ ـ فريق شقي.

٢ ـ وفريق سعيد.

أما الفريق الشقي فهو الفريق الذي جحد وكفر وعمل عملاً سيئاً، استجابة لأهوائه وشهواته الأنانية، واتباعاً لخطوات الشيطان.

وأما الفريق السعيد فهو الفريق الذي آمن وأطاع واتقى وعمل عملاً صالحاً، استجابة لله وللرسول، وتلبية لدعوة الخير التي فيها حياة ناعمة سعيدة لمن استجاب لها.

(ب) ويقول الله تعالى في وصف الجنة في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

تُحْبرون: تتنعمون وتسعدون.

ففي هذا النص بيان لأنواع من اللذات المسعدة، ومنها لذات النظر، إذ قال تعالى: ﴿وتلذ الأعين﴾.

واللذة إحساس مسعد تشعر به النفس، وقد يكون طريقه إحدى الحواس الجسدية الظاهرة.

(ج) ويقول الله تعالى في سورة (الصافات ٣٧):

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

ففي هذا النص تنويه باللذة التي تأتي عن طريق الفم.

(د) واستعمل القرآن تعبيراً أعم وأشمل من لفظ اللذة، هو التعبير بكلمة النعيم، للدلالة على أنواع من السعادة.

فمن ذلك قول الله تعالى في سورة (الانفطار ٨٢):

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (الطور ٥٢):

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾.

فاكهين: يتفكهون بأصناف الملاذ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومناكح وغير ذلك.

ومن أجل ذلك تكرر في القرآن تسمية الجنة بأنها جنة النعيم، وتسمية الجنات بأنها جنات النعيم، إشعاراً بأن النعيم فيها من العناصر المسعدة لأصحابها المنعمين فيها.

(هـ) ولكن في الجنة ما هو أكبر من نعيمها، مما يحقق لأهلها سعادة أعظم، ألا وهو رضوان من الله، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ

فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾.

فهذا الرضوان يمنح المؤمنين في الجنة سعادة أكبر من السعادة التي يمنحها النعيم وأنواع اللذات المادية والمعنوية المختلفة.

(و) وجاء التعبير عن الآلام المشقية لأهل الشقاء بعدة ألفاظ، منها الألم، ومنها العذاب، والآلام منها آلام حسية، ومنها آلام نفسية، فمن ذلك قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾.

وفي العذاب المعنوي يقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ ﴾.

فالإهانة تتضمن عذاباً معنوياً شديد الألم، وربما يكون العذاب المعنوي أشد إيلاماً من العذاب المادي الحسي.

وبدهي أن أنواع العذاب متفاوتة، ولذلك قال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

وكذلك تتفاوت أنواع النعيم ودرجات اللذات.

وبهذا البيان يظهر لنا أن الغاية التي يرشد إليها الإسلام من التزام قواعد الأخلاق الإسلامية تقع في مركز القمة.

أما بحوث الباحثين الأخلاقيين المخلصين في البحث العلمي فإنها ـ ما لم تطابق ما جاء في الإسلام ـ تظل من دون القمة التي ارتقت إليها المفاهيم الإسلامية.

* * *

لمحة عن نظرات الفلاسفة والباحثين في علم الأخلاق:

بحث الفلاسفة القدماء، والفلاسفة المتوسطون، وفلاسفة المدنية الحديثة عن الغاية من التزام قواعد الأخلاق، فاتجه معظمهم إلى أن السعادة هي الغاية من التزام فضائل الأخلاق واجتناب رذائلها، ولكنهم جميعاً عدا أهل الإيمان لم يدركوا غير العنصر الدنيوي الذي تقتضيه سنن الكون الثابتة، وتقتضيه ـ بحسب نظرهم ـ طبيعة هذه الحياة، ولم يفتهم أن يلاحظوا أثر اللذات والخلو من الآلام في مشاعر السعادة، ولقد دارت جميع بحوثهم في هذا المدار.

ثم إن أكثرهم عقلاً وبصراً في الأمور قـرروا أن السعادة المنشودة لا تأتي من خارج النفس الإنسانية، كالمال والجاه والبنين والشهوات ومتع الجسد ونحو ذلك، ولكنها تأتي من داخل النفس الإنسانية، كلذات القناعة، والرضا، وتحصيل المعارف الكبرى، ولذات فعل الخير وإرضاء الضمير.

وسيطرت الماديات على بعضهم فرأوا أن السعادة إنما تجلبها اللذات المادية، فانطلقوا في المفاهيم الأخلاقية ضمن حدود اللذات المادية، فانحرفوا انحرافاً كبيراً، وكان من بين هؤلاء فريق لم يؤمن بأن للأخلاق غاية تقصد، فدعا إلى إطلاق العنان للأهواء والشهوات، ودعا إلى إنماء الأنانيات الفردية في هذا المجال، وعمل على تهديم الأبنية الأخلاقية السائدة في المجتمعات البشرية.

واستطاع أحسنهم بصراً أن يلاحظ الجماعة ولكن من خلال مشاعر السعادة التي يشعر بها الفرد، وتأتي هذه المشاعر عن طريق مشاعر الإيثار أو المشاركة الوجدانية المعارضة لمشاعر الأنانية، وعن طريق مشاعر الضمير الذي يحس بالخير والشر، وقرروا أن الإنسان يسعد عند شعوره بسعادة الآخرين، ويتألم لآلامهم، وهذا ما يدفعه إلى فعل الخير لأجل الآخرين، ومن هنا تتفجر منابع أخلاق كريمة كثيرة؛ أما سعادة الضمير بفعل الخير وترك الشر، فهي سعادة تتفجر منها فضائل خلقية كثيرة أيضاً.

فالفرد الإنساني في نظرهم يلتزم فضائل الأخلاق ويجتنب رذائلها لأنه يشعر بالسعادة الذاتية إذا هو فعل ذلك، وهذا أسمى ما انتهى عقلاؤهم إليه.

وأفرط بعضهم كالفيلسوف (كانْتْ) فرأى أنه يجب على الإنسان أن يفعل الخير للخير، دون أن يلاحظ شيئاً من الثواب على فعله، حتى ولا مشاعر السعادة الذاتية التي يشعر بها من يفعل الخير، ورأى أن الفضيلة الخلقية ينبغي أن تكون مجردة عن المصلحة الذاتية مطلقاً، وهذا خروج بالإنسانية عن الواقعية إلى أمور خيالية نظرية لا مثال لها في الواقع الإنساني، وإن وجد لها بعض الأمثلة في بعض الأحوال فذلك شذوذ عن الطبيعة الإنسانية العامة. والفضائل ليست لهذا الصنف وحده المتميز عن طبيعة الناس، وإنما هي لجميع الناس، والغرض منها سعادة البشرية بوجه عام، وإصلاح سلوك الناس كل الناس.

فأحسن ما وصل إليه الباحثون في علم الأخلاق، حول موضوع الغاية من التزام فضائل الأخلاق واجتناب رذائلها، هو ما ذكروه من الشعور بالسعادة الذاتية التي يحققها لنفسه الملتزم.

ولكن تبدو لنا في حدود هذا الرأي الناقص مشكلة إصلاح الذين لا يتحسسون بمشاعر السعادة الذاتية عند فعل الخير، ولا يتحسسون بالآلام الذاتية عند فعل الشر، وليس لديهم مشاركة وجدانية لغيرهم في سعادة أو ألم، لأنهم أنانيون مفرطون في أنانياتهم، وكيف يأمن المجتمع شرور هؤلاء، وكيف يظفر المجتمع بأخوّتهم الصحيحة وبالتعاون معهم، وهم في حدود مشاعرهم وأحاسيسهم الذاتية لم يعكروا صفو سعادتهم، وإنما فعلوا ما رأوا فيه سعادة أنفسهم؟!.

لقد قصّرت ههنا وكَبَتْ الفلسفة الإنسانية التي لم تسترشد بتعاليم السماء، ولم تهدها أنوار الإيمان بالله واليوم الآخر، فظهر نقصها وعجزها، إذ لم تستطع أن تأتي بما يضمن إصلاح النسبة العظمى من المجتمع البشري. كما يظهر أيضاً نقصها وعجزها في حدود سعادة الفرد نفسه، وذلك حينما تطغى عليه شهوة من الشهوات، أو يسيطر عليه هوىً من الأهواء، فيرى أن سعادته إنما تتحقق بأن ينال لذات شهوته أو هواه، فتجني عليه هذه اللذات المؤقتة جنايات كبرى، تدفع به إلى جحيم من التعاسة والشقاء والآلام الدائمة.

إن الإنسان وحده من دون إرشادات الوحي وتعاليم الدين الصحيح، لا يكفي لإدراك ما يشقيه ويشقي المجتمع الإنساني، ومن أجل ذلك كان بحاجة شديدة إلى دليل يدله، وعاصم يعصمه عن الانحراف والخطأ. وبحاجة شديدة أيضاً إلى زاجر يزجره، ويساعده على أهواء نفسه وشهواتها، ومرغب يرغبه بالخير، فيساعده بذلك على أهواء نفسه وشهواتها.

أما مشاعر الإيثار والمشاركة الوجدانية والضمير والسعادة الذاتية بفعل الخير، فهي مساعادت تساعد الإنسان على الالتزام بالخير والابتعاد عن الشر، والتقيد بالتعاليم التي أرشد الله إليها عباده، وهي من نعم الله على عبده، حتى يشعر بلذة فعل الخير إذا هو فعله، ويشعر بالنفور من فعل الشر إذا مالت نفسه وأهواؤه إلى فعله.

وتظل الفلسفة الإسلامية في مركز القمة.

— ٥ —

تفنيد مزاعم الماديين الذين يقولـــون بنسبية الأخلاق

في خطة خبيثة لهدم أبنية الأخلاق، أخذ فريق من الماديين الملحدين ينشرون فكرة شيطانية، يزعمون فيها أن الأخلاق أمور اعتبارية نسبية لا ثبات لها، فهي تختلف من شعب إلى شعب، ومن أمة إلى أمة، ومن زمان إلى زمان. فبعض الأمور تعتبر منافية لمكارم الأخلاق عند شعب من الشعوب، أو أمة من الأمم، في حين أنها غير منافية لمكارم الأخلاق عند شعب آخر أو أمة أخرى، وبعض الأمور كانت في زمان مضى أموراً منافية لمكارم الأخلاق، ثم صارت بعد ذلك أموراً غير منافية لها؛ وهذا يدل على أن الأخلاق مفاهيم اعتبارية تتواضع عليها الأمم والشعوب، وليس لها ثبات في حقيقتها، وليس لمقاييسها ثبات.

وحين يتبصر الباحث في أقوال هؤلاء، يستطيع أن يكتشف عنـاصر المغالطات التي يلتجئون إليها، للتضليل بأفكارهم؛ وهذه المغالطات ترجع إلى مَدّ عنوان الأخلاق مدّاً يشمل التقاليد والعادات والآداب وبعض الأحكام

الدينية التي لا علاقة لها بموضوع الأخلاق من حيث ذاتها، ومفاهيم بعض الناس للأخلاق ولأسسها، مع أنها مفاهيم غير صحيحة، إلى غير ذلك من أمور ليست هي من الأخلاق أصلاً.

والغرض من ذلك استغلال أمثلة تخضع للتغير والتبدل من هذه الأمور؛ لنقض حقيقة ثبات الأخلاق بها، ثم لنقض الأخلاق نقضاً كلياً، ونقض الأسس الأخلاقية، والإقناع بأن الأخلاق أمور اعتبارية نسبية تتواضع عليها الأمم، وليس لها ثبات في واقع حالها.

وبذلك يسهل على هؤلاء المضلين إفساد الأجيال، حتى تتمرد على جميع الضوابط الأخلاقية التي تمثل في الأمم قوى ترابطها وتماسكها، وعناصر ارتقائها الإنساني.

ومنشأ المشكلة يرجع إلى الخطأ في تحديد مفهوم الأخلاق، وتحديد دوافعها وغاياتها، وتحديد مستوياتها، من قبل كثير من الناس، بما فيهم كثير من الباحثين في علم الأخلاق، من فلاسفة ومفكرين؛ هذا هو الذي يفتح الثغرة الفكرية التي يعبر منها الخبثاء الماكرون، ليهدموا الأبنية الأخلاقية الحصينة التي تتمتع بها الشعوب العريقة بأمجادها، لا سيما المسلمون الذين سبق أن رفعتهم الأخلاق العظيمة إلى قمة مجد لم يطاولهم فيها أحد.

وحين يتبصر الباحث بالأسس الأخلاقية، التي تم فيها تحديد مفهوم الأخلاق وتحديد دوافعها وغاياتها، وتحديد مستوياتها، وفق المفاهيم المقتبسة من التعاليم الإسلامية، يتبين له بوضوح تساقط أقوال الذين يزعمون أن الأخلاق نسبية أو اعتبارية تتواضع عليها الأمم، وليس لها حقائق ثابتة، وذلك لأنه يستطيع أن يكتشف بسرعة عناصر المغالطة التي يصطنعها هؤلاء المضللون، إذ يأتون بأمثلة جزئية يزعمون أنها من الأخلاق، ثم يثبتون أنها أمور اعتبارية أو نسبية تتواضع عليها الأمم، وليس لها حقائق ثابتة في ذاتها، ثم ينقضون بها ثبات الأخلاق نقضاً كلياً، بطريقة تعميمية لا يقبل بها العلم، حتى ولو كانت هذه الأمثلة من الأخلاق فعلاً، لأنه لا يجوز الحكم على النوع من خلال الحكم

على بعض أفراده، ما لم يثبت أن سائر الأفراد مشتركة بمثل الصفة التي كانت علة صدور الحكم على بعض الأفراد.

ومغالطتهم هذه تشبه مغالطة من يأتي بمجموعة من القرود، ويلبسها لباس البشر، ويدخلها بين مجموعاتهم، ثم يقول: إن الناس جميعهم لهم صفات القرود، بدليل أن هذا الإنسان ــ ويشير إلى بعض قروده ــ له صفات القرود، وهذا الإنسان ــ ويشير إلى فرد آخر من هذه المجموعة ــ له صفات القرود؛ وهكذا يأتي بأمثلة متعددة من هذا العنصر الدخيل، ثم يصدر حكمه التعميمي في مغالطة أخرى فيقول: ومن هذا يتبين لنا أن جميع الناس لهم صفات القرود.

إن هذه العملية قد تضمنت مغالطة مركبة تمت على مرحلتين:

المرحلة الأولى: إدخال عنصر ليس من البشر تحت عنوان البشر.

المرحلة الثانية: تعميم الحكم الذي يصدر على هذا العنصر الدخيل، وجعله شاملاً للناس جميعاً.

هذا مثال مطابق تماماً لمغالطتهم في موضوع الأخلاق، إن عمليتهم هناك قد تضمنت أيضاً مغالطة مركبة تمت على مرحلتين:

المرحلة الأولى: إدخال ما ليس من أفراد الأخلاق تحت عنوان الأخلاق.

المرحلة الثانية: تعميم حكمهم على هذه الأفراد الدخيلة، وجعله شاملاً لجميع أفراد الأخلاق الحقيقية.

ولهؤلاء المضللين مغالطة أخرى حول الموضوع نفسه، وهي اعتمادهم على مفاهيم بعض الناس للأخلاق، واعتبار هذه المفاهيم جزءاً من حقيقة الأخلاق، مع أن مفاهيم الناس قد تصدق وقد تكذب، فهي لا تمثل جزءاً من حقيقة الشيء الذي هو موضوع البحث، وإنما تمثل مقدار إدراك أصحابها لحقيقة الشيء، فقد يكون هذا الإدراك مطابقاً، وقد يكون مخالفاً، وقد يكون كاملاً وقد يكون ناقصاً، وهو لا يؤثر بحال من الأحوال على حقيقة الشيء.

لقد كان للفلاسفة القدماء مفاهيم عن السماء، وهذه المفاهيم مخالفة لواقع

حال السماء، ومع ذلك فلا يقبل العقل اعتبار هذه المفاهيم جزءاً من حقيقة السماء.

وللناس مفاهيم كثيرة باطلة عن الخالق، ولا يجوز أن تكون هذه المفاهيم جزءاً من حقيقة الخالق.

وينكر كروية الأرض منكرون، ولكن مفاهيمهم هذه لا يمكن أن تجعل الأرض في واقع حالها غير كروية.

وهكذا يُدخِل فريق من الناس في الأخلاق ما هو ليس من الأخلاق؛ كتقاليد وعادات وأحكام وضعية. ويجحد فريق من الناس بعض ما هو من الأخلاق، فيزعم أنه لا داعي للتقيد بقواعد الأخلاق فيها، فلا يؤثر هؤلاء ولا هؤلاء على الحقيقة المطلقة للأخلاق، فليست مفاهيم الناس هي التي تصنع الحقائق، وإنما وظيفتها أن تعمل على إدراك الحقائق، حتى تكون صورة مطابقة لها.

قال المغالطون ــ الذين زعموا أن الأخلاق نسبية اعتبارية، وليس لها حقيقة مطلقة ثابتة، وهي قابلة للتغير والتبدل من زمان إلى زمان، ومن أمة إلى أمة ــ : إن مما يدل على ذلك أن بعض الشعوب ترى خروج النساء بدون حجاب عملاً منافياً للأخلاق بينما ترى شعوب أخرى أن هذا العمل أمر طبيعي لا ينافي ضوابط الأخلاق بحال من الأحوال.

ويدل على ذلك أيضاً أن بعض الأمم تحرم أكل بعض أنواع من اللحوم، وتحرم شرب بعض أنواع من الأشربة، وتعتبر مخالفة ذلك عملاً منافياً للأخلاق، بينما ترى أمم أخرى أنه لا شيء من ذلك محرم أو منافٍ للأخلاق.

ويأتون أيضاً بمثال تعدد الزوجات وإباحته عند أمة وتحريمه عند أمة أخرى، وبأمثلة الطقوس السائدة في البلاد الأوقيانوسية، ومنها تحريمهم الطعام تحت سقف والمكث في المسكن إذا كان الإنسان مريضاً، وتحريمهم استعمال الأيدي في تناول الغذاء بعد فراغ الإنسان من حلق شعره، أو بعد فراغه من صنع زورق، ويقولون: هذه أمور منافية للأخلاق عندهم، مع أنها عند غيرهم أمور عادية لا تنافي الأخلاق مطلقاً.

أليس عجيباً جداً أن يدخلوا مثل هذه الأمثلة في باب الأخلاق مع أنها في جوهرها من أبواب غير باب الأخلاق، فهي إما أحكام دينية، أو طقوس وعادات وتقاليد!! وإدخالها في باب الأخلاق خطأ فادح يجر إلى خطأ آخر أكبر منه بكثير، إنه خطأ يجعل الأخلاق أموراً نسبية اعتبارية تتواضع عليها الأمم، وليس لها حقيقة ثابتة في ذاتها!!.

وما قيمة مفاهيم الناس حول حقيقة من الحقائق، ولنفرض أن بعض الناس استحسنوا رذائل الأخلاق، ولم يجدوا أي رادع من ضمائرهم يردعهم عنها، فمارسوا الظلم بمثل الجرأة التي يمارسون بها العدل، ومارسوا الخيانة بمثل الجرأة التي يمارسون بها الأمانة، ومارسوا قسوة القلب بمثل الجرأة التي يمارسون بها الشفقة والرحمة، ومارسوا الكذب الضار بمثل الجرأة التي يمارسون بها الصدق النافع؛ أفيغير ذلك واقع حال الرذائل فيجعلها من قبيل الفضائل؟!.

كم نشاهد من شعوب تألف القذارات وتعيش فيها ولا تشعر بأنها تعمل عملاً غير مستحسن أو غير جميل، فهل تغير مفاهيمهم من واقع حال القذارة القبيح شيئاً؟!.

إن فساد مفاهيم الناس حول حقيقة من حقائق المعرفة لا يغير من واقع حال هذه الحقيقة شيئاً، وجميع حقائق المعرفة تتعرض لمشكلة فساد مفاهيم الناس عنها، وفساد تصور الناس لها.

إن موضوع حجاب المرأة وسفورها، أمر لا علاقة له بالأخلاق من حيث ذاته، إنما هو في حدوده الشرعية حكم ديني يهدف إلى تحقيق مصالح دينية واجتماعية يقصدها الشارع، فإدخالهم هذا الحكم في موضوع الأخلاق جزء من عناصر المغالطة أو من عناصر الغلط إذا حسنًا الظن.

وكذلك موضوع الأطعمة والأشربة، فهو غير ذي علاقة بالأخلاق، وأحكام الأطعمة والأشربة أحكام دينية تهدف إلى تحقيق مصالح دينية وصحية يقصدها الشارع، فإدخالهم هذه الأحكام في موضوع الأخلاق جزء من عناصر المغالطة، أو من عناصر الغلط إذا حسنًا الظن.

ونظير ذلك سائر الأمثلة التي أوردوها لنقض ثبات الأخلاق، إنها أمثلة من العادات والتقاليد الاجتماعية، أو من الظواهر الجماليـة الأدبية، أو من الأحكام المدنية، أو من الأحكام الدينية لدين صحيح أو لدين وضعي من وضع البشر، ونحو ذلك، وليست في حقيقة ذاتها من الأخلاق.

ويوجد سبب ثالث للخطأ الذي يقع فيه الباحثون في علم الأخلاق، هو اعتمادهم على أفكارهم وضمائرهم فقط، وجعلها المقياس الوحيد الذي تقاس به الأخلاق، ونسبوا إلى هذا المقياس العصمة عن الخطأ، مع أنه مقياس غير كاف وحده، فقد يخطىء، وقد يُصاب عند بعض الناس بعلة من العلل المَرَضية، فيعشى أو يعمى أو تختل عنده الرؤية فيصدر أحكاماً فاسدة.

ومما سبق يتضح لنا أن أسباب الغلط أو المغالطة عند أصحاب فكرة نسبية الأخلاق، ترجع إلى ثلاثة:

الأول: تعميمهم اسم الأخلاق على أنواع كثيرة من السلوك الإنساني، فلم يميزوا الظواهر الخلقية، عن الظواهر الجمالية والأدبيـة، وعن العادات والتقاليد الاجتماعية، وعن التعاليم والأحكام المدنية أو الدينية البحتة، فحشروا مفردات كل هذه الأمور تحت عنوان الأخلاق، فأفضى ذلك بهم إلى الخطأ الأكبر، وهو حكمهم على الأخلاق بأنها أمور اعتبارية نسبية.

الثاني: أنهم جعلوا مفاهيم الناس عن الأخلاق مصدراً يرجع إليه في الحكم الأخلاقي، مع أن في كثير من هذه المفاهيم أخطاءً فادحة، وفساداً كبيراً، يرجع إلى تحكم الأهواء والشهوات والعادات والتقاليد فيها، ويرجع أيضاً إلى أمور أخرى غير ذلك، والتحري العلمي يطلب من الباحثين أن يتتبعوا جوهر الحقيقة، حيث توجد الحقيقة، لا أن يحكموا عليها من خلال وجهة نظر الناس إليها، فكل الحقائق عرضة لأن يثبتها مثبتون، وينكرها منكرون، ويتشكك فيها متشككون، ويتلاعب فيها متلاعبون، ومع ذلك تبقى على ثباتها، لا تؤثر عليها آراء الناس فيها.

الثالث: اعتمادهم على أفكارهم وضمائرهم فقط، وجعلهـا المقياس الوحيد الذي تقاس به الأخلاق.

أما مفاهيم الإسلام فإنها ـ كما قد علمنا ـ قد ميزت الأخلاق عما سواها، وميزت السلوك الأخلاقي عن سائر أنواع السلوك الإنساني، فلم تعمم تعميماً فاسداً، ولم تدخل في مفردات الأخلاق ما ليس منها، وهي أيضاً لم تعتمد على مفاهيم الناس المختلفة، ولم تتخذها مصدراً يرجع إليه في الحكم الأخلاقي، وأما العقل والضمير فإنها لم تهملهما وإنما قرنتهما بعاصم يردهما إلى الصواب كلما أخطأا سبيل الحق والهداية والرشاد، وهذا العاصم هو الوحي الذي نزل بدين الله لعباده، وشرائعه لخلقه، وتعاليمه التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، لأنها تنزيل من عزيز حكيم، وقد بلغها رسله. أما صورتها المثلى المحفوظة من التغيير فهي ما ثبت في نصوص الشريعة الإسلامية، المنزلة على رسول الله محمد صلوات الله وسلاماته عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

فمن تبصر بالأصول العامة للأخلاق في المفاهيم الإسلامية، وتبصر بأن الأخلاق الإسلامية مقترنة بالوصايا والأوامر والنواهي الربانية، وتبصر بأن هذه الوصايا والأوامر والنواهي محفوفة بقانون الجزاء الإلهي بالثواب أو بالعقاب، فإنه لا بد أن يظهر له بجلاء أن الأخلاق الإسلامية هي حقائق في ذاتها، وهي ثابتة ما دام نظام الكون ونظام الحياة ونظام الخير والشر أموراً مستمرة ثابتة، وهي ضمن المفاهيم الإسلامية الصحيحة غير قابلة للتغير ولا للتبدل من شعب إلى شعب، ولا من زمان إلى زمان.

أما الأمة الإسلامية فهي أمة واحدة، وهي لا تتواضع فيما بينها على مفاهيم تخالف المفاهيم التي بينها الإسلام، والتي أوضحها في شرائعه ووصاياه.

وإذا رجعنا إلى مفردات الأخلاق الإسلامية وجدنا أن كل واحدة منها ـ ضمن شروطها وقيودها وضوابطها ـ ذات حقيقة ثابتة، وهي غير قابلة في المنطق السليم للتحول من حسن إلى قبيح، أو من قبيح إلى حسن. إن حَسَنها حَسَنٌ في كل زمان، وقبيحها قبيح في كل زمان ولا يؤثر على حقيقتها أن تتواضع بعض الأمم على تقبيح الحسن منها، أو تحسين القبيح، تأثراً بالأهواء، أو بالشهوات، أو بالتقاليد العمياء.

إن الإسلام يقرر أن حب الحق وكراهية الباطل فضيلة خلقية، ويقرر أن كراهية الحق وحب الباطل رذيلة خلقية، فهل يشك أحد سويّ عاقل في أن هذه الحقيقة حقيقة ثابتة غير قابلة للتحول ولا للتغير، وإن تواضع على خلافها جماعة ذات أهواء؟! وهكذا سائر الأمثلة الأخلاقية الإسلامية.

أما طريقة دهاة التضليل لهدم الأبنية الأخلاقية فهي تتلخص بما يلي:

١ ـ أن يقنعوا الأجيال بأن الأخلاق نسبية اعتبارية لا ثبات لها، وليس لها حقائق ثابتة في ذاتها، فهي خاضعة للتبدل والتغير.

٢ ـ أن يستغلوا بخبث بعض النظريات الفلسفية التي من شأنها تقليل قيمة الأخلاق في نفوس الناس، إذ تقيمها على أسس واهنة ضعيفة، أو على شفا جرف هار!! ومتى قامت في نفوس الناس على مثل ذلك تداعت الأبنية الأخلاقية التقليدية، ثم انهارت، وحلت محلها أنانيات فوضوية، تعتمد على القوة والحيلة، والإباحية المطلقة لكل شيء مستطاع، فلا خير إلا ما تدعمه القوة، ولا شر إلا ما تضعف القوة عن تحقيقه.

٣ ـ أن يلفقوا من عند أنفسهم نظريات فلسفية يخدعون بها الناس، لا سيما الناشئون منهم، ويستغلون فيهم رغبات المراهقة بالتمرد على الحق والواجب، تطلعاً لمجد موهوم، وقد تطول فترة المراهقة عند بعض الناشئين، حتى تكتسح عمر الشباب منهم، وجزءاً من عمر الكهولة، وسبب ذلك الاستسلام التام لعواصف طور المراهقة، ووجود المغذيات الشيطانية الخبيثة، وضعف التربية الإسلامية أو انعدامها. ومتى وجدت هذه الظروف المواتية لنمو الشر، فليس من البعيد أن يصير الإنسان شيخاً في سنه وجسمه ويبقى مراهقاً في عقله ونفسه.

٤ ـ اتخاذ الوسائل العملية التطبيقية لإفساد أخلاق الأمم، وأهمها الغمس في بيئات موبوءة بالأخلاق الفاسدة، حتى تكون الانحرافات عادات مستطابات.

* * *

الفصل الرابع

١ ـ مستويات توجه النفس إلى العمل الإرادي
ومواقع المسؤولية.

٢ ـ المسؤولية عن السلوك الأخلاقي.

٣ ـ الحـريـة وحدودهـا.

٤ ـ الخطيئـة والغفـران.

٥ ـ الشيطان ومدى تأثيره في حياة الإنسان.

الفصل الرَّابع

— ١ —

مستويات تــوجُّه النفس إلى العمل الإرادي ومواقع المسؤولية

مما ندركه ونشعر به في أنفسنا أن رغبتنا أو نزوعنا إلى عمل ما، لا يصل إلى مستوى الإرادة الجازمة، حتى يمر بمستويات دون ذلك.

وقد يقف النزوع عند درجة من الدرجات الدنيا، التي هي تحت مستوى الإرادة الجازمة، وتسير المراحل في النفس وفق ما يلي:

١ ــ توجه النفس:

وتبدأ الحركة النفسية بتوجه النفس إلى العمل توجهاً غير فاعل، فهو كالالتفات الجسدي إلى الشيء للنظر إليه، والبحث فيه، والتأمل، وهذا أمر خال من المسؤولية تماماً.

وبعد هذا التوجه قد يحدث الإعراض، وقد تتحرك النفس بميل ما إلى العمل[١].

٢ ــ الرغبة:

ومع الميل النفسي قد تأتي أحاديث النفس ووساوسها، وهذا مستوىً أعلى

(١) قبل توجه النفس يأتي الإدراك، ولكن بحثه ليس من الموضوع الذي نعالجه الآن.

وأقوى من مستوى توجه النفس المجرد. وقد تفضل الله على أمة محمد صلى الله عليه وسلم فتجاوز عنها أحاديث الصدور ووساوس النفوس، التي لا يكون لها أثر عملي داخلي أو خارجي.

روى البخاري ومسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن الله تجاوز عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل به أو تتكلم».

وهذا الميل النفسي وما يصاحبه من وساوس، إذا لم يصل إلى مستوى حركة النفس للتنفيذ فهو الرغبة، وللرغبة درجات.

وقد جاء استعمال الرغبة في القرآن الكريم للدلالة على ميل النفس إلى الشيء دون الهم بتحقيق المرغوب، قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ . . . ﴿١٢٧﴾ ﴾.

٣ ـ الهـمّ:

وفوق مستوى الرغبة المجردة يأتي مستوى الهم بالتنفيذ، ونفهم من الهم أنه أول الحركة النفسية لتقرير تنفيذ ما اتجهت الرغبة له، ويبدو أنه دون مستوى القرار الإرادي الجازم، فهو وسط بين الرغبة وتوجه الإرادة الجازمة، والاستعمالات القرآنية للهم تشعر بذلك، ففي الاستعمالات القرآنية للهم ما يلي:

(أ) قول الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ . . . ﴿١١﴾ ﴾.

وفي بيان حادثة هذا الهم ذكر المفسرون عدة أقوال، منها محاولة اليهود اغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم حين قدم إليهم ليشاركوا حسب المعاهدة المتفق عليها في دية قتيلين مشركين من بني عامر قتلهما أحد المسلمين واسمه عمرو بن أمية، ومعهما عقد من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعلم به عمرو.

وقيل نزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه حين هموا أن يغدروا بمحمد وأصحابه في دار كعب بن الأشرف.

(ب) وقول الله تعالى لرسوله في سورة (آل عمران ٣):

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

هذا النص يشير إلى موقعة أحد كما ذكر جمهور المفسرين. أما الطائفتان اللتان همتا بالفشل، فقد روى البخاري عن عمر قال: سمعت جابر بن عبدالله يقول: فينا نزلت: ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا...﴾ الآية. قال: نحن الطائفتان (بنو حارثة) و(بنو سلمة) وما يسرني أنها لم تنزل لقوله تعالى: ﴿والله وليهما﴾.

فهاتان الطائفتان همتا أن تفشلا؛ أي: همتا بعمل ما من شأنه أن يؤدي إلى الفشل، ولكن همهما لم يصل إلى مستوى القرار الإرادي الجازم، فلم يتخلَّ الله عن ولايتهما.

(ج) وقول الله تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ ... ﴿٥﴾﴾.

مع أن هم الأمم بأخذ رسولهم وقتله لم يصل إلى مستوى القرار الجازم

إلا في أمثلة محدودة ومن قبل بعض الأفراد، ولكنه كان نزوعاً قوياً بلغ درجة أول الحركات النفسية المتجهة لتحقيق ما رغبوا به.

(د) وقول الله تعالى في شأن مشركي مكة في سورة (التوبة ٩):

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ . . . ﴿١٣﴾ ﴾.

والمعروف أن فريقاً من مشركي مكة دبروا مكيدة قتل الرسول، لكن معظم المشركين قد حصل في نفوسهم هم بإخراجه من مكة ولم يفعلوا، إذ لم يكن منهم توجيه مباشر لإخراجه، فكان خروجه صلى الله عليه وسلم في الليلة التي حاول فيها مدبرو قتله تنفيذ مكيدتهم.

(هـ) وقوله تعالى في شأن سيدنا يوسف عليه السلام وامرأة العزيز في سورة (يوسف ١٢):

﴿ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ ﴿٢٤﴾ ﴾.

إن إرادة الفاحشة من امرأة العزيز قد كانت قراراً جازماً حاولت تنفيذه بالمراودة وتغليق الأبواب، وإن إرادة العفة من يوسف عليه السلام قد كانت قراراً جازماً ظهر أثره بقوله: «معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون».

ثم جاء بعد ذلك هم به من قِبَلها، وهم بها من قِبله، وينبغي أن يكون متعلق الهم هنا موضوعاً آخر غير الموضوع الأول، ويظهر أنها همت بضربه فلحقت به لتطويعه أو ثأراً لكرامتها، وأنه هم بأن يقابلها بالمثل لصدها عنه ودفاعاً عن نفسه، لولا أن رأى برهان ربه، لكنه لما رأى برهان ربه آثر الهرب من مقابلتها فلحقت به فقدّت ثوبه من دبر.

من كل هذه النصوص يظهر لنا أن المراد من الهم حركة النفس التي

ارتقت عن مستوى الرغبة، وأعطت شيئاً من الدفع، ولكنها لم تصل إلى مستوى الإرادة الجازمة التي تدفع طاقة العمل المعتادة للتنفيذ.

وهذا المستوى من حركة النفس إذا كان في اتجاه الخير كان مأجوراً، وإذا كان في اتجاه الشر لم يترتب عليه الجزاء، حتى يصل إلى مستوى التنفيذ، سواء أكان من الأعمال الداخلية في الإنسان أو الأعمال الخارجية. وحين يقف هذا الهم عن التنفيذ بصارف إرادي يلاحظ فيه ابتغاء مرضاة الله، يكتب الله لصاحبه حسنة بسبب كفه عن سيئةٍ همَّ بها فلم يفعلها طاعة لله. هذا ما دل عليه الحديث التالي:

روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عباس، عن الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل، قال:

«إن الله تعالى كتب الحسنات والسيئات، ثم بيَّن ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها، كتبها الله تعالى عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة».

وهذا من فضل الله على عباده.

٤ ــ الإرادة الجازمة:

وفوق مستوى الهم بالأمر تأتي الإرادة الجازمة، وهي بلوغ الاتجاه النفسي نحو الشيء ذروة الجزم به.

وحين يبلغ الاتجاه النفسي نحو عمل ما ذروة الجزم به فالنتيجة الطبيعية هي العمل على تنفيذ المراد، باستخدام القوى المعتادة من مستوى الدرجة الدنيا والوسائل التي ليس فيها مشقات زائدة، فإذا ظهرت صعوبات زائدة فقد تفلّ حد الإرادة، وتوقف طاقة العمل عن متابعة التنفيذ.

فهذا المستوى من الإرادة قد لا يملك القدرة على توجيه دفع لتنفيذ العمل المراد أكثر من دفع القوى العادية، القادرة على مغالبة بعض الصعوبات.

ويظهر أن الإرادة الجازمة هذه ذات درجتين:

فالدنيا منها قادرة بأدنى توجيه على تنفيذ ما تميل إليه النفوس.

وفوقها الإرادة القادرة على تنفيذ ما فيه تكليف عادي وصعوبات وسطى.

وقد استعملت الإرادة في القرآن الكريم للدلالة على بلوغ الاتجاه النفسي نحو عمل ما مستوى الجزم به، ولا يشترط في هذا الجزم أن يقترن به رغبة شديدة أو إصرار وعزم. ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾.

فمريد العاجلة ـ وهي الحياة الدنيا وزينتها ـ يجد سبله إليها ميسورة، إذ لا تقف في نفسه عقبات صادة، نظراً إلى أن حب العاجلة متأصل في نفسه، فهو إذن يعمل للوصول إلى ما يريد ببذل طاقات التنفيذ العادية، فيعجل الله له من الدنيا ما تقضي به مشيئته وفق سننه.

ولكن من أراد الآخرة فلا بد أن يسعى لها سعيها مع شرط الإيمان حتى ينال جزاءه، وكان لا بد من بيان هذا السعي للآخرة، لأن الإرادة وحدها، وما تستخدمه من طاقات التنفيذ العادية، قد لا تكفي للتغلُّب على عقبات النفس المعارضة، بل تحتاج إلى طاقات زائدة نسبياً على مستوى طاقات التنفيذ العادية. فالقضية هنا فيها مصارعة ومغالبة لأهواء النفس وشهواتها، ولا تشحن هذه الطاقات الزائدة ما لم ترق نسبة قوة الإرادة عن المستوى العادي للتنفيذ، ولو بمقدار يسير.

ومن الأمثلة أيضاً قول شعيب لموسى عليهما السلام: إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين، وقد حكى الله ذلك بقوله في سورة (القصص ٢٨):

﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ

﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

فإرادة شعيب عليه السلام قد زادت على مستوى الرغبة المجردة، حتى وصلت إلى القدر الذي جعله يعلن عرضه وشرطه، وينتظر موافقة الطرف الآخر التي لا يملكها هو.

ومعنى الإرادة يساوي معنى المشيئة، ولذلك استعملا بالتساوي في جانب المشيئة الربانية، إذ لا يحتاج الخالق في خلقه أكثر من مستوى إرادته للشيء، لأنه سبحانه إذا إراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، قال الله تعالى في سورة (يس ٣٦):

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾.

ومسؤولية الإنسان ضمن مستوى الإرادة مسؤولية تامة، في فعل ما أُمر بفعله وفي ترك ما نهي عن فعله، ما دام الأمر في حدود استطاعته.

٥ ــ العقــل:

ويأتي فوق مستوى الإرادة الجازمة العادية مستوى العقل، وهو مستوىً عالٍ من الإرادة الجازمة القوية الكافية لعقل الإنسان وحجزه عن الاندفاع وراء أهوائه وشهواته، والانزلاق إلى مواطن هلكته العاجلة أو الآجلة.

وقد تكررت في القرآن الكريم مادة (عقل ــ يعقل ــ نعقل) للدلالة على هذا المستوى من قوة الإرادة في عدة نصوص، وللدلالة على فهم المعاني فهماً عميقاً صحيحاً مع تثبيت هذا الفهم وعقله في القوة العاقلة للمعاني في نصوص أخرى.

فمن الأول قول الله تعالى لعلماء اليهود في سورة (البقرة ٢):

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

فهم لا ينقصهم الفهم إنما لا يملكون قوة إرادة تضبطهم وتعقلهم عن اتباع الهوى.

ومن الثاني قول الله تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

فالعقل هنا يراد منه الفهم العميق الصحيح مع تثبيته في الحافظة.

إذن فالمراد من العقل على المعنى الأول الإرادة الجازمة القوية القادرة على عقل النفس وأهوائها وشهواتها، وضبطها في حدود الخير، مع استنادها إلى معرفة الأمور، وبصيرة بما فيها من خير أو شر.

والعقل على هذا شيء غير الذكاء، لأن الذكاء مجرد طاقة فكرية يستطاع بها معرفة الأمور على حقيقتها، سواء اقترن به عقل النفس عن أهوائها وشهواتها الضارة أو لم يقترن، فكم من ذكي حاد الذكاء ولكن لا عقل له، فهو يعرف الشر حق المعرفة، ولكنه لا يستطيع عقل نفسه عنه، لأن أهواءه وشهواته مندفعة إليه.

ولذلك خاطب الله علماء بني إسرائيل بقوله: ﴿أفلا تعلقون؟!﴾؛ مع أنهم علماء، لا ينقصهم ذكاء يعرفون به حقائق الأمور، ولكنهم لا عقل لهم يعقلهم ويحبس نفوسهم ويردها عن اتباع الهوى، إنهم يأمرون الناس بالبر ولكنهم لا يعملون به.

والعاقل في اللغة: هو الذي يحبس نفسه ويردّها عن هواها.

وسيأتي إن شاء الله مزيد تفصيلٍ في الفصل الثامن من الباب الثاني.

٦ ــ **العــزم**:

ويأتي فوق مستوى العقل العادي القادر على ضبط طائفة من أهواء النفس وشهواتها، مستوى العزم. والعزم هو اتجاه نفسي جازم ذو نسبة عالية في القدرة على التصدي للعقبات والصعوبات، ومقارعتها ومغالبتها، فهو بسبب ارتقاء

نسبته قادر على أن يدفع من طاقات التنفيذ شحنات زائدة على مستوى الطاقات العادية، التي تدفعها الإرادة الجازمة بحسب العادة للأمور التكليفية التي يقوم بها معظم الناس.

وللعزم درجات كثيرة، وأولو العزم يتفاوتون فيما بينهم، وقد يصل العزم في درجاته العليا إلى تنفيذ المراد ولو اقترن به تحمل أشد الصعوبات وأعظم الآلام.

ولما كانت القضايا الكبرى التي ينفذها قائد الأمة قضايا تقف أمامها عقبات كثيرة، وتحيط بها مشكلات خطيرة، وتحتاج مستوى من الإرادة أعلى من مستوى التصرفات الشخصية المعتادة ـ سواء أكانت من محاب النفوس أو من التكاليف التي فيها مشقات كبيرة ـ أمر الله رسوله في هذه القضايا بالمشاورة، ثم أبان له أن إرادته إذ وصلت إلى مستوى العزم فلينفذ ما عزم عليه، متوكلاً على الله. وفي ذلك يقول الله تعالى لرسوله في سورة (آل عمران ٣):

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾.

ولما كان الصبر والتقوى، والصبر على إساءة المسيء ومقابلته بالمغفرة، والصبر على ما ينزل بالإنسان من مصائب، أموراً تحتاج إلى إرادة عالية من مستوى العزم؛ قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

وقال لقمان لابنه ما قصه الله علينا في سورة (لقمان ٣١):

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾.

وأولو العزم من الرسل هم الذين ارتقت قوة إراداتهم في سبيل الله إلى مستوى العزم، الذي يستطيعون به تنفيذ ما يريدون مما يرضي الله تعالى، وهم يقارعون ويصارعون العقبات الصلدة، ويتحملون الشدائد الكبرى بصبر وجلد، ولا يدخل الوهن إلى قلوبهم، ولو تعرضوا للآلام التي لا تطاق، ولو استقبلوا من أجله مصارعهم.

ولذلك قال الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ . . . ﴿٣٥﴾ ﴾.

ولما لم تقوَ إرادة أبينا آدم عليه السلام على تنفيذ كل العهد الذي عهد الله له به، قال تعالى في شأنه في سورة (طه ٢٠):

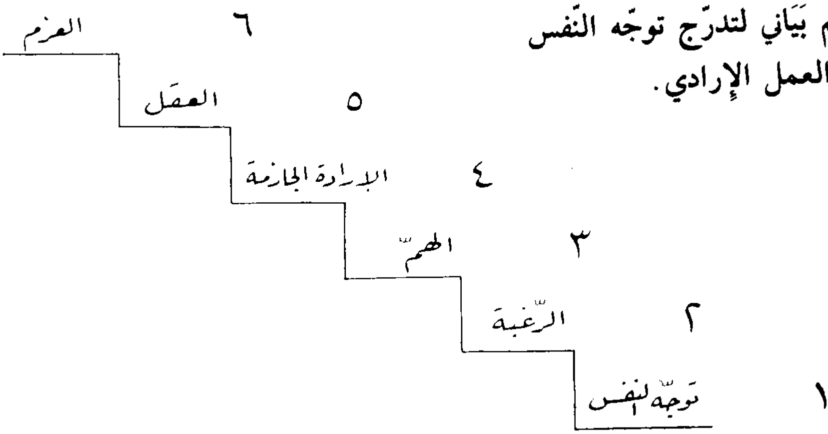
﴿ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴿١١٥﴾ ﴾.

فالعزم إذن مستوى من الإرادة قوي جداً، إذ يقدر على دفع طاقات احتياطية في الإنسان، لا تقدر الإرادة العادية على دفعها.

وهذا المعنى الذي دلّت عليه النصوص القرآنية، قد يلتقي مع ما ذكرته معاجم اللغة من معنى العزم، ففيها أن العزم هو الجد، وعزم الرجل على الأمر يعزم عزماً أراد فعله وعقد عليه قلبه.

والعزم من الدرجات العليا قد يكلف بتوجيهه كبار الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومن الدرجات الدنيا قد يكلف بتوجيهه المؤمنون العاديون، وكذلك بعض العزم من الدرجات الوسطى، ومنه التكليف بالقتال في سبيل الله، والإسلام في هذا واقعي يعامل كل إنسان بحسب الهبة التي وهبه الله إياها في فطرته.

رسْم بيَاني لتدرّج توجّه النّفس إلى العمل الإرادي.



ـ ٢ ـ
المسؤولية عن السلوك الأخلاقي

السلوك الأخلاقي كسائر أنواع السلوك الإنساني الإرادي من جهة المسؤولية لا فرق بينه وبينها.

(أ)

شروط ترتب المسؤولية:

ومسؤولية الإنسان الحقيقية عن عمله منوطة باستيفاء شروط ستة:

الشرط الأول: أن يكون صاحب العمل أهلاً لتحمل المسؤولية.

الشرط الثاني: أن يكون العمل عملاً إرادياً.

الشرط الثالث: أن تتوافر في العمل النية والقصد لما ينجم عنه من نتائج خير أو شر.

الشرط الرابع: العلم بالعمل، وبما يؤدي إليه العمل من خير أو شر، وبحكم العمل الأخلاقي أو الشرعي.

الشرط الخامس: كون العمل مستطاع الفعل والترك.

الشرط السادس: أن يكون صاحب العمل متمتعاً بحريته عند أداء العمل، غير مكره عليه.

ولهذه الشروط العامة تفصيلات وتحديدات وبعض قيود، يقتضي منا البحث معالجة أهم ما فيها، فلنعالج ذلك بمقدار.

(أ) شرح الشرط الأول:

وهو أن يكون صاحب العمل أهلاً لتحمل المسؤولية.

وقد حدد الشارع أهلية تحمل المسؤولية الدينية ذات العقاب الأخروي، بالعقل والبلوغ، أما فاقد العقل فلا مسؤولية عليه طبعاً، ولا اعتبار لأي عمل من أعماله، وأما غير البالغ فقد أعفاه الخالق من المسؤولية الأخروية في رأي جمهور الفقهاء وإن كان مميزاً، دون أن يحرمه من ثواب عمله الصالح، وذلك لتكون فترة ما قبل البلوغ فترة تربية وتعليم وإنضاج فكري ونفسي، وخفف مسؤوليته الدنيوية إلى مستوى المسؤولية التربوية التي يتولاها أولياؤه المربون له، فيؤدبونه بمختلف وسائل التأديب التي أذن بها الشارع، ومنها بعض أنواع العقاب المادي كالضرب والحرمان ونحوهما، ومنها بعض المؤاخذات الجزائية المالية، وتختلف وسائل التربية والتأديب باختلاف حال غير البالغ، مميزاً كان أو غير مميز، قارب سن البلوغ أو لم يقاربه.

وفي رفع المسؤولية عن المجنون وعمن كان دون البلوغ جاء في الحديث الصحيح:

«رُفع القلم عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يدرك، وعن النائم حتى يستيقظ».

وقد تعددت طرق هذا الحديث ما بين مرفوع وموقوف، دون أن يبلغ المرفوع منها درجة الصحة، وقال ابن حجر: وللمرفوع شاهد من حديث أبي إدريس الخولاني: أخبرني غير واحد من الصحابة ــ منهم شداد بن أوس، وثوبان ــ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«رفع القلم في الحد عن الصغير حتى يكبر، وعن النائم حتى يستقيظ، وعن المجنون حتى يفيق، وعن المعتوه الهالك»(١). وقد أخذ الفقهاء بمضمون هذا الحديث.

والمراد من رفع القلم عن الصبي حتى يبلغ رفع قلم المؤاخذة عنه، أما قلم الثواب فلا يرتفع، وذلك فضل من الله ورحمة، فيكتب لمن هم دون البلوغ ثواب أعمالهم الصالحة، إذا فعلوها بإراداتهم على وجهها، ولذلك كلف الشارع أولياء الصغار بأن يأمروهم بالصلاة وفعل الخيرات، وينهوهم عن المعاصي والآثام.

روى الإمام أحمد وأبو داود بإسناد حسن عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع».

وقال الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ . . . ﴿٥٨﴾ ﴾.

* * *

(ب) **شرح الشرط الثاني:**

وهو أن يكون العمل عملاً إرادياً.

أي: صادراً عن إرادة صاحب العمل، ومتى اختل هذا الشرط سقطت المسؤولية. وبناء على ذلك فإن الأعمال التي لا تكون إرادة الإنسان الحرة ذات وساطة ما في وجودها، لا يكون الإنسان مسؤولاً عنها، كالرعشات، وكحركة النائم، وكتصرفات المجنون الذي فقد إرادته العاقلة، وكالمُلجَأ إلى الأمر إلجاءً،

---

(١) انظر فتح الباري عند شرح الحديثين ٦٨١٥ و ٦٨١٦، «باب لا يرجم المجنون والمجنونة».

مثل المقذوف مكرهاً يقع على إنسان فيقتله، أو على شيء فيتلفه. فالأعمال الصادرة في هذه الحالات وأمثالها أعمال لا مسؤولية فيها على من صدرت عنه، لأنها في الحقيقة حاصلة فيه لا حاصلة منه، ثم كان لها آثار في غيره دون أن يكون لإرادته تسبب فيها.

والعمل الإرادي ينقسم إلى قسمين:

١ ــ قسم إيجابي.
٢ ــ قسم سلبي.

فالقسم الإيجابي هو ما يصدر به عن الإنسان عمل ظاهر، كإنفاق في الخير، وجهاد في سبيل الله، ومعونة بطاقة جسدية، وشفاعة حسنة، وتعليم الجاهلين ما ينفعهم في دينهم، وما ينفعهم في دنياهم من غير شر، ونحو ذلك.

والقسم السلبي هو ما يتعمد فيه الإنسان ترك العمل مع قدرته عليه، ولذلك يثابُ الإنسان على ترك المحرمات، إذا تركها بإرادته ناوياً طاعة الله في ذلك، مع أنه لم يفعل شيئاً ظاهراً، إنما فعل فعلاً سلبياً، ويعاقب على ترك الواجبات، لأن هذا الترك عمل سلبي تجاه أمر واجب التنفيذ.

وبناءً على ذلك فمن رأى إنساناً غافلاً يمشي إلى هاوية فلم ينبهه، ولم يعمل أي شيء يرده عن السقوط، مع قدرته على ذلك، وتركه حتى سقط، فإنه يعتبر في مفاهيم الشرع جانياً، ومسؤولاً عن عمله السلبي الذي عمله، ويعاقب عند الله على ذلك.

ولذلك كان الساكت عن الحق في نظر الشرع شيطاناً أخرس، لأنه كتم ما يجب عليه بيانه.

وقال الله تعالى في شأن من يكتم الشهادة في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾.

فجعل كتم الشهادة من قبيل العمل الذي تأثم به القلوب، مع أنه سلوك سلبـي تجاه عمل كان يجب عليه أن يقوم به.

والمسؤولية عن الأعمال السلبية ملاحظ فيها أن الإرادة الإنسانية ذات وساطة ما في وجودها، فمن استطاع أن يكف شرّاً فلم يفعل فإن لإرادته وساطة ما في وقوع الشر.

* * *

(ج) شرح الشرط الثالث:

وهو أن تكون نية الإنسان وغايته المقصـودة له من عمله الإيجـابـي أو السلبـي ما ينتج عن العمل فعلاً من خيرٍ أو شر.

فإذا كان لصاحب العمل نية أو غاية أخرى غير ذلك؛ فإن المسؤولية الحقيقية عند الله تكون وفق نيته وغايته، دون ظاهـر السلوك وما نجم عنه، وأما السلوك الظاهر فيكون عندئذٍ من قبيل العمل الملغى، وتكون نتائجه من قبيل القضاء والقدر المحض.

ولذلك تلغى عند الله أعمال المرائين والمنافقين، مهما كان مظهرها مظهر صلاح وخير ويحاسبون على نياتهم وغاياتهم التي كانوا يضمرونها في قلوبهم، ويتجاوز الله عن أعمال المسيئين، إذا كانت نياتهم التي يضمرونها في قلوبهم نيات صالحة، بشرط أن يكونوا معذورين في أخطائهم بممارسة الأعمال السيئة.

وقد دلنا الله على هذه الحقيقة بعدة نصوص، منها قول الله تعالى في سورة (البقرة ١):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾.

ومنها قوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾.

ولما كانت دوافع الأعمال ما تكنّه الصدور من نيات؛ كان الابتلاء موجهاً لما في الصدور، قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

ولما كان الخطأ خالياً من القصد القلبي، كان من مقتضى العدل الرباني رفع الجناح عنه، قال الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾.

هذا عند الله لأن الله يعلم ما في قلوب عباده من نيات ومقاصد، ولذلك كانت النيات عنده هي مناط المسؤولية، ومناط ترتيب الجزاء.

والنص الكلي الجامع في هذا الباب هو ما جاء في الحديث الصحيح الذي يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيه:

«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

فالأعمال تُحدَّد قيمتها الحقيقية بقيمة النيات الباعثة عليها، أما مظاهر الأعمال المادية فلا قيمة لها وحدها، لكن إذا استوت النيات فإنه ينظر بعد ذلك إلى قيم الأعمال المتفاوتة، والله تعالى لا يضيع مثقال ذرة من عمل يبتغى به وجهه.

أما بالنسبة إلى الناس وأحكامهم الجزائية، فبما أن النيات خفيات عليهم غير ظاهرات؛ فإنهم مضطرون أن يحكموا على أعمال الناس بحسب ما يظهر

منها، ومما يظهر منها ما يكون قرينة مرجحة دالة على النية، فتؤخذ حينئذٍ بعين الاعتبار، وذلك لأن ظاهرة العمل دليل مادي على الغرض منه. فإذا رافق هذه الظاهرة قرائن تدل على أن الغرض شيءٌ آخر كانت هذه القرائن أدلة مادية أخرى معارضة، وعند تعارض الأدلة يلجأ القاضي إلى الترجيح، أو إلى أخذ كلٍّ من الدليلين بعين الاعتبار، فيصدر أحكاماً توفيقية، لا أحكاماً مائلة ميلاً كاملاً إلى أحد الطرفين.

فمن أمثلة ذلك: ما لو سدد صياد سهمه ليصيد به صيداً مباحاً، ثم أطلقه فأصاب إنساناً، أما الله تبارك وتعالى فإنه يعلم نيته حتماً فيحاسبه يوم القيامة عليها، سواء أكان غرضه من هذا السلوك إصابة الصيد المباح أو قتل الإنسان ظلماً وعدواناً. لكن حكم الناس عليه مقيد بالأدلة المادية الظاهرة، فحادثة القتل للإنسان دليل مادي ظاهر، والأصل فيه أن يدل على إرادة القاتل أن يقتله، إلا أن هذا الدليل قد اقترن به أدلة وقرائن أخرى، تدل على أن القاتل لم يكن يريد أن يقتل الإنسان، وإنما كان يريد أن يصيد صيداً مباحاً، فالزمان والمكان وطبيعة السلوك وقرائن الأحوال تفيد ذلك، لكن هذه القرائن لا تكفي لإعطاء اليقين بأنه لم يكن يريد قتل الإنسان قطعاً، لاحتمال أن يكون قد رتب بمكرٍ كل هذه القرائن، أو رآها موجودة فاستغلها. فمن الطبيعي والحالة هذه أن نلجأ إلى التوفيق والتوسط، فنعفي القاتل من القصاص، رعاية لاحتمال براءة النية من إرادة الجريمة، مع وجود القرائن التي تفيد ذلك، ونلزمه بالدية والكفارة رعاية لاحتمال إدانة النية بإرادة الجريمة. يضاف إلى ذلك أن الخطأ الذي قد يفضي إلى قتل بريء من الناس أمر تحيط به الملاحظات التالية:

١ ــ أنه أمر جسيم يتعلق بحياة الناس.

٢ ــ احتمال ادعاء الخطأ على سبيل الكذب فراراً من القصاص، وإسقاطاً لحق أولياء القتيل.

٣ ــ احتمال وقوع تهاون وتقصير أفضيا إلى القتل الخطأ.

ونظراً إلى هذه الملاحظات المرافقة للقتل على سبيل الخطأ رفع الله عن

القاتل خطأً حكم القصاص، عملاً بأصل القاعدة التي تتضمن رفع المسؤولية، وألزم القاتل بالكفارة، لتشتد حيطة الناس في مثل هذا الأمر الجسيم، وليبالغوا في البعد عن كل مظان الخطأ الذي قد يفضي إلى قتل البرآء. وألزم بالدية صيانة لحق أولياء القتيل، ومراعاة لاحتمال أن يكون ادعاء الخطأ ادعاء كاذباً، مهما كانت القرائن مؤيدة صدق الادعاء، لأن التعمد الحقيقي عمل من أعمال القلوب، فربما يوجد دون أن تدل عليه أمارة ظاهرة. قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ . . . ﴿٩٢﴾ ﴾.

ورفقاً بحال القاتل خطأً جعل الإسلام الدية تكليفاً تعاونياً تلزم به العاقلة (العاقلة: أقرباء القاتل خطأً، أو قبيلته).

النية من غير عمل:

ظهر لنا أن النية من العمل هي المناط المحجوب الذي لا يعلمه إلّا علاّم الغيوب، ومن ارتضى من ملك أو رسول.

ولكن لو وجدت النية وحدها، دون أن تترجم إلى عمل مادي، فهل تكون مناطاً للمسؤولية التي يُبنى عليها الحساب والجزاء عند الله؟.

لدينا عدة نصوص شرعية، والبحث العلمي السليم يفرض علينا أن نجمع بينها بطريقة توضح لنا الحقيقة الإسلامية، دون أن ننساق وراء بادىء الرأي الذي يخطر لنا من واحد منها فقط، وإلا وقعنا في مفاهيم خاطئة، انسياقاً وراء ما يظهر لنا من بعض النصوص، ونحن غافلون عما تدل عليه النصوص الأخرى، أو جاهلون به.

فمن النصوص التي لدينا في هذا الموضوع ما يلي:

١ ــ روى البخاري ومسلم عن أبي بكرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قال أبو بكرة: قلت: يا رسول الله: هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال:

«إنه كان حريصاً على قتل صاحبه».

٢ ـ وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«يقول الله تعالى: إذا همّ عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة، فإن عملها كتبتها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وإذا همّ بسيئة فلم يعملها لم أكتب عليه، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة».

٣ ـ وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إنّ الله تجاوز عن أمتي ما وسوست به صدورها، ما لم تعمل به أو تتكلم»، وعند مسلم:

«إنّ الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به».

٤ ـ وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل قال:

«إنّ الله تعالى كتب الحسنات والسيئات، ثم بيّن ذلك، فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله تعالى عنده حسنة كاملة، وإن همّ بها فعملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة».

٥ ـ وروى البخاري عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إذا مرض العبد أو سافر كُتب له بمثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً».

٦ ـ وروى الإمام مسلم عن جابر بن عبدالله الأنصاري قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة فقال:

«إن بالمدينة لرَجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم المرض» وفي رواية:

«إلا شركوكم في الأجر».

٧ ــ وروى الإمام البخاري عن أنس قال: رجعنا من غزوة تبوك مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال:

«إن أقواماً خلفنا في المدينة ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا، حبسهم العذر».

٨ ــ وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن الله تعالى لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم».

٩ ــ وروى الدارمي بإسناد ضعيف عن المهاجر بن حبيب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«قال الله تعالى إني لست كل كلام الحكيم أتقبل ولكني أتقبل همَّه وهواه، فإن كان همُّه وهواه في طاعتي جعلت صمته حمداً لي ووقاراً وإنْ لم يتكلم».

١٠ ــ وسوّى الرسول صلى الله عليه وسلم بين عبدين: أحدهما رزقه الله علماً ومالاً فعمل صالحاً، والآخر رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فقال: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان، قال الرسول صلى الله عليه وسلم:

«فهو نيته فأجرهما سواء» وكذلك سوى بين مقابليهما[1].

فمن جملة هذه النصوص نستطيع أن نستخلص عدة مفاهيم إسلامية، ونجمع بينها في نسق فكري متكامل، يُظهِر كمال العدل الرباني، وكمال الفضل في موضوع الأعمال والنيات الباعثة عليها.

(أ) فمن قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» ومن جوابه لأبي بكرة في تعليل عذاب المقتول مثل عذاب القاتل بقوله: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»؛ نستدل على أن سبب مؤاخذة المقتول نيته التي كان مصمماً على تنفيذها، وحريصاً عليه، ولو لم يظهر لنيته أثرٌ مادي، إذ عاجله أجله، فمنعه من التنفيذ، ولو تمكن من ذلك لم يقصر.

(١) من حديث طويل رواه الترمذي بإسناد صحيح عن أبي كبشة، أوّله «ثلاثة أقسم عليهن». انظر الباب الخامس من هذا الكتاب الفقرة ٤.

فمسؤوليته نيطت بنيته الجازمة التي لم يصرفها بنية أخرى، مع أن هذه النية لم تترجم في الواقع إلى عمل ذي أثر. أما التلاقي بالسيوف على سبيل التهديد ومن غير أن يكون القتل غايته؛ فليس جزاؤه مثل جزاء القتل، إلّا أن تساوي القاتل والمقتول في العقوبة يشعر بأن تساويهما في النية هو السبب في ذلك. وفي قول الرسول: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» إفصاح كافٍ عن المناط الذي تعلق بسببه الجزاء، وهو الحرص على القتل، والحرص على القتل هو النية المصحوبة بإرادة وتصميم ومحاولة للتنفيذ، ثم كان المانع من التنفيذ أمراً خارجاً عن إرادة صاحب هذا الحرص.

هذا في جانب المؤاخذة، ونظير ذلك يقال في جانب الثواب: فالنية الصالحة الجازمة المصحوبة بإرادة وتصميم ــ وهي التي يكون المانع من تنفيذها أمراً خارجاً عن إرادة صاحبها، وكذلك التي يكون المانع من تنفيذها عذراً طارئاً يبرر عدم تنفيذها في نظر الشارع ــ كافية في ترتب الثواب كله، كما لو تم معها تنفيذ العمل، ويدل على ذلك حديث: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له بمثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً» وحديث: «إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا شركوكم في الأجر حبسهم المرض» وحديث: «إن أقواماً خلفنا في المدينة ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا، حبسهم العذر».

وهذا ما ذهب إليه عامة السلف وأهل العلم من الفقهاء والمحدثين.

قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم، عند شرحه لحديث: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به»:

(مذهب القاضي أبي بكر بن الطيب أن من عزم على المعصية بقلبه، ووطن نفسه عليها أَثِم في اعتقاده وعزمه، ويحمل ما وقع في هذه الأحاديث وأمثالها على أن ذلك فيمن لم يوطن نفسه على المعصية وإنما مر ذلك بفكره من غير استقرار، ويسمى هذا هماً، ويفرّق بين الهم والعزم. . .

قال القاضي عياض، رحمه الله: عامة السلف وأهل العلم من الفقهاء

والمحدثين على ما ذهب إليه القاضي أبو بكر، للأحاديث الدالة على المؤاخذة بأعمال القلوب).

ثم قال النووي تعقيباً على ما ذكره القاضي عياض:

(هذا آخر كلام القاضي، وهو ظاهر حسن لا مزيد عليه، وقد تظاهرت نصوص الشرع بالمؤاخذة بعزم القلب المستقر، ومن ذلك قوله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . . . ﴿١٩﴾ ﴾.

وقوله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

والآيات في هذا كثيرة، وقد تظاهرت نصوص الشرع وإجماع العلماء على تحريم الحسد، واحتقار المسلمين، وإرادة المكروه بهم، وغير ذلك من أعمال القلوب وعزمها، والله أعلم).

انتهى كلام النووي رحمه الله تعالى.

(ب) أما إذا ضعفت النية عن التنفيذ بسبب تناقص مستوى الإرادة الجازمة، أو بعارض داخلي ثبط الهمة لكسل أو مشاغل: فإذا كانت نية حسنة كتبت له بمعدل حسنة واحدة من غير مضاعفة، بخلاف التي ترقى إلى مستوى التنفيذ فإنها تضاعف إلى عشر حسنات، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة حسب مقتضيات الفضل الإلهي، وذلك لأن الصارف لم يكن أمراً خارجاً عن إرادة الإنسان، ولا عذر يبرره. وإذا كانت نية سيئة لم تكتب عليه مطلقاً، لأنها لم ترق إلى مستوى التنفيذ، حتى تكتب عليه بمعدل سيئة واحدة، حسب مقتضيات العدل الإلهي.

ويدل على ذلك حديث: «إذا هم عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتها له

حسنة، فإن عملها كتبتها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وإذا هم بسيئة فلم يعملها لم أكتب عليه، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة».

فالهمُّ الذي لم يرق إلى مستوى التنفيذ الفعلي، نيةٌ اقترنت بحركة نفسية لم تصل إلى حد التغلب على العوارض الداخلية في الإنسان، فلم يكن لها مستوى العمل الكامل، لذلك فإن فضل الله يشملها بالثواب على قدرها إذا كانت حسنة، وبالعفو عنها إذا كانت سيئة، تشجيعاً على ممارسة النيات الصالحات، والتراجع عن النيات السيئات، والهمُّ يسهل صرف السيء منه بملاحظة الخوف من الله، وابتغاء مرضاته، وطلب ثوابه، ومراقبة برهانه، ويسهل انصراف الحَسَنِ منه بالكسل أو بأي مثبط آخر من مثبطات النفس.

(ج) وأما إذا كان صرف النية الجازمة عن التنفيذ قد تم بنية مضادة: فإذا كانت الأولى نية حسنة كتبت له بمعدل حسنة واحدة من غير مضاعفة، لأنه قد شغل كيانه الداخلي بعمل من أعمال الخير فترة من الزمن، فالله لا يضيع له هذا العمل، فضلاً منه وكرماً، ولو أوقفه عن التنفيذ بإرادته ونيته الثانية المضادة. وإذا كانت الأولى نية سيئة كتبت له بمعدل حسنة كاملة، لأنه نسخ هذه النية السيئة بنية أخرى مضادة وهذه النية الأخرى المضادة ناسخ حسن، فيعطى ثوابه بقوة نية حسنة.

ويدل على ذلك حديث: «إن الله تعالى كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة».

وجمعاً بين حديث أبـي هريرة وحديث عبدالله بن عباس رأينا أن الهمَّ في حديث عبدالله بن عباس قد جاءت نية أخرى تنسخه، لذلك يكتب الهمّ السيء الذي لم يتم تنفيذه حسنة كاملة، نظراً إلى الصارف الحسن الذي جاء عقبه. بخلاف الهمّ الذي ورد في حديث أبـي هريرة فإنه همّ لم يرق من ذاته إلى

مستوى التنفيذ ومغالبة العوارض، لذلك فإن السيء منه يقف عند حدّ عدم كتابته، ولا يرقى عدم تنفيذه إلى أن يكون بقوة نية حسنة، أما الحسن منه فإنه يكتب بقوة نية حسنة فضلاً من الله وكرماً.

(د) وأما أحاديث النفس ووساوسها التي تظل في حدود الخواطر، ولا ترقى إلى مستوى الهمّ فالإرادةِ الجازمة، فهي أمور تجاوز الله عنها، لأنها أحاديث لم تقترن بإرادة ما، فليست من قبيل النيات حتى ترتبط بها مسؤولية، ويفتح لها حساب.

ويدل على ذلك حديث: «إن الله تعالى تجاوز عن أمتي ما وسوست به صدورها، ما لم تعمل به أو تتكلم».

الخلاصة:

من خلال البحوث السابقة حول النيات الباعثة على الأعمال، نستطيع أن نقدم الخلاصة التالية:

١ ــ إن الأعمال لا ينظر إليها عند الله إلا من خلال النيات الباعثة عنها، وبحسب هذه النيات يجري الحساب والجزاء على الأعمال عند الله تبارك وتعالى.

٢ ــ إذا كانت النيات مخالفة ظواهر الأعمال، ألغيت الأعمال وجرى الحساب والجزاء على النيات فقط، كأعمال المنافقين والمرائين.

٣ ــ إذا وجدت النيات الجازمات، ولم يقف دون تنفيذ الأعمال إلا عقبات أو أعذار خارجة عن إرادة الإنسان، فإن مناط المسؤولية حينئذ هي النيات وحدها، ويجري الحساب عليها كما لو تم تنفيذ الأعمال التي تقتضيها.

٤ ــ إذا وجدت النيات الجازمات، ولكن لم يتم التنفيذ للأعمال التي تقتضيها بسبب يرجع إلى الإنسان نفسه، فإن سيئاتها لا تكتب عليه، ويتجاوز الله عنها. فإذا كان ذلك خوفاً من الله وابتغاء مرضاته، فإن الله يكتب له بذلك حسنة، وأما حسناتها فتكتب له في صحيفته على مقدارها دون مضاعفة، بخلاف ما لو فعلها فإنها تضاعف له أضعافاً كثيرة فضلاً من الله وكرماً.

٥ ــ الخواطر والوساوس معفو عنها ولا تدخل في حدود العمل المراد ما لم تصل إلى مستوى النيات المقترنة بالإرادة الجازمة، ولكن قد يثاب الإنسان على خواطر الخير إذا كانت ثمرة توجه إرادته.

٦ ــ الهم بالعمل، إذا كان هماً بفعل حسنة فالله يثيب عليه من غير مضاعفة إذا لم يتم تنفيذه، ومع المضاعفة الكثيرة إذا تم تنفيذه. وإذا كان هماً بفعل سيئة فله حكم الوساوس والخواطر المعفو عنها، فالله يتجاوز عنه ولا يسجله على صاحبه فضلاً منه وكرماً.

* * *

(د) شرح الشرط الرابع:

وهو العلم بالعمل، وبما يؤدي إليه العمل من خير أو شر، وبحكم العمل الأخلاقي أو الشرعي.

فمن الظاهر في مفاهيم الشريعة أنه لا مسؤولية مع الجهالة التي يعذر بها صاحبها.

وللمعرفة بفضائل الأخلاق ورذائلها طريقان:

الطريق الأول: ما أودع الخالق في فطر العقول من موازين ذاتية تدرك بها جملة من الفضائل والرذائل، وما أودع في فطر القلوب والنفوس من مشاعر داخلية تحس فيها بطائفة من فضائل الأخلاق ورذائلها.

أما ما يلتقي الناس على إدراكه من ذلك فيعتبر معلوماً بالفطرة، لذلك فإن العدالة الربانية تتولى الجزاء عليه، إن عاجلاً وإن آجلاً، وتعتبر المسؤولية بالنسبة إليه مسؤولية تامة.

فمن أمثلة ذلك الظلم الذي يلتقي جميع الناس على إدراكه كما تدركه أمم من البهائم غير العاقلة؛ ولذلك فإن الله تبارك وتعالى يفرض على جميع الظالمين يوم القيامة أن يؤدوا الحقوق إلى أهلها، سواء أبلغهم تشريع رباني أو لم يبلغهم ذلك، لأن أحداً لا يجهل قبح الظلم مهما ضعفت مداركه، إلا أن يكون ذا جنون مطبق.

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء ــ أي: التي لا قرون لها ــ من الشاة القرناء».

وروى الإمام البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء فليتحلَّلْه منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه».

الطريق الثاني: الإعلام المباشر أو بوساطة المبلغين.

١ ــ وقد علم الله أن معظم عباده سيظلون غافلين عن قضايا الإيمان، وعن كثير من قواعد التشريع والأخلاق، فألزم نفسه بتبليغ عباده شرائعه لهم، عن طريق رسله الذين يصطفيهم للقيام بمهمات التبليغ، وما يتعلق به من وظائف. ولم يتركهم لما أودع في فطرهم من أنوار يستطيعون بها أن يعرفوا الخير والشر والحق والباطل، لأن الاستطاعة الفطرية قد تظل راكدة نائمة، فهي بحاجة إلى من يحركها ويوقظها ويبصرها، ويهديها إلى سبيل كمالها.

ولو لم ينزل الله الشرائع لكان للناس أن يحتجوا بجهلهم أو بغفلتهم وعدم انتباههم، ولكان احتجاجهم هذا مقبولاً في محكمة العدل الربانية.

وفي بيان ما ألزم الله به نفسه من إعلام عباده شرائعه لهم؛ يقول تبارك وتعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

ويقول سبحانه في سورة (التوبة ٩):

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

ويقول في سورة (القصص ٢٨):

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

في أمها: أي في نحو عاصمتها التي هي المركز الرئيسي لها، وسائر القرى تابعة لها.

ويقول في سورة (الأنعام ٦):

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾.

وفي بيان قطع أعذار الناس حتى لا يعتذروا بالجهل، أو بالغفلة، أو بمواريث البيئة، يقول الله تبارك وتعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾.

وفي معرض بيان جذور الإيمان الأولى في فطر الناس، وما جاء من تأكيدها ببلاغات الدين المنزّلة، يقول الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾.

٢ ــ ولما كان النسيان الذي يعذر به صاحبه حالة من حالات الجهالة، لأن الناسي قد ارتفع علمه بالتكليف وقت نسيانه، كان سبباً من أسباب ارتفاع المسؤولية عنه.

عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»(١).

أما النسيان الذي لا يعذر به صاحبه فلا ترفع المؤاخذة بسببه، كالنسيان

(١) رواه ابن ماجه والبيهقي، وهو حديث صحيح لطرقه.

الناشىء عن الإهمال والتهاون والتقصير، وكنسيان الحقائق الكبرى التي تقترن بالمذكرات الدائمة[1].

٣ ـ لا يقال باستطاعة الإنسان إذن أن يتهرب من المعرفة، ويبقى في الجهل، ليعفي نفسه من المسؤولية؛ لأن الإنسان مسؤولٌ أولاً عن تعلم ما يجب عليه التزامه من سلوك حسن، ومسؤول عن تعلم ما يجب عليه اجتنابه من سلوك قبيح، ومسؤول ثانياً عن تطبيق العلم بالعمل.

وقد أنزل الله الشرائع، وأرسل الرسل، فعرفوا الناس، ولفتوا أنظارهم إلى ما يجب عليهم أن يعرفوه ويعملوا به، فلا عذر بعد ذلك للهارب من المعرفة، زاعماً بذلك أنه يعتصم بالجهل الذي يجعله بريء الذمة، إنه سيسأل مرتين: لِمَ لم يتعلم؟ ولِمَ لم يعمل؟ وقد كان باستطاعته أن يتخلص من الجهل، ويعرف ما يجب عليه أن يعمله، وما يجب عليه أن يجتنبه، وهذا مما هو مسؤول عنه، ومكلف به، وقد لفت نظره إليه.

لكنه إذا سعى وراء المعرفة فلم يصل إليها، أو لم يتسع وقته للوصول إليها، فإن جهله حينئذ غير ناشىء عن تقصير منه، فيعذر به، وترتفع عنه بسببه المسؤولية.

لذلك فلا يعذر عامة المسلمين، إذا تركوا واجباتهم الدينية أو وقعوا في المحرمات الدينية، متعللين بجهلهم بأحكام الشريعة لأنه كان يجب عليهم أن يتعلموا، وقد قصروا بهذا الواجب، فعليهم أن يتحملوا تبعات تقصيرهم.

أما المعذور فعلاً بالجهل، كالذي لم يلفت نظره إلى المعرفة أحد، أو لم يتهيأ له ظروف التعلم مع سعيه إليه، فإن الله يرفع عنه حينئذ المؤاخذة، لعدم مسؤوليته بفقد شرط العلم.

* * *

(١) انظر بحث النسيان في كتاب «أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها» للمؤلف.

(هـ) **شرح الشرط الخامس:**

وهو كون العمل مستطاع الفعل والترك.

فلا مسؤولية عن العمل مع العجز، سواء أكان عجزاً عن الفعل، أو كان عجزاً عن الترك، وبداهة العقول تقضي بأن الاستطاعة شرط لترتب المسؤولية.

أما نصوص الشريعة الدالة على ذلك فمتعددة، منها قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴿٢٨٦﴾ ﴾.

وقوله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴿١٥٢﴾ ﴾.

وقوله تعالى في سورة (الطلاق ٦٥):

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴿٧﴾ ﴾.

فعلى مقدار الهبة الربانية للإنسان تكون درجة التكليف والمسؤولية، وما لا قدرة للإنسان عليه ــ حتى ولو كان من حركات نفسه ــ هو خارج عن دائرة مسؤوليته، كالخواطر التي لا يستدعيها بإرادته، وكالهم النفسي بشهوة من الشهوات التي لا يتعمد إثارتها، ولا يتخذ بإرادته أسبابها، وكالحب الذي لا يملك الإنسان جلبه ولا دفعه ولا رفعه، إلى غير ذلك مما هو خارج عن دائرة استطاعة الإنسان، وليس خاضعاً لسلطان إرادته.

لذلك فإننا نستطيع أن نقول في باب الأخلاق: إن المفطور على سرعة الانفعال حتى لا يستطيع أن يملك نفسه ملكاً تاماً، تخف مسؤوليته في مجال خلق الحلم إلى المقدار الذي يملكه من نفسه بإرادته، بخلاف المفطور على بطء الانفعال، فإن مسؤوليته في مجال خلق الحلم تكون أكبر وأعظم، فإذا هو أسرع بالغضب مع قدرته على ضبط نفسه، فإنه يلام بنسبة أكبر من النسبة التي يلام بها المفطور على سرعة الانفعال، نظراً إلى أنه أقدر على ضبط نفسه منه.

ونظير ذلك المفطور على نسبة عالية من الشح أو الجبن: إن مسؤوليته في مجال الجود أو الإقدام أخف من مسؤولية المفطور على نسبة عالية من الكرم أو الشجاعة وكل منهما تقف مسؤوليته عند حدود استطاعته مغالبة نفسه، فمتى وصل إلى المستوى الذي لا يستطيعه فإن مسؤوليته عندئذ ترتفع، إذ ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ و ﴿لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾.

ولكن لا ترتفع المسؤولية في تكليف عام لاحظَ فيه الشارع حدود الاستطاعة الموجودة لدى مختلف طبائع الناس، كالزكاة والنفقة الواجبة في باب البذل، وكالخروج إلى الجهاد في سبيل الله عند النفير العام في باب الشجاعة، باستثناء أحوال العذر كالعمى والعرج والمرض بالنسبة إلى الجهاد، وكذلك كل أصحاب الأعذار الذين أعفاهم الشارع أو خفف عنهم من بعض التكاليف.

* * *

(و) شرح الشرط السادس:

وهو أن يكون صاحب العمل متمتعاً بحريته عند أداء العمل، غير مكره عليه.

والإكراه: هو الإلزام على سبيل القهر والغلبة بالقيام بعمل من الأعمال المادية الظاهرة، تحت تأثير قوة ملجئة، أو تهديد بانتقام أشد ضرراً وشراً من الضرر أو الشر اللذين يفضي إليهما العمل المكره عليه، والملزم بالقيام بالعمل كاره له، مقهور عليه، مغلوب على أمره فيه.

ومن المعلوم أن الإرادة لا تكون تامة الحرية في حالة الإكراه، بل هي مغلوبة مستكرهة، لذلك نلاحظ أن الأحكام الإسلامية قررت رفع مسؤولية الإنسان عن الأعمال المادية التي يستكره على فعلها، وذلك ضمن شروط وتفصيلات مبينة في كتب الفقه.

روى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[1].

---

(١) أخرجه ابن ماجه والبيهقي، وهو حديث صحيح لطرقه.

أي: إن الله تجاوز عن مؤاخذة الإنسان على عمله في كل منها، ضمن شروط الإعفاء من المسؤولية المبينة تفصيلاتها في أحكام الشريعة الإسلامية.

ومن أول الشروط في رفع المسؤولية عن المكره ألا تتفق إرادته القلبية مع إرادة من استكرهه على العمل، أو ألا تكون إرادته القلبية موافقة على القيام بالعمل لذاته بعيداً عن ملاحظة حالة الإكراه الضاغطة عليه.

ومن أمثلة ذلك إكراه أولياء الإماء إماءهم على البغاء بسلطان الولاية، قال الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: غفور لهن رحيم بهن، لأنهن كن مكرهات على ما فعلن كارهات له.

ومن أمثلة ذلك أيضاً أن يُكرَه المؤمن على إعلان الكفر بتهديده وتوعده بالقتل الذي لا يستطيع دفعه، أو بالعذاب الشديد الذي لا يستطيع تحمله. وهنا يوازن المؤمن بين إعلانه الكفر أمام الكافرين وبين قتله وتعذيبه، فقد يرى أن هذا الإعلان أخف شراً وضراً من القتل والتعذيب، فينجي نفسه من ذلك بما يرضي عدوه من قول أو فعل، وقلبه مطمئن بالإيمان، أو لا تقوى نفسه على تحمل ما هدد به، فيفعل ذلك وقلبه مطمئن بالإيمان، قال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

وذلك لأن الإكراه لا يستطيع أن يصل إلى تحويل القلوب عن إيمانها مهما كان شأنه، إلا أن تتخذ فيه وسائل تسلب معها إرادة الإنسان سلباً تاماً،

وعندئذ ترتفع المسؤولية بسلب الإرادة لا بالإكراه. ويقف مدى تأثير الإكراه عند الإلزام بأعمال مادية ظاهرة فقط، كإعلان الكفر باللسان، فهذا الذي يتجاوز الله عنه في حالة الإكراه. ولا يشمل هذا الحكم فيما نرى من إذا أعلن الكفر ولو على سبيل الإكراه كفر من ورائه ناس مقتدون به كفراً حقيقياً، وذلك لأن الشر الذي ينجم عن إعلانه هذا أشد بكثير من الضر الذي يناله بالموت شهيداً في سبيل الله، أو بالتعذيب والإيلام.

ومن أجل ذلك لم يأذن الله لحملة رسالاته للناس بمثل هذا الإعلان مهما نالهم من ضرٍ وأذى، فهذا الإذن خاص بالأفراد العاديين الذين لا يتأثر غيرهم بما يظهر منهم.

ورفع المسؤولية عمن يعلن الكفر تحت تأثير الإكراه وقلبه مطمئن الإيمان، يعني رفع المسؤولية الإلزامية، لا رفع المسؤولية مطلقاً، فالمسؤولية الاستحسانية تظل قائمة؛ فالأفضل للمؤمن أن يصبر، ولو أفضى به الأمر إلى التضحية بنفسه في سبيل الثبات على دينه. وقد استطاع كثير من صادقي الإيمان واليقين بالله أن يصبروا، ويتحدوا إكراه المكرهين، ويتحملوا ألوان العذاب التي لم ترفع عنهم حتى لاقوا حتفهم، ولو أنهم تنازلوا فتفوهوا ببعض كلمات الكفر لنجوا، ولكنهم آثروا الصبر والشهادة على التظاهر بالكفر؛ وهذا هو سبيل المحسنين.

ولقد صبر فريق من المستضعفين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم صبراً عظيماً على ألوان البلاء التي كان المشركون ينزلونها بهم، دون أن يتفوه هؤلاء المستضعفون بما يريد المشركون أن يقولوه من ألفاظ الكفر. وقد أثنى الرسول صلوات الله عليه عليهم وعظَّم صبرهم، ولم ينههم عما فعلوا. وممن صبروا بلال وخباب وياسر وسمية رضي الله عنهم، وكان ياسر وسمية أول قتيلين استشهدا في الإسلام، بسبب صبرهما وعدم تفوههما بألفاظ الكفر.

وعن خباب بن الأرت ــ رضي الله عنه ــ قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال:

«قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه» رواه البخاري.

وكل إكراه يمكن التخلص منه بوسيلة لا ضرر فيها، أو بوسيلة ضررها أخف من ضرر ما حصل عليه الإكراه، ويستطيع المستكره مباشرتها، فإنه إكراه لا ترتفع معه المسؤولية، ولا يكون مناطاً للاعتذار به في استحقاق العفو.

وليس من الإكراه حمل الإنسان على ارتكاب إثم كبير وجرم خطير عن طريق تهديده بإنزال ضرر فيه دون الضرر الذي يتحقق بذلك الجرم. ومن أمثلة ذلك حمل الجندي على قتل إنسان بريء غير مدان في القضاء الشرعي بالقتل، فإن لم يفعل ما أمر به سرح من عمله، أو سجن، أو حسم من راتبه مبلغ من المال؛ فإنه في مثل هذا غير مكره أصلاً، لأنه آثر أن يرتكب جريمة القتل خشية أن يسرح من عمله أو يسجن أو يحسم من راتبه مبلغ من المال، ولن يجد لنفسه عذراً عند الله بأنه كان مكرهاً على العمل، ولكنه سيلاقي جزاءه، فهو من شركاء الظالمين وأعوانهم.

ومن روائع أمثلة إيثار العذاب على الوقوع في معصية الله ما كان من يوسف عليه السلام، فإنه لما سمع تهديد امرأة العزيز له إذ قالت: ﴿ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين﴾، قال: ﴿رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه﴾.

ونأخذ من كلام فقهاء الشريعة أن العمل الذي قد يحصل فيه الإكراه تعتوره الأحكام الخمسة: فقد يكون بالإكراه مباحاً، وقد يكون واجباً، وقد يكون حراماً، وقد يكون مندوباً إليه وقد يكون مكروهاً.

فمن أكره بالقتل على شرب الخمر مثلاً وجب عليه أن يشربها حماية لنفسه من القتل، لأن ضرر شربها أخف من ضرر التعرض للقتل.

ومن أكره بالقتل على قتل إنسان آخر حرم عليه أن يقتله، لأن عملية القتل ستتم على كل حال، ولكنه إذا قتل بسبب الإكراه فقد أضاف إلى جريمة

القتل إرادته قتل غيره لينجي نفسه، أما لو لم يفعل فإن جريمة القتل انفردت بها إرادة المكره.

ومن أكره بالقتل على إعلان الكفر جاز له أن يعلن الكفر لينجي نفسه من القتل، ولكن الأفضل له أن يصبر، ما لم ير أن نجاته قد تكون أنفع للإسلام والمسلمين فإن إعلانه الكفر في هذه الحالة هو الأفضل.

(ب)

المسؤولية ذات طابع شخصي:

من الواضح في المفاهيم الإسلامية، وقواعد العدل الربانية، أن المسؤولية عن السلوك مسؤولية شخصية، لا تحمل مواريث الأصول الأقربين والأجداد والآباء الأولين، ولا تتحمل نصيباً من سلوك الأهل والأقارب والعشيرة المعاصرين، ولا تورِّث تبعاتها للذراري القادمين، والنصوص الإسلامية الدالة على ذلك كثيرة، منها قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ . . . ﴿٢٨٦﴾ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ

مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (لقمان ٣١):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (النجم ٥٣):

﴿ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾.

فهذه النصوص القرآنية ونظائرها تقرر بوضوح تام أن المسؤولية عن السلوك مسؤولية شخصية، فلا يتحمل أحد وزراً من عمل غيره، دون أن يكون له فيه كسب ما، ولا ينال ثواباً من عمل غيره، دون أن يكون له فيه كسب ما.

ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم للأقربين من عشيرته: «اعملوا

لأنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً» ونادى بذلك جملة من صفوة أقاربه حتى بلغ إلى ابنته فاطمة فقال لها: «يا فاطمة بنت محمد اعملي لنفسك لا أغني عنكم من الله شيئاً».

وقال صلوات الله عليه: «ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[1].

فالجزاء عند الله بالثواب أو بالعقاب لا تحويل فيه، ولا امتداد، ولا اشتراك، مهما تدانت القرابة. وتأتي مسؤولية الآباء والأجداد عن صور القدوة والتربية التي قدّموها لأبنائهم وأحفادهم، وتأتي مسؤولية الأبناء والأحفاد عن التقليد الأعمى أو البصير لآبائهم وأجدادهم في عاداتهم ومفاهيمهم وطرائق سلوكهم.

والله تعالى يقول في سورة (البقرة ٢):

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾.

فلا مجال في العدل الرباني لتصور خطيئة موروثة، ولا لأخذ البريء بخطيئة المذنب، بل كل فرد مسؤول وحده عن عمله. وقد يبدو أن قاعدة العدل هذه تتعرض لبعض الاستثناءات، إلا أن التأمل الدقيق يكشف مواطن الشبه، ويدفعها بالحلول المنطقية المقبولة، فمن ذلك ما يلي:

(أ) أما مخاطبة أحفاد اليهود بذنوب آبائهم وأجدادهم فلأن هؤلاء الأحفاد لم يغيروا في حياتهم من خلائق آبائهم وأجدادهم شيئاً، وفي مفاهيمهم الحاضرة تبرير أعمال الأولين، ولو أنهم وجدوا في مثل ظروفهم لفعلوا مثل فعلهم، فمسؤوليتهم إذن عما هم عليه في واقع حالهم.

(ب) وأما مسؤولية الأمة بعامة عن أعمالها الجماعية، فإنها ترجع في حقيقتها إلى المسؤولية الشخصية، لأن كل واحد من الجماعة يتحمل قسطه من

---

(١) من حديث طويل رواه مسلم عن أبي هريرة، أوله: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا». انظر الباب الخامس من هذا الكتاب، الفقرة (٧).

المسؤولية على مقداره من الجماعة، وينال من الجزاء على مقدار كسبه الشخصي، سواء أكان كسباً إيجابياً أو كسباً سلبياً.

(ج) وأما النصوص التي تثبت أن بعض المسيئين يتحملون أوزاراً من أوزار غيرهم من الناس، فإنما يتحملونها لأنهم كانوا أصحاب كسب ما في وجودها، باعتبار أنهم قادة مضلون، أو دعاة إلى الشر، أو سانّون سنة سيئة في الناس فاتبعهم من ورائهم مقلدون لهم في الشر، ونحو ذلك.

وفي مقابل هذه النصوص وردت نصوص أخرى تثبت أن بعض المحسنين ينالون ثواب أعمالهم، وثواباً آخر مماثلاً لثواب أعمال أناس آخرين، والسبب في ذلك أنهم كانوا أصحاب كسب ما في وجودها، باعتبار أنهم قادة مصلحون، أو دعاة إلى الخير، أو سانّون سنّة حسنة في الناس فاتبعهم من ورائهم مقلدون لهم في الخير، ونحو ذلك.

والسر في تحقيق هذه النتائج أن الإنسان مسؤول عن عمله الإرادي، وعن كل ما ينجم أو ينتج عن عمله الإرادي من آثار، فليس الأمر مقتصراً على ذات العمل، أو على مجرد نتائجه المباشرة، ولكنه يشمل ذات العمل ونتائجه المباشرة وآثاره القريبة والبعيدة، حتى إن الإنسان ليموت وتظل صحيفة أعماله مفتوحة، يسجل فيها كل أثر يتجدد من آثار أعماله التي كان قد عملها في الدنيا وهو حي مكلف مسؤول.

وهي حقيقة مخيفة جداً، ولكنها مطمعة جداً بفعل الخير، وهي منسجمة مع سنّة الله في كونه، فإن الإنسان قد يفعل في الحياة المادية عملاً صالحاً يسيراً، فينتج عنه خير كثير. إنه قد يزرع بزرة طيبة واحدة في أرض خصبة، فتمر السنون فنشاهد أن هذه الأرض قد امتلأت بالنبات الطيب، وغدا الجم الغفير من الناس ينتفعون من هذه البزرة الواحدة التي بذرها، مع أنها لم تأخذ منه إلا جهداً يسيراً. وإن الإنسان قد يفعل في الحياة المادية عملاً خبيثاً قليلاً، فينتج عنه شرٌّ مستطير، إنه قد يقذف بمقدار بزرة الزرع جراثيم وبائية في ماء مدينة من المدن، فتتكاثر هذه الجراثيم الوبائية، حتى يعم الوباء المدينة، ويتسبب بقتل

وتعذيب الجم الغفير من أهلها. فمن العدل أن يجني الأول ثمرة العمل الصالح الذي عمله على قدر آثاره، مهما نتج عنه من آثار حسنة، وأن يتحمل الثاني جريرة العمل الخبيث الذي عمله على قدر آثاره، مهما نجم عنه من آثار سيئة، وذلك ما تقضي به قواعد الجزاء الربانية.

وقد تكاثرت النصوص الشرعية التي تؤكد هذه الحقيقة، فمنها النصوص التالية:

١ ــ يقول الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

فالمضلون يتحملون آثامهم وآثاماً مماثلة لآثام الذين تأثروا بهم فاستجابوا لإضلالهم؛ دون أن ينقص هذا من مسؤولية أتباعهم شيئاً.

٢ ــ ويحكي الله لنا مقالة بعض أهل النار يوم القيامة فيقول في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾.

٣ ــ وجاء في كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هرقل: «أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين».

فقد بين الرسول له أنه إذا أسلم آتاه الله أجره مرتين، وذلك لأن لإسلامه أثراً في توجيه أتباعه ومقلديه إلى الحق، وإن تولى تحمل إثم كفره وإثم كفر الأريسيين[1]، وهم من لهم صفة التبعية لأمرائهم ورؤسائهم.

(١) حقق الشيخ أبو الحسن الندوي أنهم أتباع «أريويس» من النصارى، وأريويس كان صاحب مذهب في النصرانية ينكر فيه ألوهية عيسى عليه السلام ويثبت أنه عبد الله ورسوله، انظر كتابه «السيرة النبوية».

٤ ــ وروى الإمام مسلم عن أبـي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً».

ففي هذا الحديث تصريح جلي بأن الإنسان ينال ثواب عمله الصالح، وثواب كل الآثار التي تنتج عن عمله الصالح، فمن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه في دعوته، وهذا يشمل كل من يتبعه إلى يوم القيامة، ولكلٍ من التابعين أجورهم على أعمالهم، لا ينقص منها شيء، أي: لا يقتطع منها لصالح من دعاهم شيء، ولكن الله يعطي الجميع من فضله. وفي هذا الحديث تصريح جلي بأن الإنسان يتحمل جزاء عمله، وجزاء كل الآثار التي تنجم عن عمله، فمن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه في ضلالته، وهذا يشمل أيضاً كل من يتبعه إلى يوم القيامة، وعلى كل واحد من التابعين جزاء عمله، لا ينقص منه شيء بسبب تحمل من كان السبب في إضلالهم مثل أوزارهم.

٥ ــ ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن جرير بن عبدالله البجلي: «من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

(باب الحث على الصدقة)

٦ ــ وروى البخاري عن عبدالله بن مسعود، أن النبـي صلى الله عليه وسلم قال: «ليس من نفس تقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سنّ القتل».

أي: إلا كان عليه نصيب من دمها، لأن قتله لأخيه صار في الناس سنة سيئة متبعة من بعده.

ومن هذا نعلم أن آثار عمل الإنسان لا تخرج عن حدود عمله، إلا أن من الآثار ما هو مباشر، ومنها ما هو غير مباشر، وربما يأتي الأثر بعد زمن بعيد جداً، فهو كالمتفجرة الموقوتة.

وفق هذه الحقيقة نستطيع أن نفهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم الذي رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة أشياء: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

فإذا مات ابن آدم انقطع عمله لانتهاء فترة ابتلائه، ولكن تبقى آثار عمله تضاف إلى صحيفته. والإنسان مسؤول عن آثار كسبه الإرادي ومحاسب عليها، ولو كان ظهور هذه الآثار بعد أمدٍ بعيد، وتظل التبعة تلاحقه، فهو يجني من ثمرات أعمال الذين كان له تسبب ما في ممارستهم لأعمالهم، حسنة كانت أو سيئة.

(د) وأما النصوص التي تثبت أن المقصرين في بعض الأعمال الصالحات قد يلحقون في مراتب الجنة بالسابقين في أعمالهم، فذلك يرجع إلى إكرام الله للسابقين الذين يحبون أن يلحق بهم في الأجر من كانوا يحبون في الدنيا من أهليهم وذرياتهم وغيرهم، أو يرجع إلى أعمال قلبية خفية كفيلة بأن تلحقهم بالسابقين بمقتضى فضل الله وجـوده العظيم.

فمن الأول قول الله تعالى في سورة (الطور ٥٢):

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

فشرط هذا الإلحاق أن يكون المُلْحَقون مؤمنين، وسببه إكرام السابقين، ولكن هذا لا يؤثر على السابقين بنقص من درجة استحقاقهم لصالح الذين ألحقوا بهم، وإنما هو فضلٌ من الله، ولذلك قال تعالى في الآية: ﴿وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾ أي ما نقصناهم من عملهم من شيء.

ومنه قول الله تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

ومن الثاني ما جاء في أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم من إلحاق المحبين في الله المقصرين بالمحبوبين في الله السابقين، ومنه ما رواه البخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم؟ (أي: في صالح العمل) فقال: «المرء مع من أحب».

فالحب في الله فضيلة تلحِقُ بجود الله المسبوق بالسابق.

(هـ) وأما الشفاعة فأعظم ما فيها الدعاء بالعفو والغفران، ضمن قواعد المغفرة التي وضعها الله لعباده المذنبين، وهي لا تكون إلا بالإذن، ولا يتحقق المرجو فيها إلا بإرادة الله، ووفق حكمته فيما يعطي عباده من جوده وفضله.

(ج)

قطاعات الكسب الإرادي باعتبار موقع السلوك:

لا ينحصر الكسب الإرادي ـ الذي هو مناط الابتلاء والتكليف ـ بالكسب الجسدي؛ بل هو شامل للكسب الجسدي، والكسب النفسي، والكسب القلبي، والكسب الفكري، وكل أنواع الكسب هذه خاضعة للتكليف والمسؤولية، بشرط أن تكون خاضعة لسلطان الإرادة الحرة في الإنسان.

فكل ما يملكه الإنسان بإرادته من ذاته هو محل للابتلاء والتكليف والمسؤولية.

أمثلة:

(أ) فمن أمثلة الكسب الجسدي الإيجابي أو السلبي ما يلي:

بذل المعروف، وهو كسب جسدي إيجابي. الكف عن أكل أموال الناس بالباطل، وهو كسب جسدي سلبي. وهذان الكسبان من أمثلة فعل الخير.

العدوان على حياة الآخرين أو أجسامهم بالقتل أو الأذى، وهو كسب إيجابي جسدي. الامتناع عن تأدية الحقوق المادية لأربابها، وهو كسب سلبي جسدي. وهذان الكسبان من أمثلة فعل الشر.

(ب) على الرغم من وجود أمور نفسية كثيرة تخرج عن مدى استطاعتنا وما تملكه إراداتنا ــ فلا نعتبر مسؤولين عنها لأنها واردات غير خاضعة للإرادات ــ فإنها توجد حركات نفسية أخرى يملكها الإنسان بإرادته، أو يملك أسبابها ومقدماتها، ويشعر الإنسان معها بأنه يسيء إذا مارس منها ما هو إثم، ويحسن إذا مارس منها ما هو بر، لأنه يملك صرف ما هو منها إثم عن نفسه، باتخاذ الوسائل لذلك، ويملك اجتلاب ما هو منها بر إلى نفسه، باتخاذ الوسائل لذلك.

فمن تشهّى في نفسه ما لا حقّ له به ــ وقد ورد هذا التشهي بسبب لم يجلبه بإرادته ــ فإنه قد يستطيع أن يعمل على صرف هذا التشهي عن نفسه، بتذكر ما يجب عليه، ومراقبة الله، والتبصر بالحق، وبذلك يكسب كسباً نفسياً مبروراً يثاب عليه عند الله. ومهما صرف عن نفسه هذا التشهي الذي لا حق له فيه كان له كسباً نفسياً مبروراً، أما إذا لم يعمل على صرفه وكان باستطاعته ذلك، بل ترك نفسه تنطلق في تشهي ما لا حق له فيه، ثم أخذ هذا التشهي ينمو في نفسه بسبب من إرادته، حتى صار بعض القبائح النفسية المقيمة لديه، فإنه من دون شك يعتبر كاسباً في نفسه كسباً إرادياً آثماً يؤاخذ عليه عند ربه. وقد يكون الإسهام في الكسب النفسي بصفة إيجابية، وقد يكون بصفة سلبية.

ومثل التشهيات الممنوعة أهواء النفوس الجانحة عن سبيل الخير.

وقد توجد تشهيات وأهواء نفسية خيرة، تخضع هي أو أسبابها لسلطان الإرادة، فيكون دعمها وتنميتها بإرادة الإنسان، واتخاذ الوسائل لذلك من الكسب المبرور الذي يثاب عليه.

ولذلك كان حب الإنسان للحق والفضيلة والخير، الذي ينمو في ظل دعم الإرادة وتربيتها، عملاً من الأعمال المبرورة التي لها حظ عظيم من الأجر عند الله، وظاهر أن هذا العمل من الكسب الذي تمارسه النفوس.

أما كراهية الإنسان للحق والخير والفضيلة النامية في ظل دعم الإرادة وتربيتها؛ فإنها عمل نفسي من الأعمال الآثمة التي لها نصيب كبير من المؤاخذة.

(ج) وفي تصوير الكسب القلبي قد لا نستطيع أن نحدد فروقاً واضحة بينه وبين الكسب النفسي، وقد تختلط علينا أمثلة هذا بأمثلة ذاك، لأننا لا نستطيع إدراك مواقع الحركات التي تجري داخل ذواتنا. لكننا نقول: إن من أمثلة ما تكسبه القلوب والنفوس من غير أن نميز ما لهذه مما لتلك: الكبر والعجب، والحسد، وشدة التعلق بالشهوات المحرمة، والافتتان بالأهواء الجانحة الضارة، والميل العنيف إلى الفجور، ومحبة الظلم والبغي والعدوان، وكل هذه الأمثلة من أمثلة الكسب القبيح الآثم. ومن أمثلة الكسب الحسن المبرور: التواضع، ومعرفة الإنسان حدود نفسه وربط مشاعره بذلك، والرضا بالقضاء والقدر ومجانبة الحسد، وتعلق النفس والقلب بالطاعات، وميلهما الشديد إلى خير الناس وإسعادهم ومرضاة الرب جل وعلا وكراهية الظلم والبغي والعدوان.

إلى غير ذلك من أمور نفسية وقلبية كثيرة، باستطاعة الإرادة أن تتحكم بها، أو بأسبابها الجالبة أو الصارفة.

(د) وفي تصوير الكسب الفكري قد يسهل علينا تمييزه عن الكسبين النفسي والقلبي.

إنها تمر في أذهاننا خواطر كثيرة، وهذه الخواطر لا تقع تحت سلطة إراداتنا، إلا أننا قد نملك بإراداتنا صرفها، عن طريق الاستعاذة بالله، وقد نملك بإراداتنا اجتلاب كثير منها بالتأمل والتفكر وحصر الهمة لذلك.

ومما نملكه بإراداتنا من أفكار ما هو خير، ومنها ما هو شر.

فمن أمثلة الكسب الفكري المبرور: إعمال الفكر في تدبر آيات الله وآلائه، والبحث عن دلائل وجوده وكمال صفاته في آثاره، وابتكار ما فيه خدمة الحق والخير والفضيلة، والتخطيط الفكري لنشر الخير وقمع الشر.

ومن أمثلة الكسب الفكري الآثم: إعمال الفكر في وسائل نشر الشر، وفي ابتكار ما فيه خطط الأذى والضر بخلق الله، وإعمال الفكر في تلفيق الأدلة المزوّرة لجعل الحق باطلاً والباطل حقاً، خدمة لأهواء النفس وشهواتها، إلى غير ذلك من أمثلة كثيرة تدخل في أعمال الفكر الإرادية.

ومن هذه الأعمال ما هو إيجابي، ومنها ما هو سلبي؛ فمن الأعمال الفكرية السلبية: ترك ما يجب على الإنسان التفكير والتأمل فيه، وهذا كسب فكري سلبي يؤاخذ الإنسان عليه، ومنها أن يترك بإرادته ما ينبغي له أن يتركه من أفكار جهنمية شريرة، حتى لا تؤثر في نفسه، وهذا كسب فكري سلبي يثاب عليه.

فمن أطلق نفسه بإرادته في كسب نفسي أو قلبي أو فكري سيء، فانطلقت في ذلك، حتى وصل إلى مرحلة لا يستطيع معها رد نفسه عن الشر، وصارت واردات الشر ترد على نفسه من غير إرادته، أو رغم إرادته؛ فالذي يظهر أن ما وصل إليه يعتبر من كسبه المسؤول عنه، لأن مقدماته الأولى قد كانت بسبب منه، فعليه إذن أن يتحمل تبعات النتائج.

فهو في هذا كمن بدأ بتعاطي المخدرات أو المسكرات، حتى تمكنت من جملته العصبية، وأمسى أسيرها، وغير قادر على التخلص منها.

(د)

ما يسأل عنه الإنسان يوم الحساب:

دلت النصوص على أن الإنسان يسأل عن كل الأشياء التي جعل الله له سلطاناً عليها، أو قدرة على التصرف فيها ولو من وجه من الوجوه، أو قدرة تأثير بقول أو عمل أو تفكير.

ومسؤولية الإنسان في ذلك تنحصر في حدود استطاعته وقدرتـه على التصرف أو التأثير: فمن كان باستطاعته العمل والواجب الديني يُلزِمه بالعمل فهو مسؤول عنه، ومن كان باستطاعته القول والواجب يُلزِمه بالقول فهو مسؤول عنه، ومن كان باستطاعته إبداء الرأي والفكر والواجب يُلزِمه بذلك فهو مسؤول عنه. وهذه المسؤولية تلاحقه منذ يبدأ تكليفه حتى يوافيه أجله، ما لم يسقط التكليف لانعدام شرط من شروطه، وتزداد مسؤوليته كلما ازدادت منح الله له، وتنخفض مسؤوليته بمقدار انخفاض منح الله له.

فمن النصـوص المبيّنة لمسؤوليـة الإنسان، قـول الله تعالى في سـورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

أي لا تتبع أيها الإنسان في أي أمر من أمورك في حياتك ما ليس لك به علم، إذ لديك من أدوات المعرفة ما تستطيع به التبصر في الأمور، فإذا اتبعت ما ليس لك به علم فقد عطلت أدوات المعرفة التي لديك. لذلك فلا بد أن تكون هذه الأدوات مسؤولة عن تأدية وظائفها الفطرية، أي لا بد أن تكون أنت المسؤول عنها أيها الإنسان، لأن هذه الأدوات جزء من كيانك.

ومن النصوص ما رواه الترمذي ــ وقال فيه: حديث حسن صحيح ــ عن نَضْلة بن عبيد الأسلمي قال: قـال رسول الله صـلى الله عليه وسلم: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه؟ وعن عمله فيم فعل؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيم أبلاه؟».

فهذه الأربعة: العمر، والجسم، والعلم، والمال، طاقات وضعها الله تحت يد الإنسان يستطيع بها أن يفعل خيراً وأن يترك شراً، وأن يؤدي واجباً، وأن يكف عن محرم، فهو يسأل عنها بمقدار ما وهبه الله منها، وعلى مقدار استطاعته العمل أو الكف عن العمل.

ومجال نشاط هذه الأربعة ما يحيط بالإنسان في هذه الدنيا، مما يستطيع التصرف فيه، أو تسخيره أو توجيهه، من أشياء وأحياء، مما هو داخل في ذاته أو هو خارج عن ذاته.

ومن النصوص ما رواه البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده وهي مسؤولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

فأبان الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث مسؤولية الرعاية المنوطة بكل راع، عظمت دائرة رعايته أو صغرت، ومسؤوليته تكون على مقدار دائرة رعايته ومقدار سلطته فيها.

— ٣ —
الحرية وحدودها

لا توجد حرية مطلقة لمخلوق، والحديث عنها خرافة من الخرافات، وطلبها وهم من الأوهام المستحيلة الوقوع، ولا ينخدع بطلبها إلا ناقصو العقل من المراهقين الذين يسبحون في أحلام اليقظة، ويعيشون في دائرة أوهام أنفسهم فقط، أما الواقع في الحياة فمخالف مخالفة تامة لأحلامهم وأوهامهم.

إن الحرية المطلقة ليست إلا لمن بيده الخلق والأمر، وهو على كل شيء قدير، ومع ذلك فهو بحكمته لا يفعل إلا ما فيه الخير، ولا يختار بإرادته ذات الحرية المطلقة إلا ما فيه الخير. وقد كتب على نفسه الرحمة، وحرم على نفسه الظلم، وألزم نفسه بأمور كثيرة تجاه عباده، مع أنه لا حق لمخلوق على خالقه، ولكنه تبارك وتعالى رتب على نفسه حقوقاً لعباده.

فمن النصوص التي تثبت طائفة من الالتزامات الربانية ما يلي:

١ ـ قول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾.

٢ ـ وقول الله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

٣ ـ وجاء في الحديث القدسي الذي رواه الإمام مسلم عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا... الخ».

فمن أين للإنسان أن يكون له حرية مطلقة؟ إن حرية الإنسان لتحقيق ما يريد أو يهوى أو يشتهي مقيدة بواقع الضعف والعجز الذي هو مكبل به. قد تتوجه مثلاً إرادة الإنسان الحرة في أن يكون أول السابقين، ولكن يقصر به العجز عن تحقيق السبق لنفسه، فيظهر له بالتجربة الواقعية أنه لم يكن حراً في تحقيق ما أراد، وقد يعجز عن إبداء أية محاولة فيها شيء من الحرية. يتمنى الساقط من مكان شاهق أن يكون لديه القدرة على الطيران ليسلم، ويريد ذلك، ولكنه لا يجد أنه حر في أن يفعل ما يريد، إنه كالمكبل بالأغلال مشدود الوثاق فاقد الحرية. يتمنى الإنسان أن يكون واسع الثراء عظيم الجاه قوي السلطان، ويريد ذلك لنفسه، ولكنه لا يجد أنه حر في أن يصل إلى ما يريد، فحريته مقيدة غير مطلقة، وكذلك كثير من الأماني.

هل نملك الحرية المطلقة في أن نطير طيران النسر؟ أو نغوص غوص الحوت؟ أو نعرج عروج الملائكة؟.

هل ملكنا الحرية المطلقة حينما ولدنا؟ وهل نملك الحرية في أن ندفع عن أنفسنا الموت متى انتهت آجالنا؟

إن قدرات الإنسان ـ مهما كانت فائقة ـ لا تتسع لتحقيق كل مطالبه الخيالية، ولو خلا له مجال الحياة، وتهيأت له كل الفرص المواتية لانطلاق حريته الشخصية. فحق الحرية الشخصية مقيد تقييداً طبيعياً، شاء الإنسان أم أبى.

إن حق حرية الإرادة معارض بحقوق كثيرة، منها حقوق شخصية، تدخل في ذلك الإنسان صاحب الإرادة، ومنها حقوق اجتماعية، ومنها حقوق ربانية.

وهذه الحقوق لا تنال جميعها، إلا على طريقة التوفيق بينها، وذلك بأن يعطى لكل منها نسبته الصالحة النافعة ضمن التوزيع العام العادل، جلباً لأقصى ما يمكن جلبه من الخير، ودفعاً لأقصى ما يمكن دفعه من الشر. والأصل في الإرادة الحرة في الإنسان أن تكون حاكمة عادلة، تعطي كل ذي حق حقه بالعدل، فإن استخدمت حريتها في غير ذلك كانت جائرة، غير صالحة لأن تكون حاكمة في كيان الإنسان، وغير مؤهلة لهذا السلطان العظيم النادر في الوجود، سلطان حرية اختيار ما تشاء، ضمن دوائر الاستطاعة. وحينما يعطى للحاكم سلطة الحكم المطلقة، فليس معنى ذلك إعطاؤه حقاً في أن يظلم، ويجور ويهضم حقوق الناس، لمجرد أن يثبت سلطته، ويطلق فيها إرادته العمياء تفعل ما تشاء.

فمن الحقوق الشخصية: حق تكميل الفكر بالمعرفة، وحق جلب السعادة والطمأنينة للقلب والنفس. ومنها حقوق الجسد على الإنسان: كحقه في الغذاء من غير إسراف، وحقه في الدواء النافع، وحقه في الاستمتاع بالراحة واللذات المباحة من غير إسراف ولا تقتير، وحقه في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره.

فهل من حق حرية الإرادة الشخصية أن يقتل الإنسان نفسه ليرضي شهوته؟ هل من حق الحرية الشخصية أن يُمرِض الإنسان جسمه ليرضي نهمته؟ هل من حق الحرية الشخصية أن يخرب الإنسان طاقته الفكرية وقوته العقلية ليرضي هواه في عادة استحكمت فيه، وتمكنت من نفسه؟ هل من حق الحرية الشخصية أن يدمن الإنسان المسكرات، أو المخدرات، ويقذف بنفسه في مصائب عواقبها مؤلمة؟!.

هذا أمر لا يقبل به ذو عقل.

أما الحقوق الاجتماعية فكثيرة: منها أن لا يتعرض الإنسان من أجل إثبات حريته الشخصية إلى شيء من حقوق الآخرين بظلم أو عدوان، ومنها أن يشترك مع المجتمع في تكافل اجتماعي يتبادل فيه أفراد المجتمع الأخذ والعطاء، ضمن قواعد العدل والإحسان والواجب. ما دام الإنسان كائناً اجتماعياً فلن يكون ذا حريه مطلقة، إن شركاءه في الهيئة الاجتماعية سيحدّون من حريته، لأن لهم مصالح مثلما له مصالح، ولأن لهم مطالب مثلما له مطالب، ولن تتسع حياة الجماعة لجميع المطالب الخيالية التي يصبو إليها الأفراد.

فهل من حق الحرية الشخصية أن يقتل الإنسان غيره ليثبت حريته؟ هل من حق الحرية الشخصية أن يرضي الإنسان شهوة من شهواته في حين أنه ينجم عنها آلام آخرين وعذابهم؟ هل من حق الحرية الشخصية أن يدمن الإنسان المسكرات ويخلف ذرية ترث عنه العاهات والأمراض الخطيرة بسبب إدمانه؟ إنه بإدمانه المسكرات لا يجني على نفسه فقط وإنما يجني على نفسه وعلى ذريته، وعلى المجتمع الذي يعيش فيه، لما يجلب له من متاعب، وما يحمله من أعباء. هل من حق الحرية الشخصية أن يقذّر الإنسان في طريق عام، ويعرض الآخرين للأذى، ويعرض صحتهم للأمراض والأوبئة؟ إنه لا يملك أن يفعل مثل هذا في بيته الخاص به، إذا كان لفعله أضرار وآثار تتعدى للآخرين. ولو أنه كان مريضاً بمرض معدٍ يسري بحسب سنن الله الكونية إلى الآخرين، لم يكن من حق حريته الشخصية أن يجتمع بالناس، لئلا يسبب لهم العدوى، وعليه أن يفرض على نفسه حجراً صحياً. هل من حق الحرية الشخصية أن يسلب الإنسان مال غيره بالباطل؟ هل من حق الحرية الشخصية أن يعلن الإنسان جحوده بالحقائق الثابتة، ويعمل على إضلال الناس؟ إنه يجب أن يعاقب ويحجز ويمنع من ذلك، لا سيما إذا كانت هذه الحقائق تتصل بمصالح الناس وأنظمتهم، وضوابط هيئتهم الاجتماعية.

وأما الحقوق الربانية، فهي حقوق الخالق المالك على عباده، وليس من

حق الإنسان أن يستخدم ما أعطاه الله من الحرّيّة الشخصية في العدوان على حقوق مانح هذه الحرية، وأن يتجاوز بها الحدود التي حدها له، وكان باستطاعة الخالق المالك وما يزال باستطاعته أن يسلبه حريته وحياته وكل ما أعطاه.

إن مما لا شك فيه أن الحقوق لها حدود، وأن كل حق متى تجاوز حده خرج عن دائرته فكان عدواناً وظلماً.

فدعوى حق الحرية الشخصية المطلقة لا تقوم إلا على أساس واحد، هو إلغاء كل الحقوق إلا حق الحرية، وهذه الحرية الشخصية هي في الأساس خادمة للحقوق الأخرى، ومنظمة لها، وليس لها مطالب ذاتية، غير الشعور باستقلال الذات.

إن الذين يزعمون أنهم يعطون أنفسهم حرياتها الشخصية يقعون فريسة للأهواء والشهوات والشياطين، وعندئذ لا تكون لهم حريات شخصية، وإنما تكون لهم إرادات مستعبدة مذلة بين أيدي الأهواء والشهوات والشياطين.

إن الذي يستطيع أن يظفر بأكبر قسط من الحرية الشخصية هو الذي يكون عبداً لله حقاً، فمن تحقق بعبوديته لله تبارك وتعالى ملك هذا الحظ الأوفر، فاستطاع بحرية تامة أن يدير شؤون نفسه إدارة حكيمة عاقلة، غير واقعة في إسار جمهور أهواء النفس الجامحة، والشهوات الجانحة، وحمى نفسه من أن يكون عرضة لاستحواذ شياطين الإنس والجن عليه، لأن من كان عبداً لله حقاً تحرر من أسر كل ما عداه.

فالعبودية لله تعالى تصون وتحمي، وتعلي وترفع، وتسدد الطريق، وتحمل الإنسان على سفينة النجاة، في خضم بحر الحياة المتلاطم، وتأخذ بيده إلى السعادة العاجلة، ثم إلى السعادة الخالدة.

ومن ترك العبودية لله تعالى منخدعاً بزخرف أوهام الحرية الشخصية قذف بنفسه في أودية الهلاك والدمار، ودفع بها إلى أقبح أنواع الاستعباد والإسار، إذ تتخطفه الأيدي المختلفة، وتجتاله الشياطين، وتجعله عبداً ذليلاً لها، وتمزقه شر ممزق، وعندئذ يذوق آلام الشقاء في حياته الدنيا ثم في حياته الأخرى.

نعوذ بك اللهم من ضلال الرأي، ونعوذ بك اللهم من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

ويحمل بعض المراهقين أقوال الفوضويين في الحرية الشخصية بغباء، ويرددونها بدون عقل ولا بصيرة، زاعمين أن طريق الظفر بالسعادة في الحياة إنما يكون في إطلاق حريات الأفراد، في أن يفعل كل منهم ما يريد، دون أن يكون له رادع يردعه، أو حاجز يحجزه، من سلطة إدارية، أو هيئة اجتماعية، أو دين أو أخلاق أو قوانين، وزاعمين أن الحرية الشخصية المطلقة دون أي قيد حق طبيعي فطري من حقوق الإنسان، ولا يصح أن ينزع منه.

ويستغل المفسدون في الأرض هذه الفكرة المدمرة لهدم كيان الجماعات، وتبديد طاقاتها، دون أن يخسروا في ذلك شيئاً من رجالهم، أو أموالهم، أو عتادهم، وذلك إذ ينطلق مراهقو الشعوب بدافع من هذه الفكرة الخبيثة، وهم يحلمون بأمجاد وهمية، ويظلم عليهم الليل وهم مندفعون، ثم لا يجدون أنفسهم ولا يجدون شعوبهم إلا ضحايا وأسارى في أيدي أعدائهم الشياطين.

قصة الحكيم الرباني وداعي الحرية المطلقة التي ليس لها حدود:

التقى الحكيم الرباني بداعي الحرية المطلقة، فأخذ داعي الحرية المطلقة يبشر بمذهبه الشيطاني، ويقدم أنواعاً من زخرف القول، يصعّد فيه مرة ويصوّب فيه أخرى، دون أن يستند في أقواله إلى أسس منطقية سليمة، ودون أن يلتزم بقواعد المناظرة الصحيحة. وكان الهراء الفكري في كلامه كثيراً، إلا أنه مصنّع مزخرف يخدع صغار العقول، ومن ليس لديهم خبرات طويلة، ولا تجارب متنوعة في الحياة.

زعم داعي الحرية المطلقة أن الحرية الشخصية حق طبيعي فطري من حقوق الإنسان، وأنه لا يصح بحال من الأحوال أن ينزع منه.

قال الحكيم الرباني: ما دام الإنسان لا يعيش وحده في الوجود، بل يعيش مع آخرين، فإن حريته المطلقة التي تزعم أنها حق طبيعي له، لا بد أن تتعارض

وتتصادم مع حريات الآخرين بصورة حتمية؛ أليس الآخرون كما تزعم أصحاب حرية مطلقة، وهي لهم حق طبيعي أيضاً؟.

قال داعي الحرية المطلقة: كل يستعمل حريته، وينتصر من ينتصر من الفرقاء وينهزم من ينهزم.

قال الحكيم الرباني: فهل بقي للمنهزم حرية مطلقة، أم أن حريته أمست أسيرة سجينة، أو صريعة قتيلة، في يد حرية المنتصر؟.

قال داعي الحرية المطلقة: الذنب ذنب المنهزم، لأنه لم يستطع أن يحمي حرية نفسه.

قال الحكيم الرباني: وممن يطلب حريته بعد أن سلبت منه بضعفه وانهزامه؟.

قال داعي الحرية المطلقة: يعبىء قوة جديدة يستعيد فيها حريته المطلقة ويصارع حتى ينتصر.

قال الحكيم الرباني: إذن تظل مطالب الناس في أيدي الأقوياء الذين يرضون حرياتهم الخاصة على حساب استعباد أو قتل حريات الآخرين الضعفاء، وهؤلاء لا يستطيعون أن يتمتعوا بحرياتهم، وحينما تكون القوة في يد القلة فإن الكثرة هي التي تكون محرومة من الحرية، وعندئذ يكون القانون السائد هو قانون القوة، لا قانون الحريات، ويكون الحق الطبيعي عندئذ للقوة لا للحرية، فمن حيث تريد خدمة الحرية تدفع بها إلى شر أنواع الأسْر والقيد والاستعباد.

قال داعي الحرية المطلقة: أنا لا أقبل بديلاً عن مذهب الحرية المطلقة، لأنها في نظري هي العنصر الوحيد لتحقيق الذات، وبها يتحقق الشعور بالسعادة، وهذا ما أصر عليه ولا أتنازل عنه.

قال الحكيم الرباني: لكن أية نظرية لا يصح اعتبارها من المسلمات حتى تمتحن بالواقع التجريبي، فإما أن يظهر الواقع صحتها، وإما أن يظهر الواقع فسادها.

قال داعي الحرية المطلقة: قبلت بمبدأ امتحان الحرية المطلقة بالواقع التجريبي.

قال الحكيم الرباني: هلم إذن فلنخرج معاً إلى صحراء نائية، وليس مع أحد منا إلا زاده وشرابه، وليأخذ كل منا هنالك حريته التامة، لنمتحن بصورة عملية واقعية، نظريتك في إطلاق الحرية الشخصية من كل القيود الأخلاقية والدينية والقانونية والاجتماعية.

واتفقا، وخرجا، وسارا حتى وصلا إلى صحراء موحشة منقطعة، وكَلَّ داعي الحرية من طول المشي، فأراد أن يجلس ليأخذ قسطه من الراحة، هنالك جد الحكيم الرباني في المسير.

قال داعي الحرية المطلقة: يا هذا كيف تتركني في هذا المكان المنقطع الموحش إني أخاف أن تأكلني السباع.

قال الحكيم الرباني: إنها حريتي المطلقة، أفعل بها ما أشاء، ولا تستطيع بعجزك عن مسايرتي أن تقيد حريتي.

فتوسل إليه داعي الحرية فأبى، ثم قال له الحكيم: اختر حلاً آخر غير بقائي، فلعله يصادف هواي، فتتفق حريتي مع حريتك.

قال داعي الحرية المطلقة: وماذا عسى أن يكون هذا الحل الآخر؟ إنه لا يوجد حل آخر يوافقني إلا أن تحملني.

قال الحكيم الرباني: أوافق على هذا الحل.

وحمل الحكيم داعي الحرية بعد أن قيده بإرادته، وسار به مفازة، حتى وصلا إلى بئر شديدة العمق، قال الحكيم: إني الآن أشتهي أن أرميك في هذه البئر، فأخذ المغرور يبكي ويقول: لماذا تريد أن تلقيني بالبئر، أتريد أن تقتلني وتتخلص مني؟.

قال الحكيم الرباني: هذا شأن حريتي المطلقة، ولا علاقة لك بها، وأنا

قادر الآن على أن أنفذ فيك ما أريد بحرية تامة، وأما أنت فاستعمل كامل حريتك حسب قدرتك.

قال داعي الحرية المطلقة: لكنك شددت الوثاق علي فأنت أقوى مني الآن.

قال الحكيم الرباني: لقد شددته عليك وأنت بذلك راض، وقد كنت حراً في أن لا أشده عليك، إلا أنك آثرت أن أحملك ولو أوثقتك على البقاء في الصحراء الموحشة لأنياب السباع.

فتوسل داعي الحرية إليه أن لا يرميه في البئر، فأبى الحكيم، وتظاهر بأنه يريد أن يرميه فعلاً في البئر الشّديدة العمق، فاستولى الهلع على الرجل المغرور، وخاف من الهلاك على يد الحكيم عندئذ.

قال داعي الحرية: أيها الحكيم أليس عندك أخلاق؟ كيف تقتلني بغير حق؟.

قال الحكيم الرباني: أنت من دعاة الحرية المطلقة، ولا تؤمن بالأخلاق وفضائلها، وقد اتفقنا على تطبيق مبدئك في الحرية.

قال داعي الحرية: اتركني يا حكيم، أما تخاف الله؟.

عندئذ استغل الحكيم الرباني الموقف، فقال له: ما تقول في نظريتك؟ هل ما زلت مستمسكاً بها؟ أم أصبحت تعتقد أن الحرية المطلقة خرافة من الخرافات، وأن الحرية ينبغي أن تكون مقيدة بقيود الأخلاق والدين؟.

قال داعي الحرية: لقد تنازلت عن بعض نظريتي، فالحرية الشخصية يجب أن تقيد بالأخلاق الاجتماعية.

عندئذ فك الحكيم الرباني وثاقه وأطلقه.

قال الحكيم الرباني: هل تصاحبني إذن على أن يلتزم كل منا بقيود الأخلاق الاجتماعية، ويكون كل منا حراً في سلوكه الشخصي البحت، الذي

لا يضر أحد منا فيه رفيقه، ولا يقصر فيه مع رفيقه بمعونة أو حماية أو أي واجب من الواجبات الاجتماعية؟.

أما طعام كلٍ منا وشرابه فهو يتبع الحرية الشخصية.

قال داعي الحرية: نعم، فإما أن تقنعني بعد ذلك بنظريتك، فأسلم معك بأن طلب الحرية المطلقة طلب باطل، وإما أن أقنعك بنظريتي. أما علاقاتنا الاجتماعية فمصونة بحدود الأخلاق الاجتماعية، فلن أتعرض منك بعد اليوم إلى ما يؤذيني، ولن تتعرض مني إلى ما يؤذيك، وسيساعد كل منا صاحبه، في غير ما هو من دائرة الحرية الشخصية التي اتفقنا عليها.

وسارا ملتزمين بقيود الأخلاق الاجتماعية فقط، واحتفظ كل منهما بحريته الشخصية في قضية طعامه وشرابه.

فأخذ داعي الحرية يسرف ويبذر فيما يحمل من طعام وشراب حتى نفد ما عنده، وكان الحكيم يعظه بعدم التبذير التزاماً بقيود الأخلاق الاجتماعية، ويقول له داعي الحرية: هذا طعامي وشرابي، وأنا حرٌّ في تصرفاتي الشخصية، إياك أن تتدخل في شؤوني الخاصة.

ولما نفد ما لديه، وعضّ عليه الجوع والعطش، ألجأته الضرورة إلى الحكيم يلتمس منه فضل ما عنده من زاد وشراب.

قال الحكيم: يا رفيقي أما اتفقنا على أن الطعام والشراب من دائرة الحرية الشخصية، أما أنت فبذّرت، وكان بأستطاعتك أن تقتصد مثلي، ولكنك لم تفعل، ولم تستجب لنصحي، فتحمل أنت نتائج تصرفاتك.

عندئذ تنازل داعي الحرية عن قسم آخر من مذهبه في الحرية، وأعلن ذلك للحكيم، فقرر الحكيم مساعدته ببعض طعامه وشرابه، بشرط أن يحجر عليه، ولا يدعه يبذر، وفرض عليه أن لا يعطيه من الطعام والشراب إلا ما يتفق مع الحكمة.

وأراد الحكيم أن يعمق اقتناع داعي الحرية بضرورة تقييد الحريات

الشخصية؛ حتى فيما يتعلق بخصوصيات الإنسان نفسه، فتابع معه الرحلة حتى مرا بقرية، فوجدا فيها إنساناً مشوه الخلقة، مصاباً بأمراض عصبية شنيعة، قد شدّ وثاق شيخ كبير، وجعل يضربه ضرباً شديداً والشيخ الكبير يصيح من الألم، ولا يستطيع الناس إنقاذ هذا الشيخ الكبير من هذا الوقح القبيح، فسألا عنهما، فقال الناس: هذا المشوه ابن هذا الشيخ.

قال داعي الحرية: هذه جريمة من أعجب العجب، ولماذا يضرب أباه كل هذا الضرب؟.

فأقبل الحكيم على الضارب ـ وكان الحكيم رجلاً قوياً ـ فأمسك به فأعجزه، وأنقذ منه أباه، ثم أجلسهما بين يديه في مجلس قضاء ومحاكمة، وآزره على ذلك داعي الحرية.

قال الحكيم للابن الجاني: أما تخشى الله يا رجل؟ أما تشعر بوخز الضمير؟ أما تستحيي من نفسك أن تضرب أباك؟.

قال الابن الجاني: هذا أبي هو الذي جنى علي، هو الذي تسبب لي بهذا البلاء والعذاب الذي ترونني فيه، تشوه في الخلقة، وأمراض عصبية مؤلمة، لو بقيت أضربه فترة طويلة من الزمن لم يعادل ذلك ما أنا فيه من بلاء وعذاب ملازمين لي مدى حياتي، لقد كان ذلك بسببه.

إن أبي هذا قد كان مدمن خمر، وصاحب فسق، فجئت بسبب إدمانه وفسقه مكبلاً بهذا البلاء.

فسأل الحكيم الأب عن ذنبه فأقره، وقال: لقد وعظني الحكماء كثيراً أن أترك الخمر والفسق حتى لا أجني على ذريتي، فكنت أقول لهم: هذا شأني الخاص، وهذه حريتي الخاصة، ولا دخل لأحد في خصوصياتي، ولم أقبل نصح ناصح منهم. لقد كانت شهوتي وأهواء نفسي أقوى من إرادتي، ويا ليت المجتمع يومئذ حجز حريتي، ومنعني من كل هذه التصرفات التي جنيت بها على نفسي وعلى ولدي، وثقوا أن آلامي من أجل ولدي أعظم من آلام إهانته وضربه لي.

عندئذ بكى الولد، وعانق أباه.

وقال داعي الحرية: إذا ضعفت إرادة الفرد فعلى المجتمع أن يكون رقيباً عليه، حارساً له، مانعاً من أن يفعل ما يضره أو يضر غيره، حاجزاً لحريته.

قال الحكيم الرباني: لو كان مجتمعه مجتمعاً إسلامياً ما وصل هو ولا ولده إلى هذا البلاء، لأن المجتمع حينئذ يحجر عليه، ويعاقبه من أول الطريق فيردعه.

ثم خرجا من القرية وسارا إلى مدينة من المدن الكبرى، فقصد الحكيم ومعه صاحبه أحد المستشفيات الخاصة بمعالجة المصابين بداء تعاطي المخدرات، فوجدا أناساً يتخبطون كالمجانين، ويصيحون ألماً.

فسأل الحكيم صاحياً منهم في نوبة من نوبات هدوئه: ما بالك؟ فأجابه بأنه يتمنى الموت، ويفضله على حياته التي يعيشها، وصار يلعن مجتمعه الذي لم يساعده على نفسه، فيكفه من أول الأمر عن الانطلاق في طريق الحرية الشخصية، التي انزلقت به إلى هذا العذاب الذي يعاني منه.

قال له الحكيم: أين كان عقلك يومئذ؟.

قال صاحب البلاء: كنت يومئذ مراهقاً ناقص العقل، فوسوس إلي رفقاء السوء بنزغة التحرر من القيود الأخلاقية والدينية، فحلا هذا الأمر في نفسي، فانطلقت معهم، ولم أجد من المجتمع حولي من يصدني عن هـذا السبيل الشيطاني الخبيث، حتى تمكن مني الداء، فصرت إذا صحوت عقلت ما أنا فيه، وتمنيت لو أن المجتمع عاقبني ألف عقاب، ليكفني عن سبيل الشر، إنه لو فعل ذلك لكان خيراً لي مما أنا فيه اليوم من بلاء ألف مرة، لأنني كل يوم أذوق عقابي الذي هو نتيجة أعمالي مضاعفاً عما لو عاقبني المجتمع، إن كل هؤلاء المصابين يتمنون مثلما أتمنى وأكثر!!.

وأخذ يلعن دعوة الحرية الشخصية المطلقة، ويلعن دعاتها الذي يريدون تهديم الأبنية الأخلاقية الفردية والاجتماعية وإطلاق الناس يفعلون الشرور على ما يشتهون.

فدعا الحكيم له بالعافية، وانصرف هو وصاحبه.

قال الحكيم لصاحبه: لو كان المجتمع الذي يعيش فيه هذا الرجل وأمثاله مجتمعاً إسلامياً صحيحاً، لما وصل إلى ما هو فيه من بلاء، لأن المجتمع يكون حينئذ رقيباً محاسباً، وسنداً وعوناً للإرادة الخيرة عند الإنسان، وعندئذ تقوى دوافع الخير في الفرد على نوازع الشر في نفسه، وتقوى على نزغات الشياطين الداعية إلى التحرر من القيود، فتثقل الإرادة الخيرة، وتكون هي صاحبة الرجحان، فيفعل الإنسان الخير، ويبتعد عن الشر.

إن المجتمع الصالح يقف دون نزغات التحرر من القيود في نفس الفرد، ناصحاً حيناً، ومؤنباً حيناً آخر، ومهدداً بالعقاب، ثم معاقباً إذ لزم الأمر، وبذلك تصان الأفراد، وتصان المجتمعات، من شرور أهوائها وشهواتها، ومن شرور نفوسها، ومن شرور الشياطين الموسوسين لها.

فالغاية من القيود والضوابط التي تقيد حريات الأفراد عن الانطلاق الأرعن إلى الموبقات، إنما هي الحفاظ على سلامة الأفراد وسلامة المجتمعات، من أنواع البلايا والشرور التي تجلبها هذه الحريات الرعناء، التي تمسي أداة طيعة في أيدي الأهواء العمياء.

والمجتمع الإسلامي المتقيد بتعاليم الإسلام خير حارسٍ أمين، وأفضل مجتمع يأخذ بأيدي أفراده إلى قمم السعادة العظمى والمجد الرفيع.

قال صاحبه: إذن فالضرورة تدعو إلى إقامة مجتمع إسلامي واعٍ حذر، يقيد من حريات أفراده، ضمن حدود الخير والفضيلة.

قال الحكيم: نعم، هذه حقيقة من حقائق الاجتماع البشري، وإنها لتعتبر أساساً أولياً من أسس إقامة المجتمعات الفاضلة، وإن للأفراد حقاً على مجتمعاتهم بأن تكون هذه المجتمعات عوناً للأفراد على أنفسها، حتى يتقيدوا بحدود الحق والخير والفضيلة لهم ولمجتمعاتهم، لاغتنام أكبر قسط مستطاع من السعادة، ولو لزم من ذلك معاقبة الأفراد، على نزغات الشرور التي تظهر فقاعاتها على سطح السلوك الفردي أو الاجتماعي بين حين وآخر.

قال صاحبه: فأين إذن يكون موقع انطلاق الحرية الشخصية في المفاهيم الإسلامية يا حكيم؟.

قال الحكيم: نجد في المفاهيم الإسلامية موقعين تنطلق في حدودهما الحرية الشخصية:

الموقع الأول: مجال المباحات المطلقة. فللحرية الشخصية أن تثبت ذاتها في اختيار ما تشاء ضمن هذا المجال، وأفراد هذا المجال في الوجود أكثر عدداً من أفراد أي مجال آخر، إنه مجال يماثل المجال الذي أطلقه الله لآدم في الجنة، إذ قال له كما جاء في سورة (البقرة ٢):

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا. ﴿٣٥﴾﴾.

أما مجال المحرمات والواجبات فهو مجال يجب فيه تقييد الحريات الشخصية بالإرادة، التزاماً بحدود الحق والخير والفضيلة، وهو مجال أفراده قليلة ليست بالكثيرة، وهو شبيه بالمجال الضيق الذي حرم الله فيه على آدم أن يأكل من شجرة معينة، إذ قال له ولزوجه في تمام القول السابق:

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

الموقع الثاني: هو مجال التنافس والتسابق في الخيرات. وهذا المجال تقع فيه أمور يحسن فعلها، من غير أن تكون واجبات يلزم الإنسان بفعلها، وأمور يحسن تركها، من غير أن تكون محرمات يلزم الإنسان إلزاماً جازماً باجتنابها.

فهذا المجال مجال تستطيع فيه الحرية الشخصية أن تثبت ذاتها، من غير قيود ملزمة، ولكن الإرادة تتطوع فيها بفعل الخير منافسة أقرانها، ومسابقة إلى مراتب المجد والكمال، وحسب المقصر فيها حرمانه من ارتقاء هذه المراتب، وحرمانه من الأجر العظيم عند الله.

وهذا المجال واسعٌ جداً.

قال صاحبه: إذن فلم يبق بعد هذين الموقعين إلا موقع صغير تقيد دونه الحرية.

قال الحكيم: نعم، ومع صغر هذا الموقع وضيق مجاله تحاول الحريات الإنسانية الشاذة أن تتجاوز حدوده، وتخرج فيه عن الطوق!!.

قال صاحبه: يجزيك الله خيراً يا حكيم، أنا منذ الآن داعٍ من دعاة الالتزام بضوابط الأخلاق الإسلامية، فهي الكفيلة بأن تمنح السعادة للأفراد والمجتمعات، وهي الكفيلة بتكوين العالم الفاضل السعيد. وأنا منذ الآن حربٌ على مذهبي الأول، وعلى دعاته، مذهب إطلاق الحريات من غير ضوابط ولا حدود.

قال الحكيم: الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

— ٤ —
الخطيئة والغفران

فطر الله الإنسان، وجعل إرادته ذات سلطان، بين كفتي ميزان، هذه من ذات اليمين تميل به إلى ما يرضي الرحمن، وفعل الخير والإحسان، وهذه من ذات الشمال تنزع به إلى الفسوق والعصيان، واتباع خطوات الشيطان.

أما التي من ذات اليمين: فدوافع خيرة، تحب الحق وتهفو إليه، وتميل إلى فعل الخير وتشعر بالطمأنينة إليه. يضاف إلى ذلك عقلٌ مرشد إلى الصواب، يدرك الحق والباطل، والخير والشر، والفضيلة والرذيلة. ويضاف إليه أيضاً لـمّة ملك من ملائكة الرحمن، يأمره بالخير من داخل نفسه ويحثه عليه، وشريعة الله للناس، وما فيها من مواعظ ووصايا، ووعد ووعيد، ثم عظات التجارب الإنسانية العامة، والتجارب الشخصية، ومساعداتٌ أخرى من الذين يدعون إلى الخير من الناس.

وأما التي من ذات الشمال: فنوازع فطرية إلى الاستقلال الذاتي وحب الخروج عن الطاعة والتبعية في بعض أموره، وأهواء تلح بالمطالب التي لا تتم تلبيتها إلا بالانحراف عن صراط الهداية، وبارتكاب السيئات والآثام، وشهوات

قد لا تقنع بما هو ميسور على طريق الاستقامة، ونفس رعناء نزّاعة إلى الشر وأمارة بالسوء. ويضاف إلى ذلك شيطان يوسوس من داخل النفس، يأمر بالفحشاء والمنكر، ويدلي بغرور إلى مواقع الخطيئة والإثم، ثم ضلالات شياطين الإنس القولية والعملية، المقرونة ببعض لذائذ الجسد، وأهواء الأنفس وشهواتها.

وخلق الإنسان ضعيفاً بين هذه التي من ذات اليمين، وهذه التي من ذات الشمال فهو عرضة للكبوات، والعثرات، والخطيئات.

كذلك هو واقع حال الإنسان المشهود، وواقع حاله الذي كشفت عنه نصوص القرآن المجيد والسنة المطهرة.

ولما كان الإنسان عرضة للكبوات ــ بسبب الضعف الإرادي الذي فطر عليه ــ تجاه مؤثرات الأهواء والشهوات ومختلف الدوافع النفسية، كان من الحكمة التربوية له أن تهيأ له فرص من الطاعات والعبادات والاستغفارات المقرونة بالتوبة والندم والعزم على الاستقامة، حتى تكون له بمثابة تطهير، يغسله من قذارات الإثم التي علقت به، كما تغسل الثياب من أدرانها وما يعلق بها من أوساخ. ولولا فضل الله ورحمته بعباده ما زكا من الناس من أحد، إلا من عصمهم الله بعصمته، وهذا ما بينه الله بقوله تعالى في سورة (النور ٤):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ ﴾.

أي: لولا فضل الله عليكم بالحفظ ورحمته لكم بالعفو والغفران ما صلح أحد منكم، ولا طهر أحد منكم من أدناس ذنوبه ومعاصيه؛ وذلك لأن الإنسان خطاء مذنب.

روى الترمذي وابن ماجه والإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«كلُّ بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون». إسناده حسن وصححه الحاكم وابن القطان.

وروى مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم

قال: «كتب على ابن آدم نصيبه من الزنى، مدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرِجْل زناها الخُطى، والقلب يهوى ويتمنى، والفرج يصدق ذلك ويكذبه».

وجاء في الحديث القدسي الصحيح: «يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً».

«ولكن الله يزكي من يشاء»: فهو الذي يطهر بالعفو والغفران من يشاء من عباده، ومشيئته تعالى موافقة لحكمته، فمن سمع منه توبته، وعلم إخلاصه وصدقه فيها ورغبته بإصلاح حاله، غفر له وعفا عنه، فكان زكياً طاهراً نقي الصفحة، كأنه لم يكن من المذنبين «والله سميع عليم».

وفي هذا يتبين لنا جانب من جوانب الواقعية في الإسلام: فكما أن الإسلام واقعي في أحكامه وتعاليمه، وفي تربيته للناس، وفي دعوتهم إلى الحق، وفي محاسبتهم على أعمالهم، هو واقعي أيضاً في تقدير ظروف الإنسان، وملاحظة واقع حال الضعف البشري الذي قد ينزلق به إلى الوقوع في الخطيئة وارتكاب المعصية والإثم، ففتح له أبواب التوبة والاستغفار، وأطمعه بالعفو والغفران ليقيل عثرته.

إن واقع حال الضعف البشري هذا يستدعي واقعية تربوية، وواقعية جزائية، وواقعية إصلاحية، لذلك فتح الرحمن للإنسان باب الغفران، وهيأ له بذلك أهون الوسائل وأكرمها، كيما يتخلص من الإثم، ويلقي عن كاهله أثقال الأوزار، ويقوّم ما اعوج منه، ويرد نفسه إلى صراط الحق، ويتابع مسيرته في الحياة مهدياً، سالكاً سواء السبيل، حتى يظفر بالنجاح حينما تنتهي فترة ابتلائه في هذه الحياة الدنيا.

وتختلف عند الناس نسبة ضعف الإرادة الواقعة بين قوى متباينة، تتجاذبها من ذات اليمين ومن ذات الشمال، وهذه الإرادة التي تمثل الحكم صاحب السلطان بين القوى المتباينة، لا بد أن تضعف في بعض أحوالها، فتجرب الاستجابة لبعض القوى التي تجذبها من ذات الشمال، وعندئذٍ يجد الإنسان نفسه ساقطاً في الخطيئة.

وتختلف هذه الاستجابة عند الناس شدة وضعفاً، وكثرة وقلة: فمنهم السابقون في الخيرات، وهم الذين تقوى إراداتهم، فتكثر صالحاتهم، وتندر فلتات مخالفاتهم وسيئاتهم. ومنهم المتأرجحون بين الاستقامة والانحراف، وهم الذين يخلطون عملاً صالحاً وآخر سيئاً. ومنهم الظالمون لأنفسهم، وهم الذين ضعفت إراداتهم ضعفاً فاحشاً، فانغمسوا في الموبقات الكثيرات، وزادوا في الانحراف عن الصراط السوي، بما يكتسبون من خطايا.

وتبياناً لهذا الواقع الإنساني المفطور على الضعف، يقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

وقد جاء التخفيف في مقابل الضعف الإنساني بفتح باب العفو والغفران، واستئناف فرص التجربة والامتحان، ما دام أمام الإنسان فسحة من أجله في ظروف هذه الحياة الدنيا.

وفي قصة الخطيئة الأولى في حياة الإنسان، وذكر الله لها في القرآن إشعار بالواقع الإنساني، وبالواقعية الدينية المشمولة برحمة الله وبحكمته.

لقد أثبت الله لنا في هذه القصة أولى المخالفات لأول إنسانين خلقهما، لقد نهاهما عن أن يأكلا من شجرة معينة، بعد أن أباح لهما أن يأكلا من كل ما في الجنة سواها، فأكلا منها، وعصيا ربهما، متأثرين في ضعفهما البشري بوساوس الشيطان، وكذبه عليهما، إذ قاسمهما بأنه ناصح لهما غير غاش. فأخرجهما الله من الجنة، وأهبطهما إلى الأرض، وبيّن لذريتهما أن الدوافع إلى المعصية منتقلة إليهم بالوراثة، وأن عداوة الشيطان لهم تلاحقهم بالوساوس والإغواء، لتحجب عنهم الجنة التي تدعوهم إلى نفسها من طريق طاعة الله، وذلك بحسب وعد الله ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾.

ولكن الله تدارك الإنسان بحكمته ورحمته، فأعلن أن من أخرجته الخطيئة

عن طريق الجنة أعادته إليه أسباب التوبة الصادقة المخلصة، المقرونة بالندم والاستغفار، وشمله الله بغفرانه وعفوه.

وينادي الله عباده كما جاء في الحديث القدسي الصحيح الذي أخرجه مسلم: «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً».

وروى مسلم عن أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، وجاء بقومٍ يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم».

ويتجلى الله على عباده التائبين المستغفرين المعترفين بذنوبهم، والمعتذرين بضعفهم البشري بأسمائه: العفو الغفور الرحمن الرحيم؛ فيغفر لهم، ويعفو عنهم، ويحسن إليهم، إذا علم صدق عبوديتهم وصدق توبتهم.

ولا يريد سبحانه من عباده المذنبين أن يقنطوا من رحمته وعفوه، مهما تعاظمت ذنوبهم، وكثرت خطاياهم، يقول الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾.

ففي هذا النص نداء من الله للمذنبين أن لا يقنطوا من رحمته، مهما تعاظمت ذنوبهم في جنب الله، فالله يغفر الذنوب جميعاً، وما على الذين أسرفوا على أنفسهم إلا أن يستغفروا ربهم، ويتوبوا إليه توبة نصوحاً، ويمدوا أيديهم إلى رحمته.

وفي بيان صفات المؤمنين المتقين يقول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

فيبين الله في هذه الآية أن من صفات المتقين أنهم إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ــ بما ارتكبوا من آثام في جنب الله ــ ذكروا الله فتجلت لهم صفات عدله وصفات رحمته، فوجدوا أنفسهم بين الخوف والرجاء، هذا يحذرهم من عقاب الله، وهذا يطمعهم بعفو الله، وعندئذٍ يجدون السبب الذي يقيلهم من عثرتهم، وهو ذو شعبتين:

الشعبة الأولى: صدق الاستغفار مع اللجوء إلى الله في طلب العفو والغفران.

الشعبة الثانية: عدم الإصرار على فعل الذنب، وعدم المكابرة في استحسانه. فإذا ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ولم يصروا على ما فعلوا، وجدوا الله تواباً رحيماً، فزكاهم بعفوه وغفرانه.

ويؤكد الله لعباده ذلك بقوله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾.

فتبين هذه الآية حقيقة من حقائق الفضل الإلهي، وهي أن الله غفور رحيم، ويظفر بآثار غفران الله ورحمته من يستغفر الله من سوء عمله، أو من ظُلْمٍ ظَلَم به نفسه بمعصية ربه.

ويعطي الله الوعد الصريح للتائبين بأن يتوب عليهم إذا أتبعوا توبتهم بإصلاح أعمالهم ونياتهم، فيقول الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

فلم تقتصر هذه الآية على التلويح بالغفران والإطماع به كما جاء في النصوص السابقة، وإنما قدمت وعداً مقطوعاً به، ضمن قاعدة مقررة من قواعد التوبة والغفران، فالله يتوب على المذنب توبة مقطوعاً بها، إذا حقق في نفسه أمرين:

الأول: أن يتوب المذنب من بعد ظُلْمه ومعصيته توبة صادقة نصوحاً.

الثاني: أن يصلح نفسه بالاستقامة والإقلاع عن الذنب وعدم الإصرار عليه والتعلق به.

وتأتي الأحاديث القدسية والأحاديث النبوية فتبسط بالشرح قواعد التوبة والغفران من قواعد العدل والفضل الإلهية.

عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي. يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عَنان السماء ثم استغفرتني، غفرت لك ولا أبالي. يا ابن آدم إنك لو لقيتني بقُراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقُرابها مغفرة» رواه الإمام أحمد، والدارمي، ورواه الترمذي عن أنس، وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن عبداً أذنب ذنباً فقال: ربّ أذنبت فاغفره، فقال ربه: أَعَلِم عبدي أن له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي. ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنباً، فقال: ربّ أذنبت ذنباً فاغفره، فقال ربه: أَعلِمَ عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي. ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنباً، فقال: رب أذنبت ذنباً فاغفر لي. فقال: أَعَلِمَ عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي فليفعل ما شاء».

وروى الإمام مسلم عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها».

وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن العبد إذا اعترف ثم تاب، تاب الله عليه».

وتوبة العبد تقبل منه طوال مُدَّة امتحانه، فإذا انتهت مدّة الامتحان أغلقت أبواب التوبة.

وتنتهي مدّة الامتحان عند غروب شمس الإنسان ساعة موته، وعند طلوع الشمس من مغربها من أشراط الساعة ومقدماتها.

أما إغلاق أبواب التوبة عند حضور الموت فقد بينه الله بقوله في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾.

وأما إغلاق أبواب التوبة عند طلوع الشمس من مغربها، فقد دلّ عليه ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه».

والتوبة من الكفر بمختلف أنواعه تكون بالإيمان الصادق الصحيح ضمن مـدّة الامتحان، والإيمان يجبُّ ما قبله من سيئات، لأنه يمثل الجسر الفاصل في حياة الإنسان بين النار والنور، فمتى دخل ساحة النور تجاوز الله عن كل ما كان منه وهو في أودية النار، وغفر ذلك له، أما من أدركه الأجل قبل أن يؤمن فسيظل في ناره، ولا يشمله عفو الله وغفرانه، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

ـ ٥ ـ

الشيطان ومدى تأثيره في حياة الإنسان

لا يعدو الشيطان في حياة الإنسان أنه مخلوق باستطاعته أن يوسوس في صدر الإنسان بالشر، ويزين له ارتكاب الخطيئة، ثم إن الإنسان هو الذي يرتكب الخطيئة بإرادته، ويعتبر مسؤولاً عنها مسؤولية تامة.

ففي المفاهيم الإسلامية عدة حقائق عن الشيطان تبين موقعه في حياة الإنسان، وأثره على إرادته، والحكمة الربانية من وجوده.

الحقيقة الأولى: تتلخص بأن الشيطان ليس له سلطان على إرادة الإنسان، إلا من سلّم قيادة نفسه له وتبعه مختاراً لنفسه طريق الغواية، ونجد الدليل على هذه الحقيقة في عدة نصوص قرآنية، منها قول الله تعالى يخاطب إبليس رأس الشياطين في سورة (الحجر ١٥):

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

ومنها قول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

ومنها قول الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

فمن الظاهر في هذه النصوص أن الله تبارك وتعالى لم يجعل للشيطان سلطاناً على الإنسان، وأن سلطانه لا يكون إلاّ على الذين يتولّونه، ويجعلونه قائداً لهم، ويتبعونه مختارين لأنفسهم طريق الغواية.

ومن أجل ذلك فإن الشيطان سيعلن هذه الحقيقة يوم القيامة للذين

استجابوا لوساوسه في الدنيا، ويدل على ذلك قول الله تعالى في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي: أي ما أنا بقادر على إغاثتكم وما أنتم بقادرين على إغاثتي، حينما يصرخ كل منا طالباً من صاحبه أن يغيثه فيرفع عنه عذاب الله.

الحقيقة الثانية: تتلخص بأن وظيفة الشيطان في حياة الإنسان إنما هي الوسوسة في صدره وليس له قدرة على أكثر من ذلك، ويشعر الإنسان بهذه الوسوسة في صورة خواطر تزين له الإثم والمعصية، وتزين له الانحراف عن سواء السبيل، وقد تصوغ له ذلك بحجج مغرية.

قال الله تعالى في سورة (الناس ١٤):

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (محمد ٤٧):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾.

أي: غرهم بالأماني والآمال في وساوسه وتسويلاته، وهذا ما فعله مع آدم وحواء، إذ كانا في الجنة فوسوس لهما فأخرجهما من الجنة.

فكيد الشيطان في الإضلال كيد ضعيف، وبذلك وصفه الله بقوله في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾.

الحقيقة الثالثة: تتلخص بأن الله تبارك وتعالى جعل الشيطان في حياة الإنسان لإقامة التوازن بين دوافع الخير ودوافع الشر والمحرضات عليهما، وليطرح الإنسان عليه قسماً من مسؤولية الخطيئة التي يقع بها، فيجد لنفسه عذراً بأن فعل الشر ليس من فطرته، وإنما كان بتأثير وساوس قرينه الشيطان الملازم له. وبهذا لا تظل صورة الخطيئة القبيحة ماثلة في نفس الإنسان، إذ يشعر بأن القبح في العمل ليس من شأنه. وهذا الشعور الذي يشعر به المخطىء قد يساعده على تقويم نفسه، مستعيذاً بالله من الشيطان، ساعياً في التخلص مما علق به من أدناس المعاصي، كما يساعده على نسيان خطيئته إذا هو استغفر الله وتاب إليه. فمن وسائل الإصلاح التربوي فتح باب العذر لمن نربيه إذا ارتكب الخطيئة، ولو عاقبناه عليها نظراً إلى مسؤوليته، وذلك لنبقي له مجالاً يحتفظ فيه بصورة الكمال التي يجب أن يتصورها الناس فيه، ولنبقي له مجالاً للارتقاء في مراتب الكمال الإنساني.

العلاج الديني للتخلص من وساوس الشيطان:

وللتخلص من وساوس الشيطان وتسويلاته علاج ديني أرشدنا القرآن إليه، وهو الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، قال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾.

فمتى استعاذ الإنسان بالله من الشيطان ونزغاته قويت بالله إرادته، وخنس الشيطان وخاب وخسِىء، وحينما يقع الإنسان في الخطيئة ثم يستغفر الله فيغفر له، فإن الشيطان يصاب بالخزي والخيبة، وضياع الجهد في الإغواء.

* * *

الفصل الخامس

اكتساب الأخلاق ووسائله

١ ـ الأخلاق فطرية ومكتسبة.

٢ ـ نصوص مشروحة في الأخلاق الفطرية.

٣ ـ كيمياء الطباع والخلق الفطري.

٤ ـ قابلية الناس لاكتساب الأخلاق.

٥ ـ الأسس التربوية العامة لتقويم أخلاق الناس.

٦ ـ وسائل اكتساب الأخلاق.

الفصل الخامس

اكتساب الأخلاق ووسائله

ـ ١ ـ

الأخلاق فطرية ومكتسبة

حظوظ الناس من الطبائع النفسية التي فطروا عليها حظوظ متفاوتة؛ هذه حقيقة ملاحظة لدى كل من يتعامل مع الناس، وتكاد تكون من البدهيات. فالناس كما تتفاوت حظوظهم من الذكاء الفطري، وتتفاوت حظوظهم الجسدية قوة وضعفاً، وطولاً وقصراً، وبدانة ونحولاً، وصحة وسقماً، وجمالاً ودون ذلك، فإن حظوظهم من الطبائع النفسية الخلقية وغير الخلقية حظوظ متفاوتة بالفطرة.

إننا نجد مثلاً الخوف الفطري عند بعض الناس أشد منه عند فريق آخر، ونجد الطمع الفطري عند بعض الناس أشد منه عند فريق آخر، ونجد فريقاً من الناس مفطوراً على سرعة الغضب، بينما نجد فريقاً آخر مفطوراً على نسبة ما من الحلم والأناة وبطء الغضب، ونجد حب التملك الفطري عند بعض الناس أقوى منه عند بعض آخر.

هذه المتفاوتات نلاحظها حتى في الأطفال الصغار الذين لم تؤثر البيئة في تكوينهم النفسي بعد.

وقد جاء في أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ما يثبت هذا التفاوت الفطري في الطباع الخلقية وغيرها.

منها قول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذي:

«إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى، ألا وإن منهم البطيء الغضب سريع الفيء، والسريع الغضب سريع الفيء، والبطيء الغضب بطيء الفيء، فتلك بتلك، ألا وإن منهم بطي الفيء سريع الغضب، ألا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفيء، وشرهم سريع الغضب بطيء الفيء».

ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

ومنها ما رواه الإمام أحمد والترمذي وأبو داود بإسناد صحيح عن أبي موسى قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهْل والحَزْن، والخبيث والطيب».

وفي قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «الناس معادن» دليل على فروق الهبات الفطرية الخلقية، وفيه يثبت الرسول صلى الله عليه وسلم أن خيار الناس في التكوين الفطري هم أكرمهم خلقاً، وهذا التكوين الخلقي يرافق الإنسان ويصاحبه في كل أحواله. فإذا نظرنا إلى مجموعة من الناس غير متعلمة ولا مهذبة، أو في وسط مجتمع جاهلي، فإنه لا بد أن يمتاز في نظرنا من بينهم أحاسنهم أخلاقاً، فهم خيرهم معدناً، وأفضلهم سلوكاً اجتماعياً، ثم إذا نقلنا هذه المجموعة كلها فعلمناها وهذبناها وأنقذناها من جاهليتها، ثم نظرنا إليها بعد ذلك نظرة عامة لِنَرى من هو أفضلهم، فلا بد أن يمتاز في نظرنا من بينهم من كان قد امتاز سابقاً، لأن العلم والتهذيب والإيمان تمد من كان ذا خلق حسن في أصل فطرته، فتزيده حُسن خلق واستقامة سلوك وتزيده فضلاً، ثم إذا جاء الفقه في الدين كان ارتقاء هؤلاء فيما فضلوا به ارتقاء يجعلهم هم السابقين على من سواهم لا محالة، وبذلك تكون فروق النسبة لصالحهم فضلاً وكرماً.

ومنها ما رواه الإمام أحمد والبيهقي في شعب الإيمان عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن الله تعالى قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم».

ـ ٢ ـ
نصوص مشروحة في الأخلاق الفطرية

(أ) في اختلاف فطر النفوس والأرواح:

روى مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، والأرواح جنودٌ مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف».

هذا الحديث يكشف عن أصلين جوهريين من أصول التكوين العام للناس:

الأصل الأول منهما يتعلق بالتكوين النفسي لهم.

والأصل الثاني يتعلق بالتكوين الروحي.

أما ما يتعلق بالتكوين النفسي فيكشف الرسول صلى الله عليه وسلم فيه عن حقيقة مهمة، وهي أن الناس ليسوا جميعاً كخليطة واحدة متماثلة من كل الوجوه، ولكن بينهم فروق كبيرة. فكما توجد فروق كبيرة بين معادن الأرض وبين صخورها وأتربتها، توجد بين أفراد الناس المخلوقين منها فروق كبيرة من وجوه شتى، وكل فرد منهم خليطة فذة لا تماثلها من كل الوجوه خليطة فرد آخر، ولكن قد تقاربها وتشترك معها في صفات كثيرة تصلح للتصنيف، وإن كانت لا تصلح للمطابقة التامة.

ثم إن جميع الخلائط الفردية لأفراد الناس تشترك في الصفات الأساسية العامة، رغم الاختلاف بينها في بعض العناصر، أو الاختلاف بينها في نسب

العناصر، على نظير ما نشاهده في المعادن، وعلى هذا تتجمع في صفات عامة، وتفترق في الخصائص، ومن الخصائص ما هي خصائص أصناف، ومنها خصائص أفراد.

فالناس يختلفون إلى أصناف، وأفراد كل صنف يختلف بعضهم عن بعض في مقدارٍ ما من الصفات والخصائص، رغم اشتراكهم جميعاً في الصفات العامة التي ميزتهم بالإنسانية التي كرمها الله.

والاختلاف في التكوين النفسي يشمل في الدرجة الأولى التكوين الطَبْعي والخلقي، ثم يشمل جوانب التكوين النفسي الأخرى، كالذكاء والقدرات والاستعدادات المختلفة. ولدى الملاحظة العلمية والتتبع الاستقرائي يتبين أن الناس مختلفون متفاوتون في كل ذلك، ولا نكاد نجد نسختين من الناس متطابقتين من كل الوجوه، متماثلتين في كل الصفات.

لذلك كان على المربي أن يضع في حسابه واقع الفروق الكثيرة بين الأفراد، وأن يتعامل معهم على أساس هذه الفروق.

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» هو مثال من الأمثلة التطبيقية للحقيقة العامة التي قررها قوله: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة»؛ أي بما أن الناس مختلفون في أصل تكوينهم النفسي كاختلاف المعادن، فإن خيارهم في الجاهلية هم خيارهم في الإسلام، إذا استووا في فهم الدين والفقه عن الله، إذ التفاضل في أصل التكوين سيظل ملازماً لهم.

ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم ينظر إلى الناس من أهل الجاهلية، فينتقي خيارهم ويرجو إيمانهم، ليكونوا قوة للإسلام والمسلمين. ومن أمثلة ذلك دعاؤه المشهور الذي قال فيه: اللهم أعز الإسلام بأحب العبدين إليك؛ عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام(وهو أبو جهل). وقد استجاب الله دعاءه في عمر، فكان به نصر الإسلام وقوة المسلمين.

وعلى هذا الأساس رفض الرسول صلى الله عليه وسلم أن يولي أبا ذر إمارة من الإمارات، إذ عرف فيه جانب الضعف الفطري.

وبالاستناد إلى هذا الأساس أيضاً ظهرت عبقرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين أحسن انتقاء ولاته وعماله وأمراء البلاد أيام خلافته وسلطانه.

والمربـي العاقل الحصيف الناجح هو الذي ينظر إلى استعدادات الأفراد وخصائصهم النفسية، فيوجه كلاً منهم لما يلائمه، ولما يمكن أن يكون ناجحاً فيه.

ومن الجهل جداً تكليف الإنسان أمراً لا يلائم طبعه وتكوينه الفطري.

هذا ما يتعلق بالتكوين النفسي.

وأما ما يتعلق بالتكوين الروحي، وهو الذي بينه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: «والأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» فهو يدل على أن الأرواح في أصل تكوينها مختلفة أيضاً فيما بينها، فهي جنود مجندة، أي هي أصناف شتى وليست صنفاً واحداً، وإن كانت كلها تشترك في صفات عامة تدخلها تحت جنس واحد أو نوع واحد.

فمن أصنافها ما يتلاءم بعضه مع بعض، ومن أصنافها ما يتنافر بعضه عن بعض، شأن العالم الروحي في هذا كشأن العالم المادي. ففي هذا نشاهد أصنافاً تتلاءم وأخرى تتنافر، والمتلائمات قد تزيد نسبة التلاؤم فيها إلى حد التجـاذب العنيف، وقد تنخفض النسبـة إلى حد التـوافق عند التـلاقي، والمتنافرات كذلك، فقد تزيد نسبة التنافر إلى حد التناقض، وقد تخف النسبة إلى حد عدم الانسجام والتوافق عند التلاقي.

وما كان في أساس التكوين الروحي نجد ظواهر له في عالم الناس المادي، فما تعارف منها في عالم الروح ائتلف في العالم المادي، وعلى هذا الأساس نجد الائتلاف والتوافق بين إنسان وآخر، دون أن نستطيع تفسير ذلك بأسباب مادية ظاهرة. وما تناكر منها في عالم الروح اختلف في العالم المادي، وعلى هذا الأساس

نجد الاختلاف وعدم التوافق بين إنسان وآخر، دون أن نستطيع تفسير ذلك بأسباب مادية ظاهرة.

(ب) في الأخلاق الفطرية:

روى البخاري ومسلم عن أبـي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، من أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم» فقالوا: ليس عن هذا نسألك؟ قال: «فيوسف نبـي الله ابن نبـي الله ابن نبـي الله ابن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

في هذا الحديث وصف لدرس نبوي يعتمد على عنصر السؤال والجواب، ويدلنا على أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا قد يتخذون السؤال مفتاحاً للعلم، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعيش معهم معلماً في كل أحواله، فيجيبهم على أسئلتهم بمقدار ما يفهم منها، ويفتح لهم أبواب طلب العلم على مقدار ما ينقدح في أذهانهم من مسائل.

فلما سأله الصحابة: من أكرم الناس؟ ظنّ أنهم يسألونه عن أكرم الناس عند الله، فأعطاهم جواباً مستمداً من القرآن، فقال لهم: «أتقاهم».

إذ التقوى هي القيمة الحقيقية التي يقدمها الإنسان بعمله في الحياة الدنيا، وعلى مقدار هذه القيمة ينال من ثواب الآخرة والرضوان من الله، فيكون أتقى الناس أكثرهم كرامة عند الله.

ولما قالوا له: ليس عن هذا نسألك، انتقل إلى ظن آخر إذ ظن أنهم يسألونه عن أكرم الناس نسباً، أي عن أجمعهم لشرف النسب، فأجابهم بقوله: «فيوسف نبـي الله ابن نبـي الله ابن نبـي الله ابن خليل الله».

والواقع أنه إذا نظرنا في أنساب الناس لم نجد أكرم ولا أشرف نسباً من أن يكون الإنسان نبياً، وعدد الأنبياء في سلسلة آبائه أوفر من غير انقطاع، وعلى هذا لا نجد في الواقع الإنساني أكرم من يوسف عليه السلام، فهو وأبوه وجده وأبو جده أربعتهم أنبياء.

ثم لما قالوا له: ليس عن هذا نسألك، عرف صلوات الله عليه أنهم يسألونه عن أكرم الناس معدناً، أي عن خيرهم في التكوين الفطري أو المكتسب، فدلهم على أن خيارهم من كان أكرمهم خلقاً. وهذا التكوين الخلقي يرافق الإنسان ويصاحبه في كل أحواله، فإذا نظرنا إلى مجموعة من الناس غير متعلمة، أو في وسط اجتماعي جاهلي، فإنه لا بد أن يمتاز في نظرنا من بينهم أحاسنهم أخلاقاً، فهم خيرهم معدناً، وأفضلهم سلوكاً اجتماعياً، ثم إذا نقلنا هذه المجموعة كلها، فعلمناها وأنقذناها من جاهليتها، ثم نظرنا إليها بعد ذلك نظرة عامة لنرى من هو أفضلهم، فلا بد أن يمتاز في نظرنا من بينهم من كان قد امتاز سابقاً، لأن العلم يمد من كان ذا خلق حسن وسلوك اجتماعي فاضل فيزيده حُسْنَ خُلق وفضل سلوك، فإذا جاء الدين والفقه فيه، كان ارتقاء هؤلاء فيما امتازوا به ارتقاء يمنحهم السبق على من سواهم لا محالة، وعندئذ تظل فروق النسبة لصالحهم فضلاً وكرماً.

ودل الحديث على أن من الأخلاق أخلاقاً فطرية بها يتفاضل الناس في أصل تكوينهم الفطري.

(ج) في الأمانة وفي كون عنصرها من الأخلاق الفطرية:

روى البخاري ومسلم عن حذيفة بن اليمان قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين، قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا:

«إن الأمانة نزلت في جَذْر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنّة».

ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال:

«ينامُ الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوَكْت[١]، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر المَجْل[٢]، كجمر دحرجته على رجلك فَنَفِط فتراه منتبراً وليس فيه شيء».

---

(١) الوكت: هو الأثر اليسير.

(٢) المَجْل: تنفط في الجلد من أثر الحرق أو من أثر العمل والكد.

ثم أخذ صلى الله عليه وسلم حصى فدحرجه على رجله فقال:

«فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحدٌ يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجلده! ما أظرفه! ما أعقله! وما في قلبه مثقال حبة من خردلٍ من إيمان».

قال حذيفة: ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيكم بايعت، لئن كان مسلماً ليردنَّه علي دينه، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه علي ساعيه، وأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً.

في هذا الحديث بيان عن الأمانة في الناس، وعما تصير إليه فيهم.

حدث الرسول صلى الله عليه وسلم أن الأمانة نزلت في جَذْر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنّة.

فأبان الرسول صلى الله عليه وسلم حقيقة من حقائق التكوين الخلقي الفطري في الناس، وهذه الحقيقة تثبت أن الأصل في الناس أن يكونوا أمناء، لأن الله تعالى بالتكوين الفطري قد أنزل خُلُق الأمانة فوضعه في جذر قلوب الرجال، أي في أصل قلوبهم، إذ جذر القلوب أعمق شيء فيها، وهو الذي يغذي عواطفها وانفعالاتها، كما أن جذر الشجرة يغذيها بعوامل النماء والخضرة والاتساع.

ثم نزلت شرائع الله التي أنزلها في كتبه، وبينها القرآن أحسن بيان، وبينتها سنّة الرسول صلى الله عليه وسلم، فكانت تغذيةً وتنميةً لما غرسه الله في قلوب الرجال من فطرة قائمة على الأمانة في أصل تكوينها.

وما دل عليه هذا الحديث يلتقي مع ما دل عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «كل مولود يولد على الفطرة» أي على فطرة حب الحق، والإيمان فرع من فروع هذا الأصل العام، والأمانة أيضاً فرع من فروعه.

وكانت تنزل الشرائع الربانية فتدعم وتغذي الفضائل الفطرية، وتعيد أخلاق الناس إلى أصالتها، بعد أن حرفتها نزغات الأهواء والشهوات، واجتالتها الشياطين فأخرجتها عن منهج فطرتها.

والتربية النبوية التي ظهرت في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والعصر الإسلامي الأول، كانت إبرازاً للتكوين الفطري في واقع عملي، وتنقية له من الشوائب والأرجاس التي علقت به بسبب العوامل المختلفة، التي بدأت بدافع من الأهواء والشهوات ووساوس الشياطين، ثم كان لها قوة أخرى من البيئة الاجتماعية، بعد أن كثرت فيها عناصر الانحراف عن أصل الفطرة.

وهذا يرشدنا إلى أن الأعمال الإصلاحية يجب أن تهتدي بهدي التربية النبوية، حتى تستطيع إقامة مجتمع فاضل، تظهر فيه أصالة الفطرة الإنسانية، بإشراقها ونقائها وطهرها وسلامتها من الشوائب والأرجاس والانحرافات المختلفة. والتربية النبوية أعظم مثل إنساني آتى ثمرات تربوية رائعة، فهي خير مثل يحتذى، ومنهجها أعظم منهجٍ يتبع، بشهادة الواقع التجريبي.

ومن ثمرات هذه التربية النبوية، ما حكاه لنا حذيفة عن الأمانة فقال: ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيكم بايعت لئن كان مسلماً ليردنه علي دينه.

وحدث الرسول صلى الله عليه وسلم عن رفع الأمانة، فذكر أن الأمانة سترفع، فينام الرجل فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت، وهو الأثر اليسير، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر المَجْل، لها مظهر منتفخ، ولكنها جوفاء فارغة من حقيقة الأمانة وجوهرها. ويظهر أن هذا الذي يحدث في الناس إنما يحدث بسبب سوء الأحوال الاجتماعية في البيئات الإنسانية، إذ تصل هذه الأحوال السيئة إلى مرحلة قاسية جداً ومؤثرة جداً، حتى إنها بقوة تأثيرها وضغطها على الأفراد الصالحين، قد تستطيع بين عشية وضحاها تحويل الرجل عن أخلاقه الكريمة، فتسلب من جذر قلبه خلقه الفطري الإسلامي العظيم، حتى إنها تصل إلى مركز الأمانة في قلبه فتقبض عليها وتنتزعها منه. إلا أن الانتزاع الأول يبقى له أثر يسير مثل الوكت، نظراً إلى أن الأخلاق الأصيلة يصعب انتزاعها انتزاعاً كلياً دفعة واحدة في مرة واحدة، لكنها في المرة الثانية تستأصلها، فلا يبقى منها إلا مظهر أجوف ليس فيه جوهر نافع.

وما جاء في الحديث من رفع الأمانة من جذر قلوب الرجال يشير إلى أن الإيمان الذي تقترن به الأمانة في القلوب يرتفع أيضاً، تحت ضغط مؤثرات البيئة، والفساد الذي ينتشر في المجتمعات الإنسانية، وتقوى الدلالة على هذا المعنى بما جاء في آخر الحديث: «فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحدٌ يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجلده! ما أظرفه! ما أعقله! وما في قلبه مثال حبة من خردلٍ من إيمان».

فذكر هنا الإيمان، مع أن الكلام في الأمانة، للدلالة على أن ذهاب الأمانة قد كان بسبب ارتفاع الإيمان، أو مرافقاً لارتفاع الإيمان.

وهذا المعنى يؤيده ما جاء في حديث آخر، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيه: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرضٍ من الدنيا». رواه مسلم عن أبي هريرة.

— ٣ —
كيمياء الطباع والخلق الفطري

تدل الملاحظة على أن أصول عناصر الطباع موجودة كلها في مختلف الأصناف الطبعية للناس، وأن اختلاف أصناف الناس في طبائعهم الخلقية يرجع إلى اختلاف الكمية الموجودة في الصنف من كل عنصر من هذه العناصر، وترجع أيضاً إلى اختلاف نسب الخصائص النفسية والجسدية والفكرية التي تؤثر ولو بوجه من الوجوه في العناصر الطبْعية، أو في المركب الطبْعي.

فالاختلاف في المركب الطبْعي للخلق الفطري يرجع إلى اختلاف نسب العناصر الطبعية، واختلاف نسب الأشياء الأخرى التي تؤثر فيها من الخصائص النفسية والجسدية والفكرية، وليس يرجع إلى انعدام بعض العناصر الأصول انعداماً كلياً.

وهذا يشبه اختلاف الناس في أجسادهم، فإنه لا يرجع إلى انعدام بعض

العناصر المادية التي تتألف منها الأجساد، كالماء، والحديد، والفسفور، والكلس، إلى سائر العناصر الأساسية التي هي عناصر تراب الأرض الذي خلق الله منه الإنسان، وإنما يرجع إلى اختلاف النسب، أي إلى تفاوت نسب العناصر الموجودة في مختلف الأجساد.

فمثلاً نسبة الفسفور:	النسبة
(أ) هي في الجسد ذي الرقم (١)	خمسة في الألف
(ب) وهي في الجسد ذي الرقم (٢)	عشرة في الألف
(ج) وهي في الجسد ذي الرقم (٣)	أربعون في الألف

وهكذا يقال في كل عنصر.

ونقول: إن اختلاف المركب الطبعي من صنف لآخر من الناس، ومن فرد لآخر من الناس، نظير اختلاف المركب الجسدي.

وتتأثر الطباع في اختلافاتها بين الأصناف وبين الأفراد، بكمية كل عنصر خلقي من العناصر الأخلاقية الموجودة في الطبع، وبالقدرات الفكرية والتخيلية والتوهمية والتذكرية، وبالقدرات والصفات النفسية والجسدية، ومنها مقدار الإحساس الجسدي باللذة والألم، ومقدار القوة الجسدية.

فالمركب الطبعي ناتج العنصر الطبعي الخلقي والمؤثرات النفسية والجسدية الأخرى.

فمن العناصر الخلقية الطبعية والمؤثرات فيها ما في الجدول التالي:

١ ـ خوف.	٨ ـ شجاعة.
٢ ـ طمع.	٩ ـ جبن.
٣ ـ صبر.	١٠ ـ ضجر.
٤ ـ أناة.	١١ ـ حب العظمة.
٥ ـ سرعة.	١٢ ـ عدل.
٦ ـ غضب.	١٣ ـ أنانية.
٧ ـ حلم.	١٤ ـ حب الحق.

١٥ ـ الانفرادية أو الانعزالية.
١٦ ـ الاجتماعية.
١٧ ـ الاستقلالية.
١٨ ـ التبعية.
١٩ ـ الكبر.
٢٠ ـ العجب بالنفس.
٢١ ـ الغرور.
٢٢ ـ القيادية.
٢٣ ـ الانقيادية.
٢٤ ـ الحب.
٢٥ ـ الكراهية.
٢٦ ـ السكينة.
٢٧ ـ الحركة.
٢٨ ـ سرعة الاستجابة للمؤثرات.
٢٩ ـ بطء الاستجابة للمؤثرات.
٣٠ ـ سرعة الطرح والرجوع إلى الحالة قبل المؤثر.
٣١ ـ بطء الطرح والرجوع إلى الحالة قبل المؤثر.
٣٢ ـ مقدار الذكاء.
٣٣ ـ نسبة القدرة على التفكير والتوهم والتخيل والتذكر.
٣٤ ـ شهوة البطن.
٣٥ ـ شهوة الفرج.
٣٦ ـ شهوة اللمس.
٣٧ ـ شهوة السمع.
٣٨ ـ شهوة البصر.
٣٩ ـ مقدار الإحساس بالألم.
٤٠ ـ مقدار الإحساس باللذة.
٤١ ـ مقدار إحساس الجملة العصبية بالمثيرات.
٤٢ ـ نسبة الفاعلية.
٤٣ ـ نسبة الانفعالية.
٤٤ ـ نصيب الجسد من خصائصه المختلفة كالقوة والضعف.

وبحسب اختلاف النسب الموجودة في كل فرد أو صنف من الناس من هذه العناصر والمؤثرات ونحوها يختلف الطبع، أو النموذج الطبعي، فلكل إنسان أمشاج (أي أخلاط) منها ممتزجة، نتج عنه طبعه، ويتأثر بها مزاجه، وقد تستفاد الإشارة إلى هذا من قول الله تعالى في سورة (الإنسان ٧٦):

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾.

— ٤ —

قابلية الناس لاكتساب الأخلاق

بعد الذي سبق من الطباع والأخلاق الفطرية يرد سؤالان:

الأول: إذا كانت الأخلاق طباعاً فطرية، فلماذا وضع الإنسان تجاهها موضع الابتلاء والتكليف؟

الثاني: إذا كانت الطبائع الإنسانية هي المهيمنة على سلوك الإنسان الشامل للسلوك الأخلاقي وغيره، وهذه الطبائع ذات نسب فطرية متفاوتة، فما هي فائدة التربية الأخلاقية؟ وهل باستطاعة الإنسان أن يعدل من طبائعه الخلقية الفطرية، ويكتسب من الأخلاق ما ليس في فطرته؟.

ونقول في الإجابة على السؤالين:

لدينا حقيقة ثابتة لا بد من ملاحظتها في مجال كل تكليف رباني: هي أن الله تبارك وتعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، فمسؤولية الإنسان تنحصر في نطاق ما يدخل في وسعه، وما يستطيعه من عمل، أما ما هو خارج عن وسع الإنسان واستطاعته فليس عليه مسؤولية نحوه، يضاف إلى ذلك أن نسبة المسؤولية تتناسب طرداً وعكساً مع مقدار الاستطاعة.

فالقوي يأتي امتحانه على نسبة قوته، وكذلك الضعيف يأتي امتحانه على نسبة ضعفه، وامتحان الذكي على مقدار ما منحه الله من ذكاء، وامتحان الغبي على مقدار غبائه.

أما صور الامتحان فكثيرة مختلفة، فبعض الناس يمتحنه الله بالغنى، وبعضهم يمتحنه بالفقر، وبعضهم يمتحنه بأن يكون قائداً، وبعضهم يمتحنه بأن يكون جندياً، وبعضهم يمتحنه بكثرة البنين، وبعضهم يمتحنه بكثرة البنات، وبعضهم يمتحنه بالصنفين معاً، وبعضهم يمتحنه بالعقم، وهكذا إلى سائر الصور المشحونة بها ظروف الحياة الدنيا.

والله تعالى يمتحن كل إنسان بما يناسبه، وعلى مقدار ما منحه من هبات وعطايا، وعلى مقدار استطاعته الجسدية والنفسية، ثم تكون المحاسبة بعد ذلك

على مقدار نسبة الامتحان، ويكون الجزاء العادل على مقدار الطاعة والجهد المبذول نفسياً وجسدياً، أو على مقدار المعصية والجهد الذي كان يمكن بذله في الطاعة.

وميزان الله تعالى لا يضيع منه مثقال ذرة، والعلم الإلهي لا يعزب عنه صغيرة ولا كبيرة من نية أو عمل، والقانون الذي يطبقه الله على المكلفين من عباده، هو المعلن بقوله تعالى:

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ والمعلن بقوله:

﴿لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾ وقوله: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾.

فما كان من الطباع الفطرية قابلاً للتعديل والتبديل، ولو في حدود نسب جزئية، لدخوله تحت سلطان إرادة الإنسان وقدرته، كان خاضعاً للمسؤولية، وداخلاً في إطارها تجاه التكاليف الربانية، وما لم يكن قابلاً للتعديل والتبديل، لخروجه عن سلطان إرادة الإنسان وقدرته، فهو غير داخل في إطار المسؤولية تجاه التكاليف الربانية.

وبناءً على ذلك فإننا نقول وفق المفاهيم الدينية: لو لم يكن لدى كل إنسان عاقل قدرة على اكتساب حدٍ ما من الفضائل الأخلاقية، لما كلفه الله ذلك.

وليس أمر قدرة الإنسان على اكتساب حدٍ ما من كل فضيلة خلقية بعيداً عن التصور والفهم، ولكنه بحاجة إلى مقدار مناسب من التأمل والتفكير.

أليست استعدادات الناس لأنواع العلوم المختلفة متفاوتة، فبعضهم أقدر على تعلم الفنون الجميلة من بعض، وبعضهم أقدر على تعلم العلوم العقلية من بعض، وبعضهم أقدر على حفظ التواريخ والحوادث أو حفظ النصوص من بعض؟

إنه مع وجود التفاوت الواسع في هذا بين الناس، نلاحظ أن حداً ما من الاستعداد لتعلم كل أنواع العلوم موجود عند كل أقسام الناس المتفاوتين في قدراتهم واستعداداتهم، وفي حدود استطاعة كل منهم يمكن توجيه التكليف،

ويمكن الاستفادة من نسبة الاستعداد، فالاستعداد الضعيف بقدره، والاستعداد القوي بقدره.

ونظير هذا الذي نشاهده في الاستعداد للتعلم، نشاهد في الاستعداد الإنساني لاكتساب الأخلاق، فما من إنسان عاقل إلا لديه قدرة على اكتساب مقدارٍ ما من فضائل الأخلاق، وفي حدود هذا المقدار الذي يستطيعه يكون تكليفه، وتكون مسؤوليته، ثم في حدوده تكون محاسبته ومجازاته.

إن أسرع الناس استجابة لانفعال الغضب، يستطيع بوسائل التربية أن يكتسب مقداراً ما من خلق الحلم، ومتى صمم بإرادته أن يكتسب ذلك فإنه يستطيعه، لذلك فهو مسؤول عن اكتساب ما يستطيعه منه، فإذا هو أهمل تربية نفسه، وتركها من غير تهذيب تنمو نمو أشواك الغاب، فإنه سيحاسب على إهماله، وسيجني ثمرات تقصيره.

وإن أشد الناس بخلاً وأنانية وحباً للتملك، يستطيع بوسائل التربية أن يكتسب مقداراً ما من خلق حب العطاء، ومتى صمم بإرادته أن يكتسب ذلك فإنه يستطيعه، لذلك فهو مسؤول عن اكتساب القدر الواجب شرعاً منه، فإذا هو أهمل تربية نفسه، وتركها من غير تهذيب فإنه سيحاسب على إهماله، وسيجني ثمرات تقصيره.

والمفطور على نسبة كبيرة من الجبن، يستطيع أن يكتسب بالتربية المقترنة بالإرادة والتصميم مقداراً ما من خلق الشجاعة، قد لا يبلغ به مبلغ المفطور على نسبة عالية من الشجاعة، ولكنه مقدار يكفيه لتحقيق ما يجب عليه فيه أن يكون شجاعاً، وضمن الحدود التي هو مسؤول فيها.

وأشد الناس أنانية في تكوينه الفطري، يستطيع أن يكتسب بالتربية المقترنة بالإرادة والتصميم مقداراً ما من الغيرية والإيثار، قد لا يبلغ فيه مبلغ المفطور على محبة الآخرين، والرغبة بأن يؤثرهم على نفسه، ولكنه مقدار يكفيه لتأدية الحقوق الواجبة عليه تجاه الآخرين.

وهكذا نستطيع أن نقول: إن أية فضيلة خلقية، باستطاعة أي إنسان

عاقل، أن يكتسب منها بالتربية المقترنة بالإرادة والتصميم، المقدار الذي يكفيه لتأدية واجب السلوك الأخلاقي.

والناس من بعد ذلك يتفاوتون بمدى سبقهم وارتقائهم في سلم الفضائل.

كما أن كل إنسان عاقل، يستطيع بما وهبه الله من استعداد عام، أن يتعلم نسبة ما من أي علم من العلوم وأي فن من الفنون، وأن يكتسب مقداراً ما من أية مهارة عملية من المهارات.

وتفاوت الاستعدادات والطبائع، لا ينافي وجود استعداد عام صالح لاكتساب مقدارٍ ما من أي فرع من فروع الاختصاص، سواء أكان ذلك من قبيل العلوم، أو من قبيل الفنون، أو من قبيل المهارات، أو من قبيل الأخلاق.

وفي حدود هذا الاستعداد العام، وردت التكاليف الشرعية الربانية العامة، ثم ترتقي من بعده مسؤوليات الأفراد بحسب ما وهب الله كلاً منهم من فطر، وبحسب ما وهب كلاً منهم من استعدادات خاصة، زائدة على نسبة الاستعداد العام.

ولو أن بعض الناس كان محروماً من أدنى حدود الاستعداد العام الذي هو مناط التكليف، فإن التكليف لا يتوجه إليه أصلاً، ومن سلب منه هذا الاستعداد بسبب ما ارتفع عنه التكليف، ضرورة اقتران التكليف بالاستطاعة، كما أوضحت ذلك نصوص الشريعة الإسلامية.

ووفق هذا الأساس، جاءت التكاليف الشرعية بالتزام فضائل الأخلاق واجتناب رذائلها.

ووفق هذا الأساس، وضع الإسلام الخطط التربوية التي تنفع في التربية على الأخلاق الفاضلة، فالاستعداد لذلك موجود في الواقع الإنساني، وإن اختلفت نسبة هذا الاستعداد من شخص إلى آخر. وفي الإصلاح التربوي قد يقبل بعض الناس بعض فضائل الأخلاق بسهولة، ولا يقبل بعضها الآخر إلا بصعوبة ومعالجة طويلة المدى، وقد تقل نسبة استجابته.

فالأخلاق إذن تنقسم إلى قسمين:

الأول: الأخلاق الفطرية.

الثاني: الأخلاق المكتسبة.

فبعض أخلاق الناس أخلاق فطرية، تظهر فيهم منذ أول حياتهم، ومنذ بداية نشأتهم. وبعض أخلاق الناس أخلاق مكتسبة من البيئة الطبيعية، أو من البيئة الاجتماعية، أو من توالي الخبرات والتجارب ونحو ذلك.

ولكن لا بد لاكتساب الأخلاق من وجود الاستعداد الفطري لاكتسابها، وشأن الأخلاق في هذا كشأن المهارات الحركية والعضلية، فالعضو الذي لديه استعداد وقابلية فطرية لاكتساب مهارة من المهارات، يمكن أن يغدو بالتدريب والتعليم مكتسباً لهذه المهارة، أما العضو الذي ليس لديه هذا الاستعداد فإنه من المتعذر تدريبه وتعليمه حتى يكتسب هذه المهارة، وكذلك اكتساب الأخلاق.

إن اليد تملك القابلية الفطرية لاكتساب صناعة الكتابة، والمهارات الصناعية والفنية المختلفة، فتدريبها يجدي في تحقيق نسبة من الاكتساب المطلوب، لكن الأذن لا تستطيع أن تكتسب شيئاً من ذلك، لأنها لا تملك الاستعداد الفطري لاكتسابها.

والأرنب مفطور على خلق الجبن والخور، وليس لديه استعداد فطري للتدرب على شجاعة مقاربة لشجاعة الهر، فتدريبه على الشجاعة لا يجدي في اكتسابه خلق الشجاعة.

وكذلك الأفراد من الناس، فمن لا يملك الاستعداد الفطري لاكتساب خلق من الأخلاق، فمن المتعذر أن يكتسبه بأية وسيلة من الوسائل.

والأخلاق الفطرية قابلة للتنمية والتوجيه والتعديل، لأن وجود الخلق بصفة فطرية يدل على وجود الاستعداد الفطري لتنميته بالتدريب والتعليم وتكرر الخبرات، كما أنه يدل على وجود الاستعداد الفطري لتقويمه وتعديله وتهذيبه، بالتدريب والتعليم وتكرر الخبرات، وتشهد لهذه القابلية التجارب التربوية على الإنسان، والملاحظات المتكررة على أفراد الناس من مختلف البيئات الإنسانية.

ـ ٥ ـ
الأسس التربوية العامة لتقويم أخلاق الناس

لم تلجأ التربية الإسلامية إلى محاولة إلغاء أصل طبائع الناس الفطرية، أو إلى إلغاء شيء منها، لتضع في محالها طبائع جديدة مكتسبة لم تكن هي ولا الاستعداد إليها من الأمور الفطرية.

ولكن التربية الإسلامية لجأت إلى الأسس التربوية النافعة في التقويم والتحويل والتنمية والتهذيب والتشذيب، وبالتأمل نستطيع أن نشير إلى الأسس التربوية التالية:

١ ـ التدرج في البناء التربوي.
٢ ـ معاملة كل نموذج طبعي بما يلائمه، ومعاملة كل حالة نفسية بما يلائمها.
٣ ـ تصيد المناسبات الملائمة للتوجيه التربوي.
٤ ـ الرعاية الشجرية.
٥ ـ التوجيه والتحويل.
٦ ـ التصعيد.
٧ ـ المزاحمة والتضمير.
٨ ـ إيجاد الحافز الذاتي.

وفيما يلي شرح موجز لهذه الأسس الثمانية.

الأساس الأول ـ التدرج في البناء التربوي:

إن العملية التربوية ليست عملية تحويل مفاجىء دفعة واحدة، أو خلق تام بمرة واحدة.

إن هذا لم يختره الله لنفسه في سنة الخلق، مع أن من قدرته جل وعلا أنه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون؛ ولكنه تبارك وتعالى اختار لنفسه سنة الإنشاء المتدرج.

ورغبتنا بالإنجاز التام السريع على خلاف طبائع الأشياء معاكسة لسنة الله في كونه.

ومكلِّف الأشياء فوق طباعها متطلِّب في الماء جذوة نارِ

ومن صفات الله تعالى أنه رب العالمين، أي مربي العالمين، والتربية هي إنشاء متدرج لإبلاغ الشيء إلى مستوى كماله، وقد خلق الله الدنيا في ستة أيام من أيامه تبارك وتعالى، وكان في قدرته أن يخلقها بكلمة كن.

الأساس الثاني ــ معاملة كل نموذج طبعي بما يناسبه ويلائمه من وسائل التربية، ومعاملة كل حالة نفسية بما يلائمها:

فمن الخطأ الفادح في التربية معاملة مختلف الناس بطريقة تربوية واحدة، مع اختلاف نماذجهم الطبعية.

إن حاد المزاج الغضوب في تكوينه الفطري يلائمه من الوسائل التربوية ما لا يلائم بارد الطبع بليد الإحساس، وكذلك العكس. والأسلوب الذي قد يصلح بارد الطبع قد يفسد حاد المزاج، وكذلك الأسلوب الذي قد يُصلح حاد المزاج قد يفسد بارد الطبع.

وصاحب الطمع الشديد قد يلائمه من وسائل التربية ما لا يلائم العفيف القنوع. وتختلف أحوال السرور عن أحوال الألم، وأحوال الغضب عن أحوال الرضا.

وعلى هذا الأساس من مراعاة الفروق الطبعية واختلاف الأحوال كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعطي بعض محبي الفخر شيئاً مما يرضي نفوسهم، بغية إصلاحهم، ويعطي بعض محبي المال شيئاً مما يرضي نفوسهم بغية إصلاحهم، ويعامل حديثي العهد بالكفر معاملة تختلف عن معاملة الذين رسخ الإيمان في قلوبهم.

فمن ذلك ما أعطاه أبا سفيان يوم فتح مكة، إذ قال له عمه العباس: إن أبا سفيان يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً، فأعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم

شيئاً مما يرضيه به، فأمر مناديه أن يعلن: ألا من دخل دار أبـي سفيان فهو آمن، مع أن دار أبـي سفيان لم يكن لها شيء من الخصوصية الحقيقية، إلا مجرد الإعلان بالاسم، لأن إعلان الأمن قد كان أيضاً لمن أغلق باب داره، ولمن دخل المسجد الحرام.

ومن ذلك ما رواه البخاري عن عمرو بن تغلب، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتي بمالٍ أو سبـي فقسمه، فأعطى رجالاً وترك رجالاً، فبلغه أن الذين ترك عتبوا، فحمد الله ثم أثنى عليه ثم قال:

«أما بعد فوالله إني لأعطي الرجل وأدع الرجل. والذي أدع أحب إلي من الذي أعطي، ولكني أعطي أقواماً لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكلِ أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير، منهم عمرو بن تغلب».

قال عمرو بن تغلب: فوالله ما أحب أن لي بكلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم حُـمْر النَّعَم.

فمن هذا الحديث نلاحظ أن الرسول صلى الله عليه وسلم أعطى الجزعين الهلعين مالاً أصلح به نفوسهم، وأعطى عمرو بن تغلب ثناءً كان أحب إليه من عطاء المال الكثير، فأصلح بذلك نفسه.

ومن ذلك أيضاً ما رواه البخاري ومسلم عن أنس قال: إن ناساً من الأنصار قالوا حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطفق يعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم، يعطي قريشاً ويدعنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم! فحُدِّثَ لرسول الله بمقالتهم، فأرسل إلى الأنصار، فجمعهم في قُبَّةٍ من أَدَم، ولم يدعُ معهم أحداً غيرهم، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:

«ما حديثٌ بلغني عنكم»؟

فقال فقهاؤهم: أما ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً، وأما أناس منا حديثة أسنانهم قالوا: يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي قريشاً

ويدعُ الأنصار، وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال رسول الله صـلى الله عليه وسلم:

«إني أعطي رجالاً حديثي عهدٍ بكفر أتألفهم، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال، وترجعون إلى رِحالكم برسول الله».

قالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا.

فداوى الرسول صلى الله عليه وسلم بحكمته التربوية العظيمة ناساً بعطاء من المال، وآخرين بعطاءٍ من الحب.

الأساس الثالث ــ تصيد المناسبات الملائمة للتوجيه التربوي:

وعلى وفق هذا الأساس كانت تتنزل الأحكام الشرعية عند مناسباتها، ولذلك اعتنى المفسرون والمحدثون ببيان أسباب نزول الآيات القرآنية التي لها أسباب نزول معروفة مرويّة.

وكذلك اعتنى المحدثون والفقهاء بذكر البيانات النبوية مقترنة بقصصها وحوادثها، ومنها نلاحظ أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتصيّد المناسبات الملائمة لما يريد التوجيه له من خلق أو أدب أو سلوك ديني، أو علم أو نصيحة أو نحو ذلك.

الأساس الرابع ــ الرعاية الشجرية:

إن مثل الطبائع الفطرية في الناس، كمثل البزور التي تنبت في حقول طبيعية، إذا تركت وشأنها نمت نمواً فوضوياً، فكانت غابات وحشية، وتشابكت أشجارها النافعة بأشواكها، وغلب ما ينفع قليله ما ينبغي أن يكون هو الكثير الغالب.

أما إذا امتدت إليها أيدي الرعاية والتهذيب، فإنها تحسن استغلال كلٍّ منها بالمقدار الملائم، وتضعه في المكان الملائم، وتوجهه في الاتجاه الملائم.

فأشجار الشوك تجعلها سياجاً حامياً، والأشجار الباسقة غير المثمرة تجعلها صوادَّ للرياح اللافحة بحرّها أو بردها، والأشجار المثمرة تبعد عنها ما يؤذيها

ويضرها، والنوامي الضارة تقلمها وتشذبها، وهكذا تتابع عملها التهذيبي الاستثماري النافع، دون أن تلغي أصلاً فطرياً إلغاءً تامّاً.

وكذلك تكون الرعاية الشجرية في التربية الأخلاقية للناس، فالإسلام لم يعمد إلى إلغاء طبائع الناس في تربيته الأخلاقية، وإنما عمد إلى استغلالها، وتهذيبها، وتوجيهها، وحسن الاستفادة من كلٍ منها.

ومن هذه الرعاية الحد من نمو الطبائع التي يكون نموها أمراً ضاراً ومفسداً للتكوين الخلقي.

وهذا العمل التربوي ينبغي أن يساير نشأة الفرد، منذ مراحل حياته الأولى، فكثير من بزور الطبائع الفطرية بل كلها قابلة للإنماء المفرط بالتغذية والتربية، وقابلة للحدّ من نمائها والتهذيب من زوائدها.

ونستطيع أن نضرب على ذلك أمثلة كثيرة، منها ما يلي:

١ ــ الطمــع:

فقد تعمل البيئة الاجتماعية للفرد على تنمية ما لديه من طمع بإفراط، حتى يكون إنساناً طماعاً شرها شاذاً في خلقه. وقد تعمل على الحد من نمو ما لديه منه، بالكف عن تغذيته، وباستخدام وسائلها التربوية الأخرى، حتى يكون قنوعاً، أو غير مفرط في الطمع في أدنى الحدود.

٢ ــ الخــوف:

فقد تعمل البيئة الاجتماعية للفرد على تنمية ما لديه من خوف بإفراط، حتى يكون إنساناً جباناً رعديداً يخاف من خياله وأوهام نفسه، وعندئذ يكون إنساناً شاذاً في خلقه. وقد تعمل على الحـدّ منٍ نمو ما لديه منه، بالكف عن تغذيته، وباستخدام وسائلها التربـويـة الأخرى، التي تغذي في نفسه الشجاعة وتنميها، حتى يكون إنساناً شجاعاً حقاً، أو غير مفرط في الجبن، في أدنى الحدود.

الأساس الخامس ـ التوجيه والتحويل:

إنه ما من طبع من الطبائع الفطرية إلا يحتاج إليه في جانب من جوانب الخير، أو في طريق من طرق الخير، وعمليات التوجيه والتحويل تكون بتعليق رغبات المقصود بالتربية في جانب من جوانب الخير، أو في طريق من طرق الخير، وبمحاولة امتصاص شحنات هذا الطبع كلّها أو بعضها فيما وجهت إليه وعلقت به.

ومن أمثلة ذلك: أن نأخذ إنساناً ذا طمع مفرطٍ في متاع الحياة الدنيا وزينتها، ثم نملأ قلبه إيماناً بالله واليوم الآخر، وبما في اليوم الآخر من جنة ونعيم مقيم، ثم نعمل على توجيه طمعه وتحويله إلى ما عند الله من أجر عظيم، ثم نجري عمليات تعليق شحنات ما لديه من طمع بذلك، فتنصرف نفسه إليه انصرافاً كلياً أو جزئياً، وبذلك ينفك شيئاً فشيئاً عن التعلق بمطامع الحياة الدنيا، طلباً لما هو أجلّ وأعظم، وعندئذ فقد نجده زاهداً قنوعاً، أو غير مفرط في الطمع.

وبهذا التحويل الكلي أو الجزئي يَعْتَدِل طبعه، ويتكون لديه خلق فاضل، ومع ذلك نلاحظ أن الطمع لم تقتلع جذوره من نفسه، ولكن جرى فيه تحويل إلى ما هو خير.

وهكذا نستطيع أن نمارس خطة التوجيه والتحويل في كثير من الطبائع الفطرية.

الأساس السادس ـ التصعيد:

وهو نوع من تحويل الطبع، أو تحويل التطلع الإنساني، عن الصغائر والدنايا، وتوجيهه لمعالي الأمور، ولما فيه سعادة خالدة أو مجد حقيقي، ولما فيه كمالٌ، ورفعة بين الناس، وكمال ورفعة عند الله.

ومن وسائل التصعيد التشويق والتحبيب، والتحسين والتزيين، والممارسة، ووضع الإنسان في خبرات عملية يذوق فيها حلاوة ما يُراد تصعيده

إليه، ولكن بدون إرهاق منفر، ولا تكاليف شاقة مضنية، باستثناء أفراد نادرين يستعذبون المشقات في أصل طباعهم، ولا يميلون إلى الأمور السهلة الخفيفة.

ومن التربية بالتصعيد قول الله لرسوله في سورة (طه ٢٠):

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾.

أزواجاً منهم: أصنافاً منهم.

فأبان الله تعالى أن كل ما يتمتع به الناس في الحياة الدنيا هو في واقع حاله كالزهرة، ومن صفات الزهرة أنها تغري ولكنها قصيرة العمر سريعة الذبول والفناء، فالعاقل يبحث عن نعيم حقيقي باقٍ. وهو أيضاً مادة لامتحان الناس وابتلائهم، وليس لتكريمهم ﴿لنفتنهم فيه﴾.

بعد هذا التزهيد في زهرة الحياة الدنيا قال تعالى: ﴿ورزق ربك خيرٌ وأبقى﴾ وفي هذا توجيه صاعد لما هو الخير الحقيقي الباقي، وهو رزق الله للمتقين والأبرار والمحسنين، في جنات النعيم، وفي الدنيا بسعادة الروح وراحة الفؤاد.

الأساس السابع ـ المزاحمة والتضمير:

وتتلخص هذه الخطة بغرس العنصر المزاحم للطبع أو للعادة السابقة عن طريق تكوين العادة، وبتغذية المزاحم وتنميته يضمر الطبع الفطري، أو يقف عن النماء ـ وكذلك العادة السابقة ـ لأن العنصر المزاحم قد احتل مكان نمائه.

والعادة تطبيع اصطناعي قد يزاحم الطبع الفطري، وذلك لأن في الإنسان استعداداً فطرياً لإيلاف ما يتكرر عليه مرة بعد مرة، ومن ألف شيئاً أحبه، وشعر بالحاجة النفسية إلى معاودته، وبذلك تتكون العادات حتى تكون كالأمور الفطرية في النفس. فإذا كانت هذه العادات من الأمور الأخلاقية كانت أخلاقاً مكتسبة، وهذه الأخلاق المكتسبة تزاحم في النفس طبائع فطرية مضادة

لها، فتتقاسم معها مجال النماء، أو تحتله كله، وبذلك تضعف الطبائع الفطرية المضادة في النماء، أو تقف عند حدودها، أو تضمر وتتراجع وتصغر حجومها.

فمن اعتاد إكرام الضيف، ونشأ في بيئة تشجع عليه، وتُثْني على فاعله وتمجده، فإنه يجدُ راحته النفسية في ذلك، ولو كان أصل طبعه البخل.

الأساس الثامن ـ إيجاد الحافز الذاتي:

الحافز الذاتي هو القوة الداخلية في الإنسان، المحركة لعواطفه، والموجهة لإرادته، والدافعة له حتى يمارس سلوكاً معيناً داخلياً أو خارجياً، وعن طريق تكرار ممارسة هذا السلوك تتكون العادة النفسية الباطنة، أو العادة الجسدية الظاهرة، فإذا كان هذا السلوك من نوع السلوك الخلقي كان خلقاً مكتسباً، وكان المؤثر الأول في اكتسابه هو إيجاد الحافز الذاتي لدى مكتسبه.

ولإيجاد الحافز الذاتي عدة طرق، منها الطرق التالية:

١ ـ طريق الإيمان بالله وباليوم الآخر وبقضاء الله وقدره:

فمتى بنيت القاعدة الإيمانية الإسلامية في أعماق كيان الإنسان استطاعت هذه القاعدة أن تهيمن على فكره وقلبه وعواطفه وإرادته، وأن تعمل على ربط إرادته بما يرضي الله تعالى، ولا يخفى ما للإرادة الحازمة في الإنسان من تأثير على مراكز الخلق في نفسه، وقدرة على التحكم في أنواع سلوكه.

إن تركيز القاعدة الإيمانية الإسلامية في الكيان الداخلي للإنسان يرتبط به اليقين المهيمن بأنه لا حكم إلا لله، وبأن الله لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، وبأن مصلحة الإنسان مرتبطة بفعل ما يأمر الله به، وترك ما ينهى الله عنه. ويرتبط به أيضاً اليقين بأن الله تعالى يجازي على الخير خيراً وعلى السوء سوءاً، وفق قانون الحق والعدل والفضل الرباني. ويرتبط به أيضاً اليقين بأن الله تعالى لا يجري في مقاديره لعباده إلا ما هو خير لهم، فالمؤمن يقابل مقادير الله بالرضا والتسليم فيصبر، ولا يغضب ولا يضجر، ولا يحسد ولا يستكبر، وهكذا.

فالحافز الذاتي الذي يولده الإيمان بالله واليوم الآخر وبقضاء الله وقدره حافز مؤثر وفعال جداً في دفع كل فرد مؤمن إلى فعل الخير والالتزام به، إنه حافز محرك ودافع وحارس ورقيب ذاتي، يصاحب الإنسان الذي يملك وعيه مصاحبة دائمة، فهو معه في جميع أوقاته، وفي جميع أحواله، إذا كان بين الناس وإذا كان في خلواته، إذا كان منكشفاً في الأضواء وإذا كان مستتراً في الظلمات، وحيث يظن أنه لا يراقبه أحد، وحيث لا تراقبه رقابة قانونية بشرية، ولا تمتد إليه سلطة قضائية، ولا تردعه هيئة اجتماعية.

إن الحافز الذاتي الذي يولده الإيمان بالله واليوم الآخر قوة فوق كل القوى، إنه يقبض على زمام العقل بالحق والبرهان من الله، ويقبض على ناصية القلب بعاطفة محبة الله وابتغاء رضاه والثقة بحكمته، ويقبض على زمام النفس بعامِلَيْ الخوف من عقاب الله والطمع بثوابه العظيم.

إنه يقود الإنسان ويسوقه من جميع أركانه الداخلية، فهو قوة عجيبة لا تدانيها قوة أخرى في الوجود كله، ولكن مقدار قوتها في داخل الفرد مناسب لمقدار قوة الإيمان في قلبه زيادة ونقصاناً، فكلما زادت نسبة قوة الإيمان زادت قوة هذا الحافز، وكلما نقصت هذه النسبة نقصت قوة الحافز في نفس الفرد المسلم، وهذا الحافز في مستواه الأعلى يوصل الإنسان إلى مرتبة الإحسان في معظم أعماله، ويجعله من السابقين في الخيرات بإذن الله.

إن الإيمان بالله واليوم الآخر وبقضاء الله وقدره يمثل الجذر الرئيسي لإصلاح الإنسان من أعمق كيانه الداخلي، وعليه تتجمع جذور النفس الإنسانية كلها. وذلك لأن الإنسان متى أيقن بالله حق اليقين، غدا متعطشاً لبلوغ كمالاته بسرعة، ومطمئناً إلى أن الله هو العليم الحكيم، الذي يعلم أين يكون الخير، ويعلم أين يكون الشر، وهو بعباده رؤوف رحيم ينزل بهم ما يقتضيه خيرهم، ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم، فيأخذ وصايا الله بالتسليم التام، ويلتزمها التزاماً صادقاً، قبل أن يعرف بالتفصيلات الجزئية وبالحجج والبراهين ما في كل فرد من أفرادها من خيرات ومصالح وثمرات كريمة.

هذه الثقة بالله القائمة على اليقين به لا تعادلها ثقة أخرى في الوجود، علماً بأن الثقة من حيث ذاتها سائق يسوق الإنسان إلى الاتباع والطاعة والرضا والتسليم، دون شعور بعقبة من عقبات المعارضة النفسية.

نحن نلاحظ في واقعنا الإنساني، أننا متى وثقنا بإنسان ـ بعد أن خبرنا فيه نضج التفكير والتدبير وصدق النصيحة ـ سلّمنا له من غير أن نطالبه بالحجة، مع أن ثقتنا به ـ مهما عظمت ـ لا تبلغ درجة الاعتقاد بعصمته عن الخطأ، ولكننا نرجح أن صوابه أكثر من خطئه.

فكيف بمن نعتقد به كمال العصمة، ونحن موقنون بأنه رؤوف رحيم، يحب لنا الخير ويكره لنا الشر؟.

لذلك فالنفوذ إلى أعماق النفس الإنسانية بعناصر الإيمان الأساسية، يوجد في الإنسان فاعليات ذاتية، تحرضه على التحلي بمكارم الأخلاق، وسلوك السبيل الأقوم في الحياة.

٢ ـ طريق الإقناع الفكري:

ويكون الإقناع الفكري عن طريق التعليم المباشر أو غير المباشر، أو عن طريق الجدال بالتي هي أحسن.

فمن شأن المعرفة التي تدرك بها الفضائل والرذائل، وتعلم بها آثارها المحمودة والمذمومة، وثمراتها العاجلة والآجلة، أن تولد الحافز الذاتي على التطبيق، لا سيما إذا كان مضمون المعرفة يتعلق بما ينفع الإنسان أو يضره، كقضايا السلوك الإنساني.

فمعرفة الفضائل الأخلاقية معرفة صحيحة لا بد أن تبرز ما فيها من كمال وجمال، ولا بد أن تورث اليقين بفوائدها وثمراتها الطيبات وخيراتها الحسان المادية والمعنوية، الدنيوية والأخروية. وذلك يولد في النفس استحسانها، ثم الرغبة الصادقة بالتحلي بها، ومع هذه الرغبة الصادقة تكون النفس طيّعة للتخلق بالخلق الكريم المنشود.

ومعرفة الرذائل والنقائص الأخلاقية معرفة صحيحة لا بد أن تبرز ما فيها من نقص وقبح، ولا بد أن تورث اليقين بمضارها ونتائجها السيئة، وذلك يولد في النفس استقباحها والنفور منها، ثم الرغبة الصادقة باجتنابها، ومع هذه الرغبة الصادقة تكون النفس طيِّعة للكف عنها، والتخلق بالخلق الكريم المضاد لها.

وللإقناع الفكري شروط من شأن الأخذ بها تخفيف العقبات النفسية، التي قد تقف دون بلوغ القناعة الحقيقية إلى داخل النفس.

ويمكن تلخيص أهم هذه الشروط بما لخصها به القرآن الكريم من الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن.

ويندرج في الحكمة كل الأساليب الفكرية المنطقية الهادئة السليمة، التي من شأنها أن توصل الحقيقة إلى موقع القناعة في النفس، وللناس مستويات فكرية وعلمية، وعلى من يريد الإقناع بحقيقة من الحقائق أن يخاطب كل فريق من الناس بما يناسب مستواه الفكري والنفسي.

ويندرج في الموعظة الحسنة كل الأساليب التي تؤثر في النفس الإنسانية، والتي من شأنها أن توجه عوامل الأنفس في جهة الاقتناع بالحقيقة.

والإقناع الفكري من أول الطرائق التي سلكها القرآن وسلكها الرسول صلوات الله عليه في معظم الحقائق التي اشتمل عليها الإسلام، ومنها موضوعات الأخلاق.

٣ ــ طريق الترغيب والترهيب:

لا ينكر الأثر الكبير الذي يتم بتحريك محوري الطمع والخوف في النفس الإنسانية، بالترغيب والترهيب، والتشجيع بالإكرام والمكافأة، والتثبيط بالإهانة والعقوبة عند الضرورة.

إنه طريق مؤثر وفعال جداً، ومولد لحافز ذاتي داخل النفس الإنسانية.

وقد اعتمد الإسلام في منهجه التربوي اعتماداً كبيراً على طريق الترغيب

والترهيب، بعد اعتماده على الهداية للتي هي أقوم، بوسيلة التعليم والإقناع الفكري ويدل على ذلك قول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾.

ونصوص الترغيب والترهيب كثيرة جداً في الكتاب والسنّة.

٤ ـ طريق تربية الوجدان الأخلاقي:

وتكون هذه التربية بتعريض الوجدان لخبرات ومشاهد يحس فيها حلاوة الفضائل الأخلاقية، ومرارة الرذائل الأخلاقية.

إن الوجدان الأخلاقي ينمو ويتضخم بمختلف الخبرات والمشاهد التي تفجر فيه انفعالات استحسان الفضائل والكمالات الأخلاقية، عند تذوق حلاوتها والشعور بالمسرات التي تحصل بسببها، وتفجر فيه انفعالات استقباح الرذائل والنقائص الأخلاقية عند تذوق مرارتها والشعور بالآلام التي تحصل بسببها.

وعندما ينمو الوجدان الأخلاقي ويتضخم يغدو قادراً على تحريك العواطف وتوجيه الإرادة، والدفع إلى السلوك الأخلاقي الكريم، إيجابياً كان أو سلبياً، في داخل النفس والقلب، أو في مجال السلوك العملي الظاهر.

فمن أمثلة ذلك ما يلي:

١ ـ إكرام الإنسان بالعطاء وهو راغب فيه أو عرض مشهد من مشاهد العطاء أمامه، حتى يشعر وجدانه بحلاوة العطاء، وبأنه فضيلة من الفضائل الأخلاقية. وحرمان الإنسان من العطاء مع حاجته إليه، أو عرض مشهد من مشاهد الشح أمامه، حتى يشعر بأن الشح رذيلة من الرذائل الأخلاقية.

٢ ـ تعريض الإنسان لحادثة من حوادث الظلم، أو مشهد من

مشاهده، حتى يشعر وجدانه بمرارة الظلم، وبأنه رذيلة من الرذائل الخلقية وتعريضه لرائعة من روائع العدل، أو مشهد رائع من مشاهده، حتى يشعر وجدانه بحلاوة العدل وإكباره، وأنه فضيلة من الفضائل الخلقية.

٣ — تعريض الإنسان لمشهد من مشاهد الشجاعة المحمودة، أو معونته بحادثة من حوادث الشجاعة المحمودة، حتى يشعر وجدانه بإكبار الشجاعة وحلاوتها، وبأنها من الفضائل الأخلاقية. وتعريضه لمشهد من مشاهد الجبن، أو التخلي عن معونته بحادثة من حوادث الجبن، حتى يشعر وجدانه بحقارة الجبن ويتقزز منه، ويحس بأنه نقيصة من النقائص الخلقية.

وقد تقع القصة المحكية موقع المشهد المرئي، فتؤثر مثل أثره.

وهكذا يتربى الوجدان الأخلاقي ويكون باستطاعته أن يحرك ويوجه ويؤثر، ويكون أحد الحوافز الذاتية في كيان الإنسان الداخلي.

— ٦ —
وسائل اكتساب الأخلاق

لم يدع الإسلام وسيلة تربوية نافعة لا شر فيها إلا استخدمها في مختلف المجالات التربوية، ومنها التربية الأخلاقية، وذلك لأن الناس أصناف، وكل صنف منهم قد تلائمه وسيلة من الوسائل وتتناسب مع خصائصه النفسية والفكرية، في حين أنه قد لا تجدي معه وسيلة أخرى، وحركة الإسلام الإصلاحية لا بد أن تأخذ بكل الوسائل لتلائم كل الناس.

ولدى البحث عن الوسائل التي اتخذها الإسلام أو وجه إليها في منهجه التربوي لاكتساب الأخلاق الإسلامية، ولإلزام الأفراد والجماعات بالمنهج الأخلاقي الذي رسمه للناس، تنكشف لنا مجموعة من الوسائل، منها الوسائل التالية:

الوسيلة الأولى:

التدريب العملي والرياضة النفسية.

الوسيلة الثانية:

الغمس في البيئات الصالحة.

الوسيلة الثالثة:

القدوة الحسنة.

الوسيلة الرابعة:

الضغط الاجتماعي من قبل المجتمع المسلم.

الوسيلة الخامسة:

سلطان الدولة الإسلامية، بروادعها، وعقوباتها، ومرغباتها، ومكافآتها.

وفيما يلي شرح لهذه الوسائل:

أولاً ـ التدريب العملي والرياضة النفسية:

إن التدريب العملي والممارسة التطبيقية ولو مع التكلف في أول الأمر، وقسر النفس على غير ما تهوى، من الأمور التي تكسب النفس الإنسانية العادة السلوكية، طال الزمن أو قصر.

والعادة لها تغلغل في النفس يجعلها أمراً محبباً، وحين تتمكن في النفس تكون بمثابة الخلق الفطري، وحين تصل العادة إلى هذه المرحلة تكون خلقاً مكتسباً، ولو لم تكن في الأصل الفطري أمراً موجوداً.

وقد عرفنا أن في النفس الإنسانية استعداداً فطرياً لاكتساب مقدارٍ ما من كل فضيلة خلقية، وبمقدار ما لدى الإنسان من هذا الاستعداد تكون مسؤوليته، ولو لم يكن لدى النفوس الإنسانية هذا الاستعداد لكان من العبث اتخاذ أية محاولة لتقويم أخلاق الناس. والقواعد التربوية المستمدة من الواقع التجريبي تثبت وجود هذا الاستعداد، واعتماداً عليه يعمل المربون على تهذيب أخلاق الأجيال التي يشرفون على تربيتها، وقد ورد في الأثر: «العلم بالتعلم والحلم بالتحلم».

وثبت في الصحيح أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: **«ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبّر يصبِّره الله»**.

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري أن أناساً من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده:

«ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبَّر يصبِّره الله، وما أعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر».

وضرب الرسول صلى الله عليه وسلم مثلاً دل فيه على أن التدريب العملي ولو مع التكلف يكسب العادة الخلقية، حتى يصير الإنسان معطاء غير بخيل ولو لم يكن كذلك أول الأمر.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جُنتان من حديد من ثُديِّهما إلى تراقيهما.

فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وَفرت على جلده، حتى تخفي بنَانه، وتعفو أثره.

وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لَزِقت كل حَلْقةٍ مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع».

جُنتّان من حديد: أي درعان.

تراقيهما: التراقي جمع ترقوة، والترقوتان هما العظمان المشرفان بين ثُغْرَة النحر والعاتق. تكون للناس وغيرهم.

فدل هذا الحديث على أن المنفق والبخيل كانا في أول الأمر متساويين في مقدار الدرعين.

أما المنفق فقد رَبَت درعه بالإنفاق حتى غطت جسمه كله، بخلاف

البخيل الذي لم يدرب نفسه على الإنفاق، فإن نفسه تكز، والله يضيق عليه من وراء ذلك، فيكون البخل خُلُقاً متمكناً من نفسه مسيطراً عليها.

ومن ذلك نفهم أمرين: فطرية الخلق، وقابليته للتعديل بالممارسة والتدريب العملي. إن المنفق كان أول الأمر كالبخيل يشبهان لابِسَيْ درعين من حديد متساويين ويبدو أن الدرع مثالٌ لما يضغط على الصدر عند إرادة النفقة، فمن يتدرب على البذل تنفتح نفسه كما يتسع الدرع فلا يكون له ضغط، وأما من يعتاد الإمساك فيشتد ضاغط البخل على صدره، فهو يحس بالضيق الشديد كلما أراد البذل، ومع مرور الزمن يتصلب هذا الضاغط.

واعتماداً على وجود الاستعداد الفطري لاكتساب الخلق، وردت الأوامر الدينية بفضائل الأخلاق، ووردت النواهي الدينية عن رذائل الأخلاق.

ولكن من الملاحظ أنه قد يبدأ التخلق بخلُقٍ ما عملاً شاقاً على النفس، إذا لم يكن في أصل طبيعتها الفطرية، ولكنه بتدريب النفس عليه، وبالتمرس والمران، يصبح سجية ثابتة، يندفع الإنسان إلى ممارسة ظواهرها اندفاعاً ذاتياً، دون أن يجد أية مشقة أو معارضة أو عقبة من داخل نفسه، ولئن وجد شيئاً من ذلك فإن دافع الخلق المكتسب يظل هو الدافع الأغلب، بشرط أن يكون التخلق قد تحول فعلاً إلى خلق مكتسب.

وليس التدريب النفسي ببعيد الشبه عن التدريب الجسدي، الذي تكتسب به المهارات العملية الجسدية.

ولنأخذ مثالاً على ذلك فضيلة الصبر: فإن من المستطاع اكتساب هذه الفضيلة وتنميتها عن طريق التدريب الذي يتعرض له الإنسان في حياته، وذلك بأن تمر في حياته أمور متعددة تتطلب منه صبراً وسعة صدر، فقد يضجر الإنسان في الأول منها، ولكنه في الثاني يكون ضجره أخف، ثم تتنازل نسبة الضجر عنده، وتتصاعد نسبة الصبر، حتى يغدو من الصابرين، ومن أصحاب فضيلة خلق الصبر.

وكذلك كثير من الفضائل الخلقية يمكن أن تكتسب بالتدريب العملي المتكرر.

ولذلك اعتمد الإسلام على وسيلة التدريب العملي، ليكتسب بها المسلمون جملة من الفضائل الأخلاقية التي أمرهم بها أمر إلزام أو ترغيب، وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه كلها قائمة على التدريب العملي والممارسة التطبيقية. والعبادات الدورية، والزكاة، والنفقات الواجبة، والجهاد في سبيل الله من أمثلة التدريب العملي.

والتدريب العملي الجسدي أو النفسي قد يصاحبه أول الأمر تكلف ثقيل على النفس، ولكنه قد يغدو بعد حين عادة أخلاقية محببة، إذا تركها صاحبها شعر بفراغ نفسي موحش، لا يملأه إلا ممارستها. وهكذا شأن العادات، فالعادة طبيعة ثانية.

ثانياً ـ الغمس في البيئات الصالحة:

ومن وسائل اكتساب الأخلاق الفاضلة الغمس في البيئات الصالحة، وذلك لأن من طبيعة الإنسان أن يكتسب من البيئة التي ينغمس فيها ويتعايش معها، ما لديها من أخلاق وعادات وتقاليد وأنواع سلوك، عن طريق السراية والمحاكاة والتقليد، وبذلك تتم العدوى النافعة أو الضارة، وفي الحكم السائرة: إن الطبع للطبع يسرق.

فالانغماس في الجماعة، من شأنه أن ينقل من الجماعة إلى الفرد ما تتسم به الجماعة من أخلاق، عن طريق السراية والعدوى، التي تبدأ بالمحاكاة والتقليد والرغبة بالاندماج والموافقة وعدم المخالفة والشذوذ.

وحينما ينخرط الفرد في سلك جماعة من الجماعات يجد أنه مدفوع بقوة ضاغطة لالتزام طريقتها، ثم بتعاطفه معها يستحسن الأشياء التي يراها مستحسنة لديها وآخذة بها، ويستقبح الأشياء التي يراها مستقبحة لديها ونافرة منها، وبذلك يكتسب الفرد من دون أن يشعر أخلاق الجماعة التي ينتسب إليها، وينخرط فيها.

يضاف إلى ذلك أن الدافع الجماعي الموجود في الفرد الإنساني، يجعله إذا انخرط في سلك بيئة جماعية ضمن آلة متحركة تقسره قسراً ذاتياً على أن يستحسن ما تستحسنه، ويستقبح ما تستقبحه، وعلى أن يتقبل التدريبات العملية التي تمارسها الجماعة، وبذلك يكتسب الفرد طائفة كبيرة من الأخلاق التي تتخلق بها الجماعة. ويضاف إلى ذلك عامل التكرار بمرور الزمن، الذي تغدو به المكررات عادات متمكنة في الفرد، وذات جذور عميقة في قرارة نفسه.

فإذا وضعنا جباناً في بيئة شجعان، استطاع أن يكتسب منهم قسطاً حسناً من الشجاعة، وبذلك تخف نسبة الجبن لديه.

وإذا وضعنا بخيلاً بين كرماء مدة طويلة من الزمن، فإنه لا بد أن يتأثر بهم، فتخف عنده نسبة البخل الفطرية لديه.

وإذا وضعنا إنساناً في بيئة أمناء، اكتسب منهم خلق الأمانة، أو في بيئة صادقين، اكتسب منهم خلق الصدق، أو في بيئة عفة وشرف اكتسب ذلك منها.

وهكذا فالإنسان الذي يجد نفسه في بيئة لهجتها الصدق، وخلقها الأمانة، وسلوكها الوفاء بالعهد والصدق في الوعد، يصعب عليه جداً أن يخرج على هذا الأسلوب من السلوك في الحياة، وإن كانت نفسه نزَّاعة بالأصل إلى غير ذلك. ثم إذا طال عليه العهد وهو ملتزم بما تمليه عليه البيئة، وجد هذه الصفات الكريمة ذات جذور متغلغلة في نفسه، وصار يحس بنفرة شديدة من أضدادها، فلو حلا لنفسه أن يكذب لم يطاوعه خلقه المكتسب على ذلك، ولو بدا له أن يخون تلجلج واضطرب، وفر من نزعات نفسه وشيطانه، وابتعد عن طريق الخيانة. ولو اتجه هواه إلى نقض العهد وعدم الوفاء بالوعد لألجمته عن ذلك أخلاقه المكتسبة. وهكذا في كل ما يكتسبه الفرد بالتخلق، عن طريق البيئة الصالحة التي تلفه في دوامتها.

هذا بخلاف البيئات المنحرفة فإنها تؤدي هذا الدور نفسه، ولكن في اتجاه معاكس تماماً، إذ تعمل على تدريب من ينخرط فيها على كل رذيلة من الرذائل

التي هي مدنسة بها، وعلى كل قبيحة من القبائح المنتشرة بين أفرادها، كما تكون بؤرة ملائمة لتزايد الرذائل والقبائح، حتى تفسد المفاهيم العامة، فتمسي مآثر الأفراد فيها ما أصابوه من جرائم وسيئات وانحرافات في السلوك.

ويستغل المفسدون في الأرض هذه الوسيلة لإفساد أخلاق الناس، وإخراجهم عن طريق الحق والخير والفضيلة، الذي هو طريق الإسلام.

لذلك كان من واجبات التربية النافعة التوجيه أو الإلزام بمصاحبة الأخيار والبعد عن مصاحبة الأشرار.

ويمكن تلخيص التأثير الجماعي على الفرد بالعناصر التالية:

١ ــ السراية التي تفعل فعلها العميق في كيان الإنسان، وهي من خصائص الاجتماع، وكلما كبر المجتمع كان تأثيره على الفرد الذي ينخرط فيه أكثر.

٢ ــ القوة المعنوية الجماعية، التي يخشى الأفراد عقوباتها المادية والمعنوية. ويرجون مثوباتها المادية والمعنوية.

٣ ــ جاذبية الجماعة لعنصر التقليد والمحاكاة الذي يوجد عند الأفراد.

٤ ــ عنصر المنافسة، وهو من خصائص الجماعة.

٥ ــ رغبة الأفراد بتقدير الآخرين ومحبتهم له وهذا الدافع لا يتحرك إلا في وسط الجماعة، فاستغلاله من خصائص الجماعة.

هذا وقوة الجماعة الخيرة يوجد نظيرها في الجماعة الشريرة الخبيثة، يضاف إليها ميل النفس بفطرتها إلى الأهواء والشهوات التي ترافق رذائل الأخلاق وقبائح الأفعال، لا سيما إذا كان مخالط الأشرار غراً صغيراً غير مضرّس في الحياة، وسلطان الغرائز والأهواء فيه أقوى من سلطان العقل والوجدان والضمير.

ومن المتعذّر جدّاً إصلاح إنسان منحرف الخلق فاسد السلوك، ما لم يُعزل

عزلاً كاملاً عن الأشرار، وما لم يقطع عن مصاحبتهم، لأنّ صلته بهم واختلاطه فيهم من أقوى العوامل التي تفسد كل علاج إصلاحي يعالج به، فوجوده بينهم يذكّره دائماً بطعم ما كان يمارسه من لذات وشهوات معهم، فيكون صارفاً له عن تقبل أنواع العلاج.

ثالثاً ـ القدوة الحسنة:

القدوة الحسنة هي المثال الواقعي للسلوك الخلقي الأمثل، وهذا المثال الواقعي قد يكون مثالاً حسيّاً مشاهداً ملموساً يقتدى به، وقد يكون مثالاً حاضراً في الذهن بأخباره وسيره، وصورة مرتسمة في النفس بما أثر عنه من سير وقصص وأنباء من أقوال وأفعال.

والقدوة الحسنة تكون للأفراد على صفة أفراد مثاليين ممتازين، وتكون للجماعات على صفة جماعات مثالية ممتازة.

وسرّ تأثير القدوة الحسنة في اكتساب الفضائل يرجع إلى عدة أسباب، منها ما يلي:

١ ـ إنّ القدوة الحسنة تحتل في المجتمعات الإنسانية مرتبة من المجد لا يحظى بها غيرها، وهذه المرتبة محفوفة بالتقدير الكبير من الناس، ومحفوفة بالثناء والإطراء والإعجاب، وكل هذا يولّد في الفرد المحروم من أسباب هذا المجد حوافز قوية تحفزه إلى تقليد القدوة الحسنة، ومحاكاتها في أخلاقها وسلوكها، وعن طريق التقليد في الفضائل تكتسب الفضائل، لأن الممارسة التقليدية تتحول إلى عادة متمكنة، وهذه تتحول إلى خلق مكتسب.

ولو أن مجد القدوة الحسنة قد ضعف في المجتمع الذي تعيش فيه، بسبب الانحراف الخطير في هذا المجتمع، وضعف تأثيره عند كثير من الأفراد، فإن بعض الناس الذين يتمتعون بمقدار كافٍ من محاكمة الأمور، وتقديرها حق قدرها، تظل القدوة ذات تأثير على قلوبهم ونفوسهم، ففي أسوأ المجتمعات المنحرفة توجد قدوات صالحة مؤثرة في بعض الأفراد، وإن كانت نسبة التأثير العام تضعف لا محالة بسبب انحراف المجتمع.

٢ ــ إن المثال الحي المرتقي في درجات الكمال، يثير في نفس البصير العاقل قدراً كبيراً من الاستحسان والإعجاب والتقدير والمحبة، ومع هذه الأمور تتهيج دوافع الغيرة لديه، فإن كان عنده في الأصل ميل إلى الخير، وتطلّع إلى مراتب الكمال، وليس في نفسه عقبات تصدّه عن ذلك، أخذ يحاول تقليد ما استحسنه وأعجب به، بما تولد لديه من حوافز قوية تحفزه لأن يعمل مثله، حتى يحتل درجة الكمال التي رآه يحتلّها.

٣ ــ إن القدوة الحسنة المتحلية بالفضائل الممتازة تعطي الآخرين قناعة بأن بلوغ هذه الفضائل من الأمور الممكنة، التي هي في متناول القدرات الإنسانية، وشاهد الحال أقوى من شاهد المقال.

فمن المشاهد في مجال التربية أن كثيراً من الناس يرون بعض الأمور مستحيلة الوقوع، لأنهم لم يعالجوا قدراتهم للقيام بها، فإذا شاهدوا غيرهم يفعلها، أخذوا يطوعون قدراتهم حتى يكسبوها المهارات المطلوبة لذلك العمل، بالمعالجة والمحاكاة والتدريب.

ومعلوم أن في فطرة الإنسان ميلاً قوياً للمحاكاة والتقليد، وهو الأمر الذي يسهّل عليه عملية تعلّم الأعمال الراقية، التي لم تصل إلى معرفتها الأجيال السابقة إلاّ بعد تطوير كثير، اعتمد على الاختبار والتجربة والتحسين واختيار الأفضل.

ويقوى الميل إلى المحاكاة والتقليد، إذا كان من اتجهت إليه الأنظار قد فرض احترامه وتقديره وحبه.

وقد اتخذ الإسلام القدوة الحسنة وسيلة من وسائله، لترقية المجتمعات المسلمة في سلّم الكمال السلوكي عامة، ومنه الكمال الخلقي.

ووجه القرآن الكريم بصراحة تامة إلى القدوة الحسنة، فقال الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾.

ففي هذا النص إرشاد عظيم من الله تبارك وتعالى للمؤمنين أن يجعلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة حسنة لهم، يقتدون به، في أعماله، وأقواله، وأخلاقه، وكل جزئيات سلوكه في الحياة، فهو خير قدوة يقتدي بها الأفراد العاديون، والأفراد الطامحون لبلوغ الكمال الإنساني في السلوك.

وجعل الله الذين آمنوا معه وصدقوا وأخلصوا واستقاموا أمثلة رائعة يقتدى بها في معظم الفضائل الفردية والاجتماعية.

ولئن انتقل الرسول صلوات الله عليه إلى جوار ربه، فإن سيرته التي تحتوي على جزئيّات سلوكه ماثلة لنا.

وفيما بلغنا من تراجم أصحابه رضوان الله عليهم، ما يكفي لتجسيد القدوة الحسنة للمجتمع المسلم.

ثم إن كل عصر من العصور من بعدهم لا يخلو من وجود طائفة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم تصلح لأن تكون قدوة حسنة، قلّت هذه الطائفة أو كثرت، فقد بشّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك في قوله: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحقّ، ظاهرين على من ناوأهم، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجّال» رواه أبو داود عن عمران بن حصين.

وروى الإمام مسلم عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة».

وروى البخاري ومسلم عن معاوية قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يزال من أمتي أمّة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك».

فلا يخلو عصر من عصور الأمة المحمدية من طائفة صالحة، تصلح لأن تكون في عصرها قدوة حسنة للأفراد.

رابعاً ــ الضغط الاجتماعي من قبل المجتمع الإسلامي:

ضمن مجموعة الوسائل التي اعتمد عليها الإسلام في تقـويم الأفراد وإصلاحهم، وإلزامهم بكمال السلوك وفضائل الأخلاق، اعتمد على المجتمع الإسلامي السويّ، وذلك لما للمجتمع من سلطة معنوية فعالة ومؤثرة على نفوس الأفراد.

وترجع هذه السلطة المعنوية إلى أن الفرد جزء من المجتمع الذي يعيش فيه، وله من مجتمعه مصالح كثيرة ماديّة ونفسية.

وبما أن الإنسان كائن اجتماعي، ولا يستطيع أن يعيش عيشاً سوياً سليماً إلّا ضمن مجتمع من الناس، كان ارتباطه بالمجتمع نابعاً من حاجته إليه، والحاجة لشيء ذي إرادة تجعل لهذا الشيء سلطاناً على من كان بحاجة إليه، إذ هو لا يحقق هذه الحاجة من نفسه ما لم يكن راضياً، عندئذٍ يسعى ذو الحاجة إلى تحقيق رضاه حتى ينال منه حاجته.

ومن الحاجات النفسية المرتبطة بالمجتمع حاجة الإنسان إلى التقدير، ولذلك يكدح كثير من الكادحين ليظفروا بتقدير الناس لهم وثنائهم عليهم، ويمنع كثير من الناس أنفسهم من شهوات ملحّة، وأهواء يتطلّعون إليها، مخافة أن ينظر الناس إليهم بازدراء واحتقار، أو مخافة أن يعاقبوهم بالهجر والقطيعة، أو التلويم والتثريب والمذمّة، وما ذلك إلّا من شعور الفرد بحاجته إلى التقدير، وبحاجته إلى المحافظة على كرامة نفسه بين الناس، وهذا هو الـذي يجعل للمجتمع سلطاناً على أفراده.

يضاف إلى ذلك أسباب التأثير الجماعي على الفرد، وهي الأسباب المبينة في الوسيلة الثالثة، وسيلة «الغمس في البيئات الصالحة».

وإذا اتخذ الإسلام ــ ضمن وسائله لإلزام الأفراد بالمنهج الأخلاقي الذي رسمه للناس ــ وسيلة الضغط الاجتماعي الذي يمارسه المجتمع الإسلامي، فقد عمل بالتربية الفردية النبوية وبالتربية الجمـاعية عـلى تكوين المجتمـع

الإسلامي الأوّل، ثم جعل من هذا المجتمع رقيباً على أفراده، وحارساً ساهراً، ومحاسباً عادلاً، ومعاقباً بأنـواع شتى من أنواع العقـاب المعنوي، ومـؤنّباً، وناصحاً، وآمراً بالمعروف، وناهياً عن المنكر.

فمن شأن هذا المجتمع أن يملي على من ينشأ فيه، أو ينخرط فيه، فضائل الأخلاق، ومحاسن السلوك، بصفة عملية فعّالة قاسرة.

وقد ملأ الإسلام المجتمع الإسلامي بالمناسبات المتكررة الدورية، التي يجتمع فيها المسلمون على سلوك واحد، الأمر الذي من شأنه أن يملي على الأفراد وقائع السلوك الكريم، ويُدَرِّبهم على كل فضيلة نفسية وعملية، ويشجـع السابقين المتنافسين في الخيرات على تنمية أمثلة الكمال الخلقي في المجتمع.

والمجتمع الإسلامي السويّ يلاحق الفرد إلى أصغر الدوائر الاجتماعية التي يعيش فيها، مبتدئاً من أكبر المؤسسات الاجتماعية النظامية وغير النظامية، ومنتهياً بمجتمع لا يلتقي فيه الّا اثنان، زوجان، أو أخوان، أو شريكان، أو والد وولده، أو صاحب وصاحبه، إذ يجد الفرد من كل هذه الدوائر الاجتماعية الإسلامية ما يكون عليه رقيباً، وله محاسباً، ومؤنباً، وناصحاً، وآمراً بالمعروف، وناهياً عن المنكر، ومعاقباً بالهجر والمقاطعة إذا لزم الأمر.

ومن أجل ذلك وضع الإسلام المجتمع الإسلامي تحت مسؤوليته هذه، لئلا يشذ الأفراد فيه عن المنهج الإسلامي القويم:

ومن النصوص المبينة لهذه المسؤولية ما رواه أبو داود والترمذي ــ وقال: حديث حسن ــ عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، أنه كان الرجل يلقى الرجل، فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلـمّا فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ

مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾[1].

ثم قال: كلّا والله، لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، ولتأخذنَّ على يدي الظالم، ولتأطرنّه على الحق أطراً، ولتقصرنّه على الحق قصراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعننّكم كما لعنهم»!!.

ومن النصوص أيضاً ما رواه البخاري عن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقَوْا من الماء مرّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذِ من فوقنا!! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً».

وقد أوضح الرسول صلوات الله عليه كيف تربّي الجماعة الأفراد بعقاب الهجر والمقاطعة لله، في قصة الثلاثة المخلّفين، الذين تخلّفوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك دون عذر، وقد وردت قصة هؤلاء الثلاثة مفصلة في أحاديث صحيحة، وجاءت مجملة في القرآن الكريم.

خامساً ــ سلطان الدولة الإسلامية:

وللسلطة المادية التي تمارسها الدولة الإسلامية، أثر فعّال في إلزام الأفراد والجماعات، بالمنهج الأخلاقي الذي رسمه الإسلام للناس، وفي تربية نفوسهم وقلوبهم على الفضائل الأخلاقية.

---

(١) سورة المائدة ــ ٥.

ولذلك كان من مهمّات الدولة الإسلامية ضبط انتظام الأفراد والجماعات في نظام الأخلاق الإسلامية، بما توليه من رقابة يقظة، وحراسة ساهرة، ومحاسبة للمنحرفين، وتشجيع للسابقين، وتوجيه وتربية، وبناء وصيانة.

ولذلك كان من مهمّات الدولة الإسلامية وضع الأنظمة المختلفة، المرغبة بالتزام المنهج الأخلاقي الربّاني، والرادعة عن مخالفته، واتخاذ مختلف الوسائل النافعة التوجيهية والتربوية لحماية الأخلاق وصيانتها.

وربّما كان وازع السلطة الإدارية هذا أقوى وازع لإلزام الجماهير بسلوك السبيل الأقوم، وقد جاء في الأثر: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».

أي: إنّ من الناس من لا يلتزمون بمنهج الحقّ لمجرّد علمهم بأنه منهج حق، ولمجرّد توجيه الترغيبات والإنذارات المؤجلة، بل لا بد لهم من سلطانٍ ماديٍّ يخافون بأسه ويرجون نفعه، وهو يلزمهم به طوعاً أو كرهاً.

وحينما تكون رقابة السلطة الإدارية رقابة يقظة، وحراستها حراسة حذرة، ووسائلها مجدية ونافعة، فإن شذوذ الأفراد والجماعات يقلّ إلى أدنى النسب الممكنة في الواقع الإنساني.

ومن الشواهد على هذه الحقيقة عصر الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإنه كان عصر إدارة حازمة، ورقابة يقظة، وحراسة حذرة، ولذلك لم يسجل تاريخ هذا العهد من شذوذات الأفراد والجماعات إلاّ القليل النادر، الذي لا يخلو منه أي مجتمع إنساني مهما كان مجتمعاً مثالياً.

وعهد الخليفة الأول أبـي بكر الصديق كذلك، إلاّ أنه عهد لم يطل كما طال عهد الخليفة الثاني.

وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في كلا العهدين عناصر مساعدة للخليفة، يؤازرونه في الرقابة والحراسة، ويمدّونه بقوّة الحزم والعزم، ويرشدونه إلى جوانب الإدارة الحكيمة والعدل في السلطان.

أمّا عصر الرسول فقد كان عصر بناء المجتمع الإسلامي الأول وفق قواعد

الحكمة الربانية وتوجيهاتها، ووفق السياسة النبوية التي كان الوحي راعياً لها ومرشداً ومقوماً وممداً.

خاتمة لوسائل اكتساب الأخلاق:

وحينما تلتقي مجموعة الوسائل المتخذة لاكتساب الأخلاق الإسلامية والإلزام بمنهجها الرباني ضمن الأسس التربوية العامة، تتهيأ الظروف والشروط الممتازة لضمان صلاح أكبر نسبة من الأفراد.

فالتدرج في البناء التربوي، ومعاملة كل طبع بما يلائمه، وتصيد المناسبات الملائمة، والرعاية الشجرية، والتوجيه والتحويل، والتصعيد والمزاحمة والتضمير وإيجاد الحافز الذاتي، والتدريب العملي، والغمس في البيئات الصالحة، والقدوة الحسنة، والمجتمع الإسلامي، وسلطان الدولة الإسلامية بروادعها وعقوباتها ومرغباتها ومكافآتها، أمور كفيلة بتحقيق الهدف من بناء الفرد المسلم المتخلّق بأخلاق الإسلام على قدر استعداده، وبناء الأمة الإسلامية، التي يكثر فيها الخير ويقل فيها الشذوذ.

أمّا الشاذّون القليلون فتنفّذ فيهم العقوبة، تخلّصاً منهم أو تأديباً، وعبرة وعظة لمن تحدّثهم أنفسهم بأن يسلكوا مثل طريقتهم، إذا كان شذوذهم الأخلاقي موجباً للعقوبة.

ومجتمع يصل إلى هذا المستوى مجتمع مثالي لا محالة.

□ □ □

الباب الثاني

الإنْسَانُ في دَائِرَةِ الدّلالاتِ القُرآنيّة

وفيه تسعة فصول:

الفصـــل الأول

مُقـــدِّمَة عـــامَّة

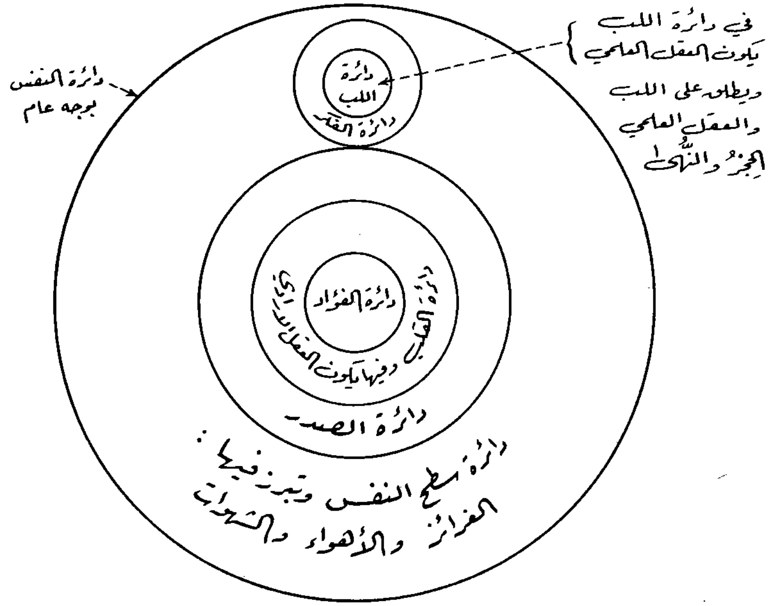
الذي يظهر من دراسة الدلالات القرآنية للمراد من النفس والصدر والقلب والفؤاد، أنّ هذه الأربعة بمثابة دوائر أربع، الأولى كبرى، وهي تمثل النفس، والثانية أصغر منها في داخلها، وهي تمثل الصدر، والثالثة أصغر من الثانية وهي في داخلها، وهي تمثل القلب، وفيه يكون العقل الإرادي، والرابعة هي الدائرة الصغرى وهي في داخل الدائرة الثالثة، وهي تمثل الفؤاد.

وأما الفكر فله دائرة خاصة ضمن دائرة النفس الكبرى، وهذه الدائرة التي للفكر تتعامل مع الدوائر الأخرى بالأخذ والعطاء، والتأثير والتأثر: فتتعامل مع دائرة النفس باعتبار أنها جزء منها، وتتعامل مع دوائر الصدر و القلب والفؤاد أيضاً، باعتبار أنها أجزاء ضمن وحدة دائرة النفس الكبرى، ولها بها صلات أخذ وعطاء ومشاركة. وفي عمق دائرة الفكر تقع دائرة اللب، ويطلق عليه النُّهىٰ والحِجْر، وفي دائرة اللب يكون العقل العلمي.

ويظهر من الدلالات القرآنية أنّ لكلّ دائرة من دوائر النفس المتسلسلة في التصاغر إلى نقطة مركزها أموراً مشتركة عامة، وأموراً هي من قبيل الاختصاصات، ومن هذه الاختصاصات ما هو اختصاص انفراد، ومنها ما هو اختصاص تركيز واهتمام، وهذا الثاني لا يمنع من مشاركة جميع أو بعض الدوائر الأخرى، نظراً إلى أنها جميعاً جزء من وحدة النفس.

فإذا أطلق لفظ النفس، أو وصفت النفس بوصف ، أو أسند إليها شيء،

رسم إيضاحي للنفس والصدر والقلب والفؤاد والفكر واللب والعقل العلمي والعقل الإرادي في مفاهيم دلالات النصوص القرآنية



فقد يكون المراد عامة النفس، فيدخل بذلك دوائرها جميعاً، وقد يكون المراد ما يختص بدائرة الصدر، أو بدائرة القلب، أو بدائرة الفؤاد، أو بدائرة الفكر، أو بدائرة اللب، أو بما بقي تحت عنوان النفس فقط من وراء هذه الدوائر، وهي دائرة سطح النفس.

وإذا أطلق لفظ الصدر، أو وصف الصدر بوصف، أو أسند إليه شيء، فقد يكون المراد عامة الصدر، فيدخل بذلك دائرة القلب، ودائرة الفؤاد، وقد يكون المراد ما يختص بدائرة القلب، أو بدائرة الفؤاد، أو بما بقي تحت عنوان الصدر فقط من وراء دائرة القلب.

وإذا أطلق لفظ القلب أو وصف القلب بوصف، أو أسند إليه شيء، فقد

يكون المراد عامة القلب، فيدخل بذلك دائرة الفؤاد، وقد يكون المراد ما يختص بدائرة الفؤاد.

ولقائل أن يقول: قد يطلق لفظ القلب ويراد منه اللب، مركز العقل العلمي، وعلى هذا فلدائرة الفكر قلب يكون فيه القلب العلمي، ولدائرة الصدر قلب يكون فيه العقل الإرادي، والله أعلم.

وحينما يدعو القرآن إلى التفكير فالظاهر أن المراد إعمال دائرة الفكر عامة، في الموضوع الذي وجه له القرآن، وتثبيت النتائج التي يتوصل إليها وعَقْلُها في دائرة اللب، والقيام بما يرشد إليه ما استقر في اللب والعقل العلمي من معرفة وهداية.

وينبغي أن لا يفوتنا أن الدلالات القرآنية إذا ذكرت بعض أفراد نوع من الأنواع فهي تنبه بذكره على سائر أفراد النوع.

فإذا ذكرت مثلاً طائفة من العواطف أو الانفعالات وجعلتها من صفات دائرة من دوائر النفس، فإن العواطف أو الانفعالات الأخرى التي تدخل في نوع هذه الطائفة هي أيضاً مثلها، ولا يشترط ذكرها على وجه الخصوص.

وحسب القرآن أنه قد عالج بتربيته العظيمة الدقيقة كل خصائص النفس الإنسانية، وكل صفاتها، بكل مستوياتها وبحسب تفاوت نسبها في الأفراد.

وفي الاستعراض التالي أوجزتُ في شرح النصوص وتحليل ما فيها، لأن الغرض جمع الدلالات عن الإنسان في القرآن، ولو لجأت إلى شرح هذه النصوص شرحاً مفصلاً، لكان هذا الباب وحده من الكتاب سفراً كبيراً.

والحمد لله، فهو المسدّد والملهم للصواب.

* * *

الفصل الثاني

في النفس

ـ ١ ـ

أطلقت النفس في القرآن على شيء في داخل كيان الإنسان، جامع لكثير من الصفات والخصائص الإنسانية، التي لها آثار ظاهرة في السلوك الإنساني.

ولئن كانت ذات هذا الشيء وحقيقته غير معلومة على وجه التحديد لدى الناس، إلا أن كثيراً من صفاته وخصائصه وآثاره الظاهرة في السلوك مدركة معلومة، موصولة بالشعور الظاهر لدى الإنسان السليم.

ومع الإطلاق القرآني لكلمة النفس، وردت عدة صفاتٍ وبيانات، توضّح جملة من خصائص النفس وصفاتها وآثارها في السلوك، وهذه تكشف عن المراد من النفس في داخل كيان الإنسان.

ويظهر من متابعة النصوص القرآنية أن النفس قد أطلقت في القرآن على شيء هو في داخل كيان الإنسان، يشتمل على كل الصفات والخصائص التي تكونت منها ماهيته، دون النظر إلى الهيكل الجسدي الذي هو وعاءٌ لها.

فالنفوس البشرية كلها قد خلقت من نفس واحدة، هي نفس الإنسان الأول (آدم)، ثم اشتق الخالق من هذه النفس الواحدة نفس زوجها، ثم بثّ منهما عن طريق التناسل كل السلالات البشرية المتكاثرة حتى تقوم الساعة. وهذا يدل على أن أسس خصائص النفوس البشرية ومكوناتها وعناصرها تشترك في

أصول واحدة، وإن اختلفت نسب العناصر في الأفراد، ومن الطبيعي أن يتبع هذا الاختلاف في نسب العناصر اختلافٌ ما في صفات الأفراد وخصائصهم، مع وحدة العمود الأصلي الذي تشترك فيه جميع الأفراد.

والنفوس هي التي تُمنح الحياة، وهي التي تموت وتذوق الموت؛ فهي التي تُقتل وهي التي يتوفاها الله.

والنفس من صفاتها: أنها تهوى فلها أهواء، وتشتهي فلها شهوات، وتشعر بالمشقات، وتصبر أو تضجر وتخاف أو لا تخاف، وتخشى أو لا تخشى، وتجود أو تبخل وتشح، وتحسد أو لا تحسد، وترضى أو لا ترضى، وتقنع أو تطمع. وتدرك أو لا تدرك، وتعلم أو تجهل، وتشك وتظن وتستيقن، ويمسها الحرج والضيق أو تنشرح، وتفرح أو تحزن. وتتكبر أو تتواضع، وتُسرّ أو تتحسر، وتتأثر بالقول البليغ أو لا تتأثر، إلى غير ذلك من صفات هي من قبيل المشاعر الوجدانية والإدراكية.

والنفس من صفاتها: أنها تهتدي أو تضل، وتتزكى أو تتدنس، فمنابع الخير والشر لديها، ولديها فطرة إدراك الخير والشر، ولديها الدوافع لفعل كلٍ منهما.

والنفس من صفاتها: أنها عاملة كاسبة، تعمل وتكسب أفعال الخير وأفعال الشر عن وعي كامل منها، ولا تكون كذلك ما لم تكن الإرادة الحرة من خصائصها، ومن عناصرها.

ولما كانت النفس عاملة كاسبة لما يصدر عن الإنسان، وذات إدراك ووعي كامل للخير والشر، كانت مسؤولة مكلفة.

والجزاء هو ثمرة المسؤولية والتكليف، لذلك كان من صفات النفس أنها تلام وتمدح، وتجازى على الخير خيراً وعلى الشر شراً، وتوفى يوم القيامة ما كسبت، وإذا اكتسبت شرّاً كانت هي الظالمة وهي المظلومة من قبل ذاتها.

ولما كانت مسؤولة مكلفة مجازاة على أعمالها، كان لا بد في فترة ابتلائها

من أن تكون موضوعة موضع المراقبة الدائمة، والمراقبة تستتبع تسجيل أعمالها، لذلك فهي تجد ما عملت من خير أو شر محضراً مسجلاً.

وقواعد العدل في الجزاء تقتضي المحاسبة قبل المعاقبة، وقواعد العدل في المحاسبة تقتضي منح حق الدفاع، لذلك تأتي كل نفس تجادل عن نفسها يوم القيامة عند الحساب.

ولما كانت كل نفس بصيرة بما عملت، عالمة بما كسبت من خير وما كسبت من شر، كانت قادرة على المحاسبة الذاتية، فيقال للإنسان يوم القيامة:
﴿اقرأ كتابك، كفى بنفك اليوم عليك حسيباً﴾.

ولما كانت منابع الخير والشر موجودة لدى النفس، ولما كان لديها فطرة إدراك الخير والشر، ولديها الدوافع لفعل كلٍّ منها، كان من صفاتها الأساسية الفطرية أنها لوامة لذاتها على ما تكسب من شر ما لم يمت حس الخير لديها أو يتخدر أو يغشّى عليه في حالة مرضية. وكان من صفاتها الأساسية الفطرية أن تشعر بالطمأنينة إذا كسبت خيراً، فهي في جانب فعل الخير مطمئنة، وفي جانب فعل الشر لوّامة.

وحينما تتجه إلى فعل الشر تدفعها إليه وساوس الاستمتاع بلذته، وتسويلات حب العاجلة والرغبة بزينة الحياة الدنيا، فهي بالنظر إلى هذا الجانب منها موسوسة، مسولة، وتعتمد في وساوسها وتسويلاتها على الأوهام والظنون وما فيها من زخارف، وينتهي الأمر بها إلى أن تكون أمّارة بالسوء، فإما أن تستجيب بعد ذلك لنداء هذا الجانب منها وإما أن ترفض.

وحينما تتجه إلى فعل الخير تدفعها إليه دوافع الخير الراقية فيها، والرغبة برضوان الله والجزاء الكريم الذي أعدّه للمتقين وللأبرار وللمحسنين. وهذه الدوافع يقترن بها واعظ يعظ بالخير في داخل كيان الإنسان(١)، فإما أن تستجيب بعد ذلك لنداء هذا الجانب وإما أن ترفض.

---

(١) ثبت وجود هذا الواعظ في حديث صحيح رواه أحمد والترمذي والنسائي عن النواس بن سمعان. أوردته في بحث الضمير الأخلاقي.

كل هذه المفاهيم عن النفس قد دلّت عليها نصوص من القرآن الكريم.

أطراف النفس:

وإذا كانت النفس في داخل كيان الإنسان، هي ما يشار إليه بضمير المتكلم (أنا).

ثم إذا حلّلنا صفات النفس أخذاً من المفاهيم التي دلّت عليها النصوص القرآنية، وجرينا على طريقة مدرسة التحليل النفسي في إثبات (الأنا) و(الأنا الأعلى) مع تعديل اقتضته الدلالات القرآنية؛ كان لنا أن نثبت للنفس أطرافاً ثلاثة:

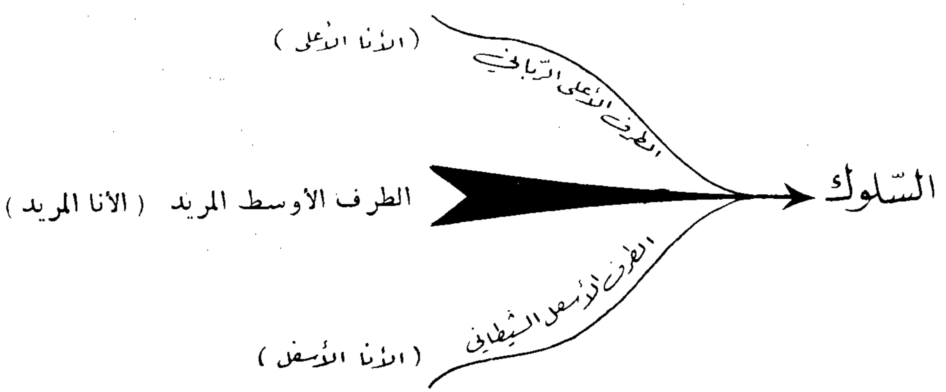
الطرف الأول: طرف أعلى ربّاني، قد نطلق عليه (الأنا الأعلى).

الطرف الثاني: طرف أسفل شيطاني، قد نطلق عليه (الأنا الأسفل).

الطرف الثالث: طرف أوسط، هو الذي يحدّد مسيرة السلوك مستجيباً لنداء الطرف الأعلى وأوامره، أو لوساوس وأوامر الطرف الأسفل.

وهذا الطرف تقع فيه الإرادة الحرة المختارة المنفذة، وقد نطلق عليه (الأنا الأوسط) أو (الأنا المريد).

فالطرف الأعلى: وهو الطرف الرباني، ينزع إلى الخير، ويعظ به ويأمر بفعله، ويحس بالفضيلة وينعم بفعلها، ويلوم على فعل السوء والشر ويحس



بالنفرة منها. فهو من النفس الطرف اللوّام، الآمر بالخير والناهي عن الشر. ويقع في هذا الطرف ما أسميناه سابقاً بالضمير الأخلاقي، وتؤازره لَمّة ملك يعظ بالخير. ولكن هذا الطرف قد يضمر إلى حد الموت، أو يصاب بمرض شديد ينعدم به إحساسه، أو يقل به إحساسه، وكل ذلك بسبب استغراق الإنسان في إهماله، وعدم الاستجابة إليه، واتباع وساوس الطرف الأسفل.

والطرف الأسفل: وهو الطرف الشيطاني، يوسوس، ويسوّل بفعل السوء والشر، ويزين الأوهام والظنون الباطلة، ويشكك بالحق. وحين يستشري يكون أماراً بالسوء، نزّاعاً بقوة إليه، فهو من النفس الطرف الأمـار بالسوء، وتؤازره وساوس الشياطين من الإنس والجن.

والطرف الأوسط: وهو الطرف الذي يحدّد مسيرة السلوك، هو الذي لديه الإرادة المنفذة، وهذا الطرف تتجاذبه نوازغ الطرف الأسفل، ونوازع الطرف الأعلى.

فإذا استجاب لهداية الطرف الأعلى، كانت النفس مطمئنة، ثم كانت بفضل الله بعد ذلك راضية مرضية، يطفح سرورها بياضاً على الوجه يوم القيامة.

وإذا استجاب لوساوس الطرف الأسفل وأوامره، كانت النفس قلقة مضطربة، تخشى سوء المصير، ثم كانت بعدل الله بعد ذلك كئيبة متألمة نادمة متحسرة، فيطفح كل ذلك سواداً على الوجه يوم القيامة.

ـ ٢ ـ
مع الدلالات القرآنية حول النفس

(أ) نشأة النفوس الإنسانية:

النفوس البشرية كلها قد خلقت من نفس واحدة هي نفس الإنسان الأول (آدم)، ثم اشتق الخالق من هذه النفس الواحدة نفس زوجها، ثم بث منهما عن طريق التناسل كل السلالات البشرية المتكاثرة إلى أن تقوم الساعة.

دل على هذه الحقيقة قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ . . . ١ ﴾.

وقد خلق منها زوجها لتكون سكناً ملائماً مشاركاً في الخصائص والطبائع البشرية.

دلّ على هذه الحقيقة قول الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ . . . ١٨٩ ﴾.

وقد مرت مـدّة على النفس الأولى قبل أن يخلق الله منها زوجها، ثم بعد هذه المدّة جعل الله منها زوجها، قال الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا . . . ٦ ﴾.

فدلت كلمة (ثم) على وجود الفاصل الزمني بين خلق آدم وخلق زوجه.

وخلق السلالات البشرية من نفس واحدة كان على سبيل الإنشاء المتدرج كما هو مشاهد، قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ٩٨ ﴾.

والمستقر ظهور الآباء، والمستودع أرحام الأمهات.

(ب) النفس هي التي تذوق الموت:

إذا كان خلق النفس قد تضمَّن هبتها الحياة، فإن النفس هي التي تذوق الموت، وحياتها قبل الموت هي مـدّة ابتلائها، ثم تأتيها مـدّة الموت الطويلة، ثم بعد ذلك تدبّ فيها الحياة مرة ثانية لترجع إلى الله، ويجازيها على ما عملت في مـدّة امتحانها.

دلّ على هذه الحقائق قول الله تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝١٨٥ ﴾.

وكما كانت حياة النفوس متوقفة على خلق الله، فموت أي نفس لا يكون إلا بإذن الله، قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا . . . ۝١٤٥ ﴾.

وأجل كل نفس مقرر بقضاء الله وقدره، ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها، فآجال النفوس لا تأخير فيها، قال الله تعالى في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١ ﴾.

فمدة امتحان كل نفس محددة بالقضاء والقدر، وفق علم الله وحكمته، لا تأخير فيها ولا تقديم، وعلى هذا فموت النفس بالقتل خاضع للإذن الرباني القدري الذي دلّت عليه الآية السابقة ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾ لكن القتل نفسه قد يكون حراماً وإثماً كبيراً، وقد يكون مأذوناً به شرعاً. ولما كانت عملية القتل غايتها موت النفس، جاءت النصوص القرآنية مبينة أن قتل الإنسان الحي هو قتل لنفسه، قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ . . . ۝١٥١ ﴾.

وبيان أن القتل يقع على نفس المقتول كثير في القرآن الكريم.

الموت والنوم:

وللأنفس آجال أخيرة تتوفاها، فإذا توفّتها قبضها الله إليه قبضاً كلياً، فكان ذلك موتها.

وللأنفس في الحياة المدركة ذات الشعور الظاهر آجال متقطعة، كلما توفت أجل قطعة منها قبضها الله إليه قبضاً جزئياً تفقد به الشعور الظاهر، الذي هو شرط لتوجه المسؤولية، ولكن لا تفقد به الحياة كلها، فكان بذلك النوم، وعند اليقظة يرسل الله من النفس ما قبض منها عند النوم.

فبين الموت والنوم للأنفس فرق القبض الكلي لها والقبض الجزئي، ولكن حالة فقد الشعور بالنوم تشبه حالة فقد الشعور بالموت، وتوقف مـدّة الامتحان بالنوم تشبه انتهاء مـدّة الامتحان بالموت، قال الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

(ج) صفات النفس الشعورية:

أولاً ـ الهوى:

أثبت القرآن أنّ النفس لها هوى، والهوى شعور يميل بها إلى ما تحب من مطالب وحاجات، أو متع ولذات وشهوات، أو عواطف وانفعالات، وقد يكون ما تهواه شراً لها، أو أذى أو ضراً، قال الله تعالى في سورة (النازعات ٧٩):

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في معرض الكلام عن المشركين في سورة (النجم ٥٣):

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾.

وخاطب الله اليهود بقوله في سورة (البقرة ٢):

﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

وتحدث عنهم بقوله في سورة (المائدة ٥):

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

ثانياً ــ الشهوة:

وأثبت القرآن أن النفس لها شهوة بها تشتهي ما تستمتع به أو تلذه، ولذلك وصف الله أهل الجنة بقوله في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

وخاطبهم بقوله في سورة (فصلت ٤١):

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

ووصف الجنة بقوله في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ . . . ﴿٧١﴾ ﴾.

ثالثاً ــ الحاجات والمطالب:

وأثبت القرآن أن للنفس حاجات ومطالب تسعى لقضائها، من ذلك ما ذكره الله تعالى في شأن يعقوب في سورة (يوسف ١٢):

﴿ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ . . . ﴿٦٨﴾ ﴾.

رابعاً ــ الشعور بالمشقات:

وأثبت القرآن أن النفس تشعر بالمشقات، ففي وصف ما خلق الله لنا من

الأنعام ممتناً به علينا قال تبارك وتعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ ﴾.

خامساً ـ الصبر وضده:

وأثبت القرآن أن الصبر من الصفات التي قد تتصف بها النفس وإثبات هذا لها على سبيل الاحتمال يقتضي أنها قد لا تصبر، أي: فهي قد تضجر، ولذلك خاطب الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله له في سورة (الكهف ١٨):

﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ . . . ﴿٢٨﴾ ﴾.

سادساً ـ الجود وضده:

وأثبت القرآن أن الجود أو الشح وما بينهما من الصفات التي تتصف بها النفوس البشرية، ففي اتصاف الأنفس بالشح وأنه الغالب فيها، يقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ . . . ﴿١٢٨﴾ ﴾.

وفي التوجيه للتخلص من شح النفوس، قال الله تعالى في سورتي (الحشر ٥٩) و(التغابن ٦٤):

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴿١٦﴾ ﴾.

وفي طيب نفس الزوجات بشيء من مهورهن لأزواجهن، قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾ ﴾.

وفي الحث على الإنفاق ابتغاء مرضاة الله، وتثبيتاً من الأنفس لصدق اليقين بالله والثقة به، والإخلاص له في العمل، وتثبيتاً من الأنفس لخلق الجود الذي يرضى الله عنه بممارسة العطاء في كل مجالٍ من مجالات الخير التي يُبتغى بها مرضاة الله تعالى، قال الله عزوجل في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾.

سابعاً ــ الحسد وضده:

وأثبت القرآن أن الحسد من الصفات التي تتصف بها النفوس، وظاهر أن النفس إذا برئت من صفة الحسد اتصفت بضده، ففي بيان حال كثير من أهل الكتاب قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ . . ﴿١٠٩﴾ ﴾.

ثامناً ــ الخوف وضده:

وأثبت القرآن أن الخوف من الصفات التي تتصف بها النفوس، وظاهر أن النفس إذا برئت من صفة الخوف اتصفت بضده، ففي وصف حالة موسى النفسية حينما قام سحرة فرعون بأعمالهم، فألقوا حبالهم وعصيَّهم، وخُيِّل إليه من سحرهم أنها تسعى؛ قال الله تعالى في سورة (طه ٢٠):

﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾.

تاسعاً ــ الكبر وضده:

وأثبت القرآن أن الكبر من الصفات التي تتصف بها النفوس، وظاهر أن النفس إذا برئت من صفة الكبر اتصفت بضده، ففي شأن المشركين الذي لا يؤمنون باليوم الآخر قال الله تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾.

عاشراً ـ الضيق والحرج:

وأثبت القرآن أن الضيق والحرج من الصفات التي قد تتصف بها النفوس، وهذا يدل على أن ضد ذلك وهو الاتساع والانشراح من الصفات التي قد تتصف بها أيضاً، ففي ربط صدق الإيمان بتحكيم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمور القضائية التي اختلط أمرها، والتسليم التام لحكمه، قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

وفي شأن الثلاثة الذين خُلّفوا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لغزوة تبوك، قال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾.

حادي عشر ـ التأثر بالقول البليغ:

وأثبت القرآن أن النفوس قد تتأثر بالقول البليغ، فتستجيب للموعظة ودعوة الحق، ففي شأن طائفة من المنافقين قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾.

ثاني عشر ــ مشاعر التحسر والندم:

وأثبت القرآن أن مشاعر التحسر والندم من الصفات التي قد تتصف بها النفوس، قال الله تعالى لرسوله في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

والنفس الظالمة هي التي تتحسر يوم القيامة على ما فرطت في جنب الله، قال الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

ثالث عشر ــ الإدراك إلى حد الاستيقان:

ودلّت النصوص القرآنية على أن الإدراك العلمي على اختلاف مستوياته من الصفات التي تتصف بها النفس الإنسانية، ففي مستوى اليقين نجد أن القرآن قد تحدث عن الحالة النفسية لفرعون وقومه أمام الآيات التي جاء بها موسى عليه السلام، فقال الله تعالى في سورة (النمل ٢٧):

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

وفي مستوى الظن الباطل، نجد أن القرآن قد تحدث عما كان في نفوس طائفة من المنافقين، في غزوة أحد، من ظنون باطلة جاهلية دفعتهم إلى الهم، وإطلاق مقالات الكفر والردة، فقال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ . . . ﴿١٥٤﴾ ﴾.

وبين هذين المستويين الأعلى والأدنى سائر المستويات الإدراكية.

معرفة طريق فجورها وطريق تقواها:

ومن الخصائص الإدراكية معرفة طريق الفجور وطريق التقوى، وقد منح الخالق النفوس الإنسانية القدرة على معرفة هذين الطريقين من طرق سلوك الإنسان في الحياة، طريق الفجور وطريق التقوى. فحينما تتجه النفس إلى سلوك طريق الفجور تتجه إليه وهي عارفة بأنه طريق شر، فهي بصيرة بما تعمل، وحينما تتجه إلى سلوك طريق التقوى، تتجه إليه وهي عارفة بأنه طريق خير، فهي بصيرة بما تعمل.

هذا ما دلّ عليه قول الله تعالى في سورة (الشمس ٩١):

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (القيامة ٧٥):

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾.

لذلك فهي تعلم يوم القيامة ما قدمت من عمل وما أخّرت، قال الله تعالى في سورة (الانفطار ٨٢):

﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ ﴾.

ونظير هذا قول الله تعالى في سورة (التكوير ٨١):

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ ﴾.

أي: ما أحضرت من عمل عملته في مدّة امتحانها، ويكون هذا يوم الدين بحسب ما دلت عليه الآيات السابقات.

وإذا كانت النفس تعلم فهي تجهل أيضاً:

ومما **تجهل**: ما تكسب غداً، والأرض التي قدر لها أن تموت فيها؛ قال الله تعالى في سورة (لقمان ٣١):

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

ومما تجهل كل نفسٍ ما أخفى الله للمؤمنين المتقين من قرة أعين في جنة النعيم، قال الله تعالى في سورة (السجدة ٣٢):

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

رابع عشر ـ القدرة على إخفاء المطالب والمشاعر:

ودلّت النصوص على أن من صفات النفس القدرة على إخفاء مطالبها ومشاعرها في ذاتها.

ففي بيان حال طائفة من المنافقين، الذين أخفوا في أنفسهم أشياء يوم غزوة أحد، قال الله تعالى لرسوله في سورة (آل عمران ٣):

﴿ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ . . . ﴿١٥٤﴾ ﴾.

وخاطب الله المؤمنين بقوله في سورة (البقرة ٢):

﴿ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾.

وخاطبهم أيضاً بقوله في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ ﴾.

وخاطب الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله له في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ . . . ﴿٣٧﴾ ﴾.

وفي عرض قصة يوسف عليه السلام مع إخوته، قال الله تعالى في سورة (يوسف ١٢):

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

وفي شأن المنافقين وما أسرّوه في نفوسهم قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

وقال عيسى لربه كما أخبرنا الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾.

(د) والنفس الإنسانية مكلفة ومسؤولة مسؤولية شخصية:

فقد أثبت القرآن أن النفس الإنسانية مكلفة في هذه الحياة الدنيا، ضمن حدود الاستطاعة، وأن تكليفها يرتفع متى فقدت الاستطاعة، دلّ على هذه الحقيقة عدّة نصوص قرآنية منها ما يلي:

١ ــ قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا . . . ﴿٢٣٣﴾ ﴾.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴿٢٨٦﴾﴾.

٢ ــ وقول الله تعالى في سورتي (الأنعام ٦) و(الأعراف ٧):

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . . . ﴿١٥٢﴾ ٤٢﴾.

٣ ــ وقول الله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

٤ ــ وقول الله تعالى في سورة (الطلاق ٦٥):

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا . . . ﴿٧﴾﴾.

وكلّف الله الإنسان بأن يذكر ربه في نفسه تضرعاً وخيفة، فقال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾.

والتكليف يستتبع المسؤولية، ويستتبع الجزاء، وقد أثبت القرآن ذلك للنفس الإنسانية، وأثبت أن مسؤوليتها مسؤولية شخصية.

دلّ على قانون الجزاء عدة نصوص قرآنية، منها ما يلي:

١ ــ قول الله تعالى في سورة (طه ٢٠):

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾.

٢ ــ وقول الله تعالى في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾.

٣ ــ وقول الله تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

ودلّ على أن مسؤولية كل نفسٍ مسؤولية شخصية عدة نصوص أيضاً، منها ما يلي:

١ ــ قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾.

٢ ــ وقول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾.

٣ ــ وقول الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾.

ولما كانت مسؤولية كل نفس مسؤولية شخصية، لزم أن لا تجزي نفس عن نفسٍ شيئاً، دلّ على ذلك قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (الإنفطار ٨٢):

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

(هـ) ونفس الإنسان كاسبة لأعمال الخير ولأعمال الشر:

وأثبت القرآن أن النفس الإنسانية كاسبة لما يصدر عن الإنسان من أعمال خير، وأعمال شر، وأن الله يعلم ما تكسب كل نفس، قال الله تعالى مبيناً علمه بما تكسب كل نفس في سورة (الرعد ١٣):

﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ ﴾.

وقال فيها أيضاً:

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ؟؟ ﴿٣٣﴾ ﴾.

وأثبت القرآن أن الإيمان من أعمال النفوس الإنسانية، قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

ولما كانت الغاية من خلق الإنسان في هذه الحياة الدنيا امتحانه، وكانت أعماله فيها مظهراً لما تكسبه نفسه، وكان عدل الله يقضي بتوفيته جزاءه، كان لا بد من وجود آخرة توفى فيها كل نفس ما كسبت، قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

ونظيرها قول الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

لذلك كانت العقوبات المعجلة التي تنزل بالإنسان، إنما تنزل به بسبب من نفسه، أي: بما كسبت نفسه من ذنوب، قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ . . . ﴿٧٩﴾ ﴾.

ونظيرها قول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾.

فالنفس العاقلة هي التي تحسب حساب المستقبل فتنظر ماذا قدمت له، وتجتهد في تقديم الأعمال الصالحة، حتى تنال الأجر العظيم عند الله، قال الله تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

وأثبت القرآن أن كل نفس تكون يوم القيامة رهينة بما كسبت، حتى تحاسب ويقرر مصيرها، إلاّ أصحاب اليمين، فهم في جنّات يتساءلون عن المجرمين، يقولون لهم: ما سلككم في سقر؟ قال الله تعالى في سورة (المدثر ٧٤):

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ؟ ﴿٤٢﴾ ﴾.

وطبيعي أن تجد يوم القيامة كل نفس ما عملت من خيرٍ أو شرٍ محضراً مسجلاً، لأنّ ذلك هو المستند لمحاسبتها، قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

وهنالك تُظهر كلّ نفس ما أسلفت من عمل في الحياة الدنيا، قال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

فالنفس الظالمة حين تجد هول عقابها، تتمنى لو أنها تملك ما تفتدي به، لافتدت به، ولو كان ما في الأرض جميعاً، قال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

وتحقيقاً لقواعد العدل الربّانية تعطى يوم القيامة كل نفس حقّ الدفاع عما كسبت، قال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

ولمّا كان لدى كلّ نفس في فطرتها القدرة على تقويم أعمالها، ومحاسبة نفسها، نظراً إلى أنها بصيرة بحقيقة ما عملت، فإنها تعطى كتاب عملها، لتقرأه، وتحاسب نفسها محاسبة ذاتية، قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾.

ألزمناه طائره: ألزمناه عمله الإرادي الذي يصدر عنه.

وتسجيل أعمال النفس في الحياة الدنيا يقتضي أن تكون موضوعة موضع المراقبة الدائمة، قال الله تعالى في سورة (ق ٥٠):

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

أي: ملك يسوق إلى المحشر، وملك يشهد بالأعمال التي كان قد سجّلها في الحياة الدنيا على النفس.

(و) والنفس ذات إرادة حرة:

ودلّت النصوص القرآنية على أنّ النفس الإنسانية ذات إرادة حرّة، تختار بها طريق هدايتها أو طريق ضلالتها، فهي غير مجبرة، نفهم هذا من قول الله تعالى في سورة (السجدة ٣٢):

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

أي: لو شئنا أن نجعل النفوس من الجنّ والإنس مجبرة غير مخيرة، لآتينا كلّ نفس هداها، ولكنّ المشيئة قرّرت التخيير، ويلزم من التخيير أن تختار بعض

النفوس طريق هداها، وتختار الأخرى طريق ضلالها، وعندئذ تقضي الحكمة بالتفريق في الجزاء، ففريق في الجنة وفريق في السعير.

(ز) **والنفس الإنسانية ذات أطراف ثلاثة أعلى وأسفل وأوسط:**

* **فالطرف الأسفل** من النفس يوسوس ويسوّل بالسوء وممارسة ما فيه شرّ وضرّ وإثم، طلباً للمتع واللذّات العاجلة، فهو أمّار بالسوء، دلّ على هذا الطرف الشيطاني من النفس ووساوسه وتسويلاته وكونه أمّاراً بالسوء، عدّة نصوص قرآنية، منها ما يلي:

١ ــ قول الله تعالى في سورة (ق ٥٠):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾.

٢ ــ وقول الله تعالى حكاية عن السامري في سورة (طه ٢٠):

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾﴾.

٣ ــ وقول الله تعالى حكاية لقول يعقوب عليه السلام لبنيه في سورة (يوسف ١٢):

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

٤ ــ والقاتل من ابني آدم لأخيه قد طوّعت له نفسه بوساوسها وأوامرها الملحة قتل أخيه فقتله، قال الله تعالى في شأنه في سورة (المائدة ٥):

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

٥ ــ وقال يوسف عليه السلام متحدّثاً عن نفسه، حول قصته مع امرأة العزيز كما جاء في سورة (يوسف ١٢):

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ ﴾

وقد قص الله علينا ذلك من غير تعليق فدلّ على إقراره.

* **والطرف الأعلى** من النفس يأمر بفعل الخير، وينهى عن فعل الشرّ، فإذا استجابت له مراكز الإرادة المنفذة في الطرف الأوسط من النفس، اطمأنّ وسكن، وذاق حلاوة فعل الخير وترك الشرّ، وإذا لم تستجب له مراكز الإرادة المنفذة، مسّه القلق والاضطراب، وشعر بوخزات الإثم، والخوف من العقاب، وبدأ يوجّه الملام، فهو في هذه الحالة الطرف اللوّام. وقد دلّ على هذا الطرف الربّاني من النفس، عدّة نصوص من القرآن والسنة، منها ما يلي:

١ ـــ قول الله تعالى في سورة (القيامة ٧٥):

﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ ﴾.

فالنفس اللوامة هي التي توجّه اللوم الداخلي على فعل الإثم، ولا تكون لوامة ما لم تكن من قبل ناصحة، آمرة بالخير ناهية عن الشر، وهذا الجانب من النفس هو ما قد يسمى بالضمير.

٢ ـــ وقول الله تعالى في سورة (الفجر ٨٩):

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾.

فالنفس المطمئنة هي التي توجّه النصح لفعل الصالحات، وتأمر بالخير، وتنهى عن الشرّ، فتستجيب مراكز الإرادة لها، فتطمئن للنتيجة، ولا يمسّها الخوف والقلق من سوء المصير، وظاهر أنّ هذا هو ما يسند إلى الضمير من الراحة لدى فعل الخير وترك الشر.

٣ ـــ وهذا الجانب الرباني من النفس هو الذي يذوق طعم الإيمان،

روى مسلم عن العباس بن عبدالمطلب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً».

٤ ـ وجاء في الحديث إثبات الواعظ الربّاني الذي يعظ بالخير في قلب كلّ مسلم، وطبيعي أنّ هذا الواعظ يقع في هذا الطرف الأعلى من النفس.

* **وأما الطرف الأوسط** فهو الطرف المنفذ الذي تقع فيه الإرادة الحرّة، وهو طرف يتجاذبه الطرفان الأعلى والأسفل.

وإذ ثبت لدينا وجود الطرفين الأعلى والأدنى لزم منطقياً وجود الطرف التنفيذي الأوسط، لأن وظيفة الطرفين المتناقضين لا تتعدى الدعوة والطلب، ودلّ على هذا الطرف ما أثبت الإرادة الحرّة المختارة للنفس، كقول الله تعالى في سورة (السجدة **٣٢**):

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا . . . ﴿١٣﴾ ﴾.

وقد سبق بيان وجه الاستدلال به.

وقول الله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴿٢٩﴾ ﴾.

والإنسان يملك باستجابته للطرف الربّاني تزكية نفسه، ويملك باستجابته للطرف الشيطاني تدنيس نفسه وتدسيتها، والمفلح هو من زكاها، والخائب هو من دسّاها، قال الله تعالى في سورة (الشمس **٩١**):

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾.

زكّاها: أي طهّرها ورفعها عن مواطن الرجس ونمّاها.

دسّاها: أي غَمَسها بأرجاس الكفر والفسوق والعصيان.

والخــلاصــة:

إنّ الله تبارك وتعالى قد منح الإنسان الإرادة الحرّة، ليضعه موضع الامتحان، وهذه الإرادة الواعية لديه واقعة بين دوافع علوية ودوافع سفلية.

فإذا استجابت إرادته لتلبية الدوافع السفلية فقد اختارت الشرّ بما لديها من حريّة اختيار، وإذا استجابت لتلبية الدوافع العلوية فقد اختارت الخير بما لديها من حريّة اختيار.

ودوافع الخير تعتمد على الإيمان بالغيب، وهو قضية فكرية ووجدانية، ودوافع الشرّ تعتمد على منطق الحس ولذّات الجسد، وهذه حيوانية بهَميّة.

ولكن أكثر الناس تستجيب إراداتهم للجانب الحيواني فيهم، فينزلون بأنفسهم إلى أسفل سافلين، فيكونون كالأنعام بل أضلّ سبيلاً، وبذلك يقتلون في ذواتهم العنصر التكريمي الذي كرّمهم الله به، وفضلهم به على كثير ممن خلق، وهو العنصر الفكري والوجداني الذي يدفعهم إلى الإيمان بالغيب، والارتقاء إلى الكمال الإنساني. وهذا مسخٌ يفعلونه في أنفسهم بإراداتهم إذ ينزلون بها إلى مستوى الأنعام أو أضلّ، والمسؤول عن ذلك إراداتهم الحرّة.

فإرادات الناس الحرة الواعية للخير والشرّ هي مناط الامتحان، وأساس الفطرة الإنسانية أكثر ميلاً إلى الحقّ والخير والفضيلة، ولذّات الجسد ليست كلّها شراً، بل المقدار النافع المنضبط منها هو من الخير لا من الشر، والشر منحصر فيما فيه ظلم أو عدوان أو ضرر أو تجاوز لحدود الله.

ومع ذلك فإننا نلاحظ أنّ أكثر الناس يستخدمون إراداتهم الحرّة في اختيار المتاع الجسدي الذي ينزل بهم إلى أسفل سافلين، فيجعلون ما فضّلهم الله به سبباً في انحطاطهم ونزول مكانتهم، إذ يسيئون الاختيار.

(ح) منابع الخير والشر من النفس:

من كلّ ما سبق يتبين لنا أن منابع الخير والشر لدى الإنسان موجودة في زوايا نفسه، فسلوكه الظاهر وأعماله المختلفة ثمرة ونتيجة لحركات نفسه واندفاعاتها واتجاهاتها الجازمة.

ولمّا كان الجزاء الربّاني المعجل في الحياة الدنيا منوطاً بأعمال الناس، وأعمالهم نتيجة ما في نفوسهم، كان من الطبيعي المنطقي أن لا يغيّر الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وهذا ما بينه القرآن، فقال الله تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾.

ويعرف الشيطان هذه الحقيقة، فيقول يوم القيامة للذين استجابوا لوساوسه وتسويلاته في الحياة الدنيا: لا تلوموني ولوموا أنفسكم.

قال الله تعالى في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

* * *

الفَصْل الثَالِث

في الصّدْر

أطلق الصدر في القرآن وأُسندت إليه جملة من الصفات والأعمال، مع ملاحظة أنّ الصدر بالإطلاق العام يشمل دائرة القلب كما سبق، لأنّ القلب جزء منه، كما قد يراد منه المستوى الذي يقع وراء دائرة القلب.

ولدى تتبع الدلالات القرآنية لمعرفة خصائص الصدر النفسية نلاحظ ما يلي:

* **أولاً**: الصدر يحصل فيه الانشراح، أو الحرج والضيق والْحَصَر.

دلّ على ذلك عدّة نصوص قرآنية منها النصوص التالية:

(أ) قول الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم في سورة (الانشراح ٩٤):

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾.

(ب) وقول موسى عليه السلام حين كلّفه الله أن يذهب إلى فرعون فيدعوه للإيمان، كما حكى الله عنه في سورة (طه ٢٠):

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ ﴾.

وكما حكى عنه في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣ ﴾.

(ج) وحين يفكر الإنسان أن يستمسك بمبدأ، أو يقوم بعمل، فقد ينشرح صدره إليه، وقد لا ينشرح، من ذلك انشراح الصدر للإسلام، أو ضيقه وحرجه، قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٢٥ ﴾.

فالذين لا يؤمنون ويرفضون قبول الحقّ الربّاني بعد وضوح أدلته وبراهينه، يجعل الله على صدورهم رجساً تضيق به صدورهم وتكون في حرج، فلا يستجيبون لدعوة الإسلام، ولا يستسلمون لتنفيذ شرائعه وأحكامه. والذين يؤمنون بالله وتطمئن قلوبهم للحقّ الربّاني يشرح الله صدورهم للإسلام، فيعلنون إسلامهم لله واستسلامهم لتنفيذ شرائعه وأحكامه.

وقال الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٢٢ ﴾.

فالذين تلين قلوبهم حين يذكّرون بالله، فيؤمنون به، يشرح الله صدورهم للإسلام، فهم بذلك على نور من ربهم.

والذين قست قلوبهم مع تذكيرهم بالله فلم يؤمنوا، لا يشرح الله صدورهم للإسلام، وهؤلاء ويلٌ لهم لأنّهم قست قلوبهم، وسيحيق بهم سوء المصير.

ومن ذلك انشراح الصدر بالكفر، قال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

(د) وفي شأن الكافرين الذين تضيق صدورهم عن مقاتلة المسلمين، قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَـٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَـٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَـٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ ﴾.

حَصِرَت صدورهم: ضاقت ولم تَنْشرح لقتالكم.

(هـ) وأنزل الله على رسوله القرآن، وفيه تكليف بحمل رسالة عظمى للناس أجمعين، ويتضمن آيات فيها مواجهة صريحة لباطل المشركين، وتسفيه لعقائدهم ولعقولهم، وهذه المواجهة تدفع المشركين إلى مقابلة الرسول بما يكره من تكذيب وشتيمة واتهامات ومن شأن هذه الأمور أن يضيق بها صدر الرسول صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله عليه قوله في سورة (الأعراف ٧):

﴿ كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾.

وقوله في سورة (هود ١١):

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

وقوله في سورة (الحجر ١٥):

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾.

* **ثانياً**: الصدر تحصل فيه مشاعر الرهبة.

دلّ على هذا قول الله تعالى عن المنافقين في سورة (الحشر ٥٩):

﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

* **ثالثاً**: الصدر تحصل فيه مشاعر الكبر.

ففي شأن الكافرين الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطانٍ أتاهم قال الله تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ۚ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾.

أي: ما في صدورهم أيّ شيءٍ إلّا الكبر الذي ملأ كل ساحاتها، وفي هذا تصوير بليغ لعظم رذيلة الكبر، الذي سيطر على كلّ مشاعرهم، حتى كأنّ صدورهم ليس فيها شيء آخر غير الكبر.

وهذا الكبر الذي يشعرون به شعوراً شخصياً، لم يكونوا ليبلغوا في الواقع تحقيق الوصف الذي قد يبرره، فما هم ببالغيه.

* **رابعاً**: الصدر يغتاظ، ويحمل الغلّ والبغضاء.

ففي شأن أهل الجنة قال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ . . . ﴿٤٣﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الحجر ١٥):

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

وفي شأن البغضاء التي تخفيها صدور المنافقين قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾.

* **خامساً**: من مشاعر الصدر مشاعر الإكبار والإعظام.

ففي شأن منكري البعث والحياة الأخرى بعد الموت قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ ﴾.

ينغضون إليك رؤوسهم: يحركونها استهزاء.

* **سادساً**: من حاجات النفس حاجات تتركز في الصدور.

ففي معرض امتنان الله علينا بالأنعام قال الله تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾

وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

وفي وصف الأنصار قال الله تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

«ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا»: قال الحسن: أي حسداً وحرارة وغيظاً مما أوتي المهاجرون من دونهم.

* **سابعاً**: وساوس الشياطين تصل إلى مشاعر الصدور.

قال الله تعالى في سورة (الناس ١١٤):

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾.

* **ثامناً**: منابع الأعمال الإرادية في الصدور، لذلك فهي التي يوجّه لها الامتحان الربّاني من وراء ظواهر السلوك، وما تَبثُّه الصدور وتنجزه من إرادات ونيّات هو الذي يُحصَّل للحساب والجزاء يوم الدين.

دلّ على أن الله يبتلي ما في صدور الناس قول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

ودلّ على تحصيل ما في الصدور يوم القيامة قول الله تعالى في سورة (العاديات ١٠١):

﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾[1].

فالكفر والإيمان من أعمال الصدور، والله عليم بحقيقة ما في الصدور من أعمال إرادية، وعليم بكل شيء فيها، قال الله تعالى في سورة (لقمان ٣١):

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾.

فجعل الله الكفر والشكر ـ وأول خطواته الإيمان ـ من أعمال الصدور، وأبان تبارك وتعالى أنه عليم بذات الصدور، أي: بصاحبة الصدور، وهي النفس الكاسبة لأعمالها، أو الأعمال والحركات التي تجري في الصدور، أو عليم بحقيقة الصدور، والعالم بذات الشيء يعلم ما يجري فيها وما يصدر عنها.

وقد ذكر الله أنه عليم بذات الصدور في (١٦) موضعاً من القرآن الكريم.

---

(١) لا يبعد أن يكون في الصدور جهاز تسجيل تُسجل فيه أعمال الإنسان الداخلية كلها، وما يسجل فيه يحصّل يوم الدين.

* **تاسعاً**: القرآن آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم، فهي تؤمن بأنه من عند الله، وينكشف لديها إعجازه، وقد تثبت فيها نصوصه حفظاً، فهذه ونظائرها من أعمال الصدور، قال الله تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

* **عاشراً**: توجد أمراض وآلام نفسية تتركّز مشاعرها في الصدور، كالحرج والضيق، والغلّ والحقد، والحسد والحسرة، والحزن والهمّ، والشك ونحو ذلك، لذلك كان القرآن شفاء لما في الصدور ولذلك كان نصر المؤمنين على عدوهم شفاءً لصدورهم.

ففي وصف القرآن وما جاء فيه، قال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

وفي حث المؤمنين على قتال الكافرين قال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾.

* * *

الفصل الرّابع

في القلب

علمنا أنّ القلب دائرة من دوائر النفس، وأنّ مجموعة من خصائصها ووظائفها وأمراضها تتركّز فيه.

ولدى البحث في الوظائف والخصائص والأمراض النفسية التي تتركّز في القلب أخذاً من الدلالات القرآنية يتضح ما يلي:

أولاً: تنتهي إلى القلب وتستقرّ فيه العلوم والمعارف الثابتة، والعقائد الراسخة، مقترنة بشحنةٍ من العواطف الملائمة لها.

ولذلك كان القلب مستقرّ الإيمان.

ولذلك أيضاً كانت تنزّلات الوحي والإلهامات والمعارف الربّانية تصل إليه وتستقرّ فيه، والقوي منها يحتلّ مركز الفؤاد.

ولمّا كانت دائرة القلب تقع حول مركز دائرة النفس، أي: في المستوى الضيّق من أعماقها، كانت المؤثرات القوية في النفس تصل إلى أعماقها، فتحتل دائرة القلب، وأما المؤثـرات الضعيفة فتبقى في أطـراف النفس، والمؤثرات الوسطى قد تصل إلى دائرة الصدر، أما المؤثرات الخفيفة جداً فتبقى على هامش النفس.

ولا يشترط فيما يصل إلى دائرة القلب ويحتلها، أن يكون دائماً صحيحاً سليماً وحقّاً لا شبهة فيه، بل قد يصل إليه ما هو في حقيقة أمره فاسد مريض، أو باطل مردود، وذلك لأن القلب قد يتأثر بما يزيّن له من أفكار وحجج وعواطف، فيفتح بابه لاستقبال ما زيّن له.

وقد تفرض المنطقية العقلية حقيقة من الحقائق، فيفتح القلب لها بابه، ويدخلها إلى ساحة دائرته، ويؤمن بها، ولكن يظل غيرَ مطمئن إليها كلّ الاطمئنان، فإذا تأكّدت المنطقية العقلية بمشاهدة حسيّة، اطمأن القلب إليها تماماً، وسمح لها أن تحتل مركز فؤاده.

ويتعرض القلب للشك والارتياب إذا لم تتضح له الحقيقة تماماً، وقد يكون ذلك بسبب خلل في بصيرته، ناتج عن حالة مرضية غير فطرية.

وقد يتعرض القلب للزيغ عن الحقّ، بمؤثرات مَرَضيّة تأتيه من دوائر النفس الأخرى، كالهوى، والشهوة، والجبن، والبخل، وحبّ العاجلة، وغير ذلك، فالقلب بذلك يكون مريضاً.

وعندئذٍ تتعرّض بصيرته الإدراكية إلى حجب رقيقة أو كثيفة، ويزداد الأمر سوءاً حتى تكون بصيرته في حجب كالأكنة هي فيها سجينة، وتتكاثر الذنوب والمعاصي، حتى تغلب على القلب وتجلله كلّه، وتغلّفه بما يشبه الصدأ، وذلك هو الرين، قال الله عزّ وجلّ في سورة (المطففين ٨٣):

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

وقد يغدو القلب كالبيت المقفل، فهو لا ينفتح لواردات الخير والهداية إلّا بمفاتيح.

وقد يشتد الأمر حتى تختم الأقفال ويطبع عليها، وقد تعمى البصيرة عمىً تاماً.

وقد يفقد القلب روح الخير فيه فيغدو قاسياً متصلّباً حجريّاً ميتاً، وحين يصل إلى هذا المستوى يكون إصلاحه وإحياؤه شبه المتعذر، ويكون بمثابة الأصم الأعمى الميت المقبور، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (النمل ٢٧):

﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

هذه مفاهيم دلت عليها نصوص قرآنية كثيرة، منها النصوص التالية:

١ ــ علوم الوحي ومعارفه والنصوص التي ينزل بها لما كانت يقيناً

لا شبهة فيه، كانت مخترقة دوائر نفس الرسول صلى الله عليه وسلم وواصلة إلى داخل دائرة قلبه، أعمق دائرة في كيانه النفسي.

قال الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم في سورة (البقرة ٢):

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

فجبريل عليه السلام قد نزّل القرآن بإذن الله على قلب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، مخترقاً به دوائر نفسه وساحاتها إلى مستوى دائرة قلبه.

وقال الله تعالى لرسوله في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾.

٢ ـــ والقلب هو مستقر الإيمان، والإيمان هو اعتراف داخلي إراديٌّ بفكرة من الأفكار، وتسليم بها، واستمساك بما اشتملت عليه، وتوجيه للعواطف الملائمة لها في اتجاهها.

قال الله تعالى في سورة (المجادلة ٥٨):

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

فالذين لا يوادّون من حادّ الله قد كتب الله في قلوبهم الإيمان، إذ علم سبحانه أنّ قلوبهم صادقة الإيمان.

وفي الأعراب الذين أعلنوا إسلامهم ولمّا يدخل الإيمان في دائرة قلوبهم، قال الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

فدل هذا على أن الإيمان الصادق مستقره القلب، فإذا لم يصل إلى دائرة القلب لم يكن إيماناً.

ومن يؤمن بالله حقاً يحكم الله له بهداية قلبه، لأنّ قلبه قد اهتدى للإيمان، قال الله تعالى في سورة (التغابن ٦٤):

﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾.

وفي المنافقين الذين قالوا آمنا بأفواههم ولكن قلوبهم لم تؤمن؛ قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ... ﴿٤١﴾ ﴾.

٣ ــ وفكرة النفاق ودوافعه حينما تتأصل تصل إلى دائرة القلب، فتدخل فيه.

ففي شأن بعض المنافقين قال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

٤ ــ وكل فكرة تجزم بها النفس، وتعتقدها، تصلُ إلى دائرة القلب،

فتدخل فيه، وإن كتمها صاحبها، أو ادّعى خلافها.

لذلك كان كاتم الشهادة مرتكب إثم قلبي، إذ يعلم حقيقةً يجب عليه أن يشهد بها، ثم يكتمها صاحبَها، أو من يقيم بها الحقّ قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾.

فدلّ هذا أن معرفة ما تجب الشهادة به قد وصلت إلى داخل دائرة القلب، ودل أيضاً على أن كتم الشهادة عمل سلبي يؤاخذ الإنسان عليه، ودلّ على أنّ الإثم إثم عميق من مستوى القلب.

ولذلك كان الذي يقول خلاف ما يعلم، إنما يقول بفيه ما ليس في قلبه.

ففي شأن المخلّفين من الأعراب عن الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى في سورة (الفتح ٤٨):

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ . . . ﴿١١﴾ ﴾.

فهم يقولون بألسنتهم خلاف ما يعلمون من أنفسهم في قلوبهم.

وفي اعتذار المنافقين حينما انخذلوا عن الرسول وأصحابه في غزوة أحد، قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾.

فهم يعلمون من أنفسهم علماً يقينياً خلاف ما قالوه بأفواههم، ولكنهم

يكتمونه، ويُقدّمون بألسنتهم أعذاراً كاذبة، ولمّا كان هذا العلم ثابتاً كان مركزه دائرة القلب.

وقد يبلغ إنكار فكرة من الأفكار مبلغ الجزم، فيصل حينئذٍ عمق الإنكار إلى دائرة القلب، فيكون القلب هو المنكر، من ذلك إنكار الكافرين الذين لا يؤمنون بالآخرة، قال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

فدلّ هذا على أنّ الكفر متى كان إنكاراً حقيقياً، كان مستقرّه القلب، لأنه يدخل في عمق النفس حتى يصل إلى دائرة القلب، شأنه في هذا كشأن الإيمان.

فالإيمان والكفر ليسا إدراكاً ذهنياً مجرداً، بل كلٌّ مِنْهما عقيدة تتغلغل في أعماق النفس، حتى تنفذ إلى داخل دائرة القلب، وكلٌّ منهما عملٌ إراديٌّ قلبـي.

٥ ــ ويتأثر القلب فيما يعتقده ويجزم به من أفكار، بما يُزَيّنُ له من حجج ولو كانت باطلة، وبما يُزيّنُ له من عواطف ولو كانت فاسدة، وبأن تأتيه الأفكار نفسها مزيَّنَة، تتملّق القلب وتتودّد إليه.

وحين تقترن الحجج القاطعة والبراهين الساطعة بما يُزَيّنها في النفوس، أو تأتي الأفكار نفسها مزينة، تكون أسرع نفاذاً في دوائر النفس حتى تستقر داخل دائرة القلب.

وهنا يطلب من دعاة الحقّ أن يُزَيّنوا حقهم، ولا يجد دعاة الباطل طريقاً للتأثير بباطلهم إلا بأن يزينوه ويحسّنوه في نفوس من يدعونهم إليه.

ولذلك حبّب الله الإيمان للمؤمنين، وزيّنه في قلوبهم، ليكون نفاذه إلى داخل دائرة القلب أسرع، قال الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ

فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾.

ولذلك أيضاً يسرع دعاة الباطل وبغاة الشرّ في تزيين باطلهم، وتزيين طرق الشر التي يدعون إليها، ليؤثروا بذلك على قلوب من يدعونهم.

وأدلة تزيين الباطل والشر من قبل شياطين الإنس والجنّ كثيرة في القرآن، أما تزيين شيء من ذلك في القلوب، فقد دلّ عليه بصراحة قول الله تعالى في سورة (الفتح ٤٨):

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾.

بوراً: أي هلكى.

٦ ـــ وتكون حالة القلب فيما يعتقده ويؤمن به على مستويين:

الأول: مستوى المؤمن غير المطمئن.

الثاني: وهو الأعمق، مستوى المؤمن المطمئنّ.

دلّ على ذلك نصوص متعدّدة، منها ما أجاب به إبراهيم عليه السلام ربّه، فيما حكاه الله بقوله في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ . . . ﴿٢٦٠﴾ ﴾.

وفي شأن المكره على إعلان الكفر قال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

وقد تحصل الطمأنينة عقب الإيمان دون حاجة إلى فاصل زمني، إذ تكون أدلة الإيمان قد بلغت من قلوب الذين أوتوا العلم مبلغ التأثير في العمق منذ مراحلها الأولى، قال الله تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

فتخبت: أي فتطمئن وتخضع، وقد عطف على «فيؤمنوا به» بالفاء الدالة على التعقيب.

٧ ــ وفي بيان تعرض القلوب للارتياب والشكّ، قال الله تعالى لرسوله في سورة (التوبة ٩):

﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

٨ ــ وفي تعرّض القلوب للزيغ عن الحقّ والهدى، قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾.

الزيغ: هو الميل. فالزيغ عن الحق هو الميل عنه، والزيغ عن الصراط المستقيم هو الميل عنه إلى المتاهات والضلالات.

وفي شأن من زاغ عن الحقّ من قوم موسى عليه السلام، وفي حكاية مقالته لهم، قال الله تعالى في سورة (الصف ٦١):

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾.

أي: لمّا زاغت قلوبهم عن الحقّ أزاغها الله، فحكم عليها بما جرى فيها، والله لا يهدي القوم الفاسقين، فلا يحكم لهم بالهداية وهم فاسقون، وهذا هو مقتضى الحقّ والعدل.

وفي شأن فريق من المؤمنين كادت قلوبهم تزيغ في ساعة العسرة حين دعوا إلى غزوة تبوك، قال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾.

٩ ــ وفي تعرّض القلوب لمستويات ضعف البصيرة إلى عماها وانطماسها انْطماساً كلياً، إلى أن تكون القلوب في مثل الأكنّة، إلى أن يقفل

عليها، إلى أن يختم على الأقفال ويُطبع عليها، إلى أن تكون بحكم الميتة الدفينة، وردت نصوص متعدّدة من القرآن الكريم:

(أ) ففي إصابة بصيرة القلب بالعشَى، قال الله تعالى في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾.

فالعشى هذا عشى البصيرة، لأنّ الذكر الحقيقي للرحمن هو ذكر القلب، قال الله تعالى لرسوله في سورة (الكهف ١٨):

﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

(ب) وفي إصابة بصيرة القلب بالعمى، حتى تكون منطمسة عن رؤية دلائل الحقّ والهدى، قال الله تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

أي: ليس العمى المؤثر الجالب لشقاء الإنسان هو عمى الأبصار، ولكنه عمى البصائر في القلوب التي في الصدور، في مركز العمق من نفس الإنسان.

(ج) وفي تحوّل مشاعر القلوب عن الإحساس بأيّ مؤثر من مؤثرات الهداية ودعوات الحقّ والخير، قال الله تعالى في شأن طائفة من المنافقين في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

والفقه بالحقائق الربّانية والمعارف الدينية من خصائص القلوب.

(د) وفي عزل القلوب عن الإحساس بأي مؤثر من مؤثرات الهداية

ودعوات الحقّ والخير، فيما يشبه الأكنة ــ والأكنة هي الأغطية، مفردها كنان ــ قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

وجاء نظير ذلك في الآية (٢٥) من سورة (الأنعام ٦).

وفي آذانهم وقراً: أي صمماً.

وقال الله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

وذكر الذين كفروا برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم أن قلوبهم في أكنة، حكى الله ذلك عنهم بقوله في سورة (فصلت ٤١):

﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

(هـ) وتزيد الأغطية إلى أن تغلف بها القلوب تغليفاً كاملاً، حتى لا تكون مستعدة لكشف أغطيتها عنها، وهذا ما ذكره اليهود عن قلوبهم، وأبانوا فيه عدم استعدادهم لقبول أية دعوة يأتيهم بها رسول من عند الله؛ فهم بزعمهم أهل الكتاب الأول، وقد امتلأت قلوبهم بالمعارف الدينية التي أنزلت من قبل عليهم.

وفي شأنهم قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾.

وهذا هو الرين الذي يجلل القلوب بما تكسبه من الذنوب الكثيرة، قال الله تعالى في سورة (المطففين ٨٣):

﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

(و) وفي الإقفال على القلوب بعد عزلها عن الإحساس بمؤثرات الهداية ودعوات الحق والخير، قال الله تعالى في شأن المنافقين الذين في قلوبهم مرض في سورة (محمد ٤٧):

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾.

أي: أم حُبست قلوبهم عن الإحساس بالخير، وضربت الأقفال على أبواب سجونها.

(ز) وفي الختم على القلوب والطبع عليها إمعاناً في تثبيت العزل التام عن الإحساس بمؤثرات الهداية ودعوات الحق والخير، بعد حبسها في سجون الأهواء والشهوات والأمراض الخلقية، وردت عدة نصوص قرآنية.

منها قول الله تعالى في شأن من اتخذ إلهه هواه في سورة (الجاثية ٤٥):

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

وفي الكافرين الذين وصلوا إلى حالة استوى فيها أن يُنذروا بعذاب الله أو لا يُنذروا، قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾.

وأبان الله أن من سنته أن يطبع على قلوب الكافرين، وقلوب المعتدين، وقلوب الذين لا يعلمون، فقال تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

وفي سياق الحديث عن نوح عليه السلام قال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

وفيمن كفر برسالة محمد صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

وبالطبع على القلب الذي يتسبب به الإنسان نفسه، ويحل فيه ضمن سنن الله الثابتة في كونه، يحجب الإنسان عن علم ما ينفعه في آخرته، وعن فقه ما يوعظ به ويرشد إليه، ويغفل غفلة تامة عن نذر الخطر التي تتكاثر من حوله، حتى لا يسمع أقوال المنذرين.

ففي بيان حجب المطبوع على قلبه عن علم ما ينفعه في آخرته، قال الله تعالى في شأن المنافقين في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

وفي بيان حجب المطبوع على قلبه، عن فقه ما يوعظ به ويرشد إليه من أمور آخرته ومعارف دينه، قال الله في شأن المنافقين في سورة (التوبة ٩):

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في شأنهم أيضاً في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

وفي بيان غفلة المطبوع على قلبه، قال الله تعالى في شأن من كفر بعد إيمانه في سورة (النحل ١٦):

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

وفي بيان حجب المطبوع على قلبه عن سماع أقوال المنذرين، قال الله تعالى في شأن الكافرين، في سورة (الأعراف ٧):

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

وقد تصل القلوب بعد الختم والطبع عليها إلى حالة تشبه فيها الميت الدفين في الحنت الذي يتخذ للموتى.

ثانياً: وتصدر عن القلب الإرادات الموجهة للسلوك، من مستوياتها المختلفة حتى مستوى العزم.

وبالإرادة الجازمة الواعية، يعقل القلب مراكز النفس الأخرى عن نزغاتها واندفاعاتها الجانحة مهما كانت جامحة، والعقل هو التقييد والمنع بحسب المصلحة التي يراها العاقل.

وتصدر عن القلب النيات والمقاصد من الأعمال، وقد تكون النيات والمقاصد موافقة لظواهر السلوك، وقد لا تكون، وحقيقة المحاسبة عند الله تكون على ما في القلب من نيات ومقاصد من وراء الأعمال.

فالكسب الحقيقي للإنسان مصدره دائرة قلبه، ومن الواضح إذن أن يكون الامتحان الرباني موجهاً لقلبه، ولما يكسبه قلبه.

دل على هذه المفاهيم نصوص متعددة من القرآن الكريم وبيانات الرسول صلوات الله عليه:

(أ) يقول الله تعالى في سورة (الأحزاب **٣٣**):

﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾.

فربط الله في هذه الآية مسؤولية الإنسان عن سلوكه بما تعمده قلبه، فدل على أن الإرادة الموجهة للسلوك الذي لا يكون على سبيل الخطأ تصدر عن القلب.

وبهذا تكون النصوص المتعلقة بالإرادة موجهة لدائرة القلب.

(ب) وقبل هذه الآية قال الله تعالى في سورة (الأحزاب **٣٣**):

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ . . . ﴿٤﴾ ﴾.

جاء هذا بعد أن أمر الله النبـي ﷺ بأن يتقي الله ولا يطيع الكافرين والمنافقين، ولدى تحليل الترابط يتبين لنا ما يلي:

إن تقوى الله تستلزم طاعته، وطاعة الله تتناقض مع طاعة الكافرين والمنافقين لتناقض الاتجاهين، ولما كان موجه الطاعة هو الإرادة، وإرادة طاعة الله تناقض إرادة طاعة الكافرين والمنافقين، ولّما كانت إرادات الإنسان مصدرها قلبه، والشيء الواحد لا يمكن أن يتناقض مع نفسه في حركتين متناقضتين، ولّما كان الإنسان لا يملك غير قلب واحد في جوفه، كانت طاعة الكافرين والمنافقين تعني عدم طاعة الله، وكانت طاعة الله تعني عدم طاعة الكافرين والمنافقين، وخلاف هذا تناقض مرفوض عقلاً وواقعاً.

واكتفى النص القرآني عن هذا التحليل المنطقي الطويل عن حالةٍ للنفس الإنسانية بقول الله تعالى: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾ أي: حتى يتمكن أن يكون له إرادتان متناقضتان إحداهما تتجه لطاعة الله، والأخرى تتجه لطاعة الكافرين والمنافقين.

فاستند الإقناع القرآني هنا إلى المبدأ العلمي المنطقي الذي يحكم بأن اجتماع النقيضين مستحيل، فمتى وجد أحد النقيضين انتفى الآخر عند اتحاد الزمان والمكان، وبشرط عدم انفكاك الجهة، كما هو مقرر عند المناطقة(١).

(ج) وقال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾.

فرفع الله في هذه الآية المؤاخذة عن اللغو في الأَيْمان، وهي الأَيْمان التي تنطلق من الألسنة دون قصد الحلف بالله، والمؤثر في انطلاقها عادة اللسان، والرغبة بملء الفراغ الزمني بكلام غير مقصود وغير مردود، ريثما تستقيم في الذهن الفكرة المقصودة للتعبير عنها، وكأن الإنسان يحرص على أن لا يظهر العيّ في لسانه، فيحشو كلامه بجمل اعتاد أن يقولها من غير تفكير، حتى تتضح في ذهنه الجمل التي يريد أن يقولها.

(١) انظر بحث التناقض في كتاب «ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة» للمؤلف.

ثم علّقت الآية المسؤولية بما كسبت القلوب من أيمان، أي: بالأيمان التي أريد بها القسم فعلاً، وأوضحت أن هذه الإرادة من كسب القلوب، فثبت أن الإرادات الموجهة للسلوك مصدرها القلب.

(د) ولمّا كانت إرادة الإنسان الواعية، هي التي تعقل الإنسان عن اتباع أهوائه وشهواته ونزغاته التي تميل به عن صراط الحق والخير، وكانت هذه الإرادة تصدر عن دائرة القلب، قال الله تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

فجعل الله العقل من خصائص القلب، لأن المراد من العقل الإرادة العاملة القادرة على كبح جماح الأهواء والشهوات، وعقلها وحجزها في دائرة الحق والخير.

وليس المراد هنا من العقل كما يظهر ــ والله أعلم ــ التفكير الذهني الموصل إلى المعرفة، فهذا له مركز آخر، وكم من عالم عارف بالحقيقة، إلا أنه لا عقل له، لأنه لا يستطيع أن يسيطر على أهوائه وشهواته ويعقلها عن جنوحها وجموحها، فيدفع بنفسه إلى العواقب الوخيمة، ويقذف بنفسه إلى المهالك، فيكون علمه هو والجهل سواء، إذ فقد الإرادة العاقلة الحازمة.

لذلك وصف الله الكافرين بأنهم لا يعقلون، مع أن لهم ذكاءً علمياً يساوي أو قد يزيد على الذكاء العلمي الذي يملكه بعض المؤمنين الذين يعقلون.

وبهذا يتضح لنا الفرق بين الذكاء، والمعرفة التي تكتسب به، وبين العقل الذي يعقل النفس عن الانحراف، ويعقل السلوك عن الجنوح، مستنداً في أمره إلى ما قدمت له المعرفة من نتائج، فرب ذي ذكاء محدود هو كثير العقل، ورب ذي علم قليل هو كثير العقل، لأنه قوي الإرادة قادر على ضبط نفسه ورب

ذي ذكاء حاد وعلم واسع هو قليل العقل، لأنه ضعيف الإرادة، عاجز عن ضبط نفسه، وحجزها عن أهوائها وشهواتها، التي تجره إلى تهلكته وشقائه وآلامه الكثيرة.

وهذا هو أحد معنيي العقل، والمعنى الآخر هو العقل العلمي النافع في العقل الإرادي.

(هـ) وأم موسى بعد أن وصل ابنها موسى إلى مأمنه في بيت آل فرعون، وأصبح فؤادها فارغاً من الهم والحزن، وكادت تبدي بأن الطفل الذي التقطه آل فرعون هو ولدها من شدة فرحها، ربط الله على قلبها، فقوى إرادتها، فكتمت أمرها، قال الله تعالى في سورة (القصص ٢٨):

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٠ ﴾.

فدل هذا على أن الإرادة تصدر عن القلب، إذ قويت إرادة أم موسى على ضبط نفسها، بالمعونة الربانية التي ربط الله بها على قلبها، لتكون من المؤمنين حقاً. والربط على القلب كناية عن تثبيته بما يجعل فيه الأمن والطمأنينة.

(و) والفتية المؤمنون الذين أووا إلى الكهف، واعتزلوا قومهم المشركين، قد ثبتهم الله وقوى إراداتهم، فربط على قلوبهم، وألهمهم الصبر، وفيهم قال الله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ۝١٣ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ۝١٤ ﴾.

(ز) ولمّا كانت الشجاعة في القتال من قوة الإرادة، كان الربط على قلوب المؤمنين في غزوة بدر مقوياً لإراداتهم، وممداً لهم بالشجاعة القتالية الكافية، والطمأنينة والأمن، وفي بيان ذلك خاطبهم الله بقوله في سورة (الأنفال ٨):

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾.

وحين تقوى الإرادة جداً تصل إلى مستوى العزم، وسيأتي إن شاء الله بيان ذلك وتفصيله في الفصل الخاص بقوة الإرادة، الفصل الثالث من الباب الرابع من الكتاب.

(ح) ولمّا كانت دائرة القلب مصدر الإرادة الموجهة لسلوك الإنسان، كان ما في القلب هو المقصود بالامتحان، وفي ذلك يقول الله تعالى للمؤمنين بمناسبة ما جرى في غزوة أحد، وتعليقات المنافقين عليه، في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

فابتلاء ما في الصدور هو امتحان الكسب الذي تكسبه القلوب بالإرادات التي تصدر عنها، وتمحيص ما في القلوب هو تخليصها وتنقيتها من نزغات الإثم والخطيئة وعوامل ضعف الإرادة، بما تمر فيه من امتحانات وتجارب قاسيات، ومن أشدها مصائب الحرب، ونكبات المعارك القتالية، فالتمحيص من ألوان التربية الربانية للنفوس البشرية إلى أعمق دوائرها، وهي دائرة القلب.

وقال الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴿٣﴾ ﴾.

وامتحان القلوب هو امتحان كسبها الإرادي، لبيان مقدار ما فيها من تقوى.

ثالثاً: ولما كان القلب منبع الإرادات في الإنسان، وكان مقر الإيمان أو الكفر، كان هو الدائرة الحقيقية لتقوى الله، وخشيته، والخشوع له، وذكره ومراقبته، وكان هو الدائرة الحقيقية لما يخالف كل ذلك.

دل على هذه الحقائق عدة نصوص، منها ما يلي:

(أ) قول الله تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾.

المراد من شعائر الله هنا الْبُدْن التي يسوقها الحجاج هدياً بالغ الكعبة، والمراد من تعظيمها اختيار أعظمها وأجودها، وهذا الجود في سبيل الله سلوك ظاهر ناتج عن تقوى القلوب.

فمن يعظم شعائر الله غير مراءٍ بعبادته، فإن عبادته هذه من التقوى التي يمارسها قلبه.

(ب) قول الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾.

فالذين امتثلوا، فغضوا عند رسول الله أصواتهم، قد امتحن الله قلوبهم التي هي منبع إراداتهم، فانتهى الامتحان للنتيجة التي قررت لهم وهي التقوى، فهم قوم أثبتوا أن تقوى الله تعمر قلوبهم، إذ امتثلوا ما أمرهم الله به، وانتهوا عما نهاهم الله عنه.

أما الذين لم يمتثلوا هذا الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قال الله فيهم عقب النص السابق من سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾.

فوصف الله هؤلاء بأن أكثرهم لا يعقلون، أي: لا يملكون الإرادات القوية الحازمة الواعية التي تعقلهم عن التسرع إلى نداء النبي من وراء الحجرات، ولو أنهم عقلوا لصبروا حتى يخرج الرسول إليهم، ولكان ذلك خيراً لهم عند الله.

فنفي العقل عنهم ليس نفياً للذكاء والمعرفة، ولكنه نفي لقوة الإرادة، وبضعف الإرادة حرموا من خلق الصبر.

ولا يخفى أن التقوى ثمرة الإرادة الواعية الحازمة العاقلة.

(ج) وفي الدلالة على أن القلب محل لذكر الله، قال الله تعالى لرسوله في سورة (الكهف ١٨):

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾.

فُرُطاً: أي: عجلة، وتفريطاً، وضياعاً، وإسرافاً، وندامة، وظلماً.

(د) وفي الدلالة على خشوع القلب، قال الله تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

الإيمان في القلوب ثمرة إرادة واعية صادقة جازمة، ومن لوازم الإيمان في القلوب ذكر الله تعالى فيها، ومن آثار ذكر الله فيها خشوعها وطمأنينتها وسكونها الكامل لله، هذا ما لم تكن القلوب مريضة بداء القسوة وتبلُّد الحس.

(هـ) وفي الدلالة على أن ذكر الله في القلوب المؤمنة يورثها الطمأنينة، متى كانت سليمة من داء القسوة وتبلد الحس، قال الله تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

فالذين تطمئن قلوبهم بذكر الله هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

والطمأنينة هنا هي طمأنينة الراحة والسعادة بالرضا بقضاء الله وقدره، وطمأنينة الثقة بالله وحسن المآب.

أما الطمأنينة التي سبق الحديث عنها في الإيمان فهي طمأنينة القلب لصحة العقائد الإيمانية.

وتطمئن قلوب المؤمنين لوعد الله بالنصر، بعد أن يمسها القلق والخوف، بسبب الحسابات والأقيسة السببية، إذا جاءت من الله مبشرات من وراء الأسباب الإنسانية، من ذلك ما كان في غزوة بدر من إمداد الله بالملائكة، قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

فالاستجابة للاستغاثة كانت أول الأمر بألف من الملائكة، مع الوعد بإردافهم بغيرهم، ثم ارتقى الإمداد إلى ثلاثة آلاف، ثم ارتقى إلى خمسة آلاف.

ولما كان تعلقهم أول الأمر بالأسباب تعلقاً قوياً، قال الله لهم في (الأنفال ٨): ﴿ولتطمئن به قلوبكم﴾ مع أن المفروض أن تطمئن قلوبهم ثقة بوعد

الله. ولمّا ارتقت ثقتهم بالله في الغزوة نفسها، وأمدهم الله بخمسة آلاف، قال الله لهم في (آل عمران): ﴿ولتطمئن قلوبكم بـه﴾ والفرق بينهما تقديم الجار والمجرور وهو (به) على الفاعل في الأولى، وتأخيره في الثانية، وهذا التقديم يفيد الإشارة إلى اهتمامهم بالمدد من الملائكة.

رابعاً: وقد يصل إلى دائرة القلب وينفذ إلى داخلها، ما يكون قوياً شديداً من انفعالات النفس وعواطفها وأخلاقها، كالرعب، والوجل، والاشمئزاز، والغيظ، والغل، والحب، والكراهية، والشجاعة، والجبن، والرأفة، والرحمة، والحسرة، والميل إلى الطاعة بالتوبة إلى الله، وغير ذلك.

دل على ذلك نصوص كثيرة في القرآن الكريم منها ما يلي:

(أ) ففي الرعب الذي يصل إلى عمق القلب قال الله تعالى بمناسبة الحديث عن معركة أحد في سورة (آل عمران ٣):

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾.

وقال الله تعالى بمناسبة الحديث عن معركة بدر في سورة (الأنفال ٨):

﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾.

وفي شأن يهود بني قريظة، وما كان منهم من مظاهرة الأحزاب، إذ نقضوا عهدهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

من صياصيهم: أي من حصونهم.

وفي شأن يهود بني قينقاع وإجلائهم عن المدينة بعد الذي كان منهم من خيانة ونقض للعهد، قال الله تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾.

(ب) وفي الوجل ــ وهو الخوف ــ الذي يصل إلى عمق القلب، قال الله تعالى يصف المؤمنين في سورة (الأنفال ٨):

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾.

فدل هذا النص على أن من أوصاف المؤمنين حقاً أنهم إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، أي: خافت من عظمته وقهره، وهذا عند مقتضيات الخوف من العقاب، وفوق الوجل مرحلة الخشية، وفوق الخشية مرحلة الطمأنينة: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.

ووصف الله المخبتين ــ وهم المسلمون لله الخاضعون له ــ بأنهم إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، فقال تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

وذكر الله من صفات الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون، أنهم يؤتون ما آتوا من عمل صالح وقلوبهم وَجِلة ــ خائفة ــ أنهم إلى ربهم راجعون، فهو يحاسبهم يومئذٍ ويجازيهم على أعمالهم، فقال الله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾
وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

(ج) وفي شدة الخوف الذي ترتفع فيه دائرة القلب من عمق الجسد حتى تبلغ الحناجر، ولا يبقى بينها وبين الموت إلا اللفظة الأخيرة، قال الله تعالى يصف خوف الناس يوم القيامة في سورة (غافر ٤٠):

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ
حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾.

وهي من شدة الخوف يومئذٍ تكون واجفة، أي: شديدة الاضطراب كثيرة الاهتزاز من الخوف، قال الله تعالى في سورة (النازعات ٧٩):

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَـٰرُهَا
خَـٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ ﴾.

الراجفة: النفخة الأولى. الرادفة: النفخة الثانية. قلوب يومئذ واجفة: أي خائفة شديدة الاضطراب كثيرة الرجفان.

ولا تستمر حالة الخوف هذه يومئذ، بل يرفع الله عنهم الفزع، لإجراء الحساب وتقرير الجزاء، قال الله تعالى في سورة (سبأ ٣٤):

﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا
قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾.

فُزِّع عن قلوبهم: أي أزيل وجلي الفزع عنها.

وفي موقعة الأحزاب التي اجتمع فيها على المسلمين أحزاب الشرك من

العرب، وظاهرهم يهود بني قريظة من داخل المدينة، وصل الخوف لدى كثير من الذين آمنوا إلى مستوىً زاغت به أبصارهم، حتى شعروا بأنّ قلوبهم بلغت حناجرهم من شدة الخوف، وفي بيان ذلك قال الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ ﴾.

وشدة الخوف إذا استمرت ربّما قتلت، ففي شأن المنافقين المتآمرين على المسلمين في المدينة، الذين بنوا مسجد الضرار، بالاتفاق مع أبي عامر الراهب، الذي اتفق مع الروم على تدبير مكيدة ضدّ المسلمين في المدينة، قال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾.

(د) وفي الاشمئزاز الذي قد يصل إلى دائرة القلب ولا يقف عند حدود دائرة النفس الكبرى، قال الله تعالى يصف قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

اشمأزت: نفرت وانكمشت وانقبضت معرضة عن ذكر الله.

(هـ) وفي الغيظ الذي يصل إلى دائرة القلب، قال الله تعالى يحرض الذين آمنوا على قتال عدوّهم في سورة (التوبة ٩):

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾.

(و) وفي الغلّ الذي يصل إلى دائرة القلب لشدّته، قال الله تعالى يصف المؤمنين الذين يؤمنون من بعد المهاجرين والأنصار في سورة (الحشر ٥٩):

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

(ز) وفي عواطف الحبّ والميل والتوادّ والتآلف التي تصل إلى القلوب، وفي أضدادها وردت عدّة نصوص قرآنية، منها ما يلي:

ذكر الله تعالى أنه ألف بين قلوب المؤمنين، والتأليف إنما يكون بالتوادّ والتراحم، فقال تعالى مخاطباً رسوله في سورة (الأنفال ٨):

﴿ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾.

وخاطب الله الذين آمنوا بقوله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

وذكر الله تعالى أنه جعل في قلوب الذين اتبعوا عيسى عليه السلام رأفة ورحمة، فقال عزّ وجل في سورة (الحديد ٥٧):

﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً . . . ﴿٢٧﴾ ﴾ .

ووصف الله الذين عبدوا العجل من بني إسرائيل بأنهم أُشْربوا في قلوبهم حبّ العجل بسبب كفرهم، فقال تعالى يخاطبهم في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ .

وفي التنافر والتباعد بين القلوب وصف الله اليهود والمنافقين بقوله تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

لا يعقلون: أي ليس لديهم إرادات حازمة تضبط أهواء نفوسهم عن الانحراف.

(ح) وفي الشجاعة التي تندفع من القلب، قال تعالى في وصف أهل الجاهلية في سورة (الفتح ٤٨):

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ . . . ﴿٢٦﴾ ﴾ .

والحمية: نوع شجاعة تنشأ عن أنفة وغضب.

أما شجاعة المؤمنين فمنابعها الإيمان المستقر في القلوب، وتقويها معونة إلهية تربط على قلوبهم، ومن ذلك قول الله تعالى للمؤمنين بمناسبة معركة بدر في سورة (الأنفال ٨):

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾.

ولما كانت الشجاعة تنبع من القلب، فالجبن ضعف مستقره القلب.

(ط) وفي الحسرة التي تتغلغل في دوائر النفس حتى تعبر دائرة القلب، قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾.

(ي) وفي الميل إلى الطاعة بالتوبة التي تكون صادقة من القلب، قال الله تعالى يخاطب اثنتين من أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم في سورة (التحريم ٦٦):

﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾.

فقد صغت قلوبكما: أي مالت قلوبكما إلى الله بتوبتكما.

(ك) وفي مختلف عوامل الكبر، والحسد، والرغبة بالفجور، والعناد، التي وصلت إلى عمق قلوب الآخرين، كما وصلت إلى عمق قلوب الأولين من أهل الكفر، فكان لها ظواهر في سلوك هؤلاء وأولئك متشابهة، نظراً إلى التشابه الذي حصل في قلوبهم، قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

فهذه آيات الله بينات لمن يريد أن يقنع بالحق ويكون من الموقنين.

خامساً: والقلب إما أن يكون سليماً طاهراً بريئاً من العلل والأمراض، وعندئذ يكون الإنسان ممتعاً بعمق الصحة النفسية القلبية، والقلب السليم الطاهر هو القلب المؤمن بالله الذاكر له، المخبت الخاضع المطمئن المستسلم لأحكامه وشرائعه، الراضي بقضائه وقدره، الواثق بفضله ورحمته، البريء من خلائق السوء وإرادات المعصية، ونيات الإثم والفسوق والعصيان.

وإما أن يتعرض للعلل والأمراض، وتهبطُ درجات الصحة النفسية القلبية عندئذ إلى مستويات تناسب مقادير العلل والأمراض التي يتعرض لها القلب؛ فيصاب بالأدناس المختلفة، وهذه تسبب له أنواعاً من الأمراض على مقاديرها.

ومتى تكاثرت على القلب أدناس الإثم والعدوان وإرادات السوء والشر، أصابته الأمراض الخطيرة، أشدها ما يكون من نتائجه النفاق والكفر بالله.

ويمكن علاج القلب وشفاؤه، وعندئذٍ ينيبُ إلى ربه فإذا جاء العبد ربه وهو على توبته فقد جاءه بقلب منيب.

ودوام العلل المرضية في القلب يميت فيه حس الخير، فيقسو ويتصلب حتى يكون كالحجارة بل أشد قسوة، فإذا ذُكِّر بالله واليوم الآخر لم يتحرك بشيء، واستمر فيما هو فيه من حبّ العاجلة والانصراف إلى زينتها لاهياً، وفي غَمْرَةٍ مطبقة عليه من كل جانب، فهو لا يستجيب لداعٍ إلى الخير، ولا يستمع لأقوال واعظ يعظ بالحق، ولا مذكّر يذكر بالله.

هذه مفاهيم عن القلب دلّت عليها نصوص قرآنية كثيرة:

(أ) فالقلب السليم الطاهر البريء من العلل والأمراض، دلّ عليه ما دعا به إبراهيم عليه السلام ربّه، إذ قال في جملة دعائه كما أخبرنا الله تعالى في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾.

فمن أتى الله يوم يبعثون، بقلب سليم طاهر بريء من العلل والأمراض، وآثارها التي تتمثل بالكفر والفسوق والعصيان، فذلك هو الذي ينفعه عند ربه قلبه السليم.

وقد كان إبراهيم عليه السلام ذا قلب سليم، وجاء ربّه بقلب سليم، بذلك وصفه الله تعالى، فبعد الكلام على نوح عليه السلام قال الله تعالى في سورة (الصافات ٣٧):

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ؟ ﴿٨٧﴾ ﴾.

(ب) ويتدنس القلب بأدناس خفيفة تغسلها الطاعات، ويصاب بأدناس شديدة قوية مطبقة عليه، حتى لا تدع فيه جانباً طاهراً، وبينهما درجات.

فمن الأدناس الخفيفة ما يتعرض له من خواطر السوء، والميل نحو الإثم والمعصية، ولو لم يصل إلى مستوى التنفيذ والإرادة الجازمة، أشار إلى ذلك قول الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ . . . ﴿٥٣﴾ ﴾.

غير ناظرين إناه: أي غير منتظرين وقت نضجه.

فدل هذا النص على أنّ سؤال نساء النبي من وراء حجاب، أطهر لقلوب السائلين وقلوب المسؤولات، فلولا وجود احتمال تدنس القلب عند المواجهة بميل غير مأذون به شرعاً لما وجّه الله لهذا الأدب من آداب الإسلام.

وأشد الأدناس وأخبثها أدناس الكفر والنفاق وما يؤدي إليهما، وهذه الأدناس لا يطّهر الله القلوب منها، لأنه لا يغفر أن يُشْرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وإلى هذه الأدناس الشديدة التي قد تدنس بها القلوب أشار القرآن بقول الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾.

فهؤلاء قلوبهم مدنّسة بأشد الأدناس وأخبثها، وهي أدناس الكفر، وما ينشأ عن الكفر من سلوك، وما يدفع إلى الكفر من أخلاق، وقد امتحنهم الله، فكشفوا عمّا في قلوبهم من أدناس، فمن العدل أن لا يطهر الله قلوبهم بالمغفرة، وأن لا يريد ذلك، لأن إرادته تتبع حكمته، وحكمة الله تقضي بأن لا يحكم ببراءة المجرمين بجريمة الكفر، فلهم في الدنيا خزي، ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

ولكفر القلوب آثار هي من الأرجاس والأدناس، وهي نتائج طبيعية له، تحدث وفق السنن الربّانية التي فطر الله النفوس عليها، لذلك قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

ويطفح الرجس على الكافر والمنافق، باعتبار أنّ سلوكه كله منسجم مع

كفره، ولمّا كان كفره رجساً كان سلوكه كله رجساً، ومن اتصف في سلوكه بالرجس، فهو كله رجس، ولذلك قال الله تعالى في وصف المنافقين في سورة (التوبة ٩):

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

وسمى الله الكفر والنفاق رجساً، فقال تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

أي: زادتهم كفراً إلى كفرهم، ونفاقاً إلى نفاقهم.

(ج) ويتعرض القلب للأمراض، وأدنى الأمراض مرض الرغبة باللذة المحرمة التي يُتوصَّل إليها بالفاحشة، وأخبث الأمراض وأشدها ما يجرّ إلى الكفر والنفاق.

ففي الإشارة إلى مرض الرغبة باللذة المحرمة، التي تكون بالفاحشة، قال الله تعالى لنساء النبي في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾.

أي: فيطمع الذي في قلبه رغبة بالفسق أو ميل إلى الفحش، أو ضعفٌ تجاه النساء، وهذا من أمراض القلوب.

وفي الإشارة إلى الأمراض التي تسبب الكفر، قال الله تعالى لرسوله في سورة (الحج ٢٢):

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

تمنى: تلا كتاب الله. ألقى الشيطان في أمنيته: ألقى في تلاوته.

هذا النص دلّ على حلقة من حلقات سنة الصراع بين الحقّ والباطل، ولمّا كان الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام قمة الدعوة إلى الله، كان لا بد أن يكون لهم أعداء من شياطين الإنس والجن، والعدوّ له وسائل كثيرة من الكيد، ولمّا كان كتاب الله هو النصّ المنزل لهداية الناس، فإن الشياطين يحاولون الكيد لهذا النصّ، بالتحريف والتبديل، والزيادة والنقص؛ لدعم ما هم فيه من إضلال وإفساد. إنّهم يحاولون هذا بعد عصور الأنبياء والرسل، وقد نجحوا في غير كتاب الله القرآن، لأنّ الله لم يتكفل بحفظ تلك الكتب، إذ وضع في خطته سبحانه أن يختم الكتب المنزلة بالقرآن الذي يتكفل بحفظه.

أما في عصور الأنبياء والرسل فإنّهم يحاولون أيضاً هذه المحاولة، ولكنهم لا ينجحون، لأنّ الله يحكم آياته على لسان رسوله، فلا يبقى لتحريفات الشياطين ولا لمحاولاتهم في ذلك أي أثر، وهذا لا يتعارض مع عصمة الرسل، والثقة بما يبلغون عن الله.

ومن صور هذه المحاولة الخبيثة أن يتلو الرسول كلام الله فيأتي شيطان من شياطين الإنس أو الجنّ، فينقل ما سمع من الرسول مضيفاً إليه من عنده جملاً مفسدة تدعم باطله، لكنّ الرسول موجود، والوحي يتنزل، فيذهب الناس إلى الرسول فلا يجدون في تلاوته هذه الإضافة التي أضافها الشيطان، فتسقط وتنسخ من أذهان الناس الذين سمعوها، ويحكم الله آياته.

ومن صور هذه المحاولة الخبيثة أن يتلو الرسول كلام الله، فيوقع الشيطان في أذهان بعض من يستمعون إليه معاني غير مراده، وهذه المعاني من شأنها أن تخدم باطل الشيطان وتخدم تضليلاته لكن الله يفسد على الشيطان مكيدته هذه، فينزل آيات يحكم بها المعنى المراد، بعد أن ينسخ المعنى الذي ألقاه الشيطان من أذهان المؤمنين. ومعلوم أن التلاعب بالمعاني من التحريفات التي ما يترك الشياطين الكيد بها، ولو بقي نصّ الكتاب محفوظاً كما أنزله الله على رسوله ولعلّ هذه الصورة هي المرادة في النصّ لقوله تعالى فيه: ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به﴾.

وقد تصل المحاولة إلى أن يلقي الشيطان الإضافة التي يريدها في آذان من يستمع لتلاوة الرسول مباشرة من الذين في قلوبهم مرض الشرك بالله، والقاسية قلوبهم فهم لا يؤمنون بالله ولا بعدْلِه وجزائه واليوم الآخر، ويكون ذلك امتحاناً لهم، وهذه المحاولة ـ إن وقعت ـ فهي لا تتعارض مع عصمة الرسول، والثقة بما يبلّغ عن ربّه، لأنّها خارجة عن دائرة تبليغه، ولا تكون عامة في آذان كلّ من يستمع إلى الرسول حتى يختلط الأمر على المسلمين في سماعهم لتلاوة الرسول، وإنما تكون محدودة في آذان الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم. وقصة الغرانيق التي لم تصحّ رواية لها عند المحدّثين يمكن أن تحمل على هذه الصورة من محاولات شياطين الجنّ والإنس، هذا إذا قبلنا فكرة الاشتغال بتأويل الروايات الضعيفة التي يدلّ ظاهرها على أنها ساقطة مردودة. على أن قصة الغرانيق تتحدث عن أمر زعمت أنه وقع في مكة حينما كان بعض المسلمين مهاجرين إلى الحبشة في هجرتهم الأولى، وسورة الحج سورة مدنية، وهذه الآيات منها نزلت بين مكة والمدينة ـ أي بعد الحادثة المزعومة بزمن طويل ـ فلو أن الحادثة قد وقعت فعلاً؛ لكان المفروض أن تنزل بعدها مباشرة تعقيباً عليها.

والنفاق ودوافعه مرض من أمراض القلوب، ولذلك كثر في القرآن وصف المنافقين بأن في قلوبهم مرضاً.

منها قول الله تعالى في معرض الحديث عن المنافقين في سورة (البقرة ٢):

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

ومنها قول الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

قيل: نزلت في عبدالله بن أبـي بن سلول، وقيل غير ذلك، ولكن قوله تعالى فيها: ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح﴾ كأنه يشير ضمناً إلى ما جرى من حاطب بن أبـي بلتعة، إذ أرسل كتاباً يخبر فيه قريشاً عن عزم الرسول على فتح مكة، يتخذ عندهم يداً من أجل أهله الذين هم في مكة، فإن كان هو المراد كان المرض الذي في قلبه إثماً دون النفاق، لأنه كان مؤمناً اعترته حالة من حالات الضعف البشري، وسورة المائدة نزلت بعد سورة (الفتح ٤٨).

ومنها قول الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

فالمراد من الذين في قلوبهم مرض المنافقون، ففي قلوبهم مرض دفعهم إلى أن يكونوا منافقين، وفي قلوبهم مرض الكفر.

ومنها قول الله تعالى في سورة (محمد ٤٧):

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾.

فالذين في قلوبهم مرض هنا هم المنافقون.

وقوله تعالى أيضاً في سورة (محمد ٤٧):

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾.

هؤلاء الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون. إنهم إذا نزلت سورة تأمر بالقتال تحرك الجبن في قلوبهم، واضطربت أفئدتهم كراهية أن تلجئهم ضرورة النفاق إلى مشاركة المسلمين في قتال عدوهم، فتدور أعينهم، وينظرون إلى الرسول نظر المغشي عليه من الموت.

ومنها قوله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

هذه المقالة صدرت ــ والله أعلم ــ عن المنافقين في المدينة لما خرج الرسول وطائفة من المؤمنين معه إلى معركة بدر الكبرى، وصدرت أيضاً عن المشركين لما رأوا قلة المسلمين بالنسبة إليهم فهم الذين في قلوبهم مرض الشرك بالله، أوعن بعض منهم كان في قلوبهم مرض الشك، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: غر هؤلاء دينهم. وأقوال المفسرين تجعل هذه المقالة صادرة فقط عن فريق المشركين، الذين شهدوا غزوة بدر، لما رأوا قلة عدد المسلمين بالنسبة إليهم، وتأولوا المنافقين بأنهم فريق كانوا مع المشركين ممن ذكروا الإسلام في مكة.

ومنها قول الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾.

صدرت هذه المقالة عنهم في غزوة الأحزاب، لما اشتد الأمر على المسلمين من قبل ضغط الحصار الذي حاصرهم به أعداؤهم.

﴿والذين في قلوبهم مرض﴾ قد يكون وصفاً ثانياً للذين قالوا هذه المقالة، فهم منافقون، وهم في قلوبهم مرض جعلهم يسلكون مسلك النفاق، وقد يكون لآخرين في قلوبهم مرض دون النفاق.

وقوله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

الأرجح فيما أرى، أن الذين في قلوبهم مرض في هذا النص والمرجفين هم المنافقون أنفسهم، فهم من جهة أن ظاهرهم الإسلام وباطنهم الكفر منافقون، ومن جهة الدافع الذي دفعهم إلى النفاق في قلوبهم مرض، ومن جهة بعض مظاهر سلوكهم داخل صفوف المسلمين مرجفون.

وقد يكونون أصنافاً ثلاثة: منافقين كاملي النفاق. وفي قلوبهم مرض الشك الذي لم يبلغ بهم أن يكونوا منافقين. وأصحاب أعمال من أعمال الكفر تضر بمصالح المسلمين العامة، وتدفع بهم هذه المعاصي الكبرى إلى صفوف أهل الكفر.

(د) وإذا دامت العلل المرضية في القلب مات فيه حس الخير، وقسا وتصلّب، وربما صار كالحجارة بل أشد قسوة.

وفي الدلالة على بلوغ القلب هذا الدرك المنحط، الذي يكون فيه قاسياً صلباً وردت عدة نصوص قرآنية.

منها قول الله تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

فأبان الله في هذه الآية، أن السبب في قسوة قلوب الذين أوتوا الكتاب قبل المسلمين أنهم قد طال عليهم الأمد في النعمة والرفاهية والقوة المادية وارتكاب المعاصي، فأخلدوا إلى الأرض فقست قلوبهم، ولا جرم أن طول المدة في الرفاهية والنعمة والقوة المادية وارتكاب المعاصي تنسي الآخرة، وتميت حس الشفقة والرحمة وابتغاء الخير، وبذلك يقسو القلب، وتجف منابع الرحمة والعطاء لديه، ولا تؤثر فيه المواعظ والمذكرات بالله واليوم الآخر.

ومنها قول الله تعالى عن بني إسرائيل في سورة (المائدة ٥):

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

إن بني إسرائيل قوم أهل كتاب، وقد أعطوا مواثيقهم على العمل بما فيه، وعلى طاعة الله، ولكنهم نقضوا ميثاقهم وعصوا ربهم، وحرفوا الكلم عن مواضعه، لتبرير أعمال الفسق والفجور التي يرتكبونها، وطال عليهم الأمد في ذلك، فلعنهم الله، وطردهم من رحمته، وجعل قلوبهم قاسية. فدل هذا على أن من سنن الله، أن من طال عليه الأمد في العصيان، وارتكاب الفسوق والفجور والعدوان، قسا قلبه. إنها نتيجة طبيعية من النتائج التي تنتهي إليها أحوال قلوب الناس، ضمن سُنن الله السببيّة والجزائية.

وهذه النتيجة في الأحوال المعنوية، تشبه النتيجة التي يصل إليها العضو المريض بالأمراض المادية، إذا طال عليه الأمد وهو مصاب بمرضه الذي يأكل إحساسه شيئاً فشيئاً، ويفقده حياته وعمله، وقيامه بوظائفه المادية، وإن بقي في الصورة عضواً له هيكله الظاهر.

وخاطب الله بني إسرائيل بقوله في سورة (البقرة ٢):

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

فدل هذا على أن قسوة قلوبهم قد بلغت مبلغاً لا تندى فيه بعطاء بموجب باعث داخلي، ولا بموجب مؤثر خارجي، ولا تخضع فيه من خشية الله، وهذه غاية تكون القلوب عندها ميتة حاسة الخير.

وقد تقسو القلوب حتى لا تلين مهما اشتد عليها البأس فلا تتضرع إلى الله ليكشف عنها ما نزل بها، وفي ذلك قال الله تعالى لرسوله في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

وهذا مستوى من القسوة مقرون بالكبر والعناد.

وقسوة القلب ذات عاقبة وخيمة على أصحابها، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

أي من جهة ذكر الله، فهي لا تلين لذكر الله ولا تلين إذا ذكّرت بالله.

سادساً: وحين يصل القلب إلى مستوى القسوة التامة، ويفقد الإحساس بالخير، وتغلب الذنوب والآثام ورغبات الفجور والعدوان عليه، أو يتمرد بالكبر والعجب، يكون أمام آيات الله ودلائل الحق أعمى، وبالنسبة إلى دعوات الحق والهداية والإرشاد إلى الخير أصم، وإذ فقد هذا الإحساس فهو بمثابة الميت المقبور الذي لا يعقل.

ولذلك قال الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم في سورة (يونس ١٠):

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ؟ ﴿٤٣﴾ ﴾.

وعلى طريقة الاستفهام أيضاً قال الله لرسوله في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

أي: فهم لا يسمعون دعوات الحق والهداية، ولا يرون دلائلها، ولا طريقها، إنهم في ضلال مبين.

ثم على طريقة الإخبار المؤكد لا على طريقة الاستفهام قال الله لرسوله في سورة (النمل ٢٧):

﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

وقال له أيضاً في سورة (الروم ٣٠):

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

أي فمن لم يبدأ من جهته بالإيمان بآيات الله فيدفعه إيمانه إلى الاستسلام

لله ولما يأتي عنه، يظل قلبه ميتاً لا يحس بالخير، ويظل سمعه أصم لا يسمع دعوة الحق والهداية.

وقال الله لرسوله في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

فالأحياء الذين يسمعون الهداية ويستجيبون لها هم أحياء القلوب، والأموات الذين لا يسمعون الهداية ولا يستجيبون لها هم أموات القلوب، فقلوبهم مقبورة في أجسامهم، وما أنت بمسمع من في القبور.

والسبب في ذلك أن قلوبهم مغمورة بمتاع الحياة الدنيا وزينتها، فلا حركة لها إلا فيما هي فيه مغمورة مشغولة، وطبيعي أن تكون بذلك لاهية لا تعي ما يرد عليها من الخارج من مواعظ ومذكرات، قال الله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣) في الذين اختلفوا في العقائد حاجدين ما جاء به الرسل:

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

الغمرة: هي ما يغمر قامة الإنسان من الماء أو غيره. فهؤلاء قلوبهم في غمرة تحجبهم عن الاستجابة للحق، والعمل بالخيرات التي يعملها المؤمنون، ولهم أعمال من غير أعمال المؤمنين تصرفهم وتمتص طاقاتهم هم لها عاملون.

وقال الله تعالى في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

فهؤلاء الغافلون المعرضون اللاعبون لاهية قلوبهم عن سماع الذكر الذي يأتيهم من ربهم، بما هم فيه من استغراق في متاع الحياة الدنيا وزينتها.

سابعاً: كل ما في القلوب وكل ما يصدر عنها معلوم لله تعالى، فالله بعلمه وقدرته أقرب إلى قلب الإنسان ــ الذي هو مصدر إرادته ــ من الإنسان نفسه، وهو سبحانه يحول بين الإنسان وقلبه: فلا يصدر توجيه إرادي عن قلب الإنسان إلا ويمر بحائل من قدرة الله، يأذن بنفاذه أو لا يأذن. ولا يستقر شيء في قلب الإنسان أو يصل إليه ما لم يمر بهذا الحائل من قدرة الله، يأذن بنفاذه أو لا يأذن. ولا يوجد أي شيء في القلب، من إيمان أو كفر، أو طهارة أو رجس، أو إرادة خير أو شر، أو أي متحركة أو ساكنة، أو أية عاطفة ميل أو نفور، أو غير ذلك؛ إلا يعلمه الله، فلا تخفى على الله خافية، فليتق الله من آمن به.

هذه حقائق دلت عليها نصوص قرآنية كثيرة، منها ما يلي:

(أ) قال الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

للمفسرين آراء مختلفة في المراد من كون الله يحول بين المرء وقلبه والذي أرى ترجيحه، أن المراد ــ والله أعلم ــ حيلولة العلم والقدرة والإرادة، فما يكون في القلب من شيء، وما يجري فيه من شيء، وما يدخل إليه شيء، وما يصدر عنه شيء، إلا ويعلمه الله. وأما ما يدخل إليه من مؤثرات، وما يصدر عنه من إرادات، فلا ينفذ إلا بإذن من إرادة الله وقدرته، وإذْنُ الله يجري وفق سنته في عباده، ووفق حكمته في ابتلائهم، وحينما يكون في شيء من ذلك معارضة لقضائه وقدره العام فإن الله يُحوِّله أو يمنعه عن النفوذ، ولا يأذن به. وهذا هو الذي يتفق مع حرية إرادة الإنسان والحكمة من ابتلائه في هذه الحياة الدنيا، ومع سلطان قضاء الله وقدره في كونه.

(ب) وقال الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ ﴾.

جاء هذا تعقيباً على موضوع تخيير الرسول في أن يؤخر من يشاء من نسائه، ويؤوي إليه من يشاء منهن، وما في القلوب في هذا الموضوع عواطف تتحرك، ولكن النص يشملها ويشمل غيرها من كل ما يجري في القلوب، أو يستقر فيها، أو يصدر عنها، أو يدخل إليها.

(ج) وفي سياق الكلام على المنافقين قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾.

(د) وقال أيضاً في سورة (التوبة ٩):

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

(هـ) وفي شأن أهل بيعة الرضوان قال الله تعالى في سورة (الفتح ٤٨):

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾.

ثامناً: قسم الرسول صلى الله عليه وسلم قلوب الناس إلى أربعة أقسام:

١ ــ قلب المؤمن، ووصفه الرسول بأنه أجرد، أي ليس عليه حجاب يحجبه عن الهدى والخير ووصفه بأن فيه سراجاً ذا إنارة.

٢ ــ وقلب الكافر، ووصفه الرسول بأنه أغلف، أي عليه غلاف يحجبه.

٣ ــ وقلب المنافق، ووصفه الرسول بأنه منكوس، أي مقلوب على وجهه لأنه عرف ثم أنكر، رجع إلى الكفر بعد الإيمان.

٤ ــ وقلب فيه إيمان ونفاق، ووصفه الرسول بأنه مُصْفَح، أي مائل على حرفه، فله صفحتان، وله وجهان، كالإناء الذي ينصب على حرفه، فلا هو منكوس ولا هو على وضعه السوي. والْمُصْفَح لغة ما له وجهان، ويقال: ضربه بالسيف مُصْفَحاً، أي ضربه بِعُرْض السيف لا بحده.

أخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري ــ بإسناد جيد كما قال ابن كثير ــ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر. وقلب أغلف مربوط على غلافه. وقلب منكوس. وقلب مصفح.

فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نور.

وأما القلب الأغلف فقلب الكافر.

وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر.

وأما القلب الْمُصْفَح فقلب فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها الدم والقيح، فأي الْمُدَّتين غلبت على الأخرى غلبت عليه».

الْمُدَّة: بضم الميم ما يستمد منه. والمِدة: بكسر الميم ما يجتمع في الجرح من القيح.

والظاهر أن الأوصاف التي وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بها هذه القلوب الأربعة أوصاف تشبيهية، فحالة كل قلب منها تشبه الصفة التي وصفه بها: أجرد، أو أغلف، أو منكوساً، أو مُصْفَحاً.

* * *

الفصل الخامس

في الفؤاد

علمنا أن الفؤاد هو أعمق دائرة من دوائر النفس، وأن مجموعة من خصائص النفس ووظائفها وأعراضها تتركز فيه أو تصل إليه وتستقر فيه.

ولدى البحث في الفؤاد أخذاً من الدلالات القرآنية يتضح ما يلي:

* **أولاً**: قد تنتهي إلى عمق الفؤاد وتستقر فيه العلوم والمعارف الثابتة، والعقائد الراسخة، مقترنة بشحنة من العواطف الملائمة لها.

ولما كان أول خط المعرفة المكتسبة في حياة الإنسان يبدأ من الحس الظاهر، وأكرم الحواس السمع والبصر، وكان آخر خط المعرفة ينتهي عند عمق الفؤاد، امتنّ الله على الناس بالسمع والأبصار والأفئدة، وأبان أن الغاية من ذلك امتحان إراداتهم، هل يشكرون أم يكفرون.

وفي بيان ذلك قال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

ولكن الناس قليلاً ما يشكرون، قال الله تعالى في سورة (السجدة ٣٢):

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾

ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الملك ٦٧):

﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

وعملية خلق السمع والأبصار والأفئدة كانت عملية إنشاء متدرج، قال الله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

وتاريخ الأمم السالفة أثبت أن الشاكرين من الناس قليلون، ولذلك حاق بهم عذاب الله، قال الله تعالى في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

أي: مكناهم فيما لم نمكنكم فيه، فلم يستعملوا ما أعطاهم الله من سمع وأبصار وأفئدة فيما خُلقت من أجله، إذ جحدوا بآيات الله، واستهزؤوا بنُذُر العذاب، فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون.

وحين لا يؤمن الإنسان بالحق ولا يطمئن قلبه إليه، يظل فؤاده يتقلب باحثاً عما يسعده من العقائد فلا يجد، لأنه ليس بعد الحق إلا الباطل، وليس بعد الهدى إلا الضلال، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

* **ثانياً**: من دائرة الفؤاد ينطلق الميل الإرادي لكسب عمل الخير والشر، دل على ذلك ما نفهم من قول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

أي: ولا تتبع ما ليس لك به علم، والاتباع هو توجه إرادي، وقد جعل الله المسؤولية عن العمل الإرادي منوطة بأدوات المعرفة ومركز الإرادة، فالمعرفة تنتهي في مسيرها إلى الفؤاد، والإرادة الموجهة للسلوك تنبع من الفؤاد، وحين تتجه الإرادة اتجاهاً جاهلاً هائماً فإنها تكون مؤاخذة على ذلك، إذ باستطاعتها أن تعتمد على المعرفة التي تيسرت لها وسائلها.

ولمّا كانت الإرادة الموجهة للسلوك تنبع من الفؤاد، كان الفؤاد هو المقصود من قبل الشياطين بتوجيه زخارف القول، لاستمالته إلى فعل الشرور والمعاصي والآثام، قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

ولتصغى إليه: أي ولتميل إليه.

فشياطين الجن والإنس يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، لتميل إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة، ثم تأتي مرحلة الرضى عن المضمون الفكري، والرضىٰ يحرّك التوجه شطر السلوك الذي يدعو إليه المضمون. فتجزم الإرادة، فيكون نتيجة ذلك اقتراف المعاصي والآثام، وألوان الظلم والعدوان.

* **ثالثاً**: ومن دائرة الفؤاد ينطلق الحب والهوى العميق، ولذلك دعا إبراهيم عليه السلام ربه بقوله كما حكى الله في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿ رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧ ﴾.

تهوي إليهم: تحبهم وتهواهم أو تقصدهم.

* رابعاً: قد يصل إلى دائرة الفؤاد ويتغلغل فيه الهم والحزن والقلق، فإذا زالت أسبابها فرغ الفؤاد منها، وهذا ما حصل لأم موسى حين اطمأنت على ولدها إذ وصل بعد رحلة اليم إلى قصر فرعون، والتقطه آل فرعون، وقالت امرأة فرعون له: قرة عين لي ولك، لا تقتلوه، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً. وكادت أم موسى أن تبدي أنه ولدها من شدة فرحها، لولا أن ربط الله على قلبها، فثبتها.

قال الله تعالى في سورة (القصص ٢٨):

﴿ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠ ﴾.

هذا ما رأيته أرجح في معنى فراغ فؤاد أم موسى والله أعلم. ولأهل التأويل في تفسير ذلك وجوه: منها أنه أصبح فارغاً من العقل من فرط الجزع والخوف، ومنها غير ذلك.

* خامساً: الفؤاد مركز البصيرة التي تتلقى الوحي وترى مشاهد الغيب في قلوب الأنبياء، قال الله تعالى في شأن الوحي الذي أوحى به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في سورة (النجم ٥٣):

﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢ ﴾.

* سادساً: الفؤاد مركز التثبيت العميق للنفس الإنسانية، ولذلك قال

الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم في سورة (هود ١١):

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

ومن أسباب تنزيل القرآن مفرقاً تثبيت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم قال الله له في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾.

* **سابعاً**: ولما كانت دائرة الفؤاد هي عمق النفس الأقصى كان عذاب المجرمين يوم القيامة ينفذ إلى داخلها، قال الله تعالى في سورة (الهمزة ١٠٤):

﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾ ﴾.

وحين تطلع النار على الأفئدة فإنها تنفذ إلى داخلها حتى تلامس كلّ ذرة فيها وتكشفها.

إنها عليهم مؤصدة: أي مغلقة أبوابها عليهم إمعاناً في سجنهم وتعذيبهم.

وفي موقف الحساب تكون أفئدة الظالمين هواءً، أي: خالية من أيّ أمل بالنجاة، قال الله تعالى في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾.

مهطعين: مسرعين، أو ساكنين أذلاء.

مقنعي رؤوسهم: رافعي رؤوسهم وأنظارهم في ذلّ وخشوع ودهشة.

لا يرتد إليهم طرفهم: إذ هم في دهشة يرقبون ما سيحل بهم من عقاب.

وأفئدتهم هواء: خالية من الأمل بالنجاة، ومن أية حركة يحاولون بها إنقاذ أنفسهم مما ينتظرون من جزاء على ما قدّموا من عمل.

* * *

الفصل السادس

في الفكر

جاء في القرآن الأمر بالتفكر في خلق السماوات والأرض، وفي الأنفس، وفي آيات الله الكونية، وفي آيات الله القرآنية، وفي أنباء الأولين وقصصهم للاعتبار بها، وفي غير ذلك من مجالات تحتاج إلى إعمال الفكر.

ولمّا كان واضحاً لدى الناس أنّ الدماغ في الرأس هو مركز التفكير، لم يحتج الأمر إلى أن يشير إليه القرآن.

ونصوص الأمر بالتفكر والتوجيه له كثيرة في القرآن الكريم، منها ما يلي:

(أ) قال الله تعالى في سورة (سبأ ٣٤):

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾.

ففي هذا النص دعوة إلى التفكر الإفرادي، والتفكر الجماعي بين اثنين يتناظران.

وفيه إشارة إلى أنّ التفكير الجماعي العام قلّما يثمر ثمراً نافعاً، لأنه يكون في الغالب اتكالياً غوغائياً مستغلاً من قبل أفراد.

(ب) وقال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴿٢٦٦﴾ ﴾.

(ج) وقال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

(د) وقال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾.

(هـ) وقال الله تعالى لرسوله في سورة (الأعراف ٧):

﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

(و) وقال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

(ز) وقال الله تعالى لرسوله في سورة (النحل ١٦):

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

(ح) وقال الله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

أي: فهذا موضوع يحتاج إلى التفكر لمعرفة ما أودع الله فيه من آيات قدرته وحكمته.

(ط) وقال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ

كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ
شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

(ي) وقال الله تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ
وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

وهكذا تدعو النصوص القرآنية للتفكر وتوجّه له، لأنّ التفكر هو وسيلة اكتساب المعارف غير البديهية، وغير الحسيّة.

* * *

الفصل السابع

في اللُّبّ

اللب هو الدائرة الواقعة في عمق مركز التفكير، وهو مركز استقرار المعرفة العلمية، ومركز التذكر، ومركز الاعتبار والاتعاظ والذكرى، وعنه تصدر النتائج الفكرية إلى الفؤاد، والقلب، والصدر، لتحريك العواطف، وتنبيه الإرادة صاحبة السلطة في توجيه السلوك.

ومن خلال النصوص القرآنية التي ذكرت فيها الألباب نستطيع اكتشاف المراد من اللب، ومعرفة خصائصه داخل النفس الإنسانية:

* **أولاً**: اللُّب هو مركز التذكر، ولولا أنه مركز استقرار المعرفة العلمية، وميزان استخراج المعرفة بما أودع الله فيه من أصولها، والمقياس الصالح لقبول الحقّ ورفض الباطل، بما لديه من أصول فطرية يتذكرها ويقيس عليها، لما كان مركز التذكر. وفي كون اللب مركز التذكر وردت ستة نصوص قرآنية، وهي:

(أ) قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾.

فحصر الله التذكر النافع لصاحبه، والذي يمدّه بالحكمة في السلوك، بأولي الألباب، والحكمة في السلوك هي وضع الأشياء في مواضعها، وهذا لا يكون إلاّ إذا استندت الإرادة العاقلة إلى ما يقدمّه اللّب لها من تذكر للمعرفة.

(ب) وقول الله تعالى لرسوله في سورة (آل عمران ٣):

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾.

فتذكر أولي الألباب هنا، هو استدعاؤهم لما يعرفون من أصول يقينية عن الله وصفاته ودلالات المحكمات من آياته، ليحملوا ما تشابه عليهم على ما هو محكم غير متشابه، وما ظلّ غامضاً لديهم يؤمنون به كلاماً منزّلاً، ويقولون: آمنا به، كلٌّ من عند ربنا، ويرفضون المعاني التي ثبت لديهم وجوب رفضها في المحكمات من آيات الله، وفي أصول الفكر اليقينية القطعية.

(ج) وقول الله تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾.

فالذي يعلم أنّ ما أُنزل إلى رسول الله من ربّه الحقّ، هو الذي آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم إذ عرف دلائل صدقه، وتفكر فيما أنزل الله إليه فعرف أنه حق لا شكّ فيه، فاستقرّ ذلك في لُبّه، فهو يتذكره ويستدعيه عند كلّ سلوك يريده، لذلك جاء وصف أولي الألباب بعد هذه الآية بصفات سلوكية أمر الله بها المؤمنين:

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

(د) وقول الله تعالى في آخر سورة (إبراهيم ١٤):

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

فهذا القرآن بلاغ للناس ليؤمنوا بربهم، وبما جاء فيه من عقائد ومبادىء وشرائع وأحكام، وليكون لهم منذراً بما اشتمل عليه من آيات إنذار بعذاب الله لمن كفر وعصى، وليعلموا من آياته وما اشتملت عليها من دلائل فكرية وخبرية أنّما الله إله واحد لا إله إلا هو، وليحفظ ما جاء فيه أولو الألباب، ويتذكروا أحكامه ونصائحه ووصاياه، عند كلّ سلوك يريدون في حياتهم.

(هـ) وقول الله تعالى في سورة (ص ٣٨):

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

فهذا القرآن كتاب مباركٌ لاحتوائه على كلّ ما يسعد الناس، من توجيهات ونصائح وأوامر ونواهي وعظات لو اتبعوها وعملوا بها، وقد أنزله الله ليتدبر الناس آياته فيفهموا بعمق ما اشتملت عليه من دلالات لا ليهجروه، أو يكتفوا بترديده دون فهم وعمل. وليتذكر أولو الألباب ما وعوا مما تدبروا منه، ليعملوا بتوجيهاته ونصائحه وأوامره ونواهيه، عند كل سلوك يريدونه في حياتهم.

(و) وقول الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾.

فالذين يعلمون هم الذين استقرّت في ألبابهم المعارف، فهم يستدعون منها بالتذكر ما يحتاجون إليه عند كل سلوك يريدونه في حياتهم، حتى يكون سلوكاً حكيماً موافقاً لما تنصح به المعرفة التي سبق لهم أن اكتسبوها.

* **ثانياً**: ولما كانت حقائق قرآنية كثيرة مما يتوصل إليه الفكر بالتفكير والتأمل، ثم يستقر في دائرة اللب منه، ولمّا كانت المستقرات في اللّب تتعرضُ

للنسيان بالنسبة إلى الذاكرة الحاضرة القريبة الاستدعاء، كان كثير ممّا جاء في القرآن ذكرى لأولي الألباب، أي: تذكيراً لأولي الألباب، بحقائق هي لديهم في عمق ألبابهم، إلّا أنها بعيدة عن ذاكرتهم، فهم بحاجة إلى التذكير بها.

وقد جاء بيان أنّ بعض ما في القرآن ذكرى لأولي الألباب في نصوص منها:

(أ) قول الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ ﴾.

في هذه الآية تذكير ببعض مظاهر قدرة الله وحكمته في كونه، الدالة على وجوده وجليل صفاته، ولكن من يصل إلى هذه الحقائق إنما هم أولو الألباب، الذين يتفكرون ويتوصلون بالتفكير إلى ما تدل عليه متقنات هذا الكون، ثم تستقر في ألبابهم، وقد جاء القرآن بالنسبة إليهم مذكّراً.

(ب) وقول الله تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ ﴾.

فدلّ هذا النص على أن التوراة مثل القرآن تشتمل على هُدى، وتشتمل على ذكرى لأولي الألباب.

* ثالثاً: ولما كانت الألباب هي مراكز الدوائر العلمية الفكرية في النفوس الإنسانية، كانت أساساً لخطاب الناس في قضايا المعرفة، ولمّا كانت الألباب هي المراكز الإرشادية لدوائر النفس الإنسانية، كانت أساساً لخطاب الناس بأوامر التقوى والاستقامة على منهج السعادة الذي أمر الله عباده بالاستقامة عليه.

وفي هذا نجد عدة نصوص قرآنية، منها ما يلي:

١ ــ قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

فأولو الألباب هم الذين يعرفون واقع المجتمع البشري، ويعرفون أن في إقامة حكم القصاص حياة للناس، وإذا عرفوا ذلك تحركت عواطفهم وفق ما ترشدهم إليه معرفتهم، وتوجهت وفق ذلك أيضاً إراداتهم، ما لم تصرفهم صوارف الأهواء والشهوات ونزغات الشياطين، ولذلك كان رجاء التقوى منهم احتمالياً غير قطعي ﴿لعلكم تتقون﴾.

٢ ــ وقول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾.

فأولو الألباب هم الذين تظهر آيات الله لهم في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، وهم الذين يتفكرون في ذلك ليتوصلوا إلى حقائق المعرفة التي تصلهم بالله.

وهؤلاء هم أولو النهى الذين قال الله فيهم في سورة (طه ٢٠):

﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾.

وقال فيهم أيضاً في سورة (طه ٢٠):

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾.

النُّهى: هي الألباب المدركة للمعارف.

٣ ـ وقول الله تعالى في سورة (يوسف ١٢):

﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

فأولو الألباب هم الذين يدركون بألبابهم العبر التي تتضمنها قصص الأولين، فتكون لهم عظة.

٤ ـ وأمر الله أولي الألباب بالتقوى لأنّ ألبابهم هي التي تدرك الأمر، وتعرف الخير والشر، فقال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

* * *

الفصل الثامن

في العَقْل

العاقل في اللغة: هو الذي يحبس نفسه ويردّها عن هواها، والجامع لأمره ورأيه. والعقل ضدّ الحماقة.

وأصل مادّة الكلمة يدور حول معنى الإمساك بالشيء وحبسه وربطه، مأخوذ من معنى ربط الدابة بعقالها، تثبيتاً لها وحبساً لها عن الشرود.

والعقل: الحِجْرُ والنُّهى، وسمِّي عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك، أي يحبسه.

ولدى تتبّع الاستعمالات القرآنية لمشتقات هذه المادّة نلاحظ أنها استعملت بمعنى عقل المعنى، أي: فهمه وربطه وتثبيته في الدائرة التي من صفاتها التفكّر والفهم والمعرفة والعلم، والتمييز بين الحق والباطل والخير والشر، وتثبيت المعومات وتذكّرها عند الحاجة.

ونلاحظ أنها استعملت بمعنى عقل النفس وحبسها عن أن تنطلق مع الهوى إلى ما فيه شرٍّ أو ضرٍّ أو أذى، عاجل أو آجل.

فحبس النفس عن معصية الله من العقل، وضبط النفس بقوّة الإرادة من العقل، والصبر من العقل، والحكمة في تصريف الأمور من العقل.

فالعقل على هذا المعنى ينطبق على الإرادة الحازمة القوية القادرة على ضبط النفس، المستندة إلى نتائج العقل العلمي الواعي، وما انتهى إليه من حقائق فهمها ووعاها وعقلها، وقدّم بها نصحه للعقل الإرادي.

فالعقل عقلان: عقلٌ علمي، وعقل إرادي.

والعقل الإرادي لا يكون عقلاً حقّاً ما لم يستند إلى نتائج العقل العلمي، وإلّا كان إرادة جانحة رعناء حمقاء مهما كانت حازمة وقوية، ولا بدّ أن تكون حينئذٍ خاضعة لهوى من أهواء النفس، وقد يكون هذا الهوى خفيّاً، كهوى الاستبداد وحبّ التسلط، وهوى الرغبة بقهر النفس لاكتساب مجدٍ ما عند الناس.

والعقل العلمي قد لا يقترن بالعقل الإرادي، إذ قد يتوصل الإنسان إلى معرفة علمية حقّة، ويعقلها، إلا أنه يكون عاجزاً عن ضبط نفسه وحبسها عن الانطلاق مع أهوائها وشهواتها التي تدفع به إلى مهالكه، وتقذف به إلى سوء المصير.

مع دلالات النصوص القرآنية

* **أولاً**: فمن النصوص التي دلت على العقل العلمي ما يلي:

١ ـ قول الله تعالى للمؤمنين بشأن فريق من اليهود في سورة (البقرة ٢):

﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

فهذا الفريق من اليهود يحرّفون كلام الله فيتأوّلونه على غير تأويله، من بعد ما عقلوا معناه المقصود، إذ فهموه فهماً جليّاً واضحاً، وثبت هذا الفهم في أذهانهم، ولكن غلبهم الهوى، فحرّفوا معناه إلى ما يهوون، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم يحرّفون، فتحريفهم عمل مقصود.

فهم قد ملكوا عقلاً علميّاً، ولكنهم لم يملكوا عقلاً إرادياً يعقلهم عن هواهم.

٢ ـ وقول الله تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

وقد جاء هذا بعد مثل ضربه الله للذين اتخذوا أولياء من دون الله، فقال تعالى:

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

فقول الله تعالى: ﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾: يدل على أنّ هذه الأمثال إنما يعقلها عقلاً علمياً، أي يفهم دلالاتها المرادة فهماً صحيحاً، ويمسك بها في دائرة المعرفة العالمون. فالباحثون العلميون عن المعرفة والمتتبعون لها، والمهتمون بشأن معرفة الحقائق هم الذين يعقلون الأمثال التي يضربها الله للناس، أي يفهمونها فهماً صحيحاً، ويعقلون ما فهموه في دوائر العلم في نفوسهم.

٣ ـ وقول الله تعالى حكاية للحوار الذي جرى بين موسى عليه السلام وفرعون في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

اتهم فرعون موسى عليه السلام بالجنون، لأنه سأله عن حقيقة ربّ العالمين، فأجابه بآثار صنعته، وبأنه خالق السماوات والأرض و ما بينهما والمهيمن عليهما بربوبيته، ولم يجبه عن حقيقة ذاته، فردّ موسى على فرعون ردّاً مهذباً، أكد فيه أنّ الربّ الخالق يكفي لإثباته مظاهر صفاته في خلقه، ويدرك هذه الحقيقة الذين يعقلون، أي الذين لديهم عقل علمي يفهمون به حقائق

الدلالات، وينتقلون من الآيات الظاهرات إلى ما تدلّ عليه هذه الآيات، ثم يمسكون بهذه الحقائق ويثبّتونها في دوائر العلم لديهم.

فإن كنتم تعقلون فهمتم ذلك وكفتكم هـذه الآيات البينـات، وإذا لم تفهموا ذلك فأنتم لا تعقلون، أي فأنتم الذين تستحقون الوصف بالجنون، ولكن موسى عليه السلام كان مهذباً في رده، إذ اكتفى بمتابعة استدلاله، مع ربط وجود الفهم بشرط وجود العقل العلمي السليم.

* **ثانياً**: ومن النصوص التي دلت على العقل الإرادي المستند إلى العقل العلمي ما يلي:

١ ــ خاطب الله علماء بني إسرائيل بقوله في سورة (البقرة ٢):

﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

أي أتأمرون الناس بفعل البر ــ وهذا يدلّ على أنهم يعلمون البرّ، فهم يأمرون الناس به على علم ــ وتنسون أنفسكم؟! أي فلا تأمرونها كما تأمرون الناس، مع أنكم مكلّفون بما تأمرون الناس به، فأنتم أسبق منهم علماً وأوسع منهم معرفة، وأنتم تتلون الكتاب، فتستزيدون من تلاوته علماً وتذكراً.

أفلا تعقلون؟! أي أفليس لديكم عقل إرادي تستطيعون به عقل نفوسكم عن اتباع أهوائها وشهواتها، واتباع خطوات الشيطان إلى معصية الله تعالى، وإلى ما فيه هلاككم وعذابكم عند ربكم.

٢ ــ وقال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

أي: ولو شاء ربّك مشيئةً قدريّة أن يؤمن جميع من في الأرض لجعلهم مجبورين غير مختارين، ولسلبهم حريّة الاختيار التي وهبهم إيّاها، وعندئذٍ يكونون جميعاً مؤمنين إيماناً جبرياً لا إيماناً اختيارياً.

أفأنت يا محمد تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين، وهو شيء لم يختره الله لنفسه، بعد أن قضت حكمته أن يجعلهم مخيرين غير مجبورين ليمتحنهم بالتكاليف، ثم ليجازيهم على اختيارهم الإرادي.

﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله﴾ أي: وإذن الله في إيمان النفوس مقرون باختيارها للإيمان، ولا يكون عن طريق إجبارها لأنه مخالفٌ لسنته في خلقه، فهو لا يأذن به، فلا فائدة إذن من اللجوء إلى طريق الإكراه.

﴿ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾: أي فالذين يتبعون أهواء نفوسهم وشهواتها، ويستجيبون لدواعي الكبر والفجور فيها، ولا يكون لديهم إرادة حازمة عاقلة تعقلهم عن مزالق الكفر والفسوق والعصيان، تقضي سنّة الله فيهم أن يجعل عليهم رجس الانتكاس والارتكاس والطرد من مواطن الرحمة.

فهؤلاء لم ينقصهم العلم بقضايا الإيمان، وإنما لم يستعملوا إراداتهم في ضبط نفوسهم وحبسها وعقلها في طريق الهداية الربّانية، ومنعها عن اتباع أهوائها وشهواتها، والاستجابة لوساوس الشياطين وتسويلاتهم.

٣ ــ وفي شأن الذين كانوا ينادون الرسول صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات وهو فيها مشغول بشؤونه الخاصة، قال الله لرسوله في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾.

الظاهر من دلالات هذا النص أن هؤلاء الذين كانوا ينادون الرسول صلى

الله عليه وسلم من وراء الحجرات، لبعض مسائلهم، كانوا من الذين ليس لديهم صبر حتى يخرج الرسول إليهم، فهم يستعجلون قضاء حوائجهم بالنداء.

وعدم صبرهم ناتج عن أنهم لا يملكون إرادات قوية حازمة تضبط نفوسهم، وتعقلها عن التسرع غير المحمود، لذلك وصفهم الله بقوله: ﴿أكثرهم لا يعقلون﴾.

فنفي العقل هنا نفي للعقل الإرادي على ما يظهر والله أعلم.

٤ ــ وفي شأن الذين اتخذوا دين المسلمين أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلهم والكافرين الآخرين، قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

فالظاهر من نفي العقل عن هؤلاء أنه نفي لعقلهم الإرادي، الذي يمنع العاقل عادة من أن يتورط في قبيحة الاستهزاء بمن يعبدون الله، مؤمنين به متجهين له.

وذلك لأن أهل الكتاب منهم يؤمنون بالله على طريقتهم، فليس من شأنهم أن يستهزئوا على أساس أنهم يستسخفون عمل المسلمين من الناحية الفكرية. ولأن الكفار منهم يعبدون الأوثان فأجدر بهم أن يستهزئوا من أنفسهم.

لم يبق إلا أنهم يستهزئون استجابة لدوافع نفسية لم تجد لديهم عقلاً إرادياً.

* * *

الفصل التاسع

الإنسان بوجهٍ عام

تحدث القرآن عن الإنسان بوجه عام، فأبان أصل نشأته ووجوده، والغرض من خلقه مزوداً بما خُلق فيه من صفات وخصائص، وذكر جملة من صفاته وخصائصه التكوينية التي فطره الله عليها، وجملة من الصفات الكلية العامة التي تنتج عن سلوكه الإرادي، وما يختار لنفسه في الحياة، وأعطى أمثلة وقواعد هي مثابة ظواهر اجتماعية تشتمل على أحكام عامة أغلبية، ليس فيها تعيين وليس فيها تحديد، كشأن الأحكام النسبية التي تقدمها بعض الإحصاءات العلمية للمجموعات البشرية.

ونستعرض في الفقرات التاليات طائفة مما جاء في القرآن عن الإنسان.

— ١ —
خَلْقُ الإنسان ونشأته، والغاية من خلقه

أبان الله لنا في القرآن كيف خلق الإنسان الأول، وأن الإنسان قد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، وأبان لنا أن خلق من الإنسان الأول زوجه، وأنه بث منهما عن طريق التناسل المشهود لدى السلالات الإنسانية رجالاً كثيراً ونساءً، وذكر لنا الغاية من خلقه.

خلق الإنسان:

أما بدء خلق الإنسان فقد مر في مراحل:

فالعنصر الأول من العناصر التي تكوّن منها هو الماء، والعنصر الثاني هو التراب، والتراب يحتوي على جملة من مختلف عناصر الأرض.

ثم كانت مرحلة الطين اللازب، أي المتماسك اللزج، الذي يلتصق بعضه ببعض.

ثم تغير الطين فصار حمأً، أي إنه اسودّ وصارت له رائحة منتنة.

ثم صار الحمأ مسنوناً، أي صارت له صورة معينة، وأخذ شكلاً خاصاً، والمسنون هو المصور، وكذلك المملس.

ثم جف وصار صلصالاً كالفخار، والصلصال هو الطين اليابس من غير أن يطبخ بالنار، وسمي صلصالاً لأنك إذا نقرته صل، أي صوّت من يبسه.

ثم نفخ الله فيه الروح من لدنه، فكان بشراً سوياً، ذكراً.

ثم خلق منه زوجه الأنثى، على مثل صورته وصفاته، باستثناء الأنوثة وخصائصها.

ثم بث منهما رجالاً كثيراً ونساءً عن طريق التناسل، من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة، ثم جنيناً كاملاً دبت فيه الروح البشرية، فإذا تمت دورة حمله نزل من بطن أمه وليداً يستهل صارخاً.

وبين المراحل البارزة هذه أطوارٌ من الخلق، منها ما اكتشفه البحث العلمي، ومنها ما لا يزال غيباً في علم الله الخالق عز وجل.

أما ما دل على هذه الحقائق من القرآن ففيما يلي بيانه:

* **أولاً**: لم يكن الإنسان شيئاً مذكوراً ثم وجد، دل على هذه الحقيقة قول الله تعالى في سورة (الإنسان ٧٦):

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾.

أي: إن الإنسان بخصائصه التكوينية التي هو عليها لم يكن شيئاً مذكوراً،

سواء في ذلك نوعه وكل فرد من أفراده، فلقد مر عليه حين مديد من الدهر السحيق في أغوار الزمن الماضي لم يكن للإنسان فيه وجود، ولم يكن شيئاً مذكوراً مطلقاً، إذ كان في بحر العدم المحض الذي لا حدود له.

وقد جاء هذا البيان على طريقة التساؤل، لانتزاع الجواب من منصفي أهل العلم وأهل النظر. والجواب الحتمي: نعم لقد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً.

هذا هو واقعه، إذ لو كان له وجود لعرف هذا الوجود، ولكان له ذكرٌ ما، ولكنه لم يكن له وجود، ولم يكن شيئاً مذكوراً، وصفاته تدل على أنه كائن حادث غير قديم، لا في أفراده، ولا في نوعه، ولا في العناصر الأصلية التي يتكون منها، بهذا تشهد الدراسات العلمية الحديثة والحقائق الفلسفية والرياضية.

وإذا ثبتت هذه الحقيقة لزم عنها أن الإنسان لا بدّ له من محدث يحدثه، وخالق يخلقه، لأن الفلسفة الفكرية والبحث العلمي يثبتان أن كل شيء لم يكن موجوداً ثم وجد بعد ذلك لا بد له من موجد قد أوجده، أي: لا بد له من خالق قد خلقه، إذ العدم المحض لا يصلح بذاته أن يتحول إلى الوجود، لكن الخالق الذي له الوجود الثابت الدائم هو الذي يوجد الأشياء من العدم، بما لديه من قدرة وإرادة وعلم وحكمة وفيض إنعام.

والاستفهام في «هل أتى» قيل فيه: إن هل بمعنى (قد) وقد روي هذا عن ابن عباس، وذكره جماعة من المفسرين، إلا أني أرى إبقاءه على بابه، وهو ما ذهب إليه كثير من المفسرين، وقال ابن هشام في كتابه «مغني اللبيب»: وهذا هو الصواب عندي.

والظاهر أن ما صوبه ابن هشام يبقي الآية في مستواها البلاغي الرفيع، إذ تفتتح سورة (الإنسان) باستفهام لا جواب له إلا (نعم). وهذا ألطف سبيل لانتزاع الاعتراف بالحقيقة، وأقوى وأوقع من تقديم الحقيقة على شكل تقرير قد يتطلب في نفس السامع إقامة الدليل عليه.

* **ثانياً**: الماء هو العنصر الأول من العناصر المادية التي تكون منها خلق جسد الإنسان، كما هو العنصر الأول الذي خلق منه كل كائن حي حادث، وهو المرحلة المادية الأولى في الخلق.

دل على هذه الحقيقة نصوص متعددة من القرآن الكريم، فقبل خلق السماوات والأرض كان عرش الرحمن على الماء، فدل هذا على أن الماء طور من الخلق سابق على خلق السماوات والأرض، قال الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ . . . ﴿٧﴾ ﴾.

والعلم يقول: إن الماء أبسط العناصر المادية، إذ يتألف من ذرتين.

وفي كون الماء هو المادة التي خلق الله منها كل شيءٍ حي، يقول الله تعالى في (سورة الأنبياء ٢١):

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

ويتناول هذا أبسط الأشياء الحية، حتى أبسط النباتات.

وفي كون الماء هو المادة التي خلقت منها الدواب، والدواب التي تدب على الأرض أصناف مرتقية في الكائنات الحية، يقول الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾.

والإنسان قمة المخلوقات الحيوانية في الأرض، وقد خلقه الله من الماء، أي: إن الماء هو المادة الأولى التي تكون منها خلقه، وفي بيان هذه الحقيقة يقول الله تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾.

* **ثالثاً**: التراب هو العنصر الثاني من العناصر التي تكون منها خلق جسد الإنسان.

فالإنسان الأول كان التراب عنصراً من عناصر تكوين خلقه، وفي بيان هذه الحقيقة يقول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾.

وفي كون التراب عنصراً أساسياً من عناصر تكوين كل إنسان بعد آدم، إذ من التراب النبات، ومن النبات الغذاء، ومن الغذاء الدم، ومن الدم النطفة، ومن النطفة الجنين؛ وفي هذا يقول الله تعالى في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿١١﴾ ﴾.

ويقول تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

ويقول في سورة (الروم ٣٠):

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

* **رابعاً**: ومن امتزاج عنصري الماء والتراب يتكون الطين، فالطين هو المزيج الذي تكون منه خلق جسد الإنسان.

والطين مؤلف من ماء وحفنة من تراب الأرض، وهذا التراب يجمع جملة من عناصر الأرض بنسبٍ ومقادير على وفق علم الله وحكمته.

وفي بيان هذه الحقيقة يقول الله تعالى في سورة (السجدة ٣٢):

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

ومرحلة الطين هذه في بدء خلق الإنسان الأول وصفها الله بأنها طين لازب ـ أي طين لاصق بعضه ببعض متماسك لزج ـ فقال تعالى في سورة (الصافات ٣٧):

﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (ص ٣٨):

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

* **خامساً**: وبعد مرحلة الطين تأتي مرحلة الحمأ المسنون، والحمأ هو الطين الأسود المنتن، والمسنون هو المصور، أو المملس.

وفي بيان هذه المرحلة من خلق الإنسان الأول قال الله تعالى في سورة (الحجر ١٥):

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.

فالطين مر في أطوار تغيرت فيها رائحته واسودّ حتى صار حمأ، ثم صار مملساً مصوراً بخلق الله، فصار حمأ مسنوناً.

* **سادساً**: وبعد مرحلة الحمأ المسنون، تأتي مرحلة جفاف الطينة ويبسها، حتى صارت صلصالاً، إذا نقرته صوّت من يبسه، وهذا الصلصال

يشبه الفخار إلا أنه ليس فخاراً، لأن الفخار مطبوخ بالنار بخلاف الصلصال، فهو طين يابس غير مطبوخ بالنار، وفي بيان هذه المرحلة قال الله تعالى في سورة (الرحمن ٥٥):

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

وهذا بالنسبة إلى الإنسان الأول، أما بالنسبة إلى السلالات البشرية، فالمراحل من الطين إلى النبات، إلى الغذاء، إلى الدم، إلى النطفة، إلى العلوق، ثم العلقة فالمضغة إلى ما وراء ذلك.

* **سابعاً**: ثم تأتي مرحلة نفخ الروح: فبالنسبة إلى الإنسان الأول كان ذلك بعد أن صارت الطينة صلصالاً ذا صورة بشرية كاملة، عندئذ نفخ الله فيه من روحه، فكان بشراً سوياً. وبالنسبة إلى السلالات الإنسانية فإن نفخ الروح يكون في الجنين من بعد علوقه بنحو أربعة أشهر.

أما بالنسبة إلى الإنسان الأول فما جاء بيانه في قصة خلق آدم، ومنه الشاهد الذي استشهدنا به من سورة (ص).

وأما بالنسبة إلى السلالات الإنسانية فقد أبانه الله لنا بقوله في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾.

فقد جاء في هذا النص ذكر المرحلة الأولى، ثم انتقل إلى بيان خلق السلالات الإنسانية بعد خلق آدم وزوجه، وأبان من أطوار هذا الخلق ومراحله تكوّن النطفة، ثم خلق النطفة علقة في أرحام الأمهات، ثم خلق العلقة مضغة، ثم خلق المضغة عظاماً، فما يتبع ذلك من بناء اللحم على العظام، ثم تأتي مرحلة نفخ الروح الإنسانية التي يكون بها الجنين خلقاً آخر.

وهذه الحقائق التي ذكرها القرآن مما يخضع لإمكان البحث الإنساني قد أصبحت معروفة تماماً في الدراسات العلمية الإنسانية، وأثبت البحث العلمي الإنساني ما جاء في كتاب الله.

أما بدء خلق الإنسان الأول وخلق زوجه منه فهو لا يخضع للمشاهدة الإنسانية ولا يخضع للتجربة، فلا بد من التسليم بما جاء في كتاب الله تعالى في شأنه، وكل تفسيرات إنسانية تخالف ما جاء في الدين الصحيح فإنها تكهنات وتخرّصات ورجم بالغيب، ولا تملك أدلة صحيحة تثبتها.

* **ثامناً**: ثم بعد خلق الإنسان الأول الذكر وهو آدم، خلق الله منه زوجه، وفي بيان هذه الحقيقة قال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا . . . ﴿١٨٩﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴿٦﴾ ﴾.

وآية الزمر هذه تدل على أنه قد مرت مدة على آدم قبل أن يخلق الله منه زوجه، لأن الظاهر من حرف العطف (ثم) أنه يفيد التراخي.

ولكن لم يأت في النصوص ما يدل على الكيفية التي تم بها خلق حواء من آدم، إلا ما جاء في الحديث من أن المرأة خلقت من ضلع، أي أخرجها الله من ضلع من أضلاع آدم، كما جاء في الحديث أيضاً أن التراب الذي عجنت فيه طينة آدم قد كانت من جميع الأرض، أي من جميع عناصرها.

روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر

الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك».

وروى البخاري ومسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خُلقن من ضِلْع، وإن أعوج شيءٍ في الضِّلْعَ أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً».

وروى مسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن المرأة خلقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها».

* **تاسعاً**: خلق السلالات الإنسانية بعد خلق الإنسان الأول وزوجه، يمر بمرحلة النطفة الأمشاج، قال الله تعالى في سورة (الإنسان ٧٦):

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾.

فالله تبارك وتعالى هو خالق هذا الإنسان وموجده، ضمن سنن كونه التي جعلها سبحانه أسباباً، ويمر خلق السلالات الإنسانية بمرحلة النطفة الأمشاج، فمنها تبدأ نشأة تكوينه بعد مراحل الماء والتراب والطين والنبات والغذاء والدم.

أمشاج: أي أخلاط، ولا تسمى الأشياء المتعددة أخلاطاً ما لم تكن مختلفة الصفات مختلفة الخصائص، أما المتماثلة فإنها لا تسمى أخلاطاً وإن اجتمعت في كتلة واحدة.

وإذا سألنا علماء الأحياء عن العناصر التي تتألف منها النطفة التي يتكون منها الإنسان، جاء جوابهم بأنها أخلاط من صبغيات تحمل عوامل وراثية، وخصائص وصفات، بقدر ما يظهر في الإنسان بعد تكوينه من صفات جسدية وفكرية ونفسية.

الغاية من خلق الإنسان:

دلت النصوص على أن الغاية من خلق الإنسان في ظروف هذه الحياة الدنيا، مزوداً بخصائصه التي هو عليها، ابتلاؤه واختباره، قال الله تعالى في سورة (الإنسان ٧٦):

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾.

فدل هذا النص على عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن الغاية من خلق الإنسان ابتلاؤه، وهو اختباره في ظروف هذه الحياة الدنيا.

نبتليه: أي نمتحنه ونختبره. فخلق الله لهذا الإنسان من أخلاط من الصفات الكبرى الجسدية والفكرية والنفسية، إنما كان ليضعه موضع الابتلاء في ظروف هذه الحياة، وفي هذا بيان كافٍ للغاية من خلقه بصفاته وخصائصه الفكرية والإرادية والنفسية والجسدية.

الحقيقة الثانية: أن الخالق لمّا خلق الإنسان للابتـلاء منحه وسائل المعرفة، ليستكمل الله له بها شروط الامتحان الأمثل، وذلك حتى يتعرف بهذه الوسائل على الأدلة التي بثها الله في كونه، وحتى يستطيع إدراك وصايا الشرائع والتعاليم الربانية التي ينزلها الله للناس، لذلك قال تعالى: ﴿فجعلناه سميعاً بصيراً﴾.

أي: لمّا كان ابتلاؤه هو الغاية من خلقه بهذا التركيب العجيب من أخلاط مختلفة، كان لا بد من تزويده بوسائل المعرفة، وأهم وسائل المعرفة التي ترتبط بها المسؤوليات هي السمع والبصر.

وبهذا البيان تنتهي تساؤلات كثيرة تدور في النفوس.

الحقيقة الثالثة: أن الخالق أودع في الإنسان الطاقة الإدراكية التي يدرك بها سبيل هدايته ورشاده، وسبل ضلاله وفساده، وأنزل له الشرائع التي تنير له

الطريق، وتوجهه لسواء السبيل، وتحذره من سبل الشر والضلال، حتى يكون على بينة من أمره، ومن مصيره الذي يكتبه لنفسه بمسيرته في حياته.

دل على هذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿إنا هديناه السبيل﴾ أي: لمّا كان الغرض من خلقه ابتلاءه، فإننا لم نتركه وشأنه من غير هداية وإرشاد، بل هديناه السبيل، وهو سبيل هدايته ورشاده وسعادته، في حياته الدنيا، وفي الحياة الأخرى.

ومن عرف سبيل الهداية، وتحددت له معالمه، وعرف أنه لا سبيل غيره، عرف أن ما عداه سبل ضلالة وغواية، وخيبة وشقاء.

فأفاد هذا النص بدلالته وبلازمها الذهني ما أفاده قوله تعالى: ﴿وهديناه النجدين﴾.

الحقيقة الرابعة: بيان واقع حال الإنسان بعد ظروف الامتحان، فهو إما أن يكون شاكراً ولو شكراً ما، وإما أن يكون كفوراً، لا يقدم من الشكر ولا بمقدار ذرة من إيمان بالله وامتثال لتكاليفه. دل على هذه الحقيقة من النص قوله تعالى: ﴿إما شاكراً وإما كفوراً﴾.

وهذا الواقع الإنساني يلازمه أمران:

الأمر الأول: أن الإنسان موضوع تحت المراقبة الدقيقة.

الأمر الثاني: أن الإنسان معرض للجزاء بالثواب أو بالعقاب، وهذه النتيجة هي التي تبرز ثمرة الامتحان، وإلا كان امتحاناً عبثاً، والله تبارك وتعالى حكيم منزه عن العبث، قال تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾.

— ٢ —
الإنسان كادح مكابد في هذه الحياة

دل البيان القرآني وأثبت الواقع المشاهد أن الإنسان كادح مكابد في كل ظروف هذه الحياة الدنيا، منذ نشأته حتى انتهاء أجله، وراحة الإنسان في هذه الحياة كراحة المسافر إذا حط رحله للزاد والماء، ونوم على قلق، أما طريق سفره ففيها الوادي والجبل، والسهل الوعر، والحر والبرد، والليل والنهار، والغيم والصحو، والجفاف والوحل، والخوف والأمن، والنسبة الغالبة كدٌّ وتعب.

قال الله تعالى في سورة (البلد ٩٠):

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (الانشقاق ٨٤):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾.

في كبد: الكبد الشدة والمشقة والضيق.

كادح: الكدح العمل والسعي بنصب ومشقة في كسب خير أو اكتساب شر. فالكادح هو العامل الساعي الذي يعاني في كدحه تذليل الشدائد، وتحمل المشقات، والخروج من المضايق.

في هذين النصين يبين الله تعالى أنه خلق الإنسان ضمن ظروف هذه الحياة الدنيا في محيط من الكبد، أي في محيط من الشدة والمشقة والضيق، لذلك فهو بحاجة لتحقيق مطالبه من خير أو شر إلى الكدح، أي إلى السعي والعمل بنصب ومشقة.

وإذ خلقه الله في محيط من الكبد فهو كادح في حياته كدحاً يتحمل به آلام

المتاعب والمشقات، ومصير كدحه إلى ربه، ويومئذٍ يلقى جزاء كدحه. فإن كدح في طلب الخير ابتغاء مرضاة ربه نال ثوابه عنده أجراً عظيماً في جنات النعيم، وإن كدح في طلب الشر إرضاء لأهوائه وشهواته نال عقابه عند ربه بالعدل، وكانت النار مثواه.

حقاً لقد خلق الله الإنسان في كبد، فهو يكابد ما في هذه الحياة الدنيا من متاعب ومشقات بكدح شديد. وكدحه إما أن يكون في سبيل الخير ومرضاة الرب، وإما أن يكون في سُبل الشر والإثم والعدوان واتباع خطوات الشيطان.

إن الإنسان يمر في سلسلة من المتاعب والمشقات التي يعانيها ويكابدها منذ نشأته.

لقد كابد قبل أن يعرف نفسه اجتياز كل عقبة حوله، حتى أصبح إنساناً فعرف نفسه. كابدت جرثومته الأولى سباقاً عنيفاً بينها وبين الملايين من أشباهها، حتى استطاعت أن تشق طريقها إلى الحياة الإنسانية. وحين تطورت فأصبحت جنين إنسان كابدت مشقات السجن المحدود والقيد المشدود في بطن الأم. ولمّا تكامل الجنين ونضج وأراد الله له أن يتنسم نسيم الحياة على الأرض الواسعة كابد مشقات النفوذ من المضايق الشديدة عند الولادة. وما أن دب على ظاهر الأرض حتى أحاطت به مشقات أكثر عدداً وأشد قسوة.

وكلما تدرج في أطوار النمو عظمت أمامه العقبات، وتطلبت منه الحياة مكابدة أعظم. وكلما زادت لديه تجارب الكدح والمكابدة في مصارعة مشقات الحياة واجتياز عقباتها ومغالبة كل معارضة أو منافسة، ظهرت في نفسه دوافع جديدة تسوقه إلى مغامرات جديدة، يكابد فيها آلاماً جساماً، فهو في تطلع مستمر إلى الاستزادة، كلما انتهى به سعيه إلى جديد، ولذّله ذلك الجديد، نما في نفسه الحرص والطمع، فأخذ يكابد مشقات أخرى لتحصيل مطالب أخرى للنفس أو للفكر أو للجسد، للدنيا أو للآخرة، فهو في مكابدة مستمرة وكدح لا ينتهي إلا بموته.

هذه حقيقة مشاهدة في السلوك الدائم للإنسان، وهي التي جعلت المعري يقول:

تعب كلها الحياة فما أعـ ـجبُ إلا من راغبٍ بازديادِ

نعم، فالإنسان حريص على البقاء، ومن أجل ذلك فهو يتحمل أنواعاً من الكدح والمكابدة للحصول على الرزق، وفي مكابدته وكدحه يصطدم بعقبات كثيرة، فإن وصل إلى ما يشتهي كابد مشقات الحفظ والحماية من أيدي الظالمين، وإن لم يصل إلى ما يشتهي كابد آلام الفقد والحرمان.

وفي حياة الإنسان أنواع أخرى كثيرة من المكابدات التي يكابدها.

للحب مكابدة وكدح، وللكراهية مكابدة وكدح، وفي الجود مكابدة، وفي الشح مكابدة، وفي الصبر مكابدة، وفي الضجر مكابدة، وفي الطمع مكابدة، وفي القناعة مكابدة، وفي طاعة الله وفعل الخيرات مكابدة وكدح، وفي معصية الله وفعل الشر مكابدة وكدح.

إن معظم ظروف الحياة تتطلب من الإنسان مكابدة وكدحاً، وصدق الله العظيم: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾. ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾.

وما دام الإنسان في ظروف الحياة التي تتطلب منه أن يكون كادحاً في الخير أو في الشر، فإن العقل السديد والرأي الرشيد يوجبان عليه أن يكدح كدحاً يحقق له النجاح في الدنيا، وأكبر حظٍ من سعادة النفس فيها، ثم يحقق له مرضاة الله والسعادة الخالدة عنده يوم الجزاء الأكبر.

﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً * وينقلب إلى أهله مسروراً﴾ وهم أهله في جنة النعيم.

﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ويصلى سعيراً﴾ أي يدعو على نفسه بالهلاك الدائم الذي لن يحصل عليه، لما يرى من العذاب الأليم في دار الجزاء.

ـ ٣ ـ

الإنسان حيــوان مبــين

امتن الله على الإنسان بأنه علمه البيان، فقال تعالى في أول سورة (الرحمن ٥٥):

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾.

أي: علمه القدرة على التعبير بالكلام عمّا في نفسه من مشاعر، وعمّا في فكره من معاني.

والبيان عند الإنسان من المواهب الجليلة التي وهبه الله إيّاها، فهو الوسيلة التي يعرّف بها غيره حصائل خبراته وتجاربه، ويتعرف بها على حصائل خبرات الآخرين وتجاربهم. وهو الوسيلة التي يكشف بها الإنسان عن مطالبه وحاجاته، ومشاعر نفسه، وآلامه وآماله، وينقل بها أفكاره وعلومه للناس، ويتلقى بها أفكار الناس وعلومهم.

واللسان المبين ترجمان النفس والفكر، وعن طريقه تلتقي النفس بالنفس، والفكر بالفكر، فإذا أضيفت إليه الكتابة بالقلم اكتملت للإنسان وسائل هذا اللقاء النفسيّ والفكري، وإن لم يحصل التلاقي الجسدي، ولو تباعدت الأزمنة والأمكنة، ولو صار أحد طرفي اللقاء من الغابرين ومن أهل القرون الأولى، فباستطاعتنا على هذا أن ندخل الكتابة ضمن عموم البيان.

واللسان ترجمان الإرادة والمعبّر عنها، فالعقود بين المتعاقدين تعتمد على بيان اللسان الذي يدلّ على ما في النفس من إرادات جازمة، كعقود البيع والشركة والرهن والهبة والزواج وغير ذلك من عقود كثيرة. وكذلك حلّ العقود يعتمد على بيان اللسان، كالطلاق والعتق وإنهاء عقد الشركة ونحو ذلك.

وبهذا تظهر لنا أهمية الكلمة في حياة الإنسان، وأهمّيّة الكلمة في تعاليم الإسلام. فالالتزامات الدينية التي تحوّل الطاعات التي ليست بواجبة إلى طاعاتٍ واجبة تعتمد على الكلمة وهي كلمة النذر، والعهود والوعـود ـ وهي من

الالتزامات التي يلتزمها الإنسان تجاه غيره ـ يعتمد تثبيتها على الكلمة، وإعلان الإسلام وإعلان الكفر يعتمدان على الكلمة، فالنطق بالشهادتين يُدخل في الإسلام، والنطق بألفاظ الكفر يخرج من الإسلام.

إنّ كلمة واحدة قد تعصم من القتل، وأخرى قد تسوق إليه، وإنّ كلمة قد تدخل الجنة، وأخرى قد تدخل النار، نظراً إلى أنّ الكلمة في الأصل إنما هي تعبير عما في النفس.

روى البخاري عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«إنّ العبد ليتكلّم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقي لها بالاً، يرفعه الله بها درجات، وإنّ العبد ليتكلّم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم».

وفي وصية الرسول صلوات الله عليه بحفظ اللسان روى الترمذي عن سفيان بن عبدالله قال: قلت: يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به قال: «قل: ربّي الله، ثم استقم» قلت: يا رسول الله، ما أخوف ما تخاف عليّ؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال: «هذا».

ولما كان الإسلام يولي الكلمة أهمية عظيمة، ولما كان من تربيته الرفيعة عنايته البالغة بصيانة لسان المسلم، نظراً إلى أنه ترجمان الفكر والنفس، وعنوان العقل، رأينا الرسول صلى الله عليه وسلم في وصيته لمعاذ بن جبل يقرّر أن مِلاكَ عناصر الخير الموجبة للجنّة كفّ اللسان.

روى الترمذي بسند صحيح عن معاذ بن جبل قال: قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسّره الله عليه، تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقييم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان وتحج».

ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصومُ جنّة، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل».

ثم تلا:

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾(١).

ثم قال الرسول صلى الله عليه وسلم لمعاذ: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟» قال معاذ: قلت: بلى يا رسول الله، قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد».

ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه فقال: «كُف عليك هذا» قلت: يا رسول الله، وإنّا لمؤاخذون بما نتكلم به؟! فقال: «ثكلتك أمّك يا معاذ، وهل يَكبّ الناسَ في النار على وجوههم إلّا حصائدُ ألسنتهم»؟!.

وتظهر أهمية الكلام حينما يكون تعبيراً صحيحاً عمّا في النفس، أما حشو الكلام ولغوه مما لا يحمل دلالة مقصودة فلا يحمل كل هذه الأهمية، ولكن على المسلم أن يصون لسانه عن اللغو من القول.

أقسام الكلام:

والكلام في حياة الإنسان: إمّا أن يكون ذا دلالة مقصودة، وهو الذي يعتبر الإنسان مسؤولاً عنه مسؤولية كلّية، لأنه بيان لما في النفس، أو لما يراد بيانه. وإمّا أن يكون ذا دلالة غير مقصودة، وهو اللغو من القول الذي ينطلق من لسان الإنسان بتأثير العادة، دون أن يلاحظ ما يدلّ عليه من معاني، أو يقوله الإنسان بغرض اللهو والعبث.

والكلام ذو الدلالة المقصودة: منه ما هو خير أو خيره غالب، ومنه ما هو شر أو شره غالب، أو استوى خيره وشره، ومنه ما هو مباح لا هو خير فيطلب، ولا هو شر فينهى عنه.

---

(١) الآيتان ١٦ ــ ١٧ من سورة (السجدة ٣٢).

وقد سمى الله كلمة الخير كلمة طيبة، وسمى كلمة الشر كلمة خبيثة، وضرب لكلٍ من الكلمتين مثلاً، فمثّل الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، ومثّل الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة، وأعلن سبحانه أن الكَلِمَ الطيب يصعد إليه.

قال الله تعالى في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴿١٠﴾ ﴾.

وأشرف أمثلة الكلم الطيب كلمة التوحيد، وهي لا إله إلا الله، فما يتصل بها من كلام يعلن تنزيه الله وتسبيحه، ويثبت كمال صفاته وأسمائه الحسنى، فما يتصل بأصول العقيدة الإسلامية.

ومن أمثلة الكلم الطيب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم كل ما فيه خير ومنفعة عاجلة وآجلة، ومخاطبة الناس بقولٍ حسن، وصدق الحديث، والنصيحة بالخير، والدعوة إلى الله وإلى خير العمل.

وأضداد هذه الأمور من أمثلة الكلم الخبيث، ككلمة الكفر، وما يتصل بها، والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، والدعوة إلى الضلال والشرّ، والكذب المنهي عنه، والغيبة والنميمة، والسبّ والشتيمة والتعيير والتنقيص وكلّ هُجر من القول.

والكلام المباح هو الكلام الذي لا ضرر فيه، وليس فيه مصلحة تطلب شرعاً ولو على سبيل الندب، وأكثر كلام الناس في مجالسهم ومعاملاتهم من هذا القبيل.

وأمّا الكلام ذو الدلالة غير المقصودة كاللغو من القول، والكلام الذي ينطلق به اللسان بحكم العادة، كالعبارات التي يكثر استعمالها في اللسان، وتكون تكأة للحديث، وكعبارات التأكيد التي يستعملها الناس دون ملاحظة دلالاتها الحقيقية، كالأيمان التي يحلفونها في غضون كلامهم، دون أن يقصدوا توثيق ما يقولون بالحلف بالله تعالى أو بصفة من صفاته، أو باسم من أسمائه؛ فموقف الإسلام بالنسبة إلى هذا القسم من الكلام موقف الصارف عنه، الناصح بتنزيه الألسنة والأسماع منه، وما كان منه بحكم تأثير العادة فقد رفع الله المؤاخذة عنه كاللغو من الأيمان، لأنها ألفاظ غير مرادة الدلالة.

وفي هذا المجال تهزّنا إلى الكمال نصوص قرآنية متعدّدة، فمنها النصوص التالية:

(أ) يقول الله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ ﴾.

(ب) ويقول الله تعالى في سورة (الفرقان ٢٥) في وصف عباد الرحمن:

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ۝٧٢ ﴾.

(ج) ويقول الله تعالى في وصف المؤمنين في سورة (القصص ٢٨):

﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ ۝٥٥ ﴾.

كل هذا بالنسبة إلى اللغو الذي يملك الإنسان دفعه أو الإعراض عنه.

أما ما يسبق إليه اللسان بتأثير العادة فقد رفع الله المؤاخذة عنه، ومن ذلك لغو اليمين، فاليمين اللغو لا يؤاخذ الله بها، ولا يوجب على من حلفها ولم يبرّ بها كفّارة، مع أنه يوصي الذين آمنوا بأن لا يجعلوا الله عرضة لأيمانهم.

قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

خلاصة صفة البيان في الإنسان:

فصفة البيان في الإنسان من جلائل الهبات التي اختص الله بها هذا المخلوق الذي كرمه.

وباستطاعتنا أن نقول في تعريف الإنسان: «الإنسان حيوان مبين».

وهذا التعريف أدق وأكمل من تعريف علماء المنطق والفلسفة: «الإنسان حيوان ناطق»، لأن هذا التعريف يعطي الإنسان صفة النطق، والنطق وحده قد لا يكون بياناً لما في النفس، وإن كان مرادهم من هذا التعريف أنه حيوان يستطيع التعبير عن أفكاره، فهم يقصدون أنه مفكر معبّر، لكن كلمة ناطق قاصرة بوضعها عن هذه الدلالة، بخلاف كلمة (مبين) المستفادة من الوصف القرآني: ﴿خلق الإنسان علمّه البيان﴾ فهي بوضعها دالة على الأمرين معاً.

— ٤ —
الإنسان قابل للعلم وصنعة الكتابة

امتنّ الله على الإنسان بما فطره عليه من قابلية للعلم، وقابليةٍ للكتابة بالقلم وسيلةً لتحصيل المعارف والعلوم.

فأوّل ما بُدىء به من الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم كان دعوة إلى القراءة، ودعوة إلى العلم، وامتناناً من الله على الإنسان بما فطر فيه من

قابليّة للعلم وصنعة الكتابة بالقلم التي يتعلّم بها كثيراً من العلوم، وذلك في قول الله تعالى لرسوله في سورة (العلق ٩٦):

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾.

ففي هذا النص نلاحظ الدلالة على ثلاثة أمور:

الأول: الامتنان بما فطر الله الإنسان عليه من قابليـة للعلم وصنعة الكتابة.

الثاني: إعلان أن رسالة الإسلام تعتمد في منطلقاتها الأولى على القراءة والكتابة وتحصيل العلم.

الثالث: تمجيد العلم وتمجيد وسائله الكبرى.

ومعلوم أنّ الرسالات الربّانية كلّها قد أنزلها الله للناس لأن الإنسان مخلوق قابل للعلم ومعرفة التكاليف الشرعية، وإدراك النصائح والوصايا الربّانية، ولولا أنّ لديه الاستعداد لذلك ما أنزل الله له رسالة أساسها العلم ووسيلتها التعلّم.

ومن تمجيد وسائل العلم أن يقسم الله بالقلم وبما يكتبه الكاتبون، وذلك في قوله تعالى في سورة (القلم ٦٨):

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ ﴾.

وقصة خلق آدم تتضمن دلالات رائعة على القابليّة العظيمة للعلم التي فطر الله الإنسان عليها. وذلك أنه لما قضت حكمة الله تعالى بأن يخلق هذا الإنسان من طين، قال للملائكة: إني خالق بشراً من طين، فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. هنا رأت الملائكة أن تسأل ربّها عن هذا المخلوق المنتظر فقالوا كما جاء في المأثور عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة: ربّنا، وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرّيّة يفسدون في

الأرض، ويتحاسدون، ويقتل بعضهم بعضاً. فقالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ فأجابهم الله تبارك وتعالى بقوله: إنّي أعلم ما لا تعلمون.

وأعطى الله آدم وهو الإنسان الأول استعداداً عظيماً لتحصيل المعارف والعلوم، وقدرة على استنباطها واستنتاجها، والتوصل إلى معرفة خصائص الأشياء وصفاتها عن طريق دراسة ظواهرها وآثارها، وعلّمه الأسماء كلّها، ويدخل في الأسماء صفات الأشياء وخصائصها.

ثم أراد الله تبارك وتعالى أن يثبت للملائكة امتياز هذا الإنسان بميزة المعرفة، فأقام مباراةً علمية بين الملائكة مجتمعين وبين الإنسان، وكانت مادّة المباراة أن عرض مخلوقاته على الملائكة وقال لهم: أنبئوني بأسماء هؤلاء؟.

فعجزت الملائكة وقالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنّك أنت العليم الحكيم. فأعلنوا بذلك اعترافهم بعجزهم، واعترافهم بعلمه المحيط بكل شيء، وبحكمته في الخلق.

فلما اعترفوا بعجزهم قال الله لآدم: يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فانطلق آدم يتدفق علماً ومعرفة بالأشياء وخصائصها وصفاتها، عندئذ قال الله للملائكة: ﴿ألم أقل لكم: إني أعلم غيب السماوات والأرض * وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾.

ثم أمر الله الملائكة بالسجود لآدم، احتراماً لعلمه وخصائصه التكوينية المتصلة بالمعرفة.

هذه القصة القرآنية تكشف أن الإنسان يمتاز بنسبة عالية جداً من قابلية تحصيل المعارف والعلوم واستنباطها، بما أودع الله فيه من استعدادات فكرية ذهنية كبيرة. ونستطيع أن نفهم من مضامينها أن الإنسان أكثر استعداداً لاستنباط المعارف واستنتاجها من الجن ومن الملائكة، وذلك بما فطره الله عليه من خصائص فكرية عالية. وما أعطاه الله لآدم قد انتقل إلى ذريته بالوراثة، ولكن على سبيل انتقال الاستعداد الفطري، لا انتقال المعارف نفسها التي علمها الله لآدم، فمفردات المعارف لا تنتقل بالوراثة، وإنما يورث الاستعداد الفطري فقط. وحينما يولد الإنسان يكون فكره صفحة بيضاء خالية من أية معرفة، هذا

ما يثبته الواقع المشاهد، ويدل عليه النص القرآني، إذ يقول الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

فقول الله تعالى: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾ يتضمن إعلاناً عن نقطة بدء المعارف التي يكتسبها الإنسان في حياته، بعد أن كان خالياً من أية معرفة، وعندها يبدأ شريط تسجيل المعارف يتحرك، أي بعد أن يستهل الولد صارخاً عقب الولادة.

وقول الله تعالى: ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ ينبه على أدوات المعرفة التي زود الخالق بها الإنسان، وأهمها السمع والبصر والفؤاد.

أما السمع والبصر فهما أهم وسائل الإدراك الحسي، وأما الفؤاد فهو مركز القوة التي تستقر فيها المعارف المكتسبة، ومما لا شك فيه أن الله تعالى لم يمنح الإنسان أدوات المعرفة إلا من أجل أن يستعملها فيما خلقت له.

وأما قول الله تعالى في آخر الآية: ﴿لعلكم تشكرون﴾ فهو إعلان عن الغاية من منحه أدوات المعرفة، ومنحه قابلية العلم والقدرة على التعلم، وتفضيله بذلك على كثير ممن خلق. فالغاية المرجوة منه عن طريق اختياره الحر الذي هو فيه ممتحن أن يشكر ربه على ما منحه وكرمه به.

وجاء الإسلام فحث الإنسان على التعلم والتعليم، وحدد مسؤوليته تجاه ما كرمه به خالقه، ودفعه إلى التعرف على حقائق الأمور، وصفات الأشياء وخصائصها، ليتابع في حياته البحث العلمي السليم، وليكتشف من أسرار هذا الكون ما يدل على عظمة خالقه، وعلى عظيم صفاته وجليل حكمته، وليتوصل إلى معرفة ما يجب عليه نحوه من طاعة وعبادة وشكر وليحسن الانتفاع مما بث الله في هذا الكون من قوى وخيرات، على الوجه الذي أذن للناس به إذناً شرعياً، دون إفساد في الأرض، أو إضرار بالأنفس، أو عدوان وظلم.

أما الذين يعطلون أدوات المعرفة التي منحهم الله إياها فلا يستعملونها فيها خلقت له، أو لا ينتفعون منها، أو يستخدمونها في حدود ظواهر الحياة الدنيا فقط، ثم لا ينتقلون من ذلك إلى معرفة خالقهم ورازقهم ومفيض النعم الظاهرة والباطنة عليهم، ولا يؤمنون به ولا يشكرونه ولا يعبدونه، فهؤلاء مجرمون ظالمون في حق أنفسهم عليهم، وفي حق الله عليهم، وأَحْرِ بهم أن يقال عنهم: صم بكم عمي فهم لا يعقلون، لأنهم بتعطيلهم أدوات المعرفة التي منحهم الله إياها هم وفاقدوها سواء، وأولئك هم شر الدواب عند الله. قال الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

ولما كان الإنسان مسؤولاً عن استخدام أدوات المعرفة التي منحه الله إياها فيها خلقت له، حكم الله بالعذاب يوم القيامة على الذين يعطلونها فلا يتدبرون بها آيات الله، ولا يهتدون بها إلى الإيمان. دل على هذا قول الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

فهؤلاء لما عطلوا قلوبهم عن الفقه بما يجب عليهم أن يفقهوه، وعطلوا أعينهم عن رؤية آيات الله في كونه والانتفاع منها في معرفة صفات الله، وعطلوا آذانهم عن استماع آيات الله في كتابه والانتفاع منها في الاهتداء إلى الحق، واستماع غير ذلك من كل ما يهدي إلى سبيل الله، كانوا أضل من الأنعام، وكانوا أهل جهنم.

وسرّ كونهم أضل من الأنعام في منظار الحقيقة أن لديهم أدوات المعرفة فعطلوها عما خلقت له. أما الأنعام فإنها لم تتمتع بمنحة الأداة الكبرى للمعرفة،

وهي القوة المفكرة المدركة القادرة على فهم الأمور وفقهها، لذلك فهي غير مسؤولة عن شيء ليس لديها أداته.

ولما وضع الله الإنسان المكلف موضع المسؤولية عن كل تصرف من تصرفاته الإرادية نبه على أن المناط الأول للمسؤولية الملقاة عليه هي أدوات المعرفة التي لديه. ومن أجل ذلك كان اتباعه في الحياة ما ليس له به علم يعرض فيه هذه الأدوات للسؤال بين يدي الله للمناقشة والحساب، وهو ما دل عليه قول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

أي: لا تتبع أيها الإنسان في أي أمر من أمور حياتك ما ليس لك به علم، فإن لديك من أدوات المعرفة ما تستطيع به التبصر في الأمور؛ فإذا أنت اتبعت ما ليس لك به علم فقد عطلت أدوات المعرفة التي لديك، لذلك فلا بد أن تكون هذه الأدوات مسؤولة عن تأدية وظائفها الفطرية، أي لا بد أن تكون أنت المسؤول أيها الإنسان، لأن هذه الأدوات جزء من كيانك، وعملها أو تقصيرها وإهمالها تابع لإرادتك.

ونستطيع أن نتصور مشهد الإنسان الذي عطل أدوات المعرفة التي وهبه الله إياها، إذ يؤتى به يوم القيامة، ويتوجه السؤال له عن طريق أدوات المعرفة التي لديه.

فيقال لسمعه: ألم تأتك أنباء المرسلين؟ ألم تسمع كلام الله؟ ألم ترشدك النصائح والنذر؟ فكيف اتبعت ما ليس لك به علم من وساوس الشياطين؟!.

ويقال لبصره: ألم تشهد آيات الله في خلق الإنسان؟ وآياته في خلق الأرض؟ وآياته في خلق السماء؟ وآياته في تدبير خلقه وتصريف مقاديره؟ فكيف اتبعت ما ليس لك به علم من مغريات الحياة الدنيا وزخرف أقوال المضلين؟!.

ويقال لفؤاده: ألم تستنتج مما لديك من معارف ما يكفيك للإيمان بربك،

والقيام بواجب شكره، واتباع رسله والتزام شريعته التي أنزلها لعباده؟ كان بإمكانك أن تستنتج ذلك؟ فكيف اتبعت ما ليس لك به علم من ضلالات الأهواء ووساوس الشياطين؟!.

ومن أجل ذلك حث الإسلام على التعلم والتعليم، ودفع الإنسان إليهما دفعاً قوياً، وعمل على غرس وتنمية الدوافع الذاتية في المسلمين، التي تدفعهم بقوة إلى التعلم والتعليم، على مقدار استطاعتهم الفردية والجماعية. كما أخذ بتغذية ميل الإنسان الفطري لمعرفة ما يجهل، واستخدام كل وسيلة إنسانية مستطاعة لإبلاغ هذا الميل إلى مرتبة الشغف بالعلم، والتلهف المستمر لمتابعة المعرفة الشاملة لكل ما في الوجود من حقائق وسنن مادية وقوانين مجردة.

ولا يعرف العالم رسالة تدفع إلى العلم والتعلم والتعليم مثل رسالة الإسلام، ويشهد لهذا النصوص الإسلامية، وواقع النهضة العلمية التي حملها المسلمون الأولون، وعبدوا فيها للناس طريق المعرفة، وذلك قبل أن تصاب المجتمعات الإسلامية بالركود فالتقهقر بسبب انحرافهم عن منهج التعاليم الإسلامية.

ومن النصوص الدالة على هذه الحقيقة ما يلي:

١ ــ بدء الوحي بالأمر بالقراءة والتعلم.

٢ ــ قال الله لرسوله في سورة (طه ٢٠):

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) ﴾.

٣ ــ مجّد الله العلماء، وجعلهم شهداء على ألوهيته ووحدانيته وعزته، وحكمته وقيامه بالقسط.

فقال الله تعالى في سورة (المجادلة ٥٨):

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) ﴾.

وقال تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

٤ ــ وروى مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ومن سلك طريقاً يلتمس به علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة».

٥ ــ وفي الصحيح أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً».

٦ ــ وفي الصحيح أيضاً: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

٧ ــ وروى الترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع».

٨ ــ ولما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع قال فيما رواه البخاري عن أبي بكرة: «ليبلغ الشاهد الغائب، فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه» أي أكثر فهماً واستيعاباً لمعاني ما يبلغه من الذي سمعه مباشرة من الرسول صلى الله عليه وسلم.

٩ ــ وروى الترمذي عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «نضّر الله امرأ سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه، فربّ مبلَّغ أوعى من سامع».

ـ ٥ ـ

الإنسان أكثر شيء جدلاً

وصف الله الإنسان بأنه أكثر شيء جدلاً، وهذا يدل على مبلغ قدرته على الحيلة الفكرية، التي تمكّنه من أن يجادل بالحق أو بالباطل، ويكر ويفر ويراوغ في المجادلة.

قال الله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾.

فهذه الآية تدل على أن الله تبارك وتعالى قد صرّف في القرآن الكريم لهداية الناس إلى الحق والخير من كل مثل، لئلا يدع لأي إنسان مهرباً جدلياً ينسل منه إلى الباطل الذي يجد لديه هوى نفسه، إذ يحاور ويداور في جدالٍ هو فيه أقدر كائن خلقه الله.

فقوله تعالى في آخر الآية: ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾ بمثابة التعليل لما جاء في صدرها. أي ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل لأن الإنسان أكثر شيء جدلاً.

صرّفنا: أي بينا وأوضحنا. والتصريف هو التبيين، ويتضمن التصريف معنى التنويع بإيراد أنواع وأشكال مختلفة من وجوه البيان. فتصريف الرياح جعلها ضروباً من أجناس، وتوجيهها.

من كل مثل: أي من كل حجة مماثلة فيما تقدمه لأصول الهداية التي هدى إليها القرآن. فمثل الشيء هو شبيهه ومساويه ومكافئه في صفته، أو في دلالته، أو في مقداره.

ولمّا كان الغرض من الإتيان بالحجج وضرب الأمثال تقديم صور فكرية مسلم بها، مماثلة ومساوية للصور الفكرية غير المسلم بها، للاقناع بصحتها،

صح أن يطلق عليها أمثال. فمن سلَّم بمثل الشيء لزمه أن يسلم بالشيء نفسه، وبذلك تكون الحجة البينة.

ولإقامة الحجة على الناس وتقريب الحقائق إلى أذهانهم يضرب الله الأمثال لهم.

وكل صورة كلامية تقدم شبيهاً مساوياً ومكافئاً لما يراد بيانه أو تثبيته وتوكيده فهي مثل.

والداعي لتفسير المراد من المثل هنا بالحجة، كون الغاية من التصريف إقامة الحجة على الإنسان الذي هو أكثر شيء جدلاً، بالبيان الجدلي، والبيان الجدلي هو الحجة التي يقدمها صاحب البيان.

لماذا كان الإنسان أكثر شيء جدلاً؟

والسبب في كون الإنسان أكثر شيء جدلاً أن القدرات الفكرية التي زود الله الإنسان بها، قد مكنته من استخدام حيل كثيرة، تعتمد على الإظهار والإخفاء، والمراوغة والمخادعة بمكر عظيم، فهو بذلك قادر على أن يكون طويل النفس في المجادلة بالحق أو بالباطل. يضاف إلى ذلك قدرات النطق والتعبير التي زوده الخالق بها، والتي يستطيع بها تصريف كلامه في كل باب من أبواب القول بالحق أو بالباطل.

وحين تدفعه أهواؤه الجامحة وشهواته الجانحة إلى تجاوز دوائر الحق والعدل والخير والفضيلة، ويظل مع ذلك حريصاً على أن يظهر أمام الناس بمظهر الكمال، تتولد عنده الرغبة الشديدة بأن يثبت سلامة تصرفه، وصحة منهجه في الحياة، فيلجأ إلى خطة التزيين والتبرير بالباطل، فإذا وجد مخالفة أو معارضة لجأ إلى خطة الجدال، وفي الجدال يصنع ما يصنع المقاتل راغباً بالانتصار على خصمه، لا حريصاً على الوصول إلى الحق بالمناظرة الشريفة العفيفة.

ولقد عرف الإنسان منذ نشأته الأولى المداورة والمحاورة في القول، ومرن على الجدال مهما اختلفت مستويات ثقافته، لأنه يرى في الجدال منفذاً ينفذ منه

إلى إقناع الآخرين بالحق أو بالباطل، ليستجيبوا له أو ينصروه، وبذلك يتغلب على خصمه المخالف له.

وكثير من الناس يجادلون بالباطل وهم يعلمون أنهم مبطلون، ويرون الجدال باباً ينفذون منه إلى تغطية باطلهم، وإلباسه ثوب الحق، وهؤلاء يحتاجون في جدالهم إلى الإمعان في الحيلة والمكر، وإخفاء ما يكشف باطلهم، وتزوير ما يظهر أنهم أصحاب حق، فيحشدون كل طاقاتهم في الجدال المشحون بالحيل المختلفة الفكرية والقولية؛ لإقناع الآخرين بأنهم أصحاب حق، حتى يفعلوا ما يشتهون من ظلم وعدوان، وهم يسترون أنفسهم بأثواب الاستقامة المزورة.

تاريخ الإنسان في الجدل:

ونلاحظ في تاريخ الإنسان أنه ما من رسول أرسله الله إلى قوم إلا جادلوه بالباطل جدالاً عنيفاً، دل على هذا قول الله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾.

وقول الله تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾.

فدل هذا النص على أن كل أمة همت برسولهم ليأخذوه، وأن كل أمة جادلوا رسولهم بالباطل ليدحضوا به الحق.

وأخيراً جادل مشركو العرب رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم في آيات الله البينات، وأصروا على كفرهم، وبالغوا في عنادهم، وفيهم يقول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

كثرة جدل الإنسان في الكم والكيف:

أما الكثرة الجدلية التي يتمتع بها الإنسان فهي كثرة في الكم وكثرة في الكيف.

والكثرة في الكم يمثلها عرض الحجة الواحدة بعدد وفير من أساليب القول، والإنسان يفعل ذلك طمعاً بأن أسلوباً كلامياً منها قد يؤثر فيمن يجادله.

والكثرة في الكيف يمثلها كثرة الأنواع والصور الفكرية التي يجادل الإنسان فيها، أو يستخدمها في جداله، ومن ذلك أن يجادل الإنسان فيما له به حجة، وفيما ليس له به حجة أو شبه حجة، أو رائحة دليل.

وقد يتمسك بما هو ظاهر الفساد والبطلان، لأن له هوى في ذلك، ويحاول بكل وسيلة جدلية أن يقلب الباطل حقاً والحق باطلاً، وأن يتظاهر بأن الحق في جانبه، مع أنه لا دليل له إلا الكذب وزور القول.

قال الله تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ﴾.

فهذان النصان يدلان على أن من الناس من يتجاوز في جداله كل الحدود

المقبولة عند العقلاء ولو على سبيل الشبهة، وهذه كثرة كيفية في الجدال لا نظير لها عند غير الإنسان.

ومن ذلك مجادلة عادٍ رسولهم هوداً عليه السلام، في أصنامهم التي يعبدونها من دون الله، قال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

ومن ذلك أيضاً مجادلة منكري البعث بعد الموت، وجاحدي البعث بعد فناء الأجساد، شكاً بقدرة الخالق على إعادة الخلق، مع الاعتراف بأنه سبحانه قد بدأ الخلق اختراعاً وإبداعاً، ومع وضوح الدليل القاضي بأن الإعادة مثل البدء، بل الإعادة أهون في نظر الناس من البدء على غير مثال سبق. قال الله تعالى في سورة (يس ٣٦):

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾.

خصيم: أي كثير الخصومة والجدال بالباطل.

مبين: أي واضح الخصومة والجدال، أو قادر على تزيين كلامه ببيان من زخرف القول.

وقال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (مريم ١٩):

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ ﴾.

الباعث على الجدال بالباطل:

ومن البواعث للإنسان على الجدال بالباطل اتباعه أهواء نفسه وشهواتها، وإرادته تغطية ذلك بحجة كلامية مزورة، وقد يعلم في داخل نفسه بطلان ما يقول، وهذا الباعث النفسي قد كشف الله عنه بقوله في سورة (القيامة ٧٥):

﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ ﴾.

أي يريد الإنسان الانطلاق الفاجر الواسع في الشهوات واتباع الأهواء، فينكر يوم القيامة، وينكر الجزاء، ويجعل قصة الحياة قاصرة على هذه الحياة الدنيا، ويجادل بالباطل.

جدال الإنسان ربه يوم القيامة:

ومن أغرب مظاهر الجدل عند الإنسان وأفحشها مجادلته ربه يوم القيامة، مع المكابرة في إنكار أقوى الأدلة التي تتوجه ضده.

فالمشركون يعرضون على ربهم يوم الحساب، فيحاسبهم على شركهم، ويقول لهم: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون؟.

فيحلفون له أنهم ما كانوا مشركين، ويجادلونه لإنقاذ أنفسهم بالكذب، فيختم الله على أفواههم، ويستنطق أيديهم وأرجلهم فتشهد عليهم بما كانوا في الحياة الدنيا يكسبون من أعمال، قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (يس ٣٦):

﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

وهكذا يصل الإنسان في جداله إلى هذا الحد من الوقاحة والمكابرة التي لا تجديه شيئاً.

وجاء في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم تفصيل هذا الذي أوجزه القرآن، فعن أنس بن مالك، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«يؤتى بالرجل يوم القيامة من الكفار، فيقول الله له: ما صنعت فيما أرسلت إليك؟

فيقول: يارب، آمنت بك، وصدقت برسلك، وعملت بكتابك.

فيقول الله له: هذه صحيفتك ليس فيها شيء من ذلك.

فيقول: يا رب لا أقبل ما في هذه الصفيحة.

فيقال له: هذه الملائكة الحفظة يشهدون عليك.

فيقول: ولا أقبلهم يا رب، وكيف أقبلهم ولا هم من عندي ولا من جهتي؟!.

فيقول الله تعالى: هذا اللوح المحفوظ أم الكتاب قد شهد بذلك.

فقال: يارب، ألم تجرني من الظلم؟.

قال: بلى.

فقال: يا رب لا أقبل إلا شاهداً علي من نفسي.

فيقول الله تعالى: الآن نبعث عليك شاهداً من نفسك.

فيتفكر من ذا الذي يشهد عليه من نفسه؟؟!.

فيختم على فيه، ثم تنطق جوارحه بالشرك، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيدخل النار، وإن بعضه ليلعن بعضاً، يقول لأعضائه: لعنكنَّ الله، فعنكن كنت أناضل.

فتقول أعضاؤه: لعنك الله، أفتعلم أن الله يُكْتَم حديثاً؟.

فذلك قوله تعالى: ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾».

مقارنة بين جدل الإنسان وجدل غيره:

ولدى مقارنة جدال الإنسان بأعظم أمثلة جدال غيره يتبين أنه أكثر شيء جدلاً.

وقد عرض القرآن أعلى صورتين جدليتين لصنفين آخرين من مخلوقاته المدركة الناطقة.

الصورة الأولى: صورة جدال صدرت عن الملائكة، وهي لم تتجاوز أدنى صور الاعتراض الخفيف، الآتي بصيغة سؤال، وهي ما أخبرنا الله عنه بقوله في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

ثم أقام الله للملائكة الدليل الحسيّ على امتياز هذا الإنسان، ثم أمرهم بالسجود لآدم، فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين.

وانتهت الصورة الجدلية بإذعان الملائكة وخضوعهم خضوعاً تاماً.

وتكاد هذه الصورة لا تذكر في الجدل أمام جدل الإنسان، رغم أنها أكثر ما ظهر من الملائكة.

الصورة الثانية: صورة جدال إبليس، وهو من الجن، وهو أقدر مجادل

فيهم وذلك أنه لمّا رفض السجود لآدم، وكان داخلاً في صفوف الملائكة وشمله أمر السجود لأنه كان قداعتبر نفسه واحداً منهم، وسأله ربه عن سبب رفضه أن يسجد، جادل ربه فقال له: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، زاعماً أن النار أشرف عنصراً من الطين، وأنه ليس من الحكمة أن يسجد من كان أشرف عنصراً لمن هو أدنى منه في شرف العنصر، فلعنه الله وطرده من رحمته، وقال له: اخرج منها مذؤوماً مدحوراً، أي اخرج من رحمتي، وقال له: فاخرج منها فإنك رجيم.

قال الله تعالى في سورة (ص ٣٨):

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

ورغم تمادي إبليس في مجادلته ربه، فإن مجادلته لا تصل إلى مستوى مجادلة الإنسان التي نلاحظها فيه، والتي سبق ذكر بعض أمثلتها.

ومن أجل ذلك كان الإنسان أكثر شيء جدلاً.

ولما كان الإنسان أكثر شيء جدلاً أكثر الله في القرآن الكريم من المناقشات والبيانات وضرب الأمثلة، والترغيب والترهيب، وإقامة الحجج والبراهين لإلجاء الإنسان إلى قواعد الحق والهداية، ولئلا يجد مهرباً يزوغ منه بجدله القادر عليه بالفطرة ويكون له به عذر. قال الله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾.

موقف الإسلام من الجدال:

لما كان الإنسان أكثر شيء جدلاً، كان موقف الإسلام بيان واقعه هذا، بوصفه فطرة من الفطر الربانية، مع اتخاذ الوسائل الكفيلة بتهذيبه، للاستفادة من الخير الذي قد ينجم عنه، وتفادي الشر الذي قد يفضي إليه، فنهى عن الجدال بالباطل، ونهى عن الجدال في أمور الدنيا إلا عند الضرورة، خشية أن يورث الأحقاد والضغائن. وأوصى بالجدال بالتي هي أحسن للتعريف بالحق الذي أنزله الله على رسله.

قال الله تعالى لرسوله محمد ﷺ في سورة (النحل ١٦):

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

وخاطب الله المؤمنين بقوله في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

أي فإن سلك مجادلوكم مسالك غير مهذبة القول فتقيّدوا أنتم بكلّ قول مهذّب، واسلكوا كلّ طريقة هي أحسن وأفضل.

وقوله تعالى: ﴿إلاّ بالتي هي أحسن﴾ يشمل الأساليب الفكرية والأساليب القولية، وبهذا يتبينّ لنا أنّ المطلوب من المسلم أن يكون في مجادلته على حالة أرقى وأحسن باستمرار من الحالة التي يكون عليها من يجادله، أدباً وتهذيباً، أو قولاً وفكراً.

هذا هو المنطق العام للمنهج الذي رسمه الإسلام للمسلمين في جدالهم، حينما تدعوهم ضرورة التعريف بالحق إلى اتخاذ وسيلة الجدال.

— ٦ —

الإنسان مخـــلوق ضعيق

وصف الله الإنسان بأنّه خُلِق ضعيفاً، وبأنه خُلِق من ضعف.

ومن أجل ذلك كلّفه الله مراعياً ضعفه، ووضعه موضع المسؤولية والمؤاخذة مع مراعاة الواقع فيه، وفتح له أبواب العفو والغفران والتوبة مراعاةً لهذا الواقع فيه، وخفّف عنه التكاليف لذلك.

وضعف الإنسان يشمل الضعف الجسدي، والضعف النفسي، وضعف العزيمة والإرادة، وضعف القدرة على الضبط الدائم تجاه دوافع نفسه وغرائزه وشهواته وأهوائه.

قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

فقد جاء هذا النص في سياق الإذن بالتزوّج من الإماء، عند عدم القدرة على التزوّج من الحرائر، وذلك تخفيف من الله على المسلمين في شريعته، لأن الإنسان خلق ضعيفاً، ومن ضعفه أنّ إرادته قد لا تستطيع ضبط نفسه تجاه شهوته الثائرة، حينما يكون بحاجة جسدية إلى الزواج.

أمّا الذين يتبعون الشهوات من أهل الكفر، فيريدون من المسلمين أن يميلوا ميلاً عظيماً عن شرائع الله، حتى ينطلقوا في ارتكاب ما حرّم الله من الزنى وسائر محرّمات الفروج.

فالإذن بالزواج من الإماء تخفيف من الله في التشريع على ذوي الحاجات، مراعاة لواقع حال الضعف الإنساني، لأنّ الإنسان خُلق ضعيفاً.

وقال الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ

يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

ففي هذا النص يبيّن الله تبارك وتعالى أنه قد خفف عن المسلمين في النسبة العددية التي يجب أن يواجهوا بها عدوهم إذ كان على المؤمنين في أول الأمر أن يصمدوا لعشرة أضعافهم، فخفف الله ذلك عنهم، فجعل وجوب الصمود مرتبطاً بكون العدوّ ضعف عددهم فما دون ذلك. وهذا التخفيف قد راعى الله فيه واقع حال ضعف جمهور المسلمين، إذ ليسوا جميعاً على مستوى إيمان وقوة كبار أصحاب رسول الله ﷺ. ولو كانوا جميعاً كذلك لظلت نسبة قوّتهم تزيد على أن المئة منهم تعادل الألف من عدوهم، وبذلك يغلبون أعداءهم. لكن الله قد علم أنّ فيهم ضعفاً فخفّف عنهم إلاّ أنه لم يسمح لهم بأن يضعفوا عن مواجهة ضعفهم.

وقال الله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةًۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾.

فهذه الآية تدلُ على أنّ خلق الإنسان قد كان من ضعف، أي من عنصر الضعف لا من عنصر القوة، وما خلق من ضعف فلا بدّ أن تستمر فيه جذور الضعف، ولو مُنح شيئاً من القوة بعد ذلك. فأصلُهُ الضعف والشيء يرجع إلى أصله، وتنزع فيه باستمرار عوامل أصله. والقوة القليلة المحدودة التي يملكها حينما يبلغ مرحلة النضج في تكوينه لا تزيل جذور الضعف في أعماق نفسه، فعناصر الضعف الكثيرة فيه لا تفارقه.

وهذه الآية تصف الأحوال النسبيّة والأطوار التي يمرّ بها الإنسان في حياته، فهو قد خُلق من ضعف، ثم جعل الله فيه شيئاً من القوة النسبيّة التي تتدرج

متصاعدة حتى يبلغ كمال نضجه، ثم تدركه سنّة الله في خلقه فتتناقص لديه هذه القوة تدريجيّاً، حتى يصل إلى حالة ضعف الشيخوخة والهرم، إذا كان من المعمّرين، أو توافيه منيّته قبل ذلك.

مظاهر ضعف الإنسان:

وعناصر ضعف الإنسان تظهر في جسده، فَرُبَّ جرثومة لا يدركها الطرف قتلته أو جعلته طريح الفراش، يصرخ ويصيح، ويتلوّى من شدّة الألم، ولربّما أسرع لنجدته أمهر الأطباء، وجلبوا له ما ملكوا من دواء، فما استطاعوا أن يشفوه ممّا نزل به من داء، أو يصرفوا عنه ما حلّ به من بلاء.

وربّ جرعة سمّ قتلته وهو في أوج قوته، وربّ إبرة أصابت منه مقتلاً فسقط صريعاً، ورب ريح باردة أقعدته أو قتلته، ورب لفحة سموم فعلت فيه مثل ذلك.

وعناصر ضعف الإنسان تظهر في نفسه وفي سلوكه الإرادي، فرب نظرة حلوة ملكت قلبه وهواه، وأسرته وهو في عنفوان قواه، ورب شهوة أخضعته وأذلته، وفي دار معرة وهوانٍ أحلته.

إذا عض عليه الجوع أو العطش تضجر، وإذا مرت الساعات على غير ما يهوى تذمر.

إذا مسه الشر كان من ضعف صبره جزوعاً، وإذا مسه الخير كان من ضعف إرادته عن مقاومة شحه منوعاً، فهو ضعيف هلوع.

ربما اضطرب لحدث طارىء يكرهه، وهو الذكي الألمعي، فغشي على بصره وبصيرته وسائر حواسه، فصار لا يميز بين الأضداد، ولا يفرق بين الصاد والضاد، واختلط عليه الحاسر والمسبل، والمدبر والمقبل، والقاعد والقائم، والصاحي والنائم، وجمع الثلاثتين تسعاً، والخمستين سبعاً.

وربما اضطرب لحدثٍ طارىء يحبه، ومفاجىء مسعد يفرحه، فحدث له مثل ما سبق، ولربما جن أو صرع.

أفلا يدل كل ذلك على أنه خلق من ضعف، وخلق ضعيفاً، وعلى ان عناصر الضعف لا تفارقه، وعلى أن جذور الضعف متغلغلة في أعماق جسده ونفسه؟.

وتظهر في الإنسان حالات ضعفه إذا نقص عنه الغذاء ففقد قوة الحركة وقوة العمل وقوة التفكير، وإذا شعر أنه بحاجة إلى رغيف الخبز وشربة الماء. وإذا علم أنه ربما انسد من مسالك جسمه مسلك فهلك أو كاد، وربما تخثرت نقطة دم فيه فقتلته، أو انفجرت نقطة دم في دماغه فأهلكته، أو سدت ذرّة تراب عرقاً أو مجرى من مجاري عروقه فأقضّت مضجعه، أو جاءته سكتة قلب فصرعته.

وتظهر في الإنسان حالات ضعفه إذا نزل به المرض، أو حلّ به البلاء، أو فاجأته المصيبة، أو استبد به الهوى، أو استولت عليه الشهوة، أو تمكن منه سلطان الحب الآسر، والشغف القاهر، أو داهمته المزعجات، أو حلت به المؤلمات، أو هزه الخوف، أو اشتد به الطمع، أو تعرض لأحوال النسيان والخطأ، أو عجز عن الصمود تجاه الإكراه بقوة فوق قوته.

وحسب الإنسان ضعفاً أنه عرضة لأن ينسى بعد العلم، ويجن بعد العقل، ويمرض بعد كمال الصحة، ويشيخ ويهرم بعد الشباب، وأنه لا بد أن يموت بعد الحياة، فليعرف قدره، وليقف عند حده، وليعبد ربه، حتى يأتيه اليقين الذي هو الموت.

الإنسان ضعيف ومغرور بنفسه:

ومن العجيب في هذا الإنسان أنه ضعيف التكوين ويتجبر، مهين الأصل ويتكبر، وكم تقع الغشاوة على بصيرته فلا يرى ضعفه الدفين، وينسى أصله المهين، فإذا شعر بأنه قد ملك شيئاً من القوة استعلى بها، وسعى في الأرض ليفسد فيها، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

ومعظم الناس يأخذهم الغرور بأنفسهم، متى لمسوا منها جانباً من جوانب

القوة، وينسون ما هم فيه من ضعف داخلٍ فيهم ومحيط بهم، وأن القوة التي يلتمسونها من أنفسهم محدودة في الزمان والمكان والكيفية والحال.

وسبب غروره بنفسه أنه مع ضعفه واسع الحيلة بما وهبه الله من فكر، فهو يستطيع بحيلته ـ ضمن قوته القليلة المحدودة المحاطة بالضعف الكثير ـ أن يستخدم قوى هائلة ضخمة، كامنة فيما خلق الله من أشياء في هذا الكون. وهذا ما يجعله ينسى ما هو فيه من ضعف، ويغتر بما لديه من حيلةٍ تعتمد على فكر ثاقب وفهم لخصائص الأشياء، ومعرفةٍ بكوامن القوة في الوجود، وقدرة على إدراك مفاتيح القوى، والوصول إلى استخدامها بأيسر القوى المادية التي يملكها.

وسبب غروره بنفسه أيضاً أنه مع شعوره بضعفه الجسدي أمام مخلوقات كثيرة من حوله، يدرك أنه بقوة حيلته يستطيع أن يطوع هذه المخلوقات لإرادته، ويستخدمها في مصالحه، ويسخرها لأغراضه، ويدرك أنه يستطيع بذكائه أن يسلط القوى على القوى، وأن يصل إلى مغامز القوى فيحركها على ما يريد. إنه يعلم أن قوته أضعف من الجبال والبحار والرياح، إلا أنه ما يزال يحتال بكل وسيلة لاستخدام قوى هذه الأشياء ذات القوى الكبيرة في مصالحه وأغراضه، ضمن نظام التسخير الرباني الذي فطرت عليه، إذ سخرها الله للإنسان، ومكّنه من الانتفاع بها.

فمن المعلوم أن استخدام القوى الكبيرة الكمينة في الكون لا يحتاج إلى قوة جسدية كبيرة يبذلها الإنسان، ولكنه يحتاج إلى قوة كبيرة من الفهم، وسلسلة من التجارب والاختبارات، لكشف سلسلة الأسباب المؤثرة ببعضها، ومعرفة القوانين والسنن الربانية التي فطر الله الأشياء عليها، حتى يباشر الإنسان منها ما تتمكن قوته الجسدية من استخدامه، وهكذا يتسلسل الإنسان مع الأسباب، ويستخدم القوانين والسنن، حتى يفعل الأعاجيب في الكون.

وهذا ما يجعل الإنسان يغتر بنفسه، وينسى ربه، ويمشي في الأرض مرحاً مختالاً، ويزعم أنه ملك مفاتيح قوى الكون، ويقف عند ظواهر الأسباب، زاعماً

أن قواها من طبيعتها الذاتية، فيجحد مَنْ خلقها ووهبها طبائعها، وهو من ورائها يمدها بالبقاء، ويمسكها أن تزول وتعود إلى أصلها الغارق في بحر العدم.

لكن الله بحكمته العظيمة لا يدع الإنسان ينطلق بغروره دون أن ينزل به ما يوقظه من غفلته، ويشعره بأنه ضعيف عاجز، تقتله الحشرة، وتقعده الجرثومة التي لا يدركها الطرف، وتبكيه الحاجة، وتذله المصيبة، ويخضعه الألم، ويوهنه الخوف، ويستخفه الطمع، ويهوي به الهوى، ويقضّ مضجعه الحب. وهكذا تتقاذفه في حياته أحوال شتى، تكشف له أنه مخلوق ضعيف، مهما كان باستطاعته أن يسخر قوى هائلة في الكون من حوله، ولولا أن الإنسان تحيط به أمور كثيرة تشعره بعجزه وضعفه دائماً، لعلا واستكبر، وطغى وتجبر، وادعى الربوبية، وعتا في الأرض ونشر فيها الفساد. لكن الأحداث تشعره بضعفه دائماً، فتنكسر نفسه، وتلين قناته، وقد يرده شعوره هذا إلى الإيمان بربه والخضوع له، وهذا مشاهد في أحوال الناس جميعاً على اختلاف شعوبهم وأزمنتهم وأمكنتهم.

ومن عرف واقع حال الضعف في نفسه حق المعرفة وراقب ذلك في كل أحواله، لم يأخذه الغرور بنفسه، ولم يدفعه أن يركب الحماقة، ويغامر في الشرور متجبراً متكبراً، هذا إذا كان عاقلاً حصيفاً، ومجرباً حكيماً.

مراعاة الشريعة الإسلامية لواقع حال ضعف الإنسان:

وإذ خلق الله الإنسان ضعيفاً، فقد قضت حكمته عزوجل أن يراعي هذا الواقع فيه، في أحكامه وشرائعه لعباده، وفي أصول وقواعد محاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم، وفي وسائل تربيتهم وتعليمهم.

فنزلت الأحكام الربانية والتكاليف الشرعية ملائمة لهذا الواقع، فمنها ما سبق بيانه.

ومن أجل ذلك رفع الله المسؤولية عن الإنسان في الأحوال التي يضعف عن مقاومتها، أو لا يملك دفعها عن نفسه، كالعدل في الحب الذي لا يملك الإنسان السيطرة عليه، وكالخطأ والنسيان اللذين لا يستطيع تفاديهما، وكالإكراه الذي لا يستطيع تحمل نتائجه.

ومن أجل ذلك كانت عقوبة الزاني غير المحصن أخف من عقوبة الزاني المحصن، مراعاةً لكون الأول أضعف مقاومة من الثاني، وكانت عقوبة الأمة إذا زنت بمقدار نصف عقوبة الحرة إذا زنت، لأن الإماء أضعف مقاومة من الحرائر، لتعرضهن للخدمة ومخالطة الرجال والبروز أمامهم دون حجاب.

ومن أجل ذلك فتح الله للإنسان أبواب التوبة، وأطمعه بالعفو والغفران إذا هو تاب واستغفر وأصلح، لأنه بسبب ضعفه أمام أواسر أهوائه وشهواته ومطالب جسده ونفسه قد يسقط في الخطيئة ويعصي ربه.

— ٧ —

إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى

من ظواهر السلوك الإنساني التي قررها القرآن أنه يطغى إذا رأى أنه استغنى، وهذه الظاهرة مشاهدة في الواقع الإنساني بنسبة غالبة جداً، قال الله تعالى في سورة (العلق ٩٦):

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧ ﴾.

وهذا حكم على الجنس، والحكم على الجنس لا يعني استغراق جميع أفراده.

ليطغى: الطغيان في اللغة هو تجاوز حدود الحق والعدل، أو الخير والمصلحة والمنفعة، أو مستوى الأمر الحكيم.

تقول: طغى البحر، إذا هاجت أمواجه. وطغى الماء، إذا ارتفع وعلا عن حده النافع فأغرق وأتلف.

هذا في الأشياء المادية، ويقال نظير ذلك في الأشياء المعنوية.

فتقول: طغى فرعون، إعراباً عن ظلمه وعتوه وجبروته.

وتقول: طغى قطاع الطريق، إذا اشتد بأسهم، وكثر ظلمهم وسلبهم للناس، وعظم فسادهم في الأرض.

وتقول: طغى الكافر، إذا أمعن في جحوده لخالقه ومعصيته أوامره ونواهيه.

فدلالة مادة (طغى) متشابهة، سواء أطلقت على الأشياء غير ذات الحياة، أو على الأشياء الحية المريدة، وسواء أطلقت على الأشياء المادية أو المعنوية.

استغنى: الاستغناء هو في الأصل امتلاك الأشياء التي تجعل مالكها غنياً بها عن غيره، غير محتاج إلى أحد.

وهذا الاستغناء يكون بالمال، ويكون بالقوة والسلطان، ويكون بالعلم ويكون بالصحة والعافية، ويكون بالأتباع والأنصار، ويكون بامتلاك كل ما يُحتاج إليه. ويكون الاستغناء عن الشيء أيضاً بعدم الحاجة إليه أصلاً.

والاستغناء قد يكون حقيقياً، وهو لله تعالى وحده، فالله عزوجل هو الغني في ذاته بصفات الكمال، وهو المالك لكل شيء، وهو الغني في ذاته عن كل شيء من دونه.

وقد يكون الاستغناء شعوراً نفسياً كاذباً يراه الإنسان لنفسه، وهو في حقيقة حاله فقير لربه، محتاج إليه في كل مطلب من مطالبه، وقد جعله الله محتاجاً لأشياء كثيرة، والله وحده هو الذي يخلقها ويهيئها له، ضمن سننه في كونه، قال الله تعالى في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾.

فليس خلق الله للناس عن حاجة به إليهم، لأنه غنيٌ عنهم وعن عبادتهم له، ولكنه خلقهم بفيض نعمته ورحمته، بيد أنهم هم الفقراء إليه في أصل وجودهم، ثم في إمدادهم بالبقاء وبأسبابه، ثم في كل حاجات نفوسهم وقلوبهم وأفكارهم وأرواحهم وأجسامهم.

فشعور الإنسان بالاستغناء وهو غارق في الفقر إلى الله عزوجل شعور

فاسد، مستند إلى وهم كاذب، وهذا الشعور لا يكون لدى المؤمنين الصادقين المراقبين لربهم.

وفي قول الله تعالى: ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ بيان لصفة غالبة من صفات هذا المخلوق الحي، ذي الفكر والإرادة الحرة، ونوازغ الأهواء والشهوات، ودوافع النفس وغرائزها، والميل الوجداني نحو الخير والحق والفضيلة.

إن هذه الصفة صفة شرطية، إذ ليس كل إنسان طاغياً بالفعل، ولكن من رأى أنه استغنى طغى، ولزوم الطغيان للشعور بالاستغناء في مركب هذا الإنسان يكاد يكون قاعدة مطردة.

فالإنسان الذي لا يوقظه الشعور بفقره الدائم لربه، وحاجته إلى عطائه ومعونته وحمايته في دار الابتلاء وفي دار الجزاء، متى رأى نفسه استغنى بشيء من الأشياء طغى في حدود ذلك الشيء الذي رأى أنه استغنى به.

فإذا رأى أنه استغنى بقوته وأنصاره وجنوده طغى في الناس وظلم، وامتدت مطامعه امتداداً مفرطاً، ثم لا يجد معارضة في طريقه تمنعه من تلبية مطالب مطامعه إلا سحقها بعنف وقسوة، دون أن يختلج بالرحمة فؤاده، أو تلين بالشفقة نفسه.

وإذا رأى أنه استغنى بماله طغى طغيان تبذير وإتلاف في الترف، وفي إرضاء أهوائه وشهواته، وفي التفاخر وإذلال الناس والاستعلاء عليهم، وفي غير ذلك من مطالب نفسه. وطغى أيضاً طغيان إمساك وبخل في منع المستحقين من الفقراء والمساكين وذوي الحاجات.

وإذا رأى أنه استغنى بعلمه ومعارفه أخذه طغيان الكبر والعجب والصلف، فيحتقر هذا، ويزدري هذا، ويلمز ذاك، ويشنع على آخر، ويكون ديدنه السخرية اللاذعة، والتهكم الدنيء، وهكذا.

أليست هذه الصفة مشاهدة في الناس، إلا في الذين آمنوا وعملوا الصالحات وخافوا مقام ربهم ونهوا نفوسهم عن الهوى؟

إن أحدهم كلما شعر بالاستغناء استعلى واستكبر وطغى، وكلما شعر بالحاجة والافتقار خضع والتزم حدوده.

أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنهم لا يطغون مهما عظم سلطانهم، أو كثر مالهم، أو زاد علمهم، لأنهم لا يمسهم الغرور، فلا يرون أنهم قد استغنوا، إن إيمانهم بالله واليوم الآخر يشعرهم بالفقر الدائم والحاجة المستمرة إلى الله تعالى. إنهم يعلمون أن كل شيء بيد الله، فهو الذي يعطي، وهو الذي يمنع، وإذا شاء سلب النعمة الموجودة، وإذا شاء جلب النعمة المفقودة، فهم يخافون سلب النعم الحاضرة، ويرجون استدرار النعم الأخرى من فيض كرم الله، وهم يشعرون دائماً بالحاجة إلى تحصيل الثواب العظيم في الآخرة، ودفع العذاب الأليم عنهم فيها، فشعورهم لا يفارقه الإحساس بالافتقار إلى الله، وهذا هو الذي يجعلهم بعيدين عن الطغيان كل البعد.

فالدواء الذي يمنع عن الإنسان الطغيان هو الإيمان بالله واليوم الآخر، الذي يستبقي في قلبه ونفسه الشعور بالفقر الدائم إلى الله، ويصرف عنه الغرور بالنفس والشعور بالاستغناء.

من أجل ذلك كان الطغيان في الناس كثيره وقليله من صفات الكافرين بالله، ومن صفات ضعفاء الإيمان، ومن صفات الذين غشي على بصيرتهم الإيمانية، حتى غدت مفاهيمهم الإيمانية بعيدة عن ساحة تصوراتهم العاملة، أو غدا إيمانهم مخدراً أو في سبات عميق، بعوامل الأهواء والشهوات والاستغراق في متاع الحياة الدنيا وزينتها، فساروا في دروب الغرور، وفي ظلمات الفتنة.

والطغيان يدفع بالإنسان إلى الخسران، ويكفيه أن يخسر نفسه وسعادته، ولذلك قال الله تعالى في سورة (العصر ١٠٣):

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾.

ولما كانت صفة الطغيان ملازمة لمن يرى من الناس أنه استغنى، كان من

التربية الربانية للناس أن الله تبارك وتعالى قد جعل الإنسان حبيس الحاجة والافتقار، في كل أمر من أموره، حتى يرجع دائماً إلى ربه، فإذا مسه الغرور فطغى ولو طغياناً جزئياً ضمن حدود شعوره الكاذب بالاستغناء، جاءته العقوبة الربانية المؤدبة، فذل وخضع، ورجع إلى المشاعر الصادقة، فعرف حدود نفسه، وعرف افتقاره الدائم إلى ربه، وأدرك أن لحظات شعوره بالاستغناء قد كانت أوهاماً من وساوس الشيطان، ومن نزغات النفس والهوى.

وما ينطبق من ذلك على الأفراد ينطبق أيضاً على الأمم والشعوب.

ـ ٨ ـ

الإنسان قتـــور شحيـــح

وصف الله الإنسان بأنه قتور في أصل فطرته، وبأن الشح حاضر في داخل نفسه، وهذا الوصف في نوع الإنسان هو الوصف الغالب على أفراده، قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ﴿١٠٠﴾ ﴾.

قتور: تطلق لغة على الإنسان البخيل الذي يلازمه وصف التقتير على عياله في النفقة، مع أنه يجد لديه ما يوسع به عليهم.

وكلمة (قتور): وصف من صيغ المبالغة، مأخوذ من مادة (قتر). يقال لغة: قتر الرجل على عياله، إذا ضيق عليهم في النفقة، ويقال أيضاً: أقتر وقتَّر.

وظاهر أن القادر على التوسعة في النفقة لا يقتر على نفسه أو عائلته في النفقة إلا متأثراً بصفة البخل والشح الذي في نفسه.

وقد دل على أن الشح من الصفات المرافقة للنفس الإنسانية بوجه عام قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴿١٢٨﴾﴾.

أي إن الشح قد أحضر في داخل الأنفس بالتكوين الفطري لها.

الإنفاق: يقال لغة: أنفق الرجل إذا افتقر، أخذاً من معنى نفاد ما عنده من مال، وفناء ما لديه.

فمعنى الآية إذاً: قل: لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي التي لا تنفد إذاً لأمسكتم ولَقَتَّرتم في البذل منها، خشية نفادها وافتقاركم بسبب ذلك، وكان الإنسان بفطرته قتوراً بخيلاً شحيحاً.

فدل هذا النص القرآني على أن من الصفات الملازمة للإنسان بوجه عام صفة البخل، فهو في بذله قتور، وإقتاره مع سعة ما يملك سببه تخوفه من الفقر، ولو كان هذا التخوف ناشئاً عن وهم كاذب، أو افتراض المستحيل. فلو أنه ملك ما يستحيل نفاده ـ وهي خزائن رحمة الله ـ لخشي نفادها وبخل وأمسك، مع أن هذه الخشية لا مبرر لها، إذ هي قائمة على توهم كاذب.

والواقع الإنساني يشهد بوجود هذه الصفة في الإنسان بوجه عام. ألسنا نلاحظ بعض الناس يملكون من المال ما يكفيهم مئات القرون لو عاشوا، ومع ذلك فإنهم يبخلون بما يجب عليهم بذله، ولا مبرر لهذا البخل إلا مخافة الوقوع في الحاجة والفقر، بعد بلوغ مرحلة الثراء الواسع.

العوامل النفسية لتكون هذه الصفة:

ولدى تحليل طيوف النفس الإنسانية لمعرفة العناصر الأساسية التي نجم عنها وجود هذه الصفة في الإنسان، يبدو لنا أن المنابع الأساسية التي ينبع منها حرص الإنسان على امتلاك الأشياء والمحافظة عليها، وعدم التفريط فيها، إلا بعد اجتياز عقبة من عقبات النفس، هي ارتباط حاجات الإنسان في الحياة، وارتباط مطالب نفسه، بالأشياء التي يمتلكها أو يسعى لامتلاكها، سواء أكانت الحاجة إليها مباشرة أو غير مباشرة، عاجلة أو آجلة. فالحاجة إلى شيء ما تولد الشعور بالافتقار إليه، ومع هذا الشعور يتولد السعي لحيازته وامتلاكه، وبعد

الامتلاك يأتي الحرص ويصعب التفريط، ويكون البذل عند إلحاح الحاجة بالتقتير، وسبب هذا التقتير الخوف من حاجات المستقبل المرتقبة، أو المحتملة افتراضاً، ويأتي في ذيول ذلك توهم حدوث الحاجة، ولو أن الواقع لا يبرر هذا التوهم.

ومن حاجات النفس حاجات التفاخر بكثرة ما يملك الإنسان، ومن هنا تأتي الرغبة بالتكاثر.

فحاجة الإنسان وشعوره بالافتقار إلى الأشياء هما العنصران الأساسيان المسؤولان عن حرصه وتقتيره وشحه، وبعد تولد هذه الأمور في نفسه تصير هذه الصفات عناصر أساسية مستقلة، سواء رافقها الشعور بالافتقار والحاجة أو لم يرافقها هذا الشعور.

العــلاج الإسلامي:

وقد عالج الإسلام تقويم هذه الصفة من صفات الإنسان، فعدل من غلوائها، وكبح من جماحها، إبعاداً لها عن مزالق الشر، وأحسن توجيهها بغية الاستفادة من الخير الذي قد ينجم عنها. ويمكن تلخيص العلاج الإسلامي بما يلي:

لما كان الإنسان في هذه الحياة صاحب حاجات، ومن حاجاته هذه ما يقضي العقل والشرع بتلبيته، ولما كانت حاجاته هذه مرتبطة بالأشياء التي يملكها أو يملك التصرف فيها، والطريق الطبيعي لحيازتها هو السعي الشريف، وحيازة الأشياء تتطلب في الحياة حماية وصيانة، كان المنهج القويم يستدعي أن يشتمل على عدة عناصر:

العنصر الأول: تكليف الإنسان السعي الشريف لتحصيل ما يحتاجه في حياته، من رزق وكساء، ومسكن ودواء، وغير ذلك من مطالب نافعة.

العنصر الثاني: حماية ما يحتاج إليه هو أو غيره من التلف أو الفساد أو الضياع، لأن الإهمال يجعل الجهد المبذول في التحصيل جهداً ضائعاً.

العنصر الثالث: سلوك سبيل وسط عدلٍ في الإنفاق وهذا السبيل الوسط العدل يقع بين متباعدين متضادين لا خير فيهما، هما التبذير والتقتير.

والمنهج المشتمل على هذه العناصر كلّها هو منهج الإسلام، والأدلّة عليه من النصوص الإسلامية كثيرة.

وقد دلّ على العنصر الأول قول الله تعالى في سورة (الملك ٦٧):

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾.

فهذا النص يكلّف الإنسان أن يمشي مشياً رفيقاً شريفاً لتحصيل مطالب حياته.

وقد دلّ على العنصر الثاني نصوص متعددة، منها قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ ﴾.

فهذا النص يدلّ على وجوب حماية الأموال وصيانتها من التلف والضياع، لأنّ تسليم السفهاء ـ وهم ناقصو العقل والتدبير ـ أموالهم يعرّض هذه الأموال للتلف فيما لا خير فيه، ولا مصلحة من ورائه.

أما العنصر الثالث فقد عالج الإسلام فيه مرض التبذير الذي قد يصيب بعض الناس بسبب سفاهتهم، ونقص عقولهم، أو استحواذ الشيطان على نفوسهم وأهوائهم، كما عالج مرض الشحّ والتقتير.

ولكي يلتزم المسلم المنهج الوسط العدل وضع الإسلام له حاجزاً من أيمن الطريق وحاجزاً آخر من أيسره، فأمره بالبذل والإنفاق في الخير، ونهاه عن الإسراف والتبذير وحذره منه.

وقد دلّ على هذا العنصر نصوص متعددة، منها قول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾.

فهذا النص يوجّه المسلم لالتزام السبيل الوسط العدل، الذي لا إفراط فيه بالتقتير، ولا تفريط فيه بالتبذير.

ولإلزام المسلمين بالمنهج الوسط الذي لا تقتير فيه ولا تبذير، اتخذ الإسلام خطتي علاج:

الخطة الأولى: الأمر والنهي والنصيحة والبيان، مع الترغيب والترهيب، وهي ما نجده في نصوص كثيرة تنهى عن البخل، وتحذر منه، وتحذر من عقوبته العاجلة والآجلة، وترغب بالإنفاق في وجوه الخير، وتعد على ذلك بالأجر العظيم، والثواب الجزيل.

الخطة الثانية: تكليف سلطة الحكم الإسلامي محاسبة مخالفي منهج الإسلام، وإلزامهم به:

١ ـ بإكراه مانعي الحقوق على دفع الحقوق التي عليهم، سواء أكانت حقوقاً للأفراد، أو حقوقاً عامّة لصندوق الزكاة، أو لبيت مال المسلمين العامّ، ومن ذلك إلزام القاضي الشرعي الأولياء بتقديم النفقة الواجبة عليهم ضمن حدود استطاعتهم.

٢ ـ وبالحَجْر على السفهاء المبذرين، ووضعهم تحت الولاية، حماية لأموالهم من التبذير، وقد ذكر الفقهاء أنّ الذي ينفق أمواله في المعاصي والمحرمات مبذّر يحجر عليه، ويدخل في عموم السفهاء.

ـ ٩ ـ
الإنســـان هـــلــوع

وصف الله الإنسان بأنه خُلق هلوعاً، وفسّر القرآن معنى الهلع الموجود في فطرة الإنسان، بأنه إذا مسّه الشرّ كان جزوعاً، وإذا مسّه الخير كان منوعاً، واستثنى من هذا الوصف من كان مؤمناً بالله وبما جاء من عنده على لسان رسله، عابداً لربه، ذا صلة مستمرّة بمراقبته، مبتعداً عمّا حرّم، قائماً بما فرض عليه، فقال الله تعالى في سورة (المعارج ٧٠):

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ
مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ
مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم
مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ
أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾
وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

فهذا النص يقرّر أن الإنسان خُلق هلوعاً، إذا مسّه الشر كان جزوعاً، أي كثير الجزع، وإذا مسّه الخير كان منوعاً، أي كثير المنع مُمسكاً قتوراً، من بخله وشحّ نفسه، باستثناء الذين وصفهم الله بصفات تفصيلية متعدّدة، هي صفات المؤمن صادق الإيمان، والمسلم صحيح الإسلام، القائم بما فرض الله عليه، والمجتنب لما حرّم.

جذور الهلع داخل النفس الإنسانية:

ولدى تحليل طيوف النفس لمعرفة جذور الهلع في داخلها، نستطيع أن نلاحظ أن الإنسان مفطور على حبّ ذاته، وحبّ ما يلذّ له ويمتعه.

وحبّ الإنسان لذاته يتفرع عنه حبّ البقاء، وحبّ السلامة، وحبّ

الاستمتاع بما يستلذه أو يجد فيه متعة نفسه، أو تلبية غريزته، أو قضاء حاجته أو شهوته، ويتفرع عنه أيضاً حبُّ الأشياء التي تخدم شيئاً ممّا يحبّ.

وحين يعلم الإنسان أنّ ما يحبّ مهدّد بالمخاطر من حوله يصيبه الحذر الشديد والخوف، وحين يمسّه الضرّ في شيءٍ من ذلك يراه شراً، ويتفجر فيه الألم بسبب ذلك، وحينئذ يصطرع في ذاته ما يحبّ لنفسه وما هو نازل به ممّا يكره، ثمّ يكون التعبير عن هذا الصراع العنيف في داخل ذاته بالجزع وإعلان التضجّر ممّا هو فيه، ويظهر ذلك في الاضطراب والقلق والصياح الدالّ على حالة النفس، والبكاء المرير، وحركات الأعضاء دون عقل ولا اتزان، كالضرب واللطم والتمزيق والتكسير ونحو ذلك.

إلاّ أن يتخذ لنفسه وقاية من ذلك، وهذه الوقاية تأتيه عن طريق مفاهيمه وعقائده وجملة تصوراته للوجود، وتطلعاته للمستقبل وآماله فيه، مقرونة بتربية نفسيّة على الصبر وتحمّل الألم وألوان خاصّة من السلوك الدائم، وهو ما جاء به الإسلام في عقائده وعباداته وشرائعه وأخلاقه وسائر وصاياه، وكذلك تربيته العملية.

من هذا التحليل تبيّنت لنا جذور الجزع، أما جذور كون الإنسان منوعاً، فترجع فيما يظهر إلى أنّ الإنسان حينما يمتلك الأشياء التي يرى أنها تخدم ما يحبّ لنفسه، فلا بد أن يكون حريصاً عليها، ومع شدّة الحرص يأتي الإمساك والمنع الشديد، وبذلك يكون الإنسان منوعاً.

وقد سبق في وصف الإنسان بأنه قتور مزيد من تفصيل هذه الجذور داخل النفس الإنسانية.

والإنسان إذا ترك نفسه دون وقاية ينشأ فيه هذا الوصف ويستقر، فيكون إذا مسّه الخير منوعاً، أما إذا اتخذ لنفسه وقاية من ذلك فإنّ النتيجة تختلف، وهذه الوقاية تأتيه عن طريق مفاهيمه وعقائده وجملة تصوراته للوجود، وتطلّعاته للمستقبل وآماله فيه، مقرونة بتربية نفسية على البذل والعطاء، وترقب العوض،

وما هو خير وأفضل عند الله تبارك وتعالى، ألوان خاصة من السلوك الدائم، وهو ما جاء به الإسلام في عقائده وعباداته وشرائعه وأخلاقه وسائر وصاياه، وكذلك تربيته العملية.

ما يقي الإنسان من الهلع:

ولقد فصّل القرآن العناصر التي تقي الإنسان من الهلع تفصيلاً كاملاً، وبعض هذه العناصر مصرح به لفظاً، وبعضها يفهم عن طريق اللزوم الفكري والاستنتاج الذهني، وفيما يلي بيان لهذه العناصر:

العنصر الأول: حسن الصلة بالله والتزام مراقبته، وذلك بالمداومة على الصلاة المستوفية لشروطها الفكرية والقلبية والنفسية والروحية والجسدية، وهو ما دلّ عليه قول الله تعالى في الاستثناء:

﴿إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون﴾.

وهذا العنصر المصرّح به يستلْزم عنصراً غير مصرّح به، ولكنه لا يتم إلا به، ألا وهو عنصر الإيمان بالله وبصفاته وأسمائه الحسنى، والإيمان بحكمته وقضائه وقدره، والإيمان بعدله وفضله وحسن ثوابه لعباده الصالحين.

العنصر الثاني: حسن تأدية الحقوق المالية لأربابها، وقيام الإنسان بما يجب عليه تجاه الفقراء والمساكين وذوي الحاجات من المسلمين، وهذه الصفة تشعره بواجباته نحو الجماعة، وهو مادلّ عليه في النص قول الله تعالى:

﴿والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾.

وهذا العنصر المصرّح به يستلزم عنصراً غير مصرّح به، ألا وهو كفّهم عن أكل أموال الناس بالباطل، وعن كل كسب حرام، لأن من يؤدي الحقوق التي فرضها الله في ماله عن إيمان بالله وطاعة له، لا يعتدي على ما ليس له فيه حقٌّ عند كسب المال، بهذا تقضي منطقية السلوك المنسجم بعضه مع بعض.

العنصر الثالث: التصديق بيوم الدين وما أعدّ الله فيه من جزاء، والخوف من عذاب الله يوم القيامة جزاءً للإنسان على ما يجني من سيئات في الحياة الدنيا، وهو ما دلّ عليه قول الله تعالى في النص:

﴿والذين يصدقون بيوم الدين والذين هم من عذاب ربهم مشفقون، إنّ عذاب ربّهم غير مأمون﴾.

العنصر الرابع: حفظ الفروج من المعاصي والمحرمات التي نهى الله عنها، وهو ما دلّ عليه قول الله تعالى في النص:

﴿والذين هم لفروجهم حافظون إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنّهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾.

العنصر الخامس: رعاية الأمانات والعهود والوفاء بها، والبعد عن كلّ خيانة في الأمانة أو نكثٍ في العهد، وهو ما دلّ عليه قول الله تعالى في النص:
﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾.

العنصر السادس: القيام بالشهادات على الوجه الذي أمر به الله من صدق وتأدية للشهادة على وجهها، وبعد عن كلّ كتمان مضيّع للحقوق، وهو ما دلّ عليه قول الله تعالى في النص:

﴿والذين هم بشهاداتهم قائمون﴾.

والعنصر الأخير: تكرير للعنصر الأول، وهو المحافظة على الصلاة التي تصل العبد بربّه، وفي ذلك تسوير لسلوك الإنسان كلّه بهذه الصلة بربّه، بَدءاً واستمراراً وختاماً، وهو ما دلّ عليه قول الله تعالى في آخر النص:
﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾.

ثم أبان الله تعالى عاقبة هؤلاء الذين استثناهم من عموم الإنسان الهلوع، فقال تعالى:

﴿أولئك في جنّات مكرمون﴾.

فمن استجمع هذه العناصر استطاع أن يتخلّص من الهلع الذي يبعده عن كماله الإنساني، ويبعده عما خلق لأجله.

ــ ١٠ ــ

الإنســـان عـــجــول

ووصف الله الإنسان بأنه عَجُول، وبأنه خُلِقَ من عجل، فقال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ﴾.

العجلة تقع في طرف يقابله بُعْدٌ آخر يقع فيه الإهمال والتخلف، والخير هو في مكان وسط بين الْبُعدين؛ فالقسمة ثلاثية لا ثنائية.

وطلب أمرٍ ما أو القيام بعمل ما، إن كان بمسابقة الزمن الملائم له ــ والذي يكون فيه أكمل وأفضل ــ فتلك هي العجلة، وإن كان بالتأخر عن الزمن الملائم له فذلك هو الإهمال والتخلف، وإن كان بموافقة الزمن الملائم في المطالب والأعمال فتلك هي الحكمة المطلوبة ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾.

فليست كل سرعة عجلة، إذ من الأمور ما يتطلب السرعة، وإلاّ فات أوانها وليس كل بطءٍ أناةً محمودة، فلربّما كانت الحكمة المحمودة في السرعة، ولربّما كان البطء تخلّفاً مذموماً.

إنّ الحكمة التي يأمر بها العقل الراجح، تكون بالقيام بالأعمال في أوقاتها وأزمانها التي تضمن بها المصلحة الفضلى.

لكنّ الإنسان مفطور على حبّ استعجال الأشياء قبل أوانها، فهو مخلوق عجول، يبادر الأشياء قبل مواقيتها، ويسارع إليها قبل أوانها، ويحب العاجلة

وإن كانت قليلة حقيرة، ويفضلها على الآجلة وإن كانت كثيرة جليلة، فكأنّ هذا الإنسان مخلوق من مادّة العجل ﴿خُلق الإنسان من عجـــل﴾.

وليست نسبة العجلة بين الناس واحدة، إنهم متفاوتون في هذا، فبعضهم أكـثر عجلة من بعض، إلاّ أن دوافعهم النفسية جميعـاً تجعلهم عجولـين، يستعجلون تحقيق مطالبهم قبل أوانها.

إنّ كل فرد من الناس يحب أن تكون رغائبه رهن خواطر، فإذا طلبت نفسه شيئاً أراد حصوله دون أناة ولا انتظار، بيد أنّ الإنسان العاقل المجرّب قويّ الإرادة يستطيع أن يملك عجلته الفـطرية بقـوّة إرادته وراجـح عقله وحكمته.

وليس أصل فطرة العجلة من النقائص في تكوين الإنسان الفطري، لأنّها تمثل في الإنسان عنصُراً مُهماً من حوافز الجدّ والعمل، ولكنّها تغدو من النقائص حين يُسيء الإنسان إدارتها، أو يهـملهـا، إذ المفروض فيها أن تكون خاضعة لعقل الإنسان وإرادته، فإذا انعكس الأمر فصارت هي المسيطرة على العقل والإرادة، اختل توازن الإنسان وجانَبَ سبيل الحكمة في الأمور.

ولقد نحمد في الإنسان ميله إلى تحقيق الأمور بسرعة، إذا استطاع أن يُحسن إدارة فطرته هذه، ويُحسن توجيهها لما فيه المصلحة الفضلى.

والعجلة في الإنسان ظاهرة ناتجة عن اجتماع عدّة عوامل لديه:

العامل الأول: توجّه دافع مُلحّ من دوافع النفس، لتحقيق مطلب من مطالبها أو رغيبة من رغائبها.

العامل الثاني: عدم التبصّر بالأمور تبصّراً شاملاً، وتحكيم البديهة الفكرية التي تتأثر كثيراً بدوافع النفس.

العامل الثالث: ضعف الإرادة وضمورها أمام قوة الدوافع النفسية.

فمن اجتماع هذه الأمور في الإنسان تظهر العجلة في تصرفاته، فهي في الإنسان ثمرة غير حسنة من ثمرات اتباع النفس والهوى.

وحبّ الإنسان للعاجلة ــ وهي الدنيا ــ وتركه للآخرة، هو أيضاً ثمرة غير حسنة من ثمرات اتباع الهوى، قال الله تعالى في سورة (القيامة ٧٥):

﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ ﴾.

وتظهر العجلة عند الإنسان في كل أمرٍ من أموره التي تندفع إليها نفسه برغبة ملحّة، حتى في دعائه ربّه. إنّ قصر نظره وعدم تبصّره بعواقب الأمور يجعلانه يتصور بعض الأشياء خيراً له، فيدعو الله بها، ظاناً أنها خير، مع أنها في حقيقة حالها شرٌّ له، فهو يدعو على نفسه بالشرّ حينما يدعو دُعاءه ظاناً أنه يدعو لها بالخير، هذا ما نفهمه من قول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾.

إنّ الإنسان قد يكره ما هو خير له، فيطلب صرفه عن نفسه، وقد يحب ما هو شرٌّ له، فيطلبه لنفسه ويلحّ بطلبه، وهو في كلا الأمرين جاهل قصير النظر، قليل الأناة عجول، قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾.

فمن الخير للإنسان إذا طلب من ربه أمراً من أمور الدنيا أن يجعل طلبه مقروناً بقوله: «إن كان فيه خير لي في ديني ودنياي وآخرتي» أو بعبارةٍ نحوها.

من ظواهر العجلة عند الإنسان:

١ ــ بعض الناس تشتدّ رغبتهم النفسية في أن يكونوا من ذوي الثراء الواسع، وتلحّ في نفوسهم هذه الرغبة إلحاحاً شديداً، ينتج عنه اندفاع إراديّ عنيف، مصحوب باضطراب وقلق وطموح.

وتقف في وجوههم سنن الكون ونظمه الثابتة، أو تقف في وجوههم شرائع الحق والعدل، فيحاولون اختراقها وتجاوزها برعونة وطيش، أو بظلم وعدوان، فيتعثرون ويجرون لأنفسهم مصائب كثيرة بأوهامهم.

فمنهم من يبدّد حياته بالأوهام والأحلام، ولا يحقّق لنفسه ما كان يصبو إليه، ومنهم من يتحول حاله حتى يمسي مُجرماً شريراً.

لقد جنى على هؤلاء استعجالهم الأمور، إذ جعلهم استعجالهم يطلبون رغائبهم من غير طرقها، ويتخذون لها غير أسبابها.

إنّ إلحاح الرغبة، والاندفاع وراء الهوى بعجلة رعناء، يعمي البصيرة، فيجعل الإنسان يسير في حياته على غير هدى، كالذي يسير في الظلمات في أرض وعرة مليئة بالعقبات والعثرات.

٢ ــ وبعض الطامعين يستعجلون ميراثاً تتحلّب أشداقهم إليه، ويطول عليهم أمد انتظار موت مورثهم، كأن تركته المرتقبة حقهم المسلوب، أو مالهم المغصوب، فتلتهب في نفوسهم المطامع، ويندفعون بعجلة يرافقها تكالب خبيث، ثم لا يجدون طريقاً لتحقيق مطامعهم إلاّ الجريمة النكراء، فيحتالون للخلاص من حياة مورثهم بغية حيازة الميراث الذي يطمعون به.

إنّ عجلتهم هذه قد تدفعهم إلى المهالك، وإلى سخط الله ونقمته، وهذا ما يحصل في معظم الأحيان عند ذوي الطمع العجولين، ما لم يحمهم العقل الرشيد، ومخافة الله، والتربية الفضلى.

٣ ــ وبعض الطلبة يتعجلون الحصول على الشهادة، قبل الأوان المناسب الملائم لاستعداد الإنسان وكفاءته في تحصيل المعارف والعلوم، فيحرمون أنفسهم بذلك من خير كثير، ويسلكون مسالك شَائِنة للأمانة، مسيئة للمعرفة الإنسانية.

وكم يتعثرون في دراستهم، ويتخلفون بسبب تعجّلهم، وكثير منهم يناله الفشل المتتابع، ويضيع من عمره سنوات عديدة، في حين أنه كان يريد مسابقة

الزمن بعام أو عامين، وبعضهم يخسر تحصيل الشهادة التي كان يصبو إليها خسارة كليّة. ومن استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه.

٤ ــ وبعض طلاب الحكم والسلطان يرمون شعوبهم بويلات ومصائب كثيرة، بسبب استعجالهم الأمور على غير بصيرة، وربما يسوقون للبشرية كوارث حروب عالمية طاحنة، تباد فيها الملايين من الناس، وتهدم فيها مدنٌ، وقرى كثيرة وتتأخر فيها حضارة الأمم قروناً.

٥ ــ وهكذا نلاحظ في المجتمعات الإنسانية رغبات كثيرة في الأفراد والجماعات، وهذه الرغبات تلحّ في داخلهم حتى تجعلهم يستعجلون الأمور قبل أوانها، وبذلك تخونهم النتائج التي اندفعت نفوسهم لتحقيقها.

ومن المشاهد المستنكرة التي يمارسها المتعجّلون سرعتهم الجنونية وهم يسوقون سياراتهم، دون أن يحسبوا حساباً للمخاطر الكثيرة التي تكثر احتمالاتها مع السرعة، بدافع العجلة الرعناء.

وما أكثر ما نشاهد من حوادث مؤلمة مزعجة كان سببها العجلة الحمقاء في قيادة السيارات، فكم من حوادث دهس وحوادث اصطدام وحوادث جنوح عن الطريق، تحدث في كل يوم بسبب عجلة الإنسان.

ويحتج بعض المتعجلين الذين يعرضون أنفسهم وغيرهم للمخاطر والأهوال، بأنهم لن يصيبهم إلاّ ما كتب الله لهم، ليبرروا بذلك تعجلهم الذي يتبعون فيه أهواءهم. وهي حجة يضعونها في غير مواضعها، ثم لا يقبلون بها حينما تأتي على خلاف أهواءهم، وينسون أن العجلة المحفوفة بالمخاطر عجلة محرمة شرعاً، فالمتعجل الذي يسرع في سيارته فيوقع نفسه في الخطر، أو يوقع غيره في الخطر، إنسان جانٍ أو مجرم، وهو مسؤول شرعاً عن جنايته أو جريمته. وليس ينفعه عند الله أن يقول: لقد أسرعت معتمداً على أنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، إذ يقالُ له: إن الله قد نهاك في شريعته للناس عن كل تهورٍ يفضي بك إلى التهلكة.

الإنسان جحود كنود كفور

من الصفات التي وصف الله بها الإنسان أنّه جحود كنود كفور، إذا أصابته النعمة أعرض ونأى بجانبه، وكفر بأنعم الله عليه، وزعم أنّ ما أصابه من نعمة أو غنى كان بعلمه وسعيه ومهارته وحذقه وحسن تدبيره، وإذا مسّه الضر كان يؤوساً متضجّراً حزيناً، متسخطاً على ربّه، زاعماً أنّ الله لم يعطه في الحياة ما يستحقّ، شاكّاً بعدل الله وحكمته، أو جاحداً لذلك. وإذا وقع في مأزق حرج، وأحاطت به المخاوف من كل جهة، لجأ إلى ربّه يدعوه ويرجوه ويسأله أن ينجيه، ويعاهد ربّه أن يكون له من الشاكرين إذا أنجاه وأنقذه ممّا هو فيه، فإذا استجاب الله له ورحمه وأنجاه نقض عهده، وأخذ يعلّل نجاته بالأسباب، ويمكر في آيات الله، وعاد إلى ما كان عليه من بغي في الأرض وإفساد.

هذا هو واقع حال الإنسان بوجه عام غالب باستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالإيمان بالله وما يلزم عنه من سلوك قويم، هو المصلح الوحيد، وهو المقوم الوحيد لسلوك الإنسان على صراط الحقّ وفضائل الخلق، وعبادة الله حقّ عبادته.

والنصوص القرآنية التي جاء فيها وصف الإنسان بهذه الصفات كثيرة، منها النصوص التالية:

١ ـ يقول الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

٢ ــ ويقول الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

فالسبب في إعراض الإنسان عن ربّه إذا كشف عنه الضرّ إسرافه، أي تجاوزه الحدّ واستغراقه في ارتكاب المعاصي والآثام والذنوب والخطايا ﴿كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾.

٣ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾.

٤ ــ ويقول الله تعالى أيضاً في سورة (الإسراء ١٧):

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾.

٥ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ

مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾.

فالسبب في هذه الظاهرة كفره بالله، إذ جعل لله أنداداً.

٦ ـ ويقول الله تعالى أيضاً في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ ﴾.

فالظالم يرجع إلى الله فيدعوه إذا مسّه الضرّ، فإذا استجاب الله له فخوّله نعمة منه، ضمن نظام الأسباب والمسببات، تنكر لفضل الله عليه، فجحد نعمة الله، وقال: إن ما أصبت من نعمة إنما كان بمهارتي وعلمي ومعرفتي بما يجلب الخير، ويدفع الشرّ.

ولكن الله تعالى امتحنه ﴿بل هي فتنة﴾ والامتحان كان بجعل مقاديره سبحانه عن طريق الأسباب، لكن المؤمن بالله لا تضلله الأسباب عن الحقيقة، بل يؤمن بأن الله هو الفعال الحقيقي من وراء الأسباب، فهو مسبب الأسباب والمهيمن على كل شيء.

٧ ـ ويقول الله تعالى في سورة (فصلت ٤١):

﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾.

فأبرز هذا النص أن الإنسان كثير الدعاء في طلب الخير لنفسه، فهو لا يسأم منه، فإذا مسّه الشرّ فهو يؤوس قنوط.

فإذا جاءته النعمة وذاق لذاتها قال: هذا راجع إلى علمي وخبرتي ومهارتي وحسن عملي في اتخاذ الوسائل والأسباب. ثم أنكر يوم الجزاء، وقال: لئن كانت الرجعة إلى الله صحيحة فسيكون لي عنده للحسنى، وهي الجنة، فهو إمّا مكذّب مستهزىء، وإما جاهل بغاية الخلق، منكرٌ أن الدنيا دار الابتلاء، وأن الآخرة دار الجزاء الأوفى.

٨ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾.

ففي حالة النعمة يفرح بها، وإن أصابته سيئة تضجّر، وتطاول على ربّه، واتهم حكمة الله وكان كفوراً.

٩ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الفجر ٨٩):

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ ﴾.

فأبرز هذا النص أن الغاية من النعم والمصائب، وتوسعة الرزق وتضييقه الابتلاء، فلا هذه للإكرام، ولا هذه للإهانة.

١٠ ــ ويقول الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ

هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

فأبرز هذا النص أن الناس يلجأون إلى الله وقت الشدة، فإذا كشف الله عنهم ما أحاط بهم، ووجدوا أنفسهم آمنين، نقضوا عهودهم، ومكروا في آيات الله، وبغوا في الأرض.

١١ ـ ويقول الله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

ما دلت عليه هذه النصوص:

هذه النصوص تتحدث عن مختلف أحوال الناس وأقسامهم، باستثناء الذين حماهم إيمانهم بالله واليوم الآخر، وعملوا الصالحات بدافع من إيمانهم، وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصبر، كما ذكرت سورة (العصر ١٠٣).

فالذي يبدو أن الناس على أقسام تجاه النعم والمصائب التي يبتليهم الله بها، ولهم في ذلك أحوال تتبع عقائدهم وأخلاقهم وصفاتهم النفسية، وقد جاءت جملة هذه النصوص لبيان مختلف هذه الأقسام وهذه الأحوال.

فالناس منهم مؤمن بالله كافر باليوم الآخر، ومنهم مؤمن بالله واليوم الآخر جاهل بحكمة الله في مقاديره، ومنهم مؤمنٌ كامل الإيمان، ومنهم كافر بالله واليوم الآخر.

أما أحوالهم تجاه النعم والمصائب، فمنهم من ينشأ في النعمة ثم تسلب منه، ومنهم من يكون في الضيق ثم تأتيه النعمة، ومنهم من يكون في الرخاء فتحيط به المخاطر من كل جانب، ثم يكشف الله عنه ما أحاط به وينجيه، ومنهم من يمسّه السوء ثم يكشفه الله عنه، ومنهم من تتقلب عليه الأحوال.

ومع مختلف الصفات الخلقية والنفسية تختلف ظواهر السلوك.

أولاً ــ فمن الأحوال:

١ ــ أن ينشأ الإنسان في فيضٍ من النعم الربّانية عليه، ومن ذلك الصحة، وكثرة المال، وهدوء البال، والأمن، وتيسير تحقيق المطالب في الحياة الدنيا، وهذا في حكمة الله لون من ألوان الامتحان الذي يمتحن الله به عباده، ليعلم من يشكره ومن يكفره.

٢ ــ أن ينشأ الإنسان في غير الحالة السابقة، وذلك بأن تقضي حكمة الله بامتحانه وتربيته بالمكاره، في الرزق، أو في الصحة، أو في تحقيق غير ذلك من مطالب الحياة، ويمتحن الله عباده بهذا اللون من ألوان الامتحان ليعلم من يصبر وهو مؤمن بحكمة الله، ومن يضجر ويتذمر أو يكفر ويطعن في حكمة الله وعدله، أو ينكر وجود الله.

فهاتان الحالتان قد يتعرض الإنسان لإحداهما في فترة نشأته، ووصف الإنسان الغالب تجاههما يختلف باختلاف عقيدته وخلقه وصفته النفسية.

فإذا كان مؤمناً بوجود ربّ خالق يقسم المقادير، فإن أوّل ما يخطر له ويقرّره إذا كان ناشئاً في فيض من النعم، هو أن الله تعالى رآه مستحقاً للتكريم وأهلاً لأن يكون مفضلاً بالعطاء، فأكرمه وفضله. وإنّ أوّل ما يخطر له ويقرّره إذا كان ناشئاً في المكاره، هو أن الله تعالى قد أهانه، ولم يعطه ما يستحقه، مع أن الأمر في الحالتين ليس كذلك، فما تصوّره كلٌّ منهما مرفوض مردود، إذ ليس هذا تفضيلاً ولا تكريماً في حكمة الله، وليس هذا إهانة ولا تحقيراً في حكمة الله، بل اقتضت حكمة الله العليمة بطبيعة كلٍ منهما أن يمتحن هذا بفيض النعم، وأن يمتحن هذا بالتضييق وبالمكاره.

من أجل ذلك ردّ الله تصور هذا وتصور هذا بكلمة زاجرة، فقال لهما في سورة (الفجر ٨٩): ﴿كلاّ﴾ بعد أن عرض أقوالهما إذ قال تعالى:

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾.

أي ليس الغرض من التوسعة على الأول إكرامه، وليس الغرض من التضييق على الآخر إهانته، وإنما هي ألوان امتحان، فالأول اقتضت الحكمة ابتلاءه بالتوسعة، والآخر اقتضت الحكمة ابتلاءه بالتضييق.

وفي هذا تصحيح لتصورات المؤمن حول مقادير ربه، حتى يكون على بصيرة من حكمة الله، وما يجب عليه من سلوك قلبي ونفسي وعملي تجاه ذلك.

وإذا كان لا يؤمن بوجود رب خالق، أو لا يضع هذا الموضوع في تصوراته، فإنه إذا أنعم الله عليه انطلق في متاع الحياة الدنيا، واستغرق في لذاتها، وأعرض عن التفكير في المنعم، ونأى بجانبه عن ملاحظة كل دليل يدل عليه، أو نأى بجانبه عن عبادته وطاعته، واتبع شيطانه وهواه. وإذا نزل به ما يكره من مصائب يراها شرّاً، استبد به اليأس والقنوط، فقعد كئيباً حزيناً يجترّ آلامه، ويمضغ أحزانه، أو كان يؤوساً من حياته ومستقبله، فلجأ إلى الانتحار تخلصاً مما نزل به من مصائب ومكاره، فهو إما مسرفٌ طاغ أو يؤوس قنوط. وهو في كلتا الحالتين أعمى البصيرة كفور.

وهذا القسم من الناس ربما كان هو المراد من قول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾.

كلٌّ يعمل على شاكلته: أي كلٌّ يعمل على طريقته وقصده ومذهبه في

الحياة، وما دام مذهب هذا الإنسان مذهباً مادياً دنيوياً، فلا بدّ أن تكون طريقة عمله في الحياة طريق الاستمتاع باللذات إلى أقصى الحدود، إذا امتحنه الله بفيوض النعم، وطريق اليأس والقنوط والفرار من الحياة كلها إذا امتحنه الله بالمصائب والآلام التي يراها في تقديره شرّاً، وتكون هذه حالته سواء أكان ذلك منذ نشأته، أو جاءه بعد ذلك في أطوار حياته.

ثانياً ــ ومن الأحوال:

أن يكون الإنسان في النعمة الكثيرة، ثم تنزع منه ويذوق طعم الضرّاء. أو يكون في المصيبة قد مسته فيها الضراء، ثم تزال عنه المصيبة ويذوق طعم النعماء.

فهاتان الحالتان من الأحوال التي قد يتعرض الإنسان لإحداهما أو كليهما في حياته، ووصفُ الإنسان الغالبُ تجاههما يختلف باختلاف عقيدته وخلقه وصفته النفسية.

١ ــ فإذا لم يكن من أهل الإيمان بالله واليوم الآخر، أو لا تخطر قضية الإيمان بالله ومقاديره الحكيمة على فكره، فإنه إذا كان في النعمة ثم نزعت منه أصابه اليأس والقنوط، واستبدّ به الضجر من الحياة، ولم يتنبه إلى أن المصيبة من شأنها أن تذكره بربه، وتشعره بوجوده، حتى يلتمس منه دفع الضرّ ورفعه، بل يظل كفوراً بربه جاحداً لمقاديره غير ناظر إلى حكمته تعالى، فيجتر أحزانه أو ينتحر وإذا كان في المصيبة ثم نزعت منه فذاق طعم النعماء، تمادى في الاستمتاع باللذات والاستغراق في بحر الشهوات، وغدا فرحاً بما لديه، مستكبراً على أقرانه، فخوراً على الناس بما عنده.

وفي وصف هذا الصنف من الناس أمام هاتين الحالتين يقول الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ

عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١١﴾﴾.

ففي حالة نزع النعمة عنه يغدو يؤوساً من حياته متضجراً من وجوده، كفوراً بربه، لا يلاحظ إلا الأسباب المادية الظاهرة، لذلك فهو يجتر آلامه وأحزانه، ولا يرتقب من الله فرجاً ولا مخرجاً، لأنه لا يؤمن به، أو يتخلص من الحياة بالانتحار. وفي حالة تحول الحال من الضرّاء إلى النعماء يصيبه البطر والفرح وينسى ما كان فيه، ويتصور أن السيئات التي كان فيها قد ذهبت عنه إلى غير رجعة، وأنه قد استطاع أن يصل إلى الأسباب التي يحصل بها نعماءه، ولا يقع في تصوره أن الله تعالى قد ابتلاه أولاً بالضراء، ثم ابتلاه الآن بالنعماء، ليرى في الحالتين بعض آيات ربه فيؤمن به ويعبده حق عبادته.

وينجو من داء هذا الصنف من الناس الذين صبروا إيماناً بربهم، وعملوا الصالحات ابتغاء مرضاته، وأولئك لهم مغفرةٌ وأجرٌ كبير. وصبرهم له وجهان: ففي حالة النعمة يصبرون عن معصية الله، وفي حالة المصيبة يصبرون على تحمل مقادير الله، ويعلمون أن ما نزل بهم مقرون بحكمة فيها مصلحة لهم لو عرفوا بواطن الأمور وتدبروا عواقبها.

٢ ــ وإذا كان يؤمن بربٍ خالق بيده تصريف المقادير، وهو يستجيب دعاء من دعاه لتحقيق مطالب الحياة الدنيا، إلّا أنه لا يؤمن باليوم الآخر ولا بما أعد الله فيه من جزاء، أو لا تخطر قضية الإيمان باليوم الآخر على فكره، فإنه كثير الطلب ملحاح في الدعاء لنيل مطالبه ومحابه من الحياة الدنيا، فهو لا يسأم من دعاء الخير، والاستزادة من زينة الحياة الدنيا. وإذا مسه شر كان صاحب دعاء عريض، مستعرضٍ بالاعتراض على الله في مقاديره التي لم تتفق مع ما يحب لنفسه من الخير، أو كان يؤوساً قنوطاً، إما عن نقضٍ لإيمانه بالرب الخالق، أو قنوط من استجابته له.

ولئن أذاقه الله نعمةً من رحمته من بعد ضراء مسّته، فإنّ سلوكه النفسي

والقلبي والعملي تعبر عنه أقوال ثلاثة يقولها، مع إعراضه عن ربّه المنعم وما أوجب عليه، وبعده عن فعل الخير واستكباره.

القول الأول: ما جاءني من خير هو لي أساساً، وقد كان مصروفاً عني، فأنا أستحقه استحقاقاً ذاتياً. ولا يحمد الله عليه، ولا يذكر أن الله قد أنعم به عليه تفضُّلاً، ولا يرى أن عليه واجباً تجاه ربّه مقابل نعمه التي أنعم بها عليه.

القول الثاني: ما أظن الساعة قائمة، وهو يعبر في هذا عن عقيدته القائمة على إنكار اليوم الآخر.

القول الثالث: يقوله مستنداً إلى افتراض أن يكون اليوم الآخر حقيقة واقعة، ويرى أن له عند ربّه للحسنى لو رجع إلى ربّه، وذلك بالاستحقاق الذاتي، ويقيس حال الآخرة على تصوره الفاسد في تعليل ما جاءه من خير في الحياة الدنيا، بأنه قد جاءه بناء على استحقاقه الذاتي له.

فطمع هذا الصنف بامتلاك ألوان زينة الحياة الدنيا، والاستمتاع بألوان متعها لا ينتهي، ويستخدم دعاءه لربّه من أجل نيل ما يحبّ من هذه الحياة الدنيا، وما يأتيه منها يرى أنه صاحب حقّ فيه، فإذا نزل به الشر كان ذا دعاءٍ عريض، أو كان يؤوساً قنوطاً، وهذا اليأس المفرط يدفع به إلى الانتحار المعنوي أو الانتحار المادي الفعلي.

وفي هذا الصنف من الناس يقول الله تعالى في سورة (فصّلت ٤١):

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾.

فهو في النعمة ناء مستكبر منكر للجزاء واليوم الآخر، وإذا مسّه الشر فذو

دعاء عريض، ملحاح متضجر متذمر على ربه، فإذا لم يستجب الله له فيؤوس قنوط.

وحول حمى هذا الصنف من الناس يقف بعض ضعفاء الإيمان، ولو كانوا مؤمنين باليوم الآخر مع إيمانهم بالربّ الخالق الرازق، والواحد منهم إذا مسّه الضر دعا ربّه، فإذا خوّله الله منه نعمة لم ير فضل الله عليه فيها، وإنما يرى أنّ علمه بالأسباب وتعاطيه لها هو الذي جلب له ما أصاب من نعمة، قال الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ ﴾.

ثالثاً ــ ومن الأحوال:

أن يتعرض الإنسان في حياته لشدة خانقة، فتحيط به المخاطر من كل جانب، ولا يجد أسباباً ماديةً لرفعها أو النجاة منها.

ووصف الإنسان الغالب تجاه هذه الحالة يختلف باختلاف عقيدته وخلقه وصفته النفسية.

ومعظم الناس في هذه الحالة من أي صنف كانوا يرجعون إلى ربهم داعين أن ينجيهم، سواء كانوا كافرين بالله واليوم الآخر، أو مشركين يجعلون لله أنداداً، أو كانوا مؤمنين ضعفاء الإيمان واقفين في ظلال الكفر الكلّي أو كفر الشرك.

١ ــ أما الكافر بالله وباليوم الآخر، فإنّ الشدة الخانقة التي لا يجد سبباً مادياً لرفعها أو النجاة منها توقظ في فطرته شعوره بأن لهذا الكون رباً مهيمناً يصرف مقاديره، وبيده مقاليد كل شيء، فيدعوه ويسأله أن يكشف عنه

ما أحاط به، فإذا استجاب الله له وأنجاه، وأقام له الدليل بذلك على ربوبيته وأنه يجيب دعاء من دعاه، وشعر بأنه صار آمناً من المخاطر التي كانت محدقة به، أعرض عن هذا الدليل ورجع إلى ما كان فيه من كفر، وكان الإنسان كفوراً.
قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ﴿٦٩﴾ ﴾.

٢ ــ وأما المشرك: فإنّه ينيب إلى الله في حالة الشدّة الخانقة، حتى إذا كشف الله عنه الضر وخوّله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل ورجع إلى شركه، فجعل لله أنداداً من الأوثان، أو الإنس أو الجنّ أو الملائكة، أو الأسباب والقوانين الطبيعية، وتصدى يضلّ عن سبيل الله. قال الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾.

وكلٌّ من الكافر كليّاً والمشرك يمكر في آيات الله بعد دعائه لربّه ونجاته من الشدائد الخانقة، فيعلّل النجاة بالأسباب المادية والمصادفات، ليبرر لنفسه البغي في الأرض بغير الحقّ، مع أنه عند دعائه كان مخلصاً لله الدعاء، ومعاهداً ربّه أن يكون بعد النجاة من الشاكرين. قال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِىٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ

أَسْرَعُ مَكْرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

٣ ــ وحول حمى الكافرين كلياً والمشركين يقف بعض ضعفاء الإيمان، فيمسّ قلوبهم ونفوسهم شيءٌ مما يصيب الكافرين والمشركين على مقدار ضعف إيمانهم، فهم يدعون الله عند الشدائد، ثم ينسون الله إذا كشف عنهم ما أحاط بهم.

٤ ــ نظراتٌ حول مناقشة القرآن للكافرين والمشركين:

من الملاحظ في هذه النصوص الرائعة التي صورت حالة رجوع الإنسان إلى ربّه في حالة الشدّة الخانقة ثم نقضه، أنّها اشتملت أيضاً على مناقشة الإنسان مناقشة منطقية بديعة لإقناعه وموعظته.

وهذه المناقشة اشتملت على التلويح له بالمخاوف المحيطة به من كل جانب، وإن كان هو لا يراها، إنه إذْ يتوهمّ أنه قد غدا بعد النجاة آمناً من الهلاك، يغفل عن المخاطر التي يمكن أن تنزل به في كل لحظة وفي أي مكان.

من الواضح أن الذي ردّ ركاب السفينة التي أحاطت بها المخاطر إلى ربّهم، إنما هو الخوف الشديد الذي هزّ قلوبهم هزّاً عنيفاً، فأيقظ فطرة الإيمان الصحيح فيهم.

وهنا يقول العقل الرشيد والمنطق السديد: ممّ كانوا يخافون؟.

ويأتي الجواب أنهم كانوا يخافون أن يموتوا في البحر غرقاً. ولكن هل انعدمت احتمالات الكوارث المفاجئة في البر؟

وهذا ما ناقشهم القرآن به، ولفت أنظارهم بشدّة إليه، فإن كانوا في البحر يخشون الغرق في الماء، فهل هم في البر في مأمن من الخسف الذي يدفنهم في التراب إذا أراد الله بهم ذلك؟. والخسف أشد هولاً من الغرق بالماء. وإن كانوا في العاصفة البحرية يخشون ما تقذفه السماء عليهم من أمطار مغرقة، فهل هم في البر في مأمن من عاصفة تقذف عليهم حاصباً من السماء إذا أراد الله بهم ذلك؟. وأمطار الحجارة أشد هولاً من أمطار الماء. وأخيراً هل هم في مأمن من أن يعيدهم الله في البحر مرّة أخرى، فيرسل عليهم ريحاً عاتية، فتكفأ سفينتهم فتغرقهم بسبب كفرهم بربّهم وبأنعمه عليهم؟!.

فهذه هي الاحتمالات التي كان عليهم أن يضعوها في حسابهم بعد أن وصلوا إلى البر الآمن، لا أن يغتروا بالأمن الذي وصلوا إليه، فيكفروا بنعمة الله الذي أنجاهم، وأنعم عليهم فخلّصهم من الشدة التي مسّتهم بضرها.

أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم معصومون من هذه الأمراض الخطيرة بعصمة الله.

إلّا أن الإعراض والغفلة عن الله في حالة الرخاء من الأمراض التي قد تصيب الإنسان بوجه عامّ، غير أنّ نسبة وجود ذلك في أفراد الناس متفاوتة، فهي عند أهل الكفر ترتفع إلى قمة الخط البياني، وعند المؤمنين أهل الطاعة والاستقامة تنخفض انخفاضاً عظيماً، حتى لا يبقى منها إلّا بعض الانغماس في مجالات النعمة والترف، التي تنسي الإنسان مراقبتهُ لربّه، بما فيها من لذائذ ومتع، وبما فيها من شهوات ومغريات.

وواقع حال الإنسان هذا هو الذي يفسّر لنا ورود النصوص القرآنية عامّة، فما كان منها من مستوى الكفر كان خاصاً بالكافرين، وما كان منها من مستوى المعاصي أو الغفلات كان عامّاً، ولكل إنسان نصيب منه قل أو كثر.

أما المؤمنون فلا بدّ أن تتحرك في قلوبهم عوامل الإيمان بربّهم وباليوم الآخر، فتخفف من نسبة إعراضهم وغفلاتهم، مهما أبطرتهم النعمة وأنستهم طاعة ربّهم. ويستطيع الإنسان أن ينجو من المستوى المهلك لهذه الصفة إذا كان قوي الإيمان، عظيم المراقبة لله تعالى في كل أحواله، ذاكراً له في السراء والضراء، عاملاً بما يدعوه إيمانه وإسلامه إلى عمله من الصالحات، وله من إخوانه المؤمنين من يوصيه بالحقّ ويوصيه بالصبر.

وهذا الاستثناء للذين آمنوا وعملوا الصالحات قد جاء في نصوص كثيرة، منها النصّان العامّان اللذان في سورة (التين ٩٥) وفي سورة (العصر ١٠٣):

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾.

فالذين ينجون من الرّد إلى أسفل سافلين ومن الخسر هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات. مع أن الإنسان لو ترك من غير هذا الدرع الإيماني الواقي لكانت حاله في خسر، ولردّ إلى أسفل سافلين، فالإيمان والعمل الصالح سفينة النجاة.

وصف الإنسان في القرآن بأنه جحود كنود كفور:

استناداً إلى واقع حال الإنسان الذي جاء بيانه في النصوص السابقة كان وصف الإنسان بأنه جحود وكنود وكفور أمراً طبيعياً.

ولذلك نجد أنّ الله تبارك وتعالى قد وصف الإنسان في القرآن في عدّة نصوص بأنّه ظلوم كفّار، وبأنّه كفور، وبأنه كفورٌ مبين، وبأنه كنود، أي كفورٌ جحود للنعمة. وفي نصٍّ منها جاء التعجب من كثرة كفره، ولا يسلم من انطباق هذا الوصف عليهم من الناس إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ونسبة هؤلاء في الناس هي النسبة الأقل.

والمقصود الأول من وصفه بأنه كفورٌ أنه جحود لنعمة الله عليه، مع أنّ نِعم الله عليه أكثر من أن يستطيع إحصاءها. ويلزم من كفر النعمة إنكار المنعم، وإنكار ما جاء من عنده، والتمرد على طاعته، وهذا هو الكفر في الدين، وهو أثر من آثار كفر نعمة الله، ولو أن الإنسان لم يكفر نعمة الله عليه لما كفر به، ولما كفر بحقه عليه، ولقام بواجب الشكر نحوه، فآمن به، وعبده حقّ عبادته، وأطاع أوامره ونواهيه.

١ ــ ففي كون الإنسان ظلوماً كفّاراً لنعم الله عليه، يقول الله تعالى في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

فهذا النص يدور حول بيان طائفة من نعم الله الكبرى على الناس، وحول بيان كون الإنسان كفوراً لها ظلوماً لنفسه، فالذين كفروا من الناس قد بدّلُوا نعمة الله كفراً، أي قابلوا نعمة الله بالكفر والجحود.

ثمّ عدد الله أنواعاً من النعم الكبرى التي أنعم بها على عباده، فذكر إنزال المطر وإخراج الثمرات، وذكر تسخير الفلك في البحر وتسخير الأنهار، وذكر نعمة استجابته دعاء من دعاه من عباده، ثمّ عمّم فقال: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾.

ووصف الله الإنسان بأنه كفور، فقال تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ ﴾.

ففي هذا النص نلاحظ أنّ الله تبارك وتعالى عدّد من نعمه أنه سخّر للناس ما في الأرض، وهذا يشمل كل ما يمكن أن ينتفع به الإنسان فيها، وأنه سخّر الفلك تجري في البحر بأمره، وهذه نعمة يعرفها الذين يركبون البحر، أو ينتفعون من جري الفلك فيه، وأنه سبحانه يمسك السماء أن تقع على الأرض، فلا تصطدم نجوم السماء وكواكبها بالأرض، إذ تسير كل كرة في مدارها بتقدير العزيز الحكيم. وكل هذه النّعم من رأفة الله بالناس ورحمته لهم.

ثم أشار النص إلى الحكمة من الخلق، وهي ابتلاء الناس في ظروف هذه الحياة الدنيا، والمطلوب في هذا الابتلاء أن يشكر الإنسان نعمة الله عليه، وذلك بعبادته وطاعته، إلاّ أنّ الإنسان كفور، يحبّ نعمة الله ويسعى للحصول عليها، ولكنّه لا يشكرها بل يكفرها، ولذلك ختم الله النص بقوله: ﴿إنّ الإنسان لكفور﴾

ووصف الله الإنسان بأنه كفور مبين، أي واضح كفرانه مكشوف غير مستور، فقال تعالى في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾.

وما كنّا له مقرنين: أي: وما كُنّا له مطيقين، من أقرنتُ الشيء إذا أطقته وقدرت عليه.

ففي هذا النص يعدد الله أيضاً طائفة من نعمه على الناس، فيذكر منها أنه جعل لهم الأرض مهداً صالحة لسكنى الناس عليها، ليست ذات أغوارٍ سحيقة لا تدرك، وليست ذات رؤوس عالية حادة كظهر القنفذ لا تسكن ولا تحرث ولا تزرع، بل هي ممهدة لسكانها، وفيها مسالك وسبل يهتدي فيها السالكون لبلوغ ما يقصدون من جهاتها. ويذكر من هذه النعم نعمة إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض الميتة به، حتى تزدان بنباتها وأشجارها وثمارها. ويذكر من هذه النعم أنه خلق للناس أصناف الأشياء كلّها، وأنه جعل للناس من الفلك والأنعام ما يركبون.

ولكن من الناس من كفروا بنعمة الله، فجعلوا لله من عباده جزءاً، فقالوا: ولد الله، سبحانه وتعالى عمّا يصفون.

ثمّ ختم الله النص بقوله: ﴿إنّ الإنسان لكفورٌ مبين﴾.

٤ ــ ووصف الله الإنسان بأنه كنود، أي جحود لنعمة الله عليه، وبأنه شهيد على ذلك، أي يعرف من نفسه هذه الصفة، فهو جحود للنعمة مع وعي تامّ لما يصدر عنه من جحود، لا عن جهل ونسيان. والعجيب في أمره أنه يظل يحبّ توارد النعم عليه من المنعم، فهو يأخذها ويطلبها ويحبّها، ويكفر من أنعم عليه بها، قال الله تعالى في سورة (العاديات ١٠٠):

﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ﴾.

٥ ــ وقال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ۝٦٧ ﴾.

وقال تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾.

ففي حالة النعمة يبطر ويفجر ويكفر، وفي حالة المصيبة يتضجر ويتذمر ويكفر، فهو كفور جحود للنعمة.

٦ ـ وفي التعجب من كثرة كفر الإنسان يقول الله تعالى في سورة (عبس ٨٠):

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ !! ﴿١٧﴾ ﴾.

ـ ١٢ ـ

الإنسان مسؤول عن عمله الإرادي ولديه الصفات التي تؤهله لهذه المسؤولية

أثبت الله مسؤولية الإنسان عن عمله الإرادي في نصوص كثيرة، وإثبات مسؤوليته يستلزم اتصافه بالصفات التي تجعله مسؤولاً عن أعماله، منها الإرادة الحرة، والقدرة على معرفة الخير والشر ومعرفة التكليف الذي يوجّه له.

فلنتدبّر دلالات النصوص التي أثبتت مسؤولية الإنسان:

* أولاً ـ يقول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾.

ففي هذا النص يبيّن الله تبارك وتعالى مسؤولية الإنسان الشخصية

عن عمله الذي يكسبه، فكل إنسان مسؤول عند الله عن عمله، وقد ألزمه الله طائره في عنقه.

والمراد من الطائر العمل الذي يكسبه الإنسان بإرادته الحرّة، لأن الإنسان إذا عمل عملاً طار منه وغدا مسؤولاً عنه، ومتى طار من الإنسان عمله لم يكن باستطاعته أن يرجعه، ولكن تلزم عنقه المسؤولية بعد طيرانه، فيسأل عنه ويُحاسب عليه.

ولاقتران الطائر بالعمل قصة تتصل بشيء كان عند العرب، فقد كان العرب إذا أرادوا عملاً من الأعمال، أو أرادوا التوجّه لسفر من الأسفار أو نحو ذلك، يتفاءلون بالطيور أو يتشاءمون بها، فيربطون حظوظهم من أعمالهم بسوانح الطيور وبوارحها، فإذا تفاءلوا مضوا، وإذا تشاءموا عدلوا عن قصدهم.

فربّما اتجهوا لقصدهم الذي عزمت عليه إرادتهم، فإذا مرَّ بهم طائر من الطيور معترضاً من أيمن اتجاههم إلى أيسره تفاءلوا به، وزعموا أنّ ما توجّهوا له من عمل هو خير، ويسمّون هذا الطائر سانحاً، لأنه اعترض مقبلاً من جهة اليمين. أما إذا مرّ بهم طائرٌ معترضاً من أيسر اتجاههم إلى أيمنه فإنهم كانوا يتشاءمون به، ويزعمون أن ما توجّهوا له من عمل هو شرّ، ويسمّون هذا الطائر بارحاً، لأنه اعترض مقبلاً من جهة اليسار.

فالطِّيرة عندهم من هذا التشاؤم بالطير البارح، وقد نهى الإسلام عنها كما هو معلوم.

وكان التفاؤل بالسانح من الطيور والتشاؤم بالبارح منها عمل عرب الحجاز، أما عرب نجد فكانوا على العكس، يتفاءلون بالبارح من الطيور لأنه يقابلهم بيمينه، ويتشاءمون بالسانح لأنه يقابلهم بيساره، وهذا ظاهر في شعر أكثر شعرائهم.

فالعرب بهذه الخرافة التي كانت تسيطر عليهم قبل الإسلام، كأنهم قد جعلوا الخير والشرّ مرتبطين بسوانح الطيور وبوارحها، حتى صاروا يطلقون على

العمل الذي يتفاءلون بالخير من ورائه طائراً ميموناً، وعلى العمل الذي يتشاءمون به طائراً مشؤوماً، كأنّ الطير هو المسؤول عن أعمال الخير وعن أعمال الشرّ التي يفعلونها بإراداتهم.

إنّهم يعطّلون بهذه الخرافة الاعتقادية ما وهبهم الله من قدرة فكرية يتدبرون بها الأمور، وفق نظم الأسباب والمسببات، ويعطّلون مسؤولية إرادتهم الحرّة التي تُصدر أوامرها لتنفيذ الأعمال، ومن أجل ذلك ألغى الإسلام هذه الخرافة، وأعلن أنْ لا طِيَرَة، وأن الطيرة على من تطيّر، وأنّ الشؤم على من تشاءم، أما الفأل فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحبّه كالتفاؤل بالأسماء الحسنة. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يكره التشاؤم، لأنّ التفاؤل يساعد النفوس على مضاعفة الجهد للمضي في العمل الذي عزمت عليه الإرادة، والإسلام يكره في الأعمال التردّد والتخاذل، ولذلك قال الله لرسوله:
﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾.

أما التشاؤم فإنه يطفىء جذوة النشاط إلى العمل، ويبطىء الهمة، ويورث التردّد والتخاذل، وهذه الأمور توصل إلى النتائج غير المحبوبة في أكثر أحوالها، فيكون الشؤم على من تشاءم نتيجة لعمله.

ولما ألغى الإسلام الخرافة التي كانت شائعة عند أهل الجاهلية، أعلن أنّ مسؤولية الإنسان ملازمة له، فهي في عنقه الذي تتردد فيه أنفاس حياته، فطائره المسؤول ليس السانح ولا البارح، وإنما هو في عنقه، ملازم لإرادته الحرّة ملازمة حياته له.

فإطلاق كلمة الطائر في هذا النص إطلاق مجازي عن العمل المتعلق بمناط المسؤولية في الإنسان، ومناط المسؤولية في الإنسان إرادته الحرّة الواعية.

فالإنسان بهذا الإعلان القرآني هو المسؤول عن أعمال الخير وأعمال الشرّ التي تصدر عنه وهو حرّ الإرادة.

قال بعض أهل التفسير: طائر الإنسان عمله. وقال بعضهم: طائر الإنسان حظه.

أما القول الأول فهو الذي وضح لنا رجحانه وهو المتفق مع ما جاء في تتمة الآية. وأما القول الثاني فإذا كان مرادهم من الحظّ نصيب الإنسان الذي يناله بعمله، فهو يتضمّن إثبات المسؤولية، وإن كان مرادهم من الحظّ ما ينفرد به القضاء والقدر دون وساطة عمل الإنسان، فما جاء في تتمة الآية لا يؤيد هذا الاتجاه، وهو قوله تعالى: ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ ثم قوله تعالى بعد ذلك: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾.

ومهما كان فهمنا للنص فإنّ دلالته العامّة تثبت مسؤولية الإنسان عن أعماله الإرادية في الحياة، وأنّ مناط مسؤوليته أمر داخل فيه وملازم له ملازمة حياته له، ولمّا كانت مسؤوليته تستدعي سؤاله ومحاسبته يوم القيامة ــ وهذا يستدعي تسجيل أعماله الإرادية التي يعملها في حياته، لتكون محاسبته على أساس سجل أعماله ــ قال الله تعالى عقب إعلان المسؤولية: ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾.

وإعلاناً عن مسؤولية الإنسان الشخصية عن أعماله الإرادية، وأنّ أحداً لا يتحمل وزر غيره إلاّ أن يكون له فيه كسب، قال الله تعالى في النص: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أي لا تحمل نفس من شأنها أن تحمل الوزر بعملها وزر نفس أخرى.

وقوله تعالى: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ يستدعي تساؤلاً عن الأسس التي يحاسب بها الإنسان نفسه إذا هو نظر في كتاب عمله؟

ويظهر أن الإنسان إذا نظر في قانون الجزاء الرباني العادل، ونظر في كتاب أعماله التي قدّمها في الحياة الدنيا، استطاع أن يحسب بدقّة ما له وما عليه، فما كان قد نهاه الله عنه وعمله مخالفة لنهي الله عرف أنه مؤاخذ به، وأنه يستحقّ عليه العقاب بالعدل، وما كان قد عمله أو تركه طاعة لله، عرف أنه مثاب عليه بفضل الله، الحسنة بعشر أمثالها في أدنى الجزاء.

وعلى هذا الأساس يستطيع الإنسان محاسبة نفسه على كل صغيرة وكبيرة

مسجلة في كتاب عمله، وما يراه مسجّلاً في كتاب عمله يعلمه من نفسه تماماً، ويذكره كما لو كان قد فعله منذ ساعته.

ولمّا كان الإنسان مسؤولاً مسؤولية شخصية عن عمله، وهذه المسؤولية تجعله أمام طريقين:

(أ) أحدهما طريق سعادة.

(ب) والآخر طريق شقاء.

فإذا سلك في طريق السعادة كان من السعداء، وإذا سلك في طريق الشقاء كان من الأشقياء، وطريق السعادة طريق هداية، وطريق الشقاء طريق ضلال.

لـمّا كان الأمر كذلك أعلن النص أنّ من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، وأنّ من ضلّ فإنما يضلّ عليها، فقال تعالى: ﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها﴾.

أي يهتدي لمصلحة نفسه ونجاتها وسعادتها، ويضلّ جانياً على نفسه جالباً لها الخسران والشقاء، بما يستحقه من عقاب الله بسبب أعماله السيئة.

أما قول الله تعالى في النص: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ فهو يعلن مبدأً أساسيّاً من مبادىء قانون الجزاء الربّاني، وهو أنّ كلَّ نفس من شأنها أن تكون مسؤولة تحمل أوزاراً، لا يمكن في قانون العدل الرباني أن تحمل أوزاراً لغيرها ليس لها فيها كسب، وإن كان ذا قربـى، فلا يحمل أبٌ من أوزار ابنه شيئاً، ولا يحمل ابن من أوزار أبيه شيئاً، ولا يحمل قرين من أوزار قرينه، ولا حميم من أوزار حميمه، إلّا أن يكون له كسب فيها، فيحمل إذن أوزار نفسه بهذا الكسب.

والأوزار في اللغة هي الأحمال الثقيلة، ولمّا كان الذنب الذي يفعله الإنسان يشبه الحمل الثقيل فقد أطلق العرب على الذنب وزراً.

ويقال لغة لمن حمل حِملاً ثقيلاً أو أذنب ذنباً كبيراً: وَزَر، يَزِر، فهو وازِر، وهي وازرة.

وهنا نقول: إنّ (وازرة) في النص صفة لموصوف محذوف تقديره: ولا تزر نفس وازرة وزر نفسٍ أخرى.

وأما قول الله تعالى في النص: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ فهو يعلن عن مبدأٍ آخر من مبادىء العقاب الربّاني، وهو أنّ الله تعالى لا يُعذّب عباده على ذنوبهم مع ربّهم في الحياة الدنيا حتى يرسل لهم رسولاً يبيّن لهم طريق هدايتهم وسُبُل غوايتهم.

وهكذا بيَّن هذا النص مسؤولية الإنسان الشخصية عن أعماله الإرادية، وبيّن أن التعذيب على الأوزار شرطه الإعلام عن طريق إرسال الرسول المبلّغ المبشر المنذر.

ونصوص المسؤولية المؤكدة لمضمون هذا النص كثيرة، وكلّها تثبت أنّ الإنسان مسؤول عند ربّه عمّا يعمل بإرادته الحرّة من أعمال.

فمنها النصوص التالية:

يقول الله تعالى في سورة (الصافات ٣٧):

﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

ويقول الله تعالى في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

ويقول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾.

ويقول الله تعالى في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

ويقول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

ويقول الله تعالى في سورة (التكاثر ١٠٢):

﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾.

من هذه النصوص يتبيّن لنا أنّ الإنسان يُسأل يوم القيامة عن أعماله، ويسأل عن المنح التي وهبه الله إياها، هل استعملها فيما خلقت له؟ ويسأل عن النعيم، هلْ آمن بخبر الله فيه؟

ويوضح كل ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عُمره فيم أفناه؟ وعن جسده فيم أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن علمه ماذا عمل فيه؟».

ولهذا الحديث روايات وطرق يرتفع بها إلى درجة الصحيح، منها ما رواه الطبراني عن معاذ بن جبل، أن رسول الله ﷺ قال: «لن تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن علمه ماذا عمل به؟».

* ثانياً: يقول الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ

وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

ويتساءل الكثيرون عن الأمانة التي حملها الإنسان، وأبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن من حملها.

وفي الإجابة على هذا التساؤل نقول:

للباحثين في المراد من الأمانة في هذه الآية وجوه من التأويل كثيرة، ولكن يحسن أن نبحث في الإنسان، ونتفكر في استنباط الخصائص التي امتاز بها الإنسان عن غيره، وقد وضعها الله أمانة بين يديه ليحفظها ويؤدي حقوقها، فكان من الإنسان خيانة لها، وعدوان على حقوقها، استجابة لأهوائه وشهواته ووساوس الشياطين، وبذلك صحّ أن يوصف بأنه ظلوم جهول.

ومن الواضح أنّ الإنسان قد امتاز على المخلوقات الأخرى بخصائص التفكير ومعرفة صفات الأشياء، والإرادة الحرّة، وجملة من مطالب النفس وأهوائها وشهواتها، ومقدارٍ ما من القدرة على تنفيذ ما يريد، في مقدارٍ ما من الزمان والمكان، ضمن حدود هذه الحياة الدنيا.

وما امتاز به الإنسان من كل ذلك ممّا يستطيع التصرف فيه بفعل الخير والشرّ، هو أمانة وضعها الله تحت يده، بعد أن منحه الاستعداد الفطري لحمل هذه الأمانة.

وإذْ وضع الله هذه الخصائص أمانة تحت يده، وضع له منهاجاً ليتصرف بالأمانة على وفقه، فإذا تعدّى حدود هذا المنهاج فقد خان الأمانة وظلم، وعرض نفسه للمؤاخذة فكان بذلك جهولاً.

فما تحت يد الإنسان مما يستطيع التصرف فيه، وما في مستطاعه من القوى الظاهرة والباطنة، وما سخّر الله للناس في هذا الكون الكبير مما للإنسان قدرة على التصرف فيه، حتى حياة الإنسان وجسده وفكره، كل ذلك أمانة وضعها الله تحت يده، وجعل له سُلطةً تكوينية عليها، وأنزل له منهجاً تكليفياً طالبه فيه بأن

لا يتصرف بها في فعل شر أو ضر أو معصية أو عدوان، فإذا تصرف بها في شيء من ذلك فقد خان الأمانة التي استأمنه الله عليها، فكان بذلك ظلوماً، وبظلمه عرّض نفسه لعقاب الله فكان بذلك جهولاً.

فمسؤولية إرادة الإنسان الواعية في الحياة، مسؤولية أمانة لما استودعها الله أو أعارها أو وضع سلطتها من قوى وطاقات، سواء أكانت داخلة في جسم الإنسان أو خارجة عنه.

ونتساءل عن المراد من عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال، وإبائهنّ أن يحملنها، وإشفاقهنّ منها؟.

ويمكن أن نجيب بأن المراد ــ والله أعلم ــ عدم وجود الاستعداد والقابلية الفطرية لتحمّل الأمانة لدى هذه المخلوقات. وهو نظير ما لو قلت: عرضت الحجر على النار فأبت النار أن تأكله، وعرضت الحطب على النار فاستجابت فأكلته، فمعنى هذا الكلام أنّ النار غير مستعدّة في نظامها الفطري لأن تأكل الحجر، وهي مستعدّة لأن تأكل الحطب. على أنّ فاطر الفطرة وواضع النظام هو الله سبحانه وتعالى.

فهذه المخلوقات الكبيرة رغم كبرها وضخامتها لا تملك استعداداً فطرياً لحمل الأمانة، لأنها لا تملك شروط حمل هذه الأمانة، لذلك فهي تأبى هذا الحمل.

أما الإنسان فإنّه ما كان ليأباه، لأنه يملك الاستعداد الكامل لحمل الأمانة، من أجل ذلك حملها، ويتصل هذا بأن الله قد خلقه في أحسن تقويم.

ولم يكن بحمله للأمانة ظلوماً جهولاً، ولكن بخيانته بعد ذلك في حياته للأمانة كان ظلوماً جهولاً. أما أنه ظلوم فيرجع ذلك لكثرة نسبة خيانته للأمانة، وأما أنه جهول فيرجع إلى أنه لم يتبصر بعواقب ظلمه، ولم يحسب حساباً لمسؤوليته ولم يخش عقاب ربه، فكان بذلك جهولاً ناقص العقل. وهذا هو المشاهد في وصف معظم الناس.

* **ثالثاً**: يقول الله تعالى في سورة (القيامة ٧٥):

﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾.

فهذا النص يدل على أن الإنسان في حدود مسؤوليته عن أعماله، إنما يعمل أعماله وهو في حالة وعي كامل لما يعمل، ولغايته مما يعمل، وهو قادر على تمييز الخير والشر فيما يعمل، وقادر على محاسبة نفسه عما عمل، ولو حاول أن يستر نفسه بما يلفّق من أعذار، وبما يرتّب من حجج يبرّر فيها عمله، وبما يجادل به عن نفسه ليبرئها من الخطيئة والإثم والفسوق والعصيان.

فالإنسان على نفسه بصيرة، أي لديه جهاز مشرف على نفسه، وعلى كل ما يصدر عنها من أعمال إرادية. وهذا الجهاز بصيرٌ مدرك واع شديد المراقبة شديد الإحساس، دل على هذا كلمة (بصيرة) فالتاء فيها للمبالغة، والصيغة من صيغ المبالغة، فارتقت الدلالة بهما فكأنه قيل: بصير بمقدار كبير.

وهذا الجهاز الذي خلقه الله في الإنسان يلتقط صوراً كاملة عن أعماله وعن الغاية منها: ويسجلها لديه في سجل المحفوظات، فهو يذكرها من حين لآخر مهما تقادم عليه الزمن، ولئن نسيها وضاعت من وعيه الظاهر فإنها تظل محفوظة في وعيه الباطن، وتطفو على سطح الذاكرة في بعض أحوال الإنسان في الحياة الدنيا، ويتذكرها تذكراً تاماً كاملاً في الحياة الآخرة يوم الحساب، لأن العوامل التي جعلتها في طي النسيان في الحياة الدنيا لا يكون لها وجود يوم القيامة، إذ تزال الغشاوات، وتعود الذّات الإنسانية إلى صفاء فطرتها.

ومن أجل هذا ورد النص في سياق ما ينبأ به الإنسان يوم القيامة مما قدم وأخر من عمله، فهو ينبأ بما عمل وبما لم يعمل مما كان مسؤولاً عن عمله، وهو مع ذلك يعلم هذا من نفسه ويذكره، ويستطيع أن يحاسب نفسه عليه محاسبة صحيحة، لأنه عليم تماماً بأعماله وبمقاصده من أعماله، ويعرض عليه أيضاً كتاب عمله، وهو إن أنصف شاهدٌ على نفسه وعليه شهود من الملائكة

الموكلين بمراقبته، وشهود من جوارحه وأعضائه التي استخدمها في ذلك، ثم من فوق ذلك علم الله المحيط بكل شيء.

ولولا أن الإنسان يتذكر كل ما قدم وأخر في حياته الأولى، لأنكر كتاب عمله وهو صادق مع نفسه في الإنكار، ولزعم ـ وهو ينال جزاءه ـ أنه مظلوم في معاقبته، لأنه لا يذكر من ماضيه شيئاً. من أجل ذلك أعطى الله الإنسان جهاز التذكر، فهو معه في الحياة الدنيا، وفي الآخرة، وفي الآخرة يكون أصفى وأوضح، وأبين لكل صغيرة وكبيرة، ولكل عمل ونية.

وقد أثبت الله للإنسان هذا التذكر فقال تعالى في سورة (النازعات ٧٩):

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾.

فقد دل هذا النص على أن الإنسان يتذكر يوم القيامة ما سعى في الحياة الدنيا.

والطامة الكبرى: هي يوم القيامة. قال ابن عباس: سميت بذلك لأنها تطم على كل أمر هائل مفظع.

وقال الله تعالى في سورة (الفجر ٨٩):

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ ﴾.

فدل هذا النص على أن الإنسان يتذكر يوم القيامة كلّ شيءٍ سلف في حياته، يتذكر عمله، ويتذكّر النّذر التي جاء بها أنبياء الله ورسله، والتي قرأها أو سمعها فيما أنزل الله من كتاب، ويتذكر المواعظ التي وجهت له في الدنيا،

ويتذكر أوامر الله ونواهيه وترغيباته وترهيباته، ويتذكّر الحجج والبينات التي كانت كافية لإقناعه إلّا أنه لم يعبأ بها، إنه يتذكر كل ذلك، ولذلك جاء النص هنا عاماً غير خاصٍ بالعمل.

إلا أن هذا التذكر لا ينفعه في ذكرى، أي لا ينفعه في موعظة يغير فيها نتيجته التي تقررت عليه أو له. لقد انتهت حيـاة الابتلاء، واليوم هو في حياة الجزاء، وأي عمل لا ينفعه وهو في حياة الجزاء، وأية موعظة حينئـذ وأية ذكرى لا تغنيه، لم يبق له إلا الحسرة والندم، لذلك فهو يقول: يا ليتني قدمت لحياتي، أي يا ليتني قدمت العمل الصالح لحياتي هذه التي هي حياة الخلود، حتى أكون من الناجين من عذاب النار، وحتى أكون من السعداء في جنة النعيم.

ـ ١٣ ـ
الإنسان يتبع الظنون والأوهام لتحقيق أمانيه

في سياق الكلام على المشركين يقول الله تعالى في سورة (النجم ٥٣):

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

ففي هذا النص يبين الله تبارك وتعالى مدى تأثير دوافع الإنسان وأهوائه وشهواته في رسم أمانيه، ولو كانت هذه الأماني تخالف الحق والواقع، أو تنافي السلوك الواجب الذي يحقق للإنسان السلامة والنجـاة والعاقبـة السعيدة، ولو كانت هذه الأماني تنشد المستحيل وتتعلق به.

ولذلك قال تعالى عـلى سبيل الاستفهـام التعجبـي الإنكاري: ﴿أم للإنسان ما تمنى؟!﴾ أي لا يمكن أن يخضع الحق والواجب لأماني الإنسان، التي هي صور نفسية لديه، ترسمها دوافعه وغرائزه وأهواؤه وشهواته.

والإنسان حينما يريد تحقيق أمانيه في قضايا الحق والباطل، يتبع الظن

الضعيف الذي لا تدعمه أدلة فكرية، ولا أدلة حسية، ولا أدلة خبرية صحيحة، ثم يجعل الظن الضعيف حقيقة يعتقدها، لأن أمانيه تعلقت بها بتأثير دوافعه وأهوائه وشهواته. وحينما يريد تحقيق أمانيه في قضايا السلوك يحاول أن يتخذ المبررات لما تهوى نفسه، ثم يجعل ما يهواه خيراً وإن كان في حقيقة أمره شراً.

ثم هو من أجل تحقيق أمانيه يغمض عينيه عن كل هداية تأتيه، فتكشف له الحق، وتبين له طريق النجاة والسعادة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ عقب قوله: ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾.

فهم يهجرون الهداية الواضحة التي جاءتهم من ربهم، سواء منها ما يتعلق بجانب الاعتقاد أو بجانب السلوك، ويغمضون أعينهم عما في هذه الهداية الربانية من حق وخير ونجاة وسعادة لهم، ثم يتبعون الظن الضعيف وما تهوى أنفسهم، ويرسمون من ذلك أماني يطمعون بتحقيقها، مع أنها لا تتحقق، لأن الجانب الاعتقادي منها باطل، والباطل لا يتحول حقاً بالأماني، ولأن الجانب العملي منها ممارسة للشر، والشر لا يكون خيراً بالأماني.

والنجاة من العقاب لا تأتي بمجرد الأماني.

ودخول الجنة لا يأتي بمجرد الأماني.

والباطل لا يصير حقاً بالأماني.

والحق لا يصير باطلاً بالأماني.

والشر لا يصير خيراً بالأماني.

﴿أم للإنسان ما تمنى؟!﴾.

خلق الله الإنسان في أحسن تقويم
ثم هو بعد ذلك في خسر إلا الذين
استثنتهم سورة العصر

أثبت الله أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم أنه في خسر بعد خسر من منزلته ومكانته بسوء عمله، حتى يكون أسفل سافلين، باستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنهم لا يردون إلى أسفل سافلين، وباستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر، فإنهم يحمون أنفسهم من الخسر.

قال الله تعالى في سورة (التين ٩٥):

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (العصر ١٠٣):

﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾.

فالله جل وعلا قد خلق الإنسان في أحسن تقويم، أي منحه أكمل صفات منحها لمن خلق من عباده، فأعطاه سبحانه وتعالى مصغرات من العلم والإرادة الحرة، بالإضافة إلى ما وهبه من الحياة إذ نفخ فيه من روحه، وهذه الصفات في مستواها الأعلى الذي ليس له حدود هي من صفات الله عزوجل، وقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله آدم على صورته».

ولما خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، خلق له الجنة داراً تناسب تقويمه الذي فضله الله وكرمه، وجعل له في الجنة منزلاً يلائم ما وهبه سبحانه من

كمال، ولكنه سبحانه جعل بلوغ الإنسان إلى منزله الذي أعده له في الجنة منوطاً بأن يقدم الثمن من عمله في الحياة الدنيا، ومنح الله الإنسان طاقة عمل، وقدَّر له أجلاً يبذل فيه الثمن، وأعطاه القدرة التي يعرف بها الخير والشر، والحق والباطل، وأنزل له الشرائع لتعرِّفه الصراط المستقيم الذي يوصله إلى دار كرامته، ووضع ما منحه من خصائص وطاقات وما سخر له في الحياة الدنيا تحت سلطة إرادته الحرة الواعية التي فطره عليها، وأقام في طريقه بعض العقبات من نفسه وأهوائه وشهواته، ليتم بذلك امتحانه.

فرأس مال الإنسان الذي يمكن أن يشتري به سعادته في جنة الخلد، هو عمره في الحياة الدنيا، وما لديه من قدرة على الإيمان والعمل الصالح؛ فإن هو دفع ذلك ثمناً للمقام الكريم والمنزل السعيد الذي أعده الله له في الجنة، حافظ بذلك على المستوى الرفيع الذي خلقه الله عليه، إذ جعله في أحسن تقويم. وإن هو بذل ذلك ثمناً لانحداره، وعمل على مسخ إنسانيته وتشويه صورتها، واتَّبع أهواءه وشهواته ووساوس الشياطين خسر رأس ماله، وخسر في مقابل ذلك المنزل الذي أعده الله له في جنة الخلد، واشترى بدله منزلاً في جهنم دار العذاب.

وبذلك يظهر تماماً أن الإنسان في خُسْرٍ دائم يخسر فيه رأس ماله في الحياة ومنزله في جنة الخلد، ثم جنة الخلد كلها، ويظلّ يتنازل في هذا الخسر عن المستوى الذي جعله الله فيه في أحسن تقويم، حتى يصل إلى درك يكون فيه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فإنّهم يحافظون على مستوى ما من جنة النعيم بقدر إيمانهم وصالح أعمالهم، ويخسرون من المنازل الرفيعة في الجنة بقدر تقصيراتهم في الأعمال عمّا تستحقه هذه المنازل، وإلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، فإنهم يحمون أنفسهم من الخسر كله، ويحافظون على منازلهم في الجنة، وهي المنازل التي تلائم ما وهبهم الله من كمال، منذ خلقهم في أحسن تقويم.

وجاء في بيان الرسول ﷺ أن الله تبارك وتعالى قد أعدّ لكل إنسان منزلاً

في الجنة ومنزلاً في النار، وأنّ المؤمنين يرثون في الجنة منازل الكافرين، فقد أخرج ابن أبـي حاتم عن أبـي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزلٌ في الجنة، ومنزلٌ في النار، فإذا مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله تعالى: ﴿أولئك هم الوارثون﴾..».

فالكافرون يخسرون، والمؤمنون يرثون.

أما الأسباب التي تجعل الإنسان يسير في طريق الخسر، إذا لم يحمه الإيمان والعمل الصالح، ولم يشدّ أزره التواصي بالحقّ والصبر، فهي ترجع إلى أن الإنسان مخلوق عجيب، يمثّل مملكة معقدّةً كبرى داخل جسمه الصغير.

ففي داخل الإنسان حشدٌ كبير من الغرائز والطبائع والشهوات والدوافع النفسية، وهذا الحشد يشبه جماهير الناس ذات المطالب المختلفة ضمن حدود مملكةٍ من الممالك البشرية. ولو تركت جماهير الناس في حالة فوضى، ينطلق كلٌّ منهم وفق أهوائه الخاصّة به، دون أن يجد رادعاً من سلطة حازمة وإدارة حكيمة، لكانت النتيجة خراباً ودماراً وفساداً عريضاً وخسراناً مبيناً. ونظير ذلك يحدث للإنسان داخل مملكته في ذات نفسه، إذا هو ترك جماهير أهوائه وشهواته وغرائزه في حالة فوضى، تنطلق إلى مطالبها الرعناء، دون أن تجد رادعاً من سلطة حازمة، وإرادة عاقلة حكيمة.

إنّ هذه الجماهير داخل النفس الإنسانية ستسوق الإنسان إلى الفساد العريض، والخسران المبين، والعذاب الأليم.

والذي يحمي الإنسان من هذا الخسران إرادته العاقلة التي وهبه الله إياها، ضمن ما وهبه من خصائص، فالإرادة الحرّة في الإنسان هي التي تمثّل في داخله السلطة الإدارية الحاكمة، المسؤولة عن إدارة جمهور أهوائه وشهواته ودوافعه النفسية ومطالب غرائزه، والمسؤولة عن حسن سياستها، وهي تشبه في الممالك الإنسانية ما يسمى بالحكومات الإدارية والسياسية. وحينما تضعف في الإنسان هذه الإرادة، وتخضع للمطالب الرعناء التي تلح بها الجماهير، فإن الفساد يحلّ داخل مملكته، وتكون هذه الجماهير الرعناء هي المستبدة، وقد يسود

في داخل النفس بعض منها، فيكون هو المستبد المسيطر المتحكم بتوجيه الإرادة، ولا غرو في هذه الأحوال غير السليمة أن يسير الإنسان في طريق الخسران.

ويوجد في داخل مملكة الإنسان سلطة هي بمثابة السلطة التشريعية، فهي التي تبحث وتدرس مسالك الحياة، وقد وهبها الخالق الحكيم القدرة على أن تعرف الخير والشرّ والحقّ والباطل، وأنزل الله دينه لعباده، وأنزل فيه ما هو هداية للناس، وبالبحث الفكري وبالاهتداء بما أنزل الله تتضح لهذه السلطة الرؤية السليمة، فتقدم نصائحها وتوجيهاتها وما انتهت إليه من نتائج للإرادة التي هي السلطة التنفيذية، ثم تكون الإرادة الواعية هي المسؤولة عن الاختيار والمسؤولة عن التنفيذ.

ومسؤولية الإنسان في هذه الحياة تلزمه بأن يحسن إدارة مملكته، وبأن يحسن سياستها وتوجيهها لما يبعده عن الخسر ويحقق له الربح العظيم، وعندئذٍ يدخل في زمرة الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، وعندئذٍ يحافظ على المستوى التكريمي الذي خلقه الله عليه، إذ جعله في أحسن تقويم.

ولا بد أن نلاحظ قيمة التآزر الجماعي للمؤمنين في حماية بعضهم بعضاً من الخسر، إذ يستطيعون بهذا التآزر القائم على التواصي بالحق والتواصي بالصبر أن يحافظوا على مستوى التفضيل الذي فضل الله الإنسان به، فلا يخسروا منه شيئاً، ثم لا يخسروا من منازل تكريمهم في الجنة شيئاً، ولذلك كانت صفات الذين استثناهم الله من الخسر، تجمع الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر. أما الصفات التي تحمي من الرد إلى أسفل سافلين فهي الإيمان والعمل الصالح فقط، ولكنّ هذا لا يعني الحماية من الخسارة الجزئية في منازل الجنة، فهذه الخسارة قد تحصل مع الإيمان والعمل الصالح الكافيين لدخول الجنة، فلكلٍّ من النّصين دلالته، مع ترابطهما الكلّي في موضوع واحد.

وقد أقسم الله في سورة (التين) بالتين والزيتون وطور سينين، وأقسم بالعصر في سورة (العصر) إشارة إلى دلالتين:

الأولى: أقسم بالعصر إشارة إلى أنّ الإنسان هو الإنسان في جميع خصائصه مهما اختلفت عليه الأزمنة والعصور.

الثانية: أقسم بالتين والزيتون وطور سينين وهي من مهابط الوحي، إشارة إلى أنّ الوحي قد نزل بالشرائع الرّبانية ليحافظ الإنسان على ما فضله الله به إذ خلقه في أحسن تقويم، فإذا هو اهتدى بهدي شرائع الله لم يُرَدَّ إلى أسفل سافلين.

شرح صفات
الذين يحمون أنفسهم من الخسر

الذين استثناهم الله في سورة (العصر) من عموم الإنسان الذي هو في خسر، لهم أربع صفات: الإيمان ـ العمل الصالح ـ التواصي بالحق ـ التواصي بالصبر.

أما الإيمان ـ وهو الصفة الأولى ـ: فهو عنوان الارتقاء الفكري، والثبات العاطفي حول القضايا الكبرى، والتصميم الإرادي في الإنسان.

وهو يشمل جوانب المعرفة الكبرى نحو الوجود والكون والحياة والغاية من خلق الإنسان، وما وراء مرحلة هذه الحياة الدنيا، ويشمل أيضاً الدوافع القلبية نحو كل خير في الحياة، وذلك لأنّ منطلق هذا الإيمان وأساسه هو الإيمان بالله الخالق الواحد الأحد، والإيمان بصفاته العظيمة وأسمائه الحسنى. ومعلوم أنّ الإيمان بالله يصحح الاتجاه من أوّل الطريق، ويرافقه بالتقويم وتصحيح الاتجاه مهما سار في حياته.

وأمّا العمل الصالح ـ وهو الصفة الثانية ـ: فهو عنوان الارتقاء السلوكي في الحياة، مع التزام الطريق القويم الصاعد إلى قمة المجد في العمل،

وهو يشمل كل عمل من أعمال الخير التي يدفع إليها الإيمان، ويدعو إليها الإسلام، فيدخل في العمل الصالح ما جاء في الإسلام من عبادات يقوم بها المسلم، وما جاء فيه من أحكام معاملات مادية ومعاملات سياسية أو أدبية، يطالب الإسلام المسلم بأن يلتزم بها في سلوكه.

وأمّا التواصي بالحق ـ وهو الصفة الثالث ـ: فهو عنوان وظيفة من الوظائف الاجتماعية التي يقوم بها كلّ مسلم، غيرة على إخوانه المسلمين، وحرصاً منه على تعريفهم بالحق، والأخذ بأيديهم إلى الاستمساك به عقيدة وعملاً، وهو يشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويشمل النصيحة العامة، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والتربية على الفضائل، وتعليم ما يكون به الإنسان مسلماً كاملاً.

والتواصي بالحق يخدم ركن الإيمان وما يستدعيه من كل قضية حقّ.

وأمّا التواصي بالصبر ـ وهو الصفة الرابعة ـ: فهو عنوان وظيفة ثانية من الوظائف الاجتماعية التي يقوم بها المسلم تجاه إخوانه المسلمين.

والتواصي بالصبر يخدم ركن العمل الصالح، وذلك لأنّ الأعمال الصالحة لا يقوم بها الإنسان ما لم يكن عنده من الصبر ما يحمل به عبء مخالفة أهواء النفس وشهواتها.

والصبر إمّا أن يكون صبراً على الطاعات وفعل الخير، وإمّا أن يكون صبراً عن المعاصي وفعل الشرّ، وصبراً في كف النفس وكبحها عن الشهوات المحرمة.

وكبح النفس عن محابّها ورغائبها وشهواتها يحتاج إلى صبر مثل الصبر الذي يتطلبه القيام بالأعمال الإيجابية الشاقة على الأنفس.

والتواصي بالحق والتواصي بالصبر من الصفات التي لا تبرز إلّا ضمن الجماعة، فهما ظاهرتان من ظواهر المجتمع الإسلامي السليم القائم على التعاون والتناصح، ويمثّل في توادّه وتراحمه الجسد الواحد.

يضاف إلى ذلك أنّ الصيغة التي بني عليها فعل التواصي من الصيغ التي تدلّ على المشاركة، فالمسلمون يوصي بعضهم بعضاً بالحق، ويوصي بعضهم بعضاً بالصبر، ويتبادلون ذلك على سبيل المشاركة، وهذا ما يدل عليه فعل: (تواصوا) أي إن كلاً منهم يوصي غيره ويتلقى الوصية من غيره.

والتواصي بالحق والتواصي بالصبر من الوظائف الاجتماعية التي تمثل في المجتمع الإسلامي قوة الدفع إلى الارتقاء في سلّم الكمال، وقوّة الحماية عن الانزلاق إلى دركات النقص، وقوّة الصيانة التي تصون المكاسب التي يحققها المسلمون أفراداً وجماعات، من مكاسب المعارف والفضائل الخلقية والسلوكية.

وحين يتحلى مجتمع ما بصفات الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحقّ والتواصي بالصبر فإنه لا بدّ أن يسلم من عوامل الخسر التي تستشري في مجتمع لا يتحلى بهذه الصفات.

فما جاء في سورة (العصر) ينطبق على الإنسان بوصفه واحداً من مجتمع، وعلى المجتمع المؤلف من أفرادٍ من الناس، إلا أنها تبرز الجانب الاجتماعي، لما لِقوَّة الجماعة من تأثير على إصلاح الأفراد، ومن تأثير أيضاً على إفسادهم، وهو ما يسمى بقوة الضغط الجماعي، وإن كان الفرد لا يُعفى من كل المسؤولية إذا كان واقعاً تحت تأثير ضغط اجتماعي مفسد، لأنه مسؤول بصفة فردية عن إيمانه بربّه، وعن طاعته له، متى وصل الحق إلى علمه بأية وسيلة من وسائل المعرفة، سواء أكان ذلك عن طريق تبليغ الدعاة، أو كان عن طريق القراءة لكتب المعرفة، أو كان عن طريق التأمل الذاتي، فمتى عرف الإنسان الحقّ، وعرف ما يجب عليه من سلوك كان مسؤولاً عن ذلك بقدر علمه.

فمن عرف عناصر الإيمان عن طريق التأمل الذاتي كان عليه أن يؤمن بها، فإن هو رفض الإيمان بها اتباعاً للهوى كان مسؤولاً عن رفضه ذلك، إلا أن التعذيب على مخالفة أمور الدين من إيمان وعبادة لا يكون إلا بعد إرسال رسول مبلّغ.

أما حقوق المخلوقات فيحاسب عليها ويؤاخذ عليها بقدرها؛ ولذلك يؤاخذ الله البهائم على الظلم، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء إذا نطحتها، لأنها تدرك أن هذا ظلم، وأنه لا حق لها به.

روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«لتؤدّنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» أي إذا هي نطحتها وآذتها بغير حق.

الجلحاء: هي التي لا قرون لها.

□ □ □

الباب الثالث

الرَّسُول ذُو الخُلُق العَظِيم

وتربية القرآن له في مجال السّلوك الخلقي

وفيه فصـــلان:

الفصل الأول : خلق الرسول ﷺ في القرآن وصفاً وتربية.

الفصل الثاني : طائفة مما جاء في السنة من بيان خلقه صلوات الله عليه.

الفصل الأول

خُلُق الرَّسُول ﷺ في القُرآن وَصْفاً وتربيَةً

ـ ١ ـ
ذو الخلق العظيم

وصف الله رسوله محمداً صلوات الله عليه بأنه على خلق عظيم، ووجه له الوصف على سبيل الخطاب الذي يمدحه ويثني عليه فيه؛ فقال تبارك وتعالى في سورة (القلم ٦٨):

﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤ ﴾.

فهذا النص القرآني يثبت أنّ محمداً صلى الله عليه وسلم لعلى خلق عظيم، أي: فهو متمكن من أخلاقه العظيمة المثلى، قابض على ناصيتها، وقد دلّ على هذا المعنى الاستعلاء الذي دلّ عليه حرف (على) في: ﴿لعلى خلق عظيم﴾.

وهذا النص يدفعنا بطريقة غير مباشرة إلى دراسة شخصية الرسول ﷺ، بوصفه المثل الإنساني الكامل، لاكتشاف صفاته الخلقية التي يتحلى بها، واعتبارها كتاباً في مكارم الأخلاق مجسّداً في صورة إنسان.

وبدراسة شمائل الرسول صلوات الله عليه، تُعرف مكارم الأخلاق معرفة

تطبيقية عملية، ثم تكون لدى العقلاء الحكماء أمثلةً للاقتداء بها، واتّباع خطواتها.

وبدراسة شمائله تتهيأ أمام الناس القدوة الحسنة، ذات الصفات الخلقية العظيمة، والتي تجذبهم إلى محبتها والاقتداء بها.

وإذ وصف الله رسوله بأنه على خلق عظيم، وجّه المؤمنين إلى الاقتداء به واتخاذه أسوة حسنة، فقال تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾.

وكما نستطيع أن ندرس الذهب كلّه ونعرف خصائصه، إذا نحن درسنا قطعة عظيمة من الذهب الخالص، فإننا نستطيع أن ندرس كلّ مكارم الأخلاق ونتعرف عليها، إذا نحن درسنا شمائل الرسول محمد صلوات الله عليه.

وشمائله المنقولة في الأحاديث الصحيحة الثابتة رسمٌ كلاميٌّ لشخصيته.

وقد ألف عدد من المؤلفين العلماء بالحديث عدة كتب في شمائل المصطفى الخَلْقية والخُلُقية، وسائر تصرفاته السلوكية، والأصل في المسلم أن يدرسها ويتعرف عليها، ليضع نُصب عينيه صورة القدوة الحسنة المثلى، التي جعلها الله للناس المثل الكامل.

لقد كانت حياة الرسول وسيرته بصفة عامة مدرسة تربوية خلقية سلوكية شاملة، حتى الأنماط السلوكية التي لا تظهر فيها أوّل الأمر أسس المفاهيم الخلقية، كانت في حياة الرسول موصولة بأسس المفاهيم الخلقية، ولو من وجه من الوجوه، فكان لها صفة الظواهر الناتجة عن أخلاقٍ راسخة في النفس، متمكنة في أركانها.

ومن البدهي بعد هذا أن يكون الكمال التطبيقي النبوي صورة مماثلة للكمال الذي وجّه القرآن له ورغّب فيه، وهذا ما جعل السيدة عائشة

أم المؤمنين تقول في وصف خلق الرسول ﷺ : «كان خلقه القرآن» أيْ كان خلقه مطابقاً لما وجّه له القرآن من فضائل.

وقد وصفه أصحابه رضوان الله عليهم بأنه أحسن الناس خلقاً، منها ما رواه البخاري ومسلم عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلُقاً.

ولذلك كان صلوات الله عليه مزكّياً لمن آمن به واتبعه واقتدى به واهتدى بهديه، بقوله وعمله وأخلاقه، والتزكية التطهير من أدناس الأعمال والأخلاق السيئة والنيات الفاسدة والعقائد والأفكار الباطلة، قال الله تعالى في وصفه في سورة (الجمعة ٦٢):

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾.

فجعل الله من صفاته أنه يزكيهم، ولا تكون هذه التزكية بالقول المجرّد، بل لا بد فيها من أن يكون الرسول مثالاً واقعياً حيّاً لما يدعو إليه ممّا تكون به تزكيتهم.

ولمّا كان الرسول ﷺ أعلى مثل في كل صفاته الخُلُقية والسلوكية، كان أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وبذلك وصفه الله بقوله في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ . . . ﴿٦﴾ ﴾.

ـ ٢ ـ

الرؤوف الرحيم

ووصف الله رسوله محمداً ﷺ بأنه رؤوف، وبأنه رحيم.

فأنزل عليه قوله في سورة (آل عمران ٣):

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾.

فاشتمل هذا النص على وصفه بخلق الرحمة التي أمدّه الله بها، ووصفه بلين الجانب، ثمّ وجهه توجيهاً تربوياً للأخذ بجملة من مكارم الأخلاق وفضائل السلوك.

وكان إنزال هذا النص مع أوائل العهد المدني.

وكان قد أنزل عليه في العهد المكيّ قوله[1] في سورة (التوبة ٩):

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

فوصفه الله في هذه الآية بأنه رؤوف رحيم بالمؤمنين خاصة.

فالنص الذي في سورة (آل عمران) فيه ثناء وتربية، وهذا النصّ السابق نزولاً فيه ثناء عظيم، إذْ جاء فيه استخدام صيغ المبالغة: (رؤوف ـ رحيم).

والرأفة كالرحمة إلاّ أنّها أرق وقيل: هي أشد من الرحمة.

ولنبدأ بتدبر النص الثاني الذي في (التوبة) لأنه يدلّ على ما وصل إليه الرسول في معارج الارتقاء الخلقي.

---

(١) هذه الآية مكية لكنها موضوعة في سورة هي من أواخر التنزيل المدني إذ لم ينزل بعد التوبة من السور إلاّ سورة (النصر).

فهو بالمؤمنين رؤوف رحيم، على أنه صلوات الله عليه ذو رحمة للناس عامّة، إلاّ أنه بالنسبة إلى المؤمنين خاصة رؤوف رحيم بنسبة عالية جدّاً، فرأفته بهم ورحمته لهم عظيمتان، لذلك جاء التعبير بالصيغة الملائمة لواقع وصف الرأفة والرحمة في قلبه ونفسه.

ولما كان الرسول ﷺ رؤوفاً رحيماً بالمؤمنين كان من مظاهر ذلك وصفان:

الأول: ما جاء في قوله تعالى: ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾.

الثاني: ما جاء في قوله تعالى: ﴿حريص عليكم﴾.

عزيزٌ عليه ما عنتم: العزيز في اللغة هو القوي ذو الغلبة، تقول العرب في أمثالها: «من عزّ بزّ» أي من غلب سلب، بمعنى غنم الأمتعة والسلاح والثياب. والعنَتُ في اللغة المشقة الشديدة والهلاك والضرر والأذى، والـمُعْنِت: هو كلّ أمرٍ فيه مشقة شديدة، أو يفضي إلى هلاك أو ضرر أو أذى.

فمعنى ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ غالبٌ عليه مشقتكم الشديدة وهلاككم وضرركم وأذاكم، أي غالبٌ على صبره ذلك، ولا يكون غالباً على صبره إلاّ ممّا في قلبه نحوكم من رأفة زائدة، ورحمة زائدة، وذلك لأنّ الألم الذي ينزل به حينما يراكم في عنت أقوى من قوّة احتمال صبره، فهو يغلبه.

حريص عليكم: الحرص في اللغة شدة إرادة الشيء، والمبالغة في الاستمساك به وصيانته وابتغاء النفع والخير له. والعرب تقول: أبوك حريص عليك، أي حريص على نفعك ممعن في ابتغاء الخير لك، مبالغ في الرغبة بصيانتك من كل ما يؤذيك.

فكون الرسول حريصاً على المؤمنين يدل على أنه شديد إرادة النفع وابتغاء الخير لهم، شديد الاستمساك بهم من أجل سعادتهم، وصيانتهم من كل ما يصرفهم عن طريق الجنة، ومن كل ما يؤذيهم ويضرهم في دنياهم وآخرتهم.

وجاء ذكر هذين الوصفين توطئة لتحليته بالدرتين الخلقيتين العظيمتين، هما أنه ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾.

وحين نتأمل في ظواهر خلق الرأفة والرحمة يتبين لنا أن معظم الفضائل التي تتعدى آثارها النافعة للآخرين، ترجع إلى هذا الخلق، فهي إما فروع له، أو مدفوعة من قبله، أو موجَّهة منه.

فمن هذا الخلق قد يكون العفو والصفح، ومنه قد تكون المعونة، ومنه قد يكون العطاء، ومنه قد يكون التكريم ولين الجانب، ومنه قد تكون المشاركة الوجدانية في الآلام والمشقات، ومنه قد يكون الحرص على جلب المنافع والخيرات للآخرين، ودفع المضار والشرور عنهم، إلى غير ذلك من ظواهر خلقية، فهو جذر تتفرع عنه فضائل خلقية كثيرة، وتتوجه به فضائل سلوكية كثيرة.

لذلك كان عزيزاً عليه ﷺ غالباً لقوة احتماله أن يصيب المسلمين عنتٌ ومشقة في أي أمرٍ من أمورهم، لأنه برأفته ورحمته يشاركهم فيما يشعرون به، فيؤلمه ما يُعنتهم. ولذلك أيضاً كان حريصاً على جلب كل خير لهم ودفع كل ضرّ عنهم، لأنه برأفته ورحمته يَودُّ لهم ذلك وداً مقروناً بإلحاح من الإرادة الجازمة، التي تجعله حريصاً عليهم، أي حريصاً على خيرهم، ونفعهم وسعادتهم.

وبسبب ما جعل الله في قلبه من رحمة، كان صلوات الله عليه لينّ الجانب محبَّباً، مالكاً قلوب أتباعه، وهذا ما وصفه الله به بقوله في سورة (آل عمران ٣):

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

فالرحمة من أخلاق الرسول صلوات الله عليه، وهي خلق ذو جذور عميقة في النفس، ومحلُّها القلب، ومن آثارها في السلوك الظاهر لين الجانب للناس. ونقيضها غلظ القلب وقساوته، ومن مظاهر هذا النقيض الخشونة في معاملة الناس والسلوك الفظ.

والرحمة خلق مؤلِّف مُحبِّب، ونقيضها خلق منفر مثير للكراهية، فمن آثار الرحمة التأليف، ومن آثار نقيضها التنفير.

وهذا ما دلّ عليه التقابل في الآية بين طرفين «الأول» الرحمة، وبعض ظواهرها، وتأليف القلوب الذي هو من آثارها ولم يصرح به اكتفاء بذكر ما يقابله، «والثاني» غلظ القلب، وبعض ظواهره، وتنفير القلوب الذي هو من آثاره. ونضع هذا التقابل في الموازنة التالية:

١ ـ . . . ـ فبما رحمة من الله ـ لنت لهم (أي فاجتمعوا عليك).
٢ ـ ولو كنت فظّاً ـ غليظ القلب ـ . . . لا نفضوا من حولك.

فجاءت مقابلة الرحمة بغلظ القلب، فدلّت على أن الرحمة خلق في القلب.

وجاءت مقابلة اللين في المعاملة بالفظاظة في المعاملة مع التغيير في الترتيب.

وجاءت مقابلة ائتلاف القلوب عليه بسبب رحمته ولينه لهم، بانفضاض الناس عن غليظ القلب فظّ المعاملة، ولكن اكتفى النص هنا بذكر أحد المتقابلين، لأن الآخر يدل عليه.

ولما كانت الرحمة فضيلة خلقية كان غلظ القلب وقسوته رذيلة خلقية.

أما جاذبية هذا الخلق العظيم في الرسول فقد كانت جاذبية قوية جداً، جعلت القلوب تهفو إليه، وتؤمن به، وتتبعه، وتحبه، وبعض من آمن به قد تخطى عقبات كبرى في نفسه من أنانية وعصبية.

روى الحاكم والبيهقي في دلائل النبوة عن علي رضي الله عنه، أنّ يهودياً يقال له: فلان حَبْر، كان له على رسول الله ﷺ دنانير، فتقاضى[1] النبي ﷺ فقال له: «يا يهودي ما عندي ما أعطيك» قال: فإني لا أفارقك يا محمد حتى

(١) أي: طلب منه الدنانير التي له.

تعطيني، فقال رسول الله ﷺ: «إذاً أجلس معك» فجلس معه، فصلى رسول الله الظهر والعصر والمغرب والعشاء والغداة، وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتهددونه ويتوعدونه، ففطن رسول الله ﷺ ما الذي يصنعون به، فقالوا: يا رسول الله، يهودي يحبسك، فقال رسول الله ﷺ: «منعني ربي أن أظلم معاهداً وغيره» فلمّا ترجل النهار[1] قال اليهودي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله، وشطر مالي في سبيل الله، أما والله ما فعلت بك الذي فعلت بك إلا لأنظر إلى نعتك في التوراة: محمد بن عبدالله، مولده بمكة، ومهاجره بطيبة، وملكه بالشام، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا متزيّ بالفحش ولا قول الخنا، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وهذا ما لي فاحكم فيه بما أراك الله. وكان اليهودي كثير المال.

ودلت الآية على أنّ الرحمة من الأخلاق الفطرية التي يقذفها الله في قلوب عباده، ويقسم لهم منها بمقادير، إذ قال الله فيه: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾.

ويؤيد صحة هذا الفهم ما جاء في كثير من الأحاديث النبوية التي تحدثت عن الرحمة، فمنها الأحاديث التالية:

١ ــ روى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: أتقبّلون الصبيان؟ فما نقبلهم. فقال النبي ﷺ: «أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟».

٢ ــ وروى البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد، أن رسول الله ﷺ رفع إليه ابن ابنته وهو في الموت، ففاضت عينا رسول الله ﷺ، فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟. قال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء».

٣ ــ وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أي: امتد ووضح، وكان هذا في اليوم الثاني.

«إن لله مئة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخّر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة».

ومن مظاهر رحمة الرسول ﷺ بالمؤمنين، وكراهيته أن يتحملوا ما يعنتهم ويشقّ عليهم، نهيه لهم ﷺ عن الوصال في الصوم، وهو أن يواصل الصائم الليل والنهار، ويتبع بذلك اليوم الثاني، وفي هذا روى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: نهاهم النبي ﷺ عن الوصال رحمة لهم، فقالوا: إنك تواصل؟ قال: «إني لست كهيئتكم، إني يطعمني ربي ويسقيني».

ومن مظاهر رحمة الرسول ﷺ ما رواه البخاري عن الحارث بن ربعي قال: قال رسول الله ﷺ:

«إني لأقوم إلى الصلاة وأريد أن أطوّل فيها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أُمّه».

ومن مظاهر رحمته ﷺ وصيته للأئمة في الصلاة أن يخففوا في صلاتهم، رحمة بالضعفاء والمرضى والشيوخ وذوي الحاجات الذين يقتدون بهم، ويصلون معهم، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا صلى أحدكم للناس فليخفف، فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير وذا الحاجة، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء».

ومن مظاهر رحمته ﷺ أنه كان يترك بعض الأعمال من أعمال الخير، وهو يحب أن يعمل به، وذلك خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم، روى البخاري ومسلم عن عائشة قالت:

«إن كان رسول الله ﷺ ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به، خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم».

ومن مظاهر رحمته ﷺ بأمته أنه كان يحب لهم التخفيف، ويودّ لهم التيسير في أمور دينهم، ويكره الغلو والتشديد ما وجد إلى ذلك فسحة في شريعة الله التي

أمره الله بتبليغها وتبيينها. وفي ليلة الإسراء والمعراج سأل ربّه التخفيف على أمته في الصلاة، ثم سأله التخفيف، ثم ما زال يسأله ذلك حتى خففها الله من خمسين صلاة في اليوم والليلة إلى خمس صلوات.

وبعد أن وصف الله رسوله في هذا النص بخلق الرحمة أرشده إلى ثلاثة أنواع من السلوك الأمثل لقائد الجماعة، وهذه الأنواع الثلاثة من السلوك هي ظواهر كريمة لخلق الرحمة في كثير من الأحوال، فمن كان في قلبه نسبة عالية من هذا الخلق العظيم فلا غرو أن تتجَلَّى في سلوكه هذه الظواهر، وهي:

(أ) العفو عن السيئة.

(ب) الإحسان بالاستغفار، وهو من الشفاعة الحسنة.

(ج) التكريم بالمشورة.

ولما كان رسول الله محمد ﷺ قائد الأمة الخالدة قال الله له في الآية بعد وصفه بخلق الرحمة: ﴿فاعف عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في الأمر﴾.

الشرح:

* **أولاً**: أمّا العفو عن السيئة بدافع من خلق الرحمة في القلب فمن شأنه أن يملك القلوب، ويستولي عليها بالمحبة، وقد تحقق الرسول ﷺ بما أرشده الله إليه، فكان يعفو عن السيئات التي تمسه، وما كان يغضب إلاّ إذا انتهكت حرمة من حرمات الله.

روى البخاري ومسلم عن أنس خادم رسول الله ﷺ قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرْدٌ نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابيٌ فجبذه بردائه جبذةً شديدة، ورجع نبي الله ﷺ في نحر الأعرابي، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك، ثمّ أمر له بعطاء».

وروى مسلم عن عائشة أم المؤمنين قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ لنفسه

شيئاً قط بيده، ولا امرأة ولا خادماً، إلّا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيلَ منه شيءٌ قط فينتقم من صاحبه، إلّا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله».

وروى الإمام أحمد والترمذي عن عائشة قالت: «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً، ولا متفحشاً، ولا سخاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح».

وهذا ما ملك به رسول الله قلوب أصحابه، حتى كانوا أطوع له من بنانه، إنهم عرفوا في قلبه الرحمة لهم، والشفقة عليهم، بالتجربة الطويلة الأمد، فكان حبّه في قلوبهم أعظم من حبهم لأنفسهم وأهليهم وأولادهم.

ولم تكن ظاهرة عفوه صلوات الله عليه خاصة بمعاملة من آمن به واتبعه، فقد أوصاه الله أن يعفو ويصفح حتى عن غير المسلمين، ما دام العفو والصفح مظنة لإصلاحهم، أو تخفيف شرورهم، أو تهديم ما في قلوبهم من غيظ وحقد وحسد، أو مظنة لتحقيق مثل ذلك في غيرهم من أهليهم وذراريهم وأقوامهم، أو آخرين يشهدون أو يسمعون.

قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

فهؤلاء يهود المدينة ما زال الرسول يطلع على خائنة منهم، رغم أنهم معاهدون، ومع ذلك فالله يرشد رسوله أن يعفو عنهم ويصفح، إبرازاً لسمة الخلق الإسلامي، ورحمة بهم لعلّ العفو عنهم والصفح يزيل ما في قلوبهم من حسد وعصبية، ويجذبهم لتقبل الإسلام، والدخول في جماعة المسلمين.

وقد بلغ من عفو الرسول وصفحه عن المسيئين إليه من قومه، أنه

لم يسمح لنفسه بأن يدعو عليهم، مع كل ما أصابه وأصاب أصحابه منهم من شدة وأذى.

روى البخاري عن عبدالله بن عمرو بن العاص، أنه قال: «بينا النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي ﷺ، وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟».

وروى البخاري أيضاً عن عبدالله بن عمر، قال: «بينا النبي ﷺ ساجدٌ وحوله ناس من قريش، جاء عقبة بن أبي معيط بسلى[1] جزورٍ فقذفه على ظهر النبي ﷺ، فلم يرفع رأسه، فجاءت فاطمة رضي الله عنها، فأخذته من ظهره، ودعت على من صنع ذلك».

ومع ذلك لم يكن من الرسول ﷺ دعاءٌ على قومه الذين اشتدوا في معاداته وإيذائه.

روى البخاري عن خباب بن الأرت، أنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدّة، فقلت: يا رسول الله، ألا تدعو الله لنا، فقعد وهو محمرّ الوجه، فقال: «لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشقّ باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليُتِمَّنَّ الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلاّ الله».

مِشاط: بكسر الميم جمع مشط، ويجمع على أمشاط.

ومن روائع عفو الرسول صلوات الله عليه عفوه عن كبير منافقي المدينة عبدالله بن أبي بن سلول، إذ قال عبدالله بن أبي مستنكراً شجاراً وقع بين أجير لعمر بن الخطاب وسنان الجهني ـ أحد حلفاء الخزرج من الأنصار ـ في

---

(١) السلى: هو الغشاء الذي يولد فيه الولد من الأنعام، وهذا الغشاء الرقيق إذا كان في الأنعام فالعرب تسميه سلى، وإذا كان في الإنسان فيسمونه مشيمة.

غزوة بني المصطلق: أَوقَد فعلوها؟ قد نافرونا[1] وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدّنا وجلابيب قريش إلاّ كما قال الأول: سمّن كلبك يأكلك، أَمَا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم!!.

جلابيب قريش: لقب أطلقه المشركون على المهاجرين من مكة، ولعله على سبيل الاستعارة إذ شبهوهم بذوات الجلابيب.

وبلغت الرسول مقالته، فقال عمر: يا رسول الله، مر به عباد بن بشر فليقتله، فقال له رسول الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟!. لا، ولكن أذّنْ بالرحيل ـ وكان ذلك في ساعة لم يكن رسول الله يرتحل فيها ـ فارتحل الناس، ومشى الرسول بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك، حتى آذتهم الشمس، ثمّ نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا أنفسهم على الأرض حتى وقعوا نياماً.

وعلم عبدالله بن أبـي أن الرسول قد بلغته مقالته، فجاء إليه فحلف له بالله أنه لم يقل ما بلغه عنه، فقبل الرسول منه ظاهره، وعفا عنه، وهو يعلم أنه كاذب، وجاء ولد عبدالله هذا ـ وكان مؤمناً صادق الإيمان ـ إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبـيّ، فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بدّ فاعلاً، فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبدالله بن أبـي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار!! فقال له رسول الله ﷺ: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا.

---

(١) نافرونا: المنافرة المحاكمة في الحسب والمفاخرة، قال ابن سيدة: كأنما جاءت المنافرة في أول ما استعملت أنهم كانوا يسألون الحاكم أينا أعز نفراً. فيظهر أن مراده: غالبونا بكثرة نفرهم وفاخرونا.

ولمّا مات عبدالله بن أبـي بن سلول جاء ولده إلى رسول الله ﷺ فطلب منه قميصه ليكفّن أباه به، فأعطاه الرسول قميصه وكان ذلك مداراة لمشاعر الولد المؤمن البار بأبيه.

وهكذا كان رسول الله ﷺ يتحلى بخلق العفو عمّن أساء إليه.

وفي العفو رحمة بالمسيء، وتقديرٌ لجانب ضعفه البشري، وامتثال لأمر الله، وطلب لعفوه وغفرانه، فمن عفا عن الناس عفا الله عنه.

وفي العفو توثيق للروابط الاجتماعية التي تتعرض إلى الوهن والانفصام بسبب إساءة بعضٍ إلى بعض، وجناية بعضهم على بعض.

* ثانياً: وأما الإحسان بالاستغفار الذي أوصى الله به رسوله في قوله: ﴿واستغفر لهم﴾ فهو يمثل روعة المشاركة الوجدانية في غيرة القائد الإمام على أتباعه المذنبين في جنب الله، ورحمته بهم، وإشفاقه عليهم، وحرصه على نجاتهم وسعادتهم، لذلك فهو يقدم شفاعته، فيسأل الله أن يغفر لهم.

فاستغفار الرسول لأمته مظهر من مظاهر رحمته لهم، واستغفار المسلم لأخيه المسلم قد يكون كذلك مظهراً من مظاهر خلق الرحمة في قلبه.

وهذا الاستغفار يمثل صورة من صور الوحدة الجماعية، التي عقدها الله بين المؤمنين بقوله في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ . . . ﴿١٠﴾ ﴾.

ووثقها الرسول بقوله: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثلُ الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير.

فالمؤمنون يعلنون باستغفارهم لإخوانهم بين يدي ربّهم أنهم رحماء بهم، فإذا علم الله ذلك منهم وعلم صدقهم في تآخيهم، شملهم برحمته، فأكرم المستغفرين لإخوانهم، وأكـرم بكرامتهم إخـوانهم، كل ذلـك وفق مشيئته وحكمته، ويقول لهؤلاء وهؤلاء أنا أجود وأرحم.

ولما كان الرسول صلوات الله عليه سيّد المؤمنين وإمامهم طلب الله منه أن يستغفر لهم، نظراً إلى أن ذلك من مظاهر رحمته بهم، ولما لذلك من أثر عظيم في تدعيم الرابطة الاجتماعية. ومن النصوص التي أمر الله فيها رسوله بأن يستغفر للمؤمنين قوله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾.

وحين يقترن استغفار الذين ظلموا أنفسهم باستغفار الرسول لهم تتحقق لهم من الله التوبة والرحمة، قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾.

ولكن هذا الاستغفار لا يكون إلا للمؤمنين، فلا يجوز أن يستغفر الرسول ولا غيره لغير من أعلن إسلامه، لأن فيه معارضة للحكم الرباني بأن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، قال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾.

وحين يكون الاستغفار للمنافقين المتظاهرين بالإسلام فإن الله يعذر

المستغفر لهم لجهله، ولكنه تعالى لا يستجيب لدعائه، قال الله تعالى في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦ ﴾.

أي: فهو لا يحكم لهم بالهداية بعد أن سلكوا بإراداتهم الحرّة مسلك الكفر والضلال.

* **ثالثاً**: وأما التكريم بالمشورة فقد يكون ظاهرة من ظواهر خلق الرحمة، إذ يداري القائد فيها مشاعر أنصاره ومؤيديه العاملين معه.

يضاف إلى ذلك ما في المشاورة من فوائد عظيمة موضوعية واجتماعية، ففيها يستبصر القائد المشاور بوجهات النظر المختلفة، وقد يهتدي بها إلى وجه الصواب، وفيها تدعيم وتمكين لوحدة الجماعة، التي يشعر فيها الأفراد بأنهم يشاركون في مسؤوليات العمل كلها، ويشاركون بعد ذلك في تحمل النتائج.

فالمشاورة إذن من الظواهر الخلقية الاجتماعية الكريمة، التي يكرّم بها قائد الجماعة أهل المشورة من رعيته، إذ يجعلهم شركاء معه في الرأي، ولا يستبد من دونهم مستعلياً عليهم، مستكبراً برأيه على آرائهم، ومستقلاً بفهمه عن أفهامهم. فالاستبداد بالرأي والاستعلاء والاستكبار أمور تجرح مشاعر الآخرين، وتورث فيها ألماً قد يتحول إلى غضب فحقد فعداوة فكيد، والرحمة والحكمة تستوجبان من الإنسان خلاف ذلك.

ومشاورة الإنسان لأهل الرأي من أجل القضايا التي تخصه من حكمته وحسن تصرفه في الأمور، فهي تبصره بجوانب تخفى عليه مهما كان ذكياً عبقرياً مجرباً، لأن هوى النفس قد يصرف عن الفكر كثيراً من المدركات التي تختلف معه.

وحين ندرس بتفصيل المصالح التي تحققها مشاورة قائد الجماعة، لأهل الرأي والمشورة من جماعته، يتضح لنا ما يلي:

في مشاورة أهل الرأي والبصر النافذ تبصير ولي الأمر بوجوه الرأي المختلفة، وبما لكل منها من حسنات أو سيئات، وبما يحيط بكل منها من احتمالات نجاح أو فشل، وربح أو خسارة ومصلحة أو مفسدة.

إن الإنسان الواحد مهما بلغت به العبقرية لا بد أن يظل عرضة للعجز عن الإحاطة التامة بوجوه الأمور، لا سيما إذا كانت من الأمور السياسية أو الاجتماعية، نظراً إلى أن التبصر الصحيح بتلافيف المجتمعات الإنسانية، ومتعرجات النفوس البشرية، من أعقد الحقائق التي يمكن أن يتوصل إليها الإنسان.

فإذا شاور ولي الأمر أهل الرأي والمشورة من رعيته ضَمِن إدراك أسلم الطرق والأعمال، المحققة لأسلم النتائج وأفضلها.

ويرى بعض الناس أن لولي الأمر في المفاهيم المأخوذة من النصوص الإسلامية أن يأخذ بالرأي الذي يرى فيه الخير، سواءٌ أكان رأي الأكثرية أو رأي الأقلية، أو رأياً آخر لم يعرضه المستشارون، وليس ملزماً بأن يتقيد برأي الأكثرية، لأن الأكثرية ربما يسيطر على أفكارها الرأي الخاطىء، بدافع من الطمع أو الجبن أو غير ذلك، والله تبارك وتعالى قال لرسوله: ﴿وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ فلم يلزمه بأن يتقيد برأي الأكثرية. وأرى أن هذا خاصٌّ برسول الله صلى الله عليه وسلم، أما من بعده فهم مكلفون العمل بمضمون قول الله عزوجل: ﴿وأمْرُهُم شورى بينهم﴾ أي: يجب عليهم أن يكون أمرهم الذي يقررونه ثمرة شورى بينهم، ولا سبيل بعد إسناد الأمر إلى الشورى إلا العمل برأي الأكثرية لأنه هو الأرجح في نظر المستشارين من أهل الحل والعقد في موضوع الشورى.

ومهما يكن من أمر، فمن الخير لولي الأمر في معظم الأحوال أن يتقيد برأي الأكثرية الصالحة، ومن الخير له إذا كان له رأي مخالف أن يناقشهم

الرأي، ويعمل بالإقناع على ردهم إلى ما يراه صواباً، إذا كان لديه في ذلك حجة قوية، فقد أخذ الرسول ﷺ برأي الأكثرية في الخروج إلى المشركين في غزوة أحد، مع أن رأيه الشخصي ورأي الأقلية قد كان على خلاف ذلك.

ولا غرو أن احتمالات الخطأ في رأي الأكثرية الصالحة أقل من احتمالات الخطأ في رأي الأقلية، أو في رأي آخر يراه ولي الأمر بنفسه. فالأخذ برأي الأكثرية من الأمور المفضلة، التي يحسن بولي الأمر أن يلزم نفسه بها في معظم القضايا، وأخذه برأي الأكثرية يعفيه من مسؤولية الخطأ بعد ذلك، أو يجعلهم شركاء معه في المسؤولية(١).

وحينما يحصل إجماع من أهل الرأي والمشورة على رأي من الآراء، فإن المفاهيم الإسلامية تقضي في مثل هذه الحالة بضرورة الأخذ بالرأي الذي حصل عليه الإجماع حتماً، وذلك لأن النصوص الإسلامية تؤكد وجوب العمل بما يجمع عليه المؤمنون، وتؤكد أن المؤمنين لا يجمعون على ضلالة، وحسب الرأي أرجحية أن لا يختلف في سداده أهل الرأي والمشورة من المسلمين.

وحين نتساءل عن المراد من (الأمر) الذي كلف الله رسوله أن يشاور أصحابه فيه بقوله: ﴿وشاورهم في الأمر﴾، يظهر لنا أن المراد منه كل أمرٍ من أمور الجماعة التي ترتبط بها مصالح المسلمين بشكل عام، سياسياً كان أو قضائياً أو إدارياً، أو اجتماعياً، أو تنظيمياً، ما يتعلق من ذلك بشؤون السلم أو بشؤون الحرب، مما ليس من الأمور التعبدية البحتة، ومما لم ينزل فيه تشريع وأمر رباني.

وهي الأمور التي يعتبر أولو الأمر هم المسؤولون عن تصريفها وإدارة شؤونها، بما يرون فيه الخير والمصلحة.

أمثلة من مشاورة الرسول لأصحابه:

١ ــ مشاورة الرسول أصحابه في وسيلة الإعلام بدخول وقت الصلاة.

---

(١) انظر ما كتبه المؤلف في كتابه «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة» حول الشورى في باب «النظم السياسية المعاصرة».

قبل أن ينزل تشريع الأذان للصلاة على لسان الوحي، كان المسلمون في المدينة على إثر الهجرة إليها، يجتمعون للصلاة من غير إعلام بدخول وقتها، فكانوا إذا حان وقتها أتوا إليها من غير تذكير، ورأى الرسول أن قضية الإعلام بدخول وقت الصلاة قضية تنظيمية بحتة، فهي كبناء المساجد، ورفع المنارات ونحو ذلك، فرأى أن يستشير أصحابه في هذا الأمر.

فجمع الرسول أصحابه واستشارهم في اتخاذ وسيلة للإعلام بدخول أوقات الصلوات المفروضة، فدارت الآراء حول اتخاذ بوق كبوق اليهود، أو ناقوس كناقوس النصارى، أو نار توقد عند دخول الوقت، وقال عمر بن الخطاب: أوَ لا تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة؟ فأقر الرسول ﷺ رأي عمر، وأمر بلالاً بأن ينادي للصلاة.

ورأى عبدالله بن زيد بن عبدربه في منامه من علمه صيغة الأذان فأخبر الرسول ﷺ بها، فقال له الرسول: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال، فألق عليه ما رأيت فليؤذن به، فإنه أندى منك صوتاً».

وسمع بذلك عمر بن الخطاب وهو في بيته فخرج يجرّ رداءه يقول: يا رسول الله والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل ما أري، فقال رسول الله ﷺ: «فلله الحمد».

٢ ــ مشاورة الرسول ﷺ أصحابه في غزوة بدر.

لقد خرج الرسول بطائفة من المسلمين لاعتراض عير قريش العائدة من الشام، حتى إذا كان قريباً من بدر، أتاه الخبر بأن قريشاً خرجت لتمنع عيرها من المسلمين، فعقد الرسول مجلساً استشارياً عاماً، فقال: أشيروا علي أيها الناس، وأخبرهم بمسير قريش في جيشها لمنع عيرها، فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله، فوالله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون»؛ ولكن نقول لك: اذهب

أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى بَرْك الغماد[1] لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه.

ولم يكتف الرسول ﷺ بأقوال هؤلاء المهاجرين، وأراد أن يسمع من الأنصار وهم الكثرة في القوم، فتوجه إلى المسلمين فقال: أشيروا عليّ أيها الناس.

فقام سعد بن معاذ فقال: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ فقال: أجل.

قال سعد: فقد آمنّا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبرُ في الحرب، صُدُق في اللقاء، لعل الله يريك منّا ما تقرّ به عينك، فسِر بنا على بركات الله.

وانتهت المشاورة بإجماع المسلمين على تفويض الأمر إلى الرسول صلوات الله عليه، فهم معه لا يختلف عليه في الرأي رجلٌ منهم.

٣ ـ مشاورة الرسول ﷺ أصحابه في الخروج إلى غزوة أحد.

لما علم الرسول ﷺ بأن جيش المشركين من قريش قد أقبل يريد غزو المسلمين في المدينة، وأنه عسكر خارج المدينة قرب أُحُد عقد الرسول مجلساً استشارياً عاماً للمسلمين، واستشارهم في الأمر الطارىء، وقال لهم: «فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة، وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها».

واختلف المسلمون في الرأي، فقال شيوخهم وهم القلة: نقيم في المدينة، فإن هم دخلوا علينا قاتلناهم في طرقاتها، ورمتهم النساء والصبيان من فوقهم.

---

(١) برك الغماد: اسم موضع بناحية اليمن، والسفر إليه قد كان سفراً شاقاً تقل فيه السلامة.

واتجه الرسول ﷺ لهذا الرأي، وكره الخروج من المدينة، وكان من المتحمسين لهذا الرأي عبدالله بن أبـي بن سلول زعيم المنافقين.

وأما الفريق الثاني من المسلمين وهم الأكثر عدداً، ومعظمهم من الشبان، ومن الذين فاتهم شهود غزوة بدر فقالوا: يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرونَ أنّا جبنّا عنهم وضعفنا.

واستجاب الرسول ﷺ لرأي الفريق الذي هو أكثر عدداً فدخل بيته، ولبس لَأْمَتَه[1] ثم خرج عليهم معلناً بما فعل عزمه على الخروج، فلمّا رأوا ذلك ندموا، وقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ ولم يكن لنا ذلك، ثم قالوا: يا رسول الله استكرهناك، ولم يكن لنا ذلك، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: ما ينبغي لنبـيٍّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل.

٤ ــ مشاورة الرسول ﷺ أصحابه في غزوة الخندق، وهي التي تُسمى أيضاً غزوة الأحزاب.

من المعروف في هذه الغزوة التي دبّر اليهود مكايدها، أن العرب المشركين مع اليهود قد تحزبوا ضد المسلمين، ورموهم عن قوسٍ واحدة، وقد تجمعت أحزاب العرب في كتلتين:

الأولى: قريش ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة.

والثانية: غطفان ومن تبعهم من أهل نجد.

وأما يهود بني قريظة فكانوا كتلة ثالثة قابعة من وراء ظهور المسلمين في المدينة.

ولما عظم على المسلمين البلاء، رأى الرسول ﷺ أن يكسر عن طريق المصالحة على مالٍ حلقة من حلقات سلسلة الأحزاب الثلاثة، فأرسل وفداً لمفاوضة كتلة غطفان، على أن يرجعوا مقابل إعطائهم ثلث ثمار المدينة، وجرت المفاوضة وقبلت غطفان بهذا العرض، وقبل أن يبتّ الرسول الأمر، عقد مجلساً

---

(١) اللأمَةُ: هي لباس الحرب.

استشارياً دعا إليه زعيمين من زعماء الأنصار، نظراً إلى أن الأمر يخص أهل المدينة بالذات، هما سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، فذكر لهما ما أجرى من مفاوضة مع غطفان، وما همّ به.

فقالا له: يا رسول الله، أهذا أمر تحبه فنصنعه؟ أم شيء أمرك الله به لا بد لنا من العمل به؟ أم شيء تصنعه لنا؟.

قال الرسول: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدة، وكالبوكم[1] من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما.

قال سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله، وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرةً إلا قِرى أو بيعاً، أفحين أكثر منا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

فقطع الرسول المفاوضة مع غطفان، وعمل برأي السعدين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة.

ونلاحظ لدى المقارنة بين أمثلة مشاوراته صلوات الله عليه ما يلي:

١ ــ المشاورة في بدر أسفرت عن إجماع المسلمين على رأي موحّد، وكان هو الرأي الذي يميل إليه الرسول ﷺ.

٢ ــ المشاورة في أحد أسفرت عن رأيين متعارضين، وقد أخذ الرسول برأي الأكثرية، استجابة لإلحاحها، وكان رأي الرسول يميل إلى الرأي المخالف.

٣ ــ المشاورة في الخندق أسفرت عن رأي مخالف لما كان الرسول قد اتجه إليه، فشرح الله صدره للرأي الذي قدمه أصحابه، فعمل به.

---

(١) كالبوكم: أي اجتمعوا عليكم، واشتدوا في الحرص على حربكم كما تشتد الكلاب.

هذا: وما أمر الله به رسوله تشمل ظلاله جميع المسلمين، نظراً إلى أنّه من الفضائل التي تعلي شأن كلّ من يتحلى بها، على أن الله تبارك وتعالى قد أمر المسلمين بالتحلي بهذه الفضائل أمراً مباشراً، سيأتي في موضعه إن شاء الله.

— ٣ —

إن ذلكم كان يؤذي النبـي فيستحيـي منكم

ووصف الله رسوله بأنه كثير الحياء، يناله ما يؤذيه من أصحابه، فيستحيـي أن يجرح مشاعرهم بأن يكفوا عمّا يؤذيه منهم، إذ يتعلق الأمر بـذات نفسه صلوات الله عليه، فمن ذلك أن بعضهم كان يثقل على الرسول ﷺ إذ يجلس عنده في بيت من بيوته، منتظراً وقت حضور الطعام، أو مستأنساً بالحديث بعد الطعام، ويكون الرسول في حاجة إلى أن ينصرف إلى أهله أو إلى بعض شؤونه الخاصة، فيستحيـي أن يطلب من الثقلاء أن ينصرفوا ويدعوه لشأنه الخاصّ.

وفي هذا أنزل الله تعالى قوله يخاطب الذين آمنوا في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۝٥٣ ﴾.

غير ناظرين إناه: أي غير منتظرين وقت تناوله، أو وقت نضجه.

ولا مستأنسين لحديث: يظهـر لي أنه معـطوف على محـذوف، أي: لا متثاقلين ولا مستأنسين لحديث.

روى البخاري عن أنس بن مالك قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام، قام من قام وقعد ثلاثة نفر. فجاء النبـي ﷺ ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقوا، فجئت فأخبرت

النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل فألقىٰ الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه. ولكن إذا دعيتم فادخلوا. فإذا طعمتم فانتشروا﴾ الآية.

فعلم الله الذين آمنوا ما يجب عليهم من أدب نحو رسول الله ﷺ ، وأبان لهم خُلُقاً عظيماً من أخلاق الرسول، وهو خلق الحياء، فهو يستحيي أن يجرح مشاعرهم، ولو كان ذلك في مقابل ما يكون منهم من عمل يؤذيه.

وجاء في وصف الرسول ﷺ على لسان أصحابه رضوان الله عليهم، أنه كان شديد الحياء، فكان أشد حياءً من العذراء في خدرها. روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال: كان النبي ﷺ أشدّ حياءً من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه.

ـ ٤ ـ
والرسول يدعوكم في أخراكم

وألمح القرآن إلى شجاعة الرسول ﷺ وثباته في مواقف البأس الشديد، ففي معركة أحد لما تحولت رياح النصر لصالح المشركين، بسبب مخالفة كتيبة الرماة أوامر الرسول ﷺ ، إذ رأوا أن المسلمين انتصروا وأن المشركين انهزموا، وطمعوا بالغنائم، وتركوا مواقعهم، عندئذ باغتهم المشركون من خلفهم، وفزع المسلمون، واضطربوا، وانهزموا متجهين إلى المرتفعات، يُصعِدون ولا يلوون على أحد، وثبت رسول الله ﷺ ولم يثبت معه إلا قلة، قال البراء بن عازب فيما رواه الإمام أحمد: «فلم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً» وقال ابن مسعود: «فلما خالف أصحاب رسول الله ﷺ وعصوا ما أمروا به، أفرد النبي ﷺ في تسعة، سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش، وهو عاشرهم» وقتل الأنصار السبعة دونه، وكذلك روي عن أنس بن مالك. والقرشيان هما طلحة وسعد بن أبي وقاص وجعل الرسول ﷺ يدعو الناس: إليّ عباد الله، إليّ عباد الله.

وروت عائشة أم المؤمنين عن أبيها رضي الله عنهما قال: «كنت أول من فاء يوم أحد».

وفي ذكر هذه الحادثة قال تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴿١٥٣﴾﴾.

ومن شجاعة الرسول ﷺ في هذه المعركة، ما ذكر محمد بن إسحاق قال: لما أسند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه (أبـي بن خلف) وهو يقول: لا نجوت إن نجوتَ، فقال القوم: يا رسول الله يعطف عليه رجل منا، فقال رسول الله ﷺ: «دعوه» فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة، فقال بعض القوم كما ذكر لي: فلما أخذها رسول الله ﷺ منه انتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله رسول الله ﷺ فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مراراً.

وعن عروة بن الزبير أن أبـي بن خلف طعنه الرسول ﷺ بحربته، فوقع إلى الأرض عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم، فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخور خوار الثور، فقالوا له: ما أجزعك إنما هو خدش!! فذكر لهم قول رسول الله ﷺ «بل أنا أقتل أبيّاً» ثم قال: والذي نفسي بيده، لو كان هذا الذي بـي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون، فمات إلى النار ﴿فسحقاً لأصحاب السعير﴾.

وثبت الرسول ﷺ يوم حنين، لما انهزم المسلمون عنه أول الأمر، إذ باغتتهم هوازن وثقيف من مكامنها في الشعاب والمضايق، ولم يثبت مع الرسول ﷺ إلا قليل من الآلاف الاثني عشر.

قال ابن إسحاق: وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال: أين أيها الناس؟! هلموا إلي، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبدالله.

وبقي مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته.

وعن العباس بن عبدالمطلب قال: ورسول الله ﷺ يقول حين رأى ما رأى من النـاس: أين أيها النـاس؟! فلم أر الناس يلوون عـلى شيء، فقال: يا عباس، اصرخ، يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب السمرة، قال: فأجابوا لبيك، لبيك.

وفي بيان شجاعة الرسول ﷺ وثباته في مواقف البأس الشديد، قال علي بن أبـي طالب، رضي الله عنه: كنا إذا احمرت الحدق، وادْلَهَمَّ الخطب، لذنا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو.

وروى البخـاري ومسلم عن أنس قال: كـان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق الناس قبل الصوت، فاستقبلهم النبـي ﷺ ـ وقد سبق الناس إلى الصوت ـ وهو يقول: «لن تراعوا، لن تراعوا» وهو على فرسٍ لأبـي طلحة عريٍ ما عليه سرجٌ، وفي عنقه سيف، فقال: «لقد وجدته بحراً».

أي وجدت الفرس سريعاً سباقاً.

ـ ٥ ـ

خذ العفو وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين

بهذه الظواهر من السلوك الخلقي أمر الله رسوله محمداً ﷺ ومعه كل مؤمن فقال له في سورة (الأعراف ٧):

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾.

ينزغنك: النزغ لا يكون إلا في الشر، يقال لغة: لا ينزغنك، أي لا يحركنك إلى الشر، ولا يستخفنك إلى فعله غضب، أو عجلة، أو رغبة جانحة، أو شيطان موسوس.

العرف المعروف، وهو ضد المنكر.

اشتمل هذا النص على توجيه من الله لرسوله ولكل مؤمن بالتحلي بثلاث ظواهر من السلوك الخلقي الحميد وهي:

أولاً: أخذ العفو عن إساءة المسيء.

ثانياً: أمر المسيء بالعرف، إن كان ممن يستجيب لذلك.

ثالثاً: الأعراض عن المسيء إذا كان من الجاهلين الذين لا يستجيبون للأمر بالمعروف.

(أ) أما ظاهرة العفو: فقد سبق شرحها لدى شرح قول الله تعالى لرسوله: ﴿فاعف عنهم﴾.

إلا أن قول الله تعالى لرسوله هنا: ﴿خذ العفو﴾ يشتمل على دلالة بديعة غايةٍ في إعلاء قيمة العفو، بوصفه أحد مكارم الأخلاق، إذ جعل الله العفو بمثابة ثمن عظيم يأخذه صاحب العفو، مقابل الإساءة المؤلمة التي يتلقاها من غيره، فهو جوهرة ثمينة جداً يضيفها إلى عقد مكارم الأخلاق التي يتحلى بها.

وهذا التعبير في إبداعه وروعته يعلن أن الأمور المعنوية تؤخذ كما تؤخذ الأمور المادية، فإذا كان المسيء قد أخذ رذيلة الإساءة، فتحولت في نفسه إلى وخزات في الضمير قد تؤلم ذا الوجدان الحي، فليأخذ المحسن فضيلة العفو، وليتمتع بلذة الشعور بمجد المكرمة، وحلاوة الرحمة والمسامحة، ونعم هذا الثمن العظيم مقابل مس الألم اليسير الذي تفعله الإساءة.

يضاف إلى هذا أن العفو ثوابه عظيم عند الله تعالى، فمن أخذ العفو فقد أخذ هذا الثواب العظيم، فملك به أجراً عند الله لا يستطيع أن يملكه لو سلك مسلكاً آخر غير العفو.

وإذا حللنا الاحتمالات التي يمكن أن يلجأ إليها الإنسان، في المواقف المحرجة التي يتعرض فيها لعدوان غيره عليه، وإيذائه له، لم نجد شيئاً منها يكون سبباً لشيء يؤخذ حقاً غير خطة العفو. أما الاحتمالات الأخرى ففيها خسارة لا ربح، لكن خطة العفو خطة رابحة، والربح أخذ والخسارة نقصان.

والاحتمالات تنحصر فيما يلي:

١ ــ إما أن يقابل العدوان بمثله، وهذا هو الانتقام بالعدل.

٢ ــ وإما أن يقابل العدوان بأشد منه، وهذا انتقام بإجحاف، وهو يولد في المجتمعات شروراً لا حد لها.

٣ ــ وإما أن يعفو، وهذه هي خطة الرشد التي تأمر بها مكارم الأخلاق، لأنها من الفضائل التي تقطع الشرور، وتشيع السلم، وتطفىء نيران الغضب والحمق، وتصغر الجاهل الغضوب الأحمق في نفسه، وتؤلب ضده جماهير العقلاء.

وتظهر لنا قيمة أخذ العفو إذا عرضناهُ في الصورة التمثيلية التالية:

أقام أحد المربين ساحة للامتحان الأخلاقي، وأخبر فريقاً من تلامذته بأنه سيدفع بهم إلى هذه الساحة، وأنهم سيتعرضون فيها لمن يؤذيهم، وأنهم سيجدون أنفسهم في مواجهة هؤلاء المؤذين أمام احتمالات يعملونها.

ففي وسط الساحة وعلى القرب منهم باب يقال له: باب العفو، إذا دخلوا منه خلصوا من احتمال مضاعفة الأذى، وحموا أنفسهم ووجدوا وراء هذا الباب مكاناً رحباً، وقصراً منيفاً، وحدائق وارفات الظلال، ثم يأتي إليهم خدم فيقدمون لهم ما يريدون من مالٍ ونعيم، ويقولون لهم: هذا عندنا ثواب من دخل باب العفو، إذ كان من العافين عن الناس.

وفي أقصى الساحة باب يقال له: باب الانتقام بالعدل، فمن أراد أن ينتقم لنفسه ممن آذاه فإنه سيجد نفسه مضطراً إلى مطاردة من آذاه، حتى يلهث من شدة العدو، ويبذل جهداً في المطاردة، وأخيراً يسبقه من آذاه فيدخل في باب الانتقام بالعدل، فيلاحقه الرجل فيدخل وراءه فيجد نفسه في ساحة العدل، وعندئذٍ قد يتمكن من مقابلته بالمثل، وربما كان المعتدي صاحب شر فيقاوم، وتشتد المعركة، وقد لا يظفر في هذه المعركة صاحب الحق، فلا يستطيع أن ينتقم لنفسه، فإن ظفر وانتقم لنفسه وانتهى الأمر، نظر في ساحة العدل فلم يجد شيئاً يأخذه، فرجع من حيث أتى جاهداً تعباً، لا يحمل ربحاً، ولم يصب متعة ولا مالاً.

وفي أقصى ساحة العدل أبواب يخرج منها المعتدون والمنتقمون بالعدل، فمن لاحـق من المنتقمين خصمه من واحدٍ منها ليسرف في الانتقام أكثر من حقه انزلق في وادي الظلم، فأصابه فيه على مقدار ظلمه تهشيم وبلاء، ثم يخرج وهو يحمل أوزاره، وقد عرض نفسه لينتقم منه بمقدار ما زاد على حقه.

وقد أجرى المربـي الأخلاقي اختباره على أتقن وجه. فكان من دخل باب العفو من المنعمين المكرمين المحظوظين بالعطاء السخي. وكان من دخل باب الانتقام بالعدل ولم يتجاوز حدود ساحة العدل محروماً من العـطاء والتنعيم والتكريم، ورجـع بعـد خسارة الجهد بخُفَّيْ حنين. وكان من تجاوز ساحة العدل إلى وادي الظلم محروماً من العطاء ومن راحة النفس، ورجع يحمل أوزاره مطلوباً بعد أن كان طالباً.

فأي الثلاثة هو الآخذ الرابح؟ إنه من أخذ العفو، فما أروع قول الله تعالى: ﴿خذ العفو﴾.

(ب) وأما ظاهرة الأمر بالعرف: فهي هنا فضيلة تتبع فضيلة أخذ العفو، فمن الرحمة بالمسيء العفو عنه، وتعليمه فضيلة البر والإحسان بشكل عملي، ثم محاولة إصلاحه بتوجيه النصيحة الطيبة له، وأمره بالمعروف، لعل ذلك يقنعه بالحق وبالخير وبحسن الأخذ بالفضائل، فينقله إلى ما يجب أن يلتزم به من الكف عن الإساءة والظلم والعدوان.

إن من يعفو عن المسيء يقدم له بالعفو وسيلة تربوية عظيمة لإصلاحه وتهذيبه، ويهيئه بذلك لتقبل نصيحته، وذلك لأن من ناله أذى من أحد إخوانه المسلمين فصبر عليه وعفا عنه وسلك طريق الفضيلة المثلى، وأخذ بخطة الرشد، فإنه لا بد أن يرتفع في نفس من آذاه، إذا كان هذا الذي آذاه إنساناً ذا ضمير مؤمن، لأن هذا لا بد أن يحس في قرارة نفسه بأن من عفا عنه مع قدرته على أن ينتقم منه أكرم منه نفساً، وأفضل منه خلقاً، وأعلى منه مكانة، فيتصاغر في نفسه أمام من عفا عنه. ومتى وصل الإنسان إلى مثل هذه الحالة من الشعور كان أكثر استعداداً لتقبل النصيحة لا سيما من قبل الشخص الذي عفا عنه، وقلما يتمرد على نصيحته، إذ سيكون مدفوعاً بدافع تغطية النقص الذي ارتكبه، فيستكين للنصيحة التي يقدمها له من رأى أنه أكمل منه خلقاً. ولما كان الأمر كذلك كانت الفرصة مواتية جداً للأمر بالمعروف.

فعلى من سلك طريق فضيلة العفو أن يغتنم الفرصة فيأمر صاحبه بالمعروف، ما لم يكن صاحبه من الجاهلين أهل الغضب الذين يزيدهم مثل هذا الأمر تمرداً ووقاحة وعناداً، ولكن حكمة الأمر بالمعروف في مثل هذا الموقف تقتضي منه أن يختار الأسلوب والكلام الملائم تماماً للموقف الذي هو فيه، عندئذ يجمع في موقف واحد فضيلتين: فضيلة العفو، وفضيلة الأمر بالعرف، وينتج عن هاتين الفضيلتين خيرٌ كثير.

والسر في اختيار كلمة: (العرف) هنا بدل كلمة: (المعروف) الإشارة من طرف خفي إلى أن الأمر بالمعروف في مثل هذا المقام ينبغي أن يكون رفيقاً مقتضباً، لا عنيفاً ولا مسهباً، لأن الموقف لا يتحمل العنف ولا الإسهاب.

(ج) وأما ظاهرة الإعراض عن الجاهلين: فهي هنا فضيلة تتبع أيضاً فضيلة العفو، وذلك لأنه قد يوجد في المسيئين أقوام جاهلون، يسيئون ولا يقبلون النصيحة، ولا يؤثر فيهم الأمر بالمعروف مهما كان حكيماً، رغم العفو عنهم وعدم مجازاتهم على إساءاتهم، وألطف وسيلة لمعالجة هؤلاء والخلاص من شرورهم الإعراض عنهم، والانصراف عن الأمكنة التي يكونون فيها.

لأن هذا الصنف من الناس لا يناسبه في مثل هذا الموقف الأمر بالعرف، إذ سيجعله يتمادى ويتطاول في غيِّه، ولكن يناسبه الإعراض عنه، حتى يشعر بأنه منبوذ يُتقى شرُّه، فإن كان فيه شيء من خير أصلحه ذلك، وإلا بقي منبوذاً، وصار الناس يتحامون شره وأذاه.

فالإعراض عن الجاهلين ظاهرة خلقية تتبع ظاهرة أخذ العفو.

وهكذا كان توجيه الله لرسوله أن يأخذ العفو، ويأمر بالعرف، ويعرض عن الجاهلين، وكذلك كان خلق الرسول ﷺ.

وهذا التوجيه من الله موجه أيضاً لكل مؤمن أن يأخذ العفو ويأمر بالعرف ويعرض عن الجاهلين، ولكن أكثر الناس يستخفهم الغضب متى وجهت لهم الإساءة أو الأذية، فيخرجون عن طور الرصانة والثبات، وتتحرك نفوسهم للانتقام ممن أساء إليهم أو آذاهم، وتمتد على بصائرهم غشاوة تحجب عنهم رؤية الفضيلة، ولا يرون إلا إرضاء نفوسهم الراغبة بالانتقام، ولا يمرُّ في خاطرهم إلا البحث عن الوسائل التي تحقق لهم إرضاء نفوسهم. وقد جاءت التربية الإسلامية بعلاج لهذه الحالة، فأعلمت المؤمن أن هذا من نزغات شيطان النفس، وأن باستطاعته أن يطردها بأن يستعيذ بالله، فالاستعاذة بالله سلاح معنوي قوي لطرد نزغ الشيطان عن النفس، وفي ذلك قال الله تعالى في النص بعد الأوامر السابقة:

﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾.

وبهذا يشير النص إلى أن ثورة الغضب الدافعة إلى الانتقام الشديد الذي يتجاوز فيه المنتقم حدود الحق، هي من نوازغ الشيطان، وذلك لأن نوازغ الشيطان تغذي دوافع الأنفس، وتنفخ في نارها، وتزيد من أوارها.

والاستعاذة بالله تصرف عن الأنفس الشياطين ونوازغها، إذا كانت استعاذة صادقة خالصة، ومتى انصرفت نوازغ الشيطان كانت دوافع الأنفس واقعة بين طرفين متكافئين، هذا يستدنيها إلى الخير، وذلك يستدنيها إلى الشر،

ثم تأتي نفحات التوفيق الرباني فترجح الاتجاه نحو الخير، وعند ذلك تصح الرؤية، وتنجلي البصيرة، فيدرك صاحبها الخير والكمال ومرضاة الله، وما ينبغي أن يتحلى به المؤمن.

والاستعاذة بالله مفتاح تذكر الله تعالى، وتذكر فضيلة الصبر وفضيلة العفو، وتذكر ما أعد الله من ثواب عظيم للصابرين العافين عن الناس، ومع هذا التذكر أيضاً تنجلي البصيرة، وتزول الغشاوة التي سببتها نزغات الشيطان، فتعود إلى رؤيتها الصحيحة، وعندئذ يسكن هيجان النفس، ويبرد غليان الغضب، ويؤثر المؤمن المتقي جانب الفضيلة، ويتجه لابتغاء مرضاة الله.

والاستعاذة بالله إذ تفتح أبواب مراقبة الله، تكون سبباً لانشغال ساحة التصور بعناصر القاعدة الإيمانية والواجبات الإسلامية، وانشغال ساحة التصور بذلك يصرف النفس بشكل طبيعي عن النوازغ وما يرافقها من خواطر سيئات ورغبات جانحات، إذ حلت محلها التصورات الخيرة، ورغبات العفو والإحسان وفعل الصالحات، وأخيراً تتلاشى النوازغ أمام دوافع الرحمن، وتبرد النفس وتعود إلى ثباتها واستقامتها وحبها للفضيلة، قال الله تعالى:

﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾.

أي فإذا هم مبصرون سبيل رشادهم وسعادتهم، ومبصرون طريق الفضيلة الأمثل.

أما إخوان الشياطين فإنهم يصغون إلى وساوسهم، ويستجيبون لنزغاتهم، فيسقطون في الغي والضلال، وشياطينهم ينفخون في نفوسهم مدداً من النزغات، ويتابعون دفعهم إلى مواقع الغي والضلال، ولا يقفون معهم عند حد، ولا يقصرون عند مستوى من المستويات، حتى يهلكوهم، ثم يسخروهم في إغواء الناس وإضلالهم، وإثارة الفتن والشرور، قال الله تعالى:

﴿وإخوانُهم يَمُدُّونهم في الغي ثم لا يُقْصِرون﴾.

أي وإخوان الشياطين تمدهم شياطينهم في الغي، إذ تقدم لهم مختلف الوساوس والنزغات التي تزين لهم الشر، وتحسن لهم الانغماس في الغي.

ثم لا يقصرون: أي لا يقفون بهم عند حد دون الدرك الأسفل من الهلاك والعذاب.

— ٦ —

ولربك فاصبر

١ ــ بهذا السلوك الخلقي وهو الصبر أمر الله رسوله محمداً ﷺ، في نحو عشرين موضعاً من القرآن الكريم، منها قول الله في سورة (المدثر ٧٤):

﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ ﴾.

أي: لابتغاء مرضاة ربك وحده فاصبر.

٢ ــ ولما واجهه الذين كفروا بالتكذيب والاتهام بأنه شاعر وساحر وكاهن ومجنون، أمره الله بأن يصبر على ما يقولون فقال له في سورة (المزمل ٧٣):

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾.

وقال له في سورة (ق ٥٠):

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾.

وقال له في سورة (ص ٣٨):

﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

وقال له في سورة (طه ٢٠):

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾.

وقال له في سورة (الطور ٥٢):

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾.

فأعطاه الله مع هذه الأوامر بالصبر على ما يقول الذين كفروا، عظة التأسي بمن سبقه من الرسل، ودواء نفسه وقلبه، والسلوك الخلقي الذي يعامل به المكذبين الذين يجرحونه بألوان الاتهامات ويشتمونه بمختلف الشتائم، ثم وعداً ضمنياً بالحفظ والنصر.

(أ) ففي التأسي قال الله له: ﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد﴾.

(ب) وفي مداواة نفسه وقلبه أمره بأن يسبح بحمد ربه، قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، ومن آناء الليل، وأطراف النهار، وأدبار السجود، ففي هذا التسبيح علاج روحي ونفسي عميق، يفصله عن آلام الأرض ومتاعبها، ويشد صلته بالله، ويزيد من مراقبته له، فيفرغ الله عليه بذلك الطمأنينة والسكينة، وراحة النفس والقلب وسعادتهما.

(ج) وفي توجيهه إلى السلوك الخلقي الذي يعامل به المكذبين قال له: ﴿واهجرهم هجراً جميلاً﴾ أي: لا تقابلهم بالمثل، ولكن أعرض عن مجالس شتائمهم برفق، لتعود إلى نصيحتهم وكأنك لم تسمع منهم شيئاً يؤذيك.

(د) وفي الوعد الضمني بالحفظ والنصر قال الله له: ﴿فإنك بأعيننا﴾ وقال له: ﴿لعلك ترضى﴾.

٣ ـ وصبر الرسول، واتبع ما أمره الله به، ولكن تطلعت نفسه سائلةً وماذا بعد الصبر؟ فقال الله له في سورة (هود ١١):

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾.

٤ ـ وجحد الذين كفروا بعذاب يوم الدين، فأمر الله رسوله بأن يصبر عليهم صبراً جميلاً، فقال له في سورة (المعارج ٧٠):

﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ ﴾.

٥ ـ وأمعن المكذبون بالرسول في تكذيبه، حتى طلبوا منه تعجيل العذاب لهم، إن كان صادقاً، فأمره الله بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ونهاه عن أن يستعجل لهم العذاب، فقال له في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ . . . ﴿٣٥﴾ ﴾.

ونهاه أيضاً عن أن يكون كصاحب الحوت الذي استعجل لقومه العذاب، وهو يونس عليه السلام، فقال له في سورة (القلم ٦٨):

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ . . . ﴿٤٨﴾ ﴾.

٦ ـ واشتد حرص الرسول على هداية من أصر على الكفر من قومه، وبلغ الحرص في نفسه مبلغ الحزن عليهم من جهة، وضيق الصدر من مكرهم من جهة أخرى، فقال الله له في سورة (النحل ١٦):

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

٧ ـ وحاول الذين كفروا والمنافقون أن يثنوا الرسول عن بعض ما أنزل إليه، فقال الله له في سورة (الإنسان ٧٦):

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

٨ ــ وطال مدى الصبر، وتساءلت نفس الرسول ونفوس الذين آمنوا معه، متى يتحقق وعد الله بالنصر؟ فقال الله له في سورة (الروم ٣٠):

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

وقال له في سورة (غافر ٤٠):

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

٩ ــ فلقد كان في خلق الرسول الذي فطر عليه خلق الصبر، الذي كان يظهر في تحمله، وحلمه، وأناته. وزاد هذا الخلق ونما في نفس الرسول، بألوان التربية التي أدبه الله بها، وبالتجارب الكثيرة التي مارسها في حياته صلوات الله عليه، فكان أعظم قدوة حسنة للناس في فضيلة خلق الصبر.

وعن خلق الصبر تظهر فضائل كثيرة من فضائل السلوك الخلقي.

ــ ٧ ــ
ولا تمنن تستكثر

من خلق الرسول الجود وحب العطاء فقد كان أجود الناس، ولكن الله وجهه إلى أكمل صور العطاء النابع عن الخلق الأصيل في النفس، وذلك بأن لا يتبع عطاءه بالمن مهما رأى العطاء كثيراً، وبأن لا يستكثر ما يعطيه، فإن من

يحب العطاء في خلقه لا يرى أي عطاء يعطيه كثيراً، إذ في نفسه من الرغبة بالعطاء ما هو أكثر بكثير، لذلك فهو يرى الكثير الذي يعطيه قليلاً، فقال الله له في سورة (المدثر ٧٤): ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ ﴾.

أو ولا تعطِ حالة كونك طالباً ممَّنْ تعطيه أكثر ممّا أعطيته، بل أعط ابتغاء مرضاة الله، والمعنى وأعط غير مستكثر.

وفي هذا التوجيه الرباني للرسول توجيه لبلوغ أكمل مراتب الجود الإنساني.

وتحقق الرسول بهذا الخلق العظيم، فلم يكن يمنّ في عطائه، ولم يكن يستكثر عطاء مهما بلغ، ولم يكن يرجو ممّن يعطيه المكافأة بأكثر، ولم يكن يمُنُّ على ربّه بما يبذل في سبيل تبليغ رسالته. وحينما يقلل من مقادير العطاء أو يكثر، فإنما يتبع ما يراه الحكمة والمصلحة، مما يرجو فيه مرضاة الله، دونما بخل أو اتباع هوى.

ـ ٨ ـ

واخفض جناحك للمؤمنين

ممّا أدّب الله به رسوله أن يتحلّى بخلق التواضع وخفض الجناح للمؤمنين، فالتواضع يتألّف القلوب، ويملكها بالمحبة، لا سيما إذا كان من عظيم القوم لأتباعه وجنوده والمنتمين إليه. وقد كان الرسول ﷺ ـ كما أدبه الله ـ متواضعاً خافض الجناح لين الجانب، إذا جلس بين أصحابه كان كأحدهم، فيأتي قاصده فلا يعرفه فيقول: أيّكم محمّد، وإذا سار مع أصحابه كان كأحدهم، لا يتعالى ولا يترفّع عليهم، ولا يعطي لنفسه امتيازاً إلّا ما تقتضيه طبيعة القيادة والأمر والنهي.

وفي تأديب الله لرسوله بهذا الأدب قال الله له في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥ ﴾.

ثم قال له في سورة (الحجر ١٥):

﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨ ﴾.

وهذا الأمر الثاني أوسع دائرة من الأمر الأول، لأنّه قد شمل كل المؤمنين، ولو اقتضت ظروف بعضهم أن يخفي أمره أمام المشركين، ولا يعلن اتباعه، ومجاهرة المشركين بالانفصال عنهم والانحياز الكامل لصف الرسول ﷺ. والنصّان مكيّان إلّا أنّ سورة الشعراء أسبق نزولاً من سورة الحجر، وفي هذا التأديب تدّرج في مراتب الكمال.

ومن تواضع النبي ﷺ وبعده عن كل مظاهر الكبر والاستعلاء، ما رواه ابن ماجه والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس: أنّ النبي ﷺ كان يعود المريض، ويتبع الجنازة، ويجيب دعوة المملوك ويركب الحمار، لقد رأيته يوم خيبر على حمارٍ خطامه ليف.

وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته، وقالت: كان بشراً من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه.

وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقول: «آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد».

وروى البخاري عن الأسود قال: سألت عائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مَهْنة أهله ـ تعني خدمة أهله ـ فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة.

وروى البخاري عن أنس قال: كانت أَمَةٌ من إماء أهل المدينة تأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت.

وروى مسلم عن أنس أنّ امرأة كان في عقلها شيءٌ، فقالت: يا رسول الله، إنّ لي إليك حاجة، فقال: «يا أم فلان، انظري أيّ السّكك شئت حتى أقضي لك حاجتك» فخلا معها في بعض الطرق، حتى فرغت من حاجتها.

وروى الترمذي عن أنس، أن رسول الله ﷺ كان إذا صافح الرجل

لم ينزع يده من يده حتى يكون هو الذي ينزع يده، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون هو الذي يصرف وجهه عن وجهه، ولم يُرَ مقدماً ركبتيه بين يدي جليس له.

وروى النسائي والدارمي بإسناد صحيح عن عبدالله بن أبي أوفى، قال: كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر، ويُقل اللغو، ويطيل الصلاة، ويُقصّر الخطبة، ولا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي الحاجة.

ـ ٩ ـ
ولا تمدَّنّ عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم

ومما أدّب الله به رسوله أن يتحلى بخلق العفة عما في أيدي الناس من زهرة الحياة الدنيا، وأن يقنع بما قسم الله له ولا ينظر إلى ما آتى الله عباده من ذلك مهما كان شأنه.

فكان رسول الله كما أدبه الله أعفَّ خلق الله عما في أيدي الناس، وعن الدنيا بما فيها، وعرضت عليه زينتها فأباها.

وفي تأديب الله لرسوله بهذا الأدب أنزل عليه في المرحلة المكية قوله في سورة (الحجر ١٥):

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴿٨٨﴾﴾.

أزواجاً منهم: أي أصنافاً منهم، وهم أهل الغنى والثراء والمترفون.

فلم يمدّ الرسول ﷺ عينه إلى شيء مما آتى الله الناس من متاع الحياة الدنيا، وحول نظره إلى ما ادّخر له في الفردوس الأعلى من مقامٍ كريم ونعيم مقيم، ولم يكن يتمنى لنفسه شيئاً مما في أيدي الناس من متاع الحياة الدنيا، تخلقاً بما أدبه الله به.

ثم أنزل الله عليه في المرحلة المدنية قوله الذي في سورة (طه ٢٠):

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾.

فهذه الآية مدنية مع أن السورة في معظمها مكية، وقد أبان الله في هذه الآية أن متاع الحياة الدنيا وزهرتها مما يعطيه الله بعض عباده ليبتليهم فيه، أي وليس هو تكريماً لهم ولا تشريفاً، ثم قال له: ﴿ورزق ربّك خيرٌ وأبقى﴾.

وفي الصحيح أنّ الرسول ﷺ لما حلف على نسائه أن لا يقربهن شهراً، اعتزل في غرفة صغيرة ليس فيها شيءٌ من متاع الحياة الدنيا، فدخل إليه عمر بن الخطاب فرآه متوسّداً على حصير، فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا عمر؟» فقال: يا رسول الله إنّ كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه، فقال: «أوفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عُجّلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا».

وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض.

وروى مسلم عن النعمان بن بشير قال: لقد رأيت نبيكم ﷺ وما يجد من الدَّقَلِ ما يملأ به بطنه.

الدّقَل: تمرٌ رديء.

— ١٠ —

فاصفح الصفح الجميل

ومما أدّب الله به رسوله أن يتحلى بخلق الصفح، وهو الإعراض عن مواجهة السيئة بمثلها، وقد كان رسول الله ﷺ أجمل الناس صفحاً، يتلقى من قومه الأذى المؤلم فيعرض عن تلويمهم أو تعنيفهم أو مقابلتهم بمثل عملهم، ثم يعود إلى دعوتهم ونصحهم كأنما لم يلق منهم شيئاً.

وفي تأديب الله لرسوله بهذا الأدب أنزل الله عليه في المرحلة المكية قوله في سورة (الحجر ١٥):

﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾.

ثم أنزل عليه قوله في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

فكان يقابل أذى أهل الشرك بالصفح الجميل، وهو الصفح الذي لا يكون مقروناً بغضب أو كبر أو تذمر من المواقف المؤلمة وكان كما أدبه الله تعالى.

ثم كان يقابل أذاهم بالصفح الجميل، ويعرض قائلاً: سلام.

وفي العهد المدني لقي الرسول ﷺ من يهود أهل المدينة أنواعاً من الخيانة، فأنزل الله عليه قوله في سورة (المائدة ٥):

﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

فصبر الرسول ﷺ عليهم وعفا وصفح، حتى جاء الإذن الرباني بإجلائهم، ومعاقبة ناقضي العهد منهم.

— ١١ —
ادفع بالتي هي أحسن

ومما أدّب الله به رسوله أن يدفع بالتي هي أحسن، أي أن يدفع أية إساءة توجه له، وأية معاملة يقابل بها، وأية كلمة يواجه بها، وأي خلق، وأية خصلة تسوؤه من غيره بالتي هي أحسن، أي بالخصلة التي هي أحسن، وبالكلمة وبالطريقة وبالمعاملة التي هي أحسن، وهذا الأدب الموجه للرسول ﷺ موجه

أيضاً لكل المؤمنين. فأنزل الله على رسوله في العهد المكي قوله في سورة (فصلت ٤١):

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

ثم أنزل عليه في العهد المكي أيضاً قوله في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

فالرسول ﷺ في طريق عودته إلى الله، لا بد أن يجد من قومه ألواناً مما يكره، من سفاهاتهم، وجهالاتهم، وإساءاتهم، من أقوالهم ومن أعمالهم، فهل يدفع ذلك بمثله أو بأعنف منه؟.

الله يقول له: ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾. ويقول له: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة﴾.

ولما كان في فطرة ضمير كل إنسان الإحساس بكمال الفضائل الخلقية وجمالها، ونقصان الرذائل الخلقية وقبحها، فلا بد أن يشعر بنقص نفسه وقبح عمله، ولا بد أن يتصاغر في نفسه ولو بعد حين، إذا هو أساء لإنسان فقابله ذلك الإنسان بالعفو والإحسان مع قدرته على أن يقابله بمثل إساءته أو بأشد منها.

فمن صبر على سوء أخلاق من أساء إليه مرة بعد مرة، ولم يقابل سفاهته بالغضب، ولا إيذاءه بمثله، ونصحه برفق، وأبان له أنه قادر على أن ينتقم منه، إلّا أنه آثر أن يدفع بالتي أحسن ــ ابتغاء مرضاة الله، وحرصاً على روابط الأخوة

الإيمانية بين المؤمنين، أو على سلامة الجماعة الواحدة وأمنها ــ فلا بد أن يحرك فيه جذر الحياء الكمين في أعماق نفسه، فيستحيي من إساءاته، ومما بدر منه من خلق سيء، ومعاملة مؤذية. ومع الاستحياء تتصاغر نفسه، فيحاول أن يغطي نقيصته باسترضاء صاحبه، فيتقرب إليه بأسباب المودّة، ويكف عن متابعة إساءته، وتتهدم عداوته التي حركته إلى الإساءة، حتى يكون وليّاً حميماً، أو كأنه بمعاملته ولي حميم.

ولا يشذ عن هذا إلا ممعن في الإجرام، عدو لا يزيل عداوته إكرام ولا إحسان ولا عفو ولا أية فضيلة خلقية، وهذا الشاذ له علاجٌ خاص مستثنى من القاعدة العامة.

ولما كان من شأن الدفع بالتي هي أحسن أن يكون سبباً في تحويل الأعداء إلى أصدقاء قال تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾.

ولكن لا يستطيع ضبط نفسه فيدفع بالتي هي أحسن إساءات من يسيء إليه، إلا إنسان ذو إرادة قوية صبور، قادر على تحمل المكاره، وكظم الغيظ وترك الانتقام، ذو حظ عظيم من الأخلاق الفاضلة، وفي بيان هذا قال الله تعالى: ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾.

ومع ضبط النفس وإيثار الدفع بالتي هي أحسن تأتي وساوس الشيطان ونزغاته، فتحرك النفس إلى الانتقام، وتزينه لها، وتوسوس بأن الشر لا يُدفع إلا بمثله، وبأن الذين يبدأون بالإساءة يجب معاقبتهم بمثل إساءتهم أو بأكثر منها، حتى لا يتجرأوا على الإساءة مرة أخرى، وقد أبان الله الدواء الصارف لهذه الوساوس والنزغات، وهو الاستعاذة بالله من همزات الشياطين، فقال تعالى: ﴿وإما ينزغنّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾.

وعلّم الله رسوله صيغة الاستعاذة فقال له: ﴿وقل ربِّ أعوذ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿إنه هو السميع العليم﴾ بعد الأمر بالاستعاذة بالله دليل

على أن المراد من الاستعاذة ليس مجرد ذكر الاستعاذة باللسان، فالاستعاذة باللسان وحده لا تنفع ولا تدفع عن الإنسان نزغ الشيطان، وإنما الذي ينفع هو الاستعاذة اللسانية المقرونة بصدق الاستعاذة القلبية، وذلك بإحضار معناها في التصور مع اتجاه الإرادة الجازمة لذلك، واللسان مساعد لاستجماع هذه الحالة في داخل النفس.

وعلى هذا نفهم النص على الوجه التالي: فاستعذ بالله بلسانك وبقلبك، فالله هو السميع لما تذكر بلسانك والعليم بما في داخل نفسك، أي فهو عندئذ يستجيب لك فيصرف عنك وساوس الشيطان ونزغاته.

قال الإمام الرازي في قوله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠ ﴾.

«قوله تعالى: ﴿إنه سميع عليم﴾ يدل على أن الاستعاذة باللسان لا تفيد إلا إذا حضر في القلب العلم بمعنى الاستعاذة فكأنه تعالى قال: اذكر لفظ الاستعاذة بلسانك فإني سميع، واستحضر معاني الاستعاذة بعقلك وقلبك فإني عليم بما في ضميرك. وفي الحقيقة القول اللساني بدون المعارف القلبية عديم الفائدة والأثر» انتهى.

ويبدو أن مراد الإمام الرازي ليس مجرد العلم بمضمون الاستعاذة، بل العلم مع اتجاه الإرادة وصدقها في طلب الاستعاذة من الله تبارك وتعالى، ولذلك جمع العقل والقلب، وهذا في الحقيقة هو الذي ينفع في كل الأدعية وفي كل الأذكار.

ـ ١٢ ـ

ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضَيْق ممّا يمكرون

وفي تأديب الله لرسوله، حتى يكون في حالة نفسية رضية مطمئنة، متوازنة خلقياً بين مختلف المثيرات والمهيجات الانفعالية العاطفية، أنزل الله عليه قوله في سورة (طه ٢٠):

﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ ﴾.

ثم أنزل عليه قوله في سورة (النمل ٢٧):

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

ثم أنزل عليه قوله في سورة (النحل ١٦):

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

فكرر عليه هذا التوجيه التربوي مرتين، وأضاف في المرة الثانية قوله: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ أي معهم بتأييده ونصره ومعونته، ومعهم بنفحات قدسه التي تؤنسهم وتسعدهم وتشرح صدورهم.

والتوازن الخلقي النفسي الذي يربي الله رسوله عليه في هذين النصين إضافة إلى خلق الصبر، يشتمل على عنصرين:

العنصر الأول: أن يجعل لرحمته بقومه حدوداً، وعليه أن لا يتجاوز هذه الحدود، فهو يرحمهم رحمة عظيمة، فيدعوهم إلى هدايتهم ورشادهم وسعادتهم، ويكون حريصاً عليهم، عزيزاً عليه عنتهم، لكنهم إذا اختاروا لأنفسهم سُبُل ضلالتهم وتعاستهم وشقائهم، فلهم شأنهم، وعليهم أن يتحملوا نتائج اختيارهم، وإذا كان الأمر كذلك فيجب عليه أن لا يحزن عليهم، فشفقته عليهم لا ينبغي أن تصل إلى منطقة تتعارض فيها مع حكمة ابتلائهم، القائم

على اختيارهم، والمستلزم لعقابهم، فالشفقة عليهم عندئذ في غير محلها، والحزن عليهم عندئذ في غير محله. ويجب عندئذ أن تأتي عاطفة الرضا بالعدل الرباني، والتسليم التام لحكمة الله في خلقه. فمن كان كامل الوعي، جيد المعرفة، حر الإرادة، واختار لنفسه سبيلاً، فعليه أن يتحمل نتائج اختياره، ولا ينبغي أن يكون غيره أشفق عليه من نفسه.

نعم قد تكون الشفقة مع حالة من حالات العذر، كفقدان الوعي، والجهل بالأمر وما يفضي إليه، وفقدان الإرادة الحرّة، لكن إذا لم يكن شيء من ذلك فلماذا يُعذّب الرحيم الرؤوف نفسه من أجل إنسانٍ ركب رأسه عناداً، ولم يشفق على نفسه من العذاب الأليم مع بيانه له، وإرشاده إلى طريق سلامته وسعادته.

ولما كانت رحمة الرسول ﷺ بقومه عظيمة جدّاً، ورأفته بهم عاطفة سائدةً، كان بحاجةٍ إلى جرعات متعددة من التأديب الرباني، لشد لجام عاطفة الرأفة والرحمة، حتى تقف عند الحدود التي يحسن في ميزان الخلق السوي الفاضل أن لا تتجاوزها، فأنزل الله عليه قوله في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

أي أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً تكون أنت يا محمد قادراً على أن تكرهه على الهداية، وقد منحه الله الاختيار ليمتحنه، فيحكم عليه بعد ذلك بالضلال ضمن مشيئته الحكيمة، أو يحكم له بالهداية ضمن مشيئته الحكيمة، الموافقة لمقتضى عدله أو فضله. فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إذا هم اختاروا لأنفسهم سبُل ضلالهم وشقائهم، وساروا إلى نهاياتهم التعيسة.

ثم أنزل الله عليه قوله في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

لعلّك باخع نفسك: أي لعلك مهلك نفسك وقاتل نفسك حزناً عليهم، لأنهم لم يؤمنوا.

ثم أنزل الله عليه قوله في سورة (النمل ٢٧):

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴿٧٠﴾ ﴾.

ثم أنزل عليه قوله في سورة (الحجر ١٥):

﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴿٨٨﴾ ﴾.

ثم أنزل عليه قوله في سورة (لقمان ٣١):

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

ثم أنزل عليه قوله في سورة (الكهف ١٨):

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾.

أي فلعلك مهلك نفسك أسفاً وحزناً على آثارهم إن لم يؤمنوا بالقرآن وما جاء فيه، وليكن بعلمك أنهم في هذه الحياة الدنيا في موضع الابتلاء، لنبلوهم أيهم أحسن عملاً، ومقتضى الامتحان أن يختار منهم فريق طريقه إلى الجنة، ويختار منهم فريق طريقه إلى النار.

ثم أنزل الله عليه قوله في سورة (النمل ٢٧):

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴿٧٠﴾ ﴾.

وهكذا تكررت على الرسول ﷺ من ربه التوجيهات التربوية في المرحلة المكية ليخفف من شدة عاطفته نحو الذين اختاروا من قومه سبيل الكفر على

سبيل الإيمان، فلا يحزن عليهم، واشتمل هذا التوجيه على الإقناع بأصل الغاية من الخلق.

أما في المرحلة المدنية فقد غدت عاطفة الرسول ﷺ متجهة بقوة للمحافظة على من أسلم واتبعه، حرصاً على قوة المسلمين ورغبة باستعلاء دين الله، وغدت نفسه يشتد فيها الحزن إذا رأى بعض من أسلم يسارع في الكفر، وكان هؤلاء من فئة المنافقين في حقيقة الأمر، فأنزل الله عليه في أوائل العهد المدني قوله في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ ﴾.

ثم أنزل عليه في أواخر العهد المدني قوله في سورة (المائدة ٥):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ... ﴿٤١﴾ ﴾.

فكانت هذه المتابعة التربوية لضبط عاطفة الرسول ﷺ وتوجيهها ضمن الحدود التي ينبغي أن لا تتعداها، وضبط العواطف من أهم وسائل تكوين الأخلاق الفاضلة، والسجايا الحميدة.

العنصر الثاني: أن لا يكون الرسول ﷺ في ضَيْق مما يمكر الكافرون أي أن لا يكون في غمّ يشدّ على نفسه وقلبه ويضيّق عليهما، ويذهب بانشراح الصدر. وهذا جانب آخر من التربية النفسية ذات التأسيس الخلقي، فمن شأن الإنسان أن يناله هذا الضّيْق كلما شعر بعنف كيد أعدائه وشدة مكرهم له، وهذه الحالة قد تفسد على البصيرة رؤيتها للأمور، فلا ترى المخارج التي تنقذ من دوائر الكيد والمكر.

وصحة الحالة النفسية من عوارض الغمّ والضّيْق تُعطي ثباتاً خلقياً نفسياً، ينتج عنه سلوك خلقي قويم كريم.

ومِثْلُ الرسول ﷺ يكفيه للإقناع أن يقول الله له: ﴿ولاتك في ضَيْق مما يمكرون﴾ ومع ذلك فقد زاده الله إقناعاً بأنه معه ينصره ويؤيده، فقال له: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾.

ثم زاده إقناعاً بأنه تعالى يفسد مكرهم السيء بمكر من عنده هو في الخير لا في الشر، لأنه عمل خفيٌ يبطل شرَّهم، ويرد عليهم سوء عملهم، ويوقعهم في الحفر التي يحفرونها للرسول والمؤمنين معه، فأنزل عليه قوله في سورة (الأنفال ٨):

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

ثم أنزل عليه قوله في سورة (الرعد ١٣):

﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

ومع هذا الإقناع أعطى الله رسوله الدواء الذي يمسح عن صدره الضيق، وهو التسبيح بحمد الله، وكثرة الصلاة والسجود لله، والقيام بعبادة الربّ مع الاستمرار في ذلك، فقال الله له في سورة (الحجر ١٥):

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾.

أي حتى يأتيك الموت.

- ١٣ -
قل: ما أسألكم عليه من أجر

ومما أدب الله به رسوله أن يكون عمله في تأدية رسالته خالصاً لوجه الله تعالى، لا يبتغي به أجراً من الناس.

وسبق أن قد علمنا أن السلوك الأخلاقي الأمثل هو ما كانت الغاية منه اكتساب مرضاة الله تعالى، أما السلوك الأخلاقي الذي يقصد منه تحصيل الأجر من الناس فهو تجارة مادية عاجلة، وهو لا يعبر عن خلقٍ أصيلٍ ثابتٍ في النفس، وإنما يعبر عن تحرك نفسي أو سلوكي في اتجاه المصلحة العاجلة للنفس، فحيثما وجدت هذه المصلحة - سواء أكانت خيراً أو شراً - تحركت النفس وتحرك السلوك، وعندئذٍ يختلط الخير بالشر، وتختلط فضائل الأخلاق برذائلها. أما ربط السلوك الأخلاقي بابتغاء مرضاة الله فهو الذي يجعله من المكارم دائماً، لأن مرضاة الله لا تتحقق إلا بالخير، ولا تكون إلا في الخير.

وبدأ هذا التأديب للرسول مع أول مراحل الرسالة، ومع وصف الله له بأنه لعلى خلق عظيم، إذ أنزل الله عليه قوله في سورة (القلم ٦٨):

﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾.

بنعمة ربك: أي برسالته التي أنعم بها عليك.

وإن لك لأجراً غير ممنون: أي غير مقطوع، إذ هو أجر خالد في جنات النعيم.

فأبان الله له من طرف خفيّ أن عليه أن يخلص لله في تأدية الرسالة، وأن له أجراً على ذلك لا ينقطع عند الله تعالى.

ثم أبان له في السورة نفسها، أن الداعي إلى الله من شأنه أن لا يطالب

الناس بأجر على هدايته لهم، وإرشاده إياهم إلى منهج سعادتهم، حتى يكون أكثر تأثيراً فيهم، إذ يشعرون أنه لا غرض له عندهم، وإلا اتهموه بالغرض فضعف تأثيره في نفوسهم، فقال الله تعالى له فيها:

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ؟! (٤٦) ﴾.

وجاء هذا على صيغة استنكار تكذيبهم له، مع أنه صلوات الله عليه لم يسألهم أجراً.

ثم أمره الله تعالى بأن يواجههم بقوله لهم: ما أسألكم عليه من أجر، حتى يقطع ظنونهم وأوهامهم، التي قد تصور لهم أنه طالب دنيا، مُلْكٍ أو مالٍ، أو زعامة، أو غير ذلك من متاع الحياة الدنيا، فأنزل الله عليه قوله في سورة (ص ٣٨):

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ (٨٨) ﴾.

وما أنا من المتكلفين: المتكلف هو الذي يتتبع ما لا يعنيه. والباحث عن الأشياء الغامضة العويصة. والمتتبع للمشقات.

أي ما أسألكم على هذا الأمر الذي أدعوكم إليه وأبذل فيه كل جهدي من أجر قلّ أو كثر، وما أنا فيه من المتتبعين المتكلفين لما لا يعنيهم، بل أنا مكلف من قبل ربي أن أبلغكم وأرشدكم وأعلمكم وأزكيكم، إن هو إلا ذكرٌ للعالمين، ولتعلمُنَّ تحقق أنبائه بعد حين، فلكل نبأ مستقر ينكشف به صدقه إذ يتحقق فيه.

ثم أنزل الله عليه قوله في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا (٥٧) ﴾.

فأمره الله أن يؤكد للناس أنه لا يسألهم على الأمر الذي يقوم به لخيرهم

وسعادتهم أي أجـر، إلا رضا قلبه وسعادة نفسه بهداية من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً يكون فيها من الناجين، ومن أهل جنات النعيم، فهذا من جانبهم يكفيه، أما أجره عند الله فلسوف يعطيه الله حتى يرضيه رضاً تاماً.

ولا يمتنع أن يراد بالاستثناء اتباع الرسول وتعظيمه وتوقيره والصلاة عليه، فهي لمن فعلها سبيل تأخذ بيد سالكها إلى مرضاة الله، فمن اتبع الرسول أحبه الله، ومن عظَّم الرسول ووقره أثابه الله، ومن صلَّى على الرسول مرة صلَّى الله عليه بها عشراً، وهكذا.

ثم أنزل الله عليه قوله في سورة (يوسف ١٢):

﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

فأبان الله له أن أكثر الناس لا يؤمنون ولو حرص على إيمانهم وهدايتهم، هذا مع أنه لا يسألهم على الأمر الذي يقوم به لخيرهم وسعادتهم من أجر.

ثم أمره الله أن يكرر للناس ويؤكد لهم أنه لا يسألهم على هذا الأمر أجراً، فأنزل عليه قوله في سورة (الأنعام ٦):

﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

أي موعظة وتذكير بالحق والخير والهداية.

وأصر كثير من قومه على تكذيبه، وعاندوا فلم يهتدوا بهديه، فأنزل الله عليه قوله في سورة (سبأ ٣٤):

﴿ ۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾ قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ﴿٤٧﴾ ﴾.

ففي توجيههم أن يقوموا لله متجردين من عصبياتهم وسوابق أفكارهم مثنى وفرادى، تحريرٌ لهم من أمرين آسرين للنفوس البشرية:

الأمر الأول: العصبيات وسوابق الأفكار والأهواء والأغراض الخاصة التي تميل بالأفكار عن سواء السبيل، ومنهج الحق والرشاد، وتحرير الأنفس من هذه إنما يكون بأن يقوموا لله.

الأمر الثاني: الضغط الاجتماعي، والغوغائية الجماعية، والعقل الجمعي الذي تنعدم معه التأملات الفردية الصافية الحرة، وتحرير الأنفس من هذا الأمر إنما يكون بأن يتأمل الباحثون عن الحق مثنى أو فرادى، أما أن يجتمعوا في غوغائية جماهيرية فهذا يفسد صفاء تأملاتهم، ويجعلهم ينساقون انسياقاً ببغاوياً مع شياطين التضليل فيهم.

وفي قول الله لرسوله بعد ذلك: ﴿قل: ما سألتكم من أجرٍ فهو لكم * إنْ أجري إلا على الله﴾ توجيه إلى تنويع البيان الذي يتضمن أنه لم يطالبهم بأجر في كل المدة السابقة التي جاهد فيها جهاداً صادقاً وهو يدعوهم إلى خيرهم وسعادتهم.

والصيغة التي جاءت في هذا التوجيه تشبه قول الوالد الرحيم بأولاده الخارجين عن طاعته ـ بعد أن يقدم لهم النصح الذي لا هدف له منه إلا أن يكونوا سعداء في ذات أنفسهم ـ:

يا أولادي هذا نصحي لكم، ولا أريد منكم جزاءاً ولا شكوراً، وما أعطيتموني من أجر على تربيتي وحبي لكم وبذلي من أجلكم وإخلاصي لكم فخذوه واستردوه. أي لم آخذ منكم شيئاً ولم تعطوني شيئاً، كل ما عندي لكم هو الإخلاص والحب والحرص على سعادتكم.

ثم أنزل عليه قوله في سورة (الطور ٥٢):

﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٠﴾.

أي إنك لم تسألهم ولا تسألهم أجراً حتى يجدوا هذا الأجر مغرماً

يستثقلونه، فيصدون من أجل استثقاله عن الاستجابة لك، والإيمان برسالتك، وتصديقك فيما تبلغهم عن ربك.

وكل ما سبق كان في العهد المكي.

ثم أنزل الله على رسوله في العهد المدني قوله في سورة (الشورى ٤٢):

﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴿٢٣﴾ ﴾.

قال ابن عباس: أي إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة. وقال: لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودّوني في نفسي لقرابتي منكم، وتحفظوا القرابة بيني وبينكم.

وروي عنه أيضاً: لا أسألكم على ما آتيكم من البينات والهدى أجراً إلا أن توادوا الله تعالى، وأن تتقربوا إليه بطاعته.

وروى البخاري عن سعيد بن جبير أنه قال: معنى ذلك أن تودوني في قرابتي، أي تحسنوا إليهم وتبروهم.

وعن زيد بن أرقم أن أهل بيت الرسول ﷺ هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس.

ـ ١٤ ـ

من أوائل ما أدب الله به رسوله
ما جاء في سورتي (الضحى) و (الشرح)

(أ) فأمّا اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدث:

اشتملت سورة (الضحى) على ألوانٍ من تربية الله لرسوله محمد ﷺ، وكان ذلك مع أوائل الرسالة.

أبطأ الوحي على الرسول لتربيته، ولتشويقه، فمن ذاق طعم الصلة بالوحي وما يشاهد معه من أمور عالم الغيب اشتدّ عليه انقطاع ذلك عنه. وقال

المشركون: ودَّع محمداً ربه، وصعب الأمر على الرسول، وربما حدثته نفسه أنه قصر في شيء، فأثبت بما حصل له أنه قد حمل مهمة الرسالة حقاً، واضطلع بمسؤولياتها وأحبها، وأعد نفسه لتحمل كل مشقاتها.

فاقتضى الأمر أن ينزل الله عليه من عذب الخطاب، وحلو المناجاة والتكريم، ما يمسح عن نفسه وحشة الانقطاع.

فأقسم له بقمّتَيْ ما يشاهد في الأرض من ضياء حلو وظلمة ساكنة، بالضحى والليل إذا سجى، أنه ما ودعه وداعاً نهائياً ولا هجره هجراً مؤقتاً، فقال له:

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾.

قلى: في اللغة بمعنى أبغض وبمعنى هجر، وأوثر هنا المعنى الثاني، وجلُّ أهل التفسير على المعنى الأول.

ثم ربط همة قلبه ونفسه بالآخرة وبما فيها من خير عظيم، ووعده بأنه سوف يعطيه فيها حتى يرضى رضاً تاماً، فقال له:

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ ﴾.

ثم ذكره الله بنعم ثلاث أنعم بها عليه، ليقابلها من جهته بالشكر الملائم لها، فقال له:

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾.

هكذا على طريقة الاستفهام التقريري، وجواب الرسول ﷺ عليه: بلى.

لقد هيأ الله له من يؤويه وهو يتيم، وهذا من عناية الله به، وشكر الله على هذه النعمة يظهر تماماً في أن يرعى اليتامى ويرحمهم ولا يقهر أحداً منهم، فقال له في التأديب:

﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ ﴾.

ونشأ فقيراً لا مال له، فهيأ الله رزقاً أغناه به، وشكرُ الله على هذه النعمة يظهر تماماً في أن يعطي السائل ذا الحاجة إن وجد ما يعطيه، ولا ينهره إن لم يجد، بل يقول له قولاً معروفاً، فقال له في التأديب:

﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ ﴾.

ونشأ في أمة أمية، بعيدة عن مراكز العلم والحضارة ضالة عن سبيل سعادتها، فلم يكتسب منها علماً ذا شأن، فضلاً عن علم يؤهله لمجد هداية الناس أجمعين، وإرشادهم إلى سبيل سعادتهم، ويظل الجاهل ضالاً عن الطريق، حتى يتعلم فيهتدي إليه. فاصطفاه الله بالنبوة وعلمه وهداه، ثم اصطفاه بالرسالة فكلفه تبليغ الناس وتعليمهم، وهذه أعظم نعمة أنعم بها عليه، وشكر الله على هذه النعمة يكون بأن يحدث الناس بما علمه الله من علوم دينية أوحى بها إليه، وأنعم بها عليه، ليهدي الناس كما هداه الله، فقال له في التأديب:

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١ ﴾.

وقد تخلق الرسول ﷺ بما أدبه الله به، فكان ملجأ اليتامى والسائلين وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

(ب) **فإذا فرغت فانْصَبْ وإلى ربك فارغب:**

ومما أدّب الله به رسوله محمداً ﷺ ما أمره به وبينه له في سورة (الشرح ٩٤) إذ قال له:

﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨ ﴾.

وقد اشتمل هذا النص على ثلاثة عناصر تربوية أخلاقية.

العنصر الأول: تربية نفسه على الأمل بالمستقبل، وتلقي الأحداث الحاضرة المؤلمة بالرضا والتسليم، وبنفس منشرحة مشحونة بالأمل بما سيأتي، صابرة على العسر الواقع، فالنفس المشحونة بأمل اليسر القادم، يضمر لديها ألم العسر القائم، ومنتظر الفجر القريب لا يشعر بظلمة الليل القاتم.

وهذه التربية تضمنها الإقناع المؤكد بأن مع العسر يسراً، وهذا الإقناع اقترن بدليل مما سبق في أحداث الماضي، وبتأكيد بياني:

أما الدليل مما سبق في أحداث الماضي فهو ما جاء بيانه في صدر السورة، تمهيداً لتقرير قاعدة: ﴿إن مع العسر يسراً﴾ من قواعد سنن الله في ابتلاء خلقه.

فقد سبق أن تعرض الرسول ﷺ في حياته لضيق في صدره، فشرح الله صدره بعد ذلك، فهذا عسر جاء بعده يسر.

وسبق أن شعر الرسول ﷺ بأنه يحمل أثقالاً في حياته شاقة عليه، فوضع الله عنه هذه الأحمال، فرماها الرسول عن نفسه، إذ هيأ الله له من يحملها عنه، أو طرحها الرسول عن ظهره ثقة بكفالة ربه له، وهذا عسر جاء بعده يسر.

وسبق أن كان الرسول ﷺ في قومه خامل الذكر، غير معدود بين العظماء في قومه، فرفع الله ذكره، إذ جعله رسولاً، والرسالة أعظم مكانة يمنحها الله لإنسان. واستمر عطاء الله له في رفع ذكره، حتى اقترن اسم الرسول محمد ﷺ باسم الله في الشهادتين، وفي الأذان، وحتى صارت الصلاة على الرسول ﷺ عبادة واجبة على كل مسلم، فإن كان خمول الذكر حالة عسر، فقد جاء بعده يسر عظيم، برفع ذكره إلى أرفع ما يمكن ذكر لإنسان.

كل هذا قد جاء التمهيد به في قول الله تعالى له:

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾.

وأما الإقناع بالتأكيد البياني، فهو ما جاء بيانه في القاعدة التي قررها الله له:

﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ ﴾.

فقد جاءت هذه القاعدة مؤكدة تأكيداً بيانياً من عدة وجوه:

الأول: التأكيد بأداة التأكيد (إنّ).

الثاني: التأكيد بالجملة الاسمية كما يقول علماء البلاغة.

الثالث: التأكيد بتكرير القاعدة مرتين، وجعل كل منهما آية مستقلة.

الرابع: تعريف العسر وتنكير اليسر، قالوا: والمعرف إذا أعيد كان عين الأول، أما النكرة إذا أعيدت فهي غير الأول، ومن هذا قالوا: عسر بين يسرين، وفي هذا الكلام نظر عند المحققين من علماء البلاغة.

إلّا أن التنكير في اليسر قد يفيد التعظيم والتكثير، فهذا من دلالات التنكير بلاغياً.

العنصر الثاني: تربية الرسول ﷺ على علو الهمة، والاشتغال الدائم بجد في كل نافع مفيد يرضي الله تعالى، سواء أكان ذلك في الدعوة إلى الله، أو الجهاد في سبيله، أو في القيام بالعبادات الخاصة، أو في غير ذلك من كل خير. والغرض أن لا يضيع الرسول ﷺ لحظة من لحظات عمره من دون عمل نافع مفيد إذا كان يستطيع فيها أن يعمل شيئاً يقربه إلى الله تعالى، مما يرضيه سبحانه من الأعمال، ولو كان فيه نصبٌ وتعب على الرسول ﷺ. وفي تربية الله لرسوله على هذا الخلق قال له: ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ أي فإذا فرغت من عمل سابق، فقم بعملٍ جديدٍ تجد فيه نصباً، والنصب هو التعب، وهذا تكليف له بأن لا يركن إلى الراحة والدعة، إذ عليه أن يستغل كل ما يستطيع استغلاله من عمره في عمل نافع يرضي الله، من الأعمال التي أمره الله بأن يحمل أعباءها مما يتعلق بمهمات الرسالة، أو بواجباته الشخصية.

العنصر الثالث: تربية نفس الرسول ﷺ على العفة عما في أيدي الناس، وعدم تعلقها بشيء من ذلك، وربطها بسؤال الله وحده، في كل رغيبة يرغبها من مطالب دنياه وآخرته، وفي تربية الله لرسوله على هذا الخلق قال له: ﴿وإلى ربك فارغب﴾؛ أي فاسأل الله وحده بضراعة وتذلل كل ما تحب من أمور دنياك وآخرتك، ولا تسأل غيره.

يقال لغة: رغب إلى الله أي سأل الله بضراعة، والرغبة الضراعة والمسألة.

وفي حديث الدجال ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى عليه السلام جاء: «فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله» أي فيتضرعون إلى الله ويسألونه.

وبهذا الأدب الرباني أدّب الرسول ﷺ أصحابه، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد والترمذي بإسناد صحيح عن عبدالله بن عباس قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال:

«يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

ـ ١٥ ـ
وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم

ومما أدب الله به رسوله أن يتخلق بخلق العدل في الحكم، والعدل في الحكم يكون بالحكم بما أنزل الله، فهو الصورة المثلى لتحقيق العدل، أو لتحقيق أقرب الأحكام إلى العدل، مما يستطيع الناس الوصول إليه.

ومجانبة العدل في الحكم إنما تكون باتباع الهوى، أو بترك الحكم بما أنزل الله، وجنوح الفكر عن سواء السبيل.

ولما كان الرسول ﷺ مطهراً من الهوى الذي يميل به إلى الحكم بغير ما أنزل الله، نهاه الله عن أن يتبع أهواء الناس على سبيل المداراة لهم لجلبهم إلى الإسلام، أو لتأليف قلوبهم، فأنزل عليه قوله في سورة (المائدة ٥):

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

وقبل هذا حذّر الله رسوله تحذيراً عاماً من اتباع أهواء اليهود والنصارى، تأديباً له على خلق الثبات على الالتزام التام بما ينزل الله عليه، فقال له في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

ثم أنزل عليه قوله في سورة (الرعد ١٢):

﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

وكل هذا في العهد المدني، أما في العهد المكي فقد تنزلت عليه نصوص التأديب في هذا المجال على الوجه التالي:

نزل عليه قول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

وقوله فيها أيضاً:

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾.

ثم أنزل الله عليه قوله في سورة (الجاثية ٤٥):

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

وما أدب الله به رسوله هو من الأخلاق الواجبة على كل قاضٍ وحاكم، وعلى كل داعٍ إلى الله.

— ١٦ —

وإنْ كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بـآية

ومما أدّب الله به رسوله على خلق الصبر في مجال دعوته وقيامه بمهمّات رسالته، التربية بالإقناع، وبالقدوة الحسنة.

وبعد ذلك وجّه الله له تربية قائمة على افتراض وجود أمرٍ نفسيٍّ غير واقع لدى الرسول ﷺ، وهذه التربية تعتمد على عنصر التهديد بالتخلّي عنه، إنْ كان إعراض المعرضين عنه أمراً قد كبُر على نفسه، إذ ليس من شأن حامل رسالة ربانيّة أن يكون لنفسه دخلٌ في أمر الرسالة، فهو رسول الله، ومبلّغ عنه، فلا شأن لنفسه في الأمر. وقد كان رسول الله ﷺ كذلك، إلاّ أن تقصّي الاحتمالات يستدعي ذكر الحالات النفسيّة التي قد يتعرض لها الإنسان بوجه عامّ، وإن كان الرسول مطهراً منها.

وفي التأديب بهذه الوسائل قال الله في سورة (الأنعام ٦):

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

فبيّن الله لرسوله أنّه عليم بما يقول المشركون في تكذيبه، وأنه يحزنه كلما سمع منهم تكذيباً له أو رأى منهم إعراضاً عنه.

وإذْ كان حزن الرسول مدفوعاً بدافع حرصه صلوات الله عليه على هدايتهم وسعادتهم، ورغبته بأن ينجح في رسالته التي اصطفاه الله لها، وتألّمه من أن يتّهم بالكذب وهو الصادق الأمين، كان لا بد من معالجة حالته النفسية هذه بالتربية الملائمة، وبمختلف الوسائل المؤثرة.

١ ــ أما الإقناع فقد اشتمل النص هنا منه على بيان حقيقتين:

الحقيقة الأولى: أن المشركين رفضوا ما جاء به الرسول جحوداً بآيات الله التي تشتمل على براهين أنها من عند الله حقاً، وهم في قرارة أنفسهم يعلمون صدق الرسول فيما يبلّغ عن ربّه. وجحود العارف بصدق الخبر ليس من شأنه أن يحزن المخبر من جهة أنه صعب عليه أن يُتَّهم بالكذب، فاتهامهم له بالكذب قولٌ بأفواههم لم تعتقده قلوبهم، فاحترامهم وتقديرهم لصدقه وأمانته ما نقص منه شيء في قرارة نفوسهم، بل قد زاد بالنبوّة، لكنّهم جحدوا بآيات الله البيّنات المشتملة على براهين صدق الرسول.

والجاحد هو المنكر بلسانه لهوىً في نفسه مع علمه بأن ما أنكره حقٌ، وهو بخلاف المكذّب الذي يعتقد ما يقول، فهو بحاجة إلى مزيد من الآيات حتى يقتنع بصدق الخبر، فيؤمن به ولا يظنّه كذباً.

والإقناع بهذه الحقيقة هو ما اشتمل عليه قول الله تعالى في النص: ﴿قد نعلم إنه ليحزنُك الذي يقولون. فإنّهم لا يكذّبونك ولكنّ الظالمين بآيات الله يجحدون﴾.

وروى الترمذي عن علي، أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنّا لا نكذّبك ولكن نكذّب بما جئت به، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾.

الحقيقة الثانية: أن رسالة الرسول رسالة تبليغ وليست رسالة تحويل أو إكراه للناس على الإيمان، نظراً إلى أن الغاية الأساسية من الخلق الامتحان، والامتحان الصحيح يستلزم أن تكون إراداتُ من يُمتحَنون حُرَّةً تختار بكامل حريتها طريق سعادتها أو طريق شقاوتها، فلا تُكْرَه من قبل المؤمنين على الإيمان، ولا تُكْرَه من قبل الطغاة أو البيئة الفاسدة على الكفر.

ولو كان الغرض التحويل لفعله الله بنفسه خَلْقاً بقضائه وقدره وأمره التكويني، فهو وحده القادر على ذلك، ولو شاء لفعله، ولسلب الناس إراداتهم الحرّة، ولجعلهم مجبورين، ولجمعهم عندئذٍ على الهدى بأمره التكويني: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن، فيكون﴾ لكن هذا ينافي الغاية الأساسية من الخلق، وعندئذٍ فلا معنى للامتحان.

والإقناع بهذه الحقيقة قد اشتمل عليه قول الله تعالى في النص: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونَنّ من الجاهلين﴾ أي لو شاء تحويلهم إلى الهدى عن غير طريق إراداتهم الحرة واختيارهم الحرّ، لسلبهم إراداتهم واختيارهم، ولجعلهم مجبورين، ولجمعهم عندئذٍ على الهدى. ولكن كلمة الله نافذة في ابتلائهم ﴿ولا مبدّل لكلمات الله﴾.

٢ ـ وأما التربية بالقدوة الحسنة فقد جاءت في بيان حالة الرسل الكثيرين السابقين الذين كذّبتهم أممهم وآذتهم، فصبروا على ما كُذّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله، وبعض أنباء هؤلاء المرسلين قد نزلت فيها نصوص قبل هذا النص من سورة الأنعام.

وفي التربية بهذه الوسيلة قال الله تعالى له في النص:

﴿ولقد كُذّبت رسُلٌ من قبلك فصبروا على ما كُذّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا * ولا مبدّل لكلمات الله * ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾.

٣ ــ أما التربية بالتهديد بالتخلي عنه وهي قائمة ــ كما سبق بيانه ــ على افتراض أمر غير واقع استدعى ذكْرَه تقصِّي الاحتمالات، وهذا الأمر هو أن يكون قد كبُرَ على نفس الرسول إعراض المعرضين عنه، فهو يحزن من أجل أن الأمر قد كبُر على نفسه، ومع الإشارة بأن خلق الرسول العظيم يأبى وجود هذا الاحتمال، إذ جاء بعبارة التشكيك التي تشعر بعدم وجود الأمر في الواقع، وهي: ﴿وإن كان كبُر عليك إعراضهم﴾؛ كان لا بد من توجيه التربية التي تثبت نفس الرسول على خلقه، وتعلم كل داع إلى الله من بعده ما يجب أن يتحلى به من خلُق، فقال الله تعالى له: ﴿وإن كان كبُر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلّماً في السماء فتأتيهم بآية﴾ أي بآية خارقة تجعلهم يتبعونك ولا يعرضون عنك فافعل. ومعلوم أنه لن يستطيع أن يتخذ نفقاً في الأرض ولا سلّماً في السماء ليأتيهم بالخارقة التي تجعلهم يؤمنون إلا بتمكين الله له، فتوجيه مثل هذا القول فيه معنى التعجيز والتخلّي.

وهذه الشدّة في التربية حول أمر لم يحصل يقصد منها تربية الدعاة إلى الله ولو لم يكونوا رُسلاً، ويقصد منها التحذير من أي ميل نفسيٍّ لدى الرسول قد تشتمّ منه رائحة أي هوى من أهواء النفوس مهما قلّ، إلا ابتغاء مرضاة الله، والعمل بما وجّه له.

— ١٧ —

ويقولون : هو أذن ، قل : أُذُن خيرٍ لكم

وعلّم الله رسوله أدب ردّ الأقوال المؤذية التي تقال فيه، بصرفها عمّا يريد المؤذون إلى معانٍ صالحة لا أذى فيها.

وهذا من رفيع الأدب الذي يعبر عن كمالٍ خلقي أصيل في النفس، إذ لا يدفع السيئة بمثلها، بل يدفع السيئة بالتي هي أحسن.

فمن ذلك مقالة المنافقين فيه: هو أذن، أي هو يتبع ما يقال له دون تحقيق ولا تمحيص ولا تفكير فيه، فيجوز عليه الكذب والخداع وما يقال له من كذب يصدّقه. فعلّمه الله الردّ المهذّب المليء بالأدب الرفيع، الخالي من الانفعال والتأثر الغضبي، فقال له: قل: أذن خير لكم، أي لا أذن شرّ. أي: نعم هو يسمع من الناس أقوالهم بإقبال وسماحة نفس وحسن إصغاء لمن يحدثه، وهذا من أدبه وكمال خلقه، ولكنه لا يكون منه بعد ذلك إلا الخير، فمن كذب عليه ليوقع بإنسان سوءاً، أو ليدفعه إلى تصرف فيه شر أو ضرٌّ أو أذى، لم يتأثر به ولو استمع له، لأنه لا يعمل شيئاً من ذلك إلا وهو على بينة من أمره، فإن جاءه فاسق بنبأ لم يأخذ به حتى يتبينّ، وإن كذب عليه منافق معتذراً عما كان منه من تخلف عن واجب قبل منه ظاهرهُ وهو يعلم أنه كاذب، لأن الله تعالى أمره أن يعامل المنافقين بحسب ظاهرهم، وأن يَكِلَ سرائرهم إلى بارئهم، حتى يكشفوا صفحة نفوسهم، ويظهروا ما يكنّون بأقوالهم أو بأعمالهم.

وإذ كان الرسول ﷺ كذلك فهو أُذُنُ خيرٍ لا أذن شر، مستمعٌ مهذّب لجليسه ومحدثه ذو خُلق عظيم، وعاقل حازم بصير بأمره ذو تصرف حكيم.

وفي ذلك قال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾.

أي ومن المنافقين فريق يؤذون النبـي ويقولون عنه: هو أذن يسمع ما يقال له فيجوز عليه الكذب والخداع.

قل يا محمد: هو أذن خير لكم، لا أذن شر، يؤمن بالله فيتقيد بما أمره الله به، ومن ذلك معاملة المنافقين على حسب ظاهرهم، وإن كان يعلم أنهم منافقون، فالوحي قد كان يكشف له المنافقين بأسمائهم وأعيانهم، وهو أيضاً يؤمن للمؤمنين فيصدقهم لأنهم مؤمنون لا يكذبون، ولكنه لا يؤمن للمنافقين ولا للفاسقين. وهو رحمة للذين آمنوا، لأنهم هم الذين حملوا أوعيتهم واغترفوا من بحره، أما المنافقون الذين يؤذون رسول الله فلهم عذاب أليم.

* * *

الفصل الثاني

طائفة مما جاء في السنة من بيان خلقه صلوات الله عليه

جاء في السنة وصف مستفيض لأخلاق الرسول ﷺ وشمائله، فمن أحصاها تمثّله من خلالها كأنه قد صاحبه في حياته، وقد استشهدت بطائفة حسنة منها في فصول هذا الكتاب، كلما دعت المناسبة إلى ذلك، وحضرني منها شيء.

وفيما يلي طائفة مشروحة منها، ربما وردت في غير هذا الموضع من هذا الكتاب على سبيل شواهد وأمثلة استدعتها المناسبة:

١ ـ روى البخاري ومسلم عن جابر، أنه غزا مع النبي ﷺ قِبَل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معهم، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه[١]، فنزل رسول الله ﷺ وتفرّق الناس يستظلّون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سَمُرة[٢]، فعلّق بها سيفه، ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي فقال:

«إنّ هذا اخترط[٣] عليّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلْتاً[٤]، قال: من يمنعك مني؟ قلت: الله، ثلاثاً» ولم يعاقبه وجلس ﷺ.

(١) القائلة: وقت الظهيرة. والعضاه: الشجر الذي له شوك.

(٢) تحت سمرة: أي تحت شجرة كبيرة من هذه الأشجار.

(٣) اخترط السيف: سلّه من غمده.

(٤) صلتاً: مجرّداً جاهزاً للضرب به.

وفي رواية قال جابر: كنّا مع رسول الله ﷺ بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ، فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ﷺ معلّق بالشجرة، فاخترطه فقال: تخافني؟ قال رسول الله ﷺ: «لا». فقال: فمن يمنعك مني؟ قال: «الله».

وجاء في رواية أخرى: فسقط السيف من يده، فأخذ رسول الله ﷺ السيف، فقال للأعرابي: «من يمنعك مني؟» فقال: كن خير آخذ. فقال: «تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟». قال: لا، ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله، فأتى الرجل أصحابه فقال لهم: جئتكم من عند خير الناس!!.

من قصة هذا الحديث تظهر لنا شجاعة الرسول النادرة، فقد استلّ الرجل السيف على الرسول ﷺ وهو نائم، وانتبه الرسول من نومه وفوجىء بمن يريد قتله والسيف مسلول في يده، ليس بينه وبين الهوي إلا عزمة الرجل، وقال له: هل تخافني؟

في هذه اللحظة المفاجئة الحرجة التي ينخلع منها في العادة قلب الشجاع البطل يقول الرسول ﷺ: «لا». عندئذ يعجب الرجل من هذه الشجاعة النادرة، فيقول للرسول: فمن يمنعك مني؟

أي إنّ هذا الثبات لا يصدر إلاّ من قلب مطمئن بأنه ممنوع لا يصيبه سوء.

وببرد اليقين بالله يقول الرسول ﷺ: «الله، الله، الله». أي فالله هو القادر على أن يمنعني، ولن يصيبني من المكروه إلا ما قدره علي وقضاه، وإيماناً مني بهذه الحقيقة لست أخافك، لأني أعلم أنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً لم يقضه الله عليّ.

ومن وصل إلى هذا اليقين بالله لم يخشَ من أحدٍ سواه، وملك من الشجاعة ما لا يملكه غيره، وهذا ما يظفر به المؤمنون، وعلى مقدار الإيمان ترتفع نسبة الطمأنينة بالله والشجاعة ضد المخيفات المادية مهما كان شأنها.

ومن قصة هذا الحديث يظهر لنا حلم الرسول ﷺ، وذلك أنه لما سقط السيف من يد الرجل هيبة من شجاعة الرسول وأخذ الرسول السيف، لم يبادر صلوات الله عليه إلى الانتقام منه، ولكنه اكتفى أن يقول له: «من يمنعك مني؟» وهذا من حلمه وسعة صدره صلوات الله عليه.

فيقول الرجل: كن خير آخذ. فيظهر هنا خلق العفو في الرسول ﷺ.

ولا يغفل الرسول ﷺ في هذه اللحظة الحرجة عن القيام بواجب الدعوة إلى الله، واستغلال الموقف لصالح الرسالة التي يحملها من ربه، فيقول للرجل: «تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟».

ولكن الهداية لم تدخل قلب الرجل، فيقول: لا. ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك.

ويعفو الرسول عن الرجل عند المقدرة على الانتقام منه، ويخلي سبيله، بعد أن يدعو أصحابه ويشهدهم على ما جرى بينه وبين الرجل، ليعطيهم درساً عملياً في فضائل الأخلاق لا ينسونه أبداً، يتعلّمون فيه الشجاعة، والحلم، والعفو عند المقدرة.

ولقد ربح الرسول ﷺ لربّه ولنفسه بهذه الأخلاق أكثر بكثير ممّا لو أسرع فانتقم من الرجل فقتله فشفى بقتله نفسه، وقد كان من حقه أن يفعل ذلك لأن خصمه صائل قاتل، ولكنه لم يفعل استجابة لنداء الفضيلة السامية، وبصراً بمواقع الحكمة الرفيعة وعملاً بمقتضاها.

وظهر هذا الربح حينما ذهب الرجل إلى قومه فقال لهم: لقد جئتكم من عند خير الناس، وقص عليهم قصته مع رسول الله ﷺ، وغرس بذلك في قلوبهم محبّته وتعظيمه، ولا غرو أن يكون ذلك مقدمة لانفتاح قلوبهم إلى تصديقه في دعوته، وإيمانهم برسالته، ثم دخولهم ضمن جنده الحاملين لواء الإسلام، والداعين بدعوة الحقّ.

وهذا هو شأن مكارم الأخلاق، إنها تحقق لصاحبها من الربح ما لا يمكن أن يتحقق بشيء آخر، لا من جهة الكمّ ولا من جهة الكيف ولا من جهة النوع.

إنّ إنساناً لا يمكن أن يظفر بمكانة رفيعة لمجد حقيقي عظيم، ما لم يكن لديه رصيد أخلاقي كريم، وعلى مقدار رصيده الأخلاقي يرتقي في مرتبة المجد الحقيقي، أما الأمجاد المزيفة فقد تأتي بها القوة، وقد يأتي بها المال، أو شيء آخر نحو ذلك، إلاّ أنها أمجادٌ أساسها في قلوب الناس النفاق والرياء والخوف والطمع.

٢ ــ وروى البخاري عن عقبة بن الحارث قال: صليت وراء النبي ﷺ بالمدينة العصر، فسلّم ثم قام مسرعاً، فتخطى رقاب الناس إلى بعض حُجَر نسائه، ففزع الناس من سرعته، فخرج عليهم فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته، قال:

«ذكرت شيئاً من تبرٍ عندنا فكرهت أن يَحْبِسَني فأمرت بقسمته».

وفي رواية للبخاري أيضاً:

«كنت خلّفت في البيت تبراً من الصّدَقة فكرهت أن أُبَيّته».

التبر: قطع ذهب أو فضّة.

من قصة هذا الحديث تظهر لنا أمانة الرسول العظيمة، فمن شدّة حرصه ﷺ على تأدية الأمانة إلى أهلها كره أن يبيّتها عنده ليلةً واحدة، فأسرع هذا الإسراع، لأن التبر الذي كان عنده من أموال الصدقة.

وكشف الرسول ﷺ الأمر الذي دعاه إلى أن يخرج عقب صلاة العصر مسرعاً على الوجه الذي خرج عليه، ليعلّم أصحابه والناس من بعده كيف يكون الحرص على تأدية الأمانة إلى أهلها، لا سيما الأموال العامة التي ليس لها مالك معينٌ، وإنما يستحقها ذوو أوصاف معينة.

وكان خلق الجود وحب العطاء محرضاً مضافاً إلى خلق الأمانة، إذ كثير من الناس الذين يتولون إدارة أموال عامة قد يكونون أمناء عليها، ولكنّهم لا يتمتعون في أنفسهم بخلق حب العطاء، فتكز نفوسهم عن دفع الأموال إلى مستحقيها، كأنهم يدفعونها صدقة مما يملكون، ولو التقى فيهم خلق حب العطاء

إلى خلق الأمانة لأسرعوا إلى بذل الأموال إلى مستحقيها، وفق المصلحة، ولم تقف عقبة الشحّ في نفوسهم دون ذلك.

ويظهر لنا في هذا الحديث من أخلاق الرسول ﷺ عزمه وحزمه وجده في الأمور وهمته ومبادرته إلى فعل الخير دون تردد.

٣ ــ وروى البخاري ومسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً».

أي ما يسدّ حاجة العيش فقط، فكانت تمرّ الأشهر وما يوقد في أبيات رسول الله ﷺ نارٌ على طعام، روى البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير عن عائشة أنّها كانت تقول لعُروة: والله يا ابن اختي إن كنّا لننظُر إلى الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلّةٍ في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار.

قال الزبير: قلت: يا خالة، فما كان يعيّشكم؟

قالت: الأسودان، التمر والماء. إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، وكانت لهم منائح، فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا.

المنائح: جمع منيحة، وهي حلوبٌ من النَّعم، شاةٌ، أو عنز، أو بقرة، أو نحو ذلك، تخصص لإهداء لبنها أو التصدّق به، أو تعار لهذه الغاية وتبقى ملكيتها لأصحابها.

نعم لقد آثر الرسول ﷺ الآخرة على الدنيا، مع أنه ربما أعطى من النعم ما يملأ وادياً بين جبلين.

ومما ورد في إيثار الرسول ﷺ شظف العيش وخشونته، ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة قالت: ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض.

وفي رواية عنها: ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام البرّ ثلاث ليالٍ تباعاً حتى قبض.

وعن عبدالله بن مسعود قال: اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثّر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه، وقلت: يا رسول الله ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً؟! فقال رسول الله ﷺ : «ما لي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها». أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى مسلم عن النعمان بن بشير قال: لقد رأيت نبيّكم ﷺ وما يجد من الدَّقَل ما يملأ به بطنه.

الدَّقَل: رديء التمر.

٤ ــ وروى البخاري عن سهل بن سعد، أنّ امرأة جاءت إلى النبي ﷺ ببردة منسوجة[١]، فقالت: نسجتها بيدي لأكسوكَها، فأخذها النبي ﷺ محتاجاً إليها، فخرج إلينا وإنها إزاره، فقال فلان: اكسُنيها، ما أحسنها! فقال: «نعم». فجلس النبي ﷺ في المجلس، ثم رجع فطواها، ثم أرسل بها إليه، فقال له القوم: ما أحسنت، لبسها النبي ﷺ محتاجاً إليها، ثم سألته وعلمت أنه لا يردّ سائلاً. فقال: إني والله ما سألته لألبسها، إنما سألته لتكون كفني. قال سهلٌ: فكانت كفنه.

ففي قصة هذا الحديث يظهر لنا من أخلاق الرسول ﷺ خلق الإيثار، والإيثار قمة في الجود وحب العطاء.

ويظهر لنا أيضاً حلم الرسول وأناته، ورفقه وتلطفه في إجابة طلب السائل.

٥ ــ وروى البخاري ومسلم عن أنس قال: ما مسست ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله ﷺ ، ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ ، ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي قط أفٍّ، ولا قال لشيءٍ فعلته: لِـمَ فعلته؟ ولا لشيءٍ لم أفعله: ألا فعلت كذا؟

---

(١) ببردة منسوجة: أي بكساء موشى له هُدب.

وهذا يدل على جملة عظيمة من أخلاق الرسول ﷺ، منها حلمه، وعفوه، وتسامحه، وإغضاؤه عن التقصيرات، وحسن معاشرته للناس جميعاً حتى خادمه الملازم له.

٦ ــ وروى مسلم عن عائشة قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قطُّ بيده، ولا امرأة ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيلَ منه شيءٌ قطُّ فينتقمَ من صاحبه، إلا أن يُنْتَهك شيءٌ من محارم الله فينتقم لله عز وجل.

الانتهاك في اللغة: المبالغة في انتقاص الشيء والأخذ منه، حتى لا يبقى منه إلا القليل، أو حتى يستأصل.

وانتهاك حرمات الله يكون بالمبالغة في تجاوز حدودها، وذلك يكون بارتكاب ما حرمه الله.

فدل هذا الحديث على حلم الرسول ﷺ وعفوه، وتسامحه، وحسن معاشرته، وكمال خلقه.

٧ ــ وروى مسلم عن عائشة قالت: ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين أحدهما أيسر من الآخر إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه.

وهذا يدل على تسامح الرسول ﷺ وعدم تشدده في الأمور، فهو يحب التيسير ولا يحب التعسير، ويحب التخفيف والتلطف، ولا يحب التعقيد ولا التشدد، وهذا من سماحة نفسه؛ ما لم يكن في الأمر إثم، فهو عندئذ يلتزم حدود الله، ويقف عندها، ويستمسك بما توجبه أوامر الله ونواهيه.

ولا بد من ملاحظة الفرق بين الاستمساك بأحكام الدين، وبين التشدد المصحوب بالغلو في الدين، فهذا التشدد منهي عنه، وكثير من الناس يخطئون فيخلطون بين الاستمساك بالحق، وبين التعصب أو التشدد في الدين بغير حق، ويسقط في هذا فريقان:

فريق يتعصب ويتشدد بغير حق، ويجعل هذا تمسكاً بالدين وورعاً محموداً.

وفريق يشنع على المتمسكين بدينهم ضمن أحكام شريعة الله وضمن حدوده، ويسمي تمسكهم هذا تعصباً.

وكلا الفريقين خارجان عن صراط الحق وسنّة رسول الله ﷺ وما أثر من أخلاقه.

وبعض الناس متهاون بدينه، متشدد في توافه أموره الخاصة، أو في الأمور النظامية والشكليات، فإذا عامل الناس عاملهم بالتشدد، وإذا عاشرهم عاشرهم بالتشدد، وحاسبهم على كل صغيرة وكبيرة، وأراد تحميلهم أثقل الأعمال وأصعبها، مع أن عملاً هيناً آخر قد يقوم مقامها.

وبعض الموظفين الإداريين لا يروق لهم التكليف بأي عمل هين سهل، مهما كان محققاً للغاية المنشودة، ولكنهم يلجأون دائماً إلى التكليف بأعقد الأعمال المضنية وأشدها، لا رغبة بجودة العمل وإتقانه، ولكن رغبة بالتشديد والتعقيد. فإذا راقبته في أمور دينه وربه رأيته من أكثر الناس استهانة بها، وبعداً عن الالتزام بأي واجب، ثم هو مع ذلك يصم المتمسكين بدينهم بأنهم متشددون متعصبون معقدون.

وفي مقابل هذا الفريق نجد فريقاً آخر متشدداً في بعض الفروع الاجتهادية، أكثر من أصول الدين نفسه، فهو يغلو في دين الله غير الحق، ويحمل الناس من أمر دينهم عُسْراً وشدة، على خلاف ما جاء في دين الله من يسر وسهولة وفسحة، وعلى خلاف ما كان عليه رسول الله ﷺ. وهذا الفريق من الناس ينفر من الدين ولا يحبب به، وقد نجد بعض أفرادٍ من هذا الفريق المتشدد القاسي في بعض الفروع الاجتهادية متساهلاً مستهيناً بأمور أخرى من أمور الدين الأساسية الجوهرية، وذلك حينما يمتحن بما يعارض مصلحته منها.

وواجب الدعاة المخلصين الذين فتح الله بصيرتهم، أن يشدوا هذين الفريقين المتباعدين إلى منهج الوسط، حتى يكونوا على صراط الإسلام الحق، وعلى أخلاق الإسلام القويمة التي ليس فيها إفراط وتفريط.

٨ ــ وروى مسلم عن أنس بن مالك: أن النبي ﷺ أتى على أزواجه

وسوّاق يسوق بهن ـ أي في سفر ـ يقال له: أنْجَشة، فقال: «ويْحك يا أنجشةُ، رويداً سَوْقَك بالقوارير».

وفي رواية قال أنس: كان لرسول الله ﷺ حادٍ حسنُ الصوت، فقال له رسول الله ﷺ: «رويداً يا أنجشةُ لا تكسر القوارير» يعني ضعفةَ النساء.

فدل هذا الحديث على رقة نفس الرسول ﷺ، ولطف روحه، وتوقد مشاعره، وحنوه على ذوات الضعف، ورقة حاشيته، ومن بديع بلاغته أنه وصف النساء بالقوارير، فأوصى بهن حتى لا يزعجهن العنف في السير.

٩ ـ وروى البخاري ومسلم عن الصعب بن جُثَامة، أنه صاد حمار وحش، فجاء به هدية إلى الرسول ﷺ وكان الرسول محرماً، فلم يقبل هديته، فظن الرجل أن الرسول رد هديته لشيء في نفسه، فتغير وجهه، ففطن الرسول له فقال: «إنّا لم نرده عليك إلا أنّا حُرُم» أي محرمون، والمحرم بحج أو عمرة ليس له أن يصيد ولا أن يقبل هدية صيد.

فمسح الرسول ﷺ ببيانه السريع ما علق في نفس الرجل.

وهذا الحديث يدل على رقة مشاعر الرسول ﷺ، وكمال لطفه، وإحساسه السريع بما تختلج به نفس من يجالسه أو يعامله أو يعاشره.

١٠ ـ وروى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بردٌ(١) نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذةً شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثّرتْ بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك ثم أمرَ بعطاء!!.

فدلّت قصة هذا الحديث على حلم الرسول ﷺ وعفوه وتسامحه، وجوده، وحُسن تربيته للناس بكمال خلقه، وقوة إرادته في ضبط نفسه.

---

(١) البرد نوع خاص من الثياب.

وكم في ضحكة الرسول ﷺ في وجه الأعرابي الجاهل من معنى يفهمه أهل الذوق الرفيع . . .

١١ ــ وروى البخاري ومسلم عن عائشة: أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: من يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حِب رسول الله ﷺ؟ فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: «أتشفع في حدٍّ من حدود الله تعالى؟!» ثم قام فاختطب ثم قال: «إنما هلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

فرسول الله ﷺ رفيق متسامح في أموره الخاصة، إلا أنه في حدود الله يشتد غضبه مع المؤمنين، لأن هذا هو الحكمة بالنسبة إليهم، أما بالنسبة إلى غيرهم فقد تقضي الحكمة بالدعوة إلى الله بالأسلوب اللين لا بالأسلوب الشديد العنيف.

إنه ﷺ يعطي كل موقف ما يلائمه من الحكمة، وهذا من كمال خلقه في ضبط نفسه.

١٢ ــ وروى البيهقي في شعب الإيمان عن أنس قال: خدمت رسول الله ﷺ وأنا ابن ثمان سنين، خدمته عشر سنين، فما لامني على شيء قط أُتي فيه على يدي، فإن لامني لائم من أهله قال: «دعوه فإنه لو قضي شيء كان».

أتي فيه على يدي: أي أتلف أو كسر أو حصل فيه شيء يكره.

لو قضي شيء كان: أي لو قضيت السلامة لحصلت.

١٣ ــ وروى مسلم عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً، فأرسلني يوماً لحاجة، فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به رسول الله ﷺ، فخرجت حتى أمر على صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي، قال: فنظرت إليه

وهو يضحك، فقال: «يا أنيس ذهبت حيث أمرتك؟» قلت: نعم، أنا أذهب يا رسول الله.

١٤ ــ وروى البخاري ومسلم عن جابر قال: ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا.

وهذا من جوده وسماحة نفسه ﷺ.

١٥ ــ وروى البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان، وكان جبريل يلقاه كل ليلة في رمضان، يعرض عليه النبي ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة.

١٦ ــ وروى مسلم عن أنس، أن رجلاً سأل النبي ﷺ غنماً بين جبلين، فأعطاه إياه، فأتى قومه فقال: أي قوم أسلموا، فوالله إن محمداً ليعطي عطاءً ما يخاف الفقر.

١٧ ــ وروى البخاري عن جبير بن مطعم: بينما هو يسير مع رسول الله ﷺ مَقْفَله من حنين، فعلقت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى سمُرَة فخطفت رداءه، فوقف النبي ﷺ فقال: «أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضاه نَعَمٌ لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً».

سمَرُة: أي شجرة من شجر الطلح.
العضاه: الشجر الذي له شوك.

١٨ ــ وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، لو شئت لسارت معي جبال الذهب، جاءني ملك وإن حجزته لتساوي الكعبة، فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول: إن شئت نبياً عبداً، وإن شئت نبياً مَلِكاً، فنظرت إلى جبريل عليه السلام فأشار إليّ أن ضعْ نفسك».

وفي رواية ابن عباس: فالتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل كالمستشير له، فأشار جبريل بيده أن تواضع، فقلت: «نبيّاً عبداً».

قالت عائشة: فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئاً؛ يقول: «آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد».

(عن مشكاة المصابيح قال: رواه في شرح السنة)

١٩ ــ وروى البخاري عن أنس قال: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا لعاناً ولا سبّاباً، كان يقول عند المعتبة: «مالَهُ تَرِب جبينُه؟».

تَرِب جبينه: أي لَصِق جبينه بالتراب.

٢٠ ــ وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ادعُ على المشركين. قال: «إنّي لم أبعثْ لعّاناً، وإنما بعثت رحمة».

٢١ ــ وروى البخاري عن عائشة قالت: ما رأيت النبي ﷺ مستجمعاً قط ضاحكاً حتى أرى منه لهواته، وإنما كان يتبسم.

مستجمعاً ضاحكاً: أي متجهاً بكل فمه للضحك، فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل ذلك، إنما كان ضحكه التبسم.

٢٢ ــ وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: إنَّ رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم؛ كان يحدث حديثاً لو عدّه العادّ لأحصاه.

٢٣ ــ وروى الترمذي عن عائشة قالت: ما كان رسول الله ﷺ يسرد سردكم هذا، ولكنه كان يتكلم بكلام يبيّنه، فصل، يحفظه من جلس إليه.

٢٤ ــ وروى أبو داود عن جابر قال: كان في كلام رسول الله ﷺ ترتيل وترسيل.

٢٥ ــ وعن جابر بن سمرة قال: كان رسول الله ﷺ طويل الصمت.

(عن مشكاة المصابيح قال: رواه في شرح السنّة)

٢٦ ــ وروى مسلم عن أنس، أن رسول الله ﷺ كُسرت رَبَاعيته يوم أحد، وشُجّ في رأسه، فجعلَ يسْلُتُ الدّم عنه ويقول: «كيف يفلح قوم شجّوا رأس نبيّهم وكسروا رباعيته؟».

٢٧ ــ وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال

رسول الله ﷺ: «اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبيّه» يشير إلى رباعيته «اشتدّ غضب الله على رجل يقتله رسول الله في سبيل الله».

٢٨ ــ وروى البخاري ومسلم عن عائشة، أنها قالت: يا رسول الله، هل أتى عليك يومٌ كان أشدّ من يوم أحد فقال:

«لقد لقيتُ من قومِكِ، فكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضْتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن كُلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقتُ وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك وما ردّوا عليك وقد بعث إليك مَلَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم».

قال: «فناداني مَلَك الجبال، فسلم عليّ ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربّك إليك لتأمرني بأمرك، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين». فقال رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً».

أن أطبق عليهم الأخشبين: أي الجبلين في مكة.

٢٩ ــ وروى مسلم عن أنس قال: ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر. وإن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يلبث إلا يسيراً حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما فيها.

٣٠ ــ وروى مسلم عن عمر قال: قسم رسول الله ﷺ قسماً، فقلت: يا رسول الله، لَغير هؤلاء كانوا أحق به منهم! قال: «إنهم خيروني بين أن يسألوني بالفحش فأعطيهم، أو يبخلوني، ولست بباخل».

فمن أغراض بذل الرسول ﷺ أغراض تربوية، وأغراض يقصد فيها تأليف قلوب الناس على الإسلام. فمن حديث أنس نلاحظ أن الرسول ﷺ كان يتخذ العطاء الكثير وسيلة لجلب قلوب الناس إلى الإسلام، وحينما كان

أحد هؤلاء يدخل في الإسلام بهذه الوسيلة لا يلبث يسيراً حتى يتعلق قلبه بالإسلام تعلقاً صادقاً، وعندئذ تهون الدنيا في نفسه، فينظر إلى الوسيلة التي كانت قد جلبته نظر العاقل البصير، فلا يراها إلا كما يرى راكب العربة عربته بعد أن توصله إلى قصر عظيم لا تعادل العربة بالنسبة إليه إلا شيئاً قليلاً حقيراً.

وقياساً على هذا العمل النبوي نرى أن من المستحسن في وسائل التربية وطرق الدعوة إلى الله، أن نجلب الشباب إلى الخير برياضة يحبونها، أو رحلة يُسرّون بها، أو دعوة كريمة إلى طعام أو شراب، أو هدية محبوبة، أو طرفة مسلية، أو نحو ذلك مما تميل إليه النفوس من مباحات.

وقد تغدو مثل هذه الوسائل من واجبات الداعي والمربي المسلم، لا سيما حينما يتخذها الأعداء وسائل للصد عن الإسلام، ولجلب الشباب واستدراجهم إلى مواقع الشر. فمن الملاحظ أن دعاة الشر والفساد لا يتركون وسيلة من الوسائل التي تميل إليها النفوس إلا ويستخدمونها لجلب الشباب واستدراجهم إلى الشر، وهم يمهدون لها كل الطرق، ويبعدون عنها كل العقبات، حتى تكون مصايد يصيدون بها ذوي النفوس الضعيفة، إنهم يستخدمون المال، والشهوات، ومطامع الجاه والمنصب، وملذات العين والسمع وغيرهما من الحواس، والرياضات والرحلات والأغاني والأفلام والمجلات والقصص وغير ذلك مما يصعب إحصاؤه.

وباستطاعة الداعي والمربي المسلم أن يستخدم من هذه الوسائل ما كان منها مباحاً لا يتعارض مع الإسلام، ولما كان بذل المال أقوى وسيلة من الوسائل التي كانت تجلب الناس في عصر الرسول ﷺ فقد اعتمد عليه الرسول في وقائع كثيرة من أساليبه التربوية العملية.

وقد أعطى الرسول ﷺ بعض الناس مع أن غيرهم أحق بالعطاء منهم كما جاء في حديث عمر، خوفاً عليهم من أن تسوء حال نفوسهم أمام ثورة المطامع التي التهبت نيرانها فيهم.

□ □ □

الباب الرابع

جوامع مفردات الأخلاق وكلّيّاتها الكُبرى

وفيه عشرة فصول

مقدّمة

باستطاعتنا أن نرجع مفردات الأخلاق إلى أصول أو كليات عامة، وأن نعتبر الطائفة العظمى منها فروعاً لهذه الأصول أو الكليات، وربما ترجع بعض مفردات الأخلاق إلى أكثر من أصل من هذه الأصول، أو كلية من هذه الكليات.

ولدى سَبْر مفردات الأخلاق في استقراء لا ندعي له التمام والكمال، وبعد إجراء تصنيف لها، انكشفت لنا الأصول أو الكليات التالية:

الأصل الأول : حبّ الحق وإيثاره وظواهره السلوكية.

الأصل الثاني : الرحمة وفروعها وظواهرها السلوكية.

الأصل الثالث : المحبة وظواهرها السلوكية.

الأصل الرابع : الدافع الجماعي وفروعه وظواهره السلوكية.

الأصل الخامس : قوّة الإرادة وظواهرها السلوكية.

الأصل السادس : الصبر وفروعه وظواهره السلوكية.

الأصل السابع : حبّ العطاء وفروعه وظواهره السلوكية.

الأصل الثامن : علوّ الهمة وفروعه وظواهره السلوكية.

الأصل التاسع : سماحة النفس وفروعها وظواهرها السلوكية.

ولهذه الأصول التي ترجع إليها مفردات مكارم الأخلاق أضداد ترجع إليها مفردات الرذائل والنقائض الخلقية. وبحث هذه الأصول الكلية بشكل

تفصيلي يستدعي عقد فصلٍ لكل واحد منها، فعقدت في هذا الباب الرابع تسعة فصول، لبحث هذه الأصول، وبيان الفروع والظواهر السلوكية التي ترجع إليها، وقد بذلت ما تيسر لي من جهد لجمع مفردات الأخلاق البسيطة والمركبة، وحاولت ربطها بأصولها وكلياتها العامة بحسب ما ظهر لي. وقد يخالفني في الربط والتصنيف مخالف، ولا ضير في ذلك، فالموضوع يحتمل اختلاف وجهات النظر، لتداخل فروع الأخلاق وأصولها، وتشابك بعضها ببعض، وتفاوت مستويات النظر إليها سطحية وعمقاً، والله الموفق والمسدّد، وهو المعلم والملهم.

* * *

الفصل الأول

حُبّ الحَقّ وَإيثارُه وَظواهِرُه السُّلوكيّة وَأضْدَادُ ذٰلِك

— ١ —

ظهر لي بالتأمل التحليلي أنّ من الأصول الخلقية وكلّياتها العامة حبّ الحقّ وإيثاره، وأنّ لهذا الأصل فروعاً أخلاقية متعدّدة، منها الصدق، ومنها العدل، ومنها الوفاء بالعهد والوعد، ومنها الأمانة إلى غير ذلك.

والانحراف عن هذا الأصل الخلقي العام يفضي إلى السقوط في رذائل خلقية متعدّدة، منها الكذب، ومنها الظلم، ومنها الغدر، ومنها الخيانة، ومنها قسوة القلب عن قبول دعوة الحق، إلى غير ذلك.

ولهذا الانحراف أسباب كثيرة، ترجع معظمها إلى الأنانية الذاتية المفرطة، وغلبة الأهواء والشهوات، ويرجع بعضها إلى خبث النفس وكراهيتها للآخرين، ونزغاتها الشيطانية الشريرة.

وباستطاعتنا أن نجد الإشارة إلى هذا الأصل الخلقي العام في طائفة من النصوص الإسلامية.

يقول الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾.

فدلّ هذا النص على أن الله قد حبّب إلى قلوب المؤمنين الإيمان، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ومعلوم أن الإيمان هو التصديق بأجل الحقائق الكبرى، فحبّ الإيمان أوّل ظاهرة جليلة الخطر من ظواهر حبّ الحق، إذ الأركان الذي يجب الإيمان بها في الإسلام هي من الحق، وحبّ الإيمان بها حبّ للحق وإيثار له على الباطل. وحبّ الحق يستلزم كراهية الباطل وما يتصل به، وإن تعلّقت به أهواء النفوس وشهواتها، ولمّا كان الكفر والفسوق والعصيان من الباطل، كان من الطبيعي أن تكرهه قلوب المؤمنين الذين أحبّوا الحقّ وآثروه.

ولمّا أحب المؤمنون الحق وآثروه على أهوائهم وشهواتهم آمنوا بالإسلام واتبعوا الهدى.

أمّا الكافرون فقد كرهوا الحقّ الذي يخالف أهواءهم وشهواتهم، فكفروا بالإسلام واتبعوا الشياطين، واتخذوا أهواءهم وشهواتهم آلهة لهم من دون الله، وإذ كرهوا الحقّ كرهوا الداعين إليه والناصحين به، وكان من الطبيعي فيهم أن يحبوا الباطل الموافق لأهوائهم وشهواتهم، ويؤثروا العمى على الهدى، قال الله تعالى يصف ثمود في سورة (فصلت ٤١):

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

فهؤلاء ثمود قد استحبوا العمى وهو الكفر على الهدى وهو الإيمان، ومعلوم أنّ الكفر التزام بالباطل، والهدى استمساك بالحقّ.

ولما كره الكافرون الحق وأحبوا الباطل كرهوا الدعاة إلى الحقّ والناصحين به، ولذلك خاطب صالح عليه السلام قومه ثمود بقوله: «ولكن لا تحبون الناصحين».

هذا ما قصه الله علينا حكاية لقول صالح بقوله في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٧٩ ﴾.

وكرهوا أيضاً ظهور الحقّ وانتشاره، وكرهوا إحقاق الحق وإبطال الباطل، قال الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨ ﴾.

فهؤلاء المجرمون يكرهون إحقاق الحقّ وإبطال الباطل، لأنّ ذلك يضر بمنافعهم وامتيازاتهم وزعاماتهم القائمة على الباطل، فهم يحبّون ظهور الباطل حرصاً عليها، ويكرهون ظهور الحقّ خوفاً من فواتها.

وقال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨٢ ﴾.

فالمجرمون في كل زمان يكرهون إحقان الحقّ، لأنه يخالف ما هم عليه من باطل.

ويكره الكافرون بالحقّ أن يمتدّ نوره ويعمّ، لأنهم يريدون أن تظلّ الجماهير الجاهلة مسخّرة لأهوائهم، خاضعة لزعاماتهم الباطلة، ومتى ظهر نور الحق وعمّ انتشاره تيقظت الجماهير المسخّرة لهم من غفلتها، وألقت عن ظهورها أوزار المتحكمين بهم، والمتسلّطين عليهم من المجرمين الكافرين بالحقّ، الظالمين لعباد الله، وفي شأنهم يقول الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٣٢ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣ ﴾.

ويقول سبحانه في سورة (الصف ٦٦):

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩ ﴾.

والمقصود بنور الله هنا نور المعرفة والعلم، ونور رسالة الحق التي أرسل الله رسوله بها، والكافرون يحاولون أن يطفئوا نور هذه الرسالة الحقة بأضاليلهم التي يقولونها بأفواههم، ليغشّوا بهذه الأقوال على عقول أتباعهم فلا يروا نور الحقّ المبين، ونور الله لا تطفئه أفواه المضلّين، ويأبى الله إلّا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

ولدى الإحصاء الإنساني نجد أنّ أكثر الناس يكرهون الحقّ، متى صادم أهواءهم وشهواتهم ومصالحهم ومنافعهم ولذاتهم الخاصة، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٦٩ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ۝٧٠ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ۝٧١ ﴾.

ويقول الله تعالى في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ۝٧٨ ﴾.

فأثبت الله في كلٍ من هذين النصين أنّ أكثر الناس للحقّ كارهون، وبين النصّ الأول منهما السبب في كراهيتهم للحق بقوله تعالى: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن﴾ فدل هذا على أن أهواء نفوسهم الجانحة عن سبيل الهدى هو السبب في كراهيتهم للحق، وحين تسيطر على الإنسان أهواؤه وشهواته تقع عواطفه تحت تأثير هذه السيطرة، فيتجه حبّه

وتتجه كراهيته وفق اتجاه أهوائه وشهواته، لا وفق منطق عقله ومشاعر وجدانه الفطرية الأصيلة السليمة.

وقد نلاحظ أنّ بعض المؤمنين الذين يحبّون الإيمان ويكرهون الكفر، قد يحبّون من دون الكفر أموراً من الباطل تشتهيها نفوسهم أو تميل إليها أهواؤهم، كما نلاحظ أن بعض غير المؤمنين الذين يحبّون الكفر ويكرهون الإيمان، قد يحبّون من دون الإيمان أموراً من الحقّ تميل إليها عواطفهم وفطرهم.

ونستطيع أن نسمّي هذا نزوعاً جزئياً إلى الباطل، وحباً جزئياً له في نفوس الذين يحبون الحقّ ويؤثرونه، ونزوعاً جزئياً إلى الحقّ، وحباً جزئياً له في عواطف الذين يحبون الباطل ويؤثرونه. ومعاصي المؤمنين قد يكون كثير منها ظواهر لهذا الحبّ الجزئي للباطل، بتأثير أهواء نفوسهم وشهواتهم، وفضائل غير المؤمنين قد يكون كثير منها ظواهر لهذا الحبّ الجزئي للحقّ، بتأثير جوانب من فطرهم السليمة، وعواطفهم الإنسانية الكريمة، ونجد الإشارة إلى هذا النزوع الجزئي في قول الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

مع أن بعض هؤلاء قد كانوا من المؤمنين، إلّا أنهم سقطوا في معصية إشاعة الاتهام الكاذب على أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حتى نزل القرآن ببراءتها وطهارتها.

فحبّ الحقّ وإيثاره خلق ينتج عنه فضائل عظيمة خلقية وسلوكية، وحبّ الباطل وإيثاره خلق ينتج عنه رذائل خلقية وسلوكية فاحشة، إذن فهو أصل من الأصول الأخلاقية العامة، وله فروع متعدّدة، فلنبحث في هذه الفروع بشكل تفصيلي.

ـ ٢ ـ
الاعتراف بالحق والإذعان له

من الظواهر التي ترجع إلى خلق حبّ الحق وإيثاره الاعتراف بالحق والإذعان له.

ومن البدهي أنّ من لا يعترف بالحق ولا يذعن له بعد ظهوره له واستبانته لأدلته، محرومٌ من جوهرة عظيمة أساسيّة ورئيسية من جواهر عقد الأخلاق، ومصاب بداء قسوة القلب عن قبول دعـوة الحق والاستجابـة لنداء الخـير والهداية(١).

فلو رأينا إنساناً اتهم بالجنون رجلاً عاقلاً ذكياً حصيفاً، فإننا بالبداهة نصف هذا المتهم الظالم بأنه محروم من خلق كريم، إذ جحد حقيقة واقعة يتصف بها الرجل الذكي العاقل الحصيف، وأثبت له خلافها ممّا ليس فيه، وشتمه بذلك.

فجحود الحق مع العلم بأنه حقّ انحراف خلقي قبيح، والعوامل النفسية الدافعة لهذا الجحود كثيرة، وكلها لا تعدو أن تكون من قبيل الأهواء الجانحة.

ولو أقرضنا إنساناً مبلغاً من المال فجحده وأنكره، فإننا نصفه بأنه آكل لأموال غيره بالباطل، منحرف في خلقه عن المكارم، ولو أنه أدى ما عليه إلاّ أنه جحد المعروف ولم يعترف به، فإننا نصفه أيضاً بأنه جاحد للحقّ، منحرف في خلقه عن المكارم، ناكر للجميل.

وكذلك الذي ينكر فضل ذوي الفضل، ويجحد علم أصحاب العلم، لا سيما إذا كان ذلك يفضي إلى الإضرار بمصالح ذوي الفضل والعلم، إنه لا يفعل شيئاً من ذلك إلاّ محروم من ركن أساسي من أركان الأخلاق الكريمة، وساقط في رذيلة كبرى من الرذائل الخلقية، هي رذيلة جحود الحق وعدم الاعتراف به والإذعان له.

---

(١) سيأتي إن شاء الله شرح قسوة القلب في المفاهيم الإسلامية، عند شرح خلق الرحمة والخلق المناقض لها.

وأكثر خسة وأعظم لؤماً وانحرافاً خلقياً من يجحد فضل أبويه عليه ولا يذعن له، ولا يقوم بما عليه من حقّ لهما.

وأقبح من ذلك من يجحد رسالة رسل الله، ولا يعترف بها، ولا يذعن لها، مع ظهور الأدلة ووضوح البراهين!! ولهذا الجنوح الخلقي الشنيع سمة خاصة عنوانها الكفر.

وأخسّ من ذلك وأشنع وأقبح إنكار وجود الله، وعدم الاعتراف بأنه الخالق الرازق المحيـي المميت، الذي يجازي على الخير خيراً وعلى الشر شرّاً، مع أنّ الله تبارك وتعالى قد بث أدلة وجوده وصفاته في كل ما خلق من شيء!! إنّ إنكار وجود الله وإنكار صفاته وعظيم نعمه لؤم وخسة وحقارة بالغة، وسوء خلقي بلغ الدرك الأسفل، لأنه جحود لكبرى حقائق الوجود، وجحود لنعم المنعم بالحياة والعقل والإرادة وسائر ما في الحياة من نعم وخيرات، وجحود للمنعم بالجزاء العظيم على الإيمان به والتزام طاعته. إنّ هذا الجحود يدلّ على انهيار خلقي شنيع.

لقد جاء موسى عليه السلام فرعون وقومه بالآيات البينات فجحدوا بها ظلماً واستعلاءً بغير حق، مع أن أنفسهم قد استيقنتها، فكان جحودهم بها بسبب انحراف خلقي ذميم لديهم، هو الظلم والاستعلاء بغير حق، قال الله تعالى في سورة (النمل ٢٧):

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

وبين الله أنه لا يجحد بآياته إلّا كلّ غدّار كفور، فقال تعالى في سورة (لقمان ٣١):

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

الختار: هو الغدار.

والجاحد المشار إليه في هذه الآية جاحد من نوع معين، إنّه حينما تعرّض للأزمات والشدائد دعا ربه وأخلص له الدين، وأعطى العهد على الطاعة والتزام الإيمان الصادق، فلما أنجاه الله رجع فأعلن جحوده بآيات الله، وهذا منتهى الغدر الخسيس، إنه مخلوق مراوغ أعطى عهد الإيمان لينجو، فلما نجا غدر بعهده الذي عاهد الله عليه، ولذلك وصفه الله بأنه ختار ـ أي: غدار ـ ووصفه بأنه كفور، أي: كثير الكفر كثير الجحود للحق، كثير الجحود لنعم الله عليه، والغدر والكفر من أخس الرذائل الخلقية.

ـ ٣ ـ
الصدق

(أ) يعرَّف الصدق بأنه قول الحق، وبأنه القول المطابق للواقع والحقيقة.

ويعرّف بعضهم الصدق بأنه الكلام المطابق لاعتقاد المتكلّم سواء طابق الواقع والحقيقة أو لم يطابق، وهذا التعريف معترض عليه بأنه لو جاز أن نسمي ما طابق اعتقاد المتكلم صدقاً لكان قول المشركين فيما يعتقدون لشركائهم كلاماً صدقاً، مع أنه كذب ظاهر، مخالف للواقع والحقيقة.

وأرى التفريق بين الكلام والمتكلّم: فإذا تحدث الإنسان بخبر ما وكان كلامه الذي قاله مطابقاً لما يعتقد في الموضوع الذي تحدث به ومخالفاً للواقع، فإنه منسجم مع نفسه، وهو في حديثه صادق غير كاذب، إلاّ أنّ كلامه هو بحد ذاته كذب. لأنه مخالف للواقع والحقيقة. أما إذا تحدث الإنسان بخبر ما وكان كلامه الذي قاله مخالفاً لما يعتقد في الموضوع الذي تحدث به، ومطابقاً للواقع والحقيقة، فإنه غير منسجم مع نفسه، وهو في حديثه كاذب غير صادق، إلاّ أنّ كلامه هو بحد ذاته صدق، لأنه مطابق للواقع والحقيقة. وعلى هذا فقد نصف المتكلم بأنه كاذب لأنه تكلم على خلاف اعتقاده، مع أن كلامه قد يكون

موصوفاً بالصدق لأنه موافق للواقع والحقيقة فلكلٍ من الكلام والمتكلم وصف ملائم لواقع حاله. ومن أمثلة ذلك قول المنافقين المتظاهرين بالإسلام، إذ قالوا بألسنتهم كلاماً حقاً مطابقاً للواقع، وهو كلام بحد ذاته صدق، إلاّ أنهم لا يعتقدونه، فهم كاذبون في إعلانه، ولذلك وصفهم القرآن بأنهم كاذبون، لأنهم منافقون لا يعتقدون ما يقولون، قال الله تعالى في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾.

فهؤلاء المنافقون قالوا لرسول الله ﷺ: نشهد إنك لرسول الله، وقولهم هذا كلام حق وصدق، إلاّ أنهم مع ذلك كاذبون لأنهم قالوا كلاماً لا يعتقدونه، ولذلك قال تعالى قبل إعلان أنهم كاذبون: ﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾ ثم قال: ﴿والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون﴾ وذلك لأنهم لا يعتقدون ما يقولون.

ويرى علماء البلاغة أنّ الله أكذبهم بقولهم: «نشهد» لأنّ معنى نشهد: نقول بألسنتنا ما هو في قلوبنا، وهذا مخالف للحقيقة والواقع، إذ قلوبهم مخالفة لما ذكروه بألسنتهم.

ونقول في جواب هذا: إن كل إنسان يقول بلسانه خبراً على خلاف ما في قلبه من اعتقاد يقدم شهادةً بما يعتقد، سواء أذكر عبارة الشهادة أم لم يذكرها، وبذلك يصح لنا أن نسميه كاذباً.

وفي رأيي ينحل الإشكال حين نفرق في الوصف بين الكلام والمتكلم، فنصف كلاً منهما بما يناسب واقع حاله، فالكلام الصدق هو ما كان مطابقاً للواقع والحقيقة والمتكلم الصادق هو المخبر بما يطابق اعتقاده.

ومن الأدلة الدالة على أن وصف المتكلم بأنه كاذب لا يكون إلا إذا كان المتكلم يعلم من نفسه أنه كاذب، وأنه يقول ما يقول افتراءً يفتريه على الحقيقة، قول الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

فجعل الله في هذه الآية مفتري الكذب هم وحدهم الكاذبين، أي: المدانين بما يقولون من أقوال كاذبة، لأنهم يفترونها، فهم يقولونها وهم يعلمون أنها كذب مفترى.

فالإدانة بالكذب إنما تكون مع علم المتكلم بأن ما يقوله كلام كذب مخالف للواقع أو لما يعتقد، ومن شواهد ذلك قول الله في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

وقول الله أيضاً في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

فهؤلاء من أهل الكتاب يقولون كلاماً كذباً، وهم يعلمون أنه كذب، فهم كاذبون مدانون بالافتراء.

أما قول الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

فهؤلاء قد أنكروا البعث من غير دليل، وأقسموا بالله جهد أيمانهم قائلين: لا يبعث الله من يموت، دون أن يكون لهم أي مستند عقلي أو علمي أو خبري يبرر ادعاءهم، بل الحجج العقلية والنقلية تثبت خلاف ما يقولون. فليس من المعقول أن تكون لديهم عقيدة جازمة بأن الله لا يبعث من يموت، حتى يقسموا بالله جهد أيمانهم على ذلك، وحتى نعتبرهم منسجمين مع أنفسهم، لذلك فهم يقولون كلاماً كذباً، وهم مدانون بأنهم كاذبون.

وعلى فرض أنهم يعبرون عن عقيدتهم، فإنهم سيعلمون يوم القيامة أنهم كانوا كاذبين أي: كانوا يقولون كلاماً كذباً مخالفاً للواقع والحقيقة.

(ب) **وكما يكون الصدق والكذب في الأقوال يكونان في الأفعال**، فقد يصدق الناس في تعبيراتهم الفعلية، وقد يكذبون، فإذا كانت تعبيراتهم الفعلية مطابقة في دلالاتها للحقيقة والواقع، فإنها تكون أفعالاً صادقة، وإذا كانت غير مطابقة فإنها تكون أفعالاً كاذبة.

فقد يفعل الإنسان فعلاً يوهم به حدوث شيء لم يحدث، أو يعبر به عن وجود شيء غير موجود، وذلك على سبيل المخادعة بالفعل مثلما تكون المخادعة بالقول، وربما يكون الكذب في الأفعال أشد خطراً وأقوى تأثيراً من الكذب في الأقوال.

ومن أمثلة ذلك ما حكاه الله لنا من أقوال وأفعال إخوة يوسف عليه السلام، إذ جاؤوا أباهم عشاءً يبكون بكاءً كاذباً، وقالوا ــ كذباً ــ: يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب، وجاؤوا على قميص يوسف بدم كذب، فجمعوا بين كذب القول وكذب الفعل، قال الله تعالى في سورة (يوسف ١٢):

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

فبكاؤهم فعل كاذب، قصدوا به التعبير لأبيهم عن حزنهم على يوسف الذي أكله الذئب بزعمهم، وهم الجانون عليه إذ ألقوه في الجُبّ. وقصتهم التي أخبروا عنها قصة مفتراة من عند أنفسهم، والذئب بريء من دم أخيهم، فأقوالهم فيها أقوال كاذبة، وتلطيخهم قميص يوسف بدمِ شاةٍ ذبحوها ليوهموا به صحة ما زعموه من أكل الذئب له فعل كاذب والدم ليس دم يوسف بل هو دم كذب، وهكذا لفّقوا عدة أكاذيب قولية وفعلية ليستروا بها ما جنوه على أخيهم.

ونستطيع أن نعتبر الأعمال التي يقوم بها المراؤون من قبيل الكذب العملي، وأبلغ منها الأعمال التي يعملها المنافقون ليخادعوا بها المؤمنين فهي من قبيل الكذب العملي، وهي مضافة إلى أكاذيبهم القولية التي زعموا فيها أنهم مسلمون مؤمنون موالون.

أما الأعمال الصادقة فهي الأعمال التي تكون دلالاتها التعبيرية مطابقة لما في نفس فاعلها وقلبه، وهي التي ليس بينها وبين ما يخفيه فاعلها في نفسه وقلبه منافاة ولا تعارض.

فالمجاهد في سبيل الله الصادق في جهاده هو الذي يكون عمله ترجمة صادقة لإيمانه، وتكون نيته مطابقة للدلالة التعبيرية التي دل عليها جهاده.

والحركات التعبيرية الصادقة كإشارات اليد والعين والحاجب والرأس هي الإشارات التي تكون دلالاتها مطابقة للواقع والحقيقة، وكم من إشارة فعلية تقوم مقام القول في دلالتها. ومن الإشارات الفعلية ما هو صادق ومنها ما هو كاذب، وما أكثر ما يكذب الناس بإشاراتهم وبأفعالهم، ولعل الكذب في الأفعال أكثر عند الناس من الكذب في الأقوال.

ولما كان الصدق والكذب مما توصف بهما الأقوال والأفعال كان لنا أن نقول: إن كل ذي دلالة مقصودة إما أن تكون دلالته صادقة وإما أن تكون كاذبة، والصادق منها ما وافق الواقع والحقيقة، والكاذب منها ما خالف الواقع والحقيقة.

ولمّا كان الصدق مطلوباً من المؤمنين في أقوالهم وأعمالهم أمر الله المؤمنين بأن يكونوا مع الصادقين، فقال تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾.

والصادقون هم الذين صدقوا في إسلامهم، وصدقوا في إيمانهم، وصدقوا في أقوالهم، وصدقوا في أعمالهم. وصدقهم في أعمالهم يكون في أن يبتغوا بها وجه الله تعالى، وهي بذلك تكون معبرة عن إيمانهم تعبيراً صادقاً لا رياء فيه ولا سمعة ولا نفاق.

(ج) **لا يكون الكذب من الأخلاق الفطرية التي يطبع عليها الإنسان:**

يظهر من ملاحظة الصغار أنهم مفطورون في أساس تكوينهم على حب الحق، وعلى حب الصدق، وأن خلق الكذب لا يكون أصيلاً في طبع الإنسان بحسب فطرته وإنما يكتسبه بعد ذلك في حياته اكتساباً، بعوامل شتى، منها البيئة، ومنها مؤثرات الأهواء والشهوات، ومنها الاعتياد بتكرر الخبرات، ثم تتحول العادة فتكون خلقاً مكتسباً.

روى الإمام أحمد عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب».

فهذا الحديث يدل على أن الإنسان مفطور في أساس تكوينه على حب الحق، والذي يحب الحق لا يكون خائناً ولا كذاباً، وأن الخيانة والكذب يأتيان إلى أخلاق الناس اكتساباً.

وذكر الحديث المؤمن ولم يذكر الإنسان، إلا أن كل إنسان مفطور على الإيمان، فهو مؤمن بالفطرة، ويفسد فطرته بعد ذلك بإرادته، أو تعمل البيئة على إفساد فطرته، وقد دل على هذا قول الرسول ﷺ:

«كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصّرانه أو يمجسانه أو يتركانه مسلماً».

ودل عليه أيضاً قول الله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

ولما كان الإنسان في فطرته أكثر ميلاً إلى الحق والصدق كانت تربيته على حب الحق والتزام الصدق أمراً ميسوراً، يجد من الفطرة مساعدات عليه، وعلى المربين أن يستغلوا ذلك استغلالاً حسناً.

(د) حاجة المجتمع الإنساني إلى سيادة خلق الصدق، والمضار الكثيرة التي يجلبها خلق الكذب:

تبدو لنا حاجة المجتمع الإنساني إلى خلق الصدق، حينما نلاحظ أن شطراً كبيراً من العلاقات الاجتماعية، والمعاملات الإنسانية، تعتمد على صدق الكلمة، فإذا لم تكن الكلمة معبّرة تعبيراً صادقاً عما في نفس قائلها، لم نجد وسيلة أخرى كافية نعرف فيها إرادات الناس، ونعرف فيها حاجاتهم، ونعرف فيها حقيقة أخبارهم.

لولا الثقة بصدق الكلمة لتفككت معظم الروابط الاجتماعية بين الناس، ويكفي أن نتصور مجتمعاً قائماً على الكذب، لندرك مبلغ تفككه، وانعدام صور التعاون بين أفراده.

كيف يكون لمجتمعٍ ما كيانٌ متماسك وأفراده لا يتعاملون فيما بينهم بالصدق؟ وكيف يكون لمثل هذا المجتمع ثروة من ثقافة أو تاريخ أو حضارة؟.

كيف يوثَق بنقل المعارف والعلوم إذا لم يكن الصدق أحد الأسس الحضارية التي يقوم عليها بناء المجتمع الإنساني؟.

كيف يوثق بنقل الأخبار والتواريخ إذا لم يكن الصدق أحد الأسس الحضارية التي يقوم عليها بناء المجتمع؟.

كيف يوثق بالوعود والعهود ما لم يكن الصدق أحد أسس التعامل بين الناس؟.

كيف يوثق بالدعاوى والشهادات ودلائل الإثبات القولية ما لم يكن الصدق أحد أسس التعامل بين الناس؟.

ما هو مصير مجتمع قائم على الكذب؟ أليس مضيره الانحلال والتفكّك، ثم التخلف الحضاري الشنيع، ثم الخراب والدمار؟ أليس الجهل المخزي أحد سمات هذا المجتمع المنحل؟.

مَثَلٌ في قصة متخيلة:

كذاب ساقته أقداره إلى مدينة الكذابين، دون أن يعلم شيئاً عن حقيقتها ولا عن حقيقة من فيها، وحين وصل إليها وجد نفسه شديد الجوع، منهك القوى، قلق النفس، مضطرب الفؤاد، يريد طعاماً ومناماً وطمأنينة.

فأخذ يبحث عن مطعم يأكل فيه، وعن فندقٍ يأوي إليه، وقال في نفسه: سؤال أهل المدينة أقرب طريق يوصلني إلى مطعم وفندق، فرأى رجلاً مهيباً وسيماً، فقال له: يا سيدي هل تعرف مطعماً نظيفاً جيد الطعام، ترشدني إليه فإني غريب؟.

فقال له الرجل: امضِ في هذا الشارع، فإنك ستجد بعد نحو نصف ميل منعطفاً على اليمين، فتابع المسير في هذا المنعطف، فإذا سرت نصف ميل آخر وجدت المطعم الذي يسرك.

قال: فما اسم هذا المطعم؟.

قال: اسمه مطعم الليل الضاحي.

فسار الرجل وفق البيان الذي تلقاه، وأخذ يبحث عن مطعم الليل الضاحي، فلما قطع المسافة الأولى لم يجد منعطفاً على اليمين، إلا أنه وجد منعطفاً على الشمال، فمضى لعله يجد منعطفاً على اليمين، إلا أنه لم يجد وقد كاد يصل إلى آخر المدينة، فرجع أدراجه وقال في نفسه: لعل الرجل قد أخطأ،

فأخبرني أن المنعطف على اليمين، وهو يريد أن يقول لي: إن المنعطف على الشمال.

فرجع وسار في المنعطف الذي على الشمال حتى بلغ آخره، ولم يجد مطعم الليل الضاحي، وعندئذٍ استوقف رجلاً عجوزاً فقال له: يا سيدي أنا رجل غريب، وإنني أبحث عن مطعم وفندق، وقد سألت في طريقي رجلاً مهيباً وسيماً، فدلني على مطعم الليل الضاحي في هذا الشارع، وأخبرني أنه مطعم نظيف جيد الطعام، وأنا أبحث عنه منذ ساعة، فلم أعثر عليه، فضحك العجوز ضحكة هرمة مضرسة خبيرة، وقال له: إن مطعم الليل الضاحي في أقصى المدينة الشرقي، إلا أنك إذا وصلت إليه وجدت مكتوباً على عتبة بابه: مركز إطفاء المدينة. فسأله عن مطعم آخر، فقال له: ليس في هذه الناحية مطعم ولا فندق، وكل مطاعم المدينة وفنادقها في أقصاها الشرقي، فاركب في هذه المركبة العامة، وانزل في محطة «نفق الأنفاق» فهناك أقصى المدينة الشرقي، وهناك تجد طلبك.

فاستجاب الرجل سريعاً إلى نصيحة الرجل العجوز، فركب المركبة قاصداً محطة «نفق الأنفاق» ثم أخذ يسأل في المركبة وهي سائرة عن المحطة فيضحك الناس من سؤاله، فقال: أليست هذه المركبة سائرة إلى أقصى المدينة الشرقي، فاستغرقوا في الضحك، وهم يقولون: بل هي سائرة إلى أقصى المدينة الغربي.

فنادى: يا أيها الناس دلوني على مطعم وفندق فإني غريب جائع منهك القوى، فجعلوا يكذبون عليه، وكل واحد منهم يدله دلالة مخالفة لدلالة الآخرين. وحار في أمره، وضاق ذرعاً بنفسه وبكل من حوله، وبكل شيء حوله، ثم رمى بنفسه من المركبة، وانطلق هائماً على وجهه، وخرج من المدينة وهو يقول: لعن الله الكذب والكذابين، إن مجتمعاً يسود فيه الكذب مجتمع عذاب وشقاء.

وأعلن توبته من الكذب، وأدرك ضرورة الصدق للمجتمعات الإنسانية، وكان دخوله إلى مدينة الكذابين سبب توبته ووسيلة تربوية له.

(هـ) موقف الإسلام من الصدق والكذب:

ولما كان الصدق ضرورة من ضرورات المجتمع الإنساني، وفضيلة من فضائل السلوك ذات النفع الحضاري العظيم.

ولما كان الكذب عنصر إفساد كبير للمجتمعات الإنسانية، وسبب هدم لأبنيتها الحضارية، وتقطيع لروابطها وصلاتها، ورذيلة من رذائل السلوك ذات الضرر البالغ؛ أمر الإسلام بالصدق، ونهى عن الكذب، وأعلن أن الصدق أحد الأسس الحضارية التي يقوم عليها بناء المجتمع الإسلامي، ووضع قواعد تربية هذا المجتمع على الصدق، واتخذ كل الوسائل الكفيلة بغرس هذا الخلق العظيم في نفوس أفراده جميعاً، صغاره وكباره، ورجاله ونسائه.

وفيما يلي بيان لطائفة من النصوص الإسلامية:

١ ـ روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً».

وفي رواية أخرى: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقاً، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً».

فدل هذا الحديث على أن الصدق يهدي إلى البر، والبر كلمة جامعة تدل على كل وجوه الخير، ومختلف الأعمال الصالحات، مما هو زائد على فعل الواجبات وترك المحرمات، الأمور التي تقتضيها مرتبة التقوى.

ونتساءل كيف يهدي الصدق إلى مختلف وجوه البر؟ وبالتأمل والتحليل نلاحظ ما يلي:

إذا كان الإنسان صدوقاً أي: كان خلق الصدق أصيلاً في نفسه، فما هو موقفه السلوكي إذا عرف الحق وسئل عنه؟.

إنه لا بد أن يكون موقفه تجاهه الإعلان عنه بصدق، أن يقول: هو حق.

فإذا سئل عن أركان الإيمان بعد أن يعلم أنها حق بالأدلة التي تثبت ذلك؟.

إنه لا بد أن يعلن اعترافه بأنها حق لأنه صادق لا يطاوعه خلقه أن يكذب، مهما كانت أهواؤه جانحة إلى إعلان الجحود والإنكار.

وبهذا يتبين لنا أن الصدق يهدي إلى الإيمان، والإيمان هو القاعدة الأساسية للتقوى وقد هدى إليه خلق الصدق.

ومن كان صدوقاً خُلُقه الصدق فإنه لا يمكن أن يكون منافقاً، لأن الكذب هو العماد الأول للنفاق، والصادق إما أن يؤمن حقاً، ويعلن إسلامه بصدق، وإما أن يتوقف حتى تتبين له الحقيقة، فخلق الصدق يمنعه من أن يظهر الإيمان كذباً، ويبطن الكفر، كما يمنعه من جحود الحق بعد معرفته.

فخلق الصدق يبعد صاحبه عن درك عميق فيه الهلاك والشقاء، ويدنيه إلى صراط السعادة، صراط الجنة، إذ يهدي صاحبه إلى بر الإيمان ويبعده عن فجور الكفر والنفاق.

وبهذا اتضح لنا التسلسل المنطقي في قول الرسول ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة».

ولننتقل إلى مثالٍ توضيحي آخر فنقول: إذا كان الإنسان متحلياً بخلق الصدق، فهل يطاوعه خلقه أن يعطي عهداً وهو كاذب فيه، أو يعد وعداً وهو كاذب فيه؟.

إنه لا يفعل ذلك إلا إذا خالف خلقه، فما دام متحلياً بخلق الصدق فلا بد أن يكون صادق العهد صادق الوعد، والوفاء بالعهد والصدق في الوعد من وجوه البر العظيمة التي توصل إلى أعمال البر ثم إلى رضوان الله والجنة.

وحين يعلن المسلم الصادق شهادة الإسلام، فإنه يعبر عن دخوله بإرادته في جماعة المسلمين، ويعلن عن قبوله ورضاه بأحكام الإسلام، وهذا الإعلان

بمثابة عهد مع الله ومع المسلمين بأن يلتزم في حياته معنى شهادة التوحيد، فلا يجعل مع الله شريكاً في ربوبيته، ولا في ألوهيته، وبأن يلتزم في حياته معنى الشهادة برسالة محمد ﷺ، فلا يرفض شيئاً مما جاء به من أمور الدين، وهذا الإعلان هو أيضاً بمثابة وعد بالتزام الأحكام الإسلامية في حياته العملية.

فمن أعلن إسلامه، فقد أعطى عهداً بأن يلتزم مفاهيم الإسلام في حياته الفكرية الاعتقادية، وأعطى وعداً بأن يلتزم تعاليم الإسلام في حياته العملية، فإذا كان خلق الصدق خلقاً أصيلاً في نفسه، لم يطاوعه خلقه أن يكون واقع حاله على خلاف إعلانه، وبذلك يهديه خلق الصدق إلى مختلف وجوه البر، والبر يأخذ بيد صاحبه إلى رضوان الله وجنته.

وبهذا يتضح لنا أيضاً التسلسل المنطقي في قول الرسول ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة».

ودل هذا الحديث أيضاً على أن خلق الصدق في حياة الإنسان قابل للاكتساب، وقابل للتنمية والترسيخ، عن طريق التدريب العملي المقترن بالارادة الجازمة، فمن مظاهر الإرادة الجازمة تحري الصدق في الأقوال كلها، وفي مختلف وسائل التعبير العملية. والذي يتحرى الصدق لا يسمح لنفسه بأن يلقي كلاماً جزافاً دون تروٍّ ولا بصيرة، ولا يسمح لنفسه بأن يتبع ما ليس له به علم، فيحكم بالظنون التي ليس لها ما يدعمها ويؤيدها من الأدلة الكافية للاثبات أو للنفي، ولا يسمح لنفسه بأن يرائي أو ينافق في أعماله لأنه يحرص على الصدق ويتحرى بإرادته الجازمة الصدق في أقواله وأعماله، وعندئذ يكون صِدِّيقاً، وهذا ما بينه الرسول ﷺ بقوله في الحديث: «وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقاً» وجاء في رواية أخرى: «ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقاً».

ودل هذا الحديث على أن الكذب يهدي إلى الفجور وأن الفجور يهدي إلى النار.

والفجور في اللغة هو في أصله الميل والانحراف عن الحق، وفيه معنى

الإقبال الشديد بتدفق إلى ارتكاب القبائح والمعاصي والآثام. فالفاجر هو المائل المنحرف عن طريق الهداية، المنبعث بتدفق وقح ذميم إلى ارتكاب القبائح والمعاصي والآثام، ومن أجل ذلك يطلق الفجور على هذا الانبعاث المتدفق الوقح.

إذن فالبر والفجور ضدان متقابلان، أما البر فهو لفظ جامع يراد به مختلف وجوه الخير وأنواع الطاعات الزائدة على فعل الواجبات وترك المحرمات، وأما الفجور فهو لفظ جامع أيضاً، يراد به الانبعاث في مختلف أعمال الشر وأنواع المعاصي والآثام، والتدفق إلى ارتكاب ما لا يحل للإنسان ارتكابه من عمل.

ونتساءل: كيف يهدي الكذب إلى الفجور؟ وبالتأمل والتحليل نلاحظ ما يلي:

من كان الكذب خلقاً أصيلاً فيه هان عليه أن ينكر الحق ويدعي خلافه، فإذا عرف أن أركان الإيمان حق بعد أن أقيمت له الأدلة البينة، لم يجد حرجاً في نفسه أن ينكرها، ويدعي خلافها كذباً وبهتاناً، استجابة لأهواء نفسه، وتلبية لشهواته. ولم يجد حرجاً في نفسه أيضاً أن يعلن أن معتقداته الباطلة التي يظهر له بطلانها هي معتقدات صحيحة مطابقة للحقيقة والواقع، وهو يعلم أنه يكذب على الحقيقة والواقع، ويحاول أن يقنع الآخرين بأكاذيبه التي يفتريها على الحقيقة والواقع، كل هذا يفعله استجابة لأهواء نفسه، وتلبية لشهواتها.

ومعلوم أن الكفر بأركان الإيمان من أفجر الفجور، وقد ساعد عليه وهدى إليه خلق الكذب، ولو أنه كان صادقاً ـ أي: كان خلق الصدق أصيلاً في نفسه ـ لم يطاوعه خلقه على جحود الحق الذي ظهر له، لكنه كان كذاباً فوجد في نفسه مفراً من وجه الحق بافتراء الكذب.

والمنافق يستطيع أن يتظاهر بالإسلام زوراً وكذباً، ليحميه النفاق من نقمة المسلمين في الدنيا، أو ليظفر بمطامع مادية يشارك فيها المسلمين الصادقين، وقد ساعده على ذلك خلق الكذب، إذ جعله يركب في سلوكه أفجر الفجور،

وهو النفاق، ولما كان النفاق أفجر الفجور كان المنافق في الدرك الأسفل من النار.

وللمنافق علامات ـ أساس معظمها الكذب ـ إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا أؤتمن خان.

ولو كان الصدق خلقاً أصيلاً في نفسه لما طاوعه على ركوب هذه الموبقات المهلكات من قبائح السلوك.

ودل هذا الحديث أيضاً على أن خلق الكذب في حياة الإنسان قابل للاكتساب، وقابل للتنمية والترسيخ، عن طريق التدريب العملي المقترن بالإرادة الجازمة، فقد جاء فيه: «وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» وتحري ممارسة الكذب ظاهرة من ظواهر الإرادة الجازمة.

وبتكرار ممارسة الكذب تكتسب العادة، ثم تتحول العادة إلى خلق راسخ، وعندئذ يكتب عند الله كذاباً، ومن غدا كذاباً هانت لديه معظم أعمال الفجور، فدفع به الكذب إلى النار.

٢ ـ وقال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

وروى الإمام مالك في الموطأ، عن صفوان بن سليم، أنه قيل لرسول الله ﷺ: أيكون المؤمن جباناً؟ قال: «نعم» فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: «نعم»، فقيل: أيكون المؤمن كذاباً؟ قال: «لا».

فدلت الآية على حصر افتراء الكذب بالذين لا يؤمنون، أما الكذبات العارضات في حياة الإنسان، التي لا تكون افتراء مدبراً مقصوداً، والتي لا تكون عن خلق أصيل ثابت، فربما تقع من المؤمن.

وكذلك دل الحديث على أن المؤمن لا يكون كذاباً، أي: لا يصل إلى

مستوى في تحري الكذب يدمغ فيه بأنه كذاب، خلقه الكذب، أما الكذبات العارضات فليس في الحديث ما يدل على أنها لا تكون من المؤمن، وذلك لأن «كذاب» صيغة مبالغة تدل على تمكن خلق الكذب في نفسه.

فافتراء الكذب وافتعاله عن إصرار وتعمد إنما يفعله الكذابون الذين لا يؤمنون.

٣ ــ وروى الإمام أحمد والبيهقي في شعب الإيمـان، عن عبادة بن الصامت، أن النبـي ﷺ قال: «اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا عاهدتم، وأدوا إذا أؤتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم».

فجعل الرسول ﷺ في هذا الحديث الصدق أحد عناصر ست من تحلى بها دخل الجنة، وفي هذا ترغيب عظيم بالتحلي بخلق الصدق.

٤ ــ وروى الترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا كذب العبد تباعد عنه الملك ميلاً من نتن ما جاء به».

وقد دل هذا الحديث على أن رذيلة الكذب لها رائحة منتنة يشمها الملك المرافق للإنسان، وهذا من خبايا الكون وأسراره، فالأعمال لها روائح، ولها وزن، ولها صور، ولها صفات كثيرة يدركها من لديه أجهزة إدراكها، وما أوتينا من العلم ومن وسائله إلا قليلاً.

٥ ــ وقد يكون الكذب خيانة كبيرة، وذلك حينما تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق، وأنت به كاذب.

روى أبو داود عن سفيان بن أسد الحضرمي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت به كاذب».

وقد جعله الرسول ﷺ من قبيل الخيانة، لأن سامعه استأمنه على فكره ومواطن المعرفة عنده، ليجعل فيها الصدق لا ليجعل فيها الكذب، فاستغل

هو هذا الاستسلام والاستئمان، فأخبره بالأكاذيب زاعماً له أنها صدق، فكان عمله هذا خيانة كبيرة.

٦ ـ ومن الكذب أن يحدث الإنسان بكل ما يسمع من أحاديث وأخبار دون تحرير لها ولا تنقيح، لأنه بتهاونه وإهماله وعدم تحريه الصادق من الأخبار يساهم في نشر الأكاذيب وإشاعتها؛ روى الإمام مسلم عن أبـي هريرة، أن النبـي ﷺ قال: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع».

(و) الكذب على الله والرسول:

ومن أشنع صور الكذب الكذب على الله، أو الكذب على الرسول، لأنه افتراء في الدين، وتلاعب بشرائع الله لعباده، وتجرُّؤ عظيم على النار.

ولذلك كان من صفات النبـي الأساسية صفة الصدق في تبليغ ما أمره الله بتبليغه، ولما طالب الكافرون رسول الله بتغيير بعض ما أنزل عليه إلى ما يوافق أهواءهم، أنزل الله عليه قوله في سورة (الحاقة ٦٩):

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

أي: لأهلكناه إهلاكاً سريعاً لو أنه كذب علينا ولو في بعض الأقاويل، وذلك لخطورة أمر الكذب على الله من رسول مؤيد من عند الله بالمعجزات.

ومنطق التأييد بالمعجزة يقضي بعصمة الرسول عن الكذب فيما يبلّغ عن ربه.

وافتراء الكذب على الله ولو من آحاد الناس هو من أظلم الظلم، قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

وفي معرض إنكار تحريم ما لم يحرّمه الله قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

إلى غير ذلك من نصوص قرآنية.

ونظير الكذب على الله الكذب على الرسول، لأن أقوال الرسول حجّة في الدين، ومصدر من مصادر التشريع فيه، فالكذب عليه تلاعب في الدين وافتراء على الله، ولذلك جاء في الحديث المتواتر أنّ الرسول ﷺ قال: «من كذب عليّ متعمّداً فليتبوأ مقعده من النار».

ومن يروي الأحاديث الموضوعة، وهو يعلم أنها موضوعة، ثم لا يبيّن وضعها، ولا يذكر أنها مكذوبة على رسول الله ﷺ هو أحد الكاذبين، روى الإمام مسلم عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين».

وقد تفضل الله على هذه الأمة فقيض لها علماء مخلصين قاموا بأعمال علمية مضنية، حرّروا فيها ما نسب إلى رسول الله ﷺ من أحاديث، وميّزوا ما هو صحيح النسبة إلى رسول الله، وما هو ضعيف النسبة، وما هو موضوع مكذوب عليه.

(ز) الكذب لإضحاك الناس:

روى الإمام أحمد والترمذي وأبو داود والدارمي، عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل لمن يحدّث فيكذب ليضحك به القوم، ويل له، ويل له».

والحكمة من هذا المنع أنه يجرّ إلى وضع أكاذيب ملفقة على أشخاصٍ معينين، يؤذيهم الحديث عنهم، كما أنه يعطي ملكة التدرب على اصطناع الكذب وإشاعته، فيختلط في المجتمع الحقّ بالباطل والباطل بالحق.

وحين تدعو الحاجة إلى وضع أمثلة متخيلة غير واقعة، للعظة أو للترويح عن النفس، أو وضع طرائف ونوادر فيها تسلية أو موعظة، فالذي يظهر لي أنّ الشرط في جوازها أن لا تتناول أشخاصاً معينين، وأن يذكر واضعها ما يشعر بأنها موضوعة مصنوعة، أو يكون مضمونها واضح الوضع والصناعة، كالقصص التي يضعها واضعوها على ألسنة الحيوانات، نظير ما صنع صاحب كتاب «كليلة ودمنة».

فهذا ونحوه لا أرى مانعاً منه ما دام الغرض منه غرضاً مباحاً، مأذوناً به في حكم الشريعة الإسلامية، وهو مما لم يقابل بالإنكار من قبل جمهور علماء المسلمين، إذ هو يُحكى على سبيل الافتراض المتخيل، لا على سبيل أنه أمر واقع فعلاً.

ونستطيع أن نقيس عليه التمثيليات، والقصص المصنوعة، المبين فيها أنها قصص متخيّلة غير واقعة.

(ح) الحالات التي يجوز فيها الكذب:

الأصل في الكذب عدم الجواز، للأسباب التي تمّ بيانها فيما سبق، ولكن توجد حالات يجوز فيها الكذب، تحقيقاً لمصلحة هي أعظم ممّا في الكذب من مضرة، أو دفعاً لضرر هو أشد مما في الكذب من ضرر.

١ ـ فمن الحالات التي يجوز فيها الكذب، الكذب على العدو في حالة حربه للمسلمين، لتضليله، ولإيقاعه في فخّ من فخاخ الخداع الحربي. ولكن

لا يدخل في هذا جواز الكذب عليه بتأمينه أومعاهدته ثم الغدر به، فهذا غير جائز قطعاً، لأن التأمين أو المعاهدة كل منهما يُنهي حالة الحرب القائمة، فيلقي كلٌ من الفريقين حذره الحربي، ويستسلم كلٌ منهما إلى صدق الكلمة، وعندئذٍ يرجع الكذب إلى أصل حكمه، ويكون استخدامه في الكلام محرماً، ولو كان مع العدو.

فمن أمثلة الكذب الجائز على العدو، ما لو وقع مسلم في أسْره، فسأله عن مواقع المسلمين الحربية، أو عن عدد المسلمين، أو عن أسلحتهم وأعتدتهم، فمن واجب المسلم والحالة هذه أن لا يعطي العدو فرصة معرفة ما يمكِّنه من النكاية بالمسلمين وكيدهم، بل يكتم عنه الحقيقة، ويعطيه أكاذيب تضلّله وتمكن المسلمين منه، والحرج من الكذب في مثل هذه المواقف سذاجة وغفلة وعدم فهم في الدين.

ولكن إن استطاع أن يتخلص من الموقف المحرج عن طريق التورية، والمواربة في القول، دون اللجوء إلى الكذب الصريح كان خيراً له، إلا أن تكون المصلحة الحربية للمسلمين لا تتحقق إلا بالكذب الصريح فهو الذي ينبغي اللجوء إليه، نظراً إلى المصلحة التي تترتب عليه، وعدم وجود وسيلة أخرى تقوم مقامه من الوسائل التي هي في الأصل مباحة.

ومعلوم أن الحرب خدعة، وكما جاز القتال في الحرب ــ وهو في الأصل محرّم ــ لأن الضرورة دعت إليه، جاز الكذب على العدو في حالة الحرب، وهو في أكثر أحواله أخفّ من القتال. ويؤكد هذه الحقيقة أن كلًّا من الفريقين المتحاربين يضع في حسابه عدم الثقة بأقوال خصمه، ويضع في حسابه أن عدوه لا يترك سبيلاً لمخادعته إلا سلكها، وسلاح الخداع بالأقوال أو بالأفعال أحد أسلحة الحرب الفتّاكة، يعلمها الخبراء بفنون الحرب، ومن أقوال الرسول التي شاعت ضمن الأمثال السائرة قوله: «الحرب خدعة».

٢ ــ ومن الحالات التي يجوز فيها الكذب، أن يتوسط إنسان للإصلاح بين فريقين متخاصمين، ثمّ لا يجد وسيلة للإصلاح بينهما أنجع من أن يركب

مركب الكذب على مقدار الضرورة، أما إذا تسنّى له أن يوري بأقواله دون أن يكذب فهو خير له، وهو الأمر الذي يحبّه الله ورسوله.

روى البخاري ومسلم عن أم كلثوم، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الكذّاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً» أي: يذيع أقوالاً للإصلاح بين الناس، ولإزالة ما بينهم من عداوات، وربما كانت هذه الأقوال غير صحيحة.

فهذه الحالة من الحالات التي رخص الإسلام فيها بالكذب على مقدار الضرورة، ومهما أمكن الإصلاح بوسيلة غير وسيلة الكذب من الوسائل المباحة في الأصل فهي الوسيلة التي ينبغي اتخاذها.

٣ ـ ومن الحالات التي يجوز الكذب فيها حديث الرجل لامرأته، وحديث المرأة لزوجها، في الأمور التي تشد أواصر الوفاق، والمودة بينهما، فهذه حالة يتسامح فيها بشيء من الكذب لتوثيق روابط الأسرة، ولإضفاء الأجواء الشاعرية على مجالس الأنس والسمر والغزل بين الزوجين، ففي مثل هذه المجالس تحلو المبالغات وإن كانت كاذبة، وتزداد معطيات المتعة والأنس والصفاء، وهذا ما يعمل الإسلام على تغذيته بين الزوجين.

روى مسلم وأحمد وأبو داود عن أم كلثوم بنت عقبة قالت: «لم أسمع النبي ﷺ يرخّص في شيء من الكذب مما تقول الناس، إلا في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها».

وروى الترمذي عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، ما يحملكم أن تتابعوا على الكذب كتتابع الفراش في النار، الكذب كله على ابن آدم حرام، إلا في ثلاث خصال: رجل كذب على امرأته ليرضيها، ورجل كذب في الحرب فإن الحرب خدعة، ورجل كذب بين مسلِمَين ليصلح بينهما».

والكذبات الثلاث التي كذبها إبراهيم عليه السلام هي من الكذب المباح اثنتان منها في ذات الله، والثالثة فيها تورية للنجاة من جبّارٍ ظالم غاشم، أما الأولى فقوله: «إني سقيم» وأما الثانية فقوله عن تكسير الأصنام: «بل فعله

كبيرهم هذا» وأما الثالثة فقوله للجبّار عن زوجته سارة: «هي أختي» وهو يعني أخته في الإسلام، وليس في شيء من هذه الكذبات ما هو محرم.

ولا يدخل في الكذب المباح ما تكذب به المرأة على ضرتها، إذ تخبرها بأن زوجها اصطفاها بكذا، وأكرمها بكذا، وهو لم يفعل، بل هو كذب محرّم، روى البخاري ومسلم عن أسماء رضي الله عنها، أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن لي ضرّة، فهل علي جُناح إنْ تشبّعت من زوجي غير الذي يعطيني[1]؟ فقال النبي ﷺ: «المتشبّع بما لم يُعطَ كلابس ثوبَيْ زور»!! أي: كلابس ثوبي كذب، يكذب بهما على الناس، أحدهما فوق الآخر.

(ط) شهادة الزور:

وفي حياة الناس نوع خطير من الكذب، شديد القبح، سيء الأثر، ألا وهو شهادة الزور.

إن الأصل في الشهادة أن تكون سنداً لجانب الحق، ومعينة للقضاء على إقامة العدل، والحكم على الجناة الذين تنحرف بهم أهواؤهم وشهواتهم، فيظلمون أو يبغون، أو يأكلون أموال الناس بالباطل، فإذا تحولت الشهادة عن وظيفتها، فكانت سنداً للباطل، ومضلّلة للقضاء، حتى يحكم بغير الحق، استناداً إلى ما تضمنته من إثبات، فإنها تحمل حينئذٍ إثم جريمتين كبريين في آن واحد.

الجريمة الأولى: عدم تأديتها وظيفتها الطبيعية الأولى.

الجريمة الثانية: قيامها بجريمة إيجابية، تهضم فيها الحقوق، ويظلم فيها البرآء، ويستعان بها على الإثم والبغي والعدوان.

فهي في هذا كالقاضي الذي بيده سلطة القضاء ليحكم بالعدل، فيحكم بالجور والظلم والعدوان، اتباعاً للهوى، أو طمعاً بعرض من أعراض الحياة الدنيا.

---

(١) أي: إن تظاهرت بأنه يعطيني أشياء وهو في واقع حاله لم يعطني إيّاها.

وهي أيضاً كالمستأمن الذي يخون من استأمنه.

فالجريمة في كل ذلك بجريمتين، والظلم بظلمين، ولكلٍّ من أصحاب هذه الجرائم كِفْلان من العقاب.

ولذلك قرن الله تبارك وتعالى التحذير من قول الزور بالتحذير من الشرك بالله، فقال تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

الزور في اللغة: الكذب والباطل، وأصل مادة الكلمة يدل على معنى الميل، والكذب والباطل ميل عن الحق والصدق.

وقد وصف الله عبادالرحمن بأنهم لا يشهدون الزور، فقال تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾.

وروى البخاري ومسلم عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر» قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين» وكان متكئاً فجلس فقال: «ألا وقول الزور وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت!!.

وروى أبو داود وابن ماجه، عن خُريم بن فاتك، قال: صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح، فلما انصرف ــ أي من صلاته ــ قام قائماً فقال: «عدلت شهادةُ الزور بالإشراك بالله» ثلاث مرات، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به﴾[1].

(ي) القذف بالباطل:

ومن أقبح الكذب اتهام البرآء بالفاحشة، وبما لم يرتكبوه من آثام، ففيه ظلم للناس، وعدوان على أعراضهم، وإشاعة للفاحشة والإثم، وتهوين

---

(١) من الآيتين ٣٠ ــ ٣١ من سورة (الحج ٢٢).

لأمرهما، وتشجيع عليهما، وذلك لأن من في نفسه الرغبة بارتكاب الفاحشة والوقوع في الآثام، ولكن يحجبه ويكفّه خوف الفضيحة بين الناس، إذا سمع أقوال الناس بعضهم ببعض، واتهام بعضهم لبعض بمثل ذلك، هان عليه الأمر، وتجرأ على الإثم، ورأى أنه هو والآخرون ممّن يحسّن الناس الظن بهم سواء.

ولذلك وضع الإسلام عقوبة القذف ثمانين جلدة لمن رمى المحصنات ثم لم يثبت أقواله بأربعة شهداء، قال الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾.

واشتد القرآن عليهم باللعن وتقرير العذاب العظيم، فقال الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

وألمح القرآن إلى أن من أغراض اتهام الناس بالفاحشة الرغبة بأن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، فقال الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

وأشد قبحاً من ذلك من يرمي غيره بما فعل هو من إثم وخطيئة، فهو ذو جريمة مزدوجة، إنه مرتكب الإثم ويريد أن يبرىء نفسه بإلقاء التهمة على غيره، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾.

البهتان: اتهام الرجل بما لم يفعل ومواجهته بذلك بطريقة يبهت فيها، محتاراً كيف يدفع الكذب الصُراح عن نفسه، إذ يأتيه الاتهام الزور بغتة، فيفاجأ به وهو منه بريء، فيبهت.

(ك) الصدق في العهد وفي الوعد والكذب فيهما:

ويكون الصدق والكذب في الوعد والعهد، فمن الناس من يعدون وهم يريدون أن يوفوا بما يعدون به فهم صادقون في وعدهم، ومنهم من يعدون وهم لا يريدون أن يُوفوا بما يعدون به فهم كاذبون في وعدهم. ومن الناس من يعاهدون وهم يريدون أن يوفوا بما يعاهدون عليه، فهم صادقون في عهودهم، ومنهم من يعاهدون وهم لا يريدون أن يوفوا بما يعاهدون عليه فهم في عهودهم كاذبون.

والصدق في الوعد وفي العهد من الفضائل الخلقية التي يتحلى بها المؤمنون، والكذب في الوعد وفي العهد من الرذائل الخلقية التي يجتنبها المؤمنون الصادقون الذين يعملون الصالحات.

ويشترك الوعد والعهد بأن كلاً منهما إخبار بأمرٍ جَزَم المخبر بأن يفعله، ويفترقان بأن العهد يزيد على الوعد بالتوثيق الذي يقدمه صاحب العهد، من أيْمانٍ مؤكّدة.

والمواعدة مشاركة في الوعد بين فريقين، والمعاهدة مشاركة في العهد بين فريقين، فيعد كلٌ من الفريقين المتواعدين صاحبه بما سيفعل، ويعاهد كلٌ من الفريقين المتعاهدين صاحبه بما سيفعل.

قال أهل اللغة: والوعد غالباً يكون في الخير، فإذا كان الإخبار في الشر فهو (الإيعاد) وفعله (أوعد).

فمن وعد أو عاهد وكان ناوياً الوفاء بما وعد به أو عاهد عليه ثم لما جاء وقت الوفاء غير رأيه فلم يفِ، فإنه يسمى ناقضاً ناكثاً لوعده أو عهده مخلفاً به، فإذا جاء وقت الوفاء فعجز عنه لسبب من الأسباب فهو معذور بإخلافه.

فليس كل مخلفٍ كاذباً، وإنما المخلف الكاذب من كان عند وعده أو عهده غير عازمٍ على الوفاء، ونقض العهد ونقض الوعد رذيلة خلقية أساسها عدم تأدية الحق الذي يجب بالالتزام، ما لم يكن عدم الوفاء خيراً منه، ففعل ما هو خير هو الأفضل في الإسلام، وذلك لأن الإسلام يحث دائماً على فعل ما هو خير؛ وقد جاء في الحديث الصحيح عند البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير».

وبمثل ذلك أمر الرسول ﷺ المسلمين أن يفعلوا، روى الإمام مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل». أي: وليفعل ما هو خير.

وبمثل ذلك أيضاً أمر الرسول ﷺ عبدالرحمن بن سمرة فيما رواه البخاري ومسلم.

فالإخلاف بالوعد أو بالعهد له أربع أحوال:

الحالة الأولى: التعبير العملي عند حلول أجل الوعد أو العهد عن الكذب في القول منذ إعطاء الوعد أو العهد، وهو في هذا يحمل رذيلة الإخلاف المستند إلى رذيلة الكذب.

الحالة الثانية: النكث والنقض لما أبرمه والتزم به من وعد أو عهد، وهذا يعبر عن ضعف الإرادة وعدم الثبات، وعدم احترام شرف الكلمة وثقة الآخرين بها، وهذا الخلق يفضي بصاحبه إلى النبذ من ملاك جماعة الفضلاء الذين يوثق بهم وبأقوالهم.

الحالة الثالثة: التحول إلى ما هو أفضل وخير عند الله، والانتقال إلى

ما هو أكثر طاعة لله، إلا أن هذه الحالة لا تكون في العهود العامة، التي تدخل فيها حقوق دولية، ولا في العهود التي ترتبط بها حقوق مادية للآخرين من الناس.

أمّا العهد مع الله في التزام أمرٍ من الأمور، فقد تجري المفاضلة بينه وبين غيره، لاختيار ما هو أقرب إلى طاعة الله وتحقيق مرضاته.

الحالة الرابعة: العجز عن الوفاء لسبب من الأسباب، ومن عجز عن الوفاء مع صدق رغبته به وحرصه عليه فهو معذور، لعدم استطاعته.

وأما حالة النسيان فهي من الأمـور العامـة التي تشمل كـل واجب أو مستحب، وتنطبق عليها أحكام النسيان العامة.

وصادق الوعد والعهد هو الذي يكون عازماً على الوفاء منذ إعطائه الوعد أو العهد، ويظل حريصاً على ذلك ما لم يمنعه مانع من التنفيذ يعذر به، أو كان ترك الوفاء استجابة لرغبة من كان الوعد أو العهد من أجله وابتغاء مرضاته أو مسرته.

وعد الله وعهده:

وأمّا وعد الله وعهده فليس لكلٍّ منهما إلّا حالة واحدة هي الصدق، والوفاء عند حلول الأجل.

أمّا الصدق فلأنه سبحانه يستحيل عليه الكذب، في أية حـال من الأحوال، وأما الوفاء فهو أمر تستدعيه حتماً صفات الله المثلى. فهو سبحانه وتعالى حينما يعطي الوعد أو العهد، فإنه يختار بحكمته العظيمة وعلمه المحيط بكل شيء أفضل الأمور التي تستدعيها الحكمة، وعلم الله لا يتخلّف وحكمته لا تنقض ولا تتبدل، ولا يكون في مرادات الله إلّا الثبات، وسيظل الأفضل هو الأفضل، وسيظل المراد الموعود به هو المراد الأفضل عند حلول أجل التنفيذ. ثم إنّ الله تبارك وتعالى قادر دائماً على تنفيذ ما يريد، وهو على كل شيء قدير، ثم إنه تبارك وتعالى لا يضلّ ولا ينسى، فلا يوجد ما يمنعه سبحانه من تنفيذ وعده أو عهده، قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢ ﴾.

ووعد الله الرسول وأصحابه في غزوة بدر أن يظفرهم بإحدى الطائفتين ـ العير أو النفير ـ فلم يخلف وعده سبحانه، بل أظفرهم بالنفير أقوى الطائفتين وأشدهما بأساً.

وكلما حقّق المؤمنون شروط وعد الله لهم بالنصر نصرهم الله، وهذه الظاهرة مطردة نشاهدها في كلّ المواقع التي كانت بين المؤمنين وأعدائهم، لكنّهم إذا أخلّوا بشروط النصر فلا وعد لهم عند الله بأن ينصرهم.

أمّا مواعدة الله موسى ثلاثين ليلة ثم زيادتها إلى أربعين، فهي زيادة فضلٍ، تشبه ما لو وعدت إنساناً أن تستضيفه ثلاثين يوماً، ثم زدت ضيافتك له عشرة أخرى، فليس في الوعد السابق نقض ولا تغيير، ولذلك جاء التعبير عن هذه الزيادة المضافة بالإتمام، فقال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ ١٤٢ ﴾.

الأمر بالوفاء بالعهد والوعد:

إنّ صدق الوعد والعهد والوفاء بهما من فضائل الأخلاق، ومن روائع الظواهر الحضارية.

أما الكذب في الوعد والعهد وعدم الوفاء بهما فمن رذائل الأخلاق ومن مظاهر التخلف الحضاري، وهما من أخلاق الأمم التي لا تحترم نفسها، ولا تكترث بارتقاء سلّم المجد الإنساني، بل تهون عليها أنفسها هواناً يرضيها بمواقع المهانة والضعة والانحطاط.

ولما أخذ الإسلام بأيدي المسلمين إلى قمم الفضائل ومعارج الحضارة

المثلى، كان من الأخلاق التي حثّ على التحلي بها صدق الوعد والعهد والوفاء بها، فقال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾.

وشبّه الله الذين ينقضون عهودهم ومواثيقهم بالمرأة الحمقاء، التي تغزل غزلها ثم تعود عليه فتنقضه من بعد قوّة أنكاثاً، فقال تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا . . . ﴿٩٢﴾ ﴾.

ووصف الله المؤمنين في سورة (المعارج ٧٠) ونظيره في سورة (المؤمنون ٢٣) بقوله:

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

وجعل الله الوفاء بالعهد من البر، وأبان أنّ من صفات البررة أنهم موفون بعهدهم إذا عاهدوا، فقال تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ . . . ﴿١٧٧﴾ ﴾.

ووصف الله أولي الألباب بأنّهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، فقال تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

ولمّا كان الوفاء بالعهد من الأخلاق الإيمانية ذات الدرجات الرفيعة أثنى الله على المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وذلك في معرض ذكر أحداث غزوة الأحزاب، فقال الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

أمّا المنافقون فقد نقضوا عهودهم في هذه الغزوة، فقال الله تعالى في شأنهم في سورة (الأحزاب ٣٣) أيضاً:

﴿ وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾.

والوفاء بالوعد والعهد والصدق فيهما من أخلاق الأنبياء والمرسلين، ومن الأخلاق التي دعت إليها الأديان الربانية كلها، وعنها ورثت الأمم ما تطبقه من فضيلتيهما، وقد أثنى الله على إسماعيل عليه السلام بأنه كان صادق الوعد، فقال تعالى في سورة (مريم ١٩):

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾.

وكأن الله قد خصص هذا الخلق من أخلاق إسماعيل بالذكر، ليشير إلى أنّ ما عرف عن العرب قبل الإسلام من محافظتهم العامة على خلق صدق الوعد والعهد والوفاء بهما، قد كان ممّا ورثوه عن إسماعيل عليه السلام من الملة الحنيفية.

ومن أمثلة التربية النبوية على فضيلة صدق الوعد، ما رواه أبو داود والبيهقي في شعب الإيمان، عن عبدالله بن عامر فقال: دعتني أمي يوماً ورسول الله قاعد في بيتنا، فقالت: ها، تعال أعطيك، فقال لها رسول الله ﷺ: «ما أردت أن تعطيه؟» قالت: أردت أن أعطيه تمراً، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنّك لو لم تعطيه شيئاً كتبت عليك كذبة».

فحين نعد أطفالنا بأن نعطيهم أشياء ثم لا نفي لهم بما نعدهم به فإننا نعلمهم على الكذب من جهة، ونعلّمهم على عدم الوفاء بالوعد من جهة أخرى، ونغرس فيهم أيضاً عدم الثقة بنا وبأقوالنا.

ومن روائع قصص صدق الوعد، ما رواه أبو داود عن عبدالله بن أبي الحسماء، قال: بايعت النبي ﷺ قبل أن يبعث[1] وبقيت له بقيّة، فوعدته أن آتيه بها في مكانه، فنسيت، فذكرت بعد ثلاث[2] فإذا هو في مكانه، فقال: «لقد شققت علي، أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك».

فهذا هو خلق الرسول ﷺ قبل أن يوحى إليه، إنه الإنسان الكامل، ولذلك اصطفاه الله وجعله مبلّغ خاتمة رسالاته للناس، وقد تخرّج في مدرسته أفذاذ في كلّ خلق كريم.

وعرف الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ما كان يخلف أحداً فيما يعده به، فلمّا تولّى الخلافة بعد وفاة الرسول أعلن على المسلمين قوله: من كان له على النبي ﷺ دين أو كانت له قِبَله عدةٌ فليأتنا، فجاءه من كان قد وعده الرسول بعطاء فوفّى عن رسول الله ﷺ وعوده.

روى البخاري ومسلم عن جابر بن عبدالله قال: لّما مات رسول الله ﷺ وجاء أبا بكر مالٌ من قبل العلاء بن الحضرمي، فقال أبو بكر: من كان له على النبي ﷺ دين أو كانت له قِبَله عِدَةٌ فليأتنا، قال جابر: فقلت: وعدني

---

(١) أي: جرت بينه وبين النبي مبايعة تجارية قبل النبوة.

(٢) أي: بعد ثلاث ليال على ما يظهر.

رسول الله ﷺ أن يعطيني هكذا، وهكذا، وهكذا، فبسط يديه ثلاث مرّات، قال جابر: فحثا لي أبو بكر حثية فعددتها فإذا هي خمسمائة، وقال: خذ مثليها!!.

وعن أبي جُحيفة قال: «رأيت رسول الله ﷺ أبيض قد شاب، وكان الحسن بن علي يُشبَّه به، وأمر لنا بثلاثة عشر قلوصاً[1] فذهبنا نقبضها، فأتانا موته، فلم يعطونا شيئاً، فلمّا قام أبو بكر قال: من كانت له عند رسول الله ﷺ عِدةٌ فليجيء، فقمت إليه فأخبرته، فأمر لنا بها» رواه الترمذي.

الإخلاف والغدر من صفات المنافقين:

والكذوب في مواعيده أو عهوده، والمخلف لها دون مبرّر شرعي، يلطّخ إنسانيته بعلامة من علامات النفاق، وذلك لأن من صفات المنافق أنه إذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر؛ والسبب في ذلك أنه منذ إعطائه عهده أو وعده لا يعزم في نفسه أنه سيفي، بل يريد التخلص من الموقف الذي هو فيه بأكذوبة.

ومن أهل النفاق في عهد الرسول ﷺ من عاهد الله أن يتصدّق ويكون من الصالحين، إذا أغناه الله وآتاه من فضله، فلمّا آتاه الله من فضله بخل وتولّى معرضاً، وتكشفت لدى الامتحان حقيقة نفسه، فأنزل الله قوله في سورة (التوبة ٩):

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾

لقد كذبوا في عهدهم وأخلفوا الله ما وعدوه، والله يعلم سرّهم

---

(١) القلوص: الناقة الفتية.

ونجواهم، وهو علاّم الغيوب، فكان هذا منهم نفاقاً، وأعقبهم الله نفاقاً في قلوبهم إلى يوم القيامة.

وذكر كثير من المفسِّرين أنّ هذه الآيات نزلت في «ثعلبة بن حاطب». وقد ورد في قصة ثعلبة حديث رواه ابن جرير عن أبـي أمامة الباهلي، والله أعلم.

البدء بنقض العهد غدر:

والإسلام يعتبر البدء بنقض العهد غدراً، سواء أكان عهداً مع المسلمين أو مع غيرهم.

والغادر يرفع له يوم القيامة لواء فضيحة بقدر غُدرته، يقال: هذه غُدْرَة فلان.

روى البخاري ومسلم عن أنس عن النبـي ﷺ قال: «لكل غادرٍ لواءٌ يوم القيامة يعرف به».

وروى مسلم والإمام أحمد عن أبـي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غُدْرَته ألا ولا غادر أعظم غُدرةً من أمير عامّة» وفي رواية عند مسلم زيادة: «يقال: هذه غُدرة فلان».

إنّ أكثر الذنوب يسترها الله يوم القيامة على عباده، حتى لا يفضحهم بها، لكنّ ذنب الغدر عظيم جدّاً، وآثاره خطيرة جداً، لذلك يفضح الله به فاعله يوم القيامة.

ولذلك لم يأذن رسول الله ﷺ لحذيفة بن اليمان وأبيه بأن يخرجوا مع المسلمين لمصادرة قافلة قريش، وهي الغزوة التي انتهت بموقعة بدر الكبرى، لأنّ حذيفة وأباه حينما خرجا مهاجرين إلى المدينة لم يتمكنا من الهجرة حتى أعطيا المشركين عهداً بأن لا يقاتلا مع الرسول وأصحابه.

روى مسلم والإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان قال: «ما منعني أن أشهد بدراً إلاّ أنني خرجت أنا وأبـي، قال: فأخذنا كفّار قريش فقالوا: إنّكم تريدون

محمداً؟ فقلنا: ما نريده، وما نريد إلّا المدينة، قال: فأخذوا منّا عهد الله وميثاقه لننطلق إلى المدينة ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر، فقال: انصرفا، نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم»!!.

فإذا نقض غير المسلمين عهدهم مع المسلمين جاز للمسلمين حينئذٍ أن ينقضوا عهدهم معهم، قال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾.

أي: يحبّ الموفين بعهدهم إذ الوفاء بالعهد من التقوى، وقال الله تعالى فيها أيضاً:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤﴾.

(ل) اليمين الغموس:

ومن أقبح صور الكذب، الكذب الذي يؤكد باليمين، وهو الحلف بالله لتوثيق الكلام الكاذب، وهذه اليمين الكاذبة الفاجرة هي اليمين الغموس، وقد سمّيت بهذا الاسم لأنّها تغمس صاحبها في الإثم الكبير، ثمّ تغمسه في النار. واليمين الغموس من أعظم الكبائر، وإنّما كانت كذلك لأنّ فيها استغلال ثقة المخاطب بأيمان الحالف بالله، وأنه لا يتجرأ على أن يحلف بالله كاذباً، فيصدّقه ويستسلم له، ويعتبر يمينه بقوة البيّنة.

وقد سئل رسول الله ﷺ عن اليمين الغموس فأجاب بأنها هي اليمين الكاذبة التي يقتطع بها حالفها مال امرىء مسلم بغير حقّ؛ روى البخاري عن عبدالله بن عمرو بن العاص، أنّ النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس» وفي رواية أخرى له أنّ أعرابيّاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما الكبائر؟ قال: «الإشراك بالله»

قال: ثمّ ماذا؟ قال: «اليمين الغموس» قلت: وما اليمين الغموس؟ قال: «الذي يقتطع مال امرئٍ مسلم».

يعني: يقتطع مال امرىء مسلم بيمين هو فيها كاذب.

وروى البخاري ومسلم عن ابن مسعود أنّ النبي ﷺ قال: «من حلف على مال امرىء مسلم بغير حقه لقي الله وهو عليه غضبان» قال ابن مسعود: ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقه من كتاب الله عزّوجلّ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾(1).

فالذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً هم الذين يبذلون عهد الله وأيمانهم بالله وهم كاذبون، مقابل تحصيلهم شيئاً من متاع الحياة الدنيا، وما أقلّ هذا الثمن الذي يأخذونه ويبذلون في مقابله سعادتهم في الآخرة، بسبب عهودهم وأيمانهم التي يكذبون فيها، وبئست هذه الصفقة الخاسرة يدفعون فيها شيئاً عظيماً ويشترون به ثمناً قليلاً!! إنهم لا خلاق لهم في الآخرة، أي: ليس لهم حظّ ولا نصيب من الخير ولا من السعادة، ولا يكلّمهم الله إعراضاً عنهم، لأنهم اتخذوا أيمانهم بالله وسيلة لمعصية الله، ولا ينظر إليهم نظر رحمة يوم القيامة. ولا يزكيهم، أي: ولا يطهرهم من ذنوبهم وآثامهم بالعفو والغفران، لأنهم لا يستحقون هذا التطهير، ولهم عذاب أليم.

إنّ مرتكب هذا الإثم العظيم يرتكبه ليستزيد من عرض الحياة الدنيا، ولكن لا يزيده الله إلاّ قلّة وفقراً، وهي معاقبة معجّلة من الله له بعكس ما يسعى إليه، فلا هو يصل إلى ما يريد من استكثار من عرض الحياة الدنيا، ولا هو يحافظ على سلامة دينه من كبائر الإثم، هذه هي سنّة الله في عباده.

---

(1) من سورة (آل عمران ٣).

روى البخاري ومسلم عن ثابت بن الضحّاك، أن الرسول ﷺ قال: «ومن ادّعى دعوى كاذبة ليتكثّر بها لم يزده الله إلاّ قلّة».

لغو اليمين:

واليمين التي يؤاخذ عليها هي اليمين المعقودة في القلب، والمقصودة لتوثيق الكلام، أما ما ينطق به اللسان من أيمان بحكم جريان العادة فلا مؤاخذة عليه، وهو من لغو اليمين، إذ لا يقصد منها الحلف ولا تأكيد القول، وهي كقولهم في غضون الكلام: لا والله وبلى والله.

على أن التربية الإسلامية توجه المسلمين لأنْ ينزّهوا الله تبارك وتعالى عن أن يجعلوه عرضة لأيمانهم، ولو كانوا صادقين في أقوالهم وبارّين متقين؛ قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾.

اليمين على نية المستحلف:

فإذا ألزم إنسان بيمين لإثبات أمر أو نفيه، فحلفها الحالف دون أن ينويها في قلبه، أو نوى شيئاً آخر غير الذي استحلف عليه، فلا تعتبر من لغو اليمين، بل هي يمين مقصودة، ولكنّ الحالف تحايل في نيته، فهو يؤاخذ عليها، ويعتبر فيها قصد المستحلف لا نية الحالف، روى مسلم عن أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال: «يمينك على ما يصدّقك عليه صاحبك» وأنه قال أيضاً: «اليمين على نية المستحلف».

فالكذب في مثل هذه اليمين لا ينفع فيه التحايل في النية، لأنّ المحاسبة فيها تكون بحسب نية المستحلف.

لا كفارة لليمين الكاذبة الفاجرة الغموس:

وإنّ اليمين الكاذبة الفاجرة لا كفارة لها شرعاً، وليس لصاحبها من سبيل

إلا باب التوبة، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خمس ليس لهنّ كفارة: الشرك بالله، وقتل النفس بغير حقّ، وبَهْتُ مؤمن[١]، والفرار يوم الزحف، ويمين صابرة يقتطع بها مالاً بغير حقّ».

اليمين الصابرة: هي اليمين الغموس.

أمّا الكفارة فيؤديها من حلف يميناً عقد قلبه عليها، على أن يفعل شيئاً أو يترك شيئاً، ثم لم يبرّ بيمينه، فهذا هو الذي تلزمه كفارة اليمين، ليتحلّل من التزامه تجاه ربّه، قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

— ٤ —
النفاق

النفاق انحراف خلقي خطير في حياة الفرد، وفي حياة الأمم، وتبدو خطورته الكبيرة حينما نلاحظ أنه يدخل في الدين أعظم القيم في الحياة، وحينما نلاحظ أيضاً آثاره على الحركات الإصلاحيّة الخيّرة، إذ يقوم بعمليات الهدم الشنيع من الداخل، وصاحبه آمن مستأمن لا تراقبه الأعين، ولا تحسب حساباً لمكره ومكايده.

وأبرز ما في النفاق أنه مظهر من مظاهر خلق الكذب، على أننا لدى التحليل نلاحظ أنه سلوك مركب يرجع إلى عناصر خلقية متعدّدة، فإذا جمعنا الجبن، والطمع بالمنافع الدنيوية، وجحود الحق، وخلق الكذب، تولد عنها في

---

(١) أي: اتهامه بما لم يفعله.

سلوك الفرد ما نسميه بالنفاق، ثم يظهر نظير ذلك في سلوك الجماعة حينما تكون فيها هذه العناصر الخلقية المنحرفة عن السبيل الأقوم.

فلولا أن يكون المنافق جباناً، أو صاحب طمع شديد بالمنافع الدنيوية التي يترقبها إذا هو تظاهر بالإسلام، لما سلك مسلك النفاق، ولما كان له وجهان، وجه مع الكافرين، ووجه يخادع به المؤمنين، ولوَجَد الجرأة الكافية على أن يعلن جحوده للمؤمنين، ويقف صراحة في صف الكافرين، لكنّ جبنه الشديد يمنعه من ذلك، فهو يخشى أن يتظاهر بموقفه العدائي للمسلمين، كما أن طمعه الشديد بمشاركته المسلمين في الغنائم التي يظفرون بها من أعدائهم يجعله يتظاهر بأنه منهم. فالجبن والطمع مع خلق الكذب من العوامل الرئيسية التي يتولد عنها النفاق.

ولولا أن يكون المنافق جحوداً للحقّ كنوداً؛ لرَدعه إيمانه وحبه للحق عن سلوك مسلك النفاق في الدين. فالذي يحب الحق، ولا يحلو له الجحود، ولا يطيب له الكنود، لا ينافق وإن كان جباناً أو شديد الطمع، لأنه سيجد فيما يؤمن به من حق مخاوف تردعه عن الباطل، ومطامع تجعله يلتزم سبيل الحق والخير، ويمتص سبيل الحق والخير الديني جبنه وطمعه، فلا يبقى لديه منهما ما ينزع به إلى النفاق.

ولولا أن يكون المنافق كذّاباً ــ أي: لولا أن يكون خلق الكذب أصيلاً في نفسه ــ لما طاوعته نفسه أن يلتزم سبيل النفاق، لأن النفاق عملية كذب دائم في القول والعمل، وهذا لا يستطيعه ولا يحسنه إلا كذاب أشر، ممتهن للكذب جريء عليه وقحٌ في التزامه، قادر على أن يبهت الناس في وجوههم، وذلك بأن يفتري عليهم الأقاويل، ويواجههم بها، ويحلف على ذلك الأيمان المغلظة دون أن يتلجلج أو يتلعثم أو يتلكأ، وعلى مقدار مهارة المنافق في الكذب يكون تعمقه في درك النفاق.

فالنفاق خلق مركب، وليس خلقاً بسيطاً، إنَّه طبخة شيطانية معقدة.

وأخف دركات النفاق أن يتخذ المنافق وجهين، يستعلن بأحدهما، فيرضي

بظاهره جماعة المسلمين، كاتماً عنهم الوجه الآخر، ويستخفي بالآخر ويتآمر به مع الكافرين الصرحاء، مخبراً لهم في السر أنه معهم، وأنه يريد أن يتظاهر بالانضمام إلى المسلمين ليخدم بذلك مصالح أعدائهم، دون أن يحذر المسلمون مكايده التي يدبرها ضدهم وهو ضمن صفوفهم. وهذا الوجه الذي يظهر به لإخوانه الكافرين الشياطين وجهٌ يسرّهم، لأنهم يعتبرونه جاسوساً لهم في صفوف المسلمين، وما يظهر به من الإسلام إنما هو مخادعة للمسلمين، بغية خدمة مصالح أعدائهم.

وأشد من ذلك المنافق الذي يخادع المؤمنين ويخادع أعداءهم معاً، وهو لا من هؤلاء ولا من هؤلاء، وهذا مزدوج النفاق، ويمكن أن نمثل له بيهودي تظاهر بالإسلام ليخادع المسلمين، ثم يخلو بالمشركين فيسر لهم بأنه سيخدم مصالحهم داخل صفوف المسلمين، مقابل منافع يرجوها من المشركين، ثم إذا خلا بإخوانه الشياطين من اليهود كشف لهم وجهه الحقيقي وقال لهم: إني منكم، وإني أخادع من أجلكم المسلمين والمشركين الوثنيين بوجهين مختلفين.

وقد يوجد منافق مثلث النفاق أو مربعه أو أكثر من ذلك.

ومن الجواسيس الدوليين من يفعلون أكثر من ذلك، وإن خطر هؤلاء المنافقين الماكرين أشد من خطر جيوش كبيرة محاربة، لأنها تحارب من مواقع الحذر، أما المنافقون فيحاربون من مواقع الأمن، وهي المواقع التي لا رقابة فيها وليس فيها تحصينات تدفع مكايد العدو المخالط المداخل.

إنه كاللص المجهول المساكن في الدار الذي تصعب مراقبته، ولذلك كانت عقوبته أشد من عقوبة الكافر المستعلن بعداوته، ولذلك كانت منزلته في الدرك الأسفل من النار.

النفاق في الدين أصليٌّ وطارىء:

تدفع المصلحة الدنيوية بعض الناس إلى أن يتظاهر بالانتساب إلى الإسلام وهو غير مؤمن به من قلبه، فيكون منافقاً منذ الفترة الأولى لإعلانه الإسلام، ثم يستمر على نفاقه، فهذا هو النفاق الأصلي الذي لم يُسبق بإسلام صحيح.

وقد يعلن بعض الناس إسلامهم وهم صادقون غير كاذبين، ثم يطرأ الشكّ على قلوبهم، بعد تعرّضهم لامتحانات مختلفة يمتحن الله بها صدق إيمانهم، فيرتدون عن الإسلام ارتداداً داخلياً، ويخشون إعلان ردتهم ويستمرون على التظاهر بالإسلام، مخافة إجراء أحكام الردّة عليهم، أو مخافة فوات منافع أو مصالح تأتيهم بوصفهم مسلمين، ومن ذلك خسارتهم مكانتهم في مجتمعهم، وتعرضهم للذمّ والنقد والتلويم، إلى غير ذلك من صور الضغط الاجتماعي، فهذا هو النفاق الطارىء الذي طرأ بعد إسلام صحيح.

وقد تتكرر العملية عند بعض الناس بسبب عوارض الشكّ التي تأتي من جراء امتحانات مختلفة، فيرجعون إلى صدق الإسلام، ثم يعودون إلى الكفر في قلوبهم، ويظل ظاهرهم في مختلف الأحوال مستمراً على الإعلان الأول الذي أعلنوا فيه إسلامهم، وهؤلاء يقال فيهم: إنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثمّ ازدادوا كفراً.

وقد دلّ على النفاق الطارىء بعد إسلام صحيح ما وصف الله به طائفة منهم، وذلك في قوله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

فقوله تعالى: ﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه﴾ يشعر بأنّ النفاق لم يكن من قبل الامتحان بالغنى، وأنه لما حصل الامتحان ونكثوا عهودهم مع الله ولّد ذلك نفاقاً في قلوبهم، أي: ولد كفراً في قلوبهم وردّة داخلية، مع استبقاءٍ في الظاهر للإسلام الذي كانوا قد التزموا به، وإنما استبقوا ظاهر إسلامهم لأنهم خافوا من إدانتهم بالردّة ومن إجراء أحكامها عليهم.

فالردّة عن الإسلام كما تكون ردّة علنية يعلن فيها المرتد كفره الصريح، تكون ردّة مكتومة، وذلك بالكفر القلبـي، مع استمرار التظاهر بالإسلام.

وقد يدل عليه أيضاً قول الله تعالى في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ ﴾.

إذ أثبت لهم الإيمان أولاً، وعطف عليه إثبات كفرهم بحرف العطف الدالّ على التراخي، فدلّ على أن كفرهم القلبـي كفرٌ عارض وليس أصلياً، مع أن الحديث عن المنافقين.

ووصف الله طائفة من المنافقين بالتردّد بين الإيمان والكفر أكثر من مرة، فقال تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ۝١٣٧ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣٨ ﴾.

صفات المنافقين والظواهر السلوكية لخلق النفاق:

لكلّ خلق أو مجموعة أخلاق ظواهر في السلوك تدلّ عليه، مهما حاول صاحب الخلق إخفاء أمره، ومن أسرّ سريرة ألبسه الله منها رداء يكشف عنها ويدلّ عليها. وتكون الظواهر السلوكية مناسبة لقوة دوافع الخلق أو مجموعة الأخلاق.

وكما أنّ المعادن والعناصر والمركبات المادية والثمرات لها ظواهر تكشف عن حقيقتها ــ وهذه الظواهر لا تتخلف، وتكون بمقدار نسبة العناصر أو المعادن أو الموادّ الجوهرية الداخلة فيها ــ فكذلك الأخلاق النفسية، والدوافع الداخلية لا بدّ أن يكون في الظواهر السلوكية ما يدل عليها، باعتبار أن الإنسان في داخله وفي خارجه وحدة متشابكة، يؤثر بعضها ببعض ويتأثّر بعضها ببعض.

وتكاد تكون سنن الأشياء وطبائعها وسُنَن الأحياء وطبائعها متشابهة في قوانينها الكلية.

ولذلك شبه القرآن بعض أنواع من السلوك البشري ببعض أنواع من سلوك الأشياء في الطبيعة.

وقد أفاض القرآن الكريم في بيان صفات المنافقين والظواهر السلوكية

لخلق النفاق في مواطن شتى، حتى عرّى المنافقين من كلّ أغشية الخداع التي يحاولون بها ستر أكاذيبهم وإخفاء نفاقهم.

ففي أوائل سورة (البقرة ٢) جاء الكلام عن صفات المنافقين في ثلاث عشرة آية، بينما جاء الكلام عن صفات المؤمنين في ثلاث آيات، وعن الكافرين الصرحاء في آيتين، وهذا يدل على خطر النفاق والمنافقين البالغ على الدعوة الربانية، وعلى جماعة المسلمين، ولدى التأمل النظري والتجربة الواقعيّة يتبينّ أن المنافقين أشد خطراً ونكاية من الكافرين الصرحاء، لأنهم يكيدون ويمكرون وهم مخالطون مداخلون مأمون جانبهم.

وفي هذا النص المشار إليه من سورة (البقرة) جاء تعريفهم وبيان طائفة من صفاتهم وظواهرهم السلوكية:

١ ـ إنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فيقولون آمنا بالله وباليوم الآخر، وما هم بمؤمنين، إذ قلوبهم منكرة جاحدة، فهم يكذبون عن تعمد وإصرار، وليس كذبهم هذا في أمور صغيرة أو عادية، ولكنه كذب في الدين، كذب في العقيدة وفي إعلان منهج الحياة. وفي بيان هذه الظاهرة من ظواهرهم السلوكية، التي هي بمثابة التعريف المميز لهم، يقول الله تعالى في النص:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

٢ ـ إنهم فيما يتظاهرون به من قول أو عمل يقصدون مخادعة الذين آمنوا، ليأمنوا جانبهم، وليأمنوا جانب أعدائهم، ويظفروا بالمغانم والمنافع من كلا الفريقين بحسب تصورهم. وفي بيان هذه الظاهرة من ظواهرهم السلوكية يقول الله تعالى في النص:

﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

وقد نتساءل: كيف يتصورون أنهم يخادعون الله مع أن الله مطلع على ما يسرون وما يعلنون؟.

ونجيب بأنهم حينما يخادعون الرسول والمؤمنين بحسب تصورهم فإنما يحاولون في واقع الأمر مخادعة الله، لأن الله مع رسوله والمؤمنين مؤيداً وناصراً،

وكاشفاً لأوليائه خطط أعدائه، فهم في مخادعتهم يكبو بهم ذكاؤهم في حفرةٍ سحيقةٍ من حفر الحماقة والغباء.

وفعل (يخادعون) يدل على أنهم يبالغون جداً في استخدام الخداع ويمعنون فيه، حتى كأن معركة المخادعة التي يشترك فيها الخصمان قائمة بينهم وبين المؤمنين.

هذا ما يقصدونه، ولكنهم في الحقيقة لا يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون، وذلك لأن ما يخدعون به مكشوف كلُّه لله، والله يدبر لهم ما يفسد خداعهم ويعيد شرَّهم عليهم، وينصر رسوله والمؤمنين، فيكون حالهم بذلك كحال من يخدع نفسه، لأن خداعهم يعود عليهم.

إن الذي يخدع من لا يُخدع ويعرض نفسه لعقوبته وانتقامه إنما يخدع نفسه.

٣ ـ في قلوبهم مرض خلقي هو السبب في سلوكهم مسالك النفاق، وهذا المرض عرض طارىء وليس من أصل التكوين الفطري، ولذلك سمّاه الله مرضاً، وكذلك سائر الأمراض. ولدى البحث عن هذا المرض يتبين لنا ما سبق ذكره من الجبن، والطمع الشديد بالمنافع والمغانم الدنيوية، وخلق الجحود والكنود، وخلق الكذب. وفي بيان هذا الوصف من أوصافهم، يقول الله تعالى في النص:

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿فزادهم الله مرضاً﴾: بيان للعقوبة المعجلة التي يعانون من آلامها عن طريق مرض قلوبهم نفسه، الذي جعلهم يسلكون مسالك النفاق، فعذاب النفس من خلق الخوف الذي يتولد عن الجبن، ويزيده الخوف من انكشاف أمرهم وهتك سترهم، وعذاب النفس الذي يولده الطمع وخوف الحرمان، وعذاب الضمير الذي قد يحدث نتيجة جحود الحق والاستمرار على تلفيق الأكاذيب ومخالفة طبيعة الفطرة، كل ذلك من العقوبات المعجلة التي يعانون من آلامها المتفجرة من داخل أنفسهم، وعن طريق المرض نفسه الذي جعلهم ينافقون.

أما العقوبة المؤجلة فجاء بيانها في قوله تعالى: ﴿ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾.

٤ – ومن ظواهرهم السلوكية أنهم يفسدون في الأرض بأقوالهم وأعمالهم، فإذا قيل لهم: لا تفسدوا في الأرض، بهتوا الحقيقة بكل وقاحة، وجعلوا الباطل حقاً والحق باطلاً، دونما حياء ولا تلجلج، وقالوا: إنما نحن مصلحون، وأخذوا يبررون سلوكهم المنافق المفسد بأنه من الأعمال الإصلاحية، وربما كانت غلبة أهوائهم عليهم تجعلهم يتصوَّرون أن ما يفعلونه إنما هو من قبيل الإصلاح ولا إفساد فيه. وفي بيان هذا من أوصافهم يقول الله تعالى في النص:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

أي: لا يشعرون أنهم هم المفسدون، بل يتصورون أن خطتهم خطة إصلاح، وقد يشعرون بأن خطة المسلمين خطة إفساد.

٥ – ومن ظواهرهم السلوكية أنهم يزعمون لأنفسهم الذكاء ورجاحة العقل، وحسن التصرف في الأمور، للتخلص من المآزق الحرجة التي يواجهونها، ويرون أن المؤمنين الصادقين في إيمانهم أناس سفهاء، ناقصو العقل قليلو التفكير. وفي بيان هذا من أوصافهم يقول الله تعالى في النص:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

فلو كشفوا عن حقيقة الأمر لعلموا أنهم هم السفهاء ناقصو العقل قليلو التفكير، لأنهم بما يسلكون يدفعون بأنفسهم إلى مواقع الآلام المعجلة والشقاء الأبدي، ومن أكثر سفاهة ممن يفعل بنفسه مثل ذلك؟

وهذه الظاهرة ملاحظة في كل الذين لا يكترثون بالدين، ولا يقيمون له في نفوسهم وزناً، إنهم يتصورون أن المتدينين ضعفاء العقول ناقصو التفكير،

تؤثر عليهم الأوهام وتستولي عليهم الخرافات، لكن أكثر الناس ذكاءً ورجاحة عقل هم مؤمنون متدينون، يعرفون كيف يبنون في حاضرهم مستقبلهم السعيد، وكيف يحمون أنفسهم من المخاطر المرتقبة. والأنبياء من أذكى الناس وأرجحهم عقولاً، ولئن كان يوجد في المتدينين من هم أقل ذكاء من بعض الذين لا يقيمون وزناً للدين، فإن فطرتهم السليمة أعطتهم شعوراً فطرياً بالحقيقة، فرؤيتهم لها أو إحساسهم بها أصح من رؤية أنصاف الأذكياء الذين رفضوا دين الله لعباده.

ولدى التمحيص نلاحظ أن الذين لا يؤمنون يظل الشك والتخوف يملأ قلوبهم قلقاً واضطراباً، فهم السفهاء ناقصو العقل، وإن كانوا في أعمال الخبث والمكر والكيد أذكياء، فذكاء المجرم لا قيمة له في ميزان العقل الصحيح، ومن أجل ذلك وصفهم الله بأنهم هم السفهاء لا المؤمنون، وأعاد عليهم الوصف الذي وصفوا به المؤمنين.

ولا تخفى نزعة العجب والكبر والاستعلاء والغرور بالنفس، واستنكار دعوتهم إلى الإيمان الصادق، في مقالتهم: «أنؤمن كما آمن السفهاء؟!».

نعم لا يعلمون هذه الحقيقة فيهم، وهم يزعمون أنهم أذكياء جداً، وهذا الزعم يملؤهم غروراً بأنفسهم، والغرور بالنفس يغشي على صاحبه فيخفي عنه وجه الحقيقة.

٦ ــ ومن ظواهرهم السلوكية أن لهم أكثر من وجه، فلهم وجه يستعلنون به إذا لقوا الذين آمنوا، ولهم وجه آخر يتوارون به ولا يظهرونه إلا إلى شياطينهم، أي: إلى إخوانهم الكافرين أمثالهم، أو إلى الموسوسين لهم بأن يسلكوا مسلك النفاق من شياطين الإنس، كاليهود، ويبررون لإخوانهم هذا التلون بأنهم يستهزئون بالمؤمنين، أي: يستغفلونهم، ويخدعونهم، ويغررون بهم، ويترصدون غراتهم، للإيقاع بهم، أو التخلي عنهم في أوقات الشدائد. وفي بيان هذا من أوصافهم يقول الله تعالى في النص:

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

وطريقة المنافقين في الاستهزاء طريقة منافقة مستخفية غير مستعلنة، وليست مثل طريقة استهزاء الكافرين الصرحاء، فللكافرين الصرحاء طريقة أخرى في الاستهزاء، هي طريقة الذي يواجه خصمه بهزئه.

وقد يدرك المؤمنون أن المنافقين يستهزئون بهم، وذلك من خلال تصرفاتهم وفلتات ألسنتهم. ومعلوم أن المنافق إذا كان في مجلس من يخدعهم بنفاقه، ورأى أو سمع ما لا يعجبه؛ انفعلت نفسه تجاهه بحركة خفية من حركات الهزء والسخرية، ثم يسارع إلى كتمها وإخفائها لئلا تدل على حقيقته. ومهما يكن من أمر فإن الله مطلع عليهم، وهو ينتصر لأوليائه، فيستهزىء من أعدائه، فيملي لهم، ويمدهم في طغيانهم يعمهون، أي: يترددون متحيرين لا يدرون على أي منهج يسيرون، هذا معنى يعمهون، والعمه أيضاً يكون في الفكر والبصيرة كالعمى في البصر.

ثم جاء في النص الحكم عليهم وتقويم سلوكهم في الحياة، وبيان موقعهم في الظلمات، وكشف واقع الخسران العظيم الذي دفعوا أنفسهم إليه.

٧ ـ ومن ظواهرهم السلوكية أنهم يتخذون أيمانهم الكاذبة جُنةً يقون بها أنفسهم، ويسترون بها أعمالهم المخالفة لما أعلنوه من الإسلام، ويسترون بها جرائمهم وما يخفون من عداء وكراهية.

وفي بيان هذا من أوصافهم يقول الله تعالى في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢ ﴾.

إنهم يعلمون من أنفسهم الكذب، فيتصورون أنّ الناسِ لا يُصدِّقونهم، فيسارعون إلى الأيمان الكاذبة الفاجرة، ليقوا بها أنفسهم، ويُغَشُّوا بها على أعين المؤمنين، حتى لا يروا فيهم واقع حالهم الكاذب.

هذه الأيمان الكاذبة يحلفونها ليصدقهم المؤمنون بأنهم منهم، ويحلفونها أيضاً كلما فعلوا أمراً من شأنه أن يكشف نفاقهم.

أما أيمانهم التي يحلفونها ليثبتوا بها أنهم صادقون في إسلامهم غير كاذبين، فقد أوضحها الله تعالى بقوله في سورة (التوبة ٩):

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

إنهم يحلفون، لأنهم يفرقون، أي: يخافون خوفاً شديداً من انكشاف نفاقهم، فلو يجدون ملجأً يلجأون إليه، أومغارات يأوون إليها، أومدخّلاً يتوارون فيه، لولّوا إليه وهم يجمحون، أي: يسرعون في جموح كجموح الخيل، وفي هذا تصوير لحالة فَرَقهم الشديد، وخوفهم من أن تلاحقهم نقمة المسلمين.

ومن أمثلة هذه الظاهرة السلوكية للمنافقين ما يلي:

أولاً: اجتمع نفر من المنافقين، فتكلموا في حق رسول الله ﷺ بما لا ينبغي، مما يؤذيه صلوات الله عليه، فقال بعضهم: لا تفعلوا هذا فإنّا نخاف أن يبلغ ما نقول محمداً فيعْرف أمرنا وينتقم منا، فقال أحدهم وهو (الجُلاس بن سويد): نقول ما شئنا، ثم نأتيه فننكر ما قلنا ونحلف له على ذلك، فيصدقنا، إنما محمد أذن (أي: هو يبني أحكامه على مقدار ما يسمع من أقوال الناس، فما يبلغه عنّا ننكره ونحلف له الأيمان على ذلك، فيصدقنا ولا يكتشف كذبنا) فأنزل الله في شأنهم قوله في سورة (التوبة ٩):

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾.

ثانياً: كان نفر من المنافقين يوالون اليهود وينقلون إليهم أسرار المؤمنين،

فاجتمعوا ذات مرّة فجعلوا يشتمون الرسول ﷺ فعلم الرسول بهم عن طريق الوحي، وكان في حجرة من حجراته، فقال لجلسائه: يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبّار، وينظر بعين شيطان، فدخل المنافق (عبدالله بن نبتل) وكان أزرق، وكان من النفر الذين شتموا الرسول ﷺ فقال له الرسول: عَلامَ تشتمني أنت وأصحابك؟ فحلف بالله أنه لم يفعل شيئاً من ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: فعلتَ، فانطلق المنافق فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما سبّوه ولا شتموه، فأنزل الله تعالى قوله في سورة (المجادلة ٥٨):

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ ﴾.

ثالثاً: لما دعا الرسول صلوات الله عليه المسلمين للخروج إلى قتال الروم على مشارف الشام، في الغزوة المسمّاة بغزوة تبوك، أخذ المنافقون يتهربون من الخروج إلى هذه الغزوة، فبعضهم جاء إلى رسول الله ﷺ يلفّق له الأعذار ويحلف له، وبعضهم نشط في تثبيط الناس عن الخروج مع الرسول، وكثير منهم توارى عن الأنظار، وتخلّف فلم يشهد الغزوة، ولم يستجب لأمر الرسول، ولكنّه قرّر في نفسه أن يلفّق الأعذار للرسول عند عودته، ويحلف الأيمان المغلظة على ذلك كذباً وفجوراً، وبعضهم خرج مع الرسول وشهد الغزوة كارهاً، يبتغي من خروجه الإفساد والشر بالمسلمين، ودسّ الدسائس وإلقاء الفتن، وتثبيط من يستمع إليه من المسلمين، وإلقاء الريب في قلوبهم، وتوجيه الانتقادات الهمسيّة الخفية لتصرفات الرسول صلوات الله عليه.

٨ ــ ومن صفات المنافقين أن النفاق فيهم قد يتحول من ممارسة غير صادرة عن خلق أصيل في النفس، إلى خُلق يتولد عنه انطماس البصيرة، والطبع على القلوب، حتى لا تجد المعارف الحقيقية والمذكرات بالله واليوم الآخر منافذ تنفذ منها إلى مواطن إدراكها، فهم لا يفقهون ما يسمعونه من دعوة إلى

الحق والخير والهدى، وفي بيان هذا من صفاتهم قال الله تعالى في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ ﴾.

إنهم لما سلكوا مسلك النفاق، وجعلوه خطّةً دائمة لهم، فتذبذبوا بين ظاهر الإيمان وباطن الكفر، وأتقنوا صناعة التلوّن بعدّة ألوان، واتخاذ عدّة وجوه، ومهروا في ستر أنفسهم بالمظاهر الكاذبة من أقوال وأعمال، أكسبهم ذلك جرأةً على الجريمة، وجرأة على تغطية الجريمة بحلف الأيمان الكاذبة الفاجرة، حتى يظنّهم من يشاهدونهم لأول مرّة أنهم صادقون، لأنهم في أقوالهم الكاذبة وأيمانهم الفاجرة لا يتلجلجون، فالكذب صار خلقاً لهم، وبمثابة الأخلاق الفطرية، فتسبب لهم كل ذلك بإغلاق منافذ قلوبهم المدركة، وبإقفالها، ثم الطبع عليها بالخاتم، إشعاراً بعدم الإذن بجواز فتحها، فانطمست بصائرهم، فهم لا يفقهون الأمور، ولا يتدبّرونها، ولا يتبصّرون بالنتائج ولا بالعواقب الوخيمة للأعمال الفاسدة المفسدة، لذلك فهم ينطلقون في جرائم نفاقهم بجرأة ووقاحة كأنهم هُداة مصلحون غير مفسدين.

٩ ــ ومن صفات المنافقين أن ظواهرهم قد تُعجب الناظرين، وأن أقوالهم ترضي السامعين، وفي بيان هذا من صفاتهم قال الله تعالى في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ . . . ۝٤ ﴾.

فهم يتصنعون الظواهر التي تخدع الأنظار، حتى تظن فيهم خيراً، ويعتنون بتحسين أجسامهم وتزيين أعمالهم مما يكسبهم وجاهة ومكانة بين الناس، فلا تدل أجسامهم ولا مظاهرهم على أنهم منافقون أخباث.

وإن يقولوا تسمع لقولهم، لأن لديهم القدرة على تنميق أقوالهم وتزيينها،

فهم إذا تحدثوا استمالوا سامعيهم وأثّروا فيهم، وقد كان زعيم منافقي المدينة عبدالله بن أبـي بن سلول رجلاً جسيماً فصيحاً.

١٠ ــ ومن صفات المنافقين أنهم إذا حضروا مجالس العلم والموعظة والتذكير بالله حضروا بأجسامهم فقط، وعقولهم وقلوبهم في أودية أهوائهم وشهواتهم وأغراض دنياهم، فكأنهم في هذه المجالس الإسلامية الربانية خُشُبٌ مسنّدة. وفي بيان هذا من صفاتهم قال الله تعالى في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ . . . ﴿٤﴾ ﴾.

فكانوا إذا حضروا مجالس الرسول العامة حضروا بأجسامهم فقط، لكنهم بأفكارهم وقلوبهم غائبون، لا يفقهون مما يقول الرسول شيئاً، فحضورهم في هذه المجالس كحضور أعمدة من الخشب مسنّدة على الجدُر حتى لا تسقط، فهي لا تفقه ولا تعي شيئاً مما يجري حولها، ولذلك كانوا يقولون إذا خرجوا من مجلس الرسول: «ماذا قال آنفاً؟» قال الله تعالى في سورة (محمد ٤٧):

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾.

١١ ــ ومن صفات المنافقين أنهم في حالة مستمرة من الذعر والقلق والخوف من انكشاف خياناتهم، وفي حالة تخوّف دائم من أن ينكشف كفرهم فيصدُر النداء لقتالهم والنكاية بهم، لذلك فهم يحسبُون كل صيحةٍ مسلّطةً عليهم. وفي بيان هذا من صفاتهم قال الله تعالى في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

ففي قول الله: ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾ تعبير بارع ورائع عن حالة

الذعر والقلق التي تلازم قلوبهم، إنهم يتحيّرون ويتردّدون ويضطربون وهم يسيرون في طريق الخيانة والمخادعة، والخائن المخادع من شأنه أن يستولي عليه الذعر والقلق، فهو على طول طريق الخيانة خائف جبان رعديد حذِرٌ من كل شيء، إنه يخشى ظلّه إذا اتبعه، ويخشى الطائر إذ نفر منه، وربما علق ثوبه بعود شجرة فظنّ أن الطلب قد أدركه، ويحسبُ كل صيحة يسمعها أنها تنادي بالقبض عليه، لمحاسبته ومعاقبته على خيانته التي يسير في طريقها ظالماً آثماً.

ولا بدّ أن تكون عداوة هؤلاء الخائنين الخائفين أشدّ من عداوة الكافرين المجاهرين بكفرهم وبعداوتهم، ولذلك قال الله تعالى: ﴿هم العدوّ فاحذرهم﴾ أي: هم البالغون بعداوتهم الدرجة القصوى، وهم الذين تجب المبالغة في الحذر منهم؛ بترقّب كل حركة من حركاتهم، ومراقبة كل تصرف من تصرفاتهم، قاتلهم الله وأخزاهم وأفشل خططهم.

أنّى يؤفكون؟! أي: كيف يصرفون عن طريق الحق، طريق الهداية والرشاد، فيسلكون سبل الكفر والضلال، سبُل النفاق والخيانة والمخادعة؟!.

١٢ ــ ومن صفاتهم أنهم لا بدّ أن تصدر عنهم تصرفات قولية أو عملية تدل على نفاقهم، وأنهم في قلوبهم منكرون كافرون، وفيما يلي عرض لطائفة من مواقفهم:

(أ) ففي غزوة أُحد انخذلوا عن الرسول ﷺ ولم يستكملوا مسيرتهم، فدل ذلك على نفاقهم، وكان من عادة زعيمهم عبدالله بن أبـي بن سلول قبل هذه الغزوة إذا جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام عبدالله بن أبـي فقال: أيها الناس هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم، أكرمكم الله وأعزكم به، فانصروه وعزروه، واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس!!.

فلما كان منه ما كان من خذل فعْليّ للرسول في أُحد، وجاء يوم الجمعة، قام عبدالله بن أبـي يفعل مثلما كان يفعل، فأسكته المسلمون وأخذوا بثيابه من نواحيه، وقالوا له: اجلس أي عدوّ الله، لست لذلك بأهل، فخرج مقهوراً ذليلاً يتخطى رقاب الناس، فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد، فقال له:

ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ فقال: والله ما أبتغي أن يستغفر لي، فأنزل الله قوله في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٦﴾.

إنه إذا غفر لهم فقد قرّر بغفرانه أنهم من أهل الهداية، لكنهم في واقع أمرهم من أهل الضلالة والفسق، والله لا يهدي القوم الفاسقين، فلا يحكم لهم بالهداية وهم في قلوبهم وإراداتهم الجازمة كافرون فاسقون، ولا يقضي لهم في حكمه العادل بأنهم مهديُّون، فلا يجعلهم في زمرة الذين اهتدوا.

(ب) وفي غزوة بني المصطلق جرى شجار بين أجير لعمر بن الخطاب، وهو من بني غفار، وبين سنان بن وبَر الجهني، وهو حليف الخزرج، فاستغل عبدالله بن أبـي بن سلول هذا الشجار وهو خزرجي، وكان عنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم وهو غلامٌ حدث السنّ، فقال ابن أبـيّ: أوَ قد فعلوها؟ قد نافرونا[1] وكاثرونا في بلادنا والله ما أعدنا وجلابيب[2] قريش إلا كما قال الأول: سمّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذلّ. ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم، فأنزل الله قوله في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى

(١) نافرونا: فاخرونا وغالبونا في نفرهم.

(٢) جلابيب قريش: لقب أطلقه المشركون على المهاجرين من مكة إلى المدينة، كأنهم شبهوهم بذوات الجلابيب.

ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

وهذه هي خطة المنافقين في كل زمانٍ ومكان، يعمدون إلى محاربة المسلمين الصادقين في أرزاقهم، ليتفرقوا عن زعمائهم المخلصين في الدعوة إلى الله.

وعلم الرسول بما قال زعيم المنافقين ابن أبـي، إذ أخبره زيد بن أرقم بما سمع منه، وكان عند الرسول ﷺ عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله، مُرْ به عَبَّاد بن بِشْر فليقتله، فأجابه رسول الله ﷺ بقوله: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، لا ولكن أذِّن بالرحيل» وكان ذلك في ساعة لم يكن الرسول يرتحل فيها، فارتحل الناس. ولما ركب الرسول مرتحلاً لقيه أسيد بن حُضير، فحيّاه بتحيّة النبوة وسلّم عليه، ثم قال: يا نبـي الله والله لقد رحت في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: «أو ما بلغك ما قال صاحبكم»؟! قال: وأيّ صاحب يا رسول الله؟ قال: «عبدالله بن أبـي»؛ قال أسيد بن حُضير: وماذا قال؟ فقال الرسول ﷺ: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذلّ» قال أسيد: فأنت يا رسول الله والله تخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز. وعلم ابن أبـيّ أن الرسول بلغه ما قال بين جماعته، فجاء إلى الرسول فحلف له بالله أنه ما قال الكلام الذي بلغه عنه، وهي عادة المنافقين في ستر جرائمهم بحلف الأيمان الكاذبة الفاجرة، ليتقوا بها عقوبة ما يرتكبون.

ثمّ جاء إلى رسول الله ﷺ ولد عبدالله بن أبـي، وكان هذا الولد مؤمناً صادقاً، فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل أبـي فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بدّ فاعلاً فمرني به، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبدالله بن أبـيّ يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار، فقال له رسول الله ﷺ: «بل نترفّق به ونحسن صحبته ما بقي معنا».

(ج) وفي غزوة بدر الكبرى توقع المنافقون أن تحل بالمؤمنين الذين خرجوا مع الرسول هزيمة منكرة، لقلة عددهم وعدّتهم، فجعلوا يقولون: غرّ هؤلاء دينهم، ولكن الله أيدّ المؤمنين بنصره المبين، فأثبت للمنافقين أن المؤمنين الصادقين لم يغُرَّهم دينهم، بل نصح لهم، وأخذ بأيديهم إلى صراط الهداية والسعادة والمجد العظيم، وأثبت لهم أن أهل النفاق هم الذين غرتهم أهواؤهم وشهواتهم ومصالحهم الدنيوية العاجلة، وغرتهم وساوس شياطينهم.

وفي بيان هذه المقالة التي أطلقها المنافقون قال الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

(د) هذا الموقف المتواري من مواقف النفاق يدل على أنّ طبيعة النفاق من شأنها أن تدفع المنافقين إلى اتخاذ موقف من مواقف الكفر، مهما حاولوا كتم ما في نفوسهم وإخفاءه بما يتظاهرون به من إسلام، لا سيما حينما يمتحن إسلامهم في ميدان الجهاد بالنفس أو بالمال في سبيل الله.

وقد كشف الله هذه الصفة من صفات المنافقين، وأوضح أنّ لهم علامات تميزهم، في تصرفاتهم، وفي ملامح وجوههم عند سماع شيء يكرهونه من أمور الدين، وفي لحن أقوالهم التي تنفلت من ألسنتهم دون أن يستطيعوا ضبطها وحجزها، وذلك لشدّة ضغط ما ينفعل في قلوبهم ونفوسهم، مما يحاولون إخفاءه خشية انكشاف أمرهم. إنه لما نزلت آيات محكمات دُعي فيها المسلمون إلى القتال في سبيل الله، تألم منها المنافقون، وكرهوها، وصعب عليهم أن يجاهروا برفضها، لأن ذلك يكشف نفاقهم، فانفعلت نفوسهم انفعالات كراهية ظهرت في وجوههم وفي نظراتهم، وهذا ما أوضحه الله بقوله في سورة (محمد ٤٧):

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا

ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ويقول الذين آمنوا لولا أنزلت السورة﴾ أي: لولا أنزلت سورة نؤمر فيها بالقتال. ﴿رأيت الذين في قلوبهم مرض﴾ أي: المنافقين. ﴿فأولى لهم﴾ أي: فويل لهم، وهلاك لهم.

إن هذا اللون من الاختبار يصلح لأن يكون من روائع الاختبارات النفسية، الكاشفة لما تنطوي عليه القلوب والنفوس، فهو يعتمد على إلقاء المثير القوي، وملاحظة أثر ذلك في تعبيرات الوجه وتلوناته، وفي نظرات الأعين. فهؤلاء المنافقون حين أُمروا بالقتال أمراً ربانيّاً في آيات محكمات ولم يستطيعوا مناقشة هذا الأمر، لأنه منزل من عند الله، بدا أثر كراهيتهم ذلك على وجوههم، فجعلوا ينظرون إلى الرسول ﷺ نظر المغشي عليه من الموت، وفي هذا تصوير بديع لحالة زوغان البصر وكلاحة الوجه وصفرته، التي تنتابهم حين امتحانهم بأوامر القتال الجازمة.

وكثيراً ما لا يقتصر الأمر على حدود انفعالات تظهر أماراتها على الوجوه وفي نظرات الأعين، بل تتعدى ذلك إلى أقوال تحمل أمارات أقوى، وتصرفات عملية تحمل دلالات أبين وأوضح، وقد أوضح الله ذلك بقوله في سورة (محمد ٤٧):

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾.

فبعد أن عرضت سورة محمد ــ المسماة أيضاً بسورة القتال ــ ما لدى المنافقين من مفارقات بين الأقوال والأعمال، وبعد أن ذكرت طائفة من شؤونهم ووعظتهم وقرّعتهم وهدّدتهم، أنذرتهم بأن يفضح الله نفاقهم، فيخرج أضغان

قلوبهم، ويدلّ عليهم بعلاماتهم؛ فقال الله تعالى لرسوله: ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم * ولتعرفنّهم في لحن القول﴾.

أمّا معرفتهم في لحن القول فهي المعرفة التي تُتصيّد ممّا يظهر من فلتات أقوالهم، ومن بعض الكلام الذي ينطلق من ألسنتهم دون إرادة واعية منهم، وإنما ينطلق بسبب الضغط النفسي الذي يعانونه، من مخالفة ظواهرهم لبواطنهم.

وهكذا كلّ ذي شخصية مزدوجة يحاول أن يتصنّع لإحداهما بظواهر الأعمال، ويحاول أن يرضي الأخرى بخفايا الأعمال، لا بدّ أن تضغط عليه شخصيته الحقيقية، فتبرز في أعماله الظاهرة ما يدلّ عليها، ممّا يرضيها، مهما حاول ضبط نفسه، وكتمان مشاعره.

فما في داخل الشعور لا بد أن يظهر له أثر على ظاهر الشعور ولا بد أن يظهر له أثر في واقع السلوك، وهذه الظواهر تدلّ عليه، وإن كانت على سبيل الفلتات، التي تنزلق في غفلات القوى الواعية الضابطة، المتصنعة بالظواهر، وفق الدواعي، التي ألزمت صاحبها أن يسلك مسلك النفاق.

(هـ) وفي غزوة الأحزاب (الخندق) كان للمنافقين مواقف تدلّ على نفاقهم، منها ما يلي:

لمّا اشتد الأمر على المسلمين وطال حصار الأحزاب لهم، قال المنافق معتب بن قشير بين إخوانه: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، ما هذا إلا وعد غرور، وفيه وفي أمثاله أنزل الله تعالى قوله في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾.

وهكذا لا يدع المنافقون فرصة يدسون فيها أراجيفهم وأقوالهم المخذِّلة للمؤمنين إلّا انتهزوها، لكن الله تبارك وتعالى ردّ الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا

من المسلمين في هذه الغزوة نيلاً، رغم تحزّب أحزابهم، وكثرة جموعهم، وكفى الله المؤمنين القتال، وحقّق الله لرسوله ما وعده من تأييد ونصر، وأخزى الكافرين والمنافقين وأشياعهم.

وأيضاً أخذ بعض المنافقين يتململون من طول الحصار، والمسلمون معسكرون خارج المدينة، يفصل الخندق بينهم وبين الأحزاب، وأخذوا أيضاً يطلقون الأراجيف، وينادون بالرجوع إلى مساكنهم، والتخلي عن موقع المواجهة للعدو الغازي، وفي بيان ذلك قال الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ . . . ﴿١٣﴾ ﴾.

ومما يثير الانتباه أنهم أطلقوا اسم يثرب، إيثاراً للاسم الجاهلي على الاسم الإسلامي وهو (المدينة) وهذا يدل على نفسيتهم المرتبطة بجاهليتهم وكفرهم.

أما مطلقو هذه المقالة من المنافقين فقيل: أوس بن قَيْظيّ وأتباعه، وقيل: عبدالله بن أبـي بن سلول وأشياعه.

ومن مواقفهم في هذه الغزوة أيضاً، أن فريقاً منهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فطلبوا منه أن يأذن لهم بالرجوع إلى مساكنهم داخل المدينة، زاعمين أن بيوتهم عورة، أي: مكشوفة للعدو غير محصنة، فهم يخشون على أهليهم من مداهمة العدو على حين غرة، والواقع أنها ليست كما زعموا، ولكنهم يريدون الفرار من المعركة، وخذل المسلمين، وتمكين عدوهم منهم، فتظاهروا بهذه التعلّة، وفي بيان هذا الموقف من مواقفهم قال الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾.

ونظراً إلى أنهم جبناء غير مؤمنين بقضية المسلمين أصلاً قال الله في شأنهم عقب الآية السابقة:

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾.

إنهم لا قضية لهم يدافعون عنها ويقاتلون من أجلها مع المسلمين إلاّ منافعهم الخاصة الدنيوية، كالمغانم التي يطمعون بها إذا تحقق النصر للمسلمين.

ومن مواقفهم في هذه الغزوة أيضاً: لما قرّر الرسول ﷺ حفر الخندق ودعا المسلمين جميعاً للاشتراك بهذا العمل الدفاعي الكبير، تداركاً للأمر قبل مداهمة العدو، جعل رجال من المنافقين يتباطأون عن القيام بما يجب عليهم من العمل، ويتظاهرون بالقيام ببعض الأعمال الخفيفة الضعيفة، ستراً لنفاقهم، وكلما سنحت لهم فرصة غفلت فيها عنهم الأعين تسللوا إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن منه. وقد يلوذ بعضهم ببعض إذ يستأذن فريق منهم الرسول ﷺ فيخرج مع هذا الفريق آخرون من غير إذن، متوارين بالذين استأذنوا وقد أشار القرآن إلى هذا الموقف من مواقفهم بقول الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾.

فحذر الله سبحانه وتعالى من مخالفة أمر الرسول ﷺ وحذر من ترك الأمر الجامع للمسلمين إلا بإذن من القيادة الإسلامية، وذلك لأن مفارقة الأمر الجامع تخذيل وتوهين للقوى، إلا ما كان منه في حدود الإذن الذي تراقب فيه مصلحة المسلمين العامة.

ومن مواقفهم في هذه الغزوة أيضاً، أن فريقاً منهم تركوا مواقعهم مع المسلمين؛ وتسللوا إلى مساكنهم داخل المدينة، ثم لم يكتفوا بهذا العمل الخائن، بل جعلوا يرسلون إلى أخوانهم الذين بقوا مع المسلمين أن يتركوا مواقعهم ويأتوا إليهم، تخذيلاً للرسول، وجبناً عن مواجهة العدو، وظلوا على حالتهم تلك إلى

ما بعد انصراف الأحزاب عن حصار المدينة، إذ كانوا يحسبون الأحزاب لم يذهبوا بعد، فهم مختبئون في بيوتهم لفرط جبنهم وخورهم، ويريدون تخذيل إخوانهم أيضاً عن الرسول والمؤمنين، وإن يأت الأحزاب مرة ثانية يود هؤلاء المنافقون أن لا يكونوا في المدينة أصلاً، وأنهم بادون في الأعراب يسألون من بعيد عن أنباء المسلمين، وفي بيان هذا الموقف من مواقفهم قال الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

فالمنافقون أشحة على المؤمنين بأنفسهم وأموالهم، لأنهم لا يؤمنون بقضية المؤمنين.

وهم في مواقف الخوف جبناء خوّارون، ينظرون إلى قيادة المؤمنين التي تأمرهم بالقتال نظر الخائف الرعديد، فتدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت. وحينما يذهب موقف الخوف ويأمنون ويأتي توزيع الغنائم؛ يطلقون ألسنتهم الحادة الساخنة المؤذية الجارحة للمؤمنين، بغية نيل أكبر نصيب من الغنائم، كأنهم هم الذين كانوا أبطال معركة الجهاد، والمحرزين للنصر؛ إنهم أشحة على المال، يحبونه ويحرصون عليه، مع أنهم قد كانوا يقومون بأعمال التثبيط والتخذيل، ولكن الله يحبط أعمالهم فلا يجعل لها تأثيراً على المؤمنين.

(و) وفي غزوة «تبوك» كان للمنافقين مواقف تدل على نفاقهم، فمنها ما يلي:

لما دعا الرسول صلوات الله عليه المسلمين للخروج إلى القتال وغزو الروم على مشارف الشام، أخذ المنافقون يتهربون من الخروج، فبعضهم جاء إلى رسول الله ﷺ يلفّق الأعذار ويحلف له، وبعضهم نشط في تثبيط الناس عن الخروج مع الرسول، وكثير منهم توارى عن الأنظار وتخلّف فلم يشهد هذه الغزوة ولم يستجب لأمر الرسول، ولكنه قرر في نفسه أن يلفّق الأعذار له حين عودته، ويحلف الأيمان المغلظة على ذلك كذباً وفجوراً. وخرج منهم من خرج كارهاً، ويبتغي من خروجه الإفساد والشر بالمسلمين، ودس الدسائس، وإلقاء الفتن، وتثبيط من يستمع إليه من المسلمين الصادقين، وإلقاء الريب في قلوبهم، وتوجيه الانتقادات الهمسية الخفية لتصرفات الرسول ﷺ.

وأذن الرسول لمن اعتذر له منهم عن الخروج، وعاتبه الله على ذلك عتاباً رقيقاً رفيقاً، وأبان له أنّ التريث قد كان أرجح له في الاجتهاد، حتى يبت قراره وقد تبيّن له الصادقون والكاذبون، وفي ذلك قال الله له في سورة (التوبة ٩):

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

أي: لا مؤاخذة عليك في اجتهادك لأنك مأذون به، ولكن كان الأولى بك أن لا تستعجل بالإذن لهم؛ فهلاّ تريثت في إعطاء الإذن لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين.

ثم أكد الله تعالى أن الحكمة تقضي بالتريث بقوله عقب الآية السابقة:

﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

فدل على أن الذين يستأذنون الرسول ﷺ في التخلف عن الخروج معه إلى الجهاد إنما هم المنافقون الكاذبون في أعذارهم، أما المؤمنون الصادقون فهم في

العادة لا يستأذنون، وإذا كانوا من أهل الأعذار الصحيحة فإن الحكم الإسلامي صريح في إعفائهم، إذ لا حرج عليهم في التخلف وهم لا يزيدون على أن يكشفوا للرسول أحوالهم دون أن يقولوا له: ائذن لنا، ملحّين في طلب الإذن لهم، فإذا رأى الرسول ﷺ أحوالهم تستدعي تخلفهم أعلن لهم أن لا حرج عليهم في أن يتخلفوا.

فالمبادرة إلى طلب الإذن في التخلف عن الخروج مع الرسول إلى القتال، مظنة تدل على كذب هؤلاء المبادرين، وأنهم منافقون يحاولون تغطية موقفهم بالأعذار الباطلة، فالإسراع بالإذن لهم اجتهاد مقبول، ولكن كمال الحكمة يقضي بالتريث، وهذا من التربية الإلهية للرسول على بعض قواعد العمل الإداري الحكيم.

ثم كشف الله من دلائل نفاقهم وكذبهم في أعذارهم أنهم لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدّةً ما، فقال تعالى عقب الآية السابقة:

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً ﴾.

ثم أبان الله أن مصلحة المسلمين تقضي بأن لا يخرجوا معهم لنفاقهم، فهم لو خرجوا ما زادوا المسلمين عدداً ولا قوة، بل زادوهم إفساداً، ولأسرعوا بينهم يبغونهم الفتنة، فقال تعالى:

﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ما زادوكم إلا خبالاً﴾ أي: ما زادوكم إلا فساداً.

﴿ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة﴾ أي: ولأسرعوا داخل صفوفكم يبغون فتنتكم عن دينكم.

إنهم لو كانوا مؤمنين صادقين لأحب الله انبعاثهم حتى يكون لهم ثواب إعلاء كلمة الله، لكنهم لما كانوا منافقين كره الله أن يشاركوا المؤمنين الصادقين في القتال، لئلا ينسب إليهم فضل في تحقيق النصر، ولأنهم لو خرجوا مع المؤمنين الصادقين لم يزيدوهم قوة، وإنما يزيدونهم فساداً، ويسرعون خلال صفوف المسلمين لفتنتهم عن دينهم، ومعلوم أنه لا بد أن يوجد في جمهور المسلمين من يستمع إليهم، ويتأثروا بأقوالهم، وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وفيكم سمّاعون لهم﴾.

ومن الذين استأذنوا (الجدّ بن قيس) أحد بني سلِمَة وكان من أغنياء المنافقين. جاء في كتب السيرة أن رسول الله ﷺ بينما كان يتجهز لغزو الروم قال للجد بن قيس: يا جدّ هل لك العام في جلاد بني الأصفر ـ يعني الروم ـ؟ فقال الجد بن قيس: يا رسول الله ائذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله، وقال له: قد أذنت لك. فأنزل الله قوله في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

فاعتذار هذا وتهربه من واجب الجهاد هو سقوط في الفتنة، وتعرض لعذاب جهنم.

وأراد الجد بن قيس تغطية نفاقه ببذل شيء من ماله، فقال للرسول ﷺ: ولكن أعينك بمالي، فأنزل الله قوله في سورة (التوبة ٩):

﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

أي: أنفقوا أموالكم التزاماً بما يجب عليكم إنفاقه إذ أعلنتم الإسلام

ولو كنتم كاذبين، ولن يتقبل الله منكم ما تنفقون، فلن يثيبكم عليه، سواءٌ أأنفقتم طائعين أم أنفقتم كارهين، سينتفع المسلمون بأموالكم، ولا تنتفعون أنتم بثواب أعمالكم. والسبب في ذلك أنهم في دخيلة نفوسهم كافرون، ولذلك قال الله تعالى في عقب الآية السابقة:

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

أما موقف المثبطين الذين كانوا يقومون بأعمال خائنة ضد خروج المسلمين إلى غزو الروم؛ فقد جاء من أعمالهم في كتب السيرة النبوية أن ناساً من المنافقين قبل غزوة تبوك، أخذوا يجتمعون في بيت سويلم اليهودي، وكان بيته عند موضع اسمه «جاسوم»، وجعلوا يثبطون الناس عن الخروج مع رسول الله ﷺ فعلم الرسول بما يفعلون، فبعث إليهم طلحة بن عبيدالله في نفر من أصحابه، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم، ففعل طلحة ما أمره به رسول الله ﷺ، فاقتحم الضحاك بن خليفة من ظهر البيت فاراً، فانكسرت رجله، واقتحم الآخرون الذين كانوا في بيت سويلم اليهودي فأفلتوا من العقاب. وقد نزل في شأن المثبطين الذين كانوا يقولون لا تنفروا في الحرّ، قول الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

وأما الذين خرجوا كارهين بغية الإفساد والدس والفتنة، فقد جاء من أعمالهم في كتب السيرة، أنه لما وصل الرسول بالمسلمين إلى الحِجر ـ أرض ثمود قوم صالح عليه السلام، الذين أهلكهم الله لتكذيبهم رسوله ـ غطى وجهه بثوبه، واستحث راحلته، ثم قال: لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون، خوفاً أن يصيبكم مثل ما أصابهم. فلما أصبح الناس ولا ماء معهم، شكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فدعا رسول الله ﷺ فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء، وكان في المسلمين رجل من المنافقين يسير مع الرسول حيث سار، فلما أغاث الله المسلمين بدعاء رسوله، قال له جماعته ـ وكانوا يعرفون النفاق فيه ـ: ويحك هل بعد هذا شيء؟ فقال لهم: سحابة مارة!! فأكد بذلك نفاقه.

وبينما كان الرسول ﷺ في بعض الطريق ضلت ناقته، فخرج أصحابه في طلبها، وعند رسول الله رجل من أصحابه اسمه عُمارة بن حزم، وكان في رحل عمارة رجل منافق اسمه (زيد بن اللُّصيت القينقاعي) من يهود بني قينقاع، فقال وهو في رحل عمارة: أليس محمد يزعم أنه نبي، ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟! فنزل الوحي وأخبر الرسول ﷺ بمقالة هذا المنافق، فقال الرسول وعُمارة عنده: إن رجلاً قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته، وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في هذا الوادي في شعب كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها، فذهبوا فجاؤوا بها. فرجع عمارة إلى رحله، فقال: عجب من شيء حدّثناه رسول الله ﷺ آنفاً، عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا، للذي قال المنافق زيد بن اللصيت، فقال رجل ممن كان في رحل عمارة ولم يحضر رسول الله ﷺ: زيد والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي، فأقبل عمارة على زيد يجأ في عنقه ويقول: إلي عباد الله، إن في رحلي لداهية وما أشعر، اخرج أي عدو الله من رحلي فلا تصحبني.

وروي أن الرسول ﷺ لما كان في طريقه سائراً بالمسلمين إلى غزوة تبوك كان بين يديه ركب من المنافقين يستهزئون سرّاً فيما بينهم بالقرآن وبالرسول

صلوات الله عليه، ويقول بعضهم: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح حصون الشام وقصورها، هيهات هيهات، يقولون هذا الكلام على سبيل السخرية والاستهزاء.

وأطلع الله رسوله على أمرهم، فقال الرسول للمسلمين حوله: احبسوا عليّ هذا الركب، فاستوقفهم المسلمون، فأتاهم الرسول فقال لهم: أأنتم قلتم كذا وكذا، للكلام الذي كانوا يقولونه على سبيل الاستهزاء، فقالوا: يا نبي الله لا والله ما كنا في شيء من أمرك ولا من أمر أصحابك، ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر!! فأنزل الله قوله في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿إن نعف عن طائفة منكم﴾ إشارة إلى توبة بعضهم عن نفاقه، قال محمد بن إسحق: لقد عفي عن رجل واحد منهم اسمه: يحيى بن حمير الأشجعي، فإنه لما نزلت الآية في شأنهم تاب عن نفاقه وقال: أنا لا أزال أسمع آية تقشعر منها الجلود، وتَجِبُ منها القلوب (أي: تخفق وتضطرب) اللهم اجعل وفاتي قتلاً في سبيلك، لا يقول أحد: أنا غسّلت، أنا كفنّت، أنا دفنت. وقد استجاب الله دعاءه إذ صدق في توبته، فخرج في عهد أبي بكر إلى قتال أهل الردة مع المسلمين فقاتل حتى قتل. قال محمد بن إسحق: فأصيب يوم اليمامة، فما أحد من المسلمين إلا عُرف مصرعه غيره.

ومما كان من المنافقين في غزوة تبوك، أن همّ فريق من الذين خرجوا مع الرسول منهم بأن يفتكوا به اغتيالاً في وقت غرة المسلمين فأتمر خمسة عشر رجلاً منهم أن يدفعوه عليه الصلاة والسلام عن راحلته إذا هو تسنّم العقبة بالليل. وكان عمار بن ياسر آخذاً بخطام راحلة الرسول ﷺ يقودها، وحذيفة بن

اليمان خلفها يسوقها، فبينما هما يسيران في ركاب راحلة الرسول إذ سمع حذيفة بن اليمان وقع أخفاف الإبل، وقعقعة سلاح النفر من المنافقين، يحاولون القدوم لمزاحمة راحلة الرسول ﷺ فالتفت فإذا قوم متلثمون، فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله، فخافوا انقضاض المسلمين عليهم فهربوا.

ويظهر أنهم قد وصلوا إلى مرحلة نفذ فيها صبرهم، وضاق فيها ذرعهم، فإلى متى وهم ينافقون، ويتصنعون أمام المسلمين بالتزام الإسلام على خلاف ما في قلوبهم، ويتربصون الدوائر بالرسول وبالمؤمنين معه، ويقدّرون في أنفسهم أن حركة الإسلام ستفشل، وينقضون عليها لافتراسها من داخل صفوف المسلمين. ولكن الانتصارات قد أخذت تواكب مسيرتها في تصاعد مطرد، ثم لم يقف الأمر عند حدود الانتصار على المشركين واليهود داخل حدود النفوذ العربي، فهذه الدائرة قد أخذت تتسع، وهذا الجيش الإسلامي قد بدأ يطرق أبواب الامبراطورية الرومانية عند مشارف الشام، فإلى متى والمنافقون قابعون؟!.

لقد هموا بقتل الرسول، ولكنهم هموا بما لم ينالوا، ولَنْ ينالوا، فالله وعد رسوله بأن يحفظه من الناس.

وكثرت الآيات التي نزلت في المنافقين المتخلفين، خلال هذه الغزوة التي استمرت رحلتها قرابة شهرين، فقال (الجلاس بن سويد) وكان أحد المنافقين الذين خرجوا مع الرسول ﷺ: لئن كان ما يقول محمد حقاً لإخواننا الذي خلفناهم ــ وهم سادتنا وأشرافنا ــ فنحن شرٌّ من الحمير.

فلتة من فلتات اللسان كشف بها الرجل نفاقه، فانبرى له أحد المؤمنين من الأنصار، واسمه عامر بن قيس الأنصاري، فقال له: والله إن محمداً لصادق، وأنت شر من الذي ذكرت، فبلغ رسولَ الله ﷺ ما كان من الجلاس بن سويد، فاستدعاه للمحاكمة، فحلف بالله أنه لم يقل كلمته التي قالها، على عادة المنافقين في اللجوء إلى الأيمان الكاذبة، فرفع عامر بن قيس الأنصاري يديه داعياً الله فقال: اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب.

فأنزل الله مشيراً إلى مقالة (الجلاس بن سويد) وإلى حادثة همّ المنافقين بقتل الرسول قوله في سورة (التوبة ٩):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾.

فإشارة إلى مقالة (الجلاس) قال الله تعالى: ﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر﴾ وإشارة إلى ما كان من الذين همّوا بقتل الرسول، قال الله تعالى: ﴿وهمّوا بما لم ينالوا﴾.

وأبان الله أنه لا يوجد أي سبب لنقمتهم على الإسلام وعلى الرسول، بل توجد أسباب داعية إلى حب الله والرسول وتركهم لنفاقهم وتعلقهم بالإسلام، فقد أغناهم الله ورسوله من فضله؛ فقال تعالى في الآية: ﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾. وقد جاء تأكيد نفي وجود أي سبب لنقمتهم على طريقة الاستثناء بما يؤكد عموم المستثنى منه، وهذا من لطائف البيان، ونظيره تأكيد المدح باستثناء يزيد في المدح، ويسمى عند البلاغيين «تأكيد المدح بما يشبه الذم».

ومن هذا يتبين لنا أن مصلحة المؤمنين الحربية تقضي بعدم اشتراك المنافقين معه في مواقع القتال، لأنهم سيكونون عبء إفساد، لا قوة قتال نافعة، وهم دائماً عوامل مشجعة على الوهن، وهم دائماً طلائع المنهزمين، متى ظهرت بوادر ضعف يسير، وهم يمثلون دائماً كتلة عصاة الأوامر، ومنهم تصدر دسائس الفتنة، وعنهم تنجم مؤامرات الخيانة مع العدّو، وهم دائماً أول المتهالكين على الغنائم بطمع وشره كبيرين، إذا كتب الله النصر، وهم الذين يخاصمون بوقاحة

لنيل أفضل أسهم المغانم والاستئثار بها من دون المستحقين الآخرين، وهم الذين يظهر فيهم الغلول، وهم الذين يوجهون الانتقادات اللاذعة على القيادة في تصرفاتها مهما كانت حكيمة وبارعة، وهكذا إلى آخر جدول الإفساد.

ومن أجل ذلك اصطفى طالوت خلاصة المؤمنين من بني إسرائيل ليقاتل بهم القوم الجبارين في الأرض المقدسة، وقد امتحنهم امتحاناً قاسياً فكانوا هم المطيعين له.

وأمّا الذين تخلفوا من المنافقين عن غزوة تبوك دون استئذان، فقد أقبلوا بعد عودة الرسول إلى المدينة يحلفون له أنهم ما تخلفوا إلا بعذر منعهم من الخروج، فقبل الرسول أعذارهم، وهو يعلم كذبهم ونفاقهم.

١٣ ــ ومن الظواهر السلوكية الدالة على نفاق المنافقين تركهم التحاكم إلى الله والرسول، وتحاكمهم إلى الطاغوت، طمعاً بأن يكون حكم الطاغوت لمصلحتهم، وقد دلّ على هذه الظاهرة من ظواهرهم قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾.

إنّ التحاكم إلى غير حكم الله والرسول مع وجود حكم الله أو حكم رسوله تحاكم إلى الطاغوت، والمسلم منذ يعلن إسلامه يعطي عهداً بقبول

أحكام الله وأحكام الرسول مهما كانت مخالفة لأهوائه الخاصة، وما دام المنافق غير مؤمن إيماناً صادقاً فإنه لا يجد في نفسه دافعاً لالتزام أحكام الله والرسول، فلا بدّ أن يميل إلى التحاكم إلى غير أحكام الله حينما يرى أنها قد تكون أرضى لهواه.

فمن أمثلة ذلك ما روي عن ابن عباس أنّ منافقاً اختصم مع يهودي في أمر، فعرف اليهودي أن الحقّ في جانبه، فدعاه إلى رسول الله ﷺ ليقضي بينهما، علماً منه بأنّ الرسول لا يقضي إلّا بالحقّ الذي يراه، أمّا المنافق فدعاه إلى قاضٍ من قضاة اليهود يقال له: (كعب بن الأشرف) ليقضي بينهما، ظناً منه أنّ هذا القاضي من اليهود سيمالىء المسلم المنافق ويحكم له بالباطل، وأصرّ اليهودي على أن يتحاكما إلى محمد صلوات الله عليه، فتحاكما إليه، فقضى رسول الله ﷺ لليهودي لأنّ الحقّ معه. فلم يرضَ المنافق بحكم رسول الله ﷺ ودعا اليهودي إلى عمر بن الخطّاب ليحكم بينهما، فوافق اليهودي لعلمه بأنّ عمر بن الخطاب لن يرضى بغير حكم رسول الله بديلاً، فلما قدما إليه خرج إليهما فتحاكما إليه، فقال اليهودي: يا ابن الخطّاب لقد احتكمنا إلى محمد فقضى لي، فلم يرض هذا بقضائه، فقال عمر للرجل: أهكذا؟ قال الرجل: نعم يا ابن الخطّاب، فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما، فدخل فاشتمل على سيفه ثم خرج فضرب عنق المنافق حتى مات، ثم قال: هكذا أقضي لمن لم يرضَ بقضاء الله وقضاء رسوله.

وحين لا يقبل المنافقون حكم الله ورسوله، ويفتضح نفاقهم، يأتون بأعذارهم الكاذبة الملفقة، ويحلفون الأيمان لتبرئة أنفسهم، ويقولون: إننا لم نرد مخالفة الرسول في أحكامه وأقضيته، وإنما أردنا التوفيق والمصالحة، وأردنا الإحسان لكلٍ من الفريقين المتخاصمين، وهذا ما دلّ عليه النصّ بقوله تعالى: ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤوك يحلفون بالله إن أردنا إلّا إحساناً وتوفيقا * أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾ أي: خاطبهم سراً بحقيقة حالهم وما يخفون من نفاق.

١٤ ـ ومن الظواهر السلوكية الدالة على نفاق المنافقين، متابعتهم الكافرين الصرحاء في الاندفاع وراء الأوهام والخرافات، واعتقادها، والترويج لها كأنها حقائق ثابتة، في حين أنهم يبدون تشككهم بالحقائق الواضحة البينة، ويتوقفون دون التسليم بها، تذرعاً بأن التحقيق العلمي وأصالة الرأي يستوجبان التريث والأناة، وعدم التسليم، قبل ثبوت الحقيقة ثبوتاً ملموساً محساً.

وهم في هذا الموقف المتناقض يرفضون الحقّ ويؤمنون بالباطل، وما أكثر الخرافات التي تسيطر على عقولهم ونفوسهم!!.

والسبب في ذلك أنّ من لم يأخذ بالحقائق الواضحة التي تقوم عليها دلائل العقل، فلا بدّ أن يترك في نفسه فراغاً كبيراً للأوهام والخرافات، التي تتسلل في ظلمات النفس تسلّل اللصوص، وفيها تتخذ زوايا تبني فيها بيوتها الواهنة، من خيوط وهميّة أو ضعيفة، فقد يتشاءمون أو يتطيرون من أشياء، وينسبون إليها حظوظ السعادة أو الشقاء، وقد يؤمنون بأقوال المنجمين الذين يرجمون بالغيب، وقد يستسلمون لدجال يقرأ لهم خطوط الأكف، أو يعبث بالرمل، ويكذب عليهم، وقد يصدقون دجالة تقرأ لهم غيوبهم وأرزاقهم وما سيحدث لهم في فناجين القهوة، أو نحو ذلك من وسائل وخدع شيطانية!!.

ومن أمثلة هذه الظاهرة موقفهم من حادثة الجدب التي تعرّضت له المدينة بعد هجرة الرسول ﷺ إليها، ضمن نظام الأسباب الكونية العامة.

وقد استغل اليهود هذه الحادثة وتابعهم المنافقون لما في قلوبهم من مرض، فأخذوا يتشاءمون ويتطيرون برسول الله ﷺ، ويزعمون أنّ ذلك قد كان بسبب مقدمه عليهم، متجاهلين النظام الكوني العام، وأنّ الله هو الذي يصرّف أمور الكون كلّها وفق مقتضى حكمته، وأن ما يصيب الناس من نعم تسرّهم أو مصائب تَسُوؤهم فلّله فيه حكمة، إما الابتلاء، وإما الجزاء، وإما التربية والتأديب.

إنهم قد تركوا الحقيقة المشرقة، وتعلقوا بأوهام التشاؤم والتطير، وهي أمور لا أساس لها في منطق العقل ولا في منطق الواقع، وقد أعلن الإسلام

بطلانها، وأبان أنها من خرافات الجاهلية التي تعلق بنفوس الناس، حين تفرغ هذه النفوس من حقائق المعتقدات الصحيحة، والأسباب المنطقية.

وقد أشار القرآن إلى موقفهم هذا بقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾.

فبين الله في هذا النص أنّ النعم والمصائب كلّها من عند الله، ينزلها على عباده وفق حكمته، أمّا النعم فمن محض فضل الله، وأما المصائب فبسبب من الناس أنفسهم، ولمصلحة اقتضاها واقع حالهم، من جزاء أو تربية أو ابتلاء.

فمن مقالاتهم التي أطلقوها في التشاؤم والتطير من الرسول صلوات الله عليه قولهم: ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قدم هذا الرجل وأصحابه.

لقد فعلوا مثلما فعل آل فرعون من قبل، إذ تطيروا بموسى ومن معه، لّما عاقبهم الله بالسنين ونقص من الثمرات ليتذكروا، قال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾.

أي: إنما أقدار ما يصيبهم من مصائب عند الله، فهو الذي يصيبهم بها وفق حكمته، فلا شأن للآخرين بها، ولكن أكثرهم لا يعلمون أسرار حكم الله فيما تجري به مقاديره، ولا يعلمون أن هذه المصائب مذكّرات لهم بالله حتى يؤمنوا به ويتبعوا رسُله.

وقالت ثمود لرسولهم صالح عليه السلام مثل مقالة آل فرعون لموسى ومن معه، وفي بيان ذلك قال الله تعالى في سورة (النمل ٢٧):

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) ﴾.

أي: بل أنتم تمتحنون بما يصيبكم من مصائب دنيوية وتختبرون لعلكم تتذكرون وترجعون إلى ربكم، فتستغفرونه من ذنوبكم، وعند ذلك يرحمكم فيرفع عنكم ما نزل بكم من مصائب.

وكذلك قال أصحاب القرية الذين أرسل الله لهم ثلاثة رسل، فكذبوهم، فذكرهم الله بنذر العذاب، فتطيروا برسل ربهم، وفي بيان ذلك قال الله تعالى في سورة (يس ٣٦):

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) ﴾.

أي: تطيرتم بنا لأن الله ذكّركم بشيء من المصائب التي مسّكم بها حتى ترجعوا إليه فتؤمنوا به وبرسله، فطائركم معكم، وهو ما لديكم من أسباب استدعت تذكيركم ببعض صنوف الجزاء الدنيوي المعجّل.

١٥ ــ ومن الظواهر السلوكية الدالة على نفاق المنافقين، أنهم إذا دُعوا إلى أمر فيه مخاطرة ما، ويتطلّب مقداراً ما من الشجاعة والإقدام، جبنوا وتخاذلوا وتباطؤوا وتأخروا عن المساهمة، ووقفوا يترقبون النتائج بعيداً عن ساحة المعركة، فإذا كانت النتائج غير سارّة تبجّحوا بسداد رأيهم، وحسن تقديرهم للأمور، وأعلنوا فرحهم بنعمة التخلّف عن تأدية الواجب، وإذا كانت النتائج سارّة للمؤمنين الذين استبسلوا وأقدموا وجاهدوا في سبيل الله، فنالوا مجد النصر ورزق الغنيمة، أخذت الندامة والحسرة تأكل قلوبهم، إذ فاتهم النصيب من الغنيمة التي أصابها المؤمنون المنتصرون، وفي بيان هذه الظاهرة السلوكية من ظواهرهم يقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

فهذا الفريق من الناس منافق جبان، يتباطأ ويتثاقل عن الخروج إلى الجهاد في سبيل الله، حينما يُدعى المسلمون إلى ذلك، فهو يترقب النتيجة ويتجاذبه دافعان هما الخوف والطمع، فإن أصابت المسلمين في جهادهم مصيبة قال: قد أنعم الله عليّ بالعقل السديد والرأي الرشيد، فلم أشهد معهم هذه المعركة، فنجوت ممّا أصابهم، وإن أصابهم فضل من الله بالنصر والغنيمة قال: يا ليتني كنت معهم فأفوز بنصيبي من الغنيمة، وأنال حظي من المال الذي ظفروا به، وهذا هو الفوز العظيم في نظره، ونسي أنه كان قبل المعركة من القوم، وأنه دُعي مثل دعوتهم، وأنّ ما بين المسلمين من مودّة كان يفرض عليه أن لا يتخلّى عنهم، ولا يبطىء عن مشاركتهم في التعرض إلى مواقع المصيبة التي تعرضوا لها، ليشاركهم ويقاسمهم الغنائم التي أصابوها.

١٦ ــ ومن الظواهر السلوكية الدالة على نفاق المنافقين، أنهم إذا ألجأتهم الظروف، فخرجوا مع المؤمنين إلى معركة من معارك القتال، وستروا

بذلك نفاقهم، ثم أصابهم أذى في سبيل الله، تضجروا وتذمروا، وجعلوا ما يصيبهم وفق سنن الحياة العامة، والتي تستدعيها المعارك الإنسانية الخاضعة لقوانين ثابتة، مثل عذاب الله الذي ينزله على سبيل العقاب فإذا جاءهم نصر من الله تسابقوا إلى الظفر بالمغانم، مع أنهم لا يعملون في الجهاد إلا أضعف الأعمال وعلى سبيل المراآة، ويقولون عند تقاسم الغنائم بعبارة مؤكدة: إنا كنا معكم نقاتل بصدق وإخلاص مثل قتالكم، لكن الله عليم بما في صدورهم من كفر وما في سلوكهم من نفاق. وفي بيان هذه الظاهرة السلوكية من ظواهرهم يقول الله تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

فمن الوسائل الكاشفة لنفاق المنافقين امتحانهم بالأذى في سبيل الله، فالمنافق يجعل فتنة الناس التي تدخل ضمن القوانين والسنن الثابتة كعذاب الله، فيتضجر ويتذمر، ويوجه اللوم لخطة الجهاد في سبيل الله من أساسها، فيرجف بعد ذلك ويثبط، وحينما يأتي النصر من الله يبادر المنافق معلناً أنه كان من الدعاة الأوائل، وكان منذ البداية في الصف الأول المتقدم، ومن الطلائع الذين تحقق بسببهم النصر.

وهذا واضح في سلوك المنافقين دائماً، في كل زمان وفي كل مكان، ويظهر أن طبيعة النفاق تستدعي ذلك.

١٧ ــ ومن الظواهر السلوكية الدالة على نفاق المنافقين، أنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وفي بيان هذه الظاهرة من ظواهرهم يقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن

دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾.

إنهم يوالون الكافرين ليتقوا بهم، ويأتون إلى المؤمنين فيتظاهرون أمامهم بالإيمان ليأمنوا جانبهم.

والذين يوالون الكافرين، ويجتمعون إليهم في مجالس مودة، لا بد أن يسمعوا منهم دسّاً على المسلمين وطعناً في الإسلام، وتجريحاً واستهزاء، ولا يسكت عن ذلك ويرضى به إلّا منافق، أما المؤمن فإنه إما أن يناضل ويكافح، وإما أن يفارق مجالسهم معلناً استنكاره وسخطه.

وفي قوله تعالى في النص: ﴿إنكم إذاً مثلهم﴾ إعلان خطير يبين الله فيه أن الذين يخالطون الكافرين فيسمعون منهم الكفر بآيات الله، والاستهزاء بها، فلا يفارقون على أضعف الإيمان مجالسهم، فإنهم مثلهم في الكفر، وإنهم يكشفون عن حالة النفاق التي يتصفون بها، وسيجمعهم الله مع الكافرين في جهنم، كما اجتمعوا معهم في الدنيا على مجالس الكفر بآيات الله والاستهزاء بها.

وأما قوله تعالى في النص: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أنْ إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ فلعله يشير إلى قوله في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

١٨ ــ ومن الظواهر السلوكية للمنافقين أنهم يتربصون بالمؤمنين تربص الصياد الذي ينتظر الغِرَّات، وينتهز الفرص، فإذا كان النصر للمؤمنين قالوا

لهم: ألم نكن معكم؟ وإذا أصاب الكافرون من المؤمنين شيئاً قالوا للكافرين: ألم نُحط بكم حماية لكم، ونمنعكم من المؤمنين؟ فهم يعملون على الانتفاع من كلا الفريقين، واللعب على الحبلين، مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وفي بيان هذا من ظواهرهم يقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١) إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا (١٤٣) ﴾.

﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ أي: ألم نحط بكم لحمايتكم.

وهذه الظاهرة السلوكية تدخل تحت عنصر المخادعة الذي يدخل في تركيب خلق النفاق، ولذلك قال تعالى في النص: ﴿يخادعون الله وهو خادعهم﴾ أي: رادّ خداعهم عليهم، ومعاقب لهم بعقاب من جنس عملهم.

١٩ ــ ومن الظواهر السلوكية للمنافقين، أنهم إذا قاموا إلى الصلاة مراآة للناس قاموا كُسالى، وأنهم لا يذكرونُ الله إلا قليلاً، والسبب في ذلك أنهم لا يؤمنون بفائدة الصلاة ولولا دافع الرياء لم يفعلوها، على أن صلتهم بالله أصلاً ولو عن طريق الإسلام صلة ضعيفة جداً، فهم لا يذكرون الله إلا قليلاً. وفي بيان هذا من ظواهرهم قال الله تعالى في النص السابق: ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾.

فقد أبان الله في هذا النص من سورة (النساء) أربع صفات من صفات المنافقين:

١ ــ أنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين.
٢ ــ أنهم يتربصون بالمؤمنين الدوائر.
٣ ــ أنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس.
٤ ــ أنهم لا يذكرون الله إلا قليلاً.

ثم ختم الله النص بتحذير المؤمنين من أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وببيان عقاب المنافقين الشديد، وموقعهم من النار فقال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾.

٢٠ ــ ومن الظواهر السلوكية للمنافقين، أنّ موقفهم في مواطن الطمع موقف الطامع الشره الحسود، إنْ أعطوا رضوا، وإن لم يُعطوا سخطوا وتذمروا، وأخذوا يُنْحون باللائمة على القيادة، فيلمزونها بعدم العدل، وقد كان هذا فعلاً من ظواهر بعض المنافقين، فكانوا يلمزون رسول الله في توزيع الصدقات، فيتهمونه بالتحيز وعدم العدل في التوزيع، وفيهم أنزل الله تعالى قوله في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

إن المنافقين لا يرضون حتى يأخذوا النصيب الأوفى ولو كانوا غير مستحقين، ويطمعون بأن يكون لهم نصيب من الصدقات، ولو لم يكونوا من الأصناف الثمانية الذين تصرف لهم الصدقات. ودخولهم في المؤلفة قلوبهم وعطاؤهم بناء على ذلك يرجع إلى ما يراه إمام المسلمين من مصلحة، فإن رأى المصلحة الإسلامية بإعطائهم أعطاهم وإلا لم يُعطِهم.

٢١ ـ ومن الظواهر السلوكية للمنافقين، أنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، على عكس طريقة المؤمنين تماماً.

٢٢ ـ ومن الظواهر السلوكية للمنافقين، أنهم بخلاء، إذا دُعوا إلى البذل الواجب قبضوا أيديهم، وأمسكوا فلم ينفقوا.

وقد أبان الله هاتين الظاهرتين من ظواهرهم بقوله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

فمن صفات المنافقين التي تزيدهم رجساً على رجسهم الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، انسجاماً مع ما في قلوبهم من جحود لعناصر الإيمان، ولما تدعو إليه هذه العناصر من فعل للخيرات والصالحات، وتركٍ للمنكرات.

وهم فوق كل أرجاسهم أنانيون ماديون بخلاء، إذا دعوا إلى البذل من أموالهم في سبيل الله بخلوا، فقبضوا أيديهم وأمسكوا ولم يبذلوا.

إنهم نسوا الله، إذ شغلتهم عن ذكر الله ومراقبته والتفكر في آلائه معاصيهم وآثامهم وخواطر نفاقهم وأهوائهم وشهواتهم ومخاوفهم ومطامعهم الدنيوية، والمحاولات الدائمة لتغطية نفاقهم.

فنسيهم الله، أي: ضرب صفحاً عن العناية بهم، ورعاية شؤونهم، فتركهم لأنفسهم يتخبطون في ظلمات الحيرة والتردد والضلالة، ويتقلبون في أوحال الخوف والقلق والآلام النفسية.

والأصل في معنى النسيان غياب المعلوم عن مركز التذكر، ومتى غاب عنه لزم إهمال شأنه وعدم العناية به، فالمراد في نسبة النسيان إلى الله تعالى هذا اللازم لا حقيقة معنى النسيان، وذلك لأن الله تبارك وتعالى لا يضل ولا ينسى،

وقد جاء التعبير عن إهمالهم وتركهم لأنفسهم وعدم العناية بهم بلفظ النسيان على سبيل المشاكلة اللفظية لما يفعل المنافقون من نسيانهم لربهم، فليس معنى النسيان الحقيقي هنا مراداً، وإنما المراد ما يلزم عن النسيان.

ثم قرر الله تعالى في آخر الآية أن المنافقين هم الفاسقون، فحصر الفسق فيهم على سبيل المبالغة، فكأنهم قد استنفدوا بآثامهم كل عناصر الفسق حتى لم يبقوا منها لغيرهم شيئاً، وهذا من أساليب البلاغة القرآنية.

ثم أتبع الله هذه الآية بآية وعيد شديد للمنافقين، فقال تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾.

وقد جاء الوعيد على صيغة الوعد لتأكيد عدم الإخلاف فيما جرى الوعيد به، وذلك لأن من شأن العظماء أن لا يخلفوا بالوعد، مهما دعاهم الأمر إلى الإخلاف، بخلاف الوعيد فقد يميل كرمهم إلى العفو عنه، ولما كان المنافقون والكافرون لا يستحقون العفو أصلاً، حسُن في وعيدهم أن يعطى عنوان الوعد الذي من شأنه الوفاء به قطعاً.

أما عناصر هذا الوعيد فهي ثلاثة:

الأول: أن لهم نار جهنم يخلدون فيها، وحسب عذابها عذاباً.

الثاني: أنهم مطرودون من رحمة الله.

الثالث: أن لهم عذاباً مقيماً في داخل أنفسهم، فهو لا يرحل عنهم، وهذا العذاب ملازم لنفاقهم وكفرهم، فهو عذاب يتعاقب عليهم في الدنيا، ويرافقهم بعنف بعد الموت في البرزخ، ويُلقي فيهم ثقله الشديد يوم القيامة، أما عذاب الدنيا فيأتيهم على صور كثيرة: منها القلق، والحيرة، وآلام النفس، وعذاب الضمير، وعدم الشعور بالراحة، وعدم الاستمتاع الهنيء بمتاع الحياة الدنيا،

والاشتغال بمتاعب الجمع والمنع والحرمان، والخوف على المال والنفس، والخوف من المصير.

٢٣ ــ ومن الظواهر السلوكية للمنافقين، الكذب في الوعد وفي العهد، والإخلاف فيهما، ونقضهما بغير حق.

فالنفاق يلجىء إلى الأخذ بهذا السلوك الشائن من ظواهر الانحراف الخلقي، وذلك لأن ظاهر الإسلام قد يقتضي إعطاء الوعد الكاذب، أو تقديم العهد الكاذب، وباطن الكفر قد يقتضي الإخلاف في الوعد وفي العهد ونقضهما، تلبية لدواعيه، فيعطي المنافق وعده أو يقدم عهده للاستفادة من الموقف الذي دعاه إلى ذلك، ولستر نفاقه، ثم إذا جاء وقت تنفيذ الوعد دعاه كفره إلى الإخلاف، وقام في نفسه أن باستطاعته تقديم معاذيره المختلفة، وعمدته في ذلك اللجوء إلى خطة الكذب.

وقد ثبت في الصحيح عن الرسول ﷺ أن من علامات المنافق أنه إذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» رواه البخاري ومسلم، وزاد في رواية لمسلم: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم».

وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

وممن أخلف عهده مع الله فأعقبهم الله نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه ما روي أن (ثعلبة بن حاطب) أتى النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال له عليه الصلاة والسلام: يا ثعلبة، قليل تؤدي حقه خير من كثير لا تطيقه، فراجع ثعلبة رسول الله ﷺ وقال له: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطينّ كل ذي حقٍ حقه، فدعا له الرسول ﷺ أن يرزقه الله. قالوا: فاتخذ ثعلبة غنماً فنمت نماء سريعاً، وتكاثرت تكاثراً عظيماً حتى ضاقت بها

المدينة، فاستاقها فنزل بها وادياً، وانقطع عن الجماعة والجمعة، فسأل عنه رسول الله ﷺ فقيل له: كثر ماله حتى لا يسعه وادٍ، فقال الرسول: يا ويح ثعلبة!!.

وقد بعث الرسول ﷺ مصدِّقَيْن[1] لأخذ الصّدَقات من ذوي الغنى، فانطلق المصدِّقان فاستقبلهما المسلمون بصدقاتهم، ولما مرّا بثعلبة سألاه زكاة ماله، وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ الذي فيه الفرائض، فتنكر ثعلبة للأمر، وقال في نفسه: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، ثم قال للمصدِّقَيْن: ارجعا حتى أرى رأيي، فعاد الرجلان إلى رسول الله ﷺ فقال لهما قبل أن يكلماه: يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة، مرتين، فأنزل الله فيه أربع آيات، هي قوله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

ثم إن ثعلبة جاء بالصدقة إلى رسول الله ﷺ فقال له الرسول: إن الله منعني أن أقبل منك، فجعل ثعلبة يحثو التراب على رأسه، فقال له عليه الصلاة والسلام: هذا عملك، أمرتك فلم تطعني، وظل الرسول حياته لا يقبل الصدقة من ثعلبة.

قالوا: ثم إن ثعلبة جاء بصدقته إلى أبي بكر في خلافته فلم يقبلها منه، ثم جاء بها إلى عمر في خلافته فلم يقبلها منه، ثم هلك ثعلبة في عهد عثمان.

كذا رُوي، والله أعلم، على أنّ النصّ القرآني يدلّ على حالة إنسان كان منه مثل ما ورد في قصة ثعلبة.

---

(١) المصدق: جابي الصدقة، أي: جابي الزكاة.

٢٤ ـ ومن الظواهر السلوكية للمنافقين، لمز العاملين في أعمالهم، وتجريح مقاصدهم، ومن ذلك ازدراؤهم بذلَ المقلّين، واتهامهم في نياتهم وغاياتهم، وانتقادهم بذل المكثرين، واتهامهم في نياتهم وغاياتهم، فلا ينجو منهم مكثر في عطائه ولا مقل.

ويرجع هذا السلوك فيهم إلى عدة أسباب: منها تغطية النقص الذي هم فيه، ومنها التثبيط عن عمل الخير، ومنها قياس الناس في غاياتهم على أنفسهم.

إنهم لا يفعلون الخير، ثم يصدّون الناس عن فعل الخير باللمز والتجريح.

وقد كشف القرآن هذه الظاهرة من الظواهر السلوكية للمنافقين، فقال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾.

اللمز: هو التجريح الخفي، يقال لغة: لمزه إذا عابه بأمر من الأمور.

المطّوعون: هم المتطوعون، أدغمت التاء بالطاء، وهم الذين يعملون أعمال الخير على سبيل الإحسان والتبرع، دون أن تكون واجبة عليهم.

فمن صفات المنافقين أنهم يلمزون الذين يفعلون الخير، ثم لا يكتفون باللمز بل يزيدون عليه السخرية، فيسخرون من الذين يتطوعون بالصدقات القليلة، التي هي غاية ما يستطيعون بذله، ويحتقرون صدقاتهم التي يقدمونها، ومثل الصدقات سائر أعمال الخير. أما الذين يقدمون الكثير متطوعين به فإنهم يلمزونهم على سبيل التجريح في غاياتهم ومقاصدهم، فيتهمونهم بأنهم يراؤون الناس، أو بأن غرضهم الشهرة أو الفخر أو ثناء الناس عليهم أو نحو ذلك.

فمن أمثلة ذلك ما روي أن رسول الله ﷺ حثَّ المسلمين على التطوع بالصدقة ذات مرة، فأتى عبدالرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب، وقيل:

أتى بأربعة آلاف درهم، وقال: يا رسول الله، لي ثمانية آلاف فأقرضت ربي أربعة، وأمسكت لعيالي أربعة، فقال له رسول الله ﷺ: بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت.

وتطوع عاصم بن عدي بمائة وسق من تمر، ثم جاء أبو عقيل الأنصاري وكان رجلاً فقيراً، فتطوع بصاعٍ من تمر، وقال: بت ليلتي أجر بالجرير[1] على صاعين، فتركت صاعاً لعيالي وجئت بصاع، فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره على الصدقات ففعل.

فأخذ المنافقون يلمزون هؤلاء المتصدقين، فقالوا: ما أعطى عبدالرحمن بن عوف وعاصم بن عدي إلا رياء، ولقد كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل، ولكنه أحب أن يُذَكِّر بنفسه ليُعطى من الصدقات.

٢٥ ــ ومن الظواهر السلوكية للمنافقين، تدبير المؤامرات ضد المسلمين، أو المشاركة فيها، أو الاستجابة لمدبريها.

والسبب في ذلك أنهم عنصر دخيل، يقهر دوافعه الداخلية على إخفاء تعبيراتها، وكتمها، وعدم السماح لها بأن تبرز إلى سطح السلوك الظاهر، وهذه العملية مؤلمة للنفوس لما فيها من كبت للمشاعر، وضغط لها داخل الجوانح، لذلك فهي تحاول التخلص مما هي فيه بأية وسيلة، وبأية مكيدة، فتعمل على تدبير مكيدة تتخلص بها من عناصر القوة التي تعاملها بالنفاق لأنها تخشى بأسها.

ومن أمثلة هذه الظاهرة لدى المنافقين في عصر الرسول صلوات الله عليه قصة مسجد الضرار، التي دبرها أبو عامر الراهب مع فريق من منافقي المدينة من جهة، والامبراطورية الرومية من جهة أخرى، للانقضاض على المسلمين سرّاً وهم عن أعدائهم المخالطين لهم غافلون.

كان أبو عامر الراهب واسمه (عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان)

---

(١) الجرير: الحبل، أي: أجر بالحبل على أجرةٍ هي صاعان من تمر.

أحد بني ضُبيعة، خزرجياً من أهل يثرب، وقد تنصر قبل الإسلام، وكان ذا مكانة في قومه، فلما هاجر الرسول ﷺ إليها أعلن عداءه له، وأخذ يؤلّب عليه من يستطيع صده عن الإسلام من قومه، فلما لم يظفر بما يريد داخل المدينة، خرج إلى مكة، فحث قريشاً على محاربة المسلمين في المدينة، بعد أن رأى انتصار المسلمين عليهم في غزوة بدر، وكان قد حلف ليحاربنّ محمداً مع كل من يحاربه، وقال لكفّار قريش في تحريضه لهم على محاربة المسلمين: إن لي أنصاراً في يثرب من قومي، إذا رأوني لم يختلف عليّ منهم رجلان.

وخرج مع قريش لحرب الرسول والمسلمين معه، وكانت الموقعة موقعة أحد، قالوا: ولما التقى المسلمون والمشركون في أحد، كان أبو عامر هذا أول من لقي المسلمين من جيش عدوهم، ليستحث قومه في صفوف المسلمين على طاعته ومناصرته وخذل الرسول، وكان معه الأحابيش[1] وعبيد أهل مكة، فوقف ينادي: يا معشر الخزرج، أنا أبو عامر.

فأجابوه بقولهم: فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق.

فقال: لقد أصاب قومي بعدي شر. ثم أخذ يقاتل المسلمين قتالاً شديداً، ولما حميت المعركة أخذ يرمي المسلمين بالحجارة، تعبيراً عن شدة حقده، ورجع بعد معركة أحد إلى مكة وفي قلبه من الحقد ما فيه.

ولما تم للرسول ﷺ فتح مكة، وخرج الرسول لإخضاع الطائف وما حولها، انضم أبو عامر إلى قبائل هوازن وثقيف ونصر وجُشم وسعد بن بكر وناسٍ من بني هلال، فقاتل المسلمين يوم حنين.

وانتصر المسلمون يوم حنين، ويئس أبو عامر عدو الله والرسول من الاعتماد على قوات الشرك داخل الحدود العربية، فقرر أن يستعين على المسلمين بهرقل ملك الروم في الشام، وأن يستنصر به عليهم، ورجا أن يرسل هرقل معه

(١) الأحابيش: حلفاء قريش.

جنداً من جند الروم، لمقاتلة المسلمين في المدينة، وذلك بمؤامرة سرية حاول تدبيرها مع فريق من المنافقين في المدينة، فركب جنح الظلام وسافر إلى هرقل.

واتفق مع سادته على أن يرسلوا معه جنداً من جند قيصر لمحاربة محمد وأصحابه، بعملية انقضاض ماكرة خبيثة على عاصمة الإسلام والمسلمين.

وبغية إحكام هذه المؤامرة، وحتى تكون حملةً خاطفة سرية لا حرباً علنية، أخذ أبو عامر يراسل خلصاءه من المنافقين في المدينة، ويُسر لهم بالأمر الذي تم الاتفاق عليه مع قيصر، ويأمرهم بأن يستعدوا بما استطاعوا من قوة وسلاح، وأن يبنوا قاعدة سرية في ضاحية المدينة، لا ينتبه إليها المسلمون، ولتكن هذه القاعدة السرية مسجداً يبنيه المنافقون ويجتمعون فيه، متخذين لإقامة هذا المسجد المبررات أمام الرسول ﷺ حتى يأذن لهم بإقامته.

فاجتمع نفر من المنافقين من بني غنم بن عوف، وكانوا اثني عشر رجلاً، منهم خِذام بن خالد، وثعلبة بن حاطب، ومُعتب بن قشير، وأبو حَبيبة بن الأزعر، وعباد بن حنيف، وآخرون، فقرروا إقامة مسجدهم هذا قريباً من مسجد قباء، تنفيذاً لخطة المؤامرة، وقد تم بناؤه بينما كان الرسول ﷺ على أهبة السفر إلى غزوة تبوك، فلما فرغوا من بنائه أتوا رسول الله ﷺ فقالوا له: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة، وإنا نحب أن تأتينا وتصلي لنا فيه.

فقال لهم الرسول: «إني على جناح سفر وحال شُغل، ولو قد قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه» وخرج رسول الله ﷺ بالمسلمين إلى غزوة تبوك دون أن يصلي لهم في مسجدهم هذا، وبينما هو قافل منها عائداً إلى المدينة نزل عليه الوحي وأخبره بخبر المؤامرة، وحال المسجد الذي بناه المنافقون في قباء.

وأنزل الله على رسوله في شأن هذا المسجد قرآناً، ونهاه عن أن يصلي للمنافقين فيه، ووصفه بأنه مسجد ضرار.

ولما وصل الرسول ﷺ إلى المدينة أتاه أصحاب مسجد الضرار فسألوه أن

يأتي مسجدهم ويصلي لهم فيه، فدعا صلوات الله عليه مالك بن الدخشم، ومعن بن عدي، وعامر بن السكن، فقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه.

فانطلقوا مسرعين حتى أتوا مسجد الضرار فهدموه وحرقوه، وانكشفت مكيدة المنافقين، وتم وأدها في مهدها، وتوقفت مكايد أبي عامر، ثم هلك في الشام في قنسرين.

أما ما نزل من قرآن في شأن مسجد الضرار، فقول الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾.

ففي الآية الأولى من هذا النص دلالة واضحة على أن فريقاً من المنافقين هم الذين أقاموا هذا المسجد ضمن خطة المكيدة المدبرة.

وقد وصف الله غايتهم من إقامة هذا المسجد بأربع صفات، يمكن منها تصور أبعاد المؤامرة الخائنة، وهذه الصفات هي:

الصفة الأولى: كون هذا المسجد مسجداً ضراراً، أي: الغاية منه المضارّة، وذلك بأن يكون وسيلة لإيقاع الضرر بالمسلمين، حينما تستكمل المؤامرة الخائنة عناصرها، ثم تأخذ سبيلها إلى التنفيذ.

الصفة الثانية: كون الغاية منه تمكين الكفر الذي في قلوبهم، وذلك لأنهم إذا اتخذوا مكاناً خاصاً بهم باسم مسجد، فإنهم يستطيعون وهم مستورون أن يتلاعبوا بعباداتهم وفق أهوائهم، ويستطيعون أن يتساروا فيه بدسائس الكفر وأقواله كما يشاؤون، وهذا من أعمال الكفر التي يضيفونها إلى ما يبطنون من شر.

الصفة الثالثة: كون الغاية من إقامته التفريق بين المؤمنين، وذلك لأن المؤمنين كانوا يصلون في مسجد قباء، فأراد المنافقون تفريق صف المؤمنين، ووجدوا في إقامة مسجد الضرار ما يحقق لهم غايتهم هذه.

الصفة الرابعة: كون الغاية من إقامته الإرصاد لمن حارب الله ورسوله، وهو أبو عامر الراهب، وذلك بإعداد العدة اللازمة لقتال المسلمين، وبانتظار الوقت الملائم لتنفيذ مؤامرة الانقضاض على المسلمين في المدينة، حينما يأتي أبو عامر ومعه جندٌ من جند قيصر.

وهذه المعاني مستفادة من كلمة الإرصاد، لأن الإرصاد في اللغة يأتي بمعنى الإعداد، ويأتي بمعنى الانتظار، تقول لغة: أرصدت له الأمر إذا أعددته له منتظراً الوقت الذي يأتي فيه أو يلائمه. ففي الإرصاد معنى الإعداد والتهيئة ومعنى الانتظار، وأصل الرصد الترقب النبيه.

ومن هذا يتضح لنا أن في الآية الأولى من هذا النص إشارة إلى قصة المؤامرة كلها ودلالة على أهم عناصرها بأخصر عبارة.

ولما كشف الله مكيدتهم أخذوا ــ كعادة المنافقين ــ يحلفون الأيمان الكاذبة الفاجرة على أنهم لم يريدوا إلا الإرادة الحسنى، وذلك ما كانوا قد تعللوا به من أنهم قد بنوا مسجدهم هذا لذي العلة والحاجة والليلة المطرة.

وفي قول الله لرسوله: ﴿لا تقم فيه أبداً﴾ توجيه ضمني لهدمه ومحو أثره، وذلك لأن الله تبارك وتعالى إذا لم يأذن لرسوله بالصلاة فيه فغيره من المسلمين كذلك. فهو إذن ليس مسجداً مأذوناً به ولا معترفاً به، وحينئذٍ لا يبقى له من

الصفات إلا أنه وكرٌ لتآمر المنافقين فوجب هدمه ومحو أثره، وكذلك كل ما كان على شاكلته، مما ظاهره الخير وباطنه الشر.

وأتبع الله قصة مسجد الضرار بالإشادة بمسجد التقوى الذي كان قد بناه المؤمنون المتطهرون الصادقون في قباء، وأسسه رسول الله ﷺ أول ما قدم مهاجراً من مكة، وكان أول من وضع حجراً في قبلته، ثم جاء أبو بكر فوضع حجراً، ثم أخذ الناس في البنيان، فكان أول مسجد بني في الإسلام.

واستمرت الريبة في قلوب بناة مسجد الضرار تقضّ مضاجعهم بعد انكشاف أمر خيانتهم فهم في خوف دائم وقلق مستمر، لأنهم يتوقعون أن يقرر الرسول ﷺ معاقبتهم، فينقض عليهم المؤمنون ويجهزوا عليهم. ولن ينتهي هذا الرعب الذي يطحن قلوبهم حتى تنقطع قلوبهم خوفاً وهلعاً مما يتوقعونه من مصير، أو حتى تأتيهم آجالهم، فخيانتهم قد كانت عظيمة، فيها كفر، وفيها تآمر خبيث مع دولة كبيرة معادية لله ولرسوله وللمؤمنين، ﴿لا يزال بنيانُهم الذي بَنوا ريبةً في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم﴾.

من علامات المنافقين في بيان الرسول ﷺ:

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

وفي رواية: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم».

وفي رواية: «وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر».

اشتمل هذا الحديث على التحذير من أمور هي من رذائل الأخلاق، وهي من علامات المنافقين، لأنها من صفات النفاق:

الرذيلة الأولى: الكذب.

الرذيلة الثانية: إخلاف الوعد.

الرذيلة الثالثة: خيانة الأمانة.

الرذيلة الرابعة: الغدر.

الرذيلة الخامسة: المخاصمة الفاجرة.

ودل كلام الرسول ﷺ على أن من اجتمعت فيه هذه الرذائل كانت علامات دالة على أنه منافق، أي لم يدخل الإيمان الصادق إلى قلبه، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم.

وحين نكتشف رذائل المنافق عن طريق التحليل نجد أن أبرزها وأخطرها وأخبثها هي هذه الرذائل.

فأول رذيلة خلقية يلجأ إليها المنافق ليستُر كفره وعدم استجابته لنداء الإيمان، هي رذيلة الكذب، فهو يتظاهر بأنه مسلم، فيعلن ذلك بلسانه، ويشهد الله على ما في قلبه، وهو في ذلك كاذب، يتنازعه عاملان نفسيان هما الخوف والطمع. وطبيعي أن تكون هذه الرذيلة علامة يُسجلها الراصد على الشخص الذي يدنس نفسه وسلوكه بها، ليستدل منها على نفاقه، أو على وجود خصلة فيه من خصال النفاق، ومن لا يكون كذاباً لا يعرف كيف ينافق.

والرذيلة الخلقية الثانية التي يلجأ إليها المنافق هي رذيلة إخلاف الوعد، وإخلاف الوعد قد يكون صورة من صور الكذب، وذلك إذا كان الإخلاف مقصوداً عند إعطاء الوعد، إذ يكون إخباراً كاذباً عما يريد فعله في المستقبل، فيقول: سأفعل كذا وهو يريد أن يفعل خلافه، فهو كاذب منذ إعطاء الوعد. أما إذا كان الإخلاف غير مقصود عند إعطاء الوعد فإنه يكون حينئذ من قبيل عدم حفظ ما استؤمن عليه، وعدم تنفيذ ما التزم به تجاه الآخرين.

وكون الإخلاف بالوعد من علامات النفاق، يظهر لنا حينما نلاحظ أن طبيعة النفاق تلجىء المنافق إلى أن يعد مواعيد لا يريد ابتداءً الوفاء بها، ولكن مقتضى ما زعم بأنه مسلم يفرض عليه أن يتابع ستر نفاقه بإعطائه الوعود الكاذبة، حتى إذا حان موعد الوفاء تهرب منه محاولاً ستر نفسه بالمعاذير الكاذبة، هذا إذا ظل مضطراً إلى التظاهر بخلاف حقيقته، أما إذا ذهبت هذه الضرورة فإنه يعلن بوقاحة أنه كان كاذباً، وأنه ما كان في الأصل يريد الوفاء بوعده.

والمنافق أيضاً حينما يشهد شهادة الإسلام فإنه يعطي عهداً ووعداً بالتزام

أحكام الإسلام وشرائعه ضمن شهادته، وكل ذلك كذب لا يريد من قلبه الوفاء به، ولكنه يريد أن يخادع به المسلمين.

والرذيلة الخلقية الثالثة التي هي من علامات النفاق هي رذيلة خيانة الأمانة. ومن الطبيعي أن يكون المنافق خائناً فيما يُستأمن عليه، إذ يزعم أنه أحد القوم، وأنه عضو من أعضائهم، وأنه موالٍ لهم ومناصر وهو في حقيقة حاله على خلاف ذلك. وحينما يتظاهر بانتسابه وولائه للقوم وأنه عضو من أعضائهم، فإنه يضع نفسه موضع المستأمن على أموالهم وأعراضهم، وأسرارهم وجميع مقدراتهم؛ ومن الطبيعي أن يستسلم القوم لمن أصبح عضواً منهم، فيستأمنوه على أمورهم العامة، وكثير من أمورهم الخاصة، مع أنه في حقيقة أمره منافق، وهو عدو لمن نافق لهم، يضمر لهم المكايد ويدبر لهم الدسائس، ولذلك كان من الطبيعي أن يستغل استئمانهم له واستسلامهم لولائه، فيخونهم ويغدر بهم.

فالخيانة رذيلة من الرذائل التي ترافق النفاق وتصاحبه في أحوال كثيرة، ولذلك كانت من العلامات الدالة عليه.

وحينما تجتمع في الإنسان رذائل الكذب والإخلاف في الوعد والخيانة عند الاستئمان، فإن أبرز خصائص النفاق تكون مجتمعة فيه.

وحينما يهون على الإنسان اجتماع هذه الرذائل كلها في أخلاقه، فإن انغماسه في أرجاس النفاق بكل خصائصه يكون أمراً هيناً عليه، ولا يمنعه منه مانع أخلاقي، لأنه إنسان لا يملك من فضائل الأخلاق ما يصده عن النفاق.

والرذيلة الخلقية الرابعة التي هي من علامات النفاق هي رذيلة الغدر، وطبعي في المنافق أن يكون غداراً، لأنه يعاهد كاذباً، فمتى سنحت له فرصة الغدر غدر.

والرذيلة الخلقية الخامسة التي هي من علامات النفاق هي أنه إذا خاصم فجر، أي اتخذ كل الوسائل الفاجرة ومنها الأيمان الكاذبة الفاجرة، ليغلب خصمه بالباطل. وصدق رسول الله ﷺ.

موقف المؤمنين من المنافقين:

لجأ الرسول صلوات الله عليه إلى سياسة معاملة المنافقين بحسب ظاهرهم فلم يحاكم أحداً منهم بحسب باطنه، وهذا هو واجب الحكم والقضاء الشرعي.

ولجأ الرسول أيضاً إلى سياسة العفو عما يبدو منهم مما يدل على نفاقهم، ما داموا يستخفون بعدواتهم لله ورسوله والمؤمنين، ويقدمون اعتذارهم عما يبدو منهم، أو يحلفون الأيمان الكاذبة على إنكار ما نسب إليهم، أو على سلامة نيتهم، وآثر الرسول ﷺ أن يلجأ إلى هذه السياسة لئلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ومن أسلم معه، فيكون ذلك سبباً في نفرتهم عن الدخول في الإسلام، وهم ما زالوا بالنسبة إلى هذا الدين بين الشك واليقين.

ولكن لما تصاعدت أعمال المنافقين الدالة على نفاقهم، إذ طالت عليهم مدة الإنظار، وإذ أخذ اليأس من تقهقر الإسلام يدب إلى قلوبهم، وإذ رأوا بوادر الانطلاق إلى دق أبواب الامبراطورية الرومانية، عندئذ أخذت الحملة الإعلامية القرآنية تتكثف ضدهم بقدر تصاعد ظواهر نفاقهم.

فلدى تتبع الحملة القرآنية العنيفة ضد الذين تخلفوا من المنافقين، فلم يخرجوا مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك، نلاحظ أنها بمثابة مقدمات لإعلان الحرب المسلحة ضدهم، وبمثابة التمهيد لتغيير سياسة التغاضي عنهم وعن أعمالهم. فالمسلمون قد غدوا قوة مؤهلة لحمل الإسلام إلى شعوب الأرض، وكسر أسوار الامبراطوريات الكبرى، والوقت لم يَعُد وقت مداراة المنافقين المعوّقين من داخل الصفوف، وقد آن أوان محاسبتهم على نفاقهم، ومجاهدتهم مثل جهاد الكافرين المجاهرين بكفرهم.

ولئن كانت المدّة الأولى تقتضي غض النظر عنهم، ريثما يقوى المسلمون وتشتد شوكتهم، ورجاء أن يستقيم بعضهم ويتوب من نفاقه، فإن المسلمين بعد أن أصبحت لهم قوة تفكر بغزو الروم صاروا بغنى عن مداراة منافقيهم، وغدت المصلحة الإسلامية تقضي بالمحاسبة الشديدة على كل مظاهر النفاق، وتمييز المنافقين عن المسلمين، ومحاربتهم ومجاهدتهم كالكافرين الصرحاء.

أما وقد صعّد المنافقون أعمالهم العدائية للإسلام والمسلمين فإن الحكمة اقتضت إنذارهم أولاً بأنهم إن لم ينتهوا فسيتم إعلان الحرب ضدهم وإغراء الرسول بقتالهم، وكان ذلك عقب غزوة الأحزاب. ثم لما لم يردعهم الإنذار بالوعيد، فإن الحكمة اقتضت تنجيز إعلان الحرب عليهم، وأمر الرسول بمجاهدتهم، وكان ذلك عقب تخلُّف من تخلف منهم عن غزوة تبوك، والأعمال التي كانت منهم في تلك الآونة.

أما الإنذار بأنهم إن لم ينتهوا فسيتم إعلان الحرب ضدهم وإغراء الرسول بقتالهم فإننا نجده في قول الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

فخاطب الله رسوله في هذا النص، بأنه إن لم ينته المنافقون عن أعمالهم الدالة على نفاقهم، والتي تعبر في سلوكهم عن كفرهم الكمين في قلوبهم، لنغرينك بهم، أي: لنحرضنك على مقاتلتهم ومطاردتهم وإجلائهم، وذلك على سبيل إغرائك بالانتقام منهم، على ما كان منهم من إيذاءٍ لك ومخالفة، ومناهضة مقنعة للإسلام والمسلمين.

﴿ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً﴾: أي ثم لا يجاورونك في المدينة إلا قليلاً، وهذا بمثابة نتيجة طبيعية للتحريض على مقاتلتهم، ونبذهم من صفوف المجتمع الإسلامي الذي ينافقون له.

وقد أكد الله معنى طردهم من صفوف المسلمين بإعلان طردهم من رحمته سبحانه وتعالى، فقال تعالى: ﴿ملعونين﴾.

ثم قال تعالى: ﴿أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً﴾ أي: حينما يغري الله

رسوله والمؤمنين بمقاتلتهم، فيعامهم معاملة الأعداء الذين يجاهرون بعداوتهم، فسيكون الانتقام منهم أقسى وأشد نكاية من الكافرين الصرحاء، فأينما وجدوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً عنيفاً، فلا يقبل منهم بعدئذ توبة، لأنهم قد امتحنوا فأظهروا أنهم كذابون، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

وختم الله هذا الإنذار بقوله: ﴿سنّة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلاً﴾ للدلالة على أن من سنن الله الحكيمة التي لا تبديل لها، أنه متى بلغ المنافقون من أية أمة من الأمم مبلغاً من الكيد للرسالة الربانية، صار فيه بقاؤهم بين صفوف المؤمنين خطراً على سير الدعوة وانتشارها، أو معوقاً ظاهراً لتقدمها، فإن الله ينزل أمره لرسُله بمقاتلتهم، وبمطاردتهم حتى القضاء عليهم واستئصال شأفتهم، وذلك لأن خطرهم حينئذٍ يكون أشد من خطر الكافرين المجاهرين بعداوتهم. ولكن، ما دام نفاقهم لم يصل إلى هذه الدرجة من الخطورة فإن من سنّة الله تبارك وتعالى أن لا يأذن لرسله بمقاتلتهم مقاتلة جماعية تستأصلهم، حتى لا يأخذ الناس بعضهم بعضاً بالظنة.

وأما تنجيز إعلان الحرب عليهم وأمر الرسول بمجاهدتهم عقب تخلف من تخلف منهم عن غزوة تبوك، والأعمال التي كانت منهم في تلك الآونة، فنجده في قول الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾.

فدعا الله رسوله في هذه الآية إلى مجاهدة الكفار والمنافقين والإغلاظ عليهم، فدل هذا على أن المنافقين قد وصلوا إلى حالة انكشف فيها نفاقهم تماماً، بتصاعد الأعمال الدالة عليه منهم، فكان ذلك مقتضياً أن يعاملوا معاملة الكافرين الصرحاء.

ولو أنهم لم يكشفوا صفحتهم بما يدل على كفرهم من أعمال، لما دعا الله رسوله إلى مجاهدتهم والإغلاظ عليهم، لأن أحكام شريعته المستمرة تقضي بأن

لا تُحاسب القيادة الإسلامية الناس على ما في قلوبهم، حتى يظهر في أعمالهم ما يدل عليها دلالة واضحة، وأمرُ المحاسبة على ما في القلوب متروك لله جل وعلا.

يضاف إلى ذلك ما ذكرناه آنفاً من أن المسلمين قد وصلوا إلى مرحلة يستطيعون فيها الاستغناء عن مداراة المنافقين، ولا يؤثر على دعوتهم فيها أن يحاسبوا المنافقين حساباً عسيراً. كما أن المنافقين قد صعّدوا أعمالهم العدائية للإسلام والمسلمين، إذ بدأوا يشعرون بأن سندهم قد تقوض نهائياً داخل الحدود العربية، ولم يبق لهم إلا أمل واحد، وهو أن يأتيهم الدعم من وراء الحدود، وبدأ بعضهم يطمع بدعم الامبراطورية الرومانية، أو أجرائها من العرب الغسانيين، ليخلصوهم من هذه القوة الكبيرة التي أصبحت للمسلمين، ولكن الذي أطار صوابهم أن يدعوهم الرسول ﷺ إلى قتال هذه القوة التي يترقبون أن تكون هي السند لهم.

وقد أخذ التمهيد للدعوة إلى مجاهدة المنافقين يبرز في شن الحملة الإعلامية ضدهم، بذكر مواقفهم، وفضح أعمالهم التي كانوا يتوارون بها.

وأتبع الله دعوة الرسول إلى مجاهدتهم ببيان الأسباب الداعية إلى ذلك، فذكر طائفة من أعمالهم الكاشفة لنفاقهم وكفرهم، في تسع آيات من سورة (التوبة) عقب الآية السابقة.

ثم كلف الله رسوله أن يباشر تنفيذ خطتي عزلٍ للمنافقين عقب عودته إلى المدينة من غزوة تبوك سالماً:

* **الخطة الأولى**: عزل من تخلف منهم عن الغزوة عزلاً عسكرياً وطردهم من مكان الاعتبار بين صفوف المسلمين، وذلك بمنعهم عن الخروج إلى القتال مع الرسول ﷺ وبشطب أسمائهم من ديوان المجاهدين.

* **الخطة الثانية**: عزل موتاهم من سجل موتى المسلمين، وذلك بأن لا يصلي الرسول ﷺ على أحد منهم مات أبداً، وبأن لا يقوم على قبره للدعاء له، فالاستغفار لهم لا يفيدهم.

أما العزل العسكري فقد أمر الله رسوله به في قوله في سورة (التوبة ٩):

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

ففي هذا إعلان عزلهم عن المشاركة في أي قتال يقوم به الرسول ﷺ، وفي هذا العزل إبعاد لهم عن بعض مواقع المسلمين، وفيه تمهيد لتمييزهم بالمراقبة، ثم لتوجيه الضربة القاصمة لظهورهم متى لزم الأمر.

وأما عزل موتاهم من سجل موتى المسلمين، الذي هو أشد قسوة على المنافقين من العزل العسكري، وأبلغ في طردهم من صفوف المؤمنين، فقد أمر الله رسوله به في قوله له في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

وظاهر في هذا الإعلان طردهم النهائي من صفوف المسلمين، بعد الذي كان منهم.

وهكذا تم عزل المتخلفين عن الجهاد من المنافقين عزلاً عسكرياً، وتم شطب أسمائهم من ديوان المجاهدين، ثم أتبع ذلك بإعلان عزل موتاهم من سجل موتى المسلمين، بنهي الرسول ﷺ عن أن يصلي على أحد منهم مات أبداً، أو أن يقوم على قبره للدفن أو الدعاء، والسبب في ذلك أنهم كفروا بالله ورسوله، وماتوا وهم فاسقون.

ثم قنّط الله رسوله من رجاء إصلاحهم بعد أن مردوا على النفاق، فقال في الآية التالية من سورة (التوبة ٩):

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

وذلك أنه ربما يقوم في نفس الرسول ﷺ أملٌ بأن يصلح هؤلاء المنافقون، رغم التجارب العديدة التي اكتوى بها منهم، وبذلك تتوجه قوتهم في المال والرجال فتكون عوناً صحيحاً للإسلام والمسلمين، ولكن الله قد علم من حالهم أنهم قوم مردوا على النفاق، وأنه لا رجاء من صلاح أحوالهم، فقنّط رسوله منهم، وقال له: ﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم﴾.

ثم تتابعت الآيات في السورة تبين أسباب وضع المنافقين في هذا الموضع الذي غدوا فيه معزولين، يترقبون أن يجاهدهم الرسول كما يجاهد الكافرين المجاهرين بكفرهم.

عقاب المنافقين في الآخرة:

تطبيقاً لسنّة الجزاء الرباني الذي هو من جنس العمل، يلقى المنافقون يوم القيامة عذابهم في صورة تشبه عملهم في الدنيا، إنهم يوم القيامة في الظلمات لا نور لهم، لأنهم كانوا محرومين من نور الإيمان الصادق في الدنيا، ويرون المؤمنين يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، يهديهم إلى الجنة دار النعيم، فيحاول المنافقون السير في نور المؤمنين كما كانوا في الدنيا يسيرون معهم نفاقاً، إلا أنهم لا يستطيعون مسايرتهم، يثقلهم كفرهم، ويظلم عليهم ما قدموا من سيئات، فيقولون للذين آمنوا: انتظرونا لنقتبس من نوركم، فيقال لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً من أعمالكم الصالحات، فإذا التفتوا وراءهم ضرب بينهم وبين المؤمنين بسورٍ له باب لا يدخله إلا الذين آمنوا، وهذا السور له باطن وظاهر، أما باطنه وهو ما يقع في جهة المؤمنين ففيه الرحمة، فيه دار النعيم، جنات تجري من تحتها الأنهار، وأما ظاهره وهو ما يقع في جهة الكافرين والمنافقين فيأتي من قبله العذاب، عذاب نار جهنم.

فينادي المنافقون من ظاهر السور المؤمنين وهم في باطنه: ألم نكن معكم في الدنيا فلماذا لا نكون معكم في الآخرة؟.

فيقول لهم المؤمنون: بلى، كنتم معنا في الظاهر، ولكن لم تكونوا معنا في الحقيقة، لقد فتنتم أنفسكم بالكفر، وتربصتم في مواقع الكافرين، وارتبتم فيما

أنزل الله على رسوله، وغرتكم الأماني التي كنتم تتمنونها بسلوككم مسلك النفاق، ولبثتم على حالتكم هذه حتى جاءكم الموت، وأنتم مغترون بوساوس الشيطان.

وفي بيان هذا الذي يكون لهم، وحكاية هذا الحوار الذي يجري بينهم وبين المؤمنين يوم القيامة، يقول الله تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾.

وإذ يدخلون النار يدفعون إلى الدرك الأسفل منها، لأن كفرهم قد صاحبه مخادعة للمؤمنين ومكر بهم، فهم بسبب هذا أسوأ حالاً من الكافرين الصرحاء المجاهرين في كفرهم. وفي بيان مصيرهم إلى الدرك الأسفل من النار يقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾.

ـ ٥ ـ

العــــدل

العدل هو أحد الفروع الخلقية لحب الحق وإيثاره، وأحكام العدل وتطبيقاته إنما هي تنفيذ لما يقتضيه الحق.

ولدى التأمل الدقيق يتبين لنا أن معظم العلاقات المادية وغير المادية بين الناس لها من الحق أصول ثابتة، وحين يتم التقيد بما في هذه الأصول من حق بالعمل أو القول أو الحكم أو وضع القوانين والنظم فذلك هو العدل، إذ بهذا يتساوى الحق والتطبيق العملي، أو يتساوى الحق والقول المبين له، أو يتساوى الحق والحكم المقرر له، أو يتساوى الحق والقانون أو النظام المحدد له.

تعريف العدل:

وعلى هذا نستطيع أن نعرف العدل: بأنه إعطاء كل ذي حق ما يعادل حقه ويساويه دون زيادة ولا نقصان.

ويمكن أن نعرفه: بأنه المساواة بين التصرف وبين ما يقتضيه الحق دون زيادة ولا نقصان.

ومن أجل ذلك كان الميزان رمزاً لإقامة العدل.

وقد لا يقتصر الميزان ــ الذي هو رمز لإقامة العدل ــ على كفتين متقابلتين لوزن الشيء الواحد، بل ربما يكون ميزاناً ذا كفتين أو أكثر من كل جهة من شطري الدائرة الأفقية، وكل كفة في جهة مقادير الحق تقابلها كفة في جهة التقويم بالعدل، ولا تستقيم إشارة العدل ما لم تعادل كل كفة شقيقتها المقابلة لها في الميزان.

ومن عجيب أمر ميزان العدل أن للحق فيه موجباً وسالباً، أما موجب الحق فهو ثقل يرجح الكفة التي يوضع فيها، ولا يتحقق العدل إلا بوضع ثقلٍ معادلٍ له في الكفة المقابلة لها. وأما سالب الحق فهو قوة تطيش بالكفة إلى جهة العلو جاذبةً لها، وبذلك تنخفض الكفة المقابلة لها، ولا يتحقق العدل في هذه

الحالة إلا بوضع قوة في الكفة المقابلة من شأنها أن تجذبها إلى ارتفاع حتى تتعادل الكفتان، وتستقيم في الميزان إشارة العدل.

فهو ميزان يزن الموجب والسالب، أي: يزن الواجب والحرام، يـزن ما هو حق ويزن ما ليس بحق، وتعمل فيه الحركتان الموجبة والسالبة.

ولما كان العدل مرتبطاً بالحق كان لا بد لنا من ملاحظة أن حقوقاً متعددة الجهات قد تتوارد على شيء واحد، وأن لكل جهة منها مقداراً من الحق ذا نسبة خاصة من المجموع الكلي.

ونحاول ضرب مثل موضح للفكرة ومقرّب للحقيقة، بأن نقول:

إن المال الذي يكتسبه الفرد تتوارد عليه عدة حقوق.

الحق الأول: حق الشخص الذي اكتسبه.

الحق الثاني: حق أصحاب النفقة الواجبة فيه، كزوجة مكتسب المال، وأولاده الصغار، وأصوله وفروعه الفقراء.

الحق الثالث: حق الجماعة والمرافق العامة فيه.

الحق الرابع: حق الفقراء والمساكين ومن يلحق بهم.

وقد تم تحديد هذه الحقوق المختلفة من قبل صاحب الحق كله في كل شيء في الوجود، وهو الله تبارك وتعالى.

فإذا وضعنا ثقل كل حق من هذه الحقوق الأربعة في كفة من كفات ميزان العدل، فسنجد أربع كفات قد رجحت، وكان رجحان كل كفة منها بمقدار ثقل الحق الذي وضع فيها، وهذه الكفات الأربع قد قابلها أربع كفات طائشات، إذ تتطلب كل واحدة منها عطاء في النظـام معادلاً لمقدار ثقل الحق المقابل لها.

وإذْ قد وصلنا إلى هذه المرحلة فإن علينا أن ننظر في نظام الإسلام المتعلق بهذا الموضوع.

وهنا يبدو لنا أن الإسلام قد أعطى كاسب المال من الطرق المشروعة حق

التملك، ولكنه تملك يُلزم معه بدفع سائر الحقوق المتعلقة بهذا المال، فيده عليه يدُ مستأمن ذي و لاية، فإذا خان الأمانة أخذت منه الحقوق بالقوة، من قبل ذي الولاية الأعلى، وكان عُرضة للعقاب.

وأعطى الإسلام من تجب لهم النفقة حقهم من النفقة بالعدل، ووضع المادة التي تمنحهم هذا الحق في الكفة المقابلة لشقيقتها التي وضع فيها ثقل حقهم.

وأعطى الجماعة من المال حصة المرافق العامة، وذلك بالعدل الذي لا إجحاف فيه على حق كاسب المال.

وأعطى الفقراء والمساكين ومن يلحق بهم من المال حصتهم بالعدل أيضاً.

وهكذا بالتوزيع العادل تعادلت الكفات المتراجحة في طرفي الميزان، وبتعادلها جميعاً استقامت إشارة العدل العامة.

شبهة المساواة العامة في مفهوم العدل:

يمكر بعض الماكرين، ويتسرع بعض المنخدعين، فينادون بالمساواة العامة بين الناس جميعاً في كل أمور الحياة، ويرون أن ذلك من العدل.

وهذا خطأ فادح، يؤدي إلى تحقيق أنواع وصور شنيعة من الظلم، تحت شعار العدل، وذلك لأن حقوق الناس في الأصل غير متساوية، فكيف تكون المساواة بينهم من العدل، مع تفاوتهم في الحقوق.

كيف يكون من العدل مساواة الناقص للكامل؟ كيف يكون من العدل التسوية بين المحسن والمسيء؟ كيف يكون من العدل التسوية بين المسلم والمجرم؟ كيف يكون من العدل التسوية بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟.

إن التسوية بين هذه الأمور المتفاوتة في أصلها مجانبة للعدل، وظلم للحق لا ترتضيه العقول.

إن خديعة المساواة يلزم منها أن يعطي المدرس طلابه تقديراً متساوياً،

مهما كان وضع كلٍ منهم، وعندئذٍ ينال المقصر الكسول مثل الدرجة التي ينالها السابق المجد، وهذا ظلم لحق العلم، وظلم لحق السابق المجد.

إن ميزان العدل يزن قيم الأشياء وقيم الأعمال بالاستناد إلى قواعد الحق، فمتى تساوت كفتا الميزان استقامت إشارة العدل، والذي يريد أن يسوي بين الأمور رغم اختلاف قيمتها الذاتية، مثله كمثل من يسوي في القيمة بين الذهب والحجر، على أساس تكافئهما في الثقل المادي، فيضع ذهباً بإحدى كفتي الميزان، ويضع في الكفة الأخرى مثل ثقله حجراً عادياً.

إن العدل عمل شديد الدقة، يحتاج إلى بصر نافذ، ومهارة فائقة، وخبرة بالأشياء والأعمال، ومعرفة بقيمها الذاتية، وإلا اختل ميزان العدل وجار، وجنح صاحبه إلى ظلم كبير شنيع.

وقد يكون من السهل معرفة العدل بين خصمين، لأحدهما دْين على الآخر، والمدين غير منكر، فيحكم القاضي بالعدل حين يكلف المدين أن يؤدي ما عليه لدائنه، ومن السهل أيضاً أن نعرف بوجه عام أن من العدل إعطاء كل ذي حق حقه أو ما يعادل حقه ويساويه، ولكن تتعقد المشكلة حين تعرض الحوادث والقضايا، وتخفى جوانب كثيرة منها، ويكون على القاضي فيها أن يحكم بالعدل.

وكثيراً ما يصعب على واضعي الأنظمة والقوانين استبانة وجه العدل في الأمور التي يريدون أن يضعوا لها أنظمة وقوانين، وكم يضعون أحكاماً عامة ثم يلاحظون لدى التطبيق أنها أحكام جائرة ظالمة، وأن العدل يقضي بتعديلها.

ولا بد أن نلاحظ في هذا المقام، أن الشريعة الإسلامية قد وضعت لنا في أحكامها المقاييس والصنجات، التي نقيس بها ونزن قيم الأشياء والأعمال بالاستناد إلى قواعد الحق، فإذا قسنا أو وزنا بها وزناً صحيحاً عرفنا بتوفيق الله وتسديده وجه العدل، ومن أجل ذلك ذخرت الشريعة الإسلامية بأحكام العدل التفصيلية حتى نحسن القياس والوزن.

ومن أجل ذلك أيضاً نبهت نصوص الشريعة الإسلامية على ارتباط ميزان العدل بمقاييس الحق، فمنها قول الله تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

فمن هذا النص نلاحظ أن ميزان العدل مرتبط ارتباطاً أساسياً بمقاييس الحق وموازينه، وعلى مقاييس الحق وموازينه تتم عملية الوزن الصحيح الذي يظهر فيه وجه العدل.

ومثل الشريعة الإسلامية في هذا شرائع الله السابقة التي أنزلها على رسله، قال الله تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

فرسل الله جميعاً جاؤوا بالبينات، وأنزل الله معهم الكتاب للهداية، وأنزل معهم ميزان العدل، ليقوم الناس بالقسط.

ولما كانت الهداية وإقامة العدل بحاجة إلى قوة مادية تكبح عدوان أعدائهما ذكر الله الحديد، وأعطاه صفةَ أنه منزل من لدنه، لأن الحديد هو أداة القوة المادية وسلاحها المؤدب والمحارب، فقال تعالى: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾.

وامتن الله بأن في الحديد منافع أخرى للناس، إضافة إلى منافعه في إقامة العدل بين الناس، وفي الجهاد في سبيل الله لهداية الخلق إلى الحق.

وهكذا دلنا هذا النص على أن الشرائع الربانية كلها قد جاء فيها التوجيه لاستخدام القوة المادية، لإقامة العدل، والجهاد في سبيل الله، بغية ردع الظالمين

الآثمين المعتدين، الذين يظلمون الناس ويقاومون الحق، ويحمون أنفسهم بسلطان القوة المادية.

العدل من صفات محبي الحق ومن صفات المؤمنين:

ولما كان العدل أحد فروع خلق حب الحق وإيثاره، وأثراً تطبيقياً من آثاره، كان لا بد أن نجد الذين يحبون الحق ويؤثرونه قوماً متصفين بخلق العدل، ولذلك نرى أهل الإيمان الصادقين أهل عدل، إذ جعلهم حبهم للحق يؤمنون به؛ فإيمانهم به يدفعهم إلى إقامة العدل، والحكم بالعدل، والشهادة بالعدل، ومعاملة الناس بالعدل، والقول بالعدل، والكتابة بالعدل، إلى غير ذلك مما يدخل فيه العدل والجور.

ولذلك لما أمر الله بالعدل وبالقسط خاطب بأمره الذين آمنوا، إشعاراً بأن العدل من لوازم الإيمان، وبهذا نستطيع أن نفهم التشابك المنطقي بين حب الحق وإيثاره والإيمان وظاهرة العدل.

وحينما يتحول العدل من كونه أثراً من آثار حب الحق، أو ثمرة من ثمرات الإيمان، إلى كونه ظاهرة عملية متكررة في سلوك الفرد، كلما اقتضى الحق والإيمان العمل بالعدل، فإنه يكون حينئذ خلقاً من أخلاقه المتمكنة فيه، وذلك بسبب تكرر التدرب العملي عليه، وعدم الاستجابة لنوازع النفس وشهواتها، وأهوائها، ونوازع شياطين الإنس والجن.

أما أمر الله الذين آمنوا بالعدل وبالقسط فنجده في نصوص قرآنية متعددة، منها قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾.

ومنها قول الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

شنآن قوم: بغض قوم. القسط: هو العدل.

من الملاحظ تنوع التعبير في هذين النصين، ففي آية النساء، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله﴾ وفي آية المائدة، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط﴾.

وأرى أن السر في ذلك هو إرادة الدلالة على أن كلًا من القوامة والشهادة يجب أن يكون بالعدل ويجب أن يكون لله، أي: مُبْتَغىً به وجه الله تعالى، فكانت الدلالة على ذلك عن طريق التنويع في التعبير على هذا الشكل من ألطف الدلالات وأعذبها بياناً.

وفي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط﴾: أمرٌ للمؤمنين بأن يكون العدل خلقاً من أخلاقهم، وذلك لأن صيغة (قوَّام) هي صيغة مبالغة لقائم، فإذا قلنا: فلانٌ قوَّام بالعدل، دل هذا القول على أن القيام بالعدل من الأخلاق المتمكنة فيه، فكلما اقتضاه الحق والواجب أن يعمل بالعدل فإنه يعمل بالعدل، فيكون القيام بالعدل من سجاياه، وحين نرى إنساناً يعمل بالعدل في كل الأحوال التي يستدعي الحق والواجب العمل فيها بالعدل فإننا نقول دون تردد: إن العدل خلقٌ من أخلاقه.

إذن فالله تبارك وتعالى يأمر الذين آمنوا بأن يكون العدل خلقاً ثابتاً من أخلاقهم.

العدل من الأسس العامة لأحكام الشرائع الربانية:

حين نبحث عن الأسس العامة لأحكام الشرائع الربانية يتبين لنا أن العدل أحد هذه الأسس، لا سيما ما يتعلق من أحكام الشرائع بتنظيم علاقات

الناس المادية والأدبية والسياسية، لضمان حقوقهم، ومصالحهم، فمستند هذه الأحكام مما تدعو إليه وتقتضيه مكارم الأخلاق.

وفي النص الكلي الجامع يقول الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾.

ومن هذا يظهر لنا، أن الشريعة الإسلامية حين قررت أحكامها ونظمها المنظمة لعلاقات الناس المادية والأدبية والسياسية؛ راعت فيها أن مكارم الأخلاق توجبها أو تحسنها، وتحرم أضدادها، أو تقبحها، فهي نظم بوصفها أحكاماً منظمة، وهي عند تطبيق الأفراد قد تكون أيضاً ظواهر سلوكية لأخلاق كريمة متمكنة في نفوسهم، وعند تدريب المؤمنين عليها تهدف التربية الإسلامية إلى جعلها فيهم أخلاقاً مكتسبة.

ولدى تحليل الترابط وتوجيه الأطراف يتبين لنا ما يلي:

١ ــ العدل ظاهرة من ظواهر تطبيق الحق.

٢ ــ فإذا قررت وجوبه الأحكام والشرائع أو تواضع عليه الناس كان نظاماً أو قانوناً.

٣ ــ وإذا أحبته القلوب والنفوس حباً موجهاً للسلوك ومتحكماً فيه، كان خلقاً.

٤ ــ وإذا كان الدافع لتطبيقه لدى الأفراد الخوف من مخالفة النظام، ومما يترتب على المخالفة من عقاب، كان تطبيقاً للنظام، ويمكن بالتكرار والالتزام الدائم أن يتحول فيكون خلقاً بعد أن يكون عادة.

٥ ــ وإذا كان الدافع لتطبيقه باعثاً خلقياً أصيلاً في النفس، كان ظاهرة خلقية، ومتى كان كذلك فلا بد أن يكون مكيناً في السلوك.

٦ ــ وإذا ابتغيت به مرضاة الله كان ديناً وعبادة لله وطاعة له وسبباً في اكتساب الأجر العظيم عنده.

المجالات التي يدخل فيها العدل:

إن المجالات التي يدخل فيها العدل أو الجور والظلم كثيرة، فمنها المجالات التالية:

(أ) الولاية على الناس، سواء أكانت ولاية خاصة أو ولاية عامة، فيجب أن تتبع فيها قواعد العدل التي أمرت بها شريعة الله لعباده.

ومن العدل في الولاية إسناد الأعمال إلى أهلها الأكفياء للقيام بها، أما إسنادها إلى غير أهلها الأكفياء فمجانبة لسبيل العدل.

ومن العدل في الولاية إعطاء المستحقين ومنع غير المستحقين، وإتاحة الفرص لجميع الأفراد بحسب كفاياتهم.

(ب) القضاء، فيجب أن تتبع في القضاء قواعد العدل التي أمرت بها شريعة الله لعباده.

ويكون في الفصل بين الخصماء بإعطاء كل ذي حق حقه أو ما يساويه، وبإلزام الذي عليه الحق بأن يدفعه أو يدفع ما يساويه إلى مستحقه.

ويكون بالتسوية بين الخصماء في مجلس القضاء.

ويكون بإقامة الحدود والجزاءات والقصاص بالمقدار الذي يكافىء ذنب المذنب، ويكافىء حق الله على عباده، أو حق الناس على الناس.

(ج) الشهادة، فيجب أن تكون الشهادة بالعدل، وذلك بأن يشهد الشاهد شهادة مساوية لما رأى أو سمع في الأمر الذي يشهد به.

(د) الكتابة، فيجب أن يكتب كاتب الحقوق بالعدل، وذلك بأن يكتب كتابة مساوية تماماً لما يمليه عليه أصحاب العلاقة فيها، ومساوية للحق الذي يعلمه فيها.

(هـ) معاملة الزوجات، فيجب أن يعامل الرجل زوجاته بالعدل، وذلك بأن يعطي كلاً منهن نصيبها من النفقة والسكن والمبيت بالعدل.

(و) معاملة الأولاد، ويكون العدل في معاملة الأولاد بالتسوية بينهم بالعطاء، والتربية، والبِشْر، وغير ذلك مما يملكه الإنسان.

(ز) الكيل والميزان، ويكـون العدل في الكيـل والوزن بـأن يكيل ذو الكيل ويزن ذو الوزن بالقسطاس المستقيم، وبما يساوي الحق الذي تم عليه التراضي.

(ح) الأنساب، ويكون العدل في الأنساب بأن ينسب الإنسان إلى أبيه الذي ولده، لا إلى آخر يتبناه، فنسبته إلى غير أبيه شهادة كاذبة، غير مساوية للواقع، وتفضي هذه النسبة الكاذبة إلى استيلائه على ما لا حق له به من ميراث وغيره، وهذا عدوان على أصحاب الحقوق، ومجانبة ظاهرة لمقتضى العدل، ولذلك قال الله في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾.

أي: هو أعدل عند الله.

(ط) الإصلاح بين الفئات المتقاتلة من المسلمين، فيجب اتباع قواعد العدل في الإصلاح بين الناس.

إلى غير ذلك من أمور تتطلب عدلاً بقدر حقوق أصحاب الحقوق فيها.

نصوص إسلامية في الأمر بالعدل:

لدى تتبع القرآن الكريم وأقوال الرسول صلوات الله عليه نجد نصوصاً كثيرة تأمر بالعدل، فمنها ما هو عام، ومنها ما هو خاص في مجال من المجالات التي يدخل فيها العدل والجور.

وفيما يلي طائفة من هذه النصوص مع تدبر ما اشتملت عليه من دلالات:

١ ــ يخاطب الله رسوله بقوله في سورة (الشورى ٤٢):

﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ . . . ۝١٥ ﴾.

فقد أمر الله رسوله محمداً في هذا النص بأن يعلن أن الله قد أمره بإقامة شرائع الإسلام وأحكامه ليعدل بين الناس.

ففي جملة: ﴿وأمرت لأعدل بينكم﴾ محذوف يمكن تقديره على الوجه التالي: وأمرت بإقامة شرائع الإسلام وأحكامه لأعدل بينكم، أو وأمرت بأوامر كثيرة لأعدل بينكم. والغرض من هذا الحذف إرادة العموم، وذلك حتى يعم المأمور به كل النصوص الربانية التي يحقق تطبيقها مبدأ العدل.

وقد دل هذا النص على أن شرائع الإسلام وأحكامه إذا أقيمت كما أمر الله تحقق مبدأ العدل بين الناس، لما فيها من مراعاة للعدل الذي هو من أجلّ الأصول العامة التي يقضي العقل السديد بضرورة مراعاتها، في جميع النظم والأحكام والشرائع التي تنظم معاملات الناس.

٢ ـ ويخاطب الله الذين آمنوا بقوله في سورة (المائدة ٥):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

لا يجرمنكم: لا يحملنّكم. شنآن قوم: بغض قوم.

فالله تعالى يكلف الذين آمنوا أن يكونوا قوامين لله، أي: يبتغون مرضاة الله في قوامتهم، ومرضاته إنما تتحقق باتباع أوامره واجتناب نواهيه، والله يأمر بالعدل، وينهى عن البغي.

ويكلف الذين آمنوا أيضاً أن يكونوا شهداء بالقسط، أي: بالعدل.

فالمؤمنون مأمورون بأن يكونوا في أحكامهم وأقضيتهم ورعايتهم لمن تحت أيديهم وفي سائر شؤونهم قوامين لله، لا لأنفسهم وشهواتهم، وما توسوس به الشياطين. وهذه مسؤولية عظيمة في الحياة، يضعها الله في أعناق المؤمنين، ومهما

أعطاهم الله سلطة قوامة على الناس فعليهم أن يكونوا قوامين لتنفيذ شريعة الله التي تأمر بإقامة العدل.

وصيغة (قوَّامين) تشعر بضرورة المبالغة والحرص الشديد على التزام أحكام الله في سلطة القوامة، لأنها من صيغ المبالغة.

وإذا كانوا قوامين لله، أي: قوامين على الناس لتنفيذ شريعة الله التي تأمر بالعدل، فإن عليهم أن يكونوا شهداء بالقسط، كلما كان تثبيت الحق متوقفاً على شهادة يشهدون بها. وفي أداء الشهادة يقول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾.

ونهى الله الذين آمنوا أن يحملهم بغضهم لقوم على أن لا يعدلوا معهم، فقال تعالى في الآية: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا﴾.

وفي استخدام كلمة «لا يجرمنكم» بمعنى «لا يحملنكم» إشعارٌ بأن الدافع إلى ترك العدل فيه ما يحمل على ارتكاب جريمة الظلم أو الجور أو العدوان، وذلك لأن من يبغض قوماً فيحمله بغضه على أن يكون ظالماً لهم، أو جائراً عليهم، أو معتدياً على حقوقهم، في قوله، أو فعله، أو حكمه وقضائه، لا بد أن يركب مركب الجريمة. فإذا مزجنا شيئاً من معنى الجريمة في عبارة «لا يحملنكم» كانت مساوية لعبارة «لا يجرمنكم».

وفي استخدام كلمة «شنآن» بمعنى البغض إشعارٌ بأن البغض بغض شديد مضطرب متحرك، يغلي في القلوب فيحمل على الجور أو الظلم أو العدوان، فالقرآن لم يستعمل كلمة البغض لأنها تصدق بالقليل منه والكثير، والساكن منه والمتحرك، وإنما استعمل كلمة «شنآن» ولم يستعمل مصدراً آخر من المادة نفسها، إذ يقال لغة: «شنأه شَنْأً وشَنْأَةً» إذا أبغضه، وإنما استعمل مصدر «شنآن» بهذه الصيغة الطويلة الدالة على الحركة والاضطراب.

ولدى التحليل يتبين لنا أن الدافع إلى مجانبة العدل إما عاطفة كراهية للجهة التي جرى الظلم أو الجور ضدها، وإما عاطفة حب أو شفقة، أو عصبية للجهة التي جرى الظلم أو الجور من أجلها، وقد حذر هذا النص من أن تحمل عاطفة الكراهية مهما كانت شديدة على تجاوز واجب العدل. وسيأتي في آية النساء التحذير من أن تحمل العواطف الأخرى على تجاوز واجب العدل.

ثم قال تعالى مؤكداً الأمر بالعدل: ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾.

وفي كون العدل مع الأعداء الذين نبغضهم أقرب للتقوى احتمالان:

الأول: أن يكون أقرب إلى كمال التقوى، وذلك لأن كمال التقوى يتطلب أموراً كثيرة، منها هذا العدل، والأخذ بكل واحد من هذه الأمور يقرب من منطقة التقوى الكاملة.

الثاني: أن يكون أقرب إلى أصل التقوى فعلاً من ترك العدل مع الأعداء ملاحظين في ذلك مصلحة للإسلام وجماعة المسلمين، وذلك لأنه قد يشتبه على ولي الأمر من المسلمين في قضية من القضايا المتعلقة بعدوٍّ من أعدائهم، هل التزام سبيل العدل معه أرضى لله؟ أو ظلمه هو أرضى لله باعتباره معادياً لدين الله؟ وأمام هذا الاشتباه يعطي الله منهج الحل فيقول: ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ أي: مهما لاحظتم أن ظلمه لا يتنافى مع التقوى فالعدل معه أقرب للتقوى.

ولا يخفى أن من ثمرات هذا العدل ترغيب أعداء الإسلام بالدخول فيه، والإيمان بأنه هو الدين الحق، وكم من حادثة عدل حكم فيها قاضي المسلمين لغير المسلم على المسلم اتباعاً للحق، فكانت السبب في تحبيبه بالإسلام ثم في إسلامه.

ويبدو هذا الوجه قوياً راجحاً، وأنه هو المراد، والله أعلم.

ومن تطبيقات المؤمنين لذلك: ما كان من (عبدالله بن رواحة) لمّا بعثه النبي ﷺ يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق

بهم، فقال: والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليّ، ولأنتم أبغض إلي من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم!!

فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض.

ثم أمر الله بالتقوى في كل الأحوال، وفي كل الشؤون، ومعلوم أن قضية العدل واحدة منها، فقال تعالى: ﴿واتقوا الله﴾.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ وفي هذا إشارة ضمنية إلى قانون الجزاء، وذلك لأن التذكير بأن الله خبير بما يعمل الناس في مثل هذا المقام، يشعر بأنه سيجازيهم على أعمالهم، ولن يضيع عليه شيء من أمورهم.

٣ ــ ويخاطب الله الذين آمنوا بقوله تبارك وتعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾.

صدر هذه الآية كصدر آية المائدة السابقة بفارق واحد، هو تبادل كلمتين فيه مواضعهما هما: بالقسط ــ لله.

كونوا قوامين لله شهداء بالقسط... (آية المائدة).

كونوا قوامين بالقسط شهداء لله... (آية النساء).

والسر في هذا هو الدلالة على الإلزام بأن تكون القوامة والشهادة كلاهما لله وبالقسط، فالمؤمنون مأمورون بأن يكونوا قوامين لله وبالقسط، وبأن يكونوا شهداء لله وبالقسط، وذلك لأنه ربما يكون القسط لغير الله، فيكون حسناً في الحياة الدنيا، ولكن لا ثواب له عند الله، لأنه لم يبتغ به وجهه.

ومراعاة للأسلوب البياني البديع، جاءت الآيتان على هذا الشكل من التنويع، ليؤخذ من مجموعهما الدلالة المطلوبة، وهذا من التكامل في النصوص القرآنية.

ومما يدهش في أسس التعاليم الإسلامية أن المؤمنين مطالبون بأن يكونوا قـوامين لله وبـالقسط وشهداء لله وبـالقسط، ولو كـان ذلك ضـد أنفسهم أو الوالدين والأقربين، فأي إنصاف أعظم من هذا الإنصاف، وأي عدل أجل من هذا العدل وأروع، وأي قوامة في العالم أقدس من هذه القوامة المؤمنة بالله.

وإذ عالجت آية المائدة دافع البغض والكراهية الذي يحرض على مجانبة سبيل العدل، فقد عالجت آية النساء التي نتدبرها الآن دوافع الحب والشفقة والعصبية، التي تحرض أيضاً على مجانبة سبيل العدل. ومن أبرز أمثلة الحب حب الإنسان نفسه ووالديه والأقربين، ومن أبرز أمثلة العصبية عصبية الإنسان لوالديه والأقربين، ومن أبرز أمثلة الشفقة شفقة الإنسان على الأقربين الفقراء، ولذلك قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما﴾.

فالمؤمن الصادق الإيمان يكون قواماً لله وبالقسط، ويشهد لله وبالقسط، ولو كان ضد نفسه، أو والديه، أو الأقربين.

ولمّا كان من أسباب المحاباة التي تدفع إلى مجانبة سبيل العدل الشفقة على الخصم الفقير، قال تعالى: ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما﴾.

فقد يكون صاحب الحق الواضح غنياً ويكون خصمه فقيراً ذا حاجة، وفي هذه الحال قد ينحاز الحاكم أو القاضي أو الشاهد إلى جانب الفقير شفقة عليه، وهو يعلم أن الغني هو صاحب الحق، وهذه خديعة شيطانية لتبرير الجـور والظلم، إن الحق هو الذي يجب اتباعه، ولا يجوز أن يكون الجور وسيلة لمساعدة الفقراء ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما﴾ فالله أولى وأحق بتقدير حال كلٍّ من الخصمين غنياً كان أو فقيراً.

ثم قال تعالى: ﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ أي: فلا تتبعوا هوى أنفسكم متجاوزين ما يجب عليكم من العدل، زاعمين أنكم تفعلون خيراً، فالحق أحق أن يتبع، فالجارّ المقدر قبل (أن يعدلوا) هو (عن) الدال على معنى التجاوز.

ويختم الله الآية بالتعريض بالعقاب لمن يلوي رأسه عن أمر الله بالتزام سبيل العدل، أو يعرض إعراضاً كلياً، بأن يؤتي عُرضه، أي: جانبه. فيقول سبحانه: ﴿وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وإن تلووا أو تعرضوا﴾ تحذير من أمرين:

الأول: اللَّيُّ في الشهادة أو الحكم، وهو التحريف والتغيير، من قولهم: لوى الشيء إذا فتله وغيّر استقامته.

والثاني: الإعراض، ويكون بكتمان الشهادة، أو الحكم بغير العدل.

٤ ـ ويخاطب الله الذين آمنوا بقوله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾.

فهذه الآية تلزم كل من يتولى حكماً بين الناس أن يحكم بالعدل، أما المراد بالأمانات التي يجب تأديتها إلى أهلها فهي كل الأمانات وفي مقدمتها أمانات ولاية أمور المسلمين، فالله تعالى يأمر الذين آمنوا في هذا المجال بأن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، أي: بأن يؤدوا ولاية أمور المسلمين إلى من هم أكفياء لها، قادرون على ضبطها وحسن إدارتها، وصيانة حقوق الناس، وإقامة العدل بينهم، وقادرون على جمع كلمتهم وتوحيد صفهم وصدِّ عدوهم، وإقامة شرع الله، ونشر دينه في الناس.

ومن تأدية الأمانات إلى أهلها أن يقوم أصحاب الولاية الكبرى بإسناد الولايات الصغرى إلى أهلها الأكفياء لها، دون محاباة ولا اتباع هوى.

فاشتملت الآية على بيان الوظيفة الأولى للرعية، وهي أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وذلك بأن يبايعوا الأكفياء للولاية العامة الكبرى. واشتملت على بيان الوظيفةالأولى والوظيفة الثانية للراعي. أما الأولى فهي أن يؤدي الأمانات إلى أهلها بإسناد الولايات الصغرى إلى أهلها الأكفياء لها الأمناء عليها، وأما الثانية فهي أن يحكم بين الناس بالعدل.

وجاء الترتيب في الآية وفق الترتيب الطبيعي، فالرعية عامة هي السلطة الأولى للتولية، فإذا وسد الأمر إلى الرعاة كانوا هم أصحاب سلطة الحكم والإدارة.

والسر في تسمية الولاية على الناس أمانة، أن الولاية تحتاج إلى أكبر مقدار من الأمانة، فهي مسؤولية لا تعادلها مسؤولية أخرى.

إذا كانت وديعة المال تحتاج إلى أمانة من يودع عنده، حتى سمى الناس المال المودع أمانة، وإذا كانت الشركة تحتاج إلى أمانة، وإذا كانت العارية تحتاج إلى أمانة، وإذا كانت الأعراض والأرواح تحتاج إلى أمانة، فما بالك بمن يوضع تحت سلطته العامة أموال الناس وأرواحهم وأعراضهم ومساكنهم وبلادهم وقوتهم وسائر مقدراتهم، ويكون باستطاعته بحكم سلطانه تنفيذ ما يريد.

ولمّا كانت الولاية العامة من أعظم المسؤوليات في الحياة، وكانت دواعي الإغراء بمجانبة سبيل العدل وخيانة الأمانة فيها من أشد الدواعي وأقواها، كان ثواب الإمام العادل من أعظم الأجور عند الله، وكانت فضيلة العدل منه من أعظم الفضائل.

ولذلك جاء ذكر الإمام العادل في أول الأصناف الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله. روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

وبعد أن أمر الله الذين آمنوا بأن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل؛ أثنى على ما تضمنه هذان الأمران، وأبان أنه موعظة مفيدة ونافعة، وذلك لما في أداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل من

دوام لوحدة الجماعة، وبقاء للحكم وصيانته وسلامته، وحمايته من أعدائه المفسدين، فقال تبارك وتعالى: ﴿إن الله نعمّا يعظكم به﴾.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إن الله كان سميعاً بصيراً﴾ إشعاراً بأن الله سميع لشكاوى المظلومين الذين لا يُعاملون بالعدل، بصير بأعمال الظالمين الجائرين، وفي هذا تعريض بقانون الجزاء الإلهي الذي لا يفلت منه ظالم ولا جائر.

٥ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾.

ففي هذه الآية أمر الله تعالى بالقسط في الكيل والميزان، وبالعدل في القول ولو كان يُدين بالحق ذا قربى.

(أ) أما القسط في الكيل والميزان فهو أمر يوجبه الحق، والعدل في هذا المجال مرتبط بالحق كشأن ارتباط العدل بالحق في كل الأمور، فمن ثبت له حقٌّ بمقدار من الكيل أو مقدار من الوزن وجب أن يوفى له بالقسط دون وكس ولا نقص.

فحين يتم ــ مثلاً ــ التراضي الحرّ بين المتبايعين على مقدار ما كيلاً كان أو وزناً، فإن حق كل من المتبايعين تحدد بما تم عليه التراضي، وحينئذ يجب أن يكون الكيل أو الوزن بالمقدار المعادل تماماً لما ثبت عليه الحق، وما زاد عليه فهو عطاءٌ من قبل الباذل، وهو إحسانٌ يؤجر عليه، سواء أكان من السلعة المشتراة أو من الثمن المحدد لها، أما النقص فهو إخسار وتطفيف وظلم، وقد أنذر الله المطففين بالعذاب الأليم فقال تعالى في سورة (المطففين ٨٣):

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

والتطفيف يعاقب الله عليه بعقوبتين: عقوبة معجلة في الدنيا كمحق البركة وتسليط المتلفات للمال، وعقوبة مؤجلة إلى يوم الجزاء الأكبر، إذ يقيم الله يومئذ كمال عدله في خلقه.

وفي قول الله تعالى في الآية: ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾ أمر بإيفاء الكيل والميزان بالعدل، وذلك بجعل الكيل وافياً بحق من يكال له، وبجعل الوزن وافياً بحق من يوزن له، من غير بخس أيّ مقدار مهما قل، كيلاً أو وزناً. يقال لغة: أوفى البائع الكيل والميزان إذا أتمهما ولم ينقص منهما شيئاً.

ولكن قد لا يستطيع الإنسان أن يكون موفياً على الحقيقة في كل كيل أو وزن، لدقة المكيل أو الموزون، أو لكثرته وعظمه، أو لعدم وجود المكيال أو الميزان المحرر تماماً، وعندئذ يكون معذوراً لعدم استطاعته، وخروج الأمر عن دائرة التكليف ولذلك قال الله تعالى في عقب هذا الأمر: ﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾.

ونظير الأمر بإيفاء الكيل والميزان بالقسط الوارد في هذه الآية ما جاء في قول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ٣٥﴾.

إلا أن في هذه الآية توجيهاً خاصاً إلى ضرورة كون الموازين مضبوطة قويمة، وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ وذلك لأن القسطاس اسم لأعدل الموازين وأقومها، ومنه يستفاد ضرورة كون المكاييل كذلك.

وقوله تعالى: ﴿ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ فيه إلماح إلى نقطتين:

الأولى: أن إيفاء الكيل والميزان من أعمال الخير، وذلك لما فيه من تأدية الحقوق إلى أهلها، وهو من الخير، ولما يترتب عليه من خير في التعايش الجماعي بين الناس، ثم لما ينجم عنه من ثواب عند الله هو خير.

الثانية: أن إيفاء الكيل والميزان أحسن تأويلاً، أي: أحسن ترجيعاً في عاقبة أمره، وذلك لأن كل عمل في الحياة له تأويل، أي: ترجيع على فاعله، وترجيع فعل الخير خير، وترجيع فعل الشر شر، إلا أن ترجيع فعل الخير مضاعف كماً وكيفاً، إذ هو مشمول بالفضل الرباني.

أما ترجيع فعل الشر فشر مماثل له، إذ هو مشمول بقانون العدل الرباني.

وقد عُرف قوم شعيب عليه السلام ـ وهم سكان مدين ـ بأنهم كانوا من المطففين الذين يظلمون الناس في الكيل والميزان، وقد جاء في القرآن بيان هذا من عملهم في ثلاثة مواضع، منها قول الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

(ب) وأما العدل في القول فهو أمر يوجبه الحق أيضاً في كل قول يدخل فيه العدل والظلم، كالعدل في الشهادة، والعدل في إصدار الأحكام، والعدل في مخاطبة الجماعة؛ وذلك بإعطاء كل واحد منهم ما يستحق من خطاب، وغير ذلك. ولمّا كان القول مجالاً يدخل فيه العدل والظلم أمر الله بالعدل في القول، في آية الأنعام التي نتدبرها، فقال تعالى: ﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾.

أي: ولو كان من نتكلم له أو عليه ذا قربى، فلا يجوز أن يدفعنا حبه أو التعصب له إلى أن نجانب سبيل العدل، سواء بالزيادة على الحق، أو بالنقصان منه.

ثم أمر الله في الآية بالوفاء بعهده، فقال تعالى: ﴿وبعهد الله أوفوا﴾.

ومن الوفاء بعهد الله العمل بشرائعه بعد إعلان الإسلام الذي هو عهد مع الله على الطاعة.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾ فدل على أن هذه الأوامر قد تضمنت وصايا بفضائل تدركها العقول، وتشعر بحسنها الضمائر، ولا تحتاج أكثر من تذكير بها، وتنبيه عليها، فليست من الأمور الخفية أو الغيبية التي تحتاج إلى تعليم، بل من الأمور المدركة التي تحتاج الغفلة عنها إلى تذكير ﴿لعلكم تذكرون﴾.

٦ ــ ويقول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ . . . (٢٨٢) ﴾.

لمّا كان العدل يدخل في مجال الكتابة، ككتابة صكوك العقود والمداينات والمعاملات والمعاهدات، وغير ذلك من أمور كثيرة، أمر الله تعالى كاتب الحقوق أن يكتب بالعدل، فقال تعالى: ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾.

ولم تقتصر الآية على تكليف الكاتب أن يكتب بالعدل، بل كلفت الذي عليه الحق أن يملي أقواله على الكاتب مراعياً جانب العدل فيما يمليه، فلا يبخس من الحق الذي عليه شيئاً؛ فإن كان غير أهلٍ لأن يملي فوليّه هو الذي يملي عنه، وعلى الولي في إملائه أن يراعي جانب العدل أيضاً.

ولمّا كان من العدل لتثبيت الحقوق، كتابة الأمور الكبيرة والصغيرة المتعلقة بعقود المداينات ونحوها، وجّه الله لضرورة كتابة هذه التفصيلات، فقال تبارك وتعالى في تتمة الآية السابقة المعروفة بآية المداينة:

﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ . . . ﴿٢٨٢﴾ ﴾ .

وتزداد روعة هذا التوجيه حينما نلاحظ الأسباب الداعية إليه وهي الأسباب التي لخصتها الآية بثلاث نقاط:

الأولى: ما تضمنه قوله تعالى: ﴿ذلكم أقسط عند الله﴾ أي: أكثر التزاماً بالقسط، وهو العدل، لأن ذكر جميع التفصيلات يحدد الحقيقة تماماً، ويبعد عن الخلاف في المستقبل.

الثانية: ما تضمنه قوله تعالى: ﴿وأقوم للشهادة﴾ أي: أكثر تقويماً وتعديلاً لشهادة الشهود، عند التحمل، وعند دعوتهم لأداء الشهادة إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

الثالثة: ما تضمنه قوله تعالى: ﴿وأدنى أن لا ترتابوا﴾ أي: إن كتابة كل صغيرة وكبيرة في العقود والصكوك من شأنها أن تصرف عنكم الشكوك في المستقبل وذلك لأن الإنسان كثير النسيان، فإذا لم يسجل الحقوق دخل الشك إلى قلبه.

٧ ـ ويقول الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ .

«تفيء إلى أمر الله»: أي ترجع عن بغيها وظلمها إلى أمر الله بالعدل والاستقامة، والفيء في اللغة هو الرجوع، ولذلك يسمى الظل بعد الظهر فيأً، لأنه يرجع من جهة المغرب إلى جهة المشرق.

فمن المجالات التي يدخل فيها واجب العدل الإصلاح بين الفئات المتنازعة المتقاتلة من المسلمين، ويكون العدل في الإصلاح هذا بالمحافظة على حق كلٍّ من الطائفتين، بلا جور على إحداهما انحيازاً للأخرى من غير حق.

وإلحاحاً على جانب العدل في هذا الإصلاح قال الله تعالى: ﴿فأصلحوا بينهما بالعدل، وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾.

والأمر بالقسط هو أمر بالعدل، والمؤمن حريص على أن يظفر بحب الله له ﴿إن الله يحب المقسطين﴾.

٨ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الطلاق ٦٥):

﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾.

فوجه الله لضرورة العدل في الشهادة، لأنها من وسائل تثبيت الحقوق وضمانها، وأرشد إلى ضرورة إشهاد شهيدين اثنين ذوي عدلٍ، في كل الأمور التي تستدعي إثبات حقوق فيها، وتستدعي ضمانها.

فهذا حل عقد الزواج قد أرشد الله فيه إلى ضرورة الإشهاد، وأن يكون الشاهدان ذوي عدل من المسلمين، ومثل ذلك الإشهاد في المداينات، والإشهاد في الوصايا، والإشهاد في عقود النكاح، والإشهاد في البيوع الكبيرة ونحو ذلك.

ويشترط في الشهود: أن يكونوا من المعروفين بأنهم ذوو عدل توافرت فيهم العدالة في السلوك، وذوو عدل في أحكامهم وأقوالهم، وشهاداتهم، وغير ذلك.

٩ ــ ويقول الله تعالى لرسوله في سورة (الأعراف ٧):

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِۖ . . . ﴿٢٩﴾ ﴾.

فأمر الله رسوله أن يعلن للناس، أن الله ربه قد أمر بالقسط، فالله هو الحق، ويأمر بالحق، والعدل مرجعه الحق فهو يأمر به جل وعلا.

— ٦ —
الأمـــانـــة

تعريف بالأمانة:

الأمانة أحد الفروع الخلقية لحب الحق وإيثاره، وهي ضد الخيانة.

والأمانة في جانبها النفسي خلق ثابت في النفس يعف به الإنسان عما ليس له به حق، وإن تهيأت له ظروف العدوان عليه دون أن يكون عرضة للإدانة عند الناس، ويؤدي به ما عليه أو لديه من حق لغيره، وإن استطاع أن يهضمه دون أن يكون عرضة للإدانة عند الناس.

فمن تهيأ له أن يهضم ديناً عليه دون أن يكون لدى الدائن ما يثبت به حقه، فعف عن ذلك ولم يفعل وأدى ما عليه من حقٍّ كاملاً غير منقوص فهو أمين حقاً.

ومن تهيأت له فرصة اختلاس أموال غيره دون أن يشعر به أحد من الناس، ودون أن يكون عرضة لاكتشاف لصوصيته، فعف عن ذلك ولم يفعل، فإنما ذلك أثر من آثار الأمانة في نفسه.

ومن كان يؤدي الودائع التي عنده لأصحابها، مع أن أصحابها لا يملكون وثائق بها عليه، فهو أيضاً إنما يفعل ذلك بدافع خلق الأمانة الذي يتحلى به.

ولا تقتصر الأمانة على العفة عن الأموال، بل العفة عن كل ما ليس للإنسان به حق هي أيضاً داخلة في حدود الأمانة، أو أثر من آثارها.

فالعفة عن العدوان على الأعراض من الأمانة، والعفة عن العدوان على الحقوق العلمية من الأمانة، والعفة عن الغش وتطفيف الكيل والميزان من الأمانة، والعفة عن الغلول[1] من الأمانة، وتبليغ الرسائل الكتابية أو اللفظية إلى أصحابها من الأمانة، وتأدية حق النصيحة لكل مسلم من الأمانة، وتأدية

---

(١) الغلول: هو العدوان على الأموال العامة للمسلمين.

حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأمانة. وتأدية العبد حق ربه عليه من الأمانة، كالعبادات المفروضة والطاعة الواجبة، وكف العبد نفسه عما حرم الله عليه من الأمانة، لأن العبد المكلف مستأمن على ما وضع الله بين يديه وما وضع تحت سلطته من أشياء، سواء أكانت داخلة في حدود ذاته أو خارجة عنها، فالحق في كل ذلك هو لله وقد استأمن الله عباده عليها، فأذن لهمْ بأشياء وحرم عليهم أشياء، فمن تجاوز حدود الإذن الإلهي فاعتدى على ما ليس به حق فقد خان الأمانة، فالطاعة لله من الأمانة، والمعصية لله من الخيانة.

ومن الأمانة إعطاء كل ذي حق حقه، فالعدل من الأمانة، والجور والظلم من الخيانة. ومن الأمانة الاهتمام بأن يحفظ المستأمنون ما تحت أيديهم من حقوق لغيرهم، حتى يؤدوها إلى أصحابها وهي على حالتها حينما استؤمنوا عليها، ما لم يكن مرور الزمن يغير منها بصفة طبيعية معلومة.

وهكذا تتعدد مجالات خلق الأمانة وتتسع دوائرها.

ولّما كانت الأمانة مرتبطة بمبدأ الحق كان من يحب الحق ويؤثره يجد نفسه مدفوعاً لأن يكون أميناً على حقوق الآخرين، وإن تحركت مطامعه أو شهواته للاستيلاء عليها.

والأمانة مصدر كالأمان، والأمان من الأمن وهو ضد الخوف، وحين تنعدم مسببات الخوف يحصل الأمان في النفوس. ولّما كان الأمين إنساناً مأمون الجانب لا يُخشى عدوانه على حقوق غيره كانت ساحته ساحة أمان، ليس فيها أي مثير للخوف على المال، أو على العرض، أو على الحياة، ولذلك سميت الخصلة التي يتحلى بها الأمين على حقوق الآخرين أمانة، ولّما كانت هذه الخصلة داخلة في ميدان الأخلاق كانت إحدى الفروع الأخلاقية، ولّما كان أساسها الحق كانت إحدى الفروع الخلقية لحب الحق وإيثاره.

وقد ظهر لنا من تعريف الأمانة أنها تشتمل على ثلاثة عناصر:

الأول: عفة الأمين عمّا ليس له به حق.

الثاني: تأدية الأمين ما يجب عليه من حقٍّ لغيره.

الثالث: اهتمام الأمين بحفظ ما استؤمن عليه من حقوق غيره، وعدم التفريط بها والتهاون بشأنها.

موقف الإسلام من خلق الأمانة:

لقد فرض الإسلام على المسلمين الأخذ بخلق الأمانة، وحرم عليهم أن يسلكوا مسلك الخيانة، فمن كان أميناً كان مطيعاً لربه في إسلامه، ومن كان خائناً كان عاصياً لربه في إسلامه، وربما وصل إلى حالة كان فيها مجروح الإسلام والإيمان.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه».

«بوائقه» أي: غوائله وخياناته.

وروى الترمذي والنسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم».

وروى البيهقي في شعب الإيمان بإسناد حسن عن أنس رضي الله عنه قال: قلّما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له».

فربط رسول الله ﷺ في هذه الأحاديث الأمانة وكون الإنسان مأمون الجانب بالإيمان، وجعل عدم الأمانة مؤثرة في صحة الإيمان.

وجعل الرسول صلوات الله عليه الخيانة من علامات النفاق فمن ذلك ما روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوتمن خان، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم».

وما روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال

رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أوتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

فالأمانة من صفات المؤمنين، وهي من صفات محبي الحق.

الأمانة من أبرز أخلاق الرسل:

من الملاحظ في أسس العقيدة أن الأمانة من أبرز أخلاق الرسل عليهم الصلاة والسلام، لأنها شرط أساسي لاصطفائهم بالرسالة، فلولا أن يكونوا أمناء لما استأمنهم الله على رسالاته لخلقه.

ففي شأن هود عليه السلام يقول الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾.

فعرض هود لقومه من صفاته أنه أمين، وهذه الصفة من صفاته لا بد أن تكون معروفة لديهم قبل أن يبعثه الله رسولاً، ومن شأن الأمين أن يكون موثوقاً به في نقل الأخبار وتبليغ الرسالات.

ويقص الله علينا قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام في سورة (الشعراء) ويخبرنا بأن كل رسولٍ من هؤلاء قد قال لقومه: «إني لكم رسول أمين».

ورسولنا محمد ﷺ قد كان في قومه قبل الرسالة وبعدها مشهوراً بينهم بأنه الأمين، فكان خلق الأمانة من الأخلاق الظاهرة البارزة فيه صلوات الله عليه، حتى كان الناس يختارونه لحفظ ودائعهم عنده، ولما هاجر صلوات الله عليه وكَّل علي بن أبي طالب برد الودائع إلى أصحابها.

وجبريل عليه السلام أمين الوحي، وقد وصفه الله بذلك في قوله في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾.

ولولا صفة الأمانة فيه لما حصلت الثقة بما يبلغ عن الله من شرائع، ولما اصطفاه الله لحمل رسالاته إلى رسله من البشر.

وكذلك حال الرسل من البشر، لولا صفة الأمانة فيهم لما حصلت الثقة بما يبلغون عن ربهم، ولما اصطفاهم الله لحمل رسالاته للناس.

المجالات التي تدخل فيها الأمانة:

والمجالات التي تدخل فيها الأمانة والخيانة كثيرة، منها المجالات التالية:

(أ) **الأموال**، فمن الأمانة العفة عما ليس للإنسان به حق من المال، وتأدية ما عليه من حق لذويه، وتأدية ما تحت يده منه لأصحاب الحق فيه. وتدخل في البيوع والديون والمواريث والودائع والرهون والعواري والوصايا وأنواع الولايات الكبرى والصغرى وغير ذلك.

(ب) **الأعراض**، فمن الأمانة في الأعراض العفة عما ليس للإنسان به حق منها، وكف النفس واللسان عن نيل شيء منها بسوء، كالقذف والغيبة.

(ج) **الأجسام والأرواح**، فمن الأمانة في الأجسام والأرواح كف النفس واليد عن التعرض لها بسوء من قتل أو جرح أو ضرٍّ أو أذى.

(د) **المعارف والعلوم**، فمن الأمانة في المعارف والعلوم تأديتها دون تحريف أو تغيير، ونسبة الأقوال إلى أصحابها وعدم انتحال الإنسان ما لغيره منها.

(هـ) **الولاية**، فمن الأمانة في الولاية تأدية الحقوق إلى أهلها، وإسناد الأعمال إلى مستحقيها الأكفياء لها، وحفظ أموال الناس وأجسامهم وأرواحهم

وعقولهم وصيانتها مما يؤذيها أو يضرّ بها، وحفظ الدين الذي ارتضاه الله لعباده من أن يناله أحد بسوء، وحفظ أسرار الدولة وكل ما ينبغي كتمانه من أن يتسرب إلى الأعداء، إلى غير ذلك من أمور.

(و) **الشهادة**، وتكون الأمانة في الشهادة بتحملها بحسب ما هي عليه في الواقع، وبأدائها دون تحريف أو تغيير أو زيادة أو نقصان.

(ز) **القضاء**، وتكون الأمانة في القضاء بإصدار الأحكام وفق أحكام العدل التي استؤمن القاضي عليها، وفوض الأمر فيها إليه.

(ح) **الكتابة**، وتكون الأمانة في الكتابة بأن تكون على وفق ما يمليه ممليها، وعلى وفق الأصل الذي تنسخ عنه، فلا يكون فيها تغيير ولا تبديل ولا زيادة ولا نقص، وإذا كانت من إنشاء كاتبها فالأمانة فيها أن تكون مضامينها خالية من الكذب والتلاعب بالحقائق، إلى غير ذلك.

(ط) **الأسرار**، التي يستأمن الإنسان على حفظها وعدم إفشائها، وتكون الأمانة فيها بكتمانها.

(ي) **الرسالات**، وتكون الأمانة فيها بتبليغها إلى أهلها تامة غير منقوصة ولا مزيد عليها وعلى وفق رغبة محملها، سواء أكانت رسالة لفظية أو كتابية أو عملية.

(ك) **السمع والبصر وسائر الحواس**، وتكون الأمانة فيها بكفها عن العدوان على أصحاب الحقوق، وبحفظها عن معصية الله فيها، وبتوجيهها للقيام بما يجب فيها من أعمال، فاستراق السمع خيانة، واستراق النظر إلى ما لا يحل النظر إليه خيانة، واستراق اللمس المحرم خيانة، وهكذا.

إلى غير ذلك من أمور.

خلق الأمانة فطريّ ومكتسب:

لدى البحث نلاحظ أن الأمانة ذات جذور أصلية في فطرة الإنسان،

وذلك لأن الأمانة مرتبطة بالحق كما عرفنا، والأصل في فطرة الإنسان إقراره بالحق، وكراهيته العدوان على حقوق الآخرين، والأمانة فرع عن هذا الأصل.

ثم تأتي التربية الخلقية القويمة التي ينشأ عليها الإنسان فتدعم أصل فطرته، حتى تصبح الأمانة لديه خلقاً بارزاً قوياً فعالاً، بعد أن كانت ميلاً فطرياً لا يزيد على أنه يعطي ترجيحاً يسيراً، كما قد تأتي التربية المفسدة فتحول هذه الفطرة عن أصولها، وتغذي الإنسان بخلق آخر مناف لخلق الأمانة.

فالأمانة في الأصل تمثل ميلاً فطرياً في الإنسان قابلاً للتنمية، حتى يكون خلقاً قوياً فعالاً راسخاً في النفس، مؤثراً في السلوك، وذلك بالتربية والتدريب، فهي فطرية في بزورها، مكتسبة فيما وراء ذلك.

هذا ما تكشفه الملاحظة، ثم إن النصوص الإسلامية تدل عليها، فمنها نصوص عامة، ومنها نصوص خاصة بخلق الأمانة.

* **أما النصوص العامة فمنها ما يلي:**

(أ) قول الرسول ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة» أي: على الإيمان ومستلزمات الإيمان، ولمّا كان الإيمان التزاماً بالحق، وكانت الأمانة فرعاً من فروع حب الحق وإيثاره، كان الأصل في فطرة الإنسان ميله إلى الأمانة.

(ب) ما جاء في الحديث القدسي أن الله تعالى قال: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم فاجتالتهم الشياطين» أي: إن الأصل في فطرتهم أنهم حنفاء ميالون إلى الحق والاعتراف به، والعمل بما يستلزمه، ولكن الشياطين اجتالتهم بعد ذلك، أي: استهوتهم واستخفتهم، فحولتهم عن أصل فطرتهم المائلة إلى الحق والخير، فجالوا مع الشياطين في أودية الهوى والشر.

(ج) قول الله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

فهذه الآية تدل على أن الأصل في الفطرة التي فطر الله الناس عليها هي

الميل نحو الدين القيم، والدين القيم يشمل جوانب الإيمان، ومستلزمات الإيمان من أخلاق وأنواع سلوك.

* **وأما النصوص الخاصة فمنها ما يلي:**

روى البخاري ومسلم عن حذيفة بن اليمان قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة. ثم حدثنا رسول الله ﷺ عن رفع الأمانة فقال: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر المجل، كجمر دحرجته على رجلك فنفط، فتراه منتبراً وليس فيه شيء» ثم أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم حصى، فدحرجه على رجله، ثم قال: «فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجلده! ما أظرفه! ما أعقله! وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان».

فقول الرسول ﷺ: «إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال» يشعر بأنها خلق من الأخلاق الفطرية في الإنسان، فهي في جذر قلوب الرجال، ولا تكون بهذا العمق في كيان الإنسان ما لم تكن ذات جذور فطرية، كما أن التعبير بكلمة (نزلت) يشعر بأنها أمر فطري من عند خالق القلوب.

ويؤيد هذا قول الرسول بعد ذلك: «ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة» ففي هذا القول دلالة على أن الإرشاد القرآني إلى الأمانة والإرشاد النبوي إليها، قد جاءا بعد تغلغل الأمانة في جذر قلوب الرجال، ولا يكون هذا السبق إلا سبقاً فطرياً.

أما ما حدّث به الرسول عن رفع الأمانة، فقد دل على ارتباط الأمانة بالإيمان، وإن هذا الرفع إنما يأتي بسبب ضعف الإيمان في الناس أو فقده، وسبب ذلك أن من فقد الإيمان الذي هو أكبر حق في الوجود، فلا بد أن تنهار الأمانة من قلبه، وهي رعاية لحقوق تأتي في الرتبة دون الإيمان، وهما في الأساس يعتمدان على حب الحق وإيثاره.

وقول الرسول: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت» يصور بقايا الخلق في القلوب عند حالات التغير المفاجيء، بتأثير التيارات الاجتماعية، والضلالات الفكرية، والانحرافات السلوكية، إذ تبقى رواسب الأخلاق بقايا يسيرة قليلة الشأن غير فعالة في توجيه السلوك.

والوكت: هو الأثر اليسير للشيء، أو الأثر اليسير في الشيء، والوكتة في العين: نقطة حمراء في بياضها، أو نقطة بيضاء في سوادها.

وقول الرسول ﷺ: «ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر المجل، كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبراً وليس فيه شيء» يصور مرحلة من مراحل الانهيار الخلقي، وذلك بأن تصبح الأمانة اسماً لا مسمى له في القلوب، ولا أثر له في السلوك، ويصبح الحديث عنها كلاماً فقط، ليس له حقيقة في الواقع، فإذا نظرت إلى مظهر الكلام عنها والدعاوى حولها وجدتها منتفخة كبيرة، ثم إذا غمزتها في واقع تطبيقي عملي وجدتها فارغة خواء، كالنفطات التي تنتبر على الجلد من الحروق، وهذه النفطات تسمى مجلاً.

وهذا التصوير النبوي فيه من الإبداع البلاغي مقدار عظيم، ويكاد يصور الواقع تماماً.

نصوص إسلامية في الأمانة:

لدى تتبع آيات القرآن الكريم، وأقوال الرسول صلوات الله عليه نجد نصوصاً كثيرة تأمر بالأمانة، فمنها ما هو عام، ومنها ما هو خاص في مجال من المجالات التي تدخل فيها الأمانة والخيانة.

وفيما يلي طائفة من هذه النصوص، مع تدبر ما اشتملت عليه من دلالات:

١ ــ يقول الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا

وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ
وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

ونتساءل عن الأمانة التي حملها الإنسان، وأبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، وخِفْنَ من حملها؟

وفي الإجابة على هذا التساؤل نقول: للباحثين في المراد من الأمانة في هذه الآية وجوه من التأويل كثيرة، ولكن يحسن أن نبحث في الإنسان، ونتفكر في استنباط الخصائص التي امتاز بها عن غيره، وقد وضعها الله أمانة بين يديه، ليحفظها، ويؤدي حقوقها، فكان من الإنسان خيانة لها، وعدوان على حقوقها، استجابة لأهوائه وشهواته ووساوس الشياطين، وبذلك صح أن يوصف بأنه ظلوم جهول.

من الواضح أن الإنسان قد امتاز عن المخلوقات الأخرى بخصائص التفكير ومعرفة صفات الأشياء والعقل والإرادة الحرة، وجملة من مطالب النفس وأهوائها وشهواتها، ومقدار ما من القدرة على تنفيذ ما يريد، في مقدار ما من الزمان والمكان، ضمن حدود هذه الحياة الدنيا.

وما امتاز به الإنسان من كل ذلك ممّا يستطيع التصرف فيه بفعل الخير أو بفعل الشر، هو أمانة وضعها الله تحت يده، بعد أن منحه الاستعداد الفطري لحمل هذه الأمانة.

وإذ وضع الله هذه الخصائص أمانة تحت يده وضع له منهاجاً ليتصرف بالأمانةعلى وفقه، فإذا تعدى حدود هذا المنهاج فقد خان الأمانة وظلم، وعرض نفسه للمؤاخذة، فكان بذلك جهولاً.

إن ما تحت يد الإنسان مما يستطيع التصرف فيه ودائع وعواري استأمنه عليها مالكها، ألا وهو خالقها وبارئها ومصورها، وممدها بالوجود والبقاء، فعلى

الإنسان أن يؤدي حقوق هذه الودائع والعواري، وعليه أن يحفظها، ويستعملها فيما أذن له به من استأمنه عليها.

لقد جعل الله ما في مستطاع الإنسان من القوى الظاهرة والباطنة أمانة تحت يده، فهو يستطيع التصرف بها حسب إرادته، ولكنّه مطالبٌ بأن لا يتصرف بها في فعل شر أو ضر أو معصية أو عدوان، فإذا تصرف بها في فعل شيء من ذلك فقد خان فيما استأمنه الله عليه.

فمن القوى التي تخضع بإذن الله لسلطان إرادة الإنسان فيتصرف بها كما يشاء؛ قوى الجوارح على العمل والتصرف بالأشياء التي تقع في متناولها. منها قوة البصر، وهذه القوة إذا استعملها الإنسان في تتبع عورات الناس على سبيل التجسس المحرم، فقد خان فيما استأمنه الله عليه، أما إذا استعملها في النظر في آلاء الله ومظاهر قدرته وفيما أذن الله له به، فإنه يكون قد حفظ الأمانة، ولكن ما أكثر ما يخون الإنسان في قوة بصره، والله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ومنها قوة اللسان، فإذا استعمل الإنسان قوة لسانه على النطق في الدعوة إلى الخير، وفي قول الخير والبر والمعروف، وفي كل ما أذن له به مالكه الحقيقي وهو الله تبارك وتعالى، فقد أثبت أنه صاحب أمانة، أما إذا استعمل لسانه في الدعوة إلى الكفر والعصيان، وفي قول الشر والإثم والمنكر ونشر الأكاذيب والأضاليل، فإنه يبرهن على نفسه بأنه خائن فيما استأمنه الله عليه وليس بأمين.

ومنها قوة التفكير وقوة الحيلة في تصريف الأمور، فإذا استعمل الإنسان قوة تفكيره وحيلته فيما فيه عدوان على حق الله صاحب هذه القوة ومالكها الحقيقي، والقادر على انتزاعها متى شاء، أو استعملها فيما فيه ظلم أو عدوان على أحد من خلق الله، أو في أي أمر لا يرضي الله تعالى، فهو خائن فيما استأمنه الله عليه، وجعله وديعة أو عارية بين يديه، أما إذا استعمل هذه القوة في طاعة الله وفيما أذن له به، فإنه يبرهن بذلك على أنه أمين وليس بخائن.

ومن القوى التي تخضع لسلطان إرادة الإنسان فيتصرف بها كما يشاء هذه

الأشياء الكثيرة في هذا الكون مما للإنسان قدرة على التصرف فيه، هي أيضاً ودائع أو عواري استأمن الله الناس عليها، وطلب منهم أن يحفظوها، وينتفعوا بها ضمن المنهاج الذي رسمه لهم مالكها الحقيقي، فإذا تصرفوا بها على غير ما أوصى به الله، فقد خانوا ما استأمنهم الله عليه.

والحياة وديعة عند الناس، وأي عدوان عليها بغير إذن مالكها ومودعها خيانة وأية خيانة، والمحافظة عليها ورعايتها وصيانتها مما يؤذيها حتى يستردها مودعها مما توجبه الأمانة، فالمنتحر خائن لما استأمنه الله عليه، وقاتل النفس بغير حق خائن لما استأمنه الله عليه، ولذلك كان قابيل أول خائن في الناس لوديعة الحياة، إذ قتل أخاه هابيل استجابة لنوازع الشهوة والحسد والغضب.

وبهذا المعنى الموسع لمفهوم الأمانة نستطيع أن نقول: إن مسؤولية إرادة الإنسان في الحياة هي مسؤولية أمانة لما استودعها الله أو أعارها من قوى وطاقات أخضعها لتصرفها، سواء أكانت داخلة في جسم الإنسان أو خارجة عنه.

أما عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال وإباؤهن أن يحملنها وإشفاقهن منها: فهو فيما أرى ــ والله أعلم ــ عدم وجود الاستعداد والقابلية الفطرية لتحمل الأمانة لدى هذه المخلوقات، فهو كما لو قلت: عرضت الحجر على النار فأبت النار أن تأكله، وعرضت الحطب على النار فاستجابت النار فأكلته، فإن معنى هذا الكلام أن النار غير مستعدة في قانونها الفطري لأن تأكل الحجر وهي مستعدة لأن تأكل الحطب. ونظيره أن تقول: عرضت كتلة الرصاص على الماء فأبى الماء أن يحمل كتلة الرصاص، فإننا نفهم من هذا القول أن الماء ليس فيه استعداد فطري لحمل كتلة الرصاص، فإذا وضعت فيه غاصت حتى تصل إلى القعر وتستقر على اليابسة، ولو كان بدل كتلة الرصاص لوح من الخشب فإن الماء حينئذ لا يأبى حمله، لأنه مستعد في تكوينه الفطري لحمله.

وكذلك عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال، فهذه المخلوقات الكبيرة رغم كبرها وضخامتها لا تملك استعداداً فطرياً لحمل الأمانة، لأنها

لا تملك إرادة حرة حتى تختبر أمانتها أو خيانتها، فلذلك تأبى هذا الحمل، نظراً إلى عدم استعدادها الفطري له، أما الإنسان فإنه ما كان ليأباه، لأنه يملك الاستعداد الكامل لحمل الأمانة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿فأبينَ أن يحملنَها وحملها الإنسان﴾.

أما قوله تعالى عقب ذلك في وصف الإنسان: ﴿إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ فليس ذلك من أجل أنه حمل الأمانة، ولكن من أجل أنه خان الأمانة بعد أن حملها، وهذا ما هو مشاهد في سلوكه، إنه لما حمل الأمانة إذ توافر لديه الاستعداد الفطري لحملها، لم يرع حقوقها، بل ظلم فيها، وتعدى حقوق ذوي الحقوق، وفرط فيها، وتهاون بشأنها، وخالف وصايا مالك الودائع والعواري، وعصى أوامره، فأثبت بخياناته أنه ظلوم. ثم إنه تغافل عن المصير السيء الذي أعده الله للظالمين، فأثبت بتغافله عن العقاب الأليم أنه جهول، فهذا وصف للإنسان بعد خيانته بالظلم والعدوان. ولما كان معظم الناس ما بين كافر بربه، أو عاصٍ مؤمن، صح تعميم هذا الوصف عليه على سبيل التغليب. ويدل على أن هذا المعنى هو المعنى المراد، قول الله تعالى في الآية التالية: ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

٢ ــ ويقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾.

في هذه الآية نلاحظ أن الله تعالى يأمر أمراً جازماً بتأدية الأمانات كلها إلى أهلها.

وقد عرفنا من تدبر النص السابق، أن كل ما هو تحت سلطة إرادة الإنسان من قوى وطاقات وأشياء يستطيع التصرف فيها بأي نوع من أنواع التصرف، وكذلك كل ما تحت متناول يده أو واقع تحت سلطته من إنسان

أو حيوان أو غير ذلك، هي ودائع أو عواري استأمنه الله عليها، فتأدية حقوقها التي فرضها الله، وعدم العدوان عليها أو ظلمها، أمانة. أما هضم حقوقها أو العدوان عليها والظلم فيها، فهو خيانة.

فقوله تعالى: ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ يفيد وجوب تأدية جميع أنواع الأمانات التي تقع تحت سلطة كلٍّ واحدٍ منا إلى أهلها، أي: إلى أصحابها ومستحقيها. وسميت الودائع والعواري الربانية التي وضعها الله في حوزة الإنسان وتحت سلطته أمانات، لأنها لا تؤدى إلى أصحابها ومستحقيها إلا بخلق الأمانة، فخلق الأمانة هو الخلق المسؤول عن تأدية الودائع والعواري إلى أهلها، وعن إعطاء الحقوق إلى مستحقيها. وهذه الأمانات تشمل كما عرفنا جميع الحقوق المتعلقة بذمم الناس، سواء أكانت حقوقاً لله، أو حقوقاً لخلقه، وسواء أكانت حقوقاً اعتقادية أو قولية أو فعلية، ويدخل في ذلك إعطاء الحكم إلى أهله، وتأديته إلى أربابه، بالتولية عن طريق البيعة، أو بإسناد أنواع الحكم والقضاء إلى الأجدر بها، والأكفياء للقيام بها. ثم إن الحكم والسلطان هو أمانة أيضاً، ولذلك رأى طائفة من المفسرين أن المراد بتأدية الأمانات إلى أهلها في هذه الآية إسناد الحكم إلى أهله الأكفياء له، ولكن إبقاء النص على عمومه يجعل هذا مشمولاً به ويدخل فيه أيضاً جميع أنواع الأمانات، كما سبقت الإشارة إلى ذلك عند الكلام على الآية بمناسبة العدل.

وقد جاءت نصوص متعددة في أقوال رسول الله صلوات الله عليه تبين أن إسناد الحكم إلى أهله أمانة، وأن الحكم بنفسه هو أمانة أيضاً، فمنها النصوص التالية:

(أ) روى الإمام مسلم عن أبي ذرّ قال: قلت: يا رسول الله ألا تستعملني؟ فضرب بيده على منكبي، ثم قال: «يا أبا ذرّ إنّك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها».

فسمى رسول الله ﷺ الولاية في هذا الحديث أمانة، لأن تأدية حقها

بالعدل، وعدم الاستغلال الشخصي فيها، واليقظة على مصالح الناس، كل ذلك لا يكون إلا بخلق الأمانة.

(ب) وروى الإمام البخاري عن أبي هريرة قال: بينما كان النبي ﷺ يحدث، إذ جاء أعرابي فقال: متى الساعة؟ قال: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة» قال: كيف إضاعتها؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا وسّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة».

(ج) وروى الحاكم أن رسول الله ﷺ قال: «من استعمل رجلاً على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين».

فهذا الحديث يدل على أن سلطة التولية أمانة، بدليل أن تأديتها إلى غير أهلها خيانة.

ومن الأمانة أن لا يطلب الولاية من ليس كفؤاً لها، وحين يكون المجتمع مجتمعاً إسلامياً سليماً فالواجب فيه أن لا يسأل الإمارة أحد، وأن تترك الحرية التامة للمجتمع أن يبايع الأصلح من أهل الكفاية للحكم، وتترك الحرية التامة للحاكم أن يختار عماله الأكفياء دون أي مؤثرات أو مطالب ملحّة. ولذلك نهى رسول الله ﷺ عبدالرحمن بن سمرة عن طلب الإمارة، روى البخاري ومسلم عن عبدالرحمن بن سمرة قال: قال لي رسول الله ﷺ: «لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها».

ففي هذا الحديث توجيهان: توجيه للمرشحين للإمارة، وتوجيه لمن بأيديهم سلطة منحها، فالذين بأيديهم سلطة منحها مسؤولون عن تولية الأفضل الأكفأ، والمرشحون لها ملزمون بأن لا يتنطحوا لها، ولا يسعوا في الحصول عليها من أجل أنفسهم، حتى تأتيهم من غير مسألة، وعندئذ يعينهم الله عليها، هذا ما لم يتنازع عليها الذين يفسدون فيها ولا يخشون الله.

وحين تقضي الأعمال التنظيمية اشتراط الترشيح الذي يعرب فيه الرجل عن استعداده القيام بمهام الولاية فلا مانع من الترشيح فيما أرى والله أعلم.

وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة وبئست الفاطمة».

أي: إنها آسرة محبوبة، شأنها كشأن المرضعة للرضيع، ولكن عاقبتها بعد الفطام والانفصال عنها عاقبة وخيمة، ما لم يكن الذي تولاها أميناً فيها، مؤدياً حقوقها.

وأما طلب يوسف عليه السلام الإمارة لنفسه من عزيز مصر، فله عدة مبررات: منها أن المجتمع مجتمع غير إسلامي، ومنها أنه رأى في نفسه القدرة والأمانة على الولاية، فقال له: «اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم» ومنها أنه أراد أن يستفيد من سلطانه في الحكم إقامة حكم الله، ونشر دينه.

أما سياسة سيدنا محمد ﷺ في الحكم وفي تولية الأمراء، فقد كانت سياسة الناصح الأمين، الذي تدفعه إلى اختيار ما يختارمنهم أمانَتُه وخوفُه من الله، ودينُه، وغيرتُه على مصالح المسلمين العامة والخاصة، وبصرُهُ النافذ في كفايات أصحابه، وفي خصائصهم، وأخلاقهم، ومهاراتهم.

وقد كان صلوات الله عليه في المعارك والغزوات والسرايا يدفع إلى القيادات الجزئية من يتفرس فيهم القدرة عليها، فيضعهم موضع الاختبار والتجربة، ويتابعهم بملاحظاته، ويرصد حركاتهم رصد الفاحص الحاذق، فمن وجده أهلاً للقيادة أسند إليه فيما بعد أمانة أعظم وأجسم، وحمّله من أعباء الإمارة ما يقدر على حمله، ويستطيع أن يكون فيه ناجحاً ناصحاً أميناً.

وكان من سياسة الرسول ﷺ أن لا يوسّد الأمر من يطمع به طمعاً يدفعه إلى طلبه، ولا من يحرص عليه، لأن أمر الولاية مسؤولية عظيمة، لا يتهالك عليها إلا من هو طامع بأن يَلِغ فيها ويجر لنفسه وذويه منافعها.

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من بني عمي، فقال أحدهما: يا رسول الله أمّرنا على

بعض ما ولاك الله، وقال الآخر مثل ذلك، فقال رسول الله ﷺ : «إنا والله لا نولّي هذا العمل أحداً سأله، ولا أحداً حرص عليه» وفي رواية أن الرسول ﷺ قال: «لا نستعمل على عملنا من أراده».

وربما يكون الإنسان كارهاً للولاية والإمارة قبل أن يتولى، فإذا تولى افتتن، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ فيما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة: «تجدون من خير الناس أشدهم كراهية لهذا الأمر حتى يقع فيه».

وهذه السياسة النبوية الحكيمة الرشيدة، هي التي تضمن الأمن والاستقرار واستقامة الأمور، واطراد تقدم الأمة.

إن اختيار الأكفياء للإدارة والحكم أمرٌ عسير وليس بيسير، فمن ألهمه الله حسن الاختيار فقد أعطاه الله نعمة عظيمة، وشده إلى خير جسيم.

٣ ــ ويقول الله تعالى في بيان صفات المفلحين في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

ويصف الله المصلين بمثل ذلك فيقول في سورة (المعارج ٧٠):

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

فهذان النصّان عامّان، يدخل فيهما كل أنواع ما يجب على الإنسان أداؤه من حقوق هو مستأمن عليها، وملزم بأدائها لذوي الحقوق فيها، سواء أكانت حقوقاً لله تبارك وتعالى أو لخلقه.

٤ ــ ويقول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾.

فأرشد الله تبارك وتعالى في هذه الآية إلى واجب الأمانة في مجال الحقوق المالية، ولئن كان النص في سياقه يحدد موضوع المداينات فإنه في عمومه يمتد إلى سائر الحقوق المالية التي تكون بين الناس، ومنها الودائع والعواري، والوصايا، وغيرها.

٥ ــ ويقول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

هذا النص القرآني يبين حال فريقين من أهل الكتاب:

أما الفريق الأول فهو فريق يتمتع بقسط كبير من خلق الأمانة في الأموال، لأن التعاليم الدينية عند أهل الكتاب تفرض عليهم أن يكونوا أمناء مع الذين يوافقونهم في الدين ومع الذين يخالفونهم في الدين، وهذه تعاليم عامة في الأديان الربانية كلها، فهذا الفريق من أهل الكتاب يلتزم بتعاليم دينه، فيتحلى بخلق الأمانة في الأموال.

وأما الفريق الثاني من أهل الكتاب، فهو فريق لا أمانة له، إنهم قوم يعاملون الذين يخالفونهم في الدين على أساس استحلال أموالهم، ويزعم هؤلاء أن الله أباح لهم العدوان على أموال الذين يخالفونهم في الدين، ويكذبون على الله في ذلك وهم يعلمون، أي: يعلمون أنهم كاذبون على الله في هذا. ويغلب وجود هذا الخلق في اليهود، لأنهم هم الذين قد وضعوا هذا التفريق بين الأمم، فميزوا أنفسهم على الناس جميعاً، وقسموا الناس إلى يهود وأميين، فقالوا: ليس علينا في الأميين سبيل، أي: ليس علينا في خيانة غير اليهود من الأمم الأخرى وفي أكل أموالهم بالباطل حرج، ولا تتوجه علينا سبيل من سبل المؤاخذة أو العتاب، أو ليس علينا سبيل تلزمنا بأن نكون أمناء مع الأميين، فإذا كنا أمناء معهم كان هذا إحساناً منا وليس أمراً واجباً.

قالوا: ومن الأمثلة على أمانة بعض أهل الكتاب ما كان من عبدالله بن سلام قبل أن يُسلم، وكان من يهود يثرب، وقد استودعه قرشيٌ من المشركين ألفاً ومئتي أوقية ذهباً، فلما طلب القرشي منه أمانته أداها إليه، لأنه كان صادقاً في يهوديته. ولذلك لما رأى الرسول ﷺ وعلم صدق نبوته ورسالته دخل في الإسلام، وأخلص واستقام، مع أنه كان حبراً من أحبار يهود، وعالماً من علمائهم، وذا مكانة كبيرة في قومه، فضحى بمكانته وبزعامته الدينية، ودخل في أصحاب الرسول ﷺ ، ولكن أمثاله قليلون نادرون.

ومن الأمثلة على خيانة الفريق الآخر من أهل الكتاب، وهم الكثرة الكاثرة من اليهود: ما روي أن فنحاص بن عازوراء ــ وكان يهودياً ــ استودعه قرشيٌ ديناراً، فجحده وأنكره، فلم يكن أميناً عليه.

على أن الحوادث الفردية من هذا القبيل لا تتعلق بها أهمية كبيرة، لأنها قد توجد في كل أمة، ولكن الشيء الخطير الذي نبّهت الآية عليه، هو افتراء الخائنين منهم على الله، بأنه ليس عليهم في الأميين سبيل، فلهم أن يأكلوا حقوقهم وأموالهم بغير حق، وهذا الحكم معروف عند اليهود، مكتوب في تلمودهم، وفي مقررات قياداتهم الشريرة، لذلك فهم يرابون لاستغلال أموال كل الأمم من غير اليهود، ويغشّون، ويخونون، ويسرقون، ويثيرون الحروب اللعينة الشريرة، وهم يستبيحون ذلك استباحة دينية، لخدمة مصالحهم اليهودية القومية، فلا يتورعون عن أية جريمة مهلكة لأية أمة من أمم الأرض، إذا كانت تحقق لهم مصلحة مهما كانت وضيعة حقيرة غير إنسانية.

ودائع الأسرار والأحاديث:

من حق من استأمنك على سره أن تحفظه له فلا تفشيه، وحديثه لك وسره عندك أمانة، والأمانة يجب حفظها، وعدم تعريضها للسلب أو النهب أو السرقة، وإفشاء السر خيانة لمن استودعه.

روى الترمذي وأبو داود عن جابر بن عبدالله عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت **فهي أمانة**».

أي: ما حدث به مما يسوؤه إعلانه هو أمانة استودعها سرَّ من ألقى إليه الحديث وهذه الأمانة يجب حفظها وعدم إفشائها، ولذلك كان من المعروف عند الناس أنهم إذا أرادوا أن يوصوا جلساءهم بحفظ ما يجري في مجالسهم وعدم إفشائه يقولون: المجالس بالأمانات، وهذا القول مأخوذ من كلام الرسول ﷺ.

روى أبو داود عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «المجالس بالأمانة، إلاّ ثلاثة مجالس: سفك دم حرام، أو فرج حرام، أو اقتطاع مالٍ بغير حق».

المجالس بالأمانة: أي المجالس تعقد بالأمانة على ما يجري فيها، أو المجالس ملزمة للمشتركين فيها بالأمانة، أو نحو ذلك.

وإذ يقرر الرسول صلوات الله عليه أن المجالس بالأمانة يستثني منها ثلاثة مجالس:

المجلس الأول: مجلس سفك فيه دم حرام، فهذا يجب الشهادة به، ولا يجوز كتمه، بل كتمه خيانة عامة، وخيانة لأولياء القتيل، وخيانة لحق الله.

ومجلس من هذا النوع لا حرمة له، ولا أمانة له، لأن أصحابه قد خانوا الله فيما استأمنهم عليه، وخانوا أخاهم فاعتدوا على حياته، ولم يكونوا أمناء عليها، فكيف يكون لهم حق في حفظ سر مجلسهم.

المجلس الثاني: مجلس كان فيه اعتداء على عرضٍ حرام، ومجلس من هذا النوع لا حرمة له، ولا أمانة له، بشرط أن يتوافر للشاهد به نصاب الشهود الأربعة، لئلا يدان بالقذف، فحق الله هو الأحق بالأمانة عليه وأدائه كما أمر الله.

المجلس الثالث: مجلس اعتدي فيه على مالٍ بغير حق، فهذا مجلس لا حرمة له أيضاً ولا أمانة له.

ونستطيع أن نقيس على هذه المجالس ما كان شبيهاً بها، فمن ذلك المجالس التي تدبر فيها المؤامرات ضد المسلمين، فهذه مجالس لا حرمة لها، بل

التستر عليها خيانة عظمى للأمانة التي استؤمن عليها كل فرد من أفراد المسلمين، وهي أن يكون حافظاً راعياً لجماعة المسلمين، أميناً على مصالحهم، وعيناً يقظة ساهرة تراقب مكايد أعدائهم، ومؤامرات الذين يتآمرون ضدهم، ضد دينهم، أو ضدّ جماعتهم، أو ضدّ قادتهم الصالحين.

فإذا استثنينا هذه المجالس استطعنا أن ندمغ من يفشي أسرار المجالس التي لا شرّ فيها ولا إثم بالخيانة، وحينما يكون إفشاؤها يفضي إلى أضرار جسيمة فإنّ من يفشيها يتحمل جريرة كلّ الأضرار التي تستتبع إفشاءها، لا سيما إذا كانت أسراراً ترتبط بها مصالح عامة المسلمين، وكان إفشاؤها يضرّ بهذه المصالح العامة، وعندئذٍ تكون خيانة عظمى، لا خيانة فردية جزئية. ولذلك لمّا شعر أبو لبابة بأنّ خيانته قد كانت من قبيل الخيانة العظمى شدّ نفسه إلى سارية من سواري المسجد وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ.

وقصة أبي لبابة في خيانته، أنه لمّا خان يهود بني قريظة رسولَ الله والمسلمين في غزوة الأحزاب، وتواطأوا مع المشركين على أن ينقضوا عهدهم مع الرسول ﷺ وينقضّوا على المسلمين من وراء ظهورهم من داخل المدينة، وأفسد الله مكيدتهم، وردّ الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، خرج رسول الله ﷺ فحاصر يهود بني قريظة في حصونهم خمساً وعشرين ليلة، حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبدالمنذر لنستشيره في أمرنا، وكان مناصحاً لهم قبل الإسلام. فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلمّا رأوه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرقّ لهم، وقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال أبو لبابة بلسانه: نعم، وأشار بيده إلى حلقه، كناية عن الذبح، فخان بذلك سرّ رسول الله ﷺ وأمانته التي استؤمن عليها، رعاية لصداقته لهم في الجاهلية، وكانت هذه خيانة منه للمسلمين، فالموقف موقف حرب، والأمر خطير، ولم يكن ذلك عن نفاق لديه، فقد قال أبو لبابة عن نفسه: فوالله ما زالت قدماي من مكانها حتى عرفت أني خنت الله ورسوله.

ثم انطلق أبو لبابة على وجهه، ولم يأت رسول الله ﷺ بعد الذي كان منه، حتى أتى المسجد فشدّ نفسه إلى عمود من أعمدته، وقال: والله لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليّ مما صنعت. وعاهد الله أن لا يطأ بني قريظة أبداً، ولا يُرى في بلد خان الله ورسوله فيه أبداً. وطالت غيبته على رسول الله ﷺ فاستبطأه، فأبلغه المسلمون خبره، فقال صلوات الله عليه: أما إنه لو جاءني لاستغفرت له، فأمّا إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه.

ولبث على هذه الحالة ست أو تسع ليالٍ تأتيه امرأته في كلّ وقت صلاة، فتحلّ قيده فيصلي، ثمّ يعود فيرتبط بالجذع، حتى تاب الله عليه، وأنزل فيه قوله في سورة (التوبة ٩):

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

وكان رسول الله ﷺ في بيت أم سلمة، والوقت وقت السحر، فقالت أم سلمة: يا رسول الله أفلا أبشره؟ قال: بلى إن شئت، فقامت على باب حجرتها فقالت: يا أبا لبابة أبشر، فقد تاب الله عليك، فثار المسلمون إليه ليطلقوه، فأبى إلا أن يطلقه رسول الله ﷺ بيده، فلمّا خرج رسول الله ﷺ إلى صلاة الصبح أطلقه.

فقال: يا رسول الله إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة، فقال: «يجزيك الثلث أن تصدّق به».

وكان الله عزّ وجلّ قد أنزل النهي عن الخيانة فقال تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

الخيانة

من خلال تصورنا للأمانة بأنواعها نستطيع أن نعرف الخيانة بأنواعها، وذلك لأنّ الخيانة هي ضدّ الأمانة.

(أ) فإذا نظرنا إلى الأمانة الكبرى التي علّقها الله بالإنسان، وهي الأمانة على ما جعل تحت سلطة إرادته من قوى وطاقات، وطلب منه مراعاة حقوقها التي جعلها الله لها، استطعنا أن ندرك أنّ أيّ إخلال بحقوق ما استأمننا الله عليه هو خيانة، ولذلك نهى الله عن هذا النوع من الخيانة، كما نهى عن خيانة الأمانات كلها، وذلك في قوله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

وقد تضمنت هذه الآية النهي عن خيانة الله، وهي الإخلال بحقوق ما استأمننا عليه، وأعطيناه فيه عهد الأمانة منذ أعلنّا الإسلام والتزمنا به.

وتضمنت أيضاً النهي عن خيانة الرسول ﷺ، لأنّ حقوقه تابعة لحقوق الله، ومن حقوقه على المؤمنين برسالته اتباع شريعته، وعدم معصية ما أمر به أو نهى عنه.

وتضمنت أخيراً النهي عن خيانة الأمانات كلها، فتشمل ما يتعلق بحقوق كل ذي حق، نحن مستأمنون عليه. ولا بدّ أن نلاحظ أنّ خيانة حقوق خلق الله هي خيانة لهم، وخيانة لله تعالى أيضاً، وذلك لأن من حق الله علينا أن لا نخون أحداً من خلقه.

ثمّ إنّ حقوق الله على عباده ذات مراتب، فما كان منها في المرتبة الأولى التي يكفر الجاحد بها فإنّ خيانتها من أقبح أنواع الخيانات، أمّا الحقوق الأخرى التي تتضمن تكاليف عملية في فعل أو ترك، فهذه تتأرجح هي وخيانة حقوق الناس شدّة وضعفاً، وبعض كلٍ منها قد يكون أقبح من بعضٍ آخر. على أنّ حقوق الله الخالصة مشمولة بكرم الله وعفوه وغفرانه، أمّا حقوق الناس فمقرونة

بشحهم وضيق نفوسهم، وعدل الله هو الذي يحميها، وبناء على ذلك يقول العلماء: حقوق الله مبنية على المسامحة، وحقوق الناس مبنية على المشاحة، إلّا حق الإيمان بالله فهو أعظم الحقوق كلها، ولذلك أعلن الله من قواعد الجزاء التي يجازي بها عباده يوم الدين، أنه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

(ب) ووصف الله اليهود إلّا قليلاً منهم بأنهم أهل خيانة، فقال تعالى لرسوله في سورة (المائدة ٥):

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ... ﴿١٣﴾﴾.

فهذه الآية تدل على أن الخيانة من الصفات التي تبرز في اليهود بين حين وآخر، فالخيانة شأنهم وديدنهم، وطريقتهم في معاملة الناس.

فمن خياناتهم محاولتهم اغتيال الرسول وقد كان بينه وبينهم عهد أمان.

ومن خياناتهم تواطؤهم مع الأحزاب، وقد كان بينهم وبين الرسول عهد أمان.

(ج) ولمّا كان أمر خيانة العهود والمواثيق أمراً خطيراً، أمر الله رسوله بأن يعلن للكافرين نبذ عهدهم، ويشعرهم بأن يستعدوا للمواجهة على صعيد سواء لا خيانة فيه ولا غدر، متى خاف الرسول من خيانتهم وغدرهم ومحاولتهم أن يأخذوا المسلمين على حين غرّة، بينما هم في عهد أمان مشترك، فقال الله تعالى له في سورة (الأنفال ٨):

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

فالمسلمون يعلنون للكافرين إلغاء عهودهم وينبذونها إليهم متى رأوا أمارات الخيانة والغدر ظاهرة في تصرفاتهم، وذلك حتى لا يستغلّ عدوهم طيبتهم ووفاءهم فيأخذهم على حين غرّة. ولكن لا يجوز للمسلمين أن ينقضوا

عهودهم دون سابق إعلام وإنذار، ثم عليهم بعد الإعلام أن يتركوا لعدوهم فرصة يتدبرون بها أمرهم، ويأخذون بها حذرهم واحتياطاتهم، هذا ما لم تكن البادرة من قبل عدوهم، فإن كانت بادرة النقض من قبل العدو فللمسلمين حينئذ أن يقابلوا النقض بالنقض دفاعاً عن أنفسهم.

(د) ولكن ليس لنا إذا تخوّفنا من خيانة من دخل في الإسلام تعوّذاً من القتل أن نرفض إسلامه ولا نقبله منه، بل نقبل إسلامه، ونعامله معاملة المسلمين تماماً، ولكن لنا أن نضعه تحت المراقبة الخفية وربما كان هذا واجباً، يمكّن إهماله الأعداء من المكر وتدبير المكايد، فإن بدا من تصرفاته ما يشعر بأنه يدبر خيانة عاقبناه على أساس أنه مسلم، وعلى قدر خيانته.

روى البخاري ومسلم عن المقداد بن عمرو، أنه قال: يا رسول الله، أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فاقتتلنا، فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة فقال: أسلمت لله ـ (وفي رواية): فلمّا أهويت لأقتله قال: لا إله إلّا الله ــ أأقتله بعد أن قالها؟ قال رسول الله ﷺ: «لا تقتله» فقال: يا رسول الله، إنه قطع إحدى يدي، فقال رسول الله ﷺ: «لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال».

فقرّر الرسول في هذا أن من أسلم عصم دمه إلّا بحق الإسلام، وأنه بإسلامه اكتسب كل حقوق المسلم، وأنّه ليس لمسلم أن يقاتله على اعتبار أنه كافر تظاهر بإعلان الإسلام فراراً من القتل، فمن قتله من المسلمين بعد أن سمع منه كلمة الشهادة فهو قاتل لمسلم، وهو يستحق النار بقتله ظلماً وعدواناً.

ويؤكد هذا ما رواه البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى أناس من جهينة، فأتيت إلى رجل منهم فذهبت أطعنه، فقال: لا إله إلا الله، فطعنته فقتلته، فجئت إلى النبي ﷺ فأخبرته فقال: «أقتلته وقد شهد أن لا إله إلا الله،» قلت: يا رسول الله إنما فعل ذلك تعوذاً (أي: ليحمي نفسه من القتل) قال: «فهلّا شققت عن قلبه».

وفي رواية عند مسلم، أنّ رسول الله ﷺ قال: «كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟» قاله مراراً.

ويفهم من هذا التأنيب الشديد.

قد يقال: إنّ هذه السياسة قد تعرّض المسلمين لورطات خطيرة، بسبب أنّ أعداءهم قد يخادعونهم بما يتظاهرون به، والجواب على ذلك بأنهم إذا صدقوا مع الله فإنّ الله سيمكنهم من الذين يريدون خيانتهم ومخادعتهم، وهذا ما طمأن الله به رسوله في شأن الأسرى الذين أسلموا في ظروف الأسر، فقال له في سورة (الأنفال ٨):

﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾.

ولكن ليس معنى حماية من أسلم ونحن نظن أنه قد أسلم نفاقاً أن نسلمه قيادة إسلامية، أو أن نأمنه أمناً كاملاً، بل الواجب أن نكون على حذر كامل ويقظة تامة منه، وإن أعطيناه حقوقه الإسلامية العامة.

(هـ) من قصص الخيانة قصة جرت في عهد الرسول ﷺ، فكشفها الله، وأنزل فيها قرآناً، وخلاصة هذه القصة فيما يلي:

كان طعمة بن بشير بن أبيرق من مسلمة الأنصار، وكان بشير أبو طعمة هذا من المعروفين بالنفاق، قالوا: فنقب طعمة جداراً لرفاعة بن زيد وسرق له درعين ودقيقاً، وكان في جراب الدقيق خرق فجعل ينتثر منه الدقيق، وكان ذلك أثراً مادياً دل على اللصوص. وعرف رفاعة بن زيد وأهله أن بني أبيرق هم الذين سرقوا الدرعين والدقيق، فجاء قتادة بن النعمان ابن أخي رفاعة بن زيد إلى رسول الله ﷺ فشكا إليه بني أبيرق وما كان منهم من سرقة، وشاع أمر بني أبيرق في المدينة، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ أسيد بن عروة بن أبيرق، فقال يا رسول الله: إن هؤلاء قد عمدوا إلى أهل بيتٍ هم أهل صلاح ودين، فاتهموهم بالسرقة، ورموهم بها من غير بينة، وأخذ يجادل عن ذويه.

فتنكر الرسول ﷺ لقتادة بن النعمان ورفاعة بن زيد، لأنهم قد اتهموا بني أبيرق دون بينة، فأنزل الله عليه ما بيّن له فيه خيانة اللصوص، ونهاه عن أن

يدافع عنهم، أو يجادل لتبرئتهم، فهم مدينون بالخيانة، لا سيما وأمارتها تشير إليهم.

ثم لم يقتصر أمر بني أبيرق على إنكار ما كان منهم من جناية، وإنما رموا بها بريئاً فألصقوا به التهمة، وهذا البريء هو لبيد بن سهل، إذ قال بنو أبيرق: لسنا السارقين، ولكن السارق لبيد بن سهل. فلما أنزل الله ما أنزل، وبرّأ لبيداً من التهمة، هرب السارق من بني أبيرق إلى مكة، ثم هرب إلى خيبر، ثم إنه نقب بيتاً ذات ليلة ليسرق، فسقط الحائط عليه فمات.

أما الآيات التي نزلت بصدد هذه الحادثة، فهي قول الله تعالى لرسوله في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾.

لقد عالج هذا النص القرآني كل العناصر التي اشتملت عليها أحداث

سرقة طعمة بن بشير بن أبيرق، مهتماً بما يتصل بها من أحكام ونصائح وتوجيهات دينية وقضائية وإدارية للرسول ﷺ وللمسلمين.

يبدأ النص بمخاطبة الله للرسول ﷺ فيقول له: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً﴾.

فحدد الله لرسوله في هذه الآية مسؤوليته القضائية، وسبيله في إصدار أحكامه وأقضيته على الناس أو لهم، وحذره من الاندفاع بأكاذيب الخائنين وتضليلاتهم.

وتوجب المسؤولية القضائية تحري الحكم بالحق، والقضاء به حيث كان، وذلك بالاستناد إلى مبادىء الحق التي أنزلها الله في القرآن، وبتتبع وجه الحق في القضية المطروحة بين يدي القضاء، ثم الحكم بما استقر عليه رأي القاضي بعد اجتهاده وتحريه، فما يصل إليه القاضي في اجتهاده هو الأمر الذي يريه الله إياه، إذا سلك السبيل التي أرشد الله إليها للتعرف على وجه الحق، ويمكن تلخيصها بثلاثة عناصر:

الأول: الاستناد إلى مبادىء الحق التي أنزلها الله في الكتاب.

الثاني: تتبع وجه الحق في القضية المطروحة بين يدي القضاء بالاستناد إلى الأدلة والبيانات والأمارات.

الثالث: التحري التام والاجتهاد الكافي ثم الحكم بما أراه الله.

وقوله تعالى: ﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ ينهى الله فيه الرسول ثم المؤمنين، عن أن يخاصموا لصالح الخائنين، وذلك بالدفاع عنهم أو الحكم ببراءتهم، مع وجود بعض الأمارات الدالة على خيانتهم، وقد عرفنا أن سرقة بني أبيرق التي نزل النص بمناسبتها قد كان فيها أمارة الدقيق المنتثر من الدار المسروق منها إلى دارهم وهذه الأمارة تسوغ لهم توجيه أصابع الاتهام ضد الذين لصقت بهم اللوثة، وإن كانت غير كافية للإدانة، إلا أنها توجه الأنظار لمتابعة البحث.

وقد أرشد الله رسوله إلى الموقف الذي عليه أن يتخذه بوجه عام، ما دام في القضية أمارات، وكشف له حقيقة خيانة الذين لم تثبت لديه إدانتهم، وأنب الذين جادلوا عن الخائنين من ذويهم، وأبان أنهم قد ظلموا أنفسهم بذلك، ثم حذر من الكبيرة الكبرى، وهي أن يرتكب المذنب خطيئة أو إثماً ثم يرمي به بريئاً، ووصف ذلك بأنه بهتان وإثم مبين.

وقوله تعالى: ﴿يختانون أنفسهم﴾ أي: يخونون أنفسهم، إلا أن «يختانون» فيها زيادة في المعنى مأخوذة من زيادة في بناء اللفظ، أي: يخونون أنفسهم وهم يعلمون أنهم خائنون، وقد جعلهم الله خائنين لأنفسهم لأن ضرر خيانتهم يعود عليهم.

ويؤنب الله الخوَّانين بقوله: ﴿إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً﴾ ويحذرهم من عاقبة الخيانة بقوله: ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً﴾.

وأما الذين أخذوا يجادلون عن بني أبيرق من ذويهم وأقربائهم فقد خاطبهم الله بقوله: ﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة؟ أم من يكون عليهم وكيلاً؟﴾.

وفتح الله للجميع باب الأمل بالتوبة فقال تبارك وتعالى: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾.

فالسارق في الحادثة قد عمل سوءاً، والمجادل عنه قد ظلم نفسه.

ـ ٧ ـ
الرجــوع إلى الحــقّ

الرجوع إلى الحق بعد معرفته واستبانة أمره من الظواهر السلوكية لخلق حب الحق وإيثاره.

والرجوع إلى الحق فضيلة من الفضائل التي دعا إليها الإسلام، وحث

على الالتزام بها، وعمل على تربية المسلمين عليها، لذلك فهو من الفضائل التي يتحلى بها المؤمنون.

وضد خلق الرجوع إلى الحق خلق الإصرار على الباطل، رغم انجلاء الغموض، ووضوح وجه الحق، وهذا لا يكون إلا من انحراف خلقي شائن، مدفوع بعوامل نفسية شتى، يدخل فيها الكبر، والاستعلاء، وحب الغلبة ولو بالباطل، وخوف الظهور بمظهر ارتكاب الخطأ، والاعتزاز الآثم، والاستكبار عن قبول الحق الآتي من قبل الأشخاص الآخرين، والأنانية المفرطة التي تحبّ الاستئثار بكل مجد.

والرجوع إلى الحق فضيلة خلقية راقية توجد عند أصحاب الفطر العالية من الناس، لأنهم بفطرهم العالية لا يجدون في نفوسهم ما يصرفهم عن الاستجابة للحق والرجوع إليه، فلا أنانية تصرفهم، ولا عصبية تصدهم، ولا عزة آثمة تحجبهم عن رؤية الحق، وأما الأهواء والنوازع النفسية فإنهم يستطيعون أن يجدوا سبيلاً إلى مداراتها في ظل الاعتراف بالحق والرجوع إليه.

فالذين بادروا فاستجابوا لدعوة الحق التي جاء بها الرسول ﷺ، وهجروا ما كانوا عليه من باطل، قد كانوا أصحاب فطر عالية، لأنهم استطاعوا أن يطرحوا عصبياتهم جانباً، وينبذوا أنانياتهم الخاصة، ويستهينوا بمصالحهم مع قومهم، ويتبعوا رسول الله ﷺ، حين رأوا أن دعوته هي دعوة الحق، وأن ما كانوا عليه في جاهليتهم باطل.

فمن أمثلة هؤلاء أبو بكر الصديق رضوان الله عليه، لقد كان وجيهاً في قومه، وذا مكانة، ولمّا رأى دعوة محمد ﷺ هي الحق بادر إلى الأخذ بها، وطرح كل المعتقدات التقليدية التي عليها قومه والتي كان منتسباً إليها بحكم انتسابه إلى قومه، وكان المفروض أن يتعصب إليها كما تعصب إليها معظم قومه، إلا أن فطرته العالية جعلته يستهين بالعوامل العصبية التي تسيطر على النفوس، وجعلته يرجع إلى الحق ولو كانت الطريق التي سيسلكها طريقاً ليس فيها غيره وغير من هداه السبيل، ولو كانت الجماهير البشرية تتدافع في طريق أخرى، وجعلته أيضاً

يستهين بمصالحه الخاصة مع قومه، لأنه لا يستطيع أن يقبل الباطل ويسير في ركابه، مهما كانت مصالحه الدنيوية ومنافعه المادية مرتبطة به، فالحق عند أصحاب الفطر العالية أحق أن يتبع، ولو كان في اتباعه تحمل صنوف من الأذى على أيدي المبطلين.

وهذا ما جعل أبا بكر رضي الله عنه نموذجاً مثالياً لاتباع الحق والرجوع إليه، في كل أدوار حياته مع الرسول ﷺ، وكذلك حينما تسلم خلافة المسلمين بعده.

ومن أمثلة هؤلاء أيضاً عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لقد كان من أصحاب الفطر العالية، رجّاعاً إلى الحق وقّافاً عنده، وقد كان يستطيع أن يدوس نفسه وعزتها وكبرياءها بقدميه، ويستطيع أن يعلن ذلك على رؤوس الأشهاد متى ظهر له أن الحق في غير الأمر الذي كان يقول أو يأمر به، وكان في ذلك نموذجاً فريداً.

وقصة إسلامه تدل على فطرته العالية في حبه للحق ووقوفه عنده، ورجوعه إليه، وفيما يلي حكاية لها، مما قصه عمر عن نفسه:

أخرج البزّار والبيهقي والطبراني وأبو نعيم في الحلية، عن عمر بن الخطاب قال: كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ، فبينما أنا في يوم حار شديد الحر بالهاجرة في بعض طرق مكة، إذ لقيني رجل من قريش، فقال لي: أين تريد يا ابن الخطاب؟ فقلت: أريد إلهي وإلهي وإلهي (أي: أريد التوجه إلى آلهتي من الأوثان) قال: عجباً لك يا ابن الخطاب، إنك تزعم أنك كذلك وقد دخل عليك الأمر في بيتك.

قال: فقلت: وما ذاك؟ قال: أختك قد أسلمت.

قال: فرجعت مغضباً حتى قرعت الباب ــ وقد كان رسول الله ﷺ إذا أسلم الرجل والرجلان ممن لا شيء له ضمّهما رسول الله ﷺ إلى الرجل الذي في يده السعة، فينالا من فضل طعامه، وقد كان ضم إلى زوج أختي رجلين ــ

فلما قرعت الباب قيل: من هذا؟ قلت: عمر، فتبادروا فاختفوا مني، وقد كانوا يقرؤون في صحيفة بين أيديهم تركوها أو نسوها، فقامت أختي تفتح الباب، فقلت: يا عدوة نفسها صبوتِ؟ وضربتها بشيء في يدي على رأسها، فسال الدم، فلما رأت الدم بكت، فقالت: يا ابن الخطاب ما كنت فاعلاً فافعله فقد صبوت.

قال: ودخلت حتى جلست على السرير، فنظرت إلى الصحيفة وسط البيت، فقلت: ما هذا؟ ناولينيها، فقالت: لست من أهلها، أنت لا تطهر من الجنابة، وهذا كتاب لا يمسه إلا المطهرون، فما زلت بها حتى ناولتنيها، ففتحتها فإذا فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم» فلما مررت باسم من أسماء الله تعالى ذعرت، فألقيت الصحيفة، ثم رجعت إلى نفسي فتناولتها، فإذا فيها:

«سبّح لله ما في السماوات والأرض».

فلما مررت باسم من أسماء الله تعالى ذعرت، ثم رجعت إلى نفسي، فقرأتها، حتى بلغت «آمنوا بالله ورسوله» إلى آخر الآية[1]، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

قال عمر: فخرجوا إلي متبادرين وكبروا وقالوا: أبشر يا ابن الخطاب فإن رسول الله ﷺ دعا يوم الاثنين فقال: اللهم أعز دينك بأحب الرجلين إليك،

---

(١) الآيات هي أوائل سورة الحديد إلى آخر الآية السابعة: ﴿سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم (١) له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير (٢) هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم (٣) هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير (٤) له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور (٥) يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور (٦) آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير (٧)﴾.

إما أبو جهل بن هشام، وإما عمر بن الخطاب، وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك[1].

ومن روائع رجوع عمر بن الخطاب إلى الحق ما جاء في أخباره أنه رأى ذات يوم وهو خليفة للمسلمين، أن يصدر أمراً بتحديد المهور ليمنع المغالاة فيها، ويسهل أمر الزواج، ويخفف من أعباء تأسيس الأسرة، حتى يقبل الشباب على الزواج، وتنحل بذلك مشكلات اجتماعية، ناجمة عن عضل البنات بسبب اشتراط المهور الغالية، فخطب في المسلمين ووجه للناس أمراً بما رآه، وكان له فيه وجه من الاجتهاد سديد، فقامت امرأة فقالت له: ليس ذلك لك يا عمر، إن الله تعالى يقول: ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾ فقال عمر: امرأة خاصمت عمر فخصمته. وفي رواية بلفظ: امرأة أصابت ورجل أخطأ.

ولولا أن ابن الخطاب رجّاع بفطرته إلى الحق الذي ينكشف له، لوجد تخريجات فقهية تبرر ما كان قد ذهب إليه، ولكنه لم يفعل ولم يستكبر عن إعلان رجوعه إلى ما ظهر له من حق، ولم يجد في إعلانه خطأه على رؤوس الأشهاد أي حرج أو ضيق في نفسه[2].

وقد شهد رسول الله ﷺ لعمر بأن الله جعل الحق على لسانه وقلبه، وبأن الشيطان ما لقيه سالكاً طريقاً إلا سلك طريقاً غير طريقه.

روى الترمذي عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه».

وروى أبو داود عن أبي ذر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به».

وروى البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص، أن رسول الله ﷺ قال

---

(١) انظر الخصائص الكبرى للسيوطي.

(٢) من عجيب مفاهيم التقدمية الحديثة أنها تجعل الرجوع إلى الحق والفضيلة رجعية مذمومة، مع أن الرجوع إلى الحق من أنفس الفضائل التي يتمتع بها الإنسان العاقل المتحضر، الذي يعشق المجد، ويسعى في الارتقاء إلى الكمالات.

لعمر: «إيه يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً قط إلا سلك فجاً غير فجك».

ومن أمثلة الرجاعين إلى الحق أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، ومن قصص رجوعه إلى الحق ما روي أنه تغاضب ذات يوم مع بلال الحبشي مولى أبي بكر، وتطور النزاع بينهما، إلى أن أخذت الحدة أبا ذر، فقال لبلال: يا ابن السوداء، فشكاه بلال إلى النبي ﷺ، فقال رسول الله لأبي ذر: طفّ الكيل، أتعيّره بأمّه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، قال أبو ذر: على ساعتي هذه من كبر السن[1]؟ فقال له الرسول ﷺ: «نعم هم إخوانكم».

أي: والأخوة تستلزم التحقق بمعنى إلغاء الفوارق العرقية واللونية ونحوها من الأمور.

فندم أبو ذر لما كان منه، ورجع إلى الحق، وأعلن توبته، حتى إنه أمر بلالاً أن يطأه على وجهه استرضاء له مما عيره به من سواد أمه.

التربية الإسلامية على خلق الرجوع إلى الحق:

لقد اعتنت التربية الإسلامية بتربية المسلمين على خلق الرجوع إلى الحق وعدم التمادي في الباطل، واستثارت فيهم بواعث الإيمان الدافعة إلى التزام الحق وعدم الخروج عن دائرته.

لذلك كان من الفضائل الخلقية التي يتحلى بها المؤمن الصادق وقوفه عند حدود الحق، وحين ينزلق بعوامل الخطأ أو الغلط أو غير ذلك إلى مواقع الباطل، فإنه يجد نفسه مدفوعاً إلى الرجوع إلى الحق، ولو اضطره ذلك أن يصارع نفسه وهواه، ويصرعهما بقوة إرادته، ولو كلفه ذلك قهر أنانيته وكبريائه وعزته وأنفته الآثمة، إنه بصدق إيمانه وسمو خلقه يخضع للحق، ويستجيب له، ويرجع إليه متى استبان له وظهر.

(١) لعل أبا ذر ظن أن الرسول ﷺ قصد بالجاهلية ما يعتري الشباب من طيش يخرجهم عن حد الاعتدال، فقال ما قال.

وقد كان الرسول ﷺ في هذا وفي سائر الفضائل قدوة حسنة للمؤمنين، وكان أصحابه الذين اهتدوا بهديه قدوة حسنـة لمن وراءهم، ونحن نعلم ما للأسوة الحسنة من أثر عظيم في مجال التربية الخلقية والسلوكية.

فمن أمثلة التربية النبوية على الرجوع إلى الحق ما كان من الرسول ﷺ في غزوة بدر، إذ نزل في موقع ليس هو الأفضل في الخطة الحربية المثلى، وأمر المسلمين بنزوله، فقال له أحد أصحابه وهو الحباب بن المنذر بن الجموح: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال رسول الله ﷺ: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال الحباب: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغوِّر ماوراءه من القُلُب(١)، ثم نبني على الماء حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون. فرجع رسول الله ﷺ عن رأيه إلى رأي الحباب بن المنذر، وقال له: لقد أشرت بالرأي، ونهض سريعاً، ونهض من معه من المسلمين، وعمل برأي الحباب رجوعاً إلى ما هو أفضل، ولم يجد حرجاً في نفسه أن يتراجع عن رأيه، ويعمل برأي أحد أتباعه صلوات الله عليه، وقد أعطى الرسول أصحابه في هذا درساً عملياً في فضيلة الرجوع إلى الحق.

ومن أمثلة التربية النبوية على الرجوع إلى الحق، ما كان من الرسول ﷺ في شأن ترك تأبير النخل للقاحها: وذلك أنه مرّ على طائفة من أصحابه في نخيلهم، فرآهم يلقحون النخل لتنضج ثمارها، فبدا له أنّ هذا اللقاح قد يحصل دون أن يفعله الناس ودون أن تتخذ له الأسباب المادية. وربما كان صلوات الله عليه في تلك الحالة مستغرقاً في مشاهدة أفعال الخالق التي لا تعوزها الأسباب، فذكر لهم أنه لا يرى ضرورة لهذا التأبير، إذ قال: لو لم تفعلوا لصلحت، وظن أهل النخل أن هذا من الرسول ﷺ تعليم ديني واجب الاتباع، فتركوا التأبير، فلم تنضج ثمار النخل إذ فقدت لقاحها، فعلم بذلك رسول الله ﷺ، فقال لهم: أنتم أعلم بأمور دنياكم.

---

(١) أي: نطمر ما وراءه من منازل إلى ماء بدر.

ورجع بذلك الرسول ﷺ عن رأيه، لأنه كان من عنده، ولم يكن تعليماً تشريعياً، ولا علماً ربانياً أوحى الله به إليه.

ولعل الله أجرى لرسوله مثل هذا لئلا يستكبر مسلم مؤمن بعد رسول الله ﷺ عن الرجوع إلى الحق متى ظهر له، فهذا أكمل البشر معرفة وأرفعهم مكانة وذكراً قد يخطىء في بعض أمور الدنيا، ثم يرجع إلى الصواب متى ظهر له، ويعلن رجوعه إليه، دون أن يجد في نفسه غضاضة من ذلك. وهذا أسلوب رائع من أساليب التربية الربانية للمؤمنين، إذ وضع الله أمامهم القدوة الحسنة التي تقدم لهم الفضائل في صيغة عملية تحمل أفضل صورة تطبيقية للحكم والنصائح والوصايا القولية.

ومن التربية الإسلامية على الرجوع إلى الحق، ما جاء في النصوص الدينية من توجيه مَنْ حلف على شيء ثم رأى غيره خيراً منه، أن يكفّر عن يمينه ويأتي الذي هو خير.

روى مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين فرأى خيراً منها، فليكفر عن يمينه وليفعل».

وروى البخاري ومسلم عن عبدالرحمن بن سمرة، أن الرسول ﷺ قال له: «وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفّر عن يمينك وأتِ الذي هو خير».

ففي هذا إرشاد عظيم إلى الرجوع إلى الأفضل الأحسن، ولو نتج عنه إلغاء قسم وثق به الأمر الذي يحسن الرجوع عنه إلى غيره، فكيف بالرجوع عن الباطل إلى الحق؟

وقد يدعو الأمر إلى مقاتلة الجانحين عن الحق لإرجاعهم إليه، ولو كانوا مسلمين، ومن ذلك قتال الطائفة الباغية بين طائفتين من المسلمين، حتى ترجع إلى أمر الله، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى

ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

«تفيء إلى أمر الله»: أي ترجع إلى أمر الله، وأمر الله هو الحق.

فهذا النص القرآني يأمر جماعة المؤمنين بمقاتلة الفئة الباغية حتى ترجع إلى الحق، وهي تربية قسرية على الرجوع إلى الحق، متى كان التمادي في الباطل بغياً وظلماً.

من الرجوع إلى الحق التوبة إلى الله:

ولا يخفى أن التوبة من الذنوب عمل من أعمال الرجوع إلى الحق، وحث النصوص الإسلامية على التوبة والأوب والإنابة هو حث على الرجوع إلى الحق وعدم التمادي في الباطل، وفي ممارسة التوبة من الذنوب تدريب دائم عليه.

إن بني آدم خطاؤون، كثيرو الانحراف عن سواء السبيل، كلما كبت فيهم الإرادة، وضعفت عن ضبط القيادة، وانحرفت بهم عجلات مركبة الحياة عن سواء سبيل الهداية، لذلك كانوا بحاجة مستمرة إلى تجديد التوبة والإنابة إلى الله، إذ الذنوب والمعاصي تبعدهم عن الله، والتوبة تردهم وترجعهم إليه.

ويستعمل للدلالة على معنى الرجوع إلى طاعة الله ومراقبته بعد معصيته أو التقصير في التقرب منه أو الغفلة عنه؛ كلمات: (تاب ــ آب ــ أناب) ومشتقاتها، فيقال: تاب من ذنبه، وآب إلى رشده، وأناب إلى ربه. ولئن كانت هذه الألفاظ تدل على مطلق معنى الرجوع في أصل وضعها إلا أن الاستعمالات القرآنية وغيرها تجعلها خاصة في الرجوع المحمود، والرجوع المحمود هو رجوع إلى الحق، فمن ذلك النصوص التالية:

﴿ويهدي إليه من أناب﴾، ﴿وخر راكعاً وأناب﴾، ﴿إن إبراهيم لأواه حليم منيب﴾، ﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب﴾، ﴿إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً﴾، ﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه﴾، ﴿ومن

تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾، ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين﴾ إلى غير ذلك من النصوص.

وحين نتساءل: لم سمي الإقبال على الله رجوعاً، واستعمل للدلالة عليه كلمات: (تاب ــ وآب ــ وأناب) ومشتقاتها؟ بدا لنا في الجواب أن كل أنواع الانحراف الإنساني، إنما هو ابتعاد عن مواقع الفطرة السليمة التي فطر الله الإنسان عليها، وهي مواقع الإيمان والطاعة لله والقرب منه، وهي مواقع التكريم الذي كرم الله به الإنسان منذ خلقه وعلمه وأمر الملائكة بالسجود له. فكل دنوٍ من مواقع هذه الفطرة السليمة بعد الابتعاد عنها هو في حقيقة الأمر رجوع، ولمّا كان الانحراف عن مواقع الفطرة الأولى للإنسان ابتعاداً إلى جهة المنحدرات فالهاوية السحيقة فنار جهنم بعيدة الغور، كان الرجوع إلى مواقع الفطرة رجوعاً صاعداً إلى مراتب الكمال الإنساني فمنازل النعيم في دار الخلود، فرضوان من العلي الحميد.

فالرجوع صاعدٌ إلى كل مجد رفيع وعز منيع، والتقدم إلى معاصي الله تقدم في المنحدرات إلى الحضيض السحيق، وهو انتكاس وخزي.

وقد أثنى الله على التوابين والأوابين والمنيبين إليه وهم الرجاعون إلى طاعته، مستغفرين من ذنوبهم التي ينزلقون إليها كلما ضعفت إراداتهم عن مقاومة أهوائهم وشهواتهم، إذ يتيقظون، فيستغفرون، فيؤوبون إلى الله نادمين، عازمين على أن لا يعودوا إلى مواقع الإثم والخطيئة.

وفتح أبواب التوبة للناس من مظاهر الواقعية في الإسلام، وذلك لأن الإنسان عرضة بحسب تكوينه لأحوال الضعف التي ينـزلق بها في مـزالق المعاصي، وطريق التوبة هو السبيل الوحيد لرجعته إلى سبيل الاستقامة ومواقع التقوى، ولولا فتح باب التوبة لم ينج أحد إلا من عصمه الله بعصمة من عنده، ولذلك دعا الله عباده ليتوبوا إليه، وأعلن أنه غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً، وأنه يحب التوابين، وأنه يريد أن يتوب على عباده.

ولولا أن باب التوبة مفتوح لكل العصاة لتحول العاصي الذي ييأس من التوبة والغفران إلى أكبر مجرم طاغ وأخبث شيطان.

شروط قبول التوبة:

ذكر العلماء شروط قبول التوبة ونلخص منها فيما يلي ما تؤيده النصوص:

(أ) إذا كانت التوبة من معصية لا تتعلق بحق إنسان فلقبولها شروط خمسة وهي:

الشرط الأول: أن يقلع المذنب عن المعصية.

الشرط الثاني: أن يندم على فعلها.

الشرط الثالث: أن يعزم على أن لا يعود إليها أبداً.

الشرط الرابع: أن تكون التوبة قبل أن يحضر الموت، فإذا حضر الموت، وبلغت الروح الحلقوم لم تقبل التوبة حينئذ.

الشرط الخامس: أن تكون التوبة قبل أن تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت الشمس من مغربها أقفل باب التوبة، وكذلك إذا خرج الدجّال، أو خرجت دابة الأرض، كما ثبت في الصحيح. وقد جمعت ذلك مما رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(ب) وإذا كانت التوبة من معصية تتعلق بحق إنسان فلقبولها شرط سادس يضاف إلى الشروط الخمسة السابقة: وهو أن يؤدي لصاحب الحق حقه أو نظير حقه، أو يحصل على مسامحته وعفوه من غير إكراه.

فإذا تعذر عليه أن يسترضي أصحاب الحقوق، صدق في توبته، وسأل الله أن يتولى عنه إرضاءهم، وحين يعلم الله صدق توبته وعجزه عن تأدية الحقوق لأهلها، فإن الله يتولى عنه يوم القيامة إرضاءهم ويغفر له.

وتصح التوبة الصادقة المستوفية لكل شروطها من كل الذنوب مهما كان شأنها فمن صدق في توبته غفر الله له، ولو كانت ذنوبه من أكبر الكبائر، كالكفر بالله، والإشراك به، والقتل، والسرقة، والزنى، وغير ذلك من الذنوب، ما لم تنته مدّة الابتلاء بحضور الموت، أو بطلوع الشمس من مغربها، أو بخروج الدجال، أو خروج دابّة الأرض.

قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾.

ففي هذا النص دلالة صريحة وواضحة، على أن الذي يعمل السيئات ويؤخر توبته منها حتى ينتهي أجله، ويحضره الموت، فإذا حضر الموت قال: إني تبت الآن، فإن توبته حينئذٍ لا تصح ولا تقبل.

ولذلك لم يقبل الله إيمان فرعون، لأنه لم يقل كلمة الإيمان حتى أدركه الغرق وأيقن بالهلاك، ورأى آية الله بنجاة موسى ومن معه من بني إسرائيل، إن إيمانه حينئذ لم ينفعه، وقال الله له: آلآن وقد عصيت من قبل!! قال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

وقد أوضح الرسول ﷺ أن الحالة التي لا تقبل التوبة فيها إذا حضر الموت، أن تكون الروح في حالة النزع وتبلغ الغرغرة، أي: تبلغ الروح الحلقوم.

روى الترمذي وابن ماجه عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر».

والدليل على أن باب التوبة يقفل إذا طلعت الشمس من مغربها، عدة

نصوص، منها ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه».

ومنها ما رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها».

وقد أشار القرآن إلى ذلك في قول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

وقد جاء تفسير ذلك في كلام الرسول ﷺ بأن باب التوبة لا يغلق ما لم تطلع الشمس من مغربها، فإذا ظهرت هذه الآية من آيات الساعة لا ينفع نفساً إيمانها، إذا لم تكن آمنت من قبل، ولا ينفعها عملها إذا لم تكن كسبت فيما سبق عملاً صالحاً، وعندئذٍ ينقطع قبول الإيمان وقبول العمل الصالح وقبول التوبة، وذلك لأن ظهور هذه الآية من آيات الساعة هو بمثابة حلول الأجل وحضور إنذارات الموت التي ينقطع بها قبول التوبة والإيمان والعمل، إذ تنتهي به مدّة الامتحان، وتبدأ أولى مراحل زمن الجزاء.

أقسام عصاة المؤمنين بالنسبة إلى التوبة:

يقسم القرآن العصاة من المؤمنين إلى ثلاثة أقسام:

* **القسم الأول**: عصاة مؤمنون يفعلون السوء بجهالة من الجهالات النفسية، التي تضعف معها إراداتهم، ثم يتوبون من قريب ويصلحون نفوسهم وسلوكهم، وهؤلاء قد وعدهم الله وعداً قاطعاً بأن يتوب عليهم، وجعل ذلك قضاء قضى به سبحانه وتعالى على نفسه إذ كتب على نفسه الرحمة، وقد دل على ذلك قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧﴾.

فقد جعل الله في هذه الآية التوبة على هذا القسم من العصاة وعداً عليه حقاً، وأبان فيها المراد من قوله تعالى: ﴿ثم تاب من بعده﴾ في آية (الأنعام ٦) المكية بأن هـذه البعديَّـة ينبغي أن تكون من قـريب إذ جاء فيهـا خطابـاً للرسول صلى الله عليه وسلم:

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٤﴾.

فهذه الآية توضح أن الله قد كتب على نفسه الرحمة فألزم بها نفسه، وفسرت الآية هذه الرحمة التي كتبها الله على نفسه بقبول توبة من عمل من المؤمنين سوءاً بجهالة، ثم تاب من بعده وأصلح نفسه وسلوكه.

وحين يقبل الله التوبة من التائبين الصادقين في توبتهم فيتوب عليهم، هل يكفر عنهم سيئاتهم؟

وذلك لأن قبول التوبة أمر، وتكفير السيئات أمرٌ آخر، فالتوبة عودة إلى ديوان الطائعين، وقبولها قبول العودة إلى هذا الديوان، أما تكفير السيئات فيعني ستر حالة الذنب نهائياً وعدم المحاسبة عليها.

ونجيب على هذا السؤال بما يلي:

١ ــ أما التوبة من الكفر بالإسلام فهي تجبُّ ما قبلها فضلاً من الله وكرماً، ففي الصحيح عن الرسول ﷺ: «**الإسلام يجبُّ ما قبله**».

٢ ــ وأما توبة المؤمنين من ذنوبهم وسيئاتهم فـإن صاحبهـا استغفار

أو كانت من اللمم والصغائر أو تبعها إصلاح واستقامة غفرها الله، للنصوص الواردة في ذلك، وإن لم يصاحبها استغفار وكانت من الكبائر ولم يتبعها إصلاح واستقامة فقد أعطى الله المؤمنين رجاء بأن يكفرها عنهم إذا تابوا إلى الله توبة نصوحاً، فقال تعالى في سورة (التحريم ٦٦):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾.

والترجية بـ (عسى) من كريم رحيم تفيد تحقّق الوقوع غالباً.

* **القسم الثاني**: عصاة مؤمنون خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، واعترفوا بذنوبهم، ولكن دون أن تكون منهم توبة واستقامة.

وهؤلاء لم يعطهم الله وعداً قاطعاً بأن يتوب عليهم ويغفر لهم، ولكن أعطاهم رجاء بذلك، وقد دل على هذا الرجاء قول الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

فأمر التوبة على عصاة هذا القسم متردد بين الخوف والرجاء إذ لم يكن منهم توبة صحيحة، ولكن الظاهر أنه لا بد أن يكون منهم استغفار من ذنوبهم، وهو ما يشير إليه ضمناً قول الله تعالى في الآية: ﴿اعترفوا بذنوبهم﴾ فالمعترف بذنبه، يغلب من حاله أن يطلب من ربه العفو والغفران، ولو لم يكن مع استغفاره توبة وندم وعزم على عدم العودة إلى الذنب، ولذلك كثرت النصوص التي تدعو المذنبين إلى أن يستغفروا ربهم.

وحين نتساءل: هل الرجاء بالعفو والمغفرة بالنسبة إلى هذا القسم من

العصاة هو الأرجح؟ أو توقع العقاب هو الأرجح؟ فخير جواب يظهر لنا أن الله عليم حكيم، يعلم ما في القلوب والنفوس، فيعطي كل فرد ما يلائم واقعه القلبـي والنفسي من المغفرة أو العقوبة.

ويرى جمهور العلماء أن الخوف من العقاب هو الذي ينبغي أن يكون ماثلاً في تصور الذين ما زال لديهم أمل طويل في الحياة، وأن الطمع بالعفو والغفران هو الذي ينبغي أن يكون ماثلاً في تصور الذين يتوقعون قرب آجالهم وأن شمس حياتهم آذنت بالغروب، على أنّ الترجية بـ (عسى) من الكريم الرحيم تفيد تحقق الوقوع غالباً كما سبق بيانه.

* **القسم الثالث**: عصاة مؤمنون أسرفوا جداً على أنفسهم، فلم يتوبوا ولم يعترفوا بذنوبهم، لأن أفكارهم ضائعة في أوحال المعصية، وإراداتهم مشتتة في عاتيات الأهواء.

ورجاء هؤلاء بالمغفرة ضعيف، ولكنه غير منقطع نهائياً، وتوقع العقوبة هو الأرجح بالنسبة إليهم، وقد دل على ذلك قول الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

مُرْجَون: مؤخّرون، من الإرجاء وهو التأخير.

أي: فهم مؤخّرون لأمر الله، والله بعلمه يحيط بما في قلوبهم ونفوسهم من خير وشرّ، ويحيط بظروفهم الاجتماعية، وبالأمور التي جعلتهم ينزلقون في المعصية، وهو بحكمته يضع كلًّا من عفوه أو عقابه في الموضع الملائم، لا يظلم أحداً مثقال ذرّة، وجانب فضله ورحمته سبحانه أرجح وأسبق في كل الأحوال من جانب عدله وسخطه.

هذه هي الأقسام الثلاثة لعصاة المؤمنين أخذاً من مفاهيم النصوص القرآنية، وقد ظهر لنا أن مرتبة التوابين أعلى المراتب بين عصاة المؤمنين، بل هي

أعلى المراتب بين المؤمنين جميعاً، لأنه لا يخلو مؤمن ــ باستثناء المعصومين ــ من معصية ولو صغيرة، ويجب عليه أن يتوب منها، فإذا تاب دخل في زمرة التائبين، والمؤمن العاصي الذي لا يتوب يضيف إلى معاصيه معصية ترك واجب التوبة، ولذلك جاء في النصوص الإسلامية الحث والتشجيع على التوبة بنسبة كبيرة.

منها قول الله تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه».

ومنها ما روى البخاري عن الحارث بن سُوَيْد قال: حدثنا عبدالله بن مسعود حديثين: أحدهما عن رسول الله ﷺ، والآخر عن نفسه، قال: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه، فقال به هكذا ــ أي بيده ــ فذبّه عنه. ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرضٍ دَوِّيّة مهلكة، معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها، حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ، فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه.

فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده».

والتائبون المؤمنون تدعو الملائكة لهم بالغفران، قال الله تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ

مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

مستويات التوبة:

لما كانت التوبة رجوعاً إلى الله من مواقع البعد عنه بسبب المعاصي والذنوب، أو المخالفات والتقصيرات، أو الغفلات واشتغال النفس والفكر والقلب بغير مراقبة الله والتفكر فيه، كانت ذات مستويات متفاوتات.

فأدناها التوبة من الكفر والشرك، وهي توبة ترفع إلى مستوى الإيمان.

وفوقها التوبة من الكبائر، وهي توبة ترفع إلى بعض درجات التقوى.

وفوقها التوبة من الصغائر وهي توبة ترفع إلى أعلى درجات التقوى.

وفوقها التوبة من المكروهات وترك المندوبات، وهي توبة ترفع إلى درجات البر.

وفوقها التوبة من التقصيرات عن درجات الكمال الإنساني في السلوك، وهي توبة ترفع إلى أعلى درجات الإحسان.

وفوقها التوبة من الغفلات عن الله والاشتغال بغير مراقبته والتفكر فيه، وهي توبة ترفع إلى مرتبة المقربين.

ولهذه المستويات درجات يرتقي فيها التائبون بحسب ما يكون منهم من توبة إلى الله.

وتوبة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام من مستوى التوبة العليا، واستغفارهم هو من شعورهم بتقصيرهم عن بلوغ أعلى درجاتها، فكلما وجدوا من أنفسهم أي تقصير ينزل بهم عن المرتقى الرفيع الذي ينشدونه تابوا إلى الله واستغفروا وأنابوا، ولذلك ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يستغفر الله ويتوب إليه في كل يوم أكثر من سبعين مرة.

روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه أكثر من سبعين مرة».

وروى مسلم عن الأغرّ المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة».

وروى مسلم عن الأغرّ المزني أيضاً، أن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليُغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة».

«إنه ليُغان على قلبي» أصل الغين في اللغة الغيم، ويراد من الغين الذي يعتري القلوب: الحُجُب الرقيقة المعنوية التي تغشاها، فتجعلها تفتر عن مراقبة الله وذكره، فيكون الاستغفار صارفاً لهذه الحجب التي تشبه السحب، ويكون بمثابة جلاء للقلوب، وعندئذٍ تستقبل القلوب أنوار الله دون أن يكون بينها وبينها حجب تحجبها.

فتوبة الله على رسوله من هذا المستوى، وبها يكتسب الرسول ﷺ زيادة في القرب، وارتقاء في درجات المرتبة العليا، وعليها يحمل قول الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) ﴾.

وكذلك كانت توبة موسى عليه السلام، حينما ذهب إلى مناجاة ربه وسأله فقال: ربّ أرني أنظر إليك، وهو ما قصه الله علينا بقوله في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ

جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

فقد تاب موسى عليه السلام من طلبه النظر إلى ربه في حياته الدنيا إذ كان الأكمل في حقه أن لا يطلب مثل هذا الطلب، بعد أن اصطفاه بالنبوة والرسالة دون طلب منه.

ومن هذا الباب كانت توبة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فيما قصه الله علينا بقوله في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

وإذا كان هذا حال الرسل فكيف يجب أن يكون حال غيرهم؟.

إن من واجب الناس جميعاً أن يكونوا توابين إلى الله، لأنهم جميعاً خطاؤون، روى الترمذي وابن ماجه والدارمي بإسناد حسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون».

ولذلك دعا الله عباده إلى أن يستغفروه ويتوبوا إليه، ودعا الرسل الناس إلى أن يستغفروا ربهم ويتوبوا إليه.

منها قول الله تعالى لرسوله في سورة (فصلت ٤١):

﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

ومنها قول الله تعالى في سورة (المزمل ٧٣):

﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾.

ويقص الله علينا في سورة هود أن نوحاً وهوداً وشعيباً ومحمداً عليهم الصلاة والسلام طلبوا من أممهم أن يستغفروا ربهم ليغفر لهم.

تدبر طائفة من نصوص الرجوع إلى الله والتوبة إليه:

*** نصوص في الأوب:**

١ ــ يقول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

أي: إنه سبحانه وتعالى غفور للرجاعين إلى طاعته، بعد تجاوزهم إلى مواقع معصيته، ووصفهم بالأوابين على صيغة المبالغة يدل على أنهم يجددون باستمرار رجوعهم إلى الله كلما ابتعدوا عن طريق طاعته والاستقامة على شريعته، ولما كانوا كذلك كان الله لهم غفوراً، فهو يمنحهم من غفرانه قدراً كبيراً يناسب كثرة رجوعهم إليه.

ولكن الله إنما يتقبلهم باسمه الغفور إذا كانوا صالحين في نفوسهم، فالقضية مشروطة بأن يكونوا صالحين ﴿إن يكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً﴾.

والمراد من الصلاح هنا صلاح النفوس والقلوب، فمن كانت نفسه من الداخل صالحة وكان قلبه صالحاً فإنه هو الذي يستحق أن يتقبله الله باسمه الغفور، كلما كبا في المعصية بضعفه الإنساني، ثم آب إلى ربه ورجع إلى طاعته مستغفراً من ذنبه. أما من كانت نفسه متمردة شريرة غير صالحة، وكانت غير عازمة بصدق على الرجعة الصحيحة إلى الله، فإن أوبته الظاهرة بلسانه أو بعمله إلى الطاعة لا تنفعه، ولذلك قال الله تعالى في صدر الآية: ﴿ربكم أعلم بما في

نفوسكم﴾ ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً﴾ فدل ذلك على أن المراد من الصلاح صلاح النفوس والقلوب.

٢ ــ ويقول الله تعالى في سورة (ص ٣٨):

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

لقد أثنى الله في هذه الآية على داود عليه السلام بأنه أواب، أي: رجاع إلى الله تواب، مع أنه ذو أيد، أي: ذو قوة في الأرض وسلطان، ومن طبيعة القوة أنها تغري بالتمادي في المخالفة أو الغفلة، ولكن داود عليه السلام رسول معصوم لا تغريه القوة، فهو في تصاعد مستمر إلى الله.

٣ ــ ويقول الله تعالى في سورة (ص ٣٨):

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾.

فأثنى على سليمان بمثل ما أثنى به على أبيه داود عليهما الصلاة والسلام.

٤ ــ وأثنى الله تبارك وتعالى على أيوب عليه السلام بمثل ذلك، فقال في معرض الحديث عنه في سورة (ص ٣٨):

﴿ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

* **نصوص في الإنابة:**

٥ ــ ويقول الله تعالى في سورة (ق ٥٠):

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

فوعد الله الأوابين الذين يخشون الرحمن بالغيب ويأتون إليه بقلب منيب بأن لهم الجنة، إذ تقرب لهم تكريماً، وجزاء بما كانوا يعملون.

وهذا الوعد لكل أواب حفيظ، أما الأواب فهو كما عرفنا الرجاع إلى الله،

وأما الحفيظ، فيمكن أن يكون المراد منه أحد وجوه ثلاثة أوجهها أولها:

الوجه الأول: أنه حفيظ لإيمانه وعهده لربه.

الوجه الثاني: أنه حفيظ لتوبته من النقض والتغيير.

الوجه الثالث: أنه حفيظ لأوامر الله ونواهيه حريص على طاعة الله فيها.

٦ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

ففي هذا النص ينادي الله عباده الذين أسرفوا على أنفسهم أن ينيبوا إليه بالطاعة والعمل الصالح، وأن يستغفروه ولا يقنطوا من رحمته، ويطمعهم بأنه يغفر الذنوب جميعاً.

فأبواب الرجاء مفتوحة للذين أسرفوا على أنفسهم بموجب قوله تعالى: ﴿لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً﴾.

ولكن ذلك في حكمة الله لا يكون إلا إذا كان من المسرفين على أنفسهم رجعةٌ إلى ربّهم، وإنابةٌ إليه، وإسلامٌ له، أمّا من دون ذلك فالعذاب هو الجزاء المقرر، الذي لا يجدون من ينصرهم وينقذهم منه.

ومن لطائف هذا النصّ أنّ الله تبارك وتعالى ينادي فيه عباده الذين أسرفوا على أنفسهم بحرف نداء البعيد (يا) إشارة إلى أنهم بإسرافهم على أنفسهم قد ابتعدوا عن الله، فهو يناديهم ليرجعوا إليه، ويقربوا منه بالتوبة والعمل الصالح، ثم ينهاهم عن القنوط من رحمته، ويؤكد لهم أنّ الله يغفر الذنوب جميعاً.

٧ ــ ويوصي الله الإنسان بأن يتبع سبيل من أناب إليه، فيقول تعالى في سورة (لقمان ٣١):

﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ . . . ﴿١٥﴾﴾.

أي: واتبع سبيل المؤمنين، لأنهم هم الذين أنابوا إليه، أي: رجعوا إليه بالإيمان والعمل الصالح والتوبة من الذنوب كلما سقطوا فيها.

٨ ــ ويقول الله تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

فحصر الله في هذا النص التذكر بمن ينيب، فقال تعالى: ﴿وما يتذكر إلا من ينيب﴾ وذلك لأن الآيات الكونية المنبثة في هذا الكون الكبير، والنعم الكثيرة العظيمة التي يفيضها الله علينا، إنما هي مذكرة بما يجب على الإنسان تجاه ربه من طاعة وشكر، ومراقبة وخشية، ولكنه لا يتذكر هذا التذكر إلا من يرجع بقلبه إلى ربه وينيب إليه، أما من يظل معرضاً متمادياً في بعده عن الله، فإن بينه وبين هذا التذكر حجاباً أو حجباً، إنه لا يخطر في باله ولا يملأ قلبه إلا ما يرضي أهواءه وشهواته ومطامع نفسه الدنيوية العاجلة، فهو عن الذكرى محجوب.

٩ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾.

فالاجتباء وهو الاصطفاء يختص الله به من يشاء بحكمته، وهذه المرتبة تكون للمصطفين الأخيار ﴿الله يجتبي إليه من يشاء﴾، ومن دونها تأتي مرتبة من يهديه الله إليه، أي: يقضي له بالهداية، ويوفقه إلى الارتقاء في معارجها، وهذه المرتبة يمنحها الله من ينيب إليه، أي: يرجع إليه بالإيمان والتوبة من الذنوب.

١٠ ــ ويقول الله تعالى في سورة (سبأ ٣٤):

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ

بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾.

ففي هذه الآية بيان أن الآيات الكونية إنما ينتفع بدلالاتها من ينيب إلى ربه.

١١ ــ ويقول الله تعالى في سورة (ق ٥٠):

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾.

فالعبد المنيب إلى ربه، الراغب بالتعرف على الحقيقة ليؤمن بها، هو الذي يجد في هذه الآيات الكونية تبصرة وذكرى.

١٢ ــ لكن من لم ترجعه إلى الله ظواهر الآيات ولا فيوض النعمة ولا خلجات الضمير، فإن مس الضر سيجعله ينيب إلى ربه ليكشف عنه ذلك، قال الله تبارك وتعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾.

لكن هذا الرجوع إلى الله عند مس الضر هو من صفات الإنسان مهما بلغ به الكفر والعناد، إنه في هذه الحالة ينيب إلى ربه، فيدعوه ويلتجىء إليه، حتى إذا كشف الله عنه الضر عاد إلى كفره وعناده وشركه بربه.

إن من لا يكون في قلبه إنابة إلى الله في حالة الرخاء فإن إنابته إليه في حالة الشدة لا تنفعه يوم القيامة، لأنها إنابة ضرورة ملجئة، لا إنابة اختيار حر.

لذلك فإن الله تبارك وتعالى يمتحن عباده في الدنيا بالشدة والرخاء، فمن رجع إلى الله في الشدة، ثم كان مثل ذلك حينما يكشف الله عنه الضر فهو الذي يوفقه الله ويهديه، ومن كان رجوعه إلى الله في أحوال الشدة فقط، ثم لا يكون مثل ذلك إذا كشف الله عنه ما به من ضر، فإنه عبد جحود كفور، يمتعه الله في الدنيا متاعاً قليلاً بما يفتح له من نعم، ثم يبعده عن رحمته ويجعله من أصحاب النار.

وحكمة الله في الامتحان بالسراء بعد الامتحان بالضراء لاختبار الصادقين في الإنابة إلى الله، قد دلت عليها عدة نصوص، منها قول الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

ففي قوله تعالى: ﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ إشعار بأن الامتحان بالنعم بعد الامتحان بالمصائب هو الذي يكشف حقيقة الرجعة إلى الله، هل هي رجعة المضطر أم هي رجعة الطائع المختار الذي ذكرته بالله المصيبة.

وقوله تعالى: ﴿حتى عفَوْا﴾ أي: حتى كثروا وكثرت خيراتهم ونعمهم، وأغراهم ما وصلوا إليه بنسيان الله، ونسيان سلطانه في كونه، لذلك فإنهم يرجعون أمر تقلب الأحوال إلى أنها ظواهر طبيعية، أو مصادفات كونية، فيقولون: قد مس آباءنا من قبل الضراء والسراء، فما أصابنا منها إنما هو ظواهر طبيعية مماثلة لما مس آباءنا من قبل منها، ويعودون إلى كفرهم، فيأخذهم الله بالعذاب بغتة وهم لا يشعرون.

١٣ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

ففي هذا النص يذكر الله تبارك وتعالى الذين ينيبون إليه في حالة مس الضر، فإذا كشف الله عنهم رجعوا إلى ما كانوا عليه من شرك وكفر بنعم الله عليهم، ويشير إلى فريق آخر هو فريق المؤمنين الذين ينيبون إلى ربهم في حالة مس الضر، ثم يستمرون على إنابتهم إلى ربهم إذا كشف الله عنهم الضر، فيتعرفون إلى الله في الرخاء وينيبون إليه، كما تعرفوا إليه وأنابوا إليه في الشدة دل على هذا قوله تعالى: ﴿إذا فريق منهم بربهم يشركون﴾ أي: وفريق آخر ليسوا كذلك.

فالإنابة إلى الله في حالة الضر يشترك فيها المؤمنون والكافرون، أما الإنابة إلى الله في الضراء والسراء فهي إنابة خاصة بالمؤمنين. على أن الإنابة الخاصة بالمؤمنين ذات درجات بعضها فوق بعض، ودرجاتها تتناسب مع مقادير الطاعة والاستقامة، وعلى مقدار نسبة الرجوع إلى الله، فالإنابة الدنيا تتمثل باجتناب عبادة الطاغوت وبالإيمان بالله، ويأتي فوقها إنابة الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، واجتهدوا في الأعمال الصالحات، ويأتي في الدرجة العليا إنابة الأنبياء والمرسلين، فإن نسبة رجوعهم إلى الله ودنوهم منه أرقى النسب وأعلاها.

١٤ ـ ويقول الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ﴾.

فهؤلاء بإنابتهم اجتنبوا عبادة الطاغوت وآمنوا بالله، فكانت لهم البشرى بدخول الجنة، وهذا النوع من الإنابة إلى الله الذي يقتصر على الإيمان بالله واجتناب عبادة الطاغوت هو من أدنى درجات الإنابة إلى الله.

١٥ ـ ويقول الله تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾.

فهؤلاء بإنابتهم إلى الله آمنوا بالله وعملوا الصالحات، ووصلوا إلى مستوى تطمئن فيه قلوبهم بذكر الله، فكان لهم طوبى وحسن مآب، ويظهر أن هذا النوع من الإنابة إلى الله أعلى درجة من النوع الذي دلت عليه الآية السابقة من سورة الزمر.

١٦ ــ ويقول الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ ﴾.

فوصف الله إبراهيم في هذه الآية بأنه حليم، ووصفه بأنه أواه، أي: كثير الدعاء، أو كثير التوجع خشية من الله، ووصفه بأنه منيب، أي: راجع إلى الله بالطاعات والقربات والمراقبات، وهذه الإنابة وصف ملازم له، ولذلك كان خليل الرحمن. ولا غرو أن مستوى إنابة الرسل إلى ربهم من أعلى المستويات، ودرجتها من أرفع الدرجات.

١٧ ــ وفي معرض الحديث عن شعيب عليه السلام يقول الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾.

فأعلن شعيب لقومه أن توفيقه لا يكون إلا بالله، وأن توكله على الله وحده، وأن إنابته إلى الله وحده.

١٨ ــ وفي معرض الحديث عن داود عليه السلام يقول الله تعالى في سورة (ص ٣٨):

﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

إنه لما عرف أن الله قد امتحنه في قضية الخصمين اللذين تسوّرا عليه المحراب، استغفر ربه، وخر راكعاً إليه، وأناب إنابة التائب الوجل.

وكذلك فعل ابنه سليمان عليه السلام في امتحان امتحنه الله به.

وهكذا ظهر لنا من تتبع النصوص القرآنية في الإنابة أنها قد استعملت في الرجوع إلى الله، ولمّا كان الرجوع إلى الله رجوعاً إلى الحق ـ لأن الله هو الحق، ولأن دينه دين الحق، ولأن ما يقضي به هو الحق ـ كانت الإنابة من أسمى ظواهر فضيلة الرجوع إلى الحق.

*** نصوص في التوبة:**

تاب العبد إلى ربه: أي عاد إلى الله من ذنب قد اقترفه، وتاب الله عليه: أي عاد الله عليه بالمغفرة والعفو. وتوبة الله على عبده تعني قبول الله توبة عبده إليه فإذا قبلها عاد إليه بإكرامه ورحمته فغفر له ذنبه وعفا عنه.

وقد جمع القرآن بين توبة العبد إلى ربه وتوبة الله عليه في عدة نصوص:

١٩ ـ يقول الله تعالى في معرض الحديث عن أهل الكتاب في سورة (البقرة ٢):

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠ ﴾.

ففتح الله باب الرجاء لأهل الكتاب، أن يتوبوا إلى الله، ويصلحوا، ويبينوا الحق الذي يكتمونه، فإذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم، إنه هو التواب الرحيم.

٢٠ ـ ويقول الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩ ﴾.

ففتح الله باب التوبة في هذه الآية لمن تاب من بعد ظلمه وأصلح، أي: أصلح نفسه وأصلح سلوكه، وحين يعلم الله صدق توبته وإصلاحه لنفسه وعمله فإنه يتوب عليه، أي: يعود عليه بفضله ورحمته وفيوض عطاءاته.

ويلاحظ أن لفظ التوبة حينما تكون التوبة من جهة العبد يتعدى بحرف (إلى) أما حينما تكون من جهة الرب فإنه يتعدى بحرف (على)، والسر في ذلك أن توبة العبد المذنب إلى ربه رجوع إلى الله مقترن بخضوع وتضرع وتذلل، فناسبه أن يكون التعدي بحرف (إلى) أما التوبة من جهة الله، فهي تفضل من الله على عبده بفتح أبواب رحمته والتوفيق إلى الاستقامة، فناسبه أن يكون التعدي بحرف (على) فرجوع الله إلى عبده رجوع تفضّل وإنعام عليه، وهو العلي الكريم.

٢١ ــ وكان أول التائبين من البشر أبوهم آدم عليه السلام، لأنه أول بشر ربّاني عصى، فتاب إلى ربه من ذنبه، فتاب الله عليه، قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (طه ٢٠):

﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

٢٢ ــ وينادي الله الذين آمنوا أن يتوبوا إلى الله توبة نصوحاً، فيقول تبارك وتعالى في سورة (التحريم ٦٦):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾.

التوبة النصوح: هي التوبة الصادقة الخالصة، التي يعزم التائب فيها على أن لا يعود إلى الذنب. وعرّف الحسن التوبة النصوح بقوله: هي ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وترك بالجوارح، وعزم على أن لا يعود. ونَصُوح على وزن فعول، وهي من صيغ المبالغة.

٢٣ ــ ويدعو الله الذين آمنوا جميعاً أن يتوبوا إليه، فقال تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

وقد جاءت هذه الدعوة إلى التوبة في سياق الأمر بالغض من الأبصار، وحفظ الفروج، ونهي النساء عن التهتك، وأمرهن بالاحتشام. وكأن في دعوة جميع المؤمنين إلى التوبة عقب الوصايا المتعلقة بغض الأبصار وحفظ الفروج ونهي النساء عن إبداء زينتهن لغير المحارم إلا ما ظهر منها، تلويحاً بأن الاستقامة التامة في هذا المجال مفقودة أو نادرة؛ ويؤكد هذا قول الله تعالى في سياق ذكر حادثة الإفك في سورة (النور ٢٤) نفسها:

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

أي: لولا فضل الله عليكم بالحفظ ورحمته إيّاكم بالعفو والغفران ما طهر أحد منكم من أدناس المعصية والإثم في هذا المجال، ولسقط الجميع من ثقوب الغربال، ولجاؤوا ربهم مثقلين من ذنوبهم بأوزار وأحمال.

٢٤ ــ ويوجه الله رسوله لدعوة المشركين إلى التوبة من شركهم فيقول تبارك وتعالى في مطلع سورة (هود ١١):

﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ ﴾.

ونلاحظ في هذا النص أن الانتقال من مواقع الشرك إلى مواقع الإيمان لتحقيق الرجوع المطلوب إلى الله، يحتاج أولاً إلى عملية تفريغ من كل أعمال الشرك بالله، وهذا يكون بطرح عبادة غير الله، ويحتاج ثانياً إلى إلقاء أوزار الماضي، وهذا يكون بالاستغفار، وفي المرحلة الثالثة تكون التوبة إلى الله والرجعة إليه رجعة قلب فارغ من الأغيار، يسعى إلى الامتلاء بالإيمان الخالص الصادق، ورجعة جوارح غير مثقلة بالأوزار، فهي تسعى خفيفة للقيام بكل عمل صالح يرضي الله تعالى، ويحقق الثواب العظيم عنده.

٢٥ ـ وكذلك دعا الرسل أقوامهم، وقد قص الله علينا دعوة هود قومه، فقال تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

فأمر هود عليه السلام قومه بعبادة الله وحده، ودعاهم إلى أن يستغفروا الله من ذنوبهم، ثم يتوبوا إليه، أي: يرجعوا إليه تعالى بالطاعة والعمل الصالح.

٢٦ ـ والتوبة النصوح المقبولة عند الله تعالى هي التوبة التي يرافقها ويسايرها إصلاح واستقامة على الطاعة، وإذ كتب الله على نفسه الرحمة فإنه تبارك وتعالى يغفر لهؤلاء التائبين، وهو الغفور الرحيم، قال الله تعالى لرسوله في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾.

فالوعد بالمغفرة والرحمة لمن عمل سوءاً بجهالة من الذين آمنوا مشروط بتوبة المذنب من بعد ذنبه، وبإصلاحه نفسه وسلوكه؛ وإصلاحه يكون بتعديل انحرافه، واستقامته على الطريقة التي شرعها الله لعباده.

وإذا عاد إلى المعصية مرة ثانية، فليعد إلى الاستغفار والتوبة بعدها، وليفعل ذلك كلما انزلق به ضعفه فهوى في المعصية، فإنه يجد الله غفوراً رحيماً، ما دام في كل مرة يتوب توبة صادقة يعزم فيها على أن لا يعود إلى المعصية، ولا يعتبر هذا منه تلاعباً، أما المتلاعب فهو الذي يقول بلسانه ما ليس في دخيلة نفسه، وذلك بأن يكون في قرارة نفسه غير عازم على الإقلاع عن الذنب، ثم يقول بلسانه: اللهم إني تبت إليك، فهذه توبة لسانية فقط غير مصحوبة بنية صادقة في القلب فلا ينظر الله إليها، وهذا ما دل عليه قول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾.

فالله تبارك وتعالى ينظر إلى صدق التوبة في النفوس والقلوب، فمن الداخل يكون الصلاح أو الفساد، وأما الظاهر فهو تعبير فقط، وقد يكون التعبير صادقاً، وقد يكون كاذباً، وحينما يكون كاذباً فإنه لا قيمة له. وتوبة الله على عبده فضل من الله عليه، وهذا الفضل متروك لأمر الله وحكمته، فإن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل، ولكن الله تعالى قد وعد الصادقين في توبتهم أن يتوب عليهم، ووعد الله حق لا يتخلف.

٢٧ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

وقد دلت هذه الآية على أن العمل الصالح بعد التوبة هو البرهان الواقعي الدال على صدق التوبة، وعلى كونها توبة نصوحاً، وهو ما نفهمه من قوله تعالى

فيها: ﴿فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾ أي: يتوب إلى الله متاباً صحيحاً صادقاً، وهو المتاب الذي يقبله الله فيتوب به على عبده.

٢٨ ـ وفي شأن المؤمنين الثلاثة الذين تخلفوا عن الرسول ﷺ فلم يخرجوا معه في غزوة تبوك، يقول الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

فقد كان من هؤلاء الثلاثة أنهم اعترفوا بذنبهم، وبينوا أنهم لم يكن لهم عذر في التخلف، فأعلن الرسول ﷺ مقاطعتهم، وأمر المسلمين بذلك، فتوجهوا إلى الله مستغفرين من ذنبهم تائبين لربهم، وظلوا على حالتهم هذه خمسين ليلة، وهم يلتجئون إلى الله أن يتوب عليهم ويغفر لهم، فأنزل الله على رسوله أنه تاب عليهم، إذ علم الله صدق توبتهم.

وبعد أن أعلن الله توبته عليهم، وألحقهم في ذلك بالنبي والمهاجرين والأنصار الذين خرجوا مع الرسول في ساعة العسرة (أي: في غزوة تبوك) قال الله تعالى: ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾ فدل هذا على أن الله بعد توبته الأولى عليهم التي كانت عقب توبتهم واستغفارهم تاب عليهم توبة أسمى، أي: أقبل عليهم بفيض عطائه وأمدهم بلطائف أنواره ليتوبوا إليه توبة أسمى من توبتهم الأولى، أي: ليرجعوا إليه سبحانه بمزيد من الأعمال الصالحات، ومزيد من المراقبة والإخلاص، حتى يكونوا من المحسنين، فيرتقوا بذلك إلى مرتبة الإحسان.

ونستطيع أن نقول: إن بين توبة العبد إلى ربه وتوبة الله عليه، نسبة تشبه

ما يكون بين الإنسان وبين ظله من المرآة، فظله في المرآة يبتعد عنه بمقدار ابتعاده عنها، ويقترب منه بمقدار اقترابه منها، إلا أن فضل الله تكون نسبته أكثر في حالة تقرب العبد إلى ربه، دل على هذا ما جاء في الحديث القدسي الصحيح الذي رواه البخاري عن أنس عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال:

«إذا تقرب العبد إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإذا تقرب إليَّ ذراعاً تقربت منه باعاً، وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة».

فالتوبة كما سبق بيانه ذات مستويات، وكلما كانت نسبة الرجوع إلى الله نسبة أكبر كان القرب من الله أعظم.

٢٩ ـ وروى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟

فقال: لا، فقتله فكمّل به مائة.

ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟

فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟! انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبده معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة».

وفي رواية في الصحيح: «فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي، وإلى هذه أن تقربي، وقال: قيسوا ما بينهما، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له».

إنه لمّا كان صادقاً في توبته، وجاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى ربه، قبل الله توبته، وكان الراهب الذي أفتاه بأنه لا توبة له مخطئاً في اجتهاده، جاهلاً بحكم الله في شأن قبول الله توبة العباد ما لم يحضر أحدهم الموت قبل أن يتوب.

إنه لولا أن باب التوبة مفتوح لكل العصاة، لتحول العاصي اليائس من التوبة والغفران إلى أكبر طاغ، وأخبث شيطان.

ولذلك كانت أصول التربية السليمة تقضي بعدم التيئيس من الإصلاح، وبعدم التقنيط من الرجعة إلى الاستقامة، مهما تمادى صاحب المخالفات في مخالفته وانحرافه، وإذا اقتضى الأمر معاقبته فإنه يعاقب ومع ذلك يفتح له رجاء التوبة والإصلاح حتى آخر مرحلة من حياته، قبل أن تبلغ روحه الحلقوم.

٣٠ ــ وروى مسلم عن عمران بن الحصين الخزاعي، أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنى، فقالت: يا رسول الله، أصبت حداً فأقمه عليّ، فدعا نبي الله ﷺ وليها فقال: «أحسن إليها فإذا وضعت فأتني بها» ففعل. فأمر بها نبي الله ﷺ فشدت عليها ثيابها، ثم أمر بها فرجمت، ثم صلى عليها، فقال له عمر: تصلي عليها يا رسول الله وقد زنت؟ قال: «لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل؟».

حقاً إنها لتوبة عظيمة، إذ جادت بنفسها، وقدمت جسدها للعذاب حتى الموت، ابتغاء مرضاة الله تعالى، وأية توبة أعظم من هذه التوبة؟ إنه ليس فوق مثل هذه التوبة العظيمة توبة من معصية.

ربنا اغفر لنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

ـ ٨ ـ

الانحراف عن الحق
أقسامه وأسبابه وعلاجه

الانحراف عن الحق أياً كان ظلم، لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه، والظلم قد يكون من ظواهر الانحراف عن الحق وقسوة القلب عن قبول دعوته، وقد يكون من ظواهر فقدان خلق الرحمة وقسوة القلب الناجمة عن ذلك[١].

أقسام الانحراف عن الحق:

ينقسم الانحراف عن الحق إلى قمسين:

القسم الأول: الانحراف عن الحق في المفاهيم الفكرية.

القسم الثاني: الانحراف عن الحق في التطبيقات السلوكية.

* **أما الانحراف عن الحق في المفاهيم الفكرية فيرجع إلى عدة أسباب:**

(أ) فمنه ما يكون ناشئاً عن خطأ فكري بحت، أدى إليه غموض الحقيقة، أو قصور النظر، أو جهل بطريقة البحث السليم، أو حصر التفكير في جانب من جوانب البحث حيث الحقيقة موزعة في جوانب شتى من الساحة، وبذلك لا تستبين الحقيقة على وجهها الصحيح، فيكون الانحراف عن الحق.

وقد يكون المخطىء في هذا السبب مخلصاً في طلب الحقيقة، إلا أنه لم يسلك السبيل الموصلة إليها، لعجزه وضعف قدرته أو لتقصيره وتهاونه واستعجاله النتيجة.

(ب) ومنه ما يكون ناشئاً عن اتباع غير بصير وتقليد أعمى، دفع إليه تعصب ذميم، أو ثقة عمياء، أو تعطيل لأدوات البحث والمعرفة، وكل ذلك ينشأ عن جهل أو تقصير أو هوى.

---

(١) سيأتي شرح الظلم عند شرح الظواهر المناقضة لخلق الرحمة.

(ج) ومنه ما يكون الباعث عليه هوى من أهواء النفس، أو شهوة من شهواتها، أو مطلب من مطالبها، فتزين له أهواؤه وشهواته ومطالبه صورة من صور الباطل، فتجعله ينادي بأنها هي الحق، وكثيراً ما يحس بأنها مزينة له زوراً وبهتاناً، ولكنه يتغافل عن الحقيقة ويصرف نظره عنها، حتى لا تظهر له فتنغص عليه لذاته، وتعكر عليه صفو أهوائه وشهواته.

والغالب في أصحاب الانحراف أنهم لا يكونون مخلصين في طلب الحقيقة والبحث عنها، ولكنهم يحاولون أن يجدوا لانحرافهم في السلوك فلسفة فكرية مزينة بالأصباغ والألوان الفكرية الخادعة، ليبرروا بها انحرافهم، وهؤلاء عبّاد أهوائهم وشهواتهم، ومن الصعب جداً إرجاعهم إلى الحق عن طريق إقناعهم به، وتبصيرهم بوجهه المشرق، إذ هم مكابرون مجرمون، وليسوا بجاهلين ولا ضالين سبيل الحق.

*** وأما الانحراف عن الحق في التطبيقات السلوكية فيرجع إلى أحد سببين:**

الأول: الانحراف عن الحق في المفاهيم الفكرية.

الثاني: غلبة الأهواء والشهوات ودوافع النفس، على سلطان الإرادة، والانحراف بهذا السبب وحده لا يشكل خطراً كبيراً على الحق، ما لم يعم وينتشر وتمتد ظلمته إلى البصيرة، فتغشي عليها، وتطمس عنها وجه الحق فلا تراه.

والمنحرف عن الحق في التطبيقات السلوكية بغلبة الأهواء والشهوات ودوافع النفس، كثيراً ما يكون صيداً قريب المنال من أيدي المجرمين الشياطين، الذين يزينون الباطل الخادم لأغراضهم، فيوقعونه في شباكهم، ويسخرونه في سبلهم، ويزينون له الباطل بفلسفاتهم الملونة الخادعة حتى يعتقدها ويؤمن بها ويقاتل من أجلها، وعندئذ يكون أداة طيعة في أيديهم، وسلاحاً من أسلحتهم، وجندياً مسخراً لأهوائهم.

وأكثر جنود الشياطين المجرمين، هم من المنحرفين عن الحق في تطبيقاتهم السلوكية، بغلبة الأهواء والشهوات ودوافع الأنفس، ومن المنحرفين عن الحق في

المفاهيم الفكرية، الذين نشأ انحرافهم بسبب خطأ فكري بحت، أو بسبب تقليد أعمى واتباع غير بصير.

أما المنحرفون عن الحق في المفاهيم الفكرية، تأثراً بأهواء نفوسهم وشهواتها، فهم في الغالب الشياطين المجرمون من البشر، وهم في الغالب قادة حزب الشيطان، ولهؤلاء مكايد كثيرة، قد يستطيعون بها تسخير بعض أصحاب الحق أنفسهم. وطريقتهم أن يبحثوا عن مغامز الضعف في الإنسان، فيضغطوا عليها، أو يمسكوا بها، ثم يسوقونه متدرجين به، من مواطن الضعف فيه، إلى مواقع الخطيئة، ثم إلى مواقع الإثم الكبير، ثم إلى مواقع الفجور، ثم يدفعون به إلى مواقع الانحراف الفكري عن الحق، وعندئذ يهوي هوياً سحيقاً، فيكون مع المجرمين، جندياً من جنودهم، أو قائداً من قادتهم.

ويمثل الانحراف عن الحقّ في المفاهيم الفكرية تأثراً بأهواء النفوس وشهواتها أقصى انحراف خلقي وأعمقه، لأنّ صاحب هذا الانحراف لا يريد رؤية الحقّ، ولا يسعى في طلبه، ولكنّه يحاول جاهداً أن يجد في المفاهيم الفكرية فلسفة مزيّنة بالأصباغ والألوان الخادعة، حتى يبرّر بها انحرافه، وحتى يستطيع خدع الناس بها، وسوقهم إلى سُبُل الضلالة، ومن ثمَّ ينتهي به الحال إلى التزام منحرفات فكريّة باطلة، وحين لا يجد أيّة حجّة يغالط بها ليطمس وجه الحقّ، فإنه يلجأ إلى إعلان التكذيب بالحق وادّعاء أنه إفك، دون أيّة حجّة يحتج بها، وهذا ما بيّنه الله من أخلاق الكافرين المعاندين الكابرين، قال الله تعالى في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

فهم يكذبون بكتاب الله، ويقذفونه بأنه إفك، لمجرد أنهم لم يهتدوا به ولم يتّبعوه، ولا يقدّمون أيّة حجّة تؤيّد ادّعاءهم، لأنهم لا يملكون شيئاً من ذلك، وهذا يعبّر عن مدى انحرافهم الخلقي الذميم.

* * *

العـلاج:

١ ـ قد يكون من العسير جداً علاج المنحرفين عن الحق في مفاهيمهم الفكرية، تأثراً بأهواء نفوسهم وشهواتها، واستجابة لانحرافهم الخلقي.

وقد لا يكون لهم دواء إلّا البتر أو العزل الكلّي عن المجتمع، على أن من واجب دعاة الحقّ أن يبصّروهم به عن طريق الإقناع بالبـراهين والحجج الدامغة، وبالأساليب الحكيمة وعن طريق الترغيب والترهيب، لإقامة الحجّة عليهم، وعسى أن يستجيب منهم ذو خير، وينتفع برؤية الحقّ منهم منتفع، ويخاف من مخالفته خائف، ويطمع باتباعه طامع.

٢ ـ أما المنحرفون عن الحقّ في مفاهيمهم الفكرية بسبب خطأ فكري بحت ـ وهم مخلصون في طلب الحقيقة ـ أو بسبب اتباع غير بصير وتقليد أعمى، فمسؤولية أصحاب الحق الدعاة إليه في اتخاذ الوسائل المختلفة لعلاجهم مسؤولية كبرى، لأن الأمل بإصلاحهم وإقناعهم بالحقّ كبير.

ويبدأ داعي الحقّ بالتودّد والتأنيس، حتى يـزيل حجـابَ الوحشـة، ويستدرج إلى الألفة، ويكتسب الثقة.

ثم ينتقل إلى استخدام الطرائق الحكيمة للتبصير بوجه الحقّ، ومن الخير أن يتخذ طريق الإقناع والمناقشة الهادئة الحكيمة.

فإنْ كان المنحرف عن الحقّ صادقاً فعلاً في طلب الحقّ والبحث عنه، إلّا أنه أخطأ سبيله إليه، فإنه سيسهل إقناعه متى عرفت سلسلته الفكرية التي انتهت به إلى الخطأ. وعندئذٍ يُبصَّر بالمزالق التي جعلته ينحرف فكرياً، ويؤخذ بيده إلى سواء سبيل البحث، فإذا وصل إلى معرفة الحقّ عن طريق المناقشة، وجد نفسه وجهاً لوجه أمام امتحان خلقي، بعد أن اجتاز مرحلة تحوّل فكري.

(أ) فإن كان من ذوي الخلق الكريم رجّاعاً إلى الحقّ سارع فأعلن رجوعه إلى الحقّ وأخذه به، دون أن يجد عقبات في نفسه تصدّه عنه.

(ب) وإن كان في أخلاقه انحراف أو كبر أو عناد أو تعصّب أو عجب

بالنفس أو نحو ذلك، صعب عليه أن يعلن رجوعه إلى الحقّ واعترافه به، وصار له شأن آخر بعد سقوطه في الخطأ والتزامه له، وقامت في نفسه عقبات منعته من الرجوع إلى الحق، رغم أنه كان مخلصاً في طلب الحق أولاً.

وتختلف ظواهر سلوك هذا الصنف من الناس تبعاً لاختلاف نسب ما في نفوسهم من منحرفات خلقية، فمن متربص قليلاً، ومن متربص طويلاً، ومن محتال مراوغ ليوفق بين إرضاء ضميره وإرضاء نفسه، ومن مصرّ مكابر يعجز عن اجتياز عقبات نفسه. وهكذا فمن الناس من يتهرب من إعلان رجوعه إلى الحقّ، ويحاول تعليق البحث، ثم يتراجع تراجعاً ضمنياً على مراحل، حتى إذا نسي الناس موقفه السابق أخذ يعلن مذهبه الجديد موهماً بإعلانه أنه هو ما كان يراه قديماً، وأنّ شيئاً لم يتغيّر لديه.

ومن الناس من يطوي البحث طيّاً نهائياً، فلا يعلن ـ ولو بعد حين ـ رجوعه إلى الحق، ويسكت عن رأيه القديم الذي انكشف له بطلانه.

ومن الناس من إذا عُرّف بالحق فلم يستجب له ولم يرجع إليه، ثم قيل له: اتق الله، ووجد لديه القوة والقدرة على أن ينتقم ممن يذكره بالله ويأمره بالتقوى، أخذته العزّة بالإثم فانتقم. وربما يكون في حالة ضعفه وعجزه ليّن الجانب، ناعم الملمس، حسن القول، يعجب الناس كلامه، ويزعم لهم أنّ ما يقوله بلسانه مطابق لما في قلبه، ويقدّم أحلى المواعيد، ويُشهد الله على ما في قلبه، فإذا ظفر بالقوّة قلب ظهر المجن وسعى في الأرض فساداً.

وقد ذكر الله هذا الصنف من الناس بقوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾.

ألدّ الخصام: أشدّ الخصوم خصومة، وأكثرهم جدلاً وإصراراً على موقفه. أو أعوج الخصومة، فالألدّ في اللغة الأعوج.

ومن الناس من يصر على باطله عناداً، حتى إذا نسي الناس موقفه ورأيه وما كان يقوله، تبنّى الحق على أنه هو رأيه الذي اهتدى إليه بفكره، ولم يرشده أحد إليه.

ومن الناس من يرى الحقّ بعد أن يقام له الدليل عليه، ولكن يتابع جدله بالباطل، تغطية لموقفه، واستكباراً عن قبول الحقّ من غيره، ولئلا يقال: إنّه كان مخطئاً ثمّ اعترف بخطئه، فتُخدش عند الناس كبرياؤه، وتجرح عنجهيته وعظمته، وقد يُسمّي ذلك كرامة وهي ليست من الكرامة في شيء، إلاّ أنّ خلقه قد امتحن في موقف من مواقف أنانيته المستكبرة، فلم يستطع أن يجتاز عقبة نفسه القاسية.

ولمعالجة أقسام هذا الصنف من الناس طرائق وأساليب شتى تحتاج إلى ذكاء كثير، وحكمة وافرة، وصبر كبير، ونفس طويل، ولا يستطيع اتخاذها والصبر عليها إلاّ قلّة من الناس.

وهي في معظمها حيل حكيمة تستدرج من كان من أقسام هذا الصنف من حيث لا يشعر، حتى يعلن الحقّ بنفسه، ظانّاً أنّ أحداً لم يفرضه عليه، ولم يكن له فضل بتبصيره به، وإنما وصل إليه ببحثه.

ومن الخير لداعي الحقّ والدالّ عليه ــ متى عرف أنّ وجه الحق قد أشرق في فكر من يقنعه به ــ أن يكفّ عنه، ويتركه فترة من الزمن، وليحذر من إحراجه بأية كلمة تمسّ جانب كبره وعجبه بنفسه، إنه سيجده بعد حين من الذين ينادون بالحقّ الذي بصّره به، ومن الذين يدعون إليه، لأنّ كرامته الموهومة لم تُمسّ بما يجرحها، بخلاف ما لو غمز جوانب نفسه المستكبرة بشيء يجرحها، فإنه حينئذٍ يدفعه إلى الإصرار على باطله، من حيث يريد إقناعه بالحقّ.

وبعض دعاة الحق يقعون في خطأ كبير فاحش حينما يستثيرون من يريدون

إقناعه بالحق، شيئاً من جوانب نفسه المعاندة المستكبرة، فيدفعون به إلى أن يصرّ على الباطل بعناد واستكبار، وربّما كانوا هم بإثارتهم له ضحيّة شيطان من شياطين أنفسهم، وعبيد هوى من أهوائها، ولو كانوا ينصرون الحقّ ويدعون إليه، فليتقوا الله في اختيار وسائل وأساليب الدعوة المجدية المؤثرة النافعة التي ترضي الله تعالى، ولا يكونوا عوناً لشيطان صاحب الباطل، بل عليهم أن يكونوا عوناً له ولإرادة الخير فيه ولضمير الحق لديه على نفسه وهواه وشيطانه.

فمن واجب دعاة الحقّ أن يلاحظوا طباع الناس المختلفة، ويعاملوا كل ذي طبع بما يلائمه من وسائل الإصلاح، وعليهم أن يضعوا في حسابهم أنّ في الناس معاندين مستكبرين، إذا استثيروا من مغامز عنادهم واستكبارهم أصروا على باطِلهم ولو انكشف لكلّ ذي عين.

يحكى أنّ رجلين اصطحبا في طريق، وكان أحدهما عنيداً مستكبراً، إذا رأى رأياً أو أخطأ خطأ تعصّب له، ولو تبيّن له أنّ الحق على خلافه، فبينما هما يسيران بدا لهما من بعيد حيوان على الأرض، فساءل بعضهما بعضاً: ما هذا؟ فرأى العنيد منهما أنه جَدْيٌ صغير أسود، ورأى صاحبه أنه غراب، واختلفا ولزم كلّ منهما رأيه. واستثار من رأى أنه غراب في صاحبه ما لديه من كبر وعناد، بعد أن تشارطا، ثم أخذ حجراً فرماه إلى جهة الحيوان فطار وعلا في الجوّ، وظهر أنه غراب، فقال العنيد منهما لصاحبه: إنه جديٌ ولو طار.

على الرغم ممّا في القصة من مبالغة، إلاّ أنه يوجد كثير من الناس يصرون على باطلهم مثل هذا الإصرار، حينما يستثارون من مغامز العناد والاستكبار ولو وضح الحق لديهم مثل ضوء النهار.

ومن قصص العناد المضخمة التي يحكي فيها الناس صورة الإصرار على الباطل، قصة أبي عناد:

يحكى أنّ فلاّحاً اشتهر في قومه بالعناد العجيب والإصرار على الخطأ، حتى صار يضرب فيه المثل بالعناد والإصرار على الخطأ، وأطلق القوم عليه كنية أبي عناد.

وكان لأبي عناد مزرعة زرع فيها بطيخاً، فنمت عنده واحدة منهنّ نموّاً كبيراً، فقال في نفسه: إنّ هذه تصلح لأن أقدّمها هديّة للأمير، وهو يكرمني عليها، فحملها للأمير على دابّته، وطلب الدخول إليه ليقدّم له تحفة مزرعته، والجميع يعرفونه بخلقه، فلمّا قدّم هديته أراد الأمير أن يحاوره ويمازحه، فقال له: ما شاء الله لا قوّة إلّا بالله، هذه البطّيخة كبيرة جدّاً، فكيف نقطعها يا أبا عناد؟

فأخطأ أبو عناد وقال: يا سيدي الأمير هذه تُقطَّع بالمقراض ـ أراد أن يقول: بالسكين ـ فأخطأ لسانه فقال: بالمقراض، فأصرّ على الخطأ بعناد.

فقال له الأمير: لعلّك أخطأت يا أبا عناد، فأنت تريد أن تقول: بالسكين، فسبق لسانك فقلت: بالمقراض.

قال: لا أيها الأمير، هذه لا تقطَّع إلا بالمقراض، وأصرّ أبو عناد على خطئه.

فحاوره الأمير هو وحاشيته وداوروه ليرجع إلى الصواب، فلم يرجع، وظلّ مصرّاً على ما قال.

قال الأمير: خذوه وغرّقوه في البحر شيئاً فشيئاً ليرجع عن خطئه، فأخذوه ورموه في مكان من البحر، وجعلوا يسألونه: بماذا؟ فيقول: بالمقراض، وظلّ هكذا حتى وصل الماء إلى فمه، وهو يقول: بالمقراض، فغمسوا رأسه بالماء فرفع يده عالياً وجعل يشير بأصبعيه بمثل حركة المقراض فتحاً وضماً.

فلما رأى الأمير منه ذلك استغرق في الضحك، وقال: أخرجوه إنّ أبا عناد لن يرجع عن خطئه ولو لقي حتفه، ثم أكرمه على هديته، وانصرف الرجل.

إنّ ظاهرة العناد والإصرار على الخطأ ولو ظهر وجه الحقّ، ترجع إلى خلق الكبر والعجب، وقسوة النفس والقلب، وقد ترجع إلى خلق الحسد، وقد ترافق ذلك حماقة وضعف في الإدراك، وقد ترجع إلى غير ذلك من أهواء النفس وشهواتها.

وبعض الناس قد يسبب لهم كبرهم وعنادهم الكفر والجحود بالله، ثم العذاب الأليم في نار جهنم.

وأخفُّ أقسام المستكبرين المعاندين من يراوغ فيقر بالحق في نفسه، ولكنه يحاول أن لا يظهر للآخرين أنه كان على خطأ فاستبان له الحقّ فرجع إليه.

ـ ٩ ـ
بواعث جحود الحق والكفر به مع ظهوره ووضوح أدلته

إذا لم يكن جحود الحق ناشئاً عن خطأ فكري صوَّر لدى الجاحد الحقَّ باطلاً والباطل حقاً، فإنّ جحود الحقّ عندئذٍ يرجع إلى انحراف خلقي في النفس.

وباستطاعتنا أن نضع أيدينا على عدّة عناصر من عناصر الانحراف الخلقي، الدافعة إلى جحود الحقّ والكفر به مع ظهوره ووضوح أدلته.

فمنها ما يلي:

١ ـ الكبر والعجب بالنفس.

٢ ـ الرغبة بالفجور استجابة لأهواء النفس وشهواتها.

٣ ـ الحقد.

٤ ـ الحسد.

٥ ـ كراهية الداعي إلى الحق.

٦ ـ التقليد الأعمى والتعصب الذميم.

٧ ـ نوازغ نفسية أخرى كالغضب، والطمع، والخوف.

وسنعالج إن شاء الله فيما يلي شرح أهم هذه العوامل الدافعة إلى جحود الحق والكفر به.

(١) الكبر والعجب النفس:

الكبر والعجب بالنفس داء من أدواء النفس الخطيرة، التي تمثل انحرافاً خلقياً يجنح بالإنسان عن سبيل الحق. والكبر والعجب بالنفس من أبرز وأخطر العوامل التي تدفع إلى الانحراف في المفاهيم الفكرية، وذلك لأنه متى نفخ الكبر والعجب بالنفس في أنف المستكبر المغرور، واستوليا على عقله وإرادته، ساقاه بعنفٍ شديدٍ وتمرد لئيم إلى غمط الحق وطمس معالمه، ثم إلى انتحال صور من الباطل يعمل على تزيينها وتحسينها بالأقوال المزخرفة، والحجج المزينة بالألوان والأصباغ، وهي في حقيقة حالها أشبه ما تكون بأخشاب المسارح ورسومها وستورها، مظاهر خادعة ولكن لا حقيقة لها.

* * *

تعريف الكبر:

يرجع الكبر في جذوره النفسية إلى الشعور المغرور بالاستعلاء الذاتي على الأقران والنظراء، وعلى المكانة التي يجد المستكبر نفسه فيها داخل مجتمعه، ويرجع إلى الرغبة بإشعار الآخرين بالامتياز عليهم، ولو لم يكن لهذا الامتياز وجود في الواقع فهو انتفاخ بغير حقّ، وتطاول بغير حقّ، وتعالٍ بغير حقّ، وتصغير للآخرين بغير حق، أو تصغير مالَهُم بغير حق.

ويرجع أيضاً إلى الرغبة الجامحة في عدم الخضوع لأحد، ويقترن بهذه الرغبة الشعور الجاهل المغرور بالاستغناء الذاتي.

فله عدة أسباب نفسية تنبع من منابع الأنانية المفرطة:

السبب الأول: الرغبة بعدم الخضوع لأحد، وتمتد هذه الرغبة في أقصى مداها إلى التمرد على طاعة الله الخالق الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، وبيده الحياة والموت، والنفع والضر، وهو على كل شيء قدير. ومع هذه الرغبة الحمقاء يأتي الشعور النفسي الجاهل المغرور باستغناء المستكبر بذاته، ومتى عظم هذا الشعور واستولى على جوانب النفس تولد عنه في سلوك المستكبر الطغيان ﴿إنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ ولا ينمو هذا الشعور ويعظم إلاّ وفي العقل نقص، وفي الإدراك قصور، وقد ينشأ ذلك عن حجب كثيفة من

الرغبات النفسية الجامحة، تحجب البصيرة عن إدراك كثير من الحقائق التي تخالف هواها.

السبب الثاني: الطموح الجامح إلى الامتياز على الآخرين، والرغبة المجنونة باحتلال المرتبة المتفوقة ولو بغير حقّ، ومع إرادة هذا العلوّ في الأرض ولو بغير حقّ يأتي الشعور الجاهل المغرور بالاستعلاء الذاتي. ومستكبر من هذا النوع يجد أنّ من حقه على المجتمع أن يمنحه هذا الامتياز والتفوق، وأن يعترف له به، وحين لا يعطيه المجتمع هذا الحقّ الذي رآه هو لنفسه يحقد عليه، ويبدو منه تصرفات عجيبة حمقاء تجاهه.

أو يأتي الشعور الجاهل المغرور بأنه يستطيع أن ينال ما يطمح إليه عن طريق الاستكبار.

إن مستكبراً من هذا النوع لا يريد أن يعرف أنّ طريق المجد صعب، وأنه طريق صاعد لا يرتقي إلاّ بشق الأنفس، وبجهاد طويل، وكفاية فطرية.

إنّ مستكبراً من هذا النوع تزين له نفسه أن يختصر الطريق، فيستكبر انتفاخاً، بدل أن يكدح لنيل المجد بالتزود بالصفات والخصائص الحقيقية، وبدل أن يرضى بنوع المجد ومقدار المجد الذي يمكن أن توصله إليه خصائصه الفطرية والكسبية.

إنّ مستكبراً من هذا النوع، لا يريد أن يعرف أنّ طلب الإنسان لأمر ليس هو مؤهلاً له معاكسة لسنة الحياة، ولطبائع الأشياء، بل تزين له نفسه أنّ الاستكبار من الطرق التي تمكنه من أن يعتلي مرتبة مجد ليس هو مؤهلاً لها في خصائصه الفطرية أو المكتسبة، فيكون مثله كمثل الهرّ الذي ينتفخ ليشعر خصمه بأنه أسد، أو كمثل الشاة التي تلبس جلد النمر، أو كمثل الزبد الذي يربو على الماء ويتعالى مستكبراً منتفخاً، ثم يذهب جفاء مطروحاً لا قيمة له، ولا كيان له.

إن طلب المجد عن طريق الاستكبار غباء شديد، إذ الصلة بين المجد

والاستكبار منقطعة تماماً، ولا يتصلان إلاّ في وهم المستكبر، أوخرافة الخيال، أو أحاديث مرضى العقول.

السبب الثالث: الرغبة بإخفاء ما يشعر به المستكبر من نقص في ذاته أو في عمله وهو حريص على أن يكون في أعين الناس كبيراً، وأن لا يكتشفوا نقصه.

ومع هذه الرغبة، يأتي السلوك الغبيّ لتغطية النقص بعملية الانتفاخ والاستكبار، فيفضح بهذا السلوك نفسه، إذ يوجه أنظار الناس إليه باحثين عن حقيقة حاله. والناس أذكياء، لا تخفى عليهم محاولات المستكبر، ولا تخفى عليهم أهدافه، إنهم بسرعة يكشفونه ويستبينون نقصه، فيحتقرونه، ويستصغرون عقله، ويرونه مصاباً بداء مركب النقص.

ولقد كان باستطاعته أن يستر نقصه بالتواضع، ولين الجانب، والتحبب إلى الناس، والصمت فيما يجهل، والبعد عن التحديات، والاعتذار عما لا يحسن، وعدم الادعاءات الباطلة.

* * *

تعريف الرسول للكبر:

وقد عرف الرسول ﷺ الكبر بأبرز مظاهره في السلوك، روى مسلم عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» فقال رجل: إنّ الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً، فقال رسول الله ﷺ: «إنّ الله تعالى جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس».

فعرّف الرسول الكبر بأنه بطر الحق وغمط الناس. وهو تعريف له بأبرز مظاهره السيئة في السلوك. ونشرح هذا التعريف النبوي فنقول:

البطر: يستعمل في عدة معانٍ، ففي المشي والحركة والعمل يدلّ على التبختر والخيلاء والخروج عن حدّ الاعتدال والاتزان في ذلك. والبطر عند مفاجأة النعمة يدل على التصرف المعبر عن الدهش والحيرة وقلة الاحتمال. والبطر عند دوام النعمة الكثيرة يدلّ على الطغيان فيها والخروج عن حدّ

الاعتدال إلى الإسراف والتبذير والاستهانة. والبطر في أحوال المسرة يدلّ على شدة المرح والإفراط فيه. والبطر عند مواجهة الحق يكون بالاستعلاء عليه والاستكبار عن قبوله والتقريظ في شأنه، والاستهانة به، وكما أنّ بطر النعمة يكون بالاستهانة بها والطغيان فيها، والتعالي عليها، كذلك بطر الحق يكون جحوداً له، وتفريطاً فيه، واستهانة بشأنه، والحقّ من أعظم النعم التي تساق إلى الإنسان، والتي يجب أن تقابل منه بالاحترام والقبول والشكران، فبطر الحقّ يعني جحود الحق، مع الاستهانة به، والاستعلاء عن قبوله، وهذا أقبح صور الكبر.

ولكن كيف نتصور أن يكون عدم قبول الإنسان للحقّ نوعاً من أنواع الكبر أو مظهراً من مظاهره؟

وفي الإجابة على هذا التساؤل نقدّم أمثلة عملية كاشفة: إننا نجد كثيراً من ذوي المكانة أو الرياسة أو السلطان في قومهم، إذا عرض عليهم مَنْ هو دونهم في المكانة أو الرياسة أو السلطان أمراً هو حقّ لا شك فيه، ولكنه جاء مخالفاً لرأيهم أو لما كانوا قرروه أو عملوا به، جحدوه، وأنكروه، واحتقروه، واستصغروا صاحبه، وأصروا على مخالفته، وإن ظهر لهم أنه حق، وربما كانت مصلحتهم الخاصة في جانب الحقّ، لا في جانب الباطل الذي أصروا عليه. هذا الصنف من الناس موجود بكثرة، وكثيراً ما نجده في المستويات العادية، وفي الدوائر الإنسانية الصغرى، في الأسرة، في المدرسة، في مكتب العمل، بين الزملاء.

وحين لا يكون رفض الحق وعدم الأخذ به ناشئاً عن هوى نفسيّ خاصّ لا يأتي إلّا من جهة الباطل، فإننا لا نجد مبرراً له إلّا استكبار الجاحدين عن قبول الحقّ الصادر عن غير رأيهم.

وإذا أردنا أن نحلل طيوف أنفسهم تحليلاً دقيقاً، وتغلغلنا في البحث إلى أعماق مشكلتهم النفسية ظهر لنا كبر نفوسهم بأقبح صورة.

إن الذي تأتيه فكرة الحقّ من الآخرين، فيرفضها، ثم يقاومها، دون أن

يكون له هوىً خاصّ في مخالفتها لذاتها، ولو أنها كانت من نتاج رأيه لكان من الداعين لها، والمفاخرين بها، والمتعالين بين الناس بأنه هو صاحبها ومبتكرها، لا يفعل ما يفعله إلّا بدافع من الكبر القبيح في نفسه.

إنّ المحذور الذي يخشاه إذا هو تقبل الحقّ الصادر عن غيره أن ينال المجد ذلك الذي صدر عنه الحقّ أو دعا إليه، فيكبر به عند الناس، وينازعه مكانةً اجتماعية يطلبها لنفسه.

على أن هذا المحذور لا يعدو أنه نسيج من الأوهام، ولو أنه عقل وتبصر بحقيقة الأمر، لعرف أنّ المجد الذي يظفر به حينما يقبل الحقّ ويرجع إليه من أيّ مصدرٍ أتى أجلّ وأعظم مما يريد المحافظة عليه لنفسه.

فالاستكبار خطة غبية وفاشلة لنيل المجد والمحافظة عليه بين الناس، وذلك لأنّ الناس الآخرين مثله، يعرفون دوافع النفوس، ويحقرون في نفوسهم المستكبرين، ويستصغرونهم، ويعطون المجد الحقيقي للذين يقبلون الحقّ ويرجعون إليه، ولا يستكبرون عنه. الناس يكرهون المستكبرين، ويحبون المتواضعين موطَّئي الأكناف، ويعطون المجد الحقيقي للذين يحبونهم، أما الذين يستكبرون عليهم فيستصغرونهم ويحتقرونهم، وهذا من الجزاء الرباني الساري ضمن سنن الله الاجتماعية التي فطر الله الناس عليها.

يضاف إلى ذلك أنّ الله تبارك وتعالى ييسر للذين يتواضعون ابتغاء مرضاته ما يرفعهم ويعلي أقدارهم، ويضع في طرق المستكبرين عقبات تصدّهم عن بلوغ المجد، ومزالق تزلق بهم إلى المهانة والصغار، فمن استكبر على الحقّ وضعه الله، ومن تواضع لله رفعه الله.

روى البيهقي في شعب الإيمان عن عمر قال ــ وهو على المنبر ــ: يا أيها الناس تواضعوا، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من تواضع لله رفعه الله، فهو في نفسه صغير، وفي أعين الناس عظيم، ومن تكبر وضعه الله، فهو في أعين الناس صغير، وفي نفسه كبير، حتى لهو أهون عليهم من كلبٍ أو خنزير».

إن المجد الذي ناله عمر بن الخطاب بقبوله الحق، ورجوعه إليه، وعدم استكباره في نفسه بما وصل إليه من سلطان لم يكن ليظفر بعشر معشاره لو كان مستكبراً عنيداً، مغروراً بنفسه، معجباً برأيه.

ومن لطائف خوف عمر على نفسه من الكبر، ومن العجب بالنفس، ومن الخيلاء، أنه ركب ذات يوم برذوناً، فجعل هذا البرذون يتبختر به، فأخذ يضربه فلا يزداد إلا تبختراً، فنزل عنه وقال: ما حملتموني إلا على شيطان، ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسي.

وقصته حين مقدمه في فتح بيت المقدس، وما كان فيها من مظاهر تواضعه لله وعدم استكباره في الأرض، قصة معروفة مشهورة، وهي من روائع قصص العظماء، إذ كان يتناوب الركوب هو وخادمه، وكانت النوبة الأخيرة قبيل الوصول أن يركب خادمه الناقة ويكون هو الذي يقودها ماشياً، ووصل إلى القوم وهو يقوم بنوبته هذه، فلم يقلل ذلك من مجد عمر رضي الله عنه، بل زاده مجداً إلى مجد، ومكانة إلى مكانة.

لقد تعلم عمر من الرسول صلوات الله عليه كيف يكون تواضع الفاتحين.

هذا بطر الحق، وهو الجزء الأول من التعريف الذي عرف الرسول ﷺ به الكبر. ويتلخص بطر الحق بأنه جحود الحق مع استهانة به واستعلاء عليه، إرضاء للنفس الأنانية المستكبرة، التي تريد الاستئثار بالمجد والكبرياء في الأرض، وتستعلي عن اتباع غيرها وطاعته، مهما كان الحق والخير في جانبه، وتستعلي عن الرجوع إلى الحق وإن تبيّن لها خطؤها، عناداً وإصراراً على الباطل، وترى أنها أكبر من أن تستجيب لدعوة الحق من غيرها، وأكبر من أن يخفى عنها أمرٌ ويعلمه آخرون.

أما الجزء الثاني من التعريف الذي عرف به الرسول الكبر، وهو «غمط الناس».

الغمط: هو الاحتقار، والازدراء، والاستصغار، وعدم مقابلة الإحسان بالشكر.

فغمط الناس هو احتقارهم، واستصغارهم، والازدراء بهم، والاستهانة بأقدارهم، وعدم شكرهم على إحسانهم، والترفع عن الثناء عليهم بفضائلهم، وعدم الاعتراف بحقوقهم الأدبية وصفاتهم الفاضلة. ويصل طغيان هذا الغمط في أقصى مدِّه إلى محاولة حرب الناس لهدم فضائلهم، وطمس كمالاتهم، وتحقيرهم وتصغيرهم بين الناس بالكذب والزور والبهتان، بغية احتفاظ المستكبر بالمكانة الاجتماعية لنفسه دون الآخرين. فهو إذا لم يستطع أن يعتلي مكانة المجد بكمالاته، فليعلها بتحطيم كمالات الآخرين، وتهديم مكاناتهم الاجتماعية، هكذا تأمره نفسه الشريرة الأنانية المستكبرة.

وعلى مقدار ما يكون في نفس المستكبر من كبر، وحرمان من خشية الله، وعدم تقدير لعواقب الأمور، يكون غمطه للناس، ويخف ذلك متى تناقص الكبر، أوحصلت نسبة من خشية الله، أو كان صاحب هذا الخلق عاقلاً حصيفاً يحسن تقدير عواقب الأمور ونتائجها. ومتى عظمت الخشية من الله، واستقام العقل في تقديره للعواقب، صلح حال الإنسان، وشفي من مرض الاستكبار بغير حق، ووجد أن المجد العظيم الذي يحققه بطاعة الله، والتواضع ابتغاء مرضاته، أجل وأعظم بكثير من المجد الذي تصبو إليه نفسه، ويحاول السعي إليه عن طريق الاستكبار الذي لا يوصل بحالٍ من الأحوال إلى المجد الذي يريده، ولكنه متى سار فيه أشواطاً انهار به، فوجد نفسه في مواقع الضّعة والمهانة والذلة، ورأى الناس يعاقبونه على كبره بالاحتقار والاستصغار.

* * *

تحذير الإسلام من الكبر والغرور بالنفس:

تبيّن لنا أن الكبر من أقبح الانحرافات الخلقية وأسوئها، وأنه قد يدفع بصاحبه إلى جحود خالقه والاستكبار على طاعته، ولذلك شدّد الإسلام في تحريمه والتحذير منه، وشدّد اللائمة على المستكبرين، وأوعدهم بالعقاب الشديد، كما رغب بالتواضع وحث عليه، ومجّد المتواضعين وأثنى عليهم، ووعدهم بالثواب الجزيل.

وفيما يلي طائفة من النصوص الإسلامية في هذا المجال:

١ ـ روى الترمذي بإسناد حسن عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون».

قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيقهون؟ قال: «المتكبرون».

والمتشدقون هم الذين يتكلمون بملء أفواههم، ويتصنعون القول تصنّعاً مع التعاظم به والتعالي على الناس، فيرجع إلى دافع الكبر.

ومن هذا الحديث نلاحظ أن أبغض المؤمنين إلى رسول الله وأبعدهم منه مجلساً يوم القيامة المتكبرون.

٢ ـ وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار».

فالعقوبة الأخروية المقررة لمن ينازع الله تبارك وتعالى في صفتيه الكبرياء والعظمة أن يقذف في النار.

٣ ـ وثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال: «وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله».

٤ ـ المتواضعون لله هينون لينون، وبذلك جاء وصف المؤمنين، روى الترمذي مرسلاً عن مكحول قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمنون هينون لينون، كالجمل الأُنُف، إن قيد انقاد، وإن أنيخ على صخرة استناخ».

٥ ـ وروى الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، عن رسول الله ﷺ قال: «يحشر المتكبرون أمثال الذرِّ يوم القيامة في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجنٍ في جهنم يسمى (بَوْلَس) تعلوهم نار الأنيار، يُسقَوْن من عصارة أهل النار طِينة الخبال».

الأنيار: جمع النار. ونار الأنيار: أي أشد لهب النار، وتصغير المتكبرين في عذاب يوم القيامة، وإذلالهم من كل مكان، عقاب لهم من جنس عملهم.

٦ — وروى الترمذي عن سلمة بن الأكوع قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين، فيصيبه ما أصابهم».

أي: لا يزال يذهب بنفسه مستكبراً منتفخاً متعالياً على خلق الله، متعاظماً بنفسه، حتى يرى أنه فوق الناس في خصائصه الفكرية، أو في خصائصه الجسدية، أو في أعراقه وأمجاده، أو في أتباعه وأولاده، أو في أمواله وأجناده، أو في مكانته في قومه، ويظل يتعالى بنفسه حتى يطغى ويكون جبّاراً من الجبارين، وعندئذٍ يقصمه الله.

إن هذا الحديث يصور حالة تدرج المستكبر في سلّم الاستكبار والانتفاخ، حتى يكون جباراً من الجبارين، وأنه في أول حاله قد لا يكون كذلك. وهذا ما يشاهد في بعض الناس حينما يملكون بعض القوى المادية، التي تمكنهم من بسط سلطانهم في الأرض، إنهم يبدأون بداية صغرى، ثم يترقون في درجات الكبر درجة بعد درجة، حتى يبلغوا الدرجة القصوى، والسبب في ذلك تزايد عامل الغرور بالنفس، حينما تساعدهم الظروف على التسلط، وينفخ في رؤوسهم المتملقون، والمنافقون، والمداحون.

٧ — وروى البخاري ومسلم عن حارثة بن وهب، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتلٍ جوّاظٍ مستكبر».

العتل: هو الجافي شديد الخصومة بالباطل.

الجوّاظ: الجموع المنوع، أو هو المختال المتكبر، أو هو الفاجر.

٨ — وروى مسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زانٍ، وملك كذّاب، وعائل مستكبر».

أي: فقير مستكبر؛ وذلك لأن الفقير من شأنه أن يخفض الجناح،

ولا يستكبر مع فقره إلّا من ازداد لديه خلق الكبر زيادة جعلته منطمس البصيرة عن إدراك واقعه الذي يقتضي منه أن لا يكون مستكبراً.

٩ ــ وروى مسلم عن عياض قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد».

١٠ ــ وأبان الله تبارك وتعالى أنه لا يؤمن بآيات الله عند تذكيره بها إلا الذين يخضعون لربهم ويسبحون بحمده وهم لا يستكبرون، فلا يمنعهم كبر في صدورهم عن الخضوع لله والتسبيح بحمده، قال الله تعالى في سورة (السجدة ٣٢):

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

فدل بهذا على أن عامل الكبر أخطر العوامل الصارفة عن الإيمان بالله وبآياته.

١١ ــ وأثنى الله على الملائكة بأنهم لا يستكبرون عن عبادة ربهم، فقال تبارك وتعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾.

١٢ ــ وروى مسلم عن سلمة بن عمرو بن الأكوع: أن رجلاً أكل عند

رسول الله ﷺ بشماله، فقال له: «كل بيمينك» قال: لا أستطيع. قال: «لا استطعت» ما منعه إلاّ الكبر، فما رفعها إلى فيه.

فهذا الرجل الذي أمره الرسول ﷺ بأن يأكل بيده اليمنى فلم يفعل، واعتذر بأنه لا يستطيع، إنما منعه الكبر أن يطيع الرسول ﷺ فيما أمره به، لذلك قال له الرسول ﷺ: «لا استطعت» فكان جزاء كبره وكذبه أنه صار عاجزاً فعلاً عن أن يرفع يده إلى فيه بعد ذلك.

ففي الحديث أمران:

الأول: استنكار الكبر الذي يمنع صاحبه من الطاعة، واستقباحه وتوجيه الذمّ والعقوبة لصاحبه.

ومعلوم أن الكبر من أقبح الأخلاق التي يقاومها الإسلام، وينهى المسلمين عنها، وهو أخبث عنصر يقذف بصاحبه إلى درك الكفر والجحود والعصيان.

الثاني: استنكار الكذب واستقباحه، وقد دفع الرجل إلى الكذب إرادته تغطية كبره.

١٣ ـ وروى مسلم عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبّةٍ من خردل من إيمان، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبّةٍ من خردل من كبر».

فدلّت هذه الأقوال النبوية على أن المستكبرين أبعد الناس عن الجنة، وأن الكبر والكفر قرينان، إذ لا يدخل النار من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، ولا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر.

ولكن ليس المراد من الكبر ما يشمل رغبة الإنسان بأن يكون مظهره أنيقاً ولباسه حسناً، بل المراد منه كما فسره الرسول ﷺ بطر الحق وغمط الناس. وقد سبق تفسير هذا التعريف النبوي، ففرق الرسول ﷺ بين الكبر وبين المظاهر الجمالية التي قد يدفع إليها الكبر، وقد يدفع إليه حب الجمال والرغبة بالأناقة، وعندئذٍ لا تكون من قبيل الكبر ولا دالة عليه.

والكبر الذي يحرم المستكبر من دخول الجنة، هو الكبر عن الإيمان بالله وبما جاء من عنده وبكل ما أمر بالإيمان به، والكبر عن طاعة الله وكل من أمر الله بطاعته. أما كبر الناس على الناس دون أن يؤثر ذلك على قضيتي الإيمان والطاعة لله فهو من المعاصي الكبرى، ومن الكبائر، إلا أنه لا يخرج من دائرة الإيمان والإسلام إلى دائرة الكفر والحرمان من دخول الجنة.

١٤ ـ وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فيَّ الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة: فيَّ ضعفاء الناس ومساكينهم، فقضى الله بينهما: إنك الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء، وإنك النار عذابي أعذب بك من أشاء، ولكليكما علي ملؤها».

١٥ ـ وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي في حُلّة تعجبه نفسه، مُرَجِّلٌ، رأسه يختال في مشيته، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة».

يتجلجل: يغوص وينزل.

فدلت النصوص على أن الكبر داء يجر إلى أوخم العواقب.

* * *

فضل التواضع ابتغاء مرضاة الله:

وإذْ حرمت النصوص الإسلامية الاستكبار بغير حق، وأبانت أن الكبر من قبائح أخلاق الإنسان، حثّت على التواضع ابتغاء مرضاة الله ورغبت فيه، وأبانت أن من تواضع الله كافأه الله على تواضعه بالرفعة: «وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله». وهذا من سنن الله في عباده، كما أن من استكبر وتعالى على خلق الله أذلّه الله.

ومن الملاحظ أن الناس يحبون المتواضع ويألفونه، ويكرهون المستكبر ويأنفون عنه ولا يألفونه، والسر في ذلك أن المتواضع ينزل نفسه إلى مستوى جلسائه فيعيش معهم بوداعة وانطلاق، ويعيشون معه بمثل ذلك، فيتم بينه وبينهم الإلف والوئام، وذلك يولد المحبّـة، بخلاف المستكبر، فإنه يرفع نفسه

فوق مستوى جلسائه، فيعيش وحده في جوّه النفسي المتعاظم، ويحيط نفسه بسياج شائك، لا وداعة فيه ولا انطلاق، وحين يرى جلساؤه ومعاشروه ذلك منه يبتعدون عنه بنفوسهم فلا يألفونه، ويرونه يضع نفسه فوقهم فيكرهونه. فكلتا الثمرتين من النتائج الطبيعية لكلا العملين.

يضاف إلى ذلك أن المتواضع لا يثير في الناس دافع المنافسة فيكون مألوفاً محبوباً، بخلاف المستكبر فهو يثير في الآخرين دافع المنافسة بقوة، فيكون مكروهاً غير مألوف للنفوس، لا سيما إذا كان هو في نظرهم دون المكانة التي يرفع نفسه إليها.

ولما كان التواضع من الأخلاق التي تملك القلوب بالمحبة، أمر الله رسوله بأن يخفض جناحه للمؤمنين، مع أنه ﷺ رفيع المكانة في نفسه، عظيم المنزلة عند الله، فقال الله تعالى لـه في سورة (الحجر ١٥):

﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

فكان صلوات الله وسلامه عليه يخفض جناحه للمؤمنين، فلا يتعاظم عليهم ولا يستكبر، ويجلس بينهم كواحد منهم، حتى يدخل عليه وهو في أصحابه من لا يعرفه فيقول: أيُّكم محمد؟.

وربما كانت توقفه الأَمَة وتأخذ بيده ليقضي حاجة لها؛ روى البخاري عن أنس قال: إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي ﷺ فتنطلق به حيث شاءت.

وكان من تواضعه تحببه إلى الصغار بالسلام عليهم والمسح على رؤوسهم ووجوهم، روى البخاري ومسلم عن أنس، أنه مرّ على صبيانٍ فسلّم عليهم وقال: كان النبي ﷺ يفعله.

وروى مسلم عن جابر بن سَمُرة قال: صلّيت مع رسول الله ﷺ صلاة الأولى (أي صلاة الظهر) ثم خرج إلى أهله وخرجت معه، فاستقبله ولدان،

فجعل يمسح خدّي أحدهم واحداً واحداً. قال: وأما أنا فمسح خدّي. قال: فوجدت ليده برداً أو ريحاً كأنما أخرجها من جؤنة عطار.

من جؤنة عطار: أي من السلة التي يضع فيها متاعه وعطره.

ولما للتواضع من أثر اجتماعي كبير أوحى الله إلى رسوله بأن يأمر بالمسلمين بأن يتواضعوا. روى مسلم عن عياض قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحد».

ومن تواضع الرسول وسماحة نفسه صلوات الله عليه، أنه كان يشارك أهله في البيت مهنتهنّ وأعمالهن، روى البخاري عن الأسود بن يزيد قال: سألت عائشة رضي الله عنها: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة.

في مهنة أهله: تعني في خدمة أهله.

ومن تواضع الرسول ﷺ أنه قطع خطبته مرة لتعليم جاهل غريب، وأقبل عليه، حتى إذا انتهى منه عاد إلى ما كان فيه، روى مسلم عن تميم بن أُسيد قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يخطب، فقلت: يا رسول الله، رجل غريب جاء يسأل عن دينه لا يدري ما دينه؟ فأقبل عليّ رسول الله ﷺ وترك خطبته حتى انتهى إليّ، فأُتي بكرسي فقعد عليه وجعل يعلمني ممّا علمه الله، ثم أتى خطبته فأتم آخرها.

ومن تواضع الرسول ﷺ أنه ما كان يستكبر عن طعام يدعى إليه مهما قلّت قيمته، تألفاً لقلوب المؤمنين، وتكريماً لهم، وتربية لهم على فضيلة التواضع، وتعظيماً لنعمة الله، روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«لو دعيت إلى كراع أو ذراع لأجبت، ولو أهدي إليّ ذراع أو كراع لقبلت».

* * *

آثار الكبر في السلوك:

ويتولد عن داء الكبر الذي تصاب به النفوس أنواع قبيحة من السلوك الداخلي والخارجي.

فالمستكبر قد يجحد الحق الذي لغيره، ولا يعترف له به، لأنه لا يريد أن يخضع لغيره، أو لا يريد أن يفوق عليه أو يساويه في الامتياز أحد. وحين لا يملك تغيير الواقع فما عليه إلاّ أن يستره بغمطه وجحوده وتنقيصه، وبالتعالي عليه في تصرفات وأعمال من شأنها إشعار الآخرين بأنه ذو امتياز أسمى مما لغيره.

وقد يصل المستكبر إلى مستوى بالغ في الإجرام، إذ يعمل على قتل ما لدى غيره من خصائص تمتاز على ما لديه منها، أو قتل غيره وصرفه من الوجود نهائياً حتى لا يكون له منافساً.

ومتى تمادت الأنفس في استكبارها وغرورها أصابها مسٌّ من الطغيان، وكان كبرها أشبه ما يكون بالطوفان. وطوفان الكبر قد يصل في أقصى مدّه إلى جحود الله والاستكبار عن عبادته وطاعته، وتحدي قوته وقدرته، وجلاله وقهره لعباده، ويقف في أدنى مدّه عند حدود احتقار الناس والازدراء بهم، واستصغارهم، والاستهانة بما عندهم والتعالي عليهم.

والغرور بالنفس ينفخ في صدور المستكبرين حتى يروا أنفسهم عظماء كبراء، وهم في واقع حالهم صغار جداً. إن شعورهم حول أنفسهم شعور هوائي صنعته الأوهام، لا يصاحبه نماءٌ حقيقي فيما تملكه ذات المستكبر من خصائص وقوى معنوية أو مادية.

وربما يُغَشِّي الكبر على البصائر فيعميها عن رؤية الحق حقاً والباطل باطلاً، ومن أجل ذلك تتمادى في طغيانها. وما يزال الغرور بالنفس ينتفخ وينتفخ، وتنتفخ النفس به، حتى تنفجر وتتمزق، أو تصطدم بما يهشمها ويحطمها ويمزقها، وهذا من السنن الربانية الدائمة التي تقدم شواهدها من الواقع الإنساني، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

ومن آثار الكبر في السلوك الظاهر، الهزء والسخرية بالآخرين، واحتقار الناس وازدراؤهم، وحركات: الغمز، والهمز، واللمز، والتعيير، والتنقيص وقد يكون من آثاره أيضاً الغيبة، وفضح العيوب، وكشف نقائص الناس.

ومن آثاره أيضاً التبختر والخيلاء والمرح في المشية، وتصعير الخد، والإعراض عن حديث المتحدث، والنظر الشذر إلى الناس، وجرّ الثوب من الخيلاء، والتطاول في الجسم، والتقعر في الكلام والتشدق فيه، والإجابة بحركات الوجه أو اليدين أو غيرهما من الجسم، كرفع الحاجبين، وغمز العين، وشد الحنك، ومط الشفاه، وإشارة اليد، وإدارة الظهر، والالتفات بالعنق، ورفع الرأس أو خفضه.

ومن آثاره أيضاً الترفع عن مجالسة ضعفاء القوم وفقرائهم ومساكينهم، والترفع عن محادثتهم ومؤاكلتهم ومشاربتهم. ومنها التعصب للرأي والعناد على الباطل رغم وضوح الحقّ، وهكذا إلى أمور كثيرة جداً.

وقد عالج الإسلام آثار الكبر في السلوك، ووجّه إلى الآداب الإسلامية والفضائل السلوكية في هذا المجال، ونورد فيما يلي طائفة من هذه المعالجة:

١ ــ الاستكبار عن الإيمان بالله وعبادته: ولقد أولى القرآن الكريم هذه الظاهرة من ظواهر الكبر عناية عظيمة، ووجّه لها اهتماماً كبيراً، وسنتبين مبلغ ذلك عند الكلام على الذين استكبروا، فكفروا واستنكفوا عن عبادة ربهم، ونقتصر هنا على قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

وقوله فيها أيضاً:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

فأبان الله في هذه النصوص ما لداء الكبر من تأثير قد يبلغ بصاحبه إلى مستوى التكذيب بآيات الله وهي حق، والاستكبار عن اتباع ما جاء فيها من أوامر ونواه، والاستنكاف عن عبادة الله.

وأبان الله أن الأطهار الأبرار الكاملين من عباده لا يستنكفون عن عبادته والخضوع له، فالمسيح عيسى ابن مريم لن يستنكف عن أن يكون عبداً لله، وكذلك الملائكة المقربون لا يستنكفون عن عبادته والخضوع له.

ثم أبان الله عاقبة المستكبرين عن الإيمان به وعن عبادته، فأولئك يعذبهم الله عذاباً أليماً، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، وأولئك محجوبون عن السماء ومعارج الارتقاء، فلا تفتح لهم أبواب السماء، ولا يدخلون الجنة، ولهم من جهنم مكان معدٌ لهم ممهد لعذابهم، وتتنزل من فوقهم غواشٍ من العذاب.

وكذلك جزاء المجرمين والظالمين.

٢ ـ تصعير الخدّ للناس والمرح ومشية الخيلاء: ولقد عرض القرآن النهي عن هذه الظاهرة من ظواهر الكبر في السلوك ضمن وصايا لقمان لابنه، وقد ذكرها الله مؤيداً لها ومشيداً بحكمة لقمان، ففي سياق ذكر وصايا لقمان لابنه يقول الله تعالى في سورة (لقمان ٣١):

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨﴾.

أما تصغير الخدّ للناس فهو إمالة الوجه عنهم على سبيل الإعراض عن استكبار، وأصل الصَّعر ميل في الوجه، وقيل: هو ميل في الخد خاصة، وقيل: هو ميل في العنق وانقلابٌ في الوجه إلى أحد الشقين. وقد اشتهر عند العرب قولهم: صعر فلان خده وصاعره إذا أماله من الكبر، قال الشاعر العربي جرير بن عبدالمسيح، المعروف بلقبه (المتلمِّس):

وكنّا إذا الجبّار صعَّر خدّه   أقمنا له من دَرْئه فتقوّما

أي: كنّا إذا أمال متكبر خده أذللناه حتى يتقوم ميله. من درئه: أي من عوجه، فالدرء: هو العوج في القناة وفي العصا وفي غير ذلك.

وقياساً على تصعير الخدّ نستطيع أن نقول: إنّ كلّ إعراض عن الناس على سبيل الكبر يدخل في ضمن هذه الظاهرة، سواء أكان ذلك في الخدّ، أو في الوجه كلّه، أو في الجسم كله، لأن المعنى في كل ذلك واحد، ولذلك فسّر الفرّاء تصعير الخدّ الوارد في النص بالإعراض من الكبر، وعلى نحو ذلك فسّره غيره، وهذا التعميم يدلّ عليه الغرض العام من النهي.

وأما المشي في الأرض على وجه المرح والاختيال استكباراً على الناس وافتخاراً، وتعالياً عليهم، فهو عمل يبغضه الله ورسوله، إلا إذا كان من ورائه تحقيق غرض مشروع، كالتبختر في مواطن قتال أعداء الله، لإلقاء الوهن والذعر في قلوبهم، مع ابتغاء مرضاة الله في ذلك.

والمرح يأتي في اللغة بمعنى شدة الفرح والنشاط، حتى يجاوز قدره، ويأتي أيضاً بمعنى التبختر والاختيال. فقوله: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾: بمعنى ولا تمش في الأرض مشية تبختر واختيال، ولذلك ختم الله الآية بما يناسب هذا

المعنى، فقال تعالى: ﴿إنّ الله لا يحب كل مختال فخور﴾ أي: لا يحب كل مختال على الناس، مستكبر عليهم بمشيته بينهم أو بإعراضه عنهم، ولا يحب كل فخور على الناس بنفسه، أو بما آتاه الله من قوة، أو مال، أو نسب، أو جاه، أو ذكاء قلب، أو جمال وجه وحسن طلعة.

ومن المعروف أن الامتياز بالخصائص ينبه عرق الصلف، ويغذي جرثومته، ولذلك قال العرب في الحكمة السائرة: آفة الظَّرف الصلف. والظرف في اللسان البلاغة وحسن المنطق، وفي الوجه حسن الصورة، وفي القلب الذكاء وسرعة الخاطر، أمّا الصلف فهو المبالغة في تصنع الظرف حتى يصل إلى درجة الكبر على خلق الله، والاستعلاء عليهم بميزة الظرف.

وقد نهى الله عن مشية المرح بقوله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

وإذْ نهى الله في هذه الآية عن مشية الخيلاء، كشف للمستكبر واقع حاله الصغير، فأبان له أنه حين يضرب الأرض برجله، ويتطاول مستعلياً بقامته على الناس، لن يستطيع أن يخرق الأرض أو أن يبلغ الجبال طولاً، وفي هذا إمعان إشاري بتحقير المستكبر؛ فالأرض التي يمشي عليها أصلب من قوته، والصخور الجامدة المكدّسة جبالاً أطول من قامته مهما تطاول، فلا يزعمن أن شدة الوطء أو تطاول الجسم يمنحانه عِظماً حقيقياً، إنه يقول له فيما أشار به إليه:

مهلاً بنفسك أيها المستكبر المتبختر، إلى أين أنت ذاهب بنفسك متطاولاً بجسمك، إلى جهة الأرض فترفسها بقدميك، وإلى جهة السماء فتنطحها برأسك، هوّن عليك، إنك لن تستطيع أن تخرق الأرض مهما تبخترت عليها، إنك إن تحديتها هشمت جسمك وحطمته. ثم إنك لن تبلُغ الجبال طولاً، مع أنها مهما علت في جسمها عن مستوى الأرض فهي أقل قيمة من الإنسان الذي فضله الله بكمالاته، فلا تحاول أن تكسب المجد بالتبختر والخيلاء على خلق الله، إنّ المجد الإنساني لا يكون بطول الأجسام ولا بعرضها، ولا بتبخترها وضربها الأرض بأقدامها حين مشيها.

يا لهذا من تبكيت للمستكبرين بديع ورائع، إنه يقول لهم: تواضعوا لله، واخفضوا أجنحتكم للمؤمنين من عباد الله، فرب ضعيف مستضعف مدفوع بالأبواب هو عند الله أفضل منكم، وأعظم مجداً وأعلى مكانة، وما تفعلونه لن ينفعكم شيئاً في تحصيل المجد الذي تريدونه لأنفسكم، ولن يعلي أقداركم عند الله أو عند الناس.

لو عقل المستكبرون الذين يختالون ويمشون في الأرض مرحاً لعرفوا أن هذا العمل يصغرهم ويقلل من شأنهم عند الله وعند الناس، فالله لا يحب الذين يستكبرون على عباده، ولا يحب الذين يريدون علواً في الأرض، والناس أيضاً يكرهون من يستكبر عليهم، ويكرهون كل ظاهرة تدل على الكبر في الأنفس إذا رأوها من غيرهم. أمّا المتواضع من غير ضعة ولا مذلّة ولا طلب للدنيا، والهين اللين موطأ الأكناف فإن الناس يحبونه ويألفونه، وإنّ الله يحبه ويكرمه ويرفع قدره. ولذلك جاء في وصف عباد الرحمن أنهم يمشون على الأرض هوناً، أي: مشياً رفيقاً متسماً بالسكينة والوقار، غير مختالين ولا مستكبرين، ولما كان هذا الوصف أوّل وصف يكتشفه المتعرف على عباد الرحمن صدّر الله به ذكر أوصافهم، فقال تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾.

أي: لم يقابلوهم بجهل مماثل لجهلهم، بل أعرضوا مسلّمين عليهم سلام الانصراف.

٣ ــ إطالة الثوب وجره على الأرض على سبيل الكبر: إن هذه الظاهرة قد تكون في تقاليد بعض الشعوب وأعرافهم دالة على الكبر والعجب بالنفس، وعندئذ تكون عملاً غير محمود. أمّا إذا لم تكن هذه الدلالة متعارفاً عليها فإن إطالة الثوب حينئذٍ لا تكون من الأعمال غير المحمودة، وهي حينئذ تشبه إطالة النساء ثيابهن لغرض الستر والاحتشام. وقد كان في عرف العرب أنّ من أطال من الرجال إزاره وجرّه على الأرض كان ذلك دليلاً على كبره وعجبه بنفسه.

فالحكم في هذه الظاهرة قد يتبع العرف السائد كما يتبع أيضاً نية الفاعل وقصده، فمن أطال ثوبه لغرض صحيح غير الكبر لم يؤاخذ على عمله، ومن أطاله بقصد الكبر كان مؤاخذاً عليه. ونحن نعلم أن بعض البلاد الباردة قد تكون إطالة الثياب فيها حاجة مناخية يقصد منها دفع البرد، وعندئذ يكون تقصير الثوب فيها إلى نصف الساق عملاً مخالفاً للعرف السائد، وسلوكاً شاذاً يلفت الأنظار.

فالعرف السائد في المجتمع مع النية والغاية أصلان يرتبط بهما حكم إطالة الثياب إباحة أو منعاً على سبيل التحريم أو على سبيل الكراهة، والعلة في المنع ما في العمل من دلالة على الكبر، ومعلوم في أحكام الشريعة أنها تدور مع عللها وجوداً وعدماً إذا كان لها علل ظاهرة مقررة في الشريعة.

وقد فرق الرسول صلوات الله عليه بين جر الثوب على سبيل الخيلاء وجرّه على غير سبيل الخيلاء، روى البخاري عن عبدالله بن عمر، أن النبي ﷺ قال: «من جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة» فقال أبو بكر: يا رسول الله إنّ إزاري يسترخي إلاّ أن أتعاهده، فقال رسول الله ﷺ: «إنّك لست ممن يفعله خيلاء».

ففي هذا الحديث دليل على أنّ قصد الخيلاء والكبر على الناس بجر الثوب هو الذي يجعل العمل محرماً؛ إذ قيد الرسول ﷺ جرّ الثوب بقيد أن يكون على سبيل الخيلاء، فحين ينعدم هذا القصد في حالة من الأحوال، أو كان معنى الخيلاء لا يفهم أساساً في عرف بعض الناس من جرّ الثوب، فإنّ حكم التحريم لا يتوجه أصلاً.

ويؤكد ما جاء في هذا الحديث ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرّ إزاره بطراً».

أي: جره كبراً أو خيلاء.

وما رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «الإسبال في الإزار والقميص والعمامة، من جرّ شيئاً خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة».

فجعل الرسول ﷺ ذلك مقيداً بقصد الخيلاء.

ولما كان إسبال الإزار في عرف العرب دليلاً على الخيلاء، قال الرسول ﷺ لبعض أصحابه وهو جابر بن سُلَيم: «إياك وإسبال الإزار، فإنها من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة». من حديث رواه أبو داود والترمذي بإسناد صحيح.

وهذا المنع خاص في الرجال، أما النساء فيستحب لهن إطالة ثيابهن لستر مفاتنهن، ولا يعتبر ذلك منهن دليلاً على الكبر والخيلاء، ويدل على هذا ما رواه أبو داود والترمذي بإسناد صحيح عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة» فقالت أم سلمة: فكيف يصنع النساء بذيولهن؟ قال: «يرخين شبراً» قالت: إذن تنكشف أقدامهن، قال: «فيرخينه ذراعاً لا يزدن».

وبهذه المناسبة نلاحظ أنه قد استحدثت مظاهر كثيرة في الأزياء دالة على الخيلاء والتفاخر، وهي أكثر خطراً وضرراً من إطالة الثياب وإسبالها، من ذلك أشكال الثياب وأصنافها وأنواعها وما يبذل في الحصول عليها من أموال كثيرة إسرافاً وتبذيراً، بقصد التفاخر والتعاظم والخيلاء، للنساء والرجال، وقد يلاحظ عند النساء بنسبة أكبر.

ويعاني الناس كثيراً من آثار هذه المشكلة الكبرى التي غزتنا بها المدنية الحديثة، فالناس يتحملون عنتاً كبيراً وأعباء ضخمة من مشكلة التسابق العنيف، في ميدان التفاخر والتكاثر في الثياب والألبسة النسائية، وما يستحدث فيها كل يوم من أشكال وأنواع وأصناف، لا تلبث قليلاً حتى تمسي قديمة ملغاة، غير صالحة للظهور بها في الحفلات والمجتمعات. وربما نجد الفقيرة منهن تملك في خزانتها من الثياب ما يكفيها سنوات عديدة، وتحاول جهدها وبأية وسيلة أن تسابق في ميدان التفاخر والتكاثر، لتساير أحدث المبتكرات، وتفاخر بامتلاك شيء منها، وتجاري بذلك جاراتها وصديقاتها وثريات بيئتها وتحمّل ولي أمرها والمنفق عليها عنتاً شديداً، لترضي غرورها واستكبارها، ونزوعها إلى التفاخر على صواحبها. وهذا من الأمور التي تدفع الرجال إلى اكتساب الأموال من غير

الطرق التي أذن الله بها، ومن الأمور التي أشاعت في الناس سيئة الإسراف والتبذير وعندئذ تتعقّد المشكلة تعقداً كبيراً وتصعب الحياة في جو مشحون بالتفاخر والتكاثر والخيلاء، والتبذير والإسراف الكثيرين.

والسبب في ذلك كله دافع الكبر وحبّ الاستعلاء، ولذلك نهى الإسلام عن التفاخر على أي وجه كان. روى مسلم عن عياض قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنّ الله تعالى أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحدٌ على أحد، ولا يفخر أحد على أحد».

وقد دلنا هذا الحديث على أنّ الكبر وترك فضيلة التواضع له نتيجتان في المجتمع:

الأولى: بغي الناس بعضهم على بعض.

الثانية: تفاخر بعض الناس على بعض وإيذاؤهم في ذلك، ولهذه ذيول وعواقب كثيرة السوء.

٤ ــ الاستهزاء والسخرية والهمز واللمز والتنابز بالألقاب، وما يلحق بهذه الخصال القبيحة من مظاهر في السلوك لخلق الكبر في النفوس:

إن الإسلام ذمّ هذه الخصال وقبّح شأنها، ونهى عنها، وحذّر من ارتكاب إثمها والولوغ في رِجسها. واهتماماً بخطرها على وحدة المجتمع، وما تولده من فرقة وتقاطع وخصام، تولى القرآن الكريم بالذات النهي عنها والتحذير منها، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾.

إنّ الإنسان حينما ينفخ في نفسه الغرور، فيرى أنه كبير عظيم، ويرى غيره من الناس أصغر منه وأقل شأناً، فإنه يشعر نحوه بنوع من الاستعلاء، وهذا الشعور يجعله يترفع عن الذين يستصغرهم، فإذا أحوجته الظروف الاجتماعية إلى التّماسّ معهم، فإنه يجد نفسه مدفوعاً إلى إبراز استعلائه عليهم بأنانية مستكبرة، وهنا يعبث الشيطان بنفسه، أو تعبث نوازع الكبر، فيحاول أن يتصيد أي شيء لتحقيرهم وتصغيرهم في المجتمع الذي أحوجه إلى التماسّ معهم، أو المشاركة لهم في قول أو عمل أو أي مجالٍ من المجالات، فإذا ظفر بعيب في الجسم، أو بعيب في القول، أو بنقصٍ في الرأي، أو بمخالفة للمعتاد في الحركة أو المشي أو اللباس، أسرع إلى لفت الأنظار إليه والاستهزاء به والسخرية منه، وإذا لم يظفر بشيء من ذلك حاول أن يتصيد من أسمائهم أو ألقابهم ما يكون مثاراً للهزء والسخرية، فإذا لم يظفر بشيء من ذلك تصنع مثيرات الهزء والسخرية تصنعاً دون أي أساس لها من الواقع، كل ذلك يفعله ظلماً وعدواناً إرضاء لاستكباره واستعلائه بنفسه.

وقد يلتقي مع دافع الكبر لوجود ظواهر الاستهزاء والسخرية والهمز واللمز والتنابز بالألقاب، دوافع أخرى، كالحسد، والحقد والعداوة أياً كان سببها والرغبة بالضحك والتسلية، والشعور بالنقص.

وقد توجد هذه الظواهر بتأثير دوافع غير دافع الكبر ودون أن يكون دافع الكبر مشاركاً لها.

والهزء والسخرية في اللغة مترادفان، وكل منهما يطلق على ما يطلق عليه الآخر.

وأمّا اللمز: فهو الإشارة على سبيل التحقير والتنقيص ببعض حركات الوجه، مع كلام خفي يتضمن ذلك بحضور من يراد تحقيره وتنقيصه.

وأما الهمز: فهو نظير اللمز، ولكن في غيبة من يراد تحقيره وتنقيصه، ودون اشتراط إخفاء الكلام.

والأصل في اللّمز والهمز الطعن والضرب الماديان، ثمّ استعملا في الطعن والضرب المعنويّان.

وهما من الظواهر التي قد يدفع إليها خلق الكبر والاستعلاء على الناس، فالغاية منهما كالغاية من الهزء والسخرية.

وأمّا التنابز بالألقاب: فهو التداعي بالألقاب التي فيها إساءة وذمّ، وذلك بأن يطلق إنسان على إنسان لقباً يُشعر بذمٍ له، أو فيه تحقير أو تنقيص، أو غضّ من كرامته، أو خفض من مكانته.

يقال لغة: نَبَزَهُ يَنْبِزُه نَبْزاً إذا لقّبه بلقب ما، ويكثر استعمال النَبْز في ألقاب الذمّ، ويسمّى اللّقب نَبَزاً وجمعه أنباز.

وهنا نلاحظ أنّ بعض الناس يظلمون إخوانهم، فينبزونهم بألقاب قبيحة، ليخفضوا من شأنهم بين الناس، ويحاولون أن يجعلوا هذه الأنبازَ القبيحة لاصقة فيهم، إذلالاً لهم وتحقيراً.

وفي ضوء ما عرفنا سابقاً نستطيع أن نقول: إنّ التنابز بالألقاب قد يكون ظاهرة من ظواهر الكبر الذي له جذور دفينة في النفوس، فهو يدفع إلى تحقير الآخرين وتصغيرهم وخفض مكاناتهم ظلماً وعدواناً، أو يجعل صاحبه في أدنى الأحوال يُسرّ بذلك ويرتاح له إذا حصل، ولو لم يكن هو الظالم به. ويظهر ذلك في مثل قول بعضهم: لم أفعله ولم يسؤني، ويظهر أيضاً في المشاركة بالضحك أو الإعجاب أو نحوهما، والذي يشارك في شيء من ذلك يشارك في تحمّل الإثم.

إنّ الذي يهزأ أو يسخر من أخيه المسلم، أو يلمزه، أو يهمزه، أو ينبزه بلقب قبيح يكرهه، أو يشارك في شيء من ذلك بضحك أو إعجاب أو ارتياح، يعتبر في نظر الشرع مرتكب عمل من أعمال الفسوق، لأنه ظالم حقّ أخيه المسلم عليه، ولذلك قال الله تعالى في الآية: ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ أي: بئس أن يطلق عليهم أنهم فاسقون، فيوصفوا بهذا الوصف بعد أن تحلّوا بأنهم مؤمنون.

وفي قوله تعالى في الآية: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ إشعارٌ بوحدة جماعة المسلمين، فهم كجسد واحد، فمن آذى نفس أخيه فكأنما آذى نفسه.

٥ ــ الترفع عن مجالسة الفقراء والمساكين والضعفة من الناس: فمن ظواهر الكبر الطبقي ترفع فريق من ذوي الغنى والجاه أو الحسب والنسب، عن مجالسة الفقراء والمساكين والضعفة من الناس، حتى يجعلهم هذا الكبر جفاةً لخير كثير لمجرّد وجود فريق من الناس يرون أنهم يقعون من دونهم في المستوى الفكري أو العلمي، أو في الطبقة الاجتماعية.

وهذا الكبر الطبقي الذي قاومه الإسلام قد كان السبب في صدّ كثير من الناس عن الإسلام، وهو يصدّ كثيراً من الناس عن حضور مجالس العلم ومجالس العبادة ومجالس الخير العامة.

لقد أنف فريق من ذوي الوجاهة والمكانة من المشركين أن يجلسوا مع رسول الله ﷺ لاستماع ما عنده، بسبب وجود عبيد وفقراء ومساكين من المسلمين يجلسون عند رسول الله ﷺ ويلازمون مجامع الخير والعلم والذكر، فطلبوا منه صلوات الله عليه أن يطردهم من مجالسه، أو يخصّص مجالس للرؤساء وذوي المكانة حتى يجتمعوا به فيها، فتكون لهم مزيتهم الطبقية بين العرب، فنهاه الله تبارك وتعالى عن تلبية مطالب هؤلاء المستكبرين عن مجالسة مساكين المسلمين وفقرائهم، أمثال خبّاب وعمّار بن ياسر وسلمان الفارسي وصهيب الرّومي وبلال الحبشي.

وفي هذا روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا ــ وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل، وبلالٌ ورجلان لستُ أسميهما ــ فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء أن يقع، فحدّث نفسه، فأنزل الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ

﴿مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

وروي أن عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، ومطعم بن عديّ، والحارث بن نوفل، وعمرو بن نوفل، وأشراف بني عبد مناف من رؤساء المشركين، أتوا أبا طالب عمّ الرسول ﷺ، فقالوا: يا أبا طالب، لو أنّ ابن أخيك محمداً يطرد موالينا وحلفاءنا، وهم عبيدنا وعتقاؤنا، لكان أعظم في صدورنا، وأدنى لاتباعنا إياه، فأتى أبو طالب إلى النبي ﷺ فحدّثه بالذي كلّموه به، فقال عمر لرسول الله ﷺ: لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذي يريدون وإلى ما يصيرون، فنهاه الله عن إجابة طلبهم، ونزل في ذلك قوله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

وروي أن خباباً وسلمان قالا: فينا نزلت هذه الآية، إذ جاء الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاري، وعباس بن مرداس، وذووهم من المؤلفة قلوبهم، فوجدوا النبي ﷺ جالساً مع أناس من ضعفاء المؤمنين، فلما رأوهم حوله حقروهم وأنفوا من مجالستهم، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، لو جلست في صدر المسجد، ونفيت عنا هؤلاء، فجالسناك، وحادثناك، وأخذنا عنك، فقال رسول الله ﷺ: ما أنا بطارد المؤمنين، قالوا: فإنا نحب أن تجعل لنا معك مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا، فإنّ وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا مع هؤلاء الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت، فقال رسول الله ﷺ: نعم. قالوا: فاكتب لنا

كتاباً، فدعا بالصحيفة وبعلي رضي الله عنه ليكتب ونحن قعود في ناحية، فنزل جبريل بالآية، فرمى صلوات الله عليه بالصحيفة ودعانا، فأتيناه وجلسنا عنده، وكنا ندنو منه حتى تمس ركبتنا ركبته، وكان يقوم عنا إذا أراد القيام، فلما نزل قوله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

ترك القيام عنا، حتى نكون نحن الذين نقوم عنه.

فالله تبارك وتعالى يأمر رسوله ﷺ بأن يصبر نفسه مع فقراء المؤمنين وضعفائهم، وذلك بأن لا ينصرف عنهم كراهيةً لمجالستهم بسبب حالتهم الاجتماعية، وينهاه عن أن يصرف نظره عنهم إلى غيرهم مريداً لزينة الحياة الدنيا، وفي هذا إلزام له بأن يكون متواضعاً لهم، مؤانساً، مجالساً، معلماً، وأباً رحيماً، حانياً عليهم، رؤوفاً بهم، خافضاً جناحه لهم، غير مستكبر عليهم. أما زينة الحياة الدنيا التي نهاه الله عن إرادتها في هذا المجال فالذي يبدو من السياق ــ والله أعلم ــ أن لا يتطلع إلى مجالسة الأشراف والأغنياء وأهل المكانات الاجتماعية العالية، منصرفاً عن فقراء المؤمنين وضعفائهم، الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه. ولما كان أصحاب الكبر الطبقي يطلبون من الرسول ﷺ أن يطرد الضعفاء والفقراء عن مجالسه، ويتخذون ذلك تعلّة يبررون بها إعراضهم عنه، ولما كان حرص الرسول ﷺ على جلب الأشراف والأغنياء للإسلام قد يزين له الاستجابة لطلبهم، قال الله له: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه وكان أمره فرطاً﴾ أي: وكان أمره ضياعاً وهلاكاً، أو وكان أمره متجاوزاً الحدّ، والكبر الطبقي الصارف عن الهدى تجاوز كبير عن الحد الذي تقبله العقول السليمة، والحقوق الإنسانية المثلى.

أما ما جاء فيما رواه مسلم عن سعد بن أبي وقاص، من أن الرسول ﷺ

وقع في نفسه شيء، فحدث نفسه، إذ قال له المشركون: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا، فأنزل الله عليه قوله: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم. . .﴾ الآية.

فالظاهر أنه كان نوعاً من ملاينة ذوي المكانة والجاه حتى يدخلوا في الإسلام، وكان ما أنزل الله عليه عندئذ توجيهاً له أن لا ينظر إلى المكانات الطبقية التي تواضع عليها الناس، وسيطرت على مفاهيمهم.

إنه لم يكن في نفس الرسول ﷺ شعور بأي تمييز طبقي، إلا أن رغبته بإسلام كبراء القوم ربما جعلته يحدث نفسه بأن هؤلاء إذا أسلموا أسلم معهم جماهير كثيرة من أقوامهم، وطمعاً بإسلامهم ربما حدث نفسه بملاينتهم بعض الشيء، وبتلبية بعض مطالبهم، كما جاء في بعض الروايات، لكن مثل هذه الملاينة قد يفهم منها عدم معارضة المفاهيم الجاهلية الطبقية في مسيرة الدعوة، فحذر الله رسوله من الاستجابة لمطالب كبراء المشركين في طرد ضعفاء المؤمنين، إصراراً على إلغاء الطبقيات الجاهلية.

ونظير ذلك معاتبة الله له من أجل الأعمى ابن أم مكتوم، لأنه تولّى عنه اشتغالاً بدعوة كبراء المشركين إلى الإسلام.

وتبدو واضحة نفثات الكبر الطبقي في مقالة كبراء المشركين عن ضعفاء المؤمنين: «لو كان خيراً ما سبقونا إليه» كأن السبق إلى الأخذ بالخير من خصائص الكبراء والأغنياء، وأما غيرهم فيجب أن يكونوا دائماً متخلفين عنهم وتابعين لهم، وقد ذكر الله مقالتهم هذه بقوله في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

إن العنجهية الجاهلية المستكبرة لتنضح من مقالتهم هذه نضحاً غير شريف، وكل إناء بالذي فيه ينضح، وإذ لم يهتدوا بهذا القرآن ولم يتبعوه، فسيقولون عنه: هذا إفك قديم، ليبرروا إعراضهم عنه ورفضهم لاتباعه،

وكذلك كل من رفض اتباع حق حاول تغطية رفضه لاتباع الحق باتهام الحق نفسه بأنه باطل.

وقد سبق مستكبرو قوم نوح مستكبري مشركي العرب في مقالتهم إذ قالوا لنبيهم: (وما نراك اتّبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي) وإذ طالبوه بأن يطرد هؤلاء الأراذل عن مجالسته، وجعلوا ذلك تَعِلَّة برروا بها كفرهم به وتكذيبهم له. وهم يعنون بالأراذل ناقصي المكانة الاجتماعية كالفقراء والضعفاء، ويزعمون أن هؤلاء متسرعون لا عقل عندهم ولا روية لهم، يتبعون بادي الرأي، أي: ظاهر الرأي وأوله، دون أن يكون منهم تدبر وتعمق في الفكر، ويكتفون بما بدا لهم من رأي فيتبعونه، فمن العقل أن لا نسير في الطريق الذي يسيرون فيه.

ونجد الإخبار عن مقالة مستكبري قوم نوح في قول الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

وفي قول الله تعالى في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ؟ ﴿١١١﴾ ﴾.

فأطلقوا بمقالتهم نفثة الكبر الطبقي في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء.

ومن أمثلة الكبر الطبقي قول مشركي قريش: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، أي: مكة والطائف، قال الله تعالى في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

ومن أمثلة الكبر الطبقي، ما كان من بني إسرائيل حينما طلبوا من نبيهم حزقيل أن يعين لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله، قال: هل عسيتم إن كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا؟ قالوا: وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله، وقد أخرجنا من ديارنا وأموالنا؟! قال لهم: إن الله قد جعل لكم طالوت ملكاً ــ ولم يكن طالوت من السبط ذي المكانة الطبقية الرفيعة في أسباط بني إسرائيل ــ فقالوا له معترضين: أنى يكون له الملك علينا، ونحن أحق بالملك منه؟ قال لهم نبيهم: إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم.

وهكذا كان اعتراضهم ناشئاً عن كبرهم الطبقي.

* * *

تربية نبوية لانتزاع جذور الكبر الطبقي:

وفي تربية الرسول ﷺ أصحابه على انتزاع جذور الكبر الطبقي من نفوسهم، وإلغاء التفاضل بغير التقوى والعمل الصالح والصفات الشخصية ذات الاعتبار في المفاهيم الإسلامية:

١ ــ روى مسلم عن عائذ بن عمرو المزني ــ وهو رجل من أهل بيعة الرضوان ــ أن أبا سفيان أتى على سَلْمان وصهيب وبلالٍ في نفر، فقالوا: ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها، فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريشٍ وسيدهم؟؟! فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال:

«يا أبا بكر لعلك أغضبتهم؟ لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك».

فأتاهم فقال: يا إخوتاه، آغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي.

آغضبتكم: أي أأغضبتكم؟ بتسهيل الهمزة الثانية.

٢ ـ وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

«رُبَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه».

أشعث أغبر: أي ملبد الشعر مغبره.

٣ ـ وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أن امرأة سوداء كانت تَقُمُّ المسجد، أو شاباً، ففقدها أو فقده رسول الله ﷺ فسأل عنها أو عنه، فقالوا: مات، قال:

«أفلا كنتم آذنتموني به». فكأنهم صغّروا أمرها أو أمره، فقال:

«دلوني على قبره». فدلوه، فصلى عليه ثم قال:

«إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها، وإن الله ينورها لهم بصلاتي عليهم».

تَقُمُّ المسجد: أي تزيل القمامة والأوساخ منه.

آذنتموني به: أي أعلمتوني به.

من هذه الأحاديث يتبين لنا أن الإسلام ألغى مفاهيم التفاضل الطبقي على أساس المال والحسب، أو الأصل والنسب، أو الولاية والمنصب، أو اللون والعرق، وعمل على تربية المسلمين على ذلك، وغرسه في أخلاقهم الاجتماعية.

فإذا خرج بعض المسلمين عن هذا المبدأ الاجتماعي العظيم في الإسلام فذلك لنزعة جاهلية فيه، ومتابعة لأهواء الأنفس، واغترار بزخرف الحياة الدنيا ومظاهرها التي لا قيمة لها في الحقيقة.

وعلى هذه المفاهيم الإسلامية في إلغاء التفاضل الطبقي الجاهلي ربّى

الرسول ﷺ أصحابه، فمن ذلك تخويف الرسول ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه من غضب الله، إذا هو أغضب بعض ضعفاء المؤمنين، في تلويم يسير وجّهه أبو بكر لهم، لأن هذا التلويم كان فيه رائحة مشاعر التفاضل الطبقي، مع أن الإسلام قد ألغاه وسوى بين المسلمين. وربما كان أبو بكر قد رأى أنه ليس من الأدب الاجتماعي أن يوجه هؤلاء النفر من المؤمنين ما وجهوه من كلام ضد شيخ قريش وسيدهم، حتى لا تتحرك فيه النزعة الجاهلية، وحتى يظل قلبه مؤلفاً على الإسلام.

ومن ذلك تأديب الرسول ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه، في تغاضبه مع بلال الحبشي رضي الله عنه.

فقد تغاضب أبو ذر وهو عربي من غفار مع بلال الحبشي مولى أبي بكر رضي الله عنهم، وتطور النزاع بينهما إلى أن أخذت أبا ذرّ الحدّة، فقال لبلال: يا ابن السوداء. فشكاه بلال إلى النبي ﷺ، فقال رسول الله لأبي ذرّ: طفّ الكيل، أتعيره بأمه، إنك امرؤ فيك جاهلية.

قال أبو ذر: على ساعتي هذه من كبر السن؟ ـ ظاناً أن قصد الرسول بالجاهلية ما يعتري الشباب من طيش يخرجهم عن حد الاعتدال ـ فقال له الرسول صلوات الله عليه: «نعم هم إخوانكم» أي والأخوة تستلزم التحقق بمعنى إلغاء فوارق العرق واللون واللغة والطبقة الاجتماعية.

فندم أبو ذر رضي الله عنه وتاب، حتى إنه أمر بلالاً أن يطأه على وجهه، مبالغة منه في إعلان التوبة والندم، واسترضاء لبلال مما عيره به من سواد أمه.

وهكذا رفع الإسلام من شأن الضعفاء في المجتمع، حتى سوّاهم بغيرهم من ذوي المكانات، وحصر التفاضل بالعناصر الشخصية الذاتية من علم وعمل، وأبان أن التفاضل عند الله بالتقوى والعمل الصالح: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

وبناء على هذا فرب أشعث أغبر يزدريه الناس فيدفعون الأبواب في

وجهه، هو صاحب مكانة عظيمة عند الله بسبب تقواه، فلو أقسم على الله في أمر من الأمور، فقال مثلاً: والله ليحدثن هذا الأمر، اعتماداً على أنّ الله سوف لا يخيب ثقته به، لأبرّ الله قسمه.

وفي تربية الرسول ﷺ العملية للمسلمين كان يشعرهم دائماً باهتمامه وعنايته بشأن فقراء المسلمين وضعفائهم، فمن ذلك قصته مع المرأة الفقيرة السوداء التي كانت تقم المسجد، فلما ماتت ودفنت دون إعلامه بشأنها، عاتب أصحابه على كتم موتها عنه، وسعى إلى قبرها وصلى عليها. وتردّد راوي الحديث هل هي امرأة أو رجل.

ورغم كل ألوان التربية الإسلامية في هذا الموضوع، يظل من الصعب على الناس أن يتحرروا من تأثير مظاهر الحياة الدنيا وما يملك الناس منها، لدى تقرير بعضهم قيمة بعضٍ الاجتماعية.

فرغم إلحاح التربية الإسلامية وتعاليم نصوصها على أن التفاضل بين الناس ينبغي أن يقتصر على التفاضل في القيم الحقيقية ـ وهي التي تستند إلى مقدار العلم والعمل الصالح والخصائص ذات الفضل الحقيقي ـ يظلّ الناس مشدودين إلى الأرضيات والمظاهر الخادعات، كالمال والحسب، والعرق والنسب، والمنصب والجاه، فإذا نظروا في أقدار الناس الاجتماعية وضعوا هذه الأمور وما شابهها نُصب أعينهم، وقاسوا أقدار الناس بها، وقوّموهم على مقدار ما يملكون منها.

وليس هذا جديداً في الناس، بل هم كذلك في كل عصر وفي كل مصر، وفي كل قوم وفي كل أمة، وقد جاء الإسلام فهدّم من هذه المفاهيم الخاطئة تهديماً كثيراً، وعمل على تربية المسلمين تربية عملية تحرّرهم من سلطان هذه المفاهيم على نفوسهم ومشاعرهم. وربما امتحن الرسول ﷺ بعض أصحابه ليرى مدى تحرّرهم من سلطان هذه المفاهيم، فإذا وجد أنهم ما زالوا غير متحررين منها صحّح لهم مفاهيمهم، وأرشدهم إلى المقياس الحقيقي الذي يجب أن تقاس به أقدار الناس، وإلى الصفات الذاتية التي بها يتفاضلون حقّاً.

فمن ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن سهل بن سعد الساعدي قال: مرّ رجلٌ على النبي ﷺ، فقال لرجل عنده جالس:

«ما رأيُكَ في هذا؟».

فقال: رجلٌ من أشراف الناس، هذا والله حريٌّ إن خطب أن يُنكح وإن شفع أن يشفّع. فسكت رسول الله ﷺ.

ثم مرّ رجلٌ، فقال له رسول الله ﷺ: «ما رأيك في هذا؟».

فقال: يا رسول الله، هذا رجلٌ من فقراء المسلمين، هذا حريٌّ إن خطب أن لا يُنكح، وإن شفع أن لا يشفّع، وإن قال أن لا يُسمع لقوله. فقال رسول الله ﷺ:

«هذا خير من ملء الأرض مثل هذا».

أي هذا الذي تقول في شأنه بحسب مقياسك المادي ما تقول من نزول في قيمته الاجتماعية، هو خير من ملء الأرض من مثل ذلك الرجل الذي عظمت من شأنه وقدره بين الناس.

فصحّح الرسول ﷺ نظر الرجل إلى الأمور، ووجهه ضمناً للمقياس الحقيقي الذي تقاس به الفضائل، وتقوّم به أقدار الناس، بعد أن امتحن مدى تأثير المفاهيم الإسلامية في هذا المجال على نفسه. ورأى أنه لم يستطع أن يتحرّر من المفاهيم غير الإسلامية، ذات السلطان القوي على نفوس الناس بحكم العادات والتقاليد، وبتأثير المظاهر الخادعة، وتعلق النفوس بزينة الحياة الدنيا.

وقد أبان الرسول ﷺ أن قيم الحياة الدنيا ومفاهيمها الخاصة بها تتلاشى عند الله يوم القيامة، فلا جاه يومئذ من جاه الدنيا ولا نسب، ولا مال ولا نشب، ولا مناصب ولا وزارات، ولا ملك ولا إمارات، ولا جبّارون ولا طغاة، ولا متكبرون ولا عتاة، ولكن إيمان وتقوى وعمل صالح وإخلاص في ابتغاء مرضاة الله.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال:

«إنه ليأتي الرجلُ العظيم السّمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة».

فالعِظَم والسِّمَن وضخامة الأجسام وما يشبه ذلك من مظاهر ليس لها ثقل في ميزان قيم الناس وأقدارهم يوم القيامة.

إن الموازين تختلف، فلكل نوع من الأنواع ولكل جنس من الأجناس ميزان يزن خصائصه، فالميزان الذي توزن به البقول، لا يشبه الميزان الذي توزن به العقول. والميزان الذي توزن به الأقطان، لا يشبه الميزان الذي يوزن به الوجدان. وما توزن به الأحمال، غير الذي توزن به الأعمال.

وكذلك في الماديات، فموازين للحرارة، وأخرى للكثافة، وغيرها للضغط، وهكذا. وكل واحد منها لا يحسّ بأية قيمة من القيم التي يحسّ بها الآخر.

وميزان يوم القيامة لا يثقله إلّا الإيمان والتقوى والعمل الصالح الخالص لوجه الله عز وجل. ومن أجل ذلك يأتي الرجل العظيم السمين الضخم يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، لأنه لا يحمل من القيم المعتبرة عند الله ما يثقل به ميزانه. ويومئذ تكون القيم التي كان الناس يفتخرون بها في الدنيا قيماً مزيّفة خادعة لا وزن لها.

وفي طليعة من تَخِفُّ موازينهم يوم القيامة الجبارون والمتكبرون، وهؤلاء تهوي رؤوسهم في جهنم. وفي طليعة من تثقل موازينهم يوم القيامة فقراء المؤمنين ومساكينهم إذا كانوا صالحين.

روى مسلم عن أبي سعيد الخدري، أن النبي ﷺ قال:

«احتجت الجنّة والنار، فقالت النار: فيّ الجبّارون والمتكبرون. وقالت الجنّة: فيّ ضعفاء الناس ومساكينهم. فقضى الله بينهما: إنّك الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء، وإنّك النار عذابي أعذّب بك من أشاء، ولكليكما عليّ ملؤها».

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾.

أمّه هاوية: أي أمّ رأسه هاوية في نار جهنم. أو المصير الذي ينتهي إليه فيكون بمثابة أمّه التي يرجع إليها عند الفزع هي (هاوية) المفسرة بأنها نار حامية؛ فتكون هاوية على هذا اسماً من أسماء النار، أعاذنا الله منها، وجعلنا ممّن ثقلت موازينهم.

* * *

أمثلة من المستكبرين الذين صرفهم كبرهم عن اتباع الحق:

نستعرض فيما يلي أمثلة من الذين رفضوا الطاعة واتباع الحق بدافعٍ من كبر نفوسهم:

١ ــ لقد كان تمردُ إبليس عن طاعة ربه، وانحيازه إلى تَهْلُكَة الكفر، من آثار خُلُق الكبرِ في نفسه، والعُجْب بعنصريته، فالباعث له على الكفر انحراف خلقي جرثومته الكبر والعجبُ بالنفس، هذه حقيقة دلّتنا عليها نصوص قرآنية كثيرة، منها قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

فبيّن الله تبارك وتعالى أنّ الباعث لإبليس على الكفر قد كان استكباره عمّا أمره الله به من السجود لآدم.

لقد أبى أن يسجد، وكان هذا مظهراً في السلوك، ولقد استكبر في نفسه، وكان هذا هو الدافع والمحرك له حتى أبى، ولذلك قال الله تعالى في الآية: ﴿أبى واستكبر﴾ فدلّ بهذا على الخُلُق الدافع والمظهر السلوكي له.

وجاء بيان هذا الدافع النفسي فقط دون ذكر مظهر الإباء، في قول الله تعالى في سورة (ص ٣٨):

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن

رُوحِى فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ
وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ
مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ
رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

لقد جرّ إبليس إلى هذا المنحدر السحيق واللعنة الكبرى استكباره وعُجْبه بنفسه، وإصرارهُ على باطله، وعدمُ توبته ورجوعه إلى الحقّ، وكانت عقوبته من جنس ذنبه، إذ طرده الله من مواطن رحمته وجعله من الصاغرين، قال تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

وقد اتبع إبليسَ في سنته السيئة هذه كثيرٌ من الذين كفروا من الناس.

٢ ــ وكان السبب الأعظم في كفر فرعون وجنوده استكبارهم في الأرض بغير الحق، دلّ على هذا قول الله تعالى في سورة (القصص ٢٨):

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى
يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ
مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا
لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ
ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

وأكد القرآن أمر استكبار فرعون وملئه في عدّة نصوص، نظراً إلى أنّ

الكبر قد كان يمثل العامل الرئيسي الخطير في كفرهم، من ذلك قول الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

وقد عرفنا أن عاقبة استكبارهم كانت إهلاكاً وإذلالاً، ويوم القيامة لهم عذاب مهين، وصغَار شديد.

٣ ــ وثمود ــ وهم من القبائل العربية البائدة ــ أرسل الله لهم صالحاً نبياً ورسولاً، فاستكبر قادتهم عن اتباعه، فكذّبوه وكفروا به، واتّبعهم في ذلك بعض المستضعفين، قال الله تعالى في سياق الحديث عنهم في سورة (الأعراف ٧):

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

٤ ــ وأهل مدين قومُ شعيبٍ كذلك، فقد استكبر قادتهم وزعماؤهم

عن اتّباع شعيب عليه السلام، فكذبوه وكفروا بربّهم، قال الله تعالى في سياق الحديث عنهم وعن رسولهم في سورة (الأعراف ٧):

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ؟ (٨٨) ﴾.

٥ ـ وعادٌ ـ وهم من القبائل العربية البائدة ـ كذلك فقد استكبروا في الأرض بعد الحقّ، وكذّبوا رسولهم هوداً عليه السلام، قال الله تعالى في سورة (فصلت ٤١):

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (١٦) ﴾.

ونلمح أن معاقبتهم بعذاب الخزي يلائم استكبارهم في الأرض بغير الحقّ.

٦ ـ وقوم نوح من قبلُ كانوا كذلك، فالأمم تتشابه في تصرفاتها، وتحكمها سنن واحدة، وإن اختلفت في وسائلها وبعض أعمالها ومظاهر سلوكها، تبعاً لاختلاف بيئاتها وتقاليدها ومفاهيمها، وقد أخبرنا الله عنهم بقوله في سورة (نوح ٧١):

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) ﴾.

وهكذا لم يترك نوح عليه السلام وسيلة من الوسائل النافعة في الدعوة إلّا

اتخذها، إلّا أن قومه قد صدّهم عن اتباعه عوامل نفسية مختلفة، أبرزها وأخطرها الكبر.

٧ ــ وبنو إسرائيل أصابهم داء الكبر الذي أصاب من قبلهم بالإضافة إلى انحرافات خلقية أخرى صرفتهم عن الاستجابة للحق، ولذلك خاطب الله اليهود بقوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

فقد وصفهم الله في هذا النصّ بأنّ المحرض لهم على الكفر برسلهم استكبارهم عن الطاعة، إذ تأتيهم رسلهم بما يخالف أهواء نفوسهم. ويظهر أنّ نزعة الاستكبار كانت داء عظماء يهود، وأحبارهم، وذوي الرياسات الدينية فيهم من فريسيين وكتبة وكهنة. ورغم ما عانوه في تاريخهم الطويل من ذلّ وهوان، إلّا أنّ عقدة الكبر ــ التي تستند إلى زعمهم أنهم شعب الله المختار وأنهم أبناءُ الله وأحباؤه ــ لا تفارقهم مهما كانوا في مواقع الذل والضعة والمسكنة، وقد قابلوا رسلهم من بني إسرائيل بهذا الكبر، ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون.

ولما جاء الإسلام ودعاهم الرسول ﷺ إلى الإيمان به تحركت فيهم عدّة منحرفات خلقية، منها الحسد، ومنها نزعة الكبر، وتظهر نزعة الكبر في قولهم: «قلوبنا غُلْف» كناية عن عدم حاجتهم إلى علوم ومعارف دينية تأتيهم، كأنهم يقولون للرسول في هذا: لسنا بحاجة إلى العلوم والمعارف الدينية التي عندك، إذ عندنا من العلوم الدينية ما ملأ قلوبنا، حتى صارت لا متّسع فيها لواردات جديدة، وحتى صارت مغلّفة كما تغلف السلع والأمتعة والبضائع ويختم عليها لتسفيرها، فتمسي غير قابلة لإضافة جديدة إليها، فهي صماء عن سماع ما تدعوننا إليه. ولما كان غرضهم إعلان امتلاء قلوبهم بالمعارف والعلوم الدينية

رد الله دعواهم هذه بقوله: ﴿بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون﴾ أي: إن صدودهم عن تلقي ما جاء به الرسول من كتاب الله والحكمة، إنّما هو لعنةأصابتهم من الله بسبب كفرهم الذي أصرّوا عليه، واختاروه لأنفسهم طريقة حياة، قبل بعثة محمد وبعد بعثته. فإصرارهم على الكفر وعنادهم هو الذي سبّب لهم اللعنة، وهذه اللعنة قد جعلت قلوبهم غلفاً صمّاء لا تقبل المعرفة، ولا تستجيب لدعوة الهداية، ففي هذا إقرار بأن قلوبهم غلْف، ولكن لا على معنى امتلائها بالمعرفة الدينية كما زعموا، وإنما على معنى إصابتها باللعنة بسبب إصراراهم على الكفر وعنادهم، وهذا تحويل بديع استغلّ فيه قولهم الذي اعترفوا به، وهو لون أدبيٌّ رائع.

٨ ـ وفي الملة الآخرة والرسالة الخاتمة، نجد أمثلة كثيرة وشواهد متعددة من الذين استنكفوا عن اتباع الحقّ والإيمان بمحمد ﷺ بدافع الكبر في نفوسهم.

لقد رأى فريق من مشركي العرب محمداً بشراً مثلهم، فاستكبروا عن اتباعه وقالوا: لولا أنزل علينا الملائكة، أو نرى الله ربّنا فهو يلقننا الشريعة التي ارتضاها لنا، فنحن لا نتبع بشراً مثلنا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق. ونما في نفوسهم هذا الاستكبار نمواً عجيباً شاذّاً، حتى ظلموا الحقّ به وعتوا عتواً كبيراً، وقد وصف الله واقعهم هذا فقال لرسوله محمد ﷺ في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾.

وقال مشركو قريش للحق لما جاءهم واستكبروا عن اتباعه مقالتين:

قالوا في أولاهما: هذا القرآن سحر.

وقالوا في الثانية: هذا أمر افتراه محمد.

فعلم الله رسوله طريقة محاجّتهم، مشيراً إلى عامل الاستكبار، الدافع إلى الإنكار، فقال الله تعالى في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾
أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ
بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا
يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ
عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

فكشف الله في هذا النص الدافع الذي دفع هؤلاء الذين كفروا، وأبان أنه دافع الكبر.

أما مقالتهم عن القرآن: هذا سحر؛ فهي مقالة ساقطة من ذاتها، لا تحتاج إلى حجة دفاع، لأنّ واقع حال القرآن المستمر في تأثيره يكذب هذه المقالة ويسقطها، وكل من استمع إلى القرآن وتدبر آياته، وأعمل فكره في استنباط ما اشتمل عليه من معانٍ أدرك بداهة أنه ليس من السحر، وأنه لا شبه بينه وبين السحر مطلقاً في جوهره وحقيقته.

وأما مقالتهم: هذا قرآن افتراه محمد من عنده، ولم يأت به من عند الله، فتتلخص الحجج التي علَّم الله رسوله أن يدفعها بها فيما يلي:

(أ) لو أني افتريته على الله بعد أن أيدني بآياته ومعجزاته، لما تركني ربـي أستمر في الافتراء عليه دون أن يعاقبني، لأنه حكيم، فإذ لم يظهر أثر لهذه المعاقبة فإني لست مفترياً له حتماً، بل أنا مبلغ له عن ربـي، ولو أنه أراد معاقبتي على افترائي فهل لي سند يحميني من عقاب ربـي؟! إنكم قومي، وأنتم الذين تدافعون عني إذا أراد أحدٌ من الناس أن يمسني بسوء، لكنكم لا تملكون لي من الله شيئاً إذا أراد عقابـي، فكيف أفتري عليه، وأنسب إليه كلاماً لم يقله، ولم يأمرني بتبليغه، في الوقت الذي يؤيدني بمعجزاته وآياته؟! وإمداده لي بالتأييد دون ملاحقتي بالعقاب شهادةٌ منه لي بأني لم أفتر عليه، وبأني صادق فيما أبلغ

عنه، وهذه الشهادة تتضمن تكذيبكم في مقالاتكم التي تفيضون فيها، وتندفعون بها مجرحين لي، إنّ ربـي عليم بها. هذا ما أشار إليه ــ والله أعلم ــ قوله تعالى: ﴿قل: إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً * وهو أعلم بما تفيضون فيه * كفى به شهيداً بيني وبينكم * وهو الغفور الرحيم﴾ أي: فإذا تبتم من مقالتكم غفر الله لكم ورحمكم.

(ب) لست بدعاً من الرسل فجميع الرسل الذين جاؤوا من قبلي كانوا بشراً، ولم يكونوا من الملائكة، وكثيرٌ من الرسل قد جاؤوا من عند ربهم بكلام من كلامه، فبلغوه لأقوامهم. هؤلاء بنو إسرائيل جاءهم رسل من عند ربهم فبلغوهم كتباً منزلة من لدنه، فصدقوا بها، فما بالكم استكبرتم عن التصديق بكتاب منزل من عند ربكم. وإني بطبيعتي البشرية لا أمتاز عليكم بمعرفة الغيب معرفة ذاتية، حتى تجعلوا ما جاء في القرآن من كشف لبعض حقائق الغيب ممّا امتازت به خصائصي الذاتيـة، فإني مـا أدري ما يفعـل بـي ولا بكم، إلا ما يطلعني الله عليه عن طريق الوحي، فأنا أتبع ما يوحى إلي. وما أنا بالنسبة إليكم إلا نذيرٌ مبين، أنذركم عاقبة كفركم وإنكاركم لكتاب ربكم، واعلموا أنكم إذا استكبرتم وظلمتم فإنّ الله سوف لا يغفر لكم ولا يرحمـكم، لأنه لا يغفر إلا لمن اهتدى، وهو لا يهدي القوم الظالمين، فلا يحكم لهم بالهداية وقد ظلموا بالكفر والاستكبار عن الطاعة. وهذا ما دلّ عليه قول الله تعالى: ﴿قل: ما كنت بدعاً من الرسل * وما أدري ما يفعل بـي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين * قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به * وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم * إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

ومن الأمثلة الواقعية لدى مشركي قريش ما كان من الوليد بن المغيرة أنه بعد أن عرف مجد القرآن، وتبين صوراً من إعجازه، قال لقومه بني مخزوم: «والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ، إنّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى».

فقال قومه بعد أن سمعوا منه ذلك: صبأ والله الوليد، والله لتصبأن قريشٌ بعده، فقال ابن أخيه أبو جهل: أنا أكفيكموه، فقعد عنده، فكلمه ساعةً بما أثار حميته الجاهلية وكبره، فخرج الوليد على نادي قومه فقال: تزعمون أنّ محمداً مجنون، فهل رأيتموه يخنق؟ وتقولون: إنه كاهن، فهل رأيتموه يتكهن؟ وتزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قطّ؟ وتزعمون أنه كذّاب، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا في كل هذه الأسئلة: اللهمَّ لا. ثم قالوا له: فما هو إذن؟.

ففكر الوليد في نفسه، وقدّر أمراً يمكن أن يجد له فيه حجةً باطلة تقبل، فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، فليكن ما يقوله من قبيل السحر، وهو ينقله عن السحرة.

فارتجّ نادي قومه فرحاً، وتفرقوا معجبين بمقالته، متعجبين منه.

فأنزل الله قوله في سورة (المدثر ٧٤):

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾.

ونلاحظ في هذا النص أن الله تبارك وتعالى يلفت النظر إلى عاملين أساسيين في نفس الوليد، كانا هما الباعث له على الكفر والتكذيب، هما: الكبر، ومعاندة الحق.

فالكبر في نفس الوليد دلّ عليه قوله تعالى: ﴿ثم أدبر واستكبر﴾ ففعل مثلما فعل إبليس من قبل إذْ أبى واستكبر.

والعناد في خلق الوليد وهو من الانحرافات الخلقية المرافقة لخلق الكبر، أو هو مظهر من مظاهره، قد دل عليه قوله تعالى: ﴿إنه كان لآياتنا عنيداً﴾.

وإشارات هذا النص تدل على أن الوليد بن المغيرة قد كان ذا فكر عميق، ورأي حصيف في قومه، لكنه لم يستخدمه في الخير، إنما استخدمه في الشر، وفي تصيّد زخرف القول الذي أراد به دعم جانب الباطل، ولذلك قال تعالى: ﴿إنه فكر وقدّر * فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر﴾.

أمّا قوله تعالى: ﴿ثمّ نظر * ثمّ عبس وبسر * ثمّ أدبر واستكبر * فقال: إن هذا إلّا سحرٌ يؤثر * إنْ هذا إلّا قول البشر﴾.

فيشتمل على صورة تمثل حالة الوليد النفسية، بين الحقيقة التي ظهرت له من خلال آيات القرآن، والباطل الذي يدفعه إليه كبره وعناده. إنّ الحقيقة المكروهة حينما تظهر للمعانـد المستكبر تجعله يثبت نظره مشدوهاً، ثمّ بعد هذا الانبهار الذي يصيبه يكفهرّ وجهه، ويعبس غيظاً وحنقاً، لا سيما حينما لا يجد لمقاومة الحقّ إلّا حججاً واهية ملفقة، وتطول أناته في العبوس المصحوب بالكدر النفسي، وهذا ما دلّ عليه الإتباع في قوله تعالى: ﴿ثمّ عبس وبسر﴾ إذ الغرض من بسر تأكيد العبوس. فإذا طال أمده في هذا الحال المكفهر، لم يجد إلا الفرار من الموقف بالإدبار، والتعويض عن النقص بالعناد والاستكبار، وطرح باطل القول المزخرف بالحجج الضعيفة، باعتباره السلاح المتيسر من الأسلحة المهذبة في أيدي المبطلين، وهذا ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿ثم أدبر واستكبر * فقال: إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر﴾.

إنها لصورة كلامية عجيبة، تجسّد الأحاسيس النفسية المتحركة، في بيانات قولية رائعة.

* * *

سلوك المستكبرين عن اتباع الحق في تبرير واقعهم ولتكثير السالكـين في طريقهم:

يتخذ المستكبرون عن اتباع الحق وسائل كثيرة يبررون فيها رفضهم لاتباع الحق، ووسائل عديدة يضلون بها الناس، بغية تقوية جبهتهم، وتكثير سواد أنصارهم وأتباعهم، أو السائرين على مثل طريقتهم.

فمن هذه الوسائل: الجدال بالباطل وتنميق زخرف القول، ومنها الهزء

والسخرية بالحق ودعاته وأنصاره، ومنها استدراج جماهير أقوامهم إلى مجامع اللهو واللعب ومراتع الشهوات ليصرفوهم عن استماع الحقّ ويصدوهم عن سبيل الله.

وقد أبان القرآن ذلك من وسائلهم:

(أ) أما جدالهم بالباطل، فقد بينه الله بقوله في سورة (غافر ٤٠):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿إنْ في صدورهم إلا كبر﴾: أي ما في صدورهم إلا كبر.

ففي هذه الآية تصوير بديع للكبر الحاجب للذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم.

فهم يجادلون بالباطل ليُدْحضوا به الحق، لأن كبرهم عن اتباعه قد زاد عن مواقع قلوبهم حتى ملأ صدورهم كلها، فكأن صدورهم قد خلت من كل شيء إلّا من الكبر، وكأن كبرهم قد زاحم كل شيء في صدورهم، واحتلّ مكانه ﴿إن في صدورهم إلا كبر﴾.

ولكن هذا الكبر الذي في صدورهم ما هم ببالغيه، أي: واقعهم لا يبلغ مهما اجتهدوا وعملوا في تحصيل المجد ما في صدورهم عن أنفسهم من أوهام استكبروا بها.

فهم بين الكبر في نفوسهم وواقع حالهم على طرفي نقيض، إنّ كبرهم يجعلهم ينتفخون في نفوسهم، حتى يتصوروا توهماً أنهم يعلون على كل مجد، وواقع حالهم يتصاغر بهم حتى يضعهم في مواقعهم التي هم عليها في حقيقة حالهم، فهم بين متناقضَيْن من واقع حالهم وأوهامهم عن أنفسهم، كشفه الله في الصورة البديعة التي وصفهم بها: ﴿إن في صدورهم إلا كبرٌ ما هم ببالغيه﴾.

وداء الكبر هذا قد ينمو نمواً قاتلاً حتى يعمي البصيرة، ويجعل القلوب لا تعي شيئاً إلا ما يرضي كبر الأنفس، وهذا ما عبر القرآن عنه بالطبع على القلوب، قال الله تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾ ﴾.

إن هذا الطبع على كل قلب المتكبر الجبار يدل على انطماس بصيرته كلها بسبب الكبر، فهو لا يعي من الحق شيئاً، ما دام يمس جانب كبره.

ويؤكد معنى الطبع على القلوب بسبب الكبر قول الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

(ب) وأما الهزء والسخرية، والصد عن آيات الله بالملهيات والمسليات والاستدراج إلى مراتع الشهوات، فقد بينه الله في نصوص كثيرة.

منها قول الله تعالى في سورة (لقمان ٣١):

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾.

فهذا فريق مستكبر من أعداء الحق، يبذل من ماله ووقته وفكره، ليصرف

الناس عن الهداية، ويتخذ لذلك وسائل شتّى من الملهيات والمسليات السمعية والبصرية وغيرها، فيملأ بها أوقات الذين يريد إضلالهم، ويستنفذ بها طاقاتهم الفكرية والنفسية والجسدية، فإذا وُجّهت له نصيحة طيبة، أو موعظة حسنة، أعرض عنها إعراض المشمئز المستنكر، وانصرف مستكبراً عن سماع الخير، وأصرّ على تماديه في باطله.

وهذا الفريق يتخذ خطة أخرى لتبرير عدم استجابته للحق، ولصدّ غيره عن اتباعه، هي خطة الهزء والسخرية، كأن الحق الذي يدعو الدين الناس إليه قد بلغ من الضحالة والسخف والسفاهة مبلغاً يسمح لهم بأن يستهزئوا به ويسخروا منه.

وكثيراً ما نرى أعداء الحق يستخدمون سلاح الهزء والسخرية لصرف ضعفاء الإرادة عن سلوك سبيل الهداية، والتزام شريعة الله، إنهم إذا رأوا مسلماً مؤمناً يقوم ببعض ما يوجبه عليه الإسلام ـ كالصلاة أو الحشمة أو البعد عن الفواحش والمنكرات ـ سلقوه بألسنة حداد من الهزء والسخرية وكل لاذع من القول؛ ويخترعون لذلك ألفاظاً شتى يُحَمِّلونها معاني تُشعِر بأنها أمور قبيحة جداً، فإذا وُضعت تحت البحث تبين أنها فارغة جوفاء، وهم إذا رأوا ملتزماً بخلقه ودينه نضحوه بعبارات مختلفة، فقالوا: رجعي، متعصب، متزمت، جامد، شيخ، سخيف، قديم، متخلف، أو نحو هذه العبارات. ويهزؤون بالأخلاق الفاضلة، والمكارم الحميدة، والعفة، والقيام بالفروض الدينية، وينعتونها بصفات الرجعية والتخلف والجمود ونحو ذلك.

ومنها قول الله تعالى في سورة (الجاثية ٤٥):

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ ﴾.

فهذا فريقٌ أفّاك أثيم، إذا تليت عليه آيات الله ـ وفيها الحق المبين ـ ولّى منصرفاً عنها، مستكبراً عن طاعة الله، كأن لم يسمعها ، وكأن في أذنيه وقراً

يمنعه من سماع الحق، ثم إذا علم على سبيل المصادفة شيئاً من آيات الله المنزلة اتخذها هزواً، فأخذ يلوك لسانه بها مستهزئاً ساخراً منها.

فبشره إذن أيها المبشر بعذاب أليم، ومع أن العذاب الأليم لا يكون الإخبار عنه بشارة، إلّا أنّ اللائق به أن يعاقب على استهزائه بالاستهزاء، فيقدم له الإنذار في ثوب بشارة.

وله عذاب مهين مُذِلّ عقاباً له على كبره الذي رفض بسببه اتّباع الحق.

* * *

نظرات بين الكبر بحق وبغير حق وبين عزة نفس المؤمن وعزته بالله:

جاء في القرآن تقييد الاستكبار الذي يعاقب أهله يوم القيامة بعذاب الهون بقيد كونه استكباراً بغير الحق، فقال الله تعالى في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

فهم يقال لهم هذا الكلام إذ يعرضون على النار، ويجازون عذاب الهون، عقاباً لهم على استكبارهم بغير الحق، وعذاب الهون هو عذاب إذلالٍ وإهانة، وهذا النوع من العذاب يناسب استكبارهم في الأرض بغير الحق، فهو جزاء من جنس الذنب.

ونبهنا تقييد الاستكبار بكونه بغير الحق على أنه قد يوجد استكبار بالحق، والاستكبار بالحق لا يكون أمراً مذموماً، ولما كان الله جلّ وعلا أكبر من كل كبير وأعظم من كل عظيم كان تكبره سبحانه بحق، فهو محمود منه، لذلك جاء في أسمائه الحسنى أنه المتكبر العزيز الجبار، فهو بهذا يثبت لنفسه صفات حقيقية هي له.

وإنما كان الاستكبار من المخلوق مذموماً لأن المستكبر يضع بكبره نفسه فوق الموضع الذي يستحقه، فهو باستكباره يظلم الحقيقة، ويعتدي عليها. وحينما يتعلق ذلك بحقوق الناس، فإن استكباره يجعله يغمط حقهم ويظلمهم

مادياً أو معنوياً. وحينما يتعلق استكباره بحقوق الله، فإن استكباره يدفعه إلى إنكار حقوق الله عليه، وإنكار نعمة الله عليه، ثم يدفعه إلى الترفع عن عبادته، ثم يدفعه إلى إنكار وجود الله تبارك وتعالى، وإلى الإلحاد به وبكمال صفاته.

أما حينما يكون التكبر تكبُّراً بالحق، وذلك كاعتزاز المؤمن بعزة الله، وتقويه بقوة الله، على الكافرين الذين يعتزون ويستكبرون بقواهم المادية، وبشياطينهم ودهاتهم، فإنه يكون تكبراً محموداً، لأنه لا عدوان فيه على الحق، وإنما فيه إذلال للباطل، الذي هو ذليل بطبعه. ولذلك جاء في وصف الذين يحبهم الله ويحبونه أنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾.

ولما جعل أبو دُجانة رضي الله عنه يتبختر في غزوة أحد بين الصفين، وقد عصب رأسه بعصابته الحمراء إعلاماً بأنه سيقاتل قتال الموت، قال له رسول الله ﷺ: «إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن».

ومن التكبر غير المذموم ما يكون لمعالجة المتكبرين وتصغير نفوسهم المستكبرة بغير حق، وتأديبهم حتى يعرفوا مواقعهم، فهو مظهر من المظاهر التي يكون الغرض منها التربية والتأديب، بشرط أن لا يكون في واقع حاله تكبراً قلبياً. ومثله بعض الأعمال التي لا يقصد منها فاعلها التكبر على خلق الله، وإنما يكون له فيها مقصد آخر، كمظاهر الأناقة في الملبس والمشي والحركة والجمال في المظهر، فقد يكون الباعث عليها الكبر وقد لا يكون. وقد دل على هذا ما رواه مسلم عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس».

وقد سبق شرح هذا الحديث في تعريف الكبر.

ولما كانت إرادة العلو في الأرض ناتجة عن الاستكبار بغير الحق، جعل الله مجد الدار الآخرة ونعيمها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً. فقال تبارك وتعالى في سورة (القصص ٢٨):

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

وحينما يطلب الإسلام من المسلمين أن يكونوا هم الظاهرين في الأرض وهم العالين، فإنما يطلب منهم ذلك ليقيموا العدل الذي أمر الله به عباده، وليعلوا كلمة الله في الأرض، ولينشروا دينه، وليقاوموا أعداء الحق وناشري الضلال، وليس من أجل إرضاء الأهواء في نفوسهم بأن يكونوا هم العالين في الأرض، إن هذا ليس مطلباً إسلامياً بحد ذاته، وإنما هو وسيلة لغاية، فالمسلمون يعتلون عرش السلطان، ولكن مع تواضع لله، وحرص كامل على تطبيق شريعة الله والعدل بين الناس، ومع عدم الترفع عن ضعفائهم وفقرائهم، وذوي الحاجات فيهم.

بخلاف الذين لا يؤمنون بالله، فإن همهم الأعظم أن تكون لهم الكبرياء في الأرض، وهم لا يفهمون غير ذلك، ومن أجل ذلك لم يفهم فرعون وحاشيته إلّا أن موسى وهارون قد جاءا طالبين الكبرياء في الأرض، قال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

فقد كان تخوف فرعون وملئه من هارون وموسى تخوفاً على موقعهم الذي لهم فيه الكبرياء في الأرض.

على أن الاستكبار النفسي وما يتصل به من تفاخر لا يعدو لدى التحقيق أنه من قبيل اللذات الوهمية التي تجر لصاحبها متاعب كثيرة في الحياة الدنيا، فضلاً عما تجره من شرور وعواقب وخيمة.

وقد مثل القرآن مختلف زينات الحياة الدنيا ولذاتها بالنبات الذي يخضر فترة قصيرة من الزمن، ثم يصفر ثم يكون حطاماً، فليس من شأن المؤمن العاقل أن يعلق كل همه بها، ويتحمل ما تجره وراءها من عواقب مؤلمة، فقال تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾.

فمثل الحياة الدنيا كمثل النبات، الذي يخضر بالغيث، فيعجب الكفار (أي: الزراع) نباته، فإذا مر عليه زمن يسير ذهبت خضرته ونضرته، فيصفر، ثم يدركه الجفاف الشديد، فيتحطم، وينتقل النص سريعاً من المثل إلى الممثل له، ويرتب الحكم على المثل كأنه عين الممثل له، فيقول تبارك وتعالى فيه: ﴿وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان﴾ فيقرر أنواعاً ثلاثة من نتيجة الحساب يوم القيامة، بعد تحطيم أجسام الحياة الدنيا، وبعد البعث للجزاء، وهذه الأنواع الثلاثة هي:

أولاً: العذاب الشديد لمستحقي العذاب.

ثانياً: المغفرة من الله للمؤمنين العصاة، الذين تقضي الحكمة الإلهية بمنحهم العفو والغفران.

ثالثاً: الرضوان من الله، وذلك بالنعيم المقيم في الجنة دار النعيم، لمستحقي هذا الرضوان من المتقين.

والاستكبار شيء وعزة نفس المؤمن وعزته بالله شيء آخر، فالأول ــ كما عرفنا ــ سلوك قبيح، سواء أكان في داخل النفس أو في ظاهر العمل، أما الثاني فهو أمر محمود وسلوك حسنٌ مأجور.

كم من مواقف لا يحسن فيها التواضع ولا الخضوع، بل تجب فيها عزة النفس لا عن كبر ولا عن عجب، ولكن عن اعتزاز بالله، وثقة به، وتوكل عليه، واستغناء بجوده وعطائه، وقناعة بما يولي من نعم. وهذا السلوك الخلقي قد يشتبه بالكبر في بعض الأحوال ولكنه ليس منه.

إن فضيلة خلق عزة النفس بالله وتعاليها عن مواطن الذل من أجل الدنيا من فضائل أخلاق المؤمنين. فالمؤمن يكون متواضعاً لله متذللاً لإخوانه المؤمنين غير مستكبر على خلق الله، ولكنه مع ذلك يكون عزيز النفس بالله، لا يهين نفسه لتحصيل دنيا، أو استرضاء أرباب المال أو السلطان لجلب المنافع المادية عن طرقهم ــ فهو أرفع من هذا ــ ولكن اعتزازاً بالله وثقة به، وتوكلاً عليه، واستغناء بما عنده عما عند عبيده الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، وإيماناً بحكمته في عطائه وفي لون امتحانه، وقناعة بما وهبه من نعم، وبما منحه من تكريم.

إن من يؤمن بالله ويشرف نفسه بعبوديته له لا يسمح لنفسه بأن تذل إلا حيث يكون التذلل والخضوع جالباً لمرضاة الله تعالى، ومحققاً لمصلحة اجتماعية أو نفسية يهدف لتحقيقها الإسلام. وحين يأمر الله المسلم بأن يكون عزيز النفس بربه، فكرامته الإنسانية المعتزة بالله تفرض عليه أن يكون مترفعاً عن مواطن المهانة والذلة والصغار. ولما كانت العزّة ــ (أي: الشدة والقوة) ــ التي يرافقها ترفع عن الضعة والمهانة والصغار هي لله تعالى كان المؤمنون الصادقون هم أهل العزة الحقيقية، قال الله تبارك وتعالى في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾.

فالذين يوالون غير المؤمنين اعتزازاً بهم، واستناداً إلى قوتهم، فيخضعون لهم ويذلون لسلطانهم، ويرضون الدنية في دينهم، يسلكون غير سبيل المؤمنين.

إن ابتغاء العزة عند غير المؤمنين هو من صفات المنافقين الذين لا يؤمنون بالله وبعزته إيماناً حقاً، مع أن القوة والغلبة والسلطان لله وحده، وهو الذي يهب منها عباده وفق حكمته، ويسلبها عن عباده وفق حكمته، وهذا ما بيّنه الله بقوله جلّ وعلا في سورة (النساء ٤):

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾.

فالمؤمن المعتز بالله الذي له العزة جميعاً لا يخضع ولا يذل ولا يحني رأسه إلا لله، أو لمن أمر الله بالتذلل له مودة وبراً، فيكون ذلك حينئذٍ من طاعة الله والخضوع لأوامره.

من ذلك الخضوع والتذلل للوالدين، وكذلك الخضوع والتذلل للمؤمنين، ولكن لا عن ذلة ومهانة وضعة وطلب للدنيا، وسعي وراء المنافع الدنيوية، بل عن مودة ورحمة وابتغاء لمرضاة الله، وفرق كبير بين الأمرين.

فالتذلل للوالدين رحمة بهما وبراً لهما قد أمر الله به في قوله عز وجل في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

ففي قوله تعالى: ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾ بيان شافٍ كافٍ في أنّ هذا التذلل للوالدين ليس تذلل مهانة ولا ضعة، ولكنه تذلل من الرحمة بهما.

وتذلل المؤمنين بعضهم لبعض هو أيضاً تذلل مودة ورحمة، وهو التواضع

ابتغاء مرضاة الله، فليس تذلل مهانة ولا ضعة، ولا طلب للدنيا، إنه تذلل متبادل، وسماحة كريمة في الأخوة والتعامل الأدبي والمادي، قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾.

فقد جعل الله تبادل التذلل، أي: التواضع، بين المؤمنين من المحامد التي يحمدون بها عند الله، ولكنهم على الكافرين أعزة باعتزازهم بالله، يجاهدون بقوة في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم، أي: لا يخافون من أي ضغط اجتماعي يأتي على صورة تلويم وتثريب، لأنهم ينصرون دين الله، ويستنصرون بالله، فهم أعزة في نفوسهم على الباطل وكل أسلحة الباطل المادية والمعنوية، فإذا تذللوا فإنما يتذللون ابتغاء مرضاة الله، لأن الله أمرهم به، لإشاعة التواد والتراحم بين المؤمنين.

قد يقال: لم جاء التصريح بأن يكون التذلل للوالدين من الرحمة، ولم يأت نظير ذلك في جانب التذلل للمؤمنين، ففي جانب الوالدين قال الله تعالى: ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾ وفي جانب المؤمنين قال الله تعالى: ﴿أذلة على المؤمنين﴾؟؟ فما السر في ذلك؟

ونقول في الجواب: إن التذلل للوالدين هو من طرف واحد وليس أمراً متبادلاً، فاقتضى التصريح بأن يكون تذللاً من الرحمة. أما التذلل بين المؤمنين فهو عمل متبادل، وليس من فريق منهم لفريق آخر، فهو لا يكون إلا من المودة والرحمة بطبيعته. يضاف إلى ذلك أننا إذا أمعنا النظر في قوله تعالى: ﴿أذلة على المؤمنين﴾ وجدناه يشتمل على الدلالة المطلوبة. وذلك لأن الأصل في مادة (ذل) أن تتعدى بحرف (اللام) لا بحرف (على) فيقال لغة: «ذل له» ولا يقال: «ذل عليه» لكن التعبير القرآني جاء بالتعدية بعلى «أذلة على المؤمنين» والسر في ذلك

أن الذل يستدعي الانخفاض، وحرف (على) يستدعي الاستعلاء، فإذا جمع بينهما في تركيب متكامل كان المعنى يدل على أن التذلل المطلوب ليس تذللاً من ضعة ولا مهانة، ولكنه تذلل مع رفعة وعزة نفس، وهذا لا يكون إلا على سبيل إعطاء التذلل من عطف ورحمة، فالعبارة القرآنية على تقدير: أذلة عطفاً على المؤمنين. فهو تذلل عطف وحنو، مع عزة نفس واستغناء بالله، لا تذلل مهانة وضعة وحقارة نفس وطمع بمنافع دنيوية.

وتفريقاً بين التذلل من العطف والمودة والرحمة مع عزة النفس بالله، وبين التذلل من المهانة لتحصيل الدنيا، نجد نصوصاً إسلامية تنهى عن التذلل لغير الله لتحصيل دنيا، ونصوصاً أخرى تأمر بالتواضع لله، ونصوصاً أخرى تأمر بإنزال الناس منازلهم وإعطائهم ما يستحقون من احترام وتقدير.

فمن ذلك ما رواه الطبراني عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «من جلس إلى غني فتضعضع له لدنيا تصيبه ذهب ثلثا دينه ودخل النار».

وفي احترام ذوي المكانات وإعطائهم أقدارهم أخرج الإمام الترمذي بإسناد حسن عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يستخف بهم إلا منافق: ذو الشيبة في الإسلام، وذو العلم، وإمام مقسط».

وأخرج الإمام مسلم وأبو داود عن عائشة قالت: «أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم». وهذا لا يكون إلا بإعطائهم حقهم من التقدير والاحترام.

والتربية القرآنية توجه إلى ذلك أيضاً، منها تعليم الله موسى عليه السلام كيف يخاطب فرعون: «هل لك إلى أن تزكى» بهذه المقدمة الطويلة التي جاء بعدها عرض التزكية.

* * *

عاقبة المستكبرين:

من خلال استعراضنا لخلق الكبر، ولآثاره في الأنفس وفي السلوك، وما يفضي إليه هذا الخلق الذميم من غمط للحق وظلم للناس وجحود لله

واستكبار عن طاعته وإعراض عن آياته، ندرك سر العقاب الشديد الذي أعده الله للمتكبرين، والمهانة والمذلة والصغار التي تصيبهم يوم الدين، إلا إذا تابوا قبل فوات الأوان.

(أ) يقول الله تبارك وتعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

داخرين: أي: صاغرين أذلاء.

إنهم لما استكبروا عن عبادة الله في الدنيا عوقبوا على ذلك بالذلة والصغار في نار جهنم، وهو جزاء من جنس عملهم.

إن الله أمرهم أن يدعوه ليستجيب لهم، فاستكبروا عن عبادته بالدعاء له، فدلت هذه الآية على أن الدعاء من العبادة، وقد ورد أن الدعاء مخ العبادة، لأن الداعي لا يدعو ربه إلا وهو خاضع له، متذلل بين يديه، يتضرع لجنابه، مؤمن بأنه سميع مجيب قدير، وكل هذه المعاني من عناصر العبادة الحقيقية لله تعالى.

(ب) ويقول الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

فالذين كفروا يساقون إلى جهنم زمراً بحسب أنواع كفرهم، وبحسب مستويات كفرهم، وبحسب فئاتهم وزمرهم في الدنيا. وقد دل النص على أنهم

كانوا متكبرين في الدنيا، فكانت جهنم مثوى عذاب لهم ﴿فبئس مثوى المتكبرين﴾.

(ج) ويقول الله تعالى بشأن المنافقين في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، لأنهم كانوا كفرة مستكبرين، وكانوا فوق ذلك منافقين كذابين مراوغين.

(د) ويقول الله تعالى في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

إن حوار الكافرين قبل دفعهم إلى العذاب أو عند دفعهم إلى العذاب أمرٌ اقتضاه إبراز صورة العدل الإلهي، فهم يقال لهم يوم الدين: أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا، واستمتعتم بها، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق، وبما كنتم تفسقون.

فالجزاء بعذاب الهون عقاب لهم على جرمين كانا منهم في الدنيا:

الأول: أنهم كانوا يستكبرون في الأرض بغير الحق، وعذاب الهون يناسب جرمهم هذا.

الثاني: أنهم كانوا يفسقون.

(هـ) ويقول الله تعالى في سورة (سبأ ٣٤):

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ

ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

مكر الليل والنهار: أي مكر في الليل والنهار.

مشهد حواري من مشاهد يوم الدين، مما سيجري من حوار بين الظالمين، بين الذين كانوا مستضعفين في الدنيا منهم وقادتهم الذين كانوا مستكبرين عليهم فأطاعوهم، فضلوا بضلالهم، وكانوا ظالمين مثل ظلمهم.

حوار يصور كيف يحاول الأتباع يوم الدين طرح مسؤولية ضلالهم وكفرهم وظلمهم على قادتهم الذين اتبعوهم، وما يرد به الذين كانوا قادتهم في الدنيا، إذ يبينون لهم أن اتباعهم لهم قد كان بمحض إرادتهم، فمسؤوليتهم عن ضلالهم مسؤولية شخصية، ولولا أنهم كانوا مجرمين في دخيلة نفوسهم ما تأثروا بهم ولا اتبعوهم، فهم لم يكرهوهم على أن يسلكوا مسلك الجريمة. فيرد الاتباع على القادة المجرمين بذكر بينات من وقائع الأحوال التي كانت في الدنيا، وبذكر الأمور التي كانوا يستخدمونها لإغوائهم وصدهم عن الهدى، وهي أمور تتسم بالمكر الدائم في الليل والنهار، وفيها أيضاً استغلال سلطة القيادة التي توجه أمرها ونهيها للأتباع.

ويأتي الحكم الرباني بتجريم المستكبرين والمستضعفين معاً، لأن كفر كل منهم كان ثمرة لمسؤوليته الشخصية، فإذا رأوا العذاب أسر كل منهم ندامته على ما فرط في جنب الله، ويلقى كل منهم جزاء عمله.

ويحمل القادة المضلون المستكبرون ـ الذين كانوا يأمرون المستضعفين بالكفر بالله ـ أوزارهم وأوزاراً أخرى مثل أوزار الذين أضلوهم، دون أن

ينقص شيء من أوزار أولئك، وذلك لأن قادة الضلال يرتكبون في الأساس جريمتين، فهم يجازون عليهما:

الجريمة الأولى: اختيارهم لأنفسهم سبيل الضلال.

الجريمة الثانية: سعيهم لإغواء الناس وإضلالهم، وهم في هذا السعي يقومون بأعمال خبيثة أقوى وأشد من أعمال شياطين الجن.

إن كيد شياطين الجن كيد ضعيف لا يتجاوز حدود الوسوسة الخفية، أما كيد شياطين الإنس فهو كيد قوي، فيه وسائل شتى تضعف أمامها نفوس كثيرة. ولكن هذا لا يخفف من مسؤولية الإنسان الشخصية عما يكسبه بإرادته الحرة من ضلال هو به عالم، وهو له عارف.

ونتتبّع عناصر الحوار الذي اشتمل عليه النص الذي نتدبّره بالتحليل والبيان:

المشهد العام مشهد الظالمين وهم موقوفون عند ربهم يوم الحساب، لمقاضاتهم على ما كان منهم من ظلم في الدنيا، إذ كفروا بالله وجعلوا له أنداداً ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم﴾.

هذه هي **اللقطة الأولى**.

اللقطة الثانية من هذا المشهد: حوار يجري بين جمع من الظالمين، يقول بعضهم لبعض قولاً، فيتلقى من قبيله رداً عليه، هذه يصورها قوله تعالى: ﴿يرجع بعضهم إلى بعض القول﴾.

اللقطة الثالثة: تبرز من جمع الظالمين فريقاً كانوا مستضعفين في الدنيا، وهم يقولون للذين كانوا قادتهم وزعماءهم: لولا أنتم لكنا مؤمنين، وهذه اللقطة يصورها قوله تعالى: ﴿يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا: لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾ وذلك في محاولة دفع المسؤولية عن نفوسهم، وطرحها على قادتهم وزعمائهم، في محكمة العدل الربانية.

اللقطة الرابعة: تبرز جانباً من دفاع القادة والزعماء، في محاولة للتخلي عن

مسؤوليتهم في ضلال أتباعهم، فحسبهم مسؤوليتهم عن ضـلال أنفسهم، وحسبهم عذابهم عن جرائمهم الخاصة بهم. ويتلخص دفاعهم بإنكار أن يكونوا صدوا أتباعهم عن الهدى بعد إذ جاءهم، وبتحميل الأتباع مسؤولية اختيارهم بأنفسهم سبيل الجريمة، وهذه اللقطة من المشهد يصورها قوله تعالى: ﴿قال الذين استكبروا للذين استضعفوا: أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم؟ بل كنتم مجرمين﴾.

اللقطة الخامسة: تبرز رد الأتباع على إنكار القادة والزعماء، وهذا الرد يشتمل على تقديم وثائق وبينات، تدين القادة والزعماء بأنهم كانوا يعملون على إضلال أتباعهم، وصدهم عن الهدى، وهذه الوثائق والبينات مسجلة عليهم في سجل أعمالهم لا يستطيعون إنكارها، فهي وقائع ثابتة عليهم، وهي تتلخص بأنهم كانوا يأمرون أتباعهم بأن يكفروا بالله ويجعلوا له أنداداً، وبأنهم كانوا يحيطون ذلك بالمكر الدائم، وتدبير وسائل الإضلال في خفاء، فهم يسرون بها ماكرين ليلاً نهاراً، وهذه اللقطة من المشهد يصورها قوله تعالى: ﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا: بل مكر الليل والنهار * إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾.

ويصدر الحكم على المتبوعين وعلى الأتباع بالتجريم، ولكن هذه اللقطة مطوية تدل عليها لقطة تابعة لها، وهي نتيجة عنها، وهذه اللقطة التابعة تبرز مشهد المتبوعين والأتباع وقد أخفوا ندمهم على ما فرطوا في جنب الله، بعد أن صدر الحكم عليهم جميعاً بأنهم مجرمون، ورأوا أن العذاب نازل بهم لا محالة، وهذه اللقطة يصورها قوله تعالى: ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾.

واللقطة الأخيرة: تبرز سوق الأتباع والمتبوعين إلى العذاب بعد وضع الأغلال في أعناقهم، وهذه اللقطة الأخيرة يصورها قوله تعالى: ﴿وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا﴾.

ويسدل الستار بإعلان مبدأ من مبادىء العدل الرباني، فيقول الله عز وجل: ﴿هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾.

* * *

(٢) الرغبة بالفجور استجابة لأهواء النفس وشهواتها:

قد يكون جحود الحق ناشئاً عن الرغبة بالفجور، وهو التدفق الوقح إلى فعل الشرور والآثام، وهذه الرغبة تأتي استجابة إرادية لأهواء النفس وشهواتها.

وقد ذكر القرآن هذا السبب من أسباب جحود بعض الناس للحق، فقال الله تعالى في سورة (القيامة ٧٥):

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ؟ ۝٦﴾.

فهو يريد أن يفجر فيما يستقبل من حياته، فيفعل ما يهوى وما يشتهي من شر وضر، وإثم وعدوان، وظلم وطغيان، دون أن يشعر في نفسه بعقبة خوف من المصير، ودون أن يشعر في أعماق وجدانه بوخز من ضمير، فيقول منكراً يوم الدين: «أيّان يوم القيامة؟» أي: متى يكون يوم القيامة؟ وهذا سؤال متعنت مستبعد منكر، فهو يعتمد في رفضه يوم الدين على مجرد الاستبعاد، ويورد هذا الاستبعاد على طريقة الاستفهام عن زمن هذا اليوم.

وواقع حال فجور الجاحدين وطغيانهم يشهد بأن إرادة الفجور هي التي دفعتهم إلى التكذيب بيوم الدين، ولذلك وصف الله تعالى الذين يكذبون بالآخرة ولا يؤمنون، بأنهم عن الصراط لناكبون، أي هم عن الصراط الذي يلزمهم بفعل الخير وترك الشر منحرفون وخارجون، وهو صراط الإسلام، ووصفهم بأنهم في طغيانهم يعمهون، ووصفهم بأنهم قساة القلوب ظالمون، يَدُعُّون اليتيم ولا يحضّون على طعام المسكين، ووصفهم بأن من خلائقهم الاعتداء والمبالغة في الإثم، كل هذه الصفات نجدها في مجموعة النصوص التالية:

(أ) قال الله تعالى في سورة (المطففين ٨٣):

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾.

(ب) وقال الله تعالى في سورة (الماعون ١٠٧):

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ ﴾.

يدع اليتيم: أي يدفعه بعنف وجفوة، فيقهره ولا يطعمه ولا يكرمه ولا يحسن إليه.

(ج) وقال الله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ۝٧٤ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٥ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٧ ﴾.

عن الصراط لناكبون: أي عن طريق الإسلام الذي هو الصراط الحق لعادلون جائرون منحرفون. يقال: نكب عن الطريق إذا عدل عنها.

إذا هم فيه مبلسون: أي يائسون من النجاة، ساكنون سكون الذعر القاتل لكل حركة هرب أو دفاع.

فالرغبة بالفجور استجابة لأهواء النفس وشهواتها من الأسباب الدافعة إلى جحود الحق، والتمرد على اتباعه.

أما أهواء النفس وشهواتها فهي من دون العقل الإيماني حمقاء رعناء جاهلة تندفع اندفاعاً بهيماً أعشى، وهي في أغلب حالاتها تميل إلى اغتنام اللذات العاجلة، ولو كان من ورائها مضار وآلام كثيرة آجلة، وتميل إلى زخرف الحياة الدنيا وزينتها وتفاخرها، ولو كان في ذلك سخط الله ومعصيته. فمن طبع أهواء النفوس أنها تؤثر العاجلة وتذر الآخرة، ما لم يضبطها ضابط من العقل الصحيح الراجح، المقرون بالإرادة الحازمة، أو ضابط من الإيمان الراسخ والدين المهيمن على النفس، والمتغلغل في أعماق القلب والوجدان.

لذلك كان اتباع الأهواء والشهوات من الأسباب المضلة المبعدة عن صراط الله المستقيم، والمفضية بالإنسان إلى مواقع تهلكته.

ولذلك كانت الأهواء والشهوات من الوسائل التي تستغلها الشياطين للإغواء فتدغدغها وتثيرها، وتوجهها للانحراف عن صراط الله، ولا تزال تسيطر عليها شيئاًفشيئاً، حتى تكون أسلحة فتاكة في أيديها. فقد تستدرج الإنسان عن طريق أهوائه وشهواته حتى تدفع به إلى جحود الحق، والكفر بالله، بعد أن تعبر به جسور المعاصي والآثام، وتبدأ سلسلة الاستدراج بأن تعبر به جسور صغائر الذنوب، ثم تنتقل به إلى عبور جسور بعض كبائر الذنوب، ثم تنتقل به إلى عبور جسور الكبائر الكبرى، ثم تدفع به إلى مواقع الكفر.

لكن المؤمن يستطيع أن يطوع أهواء نفسه فيجعلها تتعلق بفعل الخير وابتغاء مرضاة الله، للظفر بالخيرات الآجلة، والسلامة من موبقات المتع والشهوات العاجلة المحرمة، وذلك بالتدريب الطويل المقرون باستحضار التصورات الإيمانية ومراقبة الله، وتذكر ما أعد الله من ثواب عظيم للمتقين والمحسنين.

ويستطيع المؤمن أن يسلك بنفسه وأهوائها صاعداً بها في معارج الكمال، ومحولاً أنظارها عن التعلق بالمحقرات الفانيات، إلى التعلق بالعظائم والكمالات الخالدات، ولذلك جاء في كلام الرسول ﷺ قوله: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

وهذا هو التصعيد لأهواء الأنفس وشهواتها، بغية الارتقاء بها عن مستوى المتع واللذات العاجلة، إلى مستوى الخيرات والسعادات الآجلة، ولا يتم هذا ما لم تخضع النفوس للتدريبات الإيمانية الإسلامية القاسية الطويلة المدى، مع تجديد استحضار التصورات الإيمانية باستمرار.

ولمّا كان الأصل في أهواء النفوس وشهواتها أنها حمقاء رعناء ميالة إلى حب العاجلة وعدم التطلع إلى الآخرة، حذرنا الله من اتباعها، وجعل عقولنا وإراداتنا مسؤولة عن حسن قيادتها، وشد أعنّتها، حتى لا تجمح إلى مواقع الإثم

والشر والعصيان، فالفجور فالطغيان، فالكفر والتمرد على اتباع الحق وطاعة الرحمن.

فمن نصوص التحذير من اتباع الهوى ما يلي:

(أ) قول الله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

ففي هذه الآية بين الله أن من الأسباب الموصلة إلى الظلم والموقعة فيه اتباع الأهواء، والظلم مظهر من مظاهر مجانبة الحق. وباتباع الظالمين أهواء نفوسهم ضلوا، فحكم الله عليهم بالضلالة حكماً عادلاً، فمن يستطيع أن يحكم بهداية من حكم الله عليه بالضلالة؟! ومن يستطيع أن ينصره من عقاب الله؟! لا أحد.

(ب) وقول الله تعالى يخاطب رسوله محمداً ﷺ في سورة (القصص ٢٨):

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

أي: فإن لم يستجيبوا لك يـا محمد فيما تدعوهم إليه من الحق، فاعلم أنما يتبعون أهواءهم، فسبب انصرافهم عن الاستجابة للحق إنما هو اتباعهم أهواء نفوسهم.

ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدىً من الله؟!.

أي: لا أحد أكثر منه ضلالاً، لأن الهوى الذي لا يعصمه هدى من الله مضل حتماً عن صراط الله، وقاذف بصاحبه إلى مواقع الظلم، والله لا يهدي القوم الظالمين، أي: لا يحكم لهم بالهداية، بعد أن اختاروا لأنفسهم أن يكونوا ظالمين.

(ج) وقول الله تعالى في معرض الحديث عن المؤمنين والكافرين في سورة (محمد ٤٧):

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾.

أي: لا يستوي المؤمنون الذين هم على بينة من ربهم والكافرون الذين زُين لهم سوء أعمالهم، واتبعوا أهواءهم.

فعلّة نفوسهم التي سببت لهم جحود الحق والكفر به أنهم اتبعوا أهواءهم.

(د) وقول الله تعالى في معرض الحديث عن المنافقين في سورة (محمد ٤٧):

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾.

فهؤلاء المنافقون يجلسون مجالس العلم الرباني، ويستمعون لأقوال الرسول، ولكن قلوبهم مطبوع عليها، فهم لا يفقهون مما يستمعون بآذانهم شيئاً. وعلة نفوسهم التي انحرفت بهم عن الحق أنهم اتبعوا أهواءهم، لذلك فإن الله يجري فيهم سنته القاضية بأن من اتبع هواه فضل بذلك أصابه الطبع على قلبه، فهو لا يفقه ما يلقى عليه من هداية وإرشاد، لأنه لا يستمع إليه استماع باحث عن دلالته، أو لا يُصْغي إليه سمعَه أصلاً.

(هـ) وقول الله تعالى في سورة (القمر ٥٤):

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾﴾.

فهؤلاء الذين كذبوا برسالة محمد صلوات الله عليه إن يروا آية عظيمة من

آيات الله كآية انشقاق القمر لرسول الله ﷺ يعرضوا عنها، ولا يصدقوا بدلالتها، ويقولوا: سحر مستمر، أي هذه الآيات هي من قبيل السحر الذي يأتي به محمد بصفة متكررة دائمة، أو هو من قبيل السحر القوي الذي بلغ حد التأثير في أجرام السماء.

وعلة نفوسهم أنهم اتبعوا أهواءهم، ألا فليعلموا أنه لا يضيع من تكذيبهم واتباعهم أهواءهم شيء، فكل أمر يجري منهم ومن غيرهم مستقر في علم الله وفي سجل صحائفهم سيحاسبون عليه بالعدل.

* * *

(٣) الحقد:

وقد يكون جحود الحق ورفض اتباعه والعمل به ناشئاً عن الحقد.

والحقد هو العداوة الدفينة في القلب، والعداوة هي كراهية يصاحبها رغبة بالانتقام من الشخص المكروه إلى حد إفنائه وإلغائه من الوجود.

ومن مرادفات الحقد تقريباً: كلمة الغل، فالغل هو العداوة المتغلغلة في القلب. ومن مرادفاته أيضاً: الضغن، والشحناء فهي جميعها كلمات تدور حول معنى واحد أو معانٍ متقاربة، ترجع بوجه عام إلى معنى العداوة، مع بعض فروق في الدلالات.

وكم دفع الحقد كثيراً من الأفراد والأمم إلى جحود الحق، والتمرد على الاعتراف به أو اتباعه.

وقد امتدت دولة الإسلام بقوة الحق والعدل والجهاد، واكتسحت عقائد بالية، وصهرت شعوباً كبرى، وقوضت إلى الأبد دولاً ذات شأن قديم كدولة فارس، وشتتت ديانات محرفة سابقة، فألقى كل ذلك أحقاداً سوداء على الإسلام والمسلمين في قلوب بعض المتعصبين لقومياتهم ومعتقداتهم ودولهم التي جرفها الإسلام بنوره المبين فيما جرف، أو نال منها نيلاً، فأفقدهم بذلك زعاماتهم الدينية أو السياسية في الأرض.

ونشأ من جراء هذه الأحقاد السوداء مؤامرات عديدة مقنعة وسافرة على

الإسلام والمسلمين، في أحقاب التاريخ الإسلامي المتتابعة، وما يزال العالم الإسلامي يكتوي بنيران هذه المؤامرات المختلفة في أشكالها وألوانها وأساليبها. فمنها ما يحمل حرباً فكرية مسلحة بألوان شتى من المكر والخديعة، ومنها يحمل حرباً مادية مسلحة بكل قوة مادية مريعة، بغية تهديم الحق الذي جاء به الإسلام، فكان به مجد العرب وسائر الشعوب التي استجابت لدعوته، وبغية تفتيت وحدة المسلمين المتماسكة التي فيها سر قوتهم العظمى التي أذهلت الأمم والشعوب حقبة من الدهر، فهم ما يفتأون يخشون أن تعود هذه الوحدة الكبرى للمسلمين، وأن يعود ذلك الإيمان الصادق إلى قلوبهم.

ما للعاقل وللحقد؟!

إن الحقد حمل ثقيل يتعب حامله، يحمله الجاهل في صدره فيشقي به نفسه، ويفسد به فكره، ويشغل به باله، ويقض به مضجعه، ويكثر به همه وغمه. إنه كحمل من أحمال الشوك الملتهب الحار، المحشو بصخور ثقيلة محمية تنفث السموم التي تلتهب منها الصدور. ويظل الجاهل الأحمق يحمل هذا الحمل الخبيث مهما حل أو ارتحل، حتى يشفي حقده بالانتقام ممن يحقد عليه.

* وحين نحلل الحقد إلى عناصره نجده يتألف من العناصر التالية:

الأول: الكراهية الشديدة إلى حد البغض العنيف.

الثاني: الرغبة بالانتقام وبإنزال السوء بمن يكرهه الحاقد.

الثالث: إمساك العنصرين السابقين في قرارة النفس، وتغذيتهما بالأوهام والتصورات، أو بمثيرات جديدة للكراهية والرغبة بالانتقام، وتركهما يربوان ويتفاعلان مع الزمن، فمن تفاعلهما واتحادهما وتناميهما وتغلغلهما داخل النفس يتكون ما نسميه بالحقد أو الغلّ أو نحو ذلك من أسماء.

والحقد يعيش على حساب كثير من الفضائل وجوانب الخير داخل النفوس. إنه يأكل كثيراً من فضائل النفوس فيربو على حسابها.

فما أشبهه بالخرَّاج الداخلي الذي يأكل اللحم السليم والدم النقي، ويتلف الأعصاب، وينخر العظام حتى يصل إلى نقيها فيلتهمه.

الحقـد داءٌ دفـين لـيس يحـمله ... إلّا جهـول مليء النفس بـالعلل
مـالي وللحقـد يشقيني وأحـمله ... إني إذن لغبـيٌّ فـاقـد الحيـل؟!
سلامة الصدر أهنا لي وأرحب لي ... ومركب المجد أحلى لي من الزلل
إن نمتُ نمتُ قرير العين ناعمها ... وإن صحوت فوجه السعد يبسم لي
وأمتـطي لمراقي المجـد مـركبتي ... لا حقد يوهن من سعيـي ومن عملي
مبـرّأ القلب من حقـدٍ يبـطّئني ... أما الحقود ففي بؤس وفي خطل

إنه ليس من صفات المؤمنين أن يحملوا الحقد في صدورهم، وذلك لأن الأصل في صدورهم أن تكون مملوءة بالمحبة وإرادة الخير للآخرين، ومتى امتلأت القلوب بالمحبة وإرادة الخير للآخرين لم يجد الغل مكاناً فيها ينزل فيه، ولئن مرت الكراهية أو البغضاء فيها عابرة سبيل فإنها لا تستطيع أن تجد فيها شاغراً تقيم فيه. إن هذه العوارض القذرة غريبة عن صدور المؤمنين وقلوبهم، وتظل دائماً غريبة لا تستطيع أن تجد لها فيها وطناً.

في سورة الحشر تحدثت الآيات عن المهاجرين والأنصار وأثنت عليهم، ثم تحدثت عن المؤمنين الذين جاؤوا من بعدهم، فوصفتهم بأنهم يدعون بالمغفرة لأنفسهم ولإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان، ويسألون ربهم أن لا يجعل في قلوبهم غلاً للذين آمنوا، قال الله تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

إن الأخوة الإيمانية والغل لا يجتمعان في قلب واحد، إن عاطفة المؤمن نحو إخوانه المؤمنين تتدفق بالمحبة، فكيف يجد الغل إلى هذه العاطفة الكريمة سبيلاً؟! إنهما أمران لا يجتمعان. قد ينال المؤمن من أخيه أذى، وقد يكرهه لذلك أو يعاديه انتصاراً لنفسه، ولكن هذه العوارض لا تستمر في قلب المؤمن، فهي لا تتحول إلى عداوة دفينة في القلب، وحقد وغل متغلغل في الصدر، يتربص الدوائر بأخيه المؤمن، بل يجد المسامحة والعفو أهنأ له وأسعد وأرضى لله، وإن ناله من أخيه ما يكره من ضرٍ أو أذى.

بهذه الأخلاق الكريمة يتحلى المؤمن الفاضل، وبهذه الفضائل الكريمة تتحول العداوات الشخصية إلى مودات جماعية، قال الله تعالى في سورة (فصلت ٤١):

﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾.

ولمّا كانت الجنة دار سعادة ونعيم عام وشامل كان لا بد لأصحابها من أن يكونوا مبرئين من كل حقد وغلّ، ومن كل علة خلقية تسبب لهم آلاماً وأكداراً. وقد وصف الله أهل دار النعيم يوم القيامة بأنهم مبرؤون من كل غل، وما كان من غل في صدورهم في الدنيا فإن الله ينزعه منها متى دخلوا الجنة، قال الله تعالى في وصف أصحاب الجنة في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الحجر ١٥):

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

* * *

(٤) الحسـد:

وقد يكون جحود الحق ورفض اتباعه والعمل به ناشئاً عن الحسد.

والحسد من الرذائل الخلقية ذات النتائج النفسية والاجتماعية السيئة جداً على الأفراد وعلى الجماعات، وهو داءٌ دوي إذا أصاب النفس الإنسانية أضناها وأشقاها، وجعلها مصدر أذىً للآخرين الذين امتحنهم الله بفضائل من نعمه ومزيد من عطائه.

والحسد من شر معاصي القلوب، ومعاصي القلوب أشد إثماً من كثير من معاصي الجوارح، نظراً إلى آثارها الخطيرة في السلوك.

وعلة داء الحسد ترجع إلى إفراط في الأنانية وحب الذات، مع ضعف في الإيمان بكمال حكمة الله تعالى، الأمر الذي يفضي إلى الاعتراض على الله في حكمته التي وزع على مقتضاها عطاءه بين خلقه ليبلوهم فيما آتاهم، فضرره من هذه الناحية يمس جانب الإيمان ويؤثر عليه.

وداء الحسد داءٌ قديم في الناس، روى الإمام أحمد والترمذي عن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين».

والحسد منازل ودركات بعضها أحط من بعض وأشد:

(أ) وأهون الحسد الحسدُ المأذون به شرعاً، وهو حسد الغبطة، ومنزلة حسد الغبطة أن يرى الإنسان ما وهب الله غيره من نعمة حقيقية فيتمنى لنفسه من فضل الله مثلها، دون أن يريد في قلبه زوال النعمة عن صاحبها.

وهذه المنزلة لا يكاد يسلم منها أحد، إذ هي من الدوافع الفطرية الطبيعية

التي لا يملك الإنسان دفعها، والتي تعتبر من الحوافز التي تدفع الإنسان إلى طلب الكمال الذي يمكن الوصول إليه، لذلك كان الحرج مرفوعاً عنها، فلا يؤاخذ الإنسان على ما يكون منه في مستواها.

ولكن للحسد المأذون به في حدود هذه المنزلة ضابطان يصونان عن الانحراف إلى ما لا خير فيه، وعن الانسياق وراء التمنيات الشاغلة للفكر، والقاتلة للعمر، من غير فائدة ترجى، ولا منفعة يمكن الوصول إليها:

الضابط الأول: ألا تكون النعمة من الخصائص التي اصطفى الله بها بعض خلقه بالتكوين الفطري، أو بالمنح الخاصة التي لا تأتي عن طريق السعي والكسب الإنساني.

وذلك لأن شغل الفكر والنفس بتمنيات من هذا القبيل مضيعة للوقت، ومقتلة للعمر، ومجلبة للحسرات، ومزلقة من المزالق التي تهوى بالنفوس والقلوب إلى دركات الحسد الضار الذميم. وهذه التمنيات الضائعات تفسد على الإنسان حياته، إذ يعيش مع نفسه فيما يسمى بأحلام اليقظة، فيتحول من إنسان كادح عامل صاحب جد، إلى إنسان ساهم حالم خامل كسول، يرضى من حياته بأن يكون في أحلامه وأوهامه على صهوات النجوم، بينما هو في واقع حاله في الأوحال وتحت الرجوم. وبعض الناس يتجه إلى طريق التعويض، وقد يكون التعويض بارتكاب كبائر شنيعة.

فمن الناس من يتمنى مثلاً أن يصطفيه الله بالنبوة، وهذا لا يأتي عن طريق الاكتساب، إذ هو من الخصائص التي يختص الله بها بعض عباده، وحين يشتد التمني ويملأ ساحة الفكر والنفس لديه، وهو لا يملك تحقيق ما تمنى، يركب مركب الكذب، فيدعي النبوة، أو يدعي الولاية والكرامات، وربما بالغ في هذا حتى زعم للناس أن الولاية التي وصل إليها هي أعلى من مرتبة النبوة.

ومن الناس من يتمنى لنفسه كمالاً من الكمالات الفطرية التي لا يملك الإنسان اكتسابها، كالجمال، والقوة، والذكاء، وفصاحة اللسان، ونحو هذه الكمالات الفطرية. وحين يشتد هذا التمني لديه، ويملأ ساحة فكره ونفسه،

يتجه إلى طريق التعويض؛ فقد يحاول أن يبرز ذاته بالاستكبار، أو بالافتخار على الناس بالمال والجاه، أو بالحسب والنسب، أو بالخزعبلات الغيبية، كالسحر والكهانة وما أشبههما.

وما أكثر حيل التعويض في الناس، إنها حيل تشمل مجالات الحياة كلها. ويهون الأمر بل قد يحسن إذا كان التعويض في طريق لا شر فيه ولا ضر، أما القباحة والشناعة والانحطاط الخلقي، فإنها تكون مرافقة للتعويض بسلوك مسالك الكذب والإفساد والشر والضر والأذى ومعصية الله جل وعلا.

الضابط الثاني: أن تكون النعمة التي يستطاع كسبها بالسعي الإنساني من النعم التي تنفع الإنسان في آخرته، أما مظاهر النعمة التي هي من زينة الحياة الدنيا، فهي في نظر الشرع ونظر العقلاء مجالات لامتحان إرادة الإنسان في هذه الحياة، هل يشكُر أم يكفر، فإذا لم تستخدم في طاعة الله بل استخدمت في معصيته كانت نقمة لا نعمة، وعندئذ لا يحسد عليها صاحبها مطلقاً، مهما كان شأنها عظيماً في الدنيا وهل يحسد أصحاب البلايا على بلاياهم وأصحاب المصائب على مصائبهم ؟؟!!.

وأمثلة ظواهر النعم التي لا يُحسد عليها أصحابها كثيرة مالئة حياة الناس، فذو مال كثير يستخدم ماله في شر نفسه وضرّها، وفي إيذاء الناس والإضرار بهم، لا يحسد على ماله المقترن بحالته هذه، لقد كان الفقر له مع الاستقامة خيراً له وأسعد. وذات جمال بارع، غدت لكل فاسق وطامع، حتى صارت ممتهنة حقيرة، وبؤرة للأوجاع والأمراض المؤلمة الخطيرة، لا تحسد على جمالها المقترن بحالتها هذه، ولقد كان القبح لها مع صيانتها وسلامتها خيراً لها وأسعد. وذو ذكاء عظيم وعلم كثير يستخدمه في الشر والأذى والإضرار بنفسه وبالناس، لا يحسد على ذكائه وعلمه المقترنين بحالته هذه، ولقد كان الجهل وضعف الذكاء مع الاستقامة والسلامة خيراً له وأحمد. وذو سلطان يظلم في سلطانه ولا يعدل، ويهلك الحرث والنسل وهو لا يعقل، لا يحسد على سلطانه المقترن بحالته هذه، ولقد كان الذل والضعف مع السلامة من الظلم والطغيان خيراً له وأرشد، وقد

تجب مجاهدته لإزالة سلطانه منعاً لأذاه، ودفعاً لشره وضرّه ـ لا حسداً ـ وكذلك نظراؤه.

وهذان الضابطان نستطيع استنباطهما مما جاء في كلام الرسول ﷺ .

روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ : «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها».

وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل، وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار».

أي: ينفق منه في سبيل الله.

فمن هذين النصّين نستطيع أن نستنبط أن لحسد الغبطة ضابطين:

(أ) أن تكون النعمة مما يمكن اكتسابه بالسعي والعمل.

(ب) أن تكون النعمة مما ينفع الإنسان في آخرته ويكسبه مرضاة ربه.

ويدلّ أيضاً على هذين الضابطين دليلان قرآنيان:

الدليل الأول: لما أنزل الله قسمة المواريث جعل نصيب الذكر مثل حظ الأنثيين، مراعاة لمسؤوليات الذكر في الحياة، فهو المسؤول عن معظم النفقات داخل الأسرة، متى كان قادراً، فقالت النساء على سبيل الحسد المتضمن الاعتراض على قسمة الله في شريعته التي لا يملك الناس تبديلها: نحن أحوج أن يكون لنا سهمان وللرجال سهم واحد، لأننا من الضعفاء، والرجال أقوياء وأقدر على طلب المعاش منّا، فأنزل الله تعالى قوله في سورة (النساء ٤):

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ ﴾.

فأبان الله تبارك وتعالى أن التفضيل في أنصبة المواريث بين الذكور والإناث تابع للتفضيل في أصل الخصائص التكوينية، وفي طبيعة نظام الحياة الاجتماعية.

والشريعة المنزلة من لدن حكيم خبير لا يمكن أن تكون مخالفة للحكمة التي يقتضيها الواقع.

فتمني النساء ما فضل الله به الرجال عليهن في الميراث هو من قبيل تمني الأشياء التي لا يمكن اكتسابها بالسعي والعمل، لأن هذا التفضيل تابع لأصل الخصائص التكوينية الفطرية، وللنظام الأكمل الذي تقتضيه طبيعة الحياة الاجتماعية.

فقوله تعالى في الآية: ﴿للرجال نصيب ممّا اكتسبوا وللنساء نصيب ممّا اكتسبن﴾ بمثابة التعليل للنهي عن هذا التمني الذي تمنّاه النساء. إذن نصيب الرجال المقدّر في تشريع المواريث تابع لطبيعة أعمالهم التي يكتسبونها بحسب مسؤولياتهم، ونصيب النساء المقدّر في تشريع المواريث تابع أيضاً لطبيعة أعمالهن التي يكتسبنها بحسب مسؤولياتهن. وهذه أمور من السنّن الثابتة في التكوين الطبيعي للناس، فلا يملك صنف النساء تعديلها بالسعي والعمل، وأيّ تَمَنٍّ من هذا القبيل هو من باب الحسد المنهي عنه.

وقوله تعالى في الآية بعد النهي عن هذا التمني: ﴿واسألوا الله من فضله﴾ يتضمن تحويلاً رفيعاً لأماني النفوس وتوجيهها لمحض فضل الله، وقطع نظرها عمّا في أيدي الناس من نعم فضّلهم الله بها لحِكَمٍ هو بها عليم، ولذلك ختم الله الآية بقوله: ﴿إنّ الله كان بكلّ شيءٍ عليماً﴾.

هذا الدليل دلّ بوضوح على الضابط الأول لحسد الغبطة المأذون به، وهو أن تكون النعمة مما يمكن اكتسابه بالسعي والعمل.

الدليل الثاني: من المعروف أنّ قارون كان رجلاً عظيم الغنى من بني إسرائيل، ومن قوم موسى، وقد ذكر الله في القرآن الكريم أنه آتاه من

الكنوز شيئاً عظيماً تنوء العصبة من الرجال بحمل مفاتيحه، ولكن هذا الإنسان قد أطغاه المال والشعور بالاستغناء، فبغى على موسى والمؤمنين معه، فلم يكن الغنى نعمة له، بل كان نقمة عليه، إذ كان سبباً في طغيانه، ثم هلاكه، ثمّ في شقائه الأبدي.

لقد خرج قارون ذات يوم على قومه في زينته وخيلائه وفخره، يتعاظم بما لديه من غنىً كثير، فرآه بنو إسرائيل في موكبه الذي يحسده عليه أهل الدنيا وطلّابها، ولا يحسده عليه العقلاء المؤمنون طلاب الآخرة.

أمّا الأوّلون فقالوا: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون، إنّه لذو حظٍّ عظيم.

وأمّا العقلاء المؤمنون الذين أوتوا العلم فقالوا: ويلكم ثواب الآخرة خير لمن آمن وعمل صالحاً، ولا يلقّاها إلّا الصابرون.

وبعد زمن يسير انتقم الله من قارون، فخسف به وبداره الأرض وأهلكه إهلاكاً قاسياً فيه عظة لمن يدّكر.

فأصبح طُلاب الدنيا الذين كانوا تمنّوا مكانه بالأمس يذعنون لحكمة الله في بسط الرزق وتضييقه، ويعلنون فرحهم بأنّ الله قد منّ عليهم إذ لم يجعلهم مثل قارون في الغنى، لأنّ غناه كان وبالاً عليه، إذ كان غنىً مطغياً غير مقترن بطاعة الله والإنفاق في سبيله، مع أنّ الذين حسدوه من قبل قد كان حسدهم من باب حسد الغبطة، إذ تمنّوا أن يكون لهم مثل ما أوتي قارون، ولكنّ النعمة التي أوتيها قارون لم تكن نعمة مقرونة من قِبَله بما ينفعه في آخرته ويكسبه مرضاة ربه.

وإذ قصّ الله علينا هذه القصة، دلّنا ضمناً على أنّ النعمة التي لا تنفع الإنسان في آخرته ولا تكسبه مرضاة ربّه، هي نقمة ووبالٌ على صاحبها، فهي ليست من النعم التي يحسد الإنسان عليها. وكذلك فهمنا الضابط الثاني لحسد الغبطة المأذون به شرعاً، وهو أن تكون النعمة مما ينفع الإنسان في آخرته ويكسبه مرضاة ربه.

أمّا النصّ القرآني الذي تضمن هذه القصة فهو قول الله تعالى في سورة (القصص ٢٨):

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)﴾.

ويكأنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء ــ ويكأنه لا يفلح الكافرون: أصلها على الراجح «ويْ كأنّ»، وكلمة (وي) تستعمل عند العرب لدى التنبه على الخطأ وإظهار التندم. وتستعمل للتعجب.

فالإِنسان السويّ المؤمن المتقيد بحدود الله قد يغبط ضمن حدود هذين الضابطين صاحب النعمة على نعمته، وهو يريد دوامها له، ويدعو الله له بذلك، ولا يسرّه زوالها عنه.

(ب) ويأتي من دون حسد الغبطة دركات كلّها مذمومة وقبيحة، وبعضها

أشدّ قبحاً ونكراً من بعض، وأخفها تمني مثل ما للمحسود دون تحقق شرطي حسد الغبطة المأذون به، ثم يأتي من دونها ثلاث دركات:

أولاً: فمن هذه الدركات الخبيثة القبيحة أن يتمنّى الحاسد انتقال النعمة من المحسود إليه، لتكون له من دون صاحبها الذي أنعم الله عليه بها ليبلوه، أيشكر أم يكفر؟ وتتولّد هذه الدركة من اقتران الحسد بالطمع حتى يتمنّى الحاسد انتقال النعمة من المحسود إليه.

ويتضمن هذا التمنّي القبيح الاعتراض على قسمة الله تعالى، وعلى حكمته فيما يعطي وفيما يمنع، وقد أحسن الشاعر في بيان هذا المعنى إذ قال:

ألا قل لمن بات لي حاسداً ... أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في حكمه ... بأنك لم ترض لي ما وهب

وقد يتضمن أيضاً هذا التمني القبيح شعوراً خبيثاً نحو الآخرين بالكراهية والحقد، لأنّ الله زادهم من نعمه. وهذا الشعور يمثل انحرافاً خلقيّاً أنانياً ممعناً في الانحطاط عن المستوى الإنساني الكريم، ولو كان لديه شعور بالمحبة تجاه الآخرين لم يحسدهم حسداً يتمنّى فيه زوال النعمة عنهم وانتقالها إليه، ليستأثر بها من دونهم.

ماذا يستفيد هذا الحاسد؟! إنه يحمّل نفسه وقلبه أثقال آلام الحرمان، ويوقد فيهما نيران الغيرة، ويعيش مع نفسه في بركانٍ من التعاسة والشقاء، لأنه لا ينظر إلى كنوز الله الملأى وبحر عطائه العظيم، ولا يعلّق قلبه بطلب ما عند الله من فضل، ولكن تضيق عينه، وتضيق نفسه، فلا ينظر إلاّ إلى ما في أيدي الناس من نعم، فتدفعه أنانيته المقيتة إلى حبّ الاستئثار بكلّ نعمة، وتمنّي كلّ النعم له وحده، وكراهية ذوي النعم.

ولا سبيل إلى إرضاء هذا الحاسد، إلاّ بأن تزول النعمة عن المحسود، فما له إذن إلاّ أن يموت بغيظه وكمده، وحسبه عقاباً أن يشقي نفسه بآلام حسده، ويجني لقلبه التعاسة والبلاء، وأن يفني عمره وفكره في الأماني الضائعات، ويكوي قلبه بجمرات الحسرات.

لو أنّ إنساناً بَقَرَ بَطْنَ نفسه بيديه، وملأه جمراً متوهجاً، ومشى به على تثاقل، متحملاً لذعاته وآلامه، سَعْياً إلى عدوّه، ليُحْرِقَ لَـهُ بعض متاعـه ورياشه، بما أخفى في بطنه من جَمْر، لما كانَ أَغْبَـى وأَجْهلَ من حسودٍ يحمل الحسد في قلبه لذي نِعمَةٍ أنْعم الله بها عليه، فيغدو تعيساً يتقلّبُ في آلام شقائه من داء حسده، بينما يرفلُ ذو النعمة في أثواب السعادة بفضل الله.

ما أخبث داء الحسـد! إنّه ليُعمِي بصيرة الحاسد، ويجعله كالهائم يمشي على غير هدى، فما يزال في مَسِيره يتعثّر، وفي ظلماته يتخبَّط ويتكسّر.

يتمنّى لنفسه السعادة، فيقيم بينه وبينها حجاباً مشقياً له من حسـده الخبيث.

ومتى بدأ الحسدُ يأكُلُ قلب الحاسد قامت في نفسه عداوة للمحسود، وحقد قاتلٌ له، دون أن يكون للمحسود كسبٌ في ذلك، إلاّ أنه منْعَمٌ عليه من ربّه.

والعداوة والحقد الناشئان عن الحسد يولّدان في نفس الحاسد الرغبة في كيد المحسود، والإضرار به، وإيقاع الشرّ فيه.

ثانياً: ويأتي من دون الدركة السابقة دركة أحط وأخس وأشدّ قبحاً وخبثاً منها، وهي أن يتمنى الحاسد زوال النعمة عن المحسود، ولو لم تنتقل إليه، فهو إذْ لا يستطيع نقل النعمة إلى نفسه يريد زوالها عن أخيه، حتى لا يمتاز عليه بها، أو حتى لا يناظره فيها إذا كان لديه مثلها. فقد يكون الحسود يملك مثل النعمة التي يحسد الآخرين عليها، ولكنه يريد زوالها عن الآخرين، حتى ينفرد هو بأنّ أحداً غيره لا يوجد لديه مثل النعمة التي عنده. فهو لا مصلحة له من زوال النعمة عمّن يحسدهم إلاّ حبّ الانفراد بين الناس بامتلاك ما يتميزّ به عليهم، فهو حسد مقرون بالكبر، وقد يكون الدافـع إليه مجـرّد الكراهيـة للآخرين، فهو خالص لوجه الشيطان.

ومن اقتران الحسد بالكبر الذي لا يرضي النفس معه إلاّ أن تنفرد من دون الناس بما يجعلها تتفاخر وتتباهى به على الآخرين، وكأنه لا يرى صاحب النعمة أهلاً لها، أو من اقتران الحسد بالكراهية للآخرين والحقد عليهم، يتولّد

تمنّي زوال النعمة عن الآخرين، ولو لم يكن للحاسد مصلحة بأن تنتقل النعمة إليه، فهو يشعر باللّذة إذا وجد من يكرههم أو يحقد عليهم في الألم والحرمان، أو في النقص والخسران.

وقد تكون هذه الدركة ناتجة عن اقتران الحسد بالشحّ المفرط، إذ تشح نفس الحسود بما عند الله من نعم، فيؤلمه أن يجود الله بها على أحدٍ من الناس سواه، فإذا رأى شيئاً منها وصل إلى غيره كزّت نفسه، فكأنه هو الذي يعطيها من خزائنه، وهذه الحالة النفسية المعقّدة التي تنتابه تجعله يتمنّى زوال النعمة عمن يحسده.

فهو حسد مع كبر، أو حسد مع كراهية، أو حسد مع شحّ.

وصاحب هذا الحسد يرثى لحاله، إنّ ناره تأكل قلبه، حتى تقتله، ولذلك اشتهر في الحكم السائرة قولهم: لله در الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله!!

وقد أحسن الشاعر في وصف هذا الداء إذ قال:

اصبر على حسد الحسـ ـود فإن صبرك قاتله
النار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

ومن الطرائف ما ترويه كتب الأدب من أنّ متحاسدين استدعاهما أحد الأمراء فقال لهما: أيكما طلب مني طلباً فإني أعطيه إيّاه، ثمّ أعطي صاحبه ضعفه، فصار يدفع كلٌّ منهما صاحبه حتى يكون هو البادىء بالطلب، وطال الوقت بهما وهما يتدافعان، حتى أحرجهما الأمير بالتهديد بالقتل، فلم يجد أحدهما طريقاً يرضي به حسده إلّا بأن يطلب من الأمير أن يقلع عينه، ليقلع الأمير بعد ذلك عيني صاحبه.

ثالثاً: ويأتي من دون الدركة الثانية دركة ثالثة أخس منها وأحقر وأخبث، وأكثر لؤماً وشراً، وهي دركة لا تقف عند حدود تمني القلب ولكنها تزيد عليه باتخاذ الوسائل والأسباب لإزالة النعمة عن صاحبها، أو طمس مظاهرها بالدسائس والمكايد، والمجاهرة بالعداوة، والجحود وغمط الحق، والظلم

والعدوان، والإصابة بالعين، وهكذا إلى جميع وسائل الكيد التي يكيد بها الحاسدون الظالمون الآثمون.

والعناصر التي تتكون منها هذه الدركة هي العناصر التي تتكون منها الدركة السابقة بإضافة عنصر الرغبة بالعدوان إلى مستوى التنفيذ، وممارسة ذلك بالعمل الإرادي.

وقد يكون في نفس بعض الحسودين طاقة مشعة مؤثرة تنطلق عندما يشتد حسدهم، فتؤثر بضرٍّ ما على المحسود ضمن سنن الله الكونية، وهذا ما يسمّى بالإصابة بالعين. وقد ثبت أنّ العين حقّ.

روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «العين حقّ» أي: الإصابة بالعين حقّ.

وروى مسلم عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «العين حقّ، فلو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا» أي: إذا طُلب من العائن أن يغسل أطرافه ليؤخذ الماء ويصب منه على المصاب بالعين لزمه أن يستجيب للطلب.

وثبت أنّ جبريل عليه السلام كان يرقي رسول الله ﷺ بأن يشفيه من شرّ حاسد إذا حسد ومن شرّ كلّ ذي عين.

روى مسلم عن عائشة أنها قالت: كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رقاه جبريل قال: «باسم الله يُبْريك، ومن كلّ داءٍ يشفيك، ومن شرّ حاسد إذا حسد، وشرّ كلّ ذي عين».

وروى مسلم عن أبي سعيد أنّ جبريل أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد اشتكيت؟ فقال: نعم، قال: «باسم الله أرقيك، من كلّ شيء يؤذيك، من شرّ كلّ نفسٍ، أو عينِ حاسدٍ يشفيك، باسم الله أرقيك».

وثبت في الأدعية النبوية قول الرسول ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامة، من كلّ شيطان وهامّة، ومن كلّ عين لامّة».

وكان الرسول ﷺ يعوّذ بهذا الدعاء الحسن والحسين.

وروى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح عن أسماء بنت عميس، قالت: يا رسول الله، إنّ وُلْدَ جعفر تسرع إليهم العين، أفأسترقي لهم؟ قال: «نعم، فإنه لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين».

وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: «أمر النبي ﷺ أن نسترقي من العين».

وروى البخاري ومسلم عن أم سلمة أنّ النبي ﷺ رأى في بيتها جارية في وجهها سُعْفة (أي: صفرة) فقال: «استرقوا لها فإن بها النظرة».

وروى الترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوّذ من الجان وعين الإنسان، حتى نزلت المعوذتان، فلما نزلت أخذ بهما وترك ما سواهما».

فقول الله تعالى في سورة الفلق: ﴿ومن شرّ حاسدٍ إذا حسد﴾ يشمل شرور الحاسدين التي يفعلونها بألسنتهم، وأيديهم، ومكايدهم، وشرورهم التي تكون من توجّه قوى خاصة فيهم حينما يصيبون بالعين.

وكان أعداء الرسول ﷺ من كبار المشركين يرون ما يتحلّى به الرسول من كمالات يمتاز عليهم بها، وما أنزل الله عليه من قرآن عظيم معجز لهم، فيحسدونه، حتى كادت أعينهم بتأثيرها تصيبه، لا سيما حينما سمعوا منه القرآن، إلا أن الله عصمه، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (القلم ٦٨):

﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ . . . ﴿٥١﴾ ﴾.

لَيزلقونك بأبصارهم: أي ليصيبونك بأعينهم، فيزيلونك عن مقامك الذي جعله الله لك؛ كمن يزلق وتزلّ قدمه عن مكان ناعم أملس فيسقط.

وثبت في الصحيح أنّ الرسول ﷺ طلب من عامر بن ربيعة أن يغتسل

لسهل بن حُنيف إذ أصابه بالعين؛ فلما فعل عامر ما أمره به الرسول ﷺ؛ ذهب عن سهل ما يجد.

عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال: رأى عامر بن ربيعة سهل بن حنيف يغتسل فقال: والله ما رأيت كاليوم ولا جلد فتاة مخبّأة ـ أي: مخبّأة في خدرها ـ قال: فَلَبِّط سهل، فأُتي رسول الله ﷺ فقيل له: يا رسول الله هل لك في سهل بن حُنيف؟ والله ما يرفع رأسه، فقال: «هل تتهمون له أحداً» فقالوا: نتّهم عامر بن ربيعة، قال: فدعا رسول الله ﷺ عامراً فتغلّظ عليه، وقال: «علام يقتل أحدكم أخاه، ألا برّكت (أي: هلاّ دعوت له بالبركة) اغتسل له» فغسل له عامرٌ وجهه، ويديه، ومرفقيه، وركبته، وأطراف رجليه، وداخلة إزاره في قدح، ثمّ صَبّ عليه، فراح مع الناس ليس به بأس».

رواه في شرح السنة، ورواه مالك وفي روايته قال: «إنّ العين حقٌّ توضّأ له»[1].

ولا بدّ أن نعلم أنّ الإصابة بالعين سبب من الأسباب الكونية، والأسباب الكونية لا تفعل إلاّ ضمن دائرة القضاء والقدر.

هذه هي دركات الحسد، ولكل دركةٍ منها مستويات بعضها أشدّ من بعض، وأخسّ المستويات وأقبحها ما يوصل إلى الكفر بالله والتمرّد على أوامره ونواهيه بالجحود والكنود، والتصميم على الظلم والبغي، وهذا ما انتهى إليه إبليس لعنه الله.

ولما لداء الحسد من عواقب اجتماعية سيئة جداً، ولما فيه من تأثير سيء على دين الحاسد وإيمانه، اشتد الإسلام في النهي عنه والتحذير منه.

ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً» رواه البخاري.

---

(١) مشكاة المصابيح رقم (٤٥٦٢) وعلق عليه الألباني بأنه صحيح الإسناد.

وروى النسائي في باب الجهاد عن أبي هريرة ضمن حديث طويل أنّ الرسول ﷺ قال: «ولا يجتمعان في قلب عبد: الإيمان والحسد».

وروى أبو داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إيّاكم والحسد، فإنّ الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب».

* * *

آثار الحسد في المجتمع:

حين يدفع الحسد الحاسدين إلى ارتكاب مركب الجريمة ينجم عنه في المجتمع شرور كبرى، منها الغيبة، والنميمة، والبغي، والعدوان، والظلم، والاتهام الباطل، وافتراء الكذب، والجور في الحكم، والسرقة، والغش، والقتل، وهكذا إلى كل جريمة قبيحة منكرة. ويتفاوت الحاسدون في مدى ارتكابهم للجرائم، ويكون لكل منهم نسبة تساير ضعف إيمانه، وقلة دينه وخوفه من ربّه.

وما من ذي نعمة إلاّ كان له حاسدون، وكان له من حاسديه ظالمون آثمون، دبّروا له المكايد، وافتروا عليه الفرى، ومكروا به أيّما مكر.

فذو نعمة في عقله وعلمه، كان له حاسدون واشون، أفسدوا ما بينه وبين ذي سلطان، بالكذب والبهتان، فناله من حسدهم بلاءٌ وهمّ، أو حزن وغمّ.

وذو نعمة في سلطانه ومجده، كان له حاسدون واشون، أفسدوا ما بينه وبين أقرانه، أو بينه وبين رعيته، بالكذب والبهتان، والظلم والعدوان، فناله من حسدهم همٌّ وغمّ، وحزن وبلاء.

وذو نعمة في ماله وتجارته، كان له حاسدون واشون، أفسدوا ما بينه وبين زبائنه وشركائه، أو بينه وبين ذي سلطان، بالكذب والبهتان، والظلم والعدوان، فناله من حسدهم بلاء وهم، أو حزن وغم.

وذو نعمة في دعوته إلى الله، وجهاده في سبيل الله، وإخلاصه في نصحه، وصدقه في عمله، كان له حاسدون واشون، أفسدوا ما بينه وبين إخوانه وأحبابه، وتلامذته وأصحابه بالكذب والبهتان، والظلم والعدوان، فناله من حسدهم بلاء وهم، أو حزن وغمّ.

وكم من زوجين حبيبين، يظلّلهما سرادق السعادة والهناء، ويمتعهما نعيم المودّة والصفاء، ويمدّهما العطاء الكريم بالصحة والرخاء، كان لهما حاسدون واشون، أفسدوا ما بينهما بالكذب والبهتان، والظلم والعدوان، فنالهما من حسدهم بلاء وهمّ، أو حزن وغمّ، وربّما منيا بمُرّ الفراق وشرّ الطلاق.

وكم من أصحاب متآخين في الله، متصافين متحابين، يجتمعون على الله ويفترقون عليه، قد ائتلفوا بينهم ائتلاف حبّات عقد اللؤلؤ النظيم، لا يمرّ النسيم فيما بينهم إلاّ بعطر، ولا تطلع الشمس عليهم إلاّ بزهر، ولا يسبل الليل عليهم ستره إلاّ بصفاء، ولا يمرّ الزمان على أحدهم إلاّ بوفاء، قد دخل بينهم حاسدون واشون، أفسدوا ما بينهم بالغيبة والنميمة، كذباً وبهتاناً، وظلماً وعدواناً، فنالهم من حسد حاسديهم همٌّ وبلاء، وعداوة وبغضاء، ثمّ تفرّقوا تفرّق الأعداء.

وكم من والدٍ أفسده مكر الحاسدين على ولده، فبات غاضباً عليه بعد أن كان راضياً عنه.

وكم من ولد أفسده الحاسدون على أبيه، فبات عاقّاً له بعد أن كان باراً به.

وكم من محصنة عفيفة شريفة، زنّاها الحاسدون والحاسدات، وأشاعوا عنها من الفواحش ما لم تفعل، فدفعوها إلى عقوبة الحدّ، أو أساؤوا سمعتها، ودنّسوا شرفها كذباً وبهتاناً، وهي مما افتروا أطهر من ماء السماء، أو هي في طهارتها كطهر الحور العين، اللاّتي لم يطمثهنّ إنس ولا جانّ، وكم من محصن عفيف شريف، فعل به الحاسدون مثل ذلك.

وكم من أمين خوّنه الحاسدون والحاسدات، فأردوه بالخيانة. وكم من صادق رماه الحاسدون بالكذب. وكم من عالم طعنه الحاسدون بالجهل. وكم من عاقل غمزه الحاسدون بالحماقة. وكم من رزين لمزه الحاسدون بالطيش. وكم من عادل شيّع عنه الحاسدون أنه جائر ظالم. وكم من صاحب خلق كريم وصفه الحاسدون بالنفاق. وكم من داع إلى الحق صادق مخلص وصفه

الحاسدون بالرياء، أو بأنه تاجر طالب جاهٍ أو مال. وكم من جميل قبّحه الحاسدون وشوّهوه. وكم من قويّ أضعفه الحاسدون وأوهنوه. وكم من ثريّ كاده الحاسدون ومكروا به حتى نزل به الفقر. وكم من ذي جاه وسلطان ما زال به الحاسدون حتى أذلّوه. وكم من ذي شجاعة وبأس وبطولة، مكر به الحاسدون حتى قتلوه، وكم من نبيٍّ أوقع به حاسدوه حتى قتلوه أو أخرجوه من بلاده.

كلّ هذا له شواهد وأمثلة كثيرة في أحداث التاريخ، وما يزال التاريخ يسجّل منها أحداثاً وأمثلة كثيرة، في كلّ حقبة من الزمن، وفي كلّ مجتمع من المجتمعات الإنسانية.

وهكذا يقطع الحسد وشائج المودّات، وصلات القرابات، ويفسد الصداقات، ويولّد في الناس العداوات، ويفكك أفراد المجتمع، ويباعد بين الجماعات.

إن مثل الحسد كمثل مقراض خبيث، يمشي بين الناس فيقطّع الأربطة التي تصل بعضهم ببعض على أساس من الأخوّة والمودّة. وكمثل معول خبيث، يهدم في بنيان الجماعات، ويقتلع أسس المودّات والصداقات، ويضع مكانها بذور العداوة والبغضاء والحقد.

في حين أن التربية الأخلاقية الإسلامية تبني المجتمع الإسلامي على أساس الأخوة، ذات الأربطة المتينة التي تجعل المجتمع بمثابة جسد واحد.

هذه لمحة عن آثار الحسد في المجتمع. أمّا أضراره على قلب الحسود ونفسه فيمكن تلخيصها بما يلي:

١ ــ إنه نوع من الاعتراض على أفعال الله تعالى، واتهام الله جلّ وعلا في حكمته العالية، والتطاول إلى مقام يجب على المؤمن أن يقف دونه موقف الأدب والرضا والتسليم، فهو يتنافى مع الإيمان، لذلك فهو والإيمان لا يجتمعان في قلب عبد، كما جاء في حديث الرسول ﷺ.

٢ ـ ما يمسّ قلب الحسود ونفسه من آلام تقض مضجعه، وتجعله مهموماً مغموماً، يعاني كمده، وتمزّقَ نفسه، وحزنَ فؤاده، إذ تطحن أعصابه المتوترة المتصلّبة آلامُ الحرمان والغيرة، وآلام النهم المصدود، والشره المردود، والطمع الموصود، والجماح المكبوح، والفؤاد المجروح.

* * *

أمثلة وشواهد:

١ ـ حسد إبليس ـ وهو من الجن ـ آدم عليه السلام أول إنسان خلقه الله من هذه السلالة البشرية. وقد بلغ الحسد بإبليس مبلغ التورط في الكفر والتمرّد على طاعة أمر الله، إذ اقترن في نفسه برذيلة خلقية أخرى، هي الكبر والعجب بالنفس، فكان مصيره اللّعن والطرد عن رحمة الله، وكان مصيره أيضاً الانطلاق في الإفساد والكيد لآدم وذريّته من بعده، حتى يكونوا من الغاوين، ومن أصحاب الجحيم، ويكونوا شركاءه في العذاب الأليم.

ومع إبليس جنود كثيرون من شياطين الجنّ والإنس، أكل الحسد قلوبهم فانطلقوا يُغوون الناس، ويفسدون في الأرض.

إنّ العلة النفسية الأولى لدى إبليس قد كانت علة الكبر، ثمّ لمّا ظهر فضل آدم بالعلم والمعرفة واكتشاف خصائص الأشياء وسماتها أكلت نيران الحسد قلبه على آدم وذريته، فأعلن عداوته لهم، وقرّر أن يتابعهم بالإغواء والتضليل، حتى يوقعهم في الهلاك والشقاء الأبدي، إذا استجابوا له فكفروا بربهم وعصوا أوامره ونواهيه.

وكان حسد إبليس من مستوى أخسّ دركات الحسد، إذ تولّد عنه وعن خلق الكبر معه البغضُ والعداء الشديد، والرغبةُ بإهلاك المحسود وتحطيمه، ودفعه إلى دركات الجحيم.

٢ ـ قصة ابْنَيْ آدم التي قصّها الله علينا في القرآن، وذكر المؤرخون أن اسمهما قابيل وهابيل.

قالوا: إنّ قابيل وهابيل من أبناء آدم عليه السلام، وكانت حواء تلد في كلّ حمل توأمين، أحدهما ذكر والآخر أنثى، وكان آدم يزوج أبناءه من بناته،

بحسب شريعة الرب حينئذ، ولكنه كان لا يزوج توأمين ذكراً وأنثى بعضهما من بعض، وإنما كان يفصل بين التوائم، فمن أراد أن يتزوج منهم فعليه أن يختار من شقيقاته غير التي كان معها في بطن أمّه في حمل واحد.

لكن قابيل أراد أن يتزوج بتوأمته، على خلاف نظام الزواج الذي كان في الـمدّة الأولى للتكاثر الإنساني، بينما كان نصيبه توأمة أخيه هابيل، ونصيب هابيل توأمة قابيل، وتمرّد قابيل على النظام، وصمّم على أن يتزوج بتوأمته، ويمنع أخاه هابيل عن الزواج منها، ورفض الزواج من توأمة هابيل، استحساناً لتوأمته.

فأمرهما أبوهما آدم عليه السلام أن يقرّب كلٌّ منهما لله قرباناً، فمن تقبّل الله منه قربانه كان أحق بالزواج من هذه الأخت المتنازع عليها ومن لم يتقبل الله قربانه فعليه أن يكفّ، فقرّب كلّ منهما لله قرباناً، فنظر الله إلى قلبيهما فتقبل قربان هابيل، ولم يتقبّل قربان قابيل، وثبت الحقّ لمن تقبّل الله قربانه. وأكل الحسد قلب قابيل، وحقد على أخيه، وأراد أن يتخلص منه بالقتل، وواجهه بالأمر، فقال له: لأقتلنّك. قال هابيل: إنّما يتقبّل الله من المتقين، لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني، ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك، إني أخاف الله ربّ العالمين.

وإذ حسد قابيل هابيل، وحقد عليه، وهدّده بالقتل، طوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله، ليخلو له الجوّ فيتزوّج بتوأمته التي استحسنها لنفسه، فأصبح بقتله من الخاسرين، ولم يجد من أخيه دفاعاً، وكان قابيل مثلاً لذوي النفوس الشريرة المجرمة، وكان هابيل مثلاً لذوي النفوس الخيّرة المسالمة.

ثم عانى قابيل مشكلة مواراة جثة أخيه، ولم يدر كيف يخفيها، فحملها، وجعل ينتقل بها من مكان إلى آخر، ويخشى افتضاح أمره، فبعث الله غراباً، فوقف بالقرب منه، وجعل الغراب يبحث في الأرض، حتى احتفر حفرة، فلمّا أتمّها دفن جثة غراب ميّت فيها، عندئذٍ قال قابيل: يا ويلتا، أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب، فأواري سوأة أخي؟! وعندئذٍ عظم الإثم في نفسه، وأصبح من النادمين على خطيئته، لقد جرّه الحسد الخبيث، حتى ركب مركب الجريمة الكبرى، فقتل أخاه، وعصى ربّه.

هذه القصة ذكر القرآن معظمها، وأشار في طيّ الكلام إلى ما لم يذكره منها، قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

وجاء في كلام الرسول ﷺ في شأن هذا القاتل الأوّل من ابني آدم، ما رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلماً إلّا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنّه أوّل من سنّ القتل».

كفل من دمها: نصيب إثم إهراق دمها ظلماً وعدواناً، لأنّ ابن آدم هذا أول من سنّ القتل في هذه السلالة البشرية.

وقاعدة الجزاء الربّاني في تحمّل الإنسان إثم عمله السيء وإثماً مثل إثم عمل كلّ عاملٍ تأثر به، وفي اغتنامه ثواب عمله الصالح وثواباً مثل ثواب عمل كلّ عامل اقتدى به وتأثر به، معلنة في نصوص كثيرة، منها قول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح: «من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً، ومن سنّ سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقصَ ذلك من أوزارهم شيئاً». من حديث طويل رواه مسلم عن جرير بن عبدالله البجلي.

ونلاحظ في قصة قابيل وهابيل أن الصالح منهما أراد أن يعلّم أخاه معنى الخير، ويشعره بفضل المتقين، ويبعد عنه لواعج الحقد والغضب، ويخفف من

داء الحسد لديه، وقد كان يستبعد جداً أن يكون منه قتل فعلي، دلّ على هذا قوله: «لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله ربّ العالمين»، وذلك لأنّ (إنْ) الشرطية تفيد أنّ ما يأتي بعدها أمرٌ مشكوك به، بخلاف ما لو جاء بدلها كلمة (إذا) فهي تستعمل لدى البلغاء في الأمور التي يترجّح وقوعها.

ولعل هابيل أراد أن يستغلّ داء الحسد لدى أخيه كي يصرفه عن ارتكاب الجريمة، ويوجه طمعه لما أعدّ الله للمتقين في جنات النعيم، فقال له: «إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار» ولو أنّ قابيل عَقل لأثارَ ذلك حسده فعلاً، فكف عن القتل حتى لا يفضله في أجر الآخرة ونعيمها. وهي طريقة من المعالجة النفسية بارعة جداً، إذ فيها استغلال داء الحسد نفسه لتحويله عن الشر إلى الخير، إلاّ أنّ هذا العلاج لم ينفع أيضاً في إصلاح قابيل، لأنه كان دنياوياً، فلم ينظر إلى الآخرة ودركات جحيمها ودرجات نعيمها، وظلّ يعاني من دائه حتى قتل أخاه.

٣ ــ قصة حسد أولاد يعقوب عليه السلام لأخيهم يوسف عليه السلام، إذ جعلهم الحسد يركبون مركب الجريمة، ويكيدون لأخيهم من أبيهم كيداً كبيراً، وقد قص الله علينا في القرآن قصة يوسف وما كان من حسد إخوته له.

يعقوب وهو إسرائيل عيه السلام ولد له اثنا عشر ولداً ذكراً من أربع نسوةٍ تزوّج بهنّ.

ستة منهم أمهم (لَيْئة) زوجة يعقوب الأولى، وهي ابنة خاله (لابان) وهم:

١ ـ رأوبين الولد البكر ليعقوب ٢ ـ شمعون ٣ ـ لاوي ٤ ـ يهوذا ٥ ـ يسّاكر ٦ ـ زبولون	هؤلاء أشقاء أمهم (لَيْئة)

واثنان منهم أمّهما (بِلْهَة) وكانت جارية، وهما:

١ ـ دان ٢ ـ نفتالي	هما شقيقان أمهما (بلهة)

واثنان منهم أمّهما (زلفة) وكانت جارية أيضاً، وهما:

١ ـ جاد ٢ ـ أشير	هما شقيقان أمهما (زلفة)

والأخيران منهم أمّهما (راحيل) وهي أخت (ليئة) الصغرى فهي ابنة خال يعقوب، وكان الجمع بين الأختين جائزاً في الشريعة المنزلة على إبراهيم عليه السلام، والأخيران هما:

١ ـ يوسف عليه السلام ٢ ـ بنيامين	هما شقيقان أمهما (راحيل)

وكان يوسف وشقيقه بنيامين أصغر الإخوة، وكان يوسف أحبّ أولاد يعقوب إلى قلبه، ويليه شقيقه الأصغر بنيامين. وكان يعقوب يلاحظ في يوسف أمارات النجابة، ويحسّ بأنه سيكون وارث النبوة من بين إخوته، وأنّ الله

سيجتبيه ويفضله، ولذلك كان أثيراً عنده، وكان محلّ رعايته الزائدة، ولا يكاد يستطيع مفارقته أو غيابه عنه.

وهذا ما أثار حسد سائر الإخوة عليهما، وانْصَبَّ الأمر بشدّة على يوسف، لأنه كان محلّ الحظوة الكبرى، وأكبر الشقيقين.

وصرّح الإخوة فيما بينهم بما يدل على حسدهم لهما، وجاء في القرآن ذكر مقالتهم في ذلك، فقال الله تعالى في سورة (يوسف ١٢):

﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾.

وأحسّ يعقوب بأن الحسد يأكل قلوب الإخوة على يوسف وأخيه، وأدرك أنهم لو عرفوا أن يوسف سيكون المفضل عليهم بالعطاء الإلهي في المستقبل حين يبلغ أشدّه لكادوهُ أيّما كيد، ولمكروا به أيّما مكر، ليتخلّصوا منه ومن سبقه عليهم، غافلين عن أنّ القضاء الربّاني لا يُعاند. ولذلك لمّا رأى يوسف ــ على حداثة سنّه ــ الرؤيا المنامية المشهورة، إذ رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر يسجدون له، فأوّلها له أبوه بأنه سيبلغ مجداً ورفعة يخضع له فيهما جميع إخوته حتى أبوه وقرينة أبيه اللذين جاء رمزهما في الرؤيا بالشمس والقمر، وأوصاه أبوه بأن لا يقص رؤياه هذه على إخوته، لئلا يكيدوا له كيداً كبيراً مستجيبين فيه لوساوس الشيطان، هذا ما قصّه الله علينا بقوله في سورة (يوسف ١٢):

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾.

ومن هذه الوصية نستفيد استحسان كتمان دلائل النعمة القادمة والمبشرات بها، لئلا تثير حسد الحاسدين، وتحرّضهم على فعل الشرور وتدبير المكايد.

واشتد حرص يعقوب على يوسف بعد هذه الرؤيا، وزاد شغفاً وعناية به، الأمر الذي ضاعف من حسد الإخوة.

وعندئذٍ تحوّل الحسد فيهم إلى مستوى تدبير مكيدة التخلص من يوسف، فائتمروا فيما بينهم على قتله، أو طرحه في البرية في مكان خالٍ حتى تأكله السباع، لولا أن أخفهم حسداً وأخشاهم لله نصحهم بأن يلقوه في بئر من آبار البرية الواقعة على طريق القوافل، لتلتقطه إحدى القوافل وتذهب به، وبذلك يتخلصون منه، دون أن يرتكبوا الجريمة الكبرى جريمة القتل ظلماً وعدواناً. قال الله تعالى في سورة (يوسف ١٢):

﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

واستقر رأيهم على أن يتخلصوا من يوسف بهذه الطريقة، وكان لا بد لهم من حيلة يحتالونها على أبيهم حتى يبعدوا يوسف عن نظره ومراقبته إذ كان لا يأمنهم عليه. ففاجأوا أباهم بالعتاب الشديد لأنه لا يأمنهم عليه مع أنهم إخوته وهم له ناصحون، ولأنه لا يبعثه معهم إذ يخرجون إلى المراتع والمراعي. فاعتذر يعقوب بأنه يحزنه فراقه، وبأنه صغير يخاف عليه أن يأكله الذئب، فأظهروا لأبيهم قدرتهم على حمايته، فهم عصبة، ولن يستطيع الذئب أن يصل إليه.

قال الله تعالى في بيان ذلك في سورة (يوسف ١٢):

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا

غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

أراد يعقوب أن لا يصرح لهم بأنه لا يأمنهم عليه، فاعتذر لهم بأنه يحزنه فراقه، فأجج بذلك حسدهم، وذكر لهم أنه يخاف أن يأكله الذئب، فتصيدوا هذا التخوف لديه ليقولوا له فيما بعد: لقد أكله الذئب.

وأخذوه، ونفذوا مكيدتهم، وألقوه في الجب، قال الله تعالى في سورة (يوسف ١٢):

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

وهكذا نفّذ الإخوة العشرة جريمتهم في أخيهم الغلام الصغير الذي لا حول له ولا حيلة.

وعادوا مساءً إلى أبيهم بدموع كاذبة، ودم كذب، وأقوال كاذبة، قال الله تعالى في سورة (يوسف ١٢):

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

وبهذه الجريمة النكراء داوى الإخوة داء الحسد الذي أكل قلوبهم. ولكنهم ما عرفوا أنّ طريق المجد الذي قضاه الله ليوسف عليه السلام كان من نافذة

الجبّ الذي رماه فيه إخوته وهم له حاسدون، وأنهم بعد حين سيذهبون إليه ساجدين، وهو متربع على سرير السلطان في مصر.

فليمت الحاسد بغيظه، ففضل الله كثيراً ما يأتي على أيدي الحاسدين، وبوسيلة المكر التي هم لها يمكرون.

وقد أحسن الشاعر إذ قال:

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عرف العود

٤ ــ وكان داء الحسد من أكبر العوامل التي جعلت اليهود ينكرون الحق الذي جاء به عيسى عليه السلام، ولذلك حاولوا التخلص منه، لولا أن نجاه الله فرفعه إليه، وألقى شبهه على من دلّ عليه.

وكان داء الحسد من أكبر العوامل التي جعلت اليهود أنفسهم ينكرون الحق الذي جاء به محمد صلوات الله عليه، وبالحسد تآمروا عليه وعلى دعوته في حياته، ثمّ تابعوا تآمرهم على الإسلام في جميع عصور التاريخ الإسلامي.

لقد حسدوا محمداً رسول الله لأنه كان من العرب، ولم يكن من بني إسرائيل، وقد اصطفاه الله فأنزل عليه خاتمة رسالات السماء وأشملها وأعمّها، وكانوا يعلمون من أنباء كتبهم وبشائرها أنّ رسولاً سيأتي ويستعلن به دين الله من جبال فاران (وهي جبال مكة) فلمّا جاءهم ما عرفوا حسدوه، فركبوا مركب الجريمة الكبرى، فكفروا به، فلعنة الله على الكافرين.

كان يهود المدينة يقولون للأوس والخزرج قبل ظهور أمر الرسول محمد ﷺ : إنّ نبيّاً مبعوث الآن، قد أظلّ زمانه، سنتبعه، ونقتلكم معه قتل عادٍ وإرم، وكانوا يسألون الله أن يفتح عليهم به. فلمّا جاءهم، وهاجر إلى المدينة، وعرفوا صدقه، حسدوه إذ لم يكن من بني إسرائيل، فدفعهم حسدهم إلى الكفر برسالته ومناصبته العداوة، قال الله تعالى في معرض الحديث عنهم في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ ﴾.

فقوله تعالى: ﴿بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾ دلّ على أن الحسد هو السبب الذي جعلهم يكفرون برسالة محمد ﷺ وذلك لأن أصل معنى البغي في اللغة الحسد (ذكر هذا بعض علماء اللغة)، ثم سُمّي الظلم بغياً على سبيل التوسع في دلالات الألفاظ، لأن الحاسد الآثم الذي لا يخشى الله يظلم المحسود جهده، بغية زوال نعمة الله عنه.

فهؤلاء اليهود باعوا أنفسهم للشقاء الأبدي، مقابل أن يكفروا بما أنزل الله على محمد ﷺ حسداً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فباؤوا بغضب من الله جديد، مركب على غضب سابق جرّه عليهم كفرهم بالرسالات السابقة وتحريفهم لها، ورضاهم بما أجرم آباؤهم وأجدادهم من قبل، واتباعهم على ضلالهم، وإصرارهم على الباطل.

وقال الله تعالى أيضاً بشأن اليهود في سورة (النساء ٤):

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

ففي هذا النص يوجه الله التوبيخ الشديد للذين أوتوا نصيباً من الكتاب، وهم اليهود، كما يدل عليهم سبب نزول النص، وسياق الآيات فيه.

ولإيمان اليهود بالجبت والطاغوت[1] قصة: وذلك أنه لمّا أُجلي يهود بني النضير عن المدينة، واستوطن من استوطن منهم خيبر، ذهب زعماؤهم يؤلبون قريشاً وسائر القبائل العربية المشركة على الرسول ﷺ والمسلمين معه في المدينة، وحزّبوا الأحزاب ضدهم، وجمعوهم لحربهم، وحينما كانوا يفاوضون زعماء قريش على ذلك، قالت لهم قريش: أنتم أهل الكتاب الأول، وقد جاء محمد ومعه كتابٌ يقول: إنه من عند الله، وقد كذّبناه وكفرنا به، فمن منّا على حق؟

قال لهم زعماء يهود: أنتم أقرب إلى الحق وأهدى سبيلاً من الذين آمنوا بمحمد!! مع أنهم يعرفون محمداً، وصفاته، وصدقه في دعوته، كما يعرفون أبناءهم، ولكنهم يكتمون الحق وهم يعلمون.

فهم بقولهم هذا للمشركين الذين يؤمنون بالجبت والطاغوت، قد آمنوا معهم بالجبت والطاغوت.

وكون اليهود يعرفون صدق محمد ﷺ حقّ المعرفة لانطباق صفات الرسول المبشر به في كتبهم عليه انطباقاً تاماً، قد دمغهم الله به في قوله في سورة (البقرة ٢):

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

وداء الحسد في اليهود الذين أصرّوا على الكفر والتكذيب لم يشفه أن يرتكبوا جريمة الكفر فقط، بل دفعهم هذا الداء إلى اتخاذ الوسائل المختلفة

---

(١) الجبت: كلّ ما عبد من دون الله، وقيل: هي كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك. **والطاغوت**: الشيطان، وكل رأس في الضلال، وكل معبود من دون الله، وهو لفظ يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث.

ليردّوا الذين آمنوا عن إيمانهم فيكونوا كافرين، وهذه هي خطتهم الإجرامية الكبرى التي يسيرون عليها في كل أرض يكون لهم فيها مدخلٌ وقدرة على الحركة، بله المواطن التي يكون لهم فيها نفوذ أو سلطان. وقد دمغهم القرآن بهذه الصفة، فقال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ... ﴿١٠٩﴾﴾.

وسلالاتهم اليوم يعملون على طريقة آبائهم الأولين، فيريدون إفساد العالم، وإخراج الناس من الإيمان إلى الكفر، ومن الهداية إلى الضلالة، ومن صراط السعادة والهناء، إلى سبل العذاب والشقاء.

والعوامل النفسية فيهم ذات أصول واحدة، لقد كانت حسداً خبيثاً، فتحول إلى حقد دفين على كل شعوب الأرض لا سيما المسلمون.

* * *

علاج داء الحسد:

١ ـ على الحاسد أن يساهم هو نفسه في معالجة دائه، وتبدأ عملية العلاج الصحيح بأن يصحّح الإنسان مفاهيمه بالقناعات الكافية المتصلة بقواعد الإيمان وأسسه الفكرية، فمتى استقامت في داخل النفس الإنسانية المفاهيم الإيمانية الكبرى، وهيمنت فيه على مراكز الشعور ومرابض الوجدان ومواطن العواطف، استقام اتجاه سفينته النفسية في خضم بحر الأهـواء والشهوات والمطامع والدوافع والانفعالات.

ويتم تصحيح هذه المفاهيم بتربية الإيمان بالله تعالى وبصفاته العلية، وبحسن الفهم عن الله والتبصر بعظيم حكمته جلّ وعلا، في عطائه ومنعه، وخفضه ورفعه، وإعزازه وإذلاله، وفي كل ما تجري به مقاديره. وبالتبصير بأن حكمة الله العظيمة لا تفارق قضاءه وقدره، وبالتبصر أيضاً بأن الأصل في النعم والمصائب في ظروف الحياة الدنيا أنها مجالات امتحان واختبار، وأنّ الحرمان قد يكون خيراً للإنسان من العطاء، وأن المصيبة قد تكون خيراً له من النعمة،

بالنظر إلى عواقب كل منهما. وأن الله العليم الحكيم هو الذي يعلم ما هو خير لنا فيقدّره لنا بفضله، وما أكثر ما نجهل وجه الخير لأنفسنا، وكثيراً ما نكره ما هو لنا خيرٌ، وكثيراً ما نحب ما هو لنا شر، والله يعلم حقائق الأمور، ونحن نغتر بظواهرها وزينتها.

ومتى صحّ الفهم عن الله على هذا الوجه اطمأن قلب الإنسان، وغشيته السكينة، وتنزلت عليه الرحمة، وعرف أن الخير كل الخير مرتبط بما يقضيه الله له من مصيبة أو نعمة، وبما تجري به مقاديره.

وعندئذٍ يقطع نظره عن الناس، فلا ينظر إلى ما وهبهم الله من نعم وعطايا، لأنه استقام فهمه عن الله، فعلم أنها صور من صور الابتلاء، وليست صوراً من صور التكريم، ومتى انقطع نظره عن الناس لم تتهيج في نفسه عوامل الحسد.

٢ ــ ثم يأتي علاج التدريب العملي على كفّ البصر عمّا وهب الله الناس من نعم، وما فضلهم به من عطايا وهبات، وذلك بحصر التطلع الدائم إلى عظيم فضل الله، وبحور خزائنه التي لا تنفد. وقد أرشد القرآن إلى هذا العلاج بقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ ﴾.

وبقول الله جل وعلا يؤدب رسوله ﷺ في سورة (الحجر ١٥):

﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

وبقوله له أيضاً في سورة (طه ٢):

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾.

أزواجاً منهم: أي أصنافاً منهم، وهم الأغنياء والكبراء وذوو المكانات الاجتماعية بين الناس، ونحوهم.

ففي هذه النصوص نهيٌ عن الحسد ومدّ الأعين، وتوجيه إلى سؤال الله من فضله.

٣ ـ ومع علاج التدريب العملي يأتي علاج التحويل والتصعيد، ويكون هذا العلاج بتعليق النفس بمجال تجارة أجلّ وأعظم من كلّ ما في الدنيا من نعم ومتع ولذات، ألا وهو مجال العمل للدار الآخرة، فمتى تعلقت النفس المؤمنة بهذا المجال أخذت سبيلها للسبق فيه، بالمجاهدة والكدح الدائب بصالح العمل، بغية نيل أعظم الدرجات في الآخرة، فهي درجات تنال بالكسب المفتوح لكل عامل على نسبة سواء. وهذا المجال لا مزاحمة فيه ولا معارضة، والسبق فيه يعتمد على ما في القلوب من تقوى وإخلاص لله في العمل، ولئن كانت الدنيا لا تتسع لأطماع الجميع فالآخرة تتسع لطمع كل طامع ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾.

٤ ـ وتوجد وسيلة وقائية يمكن أن تقي من الإصابة بداء الحسد، وهي وسيلة التربيةمنذ الطفولة على التخفيف من الشعور بالأنانية المفرطة، وذلك باتخاذ الوسائل التي تربّي في الناشىء حب الآخرين، وعدم النظر إلى ما عندهم بطمع ورغبة بالاستيلاء، والتي تغذّي فيه احترام حقوق الآخرين التي وهبهم الله إياها.

والأدب الإسلامي المطلوب حينما يرى الإنسان شيئاً لغيره فيستحسنه، أن يقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وأن يدعو لصاحب النعمة بالبركة، فإذا لم يفعل وشعر بأن بصره قد كان له أثر سيء فليتوضأ وفق الطريقة التي سبق بيانها في الحديث، وليصب الماء على من حسده من خلف، وليرم ما فضل على

الأرض من وراء ظهره، فلعل ذلك أن يرفع الأذى عنه، كما ثبت في الصحيح: «وإذا استغسلتم فاغسلوا».

* * *

(٥) كراهية الداعي إلى الحق:

وقد يكون جحود الحق ورفض اتباعه والعمل به ناشئاً عن كراهية شخص الداعي إلى الحق.

ولذلك صان الله رسله من المنفرات التي تُكَرِّه الناس بهم، وحلّاهم بالصفات التي تحبِّب الناس بهم، حتى لا يكون في ذواتهم أيّ عامل له تأثير عكسي على سير دعوتهم وامتدادها واستجابة الناس لها.

إن الإناء الجميل النظيف يساعد على تحريك الشهوة وانفتاح النفس لتناول الطعام الذي فيه، بخلاف الإناء القبيح القذر، فإنه يسدّ النفس ويصدّ الشهوة عن تناول الطعام الذي فيه، ولو كان الطعام بذاته شهياً لذيذاً.

لقد كان رسول الله ﷺ في ذاته إنساناً محبباً للقلوب مَهيباً، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، بهذا وصفه أصحابه رضوان الله عليهم. وكان أجمل الناس خَلْقاً، وكان أحسن الناس خُلقاً، وبذلك استكمل كل العناصر التي تحبب الإنسان إلى الناس، فلم يكن الرسول ﷺ مكروهاً من النـاس لشخصه.

وكان صالح عليه السلام في قومه ـ قبل أن يبعثه الله رسولاً إليهم ـ مرجوّاً لكل رأي سديد وعمل رشيد، بما حلّاه الله به من صفات، ولذلك قال له قومه بعد البعثة كما أخبرنا الله في سورة (هود ١١):

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾.

وكذلك كان سائر رسل الله عليهم الصلاة والسلام.

فواجب الداعي إلى الحق أن يتحلى بالصفات التي تحبب الناس به، حتى لا تكون كراهيتهم له صادة لهم عن اتباع الحق والاستجابة لدعوته.

* * *

(٦) التقليد الأعمى والتعصب الذميم:

وكثيراً ما يكون جحود الحق ورفض اتباعه والعمل به ناشئاً عن التقليد الأعمى والتعصب الذميم لقوم أو قادة ملتزمين جانب الباطل.

وينشأ عن التقليد الأعمى ظلمات في النفس تحجب البصيرة عن رؤية نور الحق، فلا يرى المقلِّد إلاّ عمل من يقلده، ورأي من يقلده، والسبل التي يسير فيها من يقلّده، كالأعمى الغبـي الذي يقوده في الطريق قائد يثق هو به، فهو يتبعه ولو قاده أو ساقه إلى هلاكه.

ويتولد التقليد الأعمى من ضعف الثقة بالنفس مضافاً إليه عامل الثقة العمياء بالشخص المتبوع، أو الجماعة أو القوم المتبوعين، وهذه الثقة تأتي من دافع المحبة، أو من دافع الهوى، أو من قناعة غير مستندة إلى أسس عقلية وعلمية صحيحة، أو من دافع الأنانية في التابع حينما يكون المتبوع من أصوله، أو من قومه، أو من بيئته، أو من ساكني وطنه.

وغريزة التقليد هي في الأصل غريزة حسنة نافعة، يكتسب بها الناشىء من بيئته كثيراً من المعارف والمهارات والعادات والأخلاق الحسنة، التي توصل إليها الناس بعد تجارب القرون الكثيرة الأولى. لكن المفروض في الإنسان السوي الذكي العاقل المبدع أن لا يجمُد عند حدود التقليد، وإلاّ وقفت الإنسانية عن التقدم والارتقاء إلى ما هو أكمل وأفضل وأحسن، وأن لا يمسك بمذهب التقليد كلّما اكتشف أنّ ما يقلده أمر باطل، أو أن غيره أفضل منه وأحسن. فالإرادة الإنسانية يجب أن تكون تابعة للحق الذي يقضي به منطق العقل وتجارب العلم، ولما هو أفضل وأحسن وأكمل في منطق العقل وتجارب العلم أيضاً.

وهنا يقع كثير من الناس فريسة عدم التمييز بين التقليد المحمود والتقليد المذموم. ويتخفف كثير من الناس من أعباء البحث والنظر، وتطوير المعرفة إلى ما هو أحسن، فيقعد مع القاعدين، ويرضى لنفسه بأن يكون في كل شؤونه مقلّداً، ودفاعاً عن نفسه فيما ارتضاه من خطة التقليد دون بصر ولا نظر؛ تتولد

لديه عصبية خاصة نابعة من منابع الأنانية، يتعصب فيها لكل رأي أو عمل أو مذهب أو سبيل لمتبوعه الذي يتابعه على طريقة التقليد الأعمى، ويحاول أن يجد المبررات لذلك مهما كانت مبررات تافهة مردودة في منطق العقل وتجارب العلم.

إن الإنسان لينشأ في بيئة من البيئات الاجتماعية، فيكتسب منها معارف ومهارات وعادات وأخلاقاً كثيرة، ومن هذه المكتسبات ما هو حق ومنها ما هو باطل، ومنها أيضاً ما هو صالح ومنها ما هو فاسد، وبمقتضى نشوئه في هذه البيئة يتكوّن في نفسه إلف لها مهما كان وضعها. وإذ يعتبر نفسه جزءاً من هذه البيئة الاجتماعية يتكون لديه بدافع الأنانية خلق التعصب لأهله وعشيرته وقومه وسائر من هم في بيئته، وجميع ما هو في بيئته من مفاهيم وعادات وأخلاق؛ لأنه بتعصبه هذا يدافع عن كيانه الذاتي من وجهة نظره المنحرفة عن منهج الحق، ومنهج التفكير السليم، دون أن يسمح لعقله المتجرد عن مؤثرات البيئة أن يبحث ويناقش ويميز بين الحق والباطل والصالح والفاسد.

ويمكن أن نقول: إنّ في طليعة الضلالات الاعتقادية المنتشرة في جماهير كثيرة وشعوب كبرى؛ الاعتقادات والمفاهيم الوراثية المتمكنة في الأنفس بسبب التعصب لما كان عليه الأسلاف، سواءٌ أكان لها حظّ من النظر أو لم يكن لها منه نصيب غير أوهام ووساوس شياطين.

وبالتتبع نلاحظ أن كثيراً من شعوب الأرض ليس لها أية حجة فيما تتمسك به من معتقدات تافهة غير كونها معتقدات ورثوها عن أسلافهم من قومهم، فاقتدوا بهم، وتعصبوا لهم، وساروا على آثارهم، وما أكثر ما نجد في البشر من هؤلاء المقلدين المتعصبين لعقائدهم الموروثة دون بصر ولا نظر.

فمنهم الشعوب الوثنية التي نرى منها مئات الملايين في الصين والهند وإفريقيا وغيرها، على الرغم من أن العقائد الوثنية الخرافية لا تعيش في نور العلم والحضارة، وإنّما يكون لها تأثيرها على البدائيين في الأمم التي تعيش في الأجواء المظلمة من الجهل والتخلف الفكري والحضاري، ولكنه لما أضيف إلى

هذه المعتقدات الباطلة عنصر التعصب الأعمى والتقليد لما كان عليه الأسلاف، أمكنها أن تعيش في عصور العلم والنور والحضارة الإنسانية على الرغم من تفاهتها الظاهرة.

ومنهم أيضاً أمم الأنبياء من قبل، والأمة العربية قبل بعثة محمد ﷺ فإنّ الرسول لمّا دعاهم إلى الحق وأقام عليهم الحجج والبراهين القاطعة عارضوا دعوته بحجتهم التافهة التي ليس لها وزن في منظار العقل السليم، فقالوا له: إنا وجدنا آباءنا على أمّة ــ أي: على طريقة ــ وإنّا على آثارهم مهتدون. وقالوا له أيضاً: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا.

وهل يصح في نظر العقل أن يستمسكوا بمعتقدات آبائهم وطرائف آبائهم في السلوك لمجرّد التقليد الذي لا بصر فيه ولا نظر؟! ولنفرض أنّ آباءهم لم يؤتوا حظاً من العقل أو من الهداية، أو أنّهم اتبعوا أهواءهم ووساوس الشياطين، أفيتبعونهم على عمىً وجهل؛ وقد يكون في تقليدهم لهم الهلاك والدمار؟!

وقد ناقش القرآن المقلّدين تقليداً أعمى، المتعصبين لما كان عليه آباؤهم وأسلافهم، وذمّ طريقتهم، وأبان فسادها من الناحية العقلية المنطقية، ومن الناحية الواقعية، وفيما يلي طائفة من العرض القرآني لمذهب التقليد الأعمى المتعصب الفاسد عقلياً وعلمياً وواقعياً:

١ ــ واجه كفّار العرب دعوة الرسول محمد ﷺ إلى اتباع ما أنزل الله بقولهم: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، فأبان الله لهم فساد هذا المذهب التقليدي الأعمى بقوله: أَوَلو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون؟! وبقوله: أَوَلو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون؟! وبقوله: أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير؟؟!!

أي: أفهم يلتزمون اتباع ما كان عليه آباؤهم ولو كان آباؤهم محرومين من العقل نهائياً، ومحرومين من نور الهداية إلى الحق وسواء السبيل ومحرومين من العلم ومن المعرفة الهادية؟؟!!

إنّ هذا الأمر عجيب مستنكر أن يصدر من العقلاء الذين لديهم قليل من العقل والتفكير والنظر في عواقب الأمور.

قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ؟؟!! ﴿١٧٠﴾ ﴾.

ألفينا: وجدنا.

وقال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ؟؟!! ﴿١٠٤﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (لقمان ٣١):

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾.

فإذْ لا سند لتقليدهم من عقل، ولا من علم، لم يبق لهم إلّا أنّ الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير، فهم يتبعونه إلى شقائهم، ويتحملون مسؤوليتهم كاملة.

٢ ــ وأبان الله لرسوله محمد ﷺ أنه ما من رسول أرسله الله من قبله في قرية إلّا قال له مترفوها ــ وهم أغنياء أهلها ووجهاؤهم وكبراؤهم ــ: «إنّا وجدنا آباءنا على أمّة وإنّا على آثارهم مقتدون» أي: إنا وجدنا آباءنا على ملّة ودين وطريقة اعتقاد وسلوك، وإنّا على آثارهم مقتدون.

وعلّم الله رسوله أن يقول لهم في نقاش عقلي سلمي سليم: أَوَلَوْ جئتكم بأهدى ممّا وجدتم عليه آباءكم؟؟!!

أي: أفأنتم تصرّون على تقليد آبائكم فيما وجدتموهم عليه، ولو جاءكم ما هو أهدى منه وأرشد؟؟!!

إنّ هذا لأمر عجيب مستنكر أن يصدر من العقلاء الذين لديهم قليل من العقل والتفكير والنظر في عواقب اللأمور.

قال الله تعالى في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ
مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ
ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ؟!... ﴿٢٤﴾﴾

أمّة: دين وملّة وطريقة.

ولمّا اقتدوا بآبائهم زعموا أنّهم باقتدائهم هذا مهتدون، فقالوا: وإنا على آثارهم مهتدون، أي: مقتدون مهتدون، وهذا الزعم غير مدعّم بدليل عقلي ولا بدليل علمي، إنما هو تقليد أعمى زيّنته العصبية، واتباع الأهواء.

وجعل بعضهم يحذر بعضاً فيقولون: ﴿ما هذا إلّا رجل يريد أن يصُدّكم عمّا كان يعبد آباؤكم﴾ كما جاء في سورة (سبأ ٣٤) الآية (٤٣).

٣ ــ وكانت حجة قوم إبراهيم عليه السلام في عبادتهم للأصنام أنهم وجدوا آباءهم يفعلون مثل ذلك، فقلّدوهم في طريقتهم.

قال الله تعالى في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ
أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ

يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾
أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ
يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى
ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾.

وهكذا أقام لهم إبراهيم عليه السلام الحجّة على فساد طريقتهم في عبادة الأصنام فدلّهم بذلك على فساد التقليد الأعمى الذي تابعوا فيه آباءهم.

وقال الله تعالى في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ
مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ
لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾
قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾
وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا
لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

وهكذا أقام لهم إبراهيم الدليل العقلي والدليل العملي الواقعي على فساد طريقتهم في عبادة الأصنام، فدلّهم بذلك أيضاً على فساد التقليد الأعمى الذي تابعوا فيه آباءهم.

٤ ــ واستنكر فرعون وملؤه دعوة موسى، على أساس أنه يريد بها صرفهم عمّا وجدوا عليه آباءهم، كأن طريقة الأسلاف هي الطريقة القويمة التي يجب اتباعها دائماً مهما كان واقع حالها مخالفاً لمنطق العقل وتجارب العلم.

قال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

وكذلك فعلت من قبل ثمود، إذ قالوا لنبيِّهم صالح عليه السلام: ﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟!﴾ كما جاء في سورة (هود ١١) الآية (٦٢).

وكذلك فعل قوم شعيب عليه السلام، إذ قالوا له: ﴿أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا؟!﴾ كما جاء في سورة (هود ١١) الآية (٨٧):

ومثل ذلك قال قوم هود له، كما جاء في سورة (الأعراف ٧).

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

٥ ــ ووصف الله بني آدم بأنهم يبرّرون فعلهم للفواحش بأنّهم قد وجدوا عليها آباءهم، فهم يقلّدونهم في ذلك، مع أنّ التقليد لا يعفي المقلّد من المسؤولية الشخصية. ثم ينتقلون من ذلك إلى الكذب على الله، فيفترون على الله لما يفعلون من فواحش أحكاماً دينية تأمرهم بها، أو تأذن لهم بفعلها، قال الله تعالى في معرض الحديث عن بني آدم في سورة (الأعراف ٧):

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

٦ ــ وذكر الله أنّ كلّ الأمم قد قالت لرسلها مثل هذه المقالة، مستنكرة دعوة الرسل بأنها تصدّ عمّا كان يعبد آباؤهم، فالعلّة في الناس متشابهة، لأن قلوبهم ونفوسهم وعوامل انحرافهم متشابهة، قال الله تعالى في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ

أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾.

* * *

(٧) نوازع نفسية مختلفة، كالغضب والطمع والخوف:

وقد يكون جحود الحقّ ورفض اتباعه والعمل به ناشئاً عن الغضب الذي ينطمس معه وجه الحقيقة، أو عن الطمع الذي قد يُعمي بصيرة صاحبه فلا يرى الحق، أو عن الخوف الذي قد يؤثر في النفس مثل تأثير الطمع أو أكثر.

لذلك كان على داعي الحق أن ينتظر مَنْ يدعوه حتى تهدأ ثورة غضبه إذا وجده غضبان. وأن يهدىء روعه ويؤمنه مما يخاف إذا وجده في حالة خوف. وأن يداري شدة طمعه فيرضيه له ببعض المرضيات حتى يفتح نفسه لقبول الحق.

وهذا ما اعتمدت عليه التربية الإسلامية في أساليب الدعوة إلى الله، وجمع الخلق على الحقّ.

وقد كان الرسول ﷺ يعطي أقواماً عطاءً جزيلاً لما يرى في قلوبهم من الطمع والهلع، فيتألف بذلك قلوبهم، ويحبب إليها اتباع الحقّ وسلوك سبيل الهدى.

روى البخاري ومسلم عن أنس قال: إنّ ناساً من الأنصار قالوا حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطفق يعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويدعنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، فحُدِّث لرسول الله ﷺ بمقالتهم، فأرسل إلى الأنصار، فجمعهم في قبّة من أدم، ولم يدعُ معهم أحداً غيرهم؛ فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: «ما حديث بلغني عنكم؟؟» فقال فقهاؤهم: أمّا ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً، وأمّا أناسٌ منا حديثة أسنانهم قالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويدع الأنصار وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال رسول الله ﷺ:

«إني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلى رحالكم برسول الله؟» قالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا.

* * *

الغرور بالنفس والإعجاب بالرأي:

وقد يكون جحود الحق ورفض اتباعه والعمل به ناشئاً عن الغرور بالنفس والإعجاب بالرأي.

وذلك أنه قد تبرق في ذهن المغرور بنفسه بارقة من فكرة تمرُ في خياله أو في توهمه، فيلبسها غروره ثوباً لمّاعاً مزركشاً مزخرفاً، فتحلو في نفسه وتزدان، ثم يتجسّم توهمه بها حتى تمسي عقيدة راسخة لديه، دون أن يَزِنَها بميزان الحجة والبرهان والمناقشة المنطقية السليمة، ودون أن يقيسها بمقاييس العلم الصحيحة، وقد يسعى مبشراً بها بين السذّج وضعفاء التفكير والجاهلين؛ بزخرف من القول، وقد يستخدم قوة شخصيته للتأثير عليهم، ثم قد يكون له مؤيّدون وأنصار يتابعونه على ضلالته التي انخدع هو بها بعامل الغرور بالنفس والإعجاب بالرأي.

ويطغى الغرور بالنفس والإعجاب بالرأي حتى يكون حجاباً كثيفاً يحجب بصيرة الإنسان عن رؤية الحق.

ومتى أمست الفكرة الباطلة جزءاً من كيان الإنسان صَعُب عليه أن يتنازل عنها ولو انكشف له وجه الحق بعد ذلك، إلاّ عند محبـي الحقّ وطلاّبه بصدق، فإنهم لا تمنعهم أنانية ولا عصبية ولا إلف عن الرجوع إليه، وهجر ما كانوا عليه، وإعلان أنهم كانوا مخطئين.

وقد نشأ في التاريخ فرق متعدّدة تحمل مذاهب فكرية سقيمة، منحرفة عن المنهج الفكري السليم، وذلك بسبب إصابة واحد أو جماعة من الناس بمرض الغرور بالنفس والإعجاب بالرأي، ثم كان منه ــ ومن عوامل أخرى ــ ضلالة موروثة يعسر التخلّص منها، ما لم يتحرّر المنتسبون إلى هذه الفرق الضالة من مواريثهم الاعتقادية، بمناقشة عقائدهم مناقشة فكرية سليمة مؤيدة بالحجج المنطقية، والبراهين العلمية الصحيحة.

* * *

ضعف العقل وضعف الإرادة:

قد ينشأ من الضعف العقلي عقائد باطلة وأفكار منحرفة فاسدة، فتكون هذه العقائد والأفكار سدوداً في النفس تمنع من رؤية الحقّ المنير، فيجحدُ أصحابها الحقّ ويرفضون اتباعه والعمل به. وحين تغدو الأفكار والعقائد الباطلة مواريث قومية تأتي العصبيات وعوامل الإلف فتمكن لها في النفوس، فلو عرف أصحابها أنهم على باطل وخطأ لم يدعوها تعصباً لها، لأنها قد غدت في تصوراتهم الفاسدة جزءاً من كيانهم، مع أنّ الإنسان العاقل المنصف اللألمعي نزّاع إلى الحقّ دائماً حيث كان الحق، ورجاع إليه ولو خالف نفسه وهواه.

وقد ينشأ من ضعف الإرادة أنها تستخذي أمام ذوي سلطة سياسية أو اجتماعية أو روحية، أو أمام شخصيّة قوية لها تأثير على نفوس الآخرين؛ وعندئذ تتعطّل القوى الفكرية، ويغدو ضعفاء الإرادة إمّعةً وأتباعاً لمن يستطيع أن يفرض سلطانه عليهم.

ومتى استسلم إنسان بإراداته لذي إرادة قوية، ومكنه من السيطرة عليه، استطاع ذو الإرادة القوية حينئذ أن يتلاعب بمفاهيم فريسته وعقائده وسلوكه على ما يشتهي ويهوى.

وبهذا السبب نلاحظ الجمهور الكبير من الأتباع الذي تعطّلت إراداتهم الشخصية يعتقدون ما يمليه عليهم سادتهم وقادتهم، دون أن يعملوا أفكارهم ببحث حر، أو مناقشة منطقية سديدة، سواء أكان ذلك حقاً أو باطلاً، خيراً أو شراً.

وسوف لن يغنيهم من الحق شيئاً يوم القيامة أن يقولوا: «ربنا إنّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا».

وينبئنا القرآن أنّ فرعون لما استطاع أن يؤثر على قومه بقوة إرادته ونفوذ سلطانه، استطاع أن يقول لهم كما جاء في سورة (غافر ٤٠):

﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

ولّما كان قوم فرعون في مستوى من الخفة وضعف الإرادة يستطيع معه أن يفرض عليهم طاعته، قال الله في شأنه وشأنهم في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

وضعفاء الرأي ضعفاء الإرادة يتخفّفون من مسؤوليـة البحث ورؤية طريقهم في الحياة، فيقولون: نحن مع الناس إنْ أحسنوا أحسنا، وإن أساؤوا أسأنا.

وقد سمى الرسول ﷺ من كان من هذا الصنف إمعة، روى الترمذي عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا تكونوا إمعة تقولون: إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساؤوا فلا تظلموا». قال الترمذي: حديث حسن غريب.

فالإمّعة: هو الذي لا رأي له ولا عزم، فهـو يتابـع غيره عـلى رأيه، ولا يثبت على شيء.

وهذه من الصفات القبيحة الضارة في الإنسان، ومن الأخلاق التي لا يرضى الإسلام أن تكون من أخلاق المؤمنين به.

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الفصل الخامس: اكتساب الأخلاق ووسائله

الموضوع	الصفحة
(أ) في اختلاف فطر النفوس والأرواح	١٨٠
(ب) في الأخلاق الفطرية	١٨٣
(ج) في الأمانة وفي كون عنصرها من الأخلاق الفطرية	١٨٤
٣ ـ كيمياء الطباع والخلق الفطري	١٨٧
٤ ـ قابلية الناس لاكتساب الأخلاق	١٩٠
٥ ـ الأسس التربوية العامة لتقويم أخلاق الناس	١٩٥
الأساس الأول: التدرج في البناء التربوي	١٩٥
الأساس الثاني: معاملة كل نموذج طبعي بما يناسبه ويلائمه من وسائل التربية، ومعاملة كل حالة نفسية بما يلائمها	١٩٦
الأساس الثالث: تصيّد المناسبات الملائمة للتوجيه التربوي	١٩٨
الأساس الرابع: الرعاية الشجرية	١٩٨
الأساس الخامس: التوجيه والتحويل	٢٠٠
الأساس السادس: التصعيد	٢٠٠
الأساس السابع: المزاحمة والتضمير	٢٠١
الأساس الثامن: إيجاد الحافز الذاتي، وله عدة طرق:	٢٠٢
١ ـ طريق الإيمان بالله واليوم الآخر وبقضاء الله وقدره	٢٠٢
٢ ـ طريق الاقناع الفكري	٢٠٤
٣ ـ طريق الترغيب والترهيب	٢٠٥
٤ ـ طريق تربية الوجدان الأخلاقي	٢٠٦
٦ ـ وسائل اكتساب الأخلاق	٢٠٧
أولاً: التدريب العملي والرياضة النفسية	٢٠٨
ثانياً: الغمس في البيئات الصالحة	٢١١
ثالثاً: القدوة الحسنة	٢١٤
رابعاً: الضغط الاجتماعي من قبل المجتمع الإسلامي	٢١٧
خامساً: سلطان الدولة الإسلامية	٢١٩
خاتمة لوسائل اكتساب الأخلاق	٢٢١

الموضوع	الصفحة

الباب الثاني
الإنسان في دائرة الدلالات القرآنية

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث: في الصدر

الفصل الرابع: في القلب

الباب الثالث

الرسول ذو الخلق العظيم وتربية القرآن له في مجال السلوك الخلقي

الفصل الأول: خلق الرسول ﷺ في القرآن وصفاً وتربية

الباب الرابع
جوامع مفردات الأخلاق وكلياتها الكبرى

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

إلى هنا ينتهي الجزء الأول
من كتاب الأخلاق الإسلامية وأسسها
وسوف يليه ـ إن شاء الله ـ الجزء الثاني، وأوله:
الرحمة وفروعها وظواهرها السلوكية وأضدادها

آثار المؤلف

أولاً:

أ - سلسلة (في طريق الإسلام).

١ ـ العقيدة الإسلامية وأسسها (مجلد كبير).

٢ ـ الأخلاق الإسلامية وأسسها (مجلدان كبيران).

٣ ـ أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها (مجلد متوسط).

ثانياً:

ب ـ في سلسلة أعداء الإسلام:

١ ـ مكايد يهودية عبر التاريخ.

٢ ـ صراع مع الملاحدة حتى العظم.

٣ ـ أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها (التبشير ـ الاستشراق ـ الاستعمار).

٤ ـ الكيد الأحمر.

٥ ـ غزو في الصميم.

٦ ـ كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة.

قيد الإعداد:

٧ ـ النفاق والمنافقون.

ثالثاً:

جـ - سلسلة (من أدب الدعوة الإسلامية).

١ - آمنت بالله (شعر).
٢ - ترنيمات إسلامية (شعر).
٣ - مبادىء في الأدب والدعوة.
٤ - ديوان أقباس في منهاج الدعوة وتوجيه الدعاة (شعر).

رابعاً:

د - كتب متنوعة:

١ - ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة.
٢ - تفسير سورة الرعد (دراسة أدبية وفكرية ولغوية).
٣ - روائع من أقوال الرسول ﷺ (دراسة أدبية وفكرية ولغوية).
٤ - قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل.
٥ - الأمثال القرآنية.
٦ - الوجيزة في العقيدة الإسلامية.
٧ - الأمة الربانية الواحدة.
٨ - بصائر للمسلم المعاصر.
٩ - الصيام ورمضان في السنّة والقرآن.
١٠ - براهين وأدلة إيمانية.
١٢ - نوح عليه السلام.
١٣ - تدبُّر سورة الفرقان.

اقــرأ للمؤلــف

في آخر ما أخرج للناس من كتب

نوح عليه السلام

وقومه

في القرآن المجيد

دراسة

في طريق التفسير الموضوعي

تدبر سورة الفرقان

في وحدة موضوع

وهي السورة الثانية والأربعون بحسب ترتيب النزول

تدبر بمنهج كتاب

قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل

دار القلم
دمشق

الأخلاق الإسلامية

وأسسها

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

الجزء الثاني

دار القلم
دمشق

الأخلاق الإسلامية
وأسسها

الطبعة الخامسة
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

تطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الثاني

الرّحمة وفروعها وظواهرها السّلوكيّة وأضدادها

من الأصول الخلقية وكلّيّاتها العامة خلق الرحمة، ولهذا الأصل فروع أخلاقية متعدّدة، منها برّ الوالدين، ومنها صلة الرحم، ومنها إكرام اليتيم، ومنها العطف على الفقراء والمساكين والمرضى والخدم وذوي الحاجات والضعفاء والعجزة وذوي المصائب، ومنها التعاطف بين الإخوان والأصحاب والجيران وبين المسلمين بوجه عام، ومنها الشفاعة الحسنة، ومنها لين الجانب للناس، ومنها العفو والصفح عن المسيء، ومنها مشاورة رئيس الجماعة وقائدهم وولي أمرهم لأهل المشورة منهم رحمة بقلوبهم ونفوسهم التي يؤلمها الإهمال والاستبداد، إلى غير ذلك.

تعريف الرحمة:

قد يكون من العسير التوصّل إلى تعريف دقيق للرحمة، لأنّ شأن الرحمة كشأن معظم العواطف والانفعالات، إنما تدرك وتعرف بظواهرها، لا بحقيقة تكوينها.

ولكن باستطاعتنا أن نقرّب للتصّور فهم حقيقة الرحمة، وذلك بأن نقول: الرحمةُ رقة في القلب يلامسها الألم حينما تدرك الحواسّ أو يتصور الفكر وجود الألم عند شخص آخر؛ أو يلامسها السرور حينما تدرك الحواس أو يتصور الفكر وجود المسرّة عند شخص آخر.

فهي مشاركة الكائن الحيّ لغيره في مثل آلامه ومسرّاته، والشعور بمثل

مشاعره، ولا يشترط في المماثلة التساوي في المقدار، وإنما يكفي فيها المشاركة العامة في الألم أو المسرّة.

الرحمة منبع كريم يفيض بالعطاء، وهو إذا لم يفض بالعطاء لمستحقي الرحمة بسبب من الأسباب، احتقن فآلم صاحبه.

إنّ الرحيم يؤلمه جداً أن يشهد آلام مستحق الرحمة، ثم لا يفيض له بعطاء يدفع عنه آلامه، أو يخفّف له منها، وهذا هو خلق المؤمنين الذين ربّاهم الإسلام عليه.

ألسنا نشاهد الأمّ الرؤوم حينما يثيرها بكاء طفلها الرضيع، الذي يؤلمه الجوع، كيف يمتلىء ثديها لبناً، ويدفعه حنانها على طفلها للتدفق، فإذا لم ترضعه احتقن اللّبن في ثديها فآلمها وأوجعها احتقانه؟

كذلك الرحمة في كلّ ما تندفع إليه.

للرحمة مستويات:

والرحمة ذات مراتب ودرجات، ولها مستويات متفاوتات، قد يصل بعضها إلى أن يشعر الراحم بمثل مشاعر من يرحمه تماماً، في النوع والمقدار، وقد يعمل التصوّر على أن تكون فعلاً أكثر من مشاعر من يرحمه. وتتنازل هذه المراتب والمستويات حتى تكون شفقة عابرة، أو رقّة آنية لا تقوى على تحريض صاحبها تحريضاً مؤثراً في بذل معونة، أو تقديم مُؤُونَة، أو مساعدة في خدمة، أو مشاركة في دمعة، أو تضحية بأيّ شيء قد ينفع مستحق الرحمة.

وتختلف دوائر الرحمة اتساعاً وضيقاً، فبعض الناس تتدفق في قلبه مشاعر الرحمة نحو الذين يحبهم من ولد، أو أب، أو أم، أو زوج، أو أخ، أو صديق، أو قريب أو نحو ذلك، فإذا شاهد آلام الآخرين الذين لا صلة له بهم لم يشعر نحوهم بأية مشاركة لهم في آلامهم، بل قد يقابلها ببرود في مشاعره، أو قسوة في قلبه. بينما نجد من الناس رحماء تجاه كلّ من يستحقّ الرحمة من قريب أو غيره. وبين الدائرة الضيقة والدائرة الواسعة دوائر متعددة، يتسع بعضها للعشيرة

ويتسع بعضها للقبيلة، ويتسع بعضها للقوم، ثم تأتي الدائرة الكبرى التي تتسع لكل كائن حيّ له إحساس بالألم واللّذة.

قابلية خلق الرحمة لأنواع التربية:

والرحمة كمال في التكوين الفطري، إلاّ أنه كشأن كلّ الكمالات الفطرية القابلة للتهذيب والتقويم والتنمية والترقية، والقابلة للتشويه والإفساد والتدني والضمور.

فمن تهذيبها وتقويمها حسنُ توجيهها للمواطن التي تستحق الرحمة، وفق المفاهيم الإسلامية الحكيمة، وصرفها عن المواطن التي لا تستحق الرحمة.

فحينما يقرّر الإسلام ضرورة إيقاع العقوبة الصارمة بصاحب جناية كبيرة، فإنّ رقة قلب المؤمن لا تتأثر بمشهد العقوبة أو بتنفيذها، ولو كان مستحقّ العقوبة قريباً، أو صاحباً، أو حبيباً، وهذا ما أدّب الله المسلمين عليه بقوله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾.

ومن تشويه فطرة الرحمة وإفسادها توجيهها لمن لا يستحقها، كالرحمة التي تستدعي كفّ العقاب عن الظالمين، الذين يجعلهم العفو عنهم يتمادون في طغيانهم وظلمهم، وكرحمة الأمّ الرعناء التي تهمل تأديب ولدها مهما أساء، حتى تفسده وتجعل منه إنساناً مجرماً.

ولذلك كان للرحمة جوانب خير وجوانب شرّ، أمّا الله تبارك وتعالى فلا يرحم إلاّ في الخير، قال عز وجل في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

وتكون تنمية الرحمة وترقيتها بتدريب النفس على الشعور بمشاعر الرحمة مرّة بعد مرّة، وذلك بممارسة الأعمال التي تدفع إليها الرحمة عادة، وإيقاظ

كوامن الرحمة في النفس بذلك، وتركها تتلذّذ بمشاعر العطف، فالتلَذذ بالمشاعر كفيل بتغذية دوافعها وبتنميتها، مهما كانت أصولها ضعيفة في أعماق النفس. وهذا علاج قد أرشد إليه الرسول صلوات الله عليه، روى الإمام أحمد عن أبـي هريرة، أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه، فقال له: «امسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين».

وفي رواية عند الطبراني، أنّ رجلاً جاء إلى النبـيّ ﷺ يشكو قسوة قلبه، فقال له: «أتحبّ أن يلين قلبك، وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك، يلنْ قلبُك وتدركْ حاجتك».

أمّا ضمور الرحمة وتدنِّيها في القلوب فمن أسبابه استغراق النفوس في الترف، والملذات، والمتع الجسدية، وتنافس المترفين في التفاخر بما يملكون من مظاهر الحياة الدنيا.

وتكاد تموت الرحمة في قلوب البطرين المستكبرين، الذين يطول عليهم الأمد في بحبوحة الترف والنعمة، وهذا ما يجعل قلوبهم قاسية لا تشعر بآلام الآخرين، ويشير إلى هذه الحقيقة قول الله تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

التوجيهات الإسلامية لخلق الرحمة والحضّ على مظاهره وآثاره في السلوك:

إن الإسلام دين الرحمة العامة الحكيمة العاقلة التي تضع الأشيـاء في مواضعها، ولذلك نلاحظ في النصوص الإسلامية توجيهات ملحّة للتحلي بخلق الرحمة، وحثاً على مظاهرها العملية وآثارها في السلوك، فمن ذلك ما يلي:

١ ــ روى البخـاري ومسلم عن جـريـر بن عبـدالله قـال: قـال رسول الله ﷺ: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس».

٢ ــ وروى مسلم عن عياض قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدّق موفق. ورجل رحيم رقيق القلب لكلّ ذي قربى ومسلم. وعفيف متعفف ذو عيال».

٣ ــ وروى أحمد والترمذي عن أبي هريرة قال: سمعت أبا القاسم الصادق المصدوق ﷺ يقول: «لا تُنزع الرحمة إلا من شقي».

٤ ــ وروى أبو داود والترمذي عن عبدالله بن عمْرو قال: قال رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

ولذلك كان الإصلاح بين الإخوة بدافع خلق الرحمة بهم جالباً لرحمة الله، قال الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

٥ ــ ومن روائع التوجيه الإسلامي للأخذ بفضيلة خلق الرحمة، توسيع الإسلام دائرة الرحمة حتى شملت العالمين، وكلّ ذي حياة ممّا خلق الله في هذا الكون الفسيح.

ولهذا أرشد الله رسوله إلى مهمة رسالته، وهي أن يكون رحمة للعالمين، فقال له في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

وثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ قال: «إنما أنا رحمة مُهداة»[1].

وكون رسول الله ﷺ رحمة للعالمين نفحة قدسية من نفحات رحمة الله الواسعة، ولذلك يقدّم الملائكة ثناءهم على الله بأنه وسع كلّ شيءٍ رحمة وعلماً،

---

(١) رواه الدرامي، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة، ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، انظر مشكاة المصابيح الحديث (٥٨٠٠) والتعليق للألباني.

قبل أن يسألوه المغفرة للّذين تابوا واتبعوا سبيله، قال الله تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧﴾.

ومن رحمة الرسول بأمته جعل نفسه مثل الوالد لولده، فَعَن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده» رواه ابن ماجه والدرامي وأبو داوود والنسائي بإسناد حسن.

٦ ـ ومن حث الإسلام على معاملة الحيوان غير الناطق بالرفق والرحمة، والنهي عن تعذيبه؛ ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال: «عذبت امرأة في هرّة حبستها حتى ماتت فدخلت النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض».

خشاش الأرض: هوامّها وحشراتها.

وما رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر أيضاً أنه مرّ بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كلّ خاطئة من نبلهم، فلمّا رأوا ابن عمر تفرّقوا، فقال ابن عمر: «من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا. إنّ رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً».

وما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثمّ خرج فإذا كلبٌ يلهث يأكل الثرى من العطش. فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفّه ماءً، ثمّ أمسكه بفيه حتى رقيَ فسقى الكلبَ فشكر اللّهُ له فغفر له».

قالوا: يا رسول الله، إنّ لنا في البهائم أجراً؟ فقال: «في كلّ كبدٍ رطبة أجر».

وفي رواية للبخاري ومسلم: «بينما كلب يُطيف بركيَّة (بئر) قد كاد يقتله العطش إذ رأته بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها فاستقت له به فسقته فغفر لها به».

موقها: الموق الخف.

فما أروع هذا الشمول الذي تتمتع به التعاليم الإسلامية! امرأة تعذّب بسبب قسوة قلبها تجاه هرّة، ورجل وامرأة يغفر لهما بسبب رحمتهما بكلب، فالرحمة الإيمانية تمدّ ظلالها وراء حدود الإنسان، فتشمل كل ذي كبد رطبة، والله يثيب على كل رحمة ولو كانت بحيوان محتقر غير ذي شأن.

إنّ الذين توصلوا حديثاً إلى إعلان مبدأ الرفق بالحيوان، وأصبحوا يفخرون بهذا الرقي الإنساني، إذا تعلقت مصالحهم السياسية أو الاقتصادية بإهلاك أمم وشعوب من البشر لم يتورّعوا عن ذلك، ولم تخفق في قلوبهم خافقة رحمة، إنّ دوائر الرحمة لديهم محدودة في حدود أشخاصهم أو أهليهم ومن يحبون، أو أقوامهم.

أمّا التعاليم الإسلامية فإنها تجعل دائرة الرحمة دائرةً واسعة تنتظم الوجود كلّه، وتجعل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كالجسد الواحد، وتجعل المؤمنين مسؤولين عن الرحمة بكلّ ذي كبد رطبة.

وهكذا عمل الإسلام على غرس خلق الرحمة في قلوب المسلمين، وتغذيته، وتنميته، وتوسيع دائرة شموله، حتى يكونوا في توادّهم وتراحمهم كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.

ونستطيع أن نثبت بكلمة جامعة أنّ الإسلام قد وجّه المسلمين أن يرحموا كلّ مستحقٍّ للرحمة، وأكّد بشكل خاصٍّ وملحّ على رحمة الضعفاء، ويدخل في عموم الضعفاء الصغار لا سيما اليتامى، والنساء والأرامل ومن لا معيل لهنّ، والمرضى، والعجزة، وكبار السنِّ الهرمون، وأبناء السبيل المنقطعون الذين لا سند لهم ولا ناصر، والعبيد والخدم والأجراء، وهكذا إلى سائر الضعفاء.

وحين ذكر القرآن بعض وجوه البرّ عدّد أموراً فذكر منها:

الأول: الرحمة، ومن آثارها في السلوك إيتاء المال على حبّه ذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، والسائلين، وفي الرقاب. فجعل الرحمة بالضعفاء من أوّل عناصر البرّ بشرط الإيمان.

الثاني: الصدق، والمحافظة على شرف الكلمة وأداء حقها، ومن آثار ذلك في السلوك الوفاء بالعهد.

الثالث: الصبر، في البأساء (أي: في الجوع) وفي الضرّاء (أي: في المصائب) وحين البأس (أي: في القتال).

قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾.

في الرحمة بالضعفاء: الأرملة والمسكين والبنات:

١ ـ روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:
«الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله».

قال الراوي: وأحسبه قال: «وكالقائم لا يفتُر، وكالصائم لا يُفْطِر».

٢ ـ وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:
«ليس المسكين الذي تردّه التمرة والتمرتان، ولا اللّقمة واللقمتان، إنّما المسكين الذي يتعفّف».

وفي رواية في الصحيحين أيضاً:

«ليس المسكين الذي يطوف على الناس تردّه اللّقمة واللقمتان، والتمرة

والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنىً يغنيه، ولا يُفْطَنُ به فيُتصدّق عليه، ولا يقومُ فيسأل الناس».

٣ — وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: دخلت عليّ امرأة ومعها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندي شيئاً غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها، فقسمتْها بين ابنتيها ولم تأكل منها، ثمّ قامت فخرجت، فدخل النبـي ﷺ علينا فأخبرته فقال:

«من ابتُلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كنّ له ستراً من النار».

أي كنّ له حجاباً يحجبه من عذاب النار.

٤ — وروى مسلم عن عائشة قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطتْ كلّ واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتاها، فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرتُ الذي صنعت لرسول الله ﷺ فقال:

«إن الله قد أوجب لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار».

٥ — وروى مسلم عن أنس عن النبـي ﷺ قال:

«من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين» وضم أصابعه.

ففي هذه الأحاديث النبوية حثّ على كفالة الضعفاء ورعايتهم والرحمة بهم، فهي من الواجبات الاجتماعية الإسلامية، وتنبع من منابع خلق الرحمة، وخلق حب العطاء.

وقد أبان الرسول ﷺ أنّ السعي على الأرملة والمسكين من الأعمال الحسنة والفضائل العظيمة عند الله، وأنه كالجهاد في سبيل الله، وأن له مثل أجر قائم الليل الذي لا يفتُر عن العبادة، ومثل أجر المواظب على الصوم الذي لا يُفطر.

وأبان الرسول ﷺ أن القيام بتربية البنات وخدمتهن والإحسان إليهنّ يدخل الجنة ويحمي من عذاب النار.

وهذا عناية عظيمة من الإسلام بالضعفاء، ضماناً لحاجاتهم وربطاً لهم بالمجتمع ربطاً تامّاً، إذ جعل المجتمع المسلم مسؤولاً عنهم، كالأسرة الواحدة.

والأرملة إنسانة كسيرة القلب بفقد زوجها المعيل لها والساعي عليها، وهي إنسانة حزينة ضعيفة، فمن رحمها وسعى في حاجاتها كان سعيه سلوةً لها وضماداً لجراحها وجبراً لكسرها.

والمسكين إنسان مهيض الجناح، ضعيف الحال، مثقل بالأحمال، فمن ساعده وسعى عليه وقدّم له ولأسرته حاجاتهم ومعايشهم، جبر كسره، ومسح عنه حزنه، ورفعه من مقام الذلّة والمهانة والضعف.

ووصف الرسول ﷺ المسكين بوصفين:

الأول: أنه ذو حاجة لا يجد غنى يغنيه.

الثاني: أنّه متعفّف يكتم حاجته وفقره، فلا يسأل الناس، فلا يفطن الناس إلى واقع حاله حتى يتصدّقوا عليه.

والبنات الصغار ضعيفات، وقد يزهد أهلُهنّ بهنّ، تأثراً بالمفاهيم الجاهلية من كراهية أن يولد لهم الإناث، فمن عالهنّ وأحسن إليهنّ وأكرمهن وأدّبهن كنّ له ستراً من النار.

في الرحمة بالصغار والضعفاء:

١ ــ روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قبّل النبي ﷺ الحسن بن عليّ وعنده الأقرع بن حابس، فقال الأقرع: إنّ لي عشرة من الولد ما قبّلتُ منهم أحداً. فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال:

«من لا يَرحم لا يُرحم».

٢ ــ وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: قدم ناسٌ من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبّلون صبيانكم؟ فقال: «نعم»، قالوا: لكنّا والله ما نقبّل؛ فقال رسول الله ﷺ:

«أو أمْلكُ أنْ كان الله نزع من قلوبكم الرحمة؟!».

٣ — وروى البخاري ومسلم عن جرير بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ:

«من لا يرحم الناس لا يرحمه الله».

* باستطاعتنا أن نستخلص من هذه الأحاديث فكرتين رئيسيتين:

الأولى: عناية الإسلام بالصغار، والتوجيه لإعطائهم ما يحتاجون إليه في فطرتهم من عطف وحنان، والخلقُ الذي يدفع إلى إعطائهم ذلك هو خلُق الرحمة.

فتقبيل الصغار وضمّهم والحنو عليهم يُغذيهم نفسياً بما يحتاجون إليه من حنان وعطف، وذلك أن الطفل كما يحتاج إلى غذاءٍ مادي عن طريق الطعام والشراب، يحتاج إلى غذاءٍ نفسي عن طريق العطف والحنان، والطفل الذي يأخذ وجباته الضرورية من غذائه النفسي يكون أكثر نمّواً من الطفل الذي يحرم من ذلك، مهما أعطي وجبات كافيات من الغذاء الجسدي، ولذلك علمنا الرسول ﷺ بتوجيهاته القولية والعملية ما ينبغي لنا أن نمنحه أطفالنا من عطف وحنان وقبلات، وما ينبغي أن نشعر به نحوهم من رحمة.

الثانية: بيان سنّة من السنن الرّبانية الثابتة، وهذه السنة قد كشف عنها قول الرسول ﷺ: «من لا يرحم لا يرحم» وقوله: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله».

وهذه السنة هي جزئية من جزئيات قاعدة «الجزاء من جنس العمل».

فمن جفت الرحمة في قلبه، فصار يعامل الناس بالقسوة، عامله الله تعالى بمثل عمله، وجازاه بمثل صنيعه.

أمّا من يعامل الناس بالرحمة والإحسان، والعطف والحنان، فإن الله الرحيم الرحمن يكافئه بالرحمة والإحسان، ويضاعف له المثوبة ويزيده من فضله.

الرحمة من صفات الله:

لقد وسع ربّنا كل شيء رحمة وعلماً، فبرحمته يهدي عباده إلى سبيل سعادتهم، وبرحمته ينزل عليهم الشريعة الكفيلة بتحقيق الخير والسعادة لهم في دنياهم وأخراهم، وبرحمته يدخل المؤمنين في جنته، وبرحمته يغفر للمسيئين، وبرحمته يستجيب للمضطرين، وبرحمته يرسل لهم الرسول الذي هو رحمة للعالمين، ولقد كتب الله على نفسه الرحمة ووصف نفسه بأنه أرحم الراحمين، وبأنه خير الراحمين، ومن أسمائه الحسنى سبحانه الرحمن الرحيم، فمن النصوص الكثيرة الدالة على سعة رحمة الله ما يلي:

١ ــ قول الله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ﴿٥٨﴾ ﴾.

موئلاً: أي منجى يلجأون إليه ويرجعون إليه.

٢ ــ وقول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾.

٣ ــ وقول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

٤ ــ وقول الله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

٥ ــ وقول الله تعالى في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

٦ ــ وقول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

٧ ــ وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله مئة رحمة، أنزل منها رحمةً واحدة بين الجنّ والإنس والبهائم والهوامّ، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة».

٨ ــ وفي رواية:

«جعل الله الرحمة مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه».

٩ ــ وروى البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب، قال: قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي قد تحلّب ثديها تسعى، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ:

«أترون هذه طارحة ولدها في النار؟».

قلنا: لا وهي تقدر أن لا تطرحه.

فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها».

فرحمة الله وسعت كل شيء، ولكن رحمته تعالى مقرونة بحكمته.

وأسباب الرحمة في جميع الخلائق مدد من فيض رحمة الله.

١٠ ـ ومن عظيم رحمته تعالى أنه جعل أدنى ثواب الحسنة عشر أمثالها، وأعلى جزاء السيئة مثلها، وأن من تقرب إلى الله مقداراً تقرب الله إليه أضعافه.

روى مسلم عن أبـي ذر الغفاري قال: قال النبـي ﷺ: «يقول الله عز وجل: من جاءَ بالحسنة فله عشر أمثالها وأزِيدُ، ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئةٌ مثلها؛ أو أغفر، ومن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بـي شيئاً لقيته بمثلها مغفرة».

والمراد تقرب العبد لربه بالطاعة والحب، وتقرب الله لعبده بالرحمة والفضل والمحبة.

١١ ـ ومن عظيم رحمته تعالى أن رحمته سبقت وغلبت غضبه، روى البخاري ومسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«لمّا خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبـي».

وفي رواية: «غلبت غضبـي».

وفي رواية: «سبقت غضبـي».

١٢ ـ ومن عظيم رحمة الله تعالى أنه يغفر الذنوب لمن تاب واستغفر من عباده، معترفاً بذنبه، راجياً عفو ربه.

روى البخاري ومسلم عن أبـي هريرة عن النبـي ﷺ فيما يحكيه عن ربه تعالى قال:

«أذنب عبد ذنباً فقال: اللهم اغفر لي ذنبـي، فقال الله تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي ربِّ اغفر لي ذنبـي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي ربِّ اغفر لي

ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء».

أي مهما أذنب ثم استغفر صادقاً معترفاً بذنبه راجياً عفو ربه فإن الله يغفر له.

من صفات أصحاب الرسول أنهم رحماء بينهم:

وصف الله أصحاب محمد في التوراة بأنهم رحماء بينهم، وقص ذلك علينا في القرآن، فقال تعالى في سورة (الفتح ٤٨):

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ . . . ﴿٢٩﴾ ﴾.

فهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، بحسب ما يقتضيه منهم إيمانهم، فالإيمان بالله وباليوم الآخر متى تغلغل في القلب حقاً غرس فيه من الرحمة بمقدار قوته وتغلغله، ولكن جعل لها طريقاً لا تتعداه، وغرس فيه من الشدة أيضاً بمقدار قوته، وتغلغله، ولكن جعل لها أيضاً طريقاً لا تتعداه.

ولا تتعارض الرحمة في قلوب المؤمنين مع مظاهر الشدة على الكفار، لأن الغاية من هذه الشدة تحقيق أهداف الرحمة الحقيقية العامة، فالشدة على أهل الشر تمنع شرورهم، ومنع الشرور هو من الأمور العظيمة التي تستدعيها الرحمة.

ومن أمثلة الشدة بدافع الرحمة شدة المربي كلما دعت الضرورة التربوية إلى ذلك، وشدة الطبيب الناصح على المريض بالجراحة المؤلمة كلما دعت الضرورة العلاجية إلى ذلك. وكذلك المؤمنون في شدتهم على أهل الشر والظلم والبغي والفساد في الأرض، إنها شدة تدفع إليها أهداف الرحمة العاقلة.

أما الرحمة الحمقاء فقد تفضي إلى عكس ما توجبه الرحمة؛ إنها قد تسبب للمريض الهلاك، وتسبب للناشىء الفساد، وتسبب للمجتمع القلق والاضطراب والانهيار والفساد العام.

فلا تنافي مطلقاً بين الرحمة الصحيحة العاقلة والشدة في مواضع الضرورة، وحينما تكون الشدة هي المصلحة، وهي المحققة لأهداف الرحمة.

برّ الوالدين:

إن عطف الوالدين على الولد من أبرز صور الرحمة، وهي تفرض على الولد أن يقابل رحمة والديه له بأن يرحمهما، فيخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة، ويدعو لهما بالرحمة الشاملة للمغفرة والعفو ودخول الجنة.

إن رحمة الوالدين بأولادهما رحمة غيرية بحتة، فهي عطاءٌ لا يلاحظ فيه ترقب العوض، وفطرة فطر الله خلقه عليها، ولذلك كان برّ الوالدين من أعظم واجبات الصلة الاجتماعية، وكان عقوق الوالدين مقارباً لدركة الشرك بالله، وكان الأمر بالإحسان للوالدين في بعض النصوص الإسلامية عقب الأمر بعبادة الله والنهي عن الإشراك به.

الإحسان للوالدين في القرآن:

١ ــ قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

ففي هذا النص نلاحظ أن الله تبارك وتعالى يأمر بعبادته، وينهى عن الإشراك به، ويُتبع ذلك بالأمر بالإحسان للوالدين، ثم يأمر بوجوه الإحسان لأصناف من الناس تستدعي أحوالهم الاجتماعية، أو قراباتهم، أو قرب الصلة بهم في المسكن أو في الصحبة، زيادة الإحسان إليهم والشفقة عليهم والرحمة بهم.

إن هذه الآية الكريمة تعتبر من أمهات الآيات التي توجه لواجبات الصلات الاجتماعية، التي تعتبر الرحمة من أعظم دوافعها في أعماق النفس الإنسانية.

٢ ـ وقال الله تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

ففي هذه الآية يأمر الله تبارك وتعالى بالإحسان إلى الوالدين، ولكنه لا يسمح بطاعتهما في معصية الله، إذ طاعة الله ورسوله تقع في الدرجة الأولى، ثم يأتي من بعدها الإحسان إلى الوالدين، على أن طاعة الوالدين هي أيضاً من طاعة الله، ما لم يأمرا بالكفر بالله أو بالشرك به أو بمعصيته في أوامره ونواهيه.

٣ ـ وقال الله تعالى في سورة (لقمان ٣١):

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

في هذا النص يوصي الله الإنسان بالإحسان لوالديه، مبيّناً على وجه الخصوص مبلغ متاعب الأم بولدها، إشعاراً بمبلغ استحقاقها للإحسان والرعاية، شكراً لها على ما قدمت من عطاء دفعت إليه دوافع الرحمة.

وفي قوله تعالى: ﴿حملته أمه وهناً على وهن﴾ صورة رائعة ودقيقة جداً لمبلغ المتاعب التي تتحملها الأم في حمل جنينها، والتي تستوجب على الولد أن يشكر لها.

وفي قوله تعالى: ﴿وفصاله في عامين﴾ إشارة إلى مدّة الرضاع التي تكون فيها متاعب إرضاع الطفل وتربيته متاعب جمة، وهي في الغالب تتحملها الأم، وقد يشارك فيها الأب، وهذا يستوجب الشكر.

ولمّا كانت العناية الربانية هي المهيمنة على الإنسان منذ نشأته، والمسايرة له مدى وجوده، كان من حقه على عباده أن يشكروه.

ولذلك قال الله تعالى في النص: ﴿أنِ اشكر لي ولوالديك إليّ المصير﴾.

وأكد الله في هذا النص ما جاء في آية (العنكبوت) السابقة مع بعض زيادات في الدلالات.

ففي آية (العنكبوت): ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾ وهذا يتضمن مجرد الوصية بالإحسان للوالدين.

أما ما جاء في (لقمان) ففيه الأمر بالشكر لهما، بعد التنبيه على متاعبهما، وجعل هذا الأمر مقروناً بالشكر لله: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن، وفصاله في عامين، أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير﴾، ففي هذه الآية تكليف زائد على مجرد الوصية، وبيان لموجب هذا التكليف.

وفي آية (العنكبوت): ﴿وإن جاهداك لتشرك بـي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾.

أما في (لقمان) فالنص كما يلي: ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بـي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إليّ﴾.

والفرق بينهما أن آية العنكبوت تضمنت أن مجاهدة الوالدين في الدعوة إلى الشرك بالله مجاهدة من مستوى السعي غير الملزم، ولذلك كان التعبير: «وإن جاهداك لتشرك» أي: سعياً لأجل أن تشرك. بخلاف آية لقمان فقد تضمنت أن مجاهدتهما مجاهدة من مستوى الإلزام والإيجاب، ولذلك جاءت التعدية في التعبير بحرف (على): «وإن جاهداك على أن تشرك» أي: حرصاً على أن تشرك، وهنا كان لا بد من تحديد موقف الولد بوضوح بعد نهيه عن طاعتهما في هذا الأمر، وهذا الموقف يتلخص بعنصرين:

الأول: مصاحبتهما في الدنيا بالمعروف ﴿وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾.

الثاني: اتباع سبيل من أناب إلى الله، وهو سبيل المؤمنين ﴿واتبع سبيل من أناب إلي﴾.

ومن كل النصوص نستخلص أن الإحسان للوالدين يجب أن لا يكون على حساب حق الله على عباده. إن مبدأ الإحسان للوالدين مبدأ ثابت ولو كان الوالدان كافرين، ولكن هذا المبدأ لا يصح بحالٍ من الأحوال أن يطغى على مبدأ وجوب الإيمان بالله والتزام طاعته واتباع شريعته لعباده.

ومن واجب الولد أن يصاحب والديه الكافرين في الدنيا مصاحبة بالمعروف، أي: بما هو معروف بين الناس من أصول الإحسان في المصاحبة، وحين يطلبان منه أن يعصي الله في شيء لم يكن لهما عليه حق الطاعة، ولم يجز له أن يطيعهما في ذلك، إذ لا طاعة لمخلوق مهما كان شأنه في معصية الخالق جل وعلا، إن حق الله على عباده أعظم وأجل من أي حق.

٤ ــ وقال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

النَّهْرُ: هو النهي الشديد مع الزجر.

في هذا النص يأتي النهي عن عبادة غير الله، والأمر بالإحسان للوالدين مقترنين، وفي هذا إشارة إلى الأهمية البالغة لواجب برّ الوالدين والإحسان إليهما، إذ توحيد الله من أهم مطالب الشريعة وأعظمها، فإذا جاء الأمر ببر الوالدين مقروناً به دل ذلك على مبلغ اهتمام الإسلام بهذا الواجب.

وفي قوله تعالى: ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾ قوة في الإلزام بهذين الواجبين، إذ جاء التعبير عن هذا التكليف بعبارة (قضى) ومعلوم أن القضاء إذا كان في مجال التكوين كان لا بد من وقوعه حتماً، فلما جاء في مجال التكليف دل على شدة إلزام المكلفين به، إلى أقصى حد.

وفي هذا النص اهتمام بحالة الأبوين حينما يبلغان مبلغ الكبر والعجز،

إذ يؤكد فريضة الإحسان إليهما في هذه الحالة، ومن الإحسان إليهما تكريم مقامهما، وعدم التضجر من أفعالهما مهما كانت مثيرة للتضجر، وعدم مواجهتهما بما يؤذيهما من القول، حتى ولا بكلمة (أفّ) علماً بأن الإنسان متى كبرت سنه وبلغ مبلغ العجز كثرت مطالبه، وضاق صدره، وكثرت مداخلاته في كل صغيرة وكبيرة، ومنهم من يردّ إلى أرذل العمر، ومع كل ذلك فالولد مطالب شرعاً بأن يقول لكلٍّ من والديه مهما كانت حالهما قولاً كريماً، وبأن لا يواجههما بأي قولٍ يؤذيهما، وأدنى ذلك كلمة (أفّ) التي تشعر بالتضجّر.

ويكاد الإنسان لا يفي والديه حقهما عليه مهما أحسن إليهما، لأنهما كانا يحسنان إليه حينما كان صغيراً وهما يتمنيان له كل خير، ويخشيان عليه من كل سوء، ويسألان الله له السلامة وطول العمر، ويهون عليهما من أجله كل بذلٍ مهما عظم، ويسهران على راحته دون أن يشعرا بأي تضجر من مطالبه، ويحزنان عليه إذا آلمه أي شيء، أما الولد فإذا قام بما يجب عليه من الإحسان لوالديه فإن مشاعره النفسية نحوهما لا تصل إلى مثل مشاعر أنفسهما التي كانت نحوه، ولا تصل إلى مثل مشاعره هو نحو أولاده إلا في حالات نادرة جداً.

وفي قوله تعالى: ﴿ولا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما﴾ بتقديم النهي عن الأمر الأخف على النهي عن الأمر الأشد وهو النهر، وكان الظاهر يقتضي العكس بتقديم النهي عن نهرهما على مواجهتهما بكلمة أفّ، في هذا جريٌ على سنن العرب في كلامهم، إذ يقدمون الأقل على الأكثر، والأخف على الأشد، والمفضول على الأفضل، فهم يقولون: لم يترك قليلاً ولا كثيراً، مع أن من لم يترك القليل لم يترك الكثير من باب أولى، وهذا ينسجم مع طبيعة العربي الذي يتدرج من الأدنى إلى تصوره فالأدنى، فالبعيد فالأبعد.

وفي قوله تعالى: ﴿واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة﴾ رائعة بيانية عجيبة، فالله تبارك وتعالى يأمر الولد بأن يخضع لوالديه، ويلينَ لهما ليناً ناشئاً عن خلق الرحمة المتغلغل في قلبه، ويتذلل لهما تذلل الراحم لا تذلّل الضعيف المهين، فيشبه الرحمة بالطائر، ويجعل لهذا الطائر طائرِ الرحمة الخياليّ عدة

أجنحة، وأحد هذه الأجنحة يسمى جناح الذل، وإذ يصل القرآن إلى هذه الصورة الخيالية الحلوة، يأمر الإنسان بأن يخفض جناح الذل هذا لوالديه.

ويعني خفض هذا الجناح تقديم كل صور العطف والإحسان والتكريم العملية، التي يستطيع أن يقوم بها رحمة بوالديه، من خدمة ومساعدة، وعطاء، وتكريم واحترام، وسهر وصبر، وبذل وتضحية، وتواضع وتذلل وتحبب، فكل ذلك من خفض جناح الذل.

وهذه الرائعة البيانية هي من قبيل الاستعارة التخييلية، لأن المشبه به وهو الطائر قد حُذف ورمز إليه في الاستعارة ببعض خواصه وهو الجناح، ومعلوم أن الاستعارة من روائع الأساليب البيانية، وتبدو نافعة جداً حينما تقرب الحقائق الفكرية والمعاني النظرية، إذ تجعلها في صورة تدرك في التصور الحسي، وكذلك حينما تزينها فتعطي من الأثر ما لا تعطيه المعاني الفكرية المجردة.

فقوله تعالى: ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾ يحمل من الأثر في أنفس السامعين ما لا يحمله قول آخر، كقولنا: واخضع لهما وارحمهما، أو نحو ذلك.

وفي ختام النص يأمر الله الولد بأن يدعو لوالديه بالرحمة، وذلك بقوله: ﴿وقل: ربّ ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾ وهذا الدعاء وفاء من الولد لوالديه في حال غيابهما.

٥ ــ وقال الله تعالى في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

فصاله: فطامه.

فأبان هذا النص ما تتعرض له الأم من متاعب الحمل والوضع وأشار إلى متاعب الرضاع.

ووصف المؤمن البار بأنه يسأل الله أن يوفقه لأن يشكر نعمة الله عليه وعلى والديه، وأن يعمل صالحاً يرضيه تعالى، وأن يصلح له في ذريته.

٦ ـ وأبان الله تعالى أن برّ الوالدين والإحسان إليهما شريعة من شرائع الله في الأديان السالفة التي أنزلها على رسله السابقين، فقال تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا . . . ﴿٨٣﴾ ﴾.

وأثنى الله على يحيى عليه السلام بأنه كان براً بوالديه، فقال تعالى في سورة (مريم ١٩):

﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ ﴾.

وحدَّث عيسى عن نفسه وهو في المهد طفل بأنه برّ بوالدته؛ حكى الله ذلك عنه بقوله تعالى في سورة (مريم ١٩):

﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾.

٧ ـ وقال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ . . . ﴿١٥١﴾ ﴾.

فدلت جملة النصوص القرآنية على أن الأمر بالإحسان للوالدين مما وصى

الله به الإنسان، وهذا يدل على أن هذا الأمر شريعة ربانية منذ أول الشرائع التي أنزلها الله للناس، وأن الله أخذ الميثاق على بني إسرائيل بالمحافظة على هذا الواجب وجعله مقارناً لأخذ الميثاق عليهم بأن لا يشركوا بالله شيئاً.

برّ الوالدين والإحسان إليهما في السنّة:

١ ــ روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود، قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها» قلت: ثمّ أي؟ قال: «برّ الوالدين» قلت: ثم أيّ؟ قال: الجهاد في سبيل الله».

فبدأ الرسول صلوات الله عليه في هذا الحديث بحق الله على عباده، وهو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، والصلاة على وقتها من أهمّ أركان العبادة في الإسلام. ثم ثنّى ببرّ الوالدين، وقد اتبع الرسول ﷺ في هذا ما جاء في النصوص القرآنية التي سبق الاستشهاد بها. ثم ثلّث الرسول ﷺ بالجهاد في سبيل الله، لأن ركن الجهاد من أهم الأركان التي يرتبط بها نشر الدين وإعلاء كلمة الله، وإقامة الحق والعدل.

٢ ــ وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة، قال: قال رجل: يا رسول الله، من أحقُّ الناس بحسن صحابتي؟ قال رسول الله: «أمّك» قال الرجل: ثم من؟ قال رسول الله: «أمّك» قال الرجل: ثم من؟ قال رسول الله: «أمّك». قال الرجل: ثم من؟ قال رسول الله: «أبوك».

فجعل الرسول ﷺ للأم من الحق بحسن المصاحبة نسبة ثلاثة أرباع، وجعل للأب نسبة الربع، وهذا بداهة من حقّ الوالدين على الولد، أمّا الحقوق الأخرى فلها نسب أخرى ممّا يجب على الإنسان. وقد يقال: إنّ تكرير بيان حقّ الأمّ لتأكيد الاهتمام بضرورة القيام بحقها نظراً إلى ضعفها، لا لبيان مقدار حقها بالنسبة إلى حقّ الأب.

٣ ــ وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغم أنفه، رغم أنفه، رغم أنفه» قيل من يا رسول الله؟ قال: «من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كلاهما ثمّ لم يدخل الجنّة».

ممّا يثير الانتباه في هذا الحديث أسلوبه البياني العجيب، الذي يعلن الرسول ﷺ فيه الحكم الخطير على مجهول، ويكرّر إعلان هذا الحكم ثلاث مرّات، بطريقة مفاجئة غير مسبوقة بتمهيدات، وذلك لاستدعاء التساؤل من السامعين عن المحكوم عليه بهذا الحكم، واستجماع كلّ انتباههم.

ومعنى «رغم أنفه» التصق أنفه برغام الأرض، وهو ترابها، وهذا كناية عن الحكم عليه بالذلّ والمهانة والصَّغار والخيبة في المسعى.

وفي قول الرسول «من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كلاهما ثم لم يدخل الجنة»؛ تذكير مهمٌّ بالفترة التي يتهيّأ للإنسان فيها موسمٌ تجاري رابح، وربحه فيه بخدمة والديه أو أحدهما يدخله الجنة، ودخول الجنة أعظم ربح يربحه الساعي في هذه الحياة.

٤ ــ وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص، قال: أقبل رجلٌ إلى نبـي الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد، أبتغي الأجر من الله تعالى، فقال: «فهل من والديك أحدٌ حيٌّ؟» قال: نعم، بل كلاهما، وقال الرسول: «فتبتغي الأجر من الله تعالى؟» قال: نعم. قال: «فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما».

وفي رواية عند البخاري ومسلم، أنّ رجلاً جاء إلى الرسول فاستأذنه في الجهاد، فقال: «أحيٌّ والداك» قال: نعم. قال: «ففيهما فجاهد».

وفي معنى هذا الحديث، ما رواه أحمد والنسائي والبيهقي في شعب الإيمان بإسناد جيد، عن معاوية بن جاهمة، أنّ جاهمة جاء إلى النبـي ﷺ فقال: يا رسول الله أردت أن أغزو، وقد جئت أستشيرك، فقال: «هل لك من أمّ؟» قال: نعم. قال: «فالزمها فإن الجنة عند رجليها».

وهكذا تتعاضد التوجيهات النبوية على ترجيح برّ الوالـدين والقيام بخدمتهما على الغزو في سبيل الله في حالات خاصة، وهي الحالات التي تكون حاجات الوالدين فيها حاجات ملحّة، ويكون الغزو والقتال في سبيل الله من

الأمور المندوبة، لا من الواجبات العينية على الشخص الذي تعارض عنده الأمران.

٥ ـ وروى مسلم عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ من أبرّ البرّ صلة الرجل أهل ودّ أبيه بعد أن يولّي» أي: من بعد وفاته. إنّ هذا الحديث يبرز رائعة من روائع المفاهيم الإسلامية في ميادين السلوك الخلقي، فبرّ الوالدين لا يقتصر على الإحسان المباشر إليهما، بل هو يتعدّى إلى الإحسان إلى كلّ من يسرّهما الإحسان إليه.

وفي هذا استبقاء لروابط المودّة التي كانت بين الأب وأهل ودّه، وانتقالها إلى أولاده.

٦ ـ وإذا كان برّ الوالدين بهذه المنزلة التي عرضتها نصوص القرآن والسنة، فعقوقهما من كبائر المعاصي.

روى البيهقي في شعب الإيمان عن أبي بَكْرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلّ الذنوب يغفر الله منها ما شاء إلاّ عقوق الوالدين فإنه يعجّل لصاحبه في الحياة قبل الممات».

٧ ـ وروى الترمذي وأبو داود بإسناد صحيح عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أحرى أن يعجّل لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدّخر له في الآخرة من البغي وقطيعةالرحم». ومما لا ريب فيه أنّ أقرب الرحم للإنسان والداه.

٨ ـ وروى الترمذي عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «رضى الربّ في رضى الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد».

٩ ـ وروى البخاري ومسلم عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» وكرّرها الرسول ثلاثاً. قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»، وكان متكئاً فجلس فقال: «ألا وقول الزور وشهادة الزور» فما زال يكرّرها حتى قلنا: ليته سكت.

١٠ ــ وروى البخاري عن عبدالله بن عمرو بن العاص، أنّ النبـي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الـوالدين، وقتـل النفس، واليمين الغموس».

اليمين الغموس: هي التي يحلفها الحالف كاذباً عامداً، وقد سمّيت غموساً لأنها تغمس الحالف في الإثم، أو في النار.

١١ ــ وروى مسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يجزي ولد والداً إلاّ أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه».

١٢ ــ وروى البخاري ومسلم عن أسماء بنت أبـي بكر قالت: قدمت عليَّ أمي وهي مشركة في عهد قريش. فقلت: يا رسول الله، إنّ أمي قدمت عليّ وهي راغبة. أفأصلها؟ قال: «نعم، صِليها».

وهي راغبة: أي راغبة فيما عندي تسألني، أو راغبة عن الإسلام.

١٣ ــ وروى الترمذي بإسناد صحيح عن أبـي الدرداء، أنّ رجلاً أتاه فقال: إنّ لي امرأة، وإنّ أمّي تأمرني بطلاقها. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«الوالد أوسط أبواب الجنة».

فإن شئت فأضِعْ ذلك الباب أو احفظه.

١٤ ــ وروى أبو داود وابن ماجه، عن أبـي أسيد الساعدي قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجلٌ من بني سلمة فقال: يا رسول الله، هل بقي من برّ أبويّ شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال:

«نعم: الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما».

١٥ ــ وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«من الكبائر شتم الرجل والديه».

قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «نعم، يَسُبّ أبا الرجل فيسبّ أباه، ويَسُبّ أمّه فيسبّ أُمّه».

وفي رواية:

«إنّ من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه».

قيل: يا رسول الله، كيف يلعن الرجل والديه؟ قال:

«يسبّ أبا الرجل فيَسبّ أباه، ويسبّ أمّه فيسبّ أمّه».

١٦ ــ وروى البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنّ الله حرّم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومَنْعَ وهاتِ، وكره لكم قيل وقالَ، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

ومَنْعَ وهاتِ: أي منع الحقوق الواجبة عليه، ومسألة الناس ما ليس له به حق.

وكره لكم قيل وقال: أي كره الله لنا أن نحدّث بكل ما نسمع من أقوال الناس، ممّا ليس فيه علم ينتفع به، أو خير يرجى.

١٧ ــ وروى الترمذي بإسناد صحيح عن البراء بن عازب، عن النبي ﷺ قال: «الخالة بمنزلة الأمّ».

وجاء أيضاً في كلام رسول الله ﷺ: أنّ عم الرجل صِنْو أبيه.

فدلت النصوص على أنّ حق الوالدين قائم ولو كانا كافرين، فعلى الولد أن يُحسن صحبتهما، دون أن يطيعهما في معصية الله عز وجل، فطاعة الله لا تقدّم عليها طاعة لأحد مهما كان ذا حق.

وحينما يكون الوالدان بحاجة إلى مساعدة وإحسان، ومعونة وخدمة،

لا سيما في كبرهما وعجزهما، فإنّ خلق الرحمة يفرض الإحسان إليهما، فكيف وهما أقرب الناس إليه، ولهما عليه حق التربية والخدمة والعطاء، وسوابق الفضل الجسيم.

والوالدان حينما يكبران ويصيبهما ما يصيب الإنسان في شيخوخته من عجز وضيق صدر وتدخل في الصغائر من الأمور، حتى يردّان إلى أرذل العمر، فإنهما يحتاجان إلى من يصبر عليهما، ومَنْ أولى بالصبر عليهما من ولدهما؟!.

وبر الوالدين والإحسان إليهما ومصاحبتهما بالمعروف تتطلب بذلاً، ورحمة، وحناناً، وخدمة، ومخالفة لأهواء النفس، وصبراً، وتسامحاً، وتغاضباً، وطاعة في المعروف، وكل ذلك يحتاج إلى مخزون جمّ من جملة من فضائل الأخلاق.

ومن عظيم فضل الله أنه تعالى جعل لمن يقوم بواجب الشكر لوالديه أن يدخله الجنة ويكفر عنه من سيئاته إذا كان من أهل الإيمان. فمن تهيأت له فرصة خدمة والديه أو أحدهما، والإحسان إليهما، وبرهما وهما كبيران عاجزان عن القيام بخدمة أنفسهما، ففوّت على نفسه هذه الفرصة الذهبية العظيمة، فلم يبرّهما، فهو لا شكّ خائب خاسر. لقد أتته سوق التجارة الرابحة فلم يظفر بها، وهبّت عليه رياح المغانم العظيمة فلم يغتنمها.

وأبان الرسول ﷺ أن من الكبائر أن يتسبب الإنسان بشتم والديه أو أحدهما. وأن من أبرّ البرّ أن يصل الإنسان أهل ودّ أبيه بعد موته، وكذلك أهل ودّ أمّه قياساً، وأنّ من البرّ بالوالدين أن يصل الولد الرحم التي لا توصل إلاّ بهما، وأنّ من البرّ إكرام صديقهما.

في ثمرة برّ الوالدين:

(أ) قصة أصحاب الغار الثلاثة:

من ثمرات برّ الوالدين استجابة الدعاء، ومن أمثلة ذلك قصة أحد الثلاثة الذين أووا إلى غار في ليلة ممطرة، فانحطت على فم الغار صخرة من الجبل فانطبقت عليهم، فدعا كلّ منهم متوسلاً بصالح عمله، وكان عمل

أحدهم برّه بوالديه، فاستجاب الله دعاء كلٍّ منهم، ففرج لهم فخرجوا من الغار.

روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر عن النبي ﷺ قال:

«بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر، فمالوا إلى غارٍ في الجبل، فانحطّت على فم الغار صخرة من الجبل، فانطبقت عليهم.

فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحة، فادعوا الله بها لعله يُفرِّجها.

فقال أحدهم: اللهمّ إنّه كان لي والدان شيخان كبيران، ولي صبية صغار كنت أرعى عليهم، فإذا رُحتُ[١] عليهم فحلبت بدأت بوالديّ أسقيهما قبل ولدي، وإنّه قد نأى بي الشجر[٢]، فما أتيت حتى أمسيت، فوجدتهما قد ناما، فحلبتُ كما كنت أحلب، فجئت بالحِلاب[٣]، فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما، والصبية يتضَاغَوْن[٤] عند قدميّ، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرُج لنا فرجةً نرى منها السماء. ففرج الله لهم حتى يرون السماء.

قال الثاني: اللهم إنه كانت لي بنت عمّ أحبُّها كأشدّ ما يحبُّ الرجال النساء، فطلبت إليها نفسها، فأبت حتى آتيها بمئة دينار، فسعيت حتى جمعت مئة دينار، فلقيتها بها، فلما قعدت بين رجليها، قالت: يا عبدالله اتق الله ولا تفتح الخاتم، فقمت عنها. اللهم فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا منها، ففرج لهم فرجة.

---

(١) رُحت: رجعت عشية.

(٢) قد نأى بي الشجر: أي بعد بي طلب المرعى.

(٣) بالحلاب: باللبن الذي حلبته.

(٤) يتضاغَون: يتصايحون من الجوع.

وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيراً بِفَرَقٍ[٢] أرُزّ، فلمّا قضى عمله، قال: اعطني حقي، فعرضتُ عليه حقّه، فتركه ورغب عنه، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقراً وراعيها، فجاءني فقال: اتق الله ولا تظلمني وأعطني حقي. فقلت: اذهب إلى ذلك البقر وراعيها، فأخذه فانطلق بها. فإن كنت تعلم أني فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرُج ما بقي ففرّج الله عنهم».

هذه قصة هؤلاء الثلاثة أصحاب الغار، وقد فرّج الله عنهم إذ توسلوا إليه بما قدّموه من أعمالٍ صالحة:

فالأول: كان عمله الصالح من باب برّ الوالدين.

والثاني: كان عمله الصالح من باب العفة عن الحرام.

والثالث: كان عمله الصالح من باب أداء الحقوق إلى أهلها بأمانة تامّة مقرونة بإحسان وفضل.

(ب) **قصة أويس القَرني**:

روى مسلم عن أُسَيْر بن عمرو، أو هو أُسَيْر بن جابر، قال: كان عمر بن الخطّاب إذا أتى عليه أمْداد أهل اليمن سألهم: أفيكم أوَيْس بن عامر؟ حتى أتى على أويس فقال: أنت أويس بن عامر؟ قال نعم. قال: من مُرادٍ ثمّ من قَرَن؟؟. قال: نعم. قال: فكان بك برص فَبرأت منه إلاّ موضع درهم؟. قال: نعم. قال: لك والدة؟. قال: نعم. قال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن، من مُرادٍ ثمّ من قَرَن، كان به برص فَبَرأ منه إلاّ موضع درهم، له والدة هو بها برٌّ، لو أقسم على الله لأبرّه، فإن استطعتَ أن يستغفر لك فافعل».

فاستغفر لي، فاستغفر له، فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة؟. قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟. قال: أكون في غبراء الناس أحبُّ إليّ.

---

(٢) الفَرق: مكيال يسع ستة عشر رطلاً.

فلمّا كان من العام المقبل حجّ رجل من أشرافهم، فوافق عمر، فسأله عن أويس، فقال: تركته رثّ البيت قليل المتاع، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن، من مُراد ثمّ من قَرَن، كان به برص فبرأ منه إلاّ موضع درهم، له والدة هو بها بَرٌّ لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل».

فأتى الرجل أويساً، فقال: استغفر لي. قال: أنت أحدث عهداً بسفر صالح، فاستغفرْ لي. لقيتَ عمر؟. قال: نعم. فاستغفر له. ففطن له الناس، فانطلق على وجهه.

أمداد أهل اليمن: هم متطوعة الجهاد الذين كانوا يأتون مدداً لجيوش الفتح الإسلامي من مختلف الجهات، وكان اليمانيون عنصراً مهماً يُمد بالأعداد الكثيرة من المقاتلين.

لو أقسم على الله لأبرّه: أي لو حلف يميناً قال فيه: والله ليفعلَنَّ الله هذا الأمر لأبرَّ الله قسمه ففعل الله ما حلف عليه.

أكون في غبراء الناس أحبّ إليّ: أي أكون في عامتهم وفقرائهم ومن لا ينظر إليه منهم أحبّ إليّ، وهذا من تواضعه وإخلاصه العظيم رضي الله عنه.

رثّ البيت: الرّث هو الخَلَقُ البالي المهترىء الخسيس من كلّ شيء تقول: ثوبٌ رثٌ، ورجلٌ رث الهيئة، ومتاع رثّ، والجمع رِثاث.

فانطلق على وجهه: أي ذهب ثمّ لم يُعرف مكانه، إخفاءً لنفسه وبعداً عن التظاهر مخافة أن يدخل إلى قلبه الرياء.

واضح من قصة أويس أنّه كان يتمتع بميزتين عظيمتين:

الأولى: أنه كان براً بأمّه، فكان من ثمرة برّه بها أن منحه الله تبارك

وتعالى الدعوة المستجابة، فهو امرؤ كما أخبر الرسول ﷺ عنه: لو أقسم على الله لأبرّ الله قسمه.

وأويس تابعي لم ير الرسول ﷺ، ولكن الرسول ﷺ قد أخبر عنه وعن صفته قبل أن يأتي، ثمّ جاء مع أمداد أهل اليمن كما أخبر الرسول فهي إحدى معجزاته صلوات الله عليه.

الثانية: تواضعه وإخلاصه لله تعالى وزهده في الدنيا، وقد ظهر ذلك بإيثاره البعد عن كلّ ما فيه ظهورٌ وشهرة، حرصاً على مرتبة الصدق والإخلاص لله عزّ وجل، وظهر أيضاً برفضه أن يكتب أمير المؤمنين عمر إلى عامله في الكوفة يوصي فيه، وقوله: أكون في غبراء الناس أحبّ إليّ.

ولكن لم يحرمه الله من الذكر الحسن، فقد زاده الله بتواضعه رفعة وشهرةً وذكراً، وارتبط اسمه بمعجزة نبوية تروى.

أويس خير التابعين:

ولمّا كان أويس هذا عظيم الإيمان عظيم الإخلاص لله كثير التقوى والبرّ والإحسان كان خير التابعين، وقد شهد له الرسول ﷺ بذلك، كما جاء في رواية عند مسلم أن رسول الله ﷺ قال:

«إنّ خير التابعين رجل يقال له أويس، وله والدة، وكان به بياض، فمروه فليستغفر لكم».

صلة الرحم:

ومن ظواهر خلق الرحمة صلة الرحم، وقد أوصى الإسلام بصلة الرحم، ونهى نهياً شديداً عن قطيعة الأرحام.

إنّ من مبادىء الإسلام الاجتماعية الأولى تشبيك جماعات المسلمين في وحدة جسدية جماعية عامة. وأولى الناس بذلك الأقربون رحماً، فلهم حقّ أخوّة الإسلام، ولهم حقّ قرابة الرحم.

وتكون صلة الرحم بزيارتهم، وتفقد أحوالهم، وإكرامهم، والإهداء

إليهم، والتصدق على فقيرهم باعتباره أحقّ من الفقير البعيد، وتكون بتعهّد مرضاهم، ومشاركتهم في مسرّاتهم، ومواساتهم في أحزانهم، وتقديمهم على غيرهم في كلِّ أمرٍ هم أحقّ به من غيرهم بسبب قرابتهم.

أمّا قطيعتهم فتكون بهجرهم، والإعراض عن زياراتهم المستطاعة، وعدم مشاركتهم في مسرّاتهم، وعدم مواساتهم في أحزانهم، وتكون بتفضيل غيرهم عليهم في الصلات والعطاءات الخاصة، التي هم أحقّ بها من غيرهم.

وقد وصف الله المؤمنين أهل الجنة، بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويدخل في ضمن ذلك صلة الرحم، قال الله تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ . . . ﴿٢١﴾ ﴾.

ووصف الله من لهم اللعنة ولهم سوء الدار بأنهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويدخل في ضمن ذلك قطيعة الرحم، قال الله تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

وصلة الرحم من موجبات دخول الجنة، روى البخاري ومسلم عن أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري، أنّ رجلاً قال: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة، فقال النبي ﷺ: «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم».

ومن وصل الرحم وصله الله، ومن قطع الرحم قطعه الله، روى البخاري ومسلم عن عائشة، عن النبي ﷺ أنه قال: «الرّحم معلّقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله».

وهذا كناية عن أنّ حقّ الأرحام حق ثابت، وأنّ الله يصل من وصل الرحم، ويقطع من قطع الرحم، نظراً إلى أن الرحم مستجيرة برحمة الله.

وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الرحم شُجْنَةٌ من الرحمن، فقال الله: من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته».

الشُّجْنَةُ: في اللغة عروق الشجر المشتبكة، والمتداخل بعضها في بعض، ولا شكّ أنّ الرحم متداخلة متشابكة بعضها في بعض، كتداخل عروق الشجر المشتبكة، وكونها من الرحمن، أي اشتق الله لها اسماً من اسمه الرحمن. وقد جاء هذا المعنى مصرحاً به في حديث رواه أبو داود، وقال عنه: «حسن صحيح» عن عبدالرحمن بن عوف قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: أنا الله، وأنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها من اسمي فمن وصلها وصَلْته، ومن قطعها بتّته».

بتته: أي قطعته، فالبتّ في اللغة القطع.

وقطيعة الرحم من العناصر التي تحرم القاطع من دخول الجنة، روى البخاري ومسلم عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة قاطع».

أي: قاطع رحم، وقاطع لما أمر الله به أن يوصل، وهذا يفضي إلى الكفر الذي يتمرّد فيه العبد على أمر الله، ويرفض فيه طاعته.

وليس الواصل لرحمه هو من يعامل أرحامه بالمثل، فإن وصلوه وصلهم، وإن قطعوه قطعهم، ولكن الواصل هو الذي إذا قطعته رحمه وصلها، روى البخاري عن عبدالله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الواصل بالمكافىء ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها».

وشكا رجل إلى رسول الله ﷺ قطيعة قرابة له، على الرغم من أنه يواصلهم، ويحسن إليهم، ويحلُم عنهم، فأبان له الرسول ﷺ مبلغ عقوبتهم عند الله على قطيعتهم وإساءتهم له إن صدق فيما يقول، روى مسلم عن أبي هريرة، أنّ رجلاً قال: يا رسول الله، إنّ لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ، وأحلُم عنهم ويجهلون عليّ، فقال له الرسول ﷺ:

«لئن كنت كما قلت فكأنّما تُسِفُّهم الملّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك».

الـمَلْ: هو الرماد الحارّ، والمعنى فكأنما تطعمهم الرماد الحارّ، وهذا تشبيه لنوع العقاب الذي يجازون به يوم القيامة على قطيعتهم لرحمهم.

وروى البخاري ومسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «إنّ الله تعالى خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: «نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟» قالت: بلى. قال: «فذلكِ لكِ».

ثم قال رسول الله ﷺ : «اقرأوا إن شئتم: ﴿فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهُم الله، فأصمّهم، وأعمى أبصارهم﴾ (محمد ٢٢ ــ ٢٣).

فمن هذه النصوص يتبينّ لنا أن قطيعة الرحم معصية كبيرة، وإثم شنيع، وأنّ عقابها عند الله عقاب مريع، ونحن نعلم أنّ الوالدين أقرب الرحم.

نعوذ بالله من سيء العمل، ومزالق الزلل، وكبائر الإثم، وسوء المصير.

ومن لطائف الشريعة أنّ الصدقة على المسكين تحسب بصدقة، أمّا الصدقة على ذي الرحم فتحسب باثنتين، صدقة وصلة؛ روى الترمذي بإسناد حسن عن سلمان بن عامر، أنّ النبـي ﷺ قال: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة».

وصلة الرحم مما يكافىء الله عليه في الدنيا ببسط الرزق وإطالة العمر، وهذا ثواب معجل يتسابق إليه معظم الناس، وهو زائد على ثواب الآخرة الذي ادّخره الله للمؤمنين الذين يعملون الصالحات ابتغاء مرضاته، روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك، أنّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أحبّ أن يُبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره، فلْيصِلْ رحمه».

يُنْسَأ: أي يؤخر، والنسيء هو التأخير. والمراد من الأثر الأجل والعمر،

وذلك لأن عمر الإنسان في هذه الحياة هو الفترة الزمنية التي تسجّل له فيها آثاره ــ أي أعماله ذات الآثار ــ سواء أكانت خيراً أو شراً.

فيكون المعنى المراد من «ويُنسأ له في أثره»: يؤخر له في عمره، أي يطوّل له في عمره.

وأفضل الصدقة وأفضل أعمال البرّ هو ما كان منها على الأرحام والأقربين ما وجد فيهم ذو حاجة.

روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحبّ أمواله إليه بَيْرَحاء (اسم لحديقة من نخل) وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماءٍ فيها طيب، فلـمّا نزلت هذه الآية: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبّون﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا ممّا تحبون﴾ وإنّ أحبّ مالي إليّ (بَيْرَحاء) وإنها صدقة لله تعالى، أرجو برّها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله ﷺ: «بخٍ، ذلك مال رابح، ذلك مالٌ رابح، وقد سمعتُ ما قلتَ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين».

فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسم حديقته هذه في أقاربه وبني عمّه.

وروى البخاري ومسلم عن زينب الثقفية امرأة عبدالله بن مسعود، قالت: قال رسول الله ﷺ: «تصدّقن يا معشر النساء، ولو من حَلْيِكُنّ» قالت: فرجعت إلى عبدالله بن مسعود فقلت: إنك رجل خفيف ذات اليد، وإنّ رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة، فأته فاسأله، فإن كان ذلك يجزي عني، وإلّا صرفتها إلى غيركم، (تريد بذلك إعطاء صدقتها إلى زوجها إذا كان هذا جائزاً) فقال عبدالله بن سمعود: بل ائته أنتِ، قالت زينب: فانطلقت، فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ حاجتي حاجتها (أي: تريد أن تسأل الرسول بمثل السؤال الذي جاءت زينب من أجله).

قالت زينب: وكان رسول الله ﷺ قد ألقيت عليه المهابة، فخرج علينا بلال، فقلنا له: ائتِ رسول الله ﷺ فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانه، أتجزىء الصدقة عنهما على أزواجهما، وعلى أيتام حجورهما؟ ولا تخبره من نحن. فدخل بلال على رسول الله ﷺ فسأله، فقال له رسول الله ﷺ : «من هما؟» قال: امرأة من الأنصار وزينب. فقال رسول الله ﷺ : «أي الزيانب؟» قال بلال: امرأة عبدالله. فقال رسول الله ﷺ : «لهما أجران، أجر القرابة، وأجر الصدقة».

هذه تعاليم الإسلام الرائعة، وهذا حال نساء الصدر الأول من المسلمين.

* والأمر بصلة الرحم من أوائل ما نزل من التشريع في الإسلام، دلّ على ذلك آيات مكية، وأحاديث ثابتة:

روى مسلم عن عمرو بن عَبَسة السلمي في حديث طويل، قال: كنت وأنا في الجاهلية أظنّ أنّ الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً، فقعدت على راحلتي فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً جرآء عليه قومُه، فتلطفتُ حتى دخلت عليه بمكة، فقلت له: ما أنت؟ قال: «أنا نبي». فقلت: وما نبي؟. قال: «أرسلني الله». فقلت: بأي شيءٍ أرسلك؟ قال:

«أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحّد الله لا يشرك به».

قلت: فمن معك على هذا؟ قال: «حرٌّ وعبد» ـ ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ـ فقلت: إني متّبعك، قال:

«إنك لن تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس، ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي ظهرتُ فأتني».

وفي حديث أبي سفيان في قصته مع هرقل، من حديث طويل عند البخاري ومسلم، قال هرقل لأبي سفيان عن محمد ﷺ : فماذا يأمركم به؟ قال أبو سفيان: قلت: يقول: «اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة».

أي: وصلة الأرحام.

واستمرت الدعوة إلى صلة الرحم تحتل مقدمات ما يدعو إليه الرسول ﷺ.

روى البخاري ومسلم عن أبي أيوب الأنصاري أنّ رجلاً قال: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة، فقال النبي ﷺ:

«تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم».

وصلة الرحم قد تكون مقدمة على عتق الرقاب في بعض الأحوال:

روى البخاري ومسلم عن أمّ المؤمنين ميمونة، أنّها أعتقت وليدة، ولم تستأذن النبي ﷺ، فلمّا كان يومُها الذي يدور عليها فيه، قالت: أشعرت يا رسول الله أني أعتقت وليدتي؟. قال: «أو فعلتِ؟». قالت: نعم. قال: «أما إنّك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك».

ويظهر أنّ أخوالها كانوا ذوي حاجة، أوأنّ صلتها لهم تؤلف قلوبهم، وتجبر خواطرهم.

وصلة الرحم مطلوبة في الإسلام ولو كانت الرحم غير مسلمة، ولكن صلتها حينئذ تكون فيما لا يتعارض مع الإسلام وأحكامه، أو مع مصلحة المسلمين.

روى مسلم عن أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا، فعمّ وخصّ فقال:

«يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني مرّة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني عبدشمس أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني عبدمناف أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني عبدالمطلب أنقذوا أنفسكم من النار. يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإنّي لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أنّ لكم رحماً سأبلُّها ببلالها».

بِبِلالها: البلال مصدر بلّه بالماء إذا ندّاه به، أو جمع الْبَلَلِ ؛ والعرب يطلقون النداوة على الصلة، واليبس على القطيعة.

وروى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري، عن عمرو بن العاص، قال: سمعت النبـي ﷺ جهاراً غير سرٍّ يقول:

«إنّ آل أبـي فلان ليسوا بأوليائي، إنما وليّـي الله وصالح المؤمنين، ولكن لهم رحِمٌ أبُلّها بِبِلالها».

أي: أندّيها بما تستحق من صلة وإكرام، وذلك لأن هذه الرحم لم تستجب لدعوة الرسول ﷺ .

فصلة الرحم ظاهرة ترجع إلى جملة من الأسس الأخلاقية، منها الرحمة، ومنها حبّ الحق وإيثاره، لأنّ الله تعالى قد عقد بين الرحم شبكة حقوق متبادلة، ومنها الدافع الجماعي، والشعور بالمحبّة تجاه الآخرين.

وأبان الرسول ﷺ أنّ صلة الأرحام من الأعمال التي يثيب الله عليها بثوابين معجّلين في الدنيا:

الأول: البسط في الرزق والتوسعة فيه، فالذي يصل رحمه يبسط الله له في رزقه.

الثاني: إطالة العمر والبركة فيه.

وأبان الرسول ﷺ أن قطيعة الرحم تحجب بين القاطع وبين دخول الجنة وهذا الحجب إمّا أن يكون حجباً جزئياً، أو يكون حجباً كلياً إذا أفضى إلى ما فيه كفر موجب للخلود في النار.

وأبان أنّ المكافىء على الصلة بمثلها ليس هو الواصل، إنما الـواصل هو الذي إذا قطعته رحمه وصلها. وأبان أن قطيعة الرحم من الذنوب التي يعجل الله لصاحبها العقوبة في الدنيا، مع ما يدخره له في الآخرة من عقوبة.

ونفهم من حديث ميمونة مع أحاديث أخرى أنّ الأفضليات الواردة في

كلام الرسول ﷺ كثيراً ما كان يراعي الرسول فيها حال السائل وظروف الحادثة، فلكل حادثة حكمها، ومن العسير الحكم بالأفضلية المطلقة إلا للإيمان. وفيما عدا ذلك كثيراً ما تتبادل الأعمال الأفضليات بحسب المصالح التي تتحقق بها.

إكرام اليتيم:

ومن ظواهر خلق الرحمة إكرام اليتيم، بل هنا تظهر الرحمة في أعطف وأحنى وأكرم مظاهرها.

إنّ اليتامى صنف من الضعفاء بين الناس، والضعفاء أحوج الناس إلى الرحمة، وإلى مظاهرها وما تدفع إليه.

اليتامى ضعفاء فقدوا ظهيرهم ونصيرهم من أعطف الناس وأحناهم عليهم، وفقدوا راعيهم المزوّد فطرياً بالحنان والعطف عليهم، مع حبّ غير مشوب غالباً بأخلاط الأنانية والمصلحة الخاصة، ومع رغبة بالتضحية والعطاء والفداء، ومع حرص شديد على إبلاغهم مبلغ الرشد والكمال، والنضج والقوة، والدرجات العاليات في كلّ أمر نافع، وفي كلّ عمل رافع، وفي كلّ ارتقاءٍ مجيد.

وإذْ يفقد اليتامى راعيهم الحاني فطرياً عليهم يكونون عرضة للإهمال من جهة، ومطمعاً للبغاة من جهة أخرى.

وبين فكّي الإهمال والطمع يقع اليتامى فريسة ضعيفة تستدرّ رحمة الرحماء، وتستجلب حنان ذوي الشفقة والرأفة، فهم في وضعهم الذي هم فيه بؤساء، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً.

من أجل كل ذلك بادرهم الإسلام بالرعاية الجماعية من قبل المجتمع الإسلامي المحيط بهم، تعويضاً لهم عما فقدوه؛ فأوصى الإسلام المسلمين برعاية اليتامى، وبذل الحنان والعطف لهم، والمبالغة في إكرامهم، وحسن تربيتهم وتأديبهم، وأمر بكفالتهم، وإدارة أموالهم بأمانة تامة، ورعاية حازمة

بصيرة، وحذّر من استغلال موقف الضعف الذي هم فيه تحذيراً شديداً، وتهدّد الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً بالوعيد الشديد، وبالنار التي تكوي ما في البطون.

وحين نستعرض النصوص الإسلامية التي تعرضت لأحوال اليتامى نلاحظ أنّها توصي بإعطاء اليتيم وإطعامه، والإحسان إليه وإكرامه، وكفالته والرأفة به، ومؤاخاته عند مخالطته، والقسم له من الفيء والغنائم، وتنهى عن دعّه وطرده، وتحذّر من مغبّة ظلمه في نفسه أو ماله، وهكذا تهتم بشأن اليتيم اهتماماً بالغاً.

فلنواكب في مسيرة البحث قافلة النصوص الإسلامية في اليتامى، لنستجلي موقف الإسلام وطريقه في شأن هذا الصنف الضعيف من الناس:

١ ـ يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ في سورة (الضحى ٩٣):

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)﴾.

في هذا النص أعظم مواساة ربّانية للأيتام، فالله يعلن فيه أنّ اليتم بفقد الأبوين قد اختاره الله لأصفى أصفيائه من خلقه، محمد بن عبدالله، فحسب اليتامى مواساة وفخراً أن يكون سيّد المرسلين قد وُلد يتيم الأب، ثم نشأ يتيم الأبوين، ويخاطبه الله بقوله: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى؟﴾ أي: فآواك، إذ يسّر لك بدل والديك من يكفلُك ويؤويك ويحنو عليك.

وإذ ذاق الرسول طعم اليتم، وعرف في نشأته مشاعره، وعرف ما يقهر اليتيم وما يواسيه، وعرف ما يفرحه ويسره ويجبر كسره ويكون له تعويضاً عمّا فقد من أبويه، قال الله له: ﴿فأمّا اليتيم فلا تقهر﴾.

إنّ مشاعر اليتيم ربّما تبلغ من الإفراط في الحساسية أن تقهره الكلمة العابرة التي لا تثير انتباه أي إنسان آخر، ولا تحرّك فيه شيئاً، لذلك كان على

كافل اليتيم أن يكون دقيق الملاحظة جداً لما يهزّ مشاعر الأيتام بالألم، فلا يأتي منها شيئاً، ويوصي أسرته بمثل ذلك، فليس من السهل قهر اليتيم ولو بكلمة عابرة.

إنّ مراقبة الأيتام ودراسة مشاعرهم تنبىء عن أمور مهمّة جداً من هذا القبيل، ومن الجدير بمتتبعي الدراسات النفسية بالسبر والملاحظة، أن يخصّصوا فصلاً في دراساتهم لدراسة أحوال الأيتام النفسية، وما يسرهم ويواسيهم، وما يؤلمهم ويقهرهم، حتى تكون هذه الدراسات الواقعية هادياً لكل من يتولّى كفالة الأيتام، والإشراف على تربيتهم وتأديبهم وتنشئتهم، وحتى لا يكونوا في المستقبل جانحين، أو معقدين بالحقد والكراهية، والسخط على كلّ شيء من حولهم.

إن اليتيم قد يقهره منظر عطف الأب أو الأم على ولدهما داخل الأسرة التي يعيش في كفالتها، ويؤلمه جداً تفضيل غيره عليه ولو بأتفه الأشياء، ويتيقظ فيه الشعور بأنه لو لم يكن يتيماً للقي من العطف والإكرام والتفضيل مثل الذي يلقاه الآخرون، ولكنّه محروم من ذلك بسبب يتمه.

وقد يكون من الخير إقامة مؤسسات عامة لكفالة الأيتام، مزودة بأفضل وأحدث وسائل الحضانة والرعاية والكفالة الجماعية، يشرف عليها مربّون ومربّيات، يتمتعون بالمؤهلات التربوية العالية النظرية والعملية، وبذلك يتهيأ للأيتام وسط اجتماعي بعيد نوعاً ما عن مشاعر الحرمان والتفاضل التي يشعر بها الأيتام داخل الأسر.

ومثل هذا المشروع من الواجبات الاجتماعية التي ترضي الله وتلائم أساليب العصر الحضارية.

٢ ــ ويمتنّ الله على الإنسان فيقول في سورة (البلد ٩٠):

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ
إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾.

في هذه الآيات حديث عن الإنسان ومسؤوليته في هذه الحياة. يعرّف الله الإنسان بموقعه تحت سلطان قدرة الله ومراقبته، ثم يمتن عليه ببعض ما وهبه، ويضعه موضع الامتحان على مفترق طريقين، آتاه الله العلم بهما وبنتائجهما، بما أودع فيه من استعداد لإدراك ذلك، وهما طريقا الخير والشر، ﴿وهديناه النجدين﴾.

ثم يبين الله للإنسان أنّ طريق النجاة والفلاح منهما هو طريق الميمنة، إلّا أن هذا الطريق من دونه عقبة قائمة داخل نفس الإنسان، وهذه العقبة في النفس لا بدّ من اقتحامها لتحقيق النجاة والفلاح ﴿فلا اقتحم العقبة﴾.

ولكنْ ما هي هذه العقبة في النفس؟ ﴿وما أدراك ما العقبة؟﴾ ويأتي الجواب: أنها عقبة قسوة القلب، التي ينشأ عنها البخل، والشحّ، وجحود الحقّ، وعقبة انعدام الصبر.

فكيف يكون اقتحام العقبة هذه؟

إنه يكون بتنمية خلقي الرحمة والصبر، مع الإيمان الصحيح وذلك يجعل الإنسان قادراً على اقتحام عقبة نفسه، فيجود في مواطن المرحمة، ويثبت في مواطن الصبر. فيعتق الرقاب جوداً وإحساناً ورحمة بالضعفاء، ويطعم الطعام في أيّام المجاعة، إذ الحاجة إليه حينئذٍ ملحّة، فيقدّمه إلى الضعفاء من ذوي الحاجة، وفي مقدمتهم يتيم ذو قرابة، أو مسكين فقير ﴿فلا اقتحم العقبة، وما أدراك ما العقبة؟ فكّ رقبة، أو إطعام في يوم ذي مسغبة، يتيماً ذا مقربة، أو مسكيناً ذا متربة، ثمّ كان من الذين آمنوا وتواصلوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾.

مسغبة: مجاعة. متربة: فقر وحاجة. مرحمة: رحمة. مقربة: قرابة. وهي مصادر لأفعالها جاءت على وزن (مفعلة).

ونستطيع أن نفهم من إشارة الكلام في السورة، أنّ عتق الرقاب، وإطعام الأيتام والمساكين، من ظواهر خلق الرحمة، التي عمل الإسلام على غرسها في نفوس المؤمنين، وعمل على تغذيتها وتنميتها، وتوسيع دائرة شمولها، بدليل قوله تعالى عقب بيان اقتحام عقبة النفس وذكر أمثلة لهذا الاقتحام: ﴿ثمّ كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾.

وهذا ما توحي به طبيعة تناسب بناء الكلم بعضه على بعض، وهو الأمر الذي يكاد يكون مطّرداً في الترابط البيّن من معاني آيات القرآن العظيم، يشهد هذا من يتدبّر القرآن بعمق في التأمل، وبصر نافذ في الفهم. إنه لم يأت ذكر تواصي الذين آمنوا بالمرحمة، الأمر الذي وجّه له القرآن بعد الحثّ على الظواهر العمليّة التي تنبع في غالب أحوالها من منابع الرحمة المتغلغلة في أعماق النفس الإنسانية، إلّا إشعاراً بهذه الحقيقة. فيكون الأمر بهذه الظواهر العملية تعميقاً لخلق الرحمة في قلوب المؤمنين، ثم يكون تواصي المؤمنين فيما بينهم بالمرحمة وسيلة أخرى مشجعة على ممارسة ظواهر الرحمة على اختلافها، وعاملة على تعميق هذا الخلق في النفس. وذلك لما لهذا الخلق العظيم من آثار اجتماعية جليلة.

وهكذا نلاحظ في هذا النصّ عناية القرآن بالتوجيه لإطعام اليتيم.

٣ ــ ويؤنّب الله المشركين الذين من شأنهم أن تكون قلوبهم قاسية غير ندية بخلق الرحمة، لذلك فهم لا يكرمون اليتامى، ولا يحضّ بعضهم بعضاً على إطعام المساكين، فيقول تبارك وتعالى في سورة (الفجر ٨٩):

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾.

في هذا النص يؤنب الله المشركين الذين جفّت في قلوبهم بسبب الكفر منابع الرحمة، التي تدفع أصحابها إلى العطف على الضعفاء، وفي مقدمتهم اليتامى، فهم بقسوة قلوبهم وجفافها لا يكرمون اليتيم، ولا يتحاضون على طعام المسكين، وهم بسبب كفرهم باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء ونعيم مقيم وعذاب أليم، دنياويون مفرطون في أنانيّاتهم، نامٍ في نفوسهم الطمع الشديد وحبّ المال، فهم يأكلون التراث أكلاً لمّاً، ويحبون المال حبّاً جمّاً.

أي: يأكلون الميراث مقبلين عليه بشره شديد، إذ يأتيهم بغير جهد، فيلمّون كلّ صغيرة وكبيرة منه، ولا يدعون شيئاً للأيتام والمساكين، ولا يقسمون شيئاً من التركة للضعفاء والمجهودين وذوي الحاجات. بينما توصي التعاليم الإسلامية مستحقي التركة بأن يعطوا شيئاً لمن يحضر قسمتها من أولي القربى واليتامى والمساكين الذين ليس لهم في الأصل نصيب مفروض وأن يقولوا لهم قولاً معروفاً، وهذا العطاء إكرام تجبر به خواطرهم، قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾.

ففي هذه الآية يوصي الله تبارك وتعالى بإعطاء الذين يحضرون قسمة التركة من أولي القربى واليتامى والمساكين، شيئاً على سبيل الترضية وجبر الخاطر، إذا لم يكونوا من ذوي الحقوق فيها. وفي تحقيق هذه الوصية ترابط اجتماعي عظيم، وتوثيق لوشائج المودّة والمحبّة بين أعضاء الأسرة، وتعميق لخلق الرحمة بالضعفاء في نفوس المسلمين.

٤ ــ ويقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

في هذا النصّ تحريض على حسن رعاية اليتامى وضمان حقوقهم، واستثارة لحرص الإنسان على أن تعامل ذرّيته الصغار من بعده بالإحسان والإكرام، مكافأة له على معاملته لليتامى بمثل ذلك. فإذا لم يفعل ذلك فلربما قست قلوب الناس تجاه من قد يصيبهم اليتم من ذرّيته. أليس هو عرضة في كلّ لحظة لأن تقبض عليه يد المنون، فيموت ويخلّف من ورائه صغاراً له يمسُون بفقده يتامى؟ فبماذا يُحبّ أن يعامل الناس أولاده الذين قد يمسون يتامى بموته؟ إنه يحبّ أن يعاملوهم بمثل الإكرام الذي كانوا يتمتعون به في حياته. إذن فليعامل هو يتامى الآخرين بمثل ما يحبّ أن تعامل به ذريته الضعاف من بعده؛ وإلّا فليرتقب المعاقبة بالمثل، تعذيباً لروحه بالحرقة على ذرّيته الضعاف الذين تركهم يتامى، وفي هذه الاستثارة ضرب على الوتر العاطفي الحسّاس للتوجه إلى ما يجب.

فليتق الذين يتولون أمور اليتامى ربهم، وهذه التقوى تفرض عليهم أن يحافظوا على أموال اليتامى، ويكرموهم، ولا يهينوهم، ويحسنوا تربيتهم وتأديبهم وتعليمهم، ويعاملوهم بمثل ما يعاملون به أولادهم. وهذه التقوى تفرض عليهم أن يقولوا قولاً سديداً في كلّ أمرٍ يتعلق بالأيتام الذين يتولّون شؤونهم، ومن القول السديد إرشاد الأيتام إلى فضائل الخصال، ومحاسن الآداب، وكريم الأفعال، مع حكمة في الأسلوب.

وفي هذا النص تحذير شديد من العدوان على أموال اليتامى، وأكل شيء منها ظلماً ﴿إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾.

ففي الدنيا لهم عذاب وآلام تشبه ما تفعل النار في البطون لو دخل شيء منها فيها، وفي الآخرة لهم عذاب في السعير في نار جهنم، وبئس هذا المصير.

وكان العرب في الجاهلية قبل الإسلام من قسوة قلوبهم يهينون اليتامى، ويدفعونهم بالأبواب، ويأكلون أموالهم ظلماً وعُدواناً، وكان الرجل منهم إذا كان وليّاً لأمر يتيمة أنثى فإن كانت جميلة ولها مال تزوجها وأضافها إلى نسائه

ـ إذ كانت التقاليد العربية تسمح بهذا الزواج ـ وهضم حقوقها وأكل أموالها، وإن كانت دميمة منعها من الزواج وأكل أموالها.

ولمّا جاء الإسلام وبسط الله سلطانه، أصلح كلّ هذه الأوضاع الشاذة، ورفع شأن اليتامى إلى مقام التكريم من جهة، والمحافظة على حقوقهم المالية والشخصية من جهة أخرى، وجعل المجتمع الإسلامي رقيباً عامّاً على الأولياء، وحارساً عاماً لحقوق اليتامى، ويشير القرآن إلى بعض أحوال الجاهلية التي كان أهل الجاهلية يمارسونها قبل الإسلام فيقول الله تعالى في سورة (الماعون ١٠٧):

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾.

فقد كانوا يدعون اليتيم، أي: يدفعونه دفعاً عنيفاً غليظاً دونما شفقة ولا رحمة.

وقد بين القرآن السبب في نضوب رشح الرحمة في قلوبهم، وهو أنهم يكذّبون بيوم الدين، وتكذيبهم هذا يجعلهم لا يتصوّرون غير الحياة الدنيا، وهذا النظر القاصر من شأنه أن يجعل الإنسان حريصاً على ملذات الحياة الدنيا، متكالباً عليها، أنانياً في كل تصرفاته، لا يشعر بالخوف من انتقام الله العادل، لا سيما الضعفاء الذين لا يخشى بأسهم أو انتقامهم.

إنه لا يخفف من نزعة الظلم والبغي عند الإنسان إلّا إيمانه باليوم الآخر، وما أعدّ الله فيه من جزاء للمجرمين، وهذه حقيقة ثابتة يرشد إليها العقل السديد، وتشهد لها التجارب الإنسانية.

ولذلك نزل القرآن بالوعيد الشديد للذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ﴿إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾.

وقد ورد أنه لمّا نزلت هذه الآية خاف المسلمون من مغبّة مخالطة أموال اليتامى، حذر أن يدخل عليهم منها شيء، فيقعوا في الظلم، فصاروا يتحرّجون منها تحرجاً كبيراً، ويعزلونها عن أموالهم، الأمر الذي جعل أموال اليتامى مجمّدة

عن التنمية، وعرضة للفساد، وتساءل متسائلون منهم عن هذا الأمر، **فأنزل الله** قوله في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾.

فتضمنت هذه الآية بيان نقطة مهمة، وهي أن المطلوب بالنسبة إلى أموال اليتامى إنما هو المحافظة عليها، فإذا تهيأت وسيلة أخرى هي أنفع لهم وأصلح، فإصلاح لهم خير، وإن كان هذا الإصلاح يستدعي خلط أموالهم بأموالكم فهو خير أيضاً، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح﴾.

فتنمية أموال اليتامى بالأعمال الاستثمارية من الخير، بشرط أن تكون وجوه الاستثمار ممّا لا مغامرة فيه، أي: مما اعتاد معظم الناس عدم التخوف على أموالهم إذا وضعوها فيها للاستثمار.

وقوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لأعنتكم﴾ أي: ولو شاء الله لحمّلكم مشقة تكليفٍ أكثر ممّا كلّفكم بالنسبة إلى اليتامى وأموالهم، كأن يجعل مثلاً نفقتهم عليكم لا في أموالهم، وكأن يكلفكم تثمير أموالهم على أنّ لهم الربح إذا حصل، دون أن يتحملوا الخسارة إذا حصلت أو دون أن يكون لكم أجر على ذلك، ولكن الله تعالى لم يشأ أن يحمّلنا هذه المشقة في تكاليفه الشرعية، وإنما نهانا فقط عن ظلمهم وأكل أموالهم بالباطل.

والأحكام التي دلّت عليها هذه الآية قد جاء بيانها وتأكيدها في قوله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ . . . ﴿١٥٢﴾ ﴾.

ونظيره في سورة الإسراء.

ففي هذا دلالة واضحة على أنه كلّما كان القرب من مال اليتيم أحسن له من عدم القرب فهو خير، وإلاّ فعدم القرب منه هو الواجب.

وحين يبلغ اليتامى مرحلة الرشد يجب تسليمهم أموالهم كاملة غير منقوصة ولا مبدلة، لأنهم قد أصبحوا أولياء أنفسهم، وارتفعت عنهم وصاية غيرهم عليهم، وقد أنزل الله في هذا قوله في سورة (النساء ٤):

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾.

حوباً كبيراً: أي ذنباً كبيراً.

وأنزل الله فيه أيضاً قوله في سورة (النساء ٤):

﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾.

بداراً أن يكبروا: أي مبادرين كبرهم، إذ تسابقون في أكل أموالهم قبل أن يكبروا ويطالبوا بها.

والإذن للفقراء بأن يأكلوا من أموال اليتامى بالمعروف، إنما هو أجرة إدارتهم لأموالهم وتقدّر هذه الأجرة بحسب عرف الناس في كل زمان.

أما الأغنياء فالمطلوب منهم أن يديروا هذه الأموال مع الاستعفاف عن أخذ الأجرة.

وعالج الإسلام موضوع تزوّج ولي اليتيمة منها، الأمر الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه مستغلّين سلطة ولايتهم على اليتامى، فقرّر أنه ليس للولي أن يستغلّ ولايته، فيتزوج من اليتيمة التي تحت يده، ما لم يكن ذلك بكامل رضاها، وبشرط توفيتها كامل حقوقها، وبشرط معاملتها بالقسط.

ومن تخوّف من نفسه أن تجانب سبيل العدل التام مع اليتيمة التي تحت ولايته إذا هو تزوّج منها فلا يتزوج منها، إنّ النساء غيرها كثيرات، فلينكح منهنّ ما شاء مثنى وثلاث ورباع، وهذا ما دلّ عليه قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ ﴾.

ألّا تعولوا: أي أن لا تتحمّلوا مسؤولية النفقة على عيال كثيرين. عن الكسائي قال: من العرب من يقول: عالَ الرجل يعول إذا كثر عياله. وعن اللّحياني مثله[1].

٥ ـ ويقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ ۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

فهذه الآية تأمر بعبادة الله وحده، وتتبع ذلك فتأمر بالإحسان إلى الوالدين، ثم تأمر بالإحسان لذي القربى، ثمّ تأمر بالإحسان لليتامى بوجه عامّ، وهكذا تستمرّ حتى تشمل طائفة كبيرة من مستحقي الرحمة والإحسان.

٦ ـ ومن رعاية الله للأيتام أن جعل لهم نصيباً في خُمس الغنائم وفي الفيء، والغنائم هي ما يستولي عليه المسلمون من أموال العدو في الحرب، وأمّا الفيء فهو ما يستولي عليه المسلمون من أموال العدوّ بغير حرب.

---

(١) تفسير غريب القرآن للإمام السجستاني المتوفى سنة ٣٣٠هـ.

أمّا الغنائم فحصة الأيتام منها من أصل الخمس الذي لله وللرسول، قال الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾.

وأمّا الفيء فحصة الأيتام تؤخذ منه كلّه، لا من خمسه فقط، قال الله تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾.

والسبب في أنّ الفيء كلّه يوجّه لأبواب الخير أنه منحة ربّانية للمسلمين عامة، وليس للمقاتلين فيه كسب مباشرٌ فعّال، بخلاف الغنائم، وهذا ما دلّ عليه قول الله تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾.

فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب: أي فما حثثتم عليه خيولكم ولا ركابكم مقاتلين بذلك عدوّكم، حتى تستحقوا منه، وإنما هو منحة من الله أفاءها الله على رسوله. وأصل الإيجاف في اللغة: الإسراع في السير.

٧ ـ سأل المسلمون رسول الله: ماذا ينفقون؟ فنزل القرآن مبيّناً وجوه الخير التي ينبغي لهم أن ينفقوا فيها، ومنها اليتامى، قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ (٢١٥) ﴾.

وهكذا توجّه النصوص الإسلامية لرعاية الأيتام وسائر الضعفاء بعناية بالغة، ولو أنّ الوصايا الإسلامية هذه اتبعت بصدق وإخلاصٍ وتنفيذ صحيح، لكان الأيتام وسائر الضعفاء أسعد حالاً وأرغد عيشاً من كثير من الذين يتمتعون بحَنان وعطف آبائهم وأمّهاتهم.

٨ ـ ويبين الله تبارك وتعالى وجوه البرّ، فيذكر منها إعطاء اليتامى المال على حبّه، يقول الله تبارك وتعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ... (١٧٧) ﴾.

وهكذا توجّه هذه الآية إلى العناية بالفقراء والضعفاء وذوي الحاجات ومنهم اليتامى، رحمةً بهم.

٩ ـ وحثّ الرسول الكريم صلوات الله عليه على إكرام اليتيم وإطعامه، في أقوال كثيرة، منها:

ما رواه البخاري عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم له ولغيره في الجنة هكذا» وأشار الرسول بأصبعيه السبّابة والوسطى، وفرّج بينهما شيئاً.

له ولغيره: أي سواء أكان قريباً له أو بعيداً.

وما رواه ابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُحسَنُ إليه، وشرّ بيت في المسلمين بيتٌ فيه يتيم يساءُ إليه».

وما رواه ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «من آوى يتيماً إلى طعامه وشرابه أوجب الله له الجنّة البتّة، إلاّ أن يعمل ذنباً لا يُغفر، ومن عال ثلاث بنات أو مثلهنّ من الأخوات فأدّبهنّ ورحمهنّ حتى يغنيهنّ الله أوجب الله له الجنّة» فقال رجل: يا رسول الله واثنتين؟ قال: «واثنتين» حتى لو قالوا: أو واحدة؟ لقال: واحدة، «ومن أذهب الله بكريميتيه وجبت له الجنّة».

قيل: يا رسول الله وما كريمتاه؟ قال: «عيناه»، رواه في شرح السنة[1].

١٠ ـ وروى النسائي بإسناد جيّد، عن أبي شُرَيح خويلد بن عمرو الخزاعي قال: قال رسول الله ﷺ: «اللّهم إنّي أحرّج حقّ الضعيفين: اليتيم، والمرأة».

ومعنى أحرّج: ألحق الحرج ـ وهو الإثم ـ بمن ضيّع حقهما، وأحذّر من ذلك تحذيراً بليغاً، وأزجر عنه زجراً شديداً.

وهكذا بشر الرسول ﷺ كافل اليتيم بأنه يكون مع الرسول في الجنة، وفي إشارة الرسول ﷺ بأصبعيه إيماء إلى أن كافل اليتيم يكون مجاوراً له ﷺ في الجنة، كمجاورة أصبع السبّابة للأصبع الوسطى، أمّا التفريج بينهما فقد يكون إيماءً إلى المجاورة بوجه عامّ مع ملاحظة الفروق في المنزلة التي تدلّ عليها نصوص أخرى.

ولكفالة اليتيم هذا الثواب العظيم سواء أكان اليتيم قريباً للكافل أو غير ذي قرابة له، ولكنّ هذا التكريم إنما يكون لمن استحق دخول الجنة بالإيمان، أخذاً بدلالة النصُوص الأخرى.

وكان لكفالة اليتيم هذه المنزلة في الإسلام لأنّها تنبىء عن مشاعر الرحمة في قلب من يكفله، والرحمة جوهرة نفيسة من الجواهر التي تشتمل عليها قلوب المؤمنين، وتعظم هذه الجوهرة في قلوب العظماء حقّاً، ومهما عظمت هذه الجوهرة في قلب امرىء كان أعظم مكانة وأرفع قدراً. ولأنها واجب اجتماعي تفرضه

---

(١) مشكاة المصابيح الحديث رقم (٤٩٧٥).

أحكام الشريعة، ومبادىء الأخلاق، وجميع النظم الوضعية التي تنظر بعقل إلى مصالح الجماعة الإنسانية. فهذا اليتيم مخلوق ناشىء من الناس ضعيف، وهو بحاجة إلى من يكفله ويرعاه ويقوم بشؤونه، فإذا هو فقد الحاني عليه الرؤوف به من ذي قرابته وجب أن يجد في المجتمع بديلاً عنه، وهذا البديل لا يكفل بصدق وأمانة ما لم يكن قلبه مملوءاً بخلق الرحمة، أو مشحوناً بإيمانٍ يربطه بالله ربطاً صحيحاً، ويدفعه إلى ابتغاء مرضاة الله، فمن جفت في قلبه منابع الرحمة الإنسانية كان الإيمان بالله واليوم الآخر في قلبه كافياً لدفعه إلى كلّ عمل كريم تدفع إليه الرحمة، وكان أيضاً محرّضاً وممدّاً لمنابع الرحمة فيه حتى تعود إلى عطائها بعد جفافها.

وكفالة اليتامى من أخلاق المجتمع المسلم، إذ لا يجوز بحالٍ من الأحوال في مجتمع مسلم أن يُترك يتيم مهملاً، دون أن يجد من يكفله ويرعى شأنه، فإن لم يجد من يكفله فالمجتمع الإسلامي الذي حوله كلّهم آثمون إذا علموا به وأهملوه.

أمّا من يعتدي على اليتيم فيظلمه أو يأكل مـاله بغير حقّ، ويستغل ضعفه وقلة حيلته؛ فهو من أشدّ الناس عقوبة، لأنه من أكثرهم جرماً وأقلّهم رحمة وعاطفة إنسانية، يضاف إلى ذلك استهانته بالإنذارات الشديدة التي أنذر الله بها الذين يظلمون اليتامى ويأكلون أموالهم بغير حقّ.

وكم من أناس ظلموا اليتامى فأكلوا أموالهم بغير حقّ فكانت عاقبتهم وعاقبة أسرتهم في الدنيا وخيمة جدّاً، وجازاهم الله على ظلمهم جزاء نكراً.

وكان ذلك تأكيداً لما ورد من أنّ ظلم اليتامى ممّا يعجّل الله العقوبة عليه في الدنيا مع ما يدخره لهم من عقاب يوم القيامة، ليتعظ الناس فلا يتعرضوا لظلم اليتامى. والسرّ في ذلك أنّ الله تبارك وتعالى حينما يتوفّى آباءهم أو أمهاتهم أو كليهما يجعلهم في كفالته وحمايته، وتظهر هذه الكفالة والحماية في تسخير من يكفلهم من أهل الرحمة، وفي تعجيل عقاب من يظلمهم. وحينما تتكرّر سنّة العقوبة المعجلة لمن يظلم اليتيم تكون عبرة وعظة لكل من تحدثه نفسه بأن يظلم

يتيماً، إذ يضع في حسابه أنّ العقاب لاحق به لا محالة إذا هو دخل دائرة الخطر فظلم من هو في كفالة الله.

إكرام الجار والإحسان إليه وحفظ حرمته:

من مظاهر التراحم بين المسلمين إكرام الجار، والإحسان إليه، وحفظ حرمته، وقد أوصى الإسلام بهذا وصايا ملحّة.

إنّ التراحم ظاهرة من ظواهر المجتمع المسلم بشكل عام، وهو أظهر وآكد فيما بين الأقربين والجيران، والأصحاب والخلان، وكذلك بالنسبة إلى كلّ مستحقي الرحمة من الضعفاء وذوي الحاجات.

للجار على الجار في المفاهيم الإسلامية والآداب الشرعية حقوق تشبه حقوق الأرحام على الأرحام، فللجار حقّ المواصلة بالزيارة والتهادي، والعيادة والمواساة والمعونة، وله حقّ كفّ الأذى، والمناصرة بالحقّ، والنصح له، وتهنئته، ومشاركته في مسرّاته، وتعزيته ومواساته في مصائبه، وله في الأخلاق الإسلامية حقّ الشُّفعة، حتى رآه بعض الفقهاء حقاً لازماً يُحكَم به قضاءً، وحق الشفعة هو حق الشريك في ملك عقار، إذا أراد شريكه أن يبيع حصته، فهو أحق بشرائها ممّن عداه، بالقيمة التي يتمّ الاتفاق مع الغير على بيعها له. هذا ما يسمّى بحق الشفعة، ويحكم به قضاءً إذا تمّ البيع لشخص آخر غير الشريك في ملك العقار الواحد. وحق الشفعة هذا حق قد قرّره بعض الفقهاء المجتهدين للجار الملاصق على جاره.

أما كونه من فضائل الأخلاق الإسلامية فهو أمرٌ متفق عليه، لأنه يدخل في عموم الإحسان إلى الجار.

وقد أمر الإسلام بالإحسان إلى الجار، وأوصى به خيراً، وجعل له على جاره حقوقاً، والنصوص في هذا متعدّدة، منها ما يلي:

١ ــ يقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي

﴿ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾.

فأوصى الله في هذه الآية بالإحسان إلى الجار ذي القربى، وإلى الجار الجنب.

وللعلماء في تفسير المراد من الجار ذي القربى والجار الجنب رأيان:

الأول: أنّ الجار ذا القربى هو الجار القريب، أي: الذي تكون داره قريبة من دار جاره، وعلى هذا التفسير فالجار الجنب هو الذي تكون داره مجانبة ليست بملاصقة، لكنّ عرف الناس يقضي بأنهما متجاوران، كالدور التي تكون في حارة واحدة، أو زقاق واحد، أو في قرية صغيرة.

الثاني: أن الجار ذا القربى هو الجار الذي بينه وبين جاره قرابة رحم، وعلى هذا التفسير فالجار الجنب هو الذي ليس بينه وبين جاره قرابة رحم.

وقد أوصى الله بالجار عموماً، أمّا الجار القريب قرابة رحم فله حقّان: حقّ القرابة، وحقّ الجوار.

وأمّا غيره فله حقّ الجوار فقط.

وأوصى الله بالجار الأدنى، وبالجار غير الأدنى.

٢ ــ وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر وعن عائشة، أنّ النبي ﷺ قال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

فهذا الحديث يشعر بقوّة حقّ الجار على جاره، حتى قارب أن يكون بمنزلة الأقربين، الذين فرض الله لهم حقوقاً في الميراث.

٣ ــ وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه».

أي: لا يأمن جاره شروره وغوائله.

ففي هذا الحديث بيان مشدّد يتضمّن التحذير البالغ من إيذاء الجار، حتى كاد يكون إيذاء الجار مخرجاً من الإيمان، أو علامة على فقد الإيمان، لأنّ من أوصاف المؤمن أن يكون مأمون الجانب، فكيف بالذي لا يأمن جاره شروره وأذاه.

٤ – وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت».

فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر لم يؤذ جاره، وانتهى عمّا نهى الله ورسوله عنه.

٥ – وروى مسلم عن أبي شُرَيحٍ الخزاعي، أنّ النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره».

فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر أحسن إلى جاره، امتثالاً لأمر الله والرسول.

٦ – وروى الترمذي بإسناد حسن، عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره».

ففي هذا الحديث يبيّن الرسول ﷺ خير الجيران، ويذكر أنه خيرهم لجاره.

٧ – ومن تعميق معاني الأخوة بين الجيران التهادي بينهم في المآكل والمشارب وغيرها.

روى مسلم عن أبي ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك».

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ قال: «يا نساء المسلمات لا تحقرَنّ جارة لجارتها ولو فرسن شاة».

أي: ولو كان ما أهدته لها ظلف شاة. وهو عظم قليل اللحم جدّاً.

٨ ــ ومن إكرام الجار والإحسان إليه، أن يأذن الجار لجاره بأن يستخدم جداره، فيحمل عليه خشبة من أخشاب سقفه، أو نحو ذلك، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يمنع جارٌ جاره أن يغرز خشبة في جداره».

ثم يقول أبو هريرة: ما لي أراكم عنها معرضين، والله لأرمينَّ بها بين أكتافكم.

نعم: لقد أمسى الجيران يشحّون بهذا، ولا يعملون بهذه الوصية.

٩ ــ وروى البخاري عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، إنّ لي جارين، فإلى أيّهما أهدي؟ قال: «إلى أقربهما منك باباً».

١٠ ــ وروى الحاكم وصحّحه، أنّ النبي ﷺ قال: «من كان له جار في حائط أو شريك فلا يبعْه حتى يعرضه عليه».

ففي جملة هذه الأحاديث يتبينّ لنا إلحاح الإسلام على الوصية بالجار، والتحذير من إيذائه، ومن كثرة ما أوصى جبريل عليه السلام الرسول ﷺ بالجار، ظنّ الرسول أنه سينزل تشريع بتوريثه.

إنّ الذي يؤذي جيرانه يتنافى سلوكه مع مقتضى إيمانه إن كان مؤمناً، وهو محروم من أوّليات فضائل الأخلاق، فالإيذاء ليس من أخلاق المؤمنين في كلّ الأحوال ولكلّ الناس، فكيف بإيذاء الجار لجاره، وللجار حقوق على جاره؟

إنّ الجار في وصايا الإسلام معين وناصر وحارس وأمين، يطعم الجار من طعامه إذا هو جاع، ويهدي له من طبخه ولو كان غير ذي حاجة، ويشاركه في أفراحه ومسرّاته، ويواسيه ويعزّيه في مصائبه وأحزانه، ويرشده وينصح له،

ويتعاون معه على البر والتقوى، ويعوده إذا مرض، ويزوره زيارة الأخوة والمودّة، ويحفظه في أهله وذريته، ولا يخونه في مال ولا أهل ولا ولد.

ومن حقّ الجار على الجار أن لا يحتقر هديته مهما قلت قيمتها، إذ ليس المقصود من التهادي التفاخر والتظاهر، بل المقصود الإشعار بالتذكّر، وتوثيق عرى المودّات. إنّ الهديّة مهما كانت قليلة القيمة ففيها معنى التحيّة والتذكّر، وهذان أمران ثمينان في قيمتهما المعنوية.

وفي مراعاة وصايا الإسلام لحقوق الجار تنعقد المودّات، وتتوثّق الروابط الاجتماعية بين المسلمين، وتتأكد ظاهرة من ظواهر الجسدية الواحدة بين المؤمنين.

ولذلك أمر الله بالإحسان للجار ذي القربى وللجار الجُنُب، كما أمر بالإحسان للوالدين ولذي القربى واليتامى والمساكين والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت الأيمان من أرقاء.

ومع هذه الوصايا الإسلامية بالجار نلاحظ كثيراً من الناس يؤذون جيرانهم، ولا يؤدّون لهم حقوقهم. فكم من مزعجات صوتية تكاد تبعث الموتى من قبورهم يطلقها بعض الجيران غير مراعين حقوق جيرانهم عليهم، وربما يكون ذلك في أوقات الراحة والنوم، كالقيلولة بعد الغداء، ومن الليل حتى يغدو الناس مصبحين. وكم من قمامات يرميها بعض الجيران على أبواب جيرانهم أو منازلهم، وكم يستعير بعض الناس المتاع من جيرانهم ثم لا يردّونه. وكم ينظر بعض الجيران إلى محارم جيرانهم بفضول قبيح، ونظرات مريبة. وكم من جيران لا أمانة لهم على أموال جيرانهم وأعراضهم. إلى غير ذلك من قبائح ومنكرات.

وكم من رجل فاضل هجر داره ليفارق جاره، ويكفّ عن نفسه وأهله بوائقه.

إنّ جار السوء من المصائب الكبرى في الحياة الدنيا، وقد يصل السوء

ببعض الناس أن يتوسط لديه العقلاء لكفّ أذاه عن جيرانه، فلا يستجيب لهم، ويجدون أنفسهم لدى معالجته ونصحه كمن يحلُب قرنَ الشاة، أو يحرث في صفاة، أو يخاطب الأموات.

حسن معاشرة النساء:

ومن ظواهر خلق الرحمة حسن معاشرة النساء، لأنّهنّ بحسب ما فطرهنّ الله عليه ضعيفات، ولذلك أوصى الإسلام بالنساء خيراً، وأمر بإكرامهنّ والإحسان إليهن، والصبر على عوجهنّ، ورحمتهن، والعطف عليهن، وعدم ظلمهنّ.

والنصوص التي توصي بالنساء خيراً متعدّدة، منها ما يلي:

١ ــ روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ قال: «استوصوا بالنساء خيراً، فإنّ المرأة خلقت من ضلَع، وإنّ أعوج ما في الضلع أعلاه، فإذا ذهبتَ تقيمه كسرته، وإنْ تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً».

وفي رواية عند مسلم: «وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها».

فأبان الرسول ﷺ أنها خلقت من ضِلَع، أي: عوجاء: لأنّ الضلع أعوج، وإنّ أعوج ما في الضِلَع أعلاه، وأعلى ما في المرأة رأسها، وموطن تفكيرها، وأوهامها، وتصوّراتها.

وإذا كان هذا من طبعها الذي فطرت عليه للغاية التي خلقت من أجلها، كان من واجب الرجل أن يصبر عليها، ويتحمل منها آثار عوجها الفطري في السلوك.

٢ ــ وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَفْرَكْ مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلُقاً رضي منها آخر».

لا يَفْرَكْ مؤمن مؤمنة: أي لا يُبغض مؤمن مؤمنة. يقال لغة: فَرِكَت المرأة زوجها تَفْركه: إذا أبغضته وكرهته. وفَرِكَ الرجلُ زوجته يَفْرَكها: إذا أبغضها وكرهها.

وقد نبّه الرسول ﷺ في هذا الحديث على جانب من جوانب الواقع الإنساني، وهو أنّ كلّ إنسان فيه جوانب ترضي وفيه جوانب لا ترضي، والعاقل هو الذي يوجّه نظره وإعجابه إلى ما يرضيه ممّن يخالطهم، ويُغضي عمّا لا يرضيه منهم؛ فإن كان ممّا يمكن معالجته وإصلاحه عمل على تهذيبه بالتربية الحسنة، وبذلك يعيش راضياً سعيداً، وبذلك يستطيع أن يكف نفسه وقلبه عن الكراهية والبغض، ويتعايش مع الآخرين بالرضا والتسامح. وهكذا يستطيع الرجل أن لا يكره زوجته، وإن كان فيها من الأخلاق أو الصفات ما لا يعجبه.

٣ ــ وأوصى الرسول ﷺ بالنساء في خطبته في حجة الوداع، فجاء فيها: «ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هنّ عوانٍ عندكم».

أي هن تحت أيديكم بمثابة الأسيرات، وكلمة: «عَوانٍ» على وزن «فواعل» جمع عانية، والعانية هي الأسيرة، والعاني هو الأسير.

٤ ــ ومن المقاييس التي نبّه الرسول ﷺ عليها لمعرفة خيار الناس، معاملة الرجل لنسائه، فمن كانت معاملته للنساء حسنة كان من خيار القوم، ومن لم تكن معاملته كذلك لم يكن من خيارهم، بل إمّا أن يكون من حشو الناس، وإما أن يكون من شرارهم.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنُهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم» رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

والسبب في ذلك أنّ الإنسان مع أهله ينطلق على سجيّته، ومع انطلاقه تظهر معادنه، فإن كان سيء الخلق ظهر سوء خلقه، وإن كان حسن الخلق لم يختلف حاله مع أهله عن حاله مع الناس، أمّا معاملته للناس خارج موطن انطلاقه فإنها تتّسم في غالب أحوالها بالتصنّع والمجاملة، وإخفاء سوء خلقه، محافظة على سمعته بين الناس، وحرصاً على مكانته.

وبهذا نلاحظ أنّ هذا المقياس النبوي مقياس دقيق جداً.

٥ ــ وهذه البيانات النبوية جاءت شرحاً وتفصيلاً لقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

ومعاشرتهن بالمعروف تكون بإعطائهن حقوقهنّ الزوجية، وبالإحسان إليهن، والتلطّف معهنّ، ومداعبتهنّ، والصبر على عوجهنّ، والإنفاق عليهنّ، وفق النفقة المتعارف عليها، ويخضع ذلك لاختلاف الزمان والبيئة الاجتماعية.

وتكون أيضاً بعدم إيذائهنّ ومكارهتهنّ حتى يطلبن الطلاق بأنفسهنّ، مقابل تنازلهن عن حقوقهن، أو مقابل ترضية يدفعنها بغية حصولهنّ على الطلاق عن طريق المخالعة، فهذه المحرمات ليست من المعاشرة بالمعروف التي أمر الله بها في هذه الآية.

فالذين يحرجون زوجاتهم بالمكارهة وسوء المعاشرة عصاةٌ لله، إذ يخالفون أمره بمعاشرتهن بالمعروف، وهم يسيئون معاشرتهن ليتهرّبوا من مسؤولياتهم تجاه حقوقهن، أو ليسترجعوا ما كانوا قدّموا لهن من مهر.

وفي قول الله تعالى في الآية: ﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾: دلالات عظيمة، وإشارات نفيسة إلى أمور تشتمل عليها المقادير الربّانية، إذ تحتوي عليها حقائق الأشياء وبواطنها، وذلك لأنّ كراهية النفس لبعض الأشياء قد لا تعتمد على ما في الأشياء من شرٍّ أو ضرر، بل تعتمد في أكثر أحوالها على أمور ذوقية أخرى، تجد فيها النفس ما تشتهي وتهوى، من حلاوة أو طلاوة، أو خفة، أو جمال، أو رشاقة، أو رقة، أو ذكاء، أو عذوبة منطق، أو نحو ذلك ممّا تميل إليه الأنفس، أو تستمتع به الحواسّ، وكثيراً ما تكون هذه الأمور الذوقية البحتة سبباً لمتاعب كثيرة، أو سبباً لشرّ الزوج وشقائه، وكثيراً ما تكون الأشياء المكروهة مشتملة في بواطنها أو في نتائجها على خير كثير، وكراهيتها إنما حصلت بسبب خلوّها ممّا تميل إليه، أو تستمتع به الحواسّ من مشتهيات.

وفي الأمثلة المشاهدة نلاحظ أن الدواء المرّ تكرهه الأنفس ولا تميل إليه الطباع، ومع ذلك ففيه شفاء ونفع وصحة.

فكم من امرأة لم تأت على مزاج الرجل وذوقه، وليس فيها سوء خلق أو ضعف دين أو قلة حياء أو قلة أمانة، فصبر عليها زوجها وعاشرها بالمعروف، فجعل الله منها خيراً كثيراً، فكانت عفيفة شريفة صيّنة، وكانت معينة له على السراء والضراء، وحافظة له ولمالِهِ ولولده، وأنجبت له ذرية صالحة يسعد بها.

ولو ظفر الرجل بامرأة تجمع بين الحسنيين لكان ذلك من خير متاع الدنيا له.

روى مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة».

وهي ذات الدين والخلق الفاضل، مع أنها تسرّ زوجها وتمتعه.

وحين تكون المرأة صالحة ذات دين، فمن الخير للرجل أن لا يَفْرَكَها، ولو لم تكن على ما يهوى، صحيح أنه قد لا يملك أن يحبّها، ولكن يملك أن يكيف نفسه معها، ويملك أن يغضي عن الجوانب التي لا تميل إليها نفسه فيها، ويفكر في الجوانب التي قد يحبّها منها، ويجسمها ويعظمها في عينه، وعندئذٍ قد تغطّي الجوانب المرضية منها الجوانب التي لا تميل إليها نفسه، وبمرور الزمن يحصل الإلف، ومع الإلف تختفي الكراهية، وتبرز في الصورة المحاسن وحدها، ولا يبعدُ أن ينتقل القلب من الإلف إلى الحبّ، وهذا من الأمور المجرّبة في الحياة، وهو ما نبّه عليه الرسول ﷺ بقوله كما سبق:

«لا يفركْ[1] مؤمن مؤمنة، إنْ كره منها خلقاً رضي منها آخر» أو قال: «غيره».

ذلك لأن سبب الكراهية ربما يكون من أجل خلق رآه فيها لم يتلاءم معه،

(١) لا يفرك: لا يبغض، يقال: فَرِكت المرأة زوجها إذا أبغضته، فَرِكها زوجها إذا أبغضها.

فإذا نظر إلى سائر أخلاقها فلا بدّ أن يجد فيها شيئاً يرضاه منها ويستحسنه، فما من إنسان في الوجود إلّا وفيه جوانب ترضي بعض الناس، مهما كان نصيبه من المستكرهات كثيراً، والعاقل هو الذي إذا ألزم بشيء تلاءم معه على قدر المستطاع.

فإذا تعذّر عليه التلاؤم فمن الخير لهما حينئذٍ أن يفترقا، وحلاً لمثل هذه الأحوال المستعصية شرع في الإسلام الطلاق، وقال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾.

والعاقل الحصيف يستطيع أن يقنع نفسه بأنه لا تخلو امرأة من عوج، فعليه أن يصبر على عوجها، ما دام يرضيه منها جوانب حسنة، وما دامت ذات دين وخلق، ويقنع نفسه بأن تقويم عوجها من الأمور المتعذرة، فهو في جوهر فطرتها، وهو ما أبانه الرسول ﷺ كما سبق.

وكون المرأة خُلقت من ضِلَع أو أنها كالضلع كما جاء في بعض الروايات يراد منه أنها عوجاء في طبيعتها، لا تستقيم على طريقة قويمة، والسبب في ذلك ضعف إرادتها الفطرية أمام قوة عاطفتها وسلطان أهوائها، فهي لا تستطيع أن تتحرر من طبعها تحرّراً نهائياً مهما أرادت أن تستقيم.

وقد ورد عن ابن عباس: أنّ حواء خلقت من ضِلَع آدم الأقصر الأيسر وهو نائم.

فإن صح هذا الخبر فيحمل عليه ما جاء في الصحيح من أنّها خُلقت من ضلع، وإلّا فالمراد أن العوج في فطرتها، كما أن الضلع أعوج في أصل تكوينه. يضاف إلى ذلك أنه قد ثبت بيقين أنّ حواء خلقت من آدم، كما جاء في القرآن. ومعلوم أنّ الضلع أرقّ عظام الإنسان وألينه، والضلع وعاء ما في الصدر، ومن ورائه مركز العاطفة والحنان، والضلع في تكوينه ذو عوج، فكأنّ الرسول ﷺ يشير إلى أنّ المرأة خلقت من رقة، ومع الرقّة اعوجاج، وهذا الاعوجاج فيها

مناسب لما خلقت من أجله، إذ خلقت لتكون وعاء العاطفة والحنان والإيناس، ولا بدّ أن يظهر عوجها في أعلاها، أي في لسانها وفكرها، إذ لا بد أن تتغلب جوانب عاطفتها على المنطق الفكري السليم فيها.

لذلك يوجّه الرسول ﷺ الرجال شطر الحكمة التربوية التي ينبغي أن يعاملوا بها النساء، وذلك بأن يراعوا واقع طبيعتهنّ التي فُطرن عليها، وأن يداروهن ويلاينوهن ويسوسوهنّ سياسة عاقلة حكيمة رشيدة، حتى يستمتعوا بهنّ فيما خُلقن له، مع التغاضي عن عوجهنّ الفطري فيهنّ، وهو العوج الذي يتعذر تقويمه.

وليس معنى هذا ترك إصلاحهنّ وتقويمهنّ، ولكن معناه ضرورة اتخاذ الحكمة التربوية في سياستهن، مع ملاحظة أنّ الاستقامة الكاملة لا ترجى منهن، فعلى الرجال أن يستوصوا بهنّ، وذلك بالرفق في تأديبهن وتربيتهن، وبمراعاة طبيعتهن وبعدم القسوة عليهن والعنف في تقويمهن، لأن القسوة والعنف يؤديان إلى كسرهن، أي إلى طلاقهن وفراقهن، مع أن الرجل في حياته لا غنى له عن امرأة يسكن إليها، ويستمتع بها، ويستعين بها على معاشه، والعاقل هو الذي لا يكلّف الأشياء فوق طباعها.

ومكلّف الأشياء فوق طباعها   متطلّب في الماء جذوة نار

ومن رفيع الأدب النبوي ورقة الرسول التامة، ما نجده في صحيحي البخاري ومسلم من أنّ الرسول ﷺ ذكر في خطبة له النساء، فوعظ فيهن فقال:

«يَعْمِدُ أحدكم فيجلد امرأته جلْد العبد، فلعله يضاجعها من آخر يومه».

أي: فهل يتناسب في الذوق وفي الأدب الاجتماعي هذا وهذا، مهما كانت المبررات التي يتذرع بها الرجل؟

وروى الترمذي عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم».

(قال الترمذي: حديث حسن صحيح)

٦ ــ وحين يكون للرجل أكثر من زوجة فالواجب عليه أن يعدل بينهنّ، في العطاء والمبيت والمعاملة، ولكن لا يكلّف ما لا يستطيع، وهو أن يعدل بينهنّ في الميل القلبي والحب ونحو ذلك، وهذا ما بينه الرسول ﷺ بفعله وقوله، روى الترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه والدارمي عن عائشة: أنّ النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل، ويقول:

«اللهم هذا قَسْمي فيما أملك، فلا تلُمني فيما تملك ولا أملك».

(إسناده جيد ــ تعليق الألباني)

الشفاعة الحسنة:

ومن ظواهر خلق الرحمة الشفاعة الحسنة، فقد يقع الإنسان في شبهة تعرضه للعقوبة عند ذي سلطان، ويكون هو بريئاً، فمن الرحمة به أن يشفع له عند ذي السلطان ذو جاه لديه، أو ذو دالّة، فيكون له بذلك ثواب إنقاذه من العقوبة.

وقد يخطىء الإنسان خطيئة أو يذنب ذنباً ليس له حدٌّ شرعيٌّ واجب التنفيذ، ولكنّه قد يقتضي عقوبة قادر على البطش به أو الانتقام منه، ويكون الأمر مما حثّ الإسلام فيه على العفو، فمن الرحمة به إذا هو شعر بخطيئته ورجا العفو، أن يشفع له من تنفعه شفاعته عند ذلك الرجل. ومن أمثلة هذا شفاعة الحر بن قيس لعمّه عُيينة بن حصن، عند عمر بن الخطاب؛ لمّا أغضب عُيَيْنَة عمر بقوله له: (هِيْ يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل) وكان الحر بن قيس من المقربين من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنّ الله قال لنبيه ﷺ: ﴿خذ العفو، وأْمُر بالعُرف، وأعرض عن الجاهلين﴾ وإنّ هذا من الجاهلين، يعني عمّه عُيَيْنَة، فعفا عنه عمر رضي الله عنه.

وقد يكون لإنسان حاجة مباحة عند آخر، وقد تكون للشفاعة عنده أثر في جعله يستجيب لتلبية الحاجة؛ فمن الرحمة بصاحب الحاجة أن يشفع له من تنفعه شفاعته عند صاحبه، بشرط ألا يكون من يُطالب بتلبية حاجة صاحب

الحاجة أحوج للرحمة به من طالب حاجته منه. ومن أمثلة الشفاعة في تلبية الحاجة شفاعة الرسول ﷺ لمغيث عند بريرة رحمة بمغيث، وقصة هذه الشفاعة فيما يلي:

روى البخاري ومسلم عن عائشة أنّ رسول الله ﷺ قال لها في بريرة (مولاة عائشة): «خذيها فأعتقيها» وكان زوجها عبداً، فخيرها رسول الله ﷺ فاختارت نفسها، ولو كان حراً لم يخيرها.

أي: اختارت فسخ الزواج، لأنها غدت حرّة وهو عبد.

وروى البخاري عن ابن عباس قال: كان زوج بريرة عبداً أسود يقال له مُغيث، كأني أنظر إليه يطوف خلفها في سكك المدينة، يبكي ودموعه تسيل على لحيته، فقال النبي ﷺ للعباس: «يا عباس، ألا تعجب من حبّ مُغيث بريرة، ومن بغض بريرة مغيثاً؟» فقال النبي ﷺ لبريرة: «لو راجعته» فقالت: يا رسول الله تأمرني؟ قال: «إنّما أشفع» قالت: لا حاجة لي فيه.

ومن الشفاعة الحسنة الشفاعة للقاتل عند أولياء المقتول لرفع القصاص عنه، والقبول بالدية المثقلة، بشرط إظهار القاتل توبته وندمه، وعزمه على الاستقامة وقد ألمح القرآن بالترغيب الضمني لأولياء القتيل بالعفو، وذلك في آية القصاص، إذ يقول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨﴾.

فهذه الآية ترغّب ترغيباً ضمنياً بالعفو عن القصاص بالنسبة إلى الجريمة الأولى في حياة الإنسان، أمّا تكرّر الجريمة منه فإنه يشعر بأنّ العفو عن الاقتصاص منه قد شجعه على تكرار الأمر، وقوى فيه دوافع الإجرام الخبيثة، فاعتداؤه للمرة الثانية يوجب له العذاب الأليم، والأولى في مثل هذه الحالة عدم العفو عنه، وعدم الشفاعة له.

والشفاعة قسمان:

١ ــ شفاعة حسنة.

٢ ــ وشفاعة سيئة.

وقد أوضح القرآن هذه القسمة، وبيّن أنّ من يشفع شفاعة حسنة يكون له نصيب منها، أي: ثواب وأجر عند الله من الشفاعة التي شفعها. وأنّ من يشفع شفاعة سيئة يكون له كفل منها، أي: نصيب من وزر شفاعته السيئة التي شفعها، قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا (٨٥) ﴾.

المقيت: الحفيظ الذي يعطي الشيء قدر الحاجة من الحفظ، وقيل: القدير المقتدر. يقال: أقات على الشيء اقتدر عليه.

أمّا الشفاعة الحسنة فهي كلّ شفاعة لرفع الظلم عن مظلوم، أو لإيصال الحق لصاحبه، أو العفو عمّا رغب الإسلام فيه بالعفو، أو للإحسان في كل ما رغب الإسلام فيه بالإحسان، أو للإصلاح بين متخاصمين، أو نحو ذلك.

وأمّا الشفاعة السيئة فهي كلّ شفاعة لدرء حدٍّ من حدود الله أو لارتكاب معصية من معاصي الله، أو لهضم حقّ من حقوق الناس دون أن يكون ذلك على سبيل العفو أو المسامحة من قبل صاحب الحق نفسه أو لمخالفة واجب العدل، أو نحو ذلك، ومن يشفع مثل هذه الشفاعة فهو والمشفوع له شريكان في الإثم وتحمّل الوزر، وكذلك من يقبل الشفاعة فيلبّي طلب الشفيع.

ولذلك غضب رسول الله ﷺ من شفاعة أسامة بن زيد حينما شفع في حدٍّ من حدود الله، وهو حدّ السرقة.

روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها، أنّ قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلّم فيها رسول الله ﷺ؛ فقالوا: من

يجترىء عليه إلّا أسامة بن زيد حِبّ رسول الله ﷺ ؟! فكلّمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ : «أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟؟» ثم قام فاختطب، ثم قال: «إنّما أهلك الذين قبلكم، أنّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ، وايم الله لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»!!.

فما أروع هذا العدل النبوي وأعظمه.

ولمّا كانت الشفاعة الحسنة أمراً من أمور الرحمة الاجتماعية المساعدة على فعل الخير؛ حثّ الإسلام عليها، ورتب الأجر على القيام بها، وكان الرسول صلوات الله عليه يحث جلساءه على الشفاعة عنده لطالبي الحاجات منه، تدريباً عملياً لهم على هذه الظاهرة الاجتماعية التي تمثل مكرمة من مكارم الأخلاق.

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال:

«اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيّه ما أحبّ».

العفو والصفح والمغفرة والمشاورة ولين الجانب:

قد يكون من ظواهر خلق الرحمة العفو والصفح عن المسيئين وستر سيئاتهم، ومقابلتهم بالمغفرة، وقد يكون من ظواهر خلق الرحمة أيضاً المشاركة بالمشاورة، وكذلك لين الجانب للناس.

وقد أوصى الله المؤمنين بهذه الأخلاق، كما أمر رسوله بها في قوله في سورة (آل عمران ٣):

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾.

إنّ هذا النص يخاطب الله به رسوله محمداً ﷺ ، إلّا أن ظلاله تشمل

جميع المسلمين، نظراً إلى أنّ الفضائل التي يشتمل عليها فضائل تعلي شأن كل من يتحلّى بها.

ومع ذلك فقد وجه الله للمسلمين عامة وصايا تتضمن الفضائل الخلقية التي اشتمل عليها هذا النص الخاص بخطاب الرسول:

١ ــ ففي العفو عن الناس نلاحظ أن الله تبارك وتعالى يصف المتقين الذين أعدّ لهم الجنّة، بأنهم كاظمون للغيظ وعافون عن الناس، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (آل‌عمران ٣):

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾.

فمن الصفات الخلقية للمتقين أنهم رحماء، إذا ظلموا من قبل إخوانهم كظموا غيظهم وعفوا عمن أساء إليهم، بدافع من خلق الرحمة.

٢ ــ ويقول الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

وقد نزلت هذه الآية بمناسبة حلف أبـي بكر رضي الله عنه أن لا ينفق على مِسْطح، إذ قال: «والله لا أنفق على مسطحٍ شيئاً أبداً، ولا أنفعه بنفع أبداً».

والسبب في ذلك أن مِسطحاً كان من الذين اشتركوا في إشاعة خبر الإفك على عائشة أم المؤمنين، فآلم ذلك أبا بكر وآل أبـي بكر، وكان أبو بكر يُحسن إليه، فينفق عليه لقرابته وحاجته، فحلف اليمين التي حلفها.

فقوله تعالى: ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربـى

والمساكين والمهاجرين في سبيل الله﴾ أي: لا يحلف أولو الفضل منكم والسعة على أن لا يعطوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله، ممّا لديهم من فضل وسعة في الرزق.

وبما أنّ الحلف الذي كان من أبي بكر إنما كان منه عقوبة لمسطح، من أجل الإساءة الكبيرة التي أساءها هذا الرجل لآل أبي بكر، في المساهمة بإشاعة خبر الإفك على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فقد أرشد الله تبارك وتعالى إلى العفو بقوله: ﴿وليعفوا وليصفحوا﴾.

أي: فلا تكن الإساءة الشخصية مانعة من فعل الخير مع المسيء، لأنّ فعل الخير إنما يبتغى به وجه الله ومرضاته، لا مرضاة الذين يقدّم لهم الإحسان.

ثم ألمح الله في آخر الآية إلى أنّ مَنْ يعفو عمّن يسيء إليه فإنّ الله يعفو عنه، وذلك بقوله تعالى: ﴿ألا تحبّون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾ أي: إنّ الله يغفر لكم سيّئاتكم التي تفعلونها في جنبه، إذا أنتم عفوتم عن إخوانكم وصفحتم عنهم.

وحين يرى الله عبده يعفو عن المسيئين إليه فإنه يقول له: أنا أجود وأكرم، قد غفرت لك. وكم للعبد من سيّئات في جنب الله، وهو بحاجة إلى أن يغفرها الله له.

فمن كان حريصاً على أن يغفر الله له فليعف عمّن يسيء إليه.

٣ ــ ويقول الله تعالى في سورة (التغابن ٦٤):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

ففي هذا النص يرشد الله المؤمنين إلى أن يعفوا ويصفحوا ويغفروا.

وقد جاء الإرشاد إلى العفو والصفح والمغفرة عقب ذكر أنّ من الأزواج

والأولاد أعداءً؛ تنبيهاً على ضرورة المحافظة على وحدة الأسرة المؤمنة وترابطها. وهذه الظواهر الخلقية هي الضمان لاستمرار وحدة الأسرة وتماسكها وترابطها، يضاف إلى ذلك أنّ من عادة الإنسان أن يكون هو البادىء بالإحسان إلى زوجه وأولاده، وقد يسرف في عطائه وإحسانه، فإذا وجد منهم إساءة آلمته جداً، لأنه قد لا يقع في تصوّره أن يكافأ على إحسانه بالإساءة، فإذا وجد منهم الإساءة اشتد غضبه، وصعب عليه جداً أن يعفو ويصفح، لأنه يعتبر ذلك غاية في الجحود ونكران الجميل.

من أجل ذلك كان بحاجة إلى توجيه إرشاد خاصٍ إليه، بأن يعفو ويصفح ويغفر، حتى يستحق من الله الغفران والرحمة، وقد ألمح الله إلى ذلك بقوله في الآية: ﴿وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإنّ الله غفور رحيم﴾ أي: فإنّ الله يغفر لكم ويرحمكم، إذ من صفاته أنه غفور رحيم. وإنّ لنا سيئات كثيرة نرتكبها في جنب الله، ونحن بحاجة إلى أن يغفرها الله لنا ويرحمنا رحمات واسعات، مع أننا مغمورون بنعمته التي لا تنقطع، فلا يعظم في نفوسنا أن نتلقى الإساءة ممن نحسن إليهم، فنحن نفعل مثل ذلك في جنب الله دائماً.

٤ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الجاثية ٤٥):

﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

فالذين لا يرجون أيّام الله هم الذين ينكرون يوم القيامة، فهم كافرون، ومع ذلك فإنّ الله يطلب من المؤمنين أن يغفروا لهم إساءاتهم الشخصية، ممّا لا علاقة له بموضوع الجهاد في سبيل الله بالقتال.

والهدف من ذلك أن يقدّم المسلمون صورة الأخلاق الإسلامية العظيمة، حتى يكونوا بأخلاقهم الكريمة داعين إلى الإسلام محبّبين الناس به، بعيدين عن كلّ قسوة وغلظة في القول أو في العمل، فكم من الناس أسلموا بفضل الخلق النبوي، والخلق الإسلامي الذي كان يتمتع به المسلمون الأولون، وهذا الخلق

الإسلامي لا يتعارض مع شدة البأس في الحرب. على أننا نقول: إنه لا انفصام في شخصية المسلم، إنه صاحب خلق رفيع مع المسلمين ومع غير المسلمين، وأمّا كون المسلمين أشداء على الكفار فهذا في ظروف الحرب وفي مواجهة المحاربين.

وقد ضرب البطل الإسلامي «صلاح الدين الأيوبي» الذي جاهد الصليبيين جهاداً عظيماً أروع أمثلة الخلق الكريم في تسامحه وعفوه بعد أن ظفر وانتصر تأثراً بالأخلاق الإسلامية التي رُبّي عليها.

٥ ــ وإذ يوصي الإسلام بالعفو والصفح والمغفرة فإنه يقرّر أنّ من حقّ المظلوم أن يعاقب على السيئة بمثلها، وفق مقتضى العدل، إلاّ أنّ العفو والصفح والمغفرة من غير تشجيع على الظلم والتمادي فيه أكرم وأرحم، وهو ما تحضّ عليه الأخلاق الإسلامية، وتدعو إليه مرتبة الإحسان، ومعلوم أنّ مرتبة الإحسان هي أعلى وأرفع من مرتبة العدل. قال الله تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ
رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾
وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ
إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى
ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا
ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

ففي هذا النص يصف الله مستحقي ما عنده من خير باقٍ في نعيم الجنة بعدّة صفات:

الصفة الأولى: الإيمان، وإذا أطلق الإيمان في القرآن والسنّة كان المراد منه التصديق الكامل بكل ما جاء به الرسول ﷺ من عند الله، وثبت عنه بطريق يفيد العلم الجازم.

الصفة الثانية: التوكّل على الله، وهو اعتماد القلب على الله في تحقيق المطالب المرجوّة، عند القيام بالأسباب المستطاعة، التي ربط الله بها في سنن كونه أو في تعاليم دينه مسبَّباتها ﴿وعلى ربهم يتوكّلون﴾.

الصفة الثالثة: اجتناب كبائر الإثم والفواحش ﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾.

الصفة الرابعة: أنّهم يغفرون لمن أغضبهم إذا هم غضبوا فعلاً ﴿وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾ والسرّ في جعل مغفرتهم لإخوانهم مرتبة على حدوث غضبهم بالفعل، أنْ تكون مغفرتهم مقاومة فعلاً لعقبة من عقبات النفس، إذْ من السهل على الإنسان أن يغفر إذا لم يغضب ولو أسيء إليه، ولكن تظهر ميزة خلق المؤمن حينما يغفر إذا هو غضب بالفعل من إساءة وُجّهت إليه.

الصفة الخامسة: أنّهم استجابوا لربّهم فيما دعاهم إليه من عبادة وعمل، وأقاموا الصلاة ﴿والذين استجابوا لربّهم وأقاموا الصلاة﴾.

الصفة السادسة: أنّ أمرهم فيما بينهم شورى، وليس استئثاراً ولا استبداداً ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾.

وما جاء بيانه في معرض الحديث عن تكليف الرسول أن يشاور أصحابه في الأمر، من ثمرات المشاورة وفوائدها وميزاتها القيادية والاجتماعية، ينطبق على قاعدة المشاورة بين المؤمنين، فالقوانين الاجتماعية شبيهة بالقوانين الكونية الأخرى، لها حقائق ثابتة لا تختلف باختلاف الأشخاص، أو باختلاف الأزمنة أو الأمكنة.

الصفة السابعة: أنهم ينفقون مما رزقهم الله، ولا يبخلون بما يجب عليهم في أموالهم ﴿وممّا رزقناهم ينفقون﴾.

الصفة الثامنة: وهي صفة دائرة بين أمرين، أحدهما من مستوى العدل، والآخر من مستوى الإحسان، وهي: أنهم يجازون على السيّئة بمثلها دون زيادة، أو يرتقون إلى مرتبة أعلى من ذلك، وهي مرتبة العفو والإصلاح والصبر والمغفرة

﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون، وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها، فمن عفا وأصلح فأجره على الله، إنّه لا يحبّ الظالمين، ولَمِنِ انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحقّ، أولئك لهم عذاب أليم، ولَمَنْ صبر وغفر إنّ ذلك لَمِنْ عزم الأمور﴾.

وهكذا جاءت هذه الصفة في النص معروضة عرضاً متشابكاً متداخلاً، فيه إبداع بياني عجيب، يلاحظ فيه متابعة خلجات الأنفس، باللّمسات الرفيقة، والتوجيهات الرقيقة، مع مراعاة آلام المجني عليهم، والنظر بعنفٍ وشدّة إلى البغاة الظالمين، وإعلان أنّ من حقّ المجنيّ عليهم أن ينتصروا لأنفسهم بالحقّ، ثمّ العودة لدفعهم برفق إلى الصبر والمغفرة، كلّ ذلك في ألوان دائرةٍ بين العدل والإحسان.

فقول الله تعالى: ﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون وجزاء سيّئةٍ سيّئة مثلها﴾ يبرز حقّ المؤمنين في الانتصار لأنفسهم إذا أصابهم البغي، ويضع لجاماً لهذا الانتصار للنفس، بإعلان الحدّ الذي لا يجوز تجاوزه، وهو جزاء سيئة سيئة مثلها.

ثم يعرض الله مرتبة الإحسان مشجّعاً عليها فيقول: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ ثمّ يتبع ذلك بإعلان حرمان الظالمين من محبّة الله لهم، فيقول: ﴿إنه لا يحبّ الظالمين﴾.

ثم يرجع النصّ فيعلن حقّ المظلومين في أن ينتصروا لأنفسهم، ويعلن بشدة استحقاق الظالمين للعقاب في الدنيا، وللعذاب الأليم في الآخرة، فيقول الله تعالى: ﴿ولَمِنِ انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل، إنّما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحقّ أولئك لهم عذاب أليم﴾.

ثمّ لا يدع النصّ مرتبة العدل هذه تتجه إليها الأنظار اتجاهاً كليّاً، بل يدفع مرّة ثانية إلى مرتبة الإحسان بالصبر والمغفرة، معلناً أنّ ذلك من عزم الأمور، فيقول الله تعالى في ختام النصّ: ﴿وَلَمَنْ صبر وغفر إنّ ذلك لَمِنْ عزم الأمور﴾.

وعند هذه النهاية التي تأخذ بأيدي المؤمنين إلى المرتبة المثلى يُسدل الستار، إعلاناً بانتهاء الفصل التربوي.

أليس هذا إبداعاً بيانيّاً عجيباً؟؟!!

أمّا قوله تعالى: ﴿إنّ ذلك لمن عزم الأمور﴾ فهو يفيد أنّ الصبر والمغفرة إنما يكونان من إنسان صاحب إرادة قوية، ذات عزم في مواجهة الأمور الشديدة على الأنفس، وهذا مقام خلقي عظيم.

قسوة القلب:

الخلق المناقض لخلق الرحمة يتمثّل بقسوة القلب حينما يراد من قسوة القلب نضوب عاطفة الرحمة، وهو خلق ذميم قبيح ذو نتائج خطيرة على الفرد والمجتمع الإنساني والحياة كلها.

إذا وضعنا للرحمة سلّماً ذا درجات، ولاحظنا فيه أنّ نسبة الرحمة تتفاوت ارتقاء وهبوطاً، وجدنا أنّ الدرجة الدنيا من درجات الرحمة إذا انعدمت تمّ بانعدامها بلوغ أقصى دركات قسوة القلب، إذن فبمقدار انخفاض نسبة درجة الرحمة يكون ارتفاع نسبة درجة قسوة القلب، والعكس صحيح.

قسوة القلب مرض من الأمراض الخلقية، يجفّف في داخل النفس الإنسانية عاطفة الإحساس بآلام الآخرين وحاجاتهم، ويشتدّ هذا المرض ويشتد معه الجفاف النفسي، حتى ينعدم الشعور بالواجب الفطريّ نحو الخالق المنعم، الذي متى شاء سلب النّعم كلّها، ومنها نعمة الحياة. وفي هذه الحالة من حالات الجفاف النفسي تمسي القلوب مثل الحجارة التي لا ترشح بأي عطاء، أو أشدّ قسوة من الحجارة، لأنّ من الحجارة ما تتشقق قسوته الظاهرة فيندفع العطاء من باطنه الرخو ماءً عذباً نقياً، ولكن بعض الذين قست قلوبهم يجفّ من أغوارها كلّ أثر للفيض والعطاء.

حين تُشبَّه القلوب بالحجارة، ويستعمل للدلالة على فقدان عاطفة الرحمة منها عبارة القسوة وما يشبهها من العبارات المأخوذة من الماديّات المدركة بالحواسّ

الظاهرة، فذلك لأنّ كثيراً من المشاعر النفسية والمدركات الوجدانية غير خاضعة لمقاييس ظاهرة، حتى يستطاع الرجوع إليها، وتمييزها بعبارات يمكن فهمها بسهولة عند التخاطب، ولو وضعت لها عبارات كلامية خاصة فإنه تظلّ دلالاتها غامضة عند معظم الناس، ومن أجل ذلك كان الأولى في الدّلالة عليها استخدام عبارات معروفة الدلالة في المجال الحسّي، والاستفادة من تشبيه المشاعر النفسية والمدركات الوجدانية بالمدركات الحسيّة الظاهرة، لتقريب الحقيقة إلى الفهم.

على أنّ كثيراً من المشاعر النفسية والمدركات الوجدانية قد وضع لها تعبيرات خاصة بها، نظراً إلى أنّ الإحساس بها عند معظم الناس إحساسٌ واضح في مشاعرهم، ويمكن قياسه من ظواهره ولو بشكل تقريبي، كالحبّ، والبغض، والإرادة، والخوف، والطمع، والفهم، والذكاء، والشجاعة، ونحو ذلك.

قسوة القلب في الدلالات القرآنية:

لقد ذمّ القرآن الذين قست قلوبهم من أهل الكتاب، وحذّر المؤمنين بالإسلام من أن يطول عليهم الأمد في المعاصي والغفلة عن ذكر الله فتقسو قلوبهم، وأنذر القاسية قلوبهم وخوّفهم من أن يحلّ بهم العذاب والهلاك. ويراد من قسوة القلب نضوب عاطفة الرحمة فيها، وتحجرها عن قبول دعوة الحقّ، فعلى المعنى الأول تكون قسوة القلب مناقضة لخلق الرحمة، وعلى المعنى الثاني تكون قسوة القلب مناقضة لخلق حب الحقّ.

١ ــ خاطب الله بني إسرائيل، وحدّثهم بما وصلوا إليه في أجيالهم اللاحقة من قسوة شديدة في قلوبهم، جعلتهم لا يرشحون بعطاء نابع من خلق الرحمة، ولا يخرّون ساجدين من خشية الله، فقال الله تعالى خطاباً لهم في سورة (البقرة ٢):

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ

لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

لقد بلغت قسوة قلوبهم مبلغاً جعلها لا تتفجر من مؤثرات داخلية فتفيض بعطاء، ولا تتشقق من مؤثرات خارجية تستثير فيها الرحمة فترشح بعطاء، ولا تنصدع لمؤثرات الخشية من الله فتخضع لله وتذلّ، فهي أشدّ قسوة من الحجارة، لأنّ من الحجارة ما يتفجر فتخرج منه الأنهار، وما يشقّق فيخرج منه الماء ولو بنسب قليلة، وما يهبط من خشية الله.

إنها حالات ثلاث مفقودة في المخاطبين، صوّرتها حالات ثلاث للصخور القاسيات:

(أ) فمن الحجارة القاسية ما يتعرّض إلى اندفاع داخليّ فيفجر قسوتها، ويخرج منها العطاء الثرّ أنهاراً.

(ب) ومن الحجارة القاسية ما يتشقّق تشققاً دون التفجر، بمؤثرات من الخارج، وربما من الداخل، فيخرج منه العطاء غير الثرّ.

(ج) ومن الحجارة القاسية المستكبرة في المرتفعات ما تأتيه هزات وعوارض فيهبط إلى مواطن التواضع من خشية الله.

أمّا قلوب هؤلاء فلا تتدفّق لأيّ مؤثر يستثير الرحمة، ولا ترشح ولو رشحاً قليلاً، وتظلّ في قسوتها واستكبارها فلا تذلّ ولا تخضع من خشية الله.

وفي الصورة أيضاً إلماحٌ لأصحاب القلوب القاسية المستكبرة، بأن من لم يتفجر قلبه من الرحمة، ولم يخضع من خشية الله، فسيكون عرضة لتشقيقه بعنف المصائب لاستخراج ما في باطنه من خير، إذا كان فيه خير، وسيكون عرضة لتصديعه وهو في مواطن استكباره لإذلاله وإهانته، لعلّه يخضع من خشية العزيز القهّار، ويرى أنّ خضوعه لربّه أولى له من الاستكبار.

٢ ــ وكشف الله السبب الذي جعل ذريّات بني إسرائيل تقسو قلوبهم، فقال تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

فمعصيتهم لله تعالى، بنقضهم ميثاقهم، سبّب لهم الطرد عن الله، وهذا الطرد أبعدهم عن مهابط رحمة الله مصدر كلّ الرحمات، فأمست قلوبهم جافّةً قاسية، لا ترشح بعطاء ولا تلين لخير، ولا تخضع من خشية العزيز القهار.

وفي بيان هذا بيانٌ لسنةٍ من سنن الله في تكوين القلوب والنفوس، فمن استغرق في المعاصي، ونقض مواثيقه مع ربّه، طرده الله من صفوف أهل التقوى، فابتعد عن مهابط رحمة الله، فقسا قلبه، وتابع مسيرته المظلمة الظالمة، حتى كان من أصحاب الجحيم.

أمّا الميثاق الذي نقضه بنو إسرائيل فقد ذكره الله بقوله في سورة (المائدة ٥):

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾.

فعلى وفق البنود التي ذكرتها هذه الآية أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل، ولكنّ أجيالهم نقضوا هذا الميثاق فلعنهمُ الله، فقست قلوبهم.

ربّنا إنا نعوذ بك من قسوة القلوب وسوء المنقلب.

٣ ـ وكشف الله السبب الذي جعل أهل الكتاب عامّة تقسو قلوبهم، فقال تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

الأمد: في اللّغة هو غاية المدّة، والمراد من طول الأمد طولُ المدّة عليهم قبل حلول الآجال التي هي آمادهم.

فأهل الكتاب عامّة لمّا طال عليهم الأمد في النعمة، والكثرة الكاثرة منهم فاسقة منغمسة في المعاصي، نسوا ربّهم، فابتعدوا عن مهابط رحمة الله، فقست قلوبهم.

وهذه سنة عامّة من سُنَن الله في الخليقة، إنّ أيّة أمّة يطول عليها الأمد وهي تتقلّب في بحبوحة نِعمِ الله على فسق ومعصية ونسيان لربّها، تقسو قلوبها فلا تخشع لذكر الله وما نزل من الحق. ولذلك خاطب الله الذين آمنوا خطاب غيبة بقوله: ﴿ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾ بعد قوله لهم: ﴿ألم يأْنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق؟!﴾.

ألم يأْنِ: أي ألم يَحِنْ، ألم يأتِ الحين الذي يكفي لأن تنضج عنده قلوب المؤمنين، بعدما تواردت عليها الذكرى والعظات الكثيرات، فتغدو قلوباً رقيقة لينة، تخشع برقّتها ولينها لذكر الله، وما نزل من الحقّ من عند الله.

إنّ حرارة الإيمان تستطيع أن تنضج القلوب فتليّنها وترققها، إذا غذّاها وقود عبادة الله والعمل الصالح، والإكثار من ذكر الله وتدبّر آلائه وآياته، ومُراقبة عدله وفضله وسلطانه المهيمن على جميع خلقه، ومراقبة علمه ورحمته التي وسع بهما كل شيء، ومتى لانت القلوب ورقت بهذه العوامل الإيمانية والعملية المختلفة غدت كثيرة الخشوع، إذا لامسها ذكر الله استولى الخشوع عليها، واقشعرّت من ورائها الجلود، وتدفقت معها الدموع، واستكانت النفس تحت عدّة مؤثرات، أهمها الحب والخوف والطمع، فجللتها الخشية.

ومتى وصلت القلوب إلى هذه المرتبة تدفّقت منها الرحمة، واتجهت شطر مستحقيها بالعطاء والإحسان والإيثار، وسائر الفضائل السلوكية التي تعود إلى خلق الرحمة.

ففي هذه الآية بيان للأسباب الداعية إلى خشوع القلبِ ولينه، وبيان للأسباب التي تتولد عنها قسوة القلب، رغم وجود أصل الإيمان في الأمّة، وتنبيه على أنّ الطبائع البشرية على وجه العموم تخضع لقوانين ربّانية ثابتة، ولسنن دائمة، ذات أسباب ومسبّبات، فمتى وجد كامل السبب جاء المسبَّب نتيجة طبيعية له، ولا تتخلّف النتيجة إلّا ضمن معجزة ربّانية.

٤ ــ وحين تشتد قسوة قلوب الأمم، يكون آخر علاج لإصلاحها أن تنزل بها الآلام والمصائب، لتردّها الآلام والمصائب إلى الله، فتلجأ إليه، وتتضرّع بانكسارٍ وذلّ لاستدرار رحمته. فإذا لم تليّنها وسيلة العلاج هذه، فقد انتهى دور ابتلائها، وجاء دور إهلاكها، ولكن يأتي إهلاكها وفق سنة الله بعد أن يفتح الله عليها أبواب كلِّ شيء من أبواب الترف والنعمة، حتى إذا فرحت بما جاءها أتاها عذاب الله بغتة فإذا هي حزينة نادمة ساكنة ساكتة يائسة، وهذا ما بيّنه الله بقوله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

البأساء: شدة الفقر والجوع. الضرّاء: المصائب في الأموال والأنفس. يتضرعون: يذلّون ويخضعون ويخشعون سائلين الله أن يكشف ما نزل بهم. مُبْلسون: نادمون يائسون ساكتون ساكنون واجمون، والإبلاس في اللّغة يأتي بمعنى اليأس من النجاة عند وقوع الهلكة، ويأتي بمعنى السكون والوجوم عند

انقطاع الحجّة، ويأتي بمعنى الحيرة القاطعة لكلّ حركة عند نزول المصيبة.

فمن سنن الله في الأمم المتمرّدة على طاعة الله، التي قست قلوبها فهي لا تلين للمواعظ والذكرى، أن يعالج الله إصلاحها بالبأساء والضراء، فإذا هي لانت قلوبها، وتضرّعت إلى الله، رفع عنها المصائب.

﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرّعوا﴾ أي: فهلّا إذ جاءهم بأسنا تضرّعوا وخشعوا واستقاموا، حتى نرفع عنهم البأساء والضرّاء، ونغفر لهم ونرحمهم.

﴿ولكن قست قلوبهم، وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾هما أمران: قسوة في قلوبهم اشتدت حتى لم تؤثر في إصلاحها وردّها إلى الله المصائب والآلام. وغرور في أفكارهم جعلهم يفسّرون ما نزل بهم من مصائب بالأسباب الطبيعيّة أو المصادفات، فلم تلتفت أنظارهم إلى أنها مصائب ربّانية أنزلها الله بهم ليتذكروا فيتضرّعوا إلى الله.

﴿فلمّا نسوا ما ذكروا به﴾من نزول البأساء والضراء في فترة التدرج لتحويل الحال ﴿فتحنا عليهم أبواب كلّ شيء﴾ من أبواب الترف والنعمة ومتاع الحياة الدنيا ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا» من قبل هذه الأبواب ﴿أخذناهم﴾ بالهلاك والعذاب ﴿بغتةً﴾ مفاجأة وهم لا يشعرون ﴿فإذا هم مبلسون﴾ آيسون نادمون لا حراك لهم.

٥ ــ أمّا من قست قلوبهم قسوة بالغة، فهي لا تلين عند ذكر الله، فلا تخاف ولا تخشى، وتظلّ معرضة عن ذكر الله، ولا يزيدها التذكير بالله إلا قسوة ونفرة، فأولئك الويل لهم، كذلك أنذرهم الله بقوله في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾.

يبدأ هذا النص بالمقارنة بين صنفين من الناس: صنف لان قلبه عند ذكر الله، فتدفقت منه عواطف الخير بالحق، فشرح الله صدره للإسلام، فاستجاب لدعوة الحق فأسلم، فهو على نورٍ من ربه. وصنف قسا قلبه فلم يلن عند ذكر الله، بل أعرض عنه، ولم يزده التذكير بالله إلاّ قسوة ونفوراً، فلم يشرح الله صدره للإسلام، لأنه لم يلن قلبه للحقّ، فهو في ظلمات الجهل والغواية يسير، وفي الضلال المبين يتخبّط.

دلّ على الصنف الأول قوله تعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه؟﴾.

أما الصنف الثاني فملاحظ مطويّ تقديرُه: كمن قسا قلبه فلم يلن عند تذكيره بالله فهو في ظلماته ضالٌ تائه.

وقد دلّ على هذا الصنف المطويّ إنذاره بالويل في قوله تعالى: ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين﴾.

و (من) في قوله تعالى﴿من ذكر الله﴾قد تكون بمعنى (عند) أو بمعنى (عن) أي: فويل للقاسية قلوبهم عند ذكر الله، أو فويل للقاسية قلوبهم معرضة عن ذكر الله. فهي لا تلين، فلا تستجيب للحقّ، ولا تستضيء بنور من الله، فتبقى في ظلماتها وضلالها المبين.

ثم يذكر النصّ أحسن الكلام المذكر بالله، ألا وهو كتاب الله: ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربّهم، ثمّ تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾.

متشابهاً: أي يشبه بعضه بعضاً في الحسن والبلاغة والتأثير في قلوب السامعين والتالين.

مثاني: ثنى الشيءَ يثنيه إذا ردّ بعضه على بعض فتقابلت الطيّات وتناظرت، فكلّ زوجين منها مثنى، والجمع من هذه الأزواج مثاني. أمّا المراد من كون القرآن مثاني ففيه احتمالات:

منها تكرير المعاني والقصص والأخبار فيه بأساليب مختلفة تناسب أحوال

النفوس والقلوب للتأثير فيها، كالإقناع مرّة بعد العرض المجرد، وكالترغيب مرّة، ثم الترهيب.

ومنها التقابل بين الأزواج المتضادة، كالأمر والنهي، والظلمة والنور، والجنة والنار، والمؤمنين والكافرين، والمسلمين والمجرمين، والوعد والوعيد، والخوف والطمع، والذين يعلمون والذين لا يعلمون، والرحماء والقاسية قلوبهم.

ومنها التوازن اللفظي بين الجمل بردّ بعضها على بعض رداً فيه تناظرٌ محبّب للنفوس، كالموجات الحلوة المثنّاة في سورة (الرحمن ٥٥):

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ ﴾.

وهكذا إلى آخر السورة.

ومنها أنّ بعض المعاني فيه مطوية في ثنايا الآيات، إنّما يتنبه إليها الباحث في المنحنيات والمنعطفات، أخذاً من مثاني الوادي، وهي منحنياته ومنعطفاته، مثل قوله تعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه؟﴾ أي: هل يستوي هو ومن قسا قلبه فلم ينضَحْ بخير، فلم يشرح الله صدره للإسلام فهو في ظلماته وضلاله المبين.

هذا الكتاب الذي نزّله الله أحسن الحديث متشابهاً مثاني كتاب مذكّر بالله، إذا سمعه الذين يخشون ربهم اقشعرت منه جلودهم، فإذا تكرّر سماعهم به كان له فيهم تأثير آخر، إذ تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله باندفاع ذاتي، إنهم ذاقوا حلاوة الإيمان، وعرفوا أنّ هذه الحلاوة إنما جاءتهم من ذكر الله، فاتجهوا من ذاتهم إلى ممارسة ذكر الله مرّة بعد مرّة، لينة إليه قلوبهم وألسنتهم وجميع حواسهم ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربّهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله. ذلك هدى الله يهدي به من يشاء. ومن يضلل الله فما له من هاد﴾.

أي: فمن يثبت الله ضلاله بسبب ما كان منه من ضلال فما له من هادٍ يثبت له الهداية، إنّ الله هو الحكم العدل لا معقب لحكمه.

الـظـلـم

ـ ١ ـ
مـقـدمـة

لقسوة القلب المناقضة لخلق الرحمة ظواهـر في السلوك أبرزهـا ظلم الآخرين في حقوقهم، فمن فقد الرحمة فقسا قلبه ظلم غيره، ولم يكترث بآلام من ظلمه.

والإنسان الرحيم قلّما يكون ظالماً، ولئن كان للظلم عوامل نفسية مختلفة فإن تنفيذه لا يكون إلّا حينما يكون القلب قاسياً وتكون الرحمة فيه ناضبـة أو غارقة في سبات عميق.

والظلم بمعناه العام قد يكون من ظواهر قسوة القلب بفقدان الرحمة، وقد يكون من ظواهر الانحراف عن الحق، وفقدان خُلق حبّ الحق، أو تناقصه، ومن قسوة القلب عن قبول دعوة الحق.

ـ ٢ ـ
تعـريف الظلـم

يعرّف اللغويون الظلم بأنه: وضع الشيء في غير موضعه.

جاء في أمثال العرب قولهم: «من أشبه أباه فما ظلم» قال الأصمعي: أي فما وضع الشبه في غير موضعه.

وجاء في أمثال العرب قولهم: «ومن استرعى الذئب فقد ظلم» وهذا ظاهر في وضع الشيء في غير موضعه، إذ موضع الذئب الطرد عن قطعان الغنم، لا جعله راعياً عليها حتى يفتك فيها كما تهوى غريزته.

ويقال لغة: لزم سالك الطريق طريقه فلم يظلمه، لم يعدل عنه ولم يتجاوز حدوده اليمنى واليسرى.

وإنما كان الشرك بالله ظلماً لأن خصائص الألوهية كلّها من حقّ الله وحده، فمن أسند ما هو لله وحده إلى غيره فقد وضع الأمر في غير موضعه، وجعل لله شريكاً في صفاته التي لا يشاركه فيها أحد في الواقع، ولمّا كان الأمر يتعلّق بحق الله خالق كل شيءٍ كان الظلم فيه أشدّ أنواع الظلم.

ـ ٣ ـ

المجالات التي يدخل فيها الظلم

إنّ المجالات التي قد يدخل الظلم فيها كثيرة وواسعة:

(أ) فقد يكون الظلم في مجال حق الله على عباده، من عقَيدة أو عبادة، أو طاعة في أمر أو نهي.

(ب) وقد يكون الظلم في مجال حقوق العباد، بتجاوزها أو هضمها.

(ج) وقد يكون الظلم للحقائق الفكرية والعلمية، بتجاوز حدودها، أو بإنكارها وجحودها.

(د) وقد يكون الظلم لأي كائن ذي حياة، وظلم ذي الحياة الذي يستحق الرحمة ويشعر بالألم إنما يفعله ذوو القلوب القاسية، الذين نضبت الرحمة من قلوبهم، أو تخدّرت باللذات الأنانية والشهوات المادية، أو غرقت في سبات عميق إذْ أبطرتهم النعمة.

(هـ) وقد يظلم الإنسان نفسه، فيغامر في فعل ما يشتهي، ويعرّض نفسه لعذاب أليم من وراء ذلك.

وكل ظلم يعاقب عليه الظالم يكون من قبيل ظلم الإنسان لنفسه، بالإضافة إلى كونه ظلماً لغيره.

وظلم الإنسان لنفسه ظلم مصحوب بجهالة بالغة، إنْ لم يكن مع الجهالة حماقة ورعونة.

وباتساع وتعدّد مجالات الظلم نلاحظ أن منه الكفر بالله والشرك به ومعصيته وتجاوز حدوده، ويدخل في ذلك كتم شهادة الحق، ومنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وأكل أموال الناس بالباطل، والعدوان على أي حق من حقوق الناس، والإعراض عن آيات الله بعد التذكير بها، والقتل، والسرقة، والغش، والقذف، والغيبة، والإفساد بين الناس، إلى غير ذلك من آثام ومعاصي.

— ٤ —

الظلم في المفاهيم الإسلامية

لقد تحدّث القرآن عن الظلم والظالمين والعقوبات التي أعدّها الله في آيات كثيرة جداً، وأَوْلَى هذه الظاهرة السلوكية التي ترافق في معظم أحوالها قسوة القلب وجفاف خلق الرحمة منه اهتماماً شديداً، بغية التحذير منها، واتخاذ الوسائل لمعالجتها، وفيما يلي عرض لطائفة من النصوص القرآنية مع تدبر ما اشتملت عليه في هذا الموضوع:

١ ــ إن الشرك بالله لظلم عظيم، ولذلك كان من وصايا لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني، لا تشرك بالله، إنّ الشرك لظلم عظيم، هذا ما قصه الله علينا مشيداً بوصايا لقمان لابنه في سورة (لقمان ٣١):

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

حقّاً إن الشرك بالله لظلم عظيم، وذلك لأنّ حق الله على عباده أن يؤمنوا به، وأن يعبدوه وحده ولا يشركوا بعبادته أحداً، وأن يطيعوه بالتزام ما يأمرهم به، واجتناب ما ينهاهم عنه. فمن عبد غير الله مثل عبادته لله فقد وضع عبادته

في غير محلّها، ورفع خلقاً من خلق الله فجعله مساوياً لله ولو في أمر من الأمور، أو صفة من الصفات، وكلّ ذلك ظلم عظيم، لأنه يتعلق بحقٍّ الله الخالق الرازق المنعم المتفضل المحيي المميت، في كبرى حقوقه على عباده.

إنّ الشرك بالله ظلم للحقيقة العلمية من جهة، وظلم للواجب الأخلاقي من جهة أخرى.

أمّا كونه ظلماً للحقيقة العلمية فظاهر، إنّ أحداً غير الله لا يستحق أن يعبد من دونه، ولا يستحق أن يعبد معه.

وأما كونه ظلماً للواجب الأخلاقي، فيوضحه أنّ الله وحده هو الخالق، الرازق، المنعم بالحياة والإرادة والعقل وسائر النعم العظيمة، المحيي المميت والممد بكل الخيرات، والواجب الأخلاقي يحتم على العبد المتلقي لكل هذه النعم والخيرات من ربّه وحده، أن يشكره على نعمه، فيؤمن به وحده ربّاً خالقاً، ويخضع له وحده، ويعبده وحده لا يشرك بعبادته أحداً.

ويقول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وقد ورد تفسير الظلم في هذه الآية بالشرك، روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال: لما نزلت ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ شقّ على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله، أيّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس ذاك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا قول لقمان لابنه: ﴿يا بني لا تشرك بالله إنّ الشرك لظلم عظيم﴾» وفي رواية: «ليس كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه».

٢ ــ من الظلم تعدّي حدود الله، وحدود الله شرائعه التي حدّد فيها لعباده أبعاد الحلال والحرام والفروض والواجبات، والأصل في الحدّ المعْلَم الذي يوضح نهاية بُعد الأرض المراد تمييزها عن غيرها، فيحد صاحب الأرض عن

تجاوزه إلى غيرها لئلا يظلم حق غيره، ويحدّ غيره عن تجاوزه إلى داخلها حتى لا يظلم حقه في أرضه.

وتجاوز حدود الله التي حدّها لعباده معصية له، ومعصية الله ظلم لحقه على عباده، ولذلك كثرت في القرآن الكريم نسبة صفة الظلم إلى العصاة والفاسقين وكلّ المتجاوزين لحدود الله، وإن كانوا من المؤمنين؛ قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ ﴾.

والمشار إليه في «تلك حدود الله» أحكام شرعية سبق بيانها في آيات قبل هذه الآية، تتعلق بالخمر والميسر، وباليتامى، وبالنكاح، وبمعاشرة الزوجات، وبالأيمان، وبالطلاق، وبغير ذلك.

٣ ـ وفي معرض الحديث عن عصاة بني إسرائيل يقول الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾.

الرجز: العذاب.

ويقول تبارك وتعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾.

٤ ـ ويحذر الله تبارك وتعالى رسوله من طرد الفقراء والضعفاء من المؤمنين عن مجالسه العامة، تلبية لمطالب أصحاب الغنى والقوة من المشركين، الذين كانوا يلوحون باستعدادهم للإسلام إذا طرد الرسول عن مجالسه الفقراء

والضعفاء والمساكين، ويبيّن الله لرسوله بأنه إذا فعل شيئاً من ذلك فإنه يكون من الظالمين، قال الله تعالى لرسوله في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

٥ ــ وشعر يونس عليه السلام وهو في بطن الحوت، أنّ ما نزل به قد كان بسبب ظلمه إذ ترك قومه ــ أهل نينوى ــ مغاضباً لهم إذ لم يؤمنوا به، فنادى في الظلمات التي هو فيها في بطن الحوت، أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، قال الله تعالى في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

فظنّ أن لن نقدر عليه: أي ظنّ أن لن نضيّق عليه، اعتقاداً منه أن ما فعله لا حرج عليه فيه.

٦ ــ ونهى الله آدم وزوجه أن يأكلا من الشجرة فإن أكلا منها كانا من الظالمين، قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

فدلّ هذا على أن مخالفة النهي بفعلِ ما نهى الله عنه ظلم.

٧ ــ ومن الظلم كتم شهادة الحق، وأظلم الظلم في كتم الشهادات أن يكتم الكاتم شهادة عنده من الله، أي: ممّا يتعلق بأمر الحقائق الربّانية والمعارف الدينية الإلهية، قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ

كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ ﴾.

٨ ــ ومن الظلم منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه والسعي في خرابها، بل هذا من أظلم الظلم لأنه صدٌّ عن سبيل الله ومنعٌ لعباد الله من عبادة الله، قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآۚ أُوْلَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾.

فعقوبة هؤلاء الظالمين تأتيهم على ثلاث شعب:

(أ) إلقاء الخوف في قلوبهم، فهم لا يدخلون مساجد الله إلّا خائفين.
(ب) معاقبتهم بالخزي في الدنيا.
(ج) معاقبتهم بالعذاب العظيم في الآخرة.

٩ ــ ومن أظلم الظلم الإعراض عن آيات الله بعد التذكير بها، وعدم الاستجابة لله فيما يدعو إليه من الإيمان والعمل الصالح، قال الله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

فهؤلاء قد أعرضوا بعد أن ذكّروا بآيات ربّهم إعراض كفر وجحود، ومن أجل ذلك كانت قلوبهم في أكنّة، أي: محجوبة بحجُبٍ كثيفة، أو محبوسة في بيوت من الغفلة مقفلة، فهي لا تفقه الحقّ الذي تشتمل عليه آيات الله، ومن

أجل ذلك أيضاً كان في آذانهم وقر، أي: صمم عن سماع ما يذكر بالله ويرشد إلى طريق الإسلام، وهو صمم إعراض، لا صـمم فقد حاسة السمع.

وقال الله تعالى في سورة (السجدة ٣٢):

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

ففي هذه الآية وصفهم الله بأنهم مجرمون، لذلك كان من العدل تقرير الانتقام منهم.

وقال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

صدف عنها: أي أعرض عنها، ويلزم من الإعراض عن آيات الله عدم قبولها والتكذيب بها، لذلك كان لهؤلاء المعرضين عن آيات الله سوء العذاب يوم القيامة بما كانوا يصدفون، أي: يعرضون كلّما ذكروا بآيات ربهم.

١٠ ــ ومن أظلم الظلم الكذب على الله لإضلال الناس بغير علم، قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

كيف يثبت الله لهم الهداية ويحكم لهم بها وقد ظلموا ظلماً كبيراً، إذْ افتروا على الله كذباً ليضلوا الناس بغير علم؟

١١ ــ ومن الظلم الكبير ظلم الناس في أنفسهم وأموالهم، قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن

تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

فأكل أموال الناس بغير حق وقتل النفس بغير حق، عن علم وإرادة، عدوان وظلم.

وخصص الله أكل أموال اليتامى بالباطل بذكره في آية منفردة؛ لتوجيه التحذير الشديد لهذا النوع من الظلم، فقال تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًاۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾.

وفي بيان أن القتل بغير حقّ ظلم يقول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾.

فظلم الناس في أنفسهم وأموالهم أمره شديد عند الله، وعقابه مخيف، ومن النصوص في ذلك ما يلي:

(أ) روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

«لتؤدنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء».

يُقاد: يقتص.

الجلحاء: هي الشاة التي لا قرون لها. والجلح في الناس ذهاب الشعر من مقدّم الرأس، وفي الشاء والبقر: عدم وجود القرون.

(ب) وروى البخاري عن خولة بنت ثامر الأنصارية قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن رجالاً يتخوضون في مال الله بغير حق؛ فلهم النار يوم القيامة».

(ج) وروى البخاري ومسلم عن أبي حُمَيد عبدالرحمن بن سعد الساعدي قال: استعمل النبي ﷺ رجُلاً من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة؛ فلما قدم قال: هذا لكم وهذا أهدي لي، فقام رسول الله ﷺ على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أمّا بعد، فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله، فيأتي فيقول: هذا لكم وهذا هدية أهديت إليّ! أفلا جلس في بيت أبيه وأمّه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً، والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقي الله تعالى يحمله يوم القيامة، فلا أعْرفن أحداً منكم لقي الله يحمل بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خُوار، أو شاة تَيعر».

ثم رفع يديه حتى رئي بياض إبطيه فقال:

«اللهم هل بلّغت؟».

الرغاء: صوت الإبل. والخوار: صوت البقر. واليُعار: صوت الغنم.

فدلّ هذا الحديث على أنه يدخل في الحقوق العامة الهدايا التي تقدم للموظفين بحكم وظيفتهم، لا لأشخاصهم.

(د) وروى البخاري ومسلم عن عائشة، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«من ظَلَمَ قيد شبرٍ من الأرض طُوّقه من سبع أرضين».

قيدَ شبر: قيد الشيء قَدْره، تقول: فلانٌ مني قيدَ رمح، أي مسافة ما بيننا هي قدر طول رمح.

طوقه من سبع أرضين: أي من سبع طبقات من الأرض، لأن الملكية والانتفاع من الأرض قد يصل إلى سبع طبقات منها.

دلّت هذه الأحاديث على أن عدل الله لا بدّ أن يلاحق الظالمين بالعقوبة على ظلمهم، حتى تؤدى الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، بما في ذلك الحقوق بين البهائم العجماوات.

وأبان الرسول ﷺ أنّه إذا ظلمت شاة ذات قرون شاةً جلحاء غير ذات قرون اقتصّ الله يوم القيامة للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، لأن الظلم من الجرائم التي تدركها البهائم وتعرف أنه لا حقّ لها به، وتدرك معنى الانتقام لنفسها من ظالمها.

فالله تبارك وتعالى يقيم قانون عدله يوم القيامة حتى في البهائم، مع أنّها غير مكلفة بالشرائع الربانية، إذ لا عقل لها، ولا قدرة لديها على إدراك النهي والأمر والتكاليف الشرعية، لكنّها تدرك بما لديها من قدرة على المعرفة طائفة من معاني الظلم، وتدرك أنها من القبائح التي تستحق عليها العقاب إذا هي فعلتها، وتدرك أيضاً طائفة من معاني الإحسان وتدرك أنها من المحاسن التي ينبغي أن تكافأ بالتودد والطاعة والخدمة. وبما أنّ الله تبارك وتعالى قد منح البهائم أو طائفة منها هذا المقدار من الإدراك فإنّ من سننه أن يقيم فيها عدله، بمقدار ما تدرك من معاني الظلم والعدل والجزاء، حسب المنحة التي منحها الله إياها، وليس معنى هذا أنها مكلّفَة بشرائع منزّلة، وإنما هي قوانين وسنن لله ثابتة، وهي تنطبق على كلّ ذي حياة وإرادة وإدراك ما، قلّ أو كثر، ولكنّ الجزاء يكون على مقدار ما يحصل عند ذي الحياة والإرادة من إدراك، سواءٌ أنزلت بذلك شرائع أو لم تنزل، بخلاف تكاليف الدين والإيمان والعبادة، فإنّها لا ترسم على الكائن الحيّ ما لم تنزل بها شرائع ربّانية.

وعلى هذا الأساس نعاقب نحن في مفاهيمنا الإنسانية البهائم على بعض أعمالها، ألسنا نؤدّبها ونربيها بقانون الثواب والعقاب الذي تدركه بفطرتها؟ ألسنا نجد بعض البهائم تفرّ إذا هي ظلمت ظلماً تدركه، خوفاً من العقاب الذي تلاحظ أنها تستحقه وقد تتعرّض له؟ إنّ البهائم تشعر بكراهية من يظلمها ويعتدي عليها، وكثير منها يضمر في نفسه الانتقام من الذي ظلمه واعتدى

عليه، والظالم منها يحسب حساباً للانتقام ويتخوف منه. وهذا المقدار من المنحة الرّبّانية لها لا يُلغَى من حساب العدل، ما دام الظلم موجّهاً لكائن يطالب في نفسه بإقامة العدل، ولا يسامح به ظالمه.

لذلك فإن الله عزّ وجلّ يحشر البهائم مع ما يحشر من خلائق يوم القيامة، فيُعطي المظلوم منها حقّه من ظالمه، ثمّ يقول لها: كوني تراباً. فتموت وتكون تراباً، وعندئذ يتمنّى الكافر من الناس أن يعامل معاملة البهائم فيقول: يا ليتني كنت تراباً، وفي حشر البهائم قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

وجاء في كلام الرسول ﷺ ما يدلّ على الفائدة من حشرها، فمن ذلك القصاص من البهائم الظالمة في الدنيا للمظلومة منها، وذلك على مقدار إدراكها لمعنى الظلم الذي لا تقبله نفس من النفوس مهما قلت مداركها العامّة. ومن ذلك أيضاً تأديتها وظيفة الشهادة على الناس، بحسب مشاهدتها في الدنيا. ومن ذلك تسخيرها لتعذيب العصاة الذين عصوا الله بها في الدنيا، حينما كانت مذلّلة لهم، مسخّرة لمصالحهم وحاجاتهم. ومن ذلك مشاهدتها عقاب من ظلمها من الناس في الدنيا، وتعويضها عن ذلك طبق قانون العدل الربّاني، حتى إذا تمت الحكمة الإلهية من حشرها قضى عليها بأمره فكانت تراباً.

وشاهد هذا ما جاء في حديث ابن اللّتبية، فالذي يأخذ من الأموال ما ليس له به حقٌ يأتي يوم القيامة يحمله ويعاني عذاب حمله له، فإن كان ما أخذه حيواناً يأتي به حيّاً بشحمه ولحمه ودمه، وبصوته الذي كان يصوت به.

وثبت في الصحيح أيضاً أن من يمنع زكاة أمواله من الأنعام فإنه يعذّب بها يوم القيامة، إذ تأتي على أحسن ما كانت في الدنيا، فتنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، أو بأخفافها، وتعضه بأفواهها، كلما مرّ عليه أولاها ردّ عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.

ومن اعتدى على غيره في أرضه، فأخذ منها بغير حقٍّ عُذِّب يوم القيامة بالأرض التي غصبها، فَيُطَوَّقُها، سواء أخذها بالحيلة، أو باللصوصية، أو باستخدام القوّة، أو بغير ذلك.

أمّا كيف يكون هذا التطويق فلا نستطيع تصوّره على وجه الحقيقة، لأنه أمر من أمور الآخرة، ويكفينا أن نفهم منه هول التعذيب الذي يلقاه يوم القيامة غاصب الأرض في الدنيا، والمستولي عليها بغير حق. وأحوال الآخرة وأمورها مخالفة لما في الدنيا، وقياس ما يجري في الآخرة على ما يجري في الدنيا قياس غير صحيح، ومفاهيمنا عن الآخرة وأحوالها مفاهيم كليّة، وليست مفاهيم تفصيلية محدّدة الأشكال والصور، وما ثبت منها في نصوص الشريعة نؤمن به ونسلم تسليماً، دون زيادة عليه ولا تفصيل له.

وأرشد الرسول إلى محاسبة المسلم نفسه على الظلم ولو قضى له القاضي بما ليس له فيه حق.

روى البخاري ومسلم عن أم سلمة أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ، ولعلّ بعضكم أن يكون ألحَنَ بحجّته من بعض فأقضي له بنحو ما أسمع، فمن قضيت له بحقّ أخيه فإنّما أقطع له قطعة من نار».

لعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض: أي لعلّ بعضكم أن يكون أفطن لتصيّد الحجّة التي تدعم دعواه، وأقدر على بيان الدليل الذي يقنع القاضي بأنه هو صاحب الحقّ، وأعرف بمداخل الكلام ومخارجه ووجوه دلالاته، فهو يزيّن أقواله ويزخرفها حتى يغلب على ظنّ سامعيه أنّه محقّ وأنّ خصمه مبطل، وربما يكون الواقع بخلاف ذلك.

إنّما أنا بشر: أي قد أحكم بحسب ما يظهر لي من البينات، وقد يكون الواقع بخلاف ذلك. وفي هذا دلالة على أنّ الرسول ﷺ ليس من لوازم نبوّته أن يطّلع على حقائق الأمور دائماً، وأن يكتشف خفايا الأشياء، وأن يستبطن ما تكنّه الصدور من أسرار، وأنه صلوات الله عليه في هذا بشرٌ من البشر، لا يعلم وراء ما يعلمه الناس بوسائلهم الإنسانية إلا ما يوحى إليه به، وكثير من

الأمور الإنسانية لا ينزل بها الوحي، إذ لا يتعلق بها غرض تشريعي، فيكون الرسول ﷺ فيها كسائر الناس، معرّضاً لاحتمالات الصّواب والخطأ، بحسب ما يظهر له في الظّنّ الغالب، اعتماداً على الدلائل والأمارات، والحجج والبينات. والقضاء بين الناس في الحقوق من الأمور الإنسانية التي من شأنها أن يفصل بها القضاة من الناس، وليس من شأنها أن تنزل بها أقضية سماوية حتى ينزل الوحي في كل قضاء يقضيه الرسول، فيعرفه بصاحب الحقّ من الخصمين وبالمبطل منهما.

ولو كانت أقضية الرسول ﷺ بين المتخاصمين من الناس لا تتمّ حتى ينزل وحي يكشف للرسول المحقّ من المبطل، لما استطاع قاضٍ بعد الرسول أن يقضي في الإسلام، ولما عرف المسلمون بعد الرسول ﷺ كيف يكون منهج القضاء بين الخصماء، ولما تجرأ بعد الرسول على القضاء مسلم يخشى الله تعالى.

أما والرسول ﷺ في شأن القضاء واحتمالات الخطأ والصواب فيه بشرٌ من البشر، فإنه في هذا أسوة حسنة لكلّ من يتولّى القضاء بين الناس من بعده.

وقد أبان الرسول ﷺ، أنّه يوجد فريق من الناس يستغلّ بخلقه المنحرف ونفسه الظالمة الآثمة، ما وهبه الله من قدرة على إقامة الحجج وصَوْغ الأدلّة، والتصرف بوجوه الكلام، ليزيّن باطله فيجعله حقّاً، وليشوّه حقّ غيره فيجعله باطلاً.

ولا شكّ أنّ هذا يمثّل انهياراً خلقيّاً خطيراً، لأنّ فاعله يستخدم نعمة الله عليه في معصيته، ويستغلّ امتيازه على خصمه بقوّة البيان والقدرة على إدلاء الحجج وصوغ الأدلة وتزيينها لظلم خصمه وهضم حقّه عن طريق القضاء، الذي يعطيه بحسب ما ظهر له شرعيّةً كاذبة مزوّرة، يكون بموجبها محمياً من الإدانة بالجريمة أمام السّلطة، ومحميّ العرض تجاه الناس.

إنه لا فرق بين هذا وبين من يستغل قوته الجسدية، أو حيلته الحركية، أو ذكاءه في اللصوصية، أو سلطته الاجتماعية في العدوان على حقوق الناس، وسلبهم ونهبهم وظلمهم بغير حقّ، فكلاهما مجرم ظالم، إلاّ أن لكلٍّ منهما وسيلة يتخذها

للوصول إلى ارتكاب الجريمة. وربما يكون المجرم الواضح أهون شراً، لأنه ينبّه على نفسه، فيعامله الناس بالاحتراس، على أساس أنه غير مأمون الجانب، أما من يخادع الناس فيتظاهر أمامهم بالاستقامة والأمانة، ثمّ يعتدي على حقوق الضعفاء، ويستغل قوة بيانه أو قوة سلطانه، لتزوير الحقيقة والواقع، وقلب الحق باطلاً والباطل حقاً، فإنه شرّ المجرمَيْن وأخبثهما وأخطرهما، وأكثرهما فراراً من وجه العدالة في الأرض على أيدي الناس.

أمّا العدالة الربّانية فلا مفرّ منها لأحد، ومهما فرّ منها فارٌّ وجد نفسه يدور في قبضتها، وهذا ما حذّر منه الرسول ﷺ بقوله في الحديث: «فمن قضيت له بحقّ أخيه فإنّما أقطع له قطعة من نـــار» أي فهو إن استطاع أن ينجو بحيلته وبيانه من قبضة العدالة على أيدي القضاة والحكام من الناس، فلن يستطيع النجاء من قبضة عدالة الله. إنّ ما يأخذه من حقّ أخيه بسلطان القضاء سيكون قطعة من نار جهنّم تكويه وتعذّبه يوم الدين.

وبيان هذه الحقيقة يتضمّن تربية خلقية، تجعل المسلم يرجع إلى نفسه فيحاسبها حساباً دقيقاً، على ما يعلم من الحقيقة وواقع الأمر، وتجعله حذراً من ظلم الناس والعدوان على حقوقهم، ولو استطاع أن يـظفر بـإقناع السلطة القضائية، وأن يثبت لها بالحجج والأدلة أنه صاحب حقّ، وأنّ خصمه مبطل، إنه يعلم أن من يحيط بكل شيء علماً لا تخفى عليه خافية، وأنه قادر على القبض عليه مهما أمهله.

١٢ ــ ولـمّـا كان الظلم من أقبح القبائح حرّمه الله على نفسه، وجعله بين عباده محرّماً، هذا ما جاء بيانه في الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن أبـي ذر عن النبـي ﷺ فيما يرويه عن ربّه، وفيه أنّ الله تبارك وتعالى قال: «يا عبادي، إنّي حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّماً، فلا تظالموا».

في هذا الإعلان الربّاني بيان أنّ الله سوّى عباده بنفسه في موضوع الظلم، فحرّمه على نفسه كما حرّمه على عباده، وإذ حرّمه الله على نفسه فهو لا يظلم أحداً مثقال ذرّة، قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

وحين يقيم الله عدله في عباده، فإنه لا يظلمهم شيئاً، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم، قال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

١٣ ـ والظلم ظلمات على صاحبه يوم القيامة، روى مسلم عن جابر بن عبدالله، أنّ النبي ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإنّ الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، واتقوا الشحّ فإن الشحّ أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم». أي: استحلّوا ما حرّم الله عليهم.

وروى البخاري ومسلم عن ابن عمر، أنّ النبي ﷺ قال: «الظلم ظلمات يوم القيامة».

والظلمة يوم القيامة يرافقها العذاب، أمّا الظلمات يوم القيامة فيرافقها ألوان من العذاب.

بخلاف النور يوم القيامة فإنه يومئذٍ يرافقه النعيم الذي تفيضه رحمة الله على الصالحين.

والدليل على ذلك قول الله تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾.

فهذان قسمان من الناس يوم القيامة:

الأول: المؤمنون والمؤمنات، وهؤلاء نورهم معهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، وقد رافق النور نعيم لهم مقيم، في جنات هم فيها خالدون.

الثاني: المنافقون والمنافقات، وهؤلاء يتخبّطون في الظلمات، يلتمسون نوراً فلا يجدون، وقد رافق ظلماتهم عذاب لهم أليم.

والفاصل بين هذين القسمين سورٌ، باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب، هؤلاء في الجناح المضيء المغمور بالنعيم، وأولئك في الجناح المظلم المغمور بألوان العذاب.

١٤ ــ والله تبارك وتعالى قد يمهل للظالم ولكنّه لا يهمله، فإذا أخذه، أخذه أخذَ عزيز مقتدر، وكم يمكر الظالم فيوقعه الله في مكره، وكم يكيد فيرميه الله في مكايده، وربّما حفر حفرة لغيره فكان هو ضحيّتها، وربما نصب شَرَكاً لغيره فوقع هو فيه.

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله يملي للظالم، فإذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ قول الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾.

١٥ ــ ودعوة المظلوم مستجابة ليس بينها وبين الله حجاب، روى البخاري ومسلم عن معاذ بن جبل قال: بعثني رسول الله ﷺ فقال: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ الله افترض عليهم خمس صلوات في كلّ يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم، فإنْ هم أطاعوا لذلك، فإيّاك وكرائم أموالهم، واتّق دعوة المظلوم فإنّه ليس بينها وبين الله حجاب».

وروى البيهقي في شعب الإيمان، عن علي بن أبي طالب، رضي الله

---

(١) سورة هود: آية ١١.

عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إيّاك ودعوة المظلوم، فإنّما يسأل الله حقّه، وإنّ الله لا يمنع ذا حقٍّ حقّه».

فعلى الذين تحدّثهم أنفسهم بظلم الناس أن يضعوا في حسابهم أنّ الله لهم بالمرصاد.

١٦ ــ والظلم بالقتل أوّل ما يقضى به يوم القيامة، اهتماماً بشأنه، روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أوَّل ما يُقضَى بين الناس يوم القيامة في الدّماء».

١٧ ــ ومن كمال عدل الله: أنّ كلّ ظالم يظلم غيره وهو يدرك معنى الظلم، فإنّ الله تبارك وتعالى ــ يوم القيامة ــ سيمكّن المظلوم منه ليقتص، أو يأخذ حقه، حتى المظالم التي تجري بين البهائم كما سبق بيان ذلك.

أمّا الحقوق الأخرى كالحقوق المالية فإنها تؤدّى من صحف الأعمال، روى البخاري عن أبـي هريرة، أنّ النبـي ﷺ قال: «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء فليتحلّله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينارٌ ولا درهم، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته، وإنْ لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحُمِل عليه».

فرؤوس الأموال التي يُتقاضى منها يوم القيامة هي الأعمال.

وروى مسلم عن أبـي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المفلس؟».

قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع.

فقال: «إنّ المفلس من أمّتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثمّ طرح في النار».

نعم: هذا هو أسوأ المفلسين حالاً..

وروى الإمام أحمد والبيهقي في شعب الإيمان، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ:

«الدواوين ثلاثة:

* ديوان لا يغفره الله، الإشراك بالله، يقول الله عز وجل:

﴿إنّ الله لا يغفر أن يُشرك به﴾.

* وديوان لا يتركه الله، ظلم العباد فيما بينهم حتى يقتصّ بعضهم من بعض.

* وديوان لا يعبأ الله به، ظلم العباد فيما بينهم وبين الله، فذاك إلى الله، إن شاء عذّب به، وإن شاء تجاوز عنه».

المراد من الدواوين صحائف أعمال الناس.

١٨ ــ وفي التحذير من ظلم من بدأ يومه بعبادة الله فأصبح في ذمة الله روى مسلم عن جندب بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ:

«من صلّى صلاةالصبح فهو في ذمّة الله، فلا يطلبنّكم الله من ذمّته بشيء، فإنه من يطلبْه الله من ذمّتهِ بشيء يدركْه ثمّ يكبّه على وجهه في نار جهنم».

في هذا الحديث تحذير شديد من ظلم المسلمين، لا سيّما الذين يضعون أنفسهم في ذمّة الله، إذ يؤدّون واجب أوّل النهار تجاه ربّهم، فتتجافى جنوبهم عن المضاجع يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينهضون إلى عبادة الله، فيحضرون صلاة الصبح، ويشهدون الخير مع المؤمنين.

والذّمة في اللّغة تأتي بمعنى العهد، وبمعنى الكفالة والضمان، وبمعنى الأمان، ويبدو أن المناسب هنا هو معنى الكفالة والضمان، فمن صلّى صلاة الصبح فهو في كفالة الله وضمانه، ومن كان في كفالة الله انتصر الله له وحماه ممن يريده بظلم أو يبغيه بسوء.

وحينما يكون إنسان في كفالة الله فإنّ كفالة الله له تستلزم حقاً على الناس مسلّطاً عليهم من الله تعالى، أن لا يتعرّضوا بأذى لمن كان في ذمّة الله، فمن ظلم واعتدى على حقّ الله في ذمته، طلبه الله لإقامة عدله فيه، ومنْ يطلبْه الله من ذمته بشيء يدركْه لا محالة، ثم يكبّه على وجهه في النار.

فحقّ المؤمن القائم بواجباته نحو ربّه حقّ عظيم، مضمون بضمان الله، مكفول بكفالته، وهذه إحدى منح الله تعالى للمؤمنين، والعاقل الحصيف المؤمن هو الذي لا يأتي إلى مواقع النار فيدس نفسه فيها.

— ٥ —

أبواب من الظلم بأكل أموال الناس بالباطل

(أ) مقدمة عامّة:

لـمّـا كان أكل أموال الناس بالبَاطل من فروع ظلم الناس للناس، فقد جعله الله من كبائر المحرَّمات، وشدّد الرسول ﷺ فيه تشديداً عظيماً.

قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾.

فقد رتّب الله على أكل أموال الناس بالباطل وعلى قتل الأنفس أنه من يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف يصليه الله ناراً.

وخطب الرسول ﷺ خطبته المشهورة في حجّة الوداع فقال فيها:

«إنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا في بلدكم هذا»[١].

وثبت في الصحيح أنّ الرسول ﷺ قال:

«كلّ المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه».

وروى البخاري ومسلم عن سعيد بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ:
«من أخذ شبراً من الأرض ظلماً، فإنّه يُطوّقه يوم القيامة من سبع أرضين».

وروى مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:
«لا يحلُبَنّ أحدٌ ماشية امرىءٍ بغير إذنه، أيحبّ أحدُكم أن يؤتى مَشْرَبَتَهُ فتكسَر خِزانته فيُنْتَقل طَعامُه؟ وإنّما يخْزُنُ لهم ضُروع مواشيهم أطْعِماتهم».

مَشْرَبَتُه: غرفته التي يخزن فيها الطعام وغيره. فشبّه الرسول ﷺ ضروع مواشي الناس بمخازن أطعمتهم التي يحرم أخذ شيء منها إلاّ بإذن أصحابها، واعتبر ذلك من نوع السرقة.

وروى البيهقي في (شعب الإيمان) والدارقطني في (المجتبى) عن أبي حُرّة الرَّقاشي، عن عَمّه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«ألا لا تظلموا، ألا لا يحلّ مالُ امرىء مسلم إلاّ بطيب نفسٍ منه»[٢].

وروى الترمذي عن عمران بن حصين، أن النبي ﷺ قال:
«ومن انْتهب نُهبةً فليس منّا».
وروى البخاري عن سالم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقّه، خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين».

---

(١) من حديث طويل رواه مسلم عن جابر بن عبدالله وفيه قصة حجة الوداع.
(٢) مشكاة المصابيح رقم الحديث (٢٩٤٦).

ولعل هذا يفسر معنى يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين، الواردة في الحديث السابق.

(ب) الـربـا:

ومن أكل أموال الناس بالباطل ــ وهو من الظلم الذي يتواضع الناس على الاعتراف به واتخاذ صيغ قانونية له، على خلاف شريعة الله ــ أكل الأموال عن طريق الربا المحرم في دين الله.

وقد سماه الله ظلماً، فقال تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾.

وكان هذا النص آخر نص نزل في تحريم الربا كله قل أو كثر، وأبان الله فيه أنه ظلم، فقال: ﴿وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون﴾.

وروى مسلم عن جابر قال: لعن رسول الله ﷺ آكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: «هم سواء».

وروى الإمام أحمد وابن ماجه والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنّ الربا وإن كثر فإنّ عاقبته تصير إلى قُلّ».

أي: إلى قلّة.

وروى الإمام أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«أتيتُ ليلة أُسري بي على قومٍ بطُونهم كالبيوت، فيها الحيات، تُرى من خارج بطونهم، فقلتُ: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا».

(ج) الـغـشّ:

ومن أكل أموال الناس بالباطل ــ وهو من الظلم ــ أكل المال عن طريق الغش.

وللغش أنواع كثيرة وصور شتى، ترجع معظمها إلى المخادعة بإظهار شيء وإخفاء خلافه في باطنه، ومن ذلك الكذب في التعريف بالشيء فيعرف الرديء بأنه جيّد، وذو السعر الرخيص بأنه من الصنف ذي السعر الغالي.

ومن الغش دسّ الرديء في ثنايا الجيد، وبيعه جميعاً بقيمة الجيد، دون بيان الواقع والحقيقة.

ومن الغش أن يقول البائع: اشتريته بكذا، ليخدع المشتري فيرضى بأن يربح عليه مقداراً من المال، مع أن البائع كان قد اشتراه بأقلّ ممّا ذكر.

فكم يخلط التجار السّمن الرديء بالسمن الجيد ويبيعون الجميع على أساس أنه من السّمن الجيّد، ويخلطون الزيت الرديء بالزيت الجيد ويبيعون الجميع بقيمة الزيت الجيد.

ونظير ذلك يفعلون في سائر الأطعمة، وفي الأقمشة، وفي الأثاث، وغير ذلك.

وعند البنائين والمهندسين ألوان من الغش، وعند الأطباء والصيادلة ألوان من الغش، وعند المعلمين ألوان من الغش، وعند الصناع ألوان من الغش، وعند العمال ألوان من الغش.

وكلّ أنواع الغش لابتزاز الأموال ترجع إلى أنها صورة ماكرة من اللصوصية، مقنعة بأقنعة تعامل في عقود مشروعة بحسب ظاهرها، ولكن كلّ مال يكتسبه الإنسان عن طريق الغش هو مال حرام، وهو سحت، وظلم، وهو من أكل أموال الناس بالباطل.

وقد أبان الرسول ﷺ أنّ من غشّ المسلمين فليس منهم.

روى مسلم عن أبـي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال:

«من حمل علينا السلاح فليس منّا، ومَنْ غشّنا فليس منا».

وروى مسلم عن أبـي هريرة أيضاً، أن رسول الله ﷺ مرّ على صُبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً، فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟».

قال: أصابته السماء يا رسول الله.

قال: «أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس؟! من غشنا فليس منّا».

صبرة طعام: كَوْمٌ من طعامٍ بُرٍّ أو شعير أو نحو ذلك.

(د) **الاحتكـــار:**

ومن أكل أموال الناس بالباطل ـ وهو من الظلم ـ إغلاء الأسعار عن طريق الاحتكار، لابتزاز أموال الناس بافتعال قلة العرض مع وجود كثرة الطلب.

إنّ التجارة في الأصل نظام شرعه الإسلام وأذن به لتسهيل مصالح الناس، والربح الذي يأخذه التاجر إنما هو تعويض لخدماته التي يقوم بها في تسهيل مصالح ذوي الحاجات، بتسخير ماله، وبتسخير قدراته الفكرية والجسدية.

فإذا احتكر التاجر ما لديه من سلع، أو احتكر مجموعة من التجار ما لديهم من السلع، بأي لون من ألوان الاحتكار الخاص أو العام، فقد خالفوا أصل هذا النظام، والغاية منه، وألجأوا أصحاب الحاجات إلى قبول أخذ السلع المحتكرة بأكثر من أثمانها الحقيقية.

إن المال الذي يؤخذ زيادة على الربح المقبول عرفاً والذي يحصل بسبب الاحتكار مالٌ يؤخذ بالباطل، إذْ هو ليس مقابل خدمات تجارية صحيحة، ولم يؤخذ بالرضا الحقيقي من قبل المشترين، وإنما ألجئوا إلجاءً لدفع القيم الزائدة لضروراتهم وحاجاتهم؛ وقد استغل المحتكرون ظرفاً ملائماً للاستغلال، أو سلطة

من السلطات حصرت توريد البضاعة في أيديهم، ولم يأتِ ارتفاع السعر أمراً طبيعياً دون عمل مفتعل دبّره المحتكرون بمكر شيطاني.

وقد تتسع دوائر الاحتكار حتى تكون دولية كبرى تديرها مؤسسات عالمية لها فروع وأجراء وعملاء في معظم دول العالم.

فالمحتكرون من التجار يخونون العمل الذي أطلقت أيديهم فيه، ويخونون أماناتهم، ويخلّون بالغاية من نظام التجارة، فما يأكلونه من مالٍ بسبب الاحتكار إنما يأكلونه بالباطل.

وليس للمحتكرين أن يقولوا: إنّما هي تجاراتنا، ونحن فيها أحرار نصنع ما نشاء، وليس لأحد أن يجبرنا أن نبيع ما نملك من سلع، وذلك أنّ الله الذي منحهم حق الربح العادل في التجارة مقابل جهدهم، هو الذي حرّم عليهم الاحتكار وهو الذي حرم عليهم أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل.

وقد أبان الرسول ﷺ أن المحتكر خاطىء، أي مذنب عاصٍ، وأنه ملعون، وأنذر محتكري الطعام بالجذام والإفلاس، وبأنه يبرأ من الله ويبرأ الله منه.

روى مسلم عن معمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من احتكر فهو خاطىء» أي: عاصٍ.

وروى ابن ماجه والدارميّ عن عمر بن الخطاب، أنّ النبي ﷺ قال: «الجالب مرزوق، والمحتكر ملعون».

وروى ابن ماجه والبيهقي في (شعب الإيمان) عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس».

وروى رزين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من احتكر طعاماً أربعين يوماً يريد به الغلاء فقد برىء من الله وبرىء الله منه».

وروى البيهقي في (شعب الإيمان) عن معاذ بن جبل قال: سمعت

رسول الله ﷺ يقول: «بئس العبد المحتكر، إن أرخص الله الأسعار حزن، وإن أغلاها فرح».

(هـ) الميسـر:

ومن أكل أموال الناس بالباطل ـ وهو من الظلم ـ أكل أموال الناس عن طريق الميسر، وهو القمار بكل أنواعه وأشكاله وصوره.

وقد وصف الله الميسر بأنه رجس من عمل الشيطان، فقال تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾.

إنّ المال الذي يؤكل عن طريق القمار هو من الظلم والبغي على حقوق الآخرين، ولو كان بتراضي المتقامرين، لأنهما لا يتقامران إلّا وعلى فكر كلٍّ واحد منهما غشاوة شيطانية تصوّر له أنه سيكون هو الرابح، ولو علم أنه سيخسر لا محالة فإنه لا يقامر، فهو طامع مطموس البصيرة، مدفوع بالأمل الكاذب، والله تعالى لا يسمح للمؤمن أن يكون فريسة أوهامه ومطامعه، حتى يندفع إلى خسارة يكون بها نادماً على ما بدأ من عمل، ومعلوم تماماً أن أحد المتقامرين لا بدّ أن يكون خاسراً لا محالة.

والمال الذي يؤكل بالقمار ليس تعويضاً عن جهد يبذل لصالح دافع المال، وليس بدلاً عن شيء ذي قيمة يدفعه آخذ المال وليس منحة يمنحها باذل المال بحريّة تامة، وإنما هي حيل شيطانية تلبس ثوب عمل قائم على التراضي بين المتقامرين، ليسلب كل منهما مال صاحبه مستخدماً ما لديه من حيلة ودهاء ومهارة في الحركة.

والسلب القائم على المقامرة يشبه من يتقاتلان ظلماً وعُدواناً، على أن الغالب منهما هو الذي يسلب حياة الآخر، ثم ماله وأرضه وكلّ ما هو له.

يضاف إلى ذلك ما في القمار من رجس آخر يتمثل بالعداوة والبغضاء اللذين يورثهما، ويتمثل بأنه يصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة، ثم ما يورثه من إتلاف للجملة العصبية، وما يرافقه من منكرات أخرى.

(و) **السرقـة**:

ومن أكل أموال الناس بالباطل ـ وهو من الظلم ـ أكل أموال الناس عن طريق السرقة.

وحماية لأموال الناس من أيدي اللصوص، قرّر الإسلام أنّ من ثبتت عليه السرقة دون شبهة، وكان من أهل التكليف، وكان ما سرقه يساوي ربع دينار فأكثر، وعند أبـي حنيفة يساوي عشرة دراهم فأكثر، يعاقب بقطع يده، وهذا حدّ شرعي فرضه الله على الحكم الإسلامي، والمجتمع المسلم.

قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

وروى البخاري ومسلم عن أبـي هريرة عن النبـي ﷺ قال:

«لعن الله السارق، يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده».

أي يسرق البيضة أولاً فيعتاد حتى يسرق ما قيمته ربع دينار فأكثر فتقطع يده إذا انكشف أمره، ورفع إلى حكم الإسلام.

أو كان القطع بأقل مقدار يساوي بيضة الدجاجة، ثم حدّد الرسول ﷺ النصاب الذي تقطع فيه اليد بربع دينار.

روى البخاري ومسلم عن عائشة عن النبـي ﷺ قال:

«لا تقطع يد السارق إلّا بربع دينار فصاعداً».

وروى البخاري ومسلم عن ابن عمر قال: قطع النبـي ﷺ يد سارقٍ في مِجَنٍّ ثمنه ثلاثة دراهم.

المِجَنّ: الترس.

وبتطبيق حدّ الإسلام في القطع تحفظ الأموال والأرواح، ويستتب الأمن، وحين تركت بلادٌ كثيرة من بلاد المسلمين هذا الحدّ الشرعي انتشرت فيها جرائم السرقة والقتل بنسبة واسعة جداً، من أجل الحصول على الثراء غير المشروع.

وتبعت هذه البلاد النظم الوضعية المستوردة من أوروبا، فانتقلت إليها أوبئة الجرائم الموجودة في بلاد غير المسلمين، وضعفت بترك حدود الإسلام شروط الأمن، فكثرت الجرائم، وفسد حال المجتمع، وكانت البلاد في عافية من معظم هذا الفساد الذي انتشر، لو أنّها حافظت على تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، التي تردع الناس متى نفذت في عدد قليل من المجرمين، والتجربة الواقعية في بعض بلاد المسلمين أثبتت ذلك.

من أجل ذلك كان الرسول ﷺ متى رفع إليه أمر السارق أمر بقطع يده، وقال: «لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

ثبت هذا في الصحيح، كما جاء في حديث المرأة المخزومية التي سرقت، وأراد بعض المسلمين أن يشفعوا لها عند رسول الله ﷺ، فدفعوا لذلك أسامة بن زيد.

وروى النسائي عن عائشة قالت: أتى رسول الله ﷺ بسارقٍ فقطعه، فقالوا: ما كنّا نُراك تبلغ به هذا، فقال:

«لو كانت فاطمة لقطعتها».

(ز) الغلول:

ومِنْ أكل أموال الناس بالباطل، وهو حرام وظلم، أن يأخذ الولاة والموظفون من الأموال العامة بغير حق، فمن فعل ذلك فقد غلّ، قال الله تعالى في سورة (آل‌عمران ٣):

﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾.

وروى الإمام أحمد عن المستورد بن شداد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من ولي لنا عملاً وليس له منزل فليتخذ منزلاً، أو ليس له زوجة فليتزوج، أو ليس له خادم فليتخذ خادماً، أو ليس له دابّة فليتخذ دابة، ومن أصاب شيئاً سوى ذلك فهو غالّ».

وروى الترمذي عن معاذ بن جبل قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، فلـمّـا سرت أرسل في أثري فَرُدِدت، فقال:

«أتدري لِـمَ بعثتُ إليك؟ لا تصيبن شيئاً بغير إذني فإنه غلول﴿ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة﴾ لهذا دعوتك، فامض لعملك».

وروى البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً فذكر الغلول فعظّمه وعظّم أمره، ثم قال:

«لا أُلفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلّغتك. لا ألفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس لها حمحمة فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلّغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلّغتك».

وروى أبو داود بإسناد صحيح عن بريدة عن النبـي ﷺ قال:

«من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول».

وروى مسلم وأبو داود واللفظ له عن عديّ بن عَميرة، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«يا أيها الناس من عمل منكم لنا على عمل فكتمنا منه مخيطاً فما فوقه فهو غالّ يأتي به يوم القيامة».

فقام رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله، اقبل عنّي عملك. قال: «وما ذاك؟» قال: سمعتك تقول: كذا وكذا، قال: «وأنا أقول ذلك، من استعملناه على عمل فليأت بقليله وكثيره، فما أوتي منه أخذه، وما نُهي عنه انتهى».

(ح) الــرشوة:

ومن الغلول الرشوة، بل هي أقبح، لأنها تفسد ضمير ذي السلطان، وتجعله يهضم الحقوق الخاصة والعامة من أجل مصلحة الراشي.

وأقبح الرشوة ما يأخذه القضاة، فبها يعين القاضي الظالم على ظلمه، ويعطيه الحق بسلطة القضاء، وبها قد يبرّىء القاضي الجاني والمجرم.

وبالرّشوة يَفسُد جهاز الدولـة كلُّه، ويغدو ألعـوبة بـأيدي المجـرمين وأصحاب الأهواء والظالمين الذين لهم أموال يبذلونها رشوة لمن بأيديهم السلطان أو شيء منه.

ولذلك لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي والرائش الذي يمشي بينهما.

روى أبو داود وابن ماجه والترمذي بإسناد صحيح عن عبدالله بن عَمْرو قال: لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي.

ورواه الترمذي عن أبـي هريرة أيضاً.

وروى أحمـد والبيهقي في (شعب الإيمان) عن ثـوبـان، قـال: لعن رسول الله ﷺ الرّاشي والمرتشي والرائش.

يعني بالرائش الوسيط الذي يمشي بينهما.

وحين يفسد جهاز الحكم ولا يستطيع صاحب الحقّ أن يصل إلى حقه إلا برشوة يبذلها لذي السلطان فماذا يفعل؟

الظاهر في مثل هذه الحالة التي لا يجد صاحب الحق معها وسيلة أخرى يصل فيها إلى حقه، فإنّ بذله للرشوة ليصل إلى حقه، دون أن يهضم حقّ أحد لا يجعله مشمولاً باللّعن الذي ورد في الحديث والله أعلم. وهي ظلامة يدفعها لإنقاذ حقه من يد ظالم.

ولكنّ الأمة التي تصل إلى مثل هذه الحالة أمة محكوم عليها بالنتائج الوخيمة، وبالهلاك المحقق.

وقد تأخذ الرشوة صورة هدية لذي السلطان، وقد حرمها الرسول ﷺ أيضاً، وأبان أنّ عقوبتها مثل عقوبة الغلول.

روى الإمام أحمد بسنده أنّ النبي ﷺ استعمل رجلاً من الأزد يقال له: ابن اللتبية على الصدقة، فجاء فقال: هذا لكم، وهذا أُهدي لي، فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال: «ما بال العامل نبعثه على عمل فيقول: هذا لكم وهذا أهدي لي!! أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده، لا يأتي أحدكم منها بشيء إلّا جاء به يوم القيامة على رقبته، إن كان بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر» ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطية، ثم قال: «اللهم هل بلغت»؟.

(ط) الغصب والنهب وغير ذلك:

ومن أكل أموال الناس بالباطل ــ وهو حرام وظلم ــ أنواع أخرى من أخذ أموال الناس بدون حقّ مشروع، كالغصب، والنهب والسلب بالقوة، واستيلاء الحكام على أموال الرعيّة ظلماً وعدواناً بسلطان القوة، أو بالقرارات والقوانين الظالمة الآثمة المنافية لمقتضيات الحق والعدل.

ومن أكل أموال الناس بالباطل الغبن الفاحش في البيع والشراء، لأنّ فيه استغلالاً لغفلة الإنسان عن القيمة الحقيقية للسلعة، وتغريراً له حتى يدفع ثمناً باهظاً في سلعة لا تساوي هذا الثمن، وليس في عرف الناس أن يتغابنوا في حدود هذا الفرق الكبير.

* * *

الفصل الثالث

قـــوَّة الإرَادَة

ـ ١ ـ

قوة الإرادة من الأسس العامة للأخلاق

من الأسس العامة التي ترجع إليها مجموعة من الفروع والمفردات الخلقية المحمودة قوة الإرادة.

ويأتي في مقابل هذا الأساس الخلقي خلق ضعف الإرادة، الذي ترجع إليه مجموعة من الرذائل الخلقية في السلوك الإنساني.

إذا كان الإنسان يمثّل مملكة كاملة، فهذه المملكة تشتمل على سلطة تشريعية، وسلطة تنفيذية، وجمهورٍ هو رعيّة، وهيئة وعظ وإرشاد وأمر بمعروف ونهي عن منكر.

أمّا السلطة التشريعية في مملكة الإنسان السويّ فيمثّلها الفكر، إذْ يقوم بوظيفة التنبيه والإرشاد وإصدار الأحكام التوجيهية، وإعطاء قوانين الإدارة والسلوك في هذه المملكة، ويستمدّ الفكر ما يبتّه من أحكام من عدّة مصادر، من الحكمة الفكرية التي فطر الله العقول عليها، ومن الواقع التجريبي، ومن المعارف التي توصّل إليها الناس من قبل، ومن الشرائع الربّانية.

وأمّا السلطة التنفيذية في مملكة الإنسان السويّ فتمثّلها إرادته، وإنّها تملك هذه السلطة متى كانت قوية حازمة عاقلة. أمّا إذا كانت ضعيفة فإنها تتخاذل

وتستكين وتخضع لأهواء الجمهور، أو يستبدّ بها ذو قوة من أفراده، أو يسيّرها شخص آخر ذو إرادة قوية، استطاع أن يفرض سلطانه عليه.

وأمّا الجمهور في مملكة الإنسان فهو جمهور الأهواء والشهوات والغرائز النفسية، ولكل فرد من أفراد هذا الجمهور مطالب عاقلة صالحة، ومطالب رعناء فاسدة مفسدة، ولا يصح في منطق العقل والواقع تلبية مطالب كلّ فردٍ من أفراد هذا الجمهور، لأنّ ذلك يدفع بمملكة الإنسان إلى الفساد والفوضى والخراب. لذلك كان على الإرادة الحازمة العاقلة أن تلبّـي من هذه المطالب ما تأذن السلطة التشريعية بتلبيته، وأن ترفض منها ما لم تأذن السلطة التشريعية به، لما فيه من ضرّ، أو شرّ، أو أذى، أو مخالفة لأوامر الله ونواهيه.

فالمفروض في الإرادة داخل مملكة الإنسان السوي أن تأتيها الأحكام والتعليمات والتوجيهات والقوانين من الفكر، وأن تقوم هي بدور سلطة الأمر التنفيذي.

وعلى مقدار استقامة الإنسان في سلوكه نستطيع قياس مقدار قوّة إرادته.

وعلى مقدار انحراف الإنسان في سلوكه وتخبطه مع أهوائه وشهواته ونزواته وغرائزه نستطيع قياس مقدار ضعف إرادته، وإن وجدناه فيما يتصل بأهوائه وشهواته ومطامعه جادّاً وحازماً، لأنّ أهواءه وشهواته ومطامعه وغرائزه ونزواته هي التي ركبت إرادته، وجعلت تسوقُها إلى تحقيق مطالبها، مسخّرة كلّ طاقاته، ومُنفِقةً كلّ أوقاته في ذلك.

إنّ مطالب الجمهور داخل مملكة الإنسان قد تتوافق، وقد تتعارض، وقد تكون مصلحة الإنسان الكبرى في رفض بعضها، لأنها عمياء رعناء لا حدود لها، ولها عواقب مفسدة وضارّة، وحكمة السلطة التنفيذية وكمال عملها الإداري إنما يكونان بالقدرة على التحكم في الموافقة على تلبية المطالب أو رفضها ضمن حدود المصلحة الكبرى، وضمن حدود الخير، وعلى وفق ما تمليه السلطة التشريعية التي هي بمعزل عن الاتّهام بالسعي وراء مصلحة خاصة ضدّ مصلحة الجمهور، فهي منه وهو منها.

وحين تنبحُ بعضِ الأهواء والشهوات والغرائز الجانحة في داخل مملكة الإنسان، وتلحّ متظاهرةً عليه، فإنّ الإرادة القويّة الحازمة تسكتها بما لا ضرّ فيه ولا أذى مما أذن الله به. فإن استزادت وأرادت التجاوز إلى ما حرّم الله ممّا فيه ضرّ أو أذى أو معصية لله، أسكتتها الإرادة القوية العاقلة الحازمة بالكبح والصد، واتخذت كل الوسائل التربوية الحكيمة لحسم العلّة ومداواة الداء. والإرادة القوية العاقلة الحازمة لا تكون في مثل هذه الحالة مفرطة في ديمقراطيتها تجاه جمهور الأهواء والشهوات والنزوات والغرائز الجاهلة الشرهة الرعناء. وحين يستبدّ الجمهور أو بعض أفراده بتوجيه السلطة التنفيذية فعلى مملكة الإنسان السلام، إذ تعمها الفوضى ويسودها الفساد والخراب، ثم الدمار.

وأمّا هيئة الوعظ والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مملكة الإنسان السوي فيمثّلها الضمير، وواعظ الله في قلب المؤمن.

الضمير مرآة النفس الإنسانية تبثّ للإنسان صور الخير والفضيلة، فتذكّره بها، وتلمس مشاعره الداخلية محرّضة لها على فعل الخير والفضيلة، واجتناب الشرّ والرذيلة، وليس له سلطة تنفيذية، وإنما له قوة التأثير الوجداني، وعنده انشراح الرضا، أو وخزات التلويم والتثريب.

— ٢ —

ضابط قوة الإرادة

إنما تكون الإرادة القوية خلقاً محموداً إذا كانت مقرونة بالعلم والعقل والحكمة في التصرف، وإلاّ كانت سلاحاً خطيراً ضاراً.

فحين تكون الإرادة قوية ومقرونة بالعلم والعقل الدرّاك، تكون تصرفاتها الشخصية والاجتماعية تصرفات حكيمة نافعة.

وحين تكون الإرادة ضعيفة، أو غير مقرونة بالعلم والعقل الدرّاك، فإنّ تصرفاتها الشخصية والاجتماعية تكون في الغالب تصرفات غير حكيمة وغير نافعة.

إنّ الإرادة القوية التي لا تكون مقرونة بالعلم والعقل، تكون مصيبة على صاحبها، ومصيبة على كل من يرتبط به أو يخضع له طائعاً أو مكرهاً. إنّ هذه الإرادة قد تدفع إلى التهلكة وأنواع المصائب، وقد تُحمِّل صاحبها ومن يرتبط به أو يخضع له من التكاليف والمشاق ما لا طاقة لهم به، وقد تدفع بهم إلى المآزق الكبرى الجسدية والنفسية، وترمي بهم في المخاطر.

إنّ من الناس من يتمتعون بإرادة قوية جداً، إلاّ أنهم حمقى، لا يتحلون بعقل حصيف يعقلهم، ويضبط تصرفاتهم بضوابط الحكمة. وهؤلاء نكبة على أنفسهم وعلى مجتمعهم، فإذا اتجه أحدهم للضغط على نفسه عن طريق العبادة مثلاً أهلكها وأشقاها في غير ما شرع الله لعباده، زاعماً أنّ ما يفعله ويشقى به هو من فضائل السلوك التي تقربه إلى الله تعالى، مع أنّ الله غنيّ عن تعذيبه نفسه وجسده، وقد أمر في شريعته باليسر ولم يأمر بالعسر. وإذا قاد أحدهم عصابة وانقادوا له أهلكهم مشقّة وإعناتاً، لأنه بقوة إرادته يحزم عليهم، ويعطيهم مثلاً عمليّاً بقهر النفس والتغلّب عليها، ولكنه بجهله وحماقته ونقص عقله يوردهم موارد التهلكة، وضعف الإرادة في مثل هذه الحالة أهون شرّاً وأخف ضُرّاً.

كم من مربّ قوي الإرادة غير عاقل، يفسد من يشرف على تربيتهم بتصرفاته غير الحكيمة.

وكم من إداري قوي الإرادة غير عاقل، هو فاشل في إدارته مفسد لها، يديرها بالضغط والكراهية، وبالعنت والمشقة ثم تكون قوّة إرادته وبالاً عليه، بعد أن تجر أنواعاً من المصائب عليه وعلى غيره.

وكم من تاجر قوي الإرادة غير عاقل، يغامر بقوة إرادته مغامرات تسرع به إلى حضيض الإفلاس.

وكم من طالب علم نهم لتحصيل المعارف، تجني عليه إرادته القوية غير العاقلة، حتى تخرّب طاقاته الفكرية والجسدية، لأنه بقوة إرادته يبذل كل ما لديه من طاقات معدّة للبذل وطاقات احتياطية، حتى يفرغ آخر نقطة في وعائه، وعندئذٍ يرمي نفسه في العجز والضعف، ويلقي نفسه بيده إلى التهلكة، وتنبيهاً

على ضرورة الأخذ بالعقل والحكمة في هذا المجال، جاء في كلام العرب: «إنّ المنْبتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» وهو مُطرِّف كما جاء في «لسان العرب» لابن منظور.

المنبتّ: هو الذي يحثّ دابته حثّاً شديداً، حتى تعطي كلّ ما لديها من قوة على الجري، وبذلك تهلك وتنقطع في بعض الطريق، فيكون صاحبها منبتاً، أي: منقطعاً في طريقه، فلا هو قطع الأرض التي يريد اجتيازها، ولا هو أبقى دابته التي يعلو ظهرها.

فقوة الإرادة وحدها من غير عقل يضبط تصرفاتها ضمن حدود الحكمة، سلاحٌ خطير قد يكون وبالاً، وسبباً من أسباب الفشل والهلاك. أما إذا اقترنت بالعقل والحكمة في التصرف فإنها عندئذ تكون أساساً خلقياً عظيماً، ينجم عنه فضائل خلقية جليلة.

وضعف الإرادة عند الإنسان مرض خلقي قبيح، ينجم عنه رذائل كثيرة في الأخلاق، وفي كثير من أنواع السلوك، لا سيما إذا قويت عند الإنسان ضعيف الإرادة شهواته وأهواؤه النفسية، ونزغاته الجانحة، أو استولى على مشاعره جانح مجرم خبيث قوي الإرادة، فإنه حينئذ يسخّره في أعمال الشرّ مستحوذاً عليه، ويدفع به إلى الموبقات ورذائل الأخلاق والأفعال، وقبائح السلوك، وقد يدفع به إلى ارتكاب الجرائم الكبرى.

ـ ٣ ـ
المجالات التي تحتاج إلى قوة الإرادة

ويحتاج الإنسان إلى قوة الإرادة ضد كلّ عوامل الانحراف والتثبيط، من داخل نفسه، أو ممّا يأتيه ليؤثر عليه من الخارج.

فيحتاج إلى قوة الإرادة ضدّ أهواء نفسه وشهواتها، ووساوسها، وضدّ كل دوافع نفسه ونوازعها التي قد تميل بها إلى الجنوح، ويدخل في ذلك فتنة المال،

وفتنة الأولاد، وفتنة النساء، وفتنة الجاه، وفتنة الحكم والسلطان، إلى آخر الأمور التي تدخل في زينة الحياة الدنيا.

ويحتاج إلى قوة الإرادة ضدّ ميل نفسه إلى الدعة والراحة، الدافعتين إلى الكسل والفوضى.

ويحتاج إلى قوة الإرادة ضدّ مخاوف نفسه المختلفة، وضدّ ما ينزل به فعلاً من مصائب يجب أن يعالجها بالصبر والسلوان، وضدّ ما يفوته من خيرات كان يرجوها، وضدّ تطلعات أوهام النفس إلى الأماني التي ضاعت مع الماضي، والتي لا يمكن تحققها في المستقبل، أو من المستبعد في مجرى العادات تحققها في المستقبل.

ويحتاج إلى قوة الإرادة ضدّ وساوس شياطين الإنس والجنّ.

أمّا قوة الإرادة ضدّ المخاوف الحاضرة فمظرها الشجاعة وضدّها الجبن، وأمّا قوة الإرادة ضدّ المخاوف التي يحتمل وقوعها في المستقبل فمظهرها التفاؤل، وضده التشاؤم. وإذا زاد التفاؤل عن حدّه المعقول كان مظهراً من مظاهر الطموح الأرعن والطمع الغبي. وإذا نقصَ التشاؤم إلى الحدّ المعقول كان حذراً محموداً.

وأما قوة الإرادة في مواجهة المصائب والآلام فمظهرها الصبر، فإذا مرّ زمانها فمظهرها السلوان والنسيان.

— ٤ —

تفاوت الناس في نسب قوّة الإرادة وضعفها

الناس يتفاوتون تفاوتاً كبيراً وضمن درجات عديدة في مقادير ما لديهم من قوّة أو ضعف في إراداتهم.

وباستطاعتنا أن نضع سلّماً لهذا التفاوت، تصعد الدرجات من منتصفه متسلسلة بحسب تصاعد مقدار قوة الإرادة، وتهبط الدّركات من منتصفه

متسلسلة بحسب تنازل مقدار ضعف الإرادة، وتقترن بالدرجات الصاعدات نسبُ الفضائل الخلقية التي ترتبط بقوّة الإرادة، وتقترن بالدركات النازلات نسبُ الرذائل الخلقية التي ترتبط بضعف الإرادة.

قابلية الإرادة الضعيفة للتقوية:

إنّ الإنسان ضعيف الإرادة يستطيع أن يتخذ مجموعة من الوسائل العلاجية ليقوي بها إرادته، وهي كثيرة، ومن أهمها ما يلي:

١ ــ تقوية عناصر الإيمان بالله، وبصفاته العظيمة، وبقضائه وقدره، وبحكمته العالية، وتقوية ما يقتضيه الإيمان من الثقة بالله، وصدق التوكل عليه، وحسن الظنّ به، فتقوية هذه العناصر تعتبر من الوسائل الجذرية لاكتساب فضيلة قوة الإرادة، فضعف الإرادة يأتي من عدم الثقة بالنفس. والثقةُ بالله مع صدق التوكل عليه وحسن الظنّ به تمنح الإنسان ثقةً بسداد ما يبتّه من أمر متوكّلاً فيه على ربه، وأملاً بمعونة الله في تحقيق النتائج التي يرجوها، فتقوى بذلك إرادته.

٢ ــ التدريب العملي على مقاومة أهواء النفس ومخالفة شهواتها، كلّما ألحّت عليه بمطالبها.

٣ ــ ممارسة أنواع العبادات الإسلامية تعتبر من الوسائل لتقوية الإرادة الإنسانية.

فتأدية عبادة الصلاة بالتزام وانتظام وسيلة تقوّي الإرادة الإنسانية على مخالفة كثير من أهواء النفس.

وتأدية عبادة الصوم بالتزام تام وسيلة أخرى تقوّي الإرادة الإنسانية ضدّ طائفة من أهواء النفس.

وهكذا سائر العبادات.

٤ ــ والتزام طاعة الله في كل ما أمر به وفي كل ما نهى عنه من الوسائل الناجعة في تقوية الإرادة.

٥ ـ الأناة في البتّ، ثم المضي في العمل دون تردّد متى وضح سداد الاتجاه أو ظهر رجحانه، وعندئذ ينبغي صرف الخواطر المعوّقة والمثبطة، إلاّ أن يظهر يقين يكشف جانب الحق، عندئذ يكون الرجوع إلى الحق مظهراً من مظاهر قوة الإرادة، ويكون التمادي في الخطأ عناداً مذموماً، واتباعاً لهوى من أهواء النفس، وذلك من ضعف الإرادة، أو من الرعونة والحماقة.

ـ ٥ ـ

قوة الإرادة في مفاهيم النصوص الإسلامية

ما نعنيه من قوة الإرادة لم يأت التعبير عنه بهذا اللفظ في النصوص القرآنية.

ولكن جاء في القرآن ألفاظ ثلاثة ومشتقاتها، تشتمل في مجموع دلالاتها بحسب مواقعها من النصوص على ما نعنيه من (قوّة الإرادة) وهذه الألفاظ هي: (الإرادة ـ العقل ـ العزم).

وهذه الألفاظ الثلاثة تواردت في القرآن للدلالة على مستويات ثلاثة للإرادة:

(أ) مستوى أدنى، وقد استعمل للدلالة عليه مطلق لفظ الإرادة ومشتقاتها.

(ب) مستوى متوسط، وقد استعمل للدلالة عليه مشتقات لفظ العقل.

(ج) مستوى أعلى، وقد استعمل للدلالة عليه لفظ العزم ومشتقاته.

* أمّا المستوى الأدنى الذي استعمل للدلالة عليه مطلق لفظ الإرادة ومشتقاتها، فمن شواهده قول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾.

فالإرادة في هذا النص مستعملة للدلالة على المستوى الأدنى، وهو مطلق الاتجاه المرجّح، ولذلك لم تكن كافية لنيْل مجد الآخرة حتى اقترن بها السعي المطلوب «ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها».

أمّا إرادة العاجلة فقد اقترن بها هوى النفس إليها الموجود في فطر الناس، وتأكّدت بالتكرار والتجدد الذي دلّ عليه الفعل المضارع (يريد) وهذا كافٍ للانصراف عن الآخرة، والسعي لزينة الحياة الدنيا ومتعها.

ومن شواهده قول الله تعالى في شأن المنافقين الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك في سورة (التوبة: ٩):

﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: فلو أرادوا الخروج مع الرسول إلى غزوة تبوك إرادةً ما ولو كانت ضعيفة، لأعدّوا له عدّةً ما، ولو كانت عُدّة ضعيفة[١]، لتدلّ على أنّهم قد وُجد عندهم أدنى مستوى من إرادة صادقة، ولكن هذا المستوى الأدنى غير موجود لديهم.

* وأمّا المستوى المتوسط الذي استعمل للدلالة عليه مشتقات لفظ العقل، فهو مستوىً من الإرادة الجازمة الحازمة الكافية لعقل الإنسان وحجزه عن الاندفاع وراء أهوائه وشهواته، والانزلاق إلى مواطن هلكته العاجلة أو الآجلة.

وقد تكرّر في القرآن الكريم استعمال مشتقات لفظ العقل للدلالة على هذا المستوى، كما سبق بيانه في الباب الأول من الكتاب.

فالمراد من العقل في هذه الاستعمالات القرآنية الطاقة الإرادية الجازمة

---

(١) هذا المعنى مأخوذ من التنكير في (عدةً) من قوله تعالى: ﴿لأعدوا له عدّة﴾.

الحازمة، المستندة إلى معرفة الأمور، القادرة على عقل النفس عن مزالق أهوائها وشهواتها.

فالعقل في هذه الاستعمالات غير مطلق الذكاء، إذ الذكاء طاقة فكرية يستطاع بها معرفة الأمور على حقيقتها، سواء اقترن به عقل النفس عن مزالق أهوائها وشهواتها أو لم يقترن. وكم من ذكيّ حادّ الذكاء ولكن لا عقل له، فهو يعرف الشرّ حقّ المعرفة، ولكنه لا يستطيع عقل نفسه عنه، لأنّ أهواءه وشهواته مندفعة إليه، ويعرف الخير حقّ المعرفة، ولكنّه لا يستطيع عقل نفسه وسوقها للقيام به، لأن أهواءه وشهواته تغلبه فتصرفه عن فعله.

وحينما نقرأ في القرآن مثل قول الله تعالى: (لعلكم تعقلون) ـ (أفلا تعقلون) ـ (أفلم تكونوا تعقلون) ـ (إن كنتم تعقلون) ـ فالمراد منه غالباً المعرفة المقترنة بإرادة جازمة حازمة كافية لعقل الإنسان عن اتباع أهوائه وشهواته التي لا خير له من اتباعها.

ولذلك خاطب الله علماء بني إسرائيل بقوله في سورة (البقرة ٢):

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟! ﴿٤٤﴾ ﴾.

لقد خاطبهم الله بقوله: ﴿أفلا تعقلون؟﴾ مع أنهم علماء، لا ينقصهم ذكاء يعرفون به حقائق الأمور، ولكنّهم لا عقل لهم يعقلهم ويحبس نفوسهم ويردّها عن اتباع هواها.

والعاقل في اللّغة: هو الذي يحبس نفسه ويردّها عن هواها.

* وأمّا المستوى الأعلى الذي استعمل للدلالة عليه لفظ العزم ومشتقاته، فهو مستوى رفيع ممتاز من الإرادة الفعّالة الجازمة الحازمة، التي تواجه العقبات الكؤود بالثبات والصمود، وهذا المستوى من شأنه أن ينهض بالإنسان إلى معالي الأمور، ويوصله إلى مراتب الصابرين المحسنين المجاهدين، وأن يجعله في تنفيذ ما يريد من أهل العزم.

ولذلك جعل الله الصبر مع التقوى، وجعل الصبر مع المغفرة لمن أساء، من عزم الأمور، أي: من الأمور التي تتطلّب عزماً، أي: إرادة جادة قوية، قادرة على متابعة الأمور الشديدة الصعبة على النفوس بالتنفيذ.

والعزم في اللغة الجدّ، وعزم الرجل على الأمر يعزِم عزماً أراد فعله، وعقد عليه قلبه.

قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

وأوصى لقمان الحكيم ابنه بأن يقيم الصلاة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويصبر على ما أصابه، وأبان له أن ذلك من عزم الأمور، قال الله تعالى في سورة (لقمان ٣١) حكاية لوصاياه:

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾.

ولـمّا كانت إرادات الرسول صلوات الله عليه فيما يتعلق بشؤون المسلمين العامّة من مستوى العزم قال الله له: ﴿فإذا عزمت فتوكّلْ على الله﴾ نجد ذلك في قوله تعالى لرسوله في سورة (آل عمران ٣):

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

أي: فإذا وصلت إرادتك إلى مستوى العزم على الأمر، فنفذه متوكّلاً على الله.

وأولو العزم من الرسل هم الذين كانت لهم إرادات تنفيذية من المستوى الرفيع، لذلك كانوا في غاية الصبر على ما أصابهم في سبيل الله، فلم يضعفوا عن جهادهم ودعوتهم إلى الله، وواجهوا المهمّات الثقال بعزم ودأب ومتابعة وجلد وصبر عظيم، وقد أمر الله رسوله محمداً بأن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، فقال له في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ . . . ﴿٣٥﴾﴾.

وذكر المفسرون أنّ أولي العزم من الرسل هم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم.

ولـمّا كانت إرادة التكليف في الفرائض جازمة سميت عزائم، عن عبدالله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «إنّ الله يحب أن تؤتى رخصُه كما يحبّ أن تؤتى عزائمه». قال أبو منصور: عزائمه: فرائضه التي أوجبها الله وأمرنا بها. من لسان العرب مادة (عزم).

وأبان الرسول ﷺ أنّ المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، والمراد من ذلك قوة إرادته، وحزمه في الأمور، وعزمه على القيام بجلائل الأعمال، روى مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن القوي خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلّ خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدّر الله، وما شاء الله فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان».

وعرّف الرسول ﷺ الكيِّس العاقل ذا الإرادة القوية بأنه الذي يحاسب نفسه، ويعمل ببصيرة لما بعد الموت، وعرّف العاجز ضعيف الإرادة بأنه الذي يتبع نفسه هواها، ويتمنى على الله الأماني.

عن أبي يَعْلَى شدّاد بن أوس أنّ النبي ﷺ قال:

«الكيّس من دانَ نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجزُ من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله». (رواه الترمذي، وقال: حديث حسن)

الكَيْسُ والكياسة في اللّغة بمعنى العقل والفطنة، وبمعنى الخفّة والتوقد وعلوّ الهمّة.

فالكيِّس على المعنى الأوّل هو الفطن العاقل، والعاقل هو الذي يستطيع ضبط نفسه، بما يتمتّع به من خلُق قوّة الإرادة المقترنة بالبصر في الأمور وتقديرها حقّ قدرها، فالكيِّس على هذا هو من يتمتع بهذا الخلق الذي هو أصل من أصول فضائل الأخلاق.

والكيّس على المعنى الثاني هو عالي الهمة، وعلوّ الهمة أصل من أصول فضائل الأخلاق.

وكلا المعنيين يفهمان من الحديث، ففي الحديث توجيه لمرتبة الكياسة، وتنفير من مهانة العجز وضعف الإرادة واتباع الهوى، وفيه بيان للعناصر التي تجعل الإنسان كيّساً، وللعناصر التي تجعل الإنسان عاجزاً.

الكيّس كما عرّفه الرسول ﷺ هو من جمع وصفين، فهو من دَانَ نفسه، وعمل لما بعد الموت.

ومعنى (من دانَ نفسه) أي من حاسب نفسه على أعمالها قبل أن يأتي يوم الحساب، وإنما يفعل هذا الإنسان العاقل الذي يتبصّر الواقع بإمعان، ويدبّر أمر نفسه بحكمة، فيدرأ عنها الآلام والمخاطر المرتقبة، ويسعى في اغتنام الخير العاجل والآجل حيث وجده أو وجد أسبابه، وهذا هو الوصف الأول للكيّس.

أمّا الوصف الثاني فهو أن يعمل لما بعد الموت، أي أن يكون عالي الهمة، يبذل العمل العاجل لتحصيل الخير العظيم الآجل.

ففي تعريف الرسول ﷺ للكيّس نجد معنى العقل المقترن بقوّة الإرادة، ونجد معنى علوّ الهمّة.

وبعد هذا قابل الرسول ﷺ الكيّس بالعاجز، والعاجز هو من كان ضعيف الإرادة تغلبه أهواء نفسه، وهو من كان نازل الهمّة يتعلق بمحقرات الأمور ودناياها، فيعمل للحصول عليها، وينظر ببرودٍ نفسيٍّ إلى معالي الأمور

وعظائمها، فلا يعطيها من نفسه إلاّ الأماني، أمّا الأعمال فهي عنده لمحقرات الأمور ودناياها، وهذا من نزول همته.

بما سبق نستخلص أن هذا الحديث يتضمن التوجيه لأصلين رئيسيّين من الأصول العامة للأخلاق:

الأول: قوة الإرادة المقترنة بالبصر بالأمور وتقديرها حقّ قدرها.

الثاني: علوّ الهمّة التي ينظر الإنسان بها إلى معالي الأمور، ويبذل في سبيلها ما يستطيع من عمل، ولا يكتفي بالتمني والأمل.

ـ ٦ ـ
كبح جماح الأهواء والشهوات وعدم التأثر بضغط الجماهير الضالة والقادة المضلين ووساوس الشياطين

ومن أبرز ظواهر قوة الإرادة قدرة الإنسان على كبح جماح أهواء نفسه التي بين جنبيه، وقدرته على ضبط شهواته وحجزها عن الجنوح، ورفضه وساوس شياطين الإنس والجنّ، مهما بلغت إغراءاتها وزخارفها، وعدم تأثره بضغط الجماهير الضالة والقادة المضلين.

ومن أبرز ظواهر ضعف الإرادة تخاذل الإنسان واستخذاؤه أمام أهواء نفسه وشهواتها واتباعه خطوات الشيطان، وتأثره بوساوس شياطين الإنس والجن، وتأثره بضغط الجماهير الضالة، والقادة المضلين.

في هذا المجال الخطير تظهر الشخصية الإنسانية، ويظهر ما لديها من قوّة أو ضعف في الإرادة.

ولذلك كان من خطة الإسلام التربوية العمل على تقوية إرادة الإنسان، حتى يتغلب على أهوائه التي لا خير فيها، ويكبح جماح شهواته الجانحة عن سبيل الخير والهدى، ويرفض بإصرار وحزم كل وساوس الشياطين وتسويلاتهم،

وينتصر بعزمه على كلّ إغراءاتهم، وحتى تكون إرادته هي صاحبة السلطة التنفيذية الفعالة في كيانه، بعد أن تهتدي بهدي السلطة التشريعية فيه، وبذلك يرتقي الإنسان إلى مرتبة الكرامة التي كرّمه الله بها﴿قد أفلح من زكاها﴾وإلاّ ارتدّ إلى أسفل سافلين﴿وقد خاب من دسّاها﴾.

وهكذا تهدف خطة الإسلام التربوية إلى رفع الإنسان إلى علّيّين، في كل جانب من جوانبه الفكرية والنفسية والروحية والخلقية. أما الشياطين فيهدفون إلى جرّ هذا الإنسان إلى أسفل سافلين، في كلّ جانب من جوانبه أيضاً.

وإنّ أعظم انتصار تنتصره الإرادة الإنسانية، هو انتصارها على أهواء النفس وشهواتها ووساوس الشيطان الذي يجري من ابن آدم مجرى الدمّ.

والنصوص التي تشتمل على الخطّة التربوية الإسلامية لرفع الإنسان إلى مرتبة الكرامة التي كرّمه الله بها في أصل التكوين، وإلى الصعود به إلى عليين، كثيرة، وفيما يلي تدبّر لطائفة منها:

* أوّلاً: ففي تربية الإرادة حتى تتغلّب على أهواء النفس يقول الله تعالى في سورة (النازعات ٧٩):

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾.

هذا النصّ يبيّن لنا أنّ للإنسان قوّة قادرة على أن تحكم فتأمر وتنهى، وقوة أخرى اندفاعية ذات أهواء تتجه نحوها بعوامل نفسية، فإذا أهملت هذه القوى الرعناء، وتُركت تندفع وفق الأهواء، طغت وسيطرت على كيان الإنسان، مُـؤْثِرةً الحياة الدنيا على الآخرة، وعندئذٍ يهوي الإنسان إلى الحضيض، وعندئذٍ لا بدّ أن يكون مصيره إلى جهنم، فهي جزاؤه، وهي مأواه.

أمّا إذا تمكّن بقوّة إرادته من نفسه وما فيها من قوى رعناء، ونهى النفس عن الهوى، فإنه يرقى بنفسه، ويذهب بها صاعداً إلى العلاء، حتى يصل إلى

منزلة الكرامة الإنسانية التي كرم الله بها بني آدم، وعندئذٍ يستحقّ جنّة الخلد، فهي جزاؤه، وهي مأواه.

فقوة الإرادة المقترنة بالعقل والحكمة، والمهتدية بهدي الإسلام، وسيلة موصلة إلى جنة الخلد، ومقام التكريم العظيم لهذا الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿ونهى النفس عن الهوى﴾ يشعر بأن الأصل في الهوى أن يكون قوّة في النفس تجنح بها عن طريق الهدى إذا ترك وشأنه من غير ضبط وتوجيه، وكبح ومدّ، ومسايرة وردّ.

والواقع يثبت أنّ مثل الهوى كمثل الحصان الجموح، إذا سار على طريق الهدى مدَدنا له العنان، وإذا مال إلى جانب الانحراف رددناه وشددنا عليه اللجام، فهو يحتاج إلى قائد يقوده حتى لا يجنح، وإشارة إلى هذه الحقيقة جاء في كلام الرسول ﷺ قوله: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» فجعل الرسول صلوات الله عليه الهوى قابلاً لأن يُطوَّع، فيكون تبعاً لما جاء في الإسلام من حقٍّ وهداية.

ولذلك جاء في القرآن الهوى المذموم مقيداً بأن يكون بغير هدى من الله. قال الله تعالى في سورة (القصص ٢٨):

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

فهذه الآية تدلّ على أنّه ليس كلّ من اتبع هواه ضالاً، ولكنّ الضالّ الذي ليس فوقه أضلّ منه هو من اتّبع هواه بغير هدى من الله. أمّا من كان هواه موافقاً لما أنزل الله من هدى، وتبعاً لما جاء به رسول الله من علم، فذلك لا ضير عليه من هواه، بل هواه يساعده على فعل الخير، ويدفعه إليه. إنّ من أهل الخير من يكون هواه في فعل الخير، ومن أهل الجود من يكون هواه في أن يجود، ومن أهل العبادة من يكون هواه في أن يعبد ربه، ومن أهل العلم من يكون هواه طلب العلم والاستزادة من المعرفة. فهذه الأهواء النفسية الكريمة مصاحبة لهدى

من الله، ولذلك لا نعتبرها أهواءً مذمومة، ما لم تتجاوز الحدود النافعة، فتمسي منطلقة على غير هدى من الله، وهي حينئذٍ تجنح أو تجمح إلى مواطن الفساد والإفساد، وتكون أهواءً مذمومة قبيحة.

ولكنْ قليل من الناس من تكون أهواؤهم سليمة من الجموح والجنوح إلى مواطن الفساد والإفساد، ومن قلتهم لا يكادون يوجدون، ولئن كانت بعض أهوائهم على هدى من الله فأكثر أهوائهم جانحة عن سبيل الهداية.

ولـمّـا كان إرضاء الهوى منزلقاً خطيراً، نهى الله داود عليه السلام عن اتباع الهوى في حكمه بين الناس، خشية أن يضلّه الهوى عن سبيل الله، قال الله تعالى في سورة (ص ٣٨):

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

فالأسلم للإنسان أن يضع الهوى جانباً دون أن يلاحظ إرضاءه أو اتباعه، وعليه أن يتبع الحقّ والهدى، سواء وافق هواه أو خالفه. فإن وافق الحق والهدى هواه كان هواه مساعداً له وَمؤازراً ومنشطاً، وإن خالف الحق والهدى هواه تدخلت الإرادة الحازمة بقوّتها وسلطانها فنفّذت ما يقتضيه الحقّ والهدى، منتصرة على الأهواء وإن تمرّدت.

ولذلك أيضاً حذّر القرآن الكريم من اتباع الهوى، ونبّه على أنّ من عوامل ضلال الضالّين وظلم الظالمين اتباعهم أهـواءهم أو أهواء قـادتهم وكبرائهم، فمن ذلك قول الله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ . . . ﴿٢٩﴾ ﴾.

فكونهم اتبعوا أهواءهم على عمى وجهالة من غير تبصّر بالعواقب؛ هو الذي جعلهم ينزلقون إلى مواطن الظلم والكفر بالله، ولو أنهم كانوا على

حذر من أهوائهم وبصر بعواقب أمورهم لشدوا لجام أهوائهم، واستقاموا على سبيل الهدى.

ومن ذلك قول الله تعالى لرسوله في سورة (القصص ٢٨):

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

فبيّن الله في هذا النص أنّ سبب عدم استجابة الكافرين للرسول صلوات الله عليه يتلخص بأنهم يتبعون أهواءهم على غير هدى من الله.

ونظيره قول الله تعالى في سورة (القمر ٥٤):

﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ ﴾.

فمشركو العرب إذ كذّبوا بما جاء به الرسول ﷺ، رغم الآيات البينات التي كانت براهين صدق رسالته ـ ومنها آية انشقاق القمر ـ قد كان سببُ تكذيبهم أنّهم اتبعوا أهواءهم.

والذين يتبعون أهواءهم على درجات:

(أ) فمنهم من لم تنطمس بصيرته، فهو يعلم الحقّ حقًّا والباطل باطلاً، ولكنه ينحرف تحت تأثير أهوائه الجانحة عن سبيل الهدى، بنسب تختلف باختلاف تسلط أهوائه عليه.

(ب) ومنهم من انطمست بصيرته بشكل كلّي أو جزئي، وهذا الفريق قد وصل إلى مستوى الطبع على قلبه، إذ أعماه هواه، فزين له سوء عمله، وفي هذا الفريق يقول الله تعالى في سورة (محمد ٤٧):

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾ ﴾.

أي: لا يستوي الفريقان: فريق هو على بيّنة من ربّه وفريق انطمست

بصيرته باتباعه أهواءه، حتى زُيّن له سوء عمله، فهو غير مستعدٌّ نفسيًّا لرؤية الحقّ، ومعرفة جماله وكماله.

ويقول الله لرسوله في شأن المنافقين في سورة (محمد ٤٧):

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾.

فهذا فريق من الناس منافق، مطبوع على قلبه باتباعه هواه، فإذا كان في مجلس من مجالس العلم الربّاني، أو في مجلس موعظة حسنة، لم يعِ شيئاً، ولم يدخل إلى قلبه من الموعظة ولا من العلم شيء، لقد أصمّه الهوى وأعماه، فهو منطمس البصيرة لا يفقه شيئاً من الحق، والهدى.

ومتى انطمست بصيرة الإنسان باتباعه أهواءَه كان من الذين قال الله فيهم في سورة (البقرة ٢):

﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾.

ومتى وصل الإنسان إلى هذا المستوى من سلطان الهوى عليه فقد اتخذ إلٰهه هواه، فهو لا يسمع ولا يرى ولا يعقل شيئاً مما يخالف ما يمليه عليه الهوى، وطبيعي بعد ذلك أن يكون أبكم عن مقالة الحق.

ومتى اتخذ الإنسان إلٰهه هواه كان هواه هو الآمر الناهي له، وهو الموجّه لسلوكه، قال الله تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

أي: فالذي يتخذ إلٰهه هواه يعميه هواه ويصمّه فهو لا يسمع ما يُلقى إليه من خير وهداية.

وقال الله تعالى في سورة (الجاثية ٤٥):

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

فهذا الذي اتخذ إلهه هواه قد أثبت الله ضلاله على علم به، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة وفق سننه الثابتة المهيمنة على المقدمات ونتائجها، والأسباب ومسبّباتها، فهل توجد سلطة أخرى تستطيع إثبات الهداية له بعد أن أثبت الله ضلاله وحكم عليه به؟؟!! الجواب: لا.

فالهوى متى نما سلطانه، وهيمن على إرادة الإنسان، كان متّخذاً لدى الإرادة بمثابة الإله، ومتى وصل الهوى إلى هذا المستوى من التسلّط؛ أعمى وأصَمّ، وأبكم، وحجب العقل السليم الذي يعقل صاحبه عن مزالق الشرّ.

* ثانياً ــ وفي تربية الإرادة حتى تتغلّب على تخاذل النفس تُجاه الكثرة الضالة من الجماهير، وتُجاه القادة المضلّين من ذوي النفوذ أو الجاه أو السلطان، حذّر القرآن الكريم من الطاعة العمياء للجماهير الضالة، ومن اتخاذ القادة الضالين المضلّين أولياء، ووجّه إلى الاعتماد على البصيرة في كلّ اتباع.

من الملاحظ في المجتمع الإنساني أنه ذو قوّتين قياديتين:

القوة الأولى: هي قوة الكثرة الملتزمة طريقة معيّنة، أو تقليداً ما، أو أسلوباً خاصاً في السلوك، أو فكرة ما، أو عقيدة ما، ويندمج في هذه الكثرة من الناس أتباعٌ تقليديون، ليس لهم إرادة خاصة، وإنما هم يسيرون كما يسير الناس بلا رأي ولا محاكمة للأمور.

القوة الثانية: هي قوة نابغين قياديين، يبرزون في المجتمع، فيكون لهم أتباع يحتلّون من نفوسهم مكان الثقة التامّة، فيفقد بذلك هؤلاء الأتباع إراداتهم الخاصة، ويمسون في إراداتهم تابعين لا مستقلين، فيسيرون وفق إرادات قادتهم بلا رأي خاص ولا محاكمة للأمور.

وأمام هاتين القوّتين اللتين تسلُبان إرادات كثير من الأتباع، يقف الإسلام فيبصر كلّ فرد بمَسؤوليته الشخصية، ويبيّن له أنه لا يعفيه منها أن يكون تابعاً

للكثرة، أو تابعاً للقادة على غير هدى من الله، فإذا رأى الكثرة من الناس يتبعون الهوى فعليه أن يستقلّ بطريقة يتبع فيها الحقّ والهدى، وإذا رأى قائده يتبع أهواء نفسه منحرفاً عن سواء السبيل فعليه أن لا يتبعه، بل يستقلّ عنه بطريقة يتبع فيها الحق والهدى.

ففي معالجة مؤثرات الكثرة الجماعية المنحرفة عن سبيل الحقّ والهدى، يخاطب الله تبارك وتعالى أهل الكتاب بقوله في سورة (المائدة ٥):

﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾.

فيضع الله تبارك وتعالى كلّ فرد من أهل الكتاب في هذه الآية رهن مسؤوليته الشخصية، إذ ينهاه ضمن النهي العام عن اتباع أهواء قوم قد ضلوا من قبل، وأضلّوا كثيراً، وذلك لأنه باتباعه القوم الذين اتبعوا أهواءهم إنّما يتبع أهواء أولئك القوم.

أفيليق بالإنسان السوي العاقل أن يكون إمَّعة تُسيّره إلى هلاكه أهواء الآخرين.

ويتحدّث القرآن عن طبيعة مسيرة الجماهير، فيبيّن أن طاعة أكثر من في الأرض تُضلّ عن سبيل الله، وذلك لأنّ الجماهير إنما تتبع في مسيرتها الظنون الضعيفة، والأكاذيب التي تنتشر فيما بينها، لذلك فهي في الغالب تكون على غير هدى ومن ثمّ تكون طاعتها سبباً في الضلال.

والسبب في ذلك أنه في ضمن الجماهير الغوغائية العامة تضعف إرادة كل فرد من أفرادها، وتقل عنده القدرة على محاكمة الأمور محاكمة منطقية عاقلة، اعتماداً على رأي الكثرة، واتكالاً عليه، ويدور هذا الضعف على كلّ فرد، بسبب تناقص الشعور بالمسؤولية الشخصية، وعندئذٍ تستطيع أن تسود هذه الجماهير فكرة باطلة، مغلفة بعاطفة من العواطف، وتندفع الجماهير منادية بهذه الفكرة الباطلة بغوغائية عمياء رعناء. وكثيراً ما يستغلّ هذا الضعف الجماهيري

فرد ذو هوىً خاصّ، أو عصابة ذات هوى خاص، فتدعم بمكر عظيم هذه الفكرة الباطلة بوسائل دعائية شتى، لتستغل الجماهير وتسخّرها في تحقيق أهواء أنفسها.

قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

والمراد من الظنّ: الظن الضعيف الذي لا دليل يرجحه، لوضعه في الآية مع الخرص موضع المساواة، والخرص: هو الحدس والتخمين، وهو أضعف الظنون التي لا يجوز الاعتماد عليها، وقد يطلق الخرص على الكذب، فهو ادّعاء باطل تماماً.

والرأي الجماهيري الغوغائي كثيراً ما يصل إلى هذا المستوى من ضعف المحاكمة، وإلقاء مسؤولية البحث والتفكير على الآخرين، وعندئذ لا يبقى في الجماعة مفكر مستقلّ، إلّا صاحب هوى يريد أن يستغلّ قوّة الجماهير لهواه، وبهذا يظهر لنا مبلغ دقّة الإعراب عن هذه الحقيقة في قول الله تعالى: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلّوك عن سبيل الله﴾.

وبعد آيتين من سورة (الأنعام) نفسها يبيّن الله تبارك وتعالى عمل المعتدين، الذين يتبعون أهواءهم فيتلاعبون بأفكار الجماهير، ويضلونهم بغير علم، ويستغلون ما في الجماهير من غوغائية وضعف في المحاكمة، فيقول الله تعالى:

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

أي: وإنّ كثيراً من الناس ليُضلون آخرين بأهوائهم بغير علم، ظلماً وعدواناًواستغلالاً لضعف إرادتهم، ولكنّ الله سيعاقبهم على عدوانهم، إنّ ربّك أعلم بالمعتدين.

فالمكايد الشيطانية تستغل ما في الجماهير من ضعف إرادة وغوغائية وقلة محاكمة للأمور، فتسوقها إلى الضلالات. والجماهير الجاهلة فاقدة البصيرة فاقدة الإرادة تسير سير القطعان دون أن تشعر إلى أين المسير، وكيف يكون المصير.

خطورة مداراة أهواء الناس على حساب المبادىء:

من الناس من يداري أهواء الجماهير، أو أهواء القادة وأصحاب المكانة الاجتماعية، على حساب دينه، أو على حساب الحق، ليجلبهم بزعمه إلى طريق الهداية، وهي خديعة شيطانية.

قد تكون المداراة سياسة حكيمة وعملاً نافعاً، ولكن بشرط أن لا تكون على حساب العقيدة الحقة، أو على حساب الدين، أو على حساب الحق، فإن كانت على حساب شيء من ذلك ــ إذ تتضمن تنازلات في المبادىء أو مساومات على الحق ــ كانت ضلالة وانحرافاً موجباً لسخط الله.

ولذلك حذّر الله رسوله صلوات الله عليه من كلّ مداراة على حساب الحق، أو مساومات في قضايا الدين، مبادئه وأحكامه، وتعاليمه وشرائعه، فمن ذلك قوله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

ففي هذه الآية إعلان الرفض التامّ لأية مساومة تتصل بالعقيدة وأصول الدين، فقبول المساومة في هذا المجال ضلال بيّن، وخروج عن دائرة الهداية﴿قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين﴾.

وقول الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

فالتحذير في هذا النصّ تحذير من اتباع أهواء الناس، ومن مداراتهم في موضوع الحكم بغير ما أنزل الله، فأهواء الناس تتجه في أكثر الأحوال إلى معاصي الله ﴿وإنّ كثيراً من الناس لفاسقون﴾.

ولشدّة خطورة الانزلاق مع أهواء الناس فيما يتعلّق بأمور الدين، بلغ تحذير الله لرسوله من اتباع أهواء القوم في تدرّج النصوص إلى مستوى التهديد، والغرض تعريف الرسول ﷺ بخطورة الأمر، وتهديد كلّ من تحدّثه نفسه بمثل ذلك من المسلمين.

* ففي المرحلة المكّية أنزل الله على رسوله قوله في سورة (الشورى ٤٢):

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۚ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾.

ثم أنزل عليه قوله في سورة (الجاثية ٤٥):

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٢٠﴾.

وهكذا نلاحظ أن النصّ الأول جاء نهياً مجرّداً عن اتباع أهوائهم، فقال الله له: ﴿ولا تتبع أهواءهم﴾.

أمّا النص الثاني فقد جاء مُعللاً من جهة، وفيه تلويح بتهديد ضمني، فقال الله تعالى: ﴿ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾ فوصفهم بأنهم لا يعلمون، وهذا بمثابة التعليل للنهي عن اتباع أهوائهم، لأنّ الذي لا يعلم يتورط متبعاً هواه في أمور تقذف به إلى المهالك. وبعد هذا التعليل لوّح الله بالتهديد، فقال تعالى: ﴿إنّهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً﴾.

* وفي المرحلة المدنية أنزل الله على رسوله تحذيراً مقروناً بتهديد صريح، فقال له في سورة (البقرة ٢):

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾.

وقال له فيها أيضاً:

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

ثم أنزل الله عليه قوله في سورة (الرعد ١٣):

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

وهكذا جاء هذا التحذير المقرون بالتهديد في مناسبات مختلفات، تتعلق بأمور العقيدة والشريعة في شتّى أحكامها وتعاليمها، لأن من المعروف في كلّ زمان أنّ من شأن أصحاب الأهواء محاولة التلاعب بشرائع الله حسب أهوائهم، فإذا أطاعهم في ذلك أو تلاين معهم في ذلك دعاة الحق وحَمَلة شرائع الله ضلّوا وأضلّوا، وفسدت مفاهيم الحق ومفاهيم الدين، واختلطت الأمور، وضاع الخير في خضم الشرور، وصار الشرّ في مفاهيم الناس خيراً، وفسد الكون ومن فيه، وهذا ما بينه الله بقوله في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾.

ومن الواضح أن من أعظم الأسباب التي حرّفت الشرائع الأولى وأفسدت أحكامها؛ تدخّل أصحاب الأهواء فيها، من ذوي سلطان ديني أو سلطان

مدني، وشواهد هذا في الواقع التاريخي كثيرة، وأدلته في النصوص الإسلامية متعددة، منها قول الله تعالى في شأن اليهود في سورة (النساء ٤):

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ . . . ﴿٤٦﴾﴾.

وقوله تعالى في شأنهم أيضاً في سورة (المائدة ٥):

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ . . . ﴿١٣﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

فهذه التحريفات التي كانوا يحرّفونها في كلام الله قد كانت بدافعٍ من أهواء نفوسهم، أو أهواء ذوي السلطان فيهم.

وهكذا حمّل الإسلام كلّ إنسان تكاملت فيه شروط التكليف مسؤوليته كاملة، وعمل على تقوية إرادته، لئلا يستخذي أمام أهواء نفسه، أو أمام أهواء ذوي الأهواء مهما كانوا، ولئلا يستدرجه الظالمون من ذوي الأهواء إلى مواقع الشرّ والفساد ومعصية الله.

وفي تربية الإرادة حتى تتغلّب على تخاذل النفس تجاه القادة المضلين من ذوي الجاه أو السلطان، حذّر الإسلام من الطاعة الآثمة لأصحاب الزعامات الكافرة الفاجرة الظالمة.

وأبان القرآن أنّ ضعف إرادة الجماهير هو السبب في تخاذلها واستخذائها، وطاعتها لذوي السلطان والأكابر المجرمين؛ ففي قصة فرعون وقومه يبيّن الله لنا أنّ سبب طاعتهم له هو تسلّطه على إراداتهم باستخفافه لهم، أي: لم يجد لهم وزناً من إراداتهم العاقلة يثقل كيانهم، فتسلط عليهم بقوته الآثمة المنحرفة عن

سبيل الهدى فأطاعوه، واتبعوه في ضلالاته، وكانوا أجهزة مسخرة لأهوائه وشهواته، قال الله تعالى في سورة (الزخرف **٤٣**):

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

إنّ فرعون قد زخرف لقومه الكلام ليصدّهم عن التأثر برسول الله موسى عليه السلام، وأضاف إلى زخرف القول الذي ليس له وزن علمي ولا منطقي شيئاً من إرضاء أهواء قومه الفاسقين، فوجد قومه لا وزن لهم من جهة العقل، ولا وزن لهم من جهة الإرادة، فأمرهم بطاعته في كلّ شيء، فأطاعوه.

وإنهم في طاعتهم له يتحمّلون مسؤوليتهم كاملة، ولا يعفيهم منها أنهم كانوا أتباعاً لساداتهم وكبرائهم، وسوف تُقلَّب وجوههم في العذاب يوم القيامة، ويندمون على ما فرّطوا في جنب الله، يقولون يومئذ: يا ليتنا أطعنا الله، وأطعنا الرسول، ويومئذٍ يتبين لهم أنّ طاعتهم لسادتهم وكبرائهم قد كانت سبب شقائهم.

وفي شأن الأتباع الذين ضلّوا بسبب طاعتهم لسادتهم وكبرائهم من قادة الضلال في الأرض، يقول الله تعالى في سورة (الأحزاب **٣٣**):

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾.

ومن هذا النص يتبين لنا أن الطاعة تكون على قسمين:

القسم الأول: الطاعة العاقلة البصيرة، وهي الطاعة التي تكون في الحقّ،

ولذلك تجب طاعة الله وطاعة رسوله، لأنهما لا تكونان إلاّ في الحقّ، ثم طاعة كلّ من أمر الله بطاعته، ما لم يأمر بمعصية الله. فطاعة الله في مرتبة القمة، فيجب مراعاتها قبل كل شيء، وطاعة الرسول من طاعة الله لأنه يبلغ أوامر ربّه وقد أمرنا الله بطاعته، ثم بعد ذلك تأتي طاعة من سواهما ممن أمر الله بطاعته فيما لا معصية لله فيه.

القسم الثاني: الطاعة الجاهلة العمياء، وهذه الطاعة تجرّ إلى السقوط في حمأة الباطل، وطاعة السادة والكبراء على طريقة عمياء تجرّ حتماً إلى هذه النتائج الوخيمة، لأنهم غير معصومين عن الزلل والخطل، وغير مبرئين من اتباع أهواء نفوسهم وشهواتها. ولذلك أمرنا الإسلام بأن نكون في طاعة أولي الأمر منا وفي طاعة آبائنا وأمهاتنا عقلاء بصراء، فلا نطيعهم في أمرٍ نعصي الله فيه، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وقد سبق في برّ الوالدين بيان قيود طاعتهما، وأدلّة ذلك من القرآن.

* **ثالثاً**: وفي تربية الإرادة حتى تتغلّب على وساوس الشيطان وتسويلاته، أبانت النصوص الإسلامية أنّ الشيطان للإنسان عدوٌ مبين، وحذّرت الإنسان من وساوس الشيطان تحذيراً شديداً، وعرضت له قصته التاريخية مع الإنسان الأول إذ أخرجه من الجنة بوساوسه وتسويلاته، بعد أن حقد عليه وحمل له ولذريّته العداوة إلى يوم الدين.

وإذا كان موقف الإسلام ضدّ أهواء النفوس وشهواتها مثلما سبق بيانه، وأهواء النفوس وشهواتها جزء من كيان الإنسان، فماذا عسى أن يكون موقفه ضدّ وساوس الشياطين، وهم بوساوسهم يحاولون أن يستحوذوا عليه ويستولوا على إرادته، وهم بوساوسهم إنما يحرّكون فيه الأهواء والشهوات.

إنّ الإسلام قد وجّه الإنسان توجيهاً مؤكّداً مشدّداً كيما يرتقي إلى مواقع قوة الإرادة، ضدّ كلّ شياطين الإنس والجنّ، فمتى قويت إرادته استطاع بحزم وعزم أن يهزأ بكل وساوسهم وتسويلاتهم، وأن يطردهم عن كيانه الداخلي والخارجي، ويسير في صراط الله المستقيم، وكذلك يكون المسلمون المؤمنون

المتقون، في قوة إراداتهم، واستعاذتهم بالله من وساوس شياطينهم وطردهم عنهم.

أمّا ضعفاء الإرادة أمام وساوس الشياطين وتسويلاتهم فهؤلاء تستهويهم الشياطين، وتستحوذ عليهم، وتستدرجهم من حيث لا يعلمون، حتى تجرّهم إلى حضيض الهاوية، مرحلة فمرحلة، وفي هؤلاء قال الله تبارك وتعالى في سورة (المجادلة ٥٨):

﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

استحوذ عليهم الشيطان: أي استولى عليهم، وغلب عليهم، حتى سلبهم بوساوسه وتسويلاته إراداتهم الخاصة الواعية العاقلة.

ومن ألطف البيان ما جاء في القرآن من تصوير الإنسان الضالّ عن سبيل الهدى، كيف أنّ الشياطين استهوته في الأرض، بعد أن استولت على إرادته، فهو حيران لا يدري الطريق ولا يعرف كيف الخلاص، قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

ففي هذا تصوير بديع لاستيلاء الشياطين على نفوس الضالين ضعفاء الإرادة، الذين يستجيبون لوساوسهم، فيتبعون خطواتهم، وهم بهذه الاستجابة وهذا الاتباع يتخذون الشياطين أولياء لهم، مع أنهم لا يغنون عنهم من الله شيئاً، قال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

وقال فيها أيضاً:

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

ففريق من الناس اتخذوا الشياطين أولياء لهم، مع أنّ الشيطان بخبثه يحاول أن يسلب الإنسان قوة إرادته، وأن يستخفه ويجعله منساقاً مع كلّ هوى ونزوة وشهوة جانحة، وإمعة يتبع كل ناعق ويستجيب لكل رأي تافه.

وهكذا عمل الإسلام على تقوية إرادة المسلم ضدّ أهواء نفسه وشهواتها، وضدّ ضغط الجماهير الغوغائية السائرة في غير طريق الهداية، وضدّ القادة المضلّين الذين يتبعون أهواءهم، وضدّ وساوس الشياطين وتسويلاتهم.

وقوة الإرادة في هذا المجال تمنح الإنسان القدرة على قيادة نفسه بعقل وحزم وفق الحكمة «ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً».

ولذلك فلا بدّ أن يكون العاقل الحكيم قوي الإرادة أكثرَ تمسّكاً بقواعد الدين وتعاليمه، وأكثر تمسّكاً بفضائل الأخلاق، وأكثر التزاماً للسلوك الأقوم.

— ٧ —

البت في الأمور بحزم وعدم التردد بعد العزم

ومن ظواهر قوة الإرادة البت في الأمور بحزم عند ظهور الوجه الأصلح فيها، وعدم الاستسلام للتردّد والحيرة النفسية التي تنتاب ضعفاء الإرادة، وتنتاب الذين يتخوّفون من النتائج ومسؤولياتها الماديّة أو الأدبية.

إنّ ضعيف الإرادة يقتل عمره في متاهات الحيرة والتردّد، فهو لا يصلح لإدارة نفسه والقيام بأعمالها اللازمة النافعة، حتى تحوجه الضرورة إلى ذلك من أمور طبيعية أو أحداث مفاجئة، فهو يترك الأحداث تبادره، ولا يبادرها هو بتراتيبه وخططه واستعداداته وأعماله النافعة.

أمّا العاقل قوي الإرادة فعلى العكس من ذلك، إنه يحسن استخدام طاقاته، واستغلال وقته، وتصيّد الفرص السانحة، فيبُتّ القرارات الصالحة، وينفذ الأعمال النافعة، ومتى ظهر لديه الوجه الأصلح عزم عليه ونفّذه متوكّلاً على الله، ومعتمداً على تسديده وتوفيقه، إنّه يدير نفسه بحكمة وحزم، ويصلُح لأن يدير الأعمال الجماعية بحكمة وحزم، متى توافرت لديه الشروط الواجبة لنوع الإدارة الخاصّة التي يتولّاها.

وقد أرشد الإسلام إلى هذه الظاهرة الخلقية من ظواهر قوة الإرادة.

ففي النصّ القرآني التربوي الأخلاقي العظيم، الذي علّم الله فيه رسوله محمّداً صلوات الله عليه، أنْ يكون ليّناً غير فظ الطبع ولا غليظ القول، وأن يتسم بخلق العفو عن أصحابه وأتباعه، وأن يستغفر لهم، وأن يشاورهم في الأمر، نجد في آخره أنّ الله يعلّم رسوله إذا عزم على أمر أن ينفذه متوكّلاً على الله، غير متردّد ولا متحير ولا متراجع عنه، وفي هذا توجيه قويّ إلى بتّ الأمور بحزم متى ظهر الوجه الأصلح، بل فيه أمرٌ تكليفي بذلك، وهذا البت إنّما يكون بعد اتخاذ ما يلزم من تدبّر للأمر، ومشاورة فيه لأهل الرأي، قال الله لرسوله في سورة (آل عمران ٣):

﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ۝١٥٩﴾.

فقوله تعالى: ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ أي: فنفّذ ما عزمت عليه متوكّلاً بقلبك على الله، ليمدّك بعونه ويدفع عنك الأعراض والموانع، ويحقق لك النتائج التي ترجوها، وفي قوله تعالى بعد ذلك: ﴿إن الله يحبّ المتوكلين﴾ إشارة أن أنّ الله عز وجل يحبّ الذين ينفّذون أعمالهم إذا عزموا عليها بشرط أن يتوكلوا في قلوبهم عليه، ليدفع عنهم الأعراض والموانع، وليحقق لهم النتائج التي يرجونها، وليمدّهم بعونه، مع قيامهم هم بالأسباب التي ربط الله بها النتائج في نظام كونه.

فالبتّ في الأمور بحزم عند ظهور الوجه الأصلح من الفضائل الخلقية التي ينبغي للمسلم أن يتحلى بها، متأسياً بالرسول صلوات الله عليه، ومتبعاً إرشاد الإسلام في ذلك.

ومن كان في إرادته ضعف فعليه أن يدرّب نفسه على البت في الأمور بحزم، وعدم التراجع عـمّا يبتّه ويقرره، وأن يدرّب نفسه على نتائج قراراته، وما يبته من أمور، وما ينجزه من أعمال.

فبالتدريب المتتابع يتخلّص الإنسان من التردّد الناشىء عن ضعف الإرادة وعدم الثقة بالنفس، ويساعده في عمليات التدريب، أن يضع نصب عينيه القدوات الصالحة من أهل العزم وأصحاب الإرادات القوية، الذين يثقون بما منحهم الله من هبات، ويؤمنون بأنّ الله معهم يسدّدهم وينوّر بصائرهم، وينفذون بحزم ما يعزمون على تنفيذه، وهم متوكلون على ربّهم، واثقون من معونته وتأييده.

وفي مقدمة القدوات الصالحة الرسولُ صلوات الله عليه، فقد كان أبعد الناس عن التردّد في أموره. كان إذا عزم على أمر لم يتراجع عنه، ولم يتردّد في تنفيذه مهما وقفت العوائق في طريقه، ولكنه كان يتأنى في العزم على الأمور وإصدار القرارات الجازمة فيها، حتّى يتدبّرها تدبّراً كافياً، وحتى يستشير أهل الرأي والحجى من أصحابه، وحتى يتبين فيها الآراء اتفقت أو اختلفت. ومن شواهد ذلك ما كان منه صلوات الله عليه في غزوة أحد، إنه لـمّا بلغه مقدم جيش المشركين من قريش إلى المدينة، ونزولهم خارجها لقتال المسلمين، جمع الرسول صلوات الله عليه أصحابه، فاستشارهم، وخيَّرهم بين الخروج لملاقاتهم وقتالهم، والبقاء في المدينة فـإن دخلوا عليهم فيها قاتلوهم في طرقاتها ورموهم من فوق البيوت، فكان رأي الطائفة من شيوخ المسلمين عدم الخروج من المدينة إلى العدو، وكان رأي الطائفة من الشباب والذين لم يكن لهم شرف القتال في غزوة بدر، أن يخرج الرسول والمسلمون لقتال عدوهم خارج المدينة، وقالوا: يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنّا جبنّا عنهم وضعفنا.

ولم يزل أصحاب هذا الرأي يلحون على رسول الله ﷺ بالخروج حتى

وافقهم على ما أرادوا، فدخل رسول الله ﷺ بيته فلبس درعه، وأخذ سلاحه، ولـمّا خرج عليهم بعدّة الحرب ظنّ الذين ألحّوا عليه بالخروج أنّهم قد استكرهوه على ما لا يريد، فندموا على ما كان منهم، فقالوا له: لعلنا استكرهناك يا رسول الله، ولم يكن لنا ذلك، فإن شئت فاقعد.

وهنا برزت قوة إرادة الرسول ﷺ، وظهر حزمه في الأمر بعد عزمه على الخروج إلى العدوّ، وقتاله خارج المدينة، فقال صلوات الله عليه: «ما ينبغي لنبـيّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل».

اللّأْمَةُ: هي الدرع وعدة الحرب.

وكذلك كان دأب الرسول صلوات الله عليه، فلم يعرف عنه التردّد ولا التقلب، ولذلك كان أعظم إداري قائد عرفه التاريخ، فهو المثل الكامل للإنسان الكامل.

وقد علّم الرسول ﷺ أصحابه هذا الخلق، ودرّبهم على المضي في الأمر وعدم التردد فيه بعد العزم عليه.

روى مسلم عن أبـي هريرة أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر:

«لأعطينّ هذه الراية رجلاً يحبّ الله ورسوله يفتح الله على يديه».

قال عمر رضي الله عنه: ما أحببت الإمارة إلاّ يومئذٍ، فتساورت لها رجاء أن أدعى لها.

قال أبو هريرة: فدعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبـي طالب رضي الله عنه فأعطاه إيّاها وقال:

«امش ولا تلتفت حتّى يفتح الله عليك».

فسار عليٌّ شيئاً ثمّ وقف ولم يلتفت فصرخ: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ قال:

«قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها وحسابهم على الله».

ففي قول الرسول ﷺ لعلي رضي الله عنه: «امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك» تربية خلقية على المضيّ في الأمر وعدم التردّد، متى تمّ العزم والتصميم على القيام به. وقد نهاه الرسول عن أن يلتفت إلى الوراء لأن الالتفات مظهر من مظاهر التردّد، ومن مظاهر ضعف العزيمة عن القيام بما تمّ العزم عليه، وهذا ليس من شأن أصحاب الإرادة القوية.

فالرسول ﷺ بهذا التوجيه يغرس في نفوس أصحابه خلق قوة الإرادة، حتى لا يقعدهم التباطؤ والحيرة والتردّد والالتفات إلى الوراء عن القيام بجلائل الأعمال.

وتنفيذاً لهذا التوجيه النبوي وجدنا عليّاً رضي الله عنه لـمّا أراد أن يأخذ التعليمات الأساسية التي تتعلق بالمهمة التي حمل الراية للقيام بها، نادى رسول الله ﷺ بأعلى صوته وهو متوجّه لمهمته دون أن يلتفت إلى الرسول، وفي هذا تدريب عملي على قطع كل تردد قد يعرض للنفس بعد الجزم على القيام بالعمل.

إنّها لا تصلح قيادة مع تردّد، ولا تصلُح قيادة مع تباطؤ وتسويف، ولا تتمّ الأعمال العظيمة من الأفراد والجماعات إذا كانت مقترنة بالتردّد والحيرة وضعف الأمل بتحقق النتيجة المقصودة.

ولمّا كانت المهمة التي حمّلها الرسول عليّاً هي مهمة فتح خيبر، جعل له فتح خيبر غاية مسيرته التي يقوم بها، لا سيّما وقد قدّم له البشارة بأنّ القضاء والقدر ظهيره في هذه المسيرة، إذ قال قبل أن يعطيه الراية: «لأعطينّ هذه الراية رجلاً يحبّ الله ورسوله يفتح الله على يديه» وكان هذا من الأخبار التي أخبر بها الرسول ﷺ قبل وقوعها، وتحققت كما أخبر، وأصحاب الرسول على إيمان كامل بأن ما يخبر بوقوعه في المستقبل لا بدّ أن يقع.

وفي هذا الحديث أن الأحكام الإنسانية يراعى فيها الظاهر، أمّا أحكام الله فتراعى فيها المقاصد والنيات، وهو ما دلّ عليه قول الرسول: «قاتلهم حتى

يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله».

أي إذا كانوا قد شهدوا شهادة الإسلام وكانوا في حقيقة قلوبهم منافقين فإنّ حسابهم في ذلك على الله تعالى، وأمّا أنت فتعاملهم بحسب ما يظهر لك من أحوالهم، ولا تعاملهم بحسب ظنك بحقيقة نياتهم ومقاصدهم، ما لم يظهر من ذلك شيءٌ ماديٌّ تدينهم به.

— ٨ —

الجـــدّ والحـــزم والنظـــام

ومن ظواهر خلق قوة الإرادة الجدّ في الأمور، والأخذ فيها بالحزم، والنظام في الأعمال والبعد عن كل فوضى.

أمّا ضعيف الإرادة فإنه يتخاذل أمام ميل نفسه إلى الكسل والتباطؤ في العمل، فلا يكون جادّاً مجتهداً في أموره، ولا يكون حازماً في تنفيذ أعماله، وهو يميل غالباً إلى الهزل لستر حالة النقص التي يعاني منها، ولتغطية ضعف إرادته أمام هوى نفسه إلى الكسل، وطبيعي أن لا يحب النظام في أعماله، لأنّ النظام يتطلب جدّاً وحزماً، فالجادّ الحازم العاقل لا بدّ أن يرتب أعماله وواجباته وفق نظام عملٍ سليم، يمنع التزاحم والتعارض والتصادم، ويملأ فراغ الوقت بتوزيع متناسق للعمل، وتقسيم عادل للوقت. بخلاف الذي لا جدّ ولا حزم عنده بسبب ضعف إرادته أمام ميل نفسه إلى الكسل، فمن أصعب الصعاب لديه أن يرتب أعماله وواجباته، وفق نظام عمل سليم يتقيد بتنفيذه، لأنّ هذا سيفوّت على هوى نفسه فرصة الإخلاد إلى الراحة، متى شاء له هذا الهوى، ومن شأن هذا الهوى الجانح الضار أن يحرضه على التكاسل وترك العمل، والإخلاد إلى التعطّل التامّ، متى شعر بأدنى تعب في جسمه أو ملل في نفسه، أو عدم انسجام بين هواه ونوع العمل الذي يقوم به. إنّ الكسل يجرّ إلى التعطّل، والتعطل يجلب الخبل، والسأم، والوساوس، والنوم الطويل القاتل

للقوى والمتلف للعمر من غير فائدة، والتعطّل يجرّ إلى الحاجة والضرورة، ثم إلى الجريمة، أو يجرّ إلى أنواع شتى من الفساد الشخصي والاجتماعي. فكل هذه النقائص والقبائح قد تتولّد عن هذا الأساس الذي يمثل انحرافاً جذرياً في بناء الإنسان الخلقي. قد يستصغر الإنسان بعض النقائص الجذرية فيهمل إصلاحها، فيتولّد عنها أمور خطيرة جداً. إنّ الصغائر في الجذور كبائر في الآثار، فإبرة صغيرة في القلب أعظم خطراً وضرراً من سيف بتار في القدم، وربّ شرارة أخطر من جيوش جرّارة.

وقد حث الإسلام على الأخذ بالجدّ والحزم، ووضع الخطط اللازمة لتدريب المسلمين على النظام.

وحينما يمارس الإنسان الجدّ والحزم والنظام في أعماله، ويتدرّب على هذه الفضائل السلوكية بالتكلف، يكتسب العادة عليها، ثم تكون جزءاً من أخلاقه، وذلك له أثر أيضاً في تقوية إرادته، التي تكون قوّةً مضافة إلى قوة العادة في تأثيرها، فتنمو لديه فضائل الجدّ والحزم والنظام في الأعمال.

لقد أمر الله المسلمين بأن يقتدوا بنبيهم محمدّ ﷺ، وقد كانت حياة الرسول مع أصحابه حياة جدّ وحزم ونظام، سواءٌ ما يتعلّق منها بأمور الدين وما يتعلّق منها بأمور الدنيا، وبالتربية النبوية تحوّل شعب فوضوي يعوزه الجدّ في الأمور، ولا يربطه نظام، إلى أمّة جادّة ، ذات حزم، وانضباط مع الواجب، وانتظام كامل في العمل الفرديّ والجماعي.

ومن التوجيه النبوي إلى المثابرة على العمل بدأب وانتظام، ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «أحبّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ».

وفي حثّ الإسلام على العمل النافع المفيد دعوةٌ كافية إلى الأخذ بالجد، ومجانبة الهزل واللّهو واللّعب.

ولئلا يترك الله لرسوله فراغاً في وقته خالياً من عمل نافع، أمره بأن يقوم

بعمل جديد متعب يرضي الله فيه كلّما فرغ من عمل سابق أرضى الله فيه، فقال له في سورة (الشرح ٩٤):

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾.

أي: فإذا فرغت من عمل سابق فابدأ بعمل جديد تنصب فيه، أي: تتعب فيه، ولتكن في كلّ عملك راغباً بتحقيق مرضاة ربّك.

أليس هذا غايةً في الأمر بالعمل الجادّ النافع، وملء كلّ فراغ من الوقت به، وفي الصرف عن كلّ لهو وهزل وعبث، وكلّ عمل ليس فيه تحقيق لمرضاة الله تعالى؟

وما أمر الله رسوله به يشمل في توجيهه عامّة المسلمين.

وفي تنفير الإسلام من اللّهو والهزل والعبث، وتوجيه المسلم لأن يكون عاملاً جادّاً في عمل ما ينفعه ممّا فيه مرضاة لله تعالى، إلّا في حدود قليلة يقصد منها الترويح عن النفس، والاستجمام للقيام بعمل آخر نافع، نلاحظ نصوصاً عديدة، منها ما يلي:

(أ) يقول الله تعالى في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝٩﴾.

ففي هذه الآية توجيه إلى أسمى ما ينفع الإنسان في حياته الدنيا، وهو ذكر الله الذي يدفعه باستمرار إلى كلّ عمل من أعمال الخير التي ترضي الله. فمن ألهته أمواله، أو ألهاه أولاده، عن هذا العمل المجيد، خسر رأس ماله في هذه الحياة، ورأس مال الإنسان في حياته عمره المحدود، وطاقات العمل التي وهبه الله إياها، ومن خسر رأس ماله كان هو الخاسر الأكبر. ويظن الجاهلون

أنهم إذا ربحوا كثرة المال أو الولد فقد فازوا، ويغفلون عن خسارتهم ذاتهم، التي لا يعوّضها مال ولا ولد.

(ب) وكان قوم عاد يبنون في مرتفَعات من الأرض مباني لا غرض لهم منها إلاّ أن تكون دالّة على عظمتهم، ولا غاية لهم منها إلاّ التفاخر، فهي لا تؤوي ساكناً ولا تدفع بأساً، فرأى الله هذا العمل منهم عَبثاً، والعبث ليس من شأن العلماء العقلاء، فبلّغهم ذلك رسولهم هود عليه السلام، قال الله تعالى في حكاية قول هود لهم في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

الريع: هو المرتفع من الأرض، والطريق. آيةً: أي علامة تدلّ على قوتكم، فتفاخرون بها.

أمّا توجيه الإسلام لتنظيم الأعمال وتوزيعها بعدل على الأوقات، فموجود في كلّ العبادات الإسلامية المفروضة، وفي معظم العبادات غير المفروضة، فهي مشمولة بنظام عمل محدّد، لا مجال فيه للفوضى. الصلاة المفروضة تؤدّى بنظام تام في أوقاتها، وفي حركاتها، وفي أقوالها، سواء أدّيت بصفة فردية أو بصفة جماعية وقد ثبت في الصحيح أنّ أحب الأعمال إلى الله الصلاة لوقتها. والصوم يؤدى بنظام تامّ، إذا طلع الفجر أمسك الصائم عن كلّ المفطرات، وإذا غربت الشمس أفطر الصائم فلم يعد إمساكه صوماً. والحجّ يؤدّى بنظام تام، فلا يجوز الوقوف بعرفة إلاّ في يوم محدّد من السنة، ولا يجوز الإخلال بالفروض والواجبات، ولا التفريط بالمحرّمات، ولا الخروج عن حدود الشعائر. والزكاة تؤدّى بنظام لا مجال فيه للفوضى.

وعقود المعاملات في الإسلام لها أنظمة يجب التقيد بها، ولا يجوز الخروج عليها.

ويوم المسلم الملتزم بإسلامه موزّع وفق نظام يدخل في فقراته العبادات بأوقاتها المحدّدة، والباقي ينظمه المسلم حسب حاجاته من العمل والراحة.

ـ ٩ ـ

المبادرة بفعل الخير قبل وجود الموانع

ومن ظواهر قوة الإرادة المبادرة بفعل الخير قبل وجود الموانع، وهذا ما أرشد إليه الإسلام.

عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال:

«بادروا بالأعمال سبعاً: هل تنتظرون إلاّ فقراً منسياً، أو غنىً مطغياً، أو مرضاً مفسداً، ، أو هرماً مُفْنِداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدّجّال فشرُّ غائبٍ ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمرّ».

(رواه الترمذي بإسناد حسن)

يهدف هذا الحديث إلى تربية المسلمين على خلق علوّ الهمة، وخلق قوة الإرادة، وذلك لأن مبادرة الأحداث قبل وقوعها بالأعمال الكفيلة بدرء أخطارها، واغتنام الوقت قبل حلولها، تحتاج إلى حزم حكيم، وجدٍ صادق، وبتٍّ في الأمور عند ظهور الوجه الأصلح، وبعد عن التردّد والتخاذل، وحذر من داء التواني والكسل، والتسويف في العمل، وهذه كلّها ظواهر ترجع في مجموعها إلى خلق قوة الإرادة، وخلق علوّ الهمة، فتوجيه الرسول ﷺ المسلمين لمبادرة الأحداث قبل وقوعها من تربيتهم على هذين الخلقين الكريمين.

ونبّه الرسول ﷺ على أحداث سبعة يجب على المسلم العاقل الحازم قويّ الإرادة عالي الهمة أن يبادرها بالأعمال الصالحة، والأعمال الصالحة النافعة تشمل جميع ما أمر به الإسلام من سلوك أخلاقي، أو عبادة لله عزّ وجل، أو جهاد في سبيل الله، أو التزام للمنهج الإسلامي الذي رسمه الله للناس، في أيّ ميدان من ميادين العمل.

أما السبع التي أمر الرسول ﷺ بمبادرتها بالعمل، فهي مجموعة أعراض في حياة الإنسان صارفةٍ له عن العمل، أو مقعدة له عنه، أو قاطعة له عنه قطعاً كلّيًا، ويأتي في قمة هذه الأعراض وفي غايتها الموت الذي تنتهي به فترة الامتحان، وهذا بالنسبة إلى كلّ فرد، ثمّ قيام الساعة التي تنتهي بها الحياة الدنيا

كلّها، فلا يبقى لأحد من الناس عندئذٍ مجال لأي عمل. وأمّا الدّجال فهو شرّ فتنة مرتقبة تفتن الناس عن دينهم، فتصرفهم عن فعل كلّ خير، وتدفع بهم إلى سوء المصير.

وكلّ أمر من هذه الكوارث السبع يداهم الناس بثقل عظيم، يصرفهم عن العمل صرفاً كلّياً أو جزئيّاً، أو يقيم بينهم وبين العمل سدّاً لا يستطيعون اختراقه.

وبأسلوب بارع بديع عرض الرسول ﷺ هذه السبع، إذ جاء بها على طريقة الاستفهام، وهذا الأسلوب البياني أرقى وأفعل في النفس من العرض بأسلوب البيان الخبري، المجرّد عن الاستفهام، وذلك لأن أسلوب الاستفهام لدى تقرير الحقائق يستدعي مشاركة المخاطبين في التفكير، ومساهمتهم في البحث عن الأعراض والأحداث الكونية الصارفة أو المقعدة أو القاطعة للناس عن العمل.

الأوّل: «هل تنتظرون إلاّ فقراً منسياً؟» فوصف الرسول ﷺ الفقر بأنه ينسي، وهو من الأعراض التي قد يتعرض لها الإنسان في حياته، فتهز كيانه، وتفقده صوابه، وتنسيه العمل لآخرته.

إنّ الفقر الشديد الذي يحوج الإنسان إلى لقمة العيش وضرورات الحياة، يفقده صوابه، ويحصر كلّ تفكيره في طلب ما يسدّ به حاجاته، فإذا لزمه الفقر شتّت باله، وهزّ كيانه، وأقلق نفسه، وعندئذ ينسى معظم الواجبات المتعلّقة به، وينسى الأعمال الأساسية التي تكون سبب سعادته في الدنيا والآخرة. وهذا الفقر عرض من أعراض الحياة قد يصيب الإنسان فجأة دون ترقّب، وقد يداهمه دون أن يحسب له حساباً، والعاقل هو الذي يغتنم الأيّام التي يكون فيها ذا سعة ويسار، فيبذل من ماله في سبيل الله وابتغاء مرضاته، ويقدّم بذلك عملاً صالحاً يبادر به ما قد يداهمه من فقر ينسيه، ويغتنم أيّام استقراره النفسي بيساره، فيعمل أعمالاً صالحات يبادر بها ما قد يفاجئه من فقر يقلقه، ويشتت باله وينسيه واجباته.

الثاني: «أو غنىً مطغياً؟» والغنى المطغي من الأعراض التي قد يتعرّض لها الإنسان في حياته، ومن الثابت أنّ نفس الإنسان يمسّها الطغيان متى شعرت بالاستغناء، وهذا ما بيّنه الله بقوله في سورة (العلق ٩٦):

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾.

وهذا الطغيان النفسي الذي يمسّ الإنسان عند شعوره بالاستغناء طغيان يصرفه صرفاً عنيفاً عن الأعمال الصالحة، والعاقل الحصيف الحازم قوي الإرادة هو الذي يبادر بالأعمال الصالحات هذا الشعور قبل أن يمسّ نفسه، فيقيم بينه وبين نفسه سدًّا من فضائل الأخلاق، فإذا جاءه الغنى وقد بادر بالأعمال الصالحات لم يطغه الغنى.

الثالث: «أو مرضاً مفسداً؟» والمرض من الأعراض التي قد يتعرض لها الإنسان في حياته، فتفسد نفسه، ومزاجه، وتقعده عن العمل.

فإذا لم يغتنم الإنسان زمن صحته، ولم يبادر بالأعمال الصالحة ما قد ينزل به من سقم، ولم يعدّ نفسه إعداداً حسناً، يتلقّى معه الآلام بصبر ورضىً عن الله، جاءه عرض المرض فأقعده عن العمل، وأفسده، إذ يضجره، ويسيء أخلاقه، ويجعل تصرفاته مع نفسه ومع الناس تصرفات شاذّة، وقد يتطاول على ربّه بما يجعله ـ والعياذ بالله ـ من الكافرين.

أمّا إذا أعدّ نفسه بالأعمال الصالحة إعداداً حسناً، فإنّه إذا جاءه المرض تلقّاه بصبر ورضى عن الله، وكان له طهوراً، وحُسبَ له مدّة مرضه مثل الأعمال الصالحة التي كان يفعلها قبله.

كما أن المرض يمنع الإنسان عن كثير من الأعمال الصالحة إذ يقعده عنها، والعاقل هو الذي يغتنم أحوال صحته، قبل أن تأتيه أحوال المرض، فيستزيد من الأعمال الصالحة ما أمكنته الاستزادة.

الرابع: «أو هَرَماً مُفْنِداً؟» أي موقعاً في الخَرَف، والْفَنَدُ: الْخَرَف وتناقص

العقل من الهرم أو المرض، وقد أفْنَد الرجلُ إذا خَرِف، ويُقال: شيخٌ مُفْنِد، أي واصل إلى مرحلة الخَرَف. والْفَنَدُ: الخطأ في الرأي والقول. وأفْنَدَهُ: أي خطّأ رأيه.

والهرم الْـمُفْنِد عجزٌ مقعدٌ عن العمل ومفسد للرأي، والعاقل هو الذي يغتنم زمن شبابه وقوّته قبل أن يأتيه طور الهرم الذي يقعده عن العمل، ويكون هذا الاغتنام بأن يبادر بالعمل الصالح.

الخامس: «أو موتاً مجهزاً؟» والموتُ المجهزُ هو الموت السريع الذي يفاجىء الإنسان دون مقدمات، وبالموت ينقطع الإنسان عن كلّ عمل.

والعاقل الحازم الحصيف قويّ الإرادة عالي الهمّة، هو الذي يغتنم حياته بالأعمال الصالحة، قبل أن يأتيه الموت المفاجىء دون إنذارٍ سابق.

وكلّ إنسان عرضة لأن ينزل به الموت المفاجىء.

السادس: «أو الدجّال فشرّ غائبٍ ينتظر؟» نعم إنّ الدجّال شرّ فتنة منتظرةستتعرض لها الإنسانية كلّها، ومن لم يُعدّ نفسه بالأعمال الصالحات قبل مجيء هذه الفتنة العظيمة، لم يستطع الثبات بإيمانه أمام تيّارها الجارف، وقبل الدجّال دجالة كثيرون.

السابع: «أو الساعة فالساعةُ أدهى وأمرّ؟» والساعةُ إذا قامت لم يبق معها حيٌّ على وجه الأرض، وبها تنقطع كلّ الأعمال.

والمؤمن العاقل الحصيف قويّ الإرادة عالي الهمة يبادر بالأعمال الصالحة هذا الحدث قبل أن يقع، لأنّه يعلم أنّ وقوعه حتمي لا محالة، إلاّ أنّ الله تعالى أخفى زمنه، واحتمال وقوعه واردٌ في كلّ حين، لا سيما وكثير من أشراط الساعة قد ظهر، والساعة لا تأتي بتقدير الله إلا بغتة.

وهكذا يوجّهنَا الرسول ﷺ بنصائحه ووصاياه، حتى نكون أصحاب إرادات قوية حازمة عاقلة، وأصحاب همم عالية عاملة، وأهل رأي حصيف.

التفــاؤل بالخـــير

ومن ظواهر قوة الإرادة التفاؤل بالخير، وصرف النفس عن التشاؤم من العواقب، ما دام الإنسان يعمل على منهج الله فيما يرضي الله.

والإسلام يشجع المسلمين على التفاؤل ويرغبهم به، لأنه عنصر نفسيّ طيب، وهو من ثمرات قوة الإرادة، ومن فوائده أنه يشحذ الهمم إلى العمل، ويغذّي القلب بالطمأنينة والأمل.

والإسلام ينفر المسلمين من التشاؤم، ويعمل على صرفهم عنه، لأنه عنصر نفسيٌّ سيّىء، يبطىء الهمم عن العمل، ويشتت القلب بالقلق، ويميت فيه روح الأمل، فيدبّ إليه اليأس دبيب الداء الساري الخبيث، وهو يدلّ على ضعف الإرادة.

ولذلك كان رسول الله ﷺ يحبّ الفأل ويكره التشاؤم.

إنّ التفاؤل من الوجوه الباسمة المشرقة في الحياة بخلاف التشاؤم فهو من الوجوه الكالحة القاتمة.

حسب الإنسان من التفاؤل أن يعيش سعيداً بالأمل، فالأمل جزء من السعادة، أما التشاؤم فيكفيه ذمّاً وقبحاً أنه يشقي صاحبه ويقلقه ويعذبه، قبل أن يأتي المكروه المتخوّف منه، فيعجّل لصاحبه الألم، وقد لا يكون الواقع المرتقب مكروهاً يتخوّف منه، إلاّ أنّ التشاؤم قد صوّره بصورة قبيحة مكروهة.

إنّ المؤمن صادق الإيمان يعمل متوكّلاً على الله، فيكسبه توكّله على الله الأمل والرجاء بتحقيق النتائج التي يرجوها، فيعيش في سعادة التفاؤل الجميل بسبب توكله على الله. أمّا المتشائم فلا يلاحظ من احتمالات المستقبل إلاّ وجوهها القبيحة المكروهة. وسبب التشاؤم سوء الظن بالله وضعف التوكل على الله.

وقد جاء معنى التفاؤل في القرآن تحت صيغة الرجاء، فالمسلم يرجو من

الله تحقيق الأمور المحبوبة التي ترضيه سبحانه، فمن ذلك قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

ففي هذا النصّ القرآني حثّ شديد على الجهاد ومقاتلة العدوّ باندفاع قويّ وبأس صادق، وتذكير للمؤمنين بأنهم يرجون من الله ما لا يرجو عدوهم، فهم يرجون من الله أن يؤيدهم بنصره، وهذا لا يرجوه عدوهم، وهم يرجون من الله أن يجزل لهم الأجر عنده يوم القيامة، وهذا أيضاً لا يرجوه عدوّهم، فالرجاء هنا يدلّ على ما يدلّ عليه معنى التفاؤل.

ـ ١١ ـ
تلقي الأحداث بصبر، وعدم الحزن على ما فات، وعدم التطلع إلى ما هو بعيد المنال

ومن ظواهر قوة الإرادة تلقي الأحداث بالصبر، وعدم الحزن على ما فات، وعدم التطلع إلى الأماني المستحيلة أو بعيدة المنال جدّاً، لئلا تشتغل النفس بها، فتفوّت العمل الجاد لتحقيق المرجوّ، وتضيع الوقت بالأوهام، وأحاديث النفس الضائعات، وما يسمّى بأحلام اليقظة.

والإيمان بالقضاء والقدر مع الثقة بحكمة الله، يحقق للمؤمن هذا المظهر من مظاهر قوة الإرادة.

وفي تربية الإسلام المسلمين للأخذ بهذه الظاهرة من ظواهر قوة الإرادة، قال الله تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾.

فالمؤمن يتلقى مقادير الله بإرادة قوية، ورضىً تام، وصبر وجلد، لأنه يعلم أنّ الله حكيم، فهو لا يختار لعباده إلاّ ما فيه خيرهم.

ومن الوصايا النبوية قول الرسول ﷺ:

«المؤمن القوي خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، فاحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا. ولكن قل: قدّر الله، وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان».

(أخرجه مسلم عن أبي هريرة)

وتوجيهات الإسلام للصبر ستأتي في فصل خاص إن شاء الله.

ــ ١٢ ــ
مَلْك النفس عند الغضب

ومن ظواهر قوة الإرادة ملك النفس عند الغضب، وقد مجّد الرسول ﷺ هذه الظاهرة الخلقية.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«ليس الشديد بالصُّرَعة، إنّما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».

والصُّرَعَة: هو بطل المصارعة، الذي يغلب مصارعيه وينتصر عليهم، وقد بين الرسول ﷺ أنّ بطل المصارعة ليس هو في الحقيقة الذي يستحقّ أن يقال عنه الرجل الشديد، وإنّما الذي يستحق هذا الوصف هو قويّ الإرادة، ذو الرصانة الخلقية، الذي يملك نفسه عند مثيرات الغضب، فهذا هو الشديد حقّاً، لأنه استطاع أن يغلب أقوى الدوافع في نفسه بقوّة إرادته وسموّ خلقه، ومتى كان الإنسان قادراً على أن ينتصر على أقوى دوافعه الداخليّة فيه، فهو على ما دون ذلك أقدر، وله أملك وأغلب.

وفي مثل هذا يبرز ارتقاء الإنسان في سلّم الكمالات الحقيقية،

أمّا ذو العضلات القوية، والـدربة في مصارعة الأقوياء، والتغلّب عليهم جسديّاً، فلا يزيد على أنّه حيوان قوي قد يصرعه ثور، وقد يخدعه ثعلب، وقد يفترسه نمر، وقد يبتلعه حوت، وقد تطرحه لدغة عقرب، وقد تقتله بعوضة.

والغضب المطلوب كفّه هو ما كان غضباً للنفس، أمّا الغضب لله، فهو أمرٌ حسن ينبع من منابع الإيمان لا من منابع النفس وما يسوؤها من أمور الدنيا. والغضب لله هو ما يكون من المؤمن إذا انتُهكت حرمة من حرمـات الله، بارتكاب معصية من المعاصي مع المجاهرة وعدم المبالاة.

وقد كان الرسول ﷺ حليماً في أمره كلّه، وكان لا يغضب ولا ينتقم لنفسه، ولكن كان إذا عُصي الله أمامه أو انتهكت حرمة من حرماته غضب لله، وانتقم لله.

بيد أنّ إظهار الغضب لله يجب أن يكون مقترناً بالحكمة التامّة التي تحقّق إزالة المنكر من جهة، وإصلاح حال العصاة من جهة أخرى، وقد علّمنا الرسول ﷺ أساليب الحكمة المختلفة، والتي يناسب كلٌّ منها حالاً من الأحوال، ولدى البحث واستقصاء الأحوال والظروف نجد أن إظهار الغضب في مواجهة بعض العصاة قد يسيء إلى غاية الإصلاح، وقد يجعلهم يتمادون في الغيّ، فلا يكون ذلك واعظاً لهم ولا مصلحاً، وفي مثل هذه الأحوال قد لا يحسن إظهار الغضب، بل يحسن الرفق والنصيحة الحسنة والدعوة إلى الله بحكمة، أو يحسن الإعـراض إذا كان المسيء من الجـاهلين، وكذلـك كـان يفعـل الرسول ﷺ، فقد كان إذا واجه أهل الكفر وهم متلبّسون بأعمال كثيرة كلّ واحد منها فيه انتهاك لحرمات الله، لم يقابلهم ولم يواجههم بالغضب والعنف، ولكنه كان يبدأهم بالدعوة إلى الله وإلى الإيمان به وحده، ويبيّن لهم الأسس الأولى للإسلام، أمّا إذا رأى مؤمناً أو جماعة مسلمة قد انتهكوا شيئاً من حرمات الله، فحينئذ كان يغضب لله ويشتد غضبه مع أهل القرب والطاعة، ويخفّ مع غيرهم، ومهما رقّ إسلام الرجل كان رفق الرسول في دعوته أكثر، وكان إظهار الغضب من عمله أخف.

وهذا ما توجبه أساليب الحكمة في الدعوة إلى الله، والتي أرشد إليها قول الله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾.

فعلى الداعي إلى الله أن يزن المواقف بميزان العقل والحكمة، ويعطي كلاً منها ما يلائمه، ويتّخذ من الوسائل ما هو أقرب إلى تحقيق غاية الإصلاح.

ومن مواقف الرسول ﷺ التي فيها شيءٌ من الشدّة غضباً لله تعالى، موقفه مع عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، حينما دخل عليها فرأى أنها سترت مقدمة بيتها بِقِرَام[1] فيه تماثيل، هتكه وتلوّن وجهه، وقال: «يا عائشة أشدّ الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله».

(رواه البخاري ومسلم عن عائشة)

فقد كان هذا الموقف الذي فيه شيء من العنف وإظهار الغضب مع عائشة أم المؤمنين، ولم يكن مع إنسان رقيق الإيمان هو بحاجة إلى تثبيت إيمانه، قبل إصلاح مظاهر سلوكه، فحاله يدعو إلى التلطف معه في الدعوة والنصح والإرشاد.

ونظير هذا الموقف النبوي شدّة الرسول ﷺ على أسامة وعلى من دفعه إلى الشفاعة في المرأة المخزومية التي سرقت، فأسامة حِبُّ رسول الله وابن حِبّه، ومن فتيان الإسلام الصادقين، والذين دفعوه إلى الشفاعة في المرأة السارقة شيوخ من كبار المؤمنين القرشيّين، ولذلك اشتدّ الرسول ﷺ عليهم في التأنيب.

---

(١) بِقِرام: القِرام ستر رفيق.

ـ ١٣ ـ
خـــاتـــمـــة

وهكذا اتخذ الإسلام الوسائل المختلفة اللازمة، ليربّـي في المسلمين عنصر انتصار الإرادة على كل ما يحاول أن يجنح بها عن مواقف العقل والحكمة ومرضاة الله، ويدفع الإنسان إلى تهلكته.

وهكذا دفعنا الإسلام لأن نكون عاقلين، أي: أقوياء الإرادة، إذا عرفنا حقاً أو خيراً عقلنا أنفسنا للقيام به، وإذا عرفنا باطلاً أو شرّاً عقلنا أنفسنا للكفّ عنه ومجافاته ومحاربته.

وعلّمنا الإسلام أن أقوياء الإرادة العقلاء هم أكثر الناس تمسكاً بتعاليم الـدين، وأكثـرهم تحليـاً بفضـائـل الأخـلاق ومحــاسن الآداب، وأكثـرهـم التزاماً للسلوك الأقوم.

وعلّمنا الإسلام أنّ العاقل قويّ الإرادة يُحسن قيادة نفسه بحكمة وحزم، ويكون في أغلب الأحيان نظامياً جاداً عالي الهمة بعيداً عن كل فوضى ولهوٍ وهزل.

وعلمنا الإسلام أنّ العاقل قوي الإرادة يبتّ أموره بحزم، ولا يجعل نفسه ممزّقة بالحيرة والتردّد.

وعلمنا الإسلام أنّ العاقل المؤمن قوي الإرادة متفائل في حياته غير متشائم، وشجاع في مواطن الخوف التي يـأمر الإسـلام فيها بـالشجاعـة، فلا يستولي عليه الجبن والخور، ولا يستبدّ به الضعف.

وعلمنا الإسلام أنّ العاقل المؤمن قويَّ الإرادة يستطيع أن يرتقي إلى مراتب مجد عظيمة، دينية ودنيوية، وعلى مقدار قوة إرادته يكون سبقه في الارتقاء.

* * *

الفصل الرّابع

الدّافع الجماعي

ـ ١ ـ

الدافع الجماعي من الأسس العامة للأخلاق

من الأسس العامة التي ترجع إليها مجموعة من الفروع والمفردات الخلقية المحمودة الدافع الجماعي، أو الجماعية.

ويأتي في مقابل هذا الأساس الخلقي خلق الأنانية والانفرادية أو الانعزالية، الذي ترجع إليه مجموعة من النقائص الخلقية في السلوك الإنساني.

والدافع الجماعي (أو الجماعية) شعور الفرد بأنه جزء من جماعة هو عضو من أعضائها، أو خليّة من خلاياها، مع شعوره بأنه محتاج إليها، فهو يحبّ الجماعة ويلزمها، ويكره الانفراد والانعزال، ولا يستطيع الاستمرار في الوحدة.

ولدى إمعان النظر في معظم الرذائل الخلقية الاجتماعية نلاحظ أنها نابعة من منابع الأنانيّات المختلفة، ولدى إمعان النظر في كثير من الفضائل الخلقية الاجتماعية نلاحظ أنّها ترجع إلى ما لدى الفرد من جماعية. فما من فضيلة يتعدّى نفعها وخيرها للآخرين إلاّ وفيها عنصر التخلّي عن أنانيّة من الأنانيات الفردية الشخصيّة، والعامل الخلقي الذي يدفع إلى هذا التخلي هو الدافع الجماعي، أي: شعور الفرد بأنه جزء من الجماعة، فهو يحبّ للأجزاء الأخرى مثل ما يحبّ لنفسه.

وممّا لا ريب فيه أن الدافع الديني الذي يدفع الإنسان إلى ابتغاء مرضاة ربّه دافع يدعم الجماعية، ويقوم مقامها ويؤدّي وظائفها إذا انعدمت في الفرد.

ويميل الفرد الإنساني إلى الجماعة ويجدُ في نفسه الرغبة الملحّة للالتقاء والاندماج في طائفة من الناس، لأن كثيراً من مطالب حياته، وحاجاته الجسدية والنفسية والفكرية، لا تتم إلا عن طريق الجماعة، كالأنس بالجماعة، والشعور بالأمن والطمأنينة معها، والتماس مناصرتها، والتقوّي بها، وتعاونه معها في تحقيق شتى مطالب الحياة، وتبادله معها المكتسبات العلمية والمنجزات الحضارية.

أفيريدُ الفرد أن يأنس بالجماعة دون أن يعطيها منه أنساً؟ أفيريد أن يأخذ منها الأمن والطمأنينة دون أن يعطيها من نفسه وسلوكه مثل ذلك؟ أفيريد أن يلتمس عندها القوة وشدّ الأزر، دون أن يدفع من قوته لصندوق القوة العام مقداراً يناسب مستوى مساهمته في الجماعة ويناسب قدر نصيبه من القوة الجماعية؟.

إنّ الحقّ والعدل يقضيان بأنّ كلّ أخذ لا بدّ أن يكون له ثمن من عطاء.

وعطاء الأنس والأمن والطمأنينة والقوة وشدّ الأزر والمعونة من مفردات مكارم الأخلاق.

أمّا الأنانية الانعزالية فإنها لا تعطي من نفسها للآخرين أيّ عطاء، ولا تنبع عنها أيّة فضائل اجتماعية.

ومن مطالب الفرد التي لا تتحقق له إلّا عن طريق الجماعة، حاجته النفسية إلى المحبة، وحاجته النفسية إلى التقدير، وحاجته إلى المعونة والمساعدة في معظم شؤون حياته، ومنها حاجات عضوية أخرى للفرد لا تتم إلّا مع غيره. كلّ هذه الأمور تولّد في نفس الفرد الميل إلى الجماعة، والرغبة الملحّة بالاندماج فيها أو الالتقاء معها، وهذه الحاجات التي يريد من الجماعة أن تقدّمها له لا يظفر بها ولا يستطيع أن يحافظ عليها ما لم يقدّم هو من نفسه للجماعة أثمانها.

إنّ ثمن محبّة الآخرين له إنما يكون بالتودّد لهم، وبإكرامهم، وبالتضحية من أجلهم، وبحسن معاشرتهم ومعاملتهم بكثير من فضائل الأخلاق. وثمن تقدير الآخرين له إنما يكون باكتساب الكمالات والفضائل المختلفة، وأهمها فضائل الأخلاق ومحاسن الآدَاب. وثمن معاونة الآخرين له معاونته لهم. وثمن مساعدتهم له مساعدته لهم، وهكذا إلى سائر حاجات الفرد التي لا تتمّ له إلاّ عن طريق الجماعة.

وبدهيٌّ أن هذه المبادلات الاجتماعية الكريمة التي لا تنظمها عقود البيع والشراء، مشمولة بعنوان فضائل الأخلاق الاجتماعية، وقد ظهر لنا أنّ الدافع الجذري الخلقي لها هو الجماعية.

فالدافع الجماعي (أو الجماعية) أساس جذريّ تنجم عنه مجموعة من مفردات مكارم الأخلاق.

وإذا كانت الأنانية المفرطة الجانحة خلقاً إنسانيّاً مهيناً، فإنّ الغيرية أو الجماعية خلق إنساني كريم.

وللأنانية المفرطة الجانحة ظواهر سلوكية كثيرة كلّها مشمولة بعنوان رذائل الأخلاق.

وللغيرية أو الدافع الجماعي ظواهر سلوكية كثيرة مشمولة بعنوان فضائل الأخلاق.

— ٢ —
فوائد الجماعة

غذّى الإسلام الدافع الجماعي، وعمل على تنميته بين المسلمين، وحثّ على لزوم الجماعة، وحاول التخفيف من أنانية الإنسان وانعزاليته، وحذّر من الانفرادية والفرقة، ما لم تفسد الجماعة فساداً عامّاً، لما في الدافع الجماعي ولزوم جماعة الخير من فوائد عظيمة، للفرد الإنساني، وللجماعة الإنسانية، ولما في

الأنانية والانعزالية والانفراديّة من مضارّ كثيرة، للفرد الإنساني وللجماعة الإنسانية.

إنّ جلائلَ الأعمال الكبرى لا تتحقّق إلّا عن طريق العمل الجماعي المنتظم المتعاون، بخلاف العمل الفردي فإنه لا يثمر في الغالب إلّا أعمالاً تتناسب مع مستوى طاقات الأفراد شدّة وضعفاً، والنزعة الانفرادية تنمو معها الرغبة القبيحة بتهديم أعمال الآخرين، حرصاً على الانفراد بمجد التقدير بين الناس، ومع هذه الرغبة القبيحة تتبدّد الأعمال الفردية نفسها، أو تضيع ثمراتها، فتحرم الإنسانية بالانفرادية ثمرات الأعمال الجماعية، وكثيراً من ثمرات الأعمال الفردية.

إنّ الارتباط بالجماعة والتعاون معها يضاعف مقادير القوة، لأنّ القوة المجتمعة تصمدُ أمام القوى الأخرى المعادية، بخلاف القوى الانفرادية المتناثرة، فإنّ أيّة قوة معادية مجتمعة تستطيع الظفر بها والتغلب عليها، ثم التحكّم بمقاديرها، وإن كان قسم من القوى الانفرادية لو اجتمع لاستطاع صَدَّ القوة المعادية والتغلّب عليها.

إنّ القوة الانفرادية زائد القوة الانفرادية تساويان مجتمعتين أكثر منهما متفرّقتين، والسبب في ذلك أنّ القوى الانفرادية تتدخل فيها عوامل الوهن والتخاذل، فتبدّد قسماً كبيراً منها، أو تحجبه عن الظهور والاستعمال، فتظهر قيمة القوة ذاتَ نسبة ضعيفة، بخلاف هذه القوة إذا كانت مجتمعة مع غيرها، فإنها تقترن بعوامل الطمأنينة والأمل بالنجاح، فتشحنُ عن آخرها، وتضاف إليها قوى احتياطية لا تظهر إلّا بتأثير عوامل قوية، وحينئذٍ تظهر قيمة القوة نفسها ذات نسبة عالية.

ومن فوائد الاجتماع تهذيب الأخلاق، والتدرّب على كثير من الفضائل والآداب، واقتباس الثمرات المفيدة النافعة التي يتوصّل إليها الآخرون، سواءٌ أكانت علميّة أو عمليّة، والاجتماع يدفع إلى الحركة، ويطلق كثيراً من الطاقات النفسية الكمينة.

بخلاف الانعزالية والانفراد، فإنّه يميل بالإنسان إلى التوحش والحذر من كلّ شيء، ويغذّي الأنفس بكثير من رذائل الأخلاق، إنّ المصاب بالانفرادية والانعزال نفورٌ أذيّ غضوب، لا يصبر على أيّ عمل يؤذيه أو يخالف هواه، ولا يستطيع أن يتكيّف مع أية مجموعة بشرية يلتقي معها، ولا يستطيع أن يضغط على نفسه بشيء يخالف هواه، ليُحْسنَ معاشرة من يلتقي معهم من الناس. كيف يستطيع ذلك وأنانية الانفرادية الانعزالية هي الحاكمة عليه.

وفوائد الاجتماع هذه إنما تحصل بشرط أن يكون المجتمع مجتمعاً صالحاً، أو فيه نسبة من الصلاح كافية. أمّا إذا كان مجتمعاً سيّئاً أو فيه نسبة كبيرة من السوء، فإنّ جفوته والاعتزال عنه خير وأفضل، وعلى العاقل في مثل هذا الوضع أن يتخذ لنفسه مجتمعاً محدوداً صالحاً يتعامل معه ويعيش في وسطه.

ـ ٣ ـ

حثّ الإسلام على الجماعة وتحذيره من الانفراد والانعزالية

ونجد أنّ الإسلام قد حثّ على الجماعة، وأمر بلزومها، واتخذ كثيراً من الوسائل العملية لإنماء الروح الجماعية بين المسلمين، في ظروف السلم والحرب، ونهى عن الفرقة، في نصوص كثيرة، منها النصوص التالية:

١ ــ روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

«إنّ الله يرضى لكم ثلاثاً، ويسخط لكم ثلاثاً: يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولّاه الله أمركم، ويسخط لكم ثلاثاً: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

وروى الترمذي بسنده عن عبدالله بن عمر عن عمر، أن النبي ﷺ قال:

«عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإنّ الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، ومن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة».

من حديث خطب به عمر بالجابية، وقال الترمذي فيه: هذا حديث حسن صحيح.

٢ ــ ووصف الرسول ﷺ المؤمن بأنه مأْلَفٌ، أي: بأنه يألف ويؤلف، روى الإمام أحمد والبيهقي في شعب الإيمان عن أبـي هريرة، أنّ النبـيّ ﷺ قال: «المؤمن مَأْلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف».

فالإنسان الذي لا يألفُ الناسَ ولا يألفه الناس لا خير فيه، لأنه مفرط في أنانيته، محروم من فضائل الأخلاق التي تحبّبه إلى الناس وتقرّبه إليهم.

٣ ــ وتعميقاً لوحدة جماعة المؤمنين شبّه الرسول ﷺ المؤمنين بالبنيان يشدّ بعضه بعضاً، روى البخاري ومسلم عن أبـي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً» وشبّك بين أصابعه.

ففي هذا الحديث دعوة إلى الوحدة الجماعيّة بين أفراد المسلمين، وفيه بيان للفائدة العظيمة التي تجنيها الجماعة من وحدتها وتماسكها، إنّها القوة التي تظفر بها الجماعة، حينما يترابط أفرادها ويشدّ بعضهم أزر بعض، إنهم بذلك يكوِّنون شيئاً يشبه البنيان، ألسنا نرى القصر العظيم وما فيه من أبراج عالية مؤلفٌ من حجارة صغيرة جُمع بعضها إلى بعض، وعُقدت وفق نظام خاصّ يمنحها مجتمعة قوة عجيبة ترتقي حتى تنطح السحاب؟!

وفي التصوير المادّي الذي فعله الرسول ﷺ إذْ شبك بين أصابعه ــ بعد قوله: «كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً» ــ استخدام للتمثيل الحسّي بعد التشبيه الكلامي، لتجسيد الفكرة المعنوية، ووضعها في مثالٍ حسّيّ مشاهد، والفكرة المعنوية هنا هي وحدة الجماعة وقوتها وتماسك أفرادها.

٤ ــ وزاد الرسول ﷺ في تعميق معنى وحدة جماعة المسلمين، إذ أبرز أنّ كتلتهم الواحدة المتماسكة، وبناءهم المتشابك، بناء تسري فيه روح واحدة وحسّ مشترك، فمثلهم كمثل الجسد الواحد، الذي تتعاون جميع أعضائه تعاوناً تامّاً، وتتشارك جميع أعضائه في الألم وفي المسرّة.

روى مسلم عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ:

«المؤمنون كرجلٍ واحدٍ إن اشتكى عينه اشتكى كلّه، وإن اشتكى رأسه اشتكى كلّه».

وروى البخاري ومسلم عن النعمانِ بن بشير أيضاً، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى».

ففكرة وحدة جماعة المؤمنين وتماسك بنائهم قد وضعها الرسول ﷺ في صورة رجلٍ واحد، فالرجل الواحد جسد ذو أعضاء مترابطة يجمعها عصبٌ واحد، ويديرها فكر واحد، وتحرّكها عواطف واحدة، وانفعالات واحدة، ويغذّيها دمٌ واحد، وتسير جميعاً إلى غاية واحدة، فإذا نزل الألم بالبعض فقد نزل الألم بالكلّ على سبيل المشاركة، وإذا تمتّع البعض بلذّة من اللّذات، اشترك معه فيها الجميع، بحكم الصلة الوثيقة التي تؤلف وحدة الأحاسيس والمشاعر.

إنّ الصورة التي شبّهت الجماعة المؤمنة بالبنيان الذي يشدّ بعضه بعضاً، قد أعطت معاني القوة القابلة لبناء مجد رفيع، وعزّ منيع. أمّا الصورة الثانية التي شبهت وحدة جماعة المؤمنين برجل واحد، فقد أدخلت عنصر الحياة في البناء الجماعي للمؤمنين، وعنصرُ الحياة يلازمه الإحساس بالآلام واللّذات، وبسائر المشاعر الوجدانية والمشاعر الظاهرة.

ومن خلال هاتين الصورتين الحسِّيَّتين نستطيع أن نتصوّر معاني الوحدة الجماعية التي دعا إليها الإسلام، فهي بناء قابل للارتقاء العظيم، وهي مع ذلك بناء حيّ ذو أحاسيس ومشاعر ذات آلام وآمال ولذّات وأكدار مشتركة.

والرواية الثانية للحديث الذي رواه النعمان بن بشير قد أبرزت عناصر الترابط الجماعي، وهي التوادّ، والتراحم، والتعاطف، وهذه العناصر هي مشاعر الأخوة الإيمانية، التي توجدها القاعدة الإيمانية وتغذيها وتنميها بتوفيق الله.

ولـمّا كان معنى الجماعة موجوداً في الفرد، كان من قتل نفساً بغير حقّ كمن قتل الناس جميعاً، إذ يكون قد تعدّى على الناس جميعاً بالقتل، يضاف إلى ذلك أنّ القاتل من الناحية النفسية مستعدٌّ لأن يكون قاتلاً للناس جميعاً، فهو كسارق الدرهم مستعدٌّ لأن يسرق القناطير المقنطرة متى تهيّأت له الفرصة، وتعلّقت مصلحة نفسه بذلك، وفي الدلالة على هذه المعاني قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا . . . ﴿٣٢﴾ ﴾.

من الظاهر الجليّ في هذا أنّ الإسلام يغذّي في الأفراد روح الجماعة، ويربّـي فيهم المشاعر الجماعية، ويخفّف من مشاعر الأنانية الفردية الضيقة.

ومثل النفس المرتبطة بالدائرة الجماعية كل حقوق الأفراد، وما يملكون، لها في المفهوم الإسلامي امتداد جماعي، ولذلك جعل الإسلام أموال الأفراد مشمولة بمعنى من معاني حقّ الجماعة فيها، فمن ذلك قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾.

فجعل في الملكيّة الفرديّة معنىً جماعيّاً، يصحّ به اعتبار أموال الأفراد أموالاً للكتلة الجماعية، ولكنّ التصرف والانتفاع يتبع حقّ الملكية الفردية.

وأوضحُ من هذا ما جاء من تعبير بالنسبة إلى أموال السفهاء، إذ أبان الله فيها معنى امتداد الحقّ إلى الجماعة، لأنّ صيانة أموال الأفراد صيانة للثروة الجماعيّة، فقال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ ﴾.

ونظيره قول الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ . . . ﴿١١﴾ ﴾.

ومعلوم أن الإنسان لا يلمز نفسه، وإنما يلمز غيره، ولكن لـمّا كان المعنى الجماعي معنىً سارياً في كلّ الأفراد كان من يلمز أخاه كمن يلمز نفسه، لأن له نصيباً من مضرّة ما فعل، بوصفه جزءاً من الجماعة التي آذى بعض أفرادها، فسرى الإيذاء إلى الجماعة كلّها.

وتابع الإسلام عملية غرس الروح الجماعية في نفوس أفراد المؤمنين، وتربيتهم على الإحساس الدائم بالمشاعر الجماعية، فلا نكاد نجد مناسبة ملائمة إلّا وللإسلام فيها عمل من ذلك.

٥ ــ ولتغذية روح الجماعة في المسلمين أقام الإسلام مناسبات دينية كثيرة قائمة على الجماعة، وحث المسلمين على شهودها، وشدّد النكير على من يتخلّف عنها، من أهمها صلاة الجماعة.

أخرج النسائي وابن ماجه عن أبـي الدرداء، أنّ الرسول ﷺ قال:

«ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة (أي صلاة الجماعة) إلّا استحوذ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعة، فإنما يأكل الذئب القاصية».

أي إنما يأكل الذئب المبتعدة من الغنم عن أخواتها، وفي هذا بيان للسبب الذي دفع إلى التحذير من الانفراد والبعد عن جماعة المؤمنين، فالمبتعد عن جماعة المؤمنين يعرّض نفسه لذئاب الشرّ، وشياطين الإفساد الذين يغوونه ويضلّونه.

حتى في الطعام فقد أمر الرسول ﷺ المسلمين بأن يجتمعوا عليه ليبارك الله لهم فيه، روى الترمذي عن وحشي بن حرب عن أبيه عن جده، أن

أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، إنا نأكل ولا نشبع قال: «فلعلكم تفترقون» قالوا: نعم. قال: «فاجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله، يبارك لكم فيه».

٦ ــ وحين يعتذر بعض الانعزاليين، بأنهم يريدون أن يسلموا من أذى الناس، الذي قد يتعرّضون له عند مخالطتهم، يأتيهم البيان النبوي فيثبت لهم أن الذي يصبر على أذى الناس خيرٌ من الذين يرغب بالسلامة فيعتزل عنهم، لأنّ الإسلام يريد من المسلمين أن يكونوا كتلة جماعية ذات قوّة، ويريد من الفرد المسلم أن يكون على مستوىً من الأخلاق رفيع، يستطيع به أن يصبر على أذى الناس، ويحسن معاملتهم مع مخالطتهم، ويكف أذاه عنهم وهو مندمج فيهم، روى الترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح عن ابن عمر أنّ النبي ﷺ قال: «المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم».

٧ ــ ومن أهم واجبات الأمة الإسلامية، لربط جماعتهم، وتوحيد قيادتهم، أن يكون لهم إمامٌ يسوسهم، وينظم عقدهم، ويحافظ على جماعتهم، ويبعد عنهم عوامل التفرّق.

ولذلك أمر الرسول ﷺ بطاعة الأمراء مهما كان أصلهم وعرقهم ووضعهم الاجتماعي، متى توافر فيهم شرط الإسلام والأهلية للإمارة، روى البخاريّ عن أنس، أنّ رسول الله ﷺ قال: «اسمعوا وأطيعوا وإن استُعمل عليكم عبدٌ حبشيٌّ كأنّ رأسه زبيبة».

أي: شعر رأسه متجعّد قصير كالزبيبة. أو رأسه كلّه في لونه وتجعده كالزبيبة.

ويشترط لوجوب السمع والطاعة أن يحكم المسلمين ويقودهم بكتاب الله، وأوضح هذا الشرط ما رواه مسلم عن أمّ الحصين قالت: قال رسول الله ﷺ: «أنْ أمِّر عليكم عبدٌ مجدَّعٌ ــ أي: مقطّع الأطراف ــ يقودكم بكتاب الله فاسمعوا وأطيعوا».

فقيد الرسول صلوات الله عليه السمع والطاعة بأنْ يقود الأمير جماعة المسلمين بكتاب الله، فإن أمر بمعصية الله تعالى فإنه لا طاعة له في ذلك.

روى صاحب شرح السنة بإسناد صحيح، عن النوّاس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا طاعة لمخلوقٍ بمعصية الخالق».

وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبّ وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة».

وروى البخاري ومسلم عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا طاعة في معصية، إنّما الطاعة في المعروف».

٨ ــ وحرصاً على وحدة جماعة المسلمين، وربطهم بنظام قيادي واحد، جعل الله طاعة أولي الأمر من المسلمين من عناصر طاعته سبحانه، إذْ أمرَ الذين آمنوا بطاعته وطاعة الرسول وطاعة أولي الأمر منهم، قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾.

فطاعة الرسول من طاعة الله، وطاعةُ أولي الأمر من المؤمنين من طاعة الله أيضاً ما لم يأمروا بمعصية الله تعالى، وطاعة الأمراء وذوي الولايات التي تأتي من دون الولاية العظمى من طاعة أولي الأمر، وحلقات السلسلة ترجع كلّها إلى طاعة الله، لأنه هو صاحب الأمر الأعلى في كلّ ذلك، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يَعصِ الأمير فقد عصاني، وإنما الإمام جُنّة، يُقاتَل من ورائه، ويُتّقى به، فإن أمر بتقوى الله وعدل فإنّ له بذلك أجراً، وإنْ قال بغيره فإنّ عليه منه».

وإنما الإمام جُنّة: أي مثل الترسِ الذي يستتر وراءه المقاتل.

وإنْ قال بغيره فإنّ عليه منه: أي وإن قال بغير تقوى الله فإن عليه من إثم وعقاب ما قال.

٩ ـ وبلغ حرص الإسلام في المحافظة على وحدة جماعة المسلمين، والمحافظة على كتلتهم المنتظمة، وصيانتهم من أن يتسرّب إلى صفوفهم التنازع والخلاف، مبلغاً عظيماً، إذ جعل من يفارق جماعة المسلمين خارجاً من موقع الإسلام إلى موقع الجاهلية، فإنْ مات على ذلك مات ميتة جاهلية. وأمر بالسمع والطاعة والصبر فيما نحبّ وفيما نكره من أوامر ونواهي، وأمر بقتل من يبايع بالخلافة، وخليفة قبله قائم قد سبق وبويع بالخلافة.

إنّ الخطأ الجزئي الذي لا يمسّ أسس عقيدة المسلمين، ولا يفضي إلى هدم كيانهم وقوّتهم الكبرى، أهون بكثير من النتائج الوخيمة التي يفضي إليها شقّ العصا، وتقسيم وحدة الجماعة، وتسرّب التنازع والخلاف إلى الصفوف.

روى مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات، مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عُمِّيّة، يغضب لعصبية، أو يدعو لعصبية، أو ينصر عصبيّة، فَقُتِل، فقِتلته جاهليّة، ومن خرج على أمّتي بسيفه يضربُ برّها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهدٍ بعهده، فليس مني ولست منه».

تحت راية عُمِّيّة: أي في فِتنةٍ ودعوةٍ عمياءَ ضالةٍ، تعتمد على الحميّة الجاهلية، والمناصرة العصبيّة.

وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنّه ليس أحدٌ يفارق الجماعة شبراً فيموت، إلاّ مات ميتة جاهلية».

فأمرنا الرسول ﷺ في هذا الحديث بالصبر على ما نكره من أمرائنا المؤمنين الذين لا يأمروننا بمعصية الله، وأن نحرص على لزوم الجماعة، فمن فارق الجماعة فمات على ذلك مات ميتة جاهلية.

وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري، أنّ النبي ﷺ قال: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما».

وروى مسلم عن عرفجة، عن النبي ﷺ قال: «إنّه سيكون هَنات وهَنات، فمن أراد أن يفرّق أمر هذه الأمّة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان».

هنات وهنات: أي معايب وشرور.

وروى مسلم عن عرفجة أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحدٍ يريد أن يشقّ عصاكم أو يفرّق جماعتكم فاقتلوه».

إنّ عقوبة القتل هي العقوبة الإسلامية للذين يحاولون تفريق صف جماعة المسلمين، وبث الخلاف والتنازع بينهم، لغايات سياسية، فوحدة جماعة المسلمين، وصيانتها من تسرب التنازع والخلاف إليها، ركنٌ من الأركان الأولى للأمّة الإسلامية.

وروى مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعهُ إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر».

١٠ ــ وأمر الرسول بأركان جماعية خمس، فجعل أولاها لزوم الجماعة والمحافظة عليها، ثم أمر بالسمع والطاعة، وهما لتدعيم وحدة الجماعة تحت قيادة واحدة، ثم أمر بالهجرة، وهي لحوق بالجماعة إلى مركز تجمعها في دولة، ثم أمر بالجهاد، ومن أغراضه صيانة الجماعة الإسلامية، وتوسيع دائرة أرضها، وتكثير أعداد أفرادها. روى الإمام أحمد والترمذي بإسناد صحيح عن الحارث الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «آمركم بخمس: بالجماعة، والسّمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، وإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلاّ أن يراجع، ومن دعا بدعوة الجاهلية فهو من جُثِيّ جهنّم، وإن صام وصلّى وزعم أنه مسلم».

أصل الربقة: الحبل يوضع في العنق، والمراد منا هنا العهدة، والمعنى: وإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع عهدة الإسلام من عنقه.

«ومن دعا بدعوة الجاهلية فهو من جثي جهنم وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم»:

كان من مفاهيم الجاهلية الدعوة إلى الفرقة العصبيّة، والاعتزاز بالآباء والأجداد، والاعتزاز بالقبليّات والقوميات، والتمسّك بالأنانيات المختلفة، فلما جاء الإسلام ونادى بوحدة الجماعة الإسلامية، ألغى جميع المفرقات العصبيّة والطبقية والعرقية واللونيّة، وأعلن أنّ المسلمين أمة واحدة، لا فرق بين عربيّها وعجميّها، ولا بين أبيضها وأسودها إلّا بالتقوى والعمل الصالح، فمن دعا بدعوة الجاهلية المفرقة للوحدة الإسلامية، والمجزّئة لجماعة المسلمين فهو من جثيّ جهنم، أي: من المعذبين في جهنم الجاثين فيها على ركبهم، زيادة في تعذيبهم.

«وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم» لأنّ دعوته هذه خروج عن ركن أساسيٍ من أركان الإسلام في الجانب الجماعي منه.

وجثيُّ جهنَّم: هم الظالمون، كما جاء في قول الله تعالى في سورة (مريم ١٩):

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾.

١١ ــ ومن أجل صيانة قوّة الجماعة ووحدتها نهى الله تبارك وتعالى عن التنازع، لأنه يفضي إلى الفشل، ويفضي إلى ذهاب ريح الجماعة، أي: إلى ذهاب قوتها وبأسها، فيوقعها في الجبن والتخاذل، وذلك يؤدّي بها إلى ذهاب دولتها وسلطانها، قال الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ

تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

١٢ ــ فتفريق جماعة المسلمين، وكسر وحدتهم، بالدعوات الجاهلية، ظلم كبير، وإثم عظيم، وعود بهذه الأمّة إلى ما كانت عليه في جاهليتها، متفرقة ممزّقة بدعواتها الجاهلية التي ليس لها أساس فكريٌّ يدعمها، وليس لها أساس نفسيٌّ إلّا العصبيات والأنانيات.

كذلك كانت الأمة العربية، فجاءها الإسلام، فجمع كلمتها على الله، ووحّد صفّها، وألغى دعواتها الجاهلية، وأعلن أنها منتنة، وجعل من آمن من العرب نواة الوحدة الإنسانية الكبرى تحت راية الإسلام، ثم أقام منهم الدولة القرآنية الربّانية، التي تشتمل على خير الإنسانية كلّها، غير عابئة بأية فوارق عرقية، أو نسبية، أو لونيّة، أو إقليمية، أو طبقية، أمّا الفوارق المعتبرة عندها فهي الفضائل الذاتية والأعمال الصالحات.

وقد وجّه القرآن الأمّة العربيّة أن تذكر باستمرار ما كانت عليه في جاهليتها قبل نعمة الإسلام، فقال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

ففي هذا النص يأمرنا الله تبارك وتعالى بأن نعتصم بحبله ونحن مجتمعون غير متفرّقين.

وأصل الاعتصام اللجوء إلى ما يعصم ويحمي من الهلاك أو من الضرّ والأذى، واللجوء إلى حبل الله للاعتصام به يستلزم التمسّك به، والقبض عليه

بشدّة، حتى يظفر المؤمنون منه بالعصمة المنجية من الهلاك، والاعتصام بحبل الله لا يكفي أن يكون اعتصاماً فَرديّاً، بل لا بدّ من أن يكون اعتصاماً جماعياً، ولذلك قال الله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾أي: حالة كونكم مجتمعين، وأكد ذلك بالنهي عن التفرّق، فقال تعالى عقب ذلك: ﴿ولا تفرّقوا﴾ أي: ولا تتفرّقوا.

وأجرى الله في هذا النصّ مقارنة بين ما كانت عليه الأمة العربية في جاهليتها قبل الإسلام، وما تحوّلت إليه بالإسلام الذي كان نعمة سيقت من الله إليهم.

ألم تكن الأمة العربية قبل الإسلام أمّة مجزّأة مفرّقة متعادية فيما بينها، فألّف الله بين قلوب أفرادها وجماعاتها بالإسلام، فأصبحوا بنعمته إخواناً، بعد أن كانوا أعداءً، وصاروا أمّةً واحدةً مجتمعة على عقيدة واحدة، وقيادة واحدة، فتكوّنت لهم جماعة ذات قوّة عظيمة فاتحة؟؟

ألم تكن الأمة العربية على شفا حفرة من النار بشركهم وظلمهم وفسقهم وعدوانهم، فأنقذهم الله من كل ذلك بالإيمان الصحيح، وبتعاليم الإسلام العظيمة، وبشرائعه المثلى؟؟

وما كان سبب إنقاذها من قبل، وسبب قوتها ووحدتها ومجدها، هو السبب الذي سيظل أبد الدهر لإنقاذها وقوتها ووحدتها ومجدها، وهو السبب الذي يكفل سعادة الناس جميعاً.

١٣ ــ ولم يقتصر مفهوم الجماعة في الإسلام على الحلقة الكبرى التي تربط الرعيّة في الأمّة الواحدة براعيها العامّ، بل تعدّى ذلك إلى الحلقات التي دونها، حتى حلقةِ الأسرة الصغيرة في البيت الواحد، وتتسلسل حلقات الأمة الإسلامية الكبيرة والصغيرة بشكل متداخل، حتى يشعر كلّ بالغ عاقل مكلّف أنه واحد من رعيّة عليها راعٍ فوقها، وواحد من رعية هو راعٍ عليها، فهو مسؤول عن رعيته مسؤوليةً جماعية، ومسؤول عن واجباته تجاه الجماعة، باستثناء الإمام الأكبر للمسلمين، فهو واحد منهم وهو أعلاهم، وملتزم بأوامر

الله ورسوله ونواهيهما. وبهذه الحلقات المتعاقدة المترابطة المتداخلة الصغرى منها والكبرى تدور الأمة الإسلامية في فلك الوحدة الإسلامية، الناظمة للعقول والقلوب في سلك العقائد والمفاهيم الواحدة، والناظمة للقلوب في سلك العاطفة المشتركة الواحدة، والناظمة للسلوك في سلك التعاليم الربانية الواحدة، والناظمة للمجتمع في سلك الإدارة والقيادة العامة الواحدة.

فلم يقتصر مفهوم الجماعة في الإسلام على مفهوم أمّة منبثة الأفراد، ذات حزام واحدٍ يربطها بإدارة واحدة كبرى، بل هي أمة متشابكة تشابكاً عجيباً متداخلاً، مناظراً للتشابك الموجود في خلايا وأعضاء الجسد الواحد، ومنسجماً مع أرقى تجمّع طبيعيٍّ لوحدات من نوع واحد. إنها كالنسيج المحبوك المتداخل بعضه في بعضٍ من كلِّ الجهات، فهو يصمد لأيّة محاولة تمزيق من أي طرف من أطرافه، وليس كالتكتلات الجماعية المنبثة، التي لا يربطها إلّا حزام واحد، هو حزام الإدارة العامة، والتي هي عرضة للتناثر والتفرّق السريع عند أوّل فرصة ينقطع بها الحزام العام، والتي ليس فيها من معاني الجماعة غير الصورة الظاهرة، فمثلها كمثل كوم من رمل محصور بين أربعة جدران.

فإذا انضمّ إلى نسيج الأمة الإسلامية العضوي ما فيه من معاني الأخوّة الإيمانية، والحبّ في الله، والاجتماع على الله، وابتغاء مرضاته في كلّ عمل، ظهرت لنا هذه الأمّة شبكة متداخلة معقدة طبيعية الترابط، صعبة الحلّ على من يريد حلّها، وفي هذا سرّ خلودها، وصمودها ضدَّ عاديات الأعداء الكثيرين المنتشرين في مشارق الأرض ومغاربها.

وفي بيان مسؤولية المؤمن عن رعاية ما تحت سلطانه داخل الأمّة الإسلامية الواحدة الكبرى، يقول الرسول ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر: «ألا كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام الذي على الناس راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده وهي مسؤولة عنهم، وعبد الرجل راعٍ على مال سيّده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته».

وقد هال أعداء المسلمين هذه الوحدة الإسلامية العجيبة، فوضعوا الخطط الخبيثة الماكرة لتفتيتها وتجزئتها، بإفساد العقائد والمفاهيم، وإدخال مفاهيم التجزئة، والعمل على إلغاء نظام الأسرة، وإلغاء جميع الروابط الاجتماعية، وإقامة دويلات متصارعة متناحرة، وإقامة الحواجز المصطنعة الكثيرة.

— ٤ —
المسؤوليات الجماعية

لـمّا أقام الإسلام الأمة الواحدة، وحث المسلمين على الانتظام فيها، وأمرهم بالجماعة في معظم أمورهم، وضعهم أمام مسؤوليات جماعية كثيرة، منها المسؤوليّات التالية:

١ ــ رعاية كل راعٍ لرعيته.
٢ ــ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
٣ ــ التربية والتعليم.
٤ ــ الشورى.
٥ ــ الخدمات والمرافق العامة.
٦ ــ تحقيق الأمن والطمأنينة والاستقرار.
٧ ــ الرّعاية الصحية العامّة.
٨ ــ الزكاة المفروضة، والصدقة العامة.
٩ ــ النفقة الواجبة، وصلة الرحم.
١٠ ــ التعاون على البرّ والتقوى.
١١ ــ زيارة الإخوان في الله، وعيادة المرضى، وتشييع الجنائز، ودفن الموتى.
١٢ ــ إكرام الجار، وإكرام الضيف، والتواصل بالمعروف، والتهادي.
١٣ ــ حفظ عرض المسلم من الانتهاك، وحفظ ماله من الضياع والتلف أو العدوان عليه.

١٤ ــ البعد عن كلّ ظلم وعدوان على الأنفس والأموال والأعراض.

١٥ ــ البعد عن الغيبة والنميمة والهمز واللّمز والشتيمة.

١٦ ــ البعد عن كلّ إضرار بالناس أو إيذاءٍ لهم.

١٧ ــ الجهاد في سبيل الله لصيانة الجماعة الإسلامية من عدوان أعدائها، ولصيانة دينها، وتوسيع دائرة أرضها، وتكثير أعدادها.

١٨ ــ التوادّ والتراحم والتعاطف.

إلى غير ذلك من أمور كثيرة تدخل في حدود المسؤوليات الجماعية، التي من شأنها أن تدعم وحدة جماعة المسلمين، وتوثّق عرى الأخوّة بينهم.

وقد أبرز الرسول ﷺ المفهوم العام للمسؤوليّة الجماعية في صورة تمثيلية بديعة، وذلك في الحديث التالي: روى البخاري والترمذي عن النعمان بن بشير، عن النبـي ﷺ أنه قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قومٍ استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم أسفلها، فكانَ الذين في أسفلها إذا استَقوا من الماء مروا على من فوقهم فآذوهم، فقالوا: لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونجَوْا جميعاً».

في هذا البيان الرائع من كلام الرسول ﷺ نلاحظ بوضوح معاني المسؤولية الجماعية في مفهوم الإسلام؛ فالفرد في مركبة هذه الحياة، أو مجموعة أفراد من أمّة، لا يملكون الحرّية الشخصيّة في أن يفعلوا كلّ ما يريدون. إنّ عليهم مسؤولية جماعية تمنعهم من أن يعملوا أيّ عمل ربّما يكون من نتيجته الإضرار بالجماعة، أو الإضرار بأنفسهم، لأنهم أيضاً جزء من الجماعة، وهم بما يفعلون في أنفسهم من ضرّ يضرّون بالكيان الجماعي الذي هم جزء منه. فإذا تجاوز هؤلاء حدود مسؤوليتهم الجماعية، أو حاولوا تجاوزها، فإنّ على الآخرين من الجماعة مسؤولية ردعهم وكفّهم والأخذ على أيديهم، فإن لم يفعلوا نزلت المصائب بالجماعة كلّها، أمّا المذنبون فبكسبهم الإيجابي، وأمّا الآخرون فبكسبهم السلبي إذ لم يأخذوا على أيدي المذنبين.

إنّ هذا الحديث يصوّر الجماعة بمثابة ركاب سفينة واحدة، وأيّ إضرار أو إفساد في هذه السفينة يتعدّى أثره إلى الجماعة كلّها.

وفي هذا الحديث أيضاً تصوير لحالة أصحاب الأهواء المفسدين في الجماعة، والمتذرّعين بمطلب الحريّة الشخصية، إذ يغالطون الناس بجدليات باطلة، ويزينون أعمالهم التخريبية الهدامة بأصباغ إرادة مصلحة الآخرين، حتى يخادعوهم بذلك، فلا يقاوموهم ولا يأخذوا على أيديهم.

ـ ٥ ـ

العبـادات الجـماعية

صلاة الجماعة في الإسلام من العبادات التي تؤدّي وظائف مُهمّة وعظيمةً من وظائف الروابط الاجتماعية. ولو كان الهدف مجرّد تحقيق عبادةٍ لله تعالى لتيسر هذا عن طريق العبادات التي يؤدّيها المسلم منفرداً بينه وبين ربّه، ولم يُلزم المسلمون بحضور العبادات الجماعيّة، في صلاة الجماعة اليومية، وفي صلاة الجمعة الأسبوعية، وفي صلاة عيد الفطر، وفي صلاة عيد الأضحى.

وعبادة الحجّ الذي هو موسم جامع كبير، يفد إليه المسلمون من شتّى بقاع الأرض، من العبادات الإسلامية ذات السمة الجماعية، فهي منحصرة في زَمانٍ ومكانٍ محدّدين.

إنّ هذه العبادات الجماعية المختلفة، قد شرعت في الإسلام على هذه الشاكلة، لتعميق روح الجماعة في قلب كلّ مسلم، ولتكون مناسبات متكرّرة تشتدّ بها الروابط الاجتماعية بين المسلمين.

ومن أجل ذلك كانت صلاة الجماعة تفضل صلاة المنفرد بسبع وعشرين درجَة، روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذّ بسبع وعشرين درجة».

الفذّ: هو المنفرد.

وبلغ من حرص الإسلام على الجماعة في الصلاة اليومية أنْ همّ الرسول ﷺ بتحريق بيوت أقوام لا يحضرون صلاة الجماعة، روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب، ثمّ آمُر بالصلاة فيؤذّن لها، ثمَّ آمر رجلاً فيؤمّ الناس، ثمّ أخالف إلى رجالٍ لا يشهدون الصلاة فأحرّق عليهم بيوتهم، والذي نفسي بيده، لو يعلم أحدكم أنه يجدُ عَرْقاً سميناً، أو مِرماتين حسنتين لشهد العشاء».

عَرْقاً سميناً: أي عظماً عليه لحم كثير.

مِرْماتين حسنتين: يقول أهل اللّغة في تفسير المرماة: إنها السهم الذي يُرمى به، وقيل: هي أحقر السهام، وتطلق أيضاً على ما بين ظلف الشاة.

والمعنى المراد: أنّ أقلّ مطمع دنيويّ لو وجد مع حضور صلاة الجماعة في وقت العِشاء لكان كفيلاً بجذبكم لشهود هذه الصلاة.

ومن حرص الإسلام على صلاة الجماعة تعميقاً وتدعيماً للروح الجماعية بين المسلمين، نجد في الفقه الإسلامي أنه لو ترك أهل بلد مسلم صلاة الجماعة، كان من حقّ المسلمين تحت لواء قائدهم العامّ أن يقاتلوهم على ذلك، لأنهم قد تركوا شعيرة ظاهرة من شعائر الإسلام.

ولـمّـا اعتذر الأعمى بأنه لا يجد قائداً يقوده لشهود صلاة الجماعة، وسأل الرسول ﷺ أن يرخّص له بالصلاة في بيته، أذن له أوّلاً، ثمّ دعاه، فقال له: «هل تسمع النداء بالصلاة؟» فقال الرجل: نعم. فقال له الرسول ﷺ: «فأجب».

روى مسلم عن أبي هريرة قال: أتى النبي ﷺ رجل أعمى، فقال: يا رسول الله، إنّه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله ﷺ أن يرخّص له فيصلي في بيته، فرخّص له، فلـمّـا ولّى دعاه فقال: «هل تسمع النداء بالصلاة؟» قال: نعم. قال: «فأجب».

ومن روائع حرص الإسلام على الجماعة في الصلاة أحكام صلاة الخوف،

إذ نلاحظ أنّ الإسلام لم يفرّط بصلاة الجماعة حتى في أزمات الحرب وظروفه القاسية، ما لم يكن القتال ملتحماً.

ولضمان مصلحة الأمن، مع المحافظة على الجماعة في الصلاة، ذات المضامين النظاميّة والقيادية والانضباطية، اتخذ الإسلام لصلاة الخوف ترتيباً آخر، غير الترتيب المتبع في صلاة الجماعة عند الأمن، واهتماماً بالأمر نزل به تشريع قرآني، ولم يُكتفَ فيه بمجرّد البيان النبوي، ففي مناسبة ظروف الخوف من مداهمة الأعداء، يقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾ ﴾.

كلّ هذا الحرص الشديد على الجماعة في حدود الصلاة اليومية، أمّا صلاة الجمعة الأسبوعية فهي فريضة لازمة على جماعة المسلمين، وحضورها فرض لازم على كلّ مكلف ذكر، لا عذر عنده من سفر أو مرض أو نحوهما.

أمّا صلاة عيد الفطر وصلاة عيد الأضحى، فهما تشتملان على دعوة جامعة لعدد أوفر من جماعة المسلمين، ففيهما يجتمع مسلمو البلد الواحد في مصلى العيد، ويجتمع معهم وافدون إليها من القرى القريبة، ويحضر معهم النساء والصغار، حتى اللّواتي لا يصلين بسبب أعذارهنّ المشروعة، وفي هذا

الاجتماع العظيم إبرازٌ لمعنى الجماعة في تظاهرة إسلامية كبرى، وتعميق لروح الجماعة في قلوب المسلمين، وفي نفوسهم، وفي كلّ مشاعرهم الوجدانية.

أمّا الحجّ فهو شعيرة دينية فيها تجمُّع أكبر من الأقطار الإسلامية كلها، يحضره كل مسلم مستطيع ذكراً كان أو أنثى في العمر مرّة واحدة على أقل تقدير.

وهكذا تتكامل تجمّعات المسلمين على عبادة الله تعالى منتظمة في حلقات بعضها أكبر من بعض، فالصغيرة منها تكون في كلّ يوم خمس مرّات، والكبيرة نسبيّاً تكون في كلّ أسبوعٍ مرّة واحدة، فيها تعليم وموعظة وصلاة، والأكبر منها تكون في كلّ سنة مرّتين على نطاق البلد الواحد وملحقاته، وفي هذه أيضاً تعليم وموعظة وصلاة، مع تظاهرة إسلامية بالتكبير الجماعي، أمّا الكبرى والتي تكون على نطاق العالم الإسلامي كلّه، فتكون في كلّ سنة مرّة واحدة.

وفي كلّ هذه التجمّعات على ألوان من ألوان العبادات في الإسلام، تظهر أهميّة النظرة الجماعية في أسس التعاليم والشرائع الإسلامية الربّانية.

— ٦ —
التآخي في الله، والتحابب والتوادد، وما يتصل بذلك

(أ) التآخي والتحابب والتوادد في الله:

من تعميق معاني الجماعة في نفوس المسلمين، وتأصيلها في قلوبهم، وتنميتها وتوسيع دائرتها، ما نلاحظه في الإسلام من الدعوة إلى التآخي في الله، والتحابب والتوادد، وأنواع الصلاتِ المادّية التي تمكن ذلك في قلوب أفراد المسلمين، مع ترتيب الأجر العظيم عليها.

وتظهر هذه الدّعوة في نصوص إسلامية كثيرة، منها ما يلي:

١ ــ روى الإمام مالك عن معاذ بن جبل بإسنادٍ صحيح قال: سمعت

رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتباذلين فيّ».

وفي رواية عند الترمذي قال: «يقول الله تعالى: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيّون والشهداء».

وروى أبو داود بسنده عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء، ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله».

قالوا: يا رسول الله تخبرنا من هم؟

قال: «هم قومٌ تحابّوا بروح الله على غير أرحام بينهم، ولا أموالٍ يتعاطونها، فوالله إنّ وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس».

وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية من سورة (يونس ١٠):

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

٢ ــ وإذ عقد الله الأخوة بين المؤمنين، أبان الرسول ﷺ أنّ إيمان المؤمن لا يتم حتى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه، ففي الحديث الصحيح يقول الرسول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه».

(رواه البخاري ومسلم عن أنس)

هذه المحبّة الاجتماعية تجعل الإنسان يحبّ الحقّ، لأنّ الحقّ هو الذي يتمّ به التوفيق السويّ بين مصالح أفراد الجماعة، وهو الذي ينظم علاقاتهم تنظيماً لا إجحاف فيه ولا عدوان، ومن أحبّ الحقّ رضي به لنفسه، ولم يطمع بحقوق الآخرين.

ووجه ارتباط الإيمان بأن يحبّ المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه، أنّ الإيمان الكامل الشامل لأسسه وأركانه وآثاره وثمراته، يشتمل على الجانب الاعتقادي، والجانب الخلقي، والجانب السلوكي، وسائر الجوانب التي أمر بها الإسلام من

حقّ وخير وجمال، ومن أركان الأخلاق الاجتماعية أن يحبّ المؤمن لأخيه ما يحبّ لنفسه.

إنّ المؤمن يحبّ لنفسه الجنة، فعليه أن يحب لأخيه الجنة أيضاً، والمؤمن يحب لنفسه أن لا يعتدي أحدٌ على حقوقه، فعليه أن يحب لأخيه مثل ذلك، والمؤمن يحب لنفسه الخير والتقدّم والكمال، فعليه أن يحبّ لأخيه مثل ذلك. وهكذا إلى سائر ما يحبّ المؤمن لنفسه.

أمّا عقد التآخي بين المؤمنين فقد أعلنه الله بقوله في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

إنّ عناصر الأخوّة في مفهوم الناس لا تعدو أنّها لقاءٌ في النسب على أبوين، أو على أحدهما.

فإذا ارتقينا عالياً فوق الأبوين القريبين، وتسلسلنا مع الآباء والأمّهات، وجدنا أنّ المجموعة البشرية كلها تلتقي على أصل واحد، فبين الناس جميعاً على هذا المعنى المادّي أخوّة عامّة، أعلنها القرآن بقول الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

وأعلنها الرسول ﷺ بقوله: «كلكم لآدم وآدم من تراب».

فهذه الأخوة المتعارف عليها عند الناس لم ينكرها الإسلام، ولكنّه ارتقى بها عن معنى الأخوّة القريبة إلى الأخوة الإنسانية، ثم اعتبر هذا المعنى الجسدي أضعف العناصر التي تشتمل عليها معاني الأخوة الصحيحة، ثم بصر الناس بالعناصر الأهم والأخطر، التي تنعقد بها الأخوة المتينة الصادقة، وهذه العناصر كلّها عناصر سامية راقية، أعمق تغلغلاً في الإنسان من حدود بنائه الجسدي

وروابطه المادّية، وهذه العناصر الراقية العظيمة كلّها تلتقي تحت عنوان الأخوة الإيمانية.

ولدى تحليل عناصر الأخوة الإيمانية تنكشف لنا العناصر التالية:

أولاً: الالتقاء الفكري على عقيدة علمية واحدة.

ثانياً: التقاء قلوب المؤمنين على عاطفة دينيّة واحدة، وأهداف غائية واحدة.

ثالثاً: التقاء أفراد المسلمين على سلوكٍ فردي واجتماعيّ متحد أو متقاربٍ جداً في خطته العامّة، سواء أكان سلوك عبادة، أو سلوك أخلاق، أو سلوكَ آداب، أو سلوك أحكام تشريعية ونظام حياة.

رابعاً: التقاء جماعة المسلمين تحت قيادة واحدة ضمن أسس التعاليم الإسلامية.

إنّ الأخوة الإيمانية القائمة على هذه العناصر أخوةٌ متينة باقية، وعميقة عمق الإيمان في قلوب المؤمنين.

بخلاف الأخوّة القائمة على الالتقاء الجسديّ البحت، الخالي من عناصر الأخوة المعنوية، فإنها من غير الممكن أن تتكوّن منها جماعة صحيحة قويّة، تصمُد لعوامل التمزيق، وعوامل التفكّك والخلاف، لا سيما إذا كان بين أفرادها خلاف فكري، أو خلاف اعتقادي، أو خلاف في المصالح والغايات والأهداف. فمن المشاهد المتكرّر أنّ إخوانَ النسب يتقاتلون متى اختلفت عقائدهم ومصالحهم وأهدافهم في الحياة، وأنّ إخوان الإيمان والحبّ في الله يتعاملون فيما بينهم بالأخوّة، وإن اختلفت مصالحهم الفردية، على أنّ مصالحهم الجماعية العامة مصالح واحدة يعود نفعها وخيرها على الجميع.

وتدعيماً للأخوة الإيمانية العامة أقام الرسول ﷺ روابط ثنائية وثلاثية أو أكثر بين المهاجرين والأنصار بعد أن هاجر إلى المدينة، حتى بلغت حدّ التوارث أوّل الأمر، ثمّ نُسخ حكم التوارث هذا. وفي هذا التآخي التدعيمي

الزائد على الأخوة الإيمانية العامة، جعل الرسول ﷺ جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل أخوين. وجعل أبا بكر وخارجة بن زيد أخوين. وجعل حمزة بن عبدالمطلب وزيد بن حارثة أخوين. وجعل عمر بن الخطاب وعُتبان بن مالك أخوين. وجعل عبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين. وهكذا عقد أخوة خاصة بين أصحابه إضافة إلى الأخوة الإيمانية العامة، وتدعيماً لروح الرابطة الجماعية، وتعميقاً لها في القلوب.

(ب) **الصحبة في الله، والمجالسة في الله:**

١ ــ روى أبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال:

«لا تصاحب إلاّ مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلاّ تقي».

(قال النووي: إسناده لا بأس به)

٢ ــ وروى أبو داود والترمذي بإسناد صحيح عن أبي هريرة، أنّ النبي ﷺ قال:

«الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل».

٣ ــ وروى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري، أنّ النبي ﷺ قال:

«إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسكِ ونافخ الكير، فحامل المسك، إمّا أن يُحْذِيك، وإمّا أن تبتاع منه، وإمّا أن تجد منه ريحاً طيبة. ونافخ الكير، إمّا أن يحرق ثيابك، وإمّا أن تجد منه ريحاً منتناً».

نافخ الكير: هو الحداد. يُحذِيك: يُعطيك، يقال لغة: أحذاه يُحذيه إذا أعطاه. ويقال أيضاً: حَذَاهُ يحذوه حذواً، أي أعطاه. والحَذِيّة والحِذْوة والحُذْيا: العطية.

فالمصاحبة في الله والمجالسة في الله، ممّا حثّ عليه الإسلام، لما فيهما من

تدعيم للروح الجماعية بين المسلمين، وتقوية للمودّات، وشدّ لأواصر الصلات.

وللمصاحبة والمجالسة شروط حتى تكونا إسلاميّتين نافعتين مفيدتين:

الشرط الأول: أن تكونا في الله وابتغاء مرضاته، لا لمجرّد مصالح دنيوية مادّية تقصد.

الشرط الثاني: أن لا تشتمل أيٌّ منهما على معصية لله تعالى.

الشرط الثالث: أن يتناصح الأصحاب والجلساء فيما بينهم، ويتآمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر.

الشرط الرابع: أن يتعاون الأصحاب والجلساء فيما بينهم على البرّ والتقوى، ولا يتعاونوا على الإثم والعدوان ومعصية الرسول.

الشرط الخامس: أن لا تجر أيٌّ منهما إلى مناصرةٍ وتأييد بالباطل ضدّ أصحاب الحق، تأثراً بعصبية المصاحبة أو المجالسة.

وتحذيراً من جليس السوء وترغيباً بالجليس الصالح ضرب الرسول ﷺ مثلاً لكلٍّ منهما.

فمثَّل الجليس الصالح بحامل المسك، ومثّل جليس السوء بنافخ الكير، وهو الحدّاد الذي ينفخ في كيره.

فالجليس الصالح ينفع جليسه في كلّ حال، إنه كحامل المسك، إذا لم تشتر منه ولم يمنحك منه عطيّة استمتعت من مجالسته بريح طيبة. وهكذا من يجالس أهل العلم والفضل والصلاح، فإمّا أن يسألهم ويأخذ منهم علماً أو نصيحة، وإمّا أن يبدأوه بتعليم أو نصيحة ولو لم يسألهم، وإمّا أن يجدهم على عمل صالح فينتفع منهم بالاقتداء وتأثير العدوى الصالحة، وإمّا أن يجمع كلّ ذلك، وفي كلّ ذلك خير عظيم.

أمّا جليس السوء فإنه يؤذي جليسه على كلّ حال، فهو كالحدّاد الذي

ينفخ في كيره، ويضربُ على محميّ حديده، إذا لم يَطر شيء من شرار ناره على ثيابك فيحرقها وجدت من حديده وناره وكلّ ما يحيط به ريحاً منتنة مؤذية. وهكذا من يصاحب أو يجالس أهل السوء والفحش والمعصية، فهو إمّا أن ينساق معهم إلى مواقع الإثم التي هم فيها، فتمسه نار المعصية، وإمّا أن يجد ما يؤذيه من قول أو عمل أو قدوة سيّئة.

ففي هذا المثل البديع وفاء بغرض النصيحة والإرشاد، وتوجيه غير مباشر يدخل إلى النفوس ويؤثر فيها دون أن تصدّه عقبة، وفيه تمثيل المعاني الفكرية والنفسية بأشياء مدركة بالحسّ، ومعلوم أنّ المدركات الحسية أثبت في النفوس وأرسخ من المعاني المجرّدة.

يضاف إلى ذلك أنّ الأمثال البديعة تحتوي على ألوان من الجمال الفني الممتع للنفوس، والإمتاع طريق قريب للتأثير في النفوس، وتقبُّلِها لما جاء مُغلّفاً فيها.

وفي التوجيه الصريح لمصاحبة الصالحين، والابتعاد عن مصاحبة أهل السوء ودعاة الشرّ والفساد، جاء في قول الرسول ﷺ:

«لا تصاحب إلاّ مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلاّ تقي».

ويقول الناس في حكمهم السائرة: الصاحب ساحب، فإن كان صالحاً سحب صاحبه إلى الخير والصلاح، وإن كان سيئاً فاسداً خبيثاً سحب صاحبه إلى مواقع السوء والفساد والخبث.

وقد أحسن الشاعر في قوله:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه   فكلّ قرينٍ بالمقارن يقتدي

وحين ترتقي الصحبة إلى مرتبة المودّة والمخاللة فإنّها تكون حينئذٍ أخطر، ويكون أثرها في النفس أعمق. والأقوى إرادة من الخليلين هو الذي يجرّ صاحبه إلى مواقعه، مهما كانت مواقع خير أو مواقع شرّ، ويظل التقارب بين وجهتيهما يزيد شيئاً فشيئاً حتى يكونا بمثابة نفس واحدة ذات نسختين، وحتى يكونا على

دين واحد في الفكر والسلوك، وبياناً لهذه الحقيقة من حقائق الاجتماع الإنساني يقول الرسول ﷺ : «الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل».

الفكر من الفكر يسرق، والنفس من النفس تسرق، والطبع من الطبع يسرق، والخلق من الخلق يسرق، وسبب ذلك الصحبة والمودّة، أو الإعجاب والإكبار، أو الغيرة والحسد، وأعظم كلّ ذلك تأثيراً الخلّة، فالخليل يسرق من طباع خليله وأخلاقه ونفسه وفكره ما لا يسرق منه أي شخص آخر، وعلة ذلك التجاور المنسجم مع ميول النفس وأهوائها، وهكذا تكون العدوى الأخلاقية، حسنة كانت أو قبيحة.

فعلى العاقل أن يحسن انتقاء أصدقائه، وأن يحسن انتقاء الأصدقاء والرفقاء لأبنائه أو تلامذته، ولكل من يشرف على تربيتهم. وهذا من الواجبات التي تفرضها أصول التربية الإسلامية.

(ج) التزاور بين الإخوان في الله:

١ ــ روى الترمذي بإسناد حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ :

«من عاد مريضاً أو زار أخاً في الله ناداه منادٍ، بأن طبت وطاب ممشاك، وتبوّأت من الجنّة منزلاً».

ناداه منادٍ: يظهر أنه من الملائكة التي تدعو للمؤمنين وتستغفر لهم.

٢ ــ وروى مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ :

«أنّ رجلاً زار أخاً له في قريةٍ أخرى، فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً، فلمّا أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تَرُبُّها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله، قال: فإني رسول الله إليك بأنّ الله قد أحبّك كما أحببته فيه».

فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً: أي وكلّ به ملكاً يرصُد مَقْدَمه على طريقه الذي يسير فيه.

هل لك عليه من نعمةٍ تربُّها: أي تحفظها وتربيها وتسعى في صلاحها.

٣ ــ وروى الإمام مالك بإسنادٍ صحيح عن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«قال الله تعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيَّ والمتجالسين فيَّ والمتزاورين فيّ، والمتباذلين فيّ».

٤ ــ وروى مسلم عن أنس قال: قال أبو بكر لعمر بعد وفاة رسول الله ﷺ: انطلق بنا إلى أمّ أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلـمّـا انتهيا إليها بكت. فقالا لها: ما يبكيك أمَا تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ؟ فقالت: إني لا أبكي أني لا أعلم أنّ ما عند الله تعالى خير لرسول الله ﷺ، ولكن أبكيّ أنّ الوحي قد انقطع من السماء. فهيّجتْهُما على البكاء، فجعلا يبكيان معها.

التزاور في الله ظاهرة من ظواهر المجتمع المسلم العامل بتعاليم الإسلام، والحريص على تطبيق وصايا الرسول ﷺ، لأن التزاور بين الإخوان في الله من شأنه أن يدعم أواصر الجماعة، ويقوّي الروح الجماعيّة ويوسّع مجالاتها ويمدّ آثارها، ويقوّي المودّات، ويزيد وشائج الصّلات.

من أجل ذلك حثّ الإسلام على التزاور بين المسلمين، لا سيما من كان بينهم تآخٍ في الله، ولا سيما زيارة العلماء والصالحين وأهل الخير، فإنّ زيارتهم ومجالستهم نافعة ومفيدة، وجالبة لخير كثير، بخلاف مجالسة أهل السوء ودعاة الشرّ، فإنّها مضرّة ومؤذية وجالبة لشرٍّ أو تهمة بشرّ.

فمن عاد مريضاً أو زار أخاً في الله ناداه منادٍ من ملائكة الرحمة: بأن طبت وطاب ممشاك، وتبوّأت من الجنّة منزلاً.

ولـما للتّزاور في الله والحبّ في الله من قيمة عند الله تعالى أرسل الله ملكاً من ملائكته، ليبشر مؤمناً قصد أخاً له في الله يسكن في قرية غير قريته، فمشى إليه مخلصاً في زيارته. وقد ترصّده الملك في طريقه، فلـمّـا وصل إليه سأله عن

قصده، فأخبره أنه يريد زيارة أخٍ له في الله في هذه القرية، فسأله الملك: هل لك عليه من نعمة تريد أن تحفظها وتستثمرها عنده؟. فقال له الرجل: لا، غير أني أحببته في الله.

عندئذٍ قال له الملك: فإني رسول الله إليك بأنّ الله قد أحبّك كما أحببته.

فكان ثوابه عند الله من جنس عمله، إذْ أحبه الله كما أحب أخاه في الله.

وهذا الثواب قد أوجبه الله على نفسه كما أخبرنا الرسول ﷺ عنه في الحديث القدسي: «وجبت محبتي للمتحابّين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيَّ، والمتباذلين فيّ».

وليس هذا خاصّاً في الرجال، بل هو عامٌّ في الرجال والنساء، فتزور المؤمنات أخواتهن في الله، ويتحابَبْن، ويتجالسن ويتباذلنَ في الله.

ودلّ فعل الرسول ﷺ وفعل أصحابه على أنّ من الخير زيارة الفضليات الكبيرات من المؤمنات، وهو ما كان يفعله الرسول ﷺ مع أمّ أيمن وفعله من بعده أبو بكر وعمر معها اقتداءً بالرسول ﷺ.

ولكن يشترط في زيارة الرجال للنساء الفضليات وزيارة النساء للرجال الفضلاء؛ أن لا يكون فيها خلوة، ولا كشف ما أمر الله بستره، ولا ما فيه ريبة، ويشترط أن تكون مصحوبة بغضّ البصر وحفظ اللسان، وأن تكون على خير يرضي الله تعالى، كمجالس العلم والذكر، ومجالس الموعظة والدعوة إلى الله، ومجالس التشاور فيما يصلح أحوال المسلمين وينهض بشؤونهم، ويردّهم إلى منهج الحقّ رداً جميلاً، ومجالس التخطيط للأعمال الإسلامية، من دعوة وتعليم وجهاد وبذلٍ في سبيل الله، إلى غير ذلك من أمور فيها مرضاة الله والرسول.

ويحسن بهذه المناسبة الإلماح إلى أنّ من التقصيرات التي وقع فيها العاملون في سبيل الله خلال القرون المتأخرة، أنّهم أهملوا دور المرأة في الحياة، فعزلوها عن العمل الإسلامي، وحجبوها عن المشاركة في أنواع جهاد الدعوة إلى الله، وأهملوا العناية بها واستغلال طاقتها لبناء المجتمع الإسلامي المتكامل.

فلمّا جاء دور الحضارة الأوروبية المادّية التي غزت العالم الإسلامي وجد دعاتها المرأة مرتعاً خصيباً، وأداة مهيَّأة طيّعة لنشر ما يبتغون من فساد في المجتمعات الإسلامية، وأخذوا يمتصّون الطاقات النسائية شيئاً فشيئاً، والمسلمون في غفلة عن هذا من جهة، وجمود عن القيام بحركات مضادّة من جهة ثانية، حتى سقطت المرأة بصفة عامّة في حبائل أعداء الإسلام، بدءاً من مثقفات الرعيل الأوَّل، ونساء كبراء القوم وأغنيائهم، ثم انتشر الفساد واستشرى، ومعلوم أنّ السلاح لا يقابل إلا بمثله أوأقوى منه، وأن الإسلام في دعوته الأولى اهتم بالمرأة وأشركها في معظم الأمور الإسلامية العامة.

(د) في إطعام الطعام:

ودعماً للروابط الاجتماعية بين المسلمين حث الإسلام على إطعام الطعام، ودعوة ذوي الحاجة للمشاركة في تناول الطعام.

فمن ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«طعام الاثنين كافي الثلاثة، وطعام الثلاثة كافي الأربعة».

وروى مسلم عن جابر بن عبدالله، عن النبي ﷺ قال:

«طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية».

ففي هذا الإرشاد النبوي توجيه لبذل الطعام، وتوجيه للاكتفاء بالحاجة، وبذل ما زاد عليها لذوي الحاجة، وفيه دلالة على أن الله تعالى يطرح البركة في الطعام حينما يطعم منه المؤمن إخوانه في الله ابتغاء مرضاة الله.

وروى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنّ الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قلّ عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسويّة، فهم منّي وأنا منهم».

أي فهم من أهل طريقتي الخاصة في هذا المجال، وأنا من أهل طريقتهم الخاصة في هذا المجال، لأنهم يشعرون بالمعنى الجماعي المتكامل المتضامن، الذي تقوم الجماعة فيه بفضائل المواساة والإيثار والمشاركة في الخير، والشعور بمعنى الجسدية الواحدة.

إذا أرملوا: أي إذا قاربت أزوادهم أن تفنى، وجعلت أيدي الآخذين منها تصل إلى الرمل الذي يكون في أسفل الأزواد.

وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ، إذ جاء رجل على راحلة له، فجعل يصرف بصره يميناً وشمالاً (أي من الجوع) فقال رسول الله ﷺ: «من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضلٌ من زادٍ فليعُد به على من لا زاد له»، فذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لا حقّ لأحدٍ منّا في فضل.

— ٧ —
ظاهرة التعاون الجماعي على البر والتقوى

(أ) في التعاون على البر والتقوى بشكل عام:

من ظواهر الروح الجماعية التي غذّاها ونمّاها وأصّلها الإسلام في قلوب المسلمين ظاهرة التعاون الجماعي.

إنّ التعاون الجماعي ينأى بالإنسان عن الانعزالية أوّلاً، ثمّ ينأى به نفسيّاً عن الانفرادية وقبائحها الأنانية المفرطة، ويحقق معنى الجسديّة الواحدة، ويهيّىء المناخ المناسب لإقامة جلائل الأعمال العلمية والتطبيقية.

ولذلك أمر الله تعالى في كتابه بمبدأ التعاون، إلاّ أنه قيّده بأن يكون تعاوناً على البرّ والتقوى، لا تعاوناً على الإثم والعدوان.

إنّ الشياطين فيما بينهم، ودعاة الشرّ والإفساد، والمجرمين، وعصابات

اللصوص، وأحزاب الفتنة، ومنظمات الإضلال، كلّ هؤلاء يتعاون أفرادهم فيما بينهم على الإثم والعدوان، والشرّ والإفساد، وخراب العمران.

أمّا تعاون المؤمنين بالله المتبعين لتعاليم الإسلام ووصاياه، فهو تعاون على البرّ والتقوى في أعمال جماعية نافعة للإنسانية، رافعة لجماعة المسلمين، قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾.

ومن التعاون التناجي في السرّ والمشاركة في الرأي، ولذلك نهى الله عن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، قال الله تعالى في سورة (المجادلة ٥٨):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾.

فلم يجعل القرآن ظاهرة التعاون ظاهرة خيرةً، ما لم يكن تعاوناً على فعل الخير، فإذا كان كذلك فالإسلام يأمر به، لأنه يكون حينئذ وسيلة لتحقيق خير عظيم ومنافع جسيمة، ويكون تدعيماً صالحاً للروح الجماعية بين المسلمين، وصارفاً عن الانعزالية والانفرادية اللتين تُعمّقان في نفس الفرد مشاعر الأنانية المفرطة القبيحة، وتولّدان عنده وحشيّة منفّرة، وتنأيان به عن معارج الكمال الإنساني.

وللتعاون مظاهر كثيرة جدّاً، منها التعاون في الفكر، والتعاون في المال، والتعاون في الأجسام والأعمال، والتعاون النفسي والوجداني في الأفراح والأحزان، إلى غير ذلك من أمور كثيرة.

ولذلك حثّ الرسول ﷺ على فضيلة التعاون، في مناسبات كثيرة، منها ما يلي:

(أ) قول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح: «وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو تحمل له عليها صدقة، وأمرٌ بمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة».

(ب) وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أحدكم مرآةُ أخيه، فإن رأى به أذىً فليمط عنه».

وفي رواية لأبي داود والترمذي «المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يكُفّ عنه ضيعته، ويحوطه من ورائه».

الضيعة: تأتي بمعنيين، **الأول**: الصنعة والحرفة وما يكتسب به الإنسان معاشه ومن ذلك التجارة والأرض الزراعية وغير ذلك، **الثاني**: الضياع المفضي إلى الهلاك والتلف، وهذا المعنى هو الأنسب للمراد، فيكفّ المؤمن عن أخيه ضيعته بمعنى يدفع عنه الضياع والهلاك.

والحث على التعاون ظاهر جدّاً في عرض هذه الصورة التمثيلية التي جعل الرسول ﷺ المؤمن فيها مرآة أخيه، فإذا رأى في أخيه أذىً أماطه عنه.

إنه لولا التعاون الجماعي لم تظهر في عالم الناس جلائل الأعمال الكبرى، ما كان منها علميّاً، وما كان منها عمليّاً.

من ذلك سد ذي القرنين الذي حدثنا القرآن عنه، فهو عمل من أضخم الأعمال التي قام بها الناس في العصور القديمة بفضل التعاون.

وقصة ذلك أنّ الصينيين من سكان البلاد الواقعة من دون موقع السدّ، اشتكَوْا للفاتح العظيم المؤمن ذي القرنين، ما تفعله قبائل يأجوج ومأجوج فيهم من إغارات مستمرّة عليهم، وإفساد كبير في الأرض، وعرضوا عليه أن يقيم لهم بين مواقعهم ومواقع يأجوج ومأجوج سداً عظيماً، تحجز هذه القبائل عن أعمال الإغارة والإفساد، وذلك مقابل أجر يدفعونه له، ووافق ذو القرنين على طلبهم هذا إلّا أنه طلب منهم أن يعينوه بقوة، ليقيم لهم هذا السدّ العظيم، ففعلوا، وأتمّ ذو القرنين عمله الكبير بفضل التعاون الجماعي. قال الله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾.

زبر الحديد: قطع الحديد.
الصدفان: الناحيتان من الجبل.
القطر: النحاس المذاب.

ومن التعاون الجماعي الشورى، فهي تعاون في مجال البحث الفكري، لذلك أمر الله بها رسوله، وجعل الشورى من صفات المؤمنين.

ومن التعاون الجماعي الزكاة في الإسلام، ولذلك سميت ماعوناً، اشتقاقاً من كلمة المعونة، قال الله تعالى في سورة (الماعون ١٠٧):

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾.

يمنعون الماعون: يمنعون المعونة، والزكاة رأس المعونات الواجبة المفروضة.

ومن التعاون الجماعي التيسير على المعسر، وستر الأخ أخاه، وإعارته المتاع، ومؤازرته في أعماله الخيرة أو في حاجاته المباحة شرعاً، ونصيحته في أموره، وإرشاده إلى سبيل السداد، وتعليمه الخير، والشفاعة الحسنة له، روى مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «من يسر على معسر في الدنيا يَسّرَ الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً في الدنيا ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه».

ومن التعاون الجماعي التواصي بالحقّ والتواصي بالصبر، قال الله تعالى في سورة (العصر ١٠٣):

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

(ب) في التعاون على الخير والدلالة عليه:

روى مسلم عن عقبة بن عمرو الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ:

«من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله».

وروى مسلم عن أبـي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«من دعا إلى هُدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا يَنْقُص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً».

وفي حديث المضريّين الذي رواه مسلم عن جرير بن عبدالله البجلي، قال رسول الله ﷺ:

«من سَنّ في الإسلام سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن يَنقُص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيّئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن يَنقُص من أوزارهم شيء».

وروى البخاري ومسلم عن أبـي موسى الأشعري، أنّ النبـي ﷺ قال:

«الخازن المسلم الأمين الذي يُنفّذ ما أمر به فيعطيه كاملاً مُوَفّراً طيّبة به نفسه، فيدفعه إلى الذي أمر له به، أحد المتصدّقين».

ففي هذه الأحاديث دعوة إلى التعاون على الخير والدلالة عليه، وتحذير من التعاون على الإثم والدلالة عليه.

والتعاون لا يقتصر على الأمور المادية، بل يشمل الأمور المعنوية، فمن

ذلك التعاون في الفكر، وفي الجاه، وفي النصيحة، وفي الشفاعة الحسنة، وفي الدلالة على الخير، وفي التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر، وفي المشاركة الوجدانية، إلى غير ذلك من أمور كثيرة.

فمن دلّ على خير كان له عند الله مثل أجر فاعله، وفي هذا تشجيع عظيم على التعاون في الدلالة على فعل الخير.

ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، وفي هذا تشجيع عظيم أيضاً على التعاون على الخير، بدعوة الناس إلى الهدى، ومساعدتهم بالتعليم، وتنشيط هممهم لالتزام طريق الهدى، وشدّ أزرهم حتى يتغلّبوا على نفوسهم وأهوائهم.

ومن سنّ سنّة حسنة كان له مثل أجور من تبعه لأنه أعان بعمله المتباطئين على نفوسهم، فجعلهم يقتدون به، ويعملون مثل عمله منافسة أو غيرة أو اقتداءً حسناً.

وفي مقابل كلّ ذلك تأتي الدلالة على الشرّ، والدعوة إلى ضلالة، والبدء بسنّة سيئة، فلهؤلاء من الأوزار مثل أوزار من تأثر بهم واتبعهم.

حتى الخازن المسلم الأمين الذي ينفّذ ما أمر به، فيعطيه كاملاً مُوَفّراً طيبة به نفسه، فيدفعه إلى الذي أمر له به، هو أحد المتصدّقين، لأنه أعان الباذل، فنفّذ ما أمره به، ولو شاء لاتخذ المعاذير، وثبّط همة الباذل، وشجّعه على البخل، كما يفعل كثير من المحاسبين عند أرباب الأعمال، وأمناء الصناديق، إذ يكونون عوناً للشيطان على ما يدعو إليه من البخل بالخير.

(ج) في المعونة بالشفاعة الحسنة:

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال:

«اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيّه ما شاء».

في هذا الحديث حثٌّ على المعونة بالشفاعة الحسنة، والمعونة ترجع إلى خلق حبّ العطاء، كما ترجع أيضاً إلى الدافع الجماعي.

والشفاعة تقوية لطلب صاحب الحاجة بطلب شفيع له ذي مكانة عند من لديه تلبية الطلب، فربّما يكون صاحب الحاجة ضعيف التأثير على من تكون حاجته عنده، لأنه مجهول لديه، أو لأنّه مذنب تجاهه، أو لأنّ بينهما جفوةً ما، أو لغير ذلك من أسباب كثيرة يصعب حصرها، فيلتمس شفيعاً يساعده في توجيه الطلب أو الالتماس من أجله، ويتحرّى أن يكون هذا الشفيع من ذوي المكانة أو أصحاب الدالّة لدى من عنده تلبية الطلب أو رفضه، فإذا شفع له عنده نال بغيته وظفر بمطلوبه، فيكون الشفيع قد منحه من جاهه ومكانته لدى من شفع له عنده، فإذا قال في شفاعته قولاً حسناً فقد منحه من كلامه، وإذا سار معه مسافة ليشفع له فقد منحه من جهده ووقته، وإذا خسر من ماله شيئاً في هذا السبيل فقد منحه أيضاً من ماله، وإذا شاركه في مشاعره وأحاسيسه فقد منحه أيضاً من قلبه ونفسه.

وإذا كانت الشفاعة له عند الله بدعوة صالحة كدعوة الأخ المسلم لأخيه، ودعوة الولد الصالح لأمّه وأبيه، ودعوة الحيّ للميّتِ بالصلاة عليه، فإنّ الشفاعة حينئذ عبادة محضة لله تعالى صادقة ومخلصة، والله ينظر إلى الشفعاء فيها نظرة رحمة وتكريم، فيعطيهم أفضل ممّا شفعوا به لإخوانهم، على أنّ كل شفاعة حسنة ولو لم تكن من صور العبادات المحضة هي طاعة لله تعالى.

والشفاعة الحسنة بين المسلمين مظهر من مظاهر الجسدية الواحدة، التي يتشاركون بها في مشاعر التوادّ والتراحم والتعاطف، ويتشاركون بها في مشاعر الآلام والمسرّات، وبها يتساعدون ويتساندون ويتعاونون.

من أجل ذلك حثّ الله تبارك وتعالى على الشفاعة الحسنة، فقال سبحانه في سورة (النساء ٤):

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾.

يكن له كِفلٌ منها: أي يكن له نصيب منها، فالكفل بمعنى النصيب[1]، فمن يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب من الأجر على شفاعته، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كِفلٌ من الإثم على شفاعته، والشفاعة السيئة هي الشفاعة في الإثم أو العدوان أو معصية الله والرسول.

ولذلك غضب رسول الله ﷺ حينما شفع لديه أسامة بن زيد في المرأة المخزوميّة التي سرقت ووجب في شأنها حدّ السّرقة، وقال له: «أتشفع في حدٍّ من حدود الله، والله لو أن فاطمة بنت محمدّ سرقت لقطعت يدها».

وفي قول الرسول ﷺ: «اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيّه ما شاء» حثّ على الشفاعة الحسنة، فهو يطلب من أصحابه أن يشفعوا لذوي الحاجات عنده، سواء أكان الرسول ﷺ مستعدّاً لتلبية طلب الشفعاء أو لم يكن مستعدّاً لذلك.

وفي هذا توجيه لهم أنه لا ينبغي أن يربطوا شفاعتهم برجاء الإجابة، فإنهم يؤجرون على شفاعتهم مهما كانت النتائج، وأنه ينبغي أيضاً أن لا تتأثر قلوبهم إذا لم يجابوا إلى ما شفعوا فيه، فالأمور مرهونة بالقضاء الرّبّاني، وهذا القضاء ينبغي للمؤمن أن يتقبّله بالرّضا التامّ.

فأعطاهم الرسول ﷺ قاعدة أجر الشفاعة الحسنة، فقال لهم: «اشفعوا تؤجروا» ثمّ أشار لهم إلى المعاني الأخرى، فقال لهم: «ويقضي الله على لسان نبيّه ما شاء».

وقد سبق شرح ظاهرة الشفاعة لدى شرح ظواهر خلق الرحمة.

---

(١) من لطائف الأدب القرآني أنه حينما يكون للمعنى الواحد مترادفان، وهذا المعنى يكون مرة في جانب الخير وأخرى في جانب الشرّ، فإنّ القرآن كثيراً ما يلجأ إلى تخصيص أحد المترادفين في جانب الخير، وتخصيص الآخر في جانب الشرّ، لا سيما إذا اجتمع الأمران في كلام واحد، وفي هذا الفنّ البلاغي جمال يدركه أصحاب الذوق الرفيع.

(د) في التعاون بتجهيز المجاهدين وأنه من الجهاد:

روى البخاري ومسلم عن زيد بن خالد الجُهَني قال: قال رسول الله ﷺ:

«من جهّز غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا».

وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ بعث بعثاً إلى بني لِحْيَانَ من هذيل، فقال:

«لينبعثْ من كلّ رجلين أحدُهما والأجر بينهما».

وروى مسلم عن أنس بن مالك، أنّ فتى من أسْلَم قال: يا رسول الله، إني أريد الغزو وليس معي ما أتجهّز به، قال:

«ائت فلاناً فإنّه قد تجهّز فمرض» فأتاه فقال: إنّ رسول الله ﷺ يقرئك السلام ويقول: «أعطني الذي تجهّزت به، فقال: يا فلانة أعطيه الذي تجهّزت به ولا تحبسي منه شيئاً، فوالله لا تحبسي منه شيئاً فيبارَكَ لك فيه».

دلت هذه الأحاديث على تربية المسلمين على خلق التعاون في أعمال الخير، فالتعاون مظهر من مظاهر وحدة الجماعة، القائمة على الأخوة الصادقة، وعلى الترابط بين أفرادها بالتوادّ والتراحم والتناصر والتآزر على البرّ والتقوى.

قد يستطيع الفرد المساهمة في بعض عمل الخير، ولا يستطيع القيام بنفسه بكل العمل، في حين أن فرداً قد يستطيع القيام بما يعجز عنه صاحبه، ومساهمة كلٍّ منهُمَا بالجانب الذي يستطيعه من العمل يحقق مبدأ التّكامل، فكلّ من المتعاونين يكمّل صاحبه، فتُستوفى باجتماعهما الشروط اللازمة للعمل المقصود، وبتحقيق هذا المبدأ من مبادىء العمل المنتج يُسْتطاع القيام بجلائل الأعمال التي لا يستطيع الأفراد القيام بها وهم أفراد، لكنّهم يستطيعون القيام بها وهم جماعات متعاونون.

لذلك كان التعاون الجماعي خلقاً من الأخلاق الإسلامية التي حثّ الإسلام عليها، ودعا إليها بإلحاح، وقدّم ما يلزم لتربية المسلمين عليها.

ولذلك جعل الإسلام ثواب من ساهم في فعل الخير مساهمة يتوقف عليها فعل الخير كثوابه فيما لو فعل الخير كلّه بنفسه، تشجيعاً على التعاون، وصرفاً عن الانفرادية وحبّ الاستقلال بالعمل.

وهذا المفهوم الإسلامي نلاحظ الدلالة عليه في نصوص كثيرة، منها النصوص السابقة.

فمن جهّز غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومن خَلَف غازياً في أهله بخير فقد غزا.

إن الغازي قد يعجز عن الخروج في سبيل الله لولا معاونة من جهّزه بالعدّة، أو لولا معاونة من خلفه في أهله للقيام بشؤونهم وحمايتهم، ومن تعاونهما يتهيّأ غازٍ كامل العدّة قادر على الخروج. لذلك كان لكلّ منهما عند الله أجر غازٍ في سبيل الله، وفضل الله في العطاء واسع، ويرجع تقدير نسبة الأجر إلى ما يعلم الله من صدق كلٍّ منهما في بذل المال أو النفس.

وقد يدلّ ما جاء في حديث أبي سعيد الخدري: «والأجر بينهما» على تقاسمهما الأجر، إلّا أنّ نصف الأجر العظيم الذي يضاعف قد يساوي أجراً كاملاً، فالمقصود أنّ لكلٍّ منهما أجراً، وتقدير الأجر يرجع إلى فضل الله.

ودلّت نصوص كثيرة على أنّ من دلّ على خير كان له مثل أجر فاعله، ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، وأنّ من أعان على بذل الصدقة كان أحد المتصدّقين، إلى غير ذلك، فالأجر عطاء من بحر فضل الله، ولا حجر على فضل الله وجوده، ولكنّ لله تعالى في كلّ أموره حكماً عظيمة يراعي فيها حقائق الأمور وبواطنها وما تؤول إليه.

وفي حديث أنس نشاهد صورة تدريبية عملية من صور دعم مبدأ التعاون الجماعي، فهذا رجل تجهّز للجهاد فأقعده المرض، وهذا رجل يريد الخروج ولكن ليس عنده ما يتجهّز به، فيأمر الرسول ﷺ هذا بأن يأخذ جهاز هذا، ليجتمع من مستطاع الرجلين غازٍ مجاهد في سبيل الله، ولولا الأخذ بهذا المبدأ التعاوني

لقعدا جميعاً عن الخروج، مع أنّ أحدهما يملك العدّة وليس لديه قدرة جسدية، والآخر يملك القدرة الجسدية وليس عنده العدة.

(هـ) في ضوابط المعونة والمناصرة:

روى البخاري عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ:

«انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً».

فقال رجل: يا رسول الله، أنصُره إذا كان مظلوماً، أرأيت إن كان ظالماً كيف أنصرُه؟ قال:

«تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإنّ ذلك نصره».

في هذا الحديث أمر بالتعاون في موضوع التناصر بالحق، وهذا التناصر من أخلاق المسلمين الجماعية، فمن وجدَ أخاه المسلم مظلوماً وكان باستطاعته أن ينصره ويدفع عنه الظلم فعليه أن ينصره على مقدار استطاعته، ولو بكلمة طيبة، أو بشهادة نافعة، أو بشفاعة حسنة، ويأتي فوق ذلك نصره بصفة عملية، كاستخدام قوّة السلطان الماديّة أو المعنوية، أو استخدام المكانة الاجتماعية، أو غير ذلك من أنواع النصرة العملية.

وقد أضاف الحديث هنا معنىً جديداً للنُّصرة، وهو نصرة الأخ الظالم، فبيّن الرسول ﷺ أنّ نصرة الظالم تكون بحجزه عن الظلم ومنعه منه، وهذا هو النصر الحقيقي له، لا معونتهُ على ظلمه، لأنّ حجزه عن الظلم ومنعه منه نصرٌ له على نفسه وأهوائها الجانحة عن سبيل الحق، ونصر له على وساوس شياطين الإنس والجن وتسويلاتهم، وفي هذا إنقاذ له من عقاب الله وعذابه، وإنقاذ له من خساسة الجريمة، وحماية له من دنس الإثم والعدوان.

أمّا نصره بمعنى معاونته على الظلم وشدّ أزره فيه، فهو في الحقيقة ليس بنصر له، بل هو خذلان له ونصر لأعدائه عليه، وأعداؤه هنا أهواؤه وشهواته الجانحة الجامحة، وشياطينه الذين يدفعونه إلى هلاكه وشقائه، ويزيّنون له مسالك الآثمين، وأن يركب مراكب الظالمين، وأن يكون من المعتدين.

وتظهر براعة الرسول التعليمية هنا في طرحه الكلام الذي يوهم في ظاهره معنىً غير مراد، ليثير في نفوس المخاطبين إشكالاً يدعوهم إلى الاستفسار عن الحقيقة، وقد كان الرسول ﷺ واثقاً من أن الكلام لن يمرّ دون أن يثير إشكالاً واستفساراً في نفوس أصحابه، لأنّه كان يعلمهم ما يجب عليهم أن يفعلوه مع الظالم، من ردعه عن الظلم ونصرة المظلوم عليه. ولكنّه في هذا الموقف أراد أن ينبّههم إلى معنى دقيق من معاني النصرة الحقيقية، وهو المعنى الذي بيّنه لهم، بعد أن أثار في نفوسهم الإشكال ودعاهم إلى الاستفسار. ومن المعروف في الطرق التعليمية أنّ من أحسن وسائل التعليم النظري ما يكون عقب هزّة نفسيّة تثير انتباهاً زائداً أو إشكالاً قويّاً، بشرط أن يكون البيان بعد ذلك حلاً كافياً وواضحاً لما حدث في النفس من تساؤل، ولما قام في الموضوع من إشكال.

وكان من ضمن المفاهيم الجاهلية التناصر القومي أو القبلي أو العائليّ بالحقّ وبالباطل، فمتى كان فردٌ من قبيلةٍ نصره أهل قبيلتهِ على من خالفه من غير أهلها، ولو كان هو الظالم المعتدي وكان من خالفه هو المظلوم المعتدَى عليه. وكذلك الأسرة الواحدة تنصر ظالمها على المظلوم من أسرة أخرى، وهكذا في كلّ الدوائر القبلية والعنصرية والأسريّة.

ولـمّا جاء الإسلام ألغى هذا المفهوم العصبيّ الذي يتنافى مع أوليّات الأسس التي تقوم عليها مكارم الأخلاق، وصحّح في نفوس المسلمين وأفكارهم ذلك، وأحلّ محلّه المفهوم الأخلاقي الكريم الذي تعبر عنه في السلوك الأخلاقي نصرة المظلوم على الظالم، مهما كان المظلوم بعيداً والظالم ذا قربى.

وإعلان هذا المفهوم الإسلامي جاء في نصوص كثيرة، منها قول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ . . . ﴿١٥٢﴾﴾.

ومنها قول الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا

يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

فالمفروض في أخلاق المسلم أن ينصر المظلوم ولو كان من قوم بُعداء على الظالم ولو كان ذا قربى.

— ٨ —

في حقوق المسلمين بعضهم على بعض والحث على دعم أواصر الجماعة

(أ) مما ورد في حقّ المسلم على المسلم:

١ — روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال:

«حقّ المسلم على المسلم خمس: ردّ السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس».

وفي رواية لمسلم:

«حقّ المسلم على المسلم ستٌّ: إذا لقيته فسلّم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمّته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتّبعه».

٢ — وروى البخاري ومسلم عن البراء بن عازب قال: «أمرنا رسول الله ﷺ بسبع: أمرنا بعيادة المريض، واتباع الجنازة، وتشميت العاطس، وإبرار الـمُقْسِم، ونصْرِ المظلوم، وإجابة الداعي، وإفشاء السلام».

في هذه الأحاديث ثمانية آداب اجتماعية وظواهر خلقية أمرنا بها الرسول ﷺ، وأبان أنها من حقّ المسلم على أخيه المسلم:

الأول: إفشاء السلام، وهو يشمل البدء بالسلام وردّ السلام، والبدء بالسلام سنة وردّه واجب.

الثاني: عيادة المريض مواساةً له وتسلية لنفسه، وإشعاراً له بأنّ إخوانه المسلمين مهتمون بأمره، يسألون عنه ويتفقدون أحواله.

الثالث: اتباع الجنائز، فإذا مات المسلم فمن حقه على إخوانه المسلمين أن يصلّوا عليه، ويدعوا له، ويشيعوه إلى رمسه، تكريماً له، ومواساة لأهله، ومشاركة وجدانيّة لهم، وعظة بالموت.

الرابع: إجابة الدعوة، فإذا دعا المسلم أخاه المسلم إلى دعوة طعام أو غيره، فمن حقه عليه أن يجيب دعوته، إلّا أن يكون عنده عذر شرعي يعتذر به.

الخامس: تشميت العاطس، وذلك بأن يدعو المسلم لأخيه المسلم بأن يرحمه الله، إذا سمعه عطس وحمد الله تعالى، فيقول له: يرحمك الله؛ ويرد عليه العاطس بقوله كما جاء في السنّة: «يهدينا ويهديكم الله».

السادس: النصيحة، فإذا استنصح المسلم أخاه المسلم في استشارة فمن حقّه عليه أن ينصح له، وكذلك إذا رآه في حالة تستدعي نصيحته، فمن حقّه عليه أن ينصحه.

السابع: إبرار الـمُقسم، فمن حلف على أخيه في أمرٍ يستطيع فعله ولا معصية لله فيه فمن حقّه عليه أن يُبِرّ قسمه، بفعل ما حلف عليه فيه.

الثامن: نصْر المظلوم، فمن وجد أخاه المسلم مظلوماً، فمن حقّه عليه أن ينصره بما يستطيع من قولٍ أو شفاعة أو عمل.

وهذه الحقوق الأخلاقية الاجتماعية من شأن تأديتها أن تؤكّد وتوثّق الروابط الاجتماعية بين المسلمين، وتمكّن المودّات في قلوبهم، وهي من ظواهر التوادّ والتراحم والتعاطف، ومن ظواهر معنى الجسدية الواحدة بين المسلمين.

١ ــ أمّا إفشاء السلام، فهو أدب من آداب الإسلام الاجتماعية، وقد أمر الإسلام المسلمين به، فالمسلم مطالب بأن يسلّم على من عرف من المسلمين ومن لم يعرف، ومكلّف أن يردّ التحية بمثلها أو بأحسن منها.

ولا يستهين بهذا الأدب ويُعرض عن تطبيقه إلاّ مصابٌ في أخلاقه بمرض الكبر والعجب بالنفس، أو بالأنانية المفرطة التي يبخل معها بعطاء التحيّة، وعطاء التحية أهون عطاءٍ يبذله الإنسان من لسانه ووجهه.

وهذا الأدب الإسلامي الاجتماعي يمثّلُ أوّل خيطٍ من خيوط الترابط الاجتماعي، وتكرارُه يعقد الصّلات وينسج المودّات.

٢ ــ وأمّا عيادة المريض، فهي من الآداب الاجتماعية الإسلامية، وهي حقّ من حقوق المسلم على أخيه، لأنّ المريض بحاجة ماسّة إلى من يواسيه ويسلّيه ويتفقّد أحواله، ويساعده إذا احتاج إلى مساعدة، ويدعو له بدعوة صالحة عسى أن تكون رُقْيَة نافعة يشفيه الله بها.

وهذا الأدب يرتبط بخلق العطاء عند المسلم، وهو يعبر تعبيراً صادقاً عن مبلغ التآخي بين المسلمين، ويوثق روابط الصلة بينهم، ويزيد من وشائج المحبّة، وأواصر المودّات، لا سيما إذا لاحظنا أنّ حالة المريض فيها من الانكسار النفسي ما يجعله رقيق الحاشية، فيّاض العواطف، مُهيّأً نفسيّاً للتأثير عليه وامتلاك مشاعر المحبّة في قلبه، والمحبّة متى وجدت في طرف سرت غالباً إلى الطرف الآخر بقوّة نفاذها وقوّة عدواها.

٣ ــ وأمّا اتباع الجنائز، فهو صلة من المسلم لأخيه المسلم موصولة من حياته إلى ما بعد مماته، واتباع الجنائز يلحقُها الصلاة على الميت، والشفاعة له عند الله، وهذا أيضاً صلة عظيمة له بخير ما ينفعه بعد موته وهي الدعوة الصالحة، وتعبير صادق مخلص لا رياء فيه ولا سمعة، عن الأخوة الإيمانية التي عقدها الله بين المؤمنين، يضاف إلى ذلك ما في اتباع الجنائز من مواساة لأهل الميت وذويه المصابين بفقده، وهم بحاجة ماسّة إلى من يواسيهم ويعزيهم ويصبرهم على مصابهم، ويشاركهم مشاركة وجدانية كريمة، وقد كان الأصل في اتباع الجنائز أن يساهم المشيّعون في حملها إلى مثواها من الأرض، وفي حفر قبرها وفي مواراتها ودفنها، وكل هذه أعمال تشارك فيها الجماعة وتساهم بها خدمة إنسانية وتواصلاً بين المسلمين.

ومن شأن هذه الأمور التي يشتمل عليها هذا الأدب من آداب الإسلام، الموصول بالأسس الأخلاقية التي دعا إليها، أن تمكّن صلات الأخوة والمودّة والتعاطف والتراحم بين المسلمين، وتبرز معاني وحدتهم الإسلامية الكبرى.

٤ ــ وأمّا إجابة الدعوة فهي حقّ للمسلم على أخيه المسلم أيضاً. إنّ دعوة المسلم لأخيه المسلم صلة اجتماعية تعبّر عن مودّةٍ وأخوّة، وهذه الصلة تستدعي أن تقابل بالاستجابة، لا بالرفض، والمستجيب يعقد من طرفه حبل الصلة الذي مدّه إليه أخوه، وقدّم من قِبَله دليلاً مادّياً على أخوته ومودّته. كما قدّم إليه أخوه من قبلُ الدليل على ذلك بدعوته له.

وحينما يكون المدعوّ معذوراً ويصعب عليه تلبية الدعوة، فعليه أن يقدّم لأخيه عذره ويستسمحه، ولا يجوز له أن يجفو أخاه ويستهين به، فربّ جفوة بغير عذر كسرت قلباً وأحزنت نفساً، وربما أفسدت ما بين القلوب، فحلّ التنافر محلّ التآلف، وحلّ الخصام محلّ الوئام، لا سيما إذا كان الجفاء ناشئاً عن استهانة، أو كبر، أو استعلاء شخصيّ أو طبقي، وعندئذ يكون أشدّ قبحاً وذمّاً، وأكثر إفساداً للمودّات، وتقطيعاً لأواصر الأخوة الإيمانية الإسلامية.

٥ ــ وأمّا تمشيت[١] العاطس، فهو أدب من الآداب الإسلامية الاجتماعية، وهو ينمّ عن ذوقٍ رفيع في مجالس المسلمين، إذ يتصيّد المسلم أدنى مناسبة ليدعو لأخيه المسلم بدعوة كريمة، وليوجّه له كلمة حلوة، يجذب بها من قلبه خيطاً من خيوط العواطف الإنسانية، التي تُنسَجُ بها وشائج المودّة والمحبة، وتوثّق بها روابط الإخاء.

والعطاس ظاهرة طبيعية تتكرّر من الإنسان دون أن يملك دفعها، وقد

(١) تشميت العاطس الدعاء له بخير، قال ابن سيده: شمّت العاطس وسمّت عليه دعا له أن لا يكون في حال يُشمت به فيها. وتابع ابن منظور في (اللّسان) فقال: والسين لغة عن يعقوب، وكلّ داعٍ لأحد بخير فهو مشمّت له ومسمّت، بالشين والسين، والشين أعلى وأفشى في كلامهم. ونقل عن التهذيب: كلّ دعاء بخير فهو تشميت. وحكي عن ثعلب أنه قال: الأصل فيها السين من السّمت وهو القصد والهدى.

يكون عنوان نشاط قادم بانتفاضة عصبيّة، وقد يكون ظاهرة لحالة زكام وبرد مرضيّ مسَّ الإنسان، وعلى أيّة حال فمن الخير إذا هو حمد الله على ما جرى له أو حمد الله أن سَلّمه أن تكون مكافأته على حمده لربه توجيه من سمعه أن يدعو الله له، وأعظم دعوة شاملة لجوانب الخير كلها الدعوة له بأن يرحمه الله تعالى.

وحين يتلقى العاطس الدعاء له من إخوانه يشعر في ذات نفسه بأن شركاءه في المجلس قد اهتموا بشأنه، عند هذه العارضة اليسيرة التي عرضت له فدعوا له بالرحمة، فكيف يكون اهتمامهم به إذا هو نابه شيء كبير، وأمرٌ غير يسير، وعندئذٍ يردّ لمن دعا له جميلاً بجميل، فيدعو له بأن يهديه الله ويصلح باله. أمّا الدعوة بالهداية فهي مكافأة كريمة للدعوة بالرحمة، لأن من هداه الله فقد هيأ له أعظم أسباب الرحمة. وأمّا الدعوة بإصلاح البال فهي زيادة بارعة تشير إلى أن سبب البدء بالدعوة بالرحمة انشغال بال الأخ على أخيه، إذ سمعه عطس وحمد الله تعالى، فكأنّه يقول له: ولا أقلق الله بالك على نفسك أو أخ أو قريب أو حبيب.

أفنجد أرق تهذيباً من مجتمع فيه هذه العواطف الكريمة المتبادلة، التي تنتهز لها أدنى المناسبات؟

لكنّ العاطس إذا لم يحمد الله تعالى لم يكن من حقّه على جلسائه أن يشمّتوه لأنه لم يراع ما ينبغي له من أدب مع الله في حالته هذه، فسقط حقّه بأن يدعو له جلساؤه بالرحمة.

٦ ـ وأمّا نصيحة المسلم لأخيه المسلم فهي ظاهرة خلقية كريمة تعبّر عن صدق الأخوة بين المسلمين، وتعبّر عن أمانة الرجل وصدقه فيما يخبر به أخاه ممّا يعلم من وجوه الخير، لا سيما إذا استشاره واستنصحه.

ومن شأن هذا الخلق الكريم أن يعقد المودّات بين الناس، أو يزيد في توثيقها، بشرط أن تكون نصيحة صادقة ليس الغرض منها الفضيحة أو الشتيمة أو التعيير والتنقيص، إلاّ عند بعض النفوس المستكبرة العاتية، على أنها سترضى بعد حين متى شعرت بصدق الناصح وإخلاصه في النصيحة.

والذي يداهن وينافق ويكتم النصيحة قد يظفر بصداقة مؤقتة، إلاّ أنه ينكشف بعد حين، وتعرف مداهنته، ويظهر أنه لم يكن أخاً وفيّاً ولا صديقاً صادقاً، وإنما كان مداهناً منافقاً، فيخسر حينئذٍ ما كان من قبل حريصاً عليه.

٧ ــ وأمّا إبْرارُ المُقسِم، فقد جرى من عادة الناس أن يحلف الأخ قسماً على أخيه أن يفعل أمراً أو يترك أمراً، اعتماداً على أواصر الأخوة بينهما وعلى تبادل المودّة، فيقول له:

والله لتفعلن الأمر الفلاني أو لتتركنَّ الأمر الفلاني.

وهنا يعلمنا الإسلام أن من حقّ الأخ على أخيه أن يُبرّ له قسمه، فيفعل ما أقسم عليه أن يفعله، ويترك ما أقسم عليه أن يتركه، بشرط أن لا يكون في الأمر معصية أو مخالفة لله تعالى، أو مضرّة أو منقصة، فإن كان فيه شيء من ذلك فلا إبرار، لأنّ الإنسان لو أقسم على نفسه أن يفعل شيئاً ثم رأى غير ما حلف عليه خيراً منه فهو مأمور شرعاً بأن يكفّر عن يمينه ويأتي الذي هو خير.

ومن شأن إبرار المُقْسِم أن يوثق الصلات ويعقد المودّات.

وهذا الأدب يرجع عند التحليل إلى مظهر من مظاهر خلق العطاء من النفس، كما يرجع إلى خلق الحياء، وتلبية ما يقتضيه الدافع الجماعي والأخوة الإيمانية.

٨ ــ وأمّا نصرة المظلوم، فهي ظاهرة خلقية ترجع إلى خلق حبّ العطاء من النفس، وإلى ما يقتضيه الدافع الجماعي والأخوة الإيمانية. وشرح هذه الظاهرة قد جاء موسّعاً لدى شرح حديث: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً».

ومن شأن نصرة المظلوم أن تعقد المودات وتوثق الصلات بين المسلمين، وأن تخدم قضية العدل بين الناس، وتصرف عنهم عوامل التفرقة والخلاف والعداوة والبغضاء، ولو أغضبت الظالمين؛ لأنّ الظالم لا بدّ أن يرجع إلى نفسه ويُكبر من نصر المظلوم عليه ما كان في قلبه ذرّة من إيمان.

(ب) في ستر المسلم لأخيه المسلم:

روى مسلم عن أبـي هريرة عن النبـي ﷺ قال: «لا يستر عبدٌ عبداً في الدنيا إلّا ستره الله يوم القيامة».

من حق المسلم على أخيه المسلم أن يستره ولا يفضحه، والله تعالى يكافئه من جنس عمله فيستره يوم القيامة، وجاء في حديث آخر، أنّ الله يستره في الدنيا والآخرة.

وستر المسلم لأخيه المسلم يعتبر من مكارم الأخلاق، فإذا اطّلع المسلم على خطيئة أو معصية أو نقيصة وقع بها أخوه المسلم بينه وبين ربّه، ولم يجاهر بها أمام الناس، بل تستّر بها وتوارى واستحيى فيها؛ فما هو الغرض من فضيحته ونشر خطيئته بين الناس إذا كانت من الأمور التي لا تتعلّق بها حقوق شخصية للآخرين، أو حقوق عامّة ترتبط بها مصالح المسلمين الكبرى؟ إنّه لا مصلحة في ذلك، بل الغرض تعييره وتنقيصه وإنزال مكانته بين الناس.

أمّا النصيحة فإنها تتحقق بتوجيهها له في السرّ لا في العلن، أو بالموعظة العامة التي لا توجّه لأشخاص بأعيانهم، كما كان يفعل الرسول ﷺ، إذ كان يقول حينما يُخْبَر بأنّ بعض الناس قد فعل منكراً من المنكرات: ما بال أقوام فعلوا كذا وكذا. أو يفعلون كذا وكذا. ويوجّه موعظته لهم بصفة عامّة.

وإرادة الفضيحة هي من قبيل إشاعة الفاحشة وفعل السوء في المسلمين، وهي تعبّر عن رذيلة خلقية في الإنسان.

من ذا الذي يريد لأخيه المسلم الإهانة ونزول المكانة إلّا من كان في نفسه عقدة من رذائل الأخلاق؟

فقد يريد أن يحطّ من مكانة أخيه بين الناس ليرتفع هو على أنقاضها. وقد يكون غرضه أن يجد لنفسه مبرّراً في قبائح هو يرتكبها وهو مشهور بها عند الناس، فيكشف عورات إخوانه ليخفف من نقد الناس له، إذ يعلمون أنّ ذوي المكانة المستورين هم مثله في ارتكاب القبائح والسيئات، وهم شركاؤه في الإثم.

وكلّ ذلك من فساد خلقه وسوء سريرته، وهو بعمله هذا يساعد على تهوين ارتكاب الآثام والقبائح، ويشجع عليها، شعر بذلك أو لم يشعر، مع أنّ المفروض بصاحب الأخلاق الكريمة أن يعمل على دعم الفضائل ونشرها، ومحاربة القبائح والرذائل ودفنها، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لا أن يكون داعياً من دعاتها أو أحد المساهمين في نشرها وإشاعتها.

وقد أنذر الله الذين يحبّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، فقال تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

وقد جاءت هذه الآية في سياق حديث الإفك.

ففي إشاعة السوء عن المؤمنين إيذاء لهم وإضرار بهم، وتهوين من أمر فعل السوء وتشجيع على ارتكابه، ولا سيما إذا كان من أُشيع أنه قد فعله من أهل الستر والصيانة بين الناس.

(ج) في صيانة المرافق العامة ممّا يؤذي الجماعة:

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ:

«من مر في شيء من مساجدنا أو أسواقنا ومعه نبل فليمسك أو ليقبض على نصالها بكفه، أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشيء».

في هذا الحديث توجيه لحقّ من الحقوق الاجتماعية، إنه يمنع المار في المجامع العامة كالمساجد والأسواق من أن يتعرض المسلمون إلى أذى من قبله بسبب شيء يحمله، كالنبال التي لها نصال، فإن عليه أن يقبض على نصالها، ويأخذ الاحتياطات التامة خشية أن يصيب بها أحداً من الناس فيؤذيه.

فمن حق الجماعة على الفرد الذي يريد أن ينتفع بمرفق من المرافق العامة، أن لا يستعمل المرفق بشيء يؤذي أحداً له حق في استعماله، إذ المرافق

العامة حق مشترك بين جميع الأفراد، والحقوق المشتركة ذات حدود، ومن حدودها أن لا ينتفع الفرد منها انتفاعاً يؤذي فيه أحداً من الشركاء الذين لهم حق الانتفاع بها، أو يعرّض حقه للضياع، ومن حدودها أن لا يستأثر لنفسه بأكثر من حصته في الحق المشترك.

فليس من حق إنسان أن يمر في طريق عام مكتظ بالناس، ويحمل معه في الوقت نفسه قضباناً طويلة من الحديد، أو أعمدة خشبية كبيرة، أو صناديق عريضة، فيضرب بما يحمل من على يمينه تارة ومن على شماله أخرى، ثم من أمامه ثم من وراءه.

وليس من حقه أن يحمل كيساً من فحم أو شقة من لحم ويمر بما يحمل في معترك الناس، فيصبغ ثياب الناس البيضاء بفحمه، أو يلوثها بدهن شحمه ودم لحمه، ويؤذيهم بذلك.

وليس من حقه أن يدخن لفافته بين الناس وينفخ دخانها في وجوههم وأنوفهم، أو ينثر رمادها عليهم، أو يقذف عقبها قذفاً عشوائياً ربما تقع به على شيءٍ تحرقه من متاع الناس أو ممتلكاتهم، ويزعم أنه ينتفع بحقه في مرفق عام، متجاوزاً بذلك حدود حقه.

وكم من الناس الذين يمرون في الطرقات ويستخدمون المرافق العامة لا يعرفون حدود حقوقهم، أو يعرفونها ولا يرعونها، فيؤذون الناس أذى كثيراً وكبيراً، فكم من ضربة، أو لكمة، أو غمزة، أو دفعة، أو لذعة بنارة، يصاب بها الناس بعضهم من بعض في الطرقات والمرافق العامة، أو تنزل عليهم مما يقذفه المسيئون قذفاً عشوائياً، دون أن يجدوا وخزاً في صدورهم من سوء عملهم.

ويفعل المسيئون ما يفعلون من ذلك دون أن يبالوا النتائج، كأن الطرقات العامة لهم وحدهم، وكأن المرافق العامة إنما جعلت من أجلهم خاصة، فهم يفعلون بها ما يشاؤون ويستأثرون منها بما يشتهون.

وهذا من انعدام شعور الفرد بحقوق الجماعة، ومن إفراطه في الأنانية،

واستهانته بما يؤذي الناس، ورغبته بتجاوز حدود حقه والاستيلاء على حقوق غيره.

وكل ذلك يمثل جانباً من جوانب الانهيار الخلقي، الذي يقاومه الإسلام مقاومة شديدة، ولا يرضاه الله من المسلم بحال من الأحوال.

إن المسلم المتخلق بأخلاق الإسلام يعرف مقدار حقوقه وحدودها فلا يتجاوزها ويعرف حقوق الآخرين فلا يعتدي عليها، وينظر إليها باحترام بالغ، فلا يؤذي إنساناً في حق من حقوقه الخاصة أو العامة.

وبالتزام هذه الأخلاق الإسلامية الاجتماعية تبرز في المجتمع الإسلامي ظواهر حضارية راقية.

أمّا الاستهانة بها فإنها تَسِم المجتمع بسمات التخلف الحضاري الشائن، وتجعله في معزل عن المنهج الرباني الذي اصطفاه الله لعباده، ورسم في الإسلام معالمه وحدّ حدوده.

(د) من حقوق المسلمين في المرافق العامة:

روى مسلم عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ:

«عُرضت عليَّ أعمال أمتي حسنُها وسيئُها، فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق، ووجدت في مساوىء أعمالها النّخاعة تكون في المسجد لا تدفن».

يوجه الرسول ﷺ المسلمين في هذا الحديث لتنظيف الطرقات والأماكن العامة من المؤذيات، ويبين أن إماطة الأذى من محاسن الأعمال، لأنها خدمة يعود نفعها على كل من يمر في الطرقات ويحضر الأماكن العامة، فهي بذلك تعتبر مظهراً من مظاهر مكارم الأخلاق، وهذه الخدمة عطاءٌ يقوم به من يقوم به من المسلمين لصالح جماعة المسلمين بوجه عام، والمساجد أولى الأماكن العامة بهذه الخدمة، لأنها مواطن مخصصة لعبادة الله تعالى، وعلى أرضها تسجد جباه المسلمين.

وفي مقابل إماطة الأذى التي هي من محاسن الأعمال، ومظهر من مظاهر

مكارم الأخلاق، تقع مساوىء أعمال هي ذات صلة برذائل الأخلاق، وتتمثل هذه المساوىء بإلقاء الأذى في طرقات المسلمين، وتقذير المساجد بالأوساخ والقمامات والمستقذرات من الأشياء، كالبصاق والنخامة وغير ذلك من مؤذيات، وما أكثر ما نجد الناس يفعلون ذلك فيؤذون إخوانهم، ويقذرون مساجد الله وطرقات المسلمين، ويلقون المؤذيات فيها، كأنهم عن الآداب والتعاليم الإسلامية بعيدون، وكأنهم لها جاهلون مع أن الإسلام هو رائد الآداب والأخلاق الاجتماعية، وحامل لواء الذوق الحضاري الرفيع.

إن الذين يقارنون بين التعاليم الإسلامية وبين المسلمين في عصرنا هذا، يجدون بوناً شاسعاً، لا سيما في الآداب والأخلاق الاجتماعية، والمعاملات المادية والمظاهر الحضارية، وسبب ذلك يرجع إلى جهل كثير من المسلمين بإسلامهم، واقتصارهم منه على الأركان الكبرى، وتركهم لأشياء كثيرة جداً هي من صلب دينهم، ومن أسس تعاليمه، ومن المؤسف أن نجد كثيراً من تعاليم الإسلام الاجتماعية والحضارية مطبقة عند غير المسلمين، ومهجورة عند المسلمين.

وفي الحث على إماطة الأذى عن الطريق وردت عدة نصوص:

منها ما رواه مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين».

وفي رواية لمسلم أيضاً:

«مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق فقال: والله لأنحّينّ هذا عن المسلمين لا يؤذيهم، فأدخل الجنة».

وفي رواية للبخاري ومسلم:

«بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره، فشكر الله له فغفر له».

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«كل سُلامَى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس: يَعدلُ

بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل في دابته فيحمله عليها أو يرفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة».

السّلامى: هي عظم بين مفصلين.

فذكر الرسول ﷺ من الصدقات العدل، والمعونة، والكلمة الطيبة، والعبادة، والخدمة العامة.

وروى مسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ:

«إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مَفصل، فمن كبر الله، وحمد الله، وهلّل الله، وسبّح الله واستغفر الله، وعزل حجراً عن طريق الناس أو شوكة أو عظماً عن طريق الناس، أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر، عدد الستين والثلاثمائة، فإنه يمشي يومئذٍ وقد زحزح نفسه عن النار».

فعلى المسلم أن يعمل من مفردات الأعمال الصالحة كل يوم بمقدار ما جعل الله في جسده من سُلاميات، حتى يؤدي واجب الشكر لله على ما وهبه.

ومن الأعمال الصالحات ما هو خاص بالعامل كالعبادات المحضة، ومنها ما هو ذو نفع للناس، كالعدل، والمعونة، والكلمة الطيبة التي تسرّ مسلماً، وكالخدمة العامة التي منها إماطة الأذى عن الطريق.

(هـ) في الحث على كل عمل نافع للإنسان أو الحيوان:

روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما من مسلم يغرس غرساً إلاّ كان ما أُكل منه له صدقة، وما سُرق منه له صدقة، ولا يَرْزَؤُه أحد إلاّ كان له صدقة».

لا يَرْزَؤُهُ أحد: أي لا ينقصه أحد.

وفي رواية أخرى عند مسلم أيضاً:

«لا يغرس المسلم غرساً فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا طير إلاّ كان له صدقة إلى يوم القيامة».

وفي رواية أخرى عند مسلم أيضاً:

«لا يغرس مسلم غرساً، ولا يزرع زرعاً، فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيءٌ إلاّ كان له صدقة».

ففي هذا حثٌ على الأعمال الزراعية، ووعد بالأجر عند الله على كل فائدة يستفيدها إنسان أو دابة أو طير من أي غرس يغرسه مسلم، سواء أكان ذلك بإرادة الغارس أو بغير إرادته، حتى ما يسرق منه فإن له به صدقة.

وأبان الرسول ﷺ أن هذا الغرس وما ينجم عنه من منافع هو من الصدقات الجارية، التي يستمر تسجيل الأجر على ما يكون منها من خير ولو بعد موت الإنسان، بدليل ما جاء مصرحاً به في الرواية الثانية: «إلاّ كان له صدقة إلى يوم القيامة».

وهذا من مفاخر الإسلام في ميدان التقدم الحضاري المادي، فميدان الزراعة من أهم الميادين الحضارية التي تعتمد عليها المجموعات البشرية المتحضرة، والرسول ﷺ في هذا الدفع الحضاري يربط بين حاجات الحياة، وبين الأعمال التي هي أسباب لتقديم مطالبها، وبين الإيمان الذي يتطلع باستمرار إلى تحقيق مرضاة الله تعالى، ويرجو به المؤمن عند الله الأجر العظيم على الأعمال التي ترضيه سبحانه.

ولـمّـا كانت الأعمال الزراعية مما يخدم الحياة بوجه عام، كانت مما يرضي الله تعالى خالق الحياة وواهب الأرزاق.

ومن سنن الله الثابتة أن يثيب على كل عمل يرضيه من عباده، ما ابتغوا به رضوانه سبحانه.

وغرس الأشجار في نظر الإسلام من قبيل الصدقة الجارية، لأنها معرضة للآكلين والمنتفعين منها، من إنسان أو دابة أو طير.

والمسلم حينما يغرس غرسه ويلاحظ هذه المعاني الإسلامية، فإنه يسجل

في صحيفة حسناته منذ غرس غراسه عملاً صالحاً ذا صدقة جارية، وكان عمله مظهراً من مظاهر خُلقه الإيماني الذي يدفعه إلى نفع عباد الله.

ومن المدهش أن المسلم يؤجر على ما يسرق منه، مع أن ما يسرق منه لم يكن عطاءً بإرادته، إلا أنه من المصائب التي يصاب بها في ماله، وكل المصائب التي يصاب بها المسلم في ماله، أو بدنه، أو نفسه، أو أهله، أو ولده، أو أي شيء يؤلمه، له فيها أجرٌ عند الله، ما لم يتضجر مسيئاً الأدب مع ربه جل وعلا، وعلى هذا دلت عدة نصوص من أقوال الرسول ﷺ.

ـ ٩ ـ
في العزلة والاختلاط بالناس

يرى بعض الناس من طلاب الآخرة أن العزلة عن الناس والبعد عن الاختلاط بهم، أفضل عند الله وأحب من مخالطة الناس والدخول في جماعتهم.

ويرى آخرون من أهل العلم خلاف ذلك، فيقول: إن مخالطة الناس، والدخول في جماعتهم، والصبر على أذاهم، والمشاركة في الأعمال الجماعية العامة النافعة، أفضل عند الله وأحب من الاعتزال عنهم والبعد عن الاختلاط بهم.

ولدى النظر في النصوص والمفاهيم الإسلامية الخاصة والعامة تتأكد لدينا الحقائق التالية:

١ ــ أن الإسلام دين جماعي تعاوني، وليس دين انفرادية وعزلة.

٢ ــ أن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم ويدعوهم إلى الله، ويساعد على فعل الخير ونشر الهدى، خير وأفضل من الذي يعتزلهم فلا يخالطهم، جفوةً لهم، أو عجزاً عن الصبر على أذاهم.

٣ ــ أن الذي لا يملك نفسه من الفتنة في دينه إذا هو خالط الناس، لفساد المجتمع، أو لا يستطيع ضبط نفسه عن إيذاء الناس بلسانه أو يده أو غير

ذلك إذا هو خالطهم، خيرٌ له وأفضل أن يعتزلهم، فراراً بدينه، وصيانة لنفسه عن الوقوع في الخطايا.

دلّ على الحقيقة الأولى ما سبق من بيانات كثيرة تؤكد وحدة المسلمين الجماعية، وتدعو كل مسلم إلى الجماعة وعدم الفرقة.

ودلّ على الحقيقة الثانية ما رواه الترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح عن عبدالله بن عمر، أن النبـي ﷺ قال:

«المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم».

ودلّ على الحقيقة الثالثة، ما رواه البخاري عن أبـي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ:

«يوشك أن يكون خير مال المسلم غنمٌ يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن».
شَعَفُ الجبال: أعلاها.

وما رواه البخاري ومسلم عن أبـي سعيد الخدري قال: قال رجل: أي الناس أفضل يا رسول الله؟ قال:

«مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله».

قال: ثمّ مَنْ؟

قال: «ثم رجلٌ معتزل في شعبٍ من الشعاب يتقي الله ويدعُ الناس من شره».

وما رواه مسلم عن أبـي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال:
«من خير معاش الناس لهم رجل ممسكُ عنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلما سمع هيعةً أو فزعة طار عليه، يبتغي القتل والموت مظانه. أو رجل في غُنيمة في رأس شَعفَةٍ من هذه الشعف، أو بطن وادٍ من هذه

الأودية، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلّا في خير».

أي حتى يأتيه الموت بعيداً عن الفتنة في دينه.

فدلت هذه النصوص على أن أفضلية العزلة خاصة بمن يخشى على نفسه الفتنة في الدين، أو لا يملك نفسه عن إيذاء عباد الله، فمن كان كذلك كانت العزلة له أفضل من المخالطة، على أن الأصل في المسلم أن يكون بخلاف ذلك، إذ المفروض فيه أن يكون ذا حصانة وذا إرادة قوية، وأن يكون قادراً على ضبط نفسه حتى يخالق الناس بخلقٍ حسن، هذه هي القاعدة، وخلاف ذلك شذوذ، وأحوال نادرة، تداوى بالعزلة، وهي ترجع إلى ضعف الإنسان عن المقاومة تجاه دواعي الفتنة، أو ضعفه عن ضبط نفسه عن سوء معاملة الناس.

إن الأصل في المسلم أن يكون دائم المجاهدة لنفسه، وللكافرين والمنافقين والفاسقين، متحلياً بأخلاق الصبر، وقوة الإرادة، وضبط النفس عن مزالق الفتنة والعصيان.

ــ ١٠ ــ

من حقوق المسلمين بعضهم على بعض اجتناب كل ما يضر بهم أو يؤذيهم أو يلقي البغضاء بينهم أو يفرق جماعتهم ويمزق وحدتهم والسعي في الإصلاح ورأب الصدع

اشتملت سورة (الحجرات ٤٩) على توجيهات وأوامر أخلاقية وافرة، تتعلق بحقوق المسلمين بعضهم على بعض، مما يفرض على المسلم اجتناب ما يضر بأخيه المسلم أو يؤذيه، أو يلقي العداوة والبغضاء بين المسلمين، أو يفرق جماعة المسلمين ويمزق وحدتهم.

وجاء في سور أخرى من القرآن الكريم وفي بيانات الرسول ﷺ نصوص

كثيرة تتعلق بهذه الحقوق، وفيما يلي طائفة من هذه النصوص، مع تدبر بعض توجيهاتها.

(أ) إصلاح ذات البين:

قال الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ... ﴿١﴾﴾.

ذات البين: هي صاحبة البين، والبين في كلام العرب يأتي على وجهين متضادين: فيأتي بمعنى الفرقة، ويأتي بمعنى الوصل. وإصلاح ذات البين على المعنى الأول يكون بمعنى إصلاح صاحبة الفرقة بين المسلمين، وإصلاحها يكون بإزالة أسباب الخصام، أو بالتسامح والعفو، أو بالتراضي على وجه من الوجوه، وبهذا الإصلاح يذهب البين وتنحل عقدة الفرقة. أما إصلاح ذات البين على المعنى الثاني فيكون بمعنى إصلاح صاحبة الوصل والتحابب والتآلف بين المسلمين، وإصلاحها يكون برأب ما تصدع منها، وإزالة الفساد الذي دب إليها بسبب الخصام والتنازع على أمر من أمور الدنيا.

والله تبارك وتعالى أمر المؤمنين بأن يصلحوا ذات بينهم ويطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين حقاً.

فمن صفات المؤمنين المتقين أنهم يصلحون ذات بينهم، فإذا نشأ بينهم وبين إخوان لهم خصام على أمر من أمور الدنيا، أسرعوا إلى إصلاحه بأنفسهم، ولو لم يتدخل بينهم وبين إخوانهم وسطاء.

فإذا اشتد أمر الخصام وجب على المسلمين أن يسعوا في الإصلاح بين المتخاصمين بمختلف الوسائل الكفيلة بإزالة أسباب الخلاف وبرأب الصدع.

وقد يصل الخلاف إلى حد التقاتل بين طائفتين من المؤمنين، وفي هذه الحال يجب على سائر المؤمنين أن يصلحوا بينهما، ضمن المنهج الذي رسمه القرآن، بقول الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

فأوجب الله على المؤمنين أن يصلحوا بين الذين يختصمون منهم، فقال لهم: «إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم» وجعل ذلك من عناصر التقوى، فقال تعالى بعد ذلك: «واتقوا الله لعلكم ترحمون».

فإذا رفضت إحدى الطائفتين المتقاتلتين أن تخضع للإصلاح بالعدل، وركبت رأسها باغية ظالمة، وجب على سائر المؤمنين أن يقاتلوا الفئة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله، وهو الإصلاح بالعدل والقسط، فإذا فاءت تم الإصلاح بينها وبين الطائفة التي هي خصمها بالعدل.

ومن هذا نلاحظ مبلغ اهتمام الإسلام بوحدة جماعة المسلمين، وحرصه الشديد على أن لا يدب الخلاف بينهم، ولا تقع الفرقة بين صفوفهم، لأن ذلك يوهن قواهم، ويطمع بهم عدوهم، ويقذف بهم إلى الفشل، ويُمكن أعداءهم من رقابهم.

(ب) اجتناب كل ما يسبب الخلاف والفرقة والعداوة والبغضاء:

قال الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

ففي هذا النص ينهى الله الذين آمنوا عن قبائح اجتماعية ست، من شأنها بذر بذور الفرقة والعداوة والبغضاء، لما فيها من إيذاء وإضرار بالآخرين، وهي قبائح تشتمل على ظلم من الإنسان لأخيه الإنسان، وكل ظلم من شأنه أن يورث العداوة والبغضاء، ويوقع الفرقة بين الجماعة الواحدة.

والقبائح الست هي:

١ ـ السخريــة.

٢ ـ اللّمــز.

٣ ـ التنابــز بالألقــاب.

٤ ـ اتهام المؤمنين بالظنون الضعيفة التي لا تقوى على الاتهام.

٥ ـ التجسس على المؤمنين.

٦ ـ الغيبة للمؤمنين المتقين.

ويلاحظ أنّ كلّ نهي في هذا النّص قد انفرد بلونٍ تعبيري ذي دلالة خاصة، قابلة لأن تكون شاملة للمنهيّات الأخرى فيه:

* ففي السخرية: لا يسخر قومٌ من قوم.
* وفي اللّمز: ولا تلمزُوا أنفسكم.
* وفي التنابز: ولا تنابزوا بالألقاب.
* وفي الظنّ المنهي عنه: اجتنبوا.
* وفي التجسس: ولاَ تجسَّسُوا.
* وفي الغيبة: ولا يغتب بعضكم بعضاً.

ويلاحظ أنه يصح في كلٍّ منها أن تستعمل التعبيرات الأخرى، لتؤدّي فيه دلالتها.

فيقال: لا يسخر قوم من قوم. ولا تسخروا من أنفسكم ولا تتساخروا. واجتنبوا السخرية ولا تسخروا. ولا يسخر بعضكم من بعض.

وكذلك سائرها.

ومع ذلك فقد اختير لكلّ قبيحة من هذه القبائح الست الصيغة التي تدلّ على أبرز صورة من صورها:

١ ــ **فالسخرية**: تغلب فيها المشاركة الجماعية، إذ الساخر يضحك بسخريته آخرون.

٢ ــ **واللّمز**: يغلب فيه الطابع الفرديّ الخفي الذي يدركه أهل النباهة.

٣ ــ **والنبز باللقب**: تغلب فيه المشاركة، فمن نُبِزَ نَبَزَ، كالتقاتل.

٤ ــ **والتجسّس**: يغلب فيه العمل الفردي ضدّ فرد أو جماعة، فجاء النهي عاماً.

٥ ــ **والغيبة**: ظاهرة جماعية يؤذي الناس بها بعضهم بعضاً في غيبتهم، فهي كالتنابز ولكنها حركة جماعية مختلطة لا مواجهة فيها، فافترقت عن التنابز بالألقاب.

٦ ــ **وظن السوء بالناس**: مثل الغيبة إلاّ أنه حركة نفسية، قد يكون لها آثار مادّية في الاتهام.

وفيما يلي شرح موجز لهذه القبائح الست:

السخريــة:

إن السخرية تنافي ما يوجبه الحق، وهي ظلم قبيح من الإنسان لأخيه الإنسان وعدوان على كرامته، وإيذاء لنفسه وقلبه، ومن آثارها أنها تقطع الروابط الاجتماعية القائمة على الأخوة والتوادّ والتراحم، وتبذر بذور العداوة والبغضاء، وتولد الرغبة بالانتقام، ثم أعمال الانتقام، ما استطاع المظلوم بها إلى ذلك سبيلاً.

إذا بحثنا في دوافع الإنسان إلى السخرية من أخيه الإنسان، وجدناها ترجع إلى الكبر الذي يلازمه بطر الحق وغمط الناس، وإلى الرغبة بتحطيم مكانة الآخرين استئثاراً بالمكانة، أو مقاومة أفكارهم وأعمالهم بالباطل، لصد الناس عن تقديرها أو الأخذ بها، أو ترجع إلى الرغبة بالتسلية والضحك على حساب آلام الآخرين الناشئة عن احتقارهم واستصغارهم وازدرائهم، والاستهانة

بأقوالهم أو أعمالهم أو خلقتهم أو طبائعهم، أو أُسرهم وأنسبائهم، أو قومياتهم وعناصرهم وأصولهم، أو لغاتهم وعاداتهم وأزيائهم، إلى أشباه ذلك.

وهذا التحقير والاستصغار الذي تعبر عنه السخرية إما أن يكون له من ظاهر ما يُسخر منه مبرر، وإما أن لا يكون له مبرر مطلقاً، وإنما كانت السخرية لوناً من ألوان المقاومة العدوانية لذات الشخص المسخور منه، أو لفكرته أو لعمله، وكلا الأمرين ظلم قبيح وعدوان منكر.

إذا كان الساخر يسخر من خلقة أخيه الجسدية أو الطبعية، فإنه يسخر من أمر لا يملك المسخور منه تعديله، ولو أن الله عز وجل خلق هذا الساخر كذلك لما كان ملك من أمره شيئاً، ولو أن الله ابتلى هذا الساخر بمصيبة جعلت عنده عيباً يسخر منه السالمون، لما ملك من أمره شيئاً، فالسخرية من عيب في أصل الخلقة يحمل في مضمونه الاعتراض على الخالق، وللخالق في ابتلائه لعباده ألوان.

ثم إن المسخور منه للعيب الذي ابتلاه الله به في أصل التكوين، أو في عوارض المصائب، ربما يكون في دخيلة نفسه، أو في خلقه وعمله، خيراً وأفضل من الساخر بكثير، فليست مِيَزُ الإنسان وفضائله محصورة في حدود جسده أو بعض أعماله، بل توجد فيه أمور أعظم من ذلك، هي عقله وإيمانه وطهارة قلبه، وتقواه وابتغاؤه الخير، وجوده وإحسانه، إلى غير ذلك من أمور كثيرة، وهذا ما دل عليه قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن﴾.

وإذا كان الساخر يسخر من أسرة أخيه أو نسبه أو قوميته أو عنصره أو لغته أو عادات قومه أو أزيائهم، فهو يسخر أيضاً من أمر لا يملكه المسخور منه، لأنها تدخل ضمن سلطة القدر الجبري، وهو أيضاً يحمل في مضمونه الاعتراض على الخالق في مقاديره، وما يبتلي به عباده.

وإذا كان الساخر يسخر من عمل أخيه وإنتاجه لما فيه من نقص أو عيب، فهو إما أن يسخر من ملكاتٍ فطرية لا يملك المسخور منه تعديلها، وإما أن

يسخر من تقصيره وإهماله. أما السخرية من الملكات الفطرية فهي اعتراض على المقادير، وأما السخرية من الإهمال والتقصير في العمل ففيها ادعاء ضمني أن الساخر لا يقع بمثل هذا التقصير أو الإهمال، مع أن الواقع قد يشهد بأن الساخر ربما كان له من النقائص الإرادية ما هو أكثر بكثير مما سخر منه، حتى الشيء الذي سخر منه ربما لا يستطيع الساخر عمل مثله، لأنه أعجز من ذلك، وعلى فرض قدرته على ما هو أحسن فإن سخريته ذات تأثير سيءٍ على روابط الأخوة الإيمانية، وعلى حق الإنسان على أخيه الإنسان، والسخرية هي من التعيير، وقد جاء في الحديث:

«من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله».

(رواه الترمذي عن معاذ)

وروى الترمذي وصححه عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال:

«ما أحب أني حكيت أحداً وأن لي كذا وكذا».

وإذا كانت السخرية لا مبرر لها مطلقاً، كسخرية الكافرين من المؤمنين، وكسخرية العصاة من المتقين، وكسخرية الناقصين من الكاملين لتغطية نقصهم وغمط كمال أهل الكمال، فهي سخرية غاية في القبح والظلم والعدوان والشناعة.

ومن كلّ هذا يظهر لنا أنّ أخفّ أنواع السخرية يقال فيها: ﴿لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهنّ﴾.

ونتساءل عن الحكمة من النهي عن سخرية الرجال من الرجال والنساء من النساء، دون أن يأتي النص عامّاً كأن يقول: «لا يسخر بعضكم من بعض» كما جاء في الغيبة: «ولا يغتب بعضكم بعضاً»؟

ويمكن أن نجيب بأن السبب في ذلك يرجع إلى نقطتين إحداهما نفسية، والأخرى اجتماعية خاصة بالمجتمع الإسلامي:

أمّا الناحية النفسية: فترجع إلى أنّ الغالب في النساء أنّهن لا يسخرن من

الرجال، وأنّ الرجال لا يسخرون من النساء، فدافع السخرية النفسي يكون من الرجال للرجال، ومن النساء للنساء، وإن حصل شيء على خلاف هذا فهو نادر، إذ عامل التعاطف بين الجنسين يمنع سخرية أحدهما بالآخر، وأيضاً يعفّ الرجل عن أن يسخر بالمرأة لأنه لا يعتبرها عنصراً منافساً له اجتماعياً، وتأبى المرأة أن تسخر من الرجل لأنها تعطف عليه، وتشعر فيه معنى القوة والقوامة، ولا ترى فيه منافساً لها مهما كان شأنه.

وأمّا الناحية الاجتماعية الخاصة بالمجتمع الإسلامي: فالأصل في هذا المجتمع أن لا يكون مجتمعاً مختلطاً بين الجنسين، والسخرية في الغالب تكون مع المواجهة والمخالطة.

اللّمـــز:

اللّمز هو أن يعيب الإنسان أخاه في وجهه بكلام ولو خفيّ، وربّ لمزٍ خفيّ هو أشدّ من طعن صريح، وأعمق جرحاً في داخل النفس، لأنّ فيه بالإضافة إلى الطعن والتجريح بالعيب معنى استغباء الملموز واستغفاله، فكأن اللّامز يشعر الذين في المجلس أن الملموز غبـي لا يتنبّه إلى الطّعن الذي يوجّه ضدّه في رمز الكلام.

واللّمز قبيحة اجتماعية تورث الأحقاد والأضغان، وتقطّع أواصر الأخوة الإيمانية، وهو ظلم من الإنسان لأخيه الإنسان، وعدوان على حقه عليه.

ومن حقّ المؤمن على أخيه المؤمن أن يستر عيوبه، وإذا كان العيب نقيصة إرادية فَدَوْرُ المؤمن أن يكون ناصحاً في السرّ لأخيه، لا فاضحاً له ولا ناشراً لعيوبه، لا بصريح اللفظ ولا برمزه ومعاريضه ودلالاته المغلّفة.

وكم يقع في مجالس الناس هذا اللّمز، وكم يؤذي الناس بعضهم بعضاً به، وكم يولد فيهم أحقاداً ورغبات انتقام، وكم يثير بينهم غضباً وعداوات.

من أجل ذلك نهى الله عنه نهيَ تحريم، واعتبر ارتكابه من الفسوق، وجعل الإصرار عليه وعدم التوبة منه ظلماً، فقال تعالى في آخر الآية: ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾.

أي: بئس أن يرتكبوا عملاً يطلق عليهم بسببه اسم الفسوق، بعد أن تَحلّوْا باسم الإيمان الذي هو أشرف الأسماء وأكملها بالنسبة إليهم.

وفي النهي عن اللّمز قال الله تعالى: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾. ونتساءل هنا فنقول: لِمَ لَمْ يقُل: ولا يلمز بعضكم بعضاً، وإنما قال: ولا تلمزوا أنفسكم؟

ويمكن أن نجيب بأمرين:

الأول: لـمّـا كان المجتمع الإسلامي في مفهوم الإسلام بمثابة الجسد الواحد، كان من يلمز أخاه المسلم بمثابة من يلمز نفسه.

الثاني: من يلمزُ غيره يعرّض نفسه للانتقام منه باللّمز، فهو إذ يلمز الناس يتسبب في أن يلمزوه، فكأنه لمز نفسه.

واقتصر النص على هذه الجملة في أداء هذين المعنيين ضمن ما نهى عنه من السخرية والتنابز بالألقاب والغيبة، ليقاس الباقي عليها، ولتؤدّي كلّ جملة نهت عن أمرٍ معنىً يصلُح لأن يُعمّم على الجميع عن طريق القياس، ويستغنى بهذا عن تكرير كلّ فكرة مع كلّ منهي عنه.

التنابزُ بالألقاب:

النَّبَزُ بفتح الباء في اللغة هو اللّقبُ، وجمعه الأنباز، ونَبَزَهُ يَنْبِزُه نَبْزاً: إذا لقّبَه. والتنابُز بالألقاب هو التداعي بالألقاب، والمراد من ذلك الألقاب التي فيها ذمٌّ أو هُزْءٌ أو تحقير أو شيءٌ مما يكره الإنسان أن يُنْبَزَ به.

وجاء في الحديث: أنّ رجلاً يُنْبَزُ قُرْقُوراً، أي يُلَقّبْ بقُرقور.

ولـمّـا كان التنابز بالألقاب التي من هذا القبيل مما يؤذي الناس، إذ يحمل معنى التحقير والإهانة، نهى الله عنه، وجعله من المحـرّمات، وجعله من الفسوق ومن الظلم.

وربما يصل التنابز بالألقاب إلى مستوى الشتيمة، كالنبز بالحمار والثور والكلب ونحو ذلك.

ومن شأن التنابز بالألقاب أنه يقطّع أواصر الأخوة الإيمانية، ويفسد

المودّات ويولّد العداوات والأحقاد، وربا يوصل إلى التقاتل مع ثوران الغضب وهيجان الحماقات.

وتنفيراً من هذه القبائح الاجتماعية (السخرية ـ واللمز ـ والتنابز بالألقاب) أبان الله أن من يتصف بها من المؤمنين يحمل وصف الفسوق بعد وصف الإيمان، وبئس هذا الوصف، فقال تعالى: ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، ومن لم يتبْ فأولئك هم الظالمون﴾.

إنّ من آمن فحمل وصف الإيمان الشريف؛ من القبيح به جداً أن يدنّس نفسه بوصف الفسوق بعد ذلك، إنّه هبوط قبيح بعد ارتقاء جميل، وتسفّل دنيء بعد اعتلاء قمّة مجد عالية، وتدنيس فاحش لأكرم رداء هو رداء الإيمان.

ولـمّـا كانت هذه القبائح التي تقذف مرتكبيها إلى دركة الفسوق تدخل في دائرة ظلم الإنسان لأخيه، قال تعالى: «ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون».

ظالمون لإخوانهم بالعدوان عليهم، وظالمون لأنفسهم بتعريضها لعقاب الله في جزائه العادل.

اتهام المؤمنين بالظنون الضعيفة التي لا تقوى على الاتهام:

وفي النهي عن هذه القبيحة الاجتماعية قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ إنّ بعض الظنّ إثم﴾.

والظنّ المأمور باجتنابه هنا هو اتّهام الناس بجريمة ما أو بارتكاب منكر من المنكرات بغير دليل راجح، وإدانتهم بالأوهام والشكوك، وهي الظنون الضعيفة التي لا تقوى على الإدانة، وكذلك إدانتهم بظنّ راجح لكنّه لا يقوى على الإدانة، كشهادة العدل الواحد في الحقوق المالية ونحوها، وكشهادات ما دون أربعة شهداء في الاتهام بالزنى.

والظنّ في اللّغة يدلّ على كلّ ما دون اليقين حتى أسفل درجات الوهم، ولذلك قال تعالى: ﴿اجتنبوا كثيراً من الظنّ﴾ أي اجتنبوا الظنّ الوهميّ، والظنّ الذي هو من مرتبة الشك، واجتنبوا في الحكم على الناس الظنّ الراجح برجحان

ضعيف لا يقوى على إدانتهم، وهذه هي النسبة الكبرى من الظنون. أمّا الظنّ الراجح برجحان يتناسب مع موضوع القضية، فقد كلّفنا الإسلام العمل به وعليه يعتمد القضاء، وعليه تعتمد طائفة من فتاوى الأحكام الشرعية، وهي التي لا يُشترط فيها اليقين؛ فكثيراً ما يكون اجتهاد الفقيه منحصراً في حدود الظنّ الراجح لا اليقين، وحكم القاضي بشهادة شاهدين عدلين عمل بالظنّ الراجح، ونظير ذلك كثير من وسائل الإثبات، وكثير من العلوم والمعارف من هذا القبيل.

فقول الله تعالى: ﴿إنّ بعض الظنّ إثم﴾ بعد قوله: ﴿اجتنبوا كثيراً من الظنّ﴾ هو بمثابة التعليل له، أي بما أنّ بعض الظنّ بالناس المفضي إلى اتهامهم بغير حقّ إثم، فالحيطة في الأمر للمحافظة على ظاهر عدالة المؤمنين تقضي باجتناب كثير من الظنّ، حتى لا يجرّ ذلك إلى اتهامهم بغير حقّ، وإلى الحكم عليهم بإثم لم يثبت ببيّنة شرعية. وتتبّع الظنون بالمؤمنين يفضي إلى إصدار أحكام جائرة ضدهم، ومن شأنه أن يُفسد العلاقات الاجتماعية، ويولّد الأحقاد والعداوات، وهو من البواعث على رذيلة الغيبة، ومن مقطِّعات أواصر الأخوة الإيمانية. ولكن هذا لا يعني الغفلة وترك الحذر، فالغفلة وترك الحذر ورطة، واتباع الظنون التي لا تقوى على إثبات القضية رعونة وطيش وتسرّع في الأحكام، وظلم للمؤمنين وعدوان على كرامتهم وأعراضهم التي يجب أن تظلّ مصونة، إلّا أن يُدانوا بإثبات شرعي.

التجسس:

التجسّس على الناس هو تتبع عوراتهم وهم في خلواتهم، إمّا بالنظر إليهم وهم لا يشعرون، وإمّا باستراق السمع وهم لا يعلمون، وإمّا بالاطلاع على مكتوباتهم ووثائقهم وأسرارهم وما يخفونه عن أعين الناس دون إذن منهم.

وقد نهى الله المؤمنين عن التجسس على إخوانهم المؤمنين؛ ما داموا ظاهري الاستقامة غير مجاهرين بمعاصيهم، وكان ما يخفونه من أمورهم من السلوك الشخصي الذي يخصّهم، ولا يتعلّق بكيد يكيدونه للمسلمين. أمّا إذا

كانوا فاسقين معروفين بالفسق، أو منافقين مكشوفي النفاق، أو ما يخفونه يتعلّق بأمن الدولة الإسلامية، أو هو من قبيل خيانة المسلمين مع عدوّهم، فهؤلاء لا حرمة لهم، وباستطاعة المسؤولين عن أمن الدولة الإسلامية التجسّس عليهم لكشف خياناتهم وما يكيدون المسلمين مع أعدائهم.

وقد نهى الله عن التجسس، لأنّ من حقّ المسلم أن يخلو بنفسه دون أن يطلع عليه أحد إلّا الله، ومن حقّه أن يستر قبائحه ومعاصيه إذا كان له منها شيء، وليس من حقّ المجتمع أن يراقبه في خلواته الخاصة، حتى يجاهر بذنبه أو يكشف صفحة نفسه وما يخفي من مخالفاته ومعاصيه.

ومثل التجسّس التحسّس، والأصل فيهما أن التّجسُّس هو من تتبع العورات عن طريق الجسّ الخفي، وأن التحسس هو من تتبع العورات عن طريق استخدام الحِسّ بطريقة خفية.

والتجسّس والتحسّس كلاهما مما يولّد في المجتمع الأحقاد، ويورث العداوات والبغضاء، إذ يشعر المتجسَّس عليه بأنه مشكوك بأمره غير موثوق، وهما يكشفان عورات الناس، ويتسببان بإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا.

الغيبـــة:

وقد نهى الله الذين آمنوا أن يغتاب بعضهم بعضـاً، فقال تعـالى: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه، واتقوا الله إن الله توابٌ رحيم﴾.

والغيبة أن يذكر الإنسان أخـاه في غيبته بمـا يكره، روى مسلم عن أبـي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال:

«أتدرون ما الغيبة؟».

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «ذكركَ أخاك بما يكره».

قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟

قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتّه».

فمن ذكر أخاه في غيبته بما يكره ممّا هو فيه فتلك هي الغيبة، كم بيّن الرسول ﷺ، ومن ذكر أخاه في غيبته بما يكره ممّا ليس فيه، فقد اغتابه وبَهته، أي كذب عليه واتهمه بما ليس فيه.

والغيبة من القبائح الاجتماعية التي لا يليق بالذين آمنوا أن يرتكبوها، فيغتاب بعضهم بعضاً.

وقد حرمها الله ونهى عنها، لما فيها من تقطيع أواصر الأخوة الإيمانية، وإفساد المودات، وبذر بذور العداوات، وذلك لأن الغيبة في الغالب لا تبقى سرّاً، بل يصل العلم بها لمن ذُكر في غيبته بما يكره، فقلّ في الناس من يكتم حديثاً، وعندئذٍ يغضب ممّن ذكره، ويحقد عليه، وينتقم منه بمثل عمله أو بأقبح منه.

وفي نشر معايب الناس بين الناس تشجيع على الاستهانة بها، وارتكاب مثلها أو أقبح منها، لا سيما إذا كان المتحدث عنه من المعروفين بالاستقامة، أو من مستوري الحال، أو ممّن يشار إليه بالبنان، أو من الدعاة إلى الخير والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، أو ممن يقتدى بهم في أعمالهم العامة أو الخاصة.

وتوجد عدّة دوافع تدفع الإنسان إلى الغيبة:

١ ــ منها كراهيته الباطنة لمن يغتاب، مع عدم رغبته بإظهار كراهيته، لئلّا تتحول إلى عداوة ظاهرة، فيخسر بهذه العداوة الظاهرة أموراً يحبّها، أو يتعرّض لمعارك لا يرى من مصلحته أن يتعرّض لها، فينتهز فرصة غياب من يكره، فيغتابه أمام قوم يتصوّر أنه يأمن جانبهم من أن يبلّغوه، شعوراً منه بأن ذلك يحطّم مكانته في نفوسهم، وبذلك ينفّس عن كراهيته له.

٢ ــ ومنها المنافسة التي ولّدت حسداً، والحسود لا يحب أن يعرف عنه

الحسد، ولكنه لا يستطيع مع نار الحسد التي تأكل قلبه إلاّ أن يعبّر عمّا في نفسه بمحاولات نشر معايب من يحسده، فيغتابه في المجالس ليُحطّم مكانته عند الناس، وليعلو هو في تصوّره على حطام أخيه الذي يغتابه.

٣ ـ ومنها الرغبة بأن يبرّر المغتاب في نظر الناس ما عرفوا عنه من معايب وقبائح، فإذا ذكر أمامهم من يحترمونه بأنّ له من العيوب والقبائح مثل عيوبه وقبائحه، خفّ إنكارهم عليه، فإما أن ينزل في نفوسهم من يحترمونه إلى مثل منزلة من يغتابه، أو يرتفع من يغتابه إلى مثل منزلته في نفوسهم، وهكذا يتصوّر صاحب هذه الرغبة الذي يريد أن يبرّر في نظر الناس واقعه.

وغير المؤمنين يغتابون المؤمنين الصالحين لنشر الفساد في الأرض، والتشجيع على ارتكاب الآثام والسيئات، وممارسة القبائح والمنكرات.

وخلائق أهل الغيبة الذين يتظاهرون أمام إخوانهم بالمحبة والاحترام والتقدير، ثم يطعنون فيهم في حال غيبتهم، تشبه خلائق المنافقين، فهم مخادعون يظهرون بوجه، ويخفون وجهاً آخر، وهم جبناء، وهم حريصون على تحصيل المنافع من كلّ الوجوه المتضادّة.

وفي التحذير من الغيبة وردت عدة أحاديث عن النبي ﷺ، منها ما رواه الحافظ أبو يعلى وأبو داود بنحوه، عن البراء بن عازب قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتها، أو قال في خدورها، فقال:

«يا معشر من آمن بلسانه لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنّه منْ يتبع عورة أخيه يتّبع الله عورته، ومن يَتّبع الله عورته يفضحه في جوف بيته».

وروي عن ابن عمر من طريق أخرى نحوه.

وعن عائشة قالت: قلت للنبي ﷺ: حسْبُك من صفيّة أنها كذا وكذا (قال بعض الرواة: تعني قصيرة) فقال:

«لقد قلتِ كلمة لو مُزجَتْ بماء البحر لمزجته».

أي كلمة كبيرة كافية لأن تغير ماء البحر الطاهر الطهور بما فيها من طعم فاسد وريح منتنة، وذلك لأنها من عنصر الغيبة.

قالت عائشة: وحكيت له إنساناً فقال:
«ما أحب أني حكيتُ إنساناً وإن لي كذا وكذا».
(رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح).

فأبان الرسول ﷺ أن المُحَاكاة الدالة على التنقيص من الغيبة، فهي منهي عنها.

وروى أبو داود والإمام أحمد عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ:

«لـمّا عُرِجَ بـي مررت بقوم لهم أظفارٌ من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم».

فهذه من عقوبة المغتابين.

وللتنفير من الغيبة جعلها الله مثل من يأكل من لحم أخيه ميتاً، فقال تعالى: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾.

وذلك أن من يذم أخاه المؤمن ويتحدث عن نقائصه ومعايبه، يؤذيه أذىً يشبه أذى من يعضّه ويأكل لحمه، فإذا كان ذلك في غيبته وعلى غير شعور منه، كان كمن يعضّه ويأكل من لحمه وهو ميت لا يحس ألم العضّ والأكل.

وفي التحذير من الغيبة والتنفير منها، روى الحافظ أبـو يعلى بـإسناد صحيح، عن عمر أن ماعزاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد زنيت، فأعرض عنه، حتى قالها أربعاً، فلما كان في الخامسة، قال: «زنيتَ؟» قال: نعم. قال: «وتدري ما الزنى؟». قال: نعم، أتيت منها حراماً ما يأتي الرجل من امرأته حلالاً. قال: «ما تريد إلى هذا القول؟» قال: أريد أن تطهّرني. قال: قال رسول الله ﷺ: «أدخلت ذلك منك في ذلك منها، كما يغيب

الميل في المُكحُلة والرشا في البئر؟» قال: نعم يا رسول الله. قال: فأمر برجمه فَرُجم.

فسمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه، فلم تدعه نفسه حتى رُجم رجم الكلب؟.

ثم سار النبي ﷺ حتى مرّ بجيفة حمار، فقال: «أين فلان وفلان؟ انزلا فكُلا من جيفة هذا الحمار».

قالا: غفر الله لك يا رسول الله، وهل يؤكل هذا؟

قال ﷺ: «فما نِلتُما من أخيكما آنفاً أشد أكلاً منه، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها».

وهكذا نهانا الله عن كل ما يسبب الخلاف والفرقة، ويلقي في قلوب المؤمنين العداوة والبغضاء، وأبان لنا بالتفصيل قبائح السخرية، واللّمز، والتنابز بالألقاب، واتهام المؤمنين بالظنون الضعيفة التي لا تقوى على الإدانة، والتجسّس على المؤمنين، والغيبة للمؤمنين، ويقاس عليها نظائرها.

ثم جاءت السنّة فبيّنت وفصلت ما جاء في القرآن، ومما جاء في السنّة ما يلي:

روى البخاري والإمام مالك عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال:

«إياكم والظنّ، فإن الظنّ أكذب الحديث، ولا تجسّسوا، ولا تحسّسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً».

وروى ابن ماجه، عن عبدالله بن عمر قال: رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول:

«ما أطيبكِ وأطيبَ ريحكِ! ما أعظمكِ وأعظم حُرْمَتَكِ! والذي نفس محمد بيده لَحُرْمَةُ المؤمن أعظم عند الله حُرمةً منكِ، مالُه، ودمُه، وأن يُظَنَّ به إلا خيراً».

وروى الطبراني عن حارثة بن النعمان قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لازماتٌ لأمتي: الطِّيرَة، والحسد، وسوءُ الظنّ».

فقال رجل: وما يُذْهِبُهُنَّ يا رسول الله ممّنْ هنّ فيه؟

قال ﷺ: «إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقّق، وإذا تطيّرتَ فامضِ».

وروى أبو داود بإسناد صحيح عن معاوية، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إنّك إن اتّبعت عورات المسلمين أفسدتهم، أو كدت أن تُفسدهم».

وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ:

«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه».

وروى مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال:

«تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيغْفَر لكل عبدٍ لا يُشرك بالله شيئاً، إلاّ رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيُقال: أنْظِروا هذين حتى يصطلحا، أنْظِروا هذين حتى يصطلحا».

وفي رواية: «تعرضُ الأعمال في كل يوم خميس واثنين» وبقية الحديث نحو الحديث السابق.

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا (ويشير إلى صدره ثلاث مرات) بحسب امرىءٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله وعرضه».

ولا تناجشوا: التناجش أن يزيد إنسان في ثمن السلعة وهو لا يريد

شراءها، وإنما غرضه أن يغر إنساناً آخر له رغبة بها، فيدفع في ثمنها أكثر من قيمتها.

ففي هذا الحديث نهي عن جملة من قبائح السلوك المنافية لما يجب أن يكون عليه خلق المسلم، وظاهر أن هذه القبائح من شأنها أن تفرق بين المسلمين، وتفسد أخوتهم، وتحطم جسديتهم الواحدة، وقد نهى الرسول ﷺ في هذا الحديث عما يلي:

١ ــ التحاسد.

٢ ــ التناجش، وهو الإضرار في المزاودة دون قصد الشراء.

٣ ــ التباغض.

٤ ــ التدابر، أي التقاطع، إذ به يجعل كل فرد دبره لأخيه، بدل أن يجعل وجهه لوجهه.

٥ ــ أن يبيع المسلم على بيع أخيه، وهذا من التنافس على الدنيا، الذي يفسد المودات، ويورث العداوات، ومن صوره أن يقول لمن يشتري من إنسان: لا تشتر منه فإني أبيعك بأرخص أو عندي أحسن من سلعته.

٦ ــ الظلم.

٧ ــ الخذلان، وهو أن لا ينصر المسلم أخاه بالحق.

٨ ــ التحقير.

٩ ــ وأخيراً قرر الرسول أن كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه، فلا يجوز للمسلم أن يؤذي أخاه المسلم في جسده، ولا أن يعتدي عليه في ماله، ولا أن يؤذيه في عرضه، والعرض هو مكان المدح والذم من الإنسان.

وشرح هذه العناصر موزع في فصولها.

النّميمــة:

النميمة هي السعي بين الناس بالإفساد، لتحريض الناس بعضهم على

بعض، والإيقـاع بينهم، وشحْنِ قلوبهم بالعداء والضغينة، ومنها السعي لدى ذي سلطان حتى يفسد قلبه على بعض أهل مودته، أو أحد رعيته، فيوقع به ضرّاً أو أذى.

والنميمة قد تكون للإفساد بين صديقين، أو شـريكين، أو زوجـين، أو قريبين، أو حبيبين، أو أسرتين، أو قبيلتين، أو شعبين، أو دولتين، أو أي فريقين بينهما صلاتٌ ومودات أو علاقات تعامل، أو نحو ذلك.

وهي أخبث وسائل التفريق الشيطانية، والنمام يظهر لكل من الفريقين اللذين يفسد بينهما بوجه غير الوجه الذي يظهر به للفريق الآخر.

وصاحب الوجهين هذا هو شر الناس يوم القيامة، روى البخاري ومسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«تجدون شر الناس يوم القيامة ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه».

وأبان الرسول ﷺ أن النمام لا يدخل الجنة، روى البخاري عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«لا يدخل الجنة قتّات».

القتّات: هو النمام.

وفي رواية مسلم عن حذيفة: «لا يدخل الجنة نمام».

وروى الإمام أحمد بسند ضعيف، أن رسول الله ﷺ قال:

«ألا أنبئكم بشراركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «شراركم المشّاؤون بالنميمة، المفرّقون بين الأحبّة، الباغون للبرآء العيب».

وروى البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال: مرّ رسول الله ﷺ بقبرين فقال:

«إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستبرىء من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة».

وقال الله تعالى في سورة (القلم ٦٨):

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾.

قيل: نزلت في الأخنس بن شُريق.

وقد وصف الله امرأة أبي لهب بأنها حمالة الحطب، وقد رجح طائفة من المفسرين أن هذا كناية عن كونها تمشي بالنميمة.

والذي يمشي بالنميمة ناقلٌ لأخبار السوء، وقد وصفه الله بأنه فاسق، وأمر الذين آمنوا بأن يتثبتوا من خبره، فلا يأخذوه على عواهنه، ويبنوا عليه الأحكام دون تبيّن ولا تثبت، وفي ذلك قال الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦﴾.

وكم جرت النميمة من شرور عظمى في المجتمع الإنساني، وكم فرقت بين الناس، وأفسدت العلاقات، وأثارت فتناً كبرى، لذلك فهي من المحرمات الكبائر.

ودوافع النميمة ترجع إلى الحسد، أو إلى الكراهية، أو إلى الكبر، أو إلى الرغبة بتحقيق مطامع خاصة، أو ترجع إلى ابتغاء الفتنة وإرادة إشعال نيران الشرور بين الناس وإقامة الحروب والثورات، فهي بهذا شيطانية بحتة.

فنعوذ بالله من النميمة ومن كل نمام.

* * *

الفصل الخامس

المحبة للآخرين

— ١ —

المحبة للآخرين من الأسس العامة للأخلاق

من الأسس العامة التي ترجع إليها مجموعة من الفروع والمفردات الخلقية المحمودة محبة الآخرين.

وذلك لأن انطلاق الإنسان عن دائرة أنانيته الضيقة، إلى دائرة أعم وأشمل، وخروج الإنسان من إطار محبته لنفسه فقط، إلى محبة الآخرين الذين هم في الدائرة الأعم الأشمل، إنما هو ارتقاء خلقي كريم. أما بقاء الإنسان في حدود دائرة أنانيته الضيقة، وانحصاره في إطار محبته لنفسه فقط، دون أن يكون عنده محبة للآخرين أو شعور بمشاعرهم، فهو من دون شكٍّ انحطاط خلقي، وانعزال عن الحياة الاجتماعية، ورضىً بأضيق الحدود. وكثيراً ما يرافق الأنانية الضيقة كراهية الآخرين، وحسدهم، وبغضهم، والحقد عليهم، لأنهم منافسون أو منازعون أو مشاركون، وكل ذلك ممّا يؤذي أصحاب النفوس الصغيرة الحقيرة ذات الأنانية الضيقة وهذا مما لا شك فيه قبح خلقي وخسة ودناءة وانحطاط.

إن الشعور بالمحبة نحو الآخرين أصل ترجع إليه مكارم خلقية كثيرة، كالتعاون وإرادة الخير للناس، ومشاركتهم الوجدانية في السراء والضراء، وأن يحب لهم مثلما يحب لنفسه، وأن يعاملهم بمثل الذي يحب أن يعاملوه به.

ومن شأن الشعور بالمحبة نحو الآخرين السلامة من كثير من الأمراض الخلقية الخبيثة، كالحسد، والأثرة، والبغضاء، والشحناء، والغيبة، والنميمة، وإرادة الشر والضر بالناس، والظلم والعدوان، وغير ذلك من رذائل.

إن هذه الأشواك السامة تنبتها شجرة في النفس خبيثة جذرها الأنانية الضيقة، ومحبة الإنسان لنفسه فقط، وجذعها كراهية الآخرين، وفروعها الشيطانية الشوكية السامة كل ما فيه أذى وإضرار بالآخرين.

إن شعور الإنسان بمحبته للناس اتجاه كريم نحو الارتباط بالجماعة، والاندماج فيها، ومشاركتها في السراء والضراء، وانطلاق من مواقع الأنانية الضيقة، فهي الوجه السمح الجميل المشرق للقلوب والنفوس.

أما الكراهية فهي انعزال مقيت في مواقع الأنانية الضيقة، وهي الوجه السمج المخيف المظلم القاتم للقلوب والنفوس.

ما أجمل الحياة بالمحبة! وما أقبحها بالكراهية! إن المحبة لتسعد صاحبها قبل أن تسعد الآخرين، أما الكراهية فإنها تشقي صاحبها قبل أن تمس نارها الآخرين.

المحبة جنة ناعمة وارفة الظلال، تنعم بها القلوب الكبيرة التي تحملها، أما الكراهية في القلوب الدنيئة الحقيرة ذات الأنانية الضيقة فهي نار ذات لهب، تكوي أوعيتها، وتعذب أصحابها.

إن المحبة يرافقها في النفوس طمأنينة، وقناعة، ورضى، أما الكراهية فيرافقها قلق واضطراب، ومطامع ثائرة، وتسخط مستمرٌ على الواقع.

فالذين يحبون الخير للناس يعيشون في سعادة قلبية مستمرة، ضمائرهم رضية، ونفوسهم مطمئنة. أما الذين لا يحبون إلا أنفسهم فهم عن هذه السعادة وراحة الضمير وطمأنينة النفس مبعدون، لقد أبعدتهم قلوبهم الصغيرة، ونفوسهم الحقيرة.

ولذلك جعل الإسلام هذه المحبة عنصراً من عناصر الإيمان، أو ثمرة من

ثمراته، فقد ثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

ومعلوم أن الإنسان لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حتى يكون عنده شعور نحو أخيه بالمحبة.

ولدى التأمل نلاحظ أن قاعدة هذا الحديث تصلح أساساً عاماً للأخلاق الاجتماعية كلها، إذ أن الفضائل الخلقية الاجتماعية كلها يشتمل عليها هذا المنبع الرئيسي: أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه.

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

فجعل الرسول ﷺ في هذا الحديث التحابب من عناصر الإيمان، أو ثمرة من ثمراته التي لا بد أن تظهر متى كان الإيمان صحيحاً، فقال: «ولا تؤمنوا حتى تحابوا» أي: فإذا لم يوجد بين المسلمين تبادل المحبة والمودة لم يكن الإيمان في قلوبهم مستكملاً عناصره، وبذلك لا يكونون مؤمنين حقاً، ولا يكونون مؤهلين لدخول الجنة.

فتبادل المحبة بين المسلمين قاعدة من قواعد الإيمان أو أثر من آثاره القلبية، كما أنها أساس عام من أسس مكارم الأخلاق الاجتماعية.

وباستطاعتنا أن نكشف ارتباط محبة الآخرين بالإيمان، حين نلاحظ أن الإيمان في حقيقته ظاهرة من ظواهر خلق حب الحق، والاعتراف به، والإذعان له، وأن هذا الإيمان يستلزم حتماً محبة الخالق المنعم، ومن محبة الخالق تأتي محبة عباد الله الذين أمر بمحبتهم وموادّتهم، فمن صدق في حبه لله أحب بحبه الخير لكل عباد الله، وبهذا نلاحظ الترابط الوثيق بين الإيمان بالله وتوجيه حب القلوب إليه من جهة، وبين الإيمان وتحابب المؤمنين من جهة أخرى، فحلقات الإيمان مترابطة ويلزم عنها لوازم تعتبر متممات لها.

ـ ٢ ـ

الأصل في خلق المسلم أن يحب الناس جميعاً والكـــراهية عـــرض طـــارىء لأمـــر يستدعيها

الذي يكشفه التحليل والتبصّر في النصوص الإسلامية، أن الأصل في خلق المسلم الذي يعامل به جميع عباد الله هو خلق المحبة لا خلق الكراهية، فالمسلم المؤمن مشرق القلب دائماً، منفتح القلب لكل عباد الله، ويريد الخير لكل عباد الله.

وإذا أبغض أو كره، فإنما يبغض ويكره الشر والرذيلة والفساد والباطل، لأن حبه للحق والصلاح والفضيلة والخير يستلزم حتماً أن يكره ويبغض أضدادها. وحينما يلتزم أحد عباد الله هذه الأمور، ويدعو إليها، وينصرها، ويسلك سبلها، فإن حب المسلم المؤمن له يدفعه أولاً إلى هدايته، لإنقاذه من جحيم هذه الأمور، ثم يدفعه إلى محاولة إخراجه منها ولو باستخدام بعض وسائل العنف التي قد توقظ فكره وضميره لتقبل الحق والخير والفضيلة والصلاح، والاستجابة لدعوة الهداية، وسلوك سبيلها. فإذا هو أصر وعاند ورفض أن يستجيب للحق والخير، فقد أعلن باختياره أنه من جنود الشر والباطل، فكان بذلك مثالاً مادياً ذا قوة فاعلة متحركة للشر والباطل والرذيلة والفساد، فاستحق أن يُعامل بالكراهية والبغض، لأنه غدا وعاءً وقوةً وجسداً لما يجب أن يُقابل بالبغض والكراهية، فبغضه وكراهيته ليسا من أجل ذاته، وإنما من أجل الصفات التي اتصف بها باختياره.

فحينما يبغض المسلم المبطلين، وأهل الشر، ومرتكبي الكبائر من الإثم، ومعادي الحق والخير والفضيلة، فإنما يبغضهم لهذه الصفات التي فيهم، وليس يبغضهم لذواتهم، فهم بالنظر إلى ذواتهم خلق من خلق الله، وعبادٌ من عباد الله، يحب لهم الخير، ويرجو لهم الخير، ويسعى في إصلاحهم، ويشفق عليهم للمصير الوخيم الذي يدفعون أنفسهم إليه، لكنهم لـمّا حملوا الأمراض الوبائية التي حملوها، وتعذر علاجهم، لأنهم رفضوا بإراداتهم كل وسائل العلاج؛ كان

لا بد من معاملتهم بالبغض والكراهية لذلك. ومتى صح أي واحد منهم من مرضه الوبائي الخطير، عاد إلى منزلته الأصلية، وهي منزلة الأخوة، واتجه قلب المؤمن له بالمحبة.

فالخلق الأصلي الذي يعامل به المؤمن جميع عباد الله هو خلق المحبة، لا خلق الكراهية، وبخلق المحبة يريد المؤمن للناس جميعاً أن يكونوا مؤمنين، وأن يكونوا مسلمين، لأنه يعلم أن هذا هو سبيل السعادة الخالدة، وهو يحب لكل عباد الله أن يكونوا سعداء، وأن يشاركوه في النعيم المقيم الذي أعده الله للمؤمنين.

وحينما ينظر المسلم إلى أعداء الحق والخير والفضيلة، فإنما ينظر إليهم كما ينظر الطبيب الناصح إلى المرضى بالأمراض الوبائية الخطيرة، فهو لا يدع وسيلة من الوسائل التي تيسر سبُل شفائهم إلا ويستخدمها، وحينما يستخدم بعض الوسائل المؤلمة لهم، فليس ذلك ناشئاً عن بغضه لهم، وإنما دعته الضرورة إلى ذلك، لأنه لم يجد الوسيلة المجدية التي لا ألم فيها.

إن المؤمن ينظر بالأصل إلى جميع عباد الله نظرة واحدة، ويرى أن كل فرد منهم عضو من أعضاء هذه الوحدة الجماعية الكبرى، وحينما يفسد عضوٌ من الأعضاء فساداً كلياً يتعذر إصلاحه، ويمسي فساده منطقة خطر ينتشر منها الفساد إلى الأعضاء الصحيحة، فإن دافع المحبة لجماعة عباد الله تدعوه إلى أن يحمي هذه الجماعة من خطر وباء العضو الفاسد، وهذه المحبة تدعوه إلى أن يقتلع هذا العضو إذا دعت الضرورة إلى ذلك، وأن يبتره بتراً نهائياً من جسم الجماعة، خشية عليها، وصيانة لها، لا كراهية لذات العضو فإن المؤمن أحب ما يحب أن يشفى العضو من وبائه، وينضم سليماً إلى الجماعة الصالحة السليمة.

ولا يكون المسلم المؤمن بالله أنانياً في الدين، فهو لا يريد أن يحتكر الجنّة لنفسه، ولا يقول أنا عبدالله المختار من دون سائر الناس، وأنّ الجنة خلقت لي وحدي، أو خلقت لسلالة من الناس بأعيانهم هم أبناء الله وأحباؤه، وإنّما يقول

ما فهم من دين الله وكتابه: إنّ الجنّة لكلّ من آمن بالله، ولكل من اهتدى إلى صراطه المستقيم، وآمن بجميع رسل الله وكتبه، والتزم سبيل طاعة ربّه.

من أجل ذلك فهو يدعو جميع الناس لاغتنام هذا المجد العظيم والأجر الكبير الذي لا ينقطع، وهو شديد الحرص على أن يشاركه في الجنّة كلّ عباد الله، فالجنة تتسع بفضل الله لكل من يؤمن بالله واليوم الآخر من عباده. أمّا من اختار لنفسه سلوك سبل الشرّ، فمن شأن المسلم المؤمن الصادق أن يكره له ذلك، وأن يؤلمه أن يرى أخاه في الإنسانية سالكاً غير سبيل الله، فإن جعل أخوه في الإنسانية نفسه بإرادته شيطاناً آثماً ظالماً، وحاملاً لواء الدعوة إلى الشرّ والضلال، فقد قطع بنفسه أواصر أخوّته الإنسانية، وعندئذٍ يجد المسلم نفسه مضطراً بدافع المحبّة إلى مقاتلته، لمنع شرّه وضرّه، ومضطراً أيضاً بدافع المحبة إلى إعلان معاداته لذلك، وبغض ما فيه من شر، وهو في اللحظة التي يصلح فيها ويستقيم ويعلن دخوله في زمرة المؤمنين يحتلّ منزلة الأخوة القريبة المحبوبة.

إنّ من يختار لنفسه سبُل الضلال وينحاز إلى الذين يحادّون الله ورسُله، يقطع بإرادته أواصر أخوّته للمؤمنين، فلا يكون لهم منه حبّ ولا ودّ، ولا يجد من أحدهم له حبّاً ولا ودّاً، ولو كان بينهما قرابة نَسَبيّة قريبة، لأنّ حبّ الله والحقّ والخير فوق حبّ الأشخاص، ومتى تعارضا سقط حبّ الأشخاص وثبت حبّ الله والحقّ والخير، فهو الأحقّ بالثبات والبقاء، ولا يمكن أن يجتمعا في قلب واحد، ما دام هذا القلب منطقيّاً مع نفسه، لا انفصام ولا ازدواج في ذاتيته، قال الله تعالى في سورة (المجادلة ٥٨):

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

وسيأتي إن شاء الله مزيد بيان لهذه النقطة.

ـ ٣ ـ

الحبّ قسمان: عاقل، وأرعن

حينما تدفع المحبَّ محبّته إلى إرضاء الشخص الذي يحبّه في كلّ ما يريد، والسرور له بفعل كل ما يهوى، ولو كان في ذلك هلاكه، أو ضرّه وأذاهُ، أو سخط الله، أو إضرار بالناس، أو نشر للشرّ والفساد في الأرض، فهي محبّة حمقاء رعناء جاهلة، ضارّة غير نافعة.

فالمحبة قسمان: محبّة عاقلة نافعة، ومحبّة رعناء جاهلة ضارّة.

أمّا المحبة العاقلة النافعة: فهي التي تريد الخير لمن تحبّ، ولو كان ذلك يسيئه ويخالف هواه.

وأمّا المحبّة الجاهلة الرعناء الضارّة: فهي التي تسعى لإرضاء من تحبّ في كلّ ما يشتهي ويهوى، وتسرّ لمسرّته في اتباعه أهواء نفسه وشهواتها، ولو كان ذلك سيجلب له ولغيره شرّاً كبيراً، وضرّاً عظيماً، ومصائب جسيمة، وعذاباً أليماً.

إن المحبّة الجاهلة الرعناء للولد مثلاً، تدفع صاحبها إلى إهمال تربية ولده شفقةً عليه، أو سروراً بانطلاقه في تلبية أهواء نفسه، حتى تجعله يتمادى في الشرّ والإثم، ويكون في آخر أمره مجرماً خطيراً، وشيطاناً رجيماً.

وربما كانت العداوة العاقلة له خيراً وأهون شرّاً من هذه المحبّة الجاهلة الرعناء.

إن تلك الأم الجاهلة الحمقاء، التي أشفقت على ولدها فأهملت تربيته، قد دفعت به وهي لا تشعر حتى صار مجرماً، وساقته الجريمة إلى يد العدالة. عندئذٍ وقفت أمّه تبكي جزعاً من أجله، وحسرة عليه، وندماً على ما فرّطت في جنبه، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ويقول لها: أنت التي دفعت بي إلى هذا المصير المهلك، بشفقتك عليّ، وسوء تربيتك لي، وإهمالك شأني، وسرورك باتباعي أهواء نفسي.

أمّا المحبّة العاقلة الحكيمة، فأعظم مثلٍ لها محبّة الله لعباده، ثم محبة الرسول لعباد الله، ثم محبة المؤمنين الفاهمين لإسلامهم والمتأدبين بآدابه.

فالله عزّ وجل يحبّ لعباده الكمال، ولا يحبّ لعباده النقص، وهذا ما تقتضيه المحبّة الحكيمة، لذلك فهو يحب لهم الإيمان، ولا يرضى لهم الكفر، ويحبّ لهم أن يعملوا صالحاً، ولا يحبّ لهم أن يعملوا السيّئات، فمن آمن وعمل صالحاً كان من أحباب الله، ومن كان من أحباب الله كان من أحباب رسوله الكريم، وكان من أحباب الصالحين من عباد الله. ومن كفر فإنّ الله لا يحبّه لكفره، وليس يكرهه لذاته، إذ هو عبد من عباده، وخلق من خلقه، ولكنّه لما اختار لنفسه سبيل الكفر أبعده الله عن مكان محبته، وكذلك من ظلم وأجرم وأفسد في الأرض فإنّ الله لا يحبّه لاقترافه هذه القبائح والمنكرات. ومن أجل ذلك كثر في النصوص القرآنية مثل قول الله تعالى: ﴿إنّ الله يحبّ المتقين﴾ وقوله: ﴿إنّ الله يحبّ المحسنين﴾، وقوله: ﴿إنّ الله يحبّ الصابرين﴾، وقوله: ﴿إنّ الله يحب المتوكلين﴾، وقوله: ﴿إنّ الله يحبّ المتطهرين﴾. وفي مقابل ذلك كثر في النصوص القرآنية مثل قول الله تعالى: ﴿والله لا يحبّ الظالمين﴾، وقوله: ﴿والله لا يحبّ كلّ كفّار أثيم﴾، وقوله: ﴿فإنّ الله لا يحبّ الكافرين﴾، وقوله: ﴿والله لا يحبّ من كان مختالاً فخوراً﴾، وقوله: ﴿إنّ الله لا يحبّ من كان خوّاناً أثيماً﴾، وقوله: ﴿ولا تعتدوا إنّ الله لا يحبّ المعتدين﴾، وقوله: ﴿ولا تسرفوا إنّ الله لا يحبّ المسرفين﴾، وقوله: ﴿إنه لا يحبّ المستكبرين﴾، وقوله: ﴿إنّ الله لا يحبّ المفسدين﴾.

وهكذا تتكاثر النصوص القرآنية محدّدة طريق المحبّة الحكيمة العاقلة، ومشيرة إلى أنّها موصولة دائماً بإرادة الخير لمن تحبّ، ولو كان ذلك يسيئه ويخالف هواه، ومقترنة دائماً بوجود الكمالات والفضائل.

أمّا الكراهية الحكيمة العاقلة، فهي لا تتوجّه إلا حيث توجد القبائح والرذائل، من عقائد، وأخلاق، وأقوال، وأعمال.

ـ ٤ ـ
الرسول ومحبته لأمته وقومه والناس أجمعين

وفي إطار المحبّة العاقلة نلاحظ أنّ مشاعر المحبّة العامّة التي كانت تتملّك قلب خاتم المرسلين محمد صلوات الله وسلامه عليه، تجاه أمته وقومه والناس أجمعين، هي التي جعلته يتحرّق ألماً، من أجل الذين رفضوا الاستجابة لدعوة الإسلام، وهو يعلم أنّ إسلامهم هو سبيل سعادتهم، وأنّ عنادهم وإصرارهم على الكفر هو سبيل شقاوتهم الأبديّة، وكان مثله صلوات الله عليه كمثل الأب الرحيم العاقل، إذ يرى ولده الذي يحبّه، ويريد له الخير، يقذف نفسه في نارٍ حامية، وهو يظنّ أنّها مرتع من مراتع اللّذات.

لقد كانت هذه المشاعر الكريمة النابعة من أخلاقه العظيمة صلوات الله عليه، هي المحرّكة لكثير من عواطفه وتصرّفاته، ولـمّا زادت هذه المشاعر العظيمة في نفسه عن الحدود التي ينبغي ألاّ تزيد عليها، أرشده الله إلى التخفيف منها، حتى لا تؤثر على حياة الرسول نفسه صلوات الله عليه، ولذلك قال الله له في سورة (فاطر ٣٥):

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾.

ففي هذه الآية يرشد الله رسوله إلى أن يخفف من مشاعر تحسّره على الذين لم يستجيبوا لدعوة الإسلام من قومه، إبقاءً على نفسه، فالضالّ السالك سبيل الغواية بإرادته، وهو عالم غير جاهل، وقد وُجّهت له النصائح والبيانات والإرشادات الكافيات لإقناعه ونصحه، لا يستحقّ تحمّل مشاعر الألم والحسرة من أجله، إنّه لم يكن فيه خير لنفسه، حتى يستدرّ شفقة الآخرين عليه، ويستحق أن يتحملوا الآلام حسرة عليه.

وقال الله له في سورة (الكهف ١٨):

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾.

بَاخع نفسك: مهلك نفسك، وقاتل لها.

والمعنى: فلعلّك يا محمد مهلك نفسك وقاتل لها من الأسف والحزن عليهم، إن لم يؤمنوا بما أنزلنا عليك من القرآن، وأنت تلاحقهم بنصحك وإرشادك، وتلحّ عليهم بدعوتك، متابعاً آثارهم، لتردّهم إلى صراط الله المستقيم، فهوّن على نفسك، وخفف عنها مشاعر الحزن والأسف، فهم في هذه الأرض وما فيها من زينة في دار ابتلاء، أي: في دار امتحان، وفي نتيجة الامتحان يظهر أيهم أحسن عملاً.

إذا تبصرنا بحالة الرسول هذه فإننا نجدها نابعة من مشاعر المحبّة المتدفقة، التي جعلت الرسول صلوات الله عليه شديد الحرص على هداية قومه والناس أجمعين، وجعلته يحزن حزناً عظيماً، من أجل الذين أصرّوا على سلوك سبُل الشقاوة معاندين مكابرين.

وقال الله تعالى له في أوائل سورة (الشعراء ٢٦):

﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ۝٤ ﴾.

ففي هذا النص القرآني يبيّن الله لرسوله برفق، أن يخفّف من حدّة مشاعره النابعة من منابع حرصه على هداية قومه بدافع المحبّة، لئلا يقتل نفسه أسفاً عليهم، ويبيّن له تبارك وتعالى أنّ الغاية امتحان إراداتهم، وأنه لو كانت الغاية إجبارهم على الإيمان لأنزل عليهم بمشيئته آية من السماء فأخضعتهم، وجعلتهم يؤمنون بسلطان القوة، لكنّ هذا غير مراد، إنّما المراد أن يؤمن من يؤمن منهم بإرادته الحرة، التي لا قسر يسوقها، ولا إكراه يجبرها.

وقال الله تعالى له في أول سورة (طه ٢٠):

﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ﴾.

ففي قوله تعالى لرسوله: ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ توجيه ضمني له بأن لا يضني نفسه ويشقيها أسفاً وحزناً على الذين لم يستجيبوا لدعوة الحقّ، بدافع محبّة الخير لهم، والشفقة عليهم من المصير الأليم الذي ينتظرهم إذا هم تمادوا في الكفر والعناد. ثم قال الله له: ﴿إلّا تذكرة لمن يخشى﴾ أي: ليست وظيفتك يا محمّد تحويلهم من الكفر إلى الإيمان، حتى تشقي نفسك في السعي وراءهم، والحسرة عليهم، وإنما وظيفتك تذكيرهم وموعظتهم وإنذارهم فقط، وعندئذٍ يتذكّر منهم من يخشى، وهو من تؤثر فيه المعرفة، فتحدث في قلبه الخشية من الله.

وقد تكرر في القرآن الكريم بيان الله تعالى لرسوله أنّ وظيفته إنما هي التذكير والموعظة والإنذار، لا إكراه الكافرين على الإيمان، ولا اتخاذ الوسائل لتحويلهم إليه تحويلَ خلقٍ وتكوين، فهذا أمر لو شاء الله لفعله بنفسه، ولكن تبطل به حكمة الابتلاء والامتحان في ظروف هذه الحياة الدنيا. فمن هذه النصوص ما يلي:

قول الله تعالى له في سورة (الغاشية ٨٨):

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾.

وقول الله له في سورة (الرعد ١٣):

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾.

أي: ما أنت بالنسبة إلى الكافرين إلّا منذر لهم من عذاب يوم شديد.

وقول الله له في سورة (هود ١١):

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾.

فحدّد الله مهمّة الرسول بالنسبة إلى المنكرين الجاحدين المصرّين على العناد بالإنذار، فقال له: «إنّما أنت نذير».

ولدى تتبع مراحل تنزيل النصوص السابقة نجد أنها نزلت وفق التسلسل التالي:

أولاً: آية (فاطر): ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾.

ثانياً: آية (طه): ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾.

ثالثاً: آية (الشعراء): ﴿لعلك باخع نفسك ألّا يكونوا مؤمنين﴾.

رابعاً: آية (هود): ﴿إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾.

خامساً: آية (الغاشية): ﴿فذكّر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾.

سادساً: آية (الكهف): ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾. وكل هذا في المرحلة المكية.

سابعاً: آية (الرعد): ﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾.

وقد نزلت في أواسط المرحلة المدنية.

ونلاحظ في هذه المتابعة منهجاً تربوياً قصد منه معالجة نفس الرسول ﷺ لتخفيف ما كان يعانيه من شدّة حرصه على هداية القوم، ورغبته بتحوّلهم من الكفر إلى الإسلام، ومن الضلالة إلى الهدى.

ـ ٥ ـ
في الحبّ السامي

(أ) حبّ الله والرسول ﷺ:

١ ـ روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري، أن النبي ﷺ قال: «المرء مع من أحبّ».

وفي رواية قال: قيل للنبي ﷺ: الرجل يحب القوم ولـمّا يلحق بهم؟ قال: «المرء مع من أحبّ».

٢ ــ وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحبّ قوماً ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ:
«المرء مع من أحبّ».

٣ ــ وروى البخاري ومسلم عن أنس، أنّ أعرابيّاً قال لرسول الله ﷺ: متى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: «ما أعددت لها؟» قال: حبّ الله ورسوله. قال: «أنت مع من أحببت».

وفي رواية أنه قال: ما أعددتُ لها من كثير صوم ولا صلاة ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله، فقال الله الرسول ﷺ: «أنت مع من أحببت».

قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرَحهم بها.

إنّ الحب السامي يرفع مراتب المقصّرين في فضائل السلوك والأعمال الصالحات، حتى يجعلهم مع من يحبّون من السابقين، الذين يستحقون المراتب العالية الرفيعة.

كما أنّ الحب الساقط المنحط يخفض منازل المجتهدين في ظواهر السلوك الحسن، حتى يجعلهم مع من يحبّون من المتخلّفين المقصّرين في الأعمال الصالحات، والذين يستحقون المنازل السفلى.

والسبب في ذلك أنّ الحب السامي الذي هو حب الله والرسول وحب ما يحبه الله والرسول، من أعلى مراتب الإيمان، بل هو أعلاها، إذ هو لدى التحقيق أعلى من مرتبة الحمد والشكر، وأعلى من مرتبة الإجلال والإكبار، بله مرتبة الخوف والطمع.

إنّ المحب الصادق في حبه يحب ولو لم يكن مع الحب خوف وطمع، ويحب ولو جاءه الألم من جهة من يحبّ، وحبه يدفعه إلى الحمد والثناء، والشكر على النعماء، دون ملاحظة الثواب والجزاء، ويدفعه إلى الإجلال والإكبار.

وحب الرسول من حب الله، لأنّ الله أمر بحبه كما أمر باتباعه، فمن

صدق في حبه لله فلا بد أن يحب من اصطفاه الله وأحبه واختاره رسولاً يبلّغ عنه رسالاته، وأمر بحبه.

وللرسول على الناس أيضاً سوابق فضل هدايتهم وإرشادهم إلى طريق سعادتهم، وله عليهم فضل ما بذل من أجلهم من نفسه وجسمه وكل ما يملك، وله عليهم فضل رحمته بهم ومحبته لهم وغيرته وحرصه عليهم، وصبره الشديد على أذى من آذاه وأساء إليه منهم، وله عليهم فضل خوفه الشديد من أن يمسهم عذاب ربهم على كفرهم وضلالهم، وأنه عزيز عليه أن ينالهم عنت أو مشقة.

كل ذلك يستوجب على الناس أن يحبوه، ولا يحبونه إلا إذا آمنوا به وبرسالته، ومتى أحبوه لهجت ألسنتهم بالثناء عليه وبالصلاة عليه، وتحركت إرادتهم لاتباعه والاقتداء به.

والحب محرك داخلي في الإنسان أعمق وأقوى من أي محرك آخر.

والحب السامي إيمان وزيادة عاطفة هي أقوى العواطف وأكثرها تأثيراً في الكيان الإنساني متى وجدت، وهي قادرة على أن تغلب سائر عواطف الإنسان.

لكل ما سبق كان للحب هذه القيمة، حتى قال الرسول ﷺ: «المرء مع من أحب». وقال للرجل المقصر في نوافل الطاعات، إلا أنه يحب الله والرسول: «أنت مع من أحببت».

لكن صدق الحب لا بد أن يدفع في الغالب إلى السبق في الطاعات والعمل بما يرضي المحبوب، وحين توجد بعض العوامل التي تبطىء المحب عن السبق في العمل بما يرضي المحبوب، فإن صدق حبه يقوم مقام الاستزادة من صالح العمل، لأن العمل القليل الذي يعمله مصحوب بإخلاص كثير.

أما الحب الساقط المنحط فهو تعليق للقلب بالشياطين، أو بما توسوس به الشياطين، أو ما يفضي في آخر الأمر إلى مرضاة الشياطين وسخط الله، وهذا لا يكون إلا ثمرة لتأثير عناصر من الباطل أو زخرف الحياة الفانية على نفس الإنسان وقلبه. ومتى تمكن في قلب الإنسان حبٌ من هذا القبيل فلا بد أن يجره

إلى تقصيرات كثيرة، ثم إلى مخالفات ومعاصٍ كبيرة، وكل ذلك يقذف به إلى درك المنازل المنخفضة المنحطة، وإن كان في أول طريقه من السالكين في طريق الاستقامة، لأن السلوك لم يكن أثراً لدوافع عميقة راسخة في الفؤاد، ولو كان أثراً لذلك لاقترن بالحب للخير، ولمصدر الخير، وللدال على الخير. ولو أنه كان سلوكاً ناشئاً عن إيمان صحيح صادق لما وجد الحب الساقط منفذاً يعبر منه إلى قرارة الفؤاد، ثم السيطرة على مشاعره، وهذا الحب الساقط انعطاف قلبي خطير إلى الشر واستحسان له.

(ب) **الحب في الله والبغض في الله:**

١ ــ روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال:

«ثلاث من كنّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان:

ــ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

ــ وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله.

ــ وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار».

٢ ــ وروى الترمذي بإسناد حسن صحيح عن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«قال الله عز وجل: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء».

٣ ــ وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي».

٤ ــ وروى أبو داود والنسائي بإسناد صحيح عن معاذ بن جبل، أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال:

«يا معاذ والله إني لأحبّك، ثم أوصيك يا معاذ: لا تدعنّ في دُبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

٥ ـ وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنّ الله تعالى قال: من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنّه».

كمال الحب السامي من علامات الإيمان الكامل، وبه يذوق المؤمن حلاوة الإيمان.

والحب السامي الكامل يتحقق بأن يكون الله ورسوله أحب للمؤمن مما سواهما، وبأن يحب المرء لا يحبه إلا لله.

ومقياس صحة الإيمان أن يكره المؤمن أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار؛ إذ لا يتم صدق حب الشيء إلا بالكراهية التامة لنقيضه، والكفر نقيض الإيمان، ولما كان ثواب الإيمان جنة النعيم، والمؤمن يحب هذا الثواب ويحرص عليه، وكان جزاء الكفر الخلود في النار، وكل من يعرف النار يكره العذاب فيها، كان من علامات صدق الإيمان أن يكره المؤمن أن يعود في الكفر، بمقدار كراهيته لأن يقذف في النار.

حلاوة الإيمان:

أما حلاوة الإيمان فهي سعادة روحية وقلبية ونفسية يشعر بها المؤمن كامل الإيمان، وهي لذة عميقة طويلة البقاء، يستمتع بها من كان مؤمناً حقاً كامل الإيمان، يحب الله ورسوله أكثر مما يحب أي شيء سواهما حتى نفسه، وإذا أحب إنساناً أحبه لله، ويكره مواقع الكفر كما يكره مس النار والعذاب فيها.

ولا يعرف قيمة حلاوة الإيمان إلا من ذاقها في قرارة نفسه وأعماق فؤاده، فاللّذات والسعادات يعسر تصويرها بالعبارات، ويصعب تصورها بالخاطرات، ولكن متى أحس بها سعد واستمتع، وسكن إليها قلبه، واطمأنت بها نفسه،

وأخذت تعب منها جوارحه عبّاً هنيئاً، فتنشط للعمل بما يوجبه الإيمان وبما يستدر حلاوته.

فمن أراد أن يعرف حقيقة حلاوة الإيمان فليأخذ بأسبابها حتى يصل إلى ذواقها.

وقد يستطاع تقريبها إلى التصور بمقابلتها بأضدادها، فإذا استطعنا أن نتصور مبلغ الألم الذي يعاني منه إنسان يحب شيئاً ما حبّاً جمّاً، فجاء ظالم فانتزعه منه بغياً وعدواناً، وهو عاجز عن استرداد محبوبه منه، فحلاوة الإيمان مناظرة في الطرف المقابل لشدة مرارة الألم الذي يحدثه فقد المحبوب، ومهما زادت نسبة الإيمان زادت حلاوته.

وليست حلاوة الإيمان مجرد خلاص من آلام القلق والاضطراب والشك والحيرة، وإنما هي سعادة وجودية فوق ذلك، يقذفها الله في قلوب عباده المؤمنين، مع ما فيه من سعادة الخلاص من الآلام التي يجلبها الكفر والعصيان للعصاة الكافرين.

وقد يستطاع تقريبها إلى التصور بقياسها على بعض لذات الحياة الدنيا، إلا أن لذات الحياة الدنيا نفحات متقطعات، سريعة التحول والزوال، فإذا تصورنا أحب نفحات السعادة التي تأتينا في الحياة الدنيا عن طريق لذات النفس أو القلب، ثم تصورنا لو أنها كانت مستمرةً أو طويلة الأمد، أمكننا أن نقرب إلى تصورنا حلاوة الإيمان الكامل، الذي توافرت فيه الصفات الثلاث التي ذكرها الرسول ﷺ في الحديث.

فلو أن الرجل الذي انتزع منه الظالم الآثم الباغي أحب ما يحب من الحياة الدنيا، قد استطاع أن ينتصر على الظالم ويسترجع منه محبوبه، ويشفي منه صدره بالانتقام العادل، لكانت سعادة قلبه ونفسه شبيهة بحلاوة الإيمان الكامل بصفة تقريبية، مع ملاحظة الفرق الكبير في النوع وفي الكيف وفي الكم، إذا كانت حلاوة الإيمان من مستوى رفيع حقاً.

شروط الشعور بحلاوة الإيمان:

ويجد حلاوة الإيمان من استجمع ثلاثة عناصر:

العنصر الأول: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، أي أحب إليه من سائر ما يحب من مال وولد وزوج ووالدين وكل موجود سواهما، وجميع لذات الحياة ومتعها، حتى نفس المؤمن.

فحب الله والرسول بموجب هذا العنصر ينبغي أن يكون غالباً على حب هذه الأشياء كلّها، فضلاً عما سواهما مما هو دونها تأثيراً على الإنسان.

ولما كان الله هو الحق، وكل ما يأتي عنه حق، وكان الرسول هو المعرف بالحق والمبلغ عن الله ما أنزل من حق، كان حبُّهما من حب الحق وإيثاره.

ومن كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما آثر ما يرضيهما على كل أهواء نفسه وشهواتها، وعلى كل لذات جسده ومتعه الفانية، وضحى في سبيلهما بنفسه وماله وكل محابّ نفسه.

العنصر الثاني: أن يحب المرء لا يحبه إلا الله. وفي تحقيق هذا العنصر تحقيق لمبدأ الترابط الجماعي الخالص بين المؤمنين، وهو الترابط النقيّ من شوائب المصالح الشخصية والأهواء النفسية والشهوات المادية، إذ هو حبٌّ لله خالصٌ لوجهه.

ولما كان الحب في الله من آثار كمال الإيمان في السلوك النفسي، كان المتحابون في الله محبوبين لله تعالى، ويظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه، ويجعل لهم يوم القيامة منابر من نور يغبطهم عليها النبيّون والشهداء. دلّ على هذا جملة من الأحاديث، منها:

ما جاء في حديث السبعة الذين يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه، ومنهم: «ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه».

وما جاء في الحديث القدسي: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلّهم في ظلّي يوم لا ظلّ إلاّ ظلّي».

وما جاء في الحديث القدسي: «قال الله عز وجل: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيّون والشهداء».

ومن مظاهر الحب لله عز وجل أن يندفع المحب بقوة إلى بذل النصيحة الطيبة والوصية بخير، لأن المحب يريد لمحبوبه كل خير، ولا يعلم المؤمن خيراً إلا أرشد من يحبه إليه، وبذل له ما لديه من نصيحة طيبة.

وهذه مظاهر طبيعية لصدق المحبة، ولذلك قال الرسول ﷺ لمعاذ: والله إني لأحبّك، ثم أوصاه فقدم له نصيحة دينية نافعة.

والمحب الذي لا يبذل النصيحة الطيبة لمحبوبه إما أن تكون دعواه الحب دعوى كاذبة، وإما أن يكون جاهلاً أرعن غير عاقل، كمحبة بعض الأمهات الجاهلات لأولادهن، إذ يهملْن نصيحتهم وتربيتهم، سروراً بما يستمتعون به من إرضاء لأهوائهم وشهواتهم، حتى ينتهي الجنوح بهم إلى بلاء كثير وشر مستطير. فمحبتهن لأولادهن ـ والحالة هذه ـ محبة رعناء، وعاطفتهن عاطفة شوهاء. وكم من آباء وأمهات يفسدون أولادهم بهذا الداء، ويدفعون بهم إلى شر وباء. وحينما يسقط الأولاد في العاقبة الوخيمة، ويذوقون النتائج الأليمة، يعتصر الندم قلوب آبائهم وأمهاتهم، الذين قصروا في تربيتهم والحزم عليهم، تأثراً بحبّهم الأرعن لهم، ولكن حين لا ينفع الندم. إنهم يبحثون عن طريق للرجعة فلا يجدون، لقد أقيمت بينهم وبين الرجعة سدود لا يستطيعون اختراقها، فالماضي حقيقة لا تسترجع، ولكن تحفظ آثارها وثمراتها.

فمن كان صادق المحبة وكان عاقلاً درَّاكاً للأمور دفعته محبته إلى أن يقدم لمحبوبه الوصايا الخيرة والنصائح الطيبة، وإن كانت هذه الوصايا والنصائح تخالف هواه، أو تحجزه وتمنعه مما تشتهي نفسه.

وأبان الرسول ﷺ أن من الآداب الإسلامية الاجتماعية، إذ أحب المؤمن مؤمناً حباً لله؛ أن يعلمه بذلك. والغرض من ذلك توثيق عرى المودة بينهما، وأن تكون نصيحة كلٍّ منهما لأخيه أكثر قبولاً في نفسه، إذْ يعلم أنها صادرة عن حب صادق، لا عن مداجاة أو خديعة أو ابتغاء مصلحة دنيوية لنفسه. فقال

الرسول ﷺ: «إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه». وأمر الرجل الذي يحب أخاً له في الله أن يعلمه.

وهكذا نجد في الإسلام دعم أواصر الجماعة، وما أكثر ما نجد فيه من مقويات لوحدة جماعة المسلمين، وميزة الجماعة الإسلامية المترابطة بالمحبة أن المحبة بين أعضائها مربوطة جميعها بمحبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ، لذلك فهي محبة لا تكون إلا في الخير، ولا تتوجه إلا لخير؛ إذ محبة الله تعالى ومحبة رسوله لا تكون صادقة حقاً ما لم تكن مقترنة بالامتثال والاتباع، والطاعة والاقتداء، فمن علامات صدق الحب لله تعالى طاعته وامتثال أوامره ونواهيه، واتباع رسوله فيما جاء به والاقتداء بهديه.

وأبان الرسول ﷺ أن من ثمرات حب الله ورسوله والحب في الله بين المؤمنين، أن يكافىء الله المحبين بالحب، فيحبهم الله، وحين يحب الله عبداً ينادي جبريل أن يحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض.

وأبان الرسول ﷺ أن طريق اغتنام حب الله هو التقرب إلى الله بالنوافل من العبادات والقربات، لأنها تعبر عن صدق حب العبد لربه، فإذا أحبه الله كان سمعه وبصره وسائر جوارحه، وكان مجاب الدعوة.

العنصر الثالث: أن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار. وهذا ــ كما سبق ــ مقياس عظيم لصدق الإيمان وكماله. فصدق الإيمان إنما يظهر بالكراهية التامة لنقيضه، ولا يكفي حب الإيمان مع عدم كراهية الكفر والردة إليه والعياذ بالله، ووضوح الشهود الإيماني وكماله يظهران بشدة الخوف من نتائج نقيضه ــ ومن نتائج نقيضه الخلود في النار ــ وكل إنسان حاضر الوعي لا بد أن يكره النار والعذاب فيها، ويكره ما هو سبب لذلك، ولا يكون الإيمان صحيحاً حتى يؤمن المؤمن بأن عذاب النار نتيجة حتمية للكفر بالله، ولا يكمل الإيمان حتى تكون هذه العقيدة كالأمر المشهود، فتنفعل النفس بالخوف من عذاب النار، فتكره بشدة ما تخاف منه ، فتكره بشدة أيضاً ما هو سبب له، وهو الكفر ورفض طاعة الله.

ضابط المحبة العاقلة وثمراتها:

للمحبة ضابط يصونها في حدود المحبة العاقلة الحكيمة، ويلجمها حتى لا تتجاوز هذه الحدود فتغدو محبة رعناء مفسدة غير مصلحة.

إنه ضابط قصير العبارة، إلا أنه واسع الدلالة، شامل كل صغيرة وكبيرة في مجال المحبة، هذا الضابط هو أن يكون الحب في الله، أي في طاعة الله.

وفي مقابله يأتي ضابط الطرف المقابل وهو البغض، فضابطه أن يكون بغضاً في الله، أي: في طاعة الله.

فالمسلم الصادق في إسلامه، المتأدب بآداب دينه، الملتزم لتعاليمه، هو الذي يحب في الله ويبغض في الله. إنه متى فعل ذلك استقام أمره، وكانت محبته عاقلة حكيمة، وكان بغضه حسناً رشيداً، فهو يحب بحبه لله ما يحبه الله، ومن يحبه الله، وما أمر الله بمحبته، ومن أمر الله بمحبته. ويبغض بحبه لله ما يبغضه الله، ومن يبغضه الله، وما أمر الله ببغضه وكراهيته، ومن أمر الله ببغضه.

ولذلك نلاحظ أن المحبة التي دعا إليها الإسلام تكاد لا تذكر في نصوصه إلّا مقترنة بهذا الضابط.

«وأن يحب المرء لا يحبه إلّا لله» ومن أحب لله فلا بد أن يتقيد في معاملته من يحب بموجب طاعة الله.

ويلاحظ في الحديث الترتيب في توجيه المحبة:

ففي المرتبة الأولى والعليا تأتي محبة الله ورسوله، وظاهر أن بواعث الإيمان تدعو إلى إعطاء هذه المحبة أعظم نصيب.

* وبهذا نرى أن الطريق الأقوم للمحبة هو ما كان عن طريق محبة الله أولاً، ثم عن طريق محبة حامل لواء دينه ثانياً، ثم من كانت محبته لله وعلى مرضاته. فهذا الطريق هو الذي تصان به المحبة من كل انحراف إلى ما فيه ضرر أو فساد، وهذا هو طريق محبة المتقين.

فالمحبة التي لا تكون لله، ولا يلتزم فيها بتقوى الله، ستتحول إلى عداوة يوم القيامة، عقوبة لأصحابها من جنس عملهم، قال الله تعالى في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

إن الأخلاء في الدنيا الذين لا يتعاملون فيما بينهم على أساس من تقوى الله، سيكونون يوم القيامة أعداءً.

ويتحسر يوم القيامة من يتخذ في الدنيا خليلاً يضله عن سبيل الله، فيقول: يا ويلتا، ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً، قال الله تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾﴾.

* أما المتحابون في الله فإن الله يظلهم يوم القيامة في ظلّه يوم لا ظل إلا ظله، ويؤويهم إلى كنف محبته، روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي، يوم لا ظل إلا ظلي».

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمامٌ عادل. وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل. ورجل قلبه معلق في المساجد. ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه. ورجل دعته امرأة ذات منصبٍ وجمالٍ فقال: إني أخاف الله. ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه. ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه».

ففي قول الرسول: «ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه» نلاحظ ثلاثة عناصر:

الأول: أن يكون التحابب في الله، أي في حب الله، وابتغاء مرضاته، وفي دائرة طاعته.

الثاني: أن يجتمعا إذا اجتمعا على طاعة الله، وتحقيق مرضاته، والبعد عن معاصيه.

الثالث: أن يتفرقا إذا تفرقا على طاعة الله، وتحقيق مرضاته والبعد عن معاصيه.

ولا يخفى أنّ التحابب الذي تجتمع فيه هذه العناصر هو أرقى صور التحابب، لأنه تحابب لم تدنّسه المعاصي، ولم تشُبه شوائب الأغراض الخاصة، والمصالح الذاتية.

أمّا التحابب الذي يقوم على المنافع الشخصية الدنيوية والأهواء الخاصة، فإنه يحمل في جنباته عناصر فساده وسرعة زواله، وقديماً كانوا يقولون: «من أحبّك لغرض أبغضك عند فقده»؛ لا سيما إذا اقترنت به معصية الله، فإنه ما أسرع ما ينتهي بالتعادي والتقاطع والخصام، وكثيراً ما ينتهي بالتقاتل وارتكاب الجرائم، وهذا من النتائج الطبيعية للتلاقي على معصية الله، فمن لم يكن عنده وفاء لنعم الله عليه بالشكر والطاعة، فكيف يكون عنده وفاء لأصدقائه ورفاقه الذين يجتمع معهم على المعصية والإثم، ويوادّهم على غير طاعة الله؟ إنّ الله لا بدّ أن يعاقبهم بإلقاء العداوة فيما بينهم. ولئن بقيت فيما بينهم مظاهر التوادّ فهي مشبعة بعناصر النفاق والحسد، وإرادة كلّ منهم السوء بالآخر، أو إرادة بعضهم السوء بالبعض الآخر، ويكون طيّبُ القلب منهم ضحيّة المنافقين.

بئست ــ والله ــ مودّات المصالح والأهواء والأغراض الخاصة الدنيوية، لا سيما إذا اقترنت بمعصية الله؛ إنها مودات في سبيل الشيطان، وعاقبتها ندامة وخسران.

وحين يكون الحبّ في الله فإن الله تبارك وتعالى هو الذي يتولّى الثواب عليه، وحسن الجزاء والمكافأة، بموجب قانون فضله الذي يعامل به عباده،

وبموجب سننه الثابتة، التي سنها لعباده في الحياة الدنيا، ولذلك يجعل الله يوم القيامة للمتحابين فيه منابر من نور يغبطون عليها، روى الترمذي بإسناد صحيح عن معاذ بن جبل، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور، يغبطهم النبيّون والشهداء».

هذا الحديث القدسي يبيّن ما للمتحابين في الله، من مجدٍ عظيم يوم القيامة، إذْ كان تحاببهم في الدنيا ابتغاء مرضاة الله وعلى طاعته، ولم يكن تحاببهم ابتغاء مطامع دنيوية ومصالح شخصية، وعلى معصية الله ومخالفة أوامره ونواهيه.

* ومن الثمرات التي يظفر بها المتحابون في الله، أنّ الله تبارك وتعالى يكافئهم على ذلك بمحبّة من عنده، فيكونون من أحباب الله كما تحابّوا فيه، روى الإمام مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «أنّ رجلاً زار أخاً له في قريةٍ أخرى، فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً، فلمّا أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تَرُبُّها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله. قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبّك كما أحببته فيه».

فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً: أي وكّل به ملكاً يترصد على طريقه مجيئه ليسأله ما سأله، وليخبره بما أخبره به.

هل لك عليه من نعمة تَرُبُّها: أي هل لك عليه معروف أنعمت به عليه، فأنت تريد تحصيل مكافأة منه على معروفك.

من هذا الحديث نلاحظ، أن الحبّ في الله قد بلغ من شأنه أن أنزل الله فيه ملكاً، ليخبر رجلاً صالحاً أحبّ أخاه في الله بأنّ الله يحبّه كما أحبّ أخاه فيه.

وإذا أحب الله عبداً نادى بأنّ الله يحبّه، فيحبّه جبريل، ثمّ ينادي جبريل في السماء: إنّ الله يحبّ فلاناً فأحبّوه، فيحبّه أهل السماء، ثمّ يوضع له القبول في الأرض، فيحبّه في الأرض أحباب الله، وكلّ ذوي القلوب النقية الصافية.

روى البخاري ومسلم، عن أبـي هريرة، عن النبـي ﷺ قال: «إذا أحبَّ الله تعالى العبد نادى جبريل: إنّ الله يحبّ فلاناً فأحببْه، فيحبّه جبريل، فينادي في أهل السماء: إنّ الله يحبّ فلاناً فأحبّوه، فيحبّه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض».

وإذا أبغض الله عبداً لفجوره وتمرده وكبره وكثرة شرّه، بغض به جبريل، ثمّ أهل السماء، ثم توضع له البغضاء في الأرض. روى مسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله تعالى إذا أحبّ عبداً دعا جبريل فقال: إني أحبّ فلاناً فأحبّه، فيحبّه جبريل، ثمّ ينادي في السماء، فيقول: إنّ الله يحبّ فلاناً فأحبّوه، فيحبّه أهل السماء، ثمّ يوضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إنّ الله يبغض فلاناً فأبغضوه، ثم توضع له البغضاء في الأرض».

وروى الإمام مالك بإسناد صحيح في كتابه «الموطأ» عن التابعي أبـي إدريس الخولاني، قال: دخلت مسجد دمشق، فإذا فتىً برّاق الثنايا[١]، وإذا الناس معه، فإذا اختلفوا في شيء أسندوه إليه، وصدَرُوا عن رأيه، فسألت عنه فقيل: هذا معاذ بن جبل، فلمّا كان من الغد، هجّرت[٢]، فوجدته قد سبقني بالتهجير، ووجدته يصلي، فانتظرته، حتى قضى صلاته، ثمّ جئته من قبل وجهه، فسلّمت عليه، ثمّ قلت: والله إني لأحبّك لله، فقال: آللَّهِ؟ قال: فقلت: أللَّهِ. فقال: آلله[٣]؟ فقلت: أللَّهِ. فأخذ بحبوة ردائي، فجذبني إليه، فقال: أبشر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيَّ، والمتجالسين فيَّ، والمتزاورين فيَّ، والمتباذلين فيَّ».

ومن أحبه الله أدناه منه، وزاد في إكرامه والإنعام عليه.

---

(١) أي: متلامع الأسنان كأنهنّ حبّات اللؤلؤ.
(٢) هجّرت: أي بكرت بالحضور إلى المسجد.
(٣) آلله: أي أتقسم على ما تقول، فهو يستوثق منه بالقسم مرتين.

* ومن ثمرات محبة المقصرين للسابقين، أن يكونوا معهم في مراتبهم العلية يوم القيامة.

روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحبّ قوماً ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحبّ».

وروى البخاري ومسلم عن أنس، أنّ أعرابيّاً قال لرسول الله ﷺ: متى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: «ما أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها من كثير صوم ولا صلاة ولا صدقة، ولكني أحبّ الله ورسوله. قال: «أنت مع من أحببت».

قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بها.

— ٦ —

(أ) من أحبّ شخصاً لله فمن السنة أن يخبره بذلك:

إذا أحب المرء أخاً له في الله، فمن السنة أن يعرب له عن محبته له، لتتوثق بينهما وشائج الأخوة الإيمانية، وليرعى كلّ منهما حقوق هذه الأخوة القائمة على الحبّ في الله.

روى أبو داود والترمذي بإسناد صحيح، عن المقداد بن معد يكرب عن النبـي ﷺ قال: «إذا أحبّ الرجل أخاه فليخبره أنه يحبّه».

وروى أبو داود أيضاً بإسناد صحيح، عن أنس أنّ رجلاً كان عند النبـي ﷺ فمرّ رجلٌ فقال: يا رسول الله، إني لأحبّ هذا، فقال له النبـي ﷺ: «أَعْلَمته؟» قال: لا، قال: «أعلمه» فلحقه فقال: إني أحبّك في الله. فقال: أحبك الذي أحببتني له.

وروى أبو داود والنسائي بإسناد صحيح عن معاذ، أن رسول الله ﷺ أخذ

بيده وقال: «يا معاذ، والله إنّي لأحبّك، ثم أوصيك يا معاذ: لا تدعنّ في دبر كلّ صلاة تقول: اللّهم أعنّي على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك».

فأعلم الرسول ﷺ معاذاً بما يجد في قلبه من محبّة له.

(ب) على المسلم أن يحسن انتقاء إخوانه وأصدقائه من المتقين:

للصداقة تأثير قوي على سلوك الإنسان، فالصاحب إذا كان له اتجاه جرّ صاحبه إليه، لأنّ الصداقة لا تتمّ إلّا مقترنة بتبادل الثقة، ومع الثقة يحصل الاستسلام، والانقياد، والموافقة. فإذا ارتفعت الصداقة إلى مستوى المحبّة أو الخلة، كانت في ذلك أشد وأقوى، وكان تأثيرها على كلٍّ من الخليلين أعمق.

فعلى المسلم الواعي أن يحسن اختيار أصدقائه وأخلائه من المؤمنين المتقين الصالحين أهل الاستقامة، حتى يكونوا عوناً له على الخير، فإذا كانوا غير ذلك أثروا عليه تأثيراً عكسياً، وكانوا له عوناً على الشرّ، أو موسوسين له به، وآخذين بيده إليه.

ولذلك حثّ الإسلام على ضرورة انتقاء الأخلاء الصالحين، وضرورة البعد عن أصدقاء السوء والرفقاء الذين يساعدون على فعل ما لا ينبغي فعله.

روى الإمام أحمد والترمذي وأبو داود والبيهقي بإسناد صحيح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل».

فأبان الرسول في هذا أنّ المرء على دين خليله، والدين يشمل العقيدة والسلوك، وممّا لا شك فيه أنّ الإنسان يتأثر تأثراً كبيراً بعقيدة خليله في الحياة، وبسلوك خليله الذي يسلكه، خيراً كان أو شرّاً.

ويقول الناس في الحكم الدارجة: الصاحب ساحب.

وروى الترمذي وأبو داود والدارمي والإمام أحمد بإسناد حسن عن أبي سعيد الخدري، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لا تصاحب إلّا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلّا تقي».

فوجّه الرسول ﷺ في هذا الحديث إلى وجوب الابتعاد عن مصاحبة غير المؤمنين، لئلا يجرّوا من يصحبهم إلى ما لا يرضى الله عنه من سيئات وموبقات، بتأثيرهم عليه عن طريق المخالطة والصحبة.

(ج) حسن اختيار الزوج:

ولـمّا كان الزواج سبيلاً إلى عقد أقوى الصداقات وأخطر المودات في الحياة، كان على كل من الرجل والمرأة أن يحسن اختيار زوجه ممن يرضى دينه وخلقه، وإلاّ جر الفاسد من الزوجين الصالح منهما إلى سبُل الفساد.

وهذا ما وجه إليه الإسلام في نصوصه، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك».

فجعل الرسول ﷺ الزواج من ذات الدين ظفراً بغنيمة عظيمة.

وروى الترمذي عن أبي هريرة بإسناد حسن، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إن لا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض».

فوجه الرسول ﷺ في هذا الحديث أولياء المرأة إلى الموافقة على تزويج الخاطب ذي الدين والخلق، لأن صحبة الزواج من أعمق أشكال الصحبة وأخطرها، فإذا لم يكن الدين عمودها جرت إلى معصية الله، وإلى شرور كثيرة، منها تأسيس أسرة فاسدة، تقتدي في فسادها بعميديها الفاسدين في دينهما وأخلاقهما، أو تقتدي في فسادها بأحد عميديها الفاسدين إذا كان فاسداً غير صالح.

ومن أجل ذلك حرم الله أن ينكح المسلم مشركة، أو تنكح المسلمة مشركاً، وبينّ الله سبب التحريم فذكر أن المشركين يدعون إلى النار أي إلى السبُل الموصلة إليها، على عكس الدعوة الربانية التي تدعو إلى الجنة، وإلى سلوك سبيل المغفرة، فالمشركون إذن يؤثرون على قرنائهم بدعوتهم الكافرة، قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢٣):

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١) ﴾.

وقد عالجت هذه الآية جانباً مهمّاً في موضوع الزواج، وهو أن المخطوبة المشركة قد تكون معجبة في شكلها، أو في عشرتها، أو غير ذلك فتميل النفوس إليها، وأن الخاطب المشرك قد يكون معجباً في شكله، أو في عشرته، أو في علمه أو في عمله، أو في ماله، أو في مركزه الاجتماعي، أو غير ذلك، فقال تعالى: ﴿ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾ وقال: ﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم﴾.

والخيرية تأتي من سلامة المؤمنة من شر تربية أبنائها على الكفر والفسق والعصيان، ومن خوفها من الله وحسن معاشرتها لزوجها، وكذلك العبد المؤمن، يضاف إلى ذلك الإكرام الرباني بتوفيق من لا يؤثر عليه ميله النفسي، فيكف عمّا استحسنه مما لم يأذن الله به.

ـ ٧ ـ
علامات صدق حبّ العبد لله ورسوله ووسائل الظفر بمحبّة الله لعبده

للحب مظاهر وعلامات، ومن أبرز مظاهر حب العبد لله ورسوله طاعتهما، واتباع أوامرهما، واجتناب نواهيهما، والعمل بما يرضيهما، وكبح جماح أهواء النفس وشهواتها في ذلك.

أما ادعاء حبهما مع معصيتهما ومخالفتهما، والعمل بما يسخطهما، واتباع أهواء النفس وشهواتها، فهو أمر لا تقبله العقول السليمة، ولا تستسيغه النفوس

البريئة من العلل، ولذلك خاطب الشاعر الحصيف العاصي الذي يدعي محبة الله بقوله:

تعصي الإلــه وأنت تـزعم حبــه   هذا لعمري في القيـاس[1] شنيع
لـو كـان حبـك صـادقـاً لأطعتـه   إن المحب لمن يحـب مـطيـع

وقال الله تعالى لرسوله محمد ﷺ في سورة (آل عمران ٣):

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

ففي هذا النص القرآني يبيّن الله تعالى أن صدق محبة العباد لله تعالى تستلزم اتباع رسوله وطاعته، وأن اتباع الرسول وسيلة يظفر فيها العباد بمحبة الله لهم﴿قل: إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾فاتباع الرسول لازم من لوازم محبة الله، واتباع الرسول شرطٌ جزاؤه الظفر بمحبة الله لعبده، ويوجد جزاء آخر لهذا الاتباع، وهو غفران الذنوب﴿ويغفر لكم ذنوبكم﴾وبهذا الغفران تصفو المحبة من منغصات الخطيئة والمعصية.

أما الذين يتولون عن الاتباع والطاعـة فأولئـك هم كافـرون، والله لا يحبهم، لأنه لا يحب الكافرين، إذ هم بتوليهم وإعراضهم يبعدون أنفسهم عن مواقع محبة الله، ويقذفون أنفسهم في مواقع سخطه وغضبه وطرده.

ومن أجل ذلك كان التقرب إلى الله بالطاعات من الأسباب التي تجعل العبد من أحباب الله، ومن أحبه الله وجد معونة الله مصاحبة لسمعه وبصره وسائر جوارحه، ومن أحبه الله كان عند الله مجاب الدعوة، وكان من أولياء الله. روى البخاري عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد أذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي

(١) يشير بذلك إلى القياس المنطقي الذي قدمه في البيت الثاني، وهو من قبيل القياس الاستثنائي المتصل، وبيانه: لو كان حبك صادقاً لأطعته، لكنك غير مطيع، فادعاؤك الحب ادعاء كاذب غير صادق. والمقدمة الكبرى تثبت أن صدق الحب يستلزم الطاعة.

مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه».

في هذا الحديث القدسي بيان لسبيل ذات مرحلتين من اجتازهما أحبه الله، ثم كان من أولياء الله.

المرحلة **الأولى**: يجب فيها المرور على جسر تأدية الفروض التي فرضها الله على عباده.

المرحلة الثانية: هي الانطلاق في التقرب إلى الله بالنوافل، وهي الأعمال الصالحة التي لم يفرضها الله على عباده، وبهذه الأعمال الصالحة غير المفروضة التي يقوم بها العبد يثبت بها أنه محب لله، وكلما زاد منها زاد خطواتٍ في طريق محبته لله وزاد في تقديم الأدلة العملية على صدق هذه المحبة ونموها، ولذلك تكون مكافأته من قبل الله أن يحبه الله محبة كبيرة، ومتى وصل الإنسان إلى هذه المرتبة العظيمة صار ملاحظاً بعناية الله ورعايته، ومحفوفاً بكنف الله وموالاته، فإذا سأل الله شيئاً أجابه ولم يرد طلبه، وإذا استعاذ به من شيء أعاذه وحماه، فكان مجاب الدعوة.

الخـلّـة:

وحينما ترتقي المحبة إلى المستوى الأعلى تكون هي الخلة، لأنها تخالل كيان الإنسان كلّه، وتهيمن على كل مشاعره، وهذا المستوى من المحبة هو المستوى الذي وصل إليه رسول الله محمد ﷺ ورسول الله إبراهيم عليه السلام.

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «إن من أمنِّ الناس علي في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته».

وروى مسلم عن عبدالله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكنه أخي وصاحبي، وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً».

يعني نفسه.

ويقول الله تعالى في شأن إبراهيم عليه السلام في سورة (النساء ٤):

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾.

ولذلك اشتهر بأنه إبراهيم الخليل.

— ٨ —
البغــض في الله

طبيعة التناقض في ظروف هذه الحياة الدنيا تستدعي حتماً أن يقابل المؤمنون المناصرون للحق والخير، الباطل والشر بالتنكر والبغضاء، وأن يقابلوا حملة الشر في الأرض والداعين إليه والمؤيدين له بالمقاومة والعداء، وهـذا مما يرضي الله تعالى، فهو إذن من قبيل البغض في الله.

إن أنصار الحق والخير هم أنصار الله وأولياؤه وأعداء الشيطان وأعداء أوليائه. وإن أنصار الباطل والشر هم أنصار الشيطان وأولياؤه وأعداء الله وأعداء أوليائه.

فالبغض في الله يسير مع الحب في الله على خطين متوازيين، ولذلك جاء في نصوص كثيرة التوجيه للحب في الله والبغض في الله.

روى البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لأبـي ذر: «يا أبا ذر، أي عرى الإيمان أوثق؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال رسول الله ﷺ: «الموالاة في الله، والحب في الله، والبغض في الله».

وروى الإمام أحمد عن أبـي ذر قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «أتدرون أي الأعمال أحب إلى الله تعالى؟» قال قائل: الصلاة والزكاة. وقال قائل: الجهاد. قال النبـي ﷺ: «إن أحب الأعمال إلى الله تعالى الحب في الله والبغض في الله».

والسبب في كون الحب في الله والبغض في الله أفضل الأعمال حسب

التوجيه الذي ورد في هذا الحديث؛ أن عاطفتي الحب والبغض من أقوى الدوافع إلى القيام بالأعمال العظيمة الشاقة، وحينما تكونان محصنتين بضابطهما العظيم ــ وهو كونهما في الله، أي: في طاعته ومرضاته ــ تكونان من أقوى الدوافع إلى فعل الخير وترك الشر، ومناصرة الحق وأهله، ومقاومة الباطل وأهله.

الفكرة الإسلامية في معاداة أعداء الله وعدم موالاتهم:

ظهر لدينا أنه لا تعارض بين كون الأصل في خلق المسلم الذي يعامل به الناس هو خلق المحبة، وبين كونه يبغض الباطل والشر والفساد والرذيلة وأنصارها، على أساس أنه يبغض فيهم هذه الصفات ولا يبغضهم لذواتهم، بل هو حريص على هدايتهم وإنقاذهم، ولكنهم أبوا، ورفضوا منهج الحق، وناصبوه العداء، وانحازوا إلى الطرف المناقض له.

وعرفنا أن المسلم يحرص بدافع خلق المحبة أن يكون الناس جميعاً شركاء له في السعادة الخالدة، وأنه بدافع خلق المحبة يقاتل المجرمين الشريرين، ليحمي الناس من شرورهم، ولعله بمقاتلتهم ينقذهم من شرور أنفسهم، فيعتدلون ويستقيمون، ويحولون مسيرتهم إلى سبيل الهداية، فيظفرون بالسعادة الخالدة، بعد أن كانت مسيرتهم آخذة بهم إلى العذاب الأليم، والشقاء المقيم.

وعلى هذا الأساس أكدت النصوص الإسلامية ضرورة اتخاذ شياطين الجن والإنس أعداءً، وضرورة اتخاذ الكافرين أعداءً، لأنهم ناصبوا الله والحق والخير العداء، فلا تنافر ولا تعارض بين المحبة التي يتوجه بها قلب المؤمن نحو الشخص الذي يعاديه، مريداً بهذه المحبة إنقاذه، أو إنقاذ المجتمع البشري من شره، وبين معرفة أنه عدو، وأخذ الحذر من مكايده وشروره، واتخاذه عدواً، لأنه غير مأمون الجانب.

وليس معنى معاملته على أساس خلق المحبة موالاته، أو عدم الحذر منه، والاستسلام لشروره ومكايده، فهذه الأمور تعتبر من الرعونة والغفلة الشديدة، وعدم التبصر بحقائق الأمور.

وبهذا تمتاز نظرة المسلم للذين يعادونه، عن نظرة غير المسلمين إلى أعدائهم، فغير المسلمين يعاملون أعداءهم على أساس الكراهية والحقد، أما المسلمون فإنهم يعاملون أعداءهم على أساس المحبة وإرادة الخير لهم وللناس أجمعين.

إن نظرة المسلمين إلى أعدائهم تشبه نظرة الأخ إلى أخٍ له مصابٍ بمرض خطير معدٍ، فهو يحبه ويحب له الشفاء من مرضه الخطير المعدي، ويسعى جهده لإبعاد هذا المرض عنه، وهو مع ذلك يفر منه، ويجافيه، ولا يخالطه، حذراً من شره وضره، ومخافة انتشار الوباء الذي يحمله، وقد يسجنه ويعزله عزلاً تاماً، فإذا غدا مرضه مرضاً مخيفاً، وغدت سلامة الناس متوقفة على الخلاص منه نهائياً، فإنه يتخلص منه، أو يسلمه إلى المشرفين على الصحة العامة، وهم ينفذون فيه حكم الإتلاف وتطهير المجتمع منه، لا بغضاً به، وكراهية له لذاته، ولكن خلاصاً من شره الخطير، ووبائه المستطير.

ـ ٩ ـ
معاداة الشيطان وعدم موالاته

الشيطان هو المخلوق الذي تمثل فيه الشر بكل أنواعه وصوره، وقد جعل هذا المخلوق من نفسه مغوياً ومضلاً لبني آدم، وناصبهم العداء منذ عهد أبيهم آدم عليه السلام، فمن الطبيعي أن يحذروه ويتخذوه عدوّاً، وذلك بأن يعلموا أنه عدوّ مبين لهم، ومتى عرفوا ذلك حذروا كل مكايده، ودسائسه، ووساوسه التي يوسوس بها في صدور الناس، والمؤمن يعرف مكايد الشياطين ودسائسهم ووساوسهم بأنها تدعو إلى مخالفة أوامر الله ونواهيه، والعدول عن المنهج القويم الذي رسمه لعباده.

من أجل ذلك حذرنا الله ورسوله من الشيطان، وأعلمنا الله بأنه عدوّ مبين لنا، وأمرنا بأن نتخذه عدوّاً، ومتى اتخذناه عدوّاً حذرناه ولم نواله، والنصوص الإسلامية في هذا كثيرة منها ما يلي:

١ ــ قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾.

ينزغ بينهم: يفسد بينهم.

٢ ــ وقال الله تبارك وتعالى في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾.

الغَرور: الشيطان، وأطلق عليه هذا الوصف لأنه يغرّ كثيراً بوساوسه، وبما يزين للناس فيها من الشر ومعصية الله.

ومن يستجيب لوساوس الشيطان فقد جعل نفسه من حزبه، والشيطان إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، وهي نار جهنم الحامية.

٣ ــ وقال الله تبارك وتعالى في سورة (يس ٣٦):

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

جبلّاً كثيراً: أي خلقاً كثيراً.

فمن شأن العاقل إذا رأى عدوّاً، وشاهد منه سوابق العداء لأهل جنسه أن يعاديه ويكون على حذر شديدٍ منه.

فمن استجاب للشيطان واتبع خطواته، فكان من المجرمين، ومات على ذلك، تلقّى يوم القيامة هذا الخطاب: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم؟..﴾، فقد

جاء قبله في السورة نفسها: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ فيأمرهم الله يوم القيامة بأن يمتازوا عن جموع الناس.

٤ ـ وقال الله تعالى موبخاً الذين يتخذون الشيطان وذريته أولياء من دونه في سورة (الكهف ١٨):

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾.

وهل تنفع موالاة غير الله وحزبه شيئاً؟ إنها لا تغني أصحابها من الله شيئاً، إن الشيطان يعدهم ويمنّيهم، وما يَعِدُهم الشيطان إلا غروراً، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾.

وقد كثرت النصوص التي تحذر الناس من الشيطان وذريته وجنوده، ومن موالاتهم، وتأمرهم بأن يتخذوهم عدوّاً، وبأن لا يتبعوا خطواتهم، حتى لا يضلوهم ولا يستدرجوهم إلى عذاب النار.

ولـمّا كان إصلاح الشيطان أمراً ميؤوساً منه، كان اتخاذه عدواً، ومعاداته لشره الذي لا يفارقه، شيئاً طبيعياً، وكانت مشاعر الكراهية هي الأصل في معاملته، ولا يخفى أنه بالنسبة إلى الناس كائن غير منظور، فهو ومفهوم الباطل والشر والفساد والضلال والإضلال سواء، لأنه يمثل الدعوة إليها ويجسد صورها في التخيل.

ـ ١٠ ـ
معاداة الكافرين ودعاة الشر من الناس وعدم موالاتهم

وضمن المفهوم الإسلامي العام لمشاعر المحبة والمعارضات التي تقف في طريقها، يجد المسلم نفسه مضطراً إلى معاداة الكافرين ودعاة الشر.

في المجتمع البشري يوجد فريق من الناس يعادون الحق والخير والإصلاح والفضيلة لوجه الشيطان، أو لتلبية أهوائهم وشهواتهم الجامحة الجانحة، وطبيعي بالنسبة إلى هؤلاء أن يكشف الله الستار عن عداوتهم الحقيقية للمسلمين، وأن يحذرهم منهم ومن موالاتهم، لأنهم سيكيدون لهم أيّما كيد، وسيحاولون إيقاعهم في شَرَكهم، وهم لا يفتأون يدبرون ضد المسلمين الدسائس والمكايد، ونجد هذا التحذير في نصوص كثيرة:

١ ـ منها قول الله تعالى في سورة (الممتحنة ٦٠):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾.

ففي هذا النص يحدد الله للمسلمين مواقع الكافرين، وأنهم يقفون من المسلمين مواقف العداء، فعليهم أن يحذروهم ولا يوالوهم، ولا يُلقوا إليهم بالمودة.

وقد نزل هذا النص مع آيات أخرى، بمناسبة ما جرى من حاطب بن أبي بلتعة قبيل فتح مكة، إذ حاول إعلام قريش بعزم الرسول ﷺ على فتح مكة، فأرسل مع امرأة كتاباً لتوصله إلى بعض زعماء قريش، وفيه خبر ما عزم عليه الرسول، وقد أراد مصانعتهم بهذا الإعلام، ليحفظ أهلاً له كانوا في مكة، من أن يتعرض لهم مشركو قريش بأذى، لأنه لم يكن له في مكة قوة ولا عشيرة.

وحاطب قد كان مؤمناً، ولم يمس قلبه نفاق، ولكنه تعرض لحالة من حالات الضعف البشري، ضعُفَتْ معها إرادته المؤمنة العاقلة، فارتكب هذا الإثم العظيم، وسقط في هُوَّة الخيانة التي باشرها، ونزل الوحي فأخبر الرسول ﷺ خبر الكتاب الذي أرسله حاطب، وكانت المرأة التي حملت الكتاب ما زالت في طريقها إلى مكة، فتدارك الرسول ﷺ الأمر، فأرسل من انتزع الكتاب منها.

واستدعى الرسول حاطباً، وحاكمه، ثم عفا عنه لسابقته في الإسلام ولأن ما كان منه لم يكن عن نفاق ولا ردة عن الدين.

ولذلك صدّر الله النص بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ إشعاراً بأن حاطباً لم يرتكب خيانته العظيمة بسبب نفاقٍ أو كفر مسّ قلبه، وإنما كان بسبب ضعف بشري أصاب إرادته من قبل عاطفته نحو أهله وولده.

وبعد هذا النداء للمؤمنين نهاهم الله عن أن يتخذوا الكافرين أولياء، مبرزاً من صفاتهم أنهم أعداء الله وأعداء المؤمنين﴿يا أيها الذين آمنوا، لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾ أي: لا يكن بينكم وبينهم مناصرة، ولا موادة، وأشار إلى ما صنع حاطب بقوله: ﴿تلقون إليهم بالمودة﴾.

فاتخاذهم أولياء، ومصانعتهم بالمودة، مع أنهم أعداء حقيقيون، ثغرة كبيرة يستغلونها لضرب الإسلام والمسلمين، ولإنفاذ سهامهم إلى الصميم.

والمؤمن ذكي فطن، شديد الحذر من عدوّه، لا تأخذه السذاجة والغفلة، فتجره والمسلمين معه إلى فخ عدوه وعدو دينه وعدو الله ورسوله، ومن الواجب عليه دائماً أن يعرف مواقع عدوه، وأن يكون على حذرٍ شديدٍ من مكايده ودسائسه.

فالمصادقة، والمصافاة، والموادة، لأعداء الله وأعداء المسلمين، ثغرةٌ خطيرة ينفذ منها العدو، فينقض على المقاتل، والمسلمون في غفلة عما يكيده ويدبره بحقده وشدة عداوته.

ويكفي لتعليل هذا الإجراء الوقائي من قبل المسلمين تجاه عدوهم، ما ذكره النص من بيان واقع حال الكافرين أعداء الله وأعداء المسلمين:

(أ) فهم قد كفروا بما جاءكم من الحق.

(ب) وعملوا على إخراج الرسول وإخراجكم من دياركم وأموالكم لأنكم آمنتم بالله ربّكم.

(ج) وهم يضمرون الحقد عليكم، فإن يجدوكم في أي موقف من مواقف الضعف يكشفوا عداوتهم لكم، ويبسطوا إليكم أيديهم مقاتلين، وألسنتهم بمقالات السوء والشتائم القذرة.

(د) وهم يودّون دائماً لو تكفرون فتكونون مثلهم في عقيدتهم، وطريقتهم، وأعمالهم، فلا يرضون عنكم حتى تشاركوهم في الكفر بالله، وتتركوا إيمانكم وإسلامكم.

ألا تكفي هذه الأسباب الأربعة لمعاملتهم على أساس أنهم أعداء، وإن كان المؤمنون يودون لهم الخير والهداية بدافع خلق المحبة الذي يعاملون به الناس جميعاً.

وهذه الصفات التي وجدت لدى مشركي مكة، موجودة كلها لدى كل الذين لا يؤمنون بالإسلام، من يهود ونصارى وغيرهم، إذا هم رفضوا الاستجابة لدعوة الحق بعد أن عرضت عليهم واضحةً مشرقة، مدعمة ببراهينها، ومقرونة بالمواعظ الحسنة التي تحبب بها، والأساليب الحكيمة التي تقرب إليها.

وهذه الصفات موجودة أيضاً لدى المنافقين بشكل أخطر، وعلى وجه هو أدهى وأمكر، لأنه وجه مقنّع مستور بالتظاهر بالإيمان والموالاة، ومتمكن من النفوذ إلى المقاتل بالمخالطة والمداخلة والمشاركة في أمور السلم والحرب كلّها.

ولذلك حذّر الله ورسوله تحذيراً شديداً من مكايد المنافقين، وأبان الله أنّهم هم العدوّ، أي: هم العدوّ الخطير، الذي يجب الحذر منه، واليقظة الدائمة نحوه، وتتبع كلّ حركاته الصغرى والكبرى، ومراقبة خلواته، والتفرس في أقواله، ومعاريض كلامه، وفلتات لسانه، قال الله تعالى في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

فقال سبحانه عن المنافقين: «هم العدوّ» أي: هم العدوّ الأخطر، لمخالطته، ومداخلته، ومصانعته، وتظاهره بالإسلام، ومعرفته مقاتل المسلمين، وثغرات الضعف التي يمكن أن ينفذ إليهم منها من يبغيهم بسوء.

وفي الحديث: «لا أتخوّف عليكم مؤمناً ولا كافراً، أمّا المؤمن فيحجزه إيمانه، وأمّا الكافر فيقمعه كفره، ولكن أتخوّف عليكم منافقاً عليم اللسان، يقول ما تعلمون، ويفعل ما تنكرون».

٢ ــ ومنها قول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا . . . ﴿١١٢﴾ ﴾.

إنّ الصراع دائم بين الحق والباطل، والمحقين والمبطلين، فما من داعٍ إلى الحقّ إلّا له عدوٌّ من شياطين الإنس والجنّ.

إنّ مصالح الشياطين وأهواءَ نفوسهم وشهواتها، لا تتحقق لهم كما يريدون، إلّا عن طريق تحكُّم الباطل، وممارسة الشرور، فمن الطبيعي أن يكونوا أعداءً لدعاة الحقّ، ومانعي ممارسة الشرور في الأرض.

ولـمّا كان النبيّون قمّة دعاة الحقّ في الناس، وكان وجود شياطين الإنس والجنّ في الأرض مستمرّاً، كان لا بدّ من وجود الصراع بين هؤلاء وهؤلاء، وكان شياطين الإنس والجنّ أعداءً طبيعيين للنبيّين، ولكل دعاة الحقّ والخير من ورائهم.

وإذا كان شياطين الإنس والجنّ هم قمّة دعاة الباطل وناشري الشرّ في الأرض، فإن من ورائهم مجرمين كثيرين، يعادون أيضاً النبيّين وسائر دعاة الحق والخير، قال الله تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾.

فالمجرمون متى ظهر دعاة الحق والخير ناصبوهم العداء، وواجهوهم بالشرور والفتن، والمكايد والدسائس، والمقاومة والمصارعة، وذلك لأنّ دعوة الحقّ والخير تحجب عن المجرمين منافذ تسلّطهم المجرم، وتفوّت عليهم منافع ولذائذ يحصلونها بالباطل، وممارسة الشرّ والضرّ والأذى.

وعندئذٍ يجد دعاة الحقّ أنفسهم مضطرين لدفع شرورهم والحذر منهم، ومعاداتهم معاداة صريحة إذا يئسوا من إصلاحهم.

٣ ــ ومنها قول الله تعالى في سورة (المجادلة ٥٨):

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

ففي هذه الآية إعلان التنافي بين الإيمان بالله واليوم الآخر ومودّة من حادّ الله ورسوله.

نعم، هما قضيتان متناقضتان في لوازمهما، فهما لا تجتمعان: الإيمان بالله واليوم الآخر يستلزم محبة الله وطاعته، ومودّة أوليائه ومعاداة أعدائه. ومن حادّ الله ورسوله فقد اختار لنفسه سبيل الكفر، وسبيل الكفر مناقض لسبيل الإيمان، ومودّة من اختار سبيل الكفر تستلزم الرضى عنه في اتجاهه، والتجاوز عن مكايده للإسلام والمسلمين، ومناصرته في بعض أمره ضدّ دعوة الحقّ، وكلّ ذلك يناقض القضية الأولى ولوازمها.

إذن، فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر إيماناً صادقاً صحيحاً، فإنه لا يوادّ من حادّ الله ورسوله، ولو كان أقرب الناس إليه نسباً. وإذا كان لا يوادّه فهو لا يناصره على باطله بحالٍ من الأحوال.

إنّ لكلٍّ من الأمور العامة والخاصة حدوداً، ومتى تجاوزت الأمور حدودها انقلبت إلى أضدادها، فمعاملة أهل الباطل والشر والفساد لا يصح أن تتجاوز حدودها، فتنقلب إلى موادّة، تستتبع مخالطة ومداخلة، ثم تجرّ إلى ما يتنافى مع أصل الإيمان، وإلى ما يتنافى مع محبة الله والرسول وطاعتهما، والعمل بما يرضيهما. فالقضايا تحتاج إلى موازنات بصيرة عاقلة.

٤ ــ ومنها قول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾.

ففي هذه الآية، ينهى الله تبارك وتعالى المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ويبين لهم أنّ من يوالي الكافرين هذه الموالاة فليس هو من الله في شيء، إلّا أنّ الله تعالى قد استثنى الموالاة الظاهرة التي تكون الغاية منها اتقاء شرورهم، ودفع المكاره التي يخشى أن تأتي من قبلهم، فيأذن بها على مقدار الحاجة.

ثمّ يؤكد الله النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين بالتحذير الشديد من مغبّة هذه الموالاة المحرّمة، فيقول الله تعالى: ﴿ويحذّركم الله نفسه، وإلى الله المصير﴾.

وأهم عناصر الموالاة المنهيّ عنها المناصرة والتأييد، وهذان يستدعيان المجاراة في كثير من الأمور، والمتابعة والمخالطة والموادّة، ومتى حصلت هذه الأمور ولوازمها، خرج المسلمون في سلوكهم من منازل الإيمان والمؤمنين، إلى منازل الكفر والكافرين.

والمراد من قوله تعالى «من دون المؤمنين»: النهي عن اتخاذ بعض المؤمنين الكافرين أولياء، من دون إرادة وموافقة سائر المؤمنين، أما حينما يحصل إجماع من المؤمنين على شيء من ذلك لضرورة سياسية ألجأت إليه، أو ترى القيادة الإسلامية ــ بعد المشاورة ــ ذلك، فإنّ الأمر يجوز بمقدار الحاجة الماديّة إلى المناصرة. هذا ما ظهر لي رجحانه، والله أعلم.

﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾ أي: فليس هو في شيء من ولاية الله، لأنّ الله إنّما يتولى أولياءه، ولا يتولّى أعداءه، فمن اتخذ أعداء الله أولياء له فقد أدخل نفسه في مواقع أعداء الله، وأخرجها من مواقع أولياء الله الذين يتولّاهم الله بنصره وتأييده.

﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ وهي الموالاة الظاهرة لاتقاء شرّ الكافرين وضرهم وأذاهم، وهذه مأذون بها، بمقتضى الاستثناء، ولكن بحدود الضرورة التي استدعتها.

٥ ــ ومنها قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾.

فجعل الله سبحانه في هذا النص اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين من صفات المنافقين.

﴿أيبتغون عندهم العزّة؟! فإن العزة لله جميعاً﴾: إنّه لأمر عجيب أنْ يبتغوا القوة عند الكافرين، مع أنّ القوة كلّها لله، فلا يطمعوا بأن تأتيهم قوّة من موالاة أعداء الله.

وفي هذا النص يبين الله مظهراً من مظاهر الموالاة، وهو مجالسة الكافرين

ومخالطتهم، فيقول: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره، إنكم إذاً مثلهم﴾.

٦ ــ وقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾.

أي: فإذا اتخذتم الكافرين أولياء من دون المؤمنين كان لله عليكم حجّة ظاهرة، يدينكم فيها بالجرم العظيم، فيتخلى عنكم، فتسقطون في شَرَك أعدائكم، ونارهم التي يؤجّجونها سرّاً لعذابكم واستدراجكم إليها.

٧ ــ وقول الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾.

هذا النص صريح في النهي عن موالاة اليهود والنصارى، لكفرهم وكراهيتهم الشديدة للمسلمين، وصريح في أنّ من يتولّى قوماً فإنه يلحق نفسه بهم.

٨ ــ وقول الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

وفي هذا النص تحذير شديد، ونهي جازم، عن اتخاذ الآباء والإخوان أولياء إن استحبّوا الكفر على الإيمان، فمن يتولّهم من المؤمنين فأولئك هم الظالمون، إنّ قراباتهم لا تهوّن من أمر اتخاذهم أولياء ما داموا كافرين.

إنّ حبّ الله والرسول يستلزم عدم موالاة أعداء الله والرسول ولو كانوا من أقرب الناس نسباً.

وفي قوله تعالى: ﴿فتربصوا﴾ تهديد صريح واضح.

وهذا النص يبينّ أنّ من يتخذ الكافرين أولياء فاسق وظالم، لقوله تعالى: ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ وقوله: ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾.

٩ ـ وشبه الله من يتخذ من دون الله أولياء، بالعنكبوت التي تصنع لنفسها بيوتاً من خيوط واهية تفرزها من جسمها، فقال تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

ـ ١١ ـ
حزب الله وأحزاب الشيطان

ينقسم الوجود إلى موقعين:

الأول: موقع يحتله حزب الله.

الثاني: موقع تحتله أحزاب الشيطان.

وبين هذين الموقعين تنافر وحدٌّ فاصل بينّ واضح، يمنع أيّ تداخل بينهما.

فمن عرف موقعه من أعضاء حزب الله لم يجاوزه، ولم يتخذ لنفسه أولياء إلّا من داخل الموقع الذي هو من أهله.

فالمؤمنون وفق ذلك بعضهم أولياء بعض، وجميعهم أولياء لله، ومتى صدقوا في محافظتهم على موقعهم كان الله وليّهم فأيدهم بنصره، وهو القوي العزيز.

أمّا أحزاب الشيطان فهم في موقعهم المختلف الأجزاء، المتنافر الأغراض والأهداف والمصالح، يتخذ بعضهم بعضاً أولياء على مقدار تلاقي المصالح والمنافع المادّية لكلّ منهم، والجامع لهم في هذا الموقع العام عنصر الشرّ الذي يمثّله في الوجود بصفة عامّةٍ الشيطان. فهم إذا تسلسلوا مع مستندات القوّة التي يعتمدون عليها، فإنهم سينتهون إلى طواغيتهم، التي لا يجدون عندها تأييداً ولا نصراً، ومن وراء هذه الطواغيت المختلفة الشيطانُ، الذي لا يجدون عنده إلّا الخذلان، وهو الغَرُور الخُذَلة.

فالمؤمنون الذين هم حزب الله بعضهم أولياء بعض، والكافرون والمنافقون الذين تتألف منهم أحزاب الشيطان بعضهم أولياء بعض.

قال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ . . . ﴿٧٣﴾﴾.

فالمؤمنون بعضهم من بعض، وبعضهم أولياء بعض، وهم أولياء لله إذا اتقوا، والله وليهم، وهم حزب الله، وهم منصورون بنصر الله، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

والظالمون والكافرون بعضهم أولياء بعض، والشياطين والطواغيت

أولياؤهم، ولكنهم لا ينفعونهم في ولايتهم شيئاً، ولا يغنون عنهم من الله شيئاً، إنهم إذا جد الجد، وحَزَب الأمر، تولوا عنهم، وخذلوهم، وتبرأوا منهم.

هذا ما دلت عليه النصوص، ومنها ما يلي:

١ ــ قول الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾.

فأولياء الله هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، فهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ولهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

٢ ــ وقول الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

أي: ما أولياء الله إلا المتقون.

٣ ــ وفي بيان أنهم حزب الله، يقول الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

ويقول الله تعالى في سورة (المجادلة ٥٨):

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

٤ ــ وفي بيان أن الموقع المقابل لموقع حزب الله هو موقع يشتمل على أحزاب متباينة شتى، وهي في مجموعها تمثل حزب الشيطان، يقول الله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

ويقول الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

فجعل الله في هذه الآية الكافرين بالقرآن أحزاباً.

ويدل على أن الأحزاب الكافرة تمثل بمجموعها حزباً للشيطان، قول الله تعالى في سورة (المجادلة ٥٨):

﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾.

فمن يتخذ لنفسه أولياء من حزب الشيطان فإنه يلحق نفسه بهذا الحزب الخاسر.

بيان أولياء الله وصفاتهم وثمرات هذه الولاية:

قال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾.

وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب».

آذنته بالحرب: أي أعلمته به.

الولاية: هي المناصرة الدائمة، فأولياء الله هم الذين يواليهم الله ويناصرهم ضدّ كلّ من يعاديهم، ومن يعادي وليّاً من أولياء الله فإنّ الله تبارك وتعالى يعلمه بإعلان الحرب ضدّه مناصرةً منه لوليه.

وقد أبان النص القرآني صفات أولياء الله، فمن تحقق بهذه الصفات أخذ بالشروط المطلوبة للوصول إلى مرتبة الولاية.

فأولياء الله هم: الذين آمنوا، وكانوا يتقون.

أما الوصف الأول ـ وهو اتصافهم بالإيمان ـ: فهو يعني أنهم آمنوا إيماناً صادقاً راسخاً ثابتاً بكل ما يجب أن يؤمنوا به في الإسلام.

وأما الوصف الثاني ـ وهو اتصافهم بأنهم كانوا يتقون ـ: فهو يدل على استقامتهم على التقوى المتكررة المتجددة من الماضي إلى الحاضر، أخذاً من فعل (كانوا) الدال على الماضي، مع ما في فعل الكون من معنى الاستمرار ولو جاء بصيغة الماضي، وأخذاً من فعل (يتقون) الدال على التجدد والتكرر، كما هو شأن دلالة صيغة الفعل المضارع.

ثمرات الولاية:

وأولياء الله إذ يظفرون بتأييد الله ونصره على وجه العموم، لهم من الله جزاءٌ يشتمل على أربع ثمرات:

الثمرة الأولى: أنهم لا خوف عليهم، لأنهم في أمان الله، فهم محروسون بحفظه، مصونون بصونه، لذلك فإن قلوبهم مطمئنة لا قلق فيها ولا اضطراب، إنهم يحملون صك الأمان ممن بيده مقاليد الأرض والسماوات، وكل ما هو جارٍ وكلِّ ما هو آتٍ، ولا خوف عليهم يوم القيامة من حساب ولا عذاب.

الثمرة الثانية: أنهم لا يحزنون، فلا يمس الحزن قلوبهم على ما فات، لأنهم مؤمنون بأن ما قضاه الله لهم في الماضي هو الخير لهم، فهم راضون عن الله بما قضاه لهم، ولو كان مخالفاً لأهوائهم، ولما يشتهون، لأنهم يرون أنهم قد كوفئوا على إيمانهم وتقواهم بثواب عظيم جليل ونعيم مقيم لم يكن يخطر على قلوبهم، ولا على أفكارهم وأوهامهم.

الثمرة الثالثة: أن لهم البشرى في الحياة الدنيا، وهذه البشرى تشتمل على خيرات عظيمة ينالونها ويظفرون بها في الحياة الدنيا قبل الآخرة، منها التأييد والنصر والتمكين في الأرض، ومنها السعادة التي لا ينالها غير المؤمنين، ومنها الرؤيا الصالحة، وبشارة الملائكة له عند الموت بالمغفرة والجنة، والثناء الحسن.

وقد فسرت البشرى لهم في الحياة الدنيا بالرؤيا الصالحة، روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ قال: «الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له».

وروى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت نظير ذلك عن النبي ﷺ وفسرت البشرى لهم في الحياة الدنيا بالذكر الحسن والثناء العاطر. روى مسلم والإمام أحمد عن أبي ذر أنه قال: يا رسول الله: الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ويثنون عليه به، فقال رسول الله ﷺ: «تلك عاجل بشرى المؤمن».

وفُسرت البشرى لهم في الحياة الدنيا بالبشارة بالمغفرة والجنة التي تبشرهم بها ملائكة من ملائكة الله عند الاحتضار، ففي حديث البراء رضي الله عنه:

«إنّ المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب، فقالوا: اخرجي أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان، ورب غير غضبان، فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء».

الثمرة الرابعة: أن لهم البشرى في الآخرة، وبشراهم في الآخرة هو إخبارهم بأن الجنة مأواهم. فبشراهم فيها تكون بدخول الجنة والظفر بالنعيم المقيم، والنجاة من عذاب الحشر وعذاب النار.

وذلك هو الفوز العظيم.

حقوق الموالاة بين المؤمنين:

والموالاة بين المؤمنين تستلزم المناصرة، وتقديم المعونات الجماعية، وتأدية الحقوق المختلفة للأفراد على الجماعة، ولكن للإلزام بها شروط:

(أ) فالموالاة العامة في كل الأمور شرطها المشاركة في دار الإسلام، والقيام بالواجبات التي تفرض على الفرد المسلم والجماعة الإسلامية.

(ب) والموالاة الخاصة بالنصرة في الدين شرطها ألا يكون بين المسلمين وبين القوم الذين ينصرون عليهم إخوانهم في الدين ميثاقٌ سابق يمنع هذه المناصرة.

وقد دل على هذين الأمرين قول الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾[1].

(١) يرى بعض المفسرين أن الولاية هنا بمعنى التوارث الذي كان ثم نسخ، وأرى النص عاماً، وباقياً، وأن الذي نسخ أحكام خاصة بالتوارث، والله أعلم.

حزب الله هم أولياؤه، والذين كفروا أولياؤهم الطواغيت والشياطين:

ومن كان من حزب الله، ولازم موقع هذا الحزب، فإنه من أولياء الله، وإن الله يتولاه بمعونته وتأييده ونصره.

ومن كان من أحزاب الشياطين والطواغيت كانت الشياطين والطواغيت أولياءه، فلا تعطيه في ولايتها نصراً، وإنما تستدرجه إلى تهلكته، وإلى منازل عذابه وشقائه الأبدي.

قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

وقال تعالى أيضاً في سورة (الأعراف ٧):

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

والظالمون من أحزاب الشياطين يناصر بعضهم بعضاً، ويوالي بعضهم بعضاً ضد الذين آمنوا، والمؤمنون إذا اتقوْا كان الله وليهم، فنصرهم وخذل أعداءهم.

قال الله تعالى في سورة (الجاثية ٤٥):

﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

ويسخر الله في ولايته للمتقين ملائكة تؤيدهم وتنصرهم وتتولاهم، قال الله تعالى في سورة (فُصِّلَت ٤١):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

وشواهد نصر الله لأوليائه المتقين لا تحصر في التاريخ، وكذلك شواهد خذل الشيطان لأوليائه كثيرة لا تحصر، منها ما كان في غزوة بدر، إذ زيّن الشيطان للكافرين أعمالهم، وقال لهم: إني جارٌ لكم، فلما وقعت الواقعة فرّ الشيطان جباناً خائفاً، وفي بيان ذلك قال الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾.

ـ ١٢ ـ
ما يجب اتباعه تجاه الأعداء

من مجمل المفاهيم الإسلامية حول موقف المسلمين تجاه أعدائهم من كافرين صرحاء أو منافقين، نستطيع استخلاص ما يلي:

الأول: يجب معرفة أنهم أعداء، لأن طبيعة رفضهم لدعوة الحق، واتباعهم سبل الباطل، واستجابتهم لأهواء نفوسهم وشهواتها الجانحة، وموالاتهم للشياطين والطواغيت، تجعلهم أعداء لله ولرسوله وللمؤمنين، فهم حزب الشيطان.

الثاني: يجب عدم موادتهم، وعدم مخالطتهم، وعدم مداخلتهم، وعدم موالاتهم، وعدم اتخاذ بطانة منهم.

الثالث: يجب الحذر من مكايدهم، ودسائسهم، وشرورهم، ومراقبة حركاتهم وسكناتهم بيقظة تامة، ومعرفة مخططاتهم ضد الإسلام والمسلمين.

الرابع: يجب عدم اتباع خطواتهم، وعدم الاستجابة لوساوسهم وتسويلاتهم.

الخامس: من واجبات المسلمين محاولة إصلاحهم، وهدايتهم إلى صراط الله، عن طريق التبليغ والإقناع، والتذكير بالله، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، والجهاد في سبيل الله، وسائر وسائل التربية النافعة، ووسائل الإصلاح الفردي والجماعي.

السادس: إعداد العدة الكافية لدرء الأخطار والأضرار التي قد تأتي من قبلهم على حين غرة، عملاً بقول الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

ـ ١٣ ـ
قد يكون العداء من طرف واحد

لا يشترط في العداء دائماً أن يكون مشاركة بين طرفين، فقد يكون العداء من طرف واحد، ويكون من الطرف الآخر محبة، وتضحية، وبذل، وإرادة للخير.

ولكن المفروض فيمن يعرف أن من يحبه هو قد يكون معادياً له، أن يكون على حذر منه.

فقد يكون عدو الإنسان نفسه التي بين جنبيه، وقد يكون عدوه زوجه، أو ولده، والعدو هو الذي يدفع بالإنسان إلى تهلكته وعذابه وشقائه.

قال الله تعالى في سورة (التغابن ٦٤):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

ففي هذا النص القرآني نلاحظ أن الله تبارك وتعالى يرشد الذين آمنوا إلى أنه قد يوجد من أزواجهم وأولادهم من يكونون أعداءً لهم، يحاولون إيقاعهم في معاصي الله، وسوقهم إلى عذابه، ويأمرهم بالحذر من آثار هذه العداوة، وظاهر أن هذه العداوة من طرف واحد، فالآباء والأمهات يمنحون أولادهم كل محبة، ويريدون لهم كل خير، في حين أنه قد يوجد في الأولاد من يعادون آباءهم وأمهاتهم، ويتمنون موتهم والخلاص منهم، طمعاً بمنافع مادية يحصلونها، أو تخففاً من خدمات ونفقات يقدمونها.

* * *

الفصل السادس

الصَّبْر وَفرُوعـهُ وَظوَاهِرُهِ السُّلوكيةِ

ـ ١ ـ

من الأسس العامة التي ترجع إليها مجموعة من الفروع والمفردات الخلقية المحمودة؛ خلُق الصبر.

ويأتي في مقابل هذا الأساس خلقُ عدم الصبر، وإليه ترجع مجموعة من النقائص الخلقية في السلوك الإنساني، مثل سرعة التضجر وعدم التحمل، والعجلة الرّعناء في الأمور، وسرعة الغضب، وعدم الأناة، وأشباه ذلك.

تعريف الصبر:

الصبر قوَة خلقية من قوى الإرادة، تمكّن الإنسان من ضبط نفسه لتحمّل المتاعب والمشقات والآلام، وضبطها عن الاندفاع بعوامل الضجر والجزع، والسأم والملل، والعجلة والرعونة، والغضب والطيش، والخوف والطمع، والأهواء والشهوات والغرائز.

وبالصبر يتمكن الإنسان بطمأنينة وثبات أن يضع الأشياء في مواضعها، ويتصرّف في الأمور بعقل واتزان، وينفذ ما يريد من تصرّف في الزمن المناسب، وبالطريقة المناسبة الحكيمة، وعلى الوجه المناسب الحكيم، بخلاف عدم الصبر الذي يدفع إلى التسرّع والعجلة، فيضع الإنسان الأشياء في غير مواضعها، ويتصرف برعونة، فيخطىء في تحديد الزمان، ويسيء في طريقة التنفيذ وفي

وجهه، وربما يكون صاحب حقٍّ أو يريد الخير، فيغدو جانياً أو مفسداً، ولو أنه اعتصم بالصبر لسَلِمَ من كلّ ذلك.

مجالات الصبر:

للصبر مجالات كثيرة في حياة الإنسان، منها المجالات التالية:

(أ) فمن الصبر ضبط النفس عن الضجر والجزع عند حلول المصائب ومسّ المكاره.

(ب) ومن الصبر ضبط النفس عن السأم والملل، لدى القيام بأعمال تتطلّب الدأب والمثابرة خلال مدّة مناسبة، قد يراها المستعجل مدّة طويلة.

(ج) ومن الصبر ضبط النفس عن العجلة والرعونة، لدى تحقيق مطلب من المطالب المادّية أو المعنوية.

والإنسان بطبعه عجول، يصعب عليه انتظار تحقيق الأمور في أوقاتها، ويريد استعجال الأشياء قبل أوانها، وفي الكلام السائر: صاحب الحاجة أرعن لا يروم إلّا قضاءها.

(د) ومن الصبر ضبط النفس عن الغضب والطيش، لدى مثيرات عوامل الغضب في النفس، ومحرّضات الإرادة للاندفاع بطيش لا حكمة فيه ولا اتزان في القول أو في العمل.

(هـ) ومن الصبر ضبط النفس عن الخوف لدى مثيرات الخوف في النفس؛ حتى لا يجبن الإنسان في المواضع التي تحسن فيها الشجاعة وتكون خيراً، ويقبح فيها الجبن ويكون شراً.

(و) ومن الصبر ضبط النفس عن الطمع لدى مثيرات الطمع فيها، حتى لا يندفع الإنسان وراء الطمع في أمرٍ يقبح الطمع فيه.

(ز) ومن الصبر ضبط النفس عن الاندفاع وراء أهوائها وشهواتها وغرائزها، كلّما كان هذا الاندفاع أمراً لا خير فيه.

(ح) ومن الصبر ضبط النفس لتحمّل المتاعب والمشقات والآلام الجسدية والنفسية، كلّما كان في هذا التحمّل خيرٌ عاجلٌ أو آجل.

فضل الصبر:

وفضل الصبر آتٍ من أنّه تعبير عن قوة الإرادة، وعن كمال العقل، والبعد عن الطيش والرعونة، وتعبير عن الحكمة في معالجة مشكلات الحياة.

يضاف إلى ذلك أنه في مستواه الرفيع ثمرة من ثمرات الفهم عن الله، وتدبّر حكمته العظيمة في تصريف الأمور، وامتحان عباده في هذه الحياة، وثمرة من ثمرات الرضى عن الله فيما تجري به مقاديره، ولذلك كان الصبر ضياء، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ فيما رواه مسلم عن أبي مالك الحارث الأشعري إذ قال: «والصبر ضياء»(١).

ويضاف إلى ذلك أيضاً أنّه السلاح الأقوى الذي يمكّن صاحبه من إصلاح خصمه أو الظفر به، وأنّه أعظم خلق نفسي وضع موضع الابتلاء في ظروف هذه الحياة الدنيا، ولذلك قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ؟! ﴿١٤٢﴾﴾.

---

(١) ونص الحديث بكامله: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كلّ الناس يغدو فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها».

ـ ٢ ـ

الصبر عند المصائب وكلّ ما يجلب الآلام ويورث المتاعب والأكدار

لقد أرشد الإسلام إلى التحلّي بفضيلة خلق الصبر عند المصائب، وعند كلّ ما يجلب الآلام ويورث المتاعب والأكدار.

ووجّه الإسلام المؤمنين إلى الرضى بقضاء الله وقدره، في كلّ ما ينجزُه القضاء والقدر من أمره، وأبان للمؤمنين أنّ حكمة الابتلاء في ظروف الحياة الدنيا قد تقضي بأن يكون الابتلاء بالمكاره والمؤلمات، وأنّ ما يأتي به القضاء والقدر ممّا لا كسب للإنسان فيه ولا مسؤولية عليه به هو خير في حقيقة أمره، وإن كان ظاهره مكروهاً وموجعاً، وإن كان في عرف الناس مصيبة من المصائب. وأبان للمؤمنين أنه ما يصيبهم من حسنة فمن فضل الله وواسع رحمته وجوده، وما يُصيبهم من سيئة فبسبب من أنفسهم.

ووعد الإسلام الصابرين بالأجر العظيم، والثواب الجزيل، إذا صبروا رضىً بقضاء الله، وطاعة له، وابتغاء مرضاته.

وفيما يلي شرح لطائفة من النصوص الإسلامية في ذلك:

١ ـ يقول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

فدلّ هذا النصّ على أنّ المصائب المؤلمة، في الأنفس، أو في الأجسام، أو في الأموال، أو في الثمرات، قد تكون نوعاً من الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، لقول الله تعالى: ﴿ولنبلونّكم﴾ والابتلاء هو الامتحان.

وقد أرشد هذا النصّ إلى التحلّي بفضيلة الصبر في مجال الإصابة بالمصائب

المختلفة، والتي منها مصائب الخوف، ومصائب الجوع، ومصائب النقص من الأموال، ومصائب النقص من الأنفس، ومصائب النقص من الثمرات.

وأبان النصّ أنّ من آداب الصابرين على المصائب التي تأتيهم من عند الله لابتلائهم، وامتحان إيمانهم، واختبار تسليمهم ورضاهم بما يجري به قضاء الله وقدره، أن يقولوا: إنّا لله وإنا إليه راجعون، معلنين بهذا أنّ كل شيءٍ هو مملوكٌ لله، وأنه إلى الله يرجع.

واشتمل النصّ على البشارة من الله للصابرين، إذ يقول تبارك وتعالى فيه: ﴿وبشّر الصابرين﴾؛ وهذه البشارة قد جاءت بأمرين محبوبين عظيمين:

الأمر الأول: أنّ عليهم صلوات من ربّهم.
الأمر الثاني: أنّ عليهم من ربّهم رحمة.

وقد استحقوا البشارة بهذا الجزاء الكريم لأنهم هم المهتدون إلى سبيل سعادتهم، وهم السالكون في الطريق القويم.

إنّهم لما صبروا ابتغاء مرضاة الله استحقّوا أنواعاً من رحمة الله وغفرانه، ومن أجل ذلك كان عليهم صلوات من ربّهم، ولـمّـا أعلنوا رضاهم عن الله، وتسليمهم لما تجري به مقاديره، بقولهم: إنا لله وإنا إليه راجعون، استحقوا نوعاً آخر خاصّاً من رحمة الله، مضافاً إلى أنواع الرحمات السابقات التي استحقوها بالصبر.

ومن هذا ندرك: أن رحمة الله أنواع كثيرة، وقد أشارت الآية إلى هذه الأنواعِ بعطف الرحمة على الصلوات من الله، مع أنّ الصلوات من الله هي أيضاً رحماتٌ منه.

٢ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

ففي قول الله تعالى في وصفْ المخبتين: ﴿والصابرين على ما أصابهم﴾ إشادةٌ بفضيلة خلُق الصبْر على المصائب، وقد قُرنت هذه الفضيلة بفضيلة وجل القلوب عند ذكر الله، وفضيلة إقامة الصّلاة، وفضيلة الإنفاق في سبيل الله.

فالمخبتون في الاصطلاح الشرعي هم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، والصابرون على ما أصابهم، والمقيمو الصلاة، والمنفقون مما رزقهم الله ابتغاء مرضاته.

وأصل الخَبْتِ في اللّغة العربية: الأرض المنخفضة المطمئنّة، والمخبتُ لربّه هو المتواضع الخاشع المطمئنّ. وكأنّ هذه المعاني التي وردت في وصف المخبتين مأخوذة من الإخبات المادّي، وهو اللجوء إلى الأرض المنخفضة المطمئنّة، على سبيل التواضع والسكينة، ثمّ حمل لفظ الإخبات معنى التواضع والخشوع والطمأنينة، أو تكون هذه المعاني من لوازم المعنى اللّغوي لهذه اللفظة، فمن كان مخبتاً لربّه، أي: متواضعاً خاشعاً مطمئناً، كان من صفاته أنه إذا ذكر الله وجل قلبه، وإذا ابتلاه الله بمصيبة صبر على ما ابتلاه به، ومن كان مخبتاً لربّه كان لا بدّ أن يكون مقيماً للصلاة المفروضة مؤدّياً للزكاة، قائماً بحقِّ الله عليه.

المصائب مكفّرات للذنوب:

حين يعلم المؤمن أن الله يمتحنه بالمصائب ليختبر مقدار صبره ورضاه عن ربّه، وليكتب له الأجر العظيم عنده، فإنه يجد نفسه مدفوعاً لتحمّل المصائب بصبر ورضىً عن الله.

وحين يعلم أنّ الله يثيبه فيكفّر عنه من ذنوبه وخطاياه بالمصائب التي يصيبه بها، فإنه يزداد اندفاعه لتحمّل المصائب بصبر ورضىً عن الله.

وقد أبان الرسول صلوات الله عليه ما للمصائب وإن صغُرت من أثرٍ عظيم في تكفير الذنوب والخطايا، فمن ذلك ما جاء في الأحاديث التالية:

١ ــ روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد وأبي هريرة عن النبي ﷺ

قال: «ما يصيب المسلمَ من نصب ولا وصب، ولا همّ ولا حزنٍ، ولا أذىً ولا غمّ، حتى الشوكة يشاكها، إلاّ كفّر الله بها من خطاياه».

النصب: التعب. الوصب: المرض.

٢ ـ وروى البخاري ومسلم، عن ابن مسعود قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك[1] فقلت: يا رسول الله، إنّك توعك وعكاً شديداً، قال: «أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم» قلت: ذلك أنّ لك أجرين؟ قال: «أجل، ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى، شوكة فما فوقها إلا كفّر الله بها سيّئاته، وحُطّت عنه ذنوبه كما تحطّ الشجرة ورقها».

٣ ـ وروى البخاري عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يُصَبْ منه».

٤ ـ وروى الترمذي بإسناد حسن عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه، حتى يوافى به يوم القيامة».

وقال النبي ﷺ: «إن عِظَم الجزاء مع عِظَم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحبّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط».

٥ ـ وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

٦ ـ وروى الإمام أحمد والبيهقي في شعب الإيمان عن الحسين بن علي، عن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها، فيحدث لذلك استرجاعاً، إلاّ جدّد الله تبارك وتعالى له عند ذلك، فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب بها».

---

(١) الوعك: مغث الحمّى، وقيل الحمى.

فقانون الصبر على المصائب والآلام التي تنزل بالمسلم يرجع إلى عنصرين:

الأول: تكفير الخطايا والسيئات، وهذا من تعجيل العقوبة على الذنوب.

الثاني: منح الأجر عليها، وهذا من فضل الله ورحمته بعباده المؤمنين.

ومن البديع أن التربية على الصبر والرضى عن الله في المصائب والآلام؛ قد جاءت بأسلوب بيان أجر المسلم على ما ينزل به من مصيبة وما يمسه من ألم، حتى الألم الذي يسترجعه تذكر المصيبة الماضية التي طال عليها العهد.

النهي عن تمني الموت تخلصاً من المصائب:

وحين يعلم المؤمن أنّ صبره على المصائب والآلام مكفّر لسيئاته، ورافع لدرجاته، ويسجّل له مع كل شعور بألم أجرٌ عند الله تعالى، يناله ثواباً عظيماً وكرامة عنده في دار الجزاء، يرى أنه في خير عظيم وفضل جسيم من الله تعالى، ويرى أنّ تمنيه الموت تخلصاً من المصائب هروب من الحياة، وفرار من مسؤولية الابتلاء، وخروج من سوق تجارة رابحة أضعافاً مضاعفة، لذلك فهو لا يتمنّى الموت ليتخلّص من مصائبه وآلامه، ويلاحظ المؤمن أنّ طول أجله فرصة له ليزيد من حسناته إن كان من المحسنين، وليتوب ويصلح من حاله إن كان من المسيئين، لكلّ ذلك نهى الرسول ﷺ الذين آمنوا عن تمنّي الموت.

روى البخاري عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال:

«لا يتمنى أحدكم الموت، إمّا مُحْسناً فلعلّه يزداد، وإمّا مسيئاً فلعلّه يستعتب».

يستعتب: أي يرجع عن الإساءة ويطلب الرضى بالتوبة والندم والاستغفار والعمل الصالح.

أي فهو أحد رجلين:

إمّا أن يكون محسناً، وفي هذه الحالة يرجو بطول الأجل أن يزداد إحساناً وأعمالاً صالحة.

وإمّا أن يكون مسيئاً، وفي هذه الحالة يرجو بطول الأجل أن يتوب ويستغفر ويعمل صالحاً، ويكفّر عن سيئاته.

وروى مسلم عن أبـي هريرة عن رسول الله ﷺ قال:
«لا يتمنّى أحدكم الموت ولا يدعُ به من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمنَ عمرهُ إلاّ خيراً».

فأبان الرسول ﷺ أن المؤمن لا يزيده طول عمره إلاّ خيراً، وأنّ عليه أن يواجه مسؤولياته في الحياة بقوة إرادة وصدق عزيمة، وصبر وصمود وكدحٍ ومجاهدة، ليغتنم من حياته ما يستطيع اغتنامه لآخرته.

وروى البخاري ومسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ:
«لا يتمنّينّ أحدكم الموت لضرّ أصابه، فإن كان لا بدّ فاعلاً فليقل: اللّهمّ أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفّني إذا كانت الوفاة خيراً لي».

وهذا الحديث يدلّ على أنّ الأفضل للمؤمن أن لا يتدخل في طلب الموت من ربّه مطلقاً، وأن يترك أمر الأجل لمقادير الله في خلقه، ولحكمته في عباده.

ولذلك لم يدعُ خبّاب بن الأرت على نفسه بالموت، مع أنّه وصل إلى حالة رأى فيها أنّ الموت أحبّ له من الحياة.

روى البخاري عن قيس بن أبـي حازم قال: دخلنا على خبّاب بن الأرت رضي الله عنه نعوده، وقد اكتوى سبع كيّات، فقال: «إنّ أصحابنا الذين سلَفوا مَضَوْا ولم تنقصهم الدنيا، وإنّا أصبنا ما لا نجد له موضعاً إلاّ التراب. ثم قال: ولولا أنّ النبـي ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به».

وإنا أصبنا ما لا نجد له موضعاً إلاّ التراب: أي أصبنا من المال ما لا نجد له موضعاً نضعه فيه إلاّ أن نبني به ونعمر بيوتاً وبساتين.

وقد حدّث خبّاب نفسه بالموت ولم يطلبه، مخافة أن تنقص الدنيا والأموال التي زادت عنده من منزلته عن أصحابه الذين سبقوا إلى ربّهم، قبل أن تفتح الدنيا على المسلمين.

وهذه التربية الإسلامية من شأنها أن ترفع معنويّات المسلمين في الحياة، وتشدّ عزائمهم، وتنفي السأم والضجر عن نفوسهم وقلوبهم، وتضع بينهم وبين الطريق التي تنحدر بكثير من الناس إلى الانتحار سدّاً منيعاً.

أمّا من ترك الإيمان بالله واليوم الآخر، وكفر بالمفاهيم الإسلامية العظيمة، تولّد في نفسه السأم والضجر من الحياة عند أوّل ضرّ يمسّه، ومع تتابع أحداث الضجر مرّة بعد مرّة، تتكثف في نفسه ضغوط قاتلة، لا تجد لها منفذاً تتنفس منه؛ لأنّ المتنفس الوحيد لا يأتي إلا عن طريق الإيمان بالله واليوم الآخر، والرضى عن الله فيما تجري به مقاديره، ومراقبة الأجر العظيم الذي أعدّه الله للصابرين. وبعد تكثف ضغوط الضجر والسأم من الحياة دون أن تجد متنفساً سليماً تحدث حالة الانفجار النفسي، وهذا الانفجار ينتهي به إلى الانتحار أو إلى الجنون، أو إلى الجريمة البشعة، أو إلى إدمان المسكرات والمخدرات، وفي كلّ ذلك شرّ مستطير، وبلاء كبير.

أمّا المؤمنون فهم من هذا البلاء بعافية والحمد لله، وبلاد المسلمين هي أسلم البلاد وأنقاها من جرثومة هذا الوباء، وذلك بسرّ الوقاية العجيبة التي يصنعها الإيمان، وتغذيها عناصر التربية الإسلامية.

وقد أصيب بعض أبناء المسلمين في هذا العصر بأمراض أهل الكفر، لـمّـا تسرّب إليهم داء الكفر بالله وبمقاديره وحكمته، والكفر باليوم الآخر وما فيه من جزاء بالثواب أو بالعقاب.

من رَوائع أمثلة الصبر على البلاء:

١ ــ صبر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام:

يحكي الله لنا قصة بطولة فريدة من بطولات الصبر، قدّمها ولدٌ ووالده، في امتحان ربّاني عجيب لهما، هما النبيان الرسولان الصابران إسماعيل وأبوه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

يكلّف الله إبراهيم في رؤيا منامية أن يذبح ولده إسماعيل، فيتجه بصبر عجيب لطاعة أمر ربه، فيقول لابنه إسماعيل: «يا بني إني أرى في المنام أني

أذبحك» أي أمرني ربـي بذبحك في رؤيا منامية، ورؤيا الأنبياء حقّ تثبت بها الأحكام التكليفية.

فيقول الابن البار بأبيه المطيع لربه: «يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين».

وأسلما أمرهما إلى الله صابرين، وشرعا في تنفيذ التكليف ذابحٌ ومذبوح، فلما علم الله طاعَتهما وصدْق إسلامهما وتسليمهما، أنزل لهما كبش الفداء، وتوقف أمر ذبح الوالد لولده، وتم الذبح للكبْش.

وفي عرض القرآن لهذه القصة إشادةٌ بفضيلة خلق الصّبر على تنفيذ أمر الرب، مهما كان قاسياً ومكروهاً لدى النفس. وتوجيهٌ لإعداد الأنفس للصّبر على المكاره والمصائب المرتقبة، والإقدام عليها بشجاعة وبطولة. وتقديمٌ لنموذج فريد من روائع قصص الأبطال الصابرين.

يقول الله تعالى في سورة (الصافات ٣٧) في معرض ذكر قصة إبراهيم مع قومه:

﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾
رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ
إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن
شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ
صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ
بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾.

هذه قصة من روائع قصص الإقدام على المكاره بصبر وشجاعة نادرة، ومن روائع قصص الطاعة والامتثال لأوامر الله تعالى.

والإقدام على المكاره بصبر وشجاعة، من الأمثلة التي تدل على خلق

أصيل في النفس عظيم، وقد أثبت إسماعيل عليه السلام بالتطبيق العملي ما أعلنه بقوله: «ستجدني إن شاء الله من الصابرين» فكان ذا حظ عظيم من الصبر، حينما سعى هو وأبوه لتنفيذ أمر الرب.

والرائع في القصة أن الذابح المتدفق رحمةً على ولده، والذبيح المستسلم لأعظم مكروه في الدنيا، كلاهما قد بلغا قمة الاستسلام والطاعة لربهما، فقد تلّ الأب ولده للجبين، وأسلما أمرهما لله صابرين على ما امتحنهما به، ولما أثبتا نجاحهما في الامتحان ــ وما كان الله قد أراد أن يذبح إبراهيم عليه السلام ولده إسماعيل فعلاً ــ عندئذٍ أنزل لهما الفداء، وأعلن انتهاء فترة الامتحان، ورجع البطلان فائزين بدرجة عظمى من الاصطفاء الإلهي.

ولم يكن صبر إبراهيم في الإقدام على ذبح ولده امتثالاً لأمر ربه، بأقل من صبر إسماعيل في إقدامه مستسلماً للذبح امتثالاً لأمر ربه أيضاً، كلا الأمرين من أشد ما يصطدم به الإنسان من مكاره في حياته.

٢ ــ صبر أيوب عليه السلام:

ومن روائع أمثلة الصبر، صبرُ أيوب عليه السلام، فقد قدم مثالاً يقتدى به، من أمثلة الصبر على المصائب والمكاره التي يبتلي الله بها عباده.

كان أيوب عليه السلام عبداً صالحاً، امتحنه الله بالغنى، فبسط له الرزق الكثير، ورزقه أهلاً وبنين، فكان من الشاكرين.

وقد ذكر المؤرخون أنه كان أميراً غنياً محسناً، ثم امتحنه الله بالمصائب، ففقد المال والأهل والولد، ونشبت به الأمراض المضنية المضجرة، فكان من الصابرين، وتلقى كل ذلك بالحمد والثناء على ربه، وبالتسليم والرضى، فكان في حالتي السراء والضراء مثالاً رائعاً لعباد الله الصالحين، إذ كان شاكراً أيام النعمة، ثم كان صابراً أيام المصائب المتوالية. وكانت له امرأة مؤمنة إسمها «رحمة» من أحفاد يوسف عليه السلام، ورافقت هذه المرأة حياة نعمته وصحته، وزمن بؤسه وبلائه، فكانت في الحالتين مع زوجها شاكرة فصابرة.

ومن اللطائف في قصة صبر أيوب عليه السلام، أن الشيطان حاول أن

يفسد نفسه، فيوسوس له بأن يضجر من المصائب التي تكاثرت عليه، فلم يظفر بما أراد، فحاول أن يدخل إليه عن طريق زوجته، فوسوس لها، فجاءت إلى أيوب وفي نفسها الضجر مما أصابه من بلاء، وأرادت أن تحرك قلبه ببعض ما في نفسها، فغضب أيوب، وقال لها: كم لبثتُ في الرخاء؟ قالت: ثمانين ــ أي ثمانين عاماً ــ قال لها: كم لبثت في البلاء؟ قالت: سبع سنين. قال: أما أستحيي أن أطلب من الله رفع بلائي، وما قضيت فيه مدة رخائي!!

ولما اشتد به الضر، وطال الزمن، وهجره كل الناس حتى زوجته الوفية، واجتاز فترة الامتحان بنجاح، فكان عبداً صبوراً، نادى ربه: إني مسّني الضر، وأنت أرحم الراحمين.

عندئذٍ كشف الله عنه ما به من ضر، وآتاه الصحة، ورد له ما كان قد أخذ منه، وآتاه أهله ومثلهم معهم.

قال الله تعالى في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (ص ٣٨):

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

بنُصْبٍ: أي بمشقّة وتعب، والمراد من النصب والعذاب ما نزل به من بلاء المرض.

اركض برجلك: أي قيل له على لسان الوحي: اركض برجلك، والمراد أن يضرب الأرض برجله، فلمّا ضرب الأرض برجله نبعت له عين ماءٍ فيها شفاؤه. وقيل له لما نبعت: هذا مغتسل باردٌ وشراب، فاغتسل وشرب فشفاه الله، وأزال عنه ما كان قد نزل به من قبل، ورد الله له أهله الذين فقدهم أيام مرضه الشديد الطويل، وزاده مثلهم معهم، رحمة منه جل وعلا.

وكان قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوط على أمرٍ طوى القرآن ذكره، فأنزل الله عليه ما يتحلّل به من يمينه، فقال له: ﴿خذ بيدكَ ضغثاً، فاضرب به ولا تحنث﴾ أي خذ بيدك حزمة صغيرة من حشيشٍ أو أعواداً خفيفة فيها مائة عودٍ أو أكثر، فاضرب به زوجتك، وتحلل بذلك من يمينك.

قالوا: وقد كافأ الله زوجته بذلك، لأنها خدمته وصبرت على خدمته.

من خلال قصة أيوب عليه السلام نلاحظ أنه اجتاز مرحلة صبر طويل شديد، ولذلك أثنى الله عليه بقوله: ﴿إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أوّاب﴾ أي رجاع إلى ربّه تواب.

ويعرض الله لنا أمثلة الصابرين ليكونوا لنا أسوة حسنة نقتدي بهم، فنصبر مثل صبرهم، أو مثل بعض صبرهم، كلّما اقتضت حكمة الله تعالى أن يبتلينا بشيء من مصائب الحياة الدنيا، في الأنفس، أو في الأجساد، أو في الأموال، أو في الثمرات، حتى يكون لنا عنده أجر الصابرين، ونرتقي عنده إلى منازل المحسنين المقربين العابدين أولي الألباب.

ولذلك قال الله تعالى بعد عرض قصة أيوب في سورة (الأنبياء): ﴿وذكرى للعابدين﴾، وقال بعد عرضها في سورة (ص): ﴿وذكرى لأولي الألباب﴾؛ فدل بذلك على أن الغرض من عرضها أن يكون أيوب في صبره أسوة حسنة لأولي الألباب، الذين هم العابدون. فأولو الألباب العارفون بثمرات الصبر وأجر الصابرين هم الذين ينتفعون بما يُعرض عليهم من أمثلة الصابرين، ويدركون أن الصبر من الدرجات العليا للعبادة، فيضيفونه إلى عباداتهم الكثيرة، التي يؤدونها ابتغاء مرضاة الله تعالى.

ولما كانت درجات الصبر العليا من مرتبة الإحسان، التي هي أعلى مراتب العبادة، قال الله تعالى بعد عرض قصة إبراهيم عليه السلام، وما كان منه من صبر على البلاء المبين: ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾، وقال: ﴿كذلك نجزي المحسنين﴾.

— ٣ —
الصبر ضرورة حياتية لكل عمل نافع إيجابي أو سلبي

حين نتأمل في المجالات التي تحتاج إلى صبر في حياة الإنسان، يتبين لنا أن الصبر ضرورة حياتية لكل عمل نافع، إيجابياً كان أو سلبياً.

إن كسب الرزق يحتاج إلى صبر، ومعاملة الناس تحتاج إلى صبر، والقيام بالواجبات والمطلوبات الدينية يحتاج إلى صبر، والكف عن المحرّمات والمكروهات يحتاج إلى صبر، والجهاد في سبيل الله يحتاج إلى صبر، ومقارعة شدائد الحياة ومقاومة مكارهها وتحمل تكاليفها يحتاج إلى صبر، وهكذا إلى سائر الأعمال التي يمارسها الإنسان في حياته، سلبيّةً كانت أو إيجابية، فهي تحتاج إلى صبر.

يشهد لهذا واقع حال الإنسان مهما اختلفت ظروف حياته، وتدل عليه أيضاً النصوص الدينية:

١ ــ فمن الأدلة التي تدل على أن القيام بالواجبات الدينية يحتاج إلى صبر، قول الله تعالى في سورة (مريم ١٩):

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾.

هل تعلم له سميّاً: أي هل تعلم له شبيهاً يشبهه في صفاته العلية، سبحانه وتعالى عن الشبيه ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ فله تبارك وتعالى الوحدانية في ربوبيته والوحدانية في ألوهيته.

في هذا النص القرآني، نلاحظ أن الله تبارك وتعالى، حين أمر بعبادته أرشد إلى الاعتصام بالصبر الزائد، فقال تعالى: ﴿واصطبر لعبادته﴾، وصيغة «اصطبر» مأخوذة من «اصبر» مع زيادة التاء التي تدل على التكلف والمبالغة، ثم قلبت التاء طاءً لوقوعها بعد حرف الصاد، كما هي القاعدة العربية في مثل ذلك.

ولما كانت عبادة الله تشمل فعل ما أمر به أو رغب بفعله، وترك ما نهى عن فعله أو رغب بتركه، وكانت العبادة تحتاج إلى اصطبار، كان المقصود بالصبر المطلوب الصبر على فعل الطاعات، والصبر على ترك المخالفات، سواء أكانت محرمات أو مكروهات أو دون ذلك.

٢ ــ ومن الأدلة التي تدل على أن مخالطة الناس والتعامل معهم من الأمور التي تحتاج إلى صبر، قول الله تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

فهذه الآية تدل على أن من ضمن مجالات الامتحان الرباني للناس، امتحان بعضهم ببعض، والنجاح في هذا الامتحان يحتاج إلى صبر، ولذلك قال الله تعالى: ﴿أتصبرون؟﴾ أي: أتصبرون حتى تظفروا بالنجاح في الامتحان الرباني لكم.

ونستطيع أن نستخلص من هذا قاعدة عامة فنقول: إن جميع صور الامتحان الرباني للناس تحتاج إلى صبر، والله تبارك وتعالى يمتحن في التكاليف التي يأمرنا بها خضوعنا لأمره ونهيه، ومدى صبرنا على طاعته، في فعل ما يأمرنا به، وفي اجتناب ما ينهانا عنه.

٣ ــ ومن الأدلة التي تدل على أن الجهاد في سبيل الله يحتاج إلى صبر عظيم لما فيه من تعرض للتضحية بالنفس والجود بها ابتغاء مرضاة الله ــ والجود بالنفس أقصى غاية الجود، لذلك يأمرنا الله بالجهاد، وبالصبر العظيم فيه ــ قول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾.

ففي هذه الآية يأمر الله الذين آمنوا بالصبر، ويأمرهم بالمصابرة، والمصابرة فيها مغالبة للخصوم بالصبر، فإذا صبر العدو في قتال المؤمنين، فعلى المؤمنين أن يغالبوه بالصبر، فيصبروا أكثر منه، حتى يكسروا بصبرهم صلابة صبره.

وأجدر الخصمين المتقاتلين بالظفر أكثرهما صبراً، ما داما متكافئين أو متقاربين في القوة والعدة، يضاف إلى ذلك أن المؤمنين يملكون من القوى المعنوية ضعف ما لدى أعدائهم في الحد الأدنى الواجب، وعشرة أضعاف ما لدى أعدائهم في الحد الأقصى المندوب إليه لدى كمال الإيمان.

ومن الأدلة أيضاً في هذا المجال، قول الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

ففي هذا النص يأمر الله الذين آمنوا بأن يثبتوا ويصبروا إذا لقوا عدوهم في معركة من معارك القتال، ففي الثبات والصبر مع سلامة الغاية، وطاعة الله ورسوله، والاشتغال بذكر الله، ووحدة الصف والقيادة، وتحقيق الشروط المادية التي منها إعداد المستطاع من القوة، يتحقق النصر المحبوب المرغوب، لأن الله عندئذٍ يكون مع المؤمنين مؤيداً وناصراً، ولا يكلهم إلى أنفسهم، دل على ذلك: ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾.

٤ ـ ومن الأدلة التي تدل على أن الدراسة والبحث العلمي في الظواهر الكونية، والاجتهاد لاستنباط آيات الله فيها، وكذلك الاجتهاد لاستخراج أحكام الشريعة من مصادرها، أمور تحتاج إلى دأبٍ طويل، وصبرٍ جميل، فلا يقوم بها إلا كل صبار، قولُ الله تعالى في سورة (لقمان ٣١):

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

فدل هذا النص على أن البحث في هذه الظواهر الكونية لا بد أن يوصل إلى الإيمان العميق بأن الله هو الحق، ولكن هذا البحث العلمي إنما يتابعه كل صبّار على البحث والمتابعة، وينتفع بنتائج البحث فيؤمن بالله ويطمئن لعبادته كل شكور لأنعم الله عليه.

فالذي يرى آيات الله في الظواهر الكونية وينتفع بها هو كل صبار شكور.

وكذلك الذي يتدبر آيات الله المنزلة في كتابه، ويستنبط منها ما اشتملت عليه من دلالات وأحكام وعلوم وعظات.

٥ ــ وكظم الغيظ، وإخماد جذوة الغضب، والدفع بالتي هي أحسن، أمور تحتاج إلى حظ عظيم من خلق الصبر، فالذي لا يتحلى بخلق الصبر لا يستطيع أن يكظم غيظه، ولا يستطيع أن يسكن غضبه، ولا يستطيع أن يدفع بالتي هي أحسن، دلت الملاحظة على هذه الحقيقة، ومن الأدلة الإسلامية التي دلت عليها أيضاً قول الله تعالى في سورة (فصلت ٤١):

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾.

فالله تبارك وتعالى يأمر في هذا النص بدفع السيئة بالتي هي أحسن، ثم

يقول: ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا﴾ فدل بهذا على أن هذه الظاهرة من مكارم الأخلاق أثر من آثار خلق الصبر.

من الملاحظ في المعاملات الاجتماعية بين الناس أن بعضهم قد يسيئون إلى إخوانهم إساءات مختلفة، في ألسنتهم، في أيديهم، في غير ذلك من جوارحهم، في تصرفاتهم المالية أو غير المالية، والإساءة قد تمس النفس، أو تمس العرض والشرف، أو تمس المال والمتاع، أو تمس الأهل والعشيرة، أو تمس أي حق من الحقوق.

والله تعالى يأمر المؤمن في هذا النص بأن يدفع السيئة التي تأتيه من أخيه، بالخصلة التي هي أحسن، والخصلة التي هي أحسن من رد السيئة بمثلها إنما هي العفو والإحسان، أو الإعراض وكف الأخذ والرد في موضوع الإساءة.

وللدفع بالتي هي أحسن ثمراتٌ اجتماعية عظيمة، منها تحويل العدو المجابه بما يسوء ويؤذي إلى نصير مدافع وصديق حميم، وهذا ما نبه عليه وأوضحه قول الله تعالى: ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾.

وما أحوج القادة والموجهين إلى هذا الخلق العظيم، بل ما أحوج كل إنسان إليه، إنه أحد المظاهر الاجتماعية لخلق الصبر، وهو الدواء المرمم لما يبلى أو يتهدم من الروابط الاجتماعية، والمصلح لما يفسد منها، والمجدد لما يفنى منها، ومن أجل ذلك أمر الله به، وأثنى على من يتحلى به ثناءً عظيماً، فقال تعالى: ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا، وما يلقَّاها إلا ذو حظ عظيم﴾ أي: ذو حظ عظيم من مكارم الأخلاق وفضائل السلوك، وهو عند الله يوم الدين ذو حظ عظيم من الأجر والمنزلة الرفيعة في دار النعيم، إذا كان يدفع السيئة بالتي هي أحسن ابتغاء مرضاة الله، والله تبارك وتعالى يكافئه بمثل عمله، فيعفو عن سيئاته، ويكفر له خطيئاته، ويضاعف له أجره أضعافاً كثيرة، كل هذا من الحظ العظيم الذي يناله.

في مقدمة هذا النص جاء قول الله تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنة

ولا السيئة﴾ ثم جاء بعده مباشرة قوله تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ على طريقة تقرير القاعدة الكلية العامة، ثم التوجيه إلى الأخذ بجزئية من جزئياتها.

إن إيراد القاعدة الكلية العامة: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾ بمثابة إقامة الدليل على كمال الدفع بالتي هي أحسن قبل الأمر به، وفي إيراد هذه القاعدة إعلان لحقيقة لا ينكرها عاقل، وهي أن الحسنة تقع في مرتبة الكمال، وأن السيئة تقع في حضيض النقصان، وهذان الضدان لا يستويان، كيف يستويان وأحدهما صاعدٌ شطر القمة، والآخر هابط شطر الحضيض؟!

إذا كان الأمر كذلك ففاعل الحسنة لا يمكن أن يستوي مع فاعل السيئة، ففاعل الحسنة يصعد في معارج المحسنين، وفاعل السيئة يهوي في أودية المسيئين.

ولما كان الإسلام يدعو إلى الكمال الخلقي ويدفع المسلمين إليه، كان من الطبيعي بعد إعلان التفاوت الكبير بين الحسنة والسيئة أن يأتي الأمر بالدفع بالتي هي أحسن.

وفي هذا النص إشارة إلى عامل من العوامل المحرضة على الغضب والانتقام مع وصف العلاج النفسي الناجع، أما العامل المحرض على الشر فهو نزغ الشيطان في داخل الأنفس، وأما علاجه فهو الاستعاذة بالله منه ومن نزغاته، قال الله تعالى: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾.

والسر في هذا العلاج أن الاستعاذة بالله من شأنها أن تذكر به، وبما أمر به، وبما نهى عنه، وبما أعده لعباده المؤمنين المحسنين من أجر عظيم، وهذه الذكرى كافية لأن تطرد وساوس الشيطان، وتصحح مفاهيم الإنسان، وبتصحيح مفاهيمه وصدق إرادة الخير لديه يستقيم سلوكه، يضاف إلى ذلك العون الرباني الذي يوفق الإنسان إلى فعل الخير، ويصرف عنه بواعث الشر.

وفي فضيلة كظم الغيظ والدفع بالتي هي أحسن، حتى درجتي العفو والإحسان الرفيعتين، يقول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾.

فالمغفرة من الله والجنّة التي أعدّت للمتقين، يظفر بهما الذين ينفقون في السرّاء والضرّاء والذين يكظمون غيظهم، ويعفون عن الناس، يستحقون محبة الله لهم لأنّهم ارتقوا إلى مرتبة الإحسان فكانوا من المحسنين.

ولا يكظم غيظه إلاّ صابر، ولا يعفو عمّن أساء إليه إلاّ صابر، فكظم الغيظ والعفو عن الناس من مظاهر خلق الصبر.

وفي فضيلة إمساك الغضب، وعدم الاندفاع مع نوازغه، ومقابلة إساءة المسيء بالعفو والمغفرة؛ يقول الله تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

فوصف الله الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون بأنهم إذا ما غضبوا من أحدٍ بسبب إساءة وجهت لهم؛ فإنهم يغفرون، ثمّ وجّه الله إلى العفو فقال: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ ثمّ ختم الله هذا النصّ الأخلاقيّ بقوله: ﴿ولمنْ صبر وغفر إنّ ذلك لمن عزم الأمور﴾. فدلّ هذا على أن إمساك الغضب وعدم الاندفاع مع نوازغه؛ من الظواهر السلوكية التي تعتمد على خلق الصبر.

— ٤ —

فضل الصابرين عند الله

لـمّـا كان من أكبر عناصر الامتحان في هذه الحياة الدنيا، امتحان الناس بما يتطلب منهم مقادير مختلفة من الصبر، لتقدير مدى صبر كلٍّ منهم على الطاعات، وصبر كل منهم عن المخالفات، قال الله تعالى في سورة (محمد ٤٧):

﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾ ﴾.

الابتلاء: هو الامتحان، ونحن في هذه الحيـاة مخلوقون لـلامتحان، والامتحان يستتبع الجزاء، والدار الآخرة هي دار الجزاء الأمثل.

ولـمّـا كان الصبر هو المطلوب في هذا الامتحان كان ذا مكانة عظيمة عند الله.

ومن أجل المكانة العظيمة عند الله لخلق الصبر أعلن الله تبارك وتعالى أنه يحبّ الصابرين، فقال تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾.

وأنه تبارك وتعالى يمـدّهم بعونه وتأييده فقال تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ و ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾. و ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

ويوفي الله الصابرين أجرهم بغير حساب، قال تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾.

* وبيّن الرسول صلوات الله عليه فضل الصابرين على البلاء، وما لهم من أجر عظيم عند الله، فمن ذلك ما جاء في الأحاديث النبوية التالية:

١ ـ روى البخاري عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيّة من أهل الدنيا، ثم احتسبه إلا الجنّة»؟!

أي: ثم احتسب أجره عند الله صابراً على قضائه وقدره.

٢ ـ وروى البخاري عن عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون؟ فأخبرها أنه «كان عذاباً يبعثه الله تعالى على من يشاء، فجعله الله تعالى رحمة للمؤمنين، فليس من عبد يقع في الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً، يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثل أجر الشهيد».

٣ ـ وروى البخاري عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة».
بحبيبتيه: أي بعينيه.

٤ ـ وروى البخاري ومسلم عن عطاء بن أبي رباح، قال: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت بلى. قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله تعالى لي. قال: «إن شئت صبرت ولك الجنّة، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك» فقالت: أصبر. وقالت: إني أتكشّف، فادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها.

الصبر عند الصدمة الأولى:

ولـمّا كان مصير كلّ مصاب أن ينسى المصيبة بعد حين، ما لم يكن

ألمها جاثماً متجدداً كان حساب قيمة الصبر مقدّراً عند الصدمة الأولى، لا بعد أن يضمحلّ أثر المصيبة بمرور الزمن، وهذا ما بيّنه الرسول ﷺ.

روى البخاري ومسلم عن أنس قال: مر النبي ﷺ على امرأة تبكي عند قبر ـ وفي رواية لمسلم: تبكي على صبي لها ـ فقال: «اتقي الله واصبري» فقالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي ـ ولم تعرفه ـ فقيل لها: إنّه النبي ﷺ فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك. فقال: «إنّما الصبر عند الصدمة الأولى».

ـ ٥ ـ

خلق الصبر من الشروط التي تؤهل لمرتبة القيادة العامة والإمامة الدينية

أحقّ الناس بالتحلّي بخلق الصبر من يتصدّى للقيادة العامة، أو للإمامة الدينية، وذلك لكثرة ما يتعرّض له من أمور تتطلب منه صبراً، فإذا لم يصبر فشل وسقط عن مرتبة القيادة أو الإمامة.

هذه هي سنّة الاجتماع البشري، التي دلت عليها الملاحظة، والتجارب التاريخية، والنصوص الإسلامية، وهي كما تنطبق على الأفراد تنطبق على الجماعات والأمم، ومن النصوص التي دلت على ذلك ما يلي:

١ ـ يقول الله تعالى في سورة (السجدة ٣٢):

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

فدل هذا النصّ القرآني على أن الصبر قد أهّل أربابه لمرتبة الإمامة الدينية، إذ كانوا مهديين بهدى كتاب الله، ولذلك جعل الله منهم أئمة يهدون بأمره.

٢ ـ وفي سياق الكلام على قصة يوسف وإخوته قال الله تعالى في سورة (يوسف ١٢):

﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

فدلّ هذا النصّ على أن بلوغ يوسف عليه السلام إلى مرتبة القيادة العامّة، قد كان مكافأةً من الله له، على ما كان منه من تقوى وصبر، إذ أهّله خلق الصبر لبلوغ هذه المرتبة.

٣ ـ ويقول الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾.

فهؤلاء قوم كانوا مستضعفين مذلّين على أيدي فرعون وجنوده، فجاءتهم الهداية، فاستجابوا لربهم، وصبروا على أذى قومهم لهم ابتغاء مرضاة الله، فأنجاهم الله من عدوهم، ثمّ منحهم القيادة والسيادة، وأورثهم حكم البلاد التي بارك فيها، وقد ذكر الله السبب في منحهم هذا الإرث العظيم فقال: ﴿بما صبروا﴾.

ـ ٦ ـ
خلق الصبر من الأركان الأساسية التي يجب أن يتحقق بها الدعاة إلى الله

يجب أن يتحلّى الدعاة إلى الله وإلى كلّ حقّ وخير وفضيلة بخلق الصبر، فكل حامل لواء دعوة لا يتحلّى بخلق الصبر محكوم عليه بالفشل، ومحكوم عليه بعدم النجاح في تأدية رسالته، هذه سنّة ثابتة من السنن التي

يعرفها كلّ الدعاة الناجحين. ورب دعوة باطلة كتب لها النجاح بسرّ صبر أربابها، ورب دعوة حقّة لم يُكتب لها النجاح بسبب أنّ حملتها كان ينقصهم الصبر.

ولذلك كان الدعاة إلى الله من الأنبياء والمرسلين متحلّين بخلق الصبر في دعوتهم، وفي أداء رسالتهم، وتاريخهم في دعواتهم يثبت هذه الصفة لهم، وأمر الله لهم بالصبر يؤكد ذلك.

ولئن كان بعض الرسل أكثر صبراً وأكثر عزماً من بعض، فإنهم جميعاً قد تحلّوا بنسبة عالية من الصبر، وإن تفاوتوا فيما بينهم، فمنهم أولو العزم، ومنهم دون ذلك.

صبر نوح على قومه:

وقد ضرب نوح عليه السلام مثلاً فريداً في الصبر على قومه، إذ بلغ من صبره في دعوته لأجيال قومه أنه لبث يدعوهم إلى الله ألف سنة إلّا خمسين عاماً، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

وجاء في القرآن تفصيل لواقع صبره في دعوته لقومه، ويحكي الله دعاءه لربه فيقول تعالى في سورة (نوح ٧١):

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾.

صبر إبراهيم:

وضرب إبراهيم عليه السلام مثالاً رائعاً في الصبر، إذ تعرّض من أجل دعوته لربّه للقذف في النار العظيمة، فصبر، ولم يضطرب، ولم يجزع،

ولم يشكُ، وأنجاه الله بآية كبرى؛ فقال الله للنار: ﴿كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ فكانت برداً وسلاماً عليه، ثم هاجر من بلاده التي يسيطر عليها النمروذ، وقال: «إني ذاهب إلى ربّي سيهدين».

صبر سائر المرسلين:

وضرب موسى وعيسى وكثير من المرسلين أمثلة رائعة في الصبر، فلم يهنوا، ولم يضعفوا، ولم يقصّروا فيما أمرهم الله به من التبليغ.

وضرب سيدنا محمد ﷺ أروع أمثلة الصبر في دعوته قومه إلى سبيل ربه.

وضرب سائر أنبياء الله ورسله ومعهم ربّيّون كثيرون أمثلة عالية في الصبر، حتى يونس عليه السلام، فإنه قد صبر في دعوته لقومه، إلّا أنه استعجل قليلاً، فلم يعتصم بما كان ينبغي له من الصبر، فترك قومه مغاضباً لهم، إذ ظنّ أنّ الله لا يضيّق عليه في ذلك، ومن أجل ذلك آخذه الله، فقضى عليه بأن يقذف في اليمّ، وأن يلتقمه الحوت وهو مُليم، ثمّ أنجاه الله فنبذه بالعراء وهو سقيم، وأنبت عليه شجرة من يقطين. ولـمّا شفاه الله أَمَره بأن يرجع إلى قومه، وأخبره بأنهم قد اتعظوا بنذُر العذاب، وأصبحوا مؤمنين.

تكليف الدعاة بالصبر:

١ ـ أمر الله محمداً ﷺ بأن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، حتى يؤدّي واجب التبليغ والهداية إلى سبيل الله أحسن أداء، فقال له في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ففي هذه الآية يعظ الله رسوله محمداً ﷺ بأن يصبر في دعوته إلى سبيل ربه، كما صبر أولو العزم من الرسل الذين سبقوه، صلوات الله عليهم أجمعين.

ولا تستعجل لهم: أي ولا تستعجل من ربّك معاقبة الذين كذبوك وآذوك من قومك، فإنّ طبيعة دعوة الأمم إلى سبيل الهدى تستوجب التحلي بخلق

الصبر، إذ ليس من السهل أن تستجيب الأمم للدّعوات التي تخالف أوضاعها، وتقاليدها، ومفاهيمها، قبل مرور فترة زمنية كافية لإحداث التغييرات المطلوبة. إنّ التغيير لأوضاع الأمم وتقاليدها، وعقائدها ومفاهيمها، لا بدّ أن يسبقه علاج واسع النطاق تتخذ فيه مختلف الوسائل التربوية الحكيمة، الإقناعية والتجريبية والإلزامية، مع ما يرافقها من ترغيب وترهيب، وهذا يحتاج إلى فترة زمنية كافية لبناء الشعوب بناءً جديداً، وتغيير أوضاعها الموروثة. فاستعجال النتائج، أو استعجال العقاب للأمم، خروجٌ عن سنّة الحياة، ومعارضة لأحد القوانين الجماعية الثابتة. ولذلك كان الدعاة إلى الله مأمورين بالصبر، مهما نالهم من أقوامهم من أذىً ونُكر، ومتى انتهت الفترة الكافية للإصلاح دون أن تستجيب الأمم لدعاتها الربانيين يأتي النصر الإلهي لأولياء الله على أولياء الشيطان، والله يمهل مهما اقتضت الحكمة الإمهال، حتى إذا غدا الإمهال أمراً غير ذي فائدة ترجى فإن الله تبارك وتعالى لا يمهل، بل يأخذ بالعقاب العادل، ويؤدب على البغي والطغيان والفساد في الأرض. هذا ما أشار إليه قول الله تعالى: ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلّا ساعة من نهار﴾ وهذا الذي يرونه في الدنيا إنما هو الهلاك، ويدلّ عليه البلاغ الذي جاء في آخر النص: ﴿بلاغ: فهل يُهلَك إلا القوم الفاسقون﴾.

ومن البديع في هذا النصّ أنّه تضمّن بيان سبب إهلاك الله للأمم، مع الحصر الدّال على أنه ليس للإهلاك سبب غير الفسق الذي ينتشر فيها، ويلازمها حتى يكون أحد صفاتها الثابتة. وقد أُعلنت هذه السنة من سنن الله في الأمم على صيغة بلاغ.

أي: لا يُهلك إهلاكاً عامّاً غيرهم.

٢ ــ ويوجّه الله الدعاة للتحلّي بفضيلة خلق الصبر، فيقول لرسوله محمد ﷺ في سورة (النحل ١٦):

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ

﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

ففي هذا النص يأمر الله رسوله بأن يصبر في مجال دعوته إلى سبيل ربه فيقول له: ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله، ولا تحزن عليهم، ولا تك في ضيقٍ مما يمكرون﴾.

ويُلحق بالرسول كل داعٍ إلى الله.

ويظهر من هذا النص أن موقف الرسول مع قومه يتلخص بأمور أربعة، ولكل منها توجيه خاص به أرشد إليه النص:

الأمر الأول: هو وظيفة الرسول الأولى بالنسبة إلى قومه، وهي الدعوة إلى سبيل ربه.

والتوجيه الرباني حول هذه الوظيفة يتلخص بأن تكون الدعوة مقترنة بالحكمة وبالموعظة الحسنة في كل أحوالها.

ثم إذا اقتضى الحال شيئاً من الجدال فالتوجيه عندئذ يطالب بأن يكون الجدال بالتي هي أحسن.

هذا ما دل عليه قول الله تعالى في النص: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾.

الأمر الثاني: هو ما يتعرض له الرسول من أذى قومه له.

والتوجيه الرباني حول هذا الأمر يتلخص بخطتين:

إحداهما تدخل في باب العدل، والأخرى تدخل في باب الإحسان.

وخطّة العدل تسمح بالمعاقبة بالمثل، وقد دل عليها في النص قول الله تعالى: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ إلاّ أن الله تبارك وتعالى يحث في مجال الدعوة على اتخاذ خطة الإحسان.

وخطة الإحسان تقضي بالاعتصام بالصبر، ومع الصبر قد يكون العفو عن السيئة، ودل على خطة الإحسان قول الله تعالى في النص: ﴿ولئن صبرتم لهو خير للصابرين، واصبر وما صبرك إلا الله﴾.

وفي هذا إرشاد إلى أن اكتساب فضيلة الصبر على الأذى إنما يكون بالاستعانة بالله ومراقبة ما أعد الله من أجرٍ للصابرين.

الأمر الثالث: هو حالة الرسول النفسية تجاه عدم استجابة القوم لدعوته.

وقد استدعت هذه الحالة توجيهاً ربانياً خاصاً له بأن لا يحزن على من أصر على عناده وكفره، بعد معالجته بوسائل الدعوة المختلفة، وقد جاء هذا التوجيه في قول الله تعالى في النص: ﴿ولا تحزن عليهم﴾.

الأمر الرابع: هو حالة الرسول العامة تجاه أنواع المكر التي يدبرها المعاندون المكذبون، ضد الرسول ودعوته.

وقد استدعت هذه الحالة توجيهاً خاصاً أيضاً للرسول بأن لا يكون في ضيق مما يمكرون، فإن الله ناصره ومفسدٌ خطط مكر أعدائه، وقد جاء هذا التوجيه في قول الله تعالى في النص: ﴿ولا تكُ في ضيق مما يمكرون، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾.

وما خوطب به الرسول في ذلك كله يعتبر خطاباً لكل الدعاة إلى الله، والمفروض في كل مسلم أن يكون داعياً إلى الله على مقداره.

ليس من شأن الدعاة إلى الله اليأس والقنوط:

لما كانت وظيفة الداعي إلى الله التبليغ، ولم تكن وظيفته تحويل الناس إلى الهداية ولا إكراههم عليها، ولما كانت الدعوة إلى الله في المجتمع الإنساني لا تعدم من يستجيب إليها مهما قل المستجيبون، كان من واجب الداعي أن لا ييأس ولا يقنط مهما وجد من الناس إعراضاً، ومهما قابلوه بالجحود والإنكار والرفض حتى الهزء والسخرية والاضطهاد والتعذيب. هذا إذا كانت دعوته دعوة صادقة مخلصة لله تعالى، يبتغي بها رضوان الله والدار الآخرة. أما إذا كانت

دعوته مشوبة بأغراض دنيوية ومصالح عاجلة فإن اليأس والقنوط سيستبدان بنفسه متى طال عليه الأمد دون أن يظفر بما يرجوه، ومع اليأس والقنوط قد ينهزم من ساحة الدعاة، وقد يتحول إلى طريق آخر يرجو منه ما ينشده من متاع الحياة الدنيا، وقد يستبصر فيصلح نيته ويجدد عزيمته، ويبدأ الدعوة إلى الله مخلصاً دون أن يطلب منها غير مرضاة الله والدار الآخرة ونعيمها.

وقد رأيت فريقاً من الذين تصدوا للدعوة إلى الله يشكون إعراض الناس عنهم، وعدم استجابتهم لهم، وعدم تقدير الناس لجهادهم ولما تعرضوا له من تعذيب على أيدي الظلمة من أعداء الله، وينحون باللائمة على جماهير المسلمين الذين لم يؤدوا لهم ثواب جهادهم ودعوتهم إلى الله، كأنهم كانوا يعملون للناس لا لله! ويريدون أن يستثمروا من الناس دعوتهم إلى الله.

ويقول قائلهم: لقد فسد الناس، وأمسى الإصلاح متعذراً، وأنه لا خلاص للعالم مما تردّى إليه إلّا بمعجزة تتولاها المقادير الربّانية بشكل مباشر، إمّا بتدمير أهل الشرّ والفساد، وإمّا بآيات خارقة ترد الناس إلى الله، وتخرجهم من الظلمات إلى النور.

وهذا من اليأس الذي لا يكون من صفات الدعاة المخلصين، الذين يدعون إلى الله على هدى وبصيرة، ويبتغون مرضاة الله وثواب الآخرة.

إنّ اليأس والقنوط من رحمة الله لا يستبدّان بقلب مؤمن بالله صادق اليقين، هذه عقيدة من عقائد الإيمان وثمرة نفسية من ثمراته القريبة، لذلك قال إبراهيم عليه السلام للرسل الملائكة الذين بشّروه بغلام حليم كما جاء في سورة (الحجر ١٥):

﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ؟! ﴿٥٦﴾ ﴾.

وقال يعقوب لبنيه كما جاء في سورة (يوسف ١٢):

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

وكان هذا في أمور دنيوية فكيف بالأمور التي تتعلق بالدعوة إلى الله، وهداية الخلق إلى الحقّ.

لقد بدأت الدعوة الإسلامية في عالم كلّه فساد وضلال، وجميع القوى المادّية فيه بأيدي أهل الشرّ والكفر، ثم انطلقت هذه الدعوة انطلاقاً إنسانياً محفوفاً بعناية الله وتوفيقه، وقد كانت أوّل الأمر غرسة واحدة طيبة مباركة، والعالم من حولها كلّه مخالف لها ومقاوم لدعوتها، ثمّ أخذت هذه الغرسة الطيبة تنمو نموّاً طبيعيّاً عجيباً، وصمدت للهزّات العنيفة، وصبرت على أنواع الأذى من أعدائها وخصومها، حتى شقّت طريقها الصاعدة بجهد جهيد وصبر مديد فاكتسحت وملكت ما كان في أيدي الشرّ من أرض ومالٍ وقوى مادّية، ثمّ دانت الأمم لها، واهتدت بهديها، وتمّ لها ما كانت تصبو إليه بالإيمان والعمل والصبر والأمل والثقة بالله والاعتماد عليه.

فكيف وعالمنا اليوم فيه بقايا كثيرة من الخير في كلّ موقع من الأرض، على رغم الشرّ المسيطر المالك لمعظم القوى المادّية؟ وفيه عناصر كثيرة قريبة من الحق، وفي الناس استعداد لتقبّل الحقّ بعد انهزام المذاهب الإنسانية في ميادين تجاربها لإسعاد البشرية!! فما على الذين يريدون القيام بواجب الدعوة إلى الله على هدى وبصيرة، إلاّ أن يعملوا بإخلاص وصبر، ويهتدوا في العمل بهدى رسول الله ﷺ، مع الأمل بنصر الله، والثقة بالله، والاعتماد عليه.

أما اليأس والقنوط فلا يستولي إلاّ على قلوب كافرة بوعد الله، والله قد وعد المؤمنين بالنصر، إذا هم حققوا في أنفسهم شروط استحقاقهم تأييد الله ونصره. أمّا إذا لم يحققوا في أنفسهم هذه الشروط فإنّ يأسهم من أنفسهم وليس يأساً من روح الله.

ولدى المراقبة الدقيقة للنتائج التي وصل إليها الدعاة إلى الله في عصرنا هذا، نجد أنها أكثر مما يستحقّون بكثير، إذا قسنا نِسَب الأعمال والإخلاص فيها، وما آتت من ثمرات مادّية ومعنوية، وإذا قسناها أيضاً بأعمال أهل الضلال والشرّ، وتضحياتهم التي يقدّمونها لنشر الفساد في الأرض، وما يبذلون

من مالٍ وجهد، وما يضعون من مخطّطات، وما يسخّرون من طاقات. فالله لا يضيع مثقال ذرّة من عمل، ولكلّ عامل نصيب من عمله، ضمن قوانين ثابتة لا تتخلّف، سواء أكان عمله في الخير أو كان عمله في الشرّ، إلّا أن هذه القوانين الثابتة تقضي بأنّ الأعمال في الخير يضاعف الله ثمراتها. أمّا الأعمال في الشرّ فتثمر على مقاديرها، وقد يبدّد بعضها بعضاً، ويفني بعضها بعضاً، عوناً لأهل الخير ومساعدة لهم إذا وُجد فيهم عاملون مخلصون.

ـ ٧ ـ

الحلم، من فروع خلق الصبر

ومن فروع خلق الصبر الحلم، إذ الحلْم هو الأناة والتثبت في الأمر، وما يلزم عن ذلك من ضبط للنفس عن الغضب، وكظم للغيظ، وعفوٍ عن السيئة.

والحليم هو ذو الأناة الذي لا يستفزّه الغضب إذا واجه ما يغضبه، ولا يتسرع بالعقوبة، بل يضبط نفسه، ويتريث، وبعد الأناة يتصرف على وفق مقتضيات الحكمة، وكلّ ذلك لا يكون إلّا بضبط النفس عن الاندفاع بعوامل الغضب، وهو وجه من وجوه الصبر.

ولـمّـا كان الحلم أحد فروع الصبر جاء في أسماء الله الحسنى اسم الله (الحليم) وقد ذكر العلماء أن معناه الصبور الذي لا يستخفه سبحانه عصيان العصاة ولا يستفزّه الغضب عليهم، ولكنّه جعل لكلّ شيء مقداراً فهو منتهٍ إليه. وذكروا أيضاً أن معناه الذي لا يعجل بالانتقام من عباده المجرمين، ليفسح لهم مجالات التوبة والندم، وليقيم الحجة عليهم بأنّهم لم يُصلحوا قلوبهم وأعمالهم بعد الحلم الطويل بهم. وهذه المعاني لا تخرج عن معاني الصبر، وفي وصف الله تعالى بأنه حليم قال عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ۝٥١﴾.

الصفات الخلقية المضادة لصفة الحلم:

أمّا الصفات الخلقية المضادة لصفة الحلم فأمرها ظاهر من تعريف خلق الحلم. وهي:

١ ــ العجلة الرعناء في تصريف الأمور، وفي القيام بالأعمال، وفي الحكم على الأشياء، واستعجال الأشياء قبل أوانها، والسرعة في العقاب دون إمهال تقتضيه الحكمة التربوية.

٢ ــ الطيش كلّما ثارت في النفس ثائرة، وكلّما تحرّك في النفس دافع من الدوافع لتحقيق مطلب من المطالب.

٣ ــ سرعة الغضب حينما يصطدم الإنسان بما يثير غضبه أو يخالف هواه.

وليس من الحلم التباطؤ والكسل، والتواني والإهمال، وتبلّد الطبع عند مثيرات الغضب، ونحو ذلك، بل هذه أمور مضادة أيضاً لخلق الحلم.

إنّ الحلم فضيلة تقع بين رذيلتين متباعدتين، في طرفين متقابلين، فمن وراء يمين الحلم يأتي التباطؤ والكسل، والتواني والإهمال، وتبلّد الطبع عند مثيرات الغضب، ونحو ذلك. ومن وراء يسار الحلم يأتي التسرّع في الأمور، واستعجال الأشياء قبل أوانها، والاستجابة السريعة لمثيرات الغضب، ونحو ذلك.

ولما كان الحلم هو الفضيلة الخلقية التي تأتي بالخير، وتدلّ على سلامة المزاج واعتداله، وعدم جنوحه ذات اليمين أو ذات الشمال، كان ما يتجاوزه يميناً أو شمالاً منافياً له، ونقصاناً خلقيّاً لا يأتي بالخير المطلوب، بل قد يأتي بالشرّ والضرّ أو الأذى.

فالذي جعل الحلم فضيلة خلقية هو اعتداله، ومسايرته لمقتضى العقل السليم، والآثار النافعة المفيدة الخيّرة التي تترتّب عليه.

وباستطاعتنا أن نصوّر الحلم بأنّه فضيلة خلقية نافعة، تقع في قمة عالية

دونها منحدرات. فهو أناة حكيمة بين التسرّع والإهمال أو التواني، وضبطٌ للنفس بين الغضب وبلادة الطبع، ورزانةٌ بين الطيش وجمود الإحساس، وهكذا.

وللحلم دائرة ذات حدود فما خرج عنها إلى غيرها أضرّ وأفسد، وخرج من دائرة الفضيلة.

وما قد يسمّى حلماً إذا أدّى إلى ما لا تحمدُ عقباه فهو ليس بحلم، وهو حينئذٍ ليس فضيلة خلقية، وتسميته حلماً خطأ في التقدير، بل هو في حقيقته تباطؤٌ أو إهمالٌ لا حلم.

هل للذكاء علاقة في اكتساب خلق الحلم؟

الذي تؤيده الملاحظة وتدعمه التجربة، أنّه لا يوجد ارتباط حتميّ بين الأخلاق عامّة ومنها خلق الحلم وبين مستويات الذكاء، لأننا نجد مختلف المتناقضات الخلقية في كلّ مستوى من مستويات الذكاء، فقد نجد الطيش وسرعة الغضب عند الأذكياء، بتأثير طباعهم الخلقية، وقد نجد الحلم عند متوسطي الذكاء ومن هم دون ذلك، بتأثير طباعهم الخلقية، وهكذا فقد نجد الحلم وضده، وقد نجد الشجاعة وضدّها، والجود وضدّه، والأمانة وضدّها، في كلّ مستويات الذكاء، وذلك كلّه يرجع إلى الطبع الفطري أو المكتسب.

لكن استجابة الأذكياء لاكتساب خلق الحلم وغيره من فضائل الأخلاق، أسرع من استجابة ضعاف الذكاء في كثير من الأحيان، مع تساوي نسبة الطبع الفطري، وذلك لأن الأذكياء أقدر على استيعاب فوائد الحلم أو غيره من فضائل الأخلاق، وإدراك المنافع التي تجنى منه.

واكتساب خلق الحلم شأنه كشأن اكتساب سائر الأخلاق، فهي جميعاً قابلة للاكتساب كما سبق في الباب الأول من هذا الكتاب، وقد جاء في الأثر بخصوص الحلم: «الحلمُ بالتحلّم، والعلم بالتعلّم» أي: إنّ التدرّب على الحلم والتكلّف له من الوسائل التي تنقل غير الحليم فتجعله حليماً بنسبة ما.

وممّا لا شكّ فيه أنّ للإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر دوراً كبيراً جداً مؤثراً وفعّالاً في اكتساب كل الفضائل الخلقية والسلوكية، وذلك لأن الإيمان العميق الصادق يولّد في الأنفس عاطفة قوية قادرة على مغالبة عواطف النفس الأخرى، ومقاومة طباعها وغرائزها، أو توجيهها لما فيه أفضل العواقب وأحسن النتائج، أو التغلّب عليها وإلجامها بلجام التقوى.

فالمؤمن الذي يعلم فضل الحلم عند الله، ويلاحظ الثواب العظيم الذي أعده الله للحلماء، لا بدّ أن يجد في نفسه اندفاعاً قويّاً لاكتساب فضيلة الحلم، ولو على سبيل التكلّف ومغالبة النفس، وبعد التدرّب خلال مدّة من الزمن قد تطول أو لا تطول فقد يصبح الحلم سجيّة خلقية مكتسبة، ولو لم يكن في الأصل طبعاً فطرياً.

بين الحلم والعقل:

ولكن يوجد ارتباط إيجابي قوي بين الحلم والعقل، وذلك لأن العقل السويّ هو الذي يعقل صاحبه عن الاندفاع وراء عواطفه وغرائزه، أو وراء انفعالاته وشهواته، أو وراء طبائعه الناريّة، أو وراء كل ما يميل به إلى الجنوح والانحراف.

فالعقل شيء والذكاء العلمي أو الذكاء العملي شيء آخر، وقد سبق بيان هذا في مبحث خاص.

توجيه الإسلام للتخلّق بخلق الحلم:

١ ــ من تمجيد الحلم وتعظيم أمره، وتمجيد الأناة التي هي من الحلْم أو قرينته، روى الإمام مسلم في صحيحه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ لأشج عبدِالقيس: «إنّ فيك خصلتين يحبهما الله: الحلمَ والأناة».

وكلام الرسول ﷺ في هذا من البيان التفصيلي لقول الله تعالى: ﴿والله يحب الصابرين﴾؛ لأن الحلم والأناة من فروع الصبر كما وضح لدينا.

٢ ــ وكان الرسول ﷺ حليماً، وقد أعطانا دروساً عملية وقولية في خلق الحلم، منها قصة الأعرابي الجاهل بحرمة المساجد، إذ بال في المسجد النبوي.

روى البخاري، عن أبي هريرة، قال: بال أعرابيٌّ في المسجد، فقام الناس إليه ليقعوا فيه، فقال النبي ﷺ: «دعوه، وأريقوا على بوله سَجْلاً من ماء، فإنّما بُعثتم ميسّرين، ولم تبعثوا معسّرين».

السّجْل: هو الدلو المملوء ماءً.

فقد علم الرسول ﷺ في هذا أصحابه كيف يكون الحلم بالجاهلين، وكيف يكون الرفق بهم، وكيف يجب أن يكون الدعاة إلى الله والحقّ والخير والفضيلة ميسّرين لا معسّرين.

وروى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَهْ، مَهْ، فقال رسول الله ﷺ: «لا تُزرموه، دعوه» قال أنس: فتركوه حتى بال، ثمّ إنّ رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول والقذر، إنما هي لذكر الله، والصلاة، وقراءة القرآن» أو كما قال رسول الله ﷺ.

قال أنس: وأمر رجلاً من القوم فجاء بدلوٍ من ماءٍ فَسَنّهُ عليه.

لا تُزْرِمُوه: أي لا تقطعوا عليه بوله.

فسَنّهُ عليه: أي فصبّه على المكان الذي بال الأعرابي فيه، لتطهير المكان من النجاسة.

في هذه الرواية عن أنس زيادة رائعة، تبين حكمة الرسول التربوية لهذا الأعرابي الجاهل بآداب المساجد، وهي تدلُّ على حلم الرسول ﷺ وعلى رفقه وحسن سياسته، وهذا الخلق العظيم هو الخلق الذي ملك به قلوب أصحابه، وفرض به احترامه على أعدائه.

٣ ــ ومن حلم الرسول ﷺ عدم دعائه على الذين آذوه من قومه، وقد كان باستطاعته أن يدعو عليهم فيهلكهم الله، ولحلمه بهم غاية يهدف إليها، فهو يرحمهم لعلهم بعد مدّة يؤمنون فينجون من عذاب النار، فيحلُم بهم رجاء إصلاحهم.

روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء صلوات الله عليهم، ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدّم عن وجهه ويقول: «اللّهم اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون».

وروى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أنّها قالت للنبيّ ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشدّ من أحد؟. قال: «لقد لقيتُ من قومك، وكان أشدّ ما لقيته منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليلَ بن كُلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلاّ وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، وإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني فقال: إنّ الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلّم عليّ ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملَكُ الجبال، وقد بعثني ربّي إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت، إن شئْتَ أطبقتُ عليهم الأخشبين (أي: الجبلين المحيطين بمكة) فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً».

وهكذا كان حلم الرسول ﷺ حلماً عظيماً، في أقسى حالات الشدة التي واجهها من قِبل قومه.

وسيأتي مزيد من الأمثلَة على حلم الرسول صلوات الله عليه.

٤ ـ وكما رغّب الإسلام بالحلم وحثّ عليه ومجّده حذّر من الأخلاق المنافية له، وعمل على تربية المسلمين تربية عمليّة تأخذ بأيديهم حتى يكونوا حلماء.

الغضب:

فمن التحذيرات النبوية من الغضب، أي: من الاستجابة لدوافع الغضب، والغضب منافٍ للحلم، ما رواه البخاري عن أبي هريرة، أنّ رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «لا تغضب»، فردد ذلك مراراً، فقال: «لا تغضب».

إن الرسول ﷺ طبيب حكيم، والطبيب الحكيم هو الذي يتبصر بواقع حال مريضه، فيصف له العلاج المناسب لحالته المرضية، والظاهر أن هذا الرجل الذي طلب من الرسول أن يوصيه كان الغضب أقوى أمراضه الخلقية، ومن أجل ذلك اقتصر الرسول ﷺ على قوله له: «لا تغضب».

ومن الحقّ أنّ ضبط النفس عن الاندفاع بعوامل الغضب بطولة لا يستطيعها إلا الأشداء أقوياء الإرادة، والمؤمنون أقوياء الإيمان، فليس من السهل إذا غضب الإنسان أن يضبط نفسه ويكف غضبه، وليس من السهل إذا اغتاظ الإنسان أن يضبط نفسه ويكظم غيظه، ويكف عن الانتقام ممّن أغضبه أو غاظه.

ولذلك جعل الرسول ﷺ البطولة في الناس ضبط النفس عن الاندفاع بعوامل الغضب، وعرّف الصُّرعة من الرجال وهو بطل المصارعة، بأنه الذي يملك نفسه عند الغضب.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الشديد بالصُّرَعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».

وروى مسلم عن عبدالله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «ما تعدّون الصُّرَعة فيكم؟». فقالوا: الذي لا تصرعه الرجال، فقال الرسول ﷺ: «ولكنّه الذي يملك نفسه عند الغضب».

العرب يطلقون على بطل المصارعة الذي يصارع الناس فيغلبهم كلمة (صرعة) ويُكَبّرون أمره ويعظمون شأنه، فاستغل الرسول ﷺ إعجاب الناس بالرجل الصُّرعة وتقديرهم له، ثمّ حوّلهم عنه إلى البطل الحقيقي وهو الذي يملك نفسه عند الغضب، وذلك لأن ملك النفس عند الغضب بطولة إنسانية فعلاً، تعتمد على العقل وقوة الإرادة، أما بطولة المصارعة فهي امتياز جسدي يعتمد على قوة العضلات والتدريب الجسدي.

ولـمّا كانت طباع الناس تتفاوت في هذا المجال، أعطى الرسول

صلوات الله عليه تقسيماً بديعاً لها، فجعل القسمة رباعية، فقسّم الناس إلى أقسام أربعة:

الأول: بطيء الغضب سريع الفيء، أي: سريع الرجوع إلى حالة الهدوء واعتدال المزاج، وهذا خير الأقسام.

الثاني: سريع الغضب سريع الفيء، وسرعة الغضب خُلُق مذموم، إلا أن سرعة الفيء فضيلة محمودة، فهذه بهذه.

الثالث: بطيء الغضب بطيء الفيء، أمّا بطء الغضب فخلق محمود يدل على الحلم، لكن بطء الفيء خلق مذموم يدل على الحقد وعدم التسامح، فهذه بهذه، ويظهر أن هذا القسم معادل للقسم الثاني.

الرابع: سريع الغضب بطيء الفيء، وهذا شرّ الأقسام، لأنه جمع الداءين معاً، وما اجتمع الداءان إلّا ليقتُلا، فسرعة الغضب خلُق مذموم، وبطء الفيء خلُق مذموم، ويا بُـؤس من تلجئه الضرورة إلى معاشرة هذا القسم من الناس.

هذا التقسيم نجده في حديث رواه الترمذي، أنّ النبـي ﷺ خطب في الناس عصر يومٍ من الأيام، فكان ممّا قاله لهم:

«إن بني آدم خُلقوا على طبقات شتّى، ألا وإن منهم البطيء الغضب سريع الفيء، والسريع الغضب سريع الفيء، والبطيء الغضب بطيء الفيء، فتلك بتلك، ألا وإن منهم بطيء الفيء سريع الغضب. ألا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفيء، وشرّهم سريع الغضب بطيء الفيء. ألا وإن منهم حسن القضاء حسن الطلب، ومنهم سيّء القضاء حسن الطلب، ومنهم سيّء الطلب حسن القضاء، فتلك بتلك. ألا وإنّ منهم سيّء القضاء سيّء الطلب. ألا وخيرهم الحسن القضاء الحسن الطلب، وشرّهم سيّء القضاء سيّء الطلب. ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى حُمرة عينيه وانتفاخ أوداجه؟ فمن أحسّ بشيءٍ من ذلك فليلتصق بالأرض».

نلاحظ في هذا الحديث لوناً من ألوان العلاج لثورة الغضب، وصفه الرسول ﷺ ألا وهو اللصوق بالأرض، والغرض منه تجميد كـلّ حركة يمكن أن ينجم عنها آثارٌ غضبية ماديّة.

وفي حديث آخر أوصى الرسول ﷺ بالوضوء علاجاً لثورة الغضب، والغرض منه تبريد حرارة الغضب، والانشغال بأمر من أمور العبادة يصرف النفس عن توترها الغضبـي، وانفعالها الناري.

روى أبو داود عن عطيّـة بن عروة السعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغضب من الشيطان، وإنّ الشيطان خلق من نار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ».

ويوجد علاج نبوي ثالث لحالة الغضب، وهو الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

روى البخاري ومسلم عن سليمان بن صُرَدٍ قال: كنت جالساً مع النبـي ﷺ ورجلان يستبّـان، وأحدهما قد احمـرّ وجهه وانتفخت أوداجه، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد» فقالوا له: إن النبـي ﷺ قال: تعـوّذ بالله من الشيطان الرجيم.

ويوجد علاج نبوي رابع لحالة الغضب، وهو علاج قائم على الترغيب بالأجر العظيم للذين يكظمون غيظهم ابتغاء مرضاة الله تعالى.

روى أبو داود والترمذي بإسناد حسن عن معاذ بن أنس، أن النبـي ﷺ قال: «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله سبحانه على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيّـره من الحور العين ما شاء».

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما تجـرّع عبد أفضل عند الله عز وجلّ من جرعة غيظٍ يكظمها ابتغاء وجه الله تعالى».

وهذا العلاج هو العلاج القرآني، وقد جاء في قول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾.

ومن المفاهيم النبوية الربط بين الظواهر الخلقية وبين الإيمان، للدلالة على أن الإيمان الصحيح الصادق يدفع إلى مكارم الأخلاق، كما أن استجابة الإنسان لدوافع الرذائل الخلقية، وانسياقه معها، يؤثر على الإيمان تأثيراً سيئاً.

روى البيهقي في شعب الإيمان عن بهز بن حكيم، عن أبيه عن جدّه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغضب ليفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل».

من روائع الأمثلة في الحلم:

١ ـ بلغ إبراهيم عليه السلام من الحلم مبلغاً عجيباً، حتى وصفه الله بقوله: ﴿إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾.

من ذلك أنه لـمّـا أراد الله إهلاك قوم لوط عليه السلام، إذ بلغوا من العناد والإصرار على الكفر والفسوق والعصيان مبلغاً عظيماً، استحقوا به إنزال العقاب العام بهم، وأصبح استصلاحهم عملاً غير مجدٍ فيهم، أرسل الله إليهم ملائكة العذاب، فمرّوا بأمر الله على إبراهيم عليه السلام، قبل أن يذهبوا إلى قوم لوطٍ ابن أخيه. ولكنهم دخلوا على إبراهيم وهم متشكّلون بأشكال الناس، فظنّهم ضيوفاً من الناس، فأسرع وقدّم لهم القرى عجلاً مشوياً، غير أنهم ملائكة لا يأكلون. فلما رأى أيديهم لا تمتدّ إلى الطعام خاف منهم، وظنهم أعداءً يريدون به كيداً.

لـمّا رأوه خاف منهم كشفوا عن حقيقتهم، وقالوا له: إنا ملائكة أرسلنا الله لإهلاك قوم لوط، ولنبشرك وامرأتك بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب،

فلما اطمأن إبراهيم وعلم مهمّة هؤلاء الرسل من الملائكة، وجاءته البشرى، أخذ يجادل في قوم لوط، ويرجو عدم تنفيذ إهلاكهم؛ طمعاً في أن يصلح حالهم بالصبر، ويدعو الله في ذلك.

فقال الله له: يا إبراهيم أعرض عن هذا، إنه قد جاء أمر ربك، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود، وأثنى الله على إبراهيم بأنه حليم، في معرض ذكر هذه القصة في القرآن الكريم.

قال الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن
جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ
قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ
وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ
هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ
ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ
لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ
وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) ﴾.

وامرأته قائمة فضحكت: ذكر بعض المفسرين أن معنى ضحكت هنا حاضت. وأنكر طائفة من اللغويين وجود هذا المعنى لغة لهذه المادة، ورأوا أن امرأة إبراهيم قد ضحكت فعلاً، وفق المعنى المعروف لهذه المادة، وإنما ضحكت تعبيراً عن مسرّتها الزائدة، إذ علمت أن الضيوف رسل من عند الله، وأنهم ملائكة، فانجلت بذلك سحابة الخوف التي أصابت إبراهيم وأصابتها معه، حينما شهدا أن ضيوفهما لا يأكلون من قراهما.

فيكون المعنى: قالوا: لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط، وامرأة إبراهيم

قائمة من أجل خدْمة الضيوف، واجمة من الحذر لأنهم لا يأكلون، فلما علمت حالهم ضحكت سروراً بانجلاء سحابة الخوف.

أ واه: أصل الأ واه في اللغـة كثير الحزن، وكثير الدعاء بالخير، والرحيم العطوف رقيق القلب، والمسبّح كثير الثناء على الله. وكلّ هذه المعاني لكلمة أ واه تنطبق على إبراهيم عليه السلام.

منيب: أصل الإنابة الرجوع إلى الله بالتوبة، والرجوع إلى طاعته وأمره وحكمه، فالمنيب هو الذي يرجع إلى طاعة الله ويتوب إليه ويعود إلى التزام أمره. وقد جاء وصف إبراهيم عليه السلام بأنه منيب مناسباً لحالته بعد مجادلته في قوم لوط. وجاء وصفه بالحلم تعليلاً لهذه المجادلة، وجاء وصفه بأنه أ واه مناسباً للأمرين معاً.

٢ ـ ومن الأمثلة العظيمة لخلق الحلم، حلـم هود عليه السلام على قومه، فلقد قابل شتائم قومه له وجهلهم عليه، بحلم عظيم، وصبر جسيم، وصدر واسع.

شتموه بأنه ناقص العقل سفيه، وبأنه من الكاذبين، فقابلهم بنفي صفة السفاهة عنه، وأكد لهم أنه صادق في رسالته غير كاذب، وفي بيان ذلك يقول الله في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾.

٣ ـ ومن الأمثلة العظيمة لخلق الحلم، حلـم نوح عليه السلام، فلقد واجهه قومه بالشتيمة، فرد عليهم بالحلم، وفي بيان ذلك يقول الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ
أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ
مُّبِينٖ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾
أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

والفرق بين نوح وهود، أن جميع الملأ من قوم نوح وهم الكبراء وذوو الوجاهة والمكانة الذين يملأون عيون الناس، قد كانوا كافرين به، وقالوا له: إنا لنراك في ضلال مبين، ولذلك قال الله في حكاية قصته: ﴿قال الملأ من قومه﴾.

أما هود عليه السلام فبعض الملأ من قومه قد آمنوا به وبعضهم كفروا به، والذين كفروا منهم هم الذين قالوا له: إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين، ولذلك قال الله تعالى في حكاية قصته: ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾.

٤ ــ ومن الأمثلة العظيمة لخلق الحلم، حلم سيدنا ونبينا محمد صلوات الله وسلاماته عليه.

فمن حلمه ما رواه البخاري ومسلم عن جابر بن عبدالله، أنه غزا مع النبي ﷺ قبل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في واد كثير العِضَاه[١] قال جابر: فنزل رسول الله ﷺ وتفرّق الناس يستظلّون بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت سمُرة، فعلق بها سيفه ونمنا نومة، فإذا رسول الله يدعونا، وإذا عنده أعرابي فقال: «إن هذا اخترط علي سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتاً[٢] قال: من يمنعك مني؟ قلت: الله. الله. الله».

قال جابر: ولم يعاقبه وجلس.

---

(١) القائلة: وقت القيلولة عند شدة الحرّ في وسط النهار. والعضاه: هي الأشجار ذات الشوك.

(٢) صلتاً: أي مسلولاً.

ولهذه القصة تتمة عند غير البخاري ومسلم من المحدثين رواها أبو بكر الإسماعيلي في صحيحه، وهي أنه لـمّـا قال الأعرابـي للرسول ﷺ: من يمنعك مني؟ وقال الرسول له: الله. الله. الله، سقط السيف من يد الأعرابـي، فأخذ رسول الله السيف، فقال للأعرابـي: من يمنعك مني؟ قال: كن خير آخذ، فقال له الرسول: «تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؟» قال: لا، ولكني أعاهدك على أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قومٍ يقاتلونك، فخلى سبيله، فأتى الرجل أصحابه، فقال: جئتكم من عند خير الناس.

ومن حلمه صلوات الله عليه قصته مع الأعرابـي الذي جاءه يطلب منه عطاءً.

روي أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ يطلب منه عطـاءً، فأعطاه الرسول، ثم قال له: «أحسنتُ إليك؟» قال الأعرابـي: لا، ولا أجملت. فغضب المسلمون وقاموا إليه، وقد هموا أن يؤدبوه بالعنف، فأشار إليهم الرسول أن كفوا، ثم قام ودخل منزله، فأرسل إليه وزاده شيئاً، ثم قال له: «أحسنتُ إليك؟» قال: نعم، فجزاك الله من أهلٍ وعشيرة خيراً، فقال له النبـي ﷺ: «إنك قلت ما قلت آنفاً، وفي نفس أصحابـي من ذلك شيء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي، حتى يذهب ما في صدورهم عنك» قال: نعم.

فلما كان الغد جاء، فقال النبـي ﷺ: «إن هذا الأعرابـي قال ما قال فزدناه، فزعم أنه رضي، أكذلك؟» قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

فقال الرسول ﷺ: «مثلي ومثل هذا كمثل رجلٍ له ناقة شردت عليه، فاتبعها النا س، فلم يزيدوها إلا نفوراً، فناداهم صاحبها، فقال لهم: خلوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه لها بين يديها، فأخذ من قمام الأرض، فردها، حتى جاءت واستناخت، وشد عليها رحلها، واستوى عليها، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار».

صلوات الله عليك يا سيدي يا رسول الله ما أحلمك! وما أحكمك!

ومن حلمه صلوات الله عليه حلمه على من اتهمه بعدم العدل في قسمته الغنائم يوم حنين.

روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال: لما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناساً في القسمة: فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة بن حصنٍ مثل ذلك، وأعطى ناساً من أشراف العرب، وآثرهم يومئذٍ في القسمة، فقال رجلٌ: والله إن هذه قسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله.

فقلت: والله لأخبرن رسول الله ﷺ، فأتيته فأخبرته بما قال، فتغير وجهه حتى كان كالصِّرف[1]، ثم قال: «فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله» ثم قال: «يرحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر» فقلت: لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثاً.

— ٨ —

الرفق، من فروع خلق الصبر

وقد يكون من فروع خلق الصبر الرفق، لأن الرفق في الأمور، والرفق في معاملة الناس، لا يكون إلا بضبط النفس عن الاندفاع بعوامل حبّ العنف والقسوة، وهذا وجه من وجوه الصبر.

وقد يشارك خلق الرحمة خلق الصبر في ظاهرة الرفق، فمن يشعر نحو غيره بشعور الرحمة يكون في معاملته رفيقاً لا عنيفاً، إذ يدفعه إلى الرفق به رحمته به.

وقد ينفرد كلٌّ من خلق الرحمة وخلق الصبر في ظاهرة الرفق، وكثير من ظواهر السلوك الخلقي قد ترجع إلى أكثر من أساس من الأسس الأخلاقية العامة، فتكون إحداها ظاهرة لها مجتمعة أو منفردة.

---

(١) الصِّرف: صبغ أحمر.

والرفق هو ظاهرة خلقية يضادها العنف، وهو من ظواهر خلق الصبر، أو من ظواهر خلق الرحمة، أو من ظواهرهما معاً.

وقد أوصى الإسلام بالرفق وحث عليه، واعتبر المحروم منه محروماً من خير كثير، وذلك لأن الرفق في الأمور من شأنه أن يصلح ويعطي أفضل النتائج وأجود الثمرات، بخلاف العنف فمن شأنه أن يفسد ويعطي نتائج سيئة. إن العنف في معالجة الآلة يكسرها، وفي مقارعة الخطوب يحطم الطاقات ويدمر القوى، ويحرم من الظفر بالنتائج المطلوبة. أما الرفق بالأحياء فهو رحمة توجبها الفضيلة الإنسانية، وتدعو إليها المشاركة الوجدانية الكريمة. فإذا كانت الأحياء من ذوات الإرادة المدركة فإن الرفق بها من شأنه أن يصلح نفوسها ويؤثر فيها أثراً حسناً، ويستعطفها إلى المطلوب منها أفضل استعطاف، ومن شأنه أن يلين عريكتها وإن كانت صلبة جافة قاسية، بخلاف معاملتها بالعنف، فإنه يولد لديها صلابة التحدي والعناد، وعدم الاستجابة للمطلوب منها، وإن كان حقاً وخيراً، وإن كانت لينة العريكة في فطرتها.

والعنف في معاملة الناس يورث العداوات والأحقاد ورغبات الانتقام، متى سنحت الفرصة لتنفيذه.

أما الرفق في معاملة الناس، فهو يؤلف قلوبهم، ويمتلك موداتهم، ويطوعهم، لا سيما رفق الراعي برعيته في إدارة شؤونهم، وتسيير أمورهم، وفرض الطاعة عليهم.

ومن أجل ذلك أمر الرسول ﷺ بالرفق، وحذر من العنف، وخص الرعاة بتوجيه خاص، فحذرهم من العنف برعاياهم ومن التشديد عليهم.

أحاديث نبوية في الرفق:

١ ــ روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه».

وفي رواية: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله».

٢ ــ وروى مسلم عن عائشة أيضاً، أن رسول الله ﷺ قال لها: «عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحش، فإن الرفق لا يكون في شيءٍ إلا زانه، ولا ينزع من شيءٍ إلا شأنه».

٣ ــ وروى مسلم عن جرير بن عبدالله البجلي؛ أن النبي ﷺ قال: «من يحرم الرفق يحرم الخير كله».

أي: يحرم خير العمل الذي استخدم فيه العنف، وانعدم فيه الرفق، وذلك لأن أسلوب العنف أسلوب لا يأتي بخير.

٤ ــ وروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشقَّ عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به».

وتشديد الرسول ﷺ في هذا يدل على أن حاجة الرعاة إلى الرفق أعظم من حاجة غيرهم إليه، فهو عنصر من عناصر القيادة الناجحة، التي يرتقب لها الاستمرار والقبض على أزمة قلوب الأفراد.

وليس المراد من الرفق اللين في المواقف التي تتطلب الشدة، ولكنه حسن السياسة بوجه عام، ما لم تدع الضرورة إلى شيء من العنف والشدة.

٥ ــ وروى الترمذي بإسناد حسن عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

«ألا أخبركم بمن يحرَّم على النار أو بمن تحرَّم عليه النار؟ تحرَّم على كل قريب هين لينٍ سهْل».

٦ ــ وروى البخاري ومسلم عن أنس أن النبي ﷺ قال:

«يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا».

ومعلوم أن التيسير من الرفق بالناس.

٧ ــ وروى البخاري عن أبـي هريرة قال: بال أعرابـيٌّ في المسجد فقام إليه الناس ليقعوا فيه، فقال النبـي ﷺ:

«دعوه، وأريقوا على بوله سجْلاً من ماء أو ذنوباً من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين».

سجلاً أو ذنوباً: أي دلواً مملوءةً ماءً.

فدلت هذه النصوص على أن الرفق في الأمور والرفق بالناس واللين والتيسير من جواهر عقود الأخلاق الإسلامية، وأنها من صفات الكمال، وأن الله تعالى من صفاته أنه رفيق، وأنه يحب من عباده الرفق، فهو يوصيهم به ويرغبهم فيه، ويعدهم عليه عطاءً لا يعطيه على شيءٍ آخر.

ويفهم من النصوص أن العنف شين خلقي، وأنه ظاهرة قبيحة، وأن الله لا يحبه من عباده، فالرفق لا يكون في شيء إلا زانه، أي حسَّنه وجمله، ولا ينزع من شيء إلا شانه، أي قبَّحه.

أما قول الرسول ﷺ «من يحرم الرفق يحرم الخير كله»: فهو على سبيل المبالغة، أو أن بعض أحوال العنف تحرم الإنسان من الخير كله، كأن يدفع العنف صاحبه إلى التمرد على الله والكفر به، وعندئذٍ يحرم حتماً من الخير كله، لأن الخير حقاً هو خير الآخرة، ومن حرم خير الآخرة فقد حرم الخير كله، أو أن العنف في أي أمر من الأمور يفضي إلى الحرمان من الخير كله في ذلك الأمر، لأن العنف يفسده، ومتى فسد الأمر لم ينتج خيراً، ولعل هذا الأخير هو المراد والله أعلم.

وأبان الرسول ﷺ أن القريب الهين اللين السهل يحـرَّم على النـار، والسبب في ذلك أنه لين لدعـوة الإيمان، رفيق القلب رفيق النفس رفيق السلوك، سهل الانقياد إلى الخير، لين لا يتشدد في تعامله مع الناس، ولا يقسو عليهم، ليس في خلقه وعـورة بل هو سهل، فالله يكافئه على كل ذلك بالرفق، فيعفو عنه ويصفح ويجازيه من جنس عمله الجزاء الأوفى.

رفق الدعاة والمعلمين:

وأولى الناس بالتخلق بخلق الرفق الدعاة إلى الله والمعلمون، فالدعوة إلى الله لا تؤثر ما لم تقترن بخلق الرفق في دعوة الخلق إلى الحق، وتعليم الناس لا يؤتي ثمراته الطيبات ما لم يقترن لخلق الرفق الذي يملك القلوب بالمحبة.

أما العنف فمن شأنه التنفير من الداعي الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، والتنفير من المعلم. إن من توجه له الدعوة إلى الخير، أو يراد تعليمه، متى وجد العنف والشدة انكمشت عاطفته فانغلق قلبه، ومتى انغلق قلبه انغلق فكره، وعندئذ يصير كصخرة صماء، ترجع ولا تمتص، أو كلوحة من ماء تلين للكاتب ولكن لا تحفظ ما يكتب، أو كمرآة تحكي الصورة ما دام الأصل قائماً، فإذا سار الأصل سارت الصورة معه ولم تحتفظ المرآة بها.

بخلاف الداعي أو المعلم الرفيق الحليم ذي الأناة، فإنه يملك القلوب بالمحبة، وعندئذٍ تتفتح له القلوب التي أحبته، ومتى انفتحت إليه القلوب انفتحت إليه الأفكار، وتأثرت به وتفاعلت معه، وآتت دعوته وأعماله ثمراتها طيبة يانعة.

رفق الولاة والحكام وأضداد ذلك:

ومن الواجب على الولاة والحكام أن يرفقوا بالرعية، ولا يشقوا عليهم، فالرفق بهم حكمة رفيعة في السياسة، والعنف يورث الكراهية والتذمر والضجر والخروج عن الطاعة، وفساد أمر الجماعة.

لذلك دعا الرسول ﷺ فقال: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به».

ودعاء الرسول هذا مستجاب، وهو تأكيد لسنة الله في عباده القاضية بأن الجزاء من جنس العمل.

وروى البخاري ومسلم عن عائذ بن عمرو، أنه دخل على عبيدالله بن زياد، فقال: أي بني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن شر الرِّعاء الْحُطَمة».

فإياك أن تكون منهم.

الرِّعاء: جمع الراعي. الْحُطَمَة: هو الذي يشتد على إبله أو بقره أو غنمه فيسوقها سوقاً عنيفاً بلا رحمة ولا حكمة، ويدفع بعضها إلى بعض بالعسف والضرب، حتى يحطم بعضها بعضاً، ويقتل بعضها بعضاً. والْحُطَمَة من صيغ المبالغة، وتطلق على العنيف الشديد الذي يحطم الأشياء ويكسرها بعنفه وقسوته. ولمّا كانت النار تحطم ما تمسه سميت في القرآن الْحُطَمَة.

فأبان الرسول ﷺ أن شر الرعاة من الولاة والحكام هم الذين يشتدون عليهم ولا يرفقون بهم، ويدفعونهم بالعسف والعنف إلى أن يحطم بعضهم بعضاً، ويكسر بعضهم بعضاً، ويقتل بعضهم بعضاً.

وقد ضرب الرسول ﷺ في قوله: «إن شر الرعاء الحطمة» مثلاً لكل راعٍ عنيف قاسٍ شديد لا رحمة في قلبه على رعيته من الناس، سواءٌ أكان ولي أسرة، أو صاحب سلطان، صغرت دائرة رعيته أو كبرت.

فشر الرعاة من الناس على الناس هو الحطمة الذي لا رفق عنده، ولا رحمة في قلبه تلين سياسته وقيادته، فهو يقسو ويشتد على رعيته، ويوسعهم عسفاً وتحطيماً، ويدفعهم دائماً إلى المآزق والمحرجات، ولا يعاملهم بالرفق والحكمة في الإدارة والسياسة.

ومن تَرْكِ واجب الرفق احتجابُ الراعي عن رعيته، وعدم اهتمامه بحاجاتهم ومصالحهم، وعدم نظره في خلاتهم وفقرهم، فمن فعل ذلك جازاه الله يوم القيامة بمثل عمله.

روى أبو داود والترمذي عن أبي مريم الأزدي، أنه قال لمعاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من ولّاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة».

فجعل معاوية رجلاً على حوائج الناس.

وشرٌّ من ذلك غش الراعي لرعيته وظلمه لهم:

روى البخاري ومسلم عن أبي يعلى مَعْقل بن يسار، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«ما من عبدٍ يسترعيه الله رعيَّةً يموت يوم يموت وهو غاشٌ لرعيته إلاّ حرم الله عليه الجنة».

وفي رواية: «فلم يَحُطها بنصحه لم يجد رائحة الجنة».

وفي رواية عند مسلم أن الرسول ﷺ قال:

«ما من أمير يلي أمور المسلمين ثم لا يجهَدُ لهم وينصح لهم إلاّ لم يدخُل معهم الجنة».

أي إذا لم يتعب من أجلهم ويبذل جهده في رعايتهم وخدمة مصالحهم، ولم يكن ناصحاً لهم في قوله وعمله وصادقاً معهم لم يدخل معهم الجنة يوم القيامة، فيعاقب على تقصيره وغشه لرعيته عقاباً نُكراً، بخلاف الناصحين أهل العدل من الولاة، فهم يكرمون على منابر من نور.

روى مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا».

وهم في مقدمة السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، كما جاء فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال:

«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل...» الحديث.

إن الولاية فيها مزالق كثيرة للفتنة، فمن نجا من فتنتها كان من أقوى الناس إرادة وأكثرهم استقامة.

— ٩ —

الكتمان وحفظ السر، من فروع خلق الصبر

الكتمان هو ضبط النفس ضد دوافع التعبير عما يختلج فيها، وذلك لا يتم إلا بالصبر، من أجل هذا صح لنا أن نعتبره من فروع خلق الصبر.

على أن له أيضاً صلة بقوة الإرادة، المستندة إلى صحة العقل وسلامة الرأي، ولا يعزب عنا أن الصبر من قوة الإرادة.

وحين يكون في كتمان الإنسان حفظ لسر استأمنه صاحبه عليه، وطلب منه عدم إفشائه، فهو حينئذٍ مظهر من مظاهر الأمانة، ومظهر من مظاهر الصبر معاً.

ويكون الكتمان فضيلة إذا كان في أمر ينبغي كتمانه وعدم إفشائه، لأن المصلحة المعقولة والمشروعة تقضي بكتمانه، وهو عندئذ فضيلة خلقية.

فمن ذلك كتمان مقدار القوة والخطط الحربية عن الأعداء، إن هذا الكتمان فضيلة خلقية قد يرتبط بها النجاح والظفر، وقد تكون بضدها الخيبة والهزيمة.

وقد كان الرسول صلوات الله عليه في قيادته وسياسته ملتزماً خلق الكتمان، كلما ارتبطت به مصلحة المسلمين ضد أعدائهم، فكان إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها، وإذا وضع خطة لم يعلن عنها حتى يأتي وقت التنفيذ، لئلا يعلم العدو بها، فيتخذ لها ما يضادها، وما يفسدها.

وكثيراً ما يكون قضاء الحاجات مرهوناً بالكتمان، وفي الحكم السائرة: استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان.

فالكتمان في هذه الأمور ونظائرها فضيلة نافعة.

ومن الكتمان المحمود ما جاء في قصة يوسف عليه السلام. لقد أوصاه أبوه يعقوب عليه السلام بأن يكتم رؤياه المبشرة له بالمجد العظيم، عن إخوته، حتى لا يثير حسدهم فيكيدوا له، قال الله تعالى في سورة (يوسف ١٢):

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ ﴾.

فقد أمر يعقوب عليه السلام ابنه يوسف بأن يكتم خبر رؤياه عن إخوته، حذر أن تثير حسدهم له، فيكيدوا له كيداً ما، لأنهم أبناء علاّت، أبوهم واحد وأمهاتهم شتى.

أما كتمان ما يجب إظهاره وتبليغه من الحق فهو معصية، وهو رذيلة خلقية، والساكت عن الحق شيطان أخرس، وذلك لأنه بسكوته نصر الباطل، فكان بذلك شيطاناً، ولمّا كان عمله سلبياً قائماً على السكوت استحق أن يوصف بالخرس لا بالصمت.

وقد جاء في كلام الرسول ﷺ قوله: «من أوتي علماً فكتمه ألجمه الله بلجام من نارٍ».

وكتمان الشهادة إثم تتحمل القلوب وزره، قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾.

ولذلك شدد الله تبارك وتعالى في مؤاخذة بني إسرائيل إذ كتموا شهادة عندهم من الله، وذمهم ذماً كبيراً على ذلك، وجعلهم من المفرطين في الظلم، فقال عز وجل يخاطبهم في سورة (البقرة ٢):

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ ﴾.

أمر بني إسرائيل أمر عجيب، إنهم يكتمون كل شهادة عندهم من الله، إذا كان لهم في الكتمان مصلحة خاصة، ويكتمون الحق وهم يعلمون، إذا كان لهم هوىً في الكتمان، ولو كان هوىً شيطانياً خبيثاً، ولذلك خاطبهم الله بقوله في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

وقال لهم في سورة (آل عمران ٣):

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ ! ﴿٧١﴾ ﴾.

ولّما كان كتمان ما يجب تبليغه وبيانه من أمور الدين أمراً خطيراً وإثماً عظيماً، فقد حذرت النصوص الإسلامية منه تحذيراً شديداً.

فمن ذلك قول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

حفظ السر:

علمنا أن حفظ السر من الكتمان المحمود، والسرّ هو خبر مستأمن على حفظه وعدم إفشائه، ومن أودع أخاه سراً فإنما هو أمانة جعلها عنده، وعلى المستأمن أن يحفظ أمانته.

ومن قبل من الناس بأن يُودِع سرّ أخيه عنده فقد أعطى أخاه عهداً بأن لا يفشيه للناس، فوجب عليه الوفاء بعهده قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾ ﴾.

أي: كان مسؤولاً عند الله عن حفظه والوفاء به.

وأبان الرسول ﷺ أنّ الرجل إذا حدّث الحديث ثم انصرف فقد أودع عند من حدّثه أمانة، لذلك فعلى المستأمن أن يحفظ الأمانة التي عنده، فلا يخون صاحبه بها.

روى الترمذي وأبو داود بإسناد حسن، عن جابر بن عبدالله، أنّ النبي ﷺ قال: «إذا حدّث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة».

ولكن حفظ أسرار الناس مشروط بأن لا يؤثر على حق الله أو حقّ المسلمين، فإذا كان مؤثراً على شيء من ذلك، كان من الخيانة لحقّ الله أو لحقّ المسلمين التستر على ما فيه إضرار بهما أو بأحدهما، وليس من حفظ الأمانة هذا التستر. يدلّ على هذه الحقيقة ما رواه أبو داود عن جابر بن عبدالله، قال: قال رسول الله ﷺ: «المجالس بالأمانة، إلاّ ثلاثة مجالس: سفك دمٍ حرام، أو فرج حرام، أو اقتطاع مالٍ بغير حق».

ومن الأسرار التي يجب حفظها وعدم إفشائها ما يكون بين الرجل وامرأته، فهو أوّلاً حقّ المرأة في عدم إفشاء ما يكون منها لزوجها، وهو ثانياً حقّ الآداب الإسلامية العامة التي توصي بستر مثل هذه الأمور، فالمرء مستأمن عليها من جهتين: جهة الآداب الإسلامية، وجهة صاحب الحقّ الخاص.

روى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ من أشرّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى المرأة وتفضي إليه ثم ينشر سرّها».

وحكم المرأة في هذا مثل حكم الرجل، فالنصوص الإسلامية لها صفة العموم، ما لم يكن الأمر من خصائص أحدهما.

أمثلة على حفظ الأسرار:

١ ــ روى البخاري عن عبدالله بن عمر، أن عمر رضي الله عنه حين تأيّمت[1] بنته حفصة، قال عمر: لقيت عثمان بن عفان فعرضتُ عليه حفصة، فقلت: إن شئتَ أنكحتك حفصة بنت عمر، قال: سأنظر في أمري، فلبثت ليالي، ثمّ لقيني فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا. فلقيت أبا بكر الصديق فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر، فلم يرجع إليّ شيئاً، فكنت عليه أوجد[2] مني على عثمان. فلبثت ليالي ثمّ خطبها النبي ﷺ فأنكحتها إياه. فلقيني أبو بكر فقال: لعلّك وجَدت عليّ حين عرضت عليّ حفصة فلم أرجع إليك شيئاً؟ فقلت: نعم، قال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليّ إلاّ أني كنت علمت أنّ النبي ﷺ ذكرها، فلم أكن لأفشي سرّ رسول الله ﷺ ولو تركها النبي ﷺ لقبلتها».

٢ ــ وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: كنَّ أزواج النبي ﷺ عنده، فأقبلت فاطمة رضي الله عنها تمشي ما تخطىء مشيتها من مشية رسول الله ﷺ شيئاً. فلما رآها رحّب بها وقال: «مرحباً يا ابنتي» ثمّ أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثمّ سارّها، فبكت بكاءً شديداً، فلـمّا رأى جزعها سارّها الثانية فضحكت، فقلتُ لها: خصَّك رسول الله ﷺ من بين نسائه بالسِّرار، ثم أنت تبكين؟

فلما قام رسول الله ﷺ سألتها: ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قالت: ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سرّه.

فلما توفي رسول الله ﷺ قلتُ: عزمت عليك بما لي عليك من الحقّ لَـمَا حدثتني ما قال لك رسول الله ﷺ؛ فقالت: أمّا الآن فنعم، أمّا حين سارَّني في المرة الأولى، فأخبرني أنّ جبريل كان يعارضه القرآن في كلّ سنة مرّة أو مرّتين، وأنّه عارضه الآن مرتين «وإني لا أرى الأجل إلاّ قد اقترب، فاتقي الله

---

(١) تأيمت: أي صارت بلا زواج وكان زوجها قد توفي.
(٢) أوجد مني: أي أكثر غضباً أو تألماً.

واصبري، فإنه نعم السلف أنا لك» فبكيت بكائي الذي رأيتِ، فلما رأى جزعي سارّني الثانية فقال: «يا فاطمة، أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة؟» فضحكت ضحكي الذي رأيتِ.

٣ ـ وروى مسلم عن ثابت عن أنس، قال: أتى عليّ رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان، فسلّم علينا، فبعثني في حاجة، فأبطأت على أمّي، فلمّا جئت قالت: ما حبسك؟ قلت: بعثني رسول الله ﷺ لحاجة. قالت: ما حاجته؟ قلتُ: إنّها سرّ. قالت: لا تُخبرَنَّ بسرِّ رسول الله ﷺ أحداً.

قال أنس: والله لو حدثت به أحداً لحدثتك به يا ثابت.

٤ ـ وكان حذيفة بن اليمان أمين سرّ رسول الله ﷺ في المنافقين.

فما أعظم التربية المحمدية الإسلامية، التي جعلت رجال الصحابة ونساءهم وغلمانهم أمناء على الأسرار بحقٍّ!!.

ـ ١٠ ـ

الدأب والمثابرة، من فروع خلق الصبر

الدأب والمثابرة من سمات أهل الجدّ والعمل، الخليقين بأن يظفروا بنتائج أعمالهم، والذين لا صبر عندهم يمدّهم بالدأب والمثابرة قلّما ينجحون في حياتهم.

والدأب والمثابرة ثمرة اجتماع علوّ الهمة مع الصبر، فلا بدّ فيهما من حوافز علوّ الهمة، وحوافظ طاقات الصبر.

إنّ الأعمال في الحياة تخضع لقوانين وسنن ثابتة، فمن لم يدأب ويثابر على عمله ويصبر على متابعة قوانين الأعمال وسننها، لم يظفر بالنتائج التي يرجوها.

من أراد أن يرتقي حتى يبلغ القمة، فعليه أن يدأب في ارتقاء العقبات، ويثابر كادحاً في الصعود، ويصبر على تحمّل المشقات التي تعترضه في مرتقاه.

ومن أراد بلوغ الماء في جوف الأرض أو الوصول إلى كنز دفين من

كنوزها، فعليه أن يدأب في حفر الأرض ويثابر على ذلك، ولو اعترضته صخور قاسيات، حتى يصل إلى مطلبه الذي يرجو، أو ييأس من تحقيق النتيجة لعقم السبيل، أو للخطأ في خطّة العمل.

ولا يكون العالم عالماً حتى يمرّ بمرحلة طويلة من الدأب والمثابرة على طلب العلم، معتصماً بقدر كبير من صبر النفس على الجدّ والاجتهاد والدراسة.

ولا ينال الطموح إلى مجد الزعامة ما يصبو إليه حتى يظفر بثقة الجماهير من الناس به، ولا يظفر بهذه الثقة، حتى يدأب ويثابر على تقديم الأمثلة والبراهين العملية التي تغرس الثقة في قلوب الناس، وذلك لا يكون إلّا بصبر عظيم في أمدٍ طويل.

ومبتكرات العلم ومنجزات الحضارة لم تظهر ولم تكتشف إلّا بالدأب الطويل، والمثابرة على متابعة البحث والاختبار والتجربة، مع دقة الملاحظة في كلّ مرحلة من مراحل العمل الدائب، ولولا الصبر الذي يتمتع به الباحثون لما ظفروا بالنتائج التي وصلوا إليها، ولما ظفرت الإنسانية بثمرات عبقرياتهم، ولا بما في هذا الكون من كنوز طاقات، وكنوز عناصر.

التوجيهات الإسلامية:

ولّما كانت التعاليم الإسلامية صوراً منسجمة كلّ الانسجام مع واقع حال السُّنن الكونية، وجدنا الإسلام قد عمل على تدريب المسلمين على خلق الدأب والمثابرة في الأعمال، في مختلف تعاليمه وتكاليفه وتوجيهاته.

إن الصلوات اليومية، مثالٌ من أمثلة التكاليف الإسلامية التي تحتاج المواظبة عليها إلى دأب ومثابرة دونما فتور، في السفر، والحضر، في الصحة والمرض، في السلم والحرب، في أحوال النشاط والكسل. وليس في هذا التكليف لغير ذوات الحيض والنفاس إجازة أسبوعية، ولا شهرية، ولا سنوية، ولكن فيه تخفيف في أحوال السفر والمرض والعجز، وفي ظروف القتال، وهذا التخفيف لا يصل إلى درجة ترك العمل أصلاً، إنّما هو تخفيف في كميته أو كيفيته، أو في تحديد وقته، ولذلك قال الله تعالى في سورة (البقرة):

﴿ حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾.

فخفف الله في حالة الخوف من شروط كيفية الصلاة، ولم يأذن بتركها تركاً كلياً.

وأثبت الله الفلاح للمؤمنين الذين من صفاتهم أنهم يحافظون على صلواتهم، فقال تعالى في سورة (المؤمنون **٢٣**):

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

وأكد الله هذه الصفة من صفات المؤمنين أهل الفلاح والفوز بجنات النعيم، فقال تعالى في سورة (المعارج **٧٠**):

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

وعمل الإسلام على غرس خلق الدأب والمثابرة على العمل في نفوس المسلمين، والبعد بهم عن الطفرات الانفعالية في أعمالهم، وما يرافقها من تطوّرات إقبال مفرط وإدبار مفرط.

وضرب الله لنا مثلاً من الثبات على العمل والدأب فيه، ما سخره في كونه

من نظم ثابتة وحركات دائبة، فالشمس والقمر مسخّران دائبان على القيام بوظائفهما لا يفتران، والليل والنهار كذلك، وسنن الحياة وقوانين الوجود متصفة بصفة الثبات والدأب المستمر، قال الله تعالى في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾.

فمن أخلاق المسلم المتأدِّب بآداب الإسلام والمتّبع لتعاليمه ووصاياه، خلق الدأب والصبر على متابعة العمل المستمر.

ومن التوجيهات النبوية للأخذ بخلق الثبات والدأب والمثابرة على العمل النافع ما يلي:

روى البخاري ومسلم عن عائشة، أنّ النبي ﷺ قال:

«أحب الأعمال إلى الله أدومها وإنْ قلّ».

فهذا الحديث يدعو إلى فضيلة الثبات والدأب والمثابرة على العمل، وعدم إجهاد النفس بطفرات الأعمال التي تستنفذ الطاقات، وتميت الرغبات أو تحوّلها، ثمّ لا تحقق الغايات المنشودة على الوجه الأكمل.

وروى البخاري ومسلم عن عائشة أيضاً، أنّ رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، قال: «من هذه؟» قالت: هذه فلانة ــ تذكر من صلاتها ــ قال: «مَهْ، عليكم بما تطيقون، فوالله لا يملّ الله حتى تملّوا».

قالت: وكان أحب الدين إليه ما داوم صاحبه عليه.

فهذه المرأة كانت تكثر من النوافل ومن قيام الليل، إلى حدّ الإفراط والمبالغة، فنهى الرسول ﷺ عن ذلك بقوله: «مه» وهذه الكلمة فيها نهي وزجر. ثم وجّه الرسول ﷺ لما ينبغي فقال: «عليكم بما تطيقون» أي: الزموا من الأعمال ما يقع ضمن حدود طاقتكم فلا تزيدوا عليها، لئلا تنفر نفوسكم من العمل كله حين تستنفدوا فيه طاقاتكم.

ثمّ أوضحت عائشة مراد الرسول ﷺ بقولها: وكان أحب الدين إليه ما داوم صاحبه عليه.

فمن هذا يتضح لنا أن من العناصر الخلقية التي عمل الإسلام على تربيتها في نفوس المسلمين، عنصر الثبات والدأب والمواظبة على العمل، وهذا لا يكون مع الطفرات والزيادات والمبالغات، والإجهاد الذي يستنفد الطاقات، ويقطع الهمم ويحوّل الرغبات.

وجاء في الحكمة العربية: «إن المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» وذكر ابن منظور في لسان العرب أنها من قول مُطرّف.

والمنبتّ هو الذي يعطي دابته كلّ وسعها من الجري، حتى تهلك فينقطع في طريقه، فهو منبتٌ أي منقطع في الطريق بسبب سوء تصرفه، إذ لم يبقِ لنفسه ظهر دابته، ولم يقطع مسافة الأرض التي يريد اجتيازها.

ولـمّـا نهى الرسول ﷺ عن المبالغة والزيادة في الأعمال فوق حدود الطاقة المعتادة، خشي أن يفهم منه أن هذه الزيادات من نوافل الطاعات تعتبر عند الله من المعاصي التي يكرهها من عبده، فقال: «فوالله لا يملّ الله حتى تملّوا» أي لا يملّ الله من مكافأتكم على طاعاتكم وأعمالكم حتى تملّوا أنتم من متابعة الأعمال وتفقدوا نشاطكم للقيام بها. فليس النهي عن الزيادة لكراهية منحكم الأجور عليها، وإنما هو لمصلحتكم حتى تثبتوا عليها، وتداوموا على فعلها في مواقيتها، ولا تنفر نفوسكم من تكرارها مع المواظبة والدأب.

ـــ ١١ ـــ
الأناة في الأعمال، من فروع خلق الصبر

الأناة هي التصرّف الحكيم بين العجلة والتباطوء، ولا تكون الأناة في الأعمال ــ مع ملاحظة أنّ الإنسان بفطرته عجول ــ إلاّ بخلق الصبر.

فالأناة مظهر من مظاهر خلق الصبر، وهو من سمات أصحاب العقل والرزانة، بخلاف العجلة فهي من سمات أصحاب الرعونة والطيش، وهي تدلّ على أن صاحبها لا يملك الإرادة القوية القادرة على ضبط نفسه تجاه انفعالاتها العجولة، وبخلاف التباطؤ والتواني، فهما من سمات أصحـاب

الكسل والتهاون في الأمور، ويدلّان على أن صاحبهما لا يملك الإرادة القوية القادرة على دفع همته للقيام بالأعمال التي تحقق له ما يرجو، أو ليس لديه همة عالية تنشد الكمال، فهو يرضى بالدنيّات، إيثاراً للراحة، وكسلاً عن القيام بالواجب.

إن أناة الإنسان تسمح له بأن يحكم أموره، ويضع الأشياء في مواضعها، بخلاف العجلة فإنها تعرضه لكثير من الخطأ والإخفاق، وتعرضه للتعثر والارتباك، ثم تعـرّضه للتخلّـف من حيث يريد السبق، ومن استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه. وبخلاف التباطؤ فهو أيضاً يعرّضه للتخلف والحرمان من تحقق النتائج التي يرجوها.

فالأناة هي المواءمة في مقدار السرعة بين حركة العمل وما يتطلبه الأمر المقصود بالعمل منها، فما يتطلب من الأمور عملاً سريعاً فالحكمة السرعة إذن، وهي لا تخرج عن الأناة، فالقضية نسبية، وما يتطلب من الأمور عملاً بطيئاً فالحكمة البطء إذن، وهو لا يخرج عن الأناة، لأن القضية نسبية، وما من مقدار من السرعة قل أو كثر إلا وفوقه أسرع منه وتحته أبطأ منه، ولكلّ أمر يراد تحقيقه مقدار ما من السرعة في العمل خاضع لسنن الله في كونه، إذ جعل الله لكل شيء قدراً. فلتكون الجنين سرعة محددة، ولاستنبات الزروع والثمار سرعات تلائم كل صنف منها، ولإنضاج العظام مقدار من الزمن يختلف عن إنضاج اللحم أو الخضراوات، وهكذا إلى سائر الأمور في الكون. فمن نقص من الزمن المطلوب فهوعجول فاشل، ومن زاد على الزمن المطلوب فهو متباطىء فاشل. ومن وافق الزمن المطلوب وفق سنن الله في كونه فهو الحكيم العاقل ذو البصر والأناة.

فليس للأناة مقادير زمنية ثابتة، ولكنها تختلف باختلاف حاجة الأشياء إلى مقدار السرعة الزمنية، فهي إذن المواءمة بين مقدار السرعة في الحركة وبين الحاجة الحقيقية التي تستدعيها النتائج المطلوبة. إن الجريح المشرف على خطر الموت قد يتطلّب إسعافه مقداراً كبيراً من السرعة، فالتخفيف منها توانٍ وتباطؤ، والزيادة عليها ربما يكون تعجّلاً مفسداً مسيئاً.

وليس من الأناة ولا الرزانة في شيء أن يفكر الإنسان طويلاً ليعرف

أفضل وجه يتفادى فيه خطر صخرة هاوية في اتجاهه من الجبل، والحال أن بينها وبينه مقدار زمن يسير جداً، إن العقل والحكمة والرزانة في مثل هذه الحال تكون بسرعة تفادي الخطر دون طيش ولا اضطراب، وهذا من أناة النفس وحكمتها، وإن ظهر في العمل سرعة فائقة، إلا أن هذه السرعة هي الحركة الواجبة للغاية المطلوبة.

لقد ظهر لدينا أن الأشياء مرهونة بأوقاتها، والعجلة فيها مع معرفة أوقاتها المطلوبة خلق مذموم يدل على ضعف خلق الصبر، والتباطؤ فيها خلق مذموم يدل على ضعف الهمة والإخلاد إلى الراحة، والأناة هي السلوك المطلوب، وهي ليست تعجُّلاً ومسابقة لأوقات الأشياء، ولا تباطؤاً وكسلاً.

كلٌ من العجلة والتباطؤ يضيعان على أصحابها الجهد، والزمن، وما بذلوه من رؤوس أموال مادية، والأناة هي الكفيلة بتحقيق المطلوب، وتفادي الخسارة، ضمن سنن الله ومقاديره.

التوجيهات الإسلامية:

والإسلام يذم الاستعجال وينهى عنه، ويذم التباطؤ وينهي عنه، ويمدح الأناة ويأمر بها، وقد عمل على تدريب المسلمين على الأناة، وعلى التريث الحكيم في القيام بالأعمال وفي تصريف الأمور، إنه يطلب من القاضي أن يتأنى ويفكر طويلاً قبل أن يصدر حكمه، ويطلب من السلطان أن يتدبر الأمور قبل تصريفها.

ويأمر الرسول صلوات الله عليه بالأناة والتؤدة والسكينة لدى القيام إلى الصلاة، وهكذا.

ومن توجيه الإسلام إلى الأناة جعله الطلاق على ثلاث مراحل.

وفيما يلي مجموعة من النصوص الإسلامية:

١ ـــ نهى الله تبارك وتعالى رسوله محمداً صلوات الله عليه عن أن يعجّل بتلاوة القرآن الذي يوحى إليه به قبل أن يقضى إليه وحيه، فقال له في سورة (القيامة ٧٥):

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾.

وقال له في سورة (طه ٢٠):

﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾.

٢ ــ وروى البخاري ومسلم عن أبـي قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقيمت الصلاة فلا تقوموا حتى تروني قد خرجت».

وروى البخاري ومسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، وأتوها تمشون وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا».

السعي: هو المشي بسرعة، وهو فوق المشي ودون الرَّمَـل.

٣ ــ وروى مسلم عن ابن عباس أن النبـي ﷺ قال لأشجِ عبدالقيس: «إن فيك لخصلتـين يحبهـما الله: الحلم والأناة».

٤ ــ وروى الترمذي عن سهل بن سعد الساعدي، أن النبـي ﷺ قال: «الأناة من الله والعجلة من الشيطان».

٥ ــ وعن أنس أن رجلاً قال للنبـي ﷺ: أوصني، فقال: «خذ الأمر بالتدبير، فإن رأيت في عاقبته خيراً فأمضه، وإن خفت غَيّـاً فأمسك».

(رواه في شرح السنة)

٦ ــ وعن مصعب بن سعد عن أبيه، قال الأعمش: لا أعلمه إلا عن النبـي ﷺ قال: «التؤدة في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة».

(رواه أبو داود)

٧ ــ وعن عبدالله بن سَرْجِس، أن النبـي ﷺ قال: «السّمت الحسن، والتؤدة، والاقتصاد، جزء من أربع وعشرين جزءاً من النبوة».

(رواه الترمذي)

الفصل السابع

حُبّ العَطَاء وَفرُوعُه وَظوَاهرُه السُّلوكية

ـ ١ ـ

من الأسس العامة التي ترجع إليها مجموعة من الفروع والظواهر والمفردات الخلقية المحمودة، خلق حب العطاء. ولهذا الخلق آثار اجتماعية كريمة عظيمة، وهو عنصر من عناصر علو الفطرة وسمو الطبع، وارتقاء الإنسانية، ورجاحة العقل.

ويأتي في مقابل هذا الأساس ضيق النفس، وشعورها بالأنانية المفرطة، التي ينجم عنها البخل، والشح، وكراهية العطاء، والرغبة بالاستئثار بكل شيء، والرغبة بالتسلط على كل شيء، وقبضُ النفس واليد عن البذل والإنفاق على الغير، من مال، أو جاه، أو علم، أو غير ذلك. ولهذا الخلق المقابل آثار اجتماعية سيئة جداً، وهو عنصر من عناصر هبوط الفطرة، ودناءة الطبع، ونقص الإنسانية، والحرمان من رجاحة العقل.

* * *

العطاء الأسمى من صفات الله:

إن أعظم درجات العطاء الذي لا حدود له، والذي لا يكون ابتغاء عوض هو من صفات الخالق جل وعلا، ومن أخلاقه سبحانه. ولذلك جاء في أسماء الله الحسنى: الوهاب، والرزاق، والكريم.

وعطاء الله سبحانه وتعالى فيض لا ينقطع ولا ينتهي، وهو في كل الأحوال

مرتبط بعلمه وحكمته، فهو يعطي خلقه وفق مشيئته التي تقتضيها حكمته، دون أن يكون له غاية من عطائه سبحانه أي عوض يرجوه من خلقه، وأما عبادة عباده له فهي لخيرهم وسعادتهم، ولترقية أرواحهم وتزكية نفوسهم.

ولذلك فإن الله تبارك وتعالى يمـدّ بعطائه في الدنيا أهل طاعته، وأهل معصيته، حتى الكافرين به والجاحدين له.

قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

فهذا النص يفسر الظاهرة المشهودة في دنيا الناس، فيبين أن الله تبارك وتعالى يُمـدّ عباده بالعطاء غير المحظور، أي: الذي لا تستطيع منعه قوة غير قوة الله. فهو يُمدّ أهل الدنيا الذين يريدون العاجلة، ولكن ما لهم في الآخرة من نصيب، بل لهم فيها العذاب جزاء كفرهم وعصيانهم. ويُمدّ بعطائه طلاب الآخرة، ويدخر لهم العطاء الآجل الأعظم إلى يوم القيامة، فيمنحهم بذلك عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، فضلاً منه وكرماً.

أما عطاء الدنيا فمشمول بقانون الابتلاء، الـذي يخضع لـه المؤمنون والكافرون على سواء.

وأما عطاء الآخرة فهو عطاء الفضل العظيم، الذي يحرم من يحرم منه ضمن قانون الجزاء، قال الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

غير مجذوذ: أي غير مقطوع، والجذ في اللغة القطع.

وقد زاد الله في فضله وإكرامه، فسمى هذا العطاء أجراً، مع أنه في الحقيقة والواقع من محض فضله وجوده، فقال الله تعالى في سورة (فصلت ٤١):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾.

غير ممنون: أي غير مقطوع.

ونظيره قوله تعالى في سورة (التين ٩٥):

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾.

وتتساءل النفوس: لماذا لا يبسط الله الرزق لعباده في الدنيا ويوسع عطاءه لهم، بل هو ينـوّع لهم الأحوال فيبسط ويقدر؟

والجواب: أن حكمة الامتحان في ظروف هذه الحياة الدنيا تقتضي ذلك، إذ يمتحن الإنسان بالبسط والتـوسعة، ويمتحن بـالقبض والتضييق، وليس التضييق على بعض الناس أو في بعض الأحـوال بخلاً ولا إمسـاكاً، وإنمـا هو مشمول بحكمة من حكم الله العظمى، إذ كيف يتم امتحان بعض الناس في المجالات التي يطلب فيها الشكر بالبذل والعطاء، ويطلب فيها تزكية النفس من داء البخل والشح؟ وكيف يتم امتحان بعضهم في المجالات التي يطلب فيها الصبر والرضى عن الله والقناعة والتسليم لله في مقاديره، وتزكية النفس من داء الحسد؟ ولو بسط الله الرزق لجميع عباده لتعطل الامتحان بالشطر الثاني.

ومن الحكم التي يشتمل عليها التنويع بين البسط والتضييق، لفت نظر الإنسان إلى أن الله هو الخالق الرزاق، فإذا أمسك رزقه لم يجد الإنسان غير الله يرزقه، فيتعظ بذلك العقلاء، فيؤمنون بالله، ويطلبون أرزاقهم منه، قال الله تعالى في سورة (الملك ٦٧):

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ . . . ۝٢١﴾.

وأشار الله إلى أن له حكماً جليلة في كل من بسطه الرزق لعباده وتضييقه، فقال تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

واستغل الخبثاء من يهود هذه الظاهرة المشمولة بالحكمة الربانية، فاتهموا الله سبحانه وتعالى بالبخل، ليبرروا لأنفسهم أقصى درجات الشح، فقالوا: يد الله مغلولة. قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴿٦٤﴾﴾.

فإنفاقه تعالى يكون بحسب مشيئته، ومشيئته تعالى مشمولة بحكمته.

ومن حكمة الله في عدم بسطه الرزق لعباده في ظروف هذه الحياة الدنيا، ألا يكون بسط الرزق لهم سبباً في بغيهم، وقد لفت القرآن النظر إلى هذه الحكمة، فقال الله تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾.

على أن ظروف هذه الحياة الدنيا ــ دار الابتلاء. لا تستحق أن يوسِّع الله فيها على المؤمنين به في الرزق، لأنه تعالى قد ادخر لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، في نعيم مقيم خالد، سيأتي لا محالة في دار الجزاء، ولولا الخوف على المؤمنين من أن يفتتنوا وينضموا إلى صفوف الكافرين، لخص الله الكافرين ــ في ظروف هذه الحياة ــ بالرزق الواسع الكثير، ولجعل رزق المؤمنين فيها بقدر، ولكن هذا يفتن المؤمنين، فيكون الناس عندئذ أمة واحدة في الكفر، نظراً إلى حالة الضعف البشري في الناس. قال الله تعالى في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا

بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

معارج: مصاعد يرتقون عليها.
زخرفاً: الزخرف الذهب الذي يزيَّن به.
لَـمّـا متاع الحياة الدنيا: أي إلا متاع الحياة الدنيا.

ومن حكمة الله فيما يقضيه من تفاوت بين الناس في الرزق، أن يتخذ الناس بعضهم بعضاً سخرياً، وهو ما بينه الله في هذا النص بقوله: ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾.

ـ ٢ ـ
المجالات التي يشملها مفهوم العطاء

وتتنوع المجالات التي يشملها العطاء:

١ ـ فمنها العطاء من المال من كل ما يمتلك الإنسان من أشياء ينتفع بها، كالذهب والفضة، والخيل، والأنعام، والحرث، وكل مأكول، أو مشروب، أو ملبوس، أو مركوب، أو مسكون، أو يؤوى إليه، وكل آلة أو سبب أو وسيلة ينتفع بها، وكل ما يتداوى به أو يقي ضُـرّاً أو يدفع بأساً، إلى غير ذلك من أشياء يصعب إحصاؤها.

وفي هذا المجال معطاؤون، وفيه بخلاء وشحيحون.

٢ ـ ومنها العطاء من العلم والمعرفة. وفي هذا المجال من يحبـون العطاء، وفيه بخلاء ممسكون ضنينون.

والمعطاء في هذا المجال هو الذي لا يدخر عنده علماً ولا معرفة عمن يحسن الانتفاع بذلك، والبخيل هو الذي يحتفظ بمعارفه وعلومه لنفسه، فلا ينفق منها لمستحقيها، ضناً بها ورغبة بالاستئثار.

وبعض البخلاء بعطاء العلم إذا بذلوا منه شيئاً فإنما يبذلون منه بقدر، كأنهم يخشون النفاد مع أن المعارف والعلوم تربو بالعطاء فهي تزيد ولا تنقص؛ إلا أن دافع البخل في نفوسهم يجعلهم يضنون حتى في الأمور التي تزيد ولا تنقص، فسوابق أوهام نفوسهم التي سيطر عليها أن العطاء ينقص من الأشياء التي يمتلكونها، هي التي جعلت نفوسهم تكزّ عن عطاء العلم وتبخل به، دون أن تنير أجواء نفوسهم المظلمة بصيرة واعية، أو تخفف من غلواء أنانيتهم الضيقة أخلاق كريمة فاضلة.

ولما كان رسول الله صلوات الله عليه كامل الخلق، ومن كمال خلقه أنه جواد بعطاء ما يختصه الله به من معارف غيبية لم يأمره بكتمها، وصفه الله بخلق الجود في هذا المجال، فقال تعالى في سورة (التكوير ٨١) متحدثاً عن القرآن وعن جبريل ثم عن الرسول ﷺ:

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

ففي وصف الله لرسوله بأنه ليس بضنين على الغيب ـ أي: ليس بشحيح ولا بخيل بعطاء المعارف والعلوم الغيبية التي يصطفيه الله بها ـ إثبات لصفة جوده صلوات الله عليه بعطاء العلم الذي يملك معرفته، ويسمح له ببذله.

٣ ـ ومنها عطاء النصيحة، فالإنسان الجواد كريم النفس لا يبخل على أخيه الإنسان بأي نصيحة تنفعه في دينه أو دنياه، بل يعطيه نصحه الذي ينفعه مبتغياً به وجه الله تعالى.

وقد ارتقى مفهوم النصيحة عند الرسول ﷺ حتى كان مساوياً للدين كله، ولذلك عرّف الرسول ﷺ الدين بأنه النصيحة، فقال: «الدين النصيحة».

ولذلك كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أول الأركان الأساسية، التي تقوم عليها الدعوة إلى الله، وحماية المجتمع المسلم من الانحراف، وظاهر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من النصيحة، وهو عطاء فيه تضحية، إذ قد يعرّض صاحبه لما يكره من قبل الناس.

٤ ــ ومنها العطاء من النفس، فالجواد يعطي من جاهه، ويعطي من عطفه وحنانه، ويعطي من حلو كلامه وابتسامته وطلاقة وجهه، ويعطي من وقته وراحته، ويعطي من سمعه وإصغائه، ويعطي من حبه ورحمته، ويعطي من دعائه وشفاعته. . وهكذا إلى سائر صور العطاء من النفس.

والبخيل يبخل بأي شيء من ذلك.

٥ ــ ومنها العطاء من طاقات الجسد وقواه، فالجواد يعطي من معونته، ويعطي من خدماته، ويعطي من جهده، فيعين الرجل في دابته فيحمله عليها أو يحمل له عليها، ويميط الأذى عن طريق الناس وعن المرافق العامة، ويأخذ بيد العاجز حتى يجتاز به إلى مكان سلامته، ويمشي في مصالح الناس، ويتعب في مساعدتهم، ويسهر من أجل معونتهم، ومن أجل خدمتهم، وهكذا إلى سائر صور العطاء من الجسد.

والبخيل يبخل بأي شيء من ذلك.

٦ ــ ويرتقي العطاء حتى يصل إلى مستوى التضحية بالحياة كلها: فالمجاهد المقاتل في سبيل الله يجود بحياته لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه، ابتغاء مرضاة ربه. والذي يؤثر أخاه بشربة الماء، وهو على وشك الهلاك، لينقذ أخاه من الموت، يضحي ويجود بحياته من أجل غيره.

وهكذا تتنوع مجالات العطاء من المال، ومن العلم، ومن النصيحة، ومن النفس، ومن طاقات الجسد وقواه، ومن الروح والحياة.

ـ ٣ ـ

فوائد خلق حبّ العطاء وثمراته

لخلق حب العطاء فوائد وثمرات فردية واجتماعية عظيمة، فمنها ما يلي بيانه:

(أ) إن اكتساب خلق حب العطاء يولد في الفرد شعوراً بأنه جزء من الجماعة، وليس فرداً منعزلاً عنهم إلا في حدود مصالحه ومسؤولياته الشخصية. فهو بهذا الشعور النبيل يجد نفسه مدفوعاً إلى مشاركتهم في عواطفهم مشاركة وجدانية ومشاركة مادية، فيفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم، ويتألم عندما يتألمون، وينشرح صدره إذا وجدهم منشرحين، ويساهم معهم في الأعمال العامة، ويعين منهم ذا الحاجة بجسمه، أو جاهه، أو ماله، أو شفاعته في الحق، أو عواطفه ومشاعره وتعبيراتها.

ومتى كان هذا المعنى متبادلاً بين أفراد الجماعة استطاعت أن تمثل في واقعها معنى الجسدية الواحدة للجماعة، التي إذا اشتكى عضو منها تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، كما جاء في الحديث الصحيح الذي يقول الرسول ﷺ فيه: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

فأبرز الرسول صلوات الله عليه في هذه الجسدية الواحدة عنصرين:

العنصر الأول: التوادّ، أي التحابب، وهذا العنصر بمثابة الروح التي تسري في الأجساد المادية، فتعقد الصلة التامة بين أعضاء الجسد السارية فيه، حتى يشعر كل عضو بأنه جزء لا يتجزأ من وحدة كلية.

العنصر الثاني: التراحم، وهذا العنصر يبرز بالمشاركة الوجدانية والمادية في الآلام والمسرات، والأحزان والأفراح، وهذه المشاركة صورتها العطاء، وحقيقتها الانفعال العاطفي النبيل نحو الآخرين.

وإذا كان التواد بمثابة الروح التي تسري في الأجساد، فإن عنصر التراحم بمثابة الأغذية التي تمد الأجساد بشروط الحياة للمحافظة على بقاء الروح فيها.

(ب) ومن فوائد اكتساب خلق حب العطاء أنه يزكي الأنفس ويطهرها من رذائل الأنانية المقيتة، والأثرة القبيحة، والشح الذميم.

وبهذه التزكية يرتقي الإنسان في معارج الكمال، والعطاء من الكمال، ولذلك كان من صفات الله جل وعلا، وقد أفلح من زكى نفسه، قال الله تعالى في سورة (الشمس ٩١):

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾.

أي: أفلح من طهر نفسه من أدناس الرذائل الخلقية والسلوكية، وخاب من غمسها في هذه الأدناس، ومن هذه الرذائل المدنسة للنفس الإنسانية الشح والأنانية المفرطة المقيتة. ولذلك سميت الزكاة بهذا الاسم، فهي مطهرة للنفوس من دنس الشح والبخل والأنانية المفرطة المقيتة، وهي أيضاً مطهرة للمال من الحقوق المتعلقة به للفقراء والمساكين، ولذلك قال الله لرسوله في سورة (التوبة ٩):

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

ولما في العطاء من تزكية للنفس، قال الله تعالى في سورة (الليل ٩٢):

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾.

وهذه التزكية لا تكون إلا بمخالفة أهواء النفس وشهواتها، وقضية مخالفة أهواء النفوس يمكن أن تكون بتحويل ذكي فيه ارتقاء وشيء من المشقة عند الصعود، ولكن في هذا الارتقاء الشاق لذّات لا يظفر بها متبعو أهواء نفوسهم،

المنحدرون إلى أدناس الأخلاق وقبائح السلوك، مما يجدون فيه بعض متع زائلة منغصة بالأكدار والآلام.

(ج) ومن ثمرات خلق حب العطاء حل مشكلة حاجات ذوي الحاجات من أفراد المجتمع الواحد. فإبقاء هذه الحاجات من غير حل يعرض المجتمع إلى عواقب وخيمة، وويلات جسيمة، منها أن يتولد بين أفراده الحقد والحسد والبغضاء والشحناء والميل إلى العدوان والجريمة، والانطلاق الخطير في كل موبقة، وعندئذ يرتفع الأمن ويحل الخوف محله، ويكون الحصول على متع الحياة بالظلم والإثم، والحصول على ضرورات الحياة بالسلب والنهب، وتشيع في المجتمع فوضى الغاب، وتنحدر الحضارة إلى مستوى الظفر والناب، وعندئذ ينطلق من الشرور العجب العجاب.

ولكن متى شاع في المجتمع خلق حب العطاء الذي دفع إليه الإسلام، وجعله أساساً من أسس المجتمع الإسلامي، لم يكن لهذه الشرور الخطيرة آثار تذكر وتخشى.

(د) وفي تربية النفوس على خلق حب العطاء، إقامة سدٍّ واقٍ يمنع الأنفس عن الجنوح الخطير في مجال حب التملك والأثرة، فإنه متى جنحت الأنفس هذا الجنوح الخطير كان حب التملك غاية بنفسه، وليس مجرد وسيلة لتحقيق منافع الحياة ومصالحها، وعندئذ يستأثر بالإنسان داء الجمع والمنع، حتى يعيش حياته كلها جمّاعاً للمال، دون أن ينتفع بما يجمع منه، ثم تأخذه يد المنون فتعزله عن وظيفة حارس صندوق أو خازن مال، ليلقى حسابه العسير على ما جمع ومنع، فلا هو انتفع ولا هو نفع، ونعوذ بالله من شر هذا الداء.

ـ ٤ ـ
دافع التملك عند الإنسان

من المعترف به أن حب التملك أحد الدوافع النفسية عند الإنسان، وهو في مستواه المعتدل دافع نافع في الحياة، مفيد في عمران الأرض، وتنمية أرزاقها، واستخراج خيراتها، فإذا تجاوز حد الاعتدال، فدخل في دائرة الأنانية المفرطة، تولد عنه البخل والشح، وحب الاستئثار بكل شيء، والتسلط على كل شيء، فأمسى صاحبه ضنيناً لا يحبّ العطاء، ويصعب عليه التنازل عن أيّ شيء لغيره، ولو لم يكن بحاجة هو إليه.

وحين يقف عند حدّ الاعتدال، ويكون مقروناً بالعقل الرشيد والإيمان الراسخ، فإن صاحبه ينفتح حينئذٍ على خلق الله بالمحبة، والمودّة، وإرادة الخير، والرغبة بالمشاركة، فيندفع إلى إعطاء ذي الحاجة، بنفس هينة لينة سمحة، ويشعر بلذّة في العطاء أشد من لذة البخيل بامتلاك المال الكثير، وتحصيل الربح الوفير.

فالإفراط في الأنانية هو الداء الذي يتولد عنه البخل والشحّ، وعلى مقدار ما يكون الإنسان غيرياً محبّاً للآخرين يكون في نفسه حبّ عطاء لهم، ثم بالتدرب على العطاء والشعور بلذّته في النفس يكون خلقاً من أخلاق النفس، وتتفاوت نسبة هذا الخلق في الأفراد، كسائر الأخلاق أسسها وفروعها.

ولئن كان حبّ التملك أحد الدوافع الفطرية، فإنّ الفضيلة الخلقية من شأنها أن تحدّ من الدوافع النفسية، وتضبطها عن الجنوح أو الغلوّ المفضيين إلى الفساد أو الضرر، وتحصرها في ضمن الدوائر التي تكون فيها نافعة مفيدة.

إن كلّ دافع من الدوافع النفسية له دائرة هو في ضمنها نافع ومفيد، فإذا تجاوز حدودها كان الزائد عليها ورماً خبيثاً ضاراً مفسداً يجب علاجه، وإلّا استشرى ونما نمواً مهلكاً. ودافع حبّ التملك أحد هذه الدوافع.

وقد زيّن الله للناس حبّ التملك والتسلّط على الأشياء لأمور عديدة من أمور الحياة: منها أن يتولّد في الناس الرغبة بالسعي لتحصيل وسائل العيش وجمعها،

وللقيام بعمران الأرض وبنائها، ولتحسين مرافق الحياة واستنباط الخيرات، وابتكار الأدوات والوسائل الحضارية الراقية، والرغبة بالقيام بالخدمات الخاصة والعامّة وتبادل التعاون الحضاري بين الناس، كلّ ذلك بدافع الطمع بالاستكثار ممّا يحب الإنسان تملكه والتسلّط عليه.

ولولا وجود دافع التملّك في النفس الإنسانية لرضي الناس بأدنى المستويات التي تدفع عنهم حاجات العيش، ولتعطلت أمور كثيرة من أمور الحياة الإنسانية.

وفي بيان وجود دافع حبّ التملك لدى الإنسان، قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾.

ففي هذه الآية بيان أنّ حبّ التملك لدى الإنسان ليس له حدّ، فهو يحبّ تملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، مهما كانت زائدة عن حاجاته في الحياة، ويحبّ أن يتملك الشيء الكثير من عناصر الأموال الأخرى.

ولوجود هذا الدافع في الإنسان كان بفطرته قتوراً، وكان الشحّ حاضراً في نفسه قريباً منها، وكان منوعاً، إلاّ من آمن وعمل صالحاً، وتعلّقت آماله بالنعيم المقيم في جنة الخلد، فصعّد حبّه للتملك، وصرف معظم همّه وهمته عن زينة الحياة الدنيا، وعلّقها بحقائق النعيم العظيم المقيم في الآخرة.

قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (المعارج ٧٠):

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾
إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾
لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ . . . ﴿١٢٨﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (العصر ١٠٣):

﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾.

فالله تبارك وتعالى يبين أن الإنسان قتور، فهو لا ينفق إلا بتقتير، مهما كان يملك من أموال وأرزاق، ولو أنه يملك خزائن رحمة الله التي لا تنفد ولا تنقص. ويبيّن أن الإنسان هلوع، ومعنى هلوع: أنه إذا مسّه الشرّ جزوع، وإذا مسّه الخير منوع، فهو كثير الجزع والضجر عند نزول المصائب به، وكثير البخل منوع إذا بسط الله له الرزق. ويبين أن الشح حاضر عند نفسه قريب منها. ويبيّن أنه في محيط من الخسر.

ويستثني الله المؤمنين، المصلّين المزكين، المصدّقين بيوم الدين، الذين يخافون عذاب ربّهم، ويعملون الصالحات ويتواصون بالحقّ، ويتواصون بالصبر.

إذاً: فوسائل تقويم الإنسان، وتعديل اتّجاه نفسه، وتصعيد دوافعه ومطالبه في الحياة، لا توجد إلّا في الدين الذي ارتضاه الله لعباده.

من الواضح المعترف به أنّ الإنسان مفطورٌ على حبّ نفسه، ومن حبّه لنفسه جزعه عليها إذا مسّه الشرّ، وحرصه على كلّ ما يمكن أن تحتاج إليه، إن عاجلاً وإن آجلاً، ومحافظته على أيّ شيء قد يكون سبب متعتها ولذّتها.

والإنسان في حدود هذه الفطرة العامة لا تنكر عليه فطرته، ولكنّه مع ذلك مفطورٌ أيضاً على صفة أخرى باستطاعتها أن تضبط فطرة أنانيته عن الجنوح، فتكبحها كلما توثبت لتجمح، وتعدلها كلما أخذت سبيلها إلى الشطط وتجاوز حدّ الخير، ألا وهي العقل الجامع لقدرات المعرفة، وللإرادة ذات السلطان في قيادة السلوك وتوجيه دوافع النفس. ونستطيع في هذا المقام أن نسمّي العقل في الإنسان ضابط التوازن.

إنّ قدرات المعرفة في الإنسان تستطيع أن تمدّ أنظارها بعيداً إلى الخير الآجل، فتتبصّر به، فإذا رأته أجلّ وأفضل من المتعة العاجلة، وجديراً بأن يتحمل الإنسان للظفر به بَذْلَ ما يحلو لنفسه من متع عاجلة، وتحمّل الصبر على المصائب والمكاره، قدّمت مشورتها ونصحها للإرادة العاقلة، وهنا يأتي دور العقل:

فإما أن يوجّه حركات النفس إلى الأجَلّ الأفضل، فتصبر على مس المصائب القريبة، لتدفع بذلك ما هو أخطر منها وأشد ألماً وأكثر إزعاجاً، وتجلب ما هو أكثر فائدة وأخلد نعيماً.

وإما أن يتخاذل أمام عواء الشهوات والأهواء العاجلة، فيدع النفس تنطلق مع دوافعها الجاهلة الرعناء، حتى تطغى، وتتجاوز حدود الرأي الرشيد والعمل السديد، وتتجاوز حدود الخير والمنفعة.

فالإنسان أمام ما أعطاه الله من فطرٍ نفسية مفتوحة الحدود، وفطرة عقلية ضابطة للتوازن الخيّر، إما أن يكون نظره قاصراً وإرادته متخاذلة، فيجعل حساسية حبّه لنفسه مرتبطة بكل قريب عاجل، فيخسر بذلك مستقبله. وإمّا أن يكون نظره بعيداً، فيوجّه حساسيّة حبّه لنفسه إلى ما وراء حدود الزمن القريب، ويربط هذا الحبّ بأكمل صنوف الخير، وأعظم أنصبة النعيم لنفسه.

وأعلى مستويات هذا النظر البعيد مستوى نظر المؤمنين بالله، فهم بإيمانهم ينظرون إلى الكمال الأسمى، وإلى جنّة الخلد، وما فيها من نعيم مقيم، وينظرون إلى يوم الجزع الأكبر، وما فيه من عذاب أليم، فيهون عليهم أن

يضحّوا بالمتع العاجلة ويبذلوها، وأن يتحمّلوا الآلام العاجلة ويصبروا عليها، لأنّ ذلك هو الثمن في قانون العقل وسنن الله وشريعته لنيل ذلك الرفيع الأسمى، الذي هو أحبّ للنفس وأمتع وأرضى، ولدفع ما في يوم الجزاء من ألم هو أشد وأقسى وعذاب هو أمرّ وأدهى.

وفي حدود هذا النظر البعيد تكون فطرة الهلع في الإنسان مفيدة ونافعة، أمّا من دون ذلك فهي ضارة لهم، آخذة بهم إلى أودية الهلاك والخسران، والآلام الدائمة، والأحزان التي لا تزول، وإبرازاً لهذه الحقيقة، قال الله تعالى: ﴿والعصر إنّ الإنسان لفي خسر * إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾.

فالإنسان بتعلّقه بالعاجلة وإيثاره لها خاسر، وبنظره البعيد، وتعلّقه بالآجلة وإيثاره لها رابح سعيد، والخسران الذي جاء في سورة العصر بالنسبة إلى عموم الإنسان يشير إلى واقع حال الدوافع والغرائز التي فطر عليها الإنسان، فهي تأخذ بيده إلى الخسران في حدود النظر القاصر أو ضعف العقل، ولا ينجيه من ذلك إلّا بُعد النظر وإيثار الآخرة، الأمر الذي يتحلّى به الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصبر.

ويشبه الاستثناء الذي جاء في سورة (العصر) الاستثناء الذي جاء في سورة (المعارج) فالإنسان قد خلق هلوعاً إذا مسّه الشر جزوعاً، وإذا مسّه الخير منوعاً، ولا ينجو من شرور هذا الهلع إلّا المصلون لله، الذين هم على صلاتهم المفروضة دائمون، والذين في أموالهم حقّ معلوم للسائل والمحروم، والذين يصدّقون بيوم الدين، والذين هم من عذاب ربّهم مشفقون.

وهذه الصفات هي صفات المؤمنين، ولـمّـا كانت الصلاة هي السمة البارزة في حياة جميع أفراد المؤمنين ذكرهم الله بوصف المصلين.

وهكذا: فالإنسان قتور في حدود نظره القريب القاصر وضعف إرادته أمام دوافع نفسه العاجلة، أمّا إذا كان بعيد النظر عاقلاً ودخل في زمرة المؤمنين فإنه لا يكون قتوراً. وعلى مقدار بعد نظره يتهدّم من نفسه الحرص على الدنيا،

وما فيها من متع ولذّات، ويتولّد بدل ذلك في نفسه حبّ العطاء، طمعاً بما ادّخره الله للذين ينفقون في سبيله، وخوفاً ممّا أعتده الله من عذاب للبخلاء، الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله، فلا يؤدون ما فرض الله في أموالهم من حقوق. وبين الخوف من العذاب والطمع بالثواب يستقيم سلوك المؤمن ذي النظر البعيد، ويُحسن استغلال ما فُطِر عليه من طبائع، فينقلها إلى المواقع التي يحسن فيها الانتفاع منها، ويسمو بها إلى مراقي الكمال الخلقي.

أمّا إذا أساء الإنسان فأهمل بصيرته، وأهمل عقله، وسلّم قيادته لأهوائه وشهواته التي تحبّ العاجلة وتذر الآخرة، ولا تنظر إلى المستقبل وما يأتي فيه، فإنه لا بدّ أن يتوجه حبّه الأعمى لنفسه نحو الإمساك المذموم، والهلع الأرعن، والشحّ القبيح.

ـ ٥ ـ

التربية الإسلامية على خلق حبّ العطاء

وضع الإسلام كلّ ما يلزم من خطط وترتيبات، لتربية خلق حبّ العطاء في نفوس المسلمين، تقديراً منه لأهمية هذا الخلق العظيم في تزكية النفس، وفي توثيق روابط الأخوة بين المجتمع الإسلامي.

ولذلك حثّ حثّاً عظيماً على كلّ أنواع العطاء الخير، سواء أكان عطاءً معنويّاً أو عطاءً مادّياً، من خدمات ومعونات جسدية، أو عطاءات نفسية، أو ممتلكات مادّية، وسواء أكان عطاء عامّاً أو عطاءً خاصّاً.

والعملية التربوية الإسلامية الذكية قد أعدّت بحكمة بالغة، قُدّرت فيها العناصر المختلفة تقديراً حكيماً ملائماً للإنتاج المطلوب، كحكمة الصيدلاني إذ يقدّر العناصر الدوائية المختلفة بدقّة تامّة، لإعداد الدواء الملائم تماماً لعلاج الداء.

ونصفها بصورة مجملة فيما يلي:

١ ـ نضع عنصر حبّ الإنسان لنفسه، وقد عرفنا أنه عنصر جاهز في نفس الإنسان بحسب تكوينه الفطري.

٢ ـ نرفع درجة حرارته، فيتولّد عنه حبّ الإنسان كلَّ ما يفيده وينفعه ويمتعه ويلذّ له.

٣ ـ نضيف عنصر العقل الواعي، ذي البصيرة النافذة والنظر البعيد، ليقارن مقارنة صحيحة بين العاجل والآجل، وبين الدنيا والآخرة.

٤ ـ ستطفو على السطح شوائب الأهواء، ومجموعات من زبد النزوات النفسية، التي تؤثر العاجلة على الآجلة.

٥ ـ نطرح شوائب الأهواء، ومجموعات زبد النزوات النفسية، بوسائل حكيمة بارعة، حتى يتم نقاء المركّب النفسي ممّا لا نفع فيه، وممّا يجب أن يذهب جفاءً.

٦ ـ نضيف عنصر الطمع بما أعدّ الله يقيناً للذين ينفقون في سبيله، من نعيم مقيم، وجزاء عظيم، في جنة الخلد، ومن إخلاف وتعويض للباذلين في سبيل الله في الدنيا.

٧ ـ نضيف عنصر الخوف ممّا أعتده الله للبخلاء، الذين لا يؤدّون ما فرض الله في أموالهم، من عذاب أليم، ووعيد بالإتلاف لما بين أيديهم من أموال لم يؤدّوا منها حقّ الله.

٨ ـ نمزج العناصر السابقة مزجاً جيداً، ونرفع درجة حرارتها بوقود الإيمان بالله واليوم الآخر، ثم نعدّل درجة الحرارة ببرد اليقين الذي لا يداخله اضطراب.

بعد هذه العملية التربوية الإسلامية الذكية، لا بد أن تندفع نفس المؤمن إلى الجود بما تملك ابتغاء مرضاة الله، وطمعاً بما أعدّ الله للمنفقين في سبيله من ثواب عظيم، وخوفاً ممّا أعتد للبخلاء الممسكين من عذاب أليم.

وحين يتكرر في نفس المؤمن هذا الانفعال الخلقي نحو العطاء ابتغاء مرضاة الله،

ويأتي برد اليقين بعد ذلك بصفة متدرجة ويقترن بموجات الانفعال نحو العطاء شعور حلوٌ بلذّة ممارسته، ويمضي زمن كافٍ لاكتساب الخلق، عندئذٍ يغدو حبّ العطاء خُلقاً أصيلاً راسخاً في نفس المسلم المؤمن، بعد أن كان في بداياته ضئيلاً أو معدوماً.

بهذه التربية الإسلامية العظيمة، تمّت صناعة النماذج الراقية من الرجال المتحلّين بمكارم الأخلاق، والنساء المتحلّيات بمكارم الأخلاق.

وخلّدت معامل التربية الخلقية الإسلامية أعظم إنتاج ظهر في دنيا الناس، وكان المعلم الأول فيها رسول الله ﷺ، وكان الهادي إلى سبيل الرشاد فيها كتاب الله وشرائعه التي أنزلها على رسوله، ونماذج التربية الربّانية التي ربّى الله بها أنبياءه ورسله عليهم صلوات الله تعالى وسلامه.

وبهذه التربية العظيمة على خلق حبّ العطاء، وبهذا التصنيع الخلقي الرفيع، استطاع أصحاب رسول الله ﷺ فتح العالم المتحضر يومئذ بالحضارة المادّية والمتخلّف في ميدان الحضارة الخلقية والحضارة الروحية الطاهرة، فكان سلطان الحضارة الروحية والخلقية أغلب وأقوى من سلطان الحضارة المادية، لأنه استطاع أن ينفذ إلى قلوب الشعوب التي تهيمن عليها الحضارة المادية، فيستولي عليها، وقد كانت قلوب هذه الشعوب ثغوراً مفتوحة ليس عليها حراس، وليس من دونها حصون.

وكان هذا هو المنطلق العظيم الذي انتصر به المسلمون.

بيان الوسائل:

وقد اتخذت التربية الإسلامية عدّة وسائل، لضبط دافع حبّ التملك عند الإنسان، وحصره ضمن الدائرة التي هو فيها نافع ومفيد، ومنعه عن أن ينمو نموّاً خبيثاً ضارّاً، ولغرس وإنماء حبّ العطاء، حتى يكون خلقاً من أخلاق المؤمن المسلم.

وفيما يلي بيان لأهمّ هذه الوسائل:

الوسيلة الأولى: تغذية الدوافع الفطرية الأخرى المعدّلة لهذا الدافع،

كالدافع الجماعي الذي يتولّد عنه مقدار ما من الغيرية، ويتولّد عنه حبّ العطاء.

فبزور الدوافع الفطرية المختلفة إذا نُمّيت وفق مقاديرها النافعة توازنت فيما بينها، وكان كلّ منها معدّلاً للآخر، وحاصراً له عن أن ينمو نمواً ضاراً، على حساب مواقع غيره في خريطة النفس.

الوسيلة الثانية: تقييد دافع حبّ التملك عن الانطلاق الحرّ في كلّ ميادين الكسب، ومنعه من أن ينطلق إلاّ في حدود ما أذن الله به، من وجوه كسب لا ظلم فيها ولا عدوان ولا ضُرّ ولا إثم.

الوسيلة الثالثة: تكليف المسلم بجملة من الحقوق المتعلقة بما يكسبه ويتملكه، كحقّ النفقة الواجبة، وحقّ الزكاة للسائل والمحروم، وحقّ مصالح المسلمين العامة، وإلزامُه بدفعها طائعاً راضياً، وإلاّ أخذت منه عَنوة وكرهاً. وفي هذه الوسيلة محاصرة لدافع التملك.

الوسيلة الرابعة: إقامة منافس في داخل نفس المسلم، وهذا المنافس يستطيع أن يكون قوّة حصار تكبح باستمرار محاولات جموح دافع التملك أو جنوحه.

هذا المنافس هو خلق حبّ العطاء، وقد عمل الإسلام على تربية هذا الخلق بوسائل وأساليب مختلفة، ومعلوم أنه لا يقوى في النفس الإنسانية كيان حبّ العطاء إلاّ على حساب محاصرة حبّ التملك ضمن الدائرة التي يكون فيها نافعاً ومفيداً، فكلّما حاول تجاوز دائرته قام حبّ العطاء فاستأصل الزوائد الضارّة، وأعاد النفس إلى مستوى التوازن، فلا حبُّ تملُّكٍ يطغى عن حدّه ودرجة قصده، ولا حبّ عطاءٍ يطغى عن حدّه ودرجة قصده.

وبالمزيج النفسي الخلقي السوي يعطي المسلم صورة للإنسان العامل في إقامة صرح الحضارة المثلى، العطوف الودود الغيري المعطاء.

الوسيلة الخامسة: الغوص إلى أعماق نفس المسلم، إلى حيث يستقرّ

الإيمان، ثم تحريك جانب الإيمان باليوم الآخر وتحريك محوري الطمع والخوف فيه بالترغيب والترهيب، وتصعيد مطامع النفس بالتملك، حتى تتوجه للرغبة بامتلاك ما هو أجلّ وأعظم، في جنة الخلد، حيث لا نهاية لأبعاد ما يملك المؤمن فيها، لا من جهة الكمّ، ولا من جهة الكيف، وعندئذ تصغر الدنيا وممتلكاتها في عينيه، ويهون في نفسه أن يتنازل عن بعض ما يملك من مال أو عن كلّ ما يملك، ابتغاء مرضاة الله.

ويشتد في نفسه خلق حبّ العطاء حتى يكون جواداً كلّما كان في الجود مرضاة الله جلّ وعلا.

وتتوازن بذلك شخصية المسلم المؤمن، ويرقّ قلبه تجاه ذوي الحاجات، وتتهدم أنانيته المقيتة.

الوسيلة السادسة: تدريب النفس على البذل، ولو عن طريق الإلزام.

قد تقف في وجه الإنسان مشكلة تغلّبه على نفسه، في مصارعتها عند محاولات البذل والعطاء، إذْ تَخَلّي الإنسان القتور في أوّل مراحله عما يملك أمرٌ صعبٌ عليه.

ولكنّ تدريب النفس على البذل والعطاء مرّة بعد مـرّة، مع معالجتها بالوسائل السابقة، قد يكسب النفس خلق حبّ العطاء، ففي المراحل الأولى يكون البذل صعباً على النفس، ثمّ يسهل شيئاً فشيئاً، ثم يكون حلواً، ثمّ تزداد حلاوته، حتى يكون ممتعاً للنفس ومسعداً لها.

وقد صوّر الرسول ﷺ معالجة النفس بهذه الوسيلة تصويراً غريباً ودقيقاً.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلُ البخيل والمتصدّق، كمثل رجلين عليهما جُنّتان من حديد (أي: درعان من حديد) قد اضطرت أيديهما إلى ثُديّهما وتراقيهما، فجعل المتصدّق كلّما تصدّق بصدقة انبسطت عنه، وجعل البخيل كلّما همّ بصدقة قلصت وأخذت كلُّ حلْقةٍ بمكانها».

هذا الحديث يصوّر حالة الأنفس تصويراً بديعاً، ويمثّلها تمثيلاً بارعاً، فيصوّر الأنفس لدى محاولات البذل والعطاء في سبيل الله، بلابس درعٍ من حديد، وهذا الدرع ضاغطٌ على الصدر، وليس له أكمام تنطلق منها اليدان حتى تتحرّكا بيسر وسهولة وحرّية، يضاف إلى ذلك أنّ اليدين داخل الدرع مشدودتان إلى الثديين والترقوتين، في حالة تشبه الغلّ. وكذلك شحّ الأنفس يأخذ باليدين فيجعلهما مغلولتين إلى العنق.

ويصوّر الرسول ﷺ أثر التدريب العملي على البذل بقوله: «فجعل المتصدّق كلّما تصدّق بصدقة انبسطت عنه» أي: انبسطت عنه حلقات الدرع شيئاً فشيئاً، بتكرار تدريب النفس على دفع الصدقة، وينفرج الدرع الحديدي الضاغط شيئاً فشيئاً، حتى تتحرّر اليدان تحرّراً تاماً، على أنّ هذا يختلف من إنسان لآخر، بحسب استعداد النفس ومقدار التدرّب.

هذه الصورة التمثيلية تبرز مدى تأثير عمليات التدريب في اكتساب خلق حب العطاء، ونظيره سائر الأخلاق.

أمّا الذي لا يعالج نفسه بتحمّل مشقة التدريب على اكتساب هذا الخلق، فقد صوّره الرسول ﷺ بقوله: «وجعل البخيل كلّما همّ بصدقة قلصت وأخذت كلّ حلقة بمكانها» أي: قلصت الجُنَّة ـ وهي الدرع ـ على يديه، وأخذت كل حلقة بمكانها فلم تنفرج، لأنه لم يجد من قوّة إرادته ما يغلب به شحّ نفسه، الذي جاء تمثيله في الحديث بالدرع الذي تشتد حلقاته وتتقلّص على الجسم واليدين معاً. وإنما أدخلت اليدان في الدرع كما جاء في التمثيل، لأنهما أداة العطاء عادة، وإنّما ضُمّتا إلى الصدر والعنق، لأن هذه الصورة هي صورة البخل وصورة الشحّ، وهي الصورة التي يُكنَّى بها عن الشحّ، ولذلك قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾.

فالشحيح الذي يجعل يده مغلولة إلى عنقه، ولا ينفق في سبيل الله، إنسان قصير النظر، يعمل ضدّ مصلحة نفسه، لأن عمله هذا سيجعله يقعد ملوماً محسورا على ما فرّط في حقّ نفسه، وفرّط في نصيبه من السعادة التي ينالها المنفقون في سبيل الله.

ومثله تماماً المبذّر الذي ينفق أمواله في معاصي الله، ويتبع خطوات الشيطان.

وهكذا نجد الإسلام يُربـي في معمله التربوي الإنسان الكامل، فيعدّل في نفسه الدوافع الأنانية بأضدادها من الدوافع الخلقية الفطرية والمكتسبة، وفق مناهج التربية الإسلامية، ومقاييسها وموازينها، وأدواتها، ووسائلها.

ولـمّـا كانت النفس الإنسانية وخصائصها المختلفة أعمق وأدقّ ما يوضع للبحث والدراسة والاختبار، كان معمل تربيتها أوسع المعامل وأكثرها دقّة.

وأقرب سبيل وأهداه لتعديل خصائص النفس الإنسانيـة وصفاتهـا، وللاستفادة من استعداداتها، أن توضع عجينة في يد التربية الإسلامية، حتى تصنعها صناعة راقية، وتجعل منها مزيجاً مثالياً.

وعندئذ يستطيع الإنسان أن يكون ربّانياً، صاعداً باندفاع سريع في سلّم الكمال الإنساني، الذي تتصل مراقيه العليا بسدرة المنتهى، حيث مكان القرب من الرب الجليل الأعلى.

وهذه الخصائص للتربية الإسلامية خصائص عزيزة المثال، وهي في غير شريعة الله لا تُطال ولا تنال.

— ٦ —
شرح وتفصيل للتربية الإسلامية
على خلق حبّ العطاء . . مدعَّمان بالنصوص

لقد حثّ الإسلام على كلّ أنواع العطاء، وكلّ صُور المعونة والمساعدة، بالمال، أو بالنفس، أو بالجاه، أو بغير ذلك، ما دام العطاء في الخير لا في الشرّ.

١ ـ القدوة الحسنة:

كان الرسول صلوات الله عليه هو القدوة الحسنة والمثل الأعلى في الجود وحبّ العطاء، فقد كان أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، إذ كان فيه كالريح المرسلة.

وقد بلغ صلوات الله عليه مرتبة الكمال الإنساني في حبّه للعطاء، إذ كان يعطي عطاء من لا يحسُب حساباً للفقر ولا يخشاه، ثقة بعظيم فضل الله، وإيماناً بأنه هو الرزاق ذو الفضل العظيم.

روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «لو كان لي مثل أُحُد ذهباً لسرّني أنْ لا يمرّ علي ثلاث ليالٍ وعندي منه شيء إلاّ شيء أرصُدُه لِدَين».

إن الرسول ﷺ يقدّم بهذا النموذجَ المثالي للقدوة الحسنة، لا سيما حينما نلاحظ أنه كان في عطاءاته الفعلية مطبقاً لهذه الصورة القولية التي قالها، فقد كانت سعادته ومسرّته عظيمتين حينما كان يبذل كلّ ما عنده من مال.

ثمّ إنه يربي المسلمين بقوله وعمله على خلق حبّ العطاء، إذ يريهم من نفسه أجمل صورة للعطاء وأكملها.

ومن التطبيقات العملية التي رويت لنا من سيرة الرسول ﷺ ما رواه البخاري عن عقبة بن الحارث، قال: صلّيت وراء النبي ﷺ بالمدينة العصر، فسلّم، ثم قام مسرعاً، فتخطّى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه، ففزع الناس من سرعته، فخرج عليهم، فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته، فقال: «ذكرت شيئاً من تبر عندنا، فكرهت أن يحبسني، فأمرت بقسمته».

من تبر: أي من ذهب غير مضروب.

فقد خرج الرسول ﷺ عقب صلاته مسرعاً على غير عادته، حينما تذكّر أنّ عنده شيئاً من ذهب، وأسرع ليوزعه على ذوي الحاجات، ولـمّـا رأى أنّ مباشرته لتوزيعه سيؤخره عن المسلمين أمر بتوزيعه، وعاد صلوات الله عليه إلى المسجد.

وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها أنّها قالت: كان لرسول الله ﷺ عندي في مرضه ستة دنانير أو سبعة، فأمرني رسول الله ﷺ أن أفرّقها، فشغلني وجع نبي الله ﷺ، ثمّ سألني عنها: «ما فعلت الستة أو السبعة؟» قلت: لا والله، لقد شغلني وجعك، فدعا بها ثمّ وضعها في كفّه، فقال: «ما ظنّ نبيّ الله لو لقي الله عز وجلّ وهذه عندي».

فهو صلوات الله عليه لم يسمح لنفسه بأن يبقي لديه سبعة دنانير، ويلقى الله قبل أن ينفقها في سبيل الله.

وروى مسلم عن أنس: «أنّ رجلاً سأل النبي ﷺ غنماً بين جبلين، فأعطاه إيّاها، فأتى قومه فقال: أي قومِ أسلموا، فوالله إنّ محمدّاً يعطي عطاءً ما يخاف الفقر».

وروى البخاري ومسلم عن جابر قال: «ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قطّ فقال لا».

وروى البخاري عن جبير بن مطعم، بينما هو يسير مع رسول الله ﷺ مقفله من حنين، فعلقت الأعراب يسألونه، حتى اضطرّوه إلى سمُرة، فخطفت رداءه، فوقف النبي ﷺ فقال: «أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضاهِ نَعَم لقسمته بينكم، ثمّ لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً».

إلى سمُرة: أي إلى شجرة من شجر السمُر.

العضاه: اسم يطلق على أصناف مختلفة من الأشجار.

فالرسول يقول لهؤلاء الأعراب الذين تعلّقوا به: لو كان لي من النعَم،

من إبل وبقر وغنم، عدد هذه الأشجار التي تملأ الوادي لقسمته بينكم، ولم أبق لنفسي منه شيئاً.

فما أعظم جودك؟! وما أسخى نفسك؟! وما أكرمك؟! يا سيدي يا رسول الله، وما جودك هذا إلاّ خصلة من خصال خلقك العظيم الذي وصفك الله به.

٢ ـ حث الرسول على العطاء بشكل عام:

وقد حثّ الرسول ﷺ على العطاء، لتربية هذا الخلق الكريم في نفوس المسلمين، فمن ذلك ما يلي:

(أ) روى البخاري ومسلم عن أسماء قالت: قال رسول الله ﷺ: «أنفقي، ولا تُحصي فيحصي الله عليك، ولا توعي فيوعيَ الله عليكِ، ارضخي ما استطعت». وفي رواية: «ولا توكي فيوكى عليكِ»[(١)].

ولا توعي فيوعيَ الله عليك: يقال لغة: أوعى الطعام بالوعاء إذا جمعه فيه، ومراد الرسول ﷺ من هذا التوجيه لأسماء حثها على أن تتصدّق بفضل الزاد الذي يزيد عن حاجتها، ولا تدّخره في الأوعية، وهذا حثٌ لها على مرتبة الكمال في العطاء، أو المراد والله أعلم حثّها على أن تعطي الكثير، من غير كيلٍ ولا تقدير، فهو على هذا نظير قوله لها: ولا تحصي فيحصي الله عليك.

ارضخي ما استطعت: أي أعطي ما استطعت من غير تقدير ولا إحصاء، وكأنّ هذا تفسير لقوله لها: ولا تحصي، ولا توعي.

(ب) وروى البخاري ومسلم عن أبي ذرّ قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو جالس في ظلّ الكعبة، فلـمّـا رآني قال: «همُ الأخسرون وربِّ الكعبة».

فقلتُ: فداك أبي وأمّي، منْ هُمْ؟

قال: «همُ الأكثرون أموالاً، إلاّ من قال هكذا وهكذا. من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، وقليل ما هم».

---

(١) الوكاء: هو الرباط الذي يشد به فم السقاء أو الوعاء، والمراد لا تحبسي البذل فيحبس الله عنك.

أي: إلاّ من أنفق في سبيل الله من كلّ الجهات.

فالمال إذا كان في يدٍ تقيّة سخيّة منفقة في سبيل الله فنعم المعونة هو، وإذا كان في يدٍ شحيحة ممسكة غير تقية فبئس جالب البلاء والعذاب هو.

(ج) ومن روائع التربية النبوية على الإنفاق في سبيل الله، ما رواه الترمذي وصحّحه عن عائشة، أنّهم ذبحوا شاةً، فقال النبي ﷺ: «ما بقيَ منها؟».

قالت عائشة: ما بقي منها إلاّ كتفها.

قال ﷺ: «بقي كلُّها غير كتفها».

أي: إن عائشة رضي الله عنها قالت: ما بقي منها إلاّ كتفها، لأنّهم قد تصدقوا بها، ولم يبقوا لطعامهم إلاّ الكتف، فعكس الرسول ﷺ لها اللفظ، وأرشدها إلى أنّ الذي بقي لهم إنما هو الذي تصدّقوا به، وأمّا ما استبقوه لأنفسهم ليأكلوه فهو الفاني مع الحياة الدنيا وكلّ ما فيها.

(د) وروى مسلم عن أبي هريرة، أنّ الرسول ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلاّ عزّاً، وما تواضع أحدٌ لله إلاّ رفعه الله عزّ وجلّ».

فعطاء الصدقة لا ينقص من المال شيئاً، لأنّ الله سيخلفه.

(هـ) وروى البخاري ومسلم عن ابن مسعود، أن النبي ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحقّ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلّمها».

فالذي آتاه الله مالاً، فسلّطه على إنفاقه في الحق، أي: في سبيل الله، وفي كل أمر نافع يرضي الله تعالى ولا يسخطه، هو إنسان محظوظ من الخير، رفيع المنزلة عند الله، لذلك فهو حقيق بأن يحسد حسد غبطة على ما آتاه الله من خير عظيم، وكذلك الذي آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها فيعطي من علمه ولا يبخل به.

وحسد الغبطة: أن يتمنى المرء لنفسه مثل ما لأخيه من خير.

(و) وترغيباً بالعطاء والإنفاق في سبيل الله، لفت الرسول صلوات الله عليه النظر إلى نقطة مهمة جداً، وهي أن مال الإنسان هو ما أنفقه في سبيل الله، فقدّمه لآخرته، وأما ما ادخره لنفسه في الدنيا فهو مال الوارث، وليس ماله، لأنه ستأتيه المنية، فيترك كل شيءٍ للوارثين.

روى البخاري عن ابن مسعود، قال: قال النبي ﷺ: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟».

قالوا: يا رسول الله، ما منا أحدٌ إلا ماله أحب إليه.

قال: «فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر».

(ز) وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعِدْل تمرةٍ من كسب طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فَلُوَّه (أي: مُهْره) حتى تكون مثل الجبل».

فالتمرة الواحدة يربيها الله بفضله، حتى تعظم فتكون مثل الجبل، ويكون الجزاء الرباني عليها بحسب المقدار الذي وصلت إليه.

(ح) وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً. ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً».

فما هذا النشيد الدعائي الغريب، الذي يردده هذان الملكان؟ إذا علمنا أن الملائكة مسخرة بأمر الله، علمنا أن دعاء هذين الملكين إنما يعبر عن مجرى سنة الله في عباده، فالله من شأنه أن يعطي المنفقين في الخير خلفاً لما ينفقون، ويعطي الممسكين عن الخير تلفاً لما يمسكون، ولئن رافق تطبيق هذه السنة إمهال من الله لحكمة هو يعلمها، فإنه تبارك وتعالى يمهل ولكن لا يُهمل.

(ط) ولذلك جاء في الحديث القدسي، فيما رواه البخاري ومسلم عن

أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: أنفق يا ابن آدم أنفق عليك».

فالذين ينفقون في سبيل الله يعوض الله لهم ما ينفقون، ويخلف لهم خيراً، وينفق عليهم.

(ي) ومن الأمثلة التطبيقية لمجرى هذه السنة الربانية، ما رواه مسلم عن أبـي هريرة عن النبـي ﷺ قال: «بَيْنا رجل بفلاة من الأرض، فسمع صوتاً في سحابة: اسقِ حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب، فأفرغ ماءه في حرّة[1]، فإذا شرجة[2] من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء، فإذا رجلٌ قائم في حديقته يحوّل الماء بمسحاته، فقال له: يا عبدالله ما اسمك؟ قال: فلان ــ الاسم الذي سمع في السحابة ــ فقال له: يا عبدالله لمَ تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه، ويقول: اسق حديقة فلان، لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أما إذا قلت هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثاً، وأردّ فيها ثلثه».

أي: فهو يقاسم الفقراء قسمة مساوية لقسمته وقسمة عياله، لقد امتحنه الله بالغنى في زراعته، فكان من الشاكرين، فسخر الله له السحاب تسقي أرضه.

بخلاف مانعي الزكاة، فإن الله يمنع عنهم القطر من السماء ويرسل على زروعهم أسباب الإتلاف والإفساد.

هذه هي سنة الله في عباده يبارك للشاكرين، ويخلف لهم، ويزيدهم من فضله، أما الكافرون بأنعمه فيرفع عنهم البركة، ويسلط عليهم أسباب التلف والمحق.

(ك) ومن بديع القصص التي قصها رسول الله ﷺ، في شأن الابتلاء

---

(١) في حرّة: أي في أرض مملوءة بالصّخور غير صالحة للزراعة.
(٢) شرجة: مسيل الماء من الحرة إلى السهل.

بالنعمة، ومكافأة الشاكر بالمزيد، ومجازاة الجاحد بسلب النعمة، قصة المرضى الثلاثة: الأبرص، والأقرع، والأعمى.

روى البخاري ومسلم، عن أبي هريرة، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل، أبرص، وأقرع، وأعمى، فأراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟

قال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب الله عني الذي قد قذرني الناس.

فمسحه، فذهب عنه قذره، وأعطي لوناً حسناً، وجلداً حسناً.

قال: فأي المال أحب إليك؟

قال: الإبل.

فأعطي ناقة عشراء (العشراء: هي الحامل التي قاربت الوضع) فقال: بارك الله لك فيها.

قال: فأتى الأقرع (أي: أتى الملك الرجل الأقرع).

فقال: أي شيءٍ أحبُّ إليك؟

قال: شعر حسن، ويذهب عني هذا الذي قد قذرني الناس.

فمسحه، فذهب عنه، وأعطي شعراً حسناً.

قال: فأي المال أحب إليك؟

قال: البقر.

فأعطي بقرة حاملاً، وقال له: بارك الله لك فيها.

قال: فأتى الأعمى (أي: أتى الملك الرجل الأعمى).

فقال: أي شيء أحب إليك؟

قال: أن يردّ الله بصري، فأبصر به الناس.

فمسحه، فردّ الله إليه بصره.

قال: فأي المال أحب إليك؟

قال: الغنم.

فأعطي شاة والداً.

قال الرسول ﷺ: فأنتج هذان، وولد هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم.

قال الرسول ﷺ: ثم إنه (أي الملك) أتى الأبرص في صورته وهيئته، (أي: أتاه على صفة رجل مريض بداء البرص، كما كان هذا الرجل قبل أن يرفع الله عنه ضره).

فقال له: رجل مسكين، قد انقطعت بـي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال، بعيراً أتبلغ به في سفري.

فقال: الحقوق كثيرة.

فقال: إنه كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيراً، فأعطاك الله مالاً؟

فقال له: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر.

فقال: إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت.

قال رسول الله ﷺ: وأتى الأقرع في صورته (أي: وأتى الملك الأقرع في مثل الصورة التي كان الأقرع عليها من قبل).

فقال له: مثل ما قال لهذا (أي للأبرص) ورد عليه مثلما رد عليه هذا.

فقال: إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت.

قال: وأتى الأعمى في صورته وهيئته.

فقال: رجلٌ مسكين، وابن سبيل، انقطعت بـي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري.

قال: قد كنت أعمى فرد الله إلي بصري، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله لا أجْهَدُك اليوم بشيء أخذته لله.

فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رُضي عنك، وسُخط على صاحبيك.

ومضمون الامتحان الذي جاء في هذه القصة يتكرر كثيراً في حوادث الدهر، في كل عصر، وفي كل مصر.

(ل) وأبان الرسول ﷺ أن بذل الزائد عن حاجة الإنسان هو خير له، وأن إمساك الزائد عن حاجته شرٌّ له.

روى مسلم عن أبي أمامة صُدَيّ بن عجلان قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ابن آدم، إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شرٌّ لك، ولا تُلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى».

أي: وابدأ بالإنفاق على من تجب عليك إعالتهم من الوالدين والأقربين، والزوجة والذرية والخادم، ثم انتقل إلى الإنفاق على غيرهم.

(م) وروى البخاري ومسلم عن عدي بن حاتم، أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة».

(ن) وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله ﷺ قال:

«أربعون خصلة أعلاها مَنيحة العنز، ما من عامل يعمل بخصلةٍ منها رجاء ثوابها وتصديقَ موعودها، إلا أدخله الله بها الجنة».

منيحة العنز: المنيحة من كل ذات لبن من النعم هي التي تُعار لتحلب وينتفع منها بحليبها، ثم ترد لصاحبها. ففي المنيحة فعل من الخير يتمثل بإهداء لبنها أو الصدقة به.

(س) وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص، أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال:

«تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف».

دلت جملة النصوص الإسلامية على حرص الإسلام الشديد أن يربي في المسلمين خلق حب العطاء، على أن يكون في وجوه الخير وابتغاء مرضاة الله. كذلك نهت النصوص عن الإسراف والتبذير في الأمور التي لا خير فيها، وأرشدت إلى منهج الاعتدال بين البسط والقبض، وأبانت أن صفة الكمال الخلقي في الإنسان أن يكون في نفقاته الخاصة مقتصداً معتدلاً، لا مسرفاً ولا مبذراً، وأن يكون في البذل في وجوه الخير ابتغاء مرضاة الله جواداً سخياً. وعلمتنا النصوص الإسلامية أنه لا إسراف في فعل الخير مهما بلغ البذل فيه، ولا تبذير في بذلٍ يرضي الله تعالى مهما كان قدره، فالباذل في ذلك تاجر في عمله، بل هو أطمع الناس بالربح المضاعف، ولكنه طمع في فضل الله وثوابه العظيم، إذ يعلم أن الحسنة في ابتغاء مرضاة الله بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة لا يعلم مقدارها إلا الله تبارك وتعالى.

أما البذل في الشهوات الخاصة فهو في أدنى التقادير سيحاسب عليه حساباً يسيراً، فما للعاقل وللحساب، وميادين الربح الكثير الكثير مفتحة له فيها الأبواب؟!

إن التاجر العبقري هو التاجر الذي يعرف كيف يبذل ماله ليغنم مئات الأضعاف وما فوق ذلك، وهو تاجر من حق العقلاء أن يغبطوه في أمره، ويتمنوا لو كان لهم مثل خلقه في البذل في سبيل الله، وعندهم ما يتاجرون به مثل تجارته العظيمة الرابحة التي تفوق أرباحها كل الأرباح التي تقع في تقدير حساب الناس.

لذلك أبان الرسول ﷺ أن مثل هذا الرجل هو أحد رجلين يحق للمؤمن أن يحسدهما حسد غبطة على ما آتاهما الله من فضله. وحسد الغبطة أن يتمنى الإنسان لنفسه مثل ما لأخيه، وهو يسأل الله أن يديم نعمته على أخيه، ولا يخطر في فكره وقلبه رغبة بزوالها عنه، فقال صلوات الله عليه: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها».

فغبطة هذين الرجلين غبطة في أعظم ميدانين من ميادين الخير، ميدان بذل المال في طاعة الله، وميدان بذل العلم والحكمة في القضاء والتعليم.

لكن معظم الناس يبخلون أو يبذلون على أنفسهم وأهليهم بإسراف وتبذير، فإذا دعاهم الداعي إلى البذل في ميادين الخير ابتغاء مرضاة الله إذا هم يبخلون أو يشحون، وإن بذلوا شيئاً فإنهم يرشحون رشحاً بتقدير وتقتير.

والمال الضائع التالف عند الكثرة الكاثرة من الناس أحب إليهم من المال الباقي، ومال وارثهم أحب إليهم من أموال أنفسهم، وذلك لأن ما يبذلونه على شهواتهم إسرافاً وتبذيراً مالٌ تالف وهم يحبون ذلك، وما ينفقونه في سبيل الله مالٌ باقٍ ونامٍ، إذ ينميه الله حتى تكون الحبة كالجبل، وهم يكرهون ذلك، ولا تندفع نفوسهم إلى ادخاره عند الله، وتخليده في خزائن رحمته وفضله. والذين يبخلون يكنزون المال لوارثهم، وهم يحبون ذلك، فمال وارثهم أحب إليهم من مالهم، لأن ما يجمعونه بالكد والجهد، سيأخذه الوارث بالراحة التامة من غير كد ولا جهد، وهذا ما أبانه الرسول ﷺ لأصحابه، فقال لهم: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟» قالوا: يا رسول الله ما منا أحدٌ إلا ماله أحب إليه، قال: فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخّر».

وارتقاءً بالمسلم إلى المقام الأسمى من مقامات العقل والحكمة، عمل الإسلام على تربيته بالوسائل الكثيرة المختلفة على خلق حب العطاء، ومن هذه الوسائل وعد المنفق بالإخلاف، وإنذار الممسك بالإتلاف، فقال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً».

وفي الحديث القدسي أن الله تعالى قال: «أنفق يُنفق عليك».

وقال الله تعالى في سورة (سبأ ٣٤):

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٣٩﴾.

وقال رسول الله ﷺ لأسماء بنت أبي بكر: «لا توكي فيوكى عليك» وقال

لها: «أنفقي أو انفحي أو انضحي ولا تحصي فيحصي الله عليك، ولا توعي فيوعي الله عليك».

وقال ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال».

وأعطى الرسول ﷺ مثلاً رائعاً للمنفق والبخيل، وكيف أن المنفق بسماحة نفس تساعده نفسه على البذل، فكلما بذل تدرب على البذل وسهل عليه حتى يكون عادة له وخلقاً، فيكون بذلك جواداً، وكيف أن البخيل تكز نفسه فلا تساعده على البذل فلا يبذل، فيتدرب على البخل حتى يكون له عادة وخلقاً. فالباذل تلين له فطرة التقتير كصاحب الدرع الذي تتسع درعه كلما شد من أطرافها، والباخل تتصلب فيه فطرة التقتير، كصاحب الدرع الذي تلزق حلقات درعه في مواضعها فتضغط على صدره كلما دعاه الداعي إلى البذل، فقال صلوات الله عليه: «مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفي بنانه وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع».

فدل هذا الحديث على عنصر فطرية الخلق، وعلى قابليته للتعديل بالممارسة والتدريب العملي، فالمنفق كان أول الأمر كالبخيل يشبهان لابسي درعين من حديد متساويين، وكأن الدرع مثال لما يضغط على الصدر عند إرادة النفقة، فمن يتدرب على البذل تنفتح نفسه كما يتسع الدرع فلا يكون له ضغط، وأما من يعتاد الإمساك فيشتد ضاغط البخل على صدره، فهو يحس بالضيق الشديد كلما أراد البذل، ومع الزمن يتصلب هذا الضاغط.

فنستفيد من هذا الحديث وسيلة التدريب العملي لاكتساب الخلق.

ومن الوسائل التي اتخذها الإسلام لتربية خلق حب العطاء ترتيب الجزاء العظيم، والوعد بالثواب الجزيل المضاعف يوم القيامة، للذين يبذلون من أموالهم في سبيل الله وابتغاء مرضاته، والوعد بتكفير السيئات والوقاية من عذاب النار. فمن ذلك:

قول الرسول ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة».

وقول الرسول ﷺ: «أربعون خصلة أعلاها منيحة العنز، ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها وتصديق موعودها إلا أدخله الله بها الجنة».

وقول الرسول ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربِّيها لصاحبها كما يربـي أحدكم فَلُوَّه حتى تكون مثل الجبل».

فمقدار التمرة يتصدق به المؤمن من كسب طيب ينميه الله عنده حتى يكون مثل الجبل، ويربيه الله بعناية كما يربـي صاحب الخيل مهره بعناية فائقة حتى يكون فرساً جواداً.

وعلمنا الرسول ﷺ خمس قواعد ذهبية إذ قال: «يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خيرٌ لك، وإن تمسكه شرٌ لك، ولا تُلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السُّفلى».

فالقاعدة الأولى: إنك إن تبذل الفضل خير لك، والفضل هو ما زاد عن حاجة الإنسان في عيشه وعيش أهله.

هذه القاعدة النبوية تبين أن بذل الزائد عن الحاجة في وجوه الخير ابتغاء مرضاة الله، هو في كل الأحوال خير للإنسان وأفضل له، لأن بذله تجارة رابحة، وخلاص من مسؤولية ادخاره وحفظه واحتمالات منع الحقوق التي تتعلق به، وخلاصٌ من مزالق الافتتان به والطغيان بسببه.

والقاعدة الثانية: إن تُمسك الفضل شرٌّ لك.

وهذه القاعدة النبوية تبين أن إمساك الأموال الزائدة عن الحاجة شرٌّ للإنسان، ويظهر أن سبب كونه شراً أنه يتضمن في أول الأمر حرماناً من الخير العظيم الذي يغنمه الباذل في سبيل الله، والحرمان من الخير العظيم هو شر، وأنه يعرض ممسكه لمسؤولية ادخاره واحتمالات منع حقوق الله فيه، ثم يعرضه ثالثاً إلى مزالق الافتتان به والطغيان بسببه.

والقاعدة الثالثة: ولا تُلام على كفاف.

وهذه القاعدة تتصل بالقاعدة الثانية، وفيها توضيح لجانب السلامة والأمان، من مسؤوليات السؤال عن المال، واحتمالات السقوط في مهاوي الفتنة والهلاك، والوقوع في الشر بسببه.

والقاعدة الرابعة: وابدأ بمن تعول. أي وابدأ عند بذل المال بالإنفاق على من تعول من أهلك وأولادك وأبويك وسائر من تجب عليك نفقته.

وهذه القاعدة تشعر بأن الأقربين من بعد من يعول هم أحق بالبذل إليهم من غيرهم، على أن هذه الحقيقة قد جاءت مصرحاً بها في أحاديث أخرى.

والقاعدة الخامسة: واليد العليا خير من اليد السفلى.

وهذه القاعدة تتضمن توجيهاً تربوياً مهماً، ألا وهو إيقاظ مشاعر الكرامة الإنسانية، إذ تدفع الإنسان إلى أن يسعى جهده حتى يكون من أهل البذل وأصحاب اليد العليا المنفقة، لا من الذين هم عالة على غيرهم، أو من أصحاب اليد السفلى التي تأخذ الصدقات، ما لم تدعه الضرورة الملحة إلى شيء من ذلك.

إن المسلم الذي يشعر بكرامة نفسه ويجد سبيلاً لعمل يجني منه الرزق، لا تطاوعه نفسه أن يقعد عن العمل اتكالاً على ما ينفقه عليه المحسنون، أو ما يأخذه من صدقات المتصدقين، بل يكافح ويكدح ويعمل حتى يعف نفسه وأهله وذويه أولاً، ثم يكون من أصحاب اليد العليا التي تبذل الفضل، وتجود بالعطاء على ذوي الحاجات. والقادر على العمل والكسب هو غني بكسبه ما وجد إلى العمل والكسب سبيلاً، فليس له أن يسأل الناس وأن يقبل صدقاتهم.

٣ ــ التحذير من البخل:

(أ) قبل أن يحذر الإسلام من الشح والبخل، ويذم الأشحاء والبخلاء، أبان حقيقة من شأنها أن تشعر الإنسان بأنه ليس من حقه مطلقاً أن يبخل بشيء يقع تحت يده.

هذه الحقيقة هي أن أي شيء يملكه الإنسان في الصورة وفي عرف الناس، هو في حقيقته ملك لله، والإنسان موظف على إدارته، ومستخلف فيه.

قال الله تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

ففي هذا النص القرآني بيان من وجهين:

الأول: أن جميع ما في السماوات والأرض مملوك لله تعالى، وأنه داخل تحت سلطان ملكه.

الثاني: أن ما تحت أيدي الناس من أموال هي لله تعالى، ولكن الله تعالى قد جعلهم مستخلفين فيها، ليمتحنهم في تصرفاتهم، وليختبر كيف تكون طاعتهم لأوامره ونواهيه، ولذلك قال تعالى: ﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ أي: ليس لكم فيه ملك كامل ثابت، ولكن لكم فيه استخلاف مؤقت، وهذا الاستخلاف عُرضة للتبديل والتغيير من شخص لآخر، ومن أمة لأخرى، ثم يكون الميراث الحقيقي لمن له الملك الحقيقي، وهو الله تعالى مالك كل شيء، ولذلك قال الله تعالى في سورة (مريم ١٩):

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

ومع أن التغيير والتبديل في الاستخلاف من شخص لآخر، ومن أمة لأخرى، ظاهر في سنن الله الدائمة، فقد صرح به القرآن منبهاً عليه في مناسبات شتى، فمن ذلك قول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

ففي هـذه الآية تهـديد ربـاني بتحويـل الاستخـلاف، حينـما يسيء المستخلفون، ويتعدّون الحدود التي حدها لهم من استخلفهم.

أما الوعد الرباني بالاستخلاف المستقر الثابت، فهو للذين آمنوا وعملوا الصالحات، ويستقر لهم الاستخلاف ما داموا متحلين بالصفات التي تؤهلهم له، فإذا فسدوا وانحرفوا كان شأنهم عرضة للتغيير والتبديل بحسب حكمة الله، كشأن غيرهم من الأمم، وهذا الوعد الرباني نجده في قول الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

وهكذا أكدت لنا النصوص أنّ الناس مستخلفون استخلافاً فيما تحت أيديهم، ممّا يرون أنهم مالكون له، وليسوا مالكين ملكاً حقيقياً.

وحينما نطلق كلمة الملك بالنسبة إلى الناس، فإنما نطلقها بمعنى إباحة التصرف بما تحت أيديهم، بموجب الإذن الرباني، وبالإضافة إلى مبادىء الحقوق فيما بينهم. أما بالنظر إلى الحقيقة الكبرى وواقع الأمر فالملك لله، وقد استخلف الله الناس فيما جعل تحت أيديهم من ملكه العظيم، مع أنهم وما استخلفهم فيه مملوكون لله خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم عز وجلّ.

(ب) وبعد أن أبان الإسلام الحقيقة السابقة حذّر من الشح والبخل تحذيراً شديداً، وبين أن الشح قد كان سبباً في إهلاك الأمم السابقة، إذ حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلّوا محارمهم.

روى مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشحّ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم».

وحذّر الله البخلاء من عاقبة بخلهم ببذل ما فرض الله عليهم بذله، فقال تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾.

ففي هذه الآية تخويف شديد من عقاب الذين يبخلون، فلا يؤدون ما فرض الله في أموالهم من حقوق، وإقناع لهم بأن بخلهم بما آتاهم الله من فضله شرٌّ لهم وليس خيراً لهم. والعاقل الرشيد إنما يسعى لجلب الخير لنفسه وإبعاد الشرّ عنها.

والعذاب الذي يخوّفون منه هو أنهم سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة، فما المراد من هذا التطويق؟

هو على وجه العموم تطويق عذاب بالشيء الذي بخلوا به في الدنيا، إنهم لـمّا جعلوا أيديهم مغلولة إلى أعناقهم، فلم يبذلوا ما فرض الله في أموالهم، عوقبوا يوم القيامة بعقاب من جنس عملهم، إذ يجعل ما بخلوا به غلاً في أعناقهم يشتد عليها بالعذاب، وقد جاء في كلام الرسول ﷺ تفسير هذا الغلّ بأنّه ثعبان مخيف أقرع من شدّة سُمّه، يطوقه يوم القيامة، ثمّ يأخذ بشدقيه، ثمّ يقول له: أنا مالُك، أنا كنزك.

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته، مُثِّل له مالُه يوم القيامة شجاعاً أقرع[1] له زبيبتان[2] يطوّقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه ــ يعني شدقيه ــ ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك، ثم تلا رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿ولا يحسبنّ الذين يبخلون

(١) الشجاع الأقرع: هو الثعبان الخبيث الذي سقط شعر رأسه من كثرة سمه.
(٢) له زبيبتان: أي له نقطتان سوداوان فوق عينيه وهما تدلان على أنه من الأفاعي الخطيرة السامة.

بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم، بل هو شرّ لهم، سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة، ولله ميراث السماوات والأرض، والله بما تعملون خبير﴾.

وبعد التخويف من هذا العذاب ختم الله الآية، بإعلان الحقيقة الكبرى التي تثبت أن الإنسان مستخلف فيما تحت يديه من أموال، وأن الميراث لله تعالى، فقال تعالى: ﴿ولله ميراث السماوات والأرض﴾ وبعد ذلك نبّه على حقيقة عِلْمِه تعالى بما يعمل الناس فقال: ﴿والله بما تعملون خبير﴾.

وقال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

فبشرهم بعذاب إليم: استعملت البشارة في جانب الإخبار بالعذاب الأليم على سبيل التهكم، وذلك لأنهم ينتظرون من كنزهم في الدنيا بشارات سارة تأتيهم، ممّا يمتعهم أو يضاعف ثرواتهم، فجاءت البشارة لفظاً فقط، وهي في الحقيقة إنذار، وفي تغليف الإنذار لهم بعبارة البشارة، تعذيبٌ نفسي لهم، في مقابل فرحهم في الدنيا بما كنزوا ومنعوا حقوق ذوي الحقوق.

وصورة العقاب للذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، أن يؤتى يوم القيامة بصفائح من ذهب وفضة، على مقدار ما كنزوا، فيحمى على هذه الصفائح في نار جهنم، حتى إذا اشتدّت حرارتها وتوهجت، جاءت بها ملائكة العذاب، فيكوونه من جهاته الأربع، يكوون بها جبهته وجنبَيْه وظهره.

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة صفّحت له

صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما ردَّت أعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار».

وقد دل هذا الحديث على أن عذاب الكانزين، بالكيّ، بالصفائح المحماة في نار جهنم، يكون يوم القيامة، والناس في موقف الحساب، قبل أن يتم القضاء بين العباد، ويؤخذ أهل الجنة للجنة وأهل النار للنار.

أما مانعو زكاة الإبل والبقر والغنم وغيرها من الأموال، فقد سئل الرسول ﷺ عنها كما جاء في تتمة هذا الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة، وأجاب الرسول بما يعلم مما أنزل عليه.

قال أبو هريرة: قيل: يا رسول الله فالإبل؟ قال: «ولا صاحب إبلٍ لا يؤدي منها حقها ـ ومن حقها حلبُها يوم وردها ـ إلا إذا كان يوم القيامة، بطح لها بقاعٍ قرقر (أي: بُطح لها صاحبها بأرض واسعة ملساء مستوية) أوفر ما كانت، لا يفقد منها فصيلاً واحداً، تطؤه بأخفافها، وتعضه بأفواهها، كلما مر عليه أُولاها رُدّ عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار».

فقيل له: يا رسول الله، فالبقر والغنم؟. قال: «ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يومُ القيامة، بطح لها بقاعٍ قرقر، لا يفقد منها شيئاً، ليس فيها عقصاء[1] ولا جلحاء[2] ولا عضباء[3] تنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار».

قيل: يا رسول الله، فالخيل؟. قال: «فالخيل ثلاثة: هي لرجل وزر،

---

(١) عقصاء: أي ملتوية القرنين.

(٢) جلحاء: أي لا قرون لها.

(٣) عضباء: أي مكسورة القرن.

وهي لرجل ستر، وهي لرجل أجر، فأما التي هي له وزر، فرجل ربطها رياءً وفخراً ونواءً[1] على أهل الإسلام، فهي له وزر. وأما التي هي له ستر، فرجل ربطها في سبيل الله، ثم لم ينس حق الله في ظهورها ولا رقابها، فهي له ستر. وأما التي هي له أجر، فرجل ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام، في مرج أو روضة، فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شيء إلاّ كتب له عدد ما أكلت حسنات، وكتب له عدد أرواثها وأبوالها حسنات، ولا تقطع طِوَلَها (أي: حبلها) فاستنّت شرفاً أو شرفين (أي: ركضت شوطاً أو شوطين) إلاّ كتب الله له عدد آثارها وأرواثها حسنات، ولا مرّ بها صاحبها على نهر فشربت منه ولا يريد أن يسقيها، إلا كتب الله له عدد ما شربت حسنات».

قيل: يا رسول الله، فالحُمُر؟ قال صلوات الله عليه: «ما أنزل عليّ في الحُمُر شيء إلا هذه الآية الفاذة الجامعة: ﴿فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره﴾».

وفي إشارة الرسول ﷺ إلى هذه الآية توجيه إلى أن جميع أصناف الأموال فيها بذل يدخل في عموم الخير، وفيها منع يدخل في عموم الشرّ، ولكلٍّ منهما جزاء بحسبه.

ويدل على أن جميع أصناف الأموال فيها حقّ للسائل والمحروم، قول الله تعالى يصف المتقين في سورة (الذاريات ٥١):

﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾.

وقول الله تعالى في سورة (المعارج ٧٠):

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥﴾.

(١) نواء على أهل الإسلام: أي منازعة ومعاداة لهم.

فذكر الله سبحانه عموم الأموال، ولم يخصص منها صنفاً دون صنف.

(ج) وذكر الله من صفات المختالين الفخورين، أنهم يبخلون، ويأمرون الناس بالبخل، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله، وأبان أنه لا يحبّهم، وأنهم كافرون بأنعم الله عليهم، وأنه أعتد لهم عذاباً مهيناً، فقال تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾.

لدى التبصر في واقع أحوال الناس، نلاحظ تشابكاً في كثير من الظواهر السلوكية الدالة على بواعث خلقية في النفس، وقد تختلف الظواهر أو تتباين، ولكنها ترجع إلى جذور خلقية واحدة.

وهنا نلاحظ أن معظم المستكبرين في نفوسهم، والذين يعبرون عن استكبارهم بالاختيال إذا مشوا بين الناس، وبالافتخار عليهم؛ هم بخلاء بأموالهم، بخلاء بأنفسهم وخدماتهم ومعوناتهم، بخلاء بجاههم، لا يحبون العطاء، ويأمرون بالبخل، لأنهم يكرهون في أنفسهم أصل العطاء، سواء أكان منهم أو من غيرهم، ولأنهم لا يريدون أن يوجد في الناس من ترتفع مكانته عليهم بعطائه، ولستر نقيصة البخل فيهم يكتمون ما آتاهم الله من فضله، فلا يظهرونه، وقد يتظاهرون بعدم السعة.

يضاف إلى ذلك أنّ المصابين بداء الكبر النفسي، يفقدون في الواقع العناصر الحقيقية التي ترفع أقدارهم بين الناس إلى المستوى الذي يطمحون إليه، لذلك فهم يحرصون على امتلاك كل شيء يشعرهم امتلاكهم له بارتفاع قدرهم بين الناس، ولذلك فإن من أشدّ الأمور على نفوسهم أن يتنازلوا عن شيء منه بعطاء. وفوق ذلك لا يريدون من غيرهم أن يصدر عنهم عطاء، حتى لا يساعدهم هذا على منافستهم في مكانتهم، التي بنوها لأنفسهم بأوهامهم، ورفعوا قواعدها بتخيلاتهم.

ومن البواعث التي تجعل هذا الفريق من الناس يأمر بالبخل، حرصهم على عدم توسيع دائرة الطبقة الاجتماعية التي هم منها، ومحافظتهم على الفوارق الطبقية بينهم وبين الفقراء، وهذا يرجع إلى عنصر الكبر الطبقي، وقد يتعلّلون بأن المشيئة الإلهية أرادت أن يكون في المجتمع طبقة فقراء أذلاء، وطبقة أغنياء أعزاء، فيقولون كما أخبر الله عنهم في سورة (يس ٣٦):

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾.

فهم يتعلّلون بأن مشيئة الله أرادت أن تجعل الفقراء في مرتبة دنيا في الحياة، فليس من الهدى معاكسة هذه المشيئة الربانية، وإطعام ذوي الحاجة من الفقراء والمساكين، ويغمضون أعينهم عن حكمة الامتحان، وأنّ الله قد أغناهم ليمتحن شكرهم لله بعطاء ذوي الحاجات، وأفقر أولئك ليمتحن صبرهم، ورضاهم عن الله، وبعدهم عن الحسد. إنهم يصرفون عن أفكارهم تصوّر هذه المعاني، لأن أهواءهم تشدّهم إلى مواقع الاستكبار البخيل، والبخل المستكبر.

٤ ـ التوجيهات الإسلامية لإنفاق الأموال في سبيل الله:

أغلى المال وأعزّه على نفس مالكه ما وصل إليه بجهد بذله، إذ يشعر مالكه بأنه قيمة لما بذل في تحصيله من جهد، وكثيراً ما يكون المال قيمة اعتبارية يقدّر بها نسبة الجهد المبذول والطاقة المنفقة، فالقيمة الحقيقية هي للطاقة التي تبذل، والمال رمز لها، على أنّ الطاقة النافعة هي أثمن ما يملك، وأكرم ما يبذل، ولذلك كان العمل الصالح هو الثمن الذي تنال به المراتب الرفيعة في جنة الخلد، ولا يكون العمل إلا ببذل الطاقة، والطاقة جزء من كيان حياة الإنسان، وحياة الإنسان المشتملة على أنواع طاقاته هي رأس ماله، وهي الكنز الثمين الذي وهبه الله إياه.

وبهذه الاعتبارات المتداخلة يحب الناس المال، ويعتبرونه شقيقاً للروح، وبهذه الاعتبارات كان عطاء المال في سبل الخير من كبريات الفضائل، وبهذه

الاعتبارات اشترك الجهاد بالمال مع الجهاد بالنفس في مجال فضيلة واحدة من فضائل الأخلاق وفضائل السلوك.

ولذلك جمع القرآن الكريم في آيات متعدِّدة بين الجهاد بالمال والجهاد بالنفس، إشارة إلى اشتراكهما في مجال فضيلة واحدة، وإشارة إلى ضرورتهما أو الحاجة الماسة إليهما في أمور كثيرة من أمور الحياة، ومن هذه الأمور الدعوة إلى دين الله، وإقامة الحق والعدل بين الناس.

ونستعرض فيما يلي طائفة من النصوص الإسلامية التي توجه المسلمين إلى إنفاق أموالهم في سبيل الله.

(أ) يقول الله تعالى في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾.

فقد جعلت هذه الآية من أبرز سمات المؤمنين ثباتهم على عقيدتهم، وجهادهم بأموالهم وأنفسهم، لكنّ الشرط الذي لا بدّ منه في هذا الجهاد هو أن يكون في سبيل الله.

(ب) ويقول الله تعالى في سورة (الصفّ ٦١):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ؟ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

ففي هذا النص القرآني إرشاد إلى تجارة عظيمة منجية، وقد جاء هذا الإرشاد في صورة استفهام مملوء برقة الدعوة﴿هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب إليم؟﴾.

وبعد بيان العناصر التي أرشد إليها القرآن، وهي الثبات على الإيمان، والارتقاء في منازله، والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس، جاءت الإشارة إلى الأساس الأخلاقي العام الذي ترتكز عليه هذه العناصر، ألا وهو الأخذ بمبدأ الخير﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿إن كنتم تعلمون﴾ توجيه إلى أن هذا الأساس الأخلاقي في هذه العناصر أساس علمي ثابت، ومبدأ لا يجحده أهل البحث العلمي السليم، بل يثبتونه ويقرّونه ويأخذ به العقلاء منهم.

وفي قوله تعالى: ﴿يغفر لكم ذنوبكم، ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار، ومساكن طيبة، في جنات عدن، ذلك الفوز العظيم، وأخرى تحبّونها: نصرٌ من الله وفتح قريب، وبشر المؤمنين﴾، بيان لثمرات التجارة الرابحة التي أرشد إليها النص، وهي:

أولاً: أن الله تعالى ينظر إلى صدق الذين آمنوا بالله ورسوله، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، فيغفر لهم ذنوبهم، ويكفر عنهم سيئاتهم.

ثانياً: أنّ الله تعالى يجزيهم بالنعيم المقيم في دار الخلد، وذلك هو الفوز العظيم.

ثالثاً: أنّ الله تبارك وتعالى يمنحهم ثواباً معجّلاً يحبّونه ويرجونه في الدنيا، ألا وهو النصر على أعدائهم، والفتح القريب الذي يظفرون فيه بالمجد العظيم والمغانم الكثيرة. وقد تحقّق وعد الله، وما يزال يتحقق في كلّ زمان.

(ج) ويقول الله تعالى في سورة (فاطر ٣٥):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾.

هذا النص من النصوص التي نزلت في المرحلة المكية قبل أن يأتي دور

الجهاد ببذل النفس، ولذلك كانت الدعوة القرآنية حينئذٍ توجّه للإنفاق في سبيل الله، وتُبين أنّ الأخذ بهذه الفضيلة أخذ بتجارة لن تبور، نظراً إلى أن بذل المال شقيق بذل الروح، ومرحلة العمل هي التي تحدّد ما ينبغي على المؤمنين بذله من مالٍ أو نفس، أو مالٍ ونفس معاً.

وفي المرحلة المكية كانت الدعوة إلى بذل المال، بالإضافة إلى المقوّمات الأخرى الفكرية والنفسية والجسدية واللّسانية، هي الدعوة التي تستدعيها هذه المرحلة بالذّات. ولذلك نجد في هذا النصّ توجيهاً لتلاوة القرآن، لاكتساب المعرفة الدينية الحقة، وترسيخها في أفكار المؤمنين ونفوسهم، ونجد توجيهاً لإقامة الصلاة، لاكتساب الصلة الروحية بالله، ثم توجيهاً للإنفاق في سبيل الله. ولكلّ ذلك تُرجى التجارة التي لن تبور، أي: لن تكسد، فهي إذن تجارة رابحة، إذ يوفيهم الله أجورهم، ويزيدهم من فضله عطاءً، ويغفر لهم خطاياهم، ويشكر لهم صالحات أعمالهم، ﴿إنه غفور شكور﴾.

(د) ويقول الله تعالى في سورة (سبأ ٣٤):

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

ففي هذا النص القرآني بيان لجملة من الحقائق المشجعة على الإنفاق في سبيل الله:

* أنّ الرزق بيد الله.

* أنّ الله هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدِر له، فليست القضية قضية جهد ولا ذكاء شخصي.

* أنّ الله يُخلف للمنفقين في سبيله ما أنفقوه.

* أنّ الله هو خير الرازقين، فيرزق عباده وفق مقتضيات حكمته.

(هـ) ويقول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ
فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ
أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ
وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ
يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ
وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ
صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا
كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ
ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ
فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾
أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ
فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ
فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا
تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ
غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾ .

هذا نصّ عظيم في التوجيه للإنفاق الكريم المطلوب في الإسلام، المقرون بابتغاء مرضاة الله، وإكرام المبذول له في ذات نفسه وفيما يُبذل له.

والآية الأولى من هذا النصّ، تصوّر مبلغ الربح العظيم الذي يحققه الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، فهو يتضاعف عند الله إلى إضعاف كثيرة، وتغمز في النفوس مركز الطمع، فتثيره إثارة قوية جدّاً، فيندفع إلى البذل في سبيل الله أملاً بتحقق الربح الكبير.

ومن بديع ما جاء في هذه الآية أنّها لم تقل مباشرة: إنّ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله يضاعف لهم الثواب إلى سبعمائة ضعف، ولكنّها دلّت عليه في صورة تشبيهية، إذ شبهته بعمل زراعيّ عظيم الإنتاج، تنبت فيه الحبة الواحدة سبع سنابل، وتحمل كلّ سنبلة منها مائة حبّة، وبعملية حسابية بسيطة يعطي ناتج الضرب سبعمائة.

والغرض من الإعلام بالأجر العظيم عن طريق هذا التشبيه، اجتذاب نفس السامع إلى عذوبة العرض وحلاوة التشبيه، ووضع المضاعفة الحسابية في صورة مشهودة، واستغلال فكرة الإنسان عن واقع النماء الزراعي الذي يعتمد على فضل الله في الحياة، لتقريب فضل الله العظيم جزاء ما يزرعه الإنسان في هذه الحياة من عمل صالح يقصد به وجه الله تعالى. فإذا كانت الزراعة في الأرض قد تعطي هذه المضاعفة في الربح، بفضل ما أودع الله فيها من خصائص مادّية، فكيف تكون زراعة العمل الصالح والنفقة المراد بها وجه الله في جنّة مرضاة الله؟ كيف تكون المضاعفة فيها، وهي المجال الأعظم الذي يظهر فيه عظيم عطاء الله الذي لا حدّ له، وعظيم فضله الذي لا انقطاع له.

لكنّ الإنفاق الذي ينال صاحبهُ عليه هذا الأجر العظيم عند الله تعالى له شروط، وهذه الشروط مبينة في الآية الثانية من النص، وهي قوله تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى * لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

* وقد اشتملت هذه الآية على بيان شرطين لسلامة الإنفاق ممّا يفسده:

الشرط الأول: أن يكون في سبيل الله، لا رياءً، أو طمعاً بمغانم ومنافع دنيوية، ولا يكون في سبيل الله إلاّ إذا كان موافقاً لشريعة الله لعباده.

الشرط الثاني: ألاّ يتبع المنفق نفقته بالمنّ ولا بالأذى.

ويكون المنّ بأن يتحدّث المعطي بعطائه أمام من أعطاه، أو أمام غيره من الناس، إشعاراً بالتفضّـل عليه، وللمنّ دركات بعضها أخسّ وأحطّ من بعض.

وفي المنّ كسر لقلب آخذ العطاء، أو إهانة لكرامته، ولذلك كان مفسداً للعطاء. والمنّ قد يؤثر على الإخلاص في العطاء، حتى يكون عطاء رياءٍ وسمعة، لا عطاءً في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وهو يحتُّ من الإخلاص بمقدار ما فيه من أهداف صارفة عن ابتغاء مرضاة الله تعالى.

أمّا الأذى في العطاء فله صور كثيرة منها ما يكون بالمنّ ومنها ما يكون بغيره. ومن الأذى عند العطاء إشعار الآخذ بنزول مكانته، أو إهانته عند عطائه، أو الاستعلاء عليه والاستكبار، أو توجيه عبارات نقد لاذع لسلوكه الذي أحوجه إلى تقبّل عطاءات الناس، أو التشهير به ولو بسلوك لا كلام فيه، كوضعه في موقف يعلم الناظرون إليه فيه أنه في موقف ذلّة ومهانة وحاجة، أو جعله يتردّد على الأبواب بالمواعيد التي لا تنجز، أو تسخيره بالأعمال المذلّة له، استغلالاً لحالته التي أحوجته إلى تقبّل عطاءات ذوي العطاء، وهكذا إلى سائر ما فيه إذلال له، أو إهانة لكرامته، أو استغلال لحاجته أو ضرورته.

وكثير من ذوي العطاء والإحسان يفسدون عملهم بمثل هذه الصور من الأذى، الذي يؤذون به من يعطونهم أو ينفقون عليهم من ذوي الحاجات.

* ولذلك أكّدَ الله تبارك وتعالى النهي عن إتباع الصدقة بالمنّ والأذى، في ثلاث صور:

الأولى: قوله تعالى: ﴿الذين ينفقون في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ وفي هذه الصورة بيان لمبلغ الأجر العظيم للمنفقين في سبيل الله، الذين لا يتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى.

الثانية: قوله تعالى: ﴿قولٌ معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم﴾ وفي هذه الصورة مقارنة بين عطاء يتبعه أذى، ومنعٍ مقرون بقول معروف رقيق الحاشية مهذب، وستر جميل لحال السائل، وبيان أن هذا خير وأكرم وأفضل.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى﴾ وفي هذه الصورة بيان أنّ إتباع الصدقة بالمنّ والأذى مبطل لها، مفسد لجوهرها الكريم، محبط للأجر عليها. وبهذا الإفساد اللاحق تكون الصدقة في سبيل الله مشابهة للصدقة التي لا يبتغى بها وجه الله.

ثم يتابع النصّ، فيشبّه من يبطل صدقته بالمنّ والأذى بالذي لا يُحسَب له عند الله عطاء أصلاً، لأنه لم ينفق في سبيل الله، وإنما أنفق رئاء الناس، وابتغاء ثناء أو منافع تأتي من قبلهم، فقال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى، كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾.

أي: فيكون مثلكم في النتيجة ـ إذ يحبط عملكم بالمنّ والأذى ـ كمثل الذي ينفق ماله رياءً وسمعة، وهو لا يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا هدف له يرجوه إلاّ المنافع الدنيوية العاجلة من الناس، ومن هذه المنافع ما يحقق لنفسه عندهم من مجد.

ثم انتقل النصّ فشبّه الذي ينفق ماله رئاء الناس وهو لا يؤمن بالله واليوم الآخر، بصورة مادية تتكرر في مشاهد الأحداث الكونية، فقال الله تعالى: ﴿فمثله كمثل صفوانٍ عليه ترابٌ، فأصابه وابل فتركه صلداً، لا يقدرون على شيء ممّا كسبوا، والله لا يهدي القوم الكافرين﴾.

الصفوان: هو الحجر الصلب الأملس.

الوابل: المطر الغزير.

فتركه صلداً: أي فتركه المطر الغزير حجراً يابساً أملس، لا يحفظ ماءً، ولا ينبت زرعاً.

وفي هذا التشبيه صورة بديعة جدّاً من التشبيه التمثيلي، الذي تمّ فيه تشبيه صورة ذات أجزاءٍ متعددة انتزع منها وجه شبه عامّ ذي أجزاء، بصورة ذات أجزاءٍ متعدّدة انتزع منها أيضاً وجه شبه عام ذي أجزاء.

فالذي ينفق ماله مرائياً به الناس، لينال من ألسنتهم مدحاً وثناءً، ومن قلوبهم تقديراً واحتراماً، ثم ليكون له منافع من قبلهم، إنسانٌ تاجر دنيا، وليس حبّ العطاء خلقاً أصيلاً في نفسه، وليس في نفسه أية غاية مثالية تدفعه إلى العطاء، لا سيما إذا كانت الصلة بينه وبين الله منقطعة تماماً، لأنه لا يؤمن بالله واليوم الآخر، فكيف يُتصوّر أن يكون له عند الله ثواب يضاعفه له بفضله في جنة خلده؟!.

إنه قد عمل عمله لتحصيل ثواب الدنيا، فله من ذلك على مقدار ما تعطي سنن الحياة الدنيا وقوانينها من ثواب، لا يُبخس من ذلك شيئاً، ولكن ليس له في الآخرة عند الله نصيب، لأنّ رحمة الله حينما تنزل عامة لا تجد في نفسه محلاً لها، فمثله إذن كمثل صخرة صمّاء قاسية ملساء، فُرش على سطحها تراب خفيف يخفيها عن الأعين، ثمّ زُرع في هذا التراب الخفيف الحبّ، رجاء أن يُنبت ويُثمر، ثم انتظر زارعه مطر السماء، فجاء غزيراً كثيراً، فلـمّـا أصابه لم يجد أرضاً طيبة تمتص الماء لتنبت الزرع، ولكن وجد صخرة قاسية ملساء، كنفس الكافر الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر، فما هي النتيجة الطبيعية المرتقبة؟

لا بدّ أن ينسفح التراب والحبّ معه عن الصخرة القاسية الملساء، وينجرف مع سيل الماء تالفاً، وتظهر الأرض الصلبة على حقيقتها أرضاً غير منبتة، ويعود الزارع خائباً خاسراً لا يقبض على أية ثمرة لما زرع.

وهكذا صوّر المثل البديع خيبة الذي ينفق ماله رئاء الناس وهو لا يؤمن بالله واليوم الآخر، المشبه به من يبطل صدقته بالمنّ والأذى.

ولما انتهت صورة المشبه به، استخلص القرآن النتيجة للمشبّه، وبنى الحكم على المشبه به كأنه هو المشبَّه نفسه، وجاء الحكم لهما معاً في قوله تعالى: ﴿لا يقدرون على شيء مما كسبوا﴾.

ثمّ كانت المحصلة الأخيرة خاصة بالمشبه به في قوله تعالى عند ختم الآية: ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي: ليس من صفاته سبحانه في قانون عدله أن يحكم بهداية الكافرين، وقد اختاروا لأنفسهم سبيل الضلال، والتزموا جانب الكفر.

ثم يعود النصّ فيأتي بمَثَلٍ للذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم، أي: وخلق حبّ العطاء ثابت أصيل في أنفسهم بتأثير إيمانهم وتربيتهم الإسلامية، أو تثبيتاً من أنفسهم لإيمانهم وإسلامهم وما يقتضيانه من سلوك في البذل، فقال الله تعالى: ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم، كمثل جنّة بربوة أصابها وابل فآتت أُكُلَها ضعفين، فإن لم يصبها وابلٌ فطلّ، والله بما تعملون بصير﴾.

إذا كان مثل أولئك كصخرة عليها تراب خفيف يجرفه مطر السماء إذا نزل، فإنّ مثل هؤلاء المؤمنين الطيبين الذين في نفوسهم خلق حبّ العطاء، ويبذلون ابتغاء مرضاة الله، كمثل جنّة سمينة التربة، على ربوة مرتفعة لا تغمرها السيول فتفسدها، ينزل عليها وابل من السماء، فتؤتي أكلها ضعفين، وهي خصبة في ذاتها، فلو لم يأتها الوابل لكفاها الطلّ، وهو المطر الخفيف. ثمّ يُختم المثل بما يتعلق بالممثّل له، فيقول الله تعالى: ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي: فهو بصير بظاهر عملكم وباطنه، وبمقاصدكم منه، فيجازي كلاً بحسب قيمة عمله.

ويتابع النص عناصر الموضوع فيأتي بمَثَلٍ خاصّ بالّذين يبطلون صدقاتهم بالمن والأذى، فيقول الله تعالى: ﴿أيودّ أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار، له فيها من كلّ الثمرات، وأصابه الكبر، وله ذرّية ضعفاء، فأصابها إعصار فيه نارٌ فاحترقت؟ كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾.

من البديع في هذا المثل أنه جاء مصدّراً باستفهام مثير لمن كان له عقل وبصيرة: «أيود أحدكم؟».

إنّ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، مثلهم كمثل زارع جنّةٍ عظيمة فيها ثمار مختلفات، فهو ينتظر لعاقبته وذرّيته منها خيراً عظيماً، فإذا أتبعوا ما أنفقوا بما يبطل صدقاتهم ويفسدها ويضيع عليهم أجرها كان مثلهم كمثل

صاحب الجنة الذي سبق الحديث عنه، إذا أصاب جنته ما أتلفها وأحرق زروعها وثمارها، فأمسى خاسراً، بعد أن كان الربح بين يديه حاضراً.

وقد جاء في هذا المثل تشبيه المنّ والأذى بالإعصار الذي فيه نار. والإعصار ريح شديدة عنيفة تهبّ بمستوى منخفض إلى الأرض، ثمّ تلتفّ على نفسها، فتكوّن زوبعة صاعدة إلى الأعلى بشكل عمودي، فتحمل معها ما تحمل، وتقلع من الأشجار ما تقلع، وتتلف من الزرع ما تتلف، فإذا كانت هذه الريح التي هي من رياح العذاب مصحوبة بنار محرقة كانت أشدّ ضرراً وأعتى أثراً.

ولتستكمل الصورة التمثيلية عناصرها المطابقة للممثَّل له، جاء وصف صاحب الجنة التي فيها من كلّ الثمرات بأنه قد أصابه الكبر، وله ذرّية ضعفاء. وكذلك حال المنفق في سبيل الله هو بحاجة ماسة في آخرته لثمرات ما أنفق، لقد بذل فكان ببذله يشبه زارعاً لجنة عظيمة، فيها من كلّ الثمرات، والأنهار تجري من تحتها وهو يرتقب الظفر بالأجر العظيم في عاقبته يوم القيامة، وأقرب صورة تشبه حالته من صور الأحداث الدنيوية، أن يكون صاحب الجنّة قد أصابه الكبر، وله ذرية ضعفاء، فهو حريص على أن يدخر هذه الجنة لهم، فهم عقبه الذين يخشى عليهم من الفقر والضياع، وهم عياله الذين يتعلقون به. ومن أصابه الكِبَر ينقطع في العادة أمله في استنبات جنّة جديدة ورعايتها، حتى تصبح ثروة جاهزة مدّخرة لذريته، فإذا أصابها الإعصار الذي فيه نار فأحرقها كان ذلك أكثر إيلاماً له، وأبلغ في المصيبة، لا سيما إذ لاحظنا أنّ الإنسان إذا كبر وشاب شبّت فيه خصلتان: الحرص وطول الأمل. لكنّ الذي يُتبع صدقته بما يبطلها ويفسدها، يفعل شراً من هذه المصيبة، إنه يفعلها مع نفسه طائعاً مختاراً عن رغبة منه بما يفعل، ولذلك صدر الله المثل بقوله: ﴿أيودّ أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب﴾. وهكذا انطلق النص في وصف ما في الجنة من خيرات، حتى إذا أبرزتها في أبهى حللها، وصوّرت مبلغ تعلّق صاحبها بها، إذ يريد أن يدخرها لصغاره الذين يحبهم أبلغ الحبّ، بسبب أنهم ضعفاء،

لا يستطيعون حيلة، وعند بلوغ الجنة ذروة كمالها، وبلوغ النفس ذروة التعلق بها، تحلّ مصيبة الإعصار الذي فيه نار، فيحرقها ويبدّدها.

وهكذا جمعت دقائق الصور الفنية المحتملة الوقوع في هذا المثل الرائع، لإيجاد أقرب صورة من الواقع المادّي، مناظرة في كثير من أطرافها لأجزاء صورة المشبّه.

تلك هي بلاغة القرآن، ولذلك ختم الله الآية بقوله: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ فالبيان عن طريق الأمثلة الحسية له تأثيره القويّ في النفوس، وهو أيضاً يفتح مجالات واسعة لتأملات الفكر في حقائق الأشياء، ويقرّب الأمور الفكرية المجرّدة والأمور الغيبة من الواقع التي تمتد إليها الحواسّ.

* وأخيراً يعالج النص نوعاً من البخل يجعل صاحبه يقصد الخبيث من ماله، فيختاره ليبذل منه ما يجب عليه من نفقة، فيقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيباتِ ما كسبتم، ومما أخرجنا لكم من الأرض، ولا تيمّموا الخبيثَ منه تنفقون ولستم بآخذِيه إلاّ أن تغمضوا فيه، واعلموا أنّ الله غنيٌّ حميد﴾.

ولا تيمموا: أي ولا تقصدوا.

ففي هذه الآية يأمر الله الذين آمنوا بأن ينفقوا من طيبات ما كسبوا من أموال، وبأن ينفقوا من طيبات ما أخرج الله لهم من الأرض من ثمرات ومن صنوف نباتات. وينهاهم عن أن يتقصدوا الخبيث من ذلك فينفقوه، ويجعلوه هو المال المخصّص عندهم للبذل في سبيل الله.

ما هو المراد من الطيب والخبيث؟

الطيب والخبيث لفظان متضادّان، وهما من الألفاظ العامة، ويوصف بهما موصوفات متضادة في خصائصها، بين الجودة والرداءة، والحسن والقبح، والطهر والنجاسة، والحلّ والحرمة، والتحلّي بفضائل الأخلاق والسلوك والتدنس برذائل الأخلاق والسلوك، والخصوبة والجدب، ونحو ذلك من متضادات كثيرة.

فيقال: طعام طيب وطعام خبيث. ورائحة طيبة وأخرى خبيثة. وأرض طيبة إذا كانت خصيبة منبتة، وأرض خبيثة إذا كانت سبخة لا تنبت. وثوب طيب أي طاهر. وشجرة طيبة وشجرة خبيثة.

ويكون الطيب والخبث في الأنفس، فيقال: طابت نفسه أو خبثت.

ويقال: كسب طيب إذا كان حلالاً، وكسب خبيث إذا كان حراماً. وهكذا إلى أمور كثيرة.

والمتبادر من هذه المعاني لحمل الآية عليه: أن يكون الطيب بمعنى الجيّد الحسن المقبول عند آخذ الصدقة، وأن يكون الخبيث بمعنى الرديء السيّء الذي لا يأخذه الإنسان إلاّ عن ضرورة أو حاجة مع الكراهية.

على أنّ كثيراً من المعاني الأخرى قد تكون مرادة أيضاً من النصّ، فإذا كان المنفق يعطي من أرضه للزراعة، فالمطلوب منه أن يعطي أرضاً طيبة خصبة منبتة، لا أرضاً خبيثة سبخة لا تنبت. وإذا كان يعطي من طعامه، فليعط من الجيّد اللّذيذ الطعم، لا من الرديء المكروه الطعم. كما عليه أن ينفق من حلال ما يكسب فهو الطيب الذي يقبل عند الله، أما المكاسب المحرمة فهي خبيثة. وهكذا.

﴿ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون﴾ في هذا نهي عن قصد الخبيث لتخصيص الإنفاق منه في سبيل الله[1]، أمّا إذا دخل الخبيث في ضمن الأشياء الجيدة المبذولة في النفقة فليس منهيّاً عنه، لأن الخبيث عندئذٍ لم يُقصد بالذات.

﴿ولستم بآخذيه إلاّ أن تغمضوا فيه﴾ يثير القرآن في هذه الجملة مبدأ معاملة الآخرين بما يريد الإنسان أن يُعامل هو به، فليفرض الباذل نفسه عند العطاء في موقف الآخذ لا في موقف المعطي، فماذا يكون منه إذا رأى الأشياء الخبيثة تقدّم له؟

---

(١) استفيد التخصيص من كلمة (تيمموا) ومن تقديم المعمول في (منه تنفقون) أي: منه تنفقون لا من غيره، فتخصّونه وحده بأن تنفقوا منه.

إنه إذا قبلها وأخذها فإنما يأخذها على مضض وكراهية، ولا يأخذها عن رغبة وإقبال، سواء أكان ذلك في معاملة بيع وشراء، أو تقاضٍ لحقّ، أو تقبّل لهدية، أو أخذٍ لصدقة. والمأخوذ على هذه الصفة تغمض العيون عند أخذه، ولولا الضرورة أو الحاجة أو التسامح لرفضه الآخذ ولم يقبله. إذن: فكيف يعمد الإنسان فيتقصّد خبيث ماله تقصّداً فينفق منه؟! إنّه بهذا لا يحسب حساباً لمشاعر الذين يقدّم لهم عطاءه، وكأنه يريد أن يتخلّص من الخبيث فيتصدق به وهو طامع بالأجر العظيم من وراء عمله، والله غني عن عباده، وهو سبحانه وتعالى طيب ولا يقبل إلاّ طيباً، وهو سبحانه حميد يشكر للذين ينفقون من طيب أموالهم.

ويلاحظ أن بعض الناس إذا اعتصروا من أنفسهم شيئاً من العطاء، فإنما يعطون ما يكرهون من أموالهم ولا يعطون ما يحبّون، ولا يعطون أيضاً من أواسط أموالهم، ضنّاً بالجيّد منها، واعتصاراً للرديء، مع كزازة في النفس وانقباض عن العطاء. هؤلاء فريق من الناس لم يكتسبوا بعدُ خلق حبّ العطاء، ولو أنّهم تربَّوْا تربية إسلامية صحيحة لكان لديهم من سماحة النفس وحبّ العطاء ما يجعلهم يبذلون بانشراح كامل من جيّد أموالهم وطيبها، لا من رديئها وخبيثها.

لكن لا حرج على من أدّى نفقاته الواجبة من طيب ما لديه من مال، ثم وجد عنده أشياء رديئة فأراد التخلص منها ببيع أو صدقة، أن يعرض الأمر على من يريد عطاءهم، ويبيّن لهم حاله، وواقع ما لديه من رديء، وأن ما يريد تقديمه هو نافلة على ما بذل من جيّد، فإن وجد عندهم استعدادا لتقبل هذا الرديء من غير كراهية، قدّمه إليهم معتذراً لهم، وشاكراً لهم سماحة نفوسهم، فهذا لا يدخل في عموم النهي، لأنه لم يقصد الخبيث بتخصيص نفقاته منه.

هذه وصايا للمنفق، وقد جاءت في الإسلام وصايا لجباة الزكاة، منها أن لا يَتَقصدوا كرائم أموال الناس فيأخذوها في الصدقة، وهم لذلك كارهون، بل يأخذونها من أوساط أموالهم.

(و) ثم قال الله تعالى عقب النص السابق من سورة (البقرة ٢):

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً
مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ
فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ
أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن
تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ
وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ
هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ
وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ
لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ
ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم
بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ
عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ
أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

بعد التوجيهات السابقة إلى الإنفاق في سبيل الله وبيان شروطه وصور كماله، ينتقل البيان القرآني إلى معالجة عوامل البخل في الأنفس، وهي العوامل التي تجعل النفس تكزّ وتنكمش عن الإنفاق في سبيل الله، نظراً إلى أنّ هذا الإنفاق بذل في غير لذّة أو منفعة عاجلة، بحسب التصوّر الذي يهيمن على النفوس، وتمليه وساوس الشيطان، فيقول الله تعالى: ﴿الشيطان يعدكم الفقر، ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً، والله واسع عليم﴾.

إنّ المعالجة التربوية الحكيمة الكفيلة بإعطاء أفضل نسبة من الإصلاح التربوي، اعتمدت هنا على إصلاح الإنسان من داخل نفسه، ولإصلاح

الإنسان من داخل نفسه، استخدم البيان القرآني هنا ما يمكن أن نسمّيه بعلاج الطرح على الغير، حتى تشعر النفس بأنّ النزوع إلى الشرّ والإثم والفواحش والبخل في سبيل الخير ليس من جوهرها، ولا من أصل فطرتها، وإنما هو من مؤثرات خارجة عنها، ملازمة لها بالوسوسة والإغواء. وهذا الشعور من شأنه إيجاد عنصر المقاومة والتحدّي لهذا الموسوس الخارج عن كيان الذات، الملازم لها، الحريص على إغوائها بإصرار وعناد، هذا الموسوس هو الشيطان، إنه حقيقة يوسوس في النفوس، ولكنّ هذه الوسوسة لا تؤثر إلاّ على من يسلّم الشيطان مقود إرادته. وبيان عمل الشيطان هذا نافع في التربية، إذ يحاول الإنسان طرح جنوحه على غيره، ليخلُص من الجنوح، ويأخذ سبيل الاستقامة المطلوبة.

واتخذ المنهج التربوي القرآني أسلوب كشف دسائس الشيطان، التي يدخل بها على النفس، ويغمز في داخلها نقطة ضعف عند الإنسان، وهي تخوفه من الفقر، وإنما يغمز فيه هذا التخوف حينما يدفعه دافع الخير إلى البذل في سبيل الله. ويغمز في داخل النفس أيضاً نقطة ضعف أخرى، وهي ما في النفس من أهواء وميل إلى الشهوات، قد تستدعي بذل مالٍ كثير للحصول عليها.

واتخذ المنهج التربوي القرآني أسلوب الإقناع بكمال ما يدعو إليه الرحمن من البذل في سبيل الله، وبأنه هو الحكمة في السلوك، وأسلوب استثارة الطمع بالتعويض العظيم على البذل اليسير في سبيل الله وابتغاء مرضاته.

* وتتلخص العناصر التطبيقية لهذا المنهج بما يلي:

العنصر الأول: كشف خطة الدسائس الشيطانية ذات الوجهين المختلفين المتناقضين.

الوجه الأول: التخويف من الفقر عند اتجاه النفس للإنفاق في سبيل الله، فحينما يسيطر في النفس الخوف من الفقر تنقبض عن العطاء، وتجبن عن البذل، وهذا ما دلّ عليه قوله تعالى في النص: ﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾.

الوجه الثاني: الدفع بقوة إلى ارتكاب الفحشاء من المعاصي والآثام، حتى

مستوى الأمر بها، مهما احتاج ارتكابها إلى انفاق أموال طائلة، وهذا ما دلّ عليه قوله تعالى عن الشيطان: ﴿ويأمركم بالفحشاء﴾.

ففي البذل في الخير يخوّف الشيطان من الفقر، وفي البذل في المعاصي والآثام يأمر الشيطان بالفحشاء، وفي ذلك تحريض ضمني على الإسراف والتبذير، ولذلك كان المبذّرون إخوان الشياطين قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

والبخلاء في الخير هم أيضاً إخوان الشياطين، لأنّهم يتبعون خطواتهم، ويستجيبون لوساوسهم، ويحرمون أنفسهم من خير عظيم، ويعرّضون أنفسهم لخسارة كبرى، فهم بذلك من كبار المبذّرين.

العنصر الثاني: الترغيب بحقيقتين من حقائق السنن الربّانية الثابتة:

الأولى: أنّ الله تبارك وتعالى قد وعد المنفقين في سبيله أن يعوّض عليهم، ويزيدهم من فضله، فمن شأن الاقتناع بهذه الحقيقة أن يولّد في الأنفس حبّ البذل والعطاء في سبيل الله، ومن نظر في سنن الكون تحقق لديه صدق هذا الوعد.

الثانية: أنّ الله تعالى قد وعد الذين ينفقون في سبيله أن يغفر لهم، ويستر حالهم، ولو ضعفت نفوسهم فسقطوا في بعض المعاصي، وارتكبوا بعض الفواحش.

وفي هذا الغفران تطهير لهم وتزكية، وفي ستر حالهم تكريم لهم عن الحاجة التي قد تلجىء إلى المسألة.

وقد دلّ على هاتين الحقيقتين قول الله تعالى في النصّ: ﴿والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً، والله واسع عليم﴾.

فبين دعوة الرحمن ودعوة الشيطان تعاكس، كلٌّ منهما فيه أمرٌ بالبذل والإمساك، إلّا أنّ دعوة الرحمن تجعل الإمساك فيما ينبغي فيه الإمساك، وهي سبل الفحشاء، وتجعل الإنفاق فيما يحسُن فيه الإنفاق ويجمل، وهي وجوه الخير والبرّ. بخلاف دعوة الشيطان فهي على العكس من ذلك تماماً، دعوة إلى التبذير فيما يجب فيه الإمساك، ودعوة إلى الإمساك فيما يجب فيه البذل أو يحسن.

إنّ دعوة الرحمن هي الدعوة إلى الحكمة، إذ تأمر بوضع الأشياء في مواضعها. أمّا دعوة الشيطان فهي دعوة إلى ركوب الحماقة، إذ تأمر بوضع الأشياء في غير مواضعها، ولذلك جاء في النص بعد بيان دعوة الرحمن ودعوة الشيطان قول الله تعالى: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، وما يذكّر إلّا أولوا الألباب﴾.

ثمّ قال الله تعالى: ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإنّ الله يعلمه، وما للظالمين من أنصار﴾.

* ما دام السياق يدور حول الإنفاق في سبيل الله، وبيان أركانه وشروطه وآدابه، فإنّ الإنفاق في سبيل الله يكون على نوعين:

النوع الأول: العطاء المنجز.

النوع الثاني: العطاء الموعود به على سبيل الالتزام تجاه الله تعالى، والملتزم به تجاه الله تعالى هو ما كان على سبيل النذر، لأنّ النذر في العطاء إذا كان في طاعة الله تعالى، وابتُغي به وجه الله تعالى فهو وعد بالإنفاق يجب الوفاء به، وعند الوفاء به يكون من قبيل العطاء الواجب.

والغرض من الإعلام بأن الله يعلم صدقات المتصدّقين، الإيماء إلى ما أعدّ الله للمنفقين في سبيله من أجر عظيم،، قلّ أو كثر، خفي أو ظهر، فالله لا تخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض ولا في الأنفس.

وفي قول الله تعالى: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ تلويح للبخلاء مانعي الحقوق التي فرضها الله في أموالهم، وذلك بصفة رئيسية في هذا النصّ، نظراً إلى أن السياق يدور حول الإنفاق في سبيل الله.

بيد أنّ عموم النصّ يتناول كلّ الظالمين، فما للظالمين من أنصار ينصرونهم من عقاب الله، فمانعو الحقوق في أموالهم ظالمون، والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ظالمون، والذين يتبعون ما أنفقوا منّاً أو أذى ظالمون أيضاً، وحسب الظالم أن يكون ظالماً لنفسه، إذ يعرّضها للعقاب، أو يحرمها ويفوّت عليها عظيم الثواب.

* ولـمّـا كان للصدقة وجهان:

الوجه الأول: أن يكون بذل الصدقة بصفة علنية.

الوجه الثاني: أن يكون بذل الصدقة بصفة سرية.

قال الله تعالى: ﴿إن تبدو الصدقات فنعمّا هي، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم، ويكفّر عنكم من سيئاتكم، والله بما تعملون خبير﴾.

فدلّت هذه الآية على أنّ في كلٍّ من إبداء الصدقة وإخفائها خيراً، إلاّ أنّ دفعها للفقراء بصفة خفيّة لا إعلان فيه خيرٌ وأفضل عند الله، وبه يكفّر الله من سيئات المنفق في سبيله.

ولكن يشترط في إبداء الصدقة إخلاص النيّة، وعدم تسرّب الرياء إلى القلب، لأنّ مُراآة الناس في العمل محبطة للعمل بمقدار نسبة الرياء. وامتاز إخفاء الصدقة على إبدائها بفضل الأجر عند الله، وبتكفيره من سيئات المنفق، لأمـور منها ما يلي:

أولاً: لأن إخفاء الصدقة أكثر دلالة على الإخلاص في ابتغاء مرضاة الله من إعلانها، وأبعد عن تسرّب الرياء إلى قلب المنفق.

جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم عن أبـي هريرة، أن أحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلاّ ظله: «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

ثانياً: لأن في إخفاء الصدقة ستراً لحال آخذ الصدقة، فكثير من الفقراء مستوري الحال يؤلمهم جـدّاً أن يعلم الناس بفقـرهم وحاجتهم إلى أخـذ

الصدقات، وقد يؤثر بعضهم الجوع والفاقة على سد الحاجة عن طريق أخذ الصدقات المعلنة.

قد نتساءل حول النص، فنقول: لماذا لم يأت إلى جانب قوله تعالى: «إن تبدوا الصدقات» بيان من تعطى إليه، وجاء إلى جانب قوله تعالى: «وإن تخفوها» بيان من تعطى إليه، فقال تعالى: «وتؤتوها الفقراء»؟.

ولنا في الإجابة على هذا التساؤل وجوه:

الأول: أنّ هذا القيد ملاحظ في حالة إبداء الصدقات وفي حالة إخفائها، إلّا أنّ التصريح به في كلّ منهما يعتبر من قبيل الإسهاب والإطناب، فحذف من حالة الإبداء اكتفاء بالتصريح به في حالة الإخفاء، وهذا ما يقتضيه سموّ التعبير البلاغي.

الثاني: أن المفروض في الصدقات المعلنة أن تدفع لجباة الزكاة، لا للفقراء بأنفسهم، وفي هذه الحالة يظلّ الفقراء بعيدين عن التشهير بهم.

الثالث: التصريح بإيتاء الصدقات للفقراء عند الحديث عن أفضلية إخفائها، يشعر بضرورة التحرّي عن الفقراء حقيقة، لئلا يأخذها الأغنياء من مستوري الحال وهم يزعمون سرّاً أنّهم فقراء، فبعض غير ذوي الحاجة من ضعفاء النفوس قد يدّعون الفقر ويقبلون الصدقات سرّاً، ولكنهم لا يفعلون ذلك علانية خشية أن ينكشف كذبهم، إذ يعرف بعض الناس حقيقة غناهم وعدم حاجتهم، فيلومونهم على أخذ الصدقات.

على أنّ من يأخذ الصدقات وهو غني أشنع حالاً من مانع الزكاة، لأنه بفعله هذا يأكل حقوق الفقراء بغير حقّ، فهو ظالم آثم.

ثم قال الله تعالى في النصّ الذي نتدبّره من سورة (البقرة ٢):

﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾.

يبدو أنّ قول الله تعالى لرسوله: ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾ ضمن الحديث عن الإنفاق في سبيل الله، قد كان لمعالجة حالة نفسية كانت تعتمل في نفس الرسول ﷺ، إذ كان شديد الحرص على هداية كلّ المسلمين هداية عملية، وتحويلهم إلى متخلقين جميعاً بخلق حب العطاء، منفقين في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وعلى مستوى رفيع من درجات الكمال في هذا المجال.

وهذه الحالة النفسية الشديدة التي كانت تشغل بال الرسول صلوات الله عليه، وتمتلك قسطاً كبيراً من مشاعره وهمّه، كانت بحاجة ماسَّة إلى تعديل بالتربية الإلهية، فأنزل الله عليه ضمن الآيات التي تعالج موضوع النفقة قوله: ﴿ليس عليك هداهم، ولكنّ الله يهدي من يشاء﴾؛ فأعلمه بهذا أنه ليس من مسؤوليته في رسالته تحويل الناس إلى الهداية تحويلاً عمليّاً، ولكنّ مسؤوليته مسؤولية تبليغ وإرشاد وتربية، وأنهم هم المسؤولون عن سلوك سبيل الهداية بإراداتهم الحرّة، أمّا القدرة على التحويل الفعلي إلى الهداية فهي من خصائص الله، الذي بيده الخلق والأمر، وبيده ملكوت السماوات والأرض، وهو على كلّ شيء قدير، وهذا لم يختره الله لنفسه بعد أن اختار للمكلفين من عباده أن يمتحن إراداتهم الحرّة.

ولم يلبث النصّ بعد هذه المعترضة التربوية للرسول ﷺ أن رجع إلى صلب موضوع الإنفاق في سبيل الله فالتفت إلى المؤمنين، ووجّه لهم تربية إقناعية كافية لدفعهم إلى الإنفاق في سبيل الله، فقال لهم: ﴿وما تنفقوا من خير فلأنفسكم﴾ أي فلأنفسكم فائدته، ولأنفسكم ثمراته، ولكن هذا إنما يكون لكم في حال كون إنفاقكم ابتغاء وجه الله، ولبيان هذا قال الله لهم: ﴿وما تنفقون إلّا ابتغاء وجه الله﴾

وتتساءل نفوس المنفقين: كيف يكون الإنفاق في سبيل الله لمصلحة أنفسنا، مع أنه بذل للآخرين، ونقصان من أموالنا؟ وجاء الجواب على هذا التساؤل بقول الله تعالى في النص: ﴿وما تنفقوا من خير يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾.

وجاء شرح ذلك في كلام الرسول ﷺ في نصوص كثيرة أبان فيها فضل الإنفاق في سبيل الله، وثواب المنفقين، منها ما يلي:

روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال شيئاً، وما زاد الله عبداً بعفو إلاّ عزّاً، وما تواضع أحدٌ لله إلاّ رفعه».

وروى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن مرثد بن عبدالله قال: حدثني بعض أصحاب رسول الله ﷺ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنّ ظلّ المؤمن يوم القيامة صدقته».

ثم قال الله تعالى في النص الذي نتدبره:

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾.

وفي هذه الآية توجيه خاصّ للعناية بصنف من الفقراء، بعد التوجيهات العامّة للإنفاق في سبيل الله، والصفات التي يتميّز بها هذا الصنف من الفقراء هي ما يلي:

الصفة الأولى: أنهم مُحْصَرون في سبيل الله، أي: محبوسون للقيام بأعمال عامّة يرجون منها ابتغاء مرضاة الله، كالجهاد في سبيل الله، وكالتفرّغ لطلب العلم الواجب والدعوة إلى الله.

الصفة الثانية: أنهم لا يستطيعون ضرباً في الأرض لكسب ما يكفيهم لحاجات عيشهم، وذلك بسبب أنهم محصرون في سبيل الله.

الصفة الثالثة: أنّهم بسبب تعفّفهم عن التعرّض لأخذ الصدقات يحسبهم الجاهل أغنياء.

الصفة الرابعة: أنّ الخبير العارف بأحوال الناس يستطيع أن يعرف أنّهم

فقراء من العلامات التي يراها فيهم، الدالّة على فقرهم. فبؤس الفقراء لا يخفى على البصراء، مهما تعفّفوا وتكتّموا، وابتعدوا عن التعرّض لأخذ الصدقات.

الصفة الخامسة: أنّهم لا يُلحّون في المسألة إذا ألجأتهم الضرورة إليها.

واهتماماً بهذا الصنف من الفقراء وجّه الله العناية لبذل الصدقات إليهم.

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وما تنفقوا من خير فإنّ الله به عليم﴾، وفي هذا تلويح بما أعدّ الله للمنفقين في سبيله من أجرٍ عظيم.

ثم قال الله تعالى في آخر آيات الإنفاق في سورة (البقرة ٢):

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

وفي هذا الختام تأكيد لما سبق من الترغيب بالإنفاق في سبيل الله، وبيان للأجر العظيم الذي أعدّه الله للمنفقين في سبيله، وربما كانت هذه الآية خاصة بذوي الجود الكثير، لأن من سماتهم أنهم ينفقون بالليل والنهار، أي: في كلّ الأوقات، وأنهم ينفقون في كلّ الأحوال سرّاً وعلانية، فهؤلاء لهم أجرهم الخاص عند ربهم، ولا خوف عليهم يوم القيامة، ولا هم يحزنون على شيء فاتهم لما يرون من الكرامة عند ربّهم.

البرّ في العطاء:

(ز) ويقول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾.

هذه الآية تدلّ على أن مرتبة البرّ في الإنفاق لا تنال إلّا بتعمّد المسلم أن ينفق في سبيل الله مما يحبّ أي: من بعض ما يحب، ومعلوم أنّ الإنسان إنما يحبّ من أمواله نفائسها وأحاسنها وكرائمها في الغالب.

لكنّ هذه المرتبة مرتبة صعبة على النفوس، لا تقتحم إلّا بقهر للهوى، أو بفطرةٍ عالية جدّاً تحبّ العطاء أكثر ممّا تحبّ التملّك.

ولذلك كان إنفاق الإنسان ممّا يحبّ أفضل الإنفاق، روى البخاري ومسلم عن أبـي ذر، قال: قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: «الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله» قال: قلت: أيّ الرقاب أفضل؟ قال: «أنفسها عند أهلها، وأكثرها ثمناً».

من قصص الذين نالوا البرّ في العطاء:

* روى البخاري ومسلم عن أنس قال: «كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحبّ أمواله إليه بَيْرُحاء(١)، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخُلها ويشرب من ماءٍ طيّب فيها.

قال أنس: فلـمّـا نزلت هـذه الآية: ﴿لن تنـالوا البـرّ حتى تنفقوا مما تحبّون﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ ، فقال: يا رسول الله، إنّ الله تعالى يقول: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا ممّا تحبّون﴾. وإنّ أحبّ مالي إلي بَيْرُحاء، وإنّها صدقة لله تعالى، أرجو برّها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله.

فقال رسول الله ﷺ : «بخٍ بخٍ، ذلك مالٌ رابح وقد سمعت ما قلتَ وإني أرى أن تجعلها في الأقربين».

فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسّمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمّه».

وسيأتي الاستشهاد به في «فضل الإنفاق على الأقربين».

* وروي أنّه لـمّـا نزلت هذه الآية، جاء زيد بن حارثة بفرس كانت له يحبّها، فقال: هذه في سبيل الله.

فحمل عليها رسول الله ﷺ أسامة بن زيد. فكأن زيداً وجد في نفسه، فقال: يا رسول الله، إنما أردت أن أتصدق بها (أي: وما أردت أن أعطيها ابني).

(١) بَيْرُحاء: اسم لحديقة جيدة من نخل كانت لأبـي طلحة.

فقال له رسول الله ﷺ: «أما إنّ الله تعالى قد قبلها منك».

* وروي أنّ عمر بن الخطاب، كتب إلى أبـي موسى الأشعري أن يشتري له جارية من سبـي جلولاء، يوم فتحت مدائن كسرى، فلـمّـا جاءت إليه أعجبته فقال: إنّ الله تعالى يقول: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا ممّا تحبّون﴾.

فأعتقها ابتغاء مرضاة الله تعالى، وطلباً لمرتبة البرّ في الإنفاق.

* وروي في أخبار عُمر بن عبدالعزيز، أنّه كانت لزوجته جارية بارعة الجمال، وكان عمر راغباً فيها، وكان قد طلبها منها مراراً، فلم تعطه إيَّاها.

ثمّ لـمّـا تولّى عمر الخلافة، جاءت زوجته فزينت الجارية أحسن زينتها، وأرسلتها إليه، وقالت له: قد وهبتكها يا أمير المؤمنين فلتخدمك.

قال عمر بن عبدالعزيز لزوجته: من أين ملكتها؟ قالت: جئت بها من بيت أبـي، عبدالملك، ففتش عن كيفية تملّك عبدالملك لها، فقيل له: إنه كان على فلانٍ العامل ديون، فلـمّـا توفي أخذت من تركته. ففتش عن حال العامل، وأحضر ورثته وأرضاهم جميعاً بالمال. ثم توجّه للجارية، وكان يهواها هوى شديداً، فقال لها: أنت حرّة لوجه الله تعالى.

فقالت له زوجته: لـمَ فعلت هذا يا أمير المؤمنين، وقد أزحت عن أمرها كلّ شبهة؟

فقال لها: لستُ إذن ممّن نهى النفس عن الهوى.

٥ ـ في فضل الإنفاق على الأهل والعيال والأقربين والدابة:

١ ـ روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: «كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحبّ أمواله إليه بَيْرُحاء[١]، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب». فلـمّـا نزلت هذه الآية:

---

(١) بَيْرُحاء: اسم حديقة في المدينة كانت لأبـي طلحة، فيها نخل.

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴿٩٢﴾﴾.

قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّ الله تعالى يقول: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبّون﴾ وإن أحبّ مالي إليّ بَيْرُحاء، وإنها صدقة لله تعالى، أرجو برّها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله ﷺ: «بخٍ ذلك مالٌ رابح، ذلك مالٌ رابح، وقد سمعتُ ما قلتَ، وإنّي أرى أن تجعلَها في الأقربين».

فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمّه».

فقد أرشده الرسول ﷺ أن يجعل صدقته في الأقربين، فقسمها في أقاربه وبني عمّه، فدلّ هذا الإرشاد على أنّ بذل المال وأنواع الصدقات لأقارب الباذل أفضل من البذل لغيرهم، ما دام في أقارب الباذل محاويج، وذلك لأنّ البذل في الأقارب هو من جهة صدقة، وهو من جهة أخرى صلة رحم. وعمل فيه فضيلتان أعظم من عمل فيه فضيلة واحدة منها، وهذا المعنى أبانه الرسول ﷺ في حديث آخر.

٢ ــ وروى مسلم عن ثوبان بن بُجْدُدَ مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ.

«أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله».

٣ ــ وروى البخاري ومسلم عن أبي مسعود البدري عن النبي ﷺ قال: «إذا أنفق الرجل على أهله يحتسبها فهو له صدقة».

يحتسبها: أي يحتسب أجر نفقته عند الله تعالى.

٤ ــ وروى البخاري ومسلم عن سَعْد بن أبي وقّاص، أنّ النبي ﷺ قال له فيما قال يوم جاءه يعوده من وجع اشتدّ به:

---

(١) ال عمران ٩٢.

«وإنَّك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلّا أجرت عليها، حتى ما تجعل في فِي امرأتك» أي في فم امرأتك.

٥ ــ وروى البخاري ومسلم عن أم سلمة قالت: قلتُ: يا رسول الله، هل لي أجرٌ في بني أبـي سلمة أن أنفق عليهم، ولست بتاركتهم هكذا وهكذا إنّما هم بنيّ؟. فقال: «نعم لك أجر ما أنفقتِ عليهم».

٦ ــ وروى مسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدّقت به على مسكين، ودينارٌ أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك».

٧ ــ وروى أبو داود بإسناد صحيح عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ:

«كفى بالمرء إثماً أن يضيّع من يقوت».

وعند مسلم:

«كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمّن يملك قوته».

في جملة هذه الأحاديث يـربّـي الرسـول ﷺ في المسلمين خلق حبّ العطاء، فيحثهم على الإنفاق وابتغاء مرضاة الله فيه، سواء أكان إنفاقاً على الأهل والعيال والأقربين، أو إنفاقاً على الدابـة، أو إنفاقـاً على الأصحـاب والإخوان، أو إنفاقاً في الصدقة، أو في أي وجه من وجوه الخير.

إنّ المال لا تظهر فائدته إلا بالإنفاق في المصالح النافعة، أمّا كنزه وجمعه وعدّه فهو قتل له، وحرمانٌ لثمراته من أن تظهر، ولخيراته من أن تزهر، ولطاقاته من أن تتحرّك وتنتج. والممسكون معـطلون ومتلفون ومحـرومون، وجـمّاعون لغيرهم، للصّ ماكر، أو صائل مغامر، أو سلطان جائر، أو وارث غير شاكر يتربّص بمورثه الدوائر.

وقد أبان الرسول ﷺ أن أفضل الإنفاق ما كان إنفاقاً على العيال، لأنّ

النفقة على العيال من قبيل النفقة الواجبة، وهذه النفقة عليهم تسدّ حاجتهم وتُعفّهم عن المسألة، وتقطع أنظارهم عن التطلّع إلى ما في أيدي الناس وما في بيوتهم وما على موائدهم.

وأبان الرسول ﷺ أن الأجر على الإنفاق ليس خاصاً في الانفاق على الفقراء والمساكين وذوي الحاجات والجهاد في سبيل الله ونحو ذلك، بل هو عام في كلّ إنفاق يُبتغى به وجه الله تعالى حتى ما يضعه الرجل في فم امرأته. ولكن اغتنام الأجر رهن باحتسابه عند الله تعالى، أي بابتغاء مرضاته فيه، وطلب ثوابه عز وجل، وهذه القاعدة أصل عامٌ يشمل كلّ عمل من أعمال الخير، فاغتنام الأجر عليه رهن بأن يكون ابتغاء مرضاة الله تعالى.

فما أعظم نعمة الله على المسلم، إنّ أي عمل يعمله متقيداً فيه بحدود ما أذن الله فيقصد به مرضاة الله جلّ وعلا، يكـون له به أجر وثواب عظيم على مقدار صلاح نيته، مع ما يكون له في العمل من لذّة ومتعة ومصلحة دنيوية.

وكما أن الانفاق على العيال من أفضل أنواع الإنفاق، فالإمساك عنهم وتضييعهم من أكبر الإثم لِما لهم من حقوق مفروضة عليه.

ــ ٧ ــ
الصدقة ومفاهيمها وفضلها

الصدقة في المفهوم الإسلامي لا تنحصر بعطاء المال، وإطعام الطعام، وكسوة الثياب، وتقديم الدواء والمسكن، ونحو ذلك، بل هي أعمّ وأشمل، فكلّ معروف صدقة.

روى البخاري ومسلم عن جابر وحذيفة، قالا: قال رسول الله ﷺ: «كلّ معروف صدقة».

وبهذا المفهوم الموسّع يستطيع الفقراء أن يجدوا مجالات كثيرة يصنعون بها المعروف للناس، ابتغاء مرضاة الله، فيكسبون بذلك صدقات ينافسون فيها باذلي أموالهم من الأغنياء.

وروى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «على كلّ مسلم صدقة».

قالوا: فإن لم يجدْ؟

قال: «فلْيعملْ بيديه، فينفع نفسه ويتصدّق».

قالوا: فإن لم يستطع، أو لم يفعل؟

قال: «فيعين ذا الحاجة الملهوف».

قالوا: فإن لم يفعله؟

قال: «فيأمر بالخير».

قالوا: فإن لم يفعله؟

قال: «فيمسك عن الشرّ فإنّه له صدقة».

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل سُلامَى من الناس عليه صدقة، كلّ يوم تطلع فيه الشمس: يعدلُ بين اثنين صدقة، ويعين الرجل في دابته فيحمله عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكلّ خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة».

كلّ سُلامَى: السّلامَى هي كلّ عظم بين مفصلين.

وجاء في حديث آخر تحديد عدد المفاصل التي خلق عليها ابن آدم، والحثّ على اكتساب أفعال الخير في كلٍّ منها، روى مسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلق كلّ إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مَفصِل، فمن كبّر الله، وحمد الله، وهلّل الله، وسبّح الله، واستغفر الله، وعزل حجراً عن طريق الناس أو شوكة أو عظماً، أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر، عدد تلك الستين والثلاثمائة، فإنه يمشي يومئذٍ، وقد زحزح نفسه عن النار».

وروى الإمام مسلم عن أبي ذرّ الغفاري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ بكل تسبيحة صدقة، وكلّ تكبيرة صدقة، وكلّ تحميدة صدقة، وكلّ تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بُضع أحدكم صدقة».

قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟!

قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر».

ففي هذا تعميم جديد لمفهوم الصدقة أدخل الرسول ﷺ فيه التكبير والتحميد والتهليل.

ولقد يبدو ظاهراً أن يكون بذل الجهد للآخرين من الصدقات، فبذل الجهد على سبيل المعونة بغية مسرّة صاحب الحاجة مثلُ مواساته بالمال. وبذل الجهد لإماطة الأذى عن الطريق معونةٌ عامّة ينتفع منها كلّ سالك فيه، وبذل الجهد لفعل خير عامّ هو أيضاً معونة عامة تدخل في مفهوم الصدقات بلا إشكال.

ولكن كيف يدخل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير في مفهوم الصدقة؟

ونلاحظ في الإجابة على هذا أنّ الإسلام قد جعل من الصدقات صدقة الإنسان على نفسه، فمن لم يجد ما يتصدق به على الآخرين، فليعمل عملاً يبذل فيه جهداً يبتغي به مرضاة الله تعالى، فإنه يتصدّق بذلك على نفسه، وهذا من واسع جود الله وكرمه ورحمته.

وبهذا المعنى الموسع للصدقات يدخل في مفهومها كلّ عطاء أو بذل جهد تستفيد منه البهائم وسائر الحيوانات، وقد جاء هذا مصرّحاً به في كلام الرسول ﷺ.

روى البخاري ومسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً، فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة، إلاّ كانت له صدقة».

وفي رواية لمسلم عن جابر: «وما سُرق منه له صدقة».

فلنعجب لهذا الدفع الحضاري البنّاء، الذي يشجع الإسلام عليه، ويجعل كلّ ثمرة من ثمراته، وكلّ غرم في سبيله صدقة من الصدقات.

وقد جاء تأكيد هذا المفهوم العام للصدقة في أقوال نبوية كثيرة:

منها ما رواه البخاري ومسلم عن أبي ذرّ قال:
قلت: يا رسول الله أيُّ الأعمال أفضل؟
قال: «الإيمان بالله والجهاد في سبيله».
قلت: أيّ الرقاب أفضل؟
قال: «أنْفَسُها عند أهلها وأكثرها ثمناً».
قلت: فإن لم أفعل؟
قال: «تعين صانعاً أو تصنع لأخرق».
قلت: يا رسول الله أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟
قال: «تكفّ شرّك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك».

ومنها ما رواه مسلم عن أبي ذرّ قال: قال النبي ﷺ: «عُرضت عليّ أعمال أمتي حسنُها وسيئها، فوجدت من محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق، ووجدت من مساوىء أعمالها النخاعة تكون في المسجد لا تدفن».

فإذا كانت إماطة الأذى عن الطريق من الصدقات ومن محاسن الأعمال، فإنّ تقذير المساجد بالنخاعة وهي النخامة التي يقذفها مخطىء لا ذوق عنده ولا رعاية عنده لآداب الإسلام خطيئة، ومن مساوىء الأعمال.

ومنها ما رواه مسلم عن أبي ذرّ أيضاً، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق».

فجعل الرسول ﷺ طلاقة المرء وجهه لأخيه من عمل المعروف، وذلك لأن في طلاقة الوجه عطاءً كريماً يُسرّ به من يلقاه، وقد سبق أنّ الرسول ﷺ قال: «كل معروف صدقة».

ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال:

«بينما رجلٌ يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً، فنزل فيها، فشرب ثم خرج، فإذا كلبٌ يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني، فنزل البئر، فملأ خفه ماءً، ثمّ أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له».

قالوا: يا رسول الله، إنّ لنا في البهائم أجراً؟

فقال: «في كلّ كبد رطبة أجر».

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أيضاً، قال: قال رسول الله ﷺ: «غُفر لامرأةٍ مومسةٍ مرّت بكلبٍ على رأس ركية (أي: بئر) يلهث، كاد يقتله العطش، فنزعت خفها فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء، فغُفر لها بذلك».

قيل: إنّ لنا في البهائم أجراً؟

قال: «في كلّ ذات كبد رطبة أجر».

ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مرّ رجلٌ بغصن شجرة على ظهر طريق، فقال: لأنحّينَّ هذا عن طريق المسلمين لا يؤذيهم، فأُدخل الجنّة».

وفي رواية لمسلم، أنّ رسول الله ﷺ قال: «لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين».

ومنها ما رواه مسلم عن أبي بَرْزَةَ قال: قلت: يا نبي الله علمني شيئاً أنتفع به، قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين».

بهذا يستطيع الفقراء أن يسابقوا في ميادين الصدقات مسابقة عظيمة، ما دامت كل هذه الأبواب مفتّحة لهم، حتى كفّ الأذى عن الناس، وهو من الأعمال السلبية، وحتى غشيان المباحات من المتع واللذات، لكف النفس وإعفافها عن المحرمات، فهو من صدقة المسلم على نفسه.

* ولكن لاعتبار أي عمل منها داخلاً في الصدقات المأجورة عند الله شرطان:

الأول: كون صاحب العمل مسلماً مؤمناً، أما غير المسلم المؤمن فإن أعماله الحسنة في الدنيا لا يثاب عليها عند الله يوم القيامة، لأنه لم يؤمن بالله ولم يسلم له حتى يطلب ثوابه منه، ولكن ينال مكافأة عمله في الدنيا وفق سنة الله في خلقه.

الثاني: ابتغاء مرضاة الله في العمل، فإن لم يفعل ابتغاء مرضاة الله لم يسجل له عمله في الحساب الخاص بالأعمال التي يثاب عليها، ويكفي في ابتغاء مرضاة الله النية المستمرة لدى كل مسلم مؤمن، دون وجود صارف يصرف عنها إلى مطلب من مطالب الحياة الدنيا، وعرض من أعراضها، كالمدح، والشهرة، وتحصيل مال أو جاه أو نحو ذلك.

— ٨ —

التهادي وتبادل الهبات

ومن مظاهر خلق حب العطاء التهادي وتبادل الهبات بين الناس. وقد حث الإسلام المسلمين على أن تكون ظاهرة التهادي وتبادل الهبات إحدى الظواهر السلوكية التي يوجهون لها عنايتهم، مهما كانت قيمة الهدية أو الهبة قليلة وضئيلة، لأن من شأن هذه الظاهرة الكريمة توثيق روابط الصلة بين أفراد جماعة المسلمين، وتعميق جذور المودة والمحبة بينهم، وتوحيدهم في نظام الجسدية الواحدة، التي تتعاون أعضاؤها، وتتشارك أجزاء بنيانها في مسراتها وأحزانها، ولذاتها وآلامها.

ولذلك كان الرسول ﷺ يُهدي ويقبل الهدية، وكان يهبُ ويقبل الهبة.

والفرق بين الهبة والهدية، أن الأصل في الهبة أن لا يلاحظ فيها معنى انتظار المكافأة، بخلاف الهدية فقد يلاحظ فيها هذا المعنى عرفاً أو عند بعض الناس، ولذلك جاء في أسماء الله الحسنى اسم الله (الوهاب)، لأن فيض عطاء الله سبحانه وتعالى لا يكون ابتغاء عوض في أي حالٍ من الأحوال.

ومن الخير في الهدية أن لا يلاحظ فيها أيضاً معنى العوض، وإلا كانت لوناً من ألوان المعاوضة، ومتى لوحظ فيها معنى العوض فسد معناها الإسلامي، وصار الناس يحاسب بعضهم بعضاً على مقدار ما يُهدي كلٌّ منهم أخاه، وعلى مقدار ما يأتيه من قبله من هدايا، فإذا أهدى شيئاً ذا قيمة عالية، وكوفىء عليها بهدية دونها في القيمة، وجّه لأخيه انتقاده ولومه، ووصفه بالبخل وبقلة الوفاء.

وحين يصل التهادي بين الناس إلى هذا المستوى الشحيح فإنه يصبح معاوضة مادية بحتة في ثوب مكرمة خلقية، وهذا الثوب ثوب زور لا محالة.

فعطاء الهدية ينبغي أن يكون صلة مودة، لا مظهر رياء، ولا وسيلة تفاخر، ثم إن المودة التي ترجى منها لا تتحقق متى تحولت عن غرضها ومفهومها الإسلامي الصحيح. ومتى دخل عنصر التفاخر في الهدايا صار أغنياء الناس يحتقرون هدايا فقرائهم، وينظرون إليها بازدراء واستكبار.

ولذلك لـمّـا حثّ الرسول ﷺ على التهادي بين المسلمين حذر من عوارض الانحراف، الذي يمكن أن ينحرف إليها مفهوم الهدية لدى التطبيق العملي.

روى الترمذي عن أبـي هريرة، أن النبـي ﷺ قال: «تهادَوا فإنّ الهدية تذهب وَحَرَ الصدر، ولا تحقرَنّ جارة لجـارتها ولو شِقّ فِرْسِنِ شاة».

وَحَرَ الصدر: الوحَرُ بفتح الحاء يأتي بمعنى الحقد والغيظ والعداوة والغلّ، ونحو ذلك ممّا يكون في صدور بعض الناس على بعض.

فِرْسِنُ الشاة: المراد منه ظلفها، وشقّه نصفه، وهذا أحقر ما يمكن أن يطلب من الشاة عند الضرورة، ومع ذلك فقد نهى الرسول ﷺ عن احتقاره إذا أهدته جارة لجارتها.

بهذه المعاني الإسلامية تؤدي الهدية أهدافها المنشودة.

وضمن هذه المعاني الإسلامية قال الرسول ﷺ فيما رواه أحمد والترمذي وصححه عن أنس: «لو دُعيت إلى كراع أو ذراعٍ لأجبتُ، ولو أهدي إليّ ذراعٌ أو كراعٌ لقبلت».

على أنه ينبغي للمسلم إذا قُدّمت له هدية أن يكافىء عليها بحسب استطاعته لا أن يكون آخذ هدايا فقط، وهو قادر على أن يكافىء بهدايا مماثلة، وإلّا دلّ على طمعه وشحه.

أما من لا يستطيع أن يكافىء على الهدية فعليه أن يثني على من أهداه ويدعو له بأن يجزيه الله خيراً، روى أبو داود والترمذي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ : «من أعطي عطاءً فوجد فليجزِ به، ومن لم يجد فلْيثنِ، فإن من أثنى فقد شكر، ومن كتم فقد كفر، ومن تحلى بما لم يُعط كان كلابس ثوبـي زور».

وروى الترمذي بإسناد جيّد عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ : «من صُنع إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيراً، فقد أبلغ في الثناء».

وثبت أن شكر صاحب الهدية أو صاحب العطية من شكر الله، روى الإمام أحمد والترمذي بإسناد صحيح عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «من لم يشكر الناس لم يشكر الله».

ولـمّـا كان الأنصار من أكثر الناس عطاءً لإخوانهم المهاجرين، خاف المهاجرون أن يسبقوهم بالأجر، أو يذهبوا بالأجر كله، فقال لهم الرسول ﷺ فيما رواه الترمذي وصححه عن أنس: «إلّا ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم».

ــ ٩ ــ

عطاء العلم والدعاء بظهر الغيب

١ ــ من الناس فضلاء معطاؤون يحبون أن يعطوا كلّ ما لديهم من معارف ونصائح وعلوم، ومن الناس بخلاء يبخلون حتى بنشر ما لديهم من معارف وعلوم ونصائح، ولو كان ذلك يزيد ثروتهم العلمية ويحفظها.

وقد أشاد الرسول ﷺ بالجود في نشر العلم، وذمّ كاتمي العلم الذي يجب نشره، وأبان بأنهم يعاقبون يوم القيامة بأن يُلجَموا بلجام من نار.

روى البيهقي في شعب الإيمـان عن أنس بن مـالـك قـال: قـال رسول الله ﷺ :

«هل تدرون من أجود جوداً؟».

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «الله تعالى أجود جوداً، ثم أنا أجود بني آدم، وأجودهم من بعدي رجلٌ عَلِم علماً فنشره، يأتي يوم القيامة أميراً وحده» أو قال: «أمة واحدةً».

وروى أبو داود والترمذي ــ وقال: حديث حسن ــ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار».

إنّ هذا اللجام جزاء من جنس العمل، فالذي يكتم العلم الذي يجب نشره وإبلاغه إلى أهله، يعاقب يوم القيامة بسجن لسانه بعذاب من نار.

وأقبح من كاتم العلم من يُضلّل بإعطاء معلومات كاذبة، أو بتقديم مشورة غير راشدة، وهو يعلم ذلك من نفسه، فهو بخيل وخائن.

روى الدارمي وأبو داود بإسناد حسن عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أفتى بغير علم كان إثمه على من أفتاه، ومن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره فقد خانه».

٢ ــ ومن العطاء المحمود دعاء الأخ لأخيه، وشفاعة الأخ لأخيه بين يدي الله.

ولذلك علّمنا الإسلام أن ندعو لإخواننا المؤمنين، وأن نكون شفعاء لهم بين يدي الله، لا سيما في ظهر الغيب، ومن هذا القبيل الصلاة على موتى المسلمين، فهي دعاء لهم وشفاعة، وهذا من العطاء المتبادل الذي يكون بين المؤمنين، والتقصير في هذا من البخل، ومن يبخل فإنما يبخل على نفسه، لأن الملائكة تقول عند دعاء الأخ لأخيه: ولك مثل ذلك، فينال دعاءً مثل دعائه على لسان الملائكة المكرمين الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

والصلاة على النبي ﷺ من هذا القبيل، فهي عطاء له على سبيل الوفاء له، مقابل ما قدمه صلوات الله عليه لأمته وللعالمين أجمعين من هداية وإخلاص ودعاء، وما سيقدمه يوم القيامة من شفاعة.

والبخيل بالصلاة على النبي ﷺ إنما يبخل على نفسه، لأن من صلى على

النبـي محمد ﷺ مرة صلى الله عليه بها عشراً، مكافأة له، وقد أمرنا الله بأن نصلي عليه، وأخبرنا بأنه يصلي على النبـي هو وملائكته، فقال تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾.

وقد جاء في كلام الرسول ﷺ قوله: «البخيل من إذا ذكرت عنده فلم يصل عليّ». أخرجه الترمذي والنسائي عن الحسين وعن عليّ رضي الله عنهما.

والصلاة من الناس هي الدعاء بالرحمة، والصلاة من الملائكة دعاءٌ واستغفار، والصلاة من الله إفاضة فيوض من رحمته جلّ وعلا.

وقد دلّ على أن الملائكة تدعو للذين يدعون لإخوانهم بمثل ما دَعوْا به لهم، ما رواه مسلم عن أبـي الدرداء، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد مسلمٍ يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال المَلَكُ: ولك مثل ذلك».

وعن أبـي الدرداء أيضاً، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل، كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكّل به: آمين. ولك مثل ذلك».

أما الأعرابـي الذي قال: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً، فقد حجّر واسعاً، وشحّ برحمة الله، وأعرب عن جهله الكبير بفضل الله العظيم وعطائه الجسيم، ولذلك بين الرسول ﷺ ضلال هذا الأعرابـي في مقالته هذه، مشيراً بذلك إلى أن من بالغ الجهل حجر فضل الله، فهو إذا لم تسمح نفسه بأن يجود بدعوة عامة لكل المسلمين، فليسكت. وقصة هذا الأعرابـي جاءت فيما رواه أبو داود عن جندب قال:

جاء أعرابـي، فأناخ راحلته، ثم عقلها، ثم دخل المسجد فصلى خلف رسول الله ﷺ، فلما سلم أتى راحلته فأطلقها، ثم ركب، ثم نادى: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا تشرك في رحمتنا أحداً.

فقال رسول الله ﷺ : «أتقولون: هو أضلّ أم بعيره؟ ألم تسمعوا إلى ما قال؟».

قالوا: بلى.

ـ ١٠ ـ
الإيثار

الإيثار مرتبة راقية جداً من مراتب خلق حب العطاء، إذ هو تقديم الإنسان أخاه على نفسه في أمر هو بحاجة إليه.

ولا شك أن من الصعب جداً أن يتجرد الإنسان عن نفسه كل هذا التجرد، فيؤثر أخاه على نفسه في أمر هو بحاجة شديدة إليه.

ومع ذلك فإننا نجد ظاهرة الإيثار بنسبة جيدة عند الأمهات نحو أولادهن، إذ يؤثرنهم على أنفسهن في كثير مما يحتجن إليه في حياتهن، وقد نجدها عند الآباء نحو أولادهم ونجدها عند المحبين والعشاق، لا سيما في أحوال تأجج نار الحب والعشق، وتوهج لهيب الشوق، إذ يؤثر العاشق من يحب على نفسه بكثير مما يحب.

لكن كل هذه الصور من الإيثار صور ضيقة الدوائر، محدودة المواقع: أمّ تؤثر ولدها على نفسها، فإذا عاملت الآخرين عاملتهم بأنانية مفرطة. أبٌ قد يؤثر ولده على نفسه، فإذا عامل الآخرين عاملهم بأنانية مفرطة. عاشق قد يؤثر من يحب على نفسه، فإذا عامل الآخرين عاملهم بأنانية مفرطة.

أما الإيثار المثالي، الذي لا ينحصر في دوائر ضيقة، ولا تدفع إليه عاطفة ثائرة، فهو الإيثار الذي نجده عند المؤمنين الصادقين، الذين يعاملون الله تعالى، ويبتغون رضوانه، ويرجون الأجر عنده. فهؤلاء هم الذين تتسع دائرة الإيثار عندهم، فحيثما وجدوا مرضاة الله في إيثار غيرهم على أنفسهم، توقد في قلوبهم الإيمان، فآثروا على أنفسهم ابتغاء مرضاة الرحمن، ولو كان بهم خصاصة (أي: ضرورة أو حاجة) وقدموا مصالح أنفسهم الدنيوية ضحايا وقرابين لتذبح على

مذبح ابتغاء الخير والفضيلة، جوداً بها، وعطاءً غير محدود، وقد يبلغ بهم جود الإيثار أن يقدموا أرواحهم وحياتهم ضحايا، فداءً لغيرهم، ولكن ابتغاء مرضاة الله.

بواعث الإيثار:

أما الإيثار الأدنى ذو الدوائر الضيقة، الذي يكون عند الأمهات والآباء والعشاق، فالباعث إليه أمر فطري في النفوس ينتج عنه حب شديد عارم، والحب من أقوى البواعث الذاتية الدافعة إلى التضحية بالنفس وكل ما يتصل بها من مصالح وحاجات، من أجل سلامة المحبوب أو تحقيق رضاه، أو جلب السعادة أو المسرة له.

إن الحب محرك ذاتي قوي وفعال، وهو في النفس مولد حراري لأية قوة أو مادة يلامسها داخل الأنفس، ومع ارتفاع درجة حرارة الأنفس بمس الحب ينسى الإنسان ذاته، ويصبح أداة توجهها قيادة الحب، كما يوجه قائد السفينة سفينته بحركات بسيطة من مركز قيادته، وبهذا نفسر كيف يكون إيثار العشاق من يحبون بما يحبون، ما دام الحب هو الموجه في مركز قيادة أنفسهم.

أما الإيثار المثالي الأسمى، الذي يكون عند الطراز الراقي من المؤمنين الصادقين، فهو ليس إيثاراً انفعالياً عاطفياً مجرداً، ولكنه إيثار يعتمد على محاكمة منطقية سليمة، ويعتمد على عاطفة إيمانية عاقلة، وكذلك تكون أعمال المؤمنين بالله، الذين يحرصون على ابتغاء مرضاته.

ولـمّـا كانت مرضاة الله تعالى لا تنحصر في وجه من وجوه البر، أو في فرد معين من الأفراد؛ فإن تضحيات هؤلاء ومظاهر إيثارهم لا تنحصر كذلك، بل هي تساير اتجاه مرضاة الله.

والمحاكمة المنطقية لديهم قائمة على أن كل ما يعملونه ابتغاء مرضاة الله مأجورون عليه عنده أضعافاً مضاعفة، في دار هي أعظم من هذه الدار، وحياة هي أجلّ وأكمل من هذه الحياة، فإيثارهم وتضحياتهم من قبيل التجارة الرابحة قطعاً، وقائمة أيضاً على ملاحظة أن كل عمل فيه تحقيق لمرضاة الله هو العمل الأفضل والأنفع والأصلح في الحياة.

والعاطفة الإيمانية العاقلة لديهم قائمة على حب الله ورسوله، وحب ما يرضي الله ورسوله.

لذلك كان إيثار هذا الطراز الراقي من المؤمنين هو أرقى أنواع الإيثار وأفضل صوره.

أمثلة من الإيثار الأسمى:

١ ــ سجل الله للأنصار فضيلة إيثارهم إخوانهم المهاجرين، بكثير مما لهم به ضرورة أو حاجة، وفي ثنائه عليهم تحريض على الاقتداء بهم، فقال تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

ففي هذا النص يبيّن الله تعالى فضل المهاجرين وفضل الأنصار، أما المهاجرون فقد ضحوا بأموالهم ومساكنهم وخرجوا مهاجرين من مكة، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله. وأما الأنصار فقد استقبلوهم بالإكرام، وآثروهم على أنفسهم بكثير من محابهم، حتى كان منهم من آثر أخاه من المهاجرين على نفسه، مع أن به خصاصة لما آثر به.

وقد بلغ من إيثارهم أن يكون للأنصاري زوجتان أو أكثر، فيقول لأخيه من المهاجرين: اختر ما تشاء منهن، حتى أطلقها من أجلك لتتزوجها إذا انقضت عدتها.

وفي غزوة بني النضير، لم يجد الأنصار في أنفسهم غضاضة أن يوزع الرسول ﷺ فيئها على فقراء المهاجرين، عفة منهم وإيثاراً، وشعوراً منهم بحق المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، فأصابهم الفقر بسبب الهجرة.

٢ ـ ومن لطائف قصص الإيثار، ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني مجهود (أي: فقير جائع) فأرسل ﷺ إلى بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى، فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلّهُنّ مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء.

فقال النبي ﷺ: «من يضيف هذا الليلة؟».

فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله. فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ. وفي رواية، قال لامرأته: هل عندك شيء؟

قالت: لا، إلا قوت صبياني.

قال: فعلّليهم بشيء، وإذا أرادوا العشاء فنوِّميهم، وإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج، وأريه أنا نأكل، فقعدوا وأكل الضيف، وباتا طاويين(١)، فلما أصبح غدا على النبي ﷺ فقال: «لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة».

ففي هذا الحديث قصة لطيفة من قصص إيثار الأنصار، وفيه بيان ما كان عليه الرسول ﷺ من إيثار لشظف العيش، ولو شاء أن يكون ذا سعة لكان.

٣ ـ وروى البخاري عن سهل بن سعدٍ، أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ ببردة منسوجة، فقالت: نسجتها بيدي لأكسوكها، فأخذها النبي ﷺ محتاجاً إليها، فخرج إلينا وإنها إزاره.

فقال فلان: اكسنيها ما أحسنها!.

فقال: «نعم» فجلس النبي ﷺ في المجلس، ثم رجع فطواها، ثم أرسل بها إليه.

فقال له القوم: ما أحسنت، لبسها النبي ﷺ محتاجاً إليها، ثم سألته، وعلمت أنه لا يرد سائلاً.

---

(١) طاويين: أي من غير عشاء.

فقال: إني والله ما سألته لألبسها، إنما سألته لتكون كفني.

قال سَهْلٌ: فكانت كفنه.

٤ ــ هذه التربية الإسلامية هي التي جعلت أبا بكر رضي الله عنه يقدم كل ماله في موسم من مواسم البذل والعطاء، إذ دعا الرسول ﷺ فيه إلى البذل في سبيل الله. ولـمّـا سأله الرسول ﷺ : ماذا تركت لعيالك؟ قال: تركت لهم الله ورسوله.

وهي التي جعلت عمر بن الخطاب يقدم نصف ماله في سبيل الله، وهي التي جعلت عثمان بن عفان يجهز جيش العسرة.

وهي التي علَّمت الأشعريين أن يشتركوا فيما عندهم من طعام إذا قل طعام عيالهم.

روى البخـاري ومسلم عن أبـي مـوسى الأشعـري قـال: قـال رسول الله ﷺ : «إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أوقل طعام عيـالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناءٍ واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم».

فللّه درّ الأشعريين، ما أحسن تعاونهم وتشاركهم وإيثارهم!.

ــ ١١ ــ
الوصيـــة بعطـــاء

من الناس من تغلب عليهم طبيعة البخل طوال حياتهم، حتى إذا يئسوا من الحياة وأقعدهم المرض المنذر بالموت، أخذوا يتبرعون بمقادير من أموالهم، لعلمهم بأنها صائرة إلى غيرهم لا محالة، ويكون بذلهم إما على سبيل الوصية، وإما على سبيل العطاء المنجز.

وهذا تدارك حسن، رغّب به الإسلام، وحث عليه، إلا أن الأحسن منه والأفضل عند الله، أن يتصدق المسلم وهو صحيح الجسم واسع الأمل بالحياة،

تراوده مخاوف الفقر، وتطمع نفسه بالثراء الواسع. أما بذل المال عند اليأس من الحياة، فهو بذل من مالٍ سيخرج من ملكه حتماً، ويدخل في ملك غيره، والعطاء عن طريق الوصية صدقة تصدق الله بها على عباده، فأعطاهم حق التصرف بحدود ثلث أموالهم فقط، ليكتب ذلك في صحائف أعمالهم، ولولا هذا العطاء الإلهي لكان تصرف الإنسان المضاف إلى ما بعد موته تصرفاً لا قيمة له، لأنه تصرف من ملك من جعل الله لهم حقوقاً في تركته. فالإنسان متى مات انتهت ملكيته لأمواله، وعاد الملك لمالك الملك جل وعلا، ويوزع على المستحقين بالعطاء الإلهي حسب التقسيمات التي فرضها الله.

ومن أجل ذلك يعتبر عطاء الإنسان في حالة اليأس من الحياة، أو عطاؤه المضاف إلى ما بعد الموت، عطاءً ضعيف القيمة بالنسبة إلى العطاء في حالة الصحة والقوة.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رجل: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل، حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لفلانٍ كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان».

وقد كان لفلان: أي إن المال صائر حتماً بعد موت الموصي لفلانٍ ما، سواء أكان لمن يأخذه على سبيل صدقة، أو لمن يأخذه على سبيل الميراث، فكأن الموصي يتصدق من مال غيره.

ولكن ليس معنى هذا أنه لا قيمة للصدقة على سبيل الوصية، إنما الغرض بيان أفضلية الصدقة المنجزة، حينما يكون الإنسان صحيحاً في جسمه، شحيحاً بماله، يخشى الفقر والحاجة، ويأمل الغنى لما تبقى من عمره.

وروى أحمد والنسائي والترمذي وصححه عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل الذي يتصدق عند موته أو يعتق كالذي يهدي إذا شبع».

* * *

الفصل الثامن

سماحة النّفس

ـ ١ ـ

من الأسس العامّة التي ترجع إليها مجموعة من الظواهر الخلقيّة المحمودة سماحة النفس.

ويأتي في مقابل هذا الأساس الخلقي ما يمكن أن نسمّيه بخُلُق نكد النفس وعسرها وتشدُّدها، وترجع إليه مجموعة من الظواهر الخلقية الذميمة في السلوك الإنساني.

والناس على اختلاف مستوياتهم في الذكاء واختلاف نماذِجهم الخلقية يوجد فيهم من يتمتعون بخلق سماحة النفس، فهم هيّنون لينون سمحاء، ويوجد فيهم آخرون نكدون متشدّدون يتذمّرون من كلّ شيءٍ لا يوافق هواهم، ويريدون الدّنيا كلّها أن تكون على وفق شهواتهم وأهوائهم الآنية المتجدّدة، أو على وفق ما يرون أنه الأفضل والأصلح والأحسن، فلا يستقبلون الأحداث بسماحة نفس، ولا يستقبلون ما لا يوافق هواهم من أشياء بسماحة نفس، بل يستقبلونها بتمعُّرٍ في وجوههم، ونكدٍ وتسخُّطٍ في نفوسهم، وسبٍّ وشتمٍ وتذمُّرٍ في اللسان. وَيترقّبون المستقبل بتشاؤم وحذر.

أمّا سمحاء النفوس فإنّهم يكونون هيّنين ليّنين، يتقبلون ما يجري به القضاء والقدر من خيرٍ أو شرٍّ بالرضى والتسليم، ويحاولون أن يجدوا لكلّ

ما يجري به القضاء والقدر حكمة مرضية، وإن كان مخالفاً لأهوائهم، ويراقبون دائماً قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾.

ويردّدون في أنفسهم عند كل أمرٍ يكرهونه معنى قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾.

من أجل ذلك يستقبلون كلّ ما يأتيهم من قِبَل الله بالرضى والتسليم، ويلاحظون جوانب الجمال في كلّ ما تجري به المقادير، ويغضون عن جوانب القبح التي قد تكون فيها بحسب تقديرهم. فهم هينون لينون راضون متسامحون، لا يسخطون إلا إذا وجدوا أمراً يسخط الله تعالى، عندئذٍ يغضبون لغضب الله. أمّا ما فيه رضى الله فإنهم يرضون به لرضى الله.

وَهم يترقبون المستقبل بتفاؤل وأمل، كما يستقبلون الواقع بانشراح لما يحبّون وإغضاءٍ عمّا يكرهون، وبذلك يُسعدون أنفسهم، ويُريحون قلوبهم بالرضى والتسليم.

وهذا من كمال العقل، إنّ العاقل هو الذي يكون واقعيّاً، فيسعد نفسه وقلبه بالواقع الذي لا يملك دفعه ولا رفعه. ويكون واقعياً فيعامل الناس بالتسامح، لأنه لا يملك أن يطوّع الناس جميعاً لما يريد، فالناس الآخرون ليسوا جماداتٍ تُطوَّع، ولكنهم مثله أصحاب نفوس مختلفة، وطبائع متباينة، وإراداتٍ لا يطابق بعضها بعضاً.

وأما أصحاب النفوس النكِدةِ العسيرة المتشدّدة فإنهم قلّما يرضيهم شيء، بل يحاولون أن يجدوا في كلّ شيءٍ أو عمل جوانب قبيحة تنفّرهم منه، بل تكاد عيونهم لا ترى من الأشياء أو الأعمال إلّا جوانب قبحها، فلا يرون في البدر

إلّا كلفه، ولا يشاهدون في شجرة الورد إلّا شوكها، ولا يرون في الجبل الشامخ إلّا أنه عقبة في طريق السالكين، ولا يرون في الصيف إلّا أنّ شمسه محرقة، ولا يرون في الشتاء إلّا أن بردَهُ مؤذٍ ومزكم، ولا يرون في كتاب عظيم النفع إلّا ما فيه من أخطاءٍ وسقطات، ولا يرون في الطعام اللّذيذ إلّا الشعرة التي سقطت فيه خطأً.

إن النكد المحروم من خلق سماحة النفس إذا نظر إلى وجه جميل أخذ يبحث فيه عن بثرةٍ ليعيبه بها، وإذا تعرّف على رجل ذي كمال واستقامة أخذ يبحث له عن عثرة لينقصه بها، وهكذا ديدنه، نكدٌ عسير متشدّد، بحّاثٌ عن العيوب والقبائح، لا يرضيه شيء، ولا يسرُّهُ شيء، حتى نفسه وأعماله.

وخلق نكد النفس شقاءٌ على صاحبه، إذ يحرمه من أن يسعد نفسه بشيء.

— ٢ —

فوائد سماحة النفس ومضارّ نكدها

يستطيع سمح النفس الهيّن اللّين أن يغنم في حياته أكبر قسط من السعادة وهناءة العيش، لأنه بخلقه هذا يتكيف مع الأوضاع الطبيعية والاجتماعية بسرعة مهما كانت غير ملائمة لما يحب أو لما تهوى نفسه، ويستطيع أن يستقبل المقادير بالرضى والتسليم مهما كانت مكروهة للنفوس.

ويستطيع سمح النفس الهين اللّين أن يظفر بأكبر قسط من محبّةِ الناس له، وثقة الناس به، لأنه يعاملهم بالسماحة والبشر ولين الجانب، والتغاضي عن السيئات والنقائص، فإذا دعاه الواجب إلى تقديم النّصح كان في نصحه رفيقاً ليّناً، سمحاً هيّناً، يُسِرّ بالنصيحة، ولا يريد الفضيحة، يسدُّ الثغرات، ولا ينشر الزّلات والعثرات. ويعامل الناس أيضاً بالسماحة في الأمور المادية، فإذا باع كان سمحاً وإذا اشترى كان سمحاً، وإذا أخذ كان سمحاً، وإذا أعطى كان سمحاً، وإذاقضى ما عليه كان سمحاً وإذا اقتضى ما له كان سمحاً.

ويجلب سمح النفس الهينّ لنفسه الخير الدنيوي بتسامحه، وذلك لأنّ الناس يحبّون المتسامح الهينّ اللّين، فيميلون إلى التعامل معه، فيكثر عليه الخير بكثرة محبّيه والواثقين به.

ويجلب سمح النفس الهينّ اللّين لنفسه رضى الله تعالى والخير الأخرويّ العظيم، ما ابتغى بسماحته رضوان الله عزّ وجلّ.

أمّا نكد النفس العسير الشديد فإنه يحرم نفسه من كلّ الفوائد التي يظفر بها السمح الهينّ اللّين، فهو في معظم أحواله متذمّر غير سعيد، ذامٌّ مُشاكس متّضجر طعانٌ لعّانٌ سيء المعاشرة، مكروهٌ من الناس، تنفر منه الطباع، وتتحاشاه الأبصار والأسماع، ويتجافى عنه الناس اتقاء نكده وشرّه، ولا يتعاملون معَه إلا مضطرين، فيحرم بذلك من خير دنيوي كثير، وأخيراً يحرم نفسه من حبّ الله ورضاه، لأنه كثير التسخط على مقاديره.

والنكد العسير الشديد يكره من كان مثله، فينفر منه ولا يحب معاشرته ولا التعامل معه، فإذا اضطرا إلى ذلك لم يصبر كلٌّ منهما على صاحبه، فإما أن يختصما وإما أن يتفرقا.

وما أحسب أحداً تعامل مع الناس إلاّ مرّ عليه منهم نكدون فتحاشاهم وتجافى عنهم، وآثر البعد عن معاشرتهم والتعامل معهم.

أخرجُ إلى السوق فأصادف من الباعة سمحاء طلقاء الوجوه، فأجد قلبي مجذوباً إلى الشراء منهم والتعامل معهم، حتى ولو كانت بضاعتهم أقلّ جودة من بضاعة غيرهم، وأصادف آخرين نكدين عبوسين شرسين متشدّدين، فأنفر من الوقوف عندهم ومن التعامل معهم، حتى ولو كانت بضاعتهم أجود من بضاعة السمحاء الطلقاء، ولا أشتري منهم إلاّ مضطرّاً.

وهكذا في كل مجالات التعامل والعلاقات الإنسانية الأخرى.

ـ ٣ ـ

ترغيب الإسلام بسماحة النفس وتنفيره من نكدها

١ ـ دعا الرسول ﷺ للسمحاء بأن يرحمهم الله، فقد روى البخاريّ عن جابرٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى».

وفي رواية أخرى: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى سمحاً إذا قضى، سمحاً إذا اقتضى».

أي: سمحاً إذا قضى الحق الذي عليه، سمحاً إذا اقتضى الحقّ الذي له.

٢ ـ ووصف الرسول ﷺ المؤمنين بأنّهم هيّنون ليّنون سُمحاء، إشعاراً بأنّ هذا الخلق من ثمرات التربية الإيمانية.

روى الترمذي في حديث مرسل عن مكحول قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمنون هينون ليِّنون كالجمل الآنف، إن قيِدَ انقاد، وإن أُنيخ على صخرةٍ استناخ».

والجمل الآنف: هو الذّلول السهل الذي يطيع صاحبه ولا يعصيه، فهو يأنف من الزّجر والضرب، ولا يحوج صاحبه إليهما ولا إلى أحدهما.

ولا غرو أن للتربية الإيمانية أثرها في تربية خلق السماحة ولين الجنب، وسهولة النفس، والبعد عن كلّ نكد وعسر وشراسة، وغلظة وفظاظة.

٣ ـ وجاء في كلام الرسول ﷺ الترغيب العظيم بالعافية من النار لمن كان هيّناً ليناً قريباً سهلاً، والترهيب الشديد بالحرمان من دخول الجنة لمن كان غليظاً فظاً.

فعن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بمن يحرم على النار وبمن تحرم النار عليه؟ على كلّ هيّن ليّن قريب سهْل».

(رواه الإمام أحمد والترمذي وقال: حديث حسن غريب)

وعن حارثة بن وهب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة الْجَوّاظُ ولا الجَعْظَرِي».

رواه أبو داود في سننه والبيهقي في شعب الإيمان.

وجاء في تفسير الجوّاظ والجعظري: أنه الغليظ الفظّ.

٤ ــ وشبه الرّسول ﷺ الناس في أخلاقهم وطباعهم بالأرض، فالهينون كهيِّنها، والقساة النكدون كحزْنِها، والطيبون كطيبها، والخبيثون كخبيثها، ويتضمن هذا التشبيه مدحاً للهينين الطيبين، وذمّاً للقساة النكدين الْعَسِرين.

فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر، والأبيض، والأسود وبين ذلك، والسَّهْل، الْحَزْنُ، والخبيثُ والطيب».

(رواه أحمد والترمذي وأبو داود بإسنادٍ صحيح)

ونظم بعض الشعراء هذا المعنى فقال:

النـاس كالأرض ومنهـا همُ   فمن خشنِ الطبع ومن لين
فجنـدلٌ تـدمى بـه أرجُـلٌ   وإثمـدٌ يـوضـع في الأعينِ

فالنفس السمحة كالأرض الطيبة الهينة المستوية، فهي لكلّ ما يرادُ منها من خير صالحة، إن أردت عبورها هانت، وإن أردت حرثها وزراعتها لانت، وإن أردت البناء فيها سهلت، وإن شئت النوم عليها تمهّدت.

أمّا النفس النكدة الشديدة العسيرة، فهي مثل الأرض السبخة الوعرة، لا تطيب ولا تهون ولا تلين لأي عمل يراد فيها، ولا لأي مصلحة تقصد منها.

٥ ــ وكان الرسول محمد صلوات الله عليه أعظم أسوة حسنة في سماحة النفس، ولين الطبع، وسهولة المعاملة، وكمال الخلق، فكان بأخلاقه صلوات الله عليه صاحب دعوة عملية للتحلي بهذا الخلق، وبسائر فضائل الأخلاق، ومحامد السلوك.

ولم يكن صلوات الله عليه نكداً ولا صعباً ولا فظّاً ولا غليظاً، ولذلك أثنى الله عليه بالرّقة ولين الجانب ولطف الحديث، إذ نفى عنه الفظاظة وغلظ القلب، فقال تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ولو كنت فظّاً غليظَ القلبِ لانفضوا مِن حولك (١٥٩)﴾.

أي: لستَ يا محمد فظّاً في أقوالك ومخاطباتك للناس، ولا غليظ القلب عديم الرقة واللطف والرحمة، في واقع حالك الخلقي، وليس من شأنك ولا من شأنِ أي داعٍ يدعو إلى الله أن يكون فظّاً أو غليظاً، لأن هذين منفران ويجعلان الناس ينفضون من حول الداعي إلى الله.

— ٤ —

من ظواهر خلق سماحة النفس

إضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه من ظواهر خلق سماحة النفس، من لين الجانب، ورقة المعاملة ولطفها، واستقبال الأحداث بالرضى والبشر والبعد عن كل عنف وشدّة وغلظة وفظاظة ونكد، وطعنٍ ولعنٍ وشتم، وتذمّر وتضجر، ومقابلة للناس بما يكرهون، نلاحظ من ظواهر هٰذا الخُلق ما يلي:

* **أولاً**: طلاقة الوجه واستقبال الناس بالبشر، ومشاركتهم بالسمع والفكر والقلب.

وطلقُ الوجه حسن البشر بالناس محبّب إليهم، مألوف في نفوسهم، قريب إلى قلوبهم.

وقد حثّ الرسول ﷺ على هذه الظاهرة بقوله وعمله، فمن ذلك ما يلي:

(أ) عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «كلّ معروف صدقة، وإنّ من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلْق، وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك».
(رواه الإمام أحمد والترمذي)

وهذا في الأحوال الطبيعية يرجع إلى سماحة النفس.

(ب) وعن أبـي ذرّ أن النبـي ﷺ قال: «لا تحقرنّ من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طَلِيق» رواه مسلم.

(ج) وروى الترمذي عن أبـي ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ: «تبسّمك في وجه أخيك صدقة، وأمرُك بالمعروف صدقة، ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجُل في أرض الضلال لك صدقة، ونصرك الرجل الرديء البصر لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة».

(د) وفي حديث طويل رواه أبو داود بإسنادٍ صحيح عن جابر بن سُلَيم، أن رسول الله ﷺ قال له فيه: «وأن تُكلّم أخاك وأنت منبسطٌ إليه وجهك إنّ ذلك من المعروف».

(هـ) وقد كان رسول الله ﷺ دائم البشر طلق الوجه مشرقاً، يواجه الناس بابتسامة حلوة، ويشارك الناس بمشاعره وحواسّه.

روى الترمذي عن عبدالله بن الحارث بن جَزْءٍ قال: «ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ».

وعن جرير بن عبدالله البَجَليّ قال: «ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا ابتسم».

وهكذا يكون سمْحُ النفس طلْق الوجه باسماً مشرق المُحيَّا، بخلاف النكِدِ الصعب، حتى يبدوَ كأنه قَرِفٌ من كلّ شيء، فإذا واجه الناس واجههم بسحنة منقبضة لا انبساط فيها ولا بشر، وإذا اجتمع معهم لم يشاركهم بمشاعره ولا بحواسه، وكان بينهم كأنه غريب عنهم، وكأنهم غرباء عنه، في وجهه ولسانه ونفسه، وهذا الوضع يجعله ممقوتاً مكروهاً بعيداً عن قلوب الناس، لأنه وضع يلازمه في معظم أحواله بسبب نكد نفسه الملازم له.

على أنّ مثل هذه الظاهرة قد تعرض لمعظم الناس إذا نزل بهم ما يكرهون، ولكنها لا تلازمهم، فالسمحاء منهم لا يلبثون أن يَرجع إليهم انبساطهم وانشراحهم، والحالة الكئيبة التي ظهرت منهم حالة طارئة مع عارضة

الحزن الذي أصابهم، أو الهمّ الذي انتابهم، ولا تلبث طويلاً في نفوسهم، بل ترجع نفوسهم سريعاً إلى سماحتها وانبساطها ورضاها عن الله.

* **ثانياً**: مبادرة الناس بالتحية والسلام والمصافحة وحسن المحادثة:

فمن كان سمح النفس بادر إلى هذه المحاسن، ووجودها في الإنسان طبيعية غير متكلفة، يدلّ على أنّه سمح هيّن ليّن رقيق حاشية النفس، أَلُوف ودود لا فظ ولا غليظ.

أما نكد النفس فلا يفعلها إلّا متكلفاً، ولمصلحة يقصد الحصول عليها.

وقد حثّ الإسلام على هذه المحاسن من ظواهر الأخلاق الاجتماعية بنصوصه كما كان الرسول ﷺ أسوة حسنة فيها بعمله وأخلاقه، وفيما يلي طائفة من الشواهد على ذلك:

(أ) ففي السلام يقول الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴿٢٧﴾ ﴾.

ولتستمرّ عادة البدء بالسلام أرشدنا الله إلى أن نسلّم على أنفسنا إذا دخلنا بيوتاً ولم نجد فيها أحداً من الناس نُسلّم عليه، وجعلها الله تحيّة من عنده مباركةً طيبة لنا، فقال تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾.

وكلّفَ اللّهُ من وُجّهت له تحيّةٌ من أخيه المؤمن أن يُحَيّيَهُ بأحسن منها أو بمثلها، فقال تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴿٨٦﴾ ﴾.

وأحاديث الرسول ﷺ في الحث على إفشاء السلام ذوات عدد، منها ما يلي:

* روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص، أن رجُلاً سأل رسول الله ﷺ: أيُّ الإسلام خير؟ قال: «تُطْعِم الطّعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف».

* وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتّى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتّى تحابّوا، أو لا أدلّكم على شيء إذا فعلتموه تحابَبْتمْ؟ أفشوا السلام بينكم».

* وروى الترمذي ـ وقال حديث صحيح ـ عن عبدالله بن سلام قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

* وكان الرسول ﷺ يعلّم أصحابه هذا الأدب الإسلامي بشكل عمليّ، في كلّ الأحوال التي يطلب فيها البدء بالسلام.

* وطبّق أصحاب الرسول ﷺ في حياتهم هذا الأدب، حتى إذا حُجب بعضهم عن بعض بشجرة وهم يمشون في طريق واحدة، سلّم بعضهم على بعض بعد ذلك.

(ب) وفي المصافحة بوصفها مظهراً من مظاهر البشر وحسن التلاقي وآدابه، نجد عدة نصوص منها ما يلي:

* روى البخاري عن قتادة قال: قلت لأنسٍ رضي الله عنه: أكانت المصافحة في أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: نعم.

* وروى أبو داود بإسناد صحيح عن أنسٍ قال: لما جاء أهل اليمن، قال رسول الله ﷺ: «قد جاءكم أهل اليمن، وهمْ أوّل من جاء بالمصافحة».

* وروى أبو داود عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسْلِمَين يلتقيان فيتصافحان إلاّ غُفر لهما قبل أن يفترقا».

* **ثالثاً**: حسن المصاحبة والمعاشرة والتغاضي وعدم التشدّد في الأمور:

فمن كان سمح النفس كان حسن المصاحبة لإخوانه، ولأهله، ولأولاده، ولخدمه، ولكل من يخالطه، ولكل من يرعاه.

وكان حسن المعاشرة خفيف المحاسبة والمؤاخذة، متغاضياً عن المخالفات التي تتعلق به، لا يتشدّد في الأمور، ولا يعظم الصغائر، بل يلتمس العذر لمن يقصّر معه أو لا يعطيه من الاحترام أو الخدمة حقه.

وقد كان رسول الله ﷺ المثل الكامل في ذلك كلّه، فمّما ورد في السنة من شمائله ما يلي:

(أ) روى البخاري ومسلم عن أنس خادم الرسول ﷺ قال: خدمتُ النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أفٍّ، ولا: لِمَ صنعت؟ ولا: ألا صنعت؟

وروي عنه أنه قال: خدمت رسول الله ﷺ وأنا ابن ثمان سنين، خدمته عشر سنين، فما لامني على شيءٍ قطّ أُتي فيه على يديّ، فإن لامني لائم من أهله قال: «دعوه فإنه لو قضي شيءٌ كان».

أُتي فيه على يديّ: أي أهلك أو أتلف على يدي.

فكان صلوات الله عليه من سماحة نفسه وخلقه العظيم لا يتضجر من عملٍ عمله خادمه ولو خالف ما يريد منه، ولا يلومه على عمل لوماً صريحاً ولا لوماً غير صريح، فلا يقول له: لِمَ صنعت؟ تلويماً على فعل صنعه، ولا يقول له: ألا صنعت؟ تلويماً على عمل لم يقم به.

وإذا كان هذا شأنه مع خادمه فما بالك بشأنه مع أهله وأصحابه، وسائر الناس؟!

(ب) وروى مسلم عن أنسٍ قال: كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً، فأرسلني يوماً لحاجة، فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به رسول الله ﷺ فخرجت حتى أمرّ على صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفايَ من ورائي، قال فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: «يا أنيسُ ذهبتَ حيث أمرتك؟». قلت: نعم أنا أذهبُ يا رسول الله.

(ج) ومن سماحته وحلمه وخلقه العظيم قصته مع الأعرابيّ الذي أخذ يجذب رداءه بشدة ليأمر له بعطاء.

فقد روى البخاري ومسلم عن أنسٍ قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرْدٌ نجرانيّ غليظ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ فجبذه بردائه جَبْذةً شديدة، ورجع نبي الله ﷺ في نحر الأعرابي، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثّرت بها حاشية البُرد من شدّة جبذته، ثم قال: يا محمد مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثمّ ضحك ثمّ أمر له بعطاء.

(د) ومن سماحته وَجُوده صلوات الله عليه أنه ما سئل شيئاً قط، فقال: لا.

كذا روى البخاريّ ومسلم عن جابرٍ رضي الله عنه.

(هـ) ومن سماحته وتواضعه ولين جانبه صلوات الله عليه، أنّه كانت تأتيه أمةٌ ضعيفة فتأخذ بيده ليقضي لها من حوائجها، فيتقبّل ذلك بنفسٍ هيّنة ليّنة سمحة، ثمّ لا يشعرها بتذمُّر ولا تنكّر.

روى الإمام البخاري عن أنس قال: كانت أمة من إماء أهل المدينة تأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت.

(و) ومن سماحته وتواضعه وصبره صلوات الله عليه، أنه كان يتحمّل المتاعب في نفسه من أجل الضعفاء والمساكين.

روى البخاري عن أنس: أنّ امرأةً كان في عقلها شيءٌ، فقالت: يا رسول الله، إنّ لي إليك حاجة، فقال: يا أم فلان، أي السّكك شئت حتى أقضي لك حاجتك، فخلا معها في بعض الطّرق حتى فرغت من حاجتها.

وروى مسلم عن أنس أيضاً قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلّى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء، فما يأتون بإناءٍ إلا غمَسَ يده فيها، فربّما جاؤوه بالغداة الباردة فيغمسُ يده فيها.

وقد كانوا يفعلون ذلك لينالوا من بركته صلوات الله عليه.

(ز) ومن سماحته ويسره صلوات الله عليه مشاركته أهله في أعمال البيت.

روى البخاري عن الأسود قال: سألت عائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قال: كان يكون في مَهنة أهله، فإذا حضرت الصلاةُ خرج إلى الصلاة.

(ح) ومن سماحته ورغبته بالأيسر الأسهل من الأمور، أنه ما خُيّر بين أمرين إلاّ اختار أيسرهما إلاّ أن يكون إثماً.

روى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: ما خُيّر رسول الله ﷺ بين أمرين قطّ إلاّ أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط إلاّ أن يُنتهك حرمة الله فينتقم لله بها.

(ط) ومن سماحته ويسره وتغاضيه عن السيئات التي تتعلّق بذاته ﷺ ما رواه مسلم عن عائشة قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ لنفسه شيئاً قط بيده، ولا امرأة ولا خادماً، إلاّ أن يجاهد في سبيل الله، وما نِيلَ منه شيءٌ قطّ فينتقمَ من صاحبه، إلاّ أن يُنتهكَ شيءٌ من محارم الله فينتقم لله.

وما رواه الترمذي والإمام أحمد بإسناد صحيح عن عائشة قالت: لم يكن رسول الله ﷺ فحّاشاً ولا متفحشاً ولا سخاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح.

الفحش والتفحش: النطق بالألفاظ الفاحشة المتصلة بالعورات وما يجب ستره من الأفعال، والبعد عن ذلك من الآداب الرفيعة التي يلتزم بها المسلم، فلا يسمع الناس من الكلام ما يعفّ عن سماعه كرام الناس.

والسّخبُ في الأسواق: رفع الصوت فيها كما يفعل السوقة.

(ي) ومن سماحته ويسره وتواضعه صلوات الله عليه أنه كان يركب الحمار إذا لم يتيسر له غيره، وأنه كان يخصف نعله بيده، ويخيط ثوبه، ويخدم نفسه.

روى ابن ماجه والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس خادم الرسول ﷺ أن النبي ﷺ كان يعود المريض، ويتبع الجنازة، ويجيب دعوة المملوك، ويركب الحمار.

ويقول أنس: لقد رأيته يوم خيبر على حمار خطامه ليف.

وروى الترمذي عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته.

قالت: كان بشراً من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه.

(ك) ومن سماحته وتودده للناس وتألفه لقلوبهم وكمال خلقه صلوات الله عليه، حسن مؤانسته لجلسائه، فيشارك جلساءه في أحاديثهم العامة من أمور الدنيا، ما لم يكن فيها معصية لله تعالى، أو انقطاع عن خير أهمّ وأفضل من مؤانسة الجلساء ومشاركتهم وتأليف قلوبهم وجبر خواطرهم.

روى الترمذي عن خارجة بن زيد بن ثابت قال: دخل نفر على زيد بن ثابتٍ فقالوا له: حدّثنا أحاديث رسول الله ﷺ، قال: كنت جاره فكان إذا نزل عليه الوحي بعث إليّ فكتبته له، فكان إذا ذَكَرْنا الدنيا ذكرها معنا، فكلّ هذا أحدّثكم عن رسول الله ﷺ .

(ل) ومن سماحته ورقة طبعه وكمال خلقه صلوات الله عليه، أنه كان إذا صافح رجلاً لم ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده من يد الرسول، وكان لا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرجل هو الذي يصرف وجهه عن وجهه.

روى الترمذي عن أنس: أنّ رسول الله ﷺ كان إذا صافح الرجل لم ينزع يده من يده حتى يكون هو الذي ينزع يده، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون هو الذي يصرف وجهه عن وجهه، ولم يُر مقدّماً ركبتيه بين يدي جليس له.

(م) ومن سماحته وتواضعه ورحمته وكمال خلقه صلوات الله عليه، أنه كان لا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي لهما حاجتهما.

روى النسائي والدارمي بإسناد صحيح عن عبدالله بن أبـي أوفى، قال: كان رسول الله ﷺ يكثرُ الذكر، ويُقلّ اللّغو، ويطيل الصلاة، ويقصّر الخطبة، ولا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي لهما الحاجة.

ـ ٥ ـ

من وسائل اكتساب خلق سماحة النفس

لقد تبين لنا في بحث اكتساب الأخلاق من الباب الأول من الكتاب، أن الأخلاق يمكن اكتساب مقادير منها، تتناسب مع أصل الاستعداد الفطري لاكتسابها، وأن النسبة تتفاوت بين الناس بحسب نماذجهم الطبعيّة، بيد أن كلّ نموذج قابل لاكتساب مقدارٍ ما من كلّ خلق.

وبناء على هذا نبحث هنا في بعض الوسائل التي يحسن التركيز عليها، من الوسائل التي تنفع في اكتساب خلق سماحة النفس، وفي التحلي بالظواهر السلوكية لهذا الخلق.

والذي أرى لفت النظر إليه في هذا المجال ثلاث وسائل.

الوسيلة الأولى: التأمل في الترغيبات التي رغّب الله بها الذين يتحلون بخلق السماحة، والفوائد التي يجنونها في العاجلة والآجلة، والسعادة التي يظفرون بها في الحياة الدنيا والآخرة.

الوسيلة الثانية: التأمل في المحاذير التي حذّر الله منها النكدين المتشددين العسيرين، وما يجلبه لهم خلقهم وظواهره السلوكية من مضارّ عاجلة وآجلة، ومتاعب وآلامٍ كثيرة، وخسارةٍ مادّية ومعنوية.

الوسيلة الثالثة: وهي من أنجع الوسائل وأكثرها عُمقاً في النفس، وتأثيراً في جذور التكوين الخلقي، ألا وهي وسيلة الاقتناع الإيماني بسلطان القضاء والقدر، وأنّه هو المهيمن على كلّ الأحداث التي تخـرج عن حدود الإرادة الإنسانية المسؤولة عن الأعمال الصادرة عنها.

فمتى علم الإنسان أن المقادير أمور مرسومة، وأنه لا رادّ لقضاء الله، وأنّ الله لا يقضي شيئاً إلاّ لحكمة هو يعلمها، ولا يأذن بنفاذ شيءٍ في كونه ولو من أهل الاختيار إلاّ لحكمة هو يعلمها، اطمأنّ قلبه، وثبت فؤاده، وهَدَأ قلقه، وأراح نفسه من طلب تغيير المقادير النافذة، وداوى هواه الذي خالفته المقادير أو ما أذنت بنفاذه المقادير بقول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

وبقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

وحينما يعامل الناس ويناله منهم أذى فإنه يعلم أنّ ما ناله منهم له وجهان:

الوجه الأول: أنه ظلم من العباد لا يرضى الله به، لأنه جاء على خلاف ما أمر الله به أو نهى عنه، فالمؤمن لا يرضاه منهم، لأنّ الله أبان أنه لا يرضاه منهم.

الوجه الثاني: أنّ الله أذن بنفاذه لحكمةٍ هو يعلمها، ولو شاء لمنع نفاذه، فهو بهذا المعنى من قضاء الله وقدره، وقد رضيه الله بحكمته، فهو يرضى بقضاء الله الحكيم، ويرى أن الخير فيما رضيه الله له، لذلك فهو يتقبلُه بانبساط وسماحة نفسٍ وتسليم كامل، ولا يوجّه أيّ اعتراضٍ وتذمُر على الله فيما قضاه.

ومن يرضى بمقادير الله يسعد قلبه برضاه، أمّا من يتسخّط على المقادير فإنه يشقي قلبه ونفسه بتسخطه، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فعليه السخط.

ومن أجل الإقناع بهذه الحقيقة من حقائق القضاء والقدر، لملء قلوب المؤمنين بالسعادة، ومنحهم خلق السماحة، وإبعادهم عن كلّ كآبة، تكاثرت

نصوص القرآن والسنة، لتبيان هذه الحقيقة، التي تمثل أساساً عظيماً من أسس الإيمان.

(أ) فمنها قول الله تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾.

ففي هذه الآية يبيِّن الله لعباده حقيقة من حقائق القضاء والقدر والعلم الربّاني السابق للأحداث، وهذه الحقيقة تتلخص بأن جميع المصائب وجميع النعم التي ينالها الناس في الحياة، سواءٌ نزلت في الأرض أو نزلت في الأنفس هي مكتوبة في كتاب علم الله وقضائه من قبل أن يبرأ الله الأنفس، أي من قبل أن يخلقها، فهي لا بدّ حاصلة لا يمكن ردّها ولا دفعها، وهذا الأمر في ضمن تراتيب القضاء والقدر أمرٌ يسيرٌ على الله وليس بعسير.

وقد أعلمنا الله بهذه الحقيقة من حقائق القضاء والقدر، لنتقبل مقادير الله بسماحة نفس، راضين عن الله مستسلمين إليه، عالمين بأنّ لله حِكَماً عظيمة في كلّ مقاديره، ولنتقبّل مصائب المقادير الرّبّانية بالصّبر، ونتقبل نِعَم المقادير الرّبّانية بالشكر، مبتعدين عن الفرح المبطر الذي يولّد في النفوس رذيلتي الاختيال والفخر، وذلك بالتكبّر على خلق الله، وبالطغيان الذي يولّده الشعور بالاستغناء.

وفي صدر الآية الأولى حذف دلّ عليه ما جاء في الآية الثانية، وتقدير الكلام: ما أصاب من مصيبة ولا نزل من نعمة في الأرض ولا في أنفسكم إلّا في كتاب من قبل أن نبرأها، لكيلا تأسَوْا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم.

الأسى: هو الحزن، يقال لغة: أسِيَ يأسَى أسىً، إذا حزِن، فهو أسْيان، ويقال: أسوان، أي: حزين.

والفرح المذموم: هو البطر المخرج عن حدّ الاعتدال، والذي يتولد عنه الفخر على الناس والاختيال عليهم.

(ب) ومن النصوص أيضاً قول الله تعالى في سورة (التغابن ٦٤):

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾.

فهذا النصّ يدلّ على أنه ما من مصيبة تنزل إلاّ بإذنٍ من الله تعالى، فإمّا أن تكون بمحض قضاء الله وقدره، فلا تنزل إلاّ بإذن، وإمّا أن تكون أثراً لأسباب باشرها بعض خلق الله، وحين تكون النتائج مقضيةً بقضاء الله فإنّ الله تعالى يأذن للأسباب بأن تتحقّق منها هذه النتائج، ولو شاء سبحانه لمنع الأسباب عن التأثير، أو لصرفها، أو لأوجد أي عائق يعوقها عن التأثير، فما يفعل أحد من خلق الله أمراً تنتج عنه مصيبة من المصائب إلاّ وإذن الله بوقوع المصيبة مرافق له، وربما يكون من فعل الفعل مسؤولاً عند الله تعالى عنه، لأنه عصى أوامر الله أو نواهيه، ومع ذلك فإنّ النتائج لم يكن لها أن تحصل لو لم يأذن الله بوقوعها.

ومع أنّ العالم قائم على نظام السببيّة وتأثيرها في مسبّباتها، فإنّ أيّ تأثير لسبب لا بدّ أن يقترن بإذن الله تعالى، ولو لم يأذن الله لم تؤثر الأسباب بمسبباتها، ومتى رفع الله إذنه عن سبب من الأسباب ارتفع تأثيره، كما أن السبب إذا لم يكن عين اختيار المخلوق المكلف هو من قضاء الله وقدره.

وبهذا المعنى الدقيق نردّ على الاتكاليين الذين يعتمدون على المقادير فيعطلون اتخاذ الأسباب، ويهملون شؤون الحياة، مع أنهم مأمورون بأمر الله الجازم باتّخاذ الأسباب.

وقد روى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه بإسناد حسن صحيح، عن ابن خِزامَة عَن أبيه قال: قلت: يا رسول الله أرأيت رُقىً نَسْترقيها، ودَواءً نتداوى به، وتُقاه نتّقيها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: «هي من قدر الله».

ويمكن أن نمثّل بمثال مادّي مشاهد لاقتران الإذن الرباني بالأسباب، ولله المثل الأعلى، وهو إضاءتنا المصابيح الكهربائية في بيوتنا، إننا لا نستطيع إضاءتها إلاّ بإذن القائمين على مؤسسة الكهرباء، فلو فرضنا أن مراقب الإمداد بالطاقة الكهربائية كان مطلعاً على كلّ حركة نتحرّكها في بيوتنا، وأنّ باستطاعته أن يقطع عنّا التيار متى شاء قطعاً كلّياً أو جزئيّاً، لكان كلّ ما نعمله في بيوتنا باستخدام الطاقة الكهربائية بإذنه، وإن لم يكن على ما يحب ويرضى، وذلك لأنه هو الممدّ بالطاقة وعلى علم بما يجري من أحداث، ومتى شاء فصل الطاقة، فاستمرار الإمداد بفعله، واستخدامنا لها بإذنه.

(ج) ومن النصوص أيضاً قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

وقد أشار هذا النص إلى أنّ من سنن الله في خلقه أن يبتليهم بالمصائب، ليختبر ردود أفعالهم تجاهها، فهل يتقبّلونها بالصبّر والرضى والتسليم، إيماناً بالله وبما تشتمل عليه مقاديره مِن حِكم، أم يستقبلونها بالضجر والتذمّر والنّكد والتسخّط على الله.

فإن كانوا من الفريق الأول قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، وهؤلاء هم أصحاب المنزلة العظيمة عند الله، عليهم صلوات من الله، أي رحمات، ورحمة من نوع خاص فوق الصلوات. وهؤلاء هم المهتدون.

وقد جعل الله جملة: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ ذكر الذاكر بعد نزول المصائب، لأن المصائب لا تعدو أنها سلبٌ للنّعمِ التي سبق أن أنعم الله بها، أو حرمان من النعم التي أنعم الله بمثلها على عباده، والنعم لدى التحقيق هي ملك لله تعالى، والناس وسائر عباد الله الذين ينعم عليهم بالنعم هم أيضاً ملك لله تعالى، ومصير العباد كلّهم أن يرجعوا إلى مالكهم، ومصير الأشياء كلّها أن

تعود إلى مالكها، فإذا ابتلى الله المؤمن فاستردّ منه نعمة كان قد وضعها بين يديه ليبتليه بها، فإن المؤمن يتذكّر بسرعة أنّ الله هو مالك كلّ شيء، ويتذكّر أيضاً أنه هو نفسه مملوك لله، وأنّ جميع الخلائق مملوكون لله وأنّهم عباده، وأنهم جميعاً راجعون إليه، فإذا رجع الملك إلى مالكه فعلامَ الحزن؟ وعلام الأسى؟ ولِـمَ الاعتراض؟ ولماذا التسخّط؟

فحينما يتذكّر المؤمن هذه الحقائق يُعلن عبارة الإيمان التي تدلُّ عليها فيقول: إنّا لله وإنا إليه راجعون.

هذه العقيدة الإيمانية رحمة من الله تملأ القلوب طمأنينة وتسليماً، ورضىً عن الله فيما جرت به مقاديره.

وهكذا حال واقع الفريق الأوّل.

وأمّا الفريق الثاني: فإذا أصابتهم مصيبة تضجّروا وتسخّطوا على الله، وأضافوا إلى مُصِيبتهم التي امتحنوا بها مصيبة أكبر من داخل نفوسهم، وهم فوق ذلك يحرمون أنفسهم من رحمة الله، فيكون سخطهم شقاء عليهم، ووبالاً ونكداً وألماً دائماً، وكآبة مقيمة.

ولـمّـا كانوا لا يملكـون العقيدة الإيمـانية الصحيحـة، فإن المصـائب إذ تصدمهم بآلامها القاسيات لا تجدُ لديهم أيّة قوّةٍ دفاعية داخل نفوسهم، ولا داخل قلوبهم، بل تقوم لديهم قوى الحزن والضّجر والاضطراب والتذمر والتسخط والنكد، فتساعد المصائب، وتنضم إلى جيشها، فتخرّب في كيان صاحبها أكثر من تخريب العدوّ، حتى يجد الإنسان نفسه وحيداً، وليس أمامه من داخل نفسه صديق يواسيه أو يسليه أو يداريه أو يساعده في تحمّل المصائب، وتظلم الحياة في وجهه، ويسودّ في عينيه كل شيء، وعندئذ إمّا أن يفرّ من الحياة بالانتحار، وإمّا أن يتحوّل مجرماً وشيطاناً رجيماً؛ يريد أن ينتقم من كلّ شيءٍ ويحطّم كل شيء، وينفس غيظه على كلّ شيء.

وإذ فقد هؤلاء ركناً أساسياً من أركان الإيمان كانوا غير مهتدين، وكانوا محرومين من الصلوات والرحمة من الله.

(د) ولأهميّة الاعتقاد بالقضاء والقدر في حياة الإنسان، إذ يمنحه سعادة الطمأنينة والاستقرار وسماحة النفس، وسعادة الرضى والتسليم؛ كان الرسول ﷺ يعلّم صغار الصحابة مضامينه مع أول ما يتعلّمونه من العقائد، ويلقّنهم مفاهيمه تلقيناً.

فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد والترمذي بإسنادٍ صحيح، عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه، قال: كنتُ خلف رسول الله ﷺ[1] فقال: «يا غلام، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجدْه تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلّا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

فالمؤمن يريح قلبه من عناء التعلّق بالأسباب، مع أنّه لا يفرّط في اتخاذ الأسباب الكونية التي ربط الله بها تحقيق المسبّبات، وأمر الناس باتخاذها، ومتى أراد الله شيئاً أنفذ مراده من خلال الأسباب، وإذا لم يرد شيئاً أوقف الأسباب، أو عطّل تأثيرها من خلال أسباب أخرى معارضة، أو بسلب الأسباب خصائصها، ولكن هذا إنما يتمّ في حدود المعجزات وخوارق العادات، وخرق قوانين الأسباب في مجرى المقادير من النوادر في سنن الله.

والواجب على المؤمن أن يربط قلبه بمسبب الأسباب كلها، وهو الله عز وجل، وأن يربط عمله وجوارحه بالأسباب قياماً بما أوجب الله، وبذلك يسلم له الاعتقاد ويسلم له العمل، ويظفر بأكبر قسط من السعادة، ومتى خالف ذلك حرم من السعادة، وتحمل متاعب الشقاوة.

فعن سعدٍ قال: قال رسول الله ﷺ : «من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله له، ومن شقاوة ابن آدم تركه استخارة الله، ومن شقاوة ابن آدم سخطه بما قضى الله له».

(رواه الإمام أحمد والترمذي بسند ضعيف)

---

(١) أي رديفاً له على دابة.

(هـ) ومن النصوص أيضاً قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾.

قد يرى بعض الناس إشكالاً في هذا النصّ، إذ يقول الله تعالى في الآية الأولى منه عمّا يصيب الإنسان من حسنة أو سيئة: ﴿قل: كلٌّ من عند الله﴾. ويقول في الآية الثانية منه: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله * وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾.

والجمع بين هاتين الفكرتين اللتين قد يتبادر منهما أنّهما متعارضتان يظهر في البيان التالي:

بعد أن هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، وتحوّلت المدينة فصارت قاعدة الدولة الإسلامية وعاصمة المسلمين، أخذ المنافقون واليهود يتصيّدون كلّ مناسبة لبثّ أراجيفهم، وتقطيع المسلمين عن رسول الله ﷺ ، وصدّهم عن دعوته، فإذا جاءت المسلمين نعمة من رزقٍ أو خيرٍ أو نصرٍ أو غنيمة، وامتدّ نفعها للمنافقين واليهود، أسرع هؤلاء فقالوا: هذه من عند الله، ليصرفوا أنظار المسلمين عن أثر بركة الإسلام، وبركة رسول الله ﷺ بين ظهرانيهم، وإذا أصابت المسلمين سيئة في أموالهم أو أنفسهم وامتدّ أثر ذلك إلى المنافقين واليهود، أخذ هؤلاء يرجفون فيقولون: هذا من شؤم محمد ورسالته، ليقطّعوا المسلمين عن رسول الله صلوات الله عليه، فكان المناسب في جوابهم والردّ عليهم أن يعلم الله رسوله أن يقول لهم: «كلٌّ من عند الله». أي: كلٌّ من الحسنة والسيئة من عند الله تعالى، وأفعال الله إنما تكون لحِكَمٍ هو يعلمها، فهي من عند الله خلقاً وإيجاداً وابتلاءً. ﴿فمالِ هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً؟﴾. أي: ماذا جرى لهم حتى جعلهم منطمسي البصائر لا يكادون يفقهون حديثاً.

أمّا قوله تعالى في الآية الثانية من النصّ: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾.

فهو يتضمن الإشارة إلى أنّ ما يصيبنا من حسناتٍ بقضاء الله، فإنما هو تطبيق لقانون الفضل الإلهي، وأنّ ما يصيبنا من سيئات بقضاء الله فإنما هو تطبيق لقانون العدل الإلهي، أو قانون التربية الإلهية.

ويمكن شرح جملة النصّ على الوجه التالي:

إنّ ما ينزل بالناس ممّا يحبون ومما يكرهون هو من عند الله وبقضائه وقدره، أمّا الحسنات منها فمن فضل الله، وأمّا السيئات منها فبسبب من الإنسان، إمّا لأنّ ذنبه هو السبب في استحقاق العقوبة، وإمّا لأن تربيته وتأديبه يقتضيان إذاقته بعض ما يكره في حياته من مصائب وآلام، فمصلحة الإنسان نفسه هي التي اقتضت أن يصيبه من الله بعض ما يكره من صروف الحياة.

وعلى هذه الشاكلة يحسن تدبّر معاني آيات القرآن الكريم، لأن القرآن متكامل المعاني، يتمّم بعضه بعضاً، ويفسر بعضه بعضاً، ولا ينقض بعضه بعضاً، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً. وعمل المتدبر لكلام الله يتمّ بأن يضع معنى كلّ آية في الموضع الملائم له، وعلى مقدار نسبته من ساحة المعاني، فلا يعمّم تعميماً زائداً على المراد، ولا يخصص تخصيصاً زائداً على المراد، ولكن يجمع ما اختلف من النصوص حول موضوع واحد، ويؤلف بينها تأليفاً تامّاً يملأ به ساحة الموضوع، ويعطي كلّ نصٍّ منها على مقداره.

وأمّا التعميم الوارد في قول الله تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.

فيمكن فهمه على أحد وجهين:

الأول: أنه يتحدّث عن المصائب العامّة التي تشمل أمّةً من الأمم، أو قوماً من الأقوام، وهذه المصائب التي لها صفة العموم والشمول، إنما تكون على سبيل العقوبة العامة، بسبب ما كسبت الأمة أو القوم من سيئات ومخالفات، ويعفو الله عن كثير منها.

الثاني: أنّ سياق النص يدل على أنه خطابٌ للمشركين المعـاندين، فالمصائب الجماعية التي كانت تنزل بهم قد كانت بسبب عنادهم وجحودهم وكفرهم، ومعصيتهم لله والرسول، ولذلك جاء في الآية التي بعدها قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٣١ ﴾.

أمّا المصائب التي تنال الأفراد ضمن سنن الله في ابتلاء عباده، فقد يكون لها حِكَمٌ أخرى غير حكمة العقوبة، فقد تكون للامتحان والاختبار والتمحيص والتمييز، وقد تكون للتربية والتأديب.

فمن النصوص الدالة على أنّ من المصائب ما هو للامتحان والاختبار والتمحيص والتمييز، قول الله تعالى للمؤمنين في سورة (آل عمران ٣):

﴿ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢ ﴾.

فالامتحان قد يقتضي في بعض أشكاله أن يكون بالمصيبة وبما تكره النفوس. وتحمُّل المؤمن مصائب الامتحان الإلهي بصبر وصدق مع الله ورضىً وتسليم؛ هو من أفضل أعماله الصالحة، التي يكتب الله له بها أجراً عظيماً، وثواباً جسيماً.

ومن هذه النصوص أيضاً قول الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢٠

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

فهذه مصائب امتحان وهي في سبيل الله، وتحملها والصبر عليها من صالحات الأعمال.

ومن هذه النصوص قول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾.

والخلاصة: أنّ المصائب التي تصيب الناس في أنفسهم، أو في أرزاقهم، أو في أموالهم، أو في غير ذلك ممّا يتصل بهم ممّا يسرّهم الكمال فيه ويؤلمهم النقص منه، يرجع في حكمة القضاء والقدر إلى أمرٍ أو أكثر من الأمور التالية:

الأمر الأول: الابتلاء والامتحان، وهذا هو الأساس العام من الأسس التي تقوم عليها حكمة وجود المضارّ والمنافع، واللذائذ والآلام في الحياة.

الأمر الثاني: تربية النفوس على تحمّل ألوان الحياة المختلفة، الخاضعة لسنن ثابتة عامّة، ضمن مقادير الله الكبرى.

وهذه الحكمة التربوية ذات فلسفة عظيمة في سرّ الألوان المتضادة التي تتعرّض إليها الحياة، إنّ اللّذة لا تعرف قيمتها إلاّ بالألم، وإنّ الجميل لا يُعرف جماله ما لم تعرف صورة القبح، وإنّ الكمال لا يدرك كماله إلاّ بالنقص، وبضدها تتميز الأشياء.

الأمر الثالث: العقوبة على ما اكتسبه الإنسان بإرادته من أعمال سيئة، وما اقترفه من معاصٍ ومخالفات لله تعالى.

وكما تكون العقوبة للأفراد تكون أيضاً للأمم.

ـ ٦ ـ
سماحة الإسلام ويُسره

كما دعا الإسلام المسلمين إلى التحلّي بخلق السماحة، فإنّ السماحة من خلق الإسلام نفسه، وإنّ الله تبارك وتعالى يعامل عباده بالسماحة، ما لم يقتضِ الحقّ إقامة العدل اقتضاءً لازماً، وما لم تقتض الحكمة ذلك. وفي الحديث: «أحبّ الدين إلى الله الحنيفية السمحة».

فمن السماحة عفو الله ومغفرته للمذنبين من عباده، وحلمه تبارك وتعالى على عباده، وتيسير الشريعة عليهم، وتخفيف التكاليف عنهم، ونهيهم عن الغلوّ في الدين، ونهيهم عن التشديد في الدين على عباد الله.

(أ) وشواهد يُسر الإسلام وسماحته كثيرة في النصوص الإسلامية، فمن هذه النصوص ما يلي:

١ ـ يقول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ . . . ﴿١٨٥﴾﴾.

٢ ـ ويقول الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾.

فالله تبارك وتعالى ما يريد لنا فيما أنزل علينا من شرائع الْعُسْر، وإنما يريد لنا اليسر، وما يريد أن يجعل علينا حرجاً في الدين، وإنما يريد تطهيرنا من الأرجاس المادّية والمعنوية، ويريد تكميلنا بإتمام نعمته علينا.

٣ ـ ويقول الله تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ۩ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) ﴾.

ففي هذا النصّ يمتنّ الله علينا بأنه ما جعل علينا في الدين من حرج، وهذا من سماحة هذا الدين ويسره.

٤ ـ ويقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا (٢٨) ﴾.

فامتنّ الله علينا بأنه يريد أن يخفّف عنّا في تكاليف الشريعة مراعاةً لواقع حال ضعفنا.

(ب) وقد ظهر يسر الإسلام وسماحته في تطبيقات الأحكام الشرعية، وشواهد ذلك كثيرة، فمنها ما يلي:

١ ـ فعند التكليف بتقديم الهدي بالنسبة إلى الـمُحْصَر وبالنسبة إلى المتمتع بالعمرة إلى الحج؛ يقول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ (١٩٦) ﴾.

٢ ـ وبالنسبة إلى قيام الليل يقول الله تعالى في سورة (المزمل ٧٣):

﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ (٢٠) ﴾.

أي: علم الله أن لن تطيقوه، فخفف عنكم فرغبكم بأن تصلّوا ما تيسر لكم من الصلاة، أو بأن تكتفوا بقراءة ما تيسر لكم من القرآن.

٣ ـ ووجّه الله الدائنين إلى التيسير على المدينين المعسرين، فقال عزّ وجلّ في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ ﴾.

فعلّمهم الله بذلك سماحة النفس، وحسن التغاضي عن المعسرين.

وروى البخاري ومسلم عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ رجلاً كان فيمن قبلكم أتاه الملك ليقبض روحه، فقيل له: هل عملت من خير؟. قال: ما أعلم. قيل له: انظر. قال: ما أعلم شيئاً غير أني كنت أبايع الناس في الدنيا وأجازيهم، فأنظر الموسر وأتجاوز عن المعسر، فأدخله الله الجنة».

وفي رواية لمسلم نحو هذا الحديث عن عقبة بن عامر، وأبـي مسعود الأنصاري، وفيها: «فقال الله أنا أحق بذا منك، تجاوزوا عن عبدي».

٤ ـ وروى البخاري عن أبـي هريرة قال: قـال رسول الله ﷺ: «إنّ الدين يسر، ولن يشادّ الدين أحد إلاّ غلبه، فسدّدوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغُدوة والرّوحة وشيءٍ من الدلْجَة».

الغدوة: هي أول النهار. والروحة: هي آخر النهار. والدلْجَة: هي آخر الليل.

أي: استعينوا على القيام بطاعة الله بأوقات نشاطكم، وحضور همتكم، وذلـك في أول النهار، وفي آخـره، وفي آخر الليـل، ولا تكلّفوا نفـوسكم ما لا تطيقون من الأعمال.

٥ ـ وروى مسلم عن عبدالله بن مسعود أنّ النبـي ﷺ قال: «هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون».

والمتنطعون: هم المتعمقون المشدِّدون في غير موضع التشديد.

وقد أكد الرسول ﷺ هلاك المتنطعين بتكريره، خوفاً على أمته من أن يأتي مشدِّدون فيُشددوا عليهم دينهم، وفي هذا توجيه للسّير مع سماحة الإسلام ويُسره.

٦ ـ ومن سماحة الإسلام ويسره توجيهه إلى المداومة على عمل الخير القليل، دون الإفراط في العمل الكثير، ثم الانقطاع عنه.

روى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «أحبّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قل».

وروى البخاري ومسلم عن عائشة أيضاً قالت: قال رسول الله ﷺ: «خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يملّ حتّى تملّوا».

وروى البخاري ومسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليصلّ أحدكم نشاطه، وإذا فتر فليقعد».

٧ ـ ومن سماحة الإسلام ويسره توجيهه للتيسير على الناس والرفق بهم، وتهديده من يشدّد عليهم ويشُق عليهم.

روى مسلم عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «اللهم من وَلي من أمر أمتي شيئاً فشقّ عليهم فاشقُق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به».

٨ ـ ومن يسر الإسلام وسماحته محبته التخفيف على المسلمين، وكراهيته التثقيل عليهم في أمور الدين، واتخاذ أيّ تشديد منفّر، ولذلك اشتدّ رسول الله ﷺ في موعظته مغضباً، حينما بلغه أن بعض أئمة المساجد يطيل في صلاته فينفّر بعض القوم من حضور صلاة الجماعة.

روى البخاري ومسلم عن أبي مسعود عقبة بن عمرو البدري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني لأتأخّر عن صلاة الصبح من أجل فلان ممّا يطيل بنا، فما رأيت النبي ﷺ غضب في موعظةٍ قطّ أشد ممّا غضب يومئذٍ فقال: «يا أيها الناس، إنّ منكم منفّرين، فأيكم أمّ الناس فليوجز، فإنّ من ورائه الكبير والصغير وذا الحاجة».

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صلّى أحدكم للناس فليخفّف، فإنّ فيهم السقيم والضعيف والكبير، وإذا صلّى أحدكم لنفسه فليطوّل ما شاء».

وروى البخاري ومسلم عن أنس قال: ما صلّيت وراء إمام قطّ أخف

صلاة ولا أتمّ صلاة من النبي ﷺ . وإن كان ليسمع بكاء الصبيّ فيخفّف مخافة أن تفتن أمُّه.

وكان صلوات الله عليه يوصي أصحابه بأن يخفّفوا في الصلاة إذا أمُّوا الناس وصايا خاصة، غير التي كان يعلنها في وصاياه العامة، فمن ذلك ما رواه مسلم عن عثمان بن أبي العاص قال: آخر ما عهد إليّ رسول الله ﷺ : «إذا أممت قوماً فأخفّ بهم الصلاة».

وفي رواية له: أن رسول الله ﷺ قال له: «أمّ قومك» قال: قلتُ: يا رسول الله إني أجد في نفسي شيئاً[1]. قال: «ادْنُه» فأجلسني بين يديه، ثمّ وضع كفّه في صدري بين ثديَيّ ثم قال: «تحوّل». فوضعها في ظهري بين كتفيّ ثم قال: «أمّ قومك، فمن أمّ قوماً فليخفّف، فإن فيهم الكبير، وإن فيهم المريض، وإن فيهم الضعيف، وإنّ فيهم ذا الحاجة، فإذا صلّى أحدكم وحده فليُصلّ كيف شاء».

٩ ــ ومن سماحة الإسلام ويسره ما كان من الرسول ﷺ في شؤون مناسك الحج، فقد كان في حجته بعيداً عن كلّ تشديد فيها، فما سئل عن شيء قدّم أو أخّر إلاّ قال للسائل: «افعل ولا حرج».

روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله ﷺ وقف في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه، فجاءه رجلٌ فقال: لم أشعُر فحلقتُ قبل أن أذبح، فقال: «اذبح ولا حرج». فجاءه آخر فقال: لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي، فقال: «ارم ولا حرج». فما سئل النبي ﷺ عن شيءٍ قُدّم ولا أخّر إلاّ قال: «افعل ولا حرج».

وروى البخاري عن عبدالله بن عباس قال: كان النبي ﷺ يُسْأَل يوم النحر بمنى فيقول: «لا حرج». فسأله رجلٌ فقال: رميت بعدما أمسيت، فقال: «لا حرج».

---

(١) يعني أنه يجد وسوسة في صدره.

١٠ ــ ومن سماحة الإسلام ويسره حبُّه للرفق وحثه عليه وكراهيته للعنف وتحذيره منه.

روى مسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ : «إن الله تعالى رفيق يحبّ الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه».

وفي رواية لمسلم عن عائشة أن النبي ﷺ قال لها: «عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحش، إنّ الرفق لا يكون في شيءٍ إلا زانه، ولا ينزع من شيءٍ إلا شانه».

وروى مسلم عن جرير أن النبي ﷺ قال: «من يحرم الرفق يحرم الخير».

وعن أبي صرمة مالك بن قيس المازني، أن النبي ﷺ قال: «من ضارّ ضارّ الله به، ومن شاقّ شاقّ الله عليه».

(رواه ابن ماجه والترمذي وقال: حديث غريب)

١١ ــ ومن سماحة الإسلام ويسره نهيه عن أن يُشدّد المسلمون على أنفسهم وأن يغالوا في الدين.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «دعوني ما تركتكم، إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».

ولـمّا حاول بعض أصحاب رسول الله ﷺ أن يشدّدوا على أنفسهم في العبادات، نهاهم الرسول ﷺ عن ذلك وقال لهم: «فمن رغب عن سنتي فليس مني» وذلك في حديث رواه البخاري ومسلم عن أنس.

وعن أنس بن مالك أنّ النبي ﷺ كان يقول: «لا تشدّدوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإنّ قوماً شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم، فتلك

بقاياهم في الصوامع والديار: ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حقّ رعايتها﴾.

(رواه أبو داود بسند ضعيف)

وقال الرسول ﷺ لأصحابه: «فإنما بعثتم ميسّرين ولم تبعثوا معسّرين»[٢].

* * *

(١) الحديد (٢٧).

(٢) في حديث الأعرابي الذي بال في المسجد.

الفَصْل التَاسِع

عُلوّ الهِـــمَّةِ

- ١ -

من الأسس الأخلاقية العامة الفاضلة: علو الهمّة. وترجع إلى هذا الأساس الأخلاقي مجموعة من الظواهر الخلقية، كالجدّ في الأمور، وكالإباء والترفّع عن الصغائر والدنايا، وكالطموح إلى المعالي.

وبمقدار ارتفاع درجة علوّ الهمة ترتفع نسبة الظواهر الخلقية التي ترجع إليه، وترتفع قيمتها، وبمقدار انخفاض درجة هذا الخلق تأتي نِسَبٌ من الظواهر الخلقية غير الفاضلة المضادّة للظواهر الفاضلة لخلق علوّ الهمّة، فتأتي مثلاً ظواهر الكسل والتسفُّل والضّعة والاستخذاء والرضى بالدّنايا والصغائر، وتعلّق النفس بها.

والذي دعا إلى اعتبار علوّ الهمة أحد الأسس الأخلاقية، أنه قد يوجد وقد ينعدم مع مختلف نسب الذكاء، ومعلوم أنّ الذكاء هو الوسيلة لتقدير الأمور حقّ قدرها، ومع ذلك فإننا نجد اثنين على مستوى واحدٍ من الذكاء إلا أن أحدهما عالي الهمة صاحب جدٍّ وطموحٍ وترفُّعٍ عن الصغائر والدنايا، أمّا الآخر فوضيع الهمة كسولٌ ميّال إلى الهزل، رضيٌّ بالصغائر والدنايا. فلا بد أن نعزو هذا الفارق بينهما إلى أثر اختلاف العناصر الخلقية بينهما، ولنسمِّ ذلك علوّ الهمة في الجانب الكريم منه، ونزول الهمّة أو الدناءة في الجانب غير الكريم منه، مهما كانت العناصر النفسية التي تكوّن منها هذا الخلق، في طرفه الفاضل الرفيع، أو في طرفه القبيح الوضيع.

ـ ٢ ـ
موقف الإسلام من خلق علو الهمة

والإسلام يحثّ على علوّ الهمة، ويحرص على تربية المسلمين على هذا الخلق الكريم، وعلى كلّ الظواهر الخلقية الرفيعة التي ترجع إليه.

فمن الملاحظ في الإسلام أن الإيمان والعمل قرينان، والعمل هو الظاهرة المادّية لعلو الهمة في النفس، والعمل هو التحرك الهادف الجادّ الذي تبذل فيه طاقة من الطاقات، لتحقيق غاية من الغايات.

ومن الملاحظ في الإسلام أنه يعمل على ترقية غايات المسلمين إلى الغايات الرفيعة المثلى، وهذا إعلاء لهمتهم النفسية، ورفع لها عن الصغائر والدنايا، وأخذٌ بيدها إلى معالي الأمور.

وقد كانت حياة الرسول ﷺ مليئة بألوان تربية المسلمين على خلق علوّ الهمة، الذي يستلزم الجدّ والإباء والترفّع عن الصغائر والدنايا، والطموح إلى المعالي.

ومن تربية الإسلام المسلمين على خلق علوّ الهمّة توجيههم لكسب أرزاقهم عن طريق الكدح والعمل والمشي في مناكب الأرض، وتوجيههم للترفّع عن مسألة الناس ما لم تدعُ الضرورة إليها، وتعريفهم بأن اليد العليا خير من اليد السفلى، وتوجيههم للتنافس والتسابق في فعل الخيرات، والتنافس والتسابق إلى معالي الأمور، ورفيع المنازل بالعمل الصالح والمكتسبات الإرادية الخيرة، وتعويدهم الجدّ في أعمالهم، والقيام بها بهمّةٍ ونشاط، وأمرهم بالجهاد ومجاهدة النفس، والجهاد أقصى مراتب العمل الجاد.

وفي مقابل ذلك ذمّ الإسلام التواني والكسل، وأمر بالبعد عن الهزل واللّهو واللّعب وكلّ أمرٍ لا فائدة ترجى منه، وأمر بالبعد عن سفاسف الأمور، والترفّع عن الدنايا والمحقرات، والزهد بالدنيا طلباً لما هو أجل وأعظم، وأبقى وأخلد، ألا وهو النعيم المقيم في جنّات النعيم الخالد.

وكان رسول الله ﷺ وسائر رسُل الله يتحلّون بخلق علوّ الهمة، وارتقى

الأمر ببعضهم حتى كان من أولي العزم، ولذلك أمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، حتى يكون من أولي العزم، فقال له في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ۝٣٥﴾.

ووضع الإسلام المسلمين في موضع قيادة الخلق إلى الحقّ، وحمّلهم تبعات هذه القيادة، وفي هذا غرس لخلق علوّ الهمّة في نفوسهم، ودفع شديد لهم حتى يتحلّوا بكلّ ظواهرها، ويسيروا في السبل التي لا تُجتازُ إلاّ بعلّو الهمّة، ويحاولوا اختراق الصعاب وتحمّل المشقات، والاستهانة بما يعترضهم من آلام، طموحاً إلى المجد الذي يصبون إليه بعلوّ همتهم.

ولـمّـا كان مجد الآخرة أعظم المجد كان ابتغاؤه أعظم الغايات، وكان هو الهمّ الأكبر للمؤمنين الصادقين ذوي الهمم العليّة، والنفوس الكبيرة الزكية. أما الدنيا فإنها في نظرهم ــ مهما بلغت أمجادها ــ قليلة القيمة في جنب الآخرة، لذلك فهم يحاولون أن يبتغوا فيما آتاهم الله الدار الآخرة، مع أنهم لا ينسون نصيبهم من الدنيا.

وكلّما علت همة الإنسان كانت مطالبه أسمى، وصغرت في عينه المطالب الدنيا، فلا يهتمّ لها كثيراً، ولا يتتبّعها إلا بمقدار الحاجات؛ ولذلك فهو لا يدنّس نفسه بالدناءات ومحقرات الأمور، ولا يبذل رأس مال حياته من جهد وطاقة وعمر فيما لا جدوى منه، فضلاً عن أن يبذل شيئاً من ذلك فيما فيه مضرّة له أو لغيره، من المضرّات بالدين أو المضرّات بالدّنيا.

فخلق علوّ الهمة مع حسن البصر بالأمور وتقديرها حق قدرها، يبعد صاحبه عن المعاصي والآثام، لأنها دنايا ومستقذرات. ويدفع صاحبه لمجاهدة نفسه عن شهواتها الجانحة، تزكية لها، وإعلاء من شأنها. ويدفع صاحبه أيضاً للتسابق في ميادين الطاعات والعبادات والأعمال الصالحات، للظفر بمراتب المجد الرفيع في الآخرة، لأنها إنما تنال بذلك. ويدفع صاحبه أيضاً للتسابق في ميادين المعرفة للظفر بالدّرجات الرفيعة التي فضّل الله بها العلماء. ويدفع صاحبه

أيضاً للتحلّي بأفضل مكارم الأخلاق، للظفر بمرتبة القرب من الله ورسوله، والظفر بالذكر الحميد في الدنيا دار الفناء، وفي الآخرة دار الجزاء. فهو وسيلة عظيمة من وسائل الارتقاء في سلّم كلّ مجد عظيم، ولكن بشرط أن يقترن بحسن التبصّر بالأمور، وتقديرها حق قدرها، وإلاّ ضاعت طاقات الإنسان هدْراً، وتاهت اندفاعاته، وكانت عزائمه ألعوبة في أيدي شذوذاته الفكريّة.

* ولخلق علوّ الهمة ظواهر في السلوك تنجم عنه، وفيما يلي شرح لطائفة منها:

ـ ٣ ـ
الجد في العمل وعدم التواني والكسل

من ظواهر خلق علوّ الهمة في السلوك الجدّ والنشاط في العمل، وعدم التواني والكسل، وعدم التباطوء وعدم التهاون.

والجدّ والنشاط في أعمال الخير التي ترضي الله تعالى من سمات المؤمنين الصادقين الذين يراقبون الله ويرجـون اليوم الآخر، إنهم كلما دعاهم داعي العمل إلى فعل الخير قاموا إليه بحيوية ونشاطٍ جادّ. يدعوهم الداعي إلى الجهاد في سبيل الله فيطيرون إليه كالصقور رجالاً أو ركباناً. ويدعوهم الداعي إلى الصلاة من جوف الليل، فتتجافى جنوبهم عن المضاجع. ويناديهم المنادي إلى العلم والمعرفة فيقفزون لتناوله ولو كان في الثريّا. وتتحرك فيهم الدوافع إلى اكتساب الرزق، فيبكرون إليه، لينالوا من بركة دعوة الرسول ﷺ: «بورك لأمتي في بكورها».

والمؤمنون الصادقون يكرهون الكسل ويحتقرونه ويستعيذون بالله منه، ويدعون بدعوة الرسول ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعود بك من غلبة الدين وقهر الرجال». ومن كان صاحب همة عالية لم يقبل واحدة من هذه الخصال، لأنها ظواهر لا تتلاءم مطلقاً مع خلق علوّ الهمّة.

وذمّ الله التكاسل والتباطؤ وجعلهما من صفات المنافقين.

قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

فقد دعا الله المؤمنين في هذا النص إلى أن ينفروا مجاهدين في سبيل الله ثُباتٍ ـ أي جماعات متفرقة ـ أو جميعاً ـ أي عصبة واحدة في نفير عامّ ـ وذلك حسب مقتضيات المصلحة.

وأنحى باللائمة على المبطئين، وهم من المنافقين الموجودين في صفوف المؤمنين، فهم فريق طلاب مغانم، ولكنّهم غير مستعدّين أن يبذلوا أي جهد في سبيل الله، فإذا دعا الداعي إلى الجهاد تباطؤوا ولم يخرجوا، فإذا نال المجاهدين مكروه فرحوا هم بالسلامة، وإذا ظفر المجاهدون وغنموا ندموا هم وتحسّروا على أنفسهم، وقال قائلهم: يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً، ويعتبر الغنيمة هي الفوز العظيم، لأنه منافق لا يؤمن باليوم الآخر، ولا يسعى للفوز فيه، ولو كان مؤمناً حقاً لتوقّد إيمانه حرارة فنفى عنه التباطـؤ والتكاسل، وخرج إلى القتال في سبيل الله ورجا الشهادة والأجر عند الله.

وقال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ۝٥٣ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ۝٥٤ ﴾.

فقد ذمّ الله المنافقين بأنهم لا يقومون إلى الصلاة إلاّ وهم كسالى، فمن كان فيه هذا الوصف من المؤمنين كانت فيه صفة من صفات أهل النفاق.

وعلة المنافقين أنهم غير مؤمنين بفائدة الصلاة وجدواها، لذلك فهم إذا اضطرهم نفاقهم أن يقوموا إليها مسايرة للمؤمنين، وحتى لا ينكشف نفاقهم، قاموا إليها متباطئين كُسالى.

بخلاف المؤمنين الصادقين فإنهم يقومون إلى الصلاة بهمة ونشاط، ورغبة صادقة، ولذلك وصف الله المؤمنين الصادقين بأنهم يقومون إلى التهجد في الليل أو إلى صلاة الفجر تتجافى جنوبهم عن المضاجع، وهذا عنوان مصارعة همتهم لحاجة أجسادهم إلى الراحة والنوم، فقال تعالى في سورة (السجدة ٣٢):

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧ ﴾.

همة الرسول ﷺ في عباداته:

وقد كان الرسول ﷺ صاحب همّةٍ عالية جدّاً في عباداته، كان يقوم من الليل حتى تتورّم قدماه.

روى النسائي بإسناد صحيح على شرط مسلم، عن حميد بن عبدالرحمن بن عوف قال: إنّ رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ قال: قلت وأنا في سفر مع رسول الله ﷺ : والله لأرقبنّ رسول الله ﷺ للصلاة حتى أرى فعله، فلـمّـا صلّى العشاء وهي العتمة، اضطجع هَوِيّاً من الليل(١)، ثمّ استيقظ فنظر في الأفق فقال:

---

(١) هوياً من الليل: أي زماناً منه.

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾. (آل عمران ٣).

قال: ثم أهوى رسول الله ﷺ إلى فراشه، فاستلّ منه سواكاً، ثمّ أفرغ في قدح من إداوة عنده ماءً فاستنّ[1]، ثمّ قام فصلّى، حتى قلت: قد صلّى قدر ما نام.

ثمّ اضطجع حتى قلت: قد نام قدر ما صلّى، ثمّ استيقظ ففعل كما فعل أوّل مرّة، وقال مثل ما قال.

ففعل رسول الله ﷺ ثلاث مرّاتٍ قبل الفجر.

كل هذا يفعله ﷺ من علوّ همته مع أنّ الله تعالى قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وأعطاه أعظم الدرجات، ولكن الرسول ﷺ كان عبداً شكوراً لربّه، كما قال هو.

وروى البخاريّ ومسلم عن عبدالله بن مسعود قال: صليت مع النبي ﷺ ليلة فأطال القيام، حتى هممت بأمر سوء. قيل: وما هممت به؟ قال: هممت أن أجلس وأدعه.

وروى مسلم عن حذيفة بن اليمان قال: صليت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثمّ مضى فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى فقلتُ: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثمّ افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسّلاً إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ

(١) فاستن: أي فاستاك بالسواك.

بتعوذ تعوّذ. ثمّ ركع، فجعل يقول: «سبحان ربي العظيم» فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال: «سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد» ثم قام قياماً طويلاً قريباً ممّا ركع، ثمّ سجد فقال: «سبحان ربي الأعلى» فكان سجوده قريباً من قيامه.

وروى البخاري ومسلم عن عائشة، أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطّر قدماه، فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً»!!

وكان من علوّ همته صلوات الله عليه، يحيي اللّيل كلّه في بعض مواسم العبادة، روى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ إذ ادخل العشر أحيى اللّيل، وأيقظ أهله، وجد، وشدّ المئزر».

والمراد من العشر العشر الأواخر من رمضان، تحرّياً لليلة القدر.

والمراد من شدّ المئزر: تشميره للعبادة وبعده عن معاشرة النساء.

التكاسل عن العبادات من وساوس الشيطان:

ولـمّـا كان الشيطان عدواً للإنسان، وكان يكره منه الإيمان وعبادة الله والأعمال الصالحة، كان من وسائله تثبيط الهمم عن العبادة، والوسوسة بما يميل بالنفس إلى الكسل.

ومن أعماله أنه يعقد على قافية رأس الإنسان إذا هو نام، ليمنعه من اليقظة والنهوض إلى عبادة الله في جوف الليل. وقافية الرأس قفا الرأس ومؤخّره. روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على كلّ عقدة: عليك ليل طويل فارقد. فإن استيقظ فذكر الله انحلّت عقدة. فإن توضأ انحلت عقدة. فإن صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطاً طيّب النفس، وإلّا أصبح خبيث النفس كسلان».

فهي عقد كسل مضروب عليها بوساوس شيطانية، ومتى تراكمت على

الإنسان صارت خَبَلاً، وقد عبّر الرسول ﷺ عن هذا الخبل المقعد عن النشاط والهمة إلى طاعة الله وعبادته بأنه أثر خبيث من آثار وساوس الشيطان.

فقد روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال: ذُكر عند النبـي ﷺ رجل، فقيل له: ما زال نائماً حتى أصبح، ما قام إلى الصلاة قال: «ذلك رجل بال الشيطان في أذنه» أو قال: «في أذنيه».

فمن لطائف التوجيه الإسلامي ربط الكسل وظواهره بالشيطان، وتربية المسلمين على مدافعة كلّ ظواهر الكسل.

— ٤ —
الاندفاع إلى الجهاد في سبيل الله بشجاعة ونشاط

ومن ظواهر خلق علّو الهمة في السلوك الاندفاعُ إلى الجهاد في سبيل الله، وخوض المعارك القتالية بنشاط وشجاعة وإقدام، كأن ساحات القتال ساحات مغانم.

وكذلك كان المؤمنون الصادقون، الذين تعلّموا وتدربوا على يد الرسول ﷺ وعلى أيدي النخبة الممتازين من أصحابه.

فالرسول صلوات الله عليه قد كان لهم الأسوة الحسنة، والقدوة الرائعة، في علوّ الهمة والشجاعة والإقدام، وقد ثبت أنه ﷺ كان إذا حمي الوطيس في الحرب كان أكثر الناس شجاعة، وأعظمهم إقداماً، وأعلاهم همّة، وقد قاد صلوات الله عليه بنفسه خلال عشر سنين سبعاً وعشرين غزاة، وكان يتمنّى أن يقود بنفسه كل البعوث التي بعثها والسّرايا التي سيّرها، ولكن أقعده عن ذلك أنه كان لا يجد ما يزود به جميع أصحابه للخروج معه في كلّ بعث، وكان أكثرهم لا تطيب نفسه أن يقعد ورسول الله قد خرج إلى الجهاد.

روى البخاري ومسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي

نفسي بيده، لولا أنّ رجالاً من المسلمين لا تطيب أنفسهم أن يتخلّفُوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلّفت عن سرّية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددتُ أن أقتل في سبيل الله ثمّ أُحيى، ثمّ أقتل ثمّ أحيى، ثمّ أقتل ثمّ أحيى، ثمّ أقتل».

فأيّة همةٍ عليّةٍ أعلى من هذه الهمّة النبوية.

أمّا دعوةُ الرسول ﷺ القولية إلى علوّ الهمة في هذا المجال، فمن أمثلته ما يلي:

روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من خير معاش الناس لهم رجلٌ ممسكٌ عنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلّما سمع هَيْعَة أو فَزْعة طار عليه يبتغي القتل أو الموت مظانّه».

كلّما سمع هَيْعَة: أي صيحة يفزع منها.

أو فَزْعةً: أي نداءً من مستغيث.

فمن خير معاش الناس لهم معاش رجل ممسك بعنان فرسه مرابطٍ في سبيل الله، كلّما سمع صيحة تدعو إلى القتال في سبيل الله، أو نداء استغاثة من المسلمين لصدّ عدوّهم طار على متن فرسه، غير متباطىء ولا متكاسل، ولا خائفٍ، ولا متردد، وذلك من علوّ همته، لأن الإسلام قد علّمه ذلك، ولأنّ حرارة الإيمان تدفعه إليه.

وكان من أثر تربية الرسول ﷺ القوليه والعملية لأصحابه، أن ظهرت منهم بطولات عجيبة ونادرة، تدلّ على علوّ همتهم وسموّ غاياتهم، وتضحيتهم بأنفسهم وكلّ ما في الحياة الدنيا، ابتغاء مرضاة الله وثواب الآخرة.

(أ) فمن ذلك قصة أنس بن النضر عمّ أنس بن مالك رضي الله عنهما في غزوة أحد.

روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: غاب عمي أنس بن النضر رضي الله عنه عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله، غبتُ عن أوّل قتالٍ

قاتلت المشركين، لئن اللَّهُ أشهدني قتال المشركين لَيُرِيَنّ الله ما أصنع[1]. فلـمّـا كان يوم أحد انكشف المسلمون، فقال: اللهم أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعني أصحابه)، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعني المشركين). ثمّ تقدَّم، فاستقبله سعدُ بن معاذ فقال: يا سعدُ بنَ معاذ، الجنة وربِّ النضر، إني أجدُ ريحها من دون أحد.

فقال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع.

قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل ومثّل به المشركون، فما عرفه أحدٌ إلّا أخته ببنانه.

قال أنس: كنا نرى أو نظن أنّ هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه. فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً﴾[2].

فمنهم من قضى نحبه: النحبُ في اللّغة النذر، والمعنى: فمنهم من قضى نذره الذي نذره بأن يصدق الله في قتال أعداء الله، حتى بلغ آخره ونال الشهادة.

وأنس بن النّضْر كان قد نذر أن يقاتل بصدق حتى يقتل، وقد فعل، فقضى نحبه، أي النذر الذي نذره.

(ب) ومن ذلك أيضاً بطولة حمزة عمّ الرسول ﷺ، فقد صدق في القتال بهمّة عالية، وأبلى بلاءً حسناً، حتى رماه وحشيٌّ بحربته فقتله، وقد وصفه وحشيٌّ بقوله:

«رأيته (أي: يوم أحد) في عُرْض الناس مثل الجمل الأورق يَهُدّ الناس بسيفه هدّاً، ما يقوم له شيء».

---

(١) أي: ليظهرن الله للناس ما أصنع من جهاد وفداء.

(٢) الأحزاب: ٢٣.

الأورق: من الإبل، هو الذي في لونه بياض إلى سواد.

(ج) ومن ذلك بطولة أبي دُجَانة سماك بن خرشة في أحد، فقد كان ذا بأسٍ شديدٍ وهمّة عالية، ومن علوّ همّته رضي الله عنه، ما حدث به عن نفسه، قال: رأيت إنساناً يخمشُ الناس خمشاً شديداً، فصمدت له، فلـمّـا حملت عليه السيف وَلْوَل، فإذا هو امرأة. قال: فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأةً.

وهذه المرأة ــ كما قال الزبير بن العوّام ــ هي هند بنت عتبـة زوجة أبـي سيفان، إذ كانت يومئذٍ من أشدّ المحرّضات على قتال المسلمين. وقد أسلمت بعد فتح مكة، كما أسلم زوجها أبو سيفان صبيحة يوم الفتح.

وعفّة أبـي دجانة عن قتل هند بنت عتبة إكراماً لسيف رسول الله ﷺ عن أن يقتل به امرأة من علوّ همته، فعلو الهمة يكون بشدة البأس حيناً، ويكون بالترفّع والكف والتعفف حيناً آخر، وربما يكون الترفّع مع القدرة أدلّ على علوّ الهمة من دلالة شدّة البأس.

وكان لأبـي دُجانة مشهدٌ آخر في أحد يدلّ على علوّ همته، إذ ترَّس بنفسه دون رسول الله ﷺ، يقع النبل في ظهره وهو منحنٍ عليه، حتّى كثرت فيه النبل.

(د) ومن ذلك أيضاً ما كان من أُمّ عُمارة نسيبة بنت كعبٍ المازنية في غزوة أحد، رضي الله عنها.

تقول أمّ سعدٍ بنت سعد بن الربيع: دخلت على أمّ عُمارة فقلت لها: يا خالة، أخبريني خبرك، فقالت: خرجت أول النهار، وأنا أنظر ما يصنع الناس، ومعي سقاءٌ فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه، والدولة والريح للمسلمين، فلـمّـا انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ، فقمت أباشر القتال، وأذبّ عنه بالسيف، وأرمي عن القوس، حتى خلصت الجراح إليّ.

قالت أم سعد: فرأيت على عاتقها جُرحاً أجوف له غور، فقلت: من أصابك بهـذا؟ قال: ابنُ قمئـة أقمأه الله (أي: أذلّـه). لـمَّـا ولى المسلمون عن رسول الله ﷺ أقبل يقول: دُلّوني على محمد، فلا نجوتُ إن نجا، فاعترضت له أنا ومصعب بـن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ، فضربني هـذه الضربة، ولكن فلقد ضربته على ذلك ضربات، ولكنّ عدوّ الله كان عليه درعان.

ـ ٥ ـ

التطلّع إلى الكمال والترفع عن النقص

من ظواهر خلق علوّ الهمة التطلّع الدائم إلى الكمال، والسعي إليه قدر المستطاع، والنفور من النقص وكراهيته، والترفع عنه والخوف من الظهور بمظاهره.

وفي الحديث: «إنّ الله يحبّ معالي الأمور ويبغض سفسافها». أي: يبغض الرديء الحقير من كل شيءٍ وكل عمل.

وفي حديث آخر: «إنّ الله رضي لكم مكـارم الأخلاق وكـره لكم سفسافها».

والسفساف: هو الأمر الحقير والرديء من كل شيءٍ، وهو ضدّ المعالي والمكارم. وأصل السفساف ما يطير من غبار الدقيق إذا نخل، والتراب إذا أثير(١).

وقد دفع القرآن إلى مراتب الكمالات، إذ ميز بين الطيب والخبيث، وبين الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وبين المجاهدين والقاعدين، وبين السابقين والمتخلفين، وفضّل المرتقين في مراتب الكمال على الناقصين، ونصوص القرآن في هذا كثيرة منها ما يلي:

(١) كذا في لسان العرب.

١ - قول الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

٢ - وقول الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ ﴾.

أي: أفمن هو قانت... (إلى آخر الاستفهام) كمن ليس كذلك. وجواب الاستفهام بداهة: لا.

٣ - وقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾.

٤ - وخاطب الله المؤمنين بقوله في سورة (الحديد ٥٧):

﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

أي: لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل هو ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل.

ولـمّا كان الارتقاء في مراتب الكمال لا يأتي بمجرّد الأماني، وإنّما يأتي بالجهاد والاجتهاد والعمل الدائب والصبر والمصابرة، قال الله تعالى للذين آمنوا في سورة (النساء ٤):

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾.

أي: ليس دخول الجنة والظفر بمراتبها العلية، ولا النجاة من النار ومن دركاتها الدنيّة، بالأماني، ولكن بالعمل، بفعل الصالحات وترك السيئات، وهذا إنما يكون ببذل الطاقة ارتقاءً في مراتب الكمال وترفعاً عن دركات النقصان، وبالطاعة على قدر الاستطاعة.

وهذا ما وجّه له الرسول ﷺ، إذ حرّض على ابتغاء الكمال والتطلع إليه، والسعي لارتقاء درجاته، ببذل المستطاع من القوة، مع الاستعانة بالله القوي العزيز.

فمن ذلك ما روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القويّ خيرٌ وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خير. احرص على ما ينفعك. واستعن بالله ولا تعجز. وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قلْ: قدّر الله وما شاء الله فعل، فإنّ (لو) تفتح عمل الشيطان».

ففي قول الرسول ﷺ: «احرص على ما ينفعك» أمر للمؤمن بأن يحرص على ما فيه نفع له، والحرص على الشيء أبلغ من ابتغائه والتطلّع إليه. وما ينفع الإنسان نفعاً صحيحاً مقترن بارتقائه في مراتب الكمالات، وابتعاده عن دركات النقصان، وذلك لأن دركات النقص في الحياة ليس فيها نفع صحيح، وإن كانت محفوفة بالشهوات، أما مراتب الكمال ففيها النفع الصحيح، وإن كانت محفوفة بالمكاره. وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره» ومعلوم أنّ في دخول النار أشدّ المضرّة، وأن فيها تتنازل الدركات، وهي تناسب هبوط الإنسان في دركات السلوك في الحياة الدنيا. وأن في دخول الجنة أعظم المنفعة الحقيقية،

وأن فيها تتعالى الدرجات، وهي تناسب ارتقاء الإنسان في مراتب الكمال عقيدة وخلقاً وسلوكاً في الحياة الدنيا.

وفي قول الرسول ﷺ: «واستعن بالله ولا تعجز» عقب قوله «احرص على ما ينفعك» توجيه لبذل المستطاع من القوة لتحقيق ما ينفع، أي لارتقاء مراتب الكمال، وتوجيه لطرد الشعور بالعجز الذي قد يصيب نفس الإنسان، بتوجيهها للاستعانة بالله القوي العزيز الذي لا يعجزه شيء، فهو يمدّ من استعان به بما يشاء من إمداد. ومع شعور المؤمن بارتباطه بالله تتهدّم في نفسه الصعوبات، وينطرح عنه كابوس العجز. وهذه الاستعانة تشحن النفس بقوّة معنوية عظيمة، إذ تجعل المؤمن حينما يعمل يلاحظ أن الله معه يمده بالعون، فيضاعف من جهده، وقلبه مطمئن لا قلق فيه ولا اضطراب، وهذه أهم عناصر إنتاج العمل إنتاجاً وافراً. أما ترك العمل والتباطؤ عنه أو التباطؤ فيه، مع زعم التوكل على الله، والتعلق بالأماني، فهو فهم سيءٌ جدّاً لمعنى التوكّل، وما كان أصحاب رسول الله ﷺ يفهمونه كذلك، وما كان علماء المسلمين من قبل يفهمونه على هذا الوجه، وإنما هو فهم دخيل قد يتعلق به جهلة من المنتسبين إلى الإسلام، إنه ليس توكّلاً على الله ولا استعانة به، وإنما هو انهزام من ميادين العمل، وعجز وكسل، وتعلل بأوهن العلل.

ومن أجل ذلك صدر الرسول ﷺ كلامه في هذا الحديث بقوله: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف».

وفي الصحيح من كلام الرسول ﷺ قوله: «ومن بطّأ به عمله لم يُسرع به نسبه».

والقوي هو صاحب العزم عالي الهمة، الذي يواجه صعوبات الحياة ومراقي الكمالات، بقوة وعزيمة وهمّة عالية، فيحرص على ما ينفعه، ويبذل كل ما يستطيع من قوة لديه مستعيناً بالله، غير متخاذل ولا شاعر بالعجز أو خائف منه، كيف يعجز وعون الله يصاحبه إذا كان صادقاً مع الله؟! ولكن يجب عليه أن يقدّر الأمور قدرها، ويتخذ لها أسبابها المكافئة لها.

وفي مقابل شحن النفس بحوافز العمل تجاه الحاضر والمستقبل، إعلاء لهمة المؤمن، وجّه الرسول صلوات الله عليه المؤمن إلى صرف نفسه عن اجترار أحزان الماضي وآلامه، والتحسّر على ما فاته فيه، فقال:

«وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدّر الله وما شاء الله فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان».

إنّ الاشتغال بالتحسّر والحزن على ما فات يضيّع على الانسان حاضره، ويضيع عليه كل زمن آتٍ يشغله باجترار الحزن والتحسّر، ثم يأتي زمن آخر يتحسّر فيه على الزمن الذي ضيّعه في الحزن والتحسّر، وهكذا تتسلسل الأغنية الشيطانية التي يقول فيها الإنسان: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، وتأتي المنيّة وقد ضاع العمر في الحزن والتحسّر على فوات الأماني.

إنّ تحقيق الأماني لا يكون بالندم على ما فات، ولا باجترار الأحزان على الماضي، وإنما يكون بالعمل واستغلال كلّ وقتٍ يمرّ به الإنسان، أملاً بتحقيق الأماني والآمال في المستقبل، وهذا من علوّ الهمّة.

أمّا إضاعة الحاضر حزناً على الماضي فهو من نزول الهمة، وهو انسياق وراء أوهام ووساوس شيطانية، ما فيها للإنسان إلا الضرر، وضياع العمر سُدى.

وكلمة «لو» التي يتحسّر فيها الإنسان على ما فاته من عمل في الماضي تفتح عمل الشيطان، وعمل الشيطان هو تبديد عمر الإنسان فيما لا خير فيه.

وأبعد الأشياء من الإنسان ما فاته في ماضي زمانه، فكل ماضٍ هو في حكم العقل بعيد، لأنه غير ممكن الاسترجاع.

وفي النهي عن العجز والحث على العمل، روى أبو داود عن عوف بن مالك، أن النبي ﷺ قضى بين رجلين، فقال المقضيّ عليه لـمّا أدبر: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال النبي ﷺ:

«إن الله تعالى يلوم على العجز، ولكن عليك بالكَيْس، فإذا غلبك أمرٌ فقل: حسبي الله ونعم الوكيل».

الكَيْسُ: الخفّةُ والتوقّد والنشاط في العمل، والعقل في التصرف، والرفق في الأمور.

— ٦ —

الحياء

ومن ظواهر خلق علوّ الهمة الحياء، فالحياء ظاهرة تعبّر عن الخوف من الظهور بمظاهر النقص، وتعبّر عن ترفّع النفس عنه، وعدم الرضى به وإن مستها بعض عوارضه، وتعبر عن علوّ همّة النفس إلى الكمالات، ونفورها من النقائص وكراهيتها لها، وحذرها من أن تظهر أمام الناس ببعض مظاهرها.

فالإنسان لا يستحيي من الكمال إذا هو ظهر به واتصف بصفاته، وإنما يستحيي مما فيه نقص، أو مما يخشى أن يكون فيه نقص. لذلك فالحياء من علّو النفس، وحبّها للكمال وحرصها على أن تتصف بصفاته، وتظهر أمام الناس بالمظاهر التي تدل عليه.

وقد نلاحظ بعض الناس من الذين يغلب عليهم الحياء يستحيون من أمور لا نقص فيها، وليس من شأنها أن يُستحيى منها، ولكن ذلك يرجع إلى سوء فهمهم لبعض الأمور، أو إلى عدم تقديرهم الأمور حقّ قدرها. فالانفعال الخلقي الذي يكون التعبير عنه بظاهرة الحياء انفعالٌ صادق، والمحرّك له في النفس علوّ الهمة، الذي ينشأ عنه في بعض جوانبه النفور من النقص، وكراهية الظهور بشيءٍ من مظاهره، أو الخوف من الاتصاف أمام الناس ببعض صفاته. ولكنّ الذي قد يحدث أن الفكر ربّما يقدّم للنفس مفاهيم خاطئة، مستندة إلى أوهامٍ أو تقاليد فاسدة، والفكر بالنسبة إلى النفس هو مرجعها ومحلّ ثقتها، فتنفعل النفس وتستجيب استجابة صادقة لهذه المفاهيم الخاطئة، فالمسؤول عن ظاهرة الحياء في غير محله مفاهيم الفكر الخاطئة. ولكن حين يجري تصحيح هذه

المفاهيم لا يستحيي ذو الحياء مما لا يُستحيى منه، بل يواجه الناس به بكل جرأة وشجاعة.

ونظير ذلك انفعال الخوف، فمن الناس من يخاف من أمور وهمية تجسّمت في تخيّلاته، والمسؤول عن هذا الخوف الذي هو في غير محله أوهام الفكر. أمّا الانفعال النفسي فهو صادق تجاه ما قدّمه الفكر من أمور زعمها للنفس حقائق وهي ليست بحقائق، وإنما هي أوهام كاذبة، وكما أن الخوف يبقى على طول الخطّ انفعالاً ممّا يُخشى منه الضرر أو الأذى، فإنّ الحياء يبقى على طول الخطّ انفعالاً يثيره ما في النفس من همّةٍ عالية، تحبّ الكمال، وتحرص على أن تتصف بصفاته، أو تظهر بالمظاهر التي تدلّ عليه.

من أجل هذا قرّر الرسول ﷺ أنّ الحياء من الإيمان، وأنه خيرٌ كلُّه. فقد روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر، أن رسول الله ﷺ مرّ على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ: «دعه فإنّ الحياء من الإيمان».

وروى البخاري ومسلم أيضاً عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير» وفي رواية: «الحياء خيرٌ كلُّه».

ومن المشاهد المجرب أنّ خلق الحياء يمنع صاحبه عن ارتكاب النقائص والقبائح والمنكرات، أما حينما ينعدم خلق الحياء، فإنه يهون على الإنسان أن يفعل من النقائص والقبائح والمنكرات ما يشاء. وإعلاناً عن هذه الحقيقة جاء في كلام الرسول ﷺ:

«إنّ مما أدرك الناس من كلام النبّوة الأولى: إذا لم تستحي فاصنع ما شئت».

(رواه البخاري عن عبدالله بن مسعود)

ففقد خلق الحياء يجعل الإنسان وقحاً، وماجناً يجاهر بقبائح فعاله دون أن يبالي أحداً، ودون أن يكترث بما يقوله الناس فيه، وبما يعيبونه به، ومن الوقاحة والمجانة أن يتحدث الإنسان بما فعل من القبائح التي سترها الله عليه.

روى البخاري ومسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ أمتي معافى إلا المجاهرون، وإن من المجانة أن يعمل الرجل عملاً بالليل ثم يصبح وقد ستره الله. فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربّه، ويصبح يكشف ستر الله عنه».

أما الحياء فيحجز المرء عن الفواحش، ويجعله يتستر بها إذا هو كبا فسقط في شيءٍ من أوحالها، ويجعله بعيداً عن فحش القول والبذاءة.

والحياء يدفع المرء إلى التحلي بكل جميل محبوب، والتخلي عن كلّ قبيح مكروه. والجمال من الكمال، والقبح من النقصان، وجمال الخصال والأفعال أسمى من جمال الرسوم والأشكال.

لكل ذلك حثّ الإسلام على التحلي بخلق الحياء، والبعد عن كلّ وقاحة ومجانة وفحش وبذاء، وفيما يلي طائفة من أقوال الرسول ﷺ في هذا:

(أ) روى الإمام أحمد والترمذي عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاءُ من الجفاء، والجفاء في النار».

فالجفاء يهوّن على الإنسان أن يكون فاحشاً بذيئاً، وهذا لا يكون إلّا من وقح، والله يبغض الفاحش البذيء.

(ب) وعن أبـي الدرداء، عن النبـي ﷺ قال: «إنّ أثقل شيء يوضع في ميزان المؤمن يوم القيامة خلق حسن، وإن الله يبغض الفاحش البذيء».

(رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح)

(ج) وروى البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر أن النبـي ﷺ قال: «إن الحياء والإيمان قرناء جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر».

وفي رواية عن ابن عباس: «فإذا سُلب أحدهما تبعه الآخر».

(د) وعن النبـي ﷺ أنه قال: «إنّ لكل دين خُلقاً، وخلق الإسلام الحياء».

رواه الإمام مالك مرسلاً عن زيد بن طلحة، ورواه ابن ماجه والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس وابن عباس.

(هـ) والحياء من صفات الله عزّ وجل، فقد روى الترمذي وأبو داود والبيهقي في الدعوات الكبير، عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ربّكم حَيِيٌّ كريم، يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يُردّهما صفراً».

وقد نتساءل عن وجه التلازم بين الإيمان والحياء، حتى يكون رفع أحدهما مستلزماً لرفع الآخر كما جاء في الحديث: «إن الحياء والإيمان قرناء جميعاً فإذا رفع أحدهما رفع الآخر» وفي الإجابة على هذا التساؤل نضع أمامنا أولاً ما جاء في كلام الرسول أيضاً من أن الحياء من الإيمان. ثم نقول: متى سلّمنا بأنّ الحياء من الإيمان، أي: من آثاره في السلوك النفسي، وفي ردود أفعالها، ثم عرفنا أن الإيمان مع لوازمه التي لا ينفك عنها يمثل وحدة كلية لا تقبل التجزئة، كان من الطبيعي أن نفهم أنّه متى رُفع الحياء رُفع الإيمان، لأن الحياء جزء ملازم للإيمان الصحيح الصادق وهو لا ينفك عنه، فعدم وجود الحياء دليل على عدم وجود الإيمان.

ولـمّا كان الباعث على الحياء من المعاصي وسيّىء الأفعال هو الإيمان الذي يرافقه الخوف من الله وخشية جلاله، كان من الطبيعي أن لا يوجد الحياء متى رفع الإيمان، وكان من الطبيعي أن تحلّ محلّه القحة والجرأة على فعل كلّ قبيح فيه معصية لله تبارك وتعالى، ولا يبقى بعد ذلك إلا الحياء من الناس في أمر اصطلحوا على أن يعتبروه عيباً، وهذا من شأنه أن ينهار شيئاً فشيئاً بتغيير العادات، وإطلاق الحرّيات، فما كان يُسْتَحيى منه يمسي بتغيير العادة أمراً يفتخر به، في مجتمع انهارت فيه المفاهيم الدينية والمبادىء الأخلاقية.

بهذا يظهر لنا سر التلازم بين الحياء والإيمان وفق المفهوم الأخلاقي في الإسلام.

ولقائل أن يقول: إن بعض المسلمين قد توجد منهم مجانة ووقاحة في بعض الأحيان، كما نلاحظ أن الحياء من فعل النقائص والقبائح قد يوجد عند غير المؤمنين.

ولنا أن نجيب بأن المسلم حينما يفعل النقائص والقبائح بوقاحة ومجانة،

فإن الإيمان يرتفع عنه ما دام في حالته تلك، ومثله بالنسبة إلى الإيمان كمثل المغمى عليه إذ يفقد وعيه، فالمغمى عليه يرجع إليه وعيه متى صحا، وهذا يرجع إليه إيمانه متى عاد إلى رشده وأقلع عن مجانته، فارتفاع الإيمان مع ارتفاع الحياء عنده كان حركة مؤقتة. ولهذا نظير في كلام الرّسُول ﷺ في تفسير وقوع الكبائر من المؤمن. فقد روى البخاري ومسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نُهبةً يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن، ولا يغلُّ أحدكم حين يغلّ وهو مؤمن، فإيّاكم إيّاكم».

وفي رواية عن ابن عباس: «ولا يَقتل حين يقتل وهو مؤمن».

قال عكرمة: قلت لابن عباس: كيف ينزع الإيمان منه؟ قال: هكذا، وشبّك بين أصابعه ثم أخرجها، فإذا تاب عاد إليه هكذا، وشبّك بين أصابعه.

قال البخاري: لا يكون هذا مؤمناً تامّاً، ولا يكون له نور الإيمان.

أي: إنّ المؤمن كامل الإيمان لا يسمح لنفسه بأن تغفل غفلة ترفع عنه سلطان الإيمان.

وقد أبان الرسول ﷺ ارتفاع الإيمان بصورة أوضح، إذ مثّل ارتفاعه بأنه يكون فوق رأسه كالظلّة، فإذا انتهى من معصيته رجع إليه الإيمان. نجد هذا فيما رواه الترمذي وأبو داود عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زنى العبد خرج منه الإيمان فكان فوق رأسه كالظلّة، فإذا خرج من ذلك العمل رجع إليه الإيمان».

وهذا البيان النبوي يعطي تفسيراً أدق لارتفاع الإيمان.

وما جاء في هذا البيان أمرٌ مشاهد في أنفسنا، فالمعصية الكبرى لا تصدر من أحد المؤمنين إلاّ إذا كان في غفلة عن الله، وعن بواعث الإيمان في القلوب، وتشبيه هذه الغفلة بالصورة البيانية التي رسمها الرسول ﷺ تشبيه رائع.

وعلى هذا فلا نحكم على من كان مرفوع الإيمان رفعاً مؤقتاً بالكفر، إنما هو ليس في كمال الإيمان، بل هو في ظلال الإيمان، وهكذا يكون ارتفاع الإيمان عند ارتفاع الحياء.

أمّا وجود ظاهرة الحياء عند غير المؤمنين، فهي مرتبطة بما يقول الناس عنه هذا عيب أو نقص. إنّ المؤمن إذا خلا بينه وبين نفسه اسْتَحيى من ربّه أن يفعل النقائص والقبائح، أما غير المؤمن فإنه لا يجد شيئاً من الشعور بحياءٍ من هذا القبيل، جُلُّ ما في الأمر أنه قد يستحيي ممّا يقول الناس عنه هذا عيب أو نقصٌ، فهو يحرص على أن يكون كاملاً في أعين الناس، وليس له عناية بالكمال الحقيقي الذي ترتبط مفاهيمه بالإيمان. هذه واحدة، وأخرى أنه على مقدار بقايا مواريث الإيمان في أمةٍ من الأمم، تبقى فيها بقايا من الحياء، أمّا الأمم الملحدة الكافرة بكلّ القيم الإيمانية فإنه لا يوجد لديها أيّ أثرٍ للحياء، إلّا ما يرتبط بمصالحهم الخاصة، لذلك نجدهم يفعلون كلّ الجرائم والقبائح والمنكرات بوقاحة عجيبة لا تعرفها الإنسانية في تاريخها الطويل.

وإمعاناً في الوقاحة يسمّون جرائمهم الإنسانية المنكرة تطوراً في تقنية القمع، أو التكنيك الحربي، ويُسمّون قبائحهم وخبائثهم وفواحشهم تقدماً ومدنية، ويحاولون أن يدفعوا البشرية إلى حمأة كلّ رذيلة مهلكة للبشرية، بدعوى الخوف من الكبت، ويزينون ذلك للشباب الحائر الثائر، حتى يقذفوا به إلى المهالك، ويفعلون فعل من يداوي الصداع العارض بقطع الرقاب، ويقولون لهم: إنّ الحياء والخجل ضعف في النفس، وجبنٌ عن مواجهة الحقائق الواقعية، وما على الشاب التقدمي إلّا أن يكون جريئاً في تلبية دوافعه النفسية مهما كان شأنها، غير مبال ديناً ولا تقاليد ولا عادات اجتماعية، وعندئذٍ يكون شجاعاً حقاً، وفي الصف التقدمي الأول. هذا ما يوسوسون به، إنه تقدم، ولكن إلى ماذا؟ إنّه تقدّم إلى كل تهلكة، تقدّم إلى تقويض صرح الحضارة الإنسانية، تقدّم إلى الجحيم، وإلى كل عذاب أليم.

هذه هي تقدّمية الملحدين الوقحة، لقد فقدوا كل شيءٍ من عناصر

الإيمان ففقدوا بذلك كلّ دافع من دوافع الحياء، فانطلقوا في كل رجس من أرجاس الأخلاق والأفعال، وبهذا ندرك سر قول الرسول ﷺ : «إنّ الحياء والإيمان قرناء جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر».

حياء موسى عليه السلام:

جاء في وصف موسى عليه السلام أنّه كان حييّاً ستّيراً، حتى كان يستر بدنه، ويستحيي أن يظهر مما تحت الثياب شيئاً حتى مما ليس بعورة. وبسبب تستره الزائد آذاه بعض بني إسرائيل في أقوالهم، فقالوا: ما يبالغ في ستر نفسه إلا من عيب في جسمه، أو من أدرة[1] هو مصاب بها.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «إن موسى كان رجلاً حيياً ستّيراً، لا يُرى شيءٌ من جلده استحياء، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما تسترّ هذا التستّر إلاّ من عيبٍ أو أدْرةٍ، وإنّ الله أراد أن يبرئه، فخلا يوماً وحده ليغتسل، فوضع ثوبه على حجر، ففرّ الحجر بثوبه، فجمح موسى في إثره يقول: ثوبي يا حجر، ثوبي يا حجر، حتى انتهى إلى مَلأٍ من بني إسرائيل، فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله، وقالوا: والله ما بموسى من بأس، وأخذ ثوبه وطفق بالحجر ضرباً، فوالله إنّ بالحجر لَنَدْباً من أثرِ ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً».

وحياء موسى الزائد كان من همته العلية التي تنشد الكمال، وقد رأى في ذوقه الرفيع أنّ ستر بدنه أكثر كمالاً من كشفه، فكان يستحيي من كشفه للناس.

حياء محمد ﷺ :

وقد كان الرسول ﷺ شديد الحياء، أشدّ حياءً من العذراء في خدرها، روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال: كان النبي ﷺ أشدّ حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه.

ومن شدّة حيائه كان لا يرى من زوجاته عوراتهن الكبرى، ولا يكشف

---

(١) الأدرة: هي انتفاخ في الخُصى بسبب فتق.

أمامهنّ عورته، وفي هذا قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: ما رأيت منه صلوات الله عليه ولا رأى مني.

أي: مكان العورة.

ومن حيائه أنه لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا سخّاباً في الأسواق، لأن هذه الأمور تنافي الكمال، وهو صلوات الله عليه ذو همة عالية تتطلّع إلى كل كمال.

روى الترمذي عن عائشة قالت: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ولا سخّاباً[١] في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح.

وروى البيهقي في دلائل النبوة، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنّ يهوديّاً يقال له فلانٌ حبر، كان له على رسول الله ﷺ دنانير، فتقاضى النبي ﷺ فقال له: «يا يهوديّ ما عندي ما أعطيك». قال: فإني لا أفارقك يا محمد حتى تعطيني، فقال رسول الله ﷺ: «إذاً أجلس معك». فجلس معه، فصلى رسول الله ﷺ الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والغداة، وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتهددونه ويتوعدونه ففطن رسول الله ﷺ ما الذي يصنعون به، فقالوا: يا رسول الله، يهوديٌّ يحبسك، فقال رسول الله ﷺ: «منعني ربّي أن أظلم معاهداً وغيره» فلما ترجّل النهار[٢] قال اليهودي: أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّك رسول الله، وشطر مالي في سبيل الله، أما والله ما فعلت بك الذي فعلت بك، إلّا لأنظر إلى نعتك في التوراة، محمد بن عبدالله، مولده بمكة، ومهاجره بطيبة، وملكه بالشام، ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا سخّابٍ في الأسواق، ولا متزيٍّ بالفحش ولا قول الخنا، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وهذا مالي فاحكم فيه بما أراك الله، وكان اليهودي كثير المال.

---

(١) سخاباً: صيّاحاً.

(٢) ترجّل النهار: أي ارتفع.

ستر العورات مما يدعو إليه الحياء:

ولـمّـا كان أدب ستر العورة مظهراً من مظاهر الكمال، ويدعو إليه خلق الحياء الذي هو أثر من آثار علو الهمة، فقد أمر الإسلام به، ودعا إليه.

روى أبو داود والنسائي بسندٍ حسن عن يعلى قال: إن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يغتسل بالْبَراز[1]، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إنّ الله حييٌّ ستّير يحبّ الحياء والتستر، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر».

وفي رواية عند النسائي أنّ الرسول ﷺ قال: إن الله ستّير، فإذا أراد أحدكم أن يغتسل فليتوار بشيء».

وكون الله حيّياً ستّيراً: قد يكون المراد منه أنه يستر عيوب عباده، ويستر قبائحهم، ويحبّ منهم أن يستروا عيوبهم وعوراتهم، ومن مظاهر هذه الصفة ما نشاهده من الأدب الرفيع في الكتاب المجيد، إذ لا يذكر الله فيه ألفاظ الفحش، وإن دعت الحاجة إلى ذلك لبيان حكم من أحكام الدين، ويكتفي في ذلك بالكنايات وإشارات الألفاظ البعيدة، كالملامسة، والمباشرة، والغائط ونحو ذلك.

ـ ٧ ـ
السعي لكسب الرزق

ومن ظواهر خلق علّو الهمة سعي الإنسان لكسب رزقه بعمله، وترفعه عن أن يكون عالة على غيره، وترفعه عن المسألة وقبول الصدقات ما لم تدع الضرورة القصوى إلى ذلك.

أولاً ـ الحث على العمل للكسب:

لقد أمر الإسلام بالمشي في مناكب الأرض لاكتساب الرزق، وذمّ المسألة ونهى عنها إلاّ في حدود الضرورة، تكريماً للمسلم عن المهانة والمذلّة والضعة،

(١) بالبراز: أي في الفضاء من غير تستّر.

وإعلاء لهمته، وحفاظاً على كرامة نفسه، ونجد كثيراً من النصوص الإسلامية والتطبيقات التربوية النبوية المشتملة على ذلك، ومنها ما يلي:

١ ــ يقول الله تعالى في سورة (الملك ٦٧):

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾.

ففي هذه الآية يمتن الله علينا بأنّه جعل الأرض لنا ذلولاً، أي: مذللة مطوّعة لنا، نحرثها ونزرعها ونستخرج كنوزها، وننتفع من طاقاتها وخصائص عناصرها، ونستعمرها كما نشاء. وبعد هذا الامتنان أمرنا بالمشي في مناكب الأرض. أي: في جوانبها التي تستدعي منّا بذل الجهد والكدح والكدّ.

ومناكب الأرض: مرتفعاتها وطرقها وجوانبها، ولـمّا كان المنكب من الإنسان رأس كتفه، كان استعمال المناكب هنا دليلاً على أن العمل للانتفاع من خيرات الأرض يحتاج من العاملين كدّاً وكدحاً، ولا يأتي هذا الانتفاع بأيسر عمل.

وفي الأمر بالمشي في مناكب الأرض للأكل من رزق الله أمرٌ بالعمل للكسب. ولـمّا كان لكسب الرزق بالعمل وجهان: وجهٌ حلال ووجه حرام؛ أشارت الآية إلى وجوب التقيّد في كسب الرزق بما أحلّ الله، وذلك عن طريق التذكير بيوم الحساب، إذ ختم الله الآية بقوله: ﴿وإليه النشور﴾.

٢ ــ ومن جمال توزيع الجهد في تنظيم العمل في الإسلام، أنّ الله تبارك وتعالى جعل للعبادة أوقاتاً، أوجب السعي فيها لأداء العبادة الواجبة، فإذا أتمّ المسلم عبادته فإن الله يناديه ويأمره بأن يمشي في جوانب الأرض ويبتغي من فضل الله مطالب حياته، فقال تعالى في سورة (الجمعة ٦٢):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾.

فهذا النصّ القرآني يأمرنا بأن نسعى إلى شهود الصلاة من يوم الجمعة وذكر الله فيها، وترك أعمالنا الدنيوية في هذه الساعة، وأهمّ ما يجذبنا إلى هذه الأعمال الدنيوية البيع الذي فيه ربح من غير جهدٍ كبير، فإذا قضيت الصلاة فإنه يأمرنا بأن ننتشر في الأرض، ونبتغي فيها من فضل الله مطالب حياتنا.

ومن الملاحظ أن الله تعالى أمرنا بأن نمشي في مناكب الأرض لاكتساب الرزق وبأن نسعى للصلاة من يوم الجمعة، ومعلوم أنّ السرعة في العمل هي في السعي أكثر منها في المشي، ويظهر أن الغرض من هذا أن يكون العمل لاكتساب الرزق مصحوباً بأناة ورفق مع صبر وكدح، وأنّ السرعة لا تنفع فيه، ولذلك جاء التعبير في جانبه بالمشي. أما العبادة فينبغي أن تكون بهمّة نفسية ونشاط في العمل، نظراً إلى أنها محدّدة الوقت، معلومة المقدار، مضمونة النتيجة عند الله، بخلاف اكتساب الرزق في مناكب الأرض ففي الأغلب هو من قبيل اتخاذ سبب احتمالي قد لا تتحقق به النتيجة المرجوة إلاّ أنّ الله قد ضمن رزق العباد بفضله، وما عليهم إلا أن يتخذوا الأسباب.

وليس المراد من السعي للصلاة الإسراع الحثيث في المشي، وإنما المراد الهمة النفسية والنشاط في العمل؛ لأن الرسول ﷺ قد أمر بأن يكون السعي للصلاة مصحوباً بالسكينة والوقار، ونهى عن الركض إليها، ولكنّ السكينة لا تعني التباطؤ والكسل وتخاذل الهمة.

٣ ــ ودفعنا الإسلام إلى العمل لاكتساب مطالب حياتنا ولو أحوجنا ذلك إلى ركوب البحار، فبالعمل نترفع عن أن نكون عالة على الآخرين العاملين، ونعفّ أنفسنا عن سؤال الناس وتقبُّل الصّدقات، فقال تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾.

فالله تبارك وتعالى سخّر لنا في النظام الثابت الذي وضعه لكونه أموراً

كثيرة، منها أن تجري الفلك في البحر، فنركبها ونعبر البحار عليها إلى بلاد بعيدة، لنبتغي بذلك كسب مطالب حياتنا من فضل الله، وفي هذا الامتنان توجيهٌ لسبيلٍ من سبُل العمل لكسب الرزق.

يزجي لكم الفلك: أي يسوق لكم الفلك في البحر، ضمن ما سخّر لكم من أنظمة وقوانين ثابتة.

ونظير هذا قول الله تعالى في سورة (الجاثية ٤٥):

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

فجريان الفلك في البحر لم يتم إلاّ بأمر الله، إذْ وضع للناس أنظمة ثابتة تمكنهم من ذلك، وجعل من حكمة هذه الأنظمة الثابتة أن ينتفع الإنسان منها، فيركب البحار ويبتغي مطالب حياته من فضل الله، بأسفاره البحرية.

وقد ذكر الله بعض المسخرات الظاهرة في الكون، ممّا تتدخّل في صناعته يد العمل الإنساني، لنقيس عليها سائر المسخّرات الأخرى ممّا يمكن أن تتطور إليه الصناعة الإنسانية، مستفيدة من واقع الأنظمة والقوانين الكونية الثابتة، التي نظّم الله بها كونه. وعلى هذا فباستطاعتنا أن نقيس كل المكتشفات والمبتكرات الصناعية التي قد يصل الإنسان إليها، على ما امتنّ الله به علينا من مكتشفات سابقة توصَّل الإنسان إليها في القرون السالفة الأولى.

على أنّ لدينا نصوصاً عامّة تنبّه على أنّ الله قد سخّر لنا جميع ما في السموات والأرض؛ فقال الله تعالى عقب الآية السابقة من سورة (الجاثية ٤٥):

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

٤ ــ وامتن الله علينا بما سخر لنا ممّا في السموات وما في الأرض، كما سبق، ومنها أن جعل لنا نظام الليل والنهار لنسكن في الليل إلى الراحة، ولنعمل

في النهار في كسب مطالب حياتنا مبتغين كسبها من فضل الله، فقال تعالى في سورة (القصص ٢٨):

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

أي: لتسكنوا في الليل ولتبتغوا من فضل الله في النهار، وجاء التوزيع على طريقة اللّف والنشر المرتّب، وأفرد الضمير في (فيه) ولم يأت مثنّى إشارة إلى هذا التوزيع، أي لتسكنوا فيه (أي في الليل) ولتبتغوا من فضل الله (أي في النهار) وقد حذف هنا الضمير إيجازاً، ودلّ عليه التناظر والتقابل والتكامل.

٥ ــ وفي الحث على العمل لكسب الرزق والترفع عن مسألة الناس، روى البخاري عن الزبير بن العوّام أن رسول الله ﷺ قال: «لأن يأخُذ أحدكم أحبُلَه ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمةٍ من حطبٍ على ظهره فيبيعها، فيكفّ الله بها وجهه، خيرٌ له من أن يسأل الناس أعطَوْه أو منعوه».

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خيرٌ من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه».

ففي هذا التوجيه النبوي دفعٌ شديد إلى العمل لاكتساب الرزق، وإعفاف النفس عن صدقات الناس، وفيه إعلاءٌ من همّة نفس المؤمن، وفيه تحريض للمسلم على أن يحافظ على كرامته، إضافة إلى ما فيه من توجيه كلّ قادر على العمل للمساهمة في تنمية الثروة العامة للمسلمين.

وفيه بيان أنّ أشق الأعمال وأقلها حصيلة كسب، خيرٌ وأفضلُ من سؤال الناس صدقاتهم ولو أعطوه.

٦ ــ ولفت الرسول ﷺ أنظار المسلمين إلى قدوة حسنة في مجال العمل، ليشحذ همتهم للعمل في اكتساب الرزق.

فقد روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كان داود عليه السلام لا يأكل إلا من عمل يده».

وروى البخاري عن المقدام بن معد يكرب عن النبـي ﷺ قال: «ما أكل أحدٌ طعاماً قطّ خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإنّ نبـيّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده».

فداود عليه السلام على الرغم من كونه ملكاً عظيماً وذا سلطان كبير، كان لا يأكل إلا من عمل يده، لأنّ انتفاع الإنسان في الحياة الدنيا من كسب يده أشرف له وأكرم لنفسه.

ومعظم الأنبياء كانت لهم أعمالٌ يأكلون منها، فزكريا عليه السلام كان نجاراً، روى مسلم عن أبـي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كان زكريا نجاراً».

وما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، وقد كان رسول الله محمد ﷺ يرعى الأغنام لأهل مكة قبل بعثته مقابل قراريط يأخذها أجرة على عمله، روى البخاري عن أبـي هريرة عن النبـي ﷺ قال: «ما بعث الله نبياً إلّا رعى الغنم» فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم، كنت أرعى على قراريط لأهل مكة».

٧ ـ ونصوص الحث على الأكل من كسب اليد كثيرة، منها ما يلي:

روى الترمذي والنسائي وابن ماجه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ «إنّ أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم».

وفي رواية أبـي داود والدارمي: «إنّ أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه».

والمراد من كون الولد من كسب والده: أنّ الولد إذا كسب كسباً فأكل منه أبوه فإن ذلك للأب طعام طيّب، لأنه لم يصل الولد إلى سنّ الكسب إلا بعد جهد مضنٍ بذله أبوه في تربيته.

* وقضية الرزق ذات وجهين كسائر قضايا ما يجنيه الإنسان بعمله في الحياة:

الوجه الأول: وجه الكسب السببـي، وهو ما يمارسه الإنسان بعمله وسعيه وبحثه عن رزقه.

الوجه الثاني: وجه الفضل الربّاني بتقدير الرزق، وتيسير الأسباب، والتوفيق في العمل، ثمّ بدفع الموانع وبتحقيق النتائج.

ونظراً إلى هذين الوجهين المقترنين معاً في قضايا الرزق، نجد النصوص القرآنية والنبوية حينما تتحدّث عن الرزق تقرن السعي الإنساني في طلبه بابتغائه من فضل الله.

قال الله تعالى في سورة (الجمعة ٦):

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

أي: ابتغوا الرزق من فضل الله.

ولـمّا كان المشركون يعبدون أوثانهم ويعتقدون أنّها تملك لهم شيئاً من الرزق أو تيّسره لهم، نزل القرآن ببيان الحق، وأنّ ما يعبدون من دون الله لا يملكون لهم رزقاً، وأن من بيده الرزق هو الله وحده، وأن عليهم أن يبتغوا عند الله الرزق فقال الله تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

ثانياً ــ ذمّ المسألة:

وكما حثّ الإسلام على العمل لكسب الرزق، فقد ذمّ المسألة، وذمّ استجداء صدقات الناس وأعطياتهم، إلا عند الحاجة الماسة، ودفع المسلمين إلى أن يصونوا نفوسهم عن ذلك، ويسموا بها عن المذلة، ويحفظوا لها كرامتها، والنصوص في هذا المجال كثيرة، منها ما يلي:

١ ــ جاء في أحاديث صحيحة متعدّدة قول الرسول ﷺ: «اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى».

والعليا هي المعطية، والسفلى هي الآخذة.

روى البخاري عن حكيم بن حزام، أنّ النبي ﷺ قال: «اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة عن ظهر غنى، ومن يستعفف يعفّه الله، ومن يستغن يغنه الله».

وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال ــ وهو على المنبر وذكر الصدقة والتعفف عن المسألة ــ: «اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى، واليد العليا هي المنفقة، والسفلى هي السائلة».

فلا ينفع السائل أن يأخذ الصدقة ويده عالية على يد المنفق، فالعلوّ والسفل أمران معنويان في هذا المقام، وليسا بأمرين مادّيّين، والحيلة المادّية في هذا لا تنفع آخذ الصدقة.

٢ ــ وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة الْعَرَض، ولكنّ الغنى غنى النفس».

فأوضح الرسول ﷺ في هذا أن الغنى الحقيقي إنما هو غنى النفس، وليس الغنى بأن يملك الإنسان كثيراً من عرض الحياة الدنيا، فكم من إنسان يملك كثيراً إلّا أنه فقير النفس، بشدة طمعه، وبخله وشحه، وكم من إنسان لا يملك إلّا القليل لكنه غني النفس عفيفها، واثق بالله وبفضله.

٣ ــ وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر، أن النبي ﷺ قال: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مزعة لحم».

أي: ليس في وجهه قطعة لحم. وفي هذا دليل على أن إراقة ماء الوجه في المسألة بمثابة تقطيع لحم الوجه؛ فإذا اعتاد الإنسان أن يسأل الناس صدقاتهم وأعطياتهم، فإنه ما يزال يقطع من لحم وجهه حتى يمسي وجهه بمثابة عظم ليس عليه لحمٌ يستره، إلّا جلدةً لا حياء فيها ولا خجل ولا كرامة.

وأقبح صور المسألة ما يصنعه المتسولون الشحاذون، الذين فقدوا كرامة أنفسهم، ولبسوا ثياب الذل والمهانة، وأخذوا يتكفّفون وجوه الناس دون ضرورة ماسة.

٤ ــ وعن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المسألة كدٌّ يكُد بها الرجل وجهه، إلّا أن يسأل الرجل سلطاناً، أو في أمرٍ لا بدّ منه».
(رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح)

إنّ المسألة كد يكُد بها الرجل وجهه: أي هي خَدْشٌ يخدِش الرجل بها وجهه، فيزيل بهذا الخدش قطعة من لحم وجهه.

إلّا أن الرسول صلوات الله عليه استثنى من عموم المسألة صورتين منها:

الصورة الأولى: سؤال السلطان، وذلك نظراً إلى أنه المسؤول عن رعيته، وسؤاله إنما يكون باعتبار ولايته على أموال ذوي الحاجات من الأموال العامة.

الصورة الثانية: السؤال في أمرٍ لا بدّ منه، وفي هذا بيان لحالة الحاجة الملحة التي يعذر الإنسان فيها بالمسألة.

٥ ــ وعن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسدّ فاقته، ومن أنزلها بالله فيوشك الله له برزقٍ عاجلٍ أو آجل».

ففي هذا الحديث يعلي الرسول ﷺ همة المسلمين، إذ يوجّههم لربط مطالب حياتهم بالله الخالق الرازق، لا بما في أيدي الناس، فمن تعلّق قلبه بالناس فأنزل بهم فاقته (أي: فقره وحاجته) لم تُسد فاقته، ومن تعلّق قلبه بالله فأنزل به فاقته، فإنّ الله يسخّر له ما يشاء من أسباب، ويوشك أن يسعفه بما يطلب من رزق، إن عاجلاً أو آجلاً.

وهذا المبدأ مبدأ عامٌّ يشمل أيضاً كل الأسباب الصورية المادّية، فعلى المسلم أن يباشر الأسباب امتثالاً لأمر الله، بشرط أن يكون معلّقاً قلبه بالله، معتقداً أنه هو الْفَعّال، وغير معتمد في قلبه على الأسباب، فالأسباب ما تفعل شيئاً إلّا بأمر الله، ولو شاء أن يسلبها خصائصها وتأثيرها لفعل، وهذا وجه آخر من سموّ النفس وعلوّ الهمة، وفي الحديث: «من تعلّق شيئاً وكل إليه».

ومن توكّل على الله مع مباشرته كل الأسباب التي أمر الله باتخاذها، كفاه

الله، إذا صدق قلبه مع الله، وأثبت بذلك كمال إيمانه، وكمال يقينه بالله، وبأنه هو الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، وهو الذي وضع في الأسباب خصائصها وتأثيراتها.

٦ ــ واستخدم الرسول ﷺ أسلوب التنافس للسبق إلى نيل الجائزة العظمى، وهي دخول الجنة لمن يتعهد بأن لا يسأل أحداً من الناس شيئاً.

روى أبو داود بإسناد صحيح عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: «من تكفّل لي أن لا يسأل الناس شيئاً وأتكفّل له بالجنّة؟».

قال ثوبان: فقلت: أنا.

فكان ثوبان بعد ذلك لا يسأل أحداً من الناس شيئاً.

وجعل الرسول ﷺ أحد بنود البيعة مع بعض أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئاً، فالتزموها، حتى إن أحدهم يسقط سوطه فما يسأل أحداً يناوله إيّاه.

روى مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي قال: كنا عند رسول الله تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: «ألا تبايعون رسول الله؟» وكنا حديث عهدٍ ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «ألا تبايعون رسول الله؟» فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلامَ نبايعك؟ قال: «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس، وتطيعوا» وأسرّ كلمةً خفيّة: «ولا تسألوا الناس شيئاً»، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إيّاه.

٧ ــ وروى مسلم عن أبي بشر قَبيصة بن المُخارق قال: تحمّلتُ حمالةً فأتيت رسول الله ﷺ أسأل فيها فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها» ثم قال: «يا قبيصة، إنّ المسألة لا تحلّ إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلّت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك. ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلّت له المسألة حتى يصيب قِواماً من عيشٍ، أو قال: سِداداً من عيش. ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجا من قومه: لقد أصابته فاقة، فحلّت له

المسألة، حتى يصيب قواماً من عيش، أو قال: سِداداً من عيش. فما سواهنّ من المسألة يا قبيصة سُحتٌ يأكلها صاحبها سحتاً».

تحمّلت حَمالة: الحَمالة هي ما يتحمله الإنسان عن غيره من دية أو غرامة، ليصلح بذلك بين فريقين متخاصمين، ويدخل هذا في عموم الغارمين، الذين غرموا من أموالهم مقداراً ليصلحوا به بين الخصماء وهؤلاء لهم الحقّ في أن يسألوا الناس مشاركتهم فيما تحمّلوه من غرامات، وإنما يفعل هذا في العادة وجهاء القوم وحلالو مشكلاتهم، فمن العدل والإنصاف مساعدتهم على ما هم فيه من خير.

وهذا هو الصنف الأول الذي قرّر الرسول ﷺ أنه من الأصناف الثلاثة الذين تحلّ لهم المسألة. وقد بيّن الرسول ﷺ أن هذا الصنف يأخذ على مقدار الحمالة التي تحمّلها، ولا يتخذ ذلك ذريعة للإثراء والاستكثار من المال بغير حق.

ورجل أصابته جائحة: الجائحة هي المصيبة العظيمة التي تحلّ في مال الإنسان، فتستأصله كله، كالحريق، أو الغرق، أو النهب، أو السرقة، أو ما أشبه ذلك. فمن أصابته جائحة اجتاحت ماله، فإن له الحقّ في أن يسأل الناس صدقاتهم، مقداراً يسدّ به حاجته فقط، وليس له أن يسأل حتى يستعيد مستوى غناه، ولذلك قال الرسول ﷺ في جانب هذا الصنف الثاني: «فحلّت له المسألة حتى يصيب قِواماً من عيش، أو قال: سِداداً من عيش».

ورجل أصابته فاقة: الفاقة هي الفقر الذي يصيب الإنسان بشكل مستور، دون أن يكون عن طريق جائحة ظاهرة، ولذلك كان بحاجة إلى شهادة ثلاثة رجال من أهل العقل والرأي في قومه، يشهدون له بأنه قد أصابته فاقة، ويدخل في هذا الصنف الفقراء والمساكين الذين يصيبهم الفقر بعد سابق غنى. وحكم من أصابته فاقة كحكم من أصابته جائحة، فإنّه لا يجوز له أن يسأل زيادة على ما يصيب به قواماً من عيش له ولأسرته.

يأكلها صاحبها سحتاً: السحت هو المال الحرام الذي لا يحل كسبه، وسمي سحتاً لأنه يسحتُ البركة، أي يُذهبها.

وأصل السَّحْت يُفيد معنى قشر الشيء قليلاً قليلاً حتى استئصالـه، والسُّحت أيضاً في اللّغة العذاب. فكل ما ينال عن طريق مسألة غير مشروعة هو مال سحت ومكسب حرام.

٨ ــ وروى مسلم عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل الناس تكثّراً فإنما يسأل جمراً فليستقلّ أو ليستكثر».

فسؤال الناس أموالهم وصدقاتهم للاستكثار وسيلة مهنية قذرة، حذّر منها الرسول ﷺ، وجعلها بمثابة من يسأل الناس جمراً، لأن عقوبتها يوم القيامة مسّ جمرات عذاب، على مقدار الدراهم والدنانير التي يأخذها بالمسألة تكثُّراً واستزادةً من جمع المال، ولا يورّط نفسه بذلك إلاّ كلّ أحمق لا يقدّر العواقب على مهانة في نفسه، وانحطاط في همته، وهل مسّ جمرات جهنم بالأمر الهيّن؟!

ــ ٨ ــ
الترفع عن محقرات الأمور وصغائرها ونشدان معالي الأمور وكمالاتها، والزهد في الدنيا

ومن ظواهر خلق علوّ الهمة الترفع عن محقّرات الأمور وصغائـرها، ونشدان معالي الأمور وكمالاتها، فالتعلّق بمحقرات الأمور من دناءة النفس وانحطاط همّتها، ولا يفعله كبار القلوب والنفوس، لأنّ هؤلاء تكون نظراتهم آخذة في طريق صاعدة، ومتطلعة إلى آفاق المعالي.

ومن تدبّر حقائق الأمور وانطلق من هذا المنطلق الخلقي الكريم وكان مؤمناً بالله واليوم الآخر إيماناً كاملاً؛ وجد الحياة الدنيا وما فيها من زينة ومتاع أموراً صغيرة قليلة القيمة، لا تستحقّ في نظره الحرص عليها، وإيثارها على ما عند الله من أجرٍ عظيم في جنّاتِ النعيم. فإذا دعاه الواجب الرباني إلى بذلها أو الزهد فيها بذلها في سبيل الله وزهد بها، وإذا دعاه الواجب إلى القناعة بما يتيسّر له منها بطريق ليس فيه معصية لله، أو إضرارٌ بالناس، أو تفاخرٌ عليهم وتكاثر، كان من أهل القناعة والرضى، لأنّ همته العالية قد تجاوزت حدود هذه

الفانيات وتعلقت بالباقيات الخالدات المسعدات حقاً، إذ علم أن أعظم ما في الحياة الدنيا من نعيم لا يعادل قطراتٍ من بحر نعيم الدار الآخرة، وأن أعظم ما في الدنيا من مصائب وشدائد يهون أمام نعيم دار الآخرة، ولا يُعادل مقدار شرارة صغيرة من عذاب جهنّم.

الزهد في الدنيا:

فمن عرف هذه الحقائق وآمن بها فلا بدّ أن يزهد بعرض الحياة الدنيا ويقطع علائق قلبه منه، ترفعاً إلى ما هو أجلّ وأعظم، وأكرم وأبقى.

ولكن ليس معنى الزهد المطلوب ترك السعي في عمران الدنيا، وإعلاء بنيانها الحضاري، وترقية وسائلها، والانتفاع من خيراتها، بل الزهد الذي يتطلّبه الإيمانُ باليوم الآخر إنّما هو عدم تعليق همّة القلوب والنفوس بمتع الحياة الدنيا وزخارفها وزينتها، وهذا الزهد المطلوب يستلزم تسخير ما يصل إلى يد الإنسان منها في طاعة الله التي تحقق له يوم القيامة الثواب العظيم، الذي يصغر ويتضاءل أمام نعيمه كلّ نعيم عاجل مهما جلّ وعظم.

وليس معنى الزهد المطلوب ترك الاستمتاع بما أحل الله من متاع الحياة الدنيا، فالاستمتاع المعين على القيام بالواجبات والبعد عن المحرمات، والمقرون بالنية الصالحة، عمل محبوب مرغوب في الإسلام، وهو في الحدود المعتدلة التي لا إفراط فيها ولا إسراف من العبادات، ولذلك قال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

ففي هذا النص القرآني توجيه للتعجب من تحريم زينة الله التي أخرج لعباده، وللتعجب من تحريم الطيبات من الرّزق، إعلاناً عن أن إباحة هذه

الزينة وهذه الطيبات من الرّزق من الأمور البدهيّة المعلومة بداهة من شريعة الله، ولكن إباحتها لا تعني الانغماس فيها، والافتتان بها، والانصراف الكليّ إليها، ونسيان الله والدار الآخرة أو السعي إلى تحصيلها بمعصية الله، أو منع حقّ الله فيها، فكلّ ذلك يخرجها عن كونها زينة مباحة، على أنّ علوّ همة المؤمن يوجهه لمطامع أجلّ وأسمى، ويجعله دائم الطلب والشوق لما عند الله.

فهو يأخذ من نصيب الدنيا ما يجتاز به رحلة هذه الحياة سالماً غانماً، دون أن يتعلّق به كل التعلّق، أو يميل إليه كلّ الميل.

هذا حال المؤمن عالي الهمّة، يأخذ نصيبه من الحياة الدنيا ضمن الحدود التي أذن الله بها، وقلبه وحبّه وشوقه ومطالبه الساميات معلّقة بما أعدّ الله للمتقين في الدار الآخرة من خيرات حسان، وهذا هو الزهد المطلوب من المؤمنين، إنه زهد القلوب واستصغار ما في الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما في الدار الآخرة. وهذا التصوّر الصحيح مع أثره في النفوس والقلوب يجعل المؤمن العاقل يوجه معظم طاقاته وأنواع نشاطه إلى ما يحقق له يوم القيامة مطمع أجلّ وأعظم، وليس من شأن هذا التوجيه أن يفسد مصالح الدنيا، بل من شأنه أن يزيدها ارتقاءً، ويجعلها مشمولة بنسبة أعظم من سعادة المجتمع الإنساني كلّه.

بخلاف التعلّق الكلي بالدنيا ومتاعها ولذاتها فإنه ينمي الحَسَدَ والتنافس بين الناس، وينتهي بالمجتمعات الإنسانية إلى الفساد وسفك الدماء وخراب العمران، ولذلك فإن من جعل كلّ همّه مرتبطاً بالحياة الدنيا وزينتها، فإنّ الله يعطيه منها على مقدار عمله وما قسم له، ثمّ لا يجعل له يوم القيامة نصيباً من النعيم المقيم، قال الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

فما كانوا يعملونه في الدنيا قد كان من أجل الدنيا، وقد وفّى الله إليهم

أعمالهم فيها ضمن قوانين كونه وسُننه الثابتة، وحينما يأتي يوم الجزاء لا يجدون من أعمالهم التي عملوها من قبل إلاّ الكفر بالدار الآخرة وما فيها وما يتصل بذلك، ولذلك يكون جزاء كفرهم وسوء أعمالهم النار. أمّا الأعمال النافعةُ في الدنيا فقد ظهر بطلانها يوم الجزاء، لأنهم لم يعملوها ابتغاء مرضاة الله، ولا طلباً لما في الدار الآخرة من نعيم مقيم. لقد كانت الدنيا همّهم ومطلبهم فنالوا منها حظوظهم على قدر أعمالهم، ولم تكن همتهم عالية متطلعة إلى ما هو أجل وأسمى من كل ما في الدنيا، حتى ينالوا منه ما يرجون من ربهم.

فدلّ النصّ على أن الأعمال التي يُراد بها ثمرات الحياة الدنيا فإنّ ثمراتها تتحقق للعاملين من غير نقصان، فهي سنة من سنن الله الثابتة، ولكن ما أريد به الدنيا فلا ثمرة له في الآخرة، ويدخل في هذا أعمال المرائين وأعمال الكافرين.

روى مسلم عن أنس أن النبي ﷺ قال:

«إنّ الكافر إذا عمل حسنة أُطعم بها طُعمةً من الدنيا، وأمّا المؤمن فإن الله تعالى يدّخر له حسناته في الآخرة، ويُعقبه رزقاً في الدنيا على طاعته».

وثبت في المرائين أن أعمالهم تحبط يوم الدين، وأنّ أجورهم على ما عملوا قد أخذوها ممن عملوا لهم في الدنيا، منها ثناء المثنين، ومدح المادحين، وما أصابوه من تعويض على ما بذلوه ضمن سنة الثمرات الدنيوية.

خطأ في مفهوم الزهد:

ويفهم بعض الناس الزهد فهماً خاطئاً، إذ يرون أن الإسلام يحب الفقر للمسلمين ويدعوهم إلى تفضيله وإيثاره، فيجعلهم هذا التصّور الخاطىء يبطّئون همتهم عن العمل والإنتاج وعمران الدنيا، ويرغبون في الّلجوء إلى الزّوايا والتكايا والصوامع بزعم التفرغ للعبادة وإيثار عمل الآخرة، ويصابون بعد ذلك بداء الكسل والإخلاد إلى الراحة، وداء الطمع بعطاءات الناس ومِنَحِهم، وما يبذلونه لهم من مآكل ومشارب.

وسبب خطئهم أنهم لم ينظروا إلى جملة النصوص الإسلامية التي يكمّل

بعضها بعضاً، لقد تعلقوا بنصوص التزهيد في الدنيا وأساؤوا فهمها، ولم ينظروا إلى نصوص الحث على العمل والكسب وعمران الدنيا والأخذ بأسباب القوة، ونصوص الحث بعد ذلك على البذل في سبيل الله بعد الكسب الحلال زهداً في الدنيا وابتغاءً لرضوان الله.

إنّ من الواجب لدى بحث أي موضوع جزئي من الموضوعات الإسلامية أن ينظر الباحث إلى النصوص المتعلقة به، والنصوص المتعلقة بما يقابله، وسائر النصوص التي لها ارتباط بالموضوع الكلي الشامل للموضوع الذي يبحث فيه ولغيره من الموضوعات، مع نظرة شاملة إلى الإسلام بوجه عام. بهذه النظرة الشاملة يظهر مكان الموضوع الجزئي، وتظهر حدوده، وقيوده وشروطه، ومفاهيمه الصحيحة، ويكون الباحث أبعد عن الخطأ في الفهم، ولا يأخذ الموضوع الجزئي في تصوّره أكثر من حدوده ضمن الساحة العامة المخصصة للموضوع الكلي، من أصل الخريطة العامة للإسلام ومفاهيمه الكلية والجزئية.

فمن أراد أن يبحث مفاهيم الزهد الذي رغب الإسلام فيه، فعليه أن يبحث أيضاً مفاهيم العمل الذي رغب الإسلام فيه أيضاً، وربى المسلمين عليه، من زراعة وصناعة وعمران وتنمية لمختلف الثروات، وخدمات اجتماعية، وغير ذلك من أعمال كثيرة فيها إنتاج أو استثمار أو خدمة أو إصلاح وتحسين حضاري. وعليه أن يبحث أيضاً دعوة الإسلام إلى البذل والعطاء، ودعوته إلى التخفف من الانغماس في تناول الشهوات واللذائذ الدنيوية، التي تورث القلوب الغفلة عن الله، والقسوة المجففة لمنابع الرحمة فيها، والتي تنفخ في النفوس الخفة والطيش والشره الزائد إلى المتع العاجلة، والبطر القاتل، وتنفخ فيها الكبر والعجب بالنفس، والاستعلاء على الناس، والاستهانة بما هو سبيل السعادة الأخروية، ثم تدفع بها إلى مواقع الطغيان، والتي تغشّي الفكر فتحجبه عن كثير من الحقائق، وتجعل ذكاءه ألعوبة في أيدي الأهواء والشهوات، وأداةً تُسخّر للشّره والكبر والعجب والطغيان.

فدعوة الإسلام إلى الزهد في الدنيا ليست دعوة إلى ترك العمل والإنتاج

والاستثمار، وليست ترغيباً بالفقر والضعف والمسكنة، بل هي تربية أخلاقية تدفع المسلم إلى فضائل البذل والعطاء، والبعد عن رذائل البخل والشحّ، ومسبّبات قسوة القلب، والكبر والعجب والاستعلاء على الناس والطغيان والاستهانة بالفضائل، وما ينجم عن ذلك من انحطاط كبير عن مراتب الكمال الإنساني في الفكر والنفس والسلوك.

ودعوة الإسلام إلى الزهد في الدنيا دعوة إلى القناعة بما قسم الله من رزق، والالتزام بما أذن الله من كسب، وتربية على العفة عمّا في أيدي الناس، وعدم الطمع بما لدى الآخرين، وعدم النظر إليه بحسد ورغبةٍ بامتلاكه.

ودعوة الإسلام إلى الزهد في الدنيا دعوة إلى أن يصرف المؤمن قلبه عن التعلّق بالأشياء الدنيوية لذاتها أو للذّتها، كي يتوجه شطر الآخرة ومحبة الله وابتغاء مرضاته، حتى إذا رأى المؤمن أن مرضاة الله تتحقّق بالتخلي عن عَرَض الحياة الدنيا تخلى عنه ابتغاء مرضاة الله، وإيثاراً لثواب الآخرة. وهكذا يستطيع المؤمن الصادق أن يكون قلبه غير متعلّق بزينة الحياة الدنيا، وما فيها من مالٍ ومتع وتفاخر وتكاثر، مهما كان في يده من ذلك، بل يستخدم كلّ ما يجنيه للظفر بنعيم الآخرة ومجدها، ولا يبطئه ذلك عن العمل والكسب، لأن العمل والكسب عندئذ من أفضل العبادات، وهو أفضل من التفرغ للعبادات المحضة بنسبة عظيمة، فمن تفرغ ليكون كلاً على غيره، وهو يزعم أنه قد تفرغ للعبادة، فإن من ينفق عليه هو أفضل منه.

أما من تفرغ للعلم وإرشاد الناس وتعليمهم فهو عامل في أشرف الأعمال وأفضلها، وعلى الأمة أن تكفيه معاشه، وهو من أزهد الناس في الدنيا متى كان صادقاً مع الله.

هذا المفهوم الإسلامي الصحيح إنما نتوصل إليه بعد النظر الشامل إلى النصوص الإسلامية المختلفة وبعد التصور الشامل لمفاهيم الإسلام.

التربية الإسلامية على الزهد في الدنيا تطلعاً إلى الآخرة ومنازلها العالية:

وقد عمل الإسلام على تربية المسلمين بمختلف الوسائل التربوية، لاكتساب هذه الظاهرة من ظواهر خلق علوّ الهمة:

١ ــ فاتخذ الإسلام لذلك وسيلة الإقناع بحقيقة ما في الدار الآخرة من كمالات عظيمة ونعيم مقيم، للذين يطلبونها ويسعون لها سعيها وهم مؤمنون، والإقناع بحقيقة الحياة الدنيا، وأنها مزرعة للآخرة، وأن مدتها قليلة ضئيلة بالنسبة إلى الخلود المقرر للآخرة، وأنّ كل نعيم فيها مهما عظم فهو قليل ضئيل سريع الزوال مغموس بالأكدار والمنغصات، وهو في جوهره بالنسبة إلى ما في الآخرة حقير لا يؤثره ويفضله على ما في الدار الآخرة إلّا كافر بها، أو منحط الهمة قاصر النظر، يؤثر العاجلة ويذر الآخرة.

ولذلك جاء وصف الآخرة بأنها دار القرار ودار الخلود، وبأنها هي الحيوان، وبأنها دار المقامة.

قال الله تعالى حكاية لقول موسى لقومه في سورة (غافر ٤٠):

﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

أي: دار الاستقرار والثبات.

وقال الله تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

أي: لهي الحياة الباقية الخالدة الحقة التي لا فناء فيها ولا زوال.

وقال تعالى في سورة (فاطر ٣٥) حكاية لما سيقوله أصحاب الجنة وهم فيها ينعمون:

﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾.

أي: لا يمسنا فيها تعب ولا يمسنا فيها إعياء، بل قوة دائمة على التلذّذ بما فيها من نعيم مقيم.

وجاء وصف ما في الجنة بأنه نعيم، وبأنه نعيم مقيم، وسميت الجنة جنة نعيم، وسميت الجنات جنات النعيم، فالنعيم في الآخرة يقابل المتاع والاستمتاع في الدار الدنيا.

فقال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (الواقعة ٥٦):

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

٢ ــ واتخذ الإسلام بعد الإقناع وسيلة الحث على طلب ما في الآخرة من نعيم خالد وكمالات عظيمة، وتحويل قلوب المؤمنين ونفوسهم عن التعلق بزينة الحياة الدنيا وزخرفها والتزهيد فيها كلـمّـا كانت صارفة عن السعي لتحصيل ثواب الآخرة ومجدها الرفيع؛ دون أن يؤثر ذلك على الواجبات المتعلقة بالحياة الدنيا، والاستفادة ممّا سخّر الله للناس فيها.

وفي الإقناع بالفارق الكبير بين ما في الدنيا وما في الآخرة، يقول الله تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾ ﴾.

أي: وما الحياة الدنيا في جنب الآخرة وبالقياس عليها إلاّ متاع.

وقال تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾.

أي أرضيتم بالحياة الدنيا بدل الآخرة! فما متاع الحياة الدنيا في جنب الآخرة وبالقياس عليها إلاّ متاع قليل، لا يستبدله العقلاء المؤمنون بالآخرة وما فيها، فلا يرضون بالحياة الدنيا بدلاً عن الآخرة وما فيها من نعيم مقيم.

وقال تعالى في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

أي: لولا أن يكفر الناس جميعاً بسبب تفضيل الكافرين بمتاع الحياة الدنيا لفضّلهم الله في الدنيا على المؤمنين بهذا المتاع الفاني احتقاراً له وامتحاناً للمؤمنين.

فالبيوت الفارهة ذات السقف المصنوعة من الفضة، وذات المعارج والمصاعد المريحة، وذات الأبواب العظيمة والسّرر النفيسة، والمزخرفة بالذهب، قد وصفها الله بأنّها متاع الحياة الدنيا، ثم وجّه الله المؤمنين إلى الآخرة وما فيها من نعيم مقيم.

وقال تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

وروى مسلم بسنده عن المستورد بن شداد، أنّ النبي ﷺ قال: «ما الدنيا في الآخرة إلّا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليمّ، فلينظر بم يرجع».

وروى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبَغُ في النار صبغة ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيراً قط؟ هل مرّ بك نعيم قط؟. فيقول: لا والله يا ربّ. ويؤتى بأشدّ الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيُصْبَغُ صَبْغَةً في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤساً قطّ؟. هل مرّ بك شدّة قطّ؟. فيقول: لا والله ما مرّ بي بؤسٌ قطّ، ولا رأيت شدّة قطّ.».

فيُصبغ صبغةً: أصل الصّبغ في اللّغة الغمس، يقال: صبغ يده في الماء أو في الزيت أو نحوهما إذا غمسها، فمعنى قول الرسول ﷺ: «فيصبغ صبغة»: فيُغْمَسُ غمسة، في النار أو في الجنة، أي: يذوق ما في هذه من عذاب بمقدار غمسة، ويذوق ما في هذه من نعيم بمقدار غمسة.

أي: يؤتى بأنعم أهل الدنيا ممّن قضي عليه بأن يكون من المعذبين في النار يوم القيامة، فيغمس في النار غمسة يسيرة يذوق بها ألم العذاب، ثم يطلب منه أن يقارن بين هذا العذاب وبين النعيم الذي كان قد تمتّع به في الحياة الدنيا، وهل كان ذلك النعيم يستحق الاغترار به وإيثاره؟

فيقول: ما رأيت خيراً قط ولا مرّ بي نعيم قطّ يستحق أن يُذكر، وذلك بالقياس على ما ذاق من عذاب في هذه الغمسة اليسيرة، فكيف بالخلود في هذا العذاب؟

ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا ممن قضي له بأن يكون من أهل الجنة لإيمانه وصالح عمله، فيغمس في نعيم الجنة غمسة يسيرة يذوق بها طرفاً قليلاً

من هذا النعيم، ثم يطلب منه أن يقارن بين هذا النعيم وبين البؤس الذي كان قد ذاقه في الحياة الدنيا، وهل كان ذلك البؤس يستحق الضجر منه، ما دام هذا النعيم بعض ثواب الآخرة؟

فيقول: ما مرّ بـي بؤس قطّ، ولا رأيت شدّةً قطّ، أي: فما سبق لي من بؤس لا يستحق أن يذكر بالنسبة إلى هذا النعيم الذي وجدته في هذه الغمسة اليسيرة في نعيم الجنة، فكيف بالخلود في نعيم هذا جزء يسيرٌ منه؟

ولهذا كان الرسول ﷺ يقول: «اللهمّ لا عيش إلا عيش الآخرة» فيما روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه.

ومن أجل ذلك علت همة الرسول ﷺ عن زينة الحياة الدنيا، وزهد بها، وحينما عُرضت عليه جبال مكة أن تكون له ذهباً رفضها، واختار لنفسه العبودية والمسكنة، ولهذا قال صلوات الله عليه فيما رواه البخاري ومسلم عن أبـي هريرة: «لو كان لي مثل أُحُدٍ ذهباً لسرّني أن لا يمرّ عليّ ثلاث ليالٍ وعندي منه شيءٌ إلّا شيءٌ أرصده لدين».

على أنّ الرسول ﷺ ما كان يزهد بأن يدخل عليه مالٌ كثير، إنما كان يزهد بادخاره لنفسه وحرصه عليه، ويدلنا على هذه الحقيقة ما رواه البخاري ومسلم عن أبـي ذرّ قال: كنت أمشي مع النبـي ﷺ في حرّةٍ بالمدينة، فاستقبلنا أحد، فقال: «يا أبا ذرّ» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «ما يسرّني أنّ عندي مثل أحدٍ هذا ذهباً تمضي عليّ ثلاثة أيام وعندي منه دينار، إلّا شيءٌ أرصده لدين، إلّا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا» وأشار بيده صلوات الله عليه عن يمينه وعن شماله ومن خلفه. ثمّ سار فقال: «إنّ الأكثرين هم الأقلّون يوم القيامة، إلّا من قال هكذا وهكذا وهكذا وقليل ما هم» وأشار بيده صلوات الله عليه عن يمينه وعن شماله ومن خلفه.

٣ ــ وكان الرسول صلوات الله عليه المثل الأعلى في علوّ همته، وفي طلبه للدار الآخرة، وفي زهده بجمع المال، ولو شاء لكان أغنى الناس مالاً، وفي زهده بما في الحياة الدنيا من ترف ونعيم، رغبة بالبذل والعطاء، وطلباً

لما عند الله من ثواب عظيم ومراتب ساميات، حتى توفي صلوات الله عليه دون أن يترك عند موته درهماً ولا ديناراً.

روى البخاري عن عمرو بن الحرث أخي جويرية بنت الحارث أم المؤمنين، قال: «ما ترك رسول الله ﷺ عند موته درهماً ولا ديناراً، ولا عبداً ولا أمةً ولا شيئاً، إلاّ بغلته البيضاء التي كان يركبها وسلاحه، وأرضاً جعلها لابن السبيل صَدقة».

وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: «توفي رسول الله ﷺ وليس في بيتي شيءٌ يأكله ذو كبد، إلاّ شطر شعير في رفٍّ لي، فأكلت منه حتى طال عليّ فكلتُه ففني».

شطر شعير: أي شيءٌ قليل من شعير.

لقد كانت البركة الرّبانية تزيد منه، فلـمّـا كالته عائشة رضي الله عنها وعرفت مقداره طارت البركة منه، ففني بحسب مقداره الطبيعي، وكانت هذه البركة استمراراً للأحوال التي كان الله يمدّ بها رسوله صلوات الله عليه.

٤ ــ وتخوّف الرسول ﷺ على أمته من فتنة الحياة الدنيا، ومِن أن تبسط عليهم فتكون سبباً في تمزيق وحدتهم، وإضعاف روح الجهاد والدعوة إلى الله فيهم، ومن أن تكون سبباً في هلاكهم، كما أهلكت الأمم التي كانت قبلهم، ولذلك حذّرهم من فتنتها.

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال: جلس رسول الله ﷺ على المنبر، وجلسنا حوله فقال: «إنّ ممّا أخاف عليكم بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها».

ففي هذا الحديث وعدٌ وتخوّف، وعد بأن الله سيبسط عليهم الدنيا، وتخوّف عليهم من هذا البسط.

وروى البخاري ومسلم عن عمرو بن عوف الأنصاري، أنّ رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، فقدم بمالٍ

من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبـي عبيدة، فوافَوْا صلاة الفجر مع رسـول الله ﷺ، فلما صلى رسـول الله ﷺ انصرف، فتعـرضـوا لـه، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، ثمّ قال: «أظنكم سمعتم أنّ أبا عبيدة قدم بشيءٍ من البحرين؟» فقالوا: أجل يا رسول الله، فقال: «أبشروا وأمِّلوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم».

فهذا الحديث يدل على أنّ التخوّف من بسط الدنيا هو التخوّف من أن يفضي بسطها إلى الهلاك بسبب التنافس فيها، والتقاتل والتحاسد من أجلها، وهذا التنافس فيها لا حدود له، ولا بدّ أن تضيق الدنيا عن مطامع الناس فيها، وينتهي بهم الأمر إلى التحاسد والتقاتل والفساد وسفك الدماء.

وهذا بعض مخاطر بسط الدنيا، ومن مخاطره الاغترار بزينة الحياة الدنيا، والانغماس في الترف، ونسيان الله واليوم الآخر، والسقوط في المعاصي والآثام.

وتحذيراً من فتنة الدنيا وزينتها بين الرسول ﷺ أنّها حلوة خضرة، وأنّ الله قد استخلف عباده فيها ليبتليهم، فينظر كيف يعملون، ورتب على هذه الحقيقة قوله: «فاتقوا الدنيا واتقوا النساء» أي: فاتقوا فتنة الدنيا وزينتها، واتقوا فتنة النساء؛ فقد روى مسلم عن أبـي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإنّ الله تعالى مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء».

وروى الترمذي بإسناد صحيـح عن كعب بن عياض قـال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إنّ لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال».

وتهويناً من شأن الدنيا وبياناً لقيمتها الحقيقية، حتى لا تسيطر على قلب المؤمن، فيؤثرها على الآخرة، ويعصي الله من أجلها، وردت عدة بيانات نبوية.

منها ما رواه الترمذي بإسناد صحيح عن سهل بن سعدٍ الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ:

«لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء».

فهذا هو وزن الدنيا بالنسبة إلى الآخرة، ووزنها في نظر الله، وفي ميزان الحقيقة.

ومنها ما رواه مسلم عن جابر، أنّ رسول الله ﷺ مرّ بالسوق والناس كنفتيه، فمرّ بجديٍ أسكَّ ميّتٍ، فأخذ بأذنه ثم قال:

«أيّكم يحبّ أنّ هذا له بدرهم؟».

فقالوا: ما نحبّ أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟. قال: «أتحبّون أنّه لكم؟».

قالوا: والله لو كان حيّاً كان عيباً أنّه أسَكُّ فكيف وهو ميّت؟! فقال: «فوالله للدّنيا أهون على الله من هذا عليكم».

كنفتيه: أي محتفّون به عن جانبيه.

أسَكّ: أي صغير الأذن، وهذا من عيوب الغنم عند العرب.

ففي قصة هذا الحديث درس نبويٌّ تعليميٌّ حواري، تسلسل بالسؤال والجواب، حتى بلغ الغرض التعليمي والتربوي بطريقة مثلى، وقد كان هذا الدرس مزوداً بوسيلة إيضاحية، وفي الهواء الطلق ضمن سوق البيع والشراء.

ومنها ما رواه الترمذي بإسناد صحيح عن كعب بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه» والمراد بالشرف المجد والجاه والمكانة الدنيوية.

٥ ـ وفي تربية خلق علوّ الهمة في هذا المجال، يشرح القرآن واقع حال الدنيا وما فيها من نعيم بالنسبة إلى الدار الآخرة، ويبيّن أنّها لهو ولعب وزينة وتفاخر وتكاثر بين الناس، وأنها متاع زائل وأنّها متاع الغرور، وأنّ ما عند الله خير للأبرار، ويبين أنّها متاع قليل، وأنّ الآخرة خير لمن اتقى، وأنّ من أراد

ثواب الدنيا آتاه الله منها، ومن أراد ثواب الآخرة أعطاه الله نصيبه من الدنيا وادّخر له الجزاء الأوفى إلى يوم الدين.

وفيما يلي طائفة من البيانات القرآنية في هذا المجال:

* (أ) يصف الله تبارك وتعالى الدنيا فيقول في سورة (الحديد ٥٧):

﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾.

الكفار: الزرّاع، يهيج: يجف وييبس.

ففي هذا النصّ يبين الله تعالى أنّ مغريات الحياة الدنيا منحصرة في كليّات خمس، أو في مجالات خمسة كبرى، وهي:

١ ــ اللعب.

٢ ــ اللهو.

٣ ــ الزينة.

٤ ــ التفاخر بين الناس.

٥ ــ التكاثر في الأموال والأولاد.

وهل في الدنيا مجالات كبرى غير هذه المجالات يتنافس فيها الناس؟

إنّ متع الحياة الدنيا التي ينفق الناس فيها أعمارهم وطاقاتهم لا تعدو مجالات اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر في الأموال والأولاد.

وهذه الكليات الخمس إذا نظرنا إليها بمنظار الحقيقة لا بمنظار الغرور وجدناها كمثل دورة من دورات الربيع، أو دورة من دورات المواسم الزراعية، تبدأ بأعمال الحرث والزرع والخدمات المرافقة للنبات، وخلال ذلك يلتمس

الزّراع غيث السماء، فينزل الغيث، وينبت الزرع، وتزدان خضرته، ويختال شبابه، وتتزيّن بأكاليل الزهر رؤوسه، وعندئذ يعجب الزرّاع نباته، حتى إذا جاء أوانه أخذ يهيج، أي يدب فيه اليبس شيئاً فشيئاً، حتى يكون في آخر مرحلة اليباس مصفر اللون بعد أن كان أخضر نضراً، ثمّ يتحطم ويتكسّر، ولا يبقى من رونقه شيء، ثم لا يبقى منه إلّا الأثر والذكرى، وكذلك مثل الحياة الدنيا كلها، فضلاً عن الأعراض التي تمرّ فيها.

وبعد ذلك يأتي دور الحياة الآخرة، التي هي دار الخلود، دار الجزاء على ما قدّم مكلّفو الحياة الدنيا من أعمال، فإما عذاب شديد للذين اغترّوا بالحياة الدنيا وزينتها، فجحدوا ربّهم، وعصوا أوامره ونواهيه، وذلك في دار العذاب التي أعدّها الله لمستحقي العقاب، وإمّا مغفرة من الله ورضوان في نعيم مقيم، للذين آمنوا بربهم وعملوا صالحاً ولم تغرّهم الحياة الدنيا بزينتها ﴿وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور﴾.

ولـمّـا ضرب الله مثلاً للحياة الدنيا بدورة من دورات المواسم الزراعية الأرضية التي يهتم بها الزّراع، وكان هذا المثل موجّهاً للكافرين بالدرجة الأولى، لأنهم هم المغرورون بالحياة الدنيا، كان من البراعة الفائقة والإبداع الرائع، أن يُختار في المثل ألفاظٌ مشتركة بين عناصر من المثل وعناصر من الممثّل له، فقال تعالى: ﴿كمثل غيث أعجب الكفّار نباته﴾ والكُفَّار هم الزرّاع، والكفار هم المنكرون لما أنزل الله والمكذبون برسله.

واختير لفظ الكفار في المثل بدل لفظ الزرّاع تلويحاً لمعنى يراد من بعيد، وهو أنّ الكفار بالدين هم الذين يغترون بالحياة الدنيا غروراً كاملاً، وهذا المعنى تمرّ رائحته على أهل الذوق من عَبَق اختيار اللّفظ فقط.

شرح مغريات الحياة الدنيا الخمس:

١ ــ اللعب: هو ما كان من الأعمال غير الجادّة ذا غاية مقصودة، كرياضة الجسم أو رياضة الفكر، لاكتساب مهارات علمية أو عملية، أو تنمية قدرة من القدرات الجسمية أو الفكرية أو النفسية، فمن ذلك ركوب الخيل

واللّعب عليها، والسباحة واللعب فيها، والرمي واللعب فيه، فهـذه كلّها ألعاب، ولكنّها ذات مقاصد تقصد ونتائج ترجى.

٢ ــ اللهو: هو ما كان من الأعمال غير الجادة متّسماً بأنّه غير ذي غاية تقصد، وإنما هو مجرد تلهٍّ عن القيام بالأعمال الجادة النافعة.

وقد يفسّر اللغويّون اللّهو باللّعب، ولكن إذا تتبعنا مادة كلمة اللهو وجدناها تتضمن معنى التشاغل عن شيء ما بأي شيء آخر ليس مقصوداً لذاته، وإنما هو انصراف به عن الشيء الذي أراد المتلهي الإعراض عنه، فاللّهو يحمل معنى الإعراض عن عمل ما أكثر مما يحمل معنى القيام بالعمل الآخر، فقد يكون التلهي بالعبث المطلق، كالعبث بحصى الأرض، والعبث بسلسلة تُدار على الإصبع ثم تُنكث، أو بسبحة تحرك حباتها بالأصابع، إلى غير ذلك.

ومن أمثلة اللهو ما يفعله الذين ينفقون أعمارهم وطاقاتهم في العبث بلعبة النرد، أو بألعاب الورق ذات الأرقام والصور، ونحو ذلك من وسائل لهو وعبث.

وكثير من أعمال الناس الدنيوية، إذا لم يكن فيها تحقيق غاية ترضي الله تعالى وتجلب غُنماً أخروياً خالداً، هي من قبيل اللّهو أو اللّعب، إذ لا تزيد قيمتها الحقيقيّة على أنّها تلهّ بما هو حقير وتافه، عمّا هو عظيم جليل خطير الشأن، أو لعب ضئيل القيمة تافه الغاية. وَمَثل التلهي بأعراض الدنيا عن القيم الأخروية العظيمة كمثل تلّهي الأطفال عن ميراثهم العظيم بألعاب يخدعهم بها شيطان خبيث يريد أن يضيع لهم ميراثهم، ويتلف لهم كنزهم.

كم يضيع الناس من كنوز الآخرة بما ينخدعون به من لعب ولهو، وقد كان باستطاعتهم أن يكونوا أهل جدٍ وعمل يزرعون في الحياة الدنيا ما يبقى لهم ثمراً خالداً نامياً إلى يوم الدين.

لو أنّ مزارعاً تلهى ولعب في وقت الحرث والزرع، وتشاغل بما لا يخدم مزرعته أفتراه يحصد ثماره مع الغانمين إذا جاء موسم الحصاد؟ إنه يومئذٍ يحصد

الخيبة والندم، ويقطف من أشواك الألم ثمرات لهوه ولعبه، ويرى الغانمين يملأون أحمالهم وديارهم خيراً ورزقاً، فيمتلىء قلبه وتمتلىء نفسه حسرة وألماً.

فإذا كان اللعب واللهو في الإثم ومعصية الله كان البلاء أدهى وأمرّ، إذ لا يقتصر ضررها على الحرمان من الخير العظيم يوم القيامة، بل هي أوزار ثقيلة تجرّ عذاباً أليماً.

بخلاف الأعمال النافعة ذات النتائج الخيّرة يوم القيامة، فهي ذات خاصتين:

الأولى: ما يغنمه المؤمن من أجر عظيم عليها يوم الدين.

الثانية: ما ينجم عنها من عمران دنيوي حضاري خير لا شرّ فيه، يجمع بين المادّة والروح، بين المتعة والفضيلة، بين لذة الروح ولذة الجسد، بين الدين والدنيا.

وبذلك تمتاز أعمال المسلمين الملتزمين تعاليم الإسلام عن أعمال غيرهم، فهم يستطيعون أن يوفقوا بحكمة رائعة بارعة بين الدنيا والآخرة، بقيادة حكيمة توجه العمل شطر الخير، مع ابتغاء مرضاة الله فيه.

٣ ـ الزينة: هي في الأصل اسم جامع لكلّ ما يُتزيّن به، والتزيين هو تحسين المظهر وتجميله حتى تميل إليه الحواس وترتاح إليه النفس، ولا يشترط فيها هو حسن مزيّن المظهر أن يكون في حقيقته جوهراً نافعاً، وذا قيمة حقيقية باقية، بل ربّما يكون ضاراً وجالباً لشرٍّ وعذاب، فالزينة من شأنها أن تستهوي النفوس إذ تستحسنها الحواس.

وقد أبان الله لنا أنه جعل ما على الأرض زينة لها ليبلو الناس أيّهم أحسن عملاً، فقال عز وجل في سورة (الكهف ١٨):

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾.

أي: لنختبرهم في مجال الزينة التي تخدع حواس غير العقلاء، وبالامتحان

يظهر أيّهم أحسن عملاً، أيّهم يكون جادّاً عاملاً لما عند الله من أجر عظيم وثواب جزيل، وأيّهم يكون مغترّاً بزينة الحياة الدنيا، معرضاً عمّا يحقق له في الآخرة سعادة عظيمة خالدة.

وهكذا سمّى الله كل ما على الأرض من شيء يتمتّع به الإنسان زينة لها، نظراً إلى الحقيقة الجوهرية، وقياساً على الدار الآخرة وما فيها من نعيم حقيقي لا ينقطع.

وسمّى الله تبارك وتعالى المال والبنين زينة من زينة الحياة الدنيا، وأبان أن الباقيات الصالحات خير عنده ثواباً وخيرٌ أملاً، فقال تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

والباقيات الصالحات هي الأعمال الصالحة التي ترضي الله تعالى، ويبتغى بها وجهه، فهي باقيات لأنّ ثوابها باقٍ وخالد في دار النعيم يوم الدين، فهي لذلك خير من المال والبنين ثواباً.

أمّا كونها خيراً أملاً، فيظهر لنا حينما نلاحظ أنّ الناس يجمعون المال الكثير ويرغبون بالبنين أملاً بما في المال والبنين من نفع لهم في مستقبل حياتهم، لكنّ الباقيات الصالحات من الأعمال التي لها ثواب عظيم خالد في دار الجزاء، هي خيرٌ أملاً في نفوس المؤمنين من كلّ الآمال التي يعلّقها الناس في الدنيا على الأموال والبنين.

وأبان الله لنا أن المراكب من زينة الحياة الدنيا، فقال تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

فركوبها واقتناؤها انتفاع وزينة.

ومن الزينة التطلّع إلى استتباع أصحاب المال والجاه، والزهدُ بالفقراء والضعفاء، ففي تربية الله لرسوله في هذا الشأن قال تعالى له في سورة (الكهف ١٨):

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

فُرُطاً: أي سرفاً وتضييعاً للخير.

وجاء التعبير عن زينة الحياة الدنيا بالزهرة، لأن الزهرة مزدانة المظهر شكلاً ولوناً ورائحة وملمساً، إلّا أنها سريعة الذبول قصيرة العمر قليلة النفع، إنها زينة النبات، وهي أقصر ما في النبات عمراً، مع أنها أرقه حاشية وأحلاه منظراً، قال الله تعالى في سورة (طه ٢٠):

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾.

وحينما نمعن النظر في كلّ ما في الحياة الدنيا ممّا يستهوي نفوس الناس، وننظر بمنظار الحقيقة الأبدية الخالدة، يتبيّن لنا أن متاعها الذي يتقاتل الناس عليه ويتنافسون فيه هو من قبيل الزينة، ذات البريق الظاهر فقط، والنفوس تميل إليه والحواس تنجذب إليه، انخداعاً به، واغتراراً بأنه ذو مضمون نافع مشحون بالخير وهو في الحقيقة غير ذي محتوى جوهريّ صحيح، الكدح له كثير، واللذة منه كرذاذ من الماء ترمي به على حديدٍ محمي بالجمر، والفتنة به والانشغال به عن الإعداد للآخرة وما فيها من نعيم عظيم خالد، هو من قبيل اللهو واللعب إذا قيس بمقياس الحقيقة الجوهرية الأبديّة.

على أنّ الاستمتاع بالزينة في حدود ما أباح الله لا يتعارض مع العمل للآخرة، بل قد يكون مساعداً عليه، بل قد يكون جزءاً منه، إذا اقترن بنية صالحة فيها طاعة لله تعالى، قال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

فالزينة مباحة في الدنيا للذين آمنوا، ينالون منها هم وغيرهم، وهي لهم وحدهم يوم القيامة، ولكن يشترط لاستمتاع المؤمنين بها في الحياة الدنيا شروط:

(أ) أن لا يستمتعوا من الزينة بما حرّم الله تعالى، أو على وجه حرّمه الله تعالى.

(ب) أن لا يطغى استمتاعهم بها على الواجبات المنوطة بهم.

(ج) أن لا تنسيهم الله وتلهيهم عن ذكره.

والمستوى الرفيع لاستمتاعهم بالزينة أن تعينهم على طاعة الله وشكره، وأن تكون بالمقاصد الصالحة عنصراً من عناصر عبادتهم لله تعالى.

والاستمتاع بالزينة تعتوره الأحكام الشرعية الخمس: فقد يكون واجباً كأكل ما فيه قوام الحياة، وقد يكون مندوباً كالزواج لشابٍّ استطاع الباءة، وقد يكون مباحاً كشراب مباح دعت إليه الشهوة ولم تدع له الحاجة، وقد يكون مكروهاً كالزيادة عن مقدار الحاجة في طعام أو شراب لاحتمال الضرر في ذلك، وقد يكون حراماً كالاستمتاع بما حرم الله من مآكل ومشارب ومناكح وغير ذلك.

فليس الغرض من ترغيب الإسلام المسلمين بالزهد في الدنيا وزينتها الامتناع من الزينة والاستمتاع بها، وليس الغرض من اعتبار الحياة الدنيا لعباً ولهواً وزينة وتفاخراً وتكاثراً من الأموال والأولاد أنّ الإسلام يمنع المسلم من هذه الأمور. إنما الغرض تحقير أمر الدنيا في نظر المؤمن حتى لا يشتدّ تعلّقه بها، ولينظر إلى الآخرة وما فيها من نعيم مقيم ويسعى لها سعيها المطلوب، فيظفر بالخير العظيم الذي أعده الله للعاملين الساعين للمنازل الرفيعة في دار الخلود. وليهون عليه التضحية بماله ونفسه طمعاً بما هو أعظم وأجلّ.

٤ ــ التفاخر: وهو التسابق لحيازة ما به يفتخر الناس بعضهم على بعض.

وكم يتسابق الناس في الحياة الدنيا ويتنافسون ويبذلون الكثير لينالوا بين الناس مظهراً من مظاهر الفخر، وليرضوا في نفوسهم دافع الكبر وحبّ الاستعلاء. إنّ كثيراً من الناس يشقون أنفسهم ليفخروا على غيرهم بعرض من أعراض الحياة الدنيا، وينافسهم آخرون ويشقون في الحياة ليجاروهم وليكون لهم من الفخر مثل ما لهم.

إنّ أحدهم قد يشحّ بالدرهم في مجال لا فخر له فيه عند الناس، وربما يكون له فيه أجر كبير عند الله، في حين أنه قد يبذل الألوف أو مئات الألوف في مجال آخر يجد له فيه بين الناس فخراً، ويشعر بأنه يتعاظم فيه ويتكبّر على خلق الله، أو يعظم فيه ويكبر عند الناس.

ربّما يقتل بعض الناس نفسه حذر أن تجرح مرتبة الفخر التي يتصورها لنفسه.

كم يجر التفاخر من تحاسد وكيد تنمو بهما نامية الشر والفتنة، ويكثر الفساد في الأرض.

معظم الحروب الجاهلية كان الدافع الأكبر فيها عنصر التفاخر الفردي والأسري والقبلي والقومي.

قريش في غزوة بدر علمت أن عيرها وأموالها قد نجت، ولكن لم يطاوعها كبرها وتفاخرها بين العرب أن ترجع دون أن تظهر للعرب مكانتها وقوتها، فقال قائلهم: والله لا نرجع حتى نردَ بدراً فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجُزر، ونُطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا. وهكذا اندفعوا بدافع الفخر، وقد حذّر الله المؤمنين أن يكونوا مثلهم، فقال تعالى لهم في سورة (الأنفال ٨):

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾.

فالمشركون قد خرجوا إلى بدر من ديارهم بطراً وكبراً وليُروا الناس مكانتهم وقوتهم تفاخراً وتعاظماً.

ووصف الله أهل الاختيال والفخر بأنهم بخلاء في مجالات الخير، ويأمرون الناس بالبخل، فإذا كانوا في موقف من مواقف الفخر أنفقوا أموالهم رئاء الناس، ليعظموا في نفوسهم، قال تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾.

فهم بأوهام التفاخر الشيطانية يمارسون موقفين متناقضين تماماً، بخلاء دعاة للبخل في مواطن الخير ومرضاة الله، مسرفون مبذرون في ميادين التفاخر ومراآة الناس.

وماذا كان يضرّهم لو أنهم آمنوا بالله واليوم الآخر، ثم أنفقوا في سبيل الله، ليظفروا بمجد الآخرة والأجر العظيم عند الله؟! وهم لن يفوتهم مع ذلك مجد الدنيا ولا ثوابها ولا تعويض ما بذلوه في سبيل الله، ولذلك قال الله تعالى في شأنهم عقب النص السابق من سورة (النساء ٤):

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

وحبّ التفاخر من أغراض الدنيا، وهو محبط للعمل الصالح، ومنه ما يجرّ إلى معصية الله فهو حرام، ومنه ما هو مكروه، ومنه ما هو مباح ومأذون به، كالتفاخر في مواقف القتال لقذف الرعب في قلوب الأعداء.

٥ ــ التكاثر: وقد ذكر النص التكاثر في الأموال والأولاد ويلحق به التكاثر في الأنصار والأعوان والأجناد، والتكاثر في جميع ما هو من زينة الحياة الدنيا ومفاخرها، مادّيّاً كان أو معنويّاً.

وجاء التكاثر مطلقاً في قوله تعالى: ﴿ألهاكم التكاثر﴾.

ودوافع التكاثر ترجع إلى عنصرين نفسيين:

العنصر الأول: الطمع المقرون بالأمل، والطمع ينحلّ إلى الرغبة بالتملّك والاستئثار، وهذان يرجعان إلى جذر الأنانية في الإنسان، وهي الأنانية الجموح التي لا بصر يهديها ولا عقل يلجمها ويضبطها.

وجاء في الحديث: «لو أوتي ابن آدم وادياً من ذهب لابتغى إليه ثانياً، ولو أوتي ثانياً لابتغى إليه ثالثاً ــ وهكذا ــ ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب ويتوب الله على من تاب».

العنصر الثاني: رغبة النفس بالاستعلاء على الآخرين، وهذه الرغبة مقرونة بالتفاخر، وبالبحث عما يتفاخر فيه الناس في الحياة الدنيا.

وهذه الرغبة ترجع إلى جذر الكبر المتفرع من الأنانية المقيتة، وهي الأنانية العمياء الجموح التي لا بصر يهديها، ولا عقل يلجمها ويضبطها.

إن الأنانية العمياء الجموح مع قصر النظر وجحود الآخرة أو نسيانها، واتباع الهوى وشهوات النفس، علّة العلل وأصل الداء.

ودواء الإنسان يكمن في الإيمان بالله واليوم الآخر، وتصوّر المنازل الرفيعة التي يظفر بها في دار النعيم المستهينون بما في الحياة الدنيا من زينة، والمضحون بها ابتغاء مرضاة الله، كلّما دعاهم الواجب أو دعتهم الفضيلة إلى التضحية بها، والذين يوجّهون مطالب أنفسهم إلى ما أعدّ الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من مجد عظيم، ونعيم باذخ.

وهذا الدواء كفيل بأن يبصّر الأنانية بطريق مجدها وغناها وفخرها الصحيح الخالد الذي لا يفنى، وكفيل بأن يهوّن في نظرها الدنيا وما فيها، فيصرفها عن التعلّق التامّ بما هو موصول بها، ومحدود الغاية عندها، ليعلّقها بما هو موصول بالآخرة ورضوان الله، وغير محدود الغاية، إيماناً بأن الدار الآخرة هي دار الخلود، وهي دار الحياة الحقة.

وبهذا الدواء تتحوّل الطاقة الأنانية إلى مركبة سحرية عجيبة، تجري بصاحبها بسرعة فائقة إلى منازل الخالدين، وتجعل صاحبها حينئذٍ متحلياً بفضائل أخلاقية وسلوكية عظيمة.

وكذلك كل الفِطر الإنسانية لا تحتاج إلى أكثر من حسن توجيه، حتّى يدرج الإنسان في مسالك الخالدين في النعيم، ذوي الاستقامة على الصراط السوي، صراط الله العزيز الحكيم.

أما إهمالها للأوهام تعبث بها، أو توجيهها توجيهاً سيئاً، فإنّ كلاً منهما من شأنه أن يسلمها إلى أيدي الشياطين، وعندئذ تتعلّق تعلقاً كليّاً بالدنيا وما فيها وتقطّع ما بينها وبين الله والدار الآخرة من أسباب، وتسير في ركب الشياطين يلهيها الأمل، ويزين لها الغرورُ طريق الهلاك الذي تسير فيه بحلاوة المتاع العاجل الذي تستمتع به.

وقد حذر الله الناس من أن تغرّهم الحياة الدنيا، فقال تعالى في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥ ﴾.

وأبان الله للذين آمنوا بأن الدار الآخرة هي دار الحياة الحقة، التي تستحق وحدها أن يقال عنها: «الحيوان» أي الحياة الكبرى الخالدة، فقال تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٦٤ ﴾.

وقد ضرب الله مثلاً للحياة الدنيا بنبات الربيع، ينزل الغيث من السماء فينبت فيعجب الزراع نباته لخضرته ونضرته، ولكنه لا يلبث غير مدة قصيرة حتى تذهب خضرته ويصفر وييبس ثم يتحطم ويتكسر، ﴿كمثل غيث أعجب

الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً».

وبعد الحياة الدنيا تأتي الآخرة وفي الآخرة بالنسبة إلى الناس أنواع ثلاثة:

(أ) عذاب شديد للكافرين.
(ب) ومغفرة من الله لمستحقيها من عصاة المؤمنين.
(ج) ورضوان من الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات.

وأخيراً يعطي الله الحكم النهائي على الحياة الدنيا فيقول: ﴿وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور﴾.

ثم يدعو المؤمنين إلى أن يسابقوا بالعمل الصالح لتحصيل خيرات الآخرة في جنة عرضها كعرض السماوات والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله.

أمّا وصف الحياة الدنيا بأنها متاع الغرور كما جاء في هذا النص الذي نتدبره وفي غيره:

فالمتاع: اسم لكل ما يتمتّع به إلى أجل ثمّ ينتهي ويفنى، وعمره بالنسبة إلى من يتمتع به عمرٌ قصير. وهو يطلق في اللّغة على ما ينتفع به انتفاعاً مؤقتاً إلى حين، ثمّ يأتي عليه الفناء والزوال.

ولما كانت الدنيا وجميع ما فيها ظلالاً زائلة فانية كانت جديرة بأن توصف بأنها متاع، وكانت لذّاتها وكلّ ما ينتفع به منها جديرة بأن توصف بأنها متاع.

ومادة هذه الكلمة لم تستعمل في القرآن إلّا في جانب ما في الدنيا من نعيم زائل ولذّات فانيات أمّا نعيم الآخرة فلم يرد وصفه في القرآن بأنه متاع ولا بأنّه يستمتع به، لأنه نعيم خالد.

والغرور: يأتي في اللغة بمعنى الأباطيل، ويأتي بمعنى الأشياء التي يُغتَرُّ بها، وهي في حقيقتها غير جديرة بأن يغترّ بها. قالوا: ويجوز أن يكون الغرور جمع غارٍّ، على مثل شاهد وشهود، وقاعد وقعود، والغرور مصدر لفعل غرّهُ يغُرّه غروراً إذا خدعه، واسم الفاعل منه غارّ، واسم المفعول منه مغرور.

وبعد هذا البيان اللّغوي باستطاعتنا أن نتبصر معنى قول الله تعالى: ﴿وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور﴾ أي: فما الحياة الدنيا من زينة ولذّات وزخارف ولهـو ولعب وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد، كلّ ذلك متاع زائل، وظلّ حائل، يغتر بها الجاهل، فإذا اغترّ بها وآثرها على الدار الآخرة وعصى الله تعالى بسببها كانت بالنسبة إليه متاعَ غرور، لا متاع بلاغ يتبلّغ به إلى يوم الخلود يوم الجزاء الأكبر، وذلك لأنه اغتر بهذا المتاع، والإضافة في (متاع الغرور) نظير الإضافة في قولنا: (هذه دار إقامة) أي بالنسبة إلى من يقيم بها.

* (ب) وأمام الحياة الدنيا التي وصفها الله بأنها متاع الغرور نجد الناس قسمين:

القسم الأول: غاية همته ما في الحياة الدنيا، فهو يكدح من أجل ذلك فقط، ولا يطلب نصيباً من الدار الآخرة، وطبيعيٌّ أن لا يكون لهذا القسم من الناس نصيب من سعادة الدار الآخرة، لأنهم لم يطلبوه ولم يسعوا له سعيه.

القسم الثاني: لهم مطلبان، مطلب عاجل ومطلب آجل أما المطلب العاجل فهو زاد حسن يجتازون به طريق الحياة الدنيا، ويتبلّغون به إلى نهايته وفق الأجل المرسوم لهم.

وأمّا المطلب الآجل فهو الذي يطمحون إليه، وتتعلق غاية همتهم به وبمراتبه التي لا تتناهى سموّاً وارتقاء.

وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾.

ويقول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

فمن سنة الله في خلقه أنّ من أراد من الناس بعمله الدنيا آتاه الله منها على قدر عمله، ومن أراد منهم بعمله الآخرة، آتاه الله ثواب الآخرة، ومعلوم أن ثواب الآخرة يضاعف عند الله أضعافاً كثيرة، أما ثواب الدنيا فخاضع للسنة الثابتة، وهي أن نتائج الأعمال تكون على قدرها.

على أنّ باستطاعة المؤمن أن يظفر بثواب الدنيا والآخرة معاً، وهذا ما أشار إليه قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾.

وحينما لا يمكن الجمع بين متاع الدنيا وثواب الآخرة، فعلى المؤمن حينئذ أن يؤثر ثواب الآخرة على متاع الدنيا، ولذلك لما كان الجهاد في سبيل الله يستدعي بذل كل ما في الحياة الدنيا، حث الإسلام على هذا البذل، وطلب من المؤمنين أن يؤثروا الدار الآخرة على ما في الحياة الدنيا.

فقال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: فما متاع الحياة الدنيا في جنب الآخرة الخالدة إلّا متاع قليل، لا يستحق أن يكون محلّ إيثار وتفضيل.

* (ج) وطلب الآخرة في ارتفاع همة النفس لا يفوت على طالبها ما قدّر الله له من نصيب في الحياة الدنيا، قال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُواْ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

فللمحسنين حسنة في الدنيا، وحسنة عظمى في الآخرة، فلا يعاب على المؤمن أن يطلب الدنيا والآخرة معاً، إذا أمكن التوفيق بينهما من غير معصية الله تعالى، إنما الذي لا يليق بالمؤمن هو أن يؤثر الحياة الدنيا وزينتها على الآخرة، وأن يستحب الحياة الدنيا على الآخرة، ولذلك ذمّ الله هذا الإيثار وهذا الاستحباب.

فقال الله تعالى في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾.

فهؤلاء الكافرون علتهم النفسية أنّهم استحبّوا الحياة الدنيا على الآخرة، وهذا الاستحباب جعلهم يكفرون بالله، ويصدّون عن سبيله، ويبغونها سبيلاً عوجاً.

وقال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

فسبب كفر الذين شرحوا بالكفر صدراً يرجع إلى أنهم استحبّوا الحياة الدنيا وزينتها على الآخرة.

وقال الله تعالى في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

فالذين كفروا يقال لهم يوم القيامة إذ يُعرضون على النار: أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها.

فهم استحبوا الدنيا على الآخرة فطلبوها وحدها، ولم يطلبوا حظاً كريماً من الدار الآخرة، فاستكبروا في الأرض بغير الحق، وعصوا أمر رَبّهم، وانطلقوا في كلّ مجال يفسقون، لذلك فهم يجزون عذاب الهون، وهو عذاب الخزي والذلّ والصغار، في مقابل ما كانوا عليه في الدنيا من تمرد على الحقّ واستكبار.

ومشكلة نفوسهم تتلخّص بأنهم يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، مع أن الآخرة خيرٌ لهم وأبقى، وطلبها لا يُضيع عليهم من الحياة الدنيا إلاّ ما لا خير لهم فيه وقد نبه القرآن على أنّ علة انصراف الناس عن تزكية نفوسهم وتطهيرها بصالح العمل، وإعراضهم عن ذكر الله وعبادته، هو أنهم يؤثرون الحياة الدنيا، فقال الله تعالى في سورة (الأعلى ٨٧):

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

فإيثار الناس للحياة الدنيا هو السبب في إعراض من يعرض منهم عن تزكية نفسه، أي: عن تطهيرها بالعمل الصالح.

وإيثار الحياة الدنيا يولّد طغياناً في النفوس، وذلك لأنّ من جعل كل همّه وهمته الحياة الدنيا، فلا بدّ أن يوجّه لها كل طاقات مطامعه، وتتحدّد فيها كل شراهة نفسه، وهذا يسوق حتماً إلى الطغيان، وفي هذا يقول الله تعالى في سورة (النازعات ٧٩):

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾.

فالكافرون هم الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة إيثاراً كلياً، ويدرج على مدرجتهم عصاة المؤمنين، الذين تغلبهم أهواؤهم وشهواتهم، فيسقطون فيما حرّم الله، ويحبّون اللذات العاجلة، ويؤثرونها على الخيرات العظيمة الآجلة، فيمسهم العذاب يوم القيامة بمقدار ما تجاوزوا من حدود الله، أو يشملهم عفو الله، ويحرمون أنفسهم من مراتب عاليات في دار النعيم.

الخلاصة:

فالغرض من التزهيد في الحياة الدنيا تشجيع المسلم على بذل ما يملك منها في سبيل الله، والتضحية بمتعها وزينتها ولذائذها ابتغاء مرضاة الله كلّما دعا الواجب أو دعت الفضيلة إلى البذل والتضحية، وتوجيهه للسعي إلى ما هو أسمى وأرقى من كلّ ما في الحياة الدنيا، وتقطيع علائق قلبه عنها، حتى لا تسوقه إلى الإثم ومعصية الله والتحاسد والتباغض إذا هو سعى في طلبها، ولئلا يستبدّ الحرص عليها بهوى قلبه، فيعميه عن كلّ فضيلة، ويدفع به إلى كل رذيلة.

وليس الغرض من التزهيد بالدنيا صرف المسلمين عن تنمية الثروات التي تقوي شوكة المسلمين، وتدفع عنهم البؤس والحاجة، وتمتعهم برفاهية العيش التي أذن الله بها، وتأخذ بأيديهم إلى تحسين وسائل العيش وترقيتها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، بل هذه مطلوبة في الإسلام مع زهد القلوب في الحياة الدنيا وزينتها.

قصة المغرور بالدنيا صاحب الجنتين وصاحبه المؤمن:

لقد ضرب الله مثلاً قصة رجلين: أحدهما غرّته الدنيا، إذ وسع الله عليه في الرزق، فآتاه جنتين من أعناب، فافتخر بما آتاه الله على صاحبه، وظنّ أن جنتيه خالدتان، وأنكر الساعة ويوم الجزاء، فوعظه صاحبه، فلم يستجب لموعظته، فسلبه الله النعمة، فندم على ما كان منه من كفر بربّه وشرك به، وقال: يا ليتني لم أشرك بربـي أحداً.

قال الله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾.

لقد نفخ الاغترار بكثرة المال وقوة الرجال في رأس صاحب الجنتين، فجعل يفتخر على صاحبه في حوار كلامي جرى بينهما، ويقول له على سبيل الكبر والاستعلاء والتفاخر: أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً.

إنّ داء هذا الرجل المغرور بماله ورجاله داء منتشر في الناس انتشاراً واسعاً، ونجد أمثلة كثيرة له في كل زمان وفي كل مكان، وفي كلّ بيئة اجتماعية كبيرة أو صغيرة.

إنّ أي إنسان لم يهذّبه الإيمان بالله والنظر الدرّاك إلى حكمة الله في العطاء والمنع، والخفض والرفع، متى رأى توافر قوتي المال والرجال بين يديه، نفخ الغرور برأسه، فغشّى على بصيرته، فظنّ أنه قد جمع ما قد جمع من مال وقوة أنصار بقوّة ذكائه وعظيم حيلته، وأنّ ذلك يرجع إلى أنه إنسان عظيم في ذاته كبير في خصائصه، جدير بأن يكون عظيم القدر جليل الخطر بين الناس، وعلى الناس أن يعترفوا له بذلك، فإذا لم يعترفوا له فهم يظلمونه في حقه عليهم.

وهذه الأوهام التي تستبدّ به تجعله يحقد على الناس، ويحاول الانتقام منهم إذا لم يرفعوا مقداره، ويُعلو بينهم مكانته على أساس أنّه أكثر من غيره مالاً وأعزّ نفراً.

وتتولّد لديه عقدة الكبر والعجب بالنفس، ثمّ يكون لهذه العقدة ظواهر في السلوك، كالاختيال، والتعاظم في الجسم، والتنطع في القول، والإعراض عن مخاطبة الذين يراهم دونه، والصلف وتصعير الخدّ بإمالة العنق على سبيل الشموخ وتجميع عروق الرقبة وجعلها تنتصب إلى الأعلى، وجرّ الثوب عند المشي، ولفّ الرجل على الرجل إذا جلس على كرسيّه، مع توجيه نعله أو أسفل

قدمه إلى وجوه جلسائه، وعدم تثبيت نظره تجاههم، بالتشاغل عنهم بأمور بين يديه لا تعنيه ولا غرض له منها إلّا الانصراف والإعراض عنهم تكبراً.

وبعض الناس من هؤلاء المتعاظمين يختار لعينيه النظارات السوداء، ليجمع بين مظهر إعراضه المستكبر ببصره وبين ما يعنيه أن ينظر إليه ويتفحصه بين جلسائه.

وحين لا يكترث الناس به، ولا يجدون سبباً حقيقياً يعطيه هذه العظمة، يصرح بحجته، ويقدم الدليل على أنه مستحقٌ للعظمة، فيقول وهو يفخّم منطقه وينفخ شدقيه: أنا أكثر مالاً وأعزّ نفراً.

ويقول مثل مقالة فرعون إذا كان ذا ملك وسلطان: أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي؟

وهنا تسخر الحقيقة منه أيما سخرية، وكثيراً ما تسخر منه المقادير الربّانية الحكيمة، فتسلبه النعمة، فيتصاغر فيه كل شيء كان قد تعاظم بالأمس.

ونظير التكاثر بالمال التكاثر بالشهادات والتعاظم بالرفيع منها، فقد ينفخ الغرور في الرؤوس الفارغة من العلم الصحيح والعقل الرجيح، متى أحسّت بأنها تمتلك من الشهادات ذات الألقاب الفخمة ما لا يملكه أقرانهم منها، وهنا يتوهمون أنّ العبرة بالأوراق والوثائق الموقعة، لا بالمعارف الصحيحة التي تثقّل أقدارهم في ميزان الكفايات، وحينما يتمكن هذا الوهم من نفوسهم تبدأ ظواهر عقد الغرور والكبر والعجب والتفاخر وجنون العظمة تتدفق بشكل عجيب، غير معهود في عالم العقلاء، شبيه بما كان يظهر عند الذين يغترون بكثرة أموالهم.

وعقدة الكبر هذه تتولّد من أمور كثيرة تتصل بما هو من زينة الحياة الدنيا والتفاخر والتكاثر بها، فمنها كِبْر الغنى، ومنها كبر الاعتزاز بالأتباع والأنصار، ومنها الكبر الطبقي، ومنها الكبـر القومي، والكبـر العرقي، وكبـر المركـز الاجتماعي، وكبر المرتبة الوظيفية، وكبر الشهادات العليـا، وكبر الألقـاب الاجتماعية، وكبر الخصائص الفردية الفطرية، كالجمال والفصاحة والذكاء والقوة الجسدية، وهكذا إلى غير ذلك ممّا يولّد الشعور بامتلاك أكثر من الآخرين.

أمّا صاحب الجنتين فقد قال لصاحبه وهو يحاوره: أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً، سورة (الكهف ١٨):

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ
ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ
وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ
ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا
بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ
وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن
تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾.

حُسْباناً: أي عذاباً مهلكاً، والحُسْبَانُ في اللّغة العَذاب، والبلاء، والجراد، والعجاج، والشرّ، وسهامٌ صغار يرمى بها عن القسيّ الفارسية، وكلّ ما يُرمى به على شيء كمطر من حجارة أو بَرَدٍ لإتلافه.

صعيداً زلقاً: أي أرضاً ملساء لا نبات فيها تنزلق عنها الأقدام فلا تثبت.

وهكذا أبان النص القرآني أنّ الغرور قد سيطر على هذا المتكاثر بماله ورجاله سيطرة تامة، حتى أخذ يتوهم لجنّته الخلود، ثم جره هذا التوهم إلى إنكار قيام الساعة، وربطه بالأرض ربطاً كاملاً. ثم أطغاه الاستغناء فأنساه خالقه، وحينما تهزّه دلائل الإيمان تأتيه وساوس الشيطان فتقول له: لو لم تكن ذا حظوة عند ربّك ما حباك الخير الكثير في الدنيا، وعلى فرض صدق الأقوال المنذرة بالدار الآخرة فإنّك محظوظ عند ربّك سيعطيك فيها خيراً ممّا أعطاك في الدنيا، فيصدّق هذه الوساوس الشيطانية فيقول: وما أظنّ الساعة قائمة، ولئن رُددتُ إلى ربّـي لأجدنّ خيراً منها منقلباً.

لكنّ الله عز وجل لا يتركه فريسة أوهامه ووساوس شيطانه، بل يقيض له من يذكّره بالحق ويعظه به، فأرسل له صاحبه المؤمن فحاوره وناظره وذكّره

بالحق، وكشف له أنّ ما وصل إليه إنما هو من قبيل الغرور بالنفس، والغرور بالدنيا، وأن إنكار يوم الجزاء كفرٌ بالله وتكذيب له،ثم ذكّره بعقوبات الله، وبأنّ مُتع الدنيا وأموالها وزينتها عرضة للزوال، وعرضة للقبض بعد البسط، وللتدمير بعد التعمير، وللسلب بعد العطاء، فمكرُ الله لا يؤمن، ونقمته قريبة مهما أمهل، ولكنّ المغرور قد كان في غشاوة على بصيرته، من ظواهر الزينة التي يستمتع بها، فلم يسمع نصيحة صاحبه المؤمن، وبقي سادراً في غيّه، حتى حلت به العقوبة، وفاجأته المصيبة، فسلبه الله نعمته، فأصبح نادماً يتحسر، قال الله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

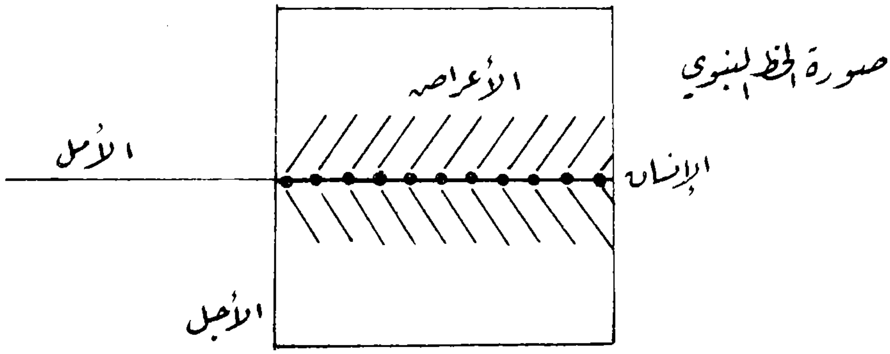
من دوافع الحرص على الدنيا الأمل بطول البقاء:

درس تعليمي رسم فيه الرسول ﷺ خطوطاً بيانية خطّها لأصحابه، ورمز بهذه الخطوط التي رسمها إلى حقائق أوضحها لهم، فجعل بعضها مثالاً للإنسان، وبعضها مثالاً لأجله المحيط به، وبعضها مثالاً لأمله الممتد وراء أجله، وبعضها مثالاً للأعراض القائمة في طريق حياته، والتي لا بدّ أن يصيبه أحدها بعلّة، ثم يأتيه أجله مع واحد منها.

ودلّ الرسول ﷺ بصنيعه هذا على أهمية استخدام الوسائل التعليمية لإيضاح الحقائق عن طريق السمع والبصر، وعن طريق الرسوم التي تقرّبُ الحقائق المجرّدة للتصور.

روى البخاري عن عبدالله بن مسعود قال: خطّ النبي ﷺ خطّاً مربّعاً، وخطّ خطّاً في الوسط خارجاً منه، وخطّ خُططاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي بالوسط؛ فقال:

«هذا الإنسان، وهذا أجله محيطاً به، أو قد أحاط به، وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخُطُط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نَهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا».



فهذا الرسم يوضّح أن الإنسان محصور ضمن مربّع أجله، ويوضّح أنّ أمله في الحياة خارج ممتدّ وراء مربّع أجله، فهو يسعى وراء آمالٍ دنيوية كثيرة يأتي أجله من دونها، يحدوه إليها الغرور والطمع. ويوضّح أيضاً أن من دون الأجل أعراضاً مالئة طريق حياة الإنسان، ويسير الإنسان في حياته متخذاً مسيرته ضمن هذه الأعراض، فهو لا يدري عند أيٍّ منها يكون أجله، وهذه الأعراض ينبغي أن تكون مذكّرة له بالموت، ومخفّفة من طول أمله، ولكن قلّ من الناس من يتعظ ويتذكر. وبعض الناس تقعده العلّة المرضية، ويظلّ مع ذلك طويل الأمل بالحياة، مع أنّ أيّ عرض من أعراض الحياة مهما صغر كافٍ لأن يكون أجل الحياة عنده، وقد يأتي الأجل من دون عرض مرض، وكم من عثرة يسيرة مات بها عاثرها، وكم من علّة خفيفة كانت القاضية على من اعتل بها، وربّ داء دويٍّ شديد قاتل لا يقتل صاحبه لأنه لم يحن أجله، ومع ذلك فأية لحظة تمرّ بالإنسان قد يكون عندها نهاية أجله، ومع كلّ نَفَسٍ يقذفه الإنسان من صدره احتمال أن يكون هو النفس الأخير.

فطول الأمل بالحياة الدنيا مفسدة للإنسان، لأنه يُنسيه الدار الآخرة والسعي لها، ويولّد فيه جملة من قبائح الأخلاق ورذائلها، ويدفعه إلى ارتكاب كثير من حماقات السلوك السيء في الحياة.

إنّ طول الأمل يلقي على بصيرة الإنسان غشاوات الغفلة، فلا يحسُب حساباً للموت الذي قد يباغته وهو غارق في آثامه، سارح في أوهامه، متخبط في أضغاث أحلامه.

ولذلك أوصى الرسول ﷺ عبدالله بن عمر بأن يكون في الدنيا كأنه غريب أو عابر سبيل، روى البخاري عن عبدالله بن عمر قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال:

«كن في الدنيا كأنّك غريب أو عابر سبيل».

وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك.

فمن الأفضل للإنسان أن يذكّر نفسه دائماً بالموت، ليخفّف من شدّة أمله بطول البقاء، حتى لا يُفسد نفسه طولُ أمله، وفي الوصية بهذا روى الترمذي عن أبـي هريرة، أنّ النبـي ﷺ قال:

«أكثروا ذكر هاذِم اللّذّات».

(قال الترمذي: حديث حسن)

هاذِم اللّذات: هو الموت، ووصفه الرسول ﷺ بأنه هاذم اللّذات لأنّه يقطعها قطعاً سريعاً، والهاذم لغة هو القاطع بسرعة، والهاذم أيضاً هو الذي يأكل بسرعة فيزدرد الطعام ازدراداً.

وما دام الموت قد يباغت الإنسان دون سابق إنذار فمن المفروض أن يُعدّ المؤمن له عُدّته، وهذا ما أوصى به الإسلام وأكثر من التذكير به.

روى الترمذي بإسناد حسن عن أبـي بن كعب قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثُلث الليل قام فقال:

«يا أيّها الناس، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه».

قال أبـيٌّ: قلت: يا رسول الله، إنّي أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟. فقال: «ما شئت». قلت: الرّبع؟ قال: «ما شئتَ فإن زدت فهو خير لك». قلت: فالنّصف؟. قال: «ما شئت فإن زدت فهو خير لك». قلت: فالثلثين؟. قال: «ما شئت فإن زدت فهو خير لك». قلت: أجعل لك صلاتي كلّها. قال: «إذاً تكفى همّك، ويغفر لك ذنبك».

وفي الاستعداد للموت، أوصى الرسول ﷺ بأن لا يبيت الإنسان المسلم ليلتين أو ثلاث ليال إلّا ووصيته مكتوبةٌ مهيّأة عنده، ترقّباً لاحتمالات مباغتة الموت دون سابق إنذارٍ من شيخوخة أو مرض.

روى البخاري عن عبدالله بن عمر، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«ما حقّ امرىء مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلّا ووصيته مكتوبة عنده».

قال ابن عمر: ما مرّت عليّ ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ قال ذلك إلا وعندي وصيتي.

وفي الاستعداد للآخرة وعدم الالتهاء بالأموال والأولاد عن ذكر الله، والتحذير من مفاجأة الموت والإنسان غافل مشغول بزينة الحياة الدنيا، خاطب الله الذين آمنوا بقوله في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

ففي هذا النص القرآني عظة كافية بتذكر الموت والعمل لما بعد الموت، وعدم التلهي بزينة الحياة الدنيا عن ذكر الله، فإذا جاء الأجل انقطع الأمل، وانتهى دور العمل، وعندئذ لا مجال للتأخير﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾.

وفي التنديد بطريقة الكافرين الذين يلهيهم الأمل، يقول الله تعالى في سورة (الحجر ١٥):

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾.

إنه الأمل الذي يجعل الإنسان في غرور من أمره، فيلهيه بالأوهام ويشغله عن إبصار الحقائق والتعلّق بها، حتى يجعله ينزلق إلى مواقع الكفر ويقيم فيها.

* وأمل الكافرين ذو شقين:

الشق الأول: أملهم بطول الأجل في الحياة الدنيا، ومن هذا الأمل يتفرّع أمل آخر، وهو أملهم باغتنام أكبر قدر يتصوّرونه من لذات الحياة الدنيا وزينتها، وهذا الأمل يجرهم إلى الكدح سعياً في مناكب الأرض بكل طاقاتهم الجسمية والفكرية والنفسية، ليجمعوا منها ما به يستمتعون، ثمّ هم يلتقطون بعد الساعات الطويلة من الكدح المضني لحظات لذّة ومتعة، منغضة بأكدار كثيرة، أو غير منغضة إلّا أنها عابرة قصيرة تثير في أنفسهم آمالاً أوسع. ثم يسلمون أنفسهم إلى الرقاد الذي هو بمثابة الموت بالنسبة إلى الشعور، فإذا استيقظوا واصلوا أعمال الكدح أملاً بأن يجمعوا ما به يستمتعون.

وتتشابه الأيّام، وتمرّ الأعوام، ويظلّ الأمل أسبق من الكدح، وكلّما ضاعف الإنسان من كدحه اشتدّ أمله يَعْدو أمامه، فلا هو يغيب عن ناظره ببعده حتى ينقطع عنه، ولا هو يدنو منه حتى يقبض عليه ويشعر بأنه قد ظفر به، ولكن بين بين، وقد يدنو منه ليلهب نار طمعه، فإذا كان منه عند ملمس رؤوس الأنامل ابتعد عنه، كمن يدنو من الشاطىء في البحر، حتى إذا كاد أن يلمسه جذبته موجة إلى غَمْر العباب، فأبعدته عنه، وتتكرّر القصة وهو مشغول بالأمل، لاهٍ بالعمل له عن كلّ عمل، حتى تنتهي مدّة الامتحان ويحين الأجل، وحينئذٍ تنقطع الآمال، وتنتهي الحياة الأولى، ويأتي دور الحساب والجزاء.

الشقّ الثاني: أملٌ احتمالي بما بعد الموت، وهو أمل تركّبه في نفوسهم وساوس الشياطين، وقد عبّر عنه صاحب الجنتين الذي قال لصاحبه وهو يحاوره: ﴿وما أظنّ الساعة قائمة ولئن رُددت إلى ربّـي لأجدنّ خيراً منها منقلباً﴾.

وهذا الأمل الاحتمالي ينخدع به كثير من الكافرين المترفين الموسّع لهم في الحياة الدنيا وقد سقط في فخّه صاحب الجنتين هذا، كما أوضحت لنا قصته سورة الكهف.

هذا أمل الذين كفروا باليوم الآخر، أمّا المؤمنون فلهم من هذا الأمل ظلال دون الكفر، وأملٌ بطول الأجل وإصلاح العمل في المستقبل، وأمل بعفو الله ورحمته وغفرانه مهما ارتكبوا من صغائر الذنوب وكبائرها، ثم تأتيهم مناياهم وهم في غفلاتهم ومعاصيهم مقيمون، وعن الله وذكره معرضون.

من دوافع الحرص على الدنيا وزينتها الرغبة بالتنافس وحب التفاخر:

عنصر التفاخر والتنافس بين الناس فيما يملكون من الدنيا وزينتها ومتاعها وزخرفها، هو الداء الدويّ والمرض القوي الذي يستولي على مشاعر معظم الناس، على اختلاف فئاتهم وطبقاتهم.

والمعافى من هذا الداء كالجوهرة الفريدة عديمة النظير، أو نظيرها نادر ليس بالكثير.

وهذا الداء هو الداء الخطير الذي أصاب المسلمين ففرّق كلمتهم، وشتت شملهم، وأفسد بين قلوبهم، وكان الجرثومة التي نشرت بينهم أوبئة التحاسد والتباغض والتصارع ثم التقاتل.

وطبيعي فيمن يقطع نظره عن الآخرة وما فيها، ويحصر نظره في الدنيا وزينتها، أن لا يتعلق هواه إلاّ بها، وعندئذ يحبّها حبّ الهائم، ولا يحذر في حبّها لومة لائم، ولا يطيع فيه نصيحة بصير عالم، ويظل وراءها في سعيٍ دائم، ومع طلاّبها وعشّاقها في تنافس وخصام، وتزاحم وصدام، ومعارك لها بداية وليس لها ختام.

وسائل التربية الإسلامية:

الوسيلة الأولى: وقد عالج الإسلام هذا الداء بصدق الإيمان بالدّار الآخرة وما فيها، وبالتذكير الدائم بها، وبما فيها من نعيم وعذاب، وجنة ونار.

فالغفلة عن الآخرة تورث التعلّق الكامل بالدنيا، ولذلك نلاحظ أنّ أكبر علّة تجعل الكافرين يتنكّبون صراط الهداية والخير هو كفرهم بالآخرة وما فيها، وظلال هذا الانحراف الذي يسببه الكفر بالآخرة تمتد إلى الذين يغفلون عن الآخرة ولا يضعونها في حسابهم دائماً.

قال الله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

أي: فصراط الهداية الذي تدعوهم إليه يا محمد يتنكّبُه ويعدلُ عنه الذين لا يؤمنون بالآخرة.

والذين لا يؤمنون بالآخرة تـزيّن لهم أعمالهم السيئة، لأنهم يتعلّقون بالدنيا وحدودها تعلّقاً كلياً، فتنطمس بصائرهم عن رؤية الحقيقة، فيسيرون مع أهواء أنفسهم بِعَمَهٍ شديد، فيهوون إلى الهلاك، وهم يحسبون أنّهم يلهون ويتمتعون في أرجوحة الحياة الدنيا ولذّاتها، قال الله تعالى في سورة (النمل ٢٧):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

والذين يغفلون من المؤمنين عن الآخرة يصيبهم نصيب من داء الكافرين بها، فتزيّن لهم أعمالهم السيئة، وينطلقون في زينة الحياة الدنيا وقد عشيت أبصارهم، وغُشّي على بصائرهم.

إنّ الإيمان الصادق بالآخرة، وإحضار هذا العنصر الإيماني في ساحة التصور، من شأنه أن يحوّل دوافع التنافس في نفوس الناس إليها، وبالتحول إلى التنافس في الخير يستقيم سلوك الإنسان وتصحّ مسيرته في الحياة الدنيا.

الوسيلة الثانية: ومن هذا نلاحظ أنّ من وسائل التربية الإسلامية وسيلة التحويل، الذي لا تُضغط فيه الطاقات، وإنّما تُوجّه في المسير النافع وهي عاملة منطلقة، فلا يحدث صدّها كبتاً، بل يستفاد من انطلاقها في فعل الخير.

إنّ خطة التحويل هي من أنجع الوسائل التربوية لإصلاح الأخلاق وتقويم السلوك، وقد اعتمد الإسلام على وسيلة التحويل لتخفيف التنافس على الدنيا من نفوس المسلمين، وبهذا التحويل استطاع أن يمتصّ كثيـراً ممّا في

الأنفس، بصرفه إلى ميادين التنافس في العمل الصالح، للظفر بالمغانم العظيمة المدخرة للذين آمنوا وعملوا الصالحات في الدار الآخرة دار الجزاء. وبهذا استطاعت التربية الإسلامية أن تجعل المسلمين الأولين ومن تبعهم بإحسان أكثر الناس استقامة على صراط الهداية والخير في الحياة الدنيا.

وهذه الوسيلة التربوية نافعة جداً في مختلف مجالات التربيـة للصغار والكبار.

كثيراً ما يتخاصم الصغار على لعب تافهة صغيرة، وقد يصل الخصام بينهم إلى ضجيج وتقاتل مقلق للراحة، وقد يصل بهم الحال إلى أن يؤذي بعضهم بعضاً، ويعتدي بعضهم على بعض، بدافع التنافس بينهم، ليظفر كلّ منهم باللعب التي لا ترضي مطامع الجميع، ويتدخل المربّـي الحكيم بأسلوبه البارع، فيحوّل نظرهم عن اللعب الصغيرة إلى ما هو أهمّ وأكثر تأثيراً على نفوسهم، كرياضة يشترك معهم فيها، أو قصة شائقة يحكيها لهم، وعندئذ يجدهم قد ألقوا اللعب من أيديهم وطرحوها أرضاً، وانقطع تنافسهم عليها، ويرسل المربـي الحكيم من يجمع اللّعب ويُخفيها، وتنحلّ المشكلة.

وبوسيلة التحويل وجدنا أصحاب الرسول ﷺ قد أخذوا يتنافسون في السبق إلى أعمال الخير تسابقاً عجيباً، ويغبط بعضهم بعضاً على الأعمال الصالحات، وقد انقطعت أنظارهم عن التنافس في الدنيا لاغتنام زينتها ومتاعها ولذّاتها.

ويظهر لنا هذا التنافس الذي تحوّل إلى التنافس في الخير، فيما رواه البخاري ومسلم عن أبـي هريرة، أنّ فقراء المهاجرين أتَـوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدّثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم، فقال: «وما ذاك؟»، فقالوا: يصلّون كما نُصلّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدّقون ولا نتصدّق، ويعتقون ولا نُعتق، فقال رسول الله ﷺ:

«أفلا أعلّمكم شيئاً تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم، إلاّ من صنع مثل ما صنعتم؟».

قالوا: بلى يا رسول الله. قال:

«تسبّحون وتكبّرون وتحمدون دبُر كلّ صلاة ثلاثاً وثلاثين مرّة».

فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ:

«ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

أهل الدثور: أي أهل الأموال الكثيرة وأصحاب الغنى.

الوسيلة الثالثة: من وسائل التربية التي اتخذها الإسلام لمنع نظرات التنافس في واقع حياتي لا بدّ أن يُوجد فيه تفاضل بين الناس في حظوظهم من الحياة الدنيا، تربية القناعة في النفس، والرضى بقضاء الله وقدره، واعتقاد أنّ ما قدّره الله للعبد هو الأفضل له، وهو الخير له ممّا تشتهيه نفسه وتتطلع إليه، والبصيرة الحقة بحقيقة، سورة (البقرة ٢):

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾.

الوسيلة الرابعة: ومن وسائل التربية معالجة الإنسان نفسه بالنظر إلى من هو دونه في الحياة الدنيا؛ عندئذ يجد نفسه مفضّلاً على كثير من عباد الله في نعم كثيرة. وقد أرشدنا الرسول ﷺ إلى هذه الوسيلة، فقد روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم».

وفي رواية عند البخاري:

«إذا نظر أحدكم إلى من فُضّل عليه في المال والْخَلْقِ فلينظر إلى من هو أسفل منه».

الوسيلة الخامسة: ومن وسائل التربية التحرّر من العبودية للدنيا وزينتها،

وسلطان أموالها وشهواتها، بتقوية الإرادة، وتغذية مشاعر عزّة النفس، وتصعيد مطالبها عن الفانيات إلى الباقيات الخالدات.

وفي تحرير المسلم من العبودية للدنيا ومظاهرها، روى البخاري، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال:

«تَعِس عبد الدينار والدرّهم والقطيفة والخميصة، إنْ أعطي رضي، وإن لم يُعطَ لم يرضَ».

الخميصة: نوع نفيس من الثياب الصوفية المخطّطة، كانت معروفة بنفاستها، كما أن القطيفة كانت من نفيس الثياب[1].

الوسيلة السادسة: ومن وسائل التربية الإيمان بالتعويض المضاعف للمؤمنين الذين لا يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، ومن التعويض الثابت في البيانات الإسلامية ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس وعمران بن الحصين، أن النبي ﷺ قال:

«اطّلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء».

فالغنى كثيراً ما يولّد نفسيّة الطغيان، والطغيان يقذف صاحبه في النار، أمّا النساء فلكثرة انحرافهنّ عن صراط الله وطغيانهن بسلطان أنوثتهن واستخدام ذلك في فتنة الرجال، وفي ألوان شتى من الظلم.

وروى البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ قال:

«قمتُ على باب الجنة فكان عامّة من دخلها المساكين، وأصحاب الْجَدّ محبوسون، غير أنّ أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار».

أصحاب الْجد: هم أصحاب الحظّ والغنى في الدنيا، ويحبسون لسؤالهم عن أموالهم من أين اكتسبوها وكيف أنفقوها.

---

(١) تشبه ما يسمى في عصرنا بالمخمل.

وروى الترمذي بإسناد صحيح عن أبـي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال:

«يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام».

وإنه لتعويض مُجزٍ جدّاً عن فقر في عمر محدود، وذلك لمن آمن وصبر ورضي عن الله.

الوسيلة السابعة: ومن وسائل التربية الاقتناع بأنّ مال الإنسان هو ما انتفع به في الدنيا، وما ادّخَره عند الله ببذل صالح في صدقة ترضي الله تعالى أو جهاد في سبيله، أو أيّ طاعة من الطاعات، وأيّ وجه من وجوه الخير والبر. وفي الإقناع الإسلامي بهذه الحقيقة، روى مسلم عن عبدالله بن الشِّخِّير قال: أتيتُ النبـي ﷺ وهو يقرأ: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ قال:

«يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلاّ ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدّقت فأمضيت؟!».

فحقوق الإنسان الأساسية من الرزق في الدنيا محصورة بضروريات معاشه، وأمّا ما عدا ذلك فزيادة ورفاهية، إذ الدنيا بمثابة قاعة امتحان، لا حقّ للممتحن فيها بأكثر من حاجاته الأساسية الضرورية، أمّا دار النعيم فهي دار الجزاء الأكبر يوم الدين، وتلك الدار هي محل التطلّع السامي بالنسبة إلى المؤمنين، وطريقهم إليها هو العمل الصالح في الحياة الدنيا، وعدم تعلق القلب بها.

وروى الترمذي بإسناد صحيح عن عثمان بن عفان، أن النبـي ﷺ قال:

«ليس لابن آدم حقٌ في سوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يواري عورته، وجلفُ الخبز والماء».

جلف الخبز: أي خبز ليس معه إدام، أو هو غليظ الخبز.

الوسيلة الثامنة: ومن وسائل التربية الاقتناع بأن الدنيا مزرعة للآخرة، وأنها ليست دار إقامة، وأهلها فيها عابرو سبيل، وفي التربية على هذه القناعة، روى البخاري عن عبدالله بن عمر قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبـي فقال:

«كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

وحين يتبصر المسلم بمختلف هذه الحقائق الإيمانية عن الدنيا والآخرة، لا يرى الدنيا إلا بمثابة السجن الذي يضيق به وينتظر الخلاص منه، بعد أن يؤدي فيه وظيفته خير أداء، ويغنم في مرحلته أكبر قدر مستطاع من العمل الصالح، وهذا ما بيّنه الرسول ﷺ بقوله فيما رواه مسلم عن أبـي هريرة:

«الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر».

فمن سيطرت على مشاعره هذه البصيرة الإيمانية، زهد في الدنيا زهد القلب لا تَزهُّد الظاهر.

ومن قطع علائق قلبه من زينة الحياة الدنيا ومتاعها، وتوجّه إلى الله صادقاً أحبّه الله، لأنه برهن بذلك على أن أصباغ الدنيا وألوانها ومفاتنها لم تخدعه عن الحقيقة، ولم تصرفه عن النعيم المقرون برضوان الله، مهما كان في يده منها، ومهما مشى في مناكبها طلباً للبلغة وإعفاف النفس، وقياماً بواجب السعي، وابتغاء لمرضاة الله في البذل والإنفاق.

ومن قطع علائق قلبه مما في أيدي الناس أحبّه الناس، لأنهم يرون فيه الرجل الذي لا يكلفهم من أموالهم شيئاً، ولا ينافسهم، ولا يحسدهم على ما آتاهم الله من فضله ليبلوهم، فهم لذلك يحبونه.

وفي هذا روى ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة، عن سهل بن سعد الساعدي قال: جاء رجل إلى النبـي ﷺ فقال: يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس، فقال:

«ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس».

مصعب بن عمير وزهده في الدنيا بعد إسلامه:

لّما صدق مصعب بن عمير في إيمانه، وقد كان من قبل آنق شباب مكة وأحسنهم ثياباً وعطراً، نظر إلى الدنيا التي كان من قبل متعلقاً بها، فرآها لا تستحق إيثاراً على الآخرة، ورأى أن طريق الآخرة جهاد وصبر وتحمّل

للمشقات، فخاض غمار هذه الطريق الشاقة الحلوة في قلوب المؤمنين، وهاجر داعياً إلى الله، وسعى في يثرب معلماً مناضلاً قبل هجرة المسلمين والرسول إليها، فشقّ الطريق ومهد الأرض، وهيّأ بتوفيق الله الأوس والخزرج تهييئاً حسناً، لاستقبال هجرة المسلمين والرسول ﷺ إليهم، حتى كانت الهجرة النبوية وبدأت غزوات الرسول ﷺ، واشتدت ضراوة عداء المشركين لدعوة الحق، وكانت معركة أحد، وكان في القتلى الداعية الإسلامي العظيم مصعب بن عمير، فلم يجدوا من ثيابه لكفنه غير نمرة إذا غطّوا بها رأسه بدت رجلاه وإذا غطوا بها رجليه بدا رأسه!!.

روى البخاري ومسلم عن خباب بن الأرت قال: هاجرنا مع رسول الله ﷺ نلتمس وجه الله تعالى، فوقع أجرنا على الله، فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئاً، منهم مصعب بن عمير رضي الله عنه ـ قتل يوم أحد وترك نَمرة، فكنّا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه، وإذا غطّينا بها رجليه بدا رأسه، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطي رأسه ونجعل على رجليه شيئاً من الإذخر ـ ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها.

يَهْدبها: أي يقطفها.

ـ ٩ ـ
الحزم في الأمور

ومن ظواهر خلق علوّ الهمة الأخذ بالحزم في الأمور، والقيام بما يجمل ويحسن من أعمال دون تسويف ولا تأجيل عند القدرة على التنفيذ.

وقد حثّ الإسلام على هذه الظاهرة الخلقية التي تنبع من خلق علو الهمة وكمال العقل، وحبّب إلى المسلمين الكياسة وحذّرهم ونفّرهم من العجز والتسويف.

إنّ العاقل الحصيف ذا الإرادة القوية يعلم أن عمره رأس مال حياته، وأنه لا يمكن ادّخاره، فهو يجري بنفسه دون أن يستطيع مالكه حبسه، فإمّا أن

يغنمه بعمل صالح يستطيع ادّخاره ليسعد به، وإمّا أن يدعه يجري بدداً دون أن يغنم منه شيئاً، وإما أن يجني فيه على نفسه.

وحين يعلم العاقل الحصيف ذو الإرادة القوية هذه الحقيقة فإنه سيختار لنفسه الحزم، والكياسة، فيغنم ما يجري من عمره بما يستطيع من أعمال صالحات، ويبادر إليها بحزم، ويغتنم فُرصه التي إذا مرّت لم يكن لها عوض.

والشباب والصحة والفراغ والقدرة على العمل كلّ هذه مغانم متى مرّ عليها الزمن دون انتفاع منها ضاعت من يد صاحبها، وفرّت دون أن يستطيع القبض عليها، ثم صارت أخباراً تروى، وذكريات لا وجود لها إلا في الخواطر المتحسّرة النادمة، وأزماناً ماضية لا رجعة لها، ويجترّ فاقدها الندم عليها ولكن لات ساعة مندم، زمن مضى، وشباب ولّى، وقوّة ضعفت، فكيف الرجعة؟!.

ثم إذا انقضى العمر كلّه ولم يغتنم فيه صاحبه عملاً صالحاً، حلّ به الخسران المبين، والندم المحدق والمحرق للقلوب على ما فات، ولكن هيهات هيهات.

وقد صور القرآن حالة هذا الخاسر، إذ يجد نفسه وقد ضيّع ما كان باستطاعته أن يغنم به نجاته وسعادته، فيطلب من ربّه الرجعة ليعمل عملاً صالحاً فيما ترك، ولكنْ حُمّ القضاء فلا رجعة إلى الدنيا، إنّ إلى الله الرجعى.

وهذا الطلب يطلبه الخاسر إذا جاءه الموت، قبل مفارقة روحه جسده، ويطلبه إذا مات وانفصلت روحه عن جسده، ويطلبه في موقف الحساب يوم القيامة ويطلبه حين يوقف على النار ليلاقي مصيره الأليم، ويجاب عليها جميعاً بالرفض.

وقد دلّ على هذا الطلب في المرحلة الأولى قول الله تعالى في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

ففي هذا النص تصوير لطلب تأخير الأجل في حالة الغرغرة مع نزول مصيبة الموت.

ودل على هذا الطلب في المرحلة الثانية عند الموت وبعد انفصال الروح عن الجسد، قول الله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

ففي هذا النص تصوير لطلب الرجعة إلى الحياة الدنيا بعد الموت، لاستئناف حياة الابتلاء، حتى يعمل الخاسر صالحاً فيما ترك، ولكنه يزجر ويرفض طلبه.

ودلّ على طلب الرجعة إلى الحياة الدنيا في موقف الحساب قول الله تعالى في سورة (السجدة ٣٢):

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

ففي هذا النص تصوير لطلب الرجعة إلى الحياة الدنيا حينما يقف المجرمون عند ربّهم في موقف الحساب.

والسبب في رفض طلب الرجعة أنهم لو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه، ولم يستقيموا، لأنهم لو ردّوا للامتحان فسيردّون وقد محيت من ذاكرتهم صورة الحياة الآخرة، وبذلك يرجعون لاستئناف ما بدأوه في الامتحان الأول، قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

فالعاقل الكيّس هو الذي يغتنم فرصة عمره في الحياة الدنيا فيملأه بصالح العمل.

والعاجز الأحمق هو الذي يتبع نفسه هواها، ويتمنى على الله الأماني، والأماني وحدها لا تنفع صاحبها ما لم تصاحبها أعمال صالحات من شأنها أن تحقق في سنن الله الأماني المطلوبة.

وفي توجيه الإسلام إلى الكياسة والحزم والخلاص من العجز وضعف الإرادة واتباع الهوى يقول الرسول ﷺ فيما رواه الترمذي وابن ماجه عن شداد بن أوس:

«الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله».

الكيّس: هو العاقل الحازم الذي يعمل أحسن عمل ينفعه، ويقابله العاجز ضعيف الإرادة الذي يتبع أهواء نفسه فلا عقل ولا حزم عنده.

والعجز إذا كان عجزاً جسديّاً فإنّ الله يعذر به ولا يؤاخذ عليه، وصاحبه في زمرة الضعفاء، أما العجز الإرادي وهو الذي يفقد صاحبه الحزم في الأمور، فإنّ الله يؤاخذ عليه، وهو من مجالات الابتلاء في الحياة الدنيا، روى أبو داود عن عوف بن مالك، أن النبي ﷺ قضى بين رجلين فقال المقضي عليه لما أدبر: حسبي الله ونعم الوكيل. فقال النبي ﷺ: «إنّ الله تعالى يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمرٌ فقل: حسبي الله ونعم الوكيل».

ومن التوجيهات النبوية لاغتنام أعظم ما يملكه الإنسان في حياته بالعمل الصالح، جاء في كلام الرسول ﷺ:

«اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك».

وفي المبادرة بالأعمال الصالحة، روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«بادروا بالأعمال الصالحة فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا».

ـ ١٠ ـ
اشتغال
الإنسان بما يعنيه
وانصرافه عما لا يعنيه

من ظواهر خلق علو الهمة أن يشتغل الإنسان بما يعنيه ويترك ما لا يعنيه، فاشتغال الإنسان بما لا يعنيه فضول يضيّع به وقته الذي هو رأس مال حياته، وهو يدلّ على نقص العقل أو غلبة الهوى، وحينما يعجز الإنسان عن ملء وقته بما يعنيه، أي بما ينفعه ويفيده في دنياه وآخرته، يحاول أن يملأ فراغه بما لا يعنيه ولا يفيده في دنياه ولا آخرته.

واشتغال الإنسان بما لا يعنيه لهوٌ أو شبهه، بل هو في بعض الأحيان لا يقتصر على كونه مضيعة للوقت بما لا فائدة فيه للجسم أو للعقل أو للنفس، ولكن يزيد على ذلك فيكون جنايةً على الجسم والعقل والنفس وظلماً لها، إذ يجلب لها مضرة عاجلة أو آجلة.

ولـذلك قال رسول الله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».
(رواه مالك وأحمد عن علي بن الحسين بإسناد صحيح)

ومن اشتغال الإنسان بما لا يعنيه أن يغتاب أخاه المؤمن بغية تهديم مكانته بين الناس، فيجني المغتاب بذلك على نفسه عند الله إثمَ ذِكرِهِ أخاه بما يكره.

ومن اشتغال الإنسان بما لا يعنيه أن يكون نمّاماً، يمشي بين النـاس بالنميمة فيجني بذلك على نفسه عند الله، إذ يكسب إثم السعي بين الناس بالفساد.

ولذلك يترفّع المؤمن العاقل عالي الهمة عن هذه القبائح، فلا يشغل نفسه بما لا يعنيه، بل يرى أنّ ممّا يعنيه أن لا يشتغل بما يضرّه ويؤذيه عند الله.

من أجل ذلك يترفع عباد الرحمن عن محاورة الجاهلين، والخوض معهم في أحاديث الجهل، ويترفعون عن اللغو، ويترفعون عن لهو الحديث، لأنّهم يعرضون عمّا لا يعنيهم، ولا يشغلون أنفسهم إلاّ بما يفيدهم في آخرتهم، أو يفيدهم في دنياهم في حدود ما أذن الله لهم به.

وفي وصفهم يقول الله تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾.

إنه لما كان خطاب الجاهلين من الأمور التي لا تعني عباد الرحمن في شيء، لأنها لا تنفعهم في دنيا ولا آخرة، كان من واجبهم أن يعرضوا عنها ويقولوا للجاهلين: سلاماً عليكم، وينصرفوا عن مجالستهم، إذا لم يجدوا سبيلاً إلى نصحهم وإرشادهم حتى يقلعوا عن جهلهم، ولا بد أن يكون هؤلاء الجاهلون من صنف السفهاء الذين يخاطبون عباد الرحمن بالسوء من القول، فيشتمون، أو يُقذعون، أو يتهكمون ويسخرون، والجهل هنا من نوع الجهل الذي ورد في قول الشاعر العربي:

ألا لا يجهلنْ أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وليس هو الجهل المقابل للعلم، ولو كان من هذا النوع لكان من وظيفة عباد الرحمن تجاهه تعليم الجاهل، ونصيحته وإرشاده، فالتعليم والنصح والإرشاد ممّا يعني المؤمن، إذ ينفعه عند الله ما ينال عليه من أجر عظيم، وثواب جزيل، وكرامة عالية.

وفي وصف عباد الرحمن يقول الله تعالى أيضاً في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾.

فمن أوصاف عباد الرحمن أنهم إذا مروا في حياتهم بأمر من أمور اللغو قولاً كان أو عملاً أعرضوا عنه، وكرّموا أنفسهم عن النزول إلى مستواه، لأنّ

همتهم عليّة، ولم يسمحوا لأنفسهم بأن تضيّع في سبيله شيئاً من أوقات عمرهم، فزمنهم عندهم ثمين، ليس فيه محلّ للغو ولا للهو.

أما اللغو فهو كل ما يجب أن يلغى ويطرح ممّا لا خير فيه، ويقول أهل اللغة: اللغو: السّقط وما لا يعتدّ به من كلام وغيره، ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع.

فالاشتغال باللغو اشتغال بما لا يعني، وعباد الرحمن عقلاء أهل حصافة وبصر نافذ، لذلك فهم يكرّمون أنفسهم وأوقاتهم عن الاشتغال بما لا ينفع ولا فائدة فيه لهم في آخرة ولا في دنيا مباحة.

أما الذين لا عقل لهم يبصرهم بما ينفعهم، ويكبح جماح أهوائهم وشهواتهم، ولا حصافة عندهم تجعلهم يحرصون على ما فيه منفعتهم وفائدتهم، فهم يتبعون اللغو واللهو والمساخر، ويبذلون في ذلك أموالهم وحياتهم، ويضيّعون عمرهم وطاقاتهم سدى، ولو عقلوا لسعوا فيما فيه فائدتهم ومنفعتهم العاجلة أو الآجالة وكلما زاد عقل الإنسان كان حرصه الأكبر على أعظم خير يمكن أن يناله بعمله، ألا وهو خير الآخرة.

وهذا الصنف من الناس الذين لا عقل لهم يبصرهم بما ينفعهم، قد ذكره الله تعالى بقوله في سورة (لقمان ٣١):

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ﴾.

فهذا صنف من الناس لا يكتفي بأن يضيع وقته في لهو الحديث، بل هو يشتريه بماله، ولا يكتفي أيضاً بذلك، بل غرضه منه أن يضلّ عن سبيل الله، ويتخذ سبيل الله هزواً.

— ١١ —

لـــواحـــق

من غرائب التوجيه إلى خلق علو الهمة، ما جاء في كلام الرسول ﷺ من أن الله تبارك وتعالى يحب العطاس ويكره التثاؤب، فقد روى البخاري عن أبـي هريرة، أن النبـي ﷺ قال:

«إنّ الله يحب العطاس ويكره التثاؤب، فإذا عطس أحدكم وحمد الله تعالى كان حقاً على كل مسلم سمعه أن يقول له: يرحمك الله، أما التثاؤب فإنما هو من الشيطان، فإذا تثاءب أحدكم فليردّه ما استطاع، فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك منه الشيطان».

وفي رواية عند مسلم: «فإنّ أحدكم إذا قال: ها. ضحك الشيطان منه».

فالعطاس الذي لا يكون عن مرض كالزكام مثلاً، هزة عصبية موقظة للنشاط والعمل، والنشاط والعمل من علوّ الهمة النفسية والجسدية، بخلاف التثاؤب، فهو ظاهرة من ظواهر الفتور والكسل، وميل الأعصاب إلى الاسترخاء والإخلاد إلى الراحة، وعزوف النفس عمّا يحرّكها للعمل والإنتاج، وكل ذلك من نزول الهمة.

ولذلك جعل الرسول ﷺ التثاؤب من الشيطان، أي مما يرضي الشيطان ويسرّه من الإنسان، تنفيراً منه، وليدفعه المسلم عن نفسه ما استطاع، حتى لا يقع فريسة لمثبطات الشيطان، ولما يحب من عجز وكسل، وتوانٍ عن العمل، وفتور في الهمة.

ولما كان العطاس الذي لا يكون ظاهرة مرضية دالاً على حركة عصبية باعثة على اليقظة والنشاط، وكان أمراً انفعالياً غير إرادي، كان حقاً على العاطس أن يحمد الله عليه، لأنه نعمة ربّانيّة جاءته لتوقظه وتنشطه إلى العمل، وكان حقاً على من سمعه من المسلمين أن يشاركه السرور بهذه الرحمة الربانية التي جاءته، فيدعو له بأن يرحمه الله.

كما أنه مناسبة يتصيدها المؤمن ليذكر الله عندها، ويتصيدها جلساؤه ليدعوا له بالرحمة، فتشتدّ بين المؤمنين أواصر المودة وروابط الأخوة، وهذا من عناصر المشاركة الجماعية في الإسلام، التي تتبع كل صغيرة وكبيرة.

أما التثاؤب فلما كان عنواناً للكسل والخمول وتواني الهمة، فهو بهذا المعنى نقص عن الكمال ونزول في الهمة، ومن أجل ذلك كان من الأدب الإسلامي أن يردّه المسلم عن نفسه ما استطاع، وكان من أدب جليسه أن يعرض عنه ويتجاهله، وينطلق فيما هو فيه كأنه لم يعلمه من جليسه، فالمسلمون يفرح بعضهم لبعض بما يأتيهم من نعمة وكمال، ويغضي بعضهم عن بعض فيما يصيبهم من نقص.

ومن آداب التثاؤب أن يمسك المتثائب بيده على فمه، ليستر منظر فتح الفم، وليمنع تأثيرات الشيطان الداعية إلى الكسل، روى مسلم عن أبـي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال:

«إذا تثاءب أحدكم فليمسك بيده على فمه، فإنّ الشيطان يدخل».

أي فإن الشيطان يجد مدخلاً للتأثير بوساوس الكسل.

وفي بيان آداب العاطس وآداب تشميت العاطس، روى البخاري عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله، وليقل له أخوه أو صاحبه: يرحمك الله. فإذا قال له يرحمك الله فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم».

وروى مسلم عن أبـي موسى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمّتوه، وإن لم يحمد فلا تشمتوه».

أي: إذا حمد الله فقولوا له: يرحمكم الله، فهذا هو التشميت.

قال أهل اللغة: تشميت العاطس الدعاء له، قال ابن سيدة: شمّت العاطس وسمّت عليه: دعا له أن لا يكون في حال يشمت به فيها. والسين لغة عن يعقوب وكل داع لأحدٍ فهو مشمّت له ومسمّت، بالشين والسـين، والشين أعلى وأفشى في كلامهم.

وحكي عن ثعلب أنه قال: الأصل فيها السين من السمت وهو القصدُ والهَـدْي[1].

فإذا تكرر العطاس دلّ على أن الـرجل مـزكوم، روى مسلم عن سلمة بن الأكوع، أنه سمع النبـي ﷺ وعطس رجل عنده فقال له: «يرحمك الله» ثم عطس أخرى فقال: «الرجل مزكوم».

* * *

(١) انظر لسان العرب لابن منظور.

الفصل العاشر

ظواهر خلقية لأكثر من أساس خلقي

ـ ١ ـ

العفة وضدّها

العفة: هي كفّ النفس عن المحارم وعمّا لا يجمل بالإنسان فعله. ومنها: العفة عن اقتراف الشهوة المحرمة، وعن أكل المال الحرام، وعن ممارسة ما لا يليق بالإنسان أن يفعله مّما لا يتناسب مع مكانته الاجتماعية، ومّما يراه الناس من الدناءات، كالجشع في الولائم والتسابق على أطايب الطعام، وكالجشع في التجارة ومزاحمة صغار الكَسَبة في مجالاتهم الحقيرة قليلة الموارد والأرباح، وكالتعرّض لمحقرات المنافع عن طريق التطفّل أو ما يشبه التطفّل إلى غير ذلك من أمور كثيرة.

ويأتي في مقابل العفة الدناءة والخسة في كثير من صورها. والعفة من مكارم الأخلاق، والدناءة والخسة وكلّ ما ينافي العفة من رذائل الأخلاق.

ولدى تحليل دوافع العفة نجدها ترجع إلى أكثر من أساس خلقي، وذلك لأننا إذا وضعنا المثيرات، ونظرنا إلى دوافع النفس تجاهها، ثم نظرنا إلى القوة الضابطة التي تضبط النفس عن تلبية دوافعها فيما لا يحل أو فيما لا يجمل بالإنسان فعله، تكشفت لنا مجموعة من العوامل التي ترجع إلى مجموعة من الأسس الأخلاقية.

ولنفرض أنّ في ساحة الإثارة امرأةً ذات منصب وجمال وهي تدعو إلى

نفسها، وأن في ساحة النفس رجولة وشباباً وحيويّة، والفضيلة العامة توجب الامتناع عن تلبية دافع النفس، فما هو الخلق الذي يضبط النفس ويملكها عن تلبية الدافع في مثل هذا الموقف الحرج، حتى يكون الإنسان عفيفاً أو متعفّفاً؟

ولدى التحليل نلاحظ أن عدّة عوامل قد تتدخل في هذا المجال، منها الصبر، ومنها الخوف من عاقبة تلبية الدافع، ومنها الطمع بثواب الكفّ، ومنها حب الحقّ الذي يجعل صاحبه يكفّ عمّا لا حقّ له به.

فبمقدار ما لدى الإرادة من قدرة على الصبر تستطيع القيام بضبط النفس عن تلبية الدافع المُثار، فتكون العفة عندئذٍ من مظاهر خلق الصبر، وحين يكون الضبط بتأثير الخوف من العاقبة، أو بتأثير الطمع بالثواب، تكون العفّة من مظاهر ذلك، وحين يكون الضبط بتأثير خلق حبّ الحقّ تكون العفّة من مظاهره، وحين تجتمع كلّ هذه العوامل تكون العفة مظهراً اشتركت فيه جملة أسس أخلاقية.

والعفة لا تكون إلّا إذا وجد الدافع النفسي إلى ما ينافيها، فإذا لم يكن في النفس دافع إلى ما ينافي العفة، أو لم يوجد ما يثير الدافع لم يكن للعفة وجودٌ أصلاً.

فأي معنى لعفّة من لا إرْب له، أو لعفة معتزل في صومعة لا يتعرّض إلى أي مثير؟! إنّها عفة المحروم، أو عفّة عاجزٍ لم يتعرّض لامتحان.

ولـمّـا كانت عفّة يوسف عليه السلام عفّةً مستوفية كلّ شروطها وأركانها كانت من أعظم أمثلة العفة في تاريخ الإنسان. ففي يوسف الرجولة والشباب والدافع القوي، وفي امرأة العزيز الإثارة بكلّ قواها، جمال ومنصب، وإغراء كامل، ودعوة ملتهبة، وخلوة تامة، وتهديد إن لم يستجب. ومع استيفاء كلّ هذه العوامل القوية تبرز فضيلة العفّة في يوسف عليه السلام، فيضبط نفسه بصبر منقطع النظير، ويقاوم الدوافع والمغريات بإصرار وعزيمة قوية، ترفّعاً عن الخيانة، وطلباً لمرضاة الله، وينتصر خلقه العظيم في معركة الدوافع والمغريات والتهديدات.

وقد عرض القرآن قصة يوسف مع امرأة العزيز أروع عرض يبرز الساحة النفسية عند يوسف، وساحة الإثارة بكلّ ملابساتها، وقوة الضبط الخلقي الذي جعل يوسف عليه السلام يكفّ عما لا يحلّ له، ويعطي أروع أمثلة العفة، فيقول الله تعالى في سورة (يوسف ١٢):

﴿ وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

وهكذا كانت عفّة يوسف عليه السلام مستوفية لكامل شروطها وأركانها، وبذلك نال مجد هذا الخلق العظيم.

وقد أمر الله بالعفة الذين لا يجدون قدرة على النكاح، حتى يغنيهم الله من فضله، ولم يأذن لهم بالتفريط فيها عند حاجتهم العضوية، فقال تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ ﴿٣٣﴾ ﴾.

أي: فليلْزموا جانب العفة، ولا يفعلوا ما لم يأذن به الله. والذين لا يجدون نكاحاً هم الذين لا يجدون قدرة مالية على الزواج. وفي قوله تعالى: ﴿حتى يغنيهم الله من فضله﴾ إشارة إلى أنهم إذا التزموا جانب العفة أغناهم الله من فضله، فيتهيأ لهم بذلك زواج مناسب لهم.

تعفف الفقراء عن المسألة:

وتكون العفّة في مجالات مغريات النفس المالية، وقد أثنى الله تبارك وتعالى

على الفقراء المتعففين عن المسألة، وأوصى بالبحث عنهم وتعهّدهم بالعطاء، فقال تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾.

الإلحاف: هو شدّة الإلحاح في المسألة، وشدّة الإلحاح في الطلب، يقال لغة: ألحف السائل إذا ألحّ في الطلب؛ فمعنى ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾: لا يُلحون في طلب الصدقة من الناس.

وأرشد الله إلى أن هؤلاء المتعففين يُعرفون بسيماهم، فقال: ﴿تعرفهم بسيماهم﴾، فكيف تكون هذه المعرفة لهم مع أنهم متعفّفون؟.

ويمكن أن نجيب بأنّ للفقر الحقيقي علامات تظهر على الإنسان الفقير المتعفف، كما تظهر على أسرته، في الطعام، والملبس، والمسكن، وفي حالة الجسم بشكل عامّ، وفي مراقبة موارد رزقه، إلى غير ذلك من علامات.

وعلى المسلمين أن يبحثوا عن أحوال الفقراء المتعففين، ويمدّوهم بحقوقهم التي فرضها الله في أموال الأغنياء، فهم لا غرو يُعرَفون، يعرفهم من كان دقيق الملاحظة جيد الفراسة، إلاّ أنّ الجاهل هو الذي يحسبهم أغنياء من التعفف، وهذا ما نبّه عليه القرآن.

التعفف عن كل ما وهب الله الآخرين:

ومن العفة عفة الإنسان عن النظر والتطلع إلى ما لدى غيره من متع الحياة الدنيا، من مختلف الأصناف، وفي ذلك يقول الله لرسوله محمد ﷺ في سورة (طه ٢٠):

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾.

وخطاب الرسول في مثل هذا خطابٌ لكلّ مؤمن برسالته.

وفي قوله تعالى: ﴿ولا تمدَّنَّ عينيك﴾ أمر بالعفّة، ونهي عن مجانبة سبيلها.

«أزواجاً» أي أصنافاً مختلفة من زهرة الحياة الدنيا، فيدخل فيها كلّ ما تمتدّ إليه مطامع الناس: (مال ـ سلطان ـ حدائق وبساتين ـ خيلٌ مسوّمة وأنعام ـ قصور ومساكن طيبة ـ زوجات حسان ـ جاه عريض ـ قوة وجمال ـ أولاد وذرّية) إلى غير ذلك من أصناف مختلفات.

وإذْ أمر الله بالعفة لفت الأنظار إلى ما عنده من رزقٍ هو خير وأبقى، وهذا من عناصر التربية القرآنية الحكيمة، وهي التربية بالتحويل والتصعيد.

وضدّ العفة في هذا المجال الحسد، والعفيف يترفع عن رذيلة الحسد، لأنّه لا يمدّ عينيه إلى ما لدى غيره من زهرة الحياة الدنيا، كما أن غير العفيف الذي يمدّ عينيه إلى شيء غيره هو في الغالب حسود، أو ذو عدوان.

ومن لا عفّة عنده يسقط في الخيانة، سواء أكانت خيانة مالٍ أو عرضٍ أو غير ذلك.

والعفيف المتعفف مع حاجته من أهل الجنة، والخوّان من أهل النار، روى مسلم عن عياض بنِ حمارٍ قال: قال رسول الله ﷺ:

«أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطانٍ مقسط متصدّق موفق، ورجلٌ رحيم رقيق القلب لكلّ ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفّف ذو عيال. وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ له الذين هم فيكم تَبَعٌ لا يبغون أهلاً ولا مالاً. والخائن الذي لا يخفى له طمعٌ وإن دقّ إلّا خانه. ورجلٌ لا يصبح ولا يمسي إلّا وهو يخادعك عن أهلك ومالك. وذكر البخل أو الكذب. ثم قال: والشّنْظيرُ الفحاش».

لا زبر له: أي لا عقل له يعقله عن المعاصي والآثام.
الشنظير الْفَحَّاش: هو سيءُ الخُلُقِ بذيء اللّسان.

— ٢ —

الشجاعــة والجـــبن

الشجاعة المحمودة هي الإقدام بعقل في مخاطرة يرجى منها خير أو دفع شرّ.

ويمكن تعريفها بأنها قوة في عزيمة النفس تدفع إلى الإقدام بعقل في مخاطرة بعمل أو قول لتحصيل خير أو دفع شرّ مع ما في ذلك من توقع هلاك أو مضرة يقيناً أو ظناً.

وبملاحظة قيود هذا التعريف يتبين لنا أن الإقدام بغير عقلٍ جنون أو شبيه به، وأنّ الإقدام في غير مخاطرة لا يعتبر من الشجاعة بل هو نشاط وهمة، وأنّ الإقدام لا لتحصيل خير أو دفع شرّ لا يعتبر شجاعة محمودة، بل هـو تهور مذموم.

فالمنتحر يقدم على ما فيه هلاكه، ولكنّ عمله ليس شجاعة، إنما هو جنونٌ أو جنوح في العقل، أو جبن وفرار من مواجهة صدمة عنيفة مؤلمة من صدمات الحياة، لأنه إقدامٌ لشرٍّ لا خير فيه، بخلاف التضحية بالنفس عن عقل لإعلاء كلمة الله، ومقارعة أعداء الله، فهو من أعلى مراتب الشجاعة، لأنه جودُ بالنفس، والجود بالنفس أقصى غاية الجود، وهو جود في خير عظيم.

ولدى التأمل بغية تحليل الشجاعة إلى عناصرها النفسية الأساسية نلاحظ ما يلي:

إذا اجتمعت رغبة جامحة بتحقّق مطلوب ما مع غشاوة تحجب صورة المخاوف المرتقبة، أو مع قناعة تهوّن وقوع المخاوف المرتقبة، وقد يقترن بذلك انفعال غضبي، أو انفعال تحدٍّ وتنافس، من ذلك يتكوّن في النفس مركَّبٌ يدفع إلى الإقدام على المخاطر، وهو ما يسمى بالشجاعة، وعلى مقدار اختلاف نِسَب

هذه العناصر تزداد الشجاعة أو تقلّ، ثمّ لا تستمر بعد وقوع الآلام فعلاً إلاّ بأن يدعمها خلق الصبر.

وترتقي نسب الشجاعة بعوامل فطرية يكون بها القلب ثابتاً أمام المخاطر، أو متقبِّضاً لا يمدّ الأعصاب بالقوة المطلوبة.

وفي مقابل الشجاعة يأتي الجبن، ويرجع إلى وضوح رؤية المخاوف المرتقبة في التصور ولو على سبيل التوهم، مع ضعف أو عدم وجود القناعة الخاصة التي تهوّن المخاوف المرتقبة، ومع برود الانفعال الغضبي، وضعف انفعال التنافس أو التحدي، وتزداد نسبة الجبن بعوامل فطرية يكون بها القلب سريع التأثر بالمخاوف أو بتصوراتها ولو كانت أوهاماً غير واقعية.

وحين يفقد الشجاع عنصر الصبر يفقد شجاعته عند نزول الآلام التي لا يصبر على تحمُّلها، فيكون شجاعاً في الأوائل جباناً في الأواخر، فالصبر على تحمّل المكاره التي يجرها الإقدام عن عقل وحكمة هو الذي يحافظ على استمرار خلق الشجاعة في النفس، وقد تكون الحاجة إلى الصبر مقترنة بأول مراحل الشجاعة.

وقد توجد الشجاعة في الإقدام إلى مخاطر لا تقضي الحكمة الفكرية السليمة بجواز الإقدام إليها، لأنّ الخير الذي يرجى أن يتحقق بهذا الإقدام، أو الشر الذي يرجى أن يدفع بهذا الإقدام، لا يكافىء تحمّل المخاطر المرتقبة، ولكن ذلك يرجع إلى سوء تقدير صاحب هذا الإقدام لما هو فيه من أمر، فلا يكون إقدامه من قبيل التهور أو الجنون، بل هو شجاعة حقيقية، إلاّ أنّ الفكر عنده كان مخطئاً في تقديره، فأشبه العمل عمل المتهورين.

الشجاعة فطريّة ومكتسبة:

ويتفاوت الناس فيما لديهم من شجاعة أو جبن في أصل فطرتهم، فبعض الناس مفطورون على خلق الشجاعة، وبعضهم مفطورون على الجبن، وبعض الناس أشجع من بعض في أصل الفطرة، فللشجاعة عند الشجعان نِسَبٌ متفاوتة. وبعض الناس أجبن من بعض في أصل الفطرة، وللجبن عند الجبناء

نِسَبٌ متفاوتة. وما من شجاعٍ إلّا لديه نسبة ما من الجبن الفطري، وما من جبانٍ إلّا لديه نسبة ما من الشجاعة الفطرية، والتفاوت بين الناس فيما لدى كلٍّ منهم من نسبة من الجبن ونسبة من الشجاعة. كسائر المزدوجات في التكوين النفسي أو التكوين الجسدي، ففي التكوين الجسدي نلاحظ هرمونات الذكورة والأنوثة في كلّ ذكر وأنثى، ومتى غلبت نسبة إحداها الأخرى برزت صفاتها، فإن كانت الغالبة هي هرمونات الذكورة كان الإنسان ذكراً، وإن كانت الغالبة هي هرمونات الأنوثة كان الإنسان أنثى، وعند التساوي يكون الإنسان خنثى، وما من إنسان لا يوجد فيه الصنفان معاً، وتزداد الذكورة كلما ازدادت نسبة هرموناتها في الجسد، وتزداد الأنوثة كلما ازدادت نسبة هرموناتها في الجسد.

كذلك مزدوج الجبن والشجاعة في كلّ إنسان.

اكتساب خلق الشجاعة ووسائله:

وحال خلق الشجاعة في قابليته للاكتساب كحال سائر الأخلاق، فالأخلاق كلّها منها ما هو فطري ومنها ما هو مكتسب، فمن الشجاعة شجاعة فطرية، ومنها شجاعة مكتسبة، ومن الجبن جبن فطري ومنه جبن مكتسب.

ولاكتساب خلق الشجاعة وسائل، منها الوسائل التالية:

الوسيلة الأولى: التدريب العملي بدفع الإنسان إلى المواقف المحرجة التي لا يتخلص منها إلا بأن يتشجع، وينبغي أن يكون ذلك بالمقدار الذي يغذّي خلق الشجاعة، ولا يزيد نسبة الجبن.

الوسيلة الثانية: الإقناع بأنّ معظم مثيرات الجبن لا تعدو أنها أوهام لا حقيقة لها.

الوسيلة الثالثة: القدوة الحسنة وعرض مشاهد الشجعان، وذكر قصصهم، مع تمجيدهم، والثناء عليهم، ومنحهم المكافآت المغرية، لإثارة عنصر المحاكاة، ثم المتابعة، ثم المنافسة.

الوسيلة الرابعة: إثارة دوافع التنافس، ومكافأة الأشجع بعطاءات مادية، مع الثناء والإطراء والتمجيد.

الوسيلة الخامسة: ترسيخ عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، وأنّ الإنسان لن يصيبه إلاّ ما كتب الله له، وترسيخ عقيدة الإيمان باليوم الآخر.

ولـمّا كان التدريب العملي من أفضل الوسائل لاكتساب الأخلاق والمهارات، وجدنا أهل البادية يتمتعون بشجاعة اجتياز المفازات ومقارعة خطوبها، ووجدنا أهل الجبال يتمتعون بشجاعة ارتقاء شواهقها، واختراق عقباتها، ووجدنا أهل الجزر البحرية والسواحل يتمتعون بشجاعة ركوب البحار وخوض غمارها، ومصارعة أمواجها، كلّ ذلك بسبب التدريب العملي الذي يمارسونه بحكم بيئتهم التي تفرض عليهم ظروفاً معينة تغرس فيهم لوناً من ألوان الشجاعة، لا سيما إذا ارتبطت أرزاقهم ووسائل عيشهم بخوض غمار المخاوف.

وللإقناع تأثير فعّال في غرس الأخلاق أو تهذيبها في الأنفس، فمن عرف فضيلة الشجاعة وفوائدها، ورذيلة الجبن ومضاره، تكونت لديه عناصر مهمة مساعدة على اكتساب خلق الشجاعة، وكذلك سائر الأخلاق.

وللقدوة الحسنة وللمشاهدة والقصة أثر إيحائي كبير في الأنفس، فمشاهدة أعمال الشجعان الأبطال، وذكر قصصهم، من الوسائل المساعدة على غرس خلق الشجاعة، وهذا ما كانت تلجأ إليه الأمم في مشاهد البطولات، وفي تداول سير أبطالها وشجعانها، ليغرس ذلك في قلوب ناشئتها خلق الشجاعة.

ولوسيلة التنافس والمكافأة أثر عظيم في التربية بوجه عامّ، ومن ذلك اكتساب الفضائل الخلقية.

أما الإيمان بالله وبمقاديره والإيمان باليوم الآخر فمن أعظم الوسائل لاكتساب فضائل الأخلاق، ومنها خلق الشجاعة، وذلك لأن الإيمان بالقدر خيره وشرّه من الله يورث القلوب طمأنينة تامة تجاه أشد المخاوف وأعتاها، فالمؤمن صادق الإيمان على يقين تام بأنه لن تصيبه مصيبة لم يسبق فيها قضاء من الله وقدر، ولن يستطيع أن يفلت من مصيبة سبق فيها قضاء من الله وقدر، ولذلك لـمّا خرج الرسول بجمهور المسلمين إلى غزوة أحد، وانخزل عنه

المنافقون، وقتل من قتل من المسلمين في هذه الغزوة، أخذ المنافقون يقولون: لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قتل من قتل في أحد، فنزل القرآن بالتربية الإيمانية في هذا المجال، معلناً أنهم لو لم يخرجوا إلى الغزوة لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم، فماتوا في الوقت نفسه الذي ماتوا فيه، فقال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾.

فهذه العقيدة الإيمانية تجعل القلوب في طمأنينة تامة، وتمدها بمدد عظيم من الشجاعة والثبات تجاه أشد المخاوف، لأنها تجعل النفوس مستعدة لتقبل المقادير خيرها وشرها رضى بما يختار الله وهذا يورث القلوب طمأنينة.

والإيمان باليوم الآخر وما أعد الله فيه للمجاهدين في سبيله من كرامة وثواب عظيم، من شأنه أن يعلّق مطامع المؤمنين وآمالهم بما أعدّ الله لهم من أجر عظيم ونعيم مقيم في الدار الآخرة، وهذا يُهون شأن الحياة الدنيا في قلوبهم، ويخفف من حرصهم عليها، وبذلك يضمر جبنهم وتنمو شجاعتهم.

وقد استخدم الإسلام كلّ الوسائل التربوية التي تغذي في قلوب المسلمين ونفوسهم خلق الشجاعة.

فدفعهم إلى مواقع التدرب العملي، بالجهاد في سبيل الله لنشر دين الله، ومقارعة أعداء الله.

وأقنعهم بفوائد الشجاعة ومضارّ الجبن، ورغبهم بالثواب العظيم للمجاهدين في سبيل الله.

ووضع لهم القدوة الحسنة الحيّة في الشجاعة، فكان رسول الله ﷺ أشجع الناس، وقص عليهم قصص بطولات الأنبياء والمرسلين، ومنها شجاعة إبراهيم عليه السلام، وشجاعة داوود عليه السلام.

وكانت حياة الرسول ﷺ بعد الهجرة مشحونة بالتدريب العملي للمسلمين على خلق الشجاعة، فكان يدفع أصحابه باستمرار إلى مواقف البسالة والإقدام، حتى اكتسبوا من خلق الشجاعة ما فاقوا به كل الشجعان، وقصص بطولات الرسول وأصحابه في هذه الحقبة كثيرة.

وكانت حياة الرسول ﷺ قبل الهجرة حياة صعبة جداً، فيها مُقاساة شديدة ومعاناة بالغة، ممّا كانوا يلقونه من المشركين، وكانوا يتلقّون كل ذلك بصبر وشجاعة. وكانت الشجاعة الأدبية التي تعتمد على قول الحقّ في كل المواقف هي السمة المميزة لهذه الفترة من حياة الرسول ﷺ والذين آمنوا معه، وقصص بطولات الرسول ﷺ وأصحابه في هذه الحقبة كثيرة.

واستمر التدريب العملي في المسلمين بعد الرسول ﷺ طوال العصور الإسلامية الذهبية، التي كانت مملوءة بأعمال الجهاد في سبيل الله، بالقول وبالأموال وبالأنفس، حتى جاءت عصور التخلف وأصاب الوهن جماهير المسلمين، فأخلدوا إلى الأرض، وأبطرهم المجد الباذخ والنعيم الوافر، فضعفوا وطمع بهم أعداؤهم الكثيرون، وفقدوا قسماً كبيراً من شجاعتهم التي كانوا يتحلون بها.

ولن يعود للمسلمين مجدهم وما كان لهم من بأس وقوة، حتى يرجعوا إلى أسس دينهم وتعاليمه في السلم والحرب.

وفي توجيه الرسول ﷺ للتدرب العملي نجد عدة نصوص، منها ما روى مسلم عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة، ألاّ إنّ القوة الرمي، ألا إنّ القوة الرمي، ألا إنّ القوة الرمي».

فأمرهم بأن يتدربوا دائماً على الرمي، وإذا عمّمنا كلمة الرمي وجدناها تشمل كل أنواع الرمي التي استحدثت فيما بعد عصر الرسول ﷺ وستستحدث إلى أن تقوم الساعة.

ولقد حث الرسول ﷺ على تعلّم الرمي واستمرار التدرب عليه، ولو كان ذلك على سبيل اللّهو بين المتدربين.

روى مسلم عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه».

أي أن يتدرب على تسديد الهدف فيها ولو على سبيل اللّهو.

وعنه أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من عَلِمَ الرّمي ثمّ تركه فليس منّا، أو فقد عصى».

وروى البخاري عن سلمة بن الأكوع قال: خرج رسول الله ﷺ على قوم من أسلم يتناضلون بالسوق[1]، فقال: «ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً، وأنا مع بني فلان» لأحد الفريقين، فأمسكوا بأيديهم فقال: «ما لكم؟» قالوا: وكيف نرمي وأنت مع بني فلان، قال: «ارموا وأنا معكم كلّكم».

ولـمّـا كانت عوامل الجبن في الأنفس ترجع معظمها إلى حرص الإنسان على الحياة، وكلّما كان الإنسان أشدّ حرصاً على الحياة، كان أشدّ جبناً وضعفاً وخوراً، أو ترجع إلى خوف الإنسان على نفسه من العلل والجراحات والآلام التي قد تصيبه إذا هو غامر في المواطن التي تتطلب الشجاعة، أو ترجع إلى خوف الإنسان على أهله وأولاده من بعده، وبسبب ذلك يدبّ الجبن إلى قلبه، أو ترجع إلى عوامل أخرى فرعية كالأوهام والعقد النفسية؛ وهذه العوامل جميعها باستطاعة الإيمان العميق الصادق أن يهدمها أو يخفّف منها، كما سبق بيانه. يضاف إلى ذلك أن الإيمان بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، وأنّه هو ربّ العالمين والكفيل بأرزاقهم، من شأنه أن يذهب الخوف على الأهل والأولاد ثقة بالله وتوكلاً عليه، ومتى انهدمت عوامل الجبن اشتدت عوامل الشجاعة ودوافعها، فكان الإنسان شجاعاً بعد أن كان جباناً.

والنصوص الإسلامية المشتملة على هذه التربية الإيمانية كثيرة، منها النصوص التالية:

(أ) يقول الله تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

---

(١) أي يتبارون بالرمي في السوق.

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾.

فهذا النصّ يثبت أنه ما من مصيبة تنزل في الأرض ولا في الأنفس إلاّ وقد سبق بها علم الله من قبل أن يخلقها. أي وكذلك ما ينزل من نعمة، بدليل قوله: ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾.

وقد أخبرنا الله بهذه الحقيقة لتكون قلوبنا مطمئنة مستسلمة لله عز وجل، راضية بما تجري به مقاديره، فلا تحزن على ما فاتها ولا تفرح بما أصابت من خير لأنها تعلم أنّ كل ذلك لحكمة أرادها الله سبحانه، ومظاهر حكم الله مختلفة، فمنها نعم ومنها مصائب، وقد دلت النصوص القرآنية على أنّ الغاية العظمى من النعم والمصائب في ظروف هذه الحياة الدنيا إنما هي الابتلاء وهو الامتحان.

(ب) وروى مسلم عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن!.. إنّ أمره كلّه له خير، وليس ذلك لأحد إلاّ للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له».

سرّاء: نعمة أو رخاء أو كل ما يسرّ.

ضرّاء: فقر أو مرض أو محنة وبلية، وكلّ ما يضرّ.

وروى الإمام أحمد بسند صحيح والبيهقي في شعب الإيمان، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجب للمؤمن إن أصابه خير حمد الله وشكر. وإن أصابته مصيبة حمد الله وصبر. فالمؤمن يؤجر في كل أمره، حتى في اللقمة يرفعها إلى في امرأته» أي: إلى فم امرأته.

فهذه العقائد الإيمانية تمدّ قلوب المؤمنين بألوان من الشجاعة لا توجد عند غير المؤمنين، ولا يتخاذلون ولا يجبنون إلاّ إذا ضعفت في قلوبهم عقائد الإيمان، أو أصابها السّبات بسبب الاستغراق في الشهوات، والتمسّك الشديد بزينة الحياة الدنيا ومباهجها ومفاتنها وأموالها ومفاخرها الفانية.

ومتى عشقت القلوب الحياة الدنيا وزينتها حرصت عليها، ونسيت الدار الآخرة ورغبت عنها.

ومن المعروف أنّ الجيوش تعاني أكبر ما تعاني من فقد الروح المعنوية، أي من انعدام الشجاعة من أفرادها، لكن الجيوش الإسلامية المغذاة بالإيمان الصحيح قلّما يدبّ إليها هذا الداء.

ولدى الإحصاء التاريخي نلاحظ أن الجيوش الإسلامية الصادقة تتمتع بأعلى نسبة من الروح المعنوية، أي بأعلى نسبة من شجاعة أفرادها واستبسالهم وإقدامهم وطاعتهم لقيادتهم. ولذلك أوجب الله على المسلمين أوّل الأمر أن يثبتوا في مقابلة عشرة أضعافهم، لأنهم إذا كانوا مؤمنين صادقين صابرين يستطيعون أن يغلبوا عشرة أضعافهم، ثم خفّف الله عنهم في هذا الحكم، فكلّفهم أن يثبتوا لضعْفِهم فقط، فإنّهم إذا صبروا كانوا هم الغالبين بمعونة الله، ولو كان العدوّ ضعف عددهم، قال الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

فقد أثبت الله في هذا النص أنّ مئةً من المؤمنين الصابرين يغلبون ألفاً بإذن الله، أي: عشرة أضعافهم، وهذا في الحدّ الأعلى لنسبة الإيمان القوي الصادق، أما في النسبة الدنيا للإيمان الصحيح الصادق فإنّ المئة من المؤمنين الصابرين يغلبون مئتين، أي ضعف عددهم، فإذا لم يظفروا بالغلب فذلك يرجع أمّا إلى ضعف في إيمانهم، أو إلى إخلال منهم بشروط النصر التي أمرهم الله بتحقيقها.

ولـمّـا كان الصبر من أقوى العناصر التي تمدُّ الشجاعة بالاستمرار، جعله

الله تعالى عنصراً أساسياً في رفع الروح المعنوية لدى المؤمنين المقاتلين في سبيل الله «فإن يكن منكم عشرون صابرون». «فإن يكن منكم مئة صابرة». «والله مع الصابرين».

وقال تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾.

فالمصابرة مغالبة بالصبر، والمرابطة في سبيل الله تحتاج إلى شجاعة وصبر.

والنصوص التي تجعل الصبر عنصراً أساسياً من العناصر الممدة للشجاعة والثبات والإقدام في مواقف البأس والقتال كثيرة.

الترغيب بالجهاد في سبيل الله لتغذية قلوب المؤمنين بالشجاعة:

وقد استخدمت التربية الإسلامية الترغيب بالثواب العظيم عند الله، لتغذية قلوب المؤمنين بالشجاعة العظيمة، كلّما كانت الشجاعة في سبيل الله، ولإعلاء كلمة الله ونشر دينه وإقامة العدل الذي أمر به.

كما وعد الله بنصر أوليائه الصادقين القائمين بما أوجب عليهم في القتال في سبيله وفي الإعداد له، على أعدائه.

وجاء هذا الترغيب بصور عديدة وأشكالٍ متنوعة.

فالترغيب كان بثوابين: ثواب مؤجّل، وثواب معجّل.

أمّا الثواب المؤجل: فهو ما أعدّه الله للمجاهدين في سبيله من نعيم مقيم، وأجر عظيم، وكرامة فضلى، ومنزلة مثلى، وهم يستقبلون سلسلة هذه الحسنيات منذ نيلهم الشهادة، وتستمرّ معهم ينعمون بخيراتها الحسان حتى يدخلوا الجنة ويرتقوا في منازل الشهداء.

وأمّا الثواب المعجّل: فهو الوعد بأن يهبهم الله التأييد والنصر، إذا هم نصروا دينه وأخلصوا له، وأدّوا الشروط والواجبات التي أمر بها في الجهاد وقبله.

وبعد النصر تكون لهم الغنائم، ويكون لهم السلطان القوي في الأرض، وتفتح لهم أبواب الممالك وتخضع لهم عروشها.

ونصوص الترغيب في هذا كثيرة، منها النصوص التالية:

(أ) روى البخاري ومسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لَغَدْوة في سبيل الله أو روحةٌ خير من الدنيا وما فيها».

الغدوة: الخروج في أوّل النهار.

الروحة: السير في العشي.

فثواب الغدوة في سبيل الله أو الرّوحة في سبيل الله، خيرٌ للمجاهد من الدنيا كلها وما فيها، لو سيقت إليه.

(ب) وروى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها».

الرّباط: هو حراسة الثغور حذَر هجمات الأعداء على حين غرّة. فثواب رباط يوم واحد من أعمال الجهاد في سبيل الله خير للمرابط من الدنيا وما عليها، أي لو سيقت له.

(ج) وروى البخاري ومسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحدٍ يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا، وله ما في الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنّى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرّات لما يرَى من الكرامة».

فهو لما يرى ويشاهد بنفسه من الكرامة العظيمة التي أعدها الله للشهداء الذين جاهدوا في سبيله مخلصين، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل في سبيل الله عشر مرات.

(د) وروى مسلم عن مسروق قال: سألنا عبدالله بن مسعودٍ عن هذه الآية: ﴿ولا تَحْسَبَنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم

يرزقون﴾[1] فقال ابن مسعود: أما إنا قد سألنا عن ذلك، (أي سألنا رسول الله ﷺ) فقال:

«أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلّقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطّلع إليهم ربهم اطِّلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟. قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتْركوا من أن يسألوا، قالوا: يا ربّ، نُريد أن تردّ أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلمّا رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا».

وهذا يكون لهم بعد الشهادة وقبل يوم القيامة، لذلك فهم أحياء عند ربهم يرزقون.

فكم في هذا من ترغيب بالجهاد في سبيل الله والقتال حتى الاستشهاد.

(هـ) وروى مسلم عن أبـي قتادة أن رسول الله ﷺ قام فيهم فذكر لهم أنّ الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضلِ الأعمال، فقام رجل فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قتلت في سبيل الله يكفِّرُ عني خطاياي؟.

فقال له رسول الله ﷺ: «نعم، إن قتلت في سبيل الله وأنت صابرٌ محتسب، مقبل غير مدبر».

ثم قال رسول الله ﷺ: «كيف قلت؟» فقال: أرأيت إن قتلت في سبيل الله أيُكفِّر عني خطاياي؟

فقال رسول الله ﷺ: «نعم، وأنت صابر محتسب، مُقبل غير مدبر، إلاّ الدَّيْن، فإن جبريل قال لي ذلك».

مُحْتَسبٌ: أي محتسب أجره وثوابه عند الله، غير ناظر إلى مطامع دنيوية، ومصالح مادية معجّلة لنفسه أو لذويه مما لا مرضاة لله فيه.

---

(١) الآية ١٦٩ من سورة آل عمران.

إلاّ الدَّيْن: أي إنّ الله تبارك وتعالى يكفّر بالاستشهاد في سبيله كلّ الخطايا باستثناء الحقوق التي هي للعباد، فإنها ديون في أعناق من هي عليهم، لا تكفّر إلاّ بإرضاء أصحاب الحقوق أنفسهم.

وهذا ترغيب عظيم ومشجع جسيم أن يرى المسلم أن الاستشهاد في سبيل الله يكفّر عنه خطاياه، ويدخله الجنة بفضل الله.

(و) وروى مسلم عن أنس قال: انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون، فقال رسول الله ﷺ : «قوموا إلى جنّة عرضها السماوات والأرض».

قال عُمَيْر بن الحُمام: بَخٍ بَخٍ.

فقال رسول الله ﷺ : «ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ»؟

قال: لا والله يا رسول الله إلاّ رجاء أن أكون من أهلها.

قال له رسول الله ﷺ : «فإنك من أهلها».

قال أنس: فأخرج تمراتٍ من قرنه فجعل يأكل منهنّ، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي إنّها لحياة طويلة. قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثمّ قاتل حتى قتل.

فرغبة عمير بن الحمام رضي الله عنه بما أعد الله للشهداء في سبيله في الجنة دار النعيم، قذفت في قلبه حب الموت على مقدار ما كان من قبلها يحب الحياة، ومنحته شجاعة لا يُوقف إقدامها واستبسالها إلا أن يقع صريعاً شهيداً.

وكما قذفت هذه الرغبة الشجاعة النادرة في قلوب المؤمنين المجاهدين في سبيل الله، قذفت الصبر والرضى والتسليم في قلوب أمهاتهم وزوجاتهم، وبنيهم وبناتهم وسائر ذويهم.

(ز) وروى البخاري عن أنس أنّ الرُّبَيِّعَ بنت البراء ـ وهي أم حارثة بن سُراقة ـ أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ألا تحدثني عن

حارثة ـ وكان قتل يوم بدر أصابه سهمٌ غَرْبٌ[1] ـ فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غيرذلك اجتهدت عليه في البكاء، فقال لها الرسول ﷺ: «يا أم حارثة، إنّها جِنانٌ في الجنة، وإنّ ابنك أصاب الفردوس الأعلى».

فما أعجب أثر الإيمان وأثر الترغيب بما أعدّ الله للمجاهدين في سبيله من أجر.

(ح) وروى مسلم أن أبا موسى الأشعري حدّث فقال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أبواب الجنة تحت ظلال السيوف» فقام رجلٌ رثّ الهيئة فقال: يا أبا موسى أنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا؟. قال أبو موسى: نعم. فرجع الرجل إلى أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام، ثمّ كسر جفن سيفه فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل.

جفن السيف: غلافه.

(ط) وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري أنّ رسول الله ﷺ قال: «من رضي بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً وجبت له الجنة»، فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدها عليّ يا رسول الله، فأعادها عليه، ثم قال: «وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض».

قال أبو سعيد: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله».

وسبب هذا الأجر العظيم للمجاهد في سبيل الله أن الجهاد وسيلة إلى نشر دين الله، وإقامة العدل في الأرض، ومقاومة الظلم والظالمين، وبناء الحضارة الإسلامية المجيدة، وردّ المعتدين وطرد الغاصبين، ولأن المجاهد في سبيل الله يبذل أغلى شيء لديه وهو حياته، فإذا أضاف إلى ذلك بذل ماله فقد جمع الحسنيين.

---

(١) السهم الْغَرْب: هو السهم الذي لا يعرف راميه.

ولذلك كان الجهاد في سبيل الله أفضل بكثير من العبادات الخاصة التي يملأ العابد بها أوقاته معتزلاً بعبادته عن الناس.

(ي) وروى الترمذي بإسناد حسن عن أبي هريرة قال: مرّ رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عُيَيْنَةٌ[1] من ماءٍ عذبة، فأعجبته فقال: لو اعتزلتُ الناس فأقمت في هذا الشعب، فذُكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لا تفعل، فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته سبعين عاماً، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة، اغزوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة».

فواق الناقة: هو مقدار ما بين الحلبتين من زمن، وذلك لأنّ الناقة تحلب ثم تترك مدّة غير طويلة ليجتمع اللبن ثم تحلب.

(ك) وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سرّية، فمرّ رجل بغار فيه شيءٌ من ماءٍ وبقل، فحدّث نفسه بأن يقيم فيه ويتخلّى من الدّنيا، فاستأذن رسول الله ﷺ في ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «إنّي لم أبعثْ باليهودية ولا بالنصرانية، ولكنّي بعثت بالحنيفية السمحة، والذي نفس محمد بيده، لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، ولمقام أحدكم في الصفّ خير من صلاته ستين سنة».

ولمقام أحدكم في الصف: أي في صف القتال في سبيل الله.

(ل) وروى أبو داود عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «إنّه لـمّـا أصيب إخوانكم يوم أحد، جعل الله أرواحهم في جوف طَيْر خضر، ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلّقةٍ في ظل العرش، فلـمّـا وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقبلهم قالوا: من يبلّغ إخواننا عنّا أننا أحياءٌ في الجنة، لئلا يزهدوا في الجنة ولا ينكلوا عند الحرب؟ فقال الله تعالى: «أنا أبلغهم عنكم»، فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تحسبَنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون﴾ (آل عمران ١٦٩).

---

(١) عيينة: أي عين ماء صغيرة.

فحياة الشهداء لها صفات وظروف أخرى غير صفات حياتنا الدنيوية وظروفها، ولا علاقة لها بالأجساد الدنيوية، كما دلّ عليها هذا الحديث، والحديث الذي سبق الاستشهاد به، وهو ما رواه مسلم عن مسروق.

(م) وروى الدارمي بإسناد صحيح عن عتبة بن عبدٍ السلّمي قال: قال رسول الله ﷺ: «القتلى ثلاثة: مؤمن جاهد بنفسه وماله في سبيل الله، فإذا لقي العدوّ قاتل حتى يقتل».

قال النبي ﷺ فيه: «فذلك الشهيد الممتَحَن، في خيمة الله تحت عرشه، لا يفضله النبيّون إلا بدرجة النبوّة».

«ومؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، جاهد بنفسه وماله في سبيل الله، إذا لقي العدو قاتل حتى يقتل».

قال النبي ﷺ فيه: «مُمَصْمِصةٌ محت ذنوبه وخطاياه، إنّ السيف محّاءٌ للخطايا، وأدخل من أيّ أبواب الجنة شاء».

«ومنافق جاهد بنفسه وماله، فإذا لقي العدو قاتل حتى يقتل، فذاك في النار، إنّ السيف لا يمحو النفاق».

فذلك الشهيد الممتحن: أي فذلك هو الشهيد الذي نال الدرجة الأولى في الامتحان. وهذا الصنف له صفتان مميّزتان له:

الأولى: هي الإيمان الصادق الخالص عقيدة وعملاً.

الثانية: هي الجهاد بالنفس والمال في سبيل الله حتى الشهادة.

مُمصمصة محت ذنوبه وخطاياه: أي شهادته في سبيل الله مطهّرة له من دنس الخطايا والذنوب، يقال لغة: مصمص الرجل إناءه إذا غسله بالماء ونظفه. فالشهادة في سبيل الله تغسل ذنوب هذا المجاهد الذي كان قد خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً. وخصائص هذا الصنف الثاني هي أنه مسلم عاصٍ خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، إلاّ أنه جاهد في سبيل الله بصدقٍ وإخلاص حتى

استشهد، فتكفّر له الشهادة ما سلف من معاصيه، ما عدا حقوق الناس فهي مستثناة كما سبق النصّ عليه في الصحيح من أقوال الرسول ﷺ.

أمّا الصنف الثالث: فهو المجاهد المنافق، وهذا الصنف لم يجاهد في سبيل الله، وإنما اضطره نفاقه أن يشارك المسلمين في قتالهم لعدوهم، حتى لا ينكشف أمره، أو حتى يظفر بحصته من الغنيمة، ولذلك لم يأت في وصف هذا الصنف أنّ جهاده كان في سبيل الله.

أمثلة في الشجاعة الإيمانية:

المثال الأول:

روى البخاري ومسلم عن جابر بن عبدالله قال: قال رجل للنبي ﷺ يوم أحد: أرأيت إنْ قتلتُ فأين أنا؟. قال رسول الله ﷺ: «في الجنة» فألقى تمرات كنّ في يده، ثمّ قاتل حتى قتل.

يتبيّن لنا من قصة هذا الحديث، أنّ الإيمان بما بعد الموت كما جاء في العقيدة الإسلامية يشحن قلوب المؤمنين بشجاعة نادرة، تدفع بالمؤمن إلى ساحة الموت بانطلاق عجيب ينقطع فيه عن الدنيا وما فيها، تعلقاً بالنعيم المقيم الذي يناديه من الآخرة، وشوقاً إلى ما في الجنة من كرامةٍ ورضوان من الله.

ولذلك لـمّـا سأل هذا الصحابي عن مكانه بعد الموت إذا هو قتل في سبيل الله، وأخبره الرسول ﷺ بأنّ مكانه في الجنة، توقدت في قلبه نيران الشوق إلى لقاء ربّه، فلم يصبر مدة يسيرة يأكل فيها تمرات معدودات كانت في يده مع ما يشعر به من جوع، بل ألقى بها واندفع بشجاعة نادرة يبتغي الشهادة في سبيل الله، وما زال يقاتل قتال المستميت حتى قتل رضي الله عنه وأرضاه.

ومن هذا نستدل على أنّ من أساليب تربية قلوب المؤمنين على خلق الشجاعة أسلوب غرس اليقين بما أعدّه الله من كرامة ونعيم مقيم في الجنة، للّذين يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون، وذلك لما في هذا الأسلوب من تحويل مطامع الأنفس إلى ما هو أجلّ من الدنيا وما فيها، وعندئذٍ يغدو الحرص

على الدنيا في مرتبة منخفضة جداً بالنسبة إلى الحرص على الآخرة وما فيها من أجر عظيم وثواب جزيل.

وهذا التحويل النفسي عن طريق الإيمان بما هو أعظم من كل ما تتعلّق به الأنفس من الدنيا، ينبغي أن يكون في المرتبة الأولى من الإصلاح التربوي، سواء أكان ذلك في ميدان الأخلاق أو في الميادين التربوية الأخرى.

ولذلك عمل الإسلام على غرس الإيمان أوّلاً، ثمّ انتقل إلى بيان التعاليم الإسلامية الأخرى والتربية عليها، ومنها الفضائل الأخلاقية.

المثال الثاني:

وروى البخاري ومسلم عن أنس قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله، غبت عن أوّل قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين لَيُرِيَنَّ الله ما أصنع، فلمّا كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال: اللهم أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني أصحابه الذين تركوا مواقعهم في أحد ـ وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني المشركين ـ.

ثمّ تقدّم فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعدُ بن معاذ، الجنّة وربّ النضر، إني أجد ريحها من دون أحد، فقال سعد: فما استطعتُ يا رسول الله ما صنع.

قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل ومثّل به المشركون، فما عرفه أحد إلّا أخته ببنانه.

قال أنس: كنّا نرى أو نظنّ أنّ هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه:

﴿من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قَضَى نَحْبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً (٢٣) ﴾[١].

---

(١) سورة الأحزاب (٣٣).

في هذا الحديث قصة من قصص بطولات أصحاب الرسول ﷺ ، إنّ أنس بن النضر رضي الله عنه أثبت في أحد أنّه يتحلى بخلقين عظيمين من أخلاق الإيمان:

الأول: شجاعته النادرة حتى الشهادة، مع الصبر على آلام القرح، والاستهانة بالحياة الدنيا، طلباً لرضوان الله والجنة.

الثاني: وفاؤه التامّ بما عاهد الله عليه، إذ قال: لَيُرِيَنّ الله ما أصنع. فوفّى، فقاتل قتالاً شديداً صادقاً، وضحّى تضحيات لم يبذل مثلها عظماء الأبطال.

وكان ما قدّمه رضوان الله عليه مظهراً من مظاهر إيمانه القوي الذي ملأ أبعاد فكره وقلبه ونفسه.

ليريَنّ الله ما أصنع: رويت بوجهين: الأول بضم الياء وكسر الراء، والثاني بفتح الياء والراء. والمعنى على الوجه الأول: ليُظهرنّ الله للناس ما أصنع من جهاد صادق في سبيله، والمعنى على الوجه الثاني: أن الله تعالى سيرى ما يصنع. وقد أقسم رضوان الله عليه على عهده هذا، فاللام واقعة في جواب قسم محذوف.

وقد صدق أنس بن النضر ما عاهد الله عليه، ووفّى به أحسن الوفاء، رغم أن الأمر يتعلق بالجود بالنفس.

قوله: «اللهم أعتذر إليك مما صنع هؤلاء» يعني به أصحابه الذين أغراهم الطمع بالغنائم فتركوا مواقعهم، وخالفوا أمر الرسول ﷺ ، فكان عملهم سبباً في تحوّل رياح النصر عن المسلمين إلى المشركين.

فمنهم من قضى نحبه: يطلق النحب في اللغة على النذر، وعلى الموت، وعلى الحاجة، وعلى الأجل والمدّة، وكل هذه المعاني صالحة لأن تُفهم من الآية، والأول منها أقرب لسياق معنى الآية ولمناسبتها بوجه عام. والله أعلم.

المثال الثالث:

روى مسلم عن أنس، أنّ رسول الله ﷺ أخذ سيفاً يوم أحد فقال:

«من يأخذ هذا مني؟».

فبسطوا أيديهم كل إنسان يقول: أنا أنا.

فقال: «فمن يأخذه بحقّه؟».

فأحجم القوم، فقال أبو دجانة (سِمَاكُ بن خَرَشة رضي الله عنه): أنا آخذه بحقه، فأخذه ففلق به هام المشركين.

يلاحظ أنّ عرض الرسول ﷺ السيف على أصحابه بالشكل الذي عرضه في يوم معركةٍ ذات شأن، يتضمّن إثارة روح المنافسة الكريمة بينهم، لغرس خلق علوّ الهمة في نفوسهم، والتحمّس لطلب المعالي، واكتشاف الشجعان الأبطال فيهم.

لقد امتحنهم في طريقة العرض التي استخدمها مرّتين:

الأولى: امتحنهم بها في مجال الطمع بالحصول على تكريم خاصّ منه صلوات الله عليه وسلامه، فاستشرفت نفوسهم جميعاً لذلك، وانطلق كلّ واحد منهم يقول: أنا أنا. إذ كان عرضاً لعطاء خالٍ من مسؤولية مرافقة له، فرغب كل واحدٍ منهم في أن يكون هو الظافر به.

الثانية: كان العرض فيها مقترناً بالمسؤولية المقصودة من العطاء، عندئذ عرف الصحابة أنّ من يأخذ السيف لا بدّ أن يعطي مع أخذه له وعداً أو عهداً يلتزم بتنفيذه تجاه الله والرسول، وذلك بأن يبلي فيه بلاءً حسناً في القتال.

وهذا ما جعلهم يحجمون، ويفكّرون بالأمر الذي سيعطون عليه العهد، إذا هم وافقوا على أخذ السيف من الرسول بحقّه.

وهنا نجد أنّ واحداً منهم قد وزن نفسه وزناً صحيحاً، وأحسّ من نفسه أنّه على استعداد لأن يفي بعهده ووعده، ويقاتل أعداء الله بسيف

رسول الله ﷺ قتال المستميت، حتى ينكسر السيف أو يستشهد. فقال أبو دجانة: أنا آخذه بحقه، فأعطاه الرسول السيف، فأخذه فوفّى بحقه تماماً، فقاتل به وأبلى بلاءً حسناً، وأثبت أنه وفيٌّ بوعده، شجاع مقدام، وضرب في الجهاد في سبيل الله مثلاً رائعاً دلّ على شجاعته وبسالته وصدقه، كما تذكر كتب السيرة النبوية.

ولا نشك في أنّ عدداً وفيراً من أصحاب رسول الله ﷺ في هذه المعركة قد كان قادراً على أن يأخذ سيف رسول الله بحقه، ولكن مسؤولية الوعد والعهد كانت مسؤولية كبيرة في نفوسهم، جعلتهم يتريثون حتى يزنوا أنفسهم وزناً صحيحاً، وهذا يدلّ على أنهم كانوا يتحلّون بأخلاق عظيمة تجعلهم لا يعطون الوعد حتى يكونوا عازمين على الوفاء به، وحتى يأنسوا من أنفسهم القدرة على ذلك، وهذا من أثر التربية الإسلامية التي ربّاهم عليها رسول الله ﷺ، وغرستها في قرارة نفوسهم تعاليم القرآن الكريم.

الجــــبن:

الجبن: ضدّ الشجاعة التي سبق بيانها، والذي يكشف صفة الجبن في الإنسان هو وجوده في مواقف الخوف الحقيقي أو الوهمي، فالخوف هو الكاشف لصفة الجبن، وقد لا يكون مقدار الخوف كافياً لإثارة الجبن، إلاّ أنّ الجبان هو من يكون جبنه أكثر ممّا يتطلبه الموقف المخيف، فالجبان يخاف أكثر ممّا ينبغي فيجبُن، ويتمثّل الجبن بعدم الإقدام في المواقف التي تتطلب الإقدام، أو بعدم ثبوت الأقدام في المواقف التي يجمل فيها ثبوت الأقدام، أو بالفرار من الساحة.

وليس كلّ من يخاف من المواقف جباناً، ولكنّ الجبان هو من يزيد خوفه عن حاجة الموقف عند الشجعان الأسوياء، حتى يمنعه عن الإقدام والاستبسال، أو هو من يخاف فيجبن في المواقف التي يجمل فيها ويحسن الإقدام وعدم الخوف.

ومن الجبن أن لا يصبر الإنسان على مواجهة المواقف المخيفة، أو مقارعتها، أو تحمل آلامها، لذلك يجد سبيله إلى الفرار إن استطاع إليه سبيلاً، أو تنقطع عزائمه، وتنهار قوته، فلا تثبت أقدامه، وعند ذلك يستسلم

استسلام الشاة لجزارها أو لمفترسها، جبناً واستخذاءً وعجزاً عن تقديم أية قوة من قوى المعارضة.

وقد وصف الله اليهود بأنهم أحرص الناس على حياة، إشعاراً بأنهم جبناء في مواقف القتال، فقال تعالى في وصفهم في سورة (البقرة ٢):

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

ومعلوم أنّ الحرص على الحياة يورث الجبن في القلوب، ولكن المؤمن يعلم أن الله تعالى هو وحده الذي بيده الموت والحياة، وأن لكل إنسان أجلاً لا ينقص ناقص منه ولا يزيد زائد فيه، لذلك فهو أكثر ضبطاً لنفسه عند مواقف الخوف من الموت، ثقة بأنه لن يصيبه إلاّ ما كتب الله له.

ووصف الله اليهود أيضاً بقوله في سورة (الحشر ٥٩):

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

فمن ظواهر جبنهم أنهم لا يقاتلون المسلمين مجتمعين إلاّ إذا كانوا في قرى محصنة، أو كانوا وراء جُدُر.

ووصف الله المنافقين بأنهم فرّارون من المعارك، إشعاراً بأنهم جبناء، فقال تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾.

ولكن الفرار لا ينفعهم إذا قضى الله عليهم بالموت أو بالقتل، فإنّ ما يفرّون منه آتيهم في آجالهم المقدّرة لهم، وهذا ما أبانه الله بعد ذلك بقوله في السورة نفسها:

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾.

□ □ □

الباب الخامس

نصوص مشروحة

تشتمل على جوانب أخلاقية

— ١ —
في أنـــواع الـــبرّ

قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾.

البرّ في استعمال الشرع كلمة جامعة لكل أصناف الخير، ويراد منه ما زاد على حدود التقوى، فهو مرتبة فوق مرتبة التقوى ودون مرتبة الإحسان.

وفي قول الله تعالى في الآية: ﴿ليس البر أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ تصحيح لفهم خاطىء كان مهيمناً على أفكار المخاطبين. وذلك أنّه لما أنزل الله تحويل قبلة المسلمين في الصلاة من بيت المقدس إلى الكعبة بيت الله الحرام، أخذ السفهاء من الناس وفي مقدّمتهم يهود المدينة، يلغطون ويشوّشون، ويقولون: ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ ويقولون للمسلمين: إما أنكم كنتم على خطأ فصلاتكم الأولى إلى بيت المقدس باطلة، وإمّا أنكم الآن على خطأ فصلاتكم إلى الكعبة باطلة، فأنزل الله تبارك وتعالى تصحيح أصل المفهوم في موضوع الاتجاه في الصلاة، وبين للمسلمين أن تحديد

الجهة التي يجب على المصلّي أن يتوجّه لها لا يعدو أن يكون شكليّة اقتضتها حكمة توجيه المسلمين جميعاً شطر جهة واحدة، وليس الاتجاه عبادة للجهة، فالمضمون الحقيقي هو عبادة الله، والجهات كلّها مشارقها ومغاربها لله، فليس البرّ الحقيقي هو أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، وفي هذا تحرير لمفاهيم المسلمين من التعلّق الفكري والقلبي بالأشكال والرسوم، وإن التزموا بها طاعة لله، ووصلهم بالمضامين الجوهرية التي هي البرّ حقيقة.

ثمّ بيّن الله بعض وجوه البرّ التي هي حقائق جوهرية ذات ثمرات وأهداف عظيمة، ووجوهاً هي من مرتبة التقوى باعتبار أنّ مرتبة التقوى شرط أساسيّ لتحقق مرتبة البرّ، فذكر الله عزّ وجلّ عدّة أنواع:

النوع الأول: الإيمان الصحيح الكامل بالحقائق الفكرّية الكبرى التي هي الأسس الأولى لتقويم السلوك. وقد أثبتت الآية أهم أركان هذا النوع، بقول الله تعالى فيها: ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾.

أي إنّ البرّ هو برّ من آمن هذا الإيمان، وهذا الإيمان هو من مرتبة التقوى.

النوع الثاني: إيتاء ذوي الحاجات من أفراد المجتمع من عطاء زائد على الواجب، وهذا النوع يبرز صورة مهمة من صور مكارم الأخلاق في الفرد المسلم، إذ يعبّر عن مدى رحمته بمن يستحقون الرحمة من عباد الله، ومدى تعاونه الجماعي وتدعيمه لوحدة المجتمع المسلم المتعاون المتماسك القوي.

وقد أثبتت الآية أهمّ أمثلة هذا النوع بقول الله تعالى: ﴿وآتى المال على حبّه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب﴾وهذا من مرتبة البرّ.

النوع الثالث: العبادة الخالصة لله تعالى، وقد أثبتت الآية أهم أركانها، ممّا كان قد نزل التكليف به، فقال تعالى: ﴿وأقام الصلاة﴾. وهذا من مرتبة التقوى.

النوع الرابع: الزكاة، وهذا من مرتبة التقوى.

النوع الخامس: فضائل الأخلاق التي هي من مرتبة التقوى، وقد أثبتت الآية عنصراً مهماً منها، فقال تعالى: ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾.

النوع السادس: فضائل الأخلاق التي هي من مرتبة البرّ، وقد أثبتت الآية عنصراً مهمّاً منها، وهو الصبر، فقال تعالى: ﴿والصابرين في البأساء والضرّاء وحين البأس﴾.

(أ) البأساء: وهو الجوع، طوعاً في الصوم، أو كرهاً في المجاعة.

(ب) الضرّاء: وهي المصائب في الأموال والأنفس.

(ج) البأس: وهو القتال الشديد.

وكل هذه الأمور تحتاج إلى فضيلة خلق الصبر. ثمّ ختم الله الآية بقوله: ﴿أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾.

ـ ٢ ـ
من شعب الإيمان

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلاّ الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان».

بضع وسبعون أو بضع وستون: شكٌّ من الراوي. والبضع في العدد من الثلاثة إلى التسعة.

والمراد من شعب الإيمان مظاهره في السلوك لا أركانه، لذلك أبان الرسول أنّ أعلاها وأفضلها قول: لا إله إلاّ الله. وأنّ أدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأنّ الحياء شعبة من الإيمان، والحياء ظاهرة في السلوك النفسي نابعة من قاعدة الإيمان.

وحين يكون الإيمان صحيحاً صادقاً فلا بدّ أن تكون له آثار ومظاهر في

السلوك على مقدار قوته ورسوخه وهيمنته على الفكر والنفس، وهذه الآثار والمظاهر بمثابة فروع مشهودة في السلوك الإنساني لشجرة الإيمان المتغلغلة جذورها في القلب والنفس وقرارة الرّوح.

ونستفيد من هذا أنّ الأعمال الإسلامية، إنما تكون إسلامية حقاً إذا كانت مظاهر للإيمان المتغلغل في القلب، وإذا كان الإيمان بالله هو الدافع إليها، وإلا كانت غير ذات جذور أصيلة في كيان الإنسان.

— ٣ —
في أبرز خصائص المسلم والمهاجر

روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه».

في هذا الحديث تنبيه على أبرز خصائص المسلم، وأبرز خصائص المهاجر، فمن لم يتحقق بهذه الخصائص لم يكن من أهل هذا الاسم حقاً.

فالمسلم المتحقق بإسلامه هو من يسلم المسلمون من شرّ لسانه وشرّ يده.

والمهاجر إلى الله المتحقق بمعنى الهجرة في سبيل الله وابتغاء مرضاته هو من يهجر حقاً ما نهى الله عنه.

وبتحليل الموضوع إلى عناصره يتبين لنا هذا واضحاً، وذلك لأننا إذا تبصرنا في تعاليم الإسلام، وجدنا أعظم غاياتها بعد الإيمان بالله وعبادته وحده تتكثّف حول مصلحة الجماعة وسعادتها ورفاهها ونظام حياتها، وهل يتحقق هذا والجماعة عرضة لعدوان الأفراد وظلمهم لها باليد أو باللسان؟ وهل يكون إسلام الفرد صحيحاً سليماً مستوفياً عناصره وهو يخالف تعاليم إسلامه في أهم العناصر وأبرزها، والتي أولاها الله عزّ وجلّ عناية كبيرة في التوجيه والأحكام الشرعية وترتيب الجزاء؟.

ولو فرضنا أن إنساناً ما هو قائم بفروض العبادات المحضة، إلّا أنه يؤذي

المسلمين بلسانه، فيستغيب هذا، ويشتم هذا، ويسعى بالنميمة ليفرّق بين الإخوان في الله، ويؤذي المسلمين بيده، فيضرب ويقتل ويسرق ويرمي الأذى في طرقاتهم أو على بيوتهم، ويقذّر مساجدهم ومواطن عبادتهم. فإن عبادته لربّه وقيامه بفروضه سيذهبان هدراً، يسدّد منها حقوق من ظلمهم، حتى إذا ظهر إفلاسه طرح عليه من سيئات من آذاهم وظلمهم.

وإذا تبصّرناه في الغاية الأساسية من الهجرة المادّية التي تكون من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، وجدنا أن الغاية الأساسية منها أن يهجر المسلم المهاجر ما نهى الله عنه، فالهجرة المادّية من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام تساعد على تحقيق هذه الغاية للمهاجر ولأهله وأولاده وسائر أسرته، إذ تحميهم من الفتنة في دينهم عقيدة وسلوكاً، وتضعهم في البيئة الإسلامية الصالحة التي تساعدهم وتنشطهم للقيام بالأعمال الإسلامية التي تطلب منهم، كما أنه بالهجرة إلى بلد الإسلام يشدّ أزر المسلمين ويقوي شوكتهم ويعزّز قوتهم الدفاعية أو الاقتصادية أو العلمية أو غير ذلك.

والهجرة المادية وحدها هجرة جسدية، لا تتضمن غير مفارقة الوطن والتنازل عن بعض المصالح الدنيوية، وقد تلتبس بقصد منافع ومصالح دنيوية أخرى، كما جاء في حديث: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

أما الهجرة الحقيقية المعنوية فهي هجرة قلبية ونفسية وعملية من مواقع الكفر والعصيان إلى مواقع الإسلام والطاعة، وهذه هي الجديرة بأن تكون هي الهجرة الكبرى، لأنها تتضمن مفارقة كل ما فيه معصية لله تعالى ممّا تتعلّق به الأهواء والشهوات ومحابّ الأنفس، وتتضمن التنازل عن كل ما يراه الإنسان لنفسه مصلحة ويراه الشارع له إثماً، وهذه الهجرة المعنوية القلبية والنفسية والسلوكية لا تلتبس بقصد منافع ومصالح دنيوية تأتي من غير طريق الله، فالنية السامية مقترنة بها غالباً.

وكم يهاجر مهاجر من بلد الكفر إلى بلد الإسلام ولكنه مع ذلك لا يهاجر من مواقع المعاصي والآثام، إلى مواقع الطاعة وحسن الانقياد والاستسلام.

وهكذا أخذ الرسول ﷺ بيد المسلم ليبصره بالموقع الحقيقي الذي يكون فيه معلن الإسلام مسلماً حقاً، مأمون الجانب من قبل المسلمين، لا ينال المسلمين منه أذى لا من لسانه ولا من يده، وهذا في أدنى حدود ارتباط الفرد بالجماعة الإسلامية، ويأتي فوق هذا ما على المسلم أن يبذله من لسانه ويده وماله ونفسه من أنواع عطاء ينفع بها جماعة المسلمين وأفرادهم.

وكذلك أخذ الرسول ﷺ بيد المهاجر ليبصّره بالموقع الحقيقي الذي يحتله المهاجر الحقّ، وهو الموقع الذي يهجر فيه المسلم جميع ما نهى الله عنه، وهذا في أدنى حدود تحقق المسلم بالطاعة لله تعالى، ثم يأتي من فوق ذلك ما على المسلم أن يفعله من خيرات ومبرات وعبادات يرتقي بها في معراج القرب من الله، والهجرة عن الأرضيات أياً كان شأنها، وهذه هي الهجرة العظمى ذات العروج والصعود إلى الله العلي المتعال، ومن ليس عنده هجرة من هذا النوع فهو من الذين أخلدوا إلى الأرض، ورضوا بالحياة الدنيا عن الآخرة.

— ٤ —

في جملة من الفضائل: في الصدقة والصبر والتعفف عن المسألة، وسنن الله فيها وفي أن صدق النية مع عدم القدرة على العمل كالعمل

روى الترمذي بإسناد صحيح عن أبي كبشة عُمر بن سعد الأنماري، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«ثلاثة أقسم عليهنّ، وأحدّثكم حديثاً فاحفظوه: ما نقص مال من صدقة. ولا ظُلم عبد مظلمة صبر عليها إلاّ زاده الله عزّاً، ولا فتح عبد باب مسألة إلاّ فتح الله عليه باب فقر (أو كلمة نحوها).

وأحدثكم حديثاً فاحفظوه (قال): إنما الدنيا لأربعة نفر:

* عبد رزقه الله مالاً وعلماً، فهو يتقي فيه ربّه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل.

* وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية يقول: لو أنّ لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهو نيّته، فأجرهما سواء.

* وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً، فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربّه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقاً، فهذا بأخبث المنازل.

* وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أنّ لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو نيّته، فوزرهما سواء».

في هذا الحديث بيان لثلاث قواعد هي من سنن الله في عباده، وبيان لأقسام الناس الأربعة في تصرفهم في حالتي سعة الرزق، وقلة ذات اليد.

السنة الأولى: ما نقص مال من صدقة. إنها سنة ربانية أقسم عليها الرسول ﷺ تأكيداً لكونها من الحقائق الثابتة.

أي إن الصدقة مضمونة الإخلاف من الله تعالى، مع المضاعفة، وكل ما هو مضمون العوض من مليء قادر على الوفاء صادق الوعد فهو باقٍ لم يذهب منه شيء، فإذا لاحظنا نماءه عند الضامن المليء كان من قبيل التجارة الرابحة، وما أحدٌ يتصور أنّ ما يبذله من ماله في تجارة رابحة، أو في قرض سيؤدى حتماً قد نقص من ماله شيئاً، وإنما يفهم أنه قد نقله من صندوقه إلى صندوق أمين.

وحين يلاحظ المؤمن أنه يتعامل مع الله في قرضه وفي تجارته الرابحة، يكون على يقين بأن ماله الذي دفعه في الصدقة قد وضعه في يد أمين أعظم منه حراسة وصوناً وحفظاً، وأعلم منه بالتنمية والتثمير والتربية.

وقد دلت النصوص القرآنية على أن من يبذل الصدقة مخلصاً لله تعالى فإنما يقرض الله قرضاً حسناً يضاعفه الله له.

وجاء في الحديث أن الصدقة تقع في يمين الرحمن، فيربيها الله له وينميها.

وهل من التعويض المضمون نقصان؟!

يضاف إلى ذلك أن الصدقة الواجبة في المال هي في الحقيقة مال أصحاب الحقوق، ويد صاحب المال عليها يد مستودع أمانة ليست له، ويجب عليه أن يؤديها إلى أهلها، فإذا أدّاها لم ينقص ماله الذي هو له شيئاً، وإنما أدى الوديعة، والوديعة هي لأصحابها، على أنّ الله تعالى يخلف على باذل الصدقة الواجبة، إذا لم يخن الأمانة التي استأمنه الله عليها حين يسر له سبيل الرزق.

السنّة الثانية: ما ظُلم عبد مظلمة صبر عليها إلاّ زاده الله عزّاً.

وتتضمّن هذه السنة الربانية أنّه ما من عبد تدفعه مكارم أخلاقه وابتغاء مرضاة الله أن يصبر على مظلمة يُظلمها، وكان الظالم له يتصوّر أنه قد استطاع الاستطالة عليه بسبب أنّه أضعف منه قوةً أو حيلة، إلاّ كانت عاقبة الأمر أن يمدّ الله المظلوم بقوّة من عنده، فيزداد عزّاً، بعد أن كان أضعف من ظالمه، ويعوّض الله له ما خسره من عزّته بتسلط الظالم عليه. ثم ترتفع مكانته في نفوس الناس، حتى يكون عزيزاً بأخلاقه، كريماً عندهم بفضائله، محبوباً لديهم، منظوراً إليه بعيون العطف والتأييد، وعندئذ تأتيه منهم النصرة ولو كانوا من قبل لا يعرفونه، وبذلك يزيده الله عزّاً أيضاً.

السنة الثالثة: ما فتح عبدٌ باب مسألة إلاّ فتح الله عليه باب فقر.

وفي هذه السنة الربّانية تحذير من هوان النفوس، وتعريض الإنسان نفسه لذلّ سؤال الناس كي يمنحوه من عطاءاتهم، وهذا التحذير يتمثل بأن يعاقب المسيء في ذلك بحرمانه من الشيء الذي أساء بغية الوصول إليه. إنه اتخذ سؤال الناس ليصل إلى الغنى، لذلك كانت سنة الله تقضي بمعاقبته بأن يجعل الله الفقر بين عينيه، فكلما فتح باباً من أبواب المسألة فتح الله عليه باباً من أبواب الفقر، فتظلّ مشاعر الفقر وآلامه تلاحق نفسه، ولو كان بين يديه من المال ما يكفيه.

وهذا هو ما نلاحظه في المتسوّلين الذين يتكفّفون الناس، إنّ أحدهم قد يجمع بالمسألة مالاً كثيراً، وهو مع ذلك مصاب بداء الفقر النفسي، ومعظمهم

لا ينتفع بما يجمع من مال، ويظل يكنزه ويبخل به على نفسه، حتى يصل إلى رمسه وهو في ثياب الفقراء، وطعام الفقراء، ومأوى الفقراء، يعاني من داء طلب الغنى والخلاص من الفقر.

هذه هي السنن الربانية الثلاث التي أقسم الرسول ﷺ عليهنّ في الحديث الذي نتدبره.

أمّا أقسام الناس الأربعة بالنسبة إلى تصرفهم في حالتي سعة الرزق وقلّة ذات اليد، بحسب بيان الرسول ﷺ، فقد أبان الرسول أنّ الناس بالنسبة إلى حيازة المال وعدمه قسمان: ذو مال، وغير ذي مال، وبالنسبة إلى العقل والحكمة في التصرف بالمال وإرادة الخير فيه قسمان أيضاً: عاقل حكيم يريد الخير ويعمل به، وجاهل أرعن لا يريد الخير ولا يعمل به، وبنتيجة ضرب هذين القسمين بالقسمين السابقين تكون الأقسام أربعة.

فقال الرسول ﷺ: «إنما الدنيا لأربعة نفر» أي لأربعة أقسام، وهذا التقسيم في الحقيقة هو تقسيم للناس.

فالقسم الأول: قسم رزقه الله مالاً وعلماً، فهو يتقي فيه ربّه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل.

فهذا القسم من الناس قسم قد جمع المال والعلم، وليس المراد من العلم مجرد المعرفة، وإنما المراد منه المعرفة المقرونة بالحكمة في التصرف، والحكمة سلوك عاقل مستند إلى علم بما هو خير وأفضل، والذي يوضح هذه الحقيقة الترتيب السلوكي الذي جعله الرسول ﷺ ثمرة من ثمرات العلم، وهو في الحقيقة ثمرة من ثمرات العلم النافع، وهو العلم المقرون بالحكمة في التصرف، إذ قال الرسول ﷺ: «عبد رزقه الله مالا وعلماً، فهو يتقي فيه ربه، ويصل رحمه، ويعلم لله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل».

فأطلق الرسول العلم وأراد العلم والحكمة، إذ العلم الذي لا يكون من ثمرته الحكمة في التصرف ليس بعلم في الحقيقة، وإنما هو مجرد إدراك ذهني.

وتقوى الله في المال تكون بكسبه مما أحل الله وأذن، وإنفاقه فيما أحل الله وأذن، وتأدية حقّ الله منه.

ثمّ هو لا يقتصر على جانب التقوى فقط، بل يزيد نافلة هي من البرّ، ومن أفضل ذلك صلة الرحم، ببذل المال إليهم، وإكرامهم به، والتوسعة عليهم منه.

وهذا هو القسم الأول وهو بأفضل المنازل بالنسبة إلى سائر الأقسام التي ذكرها الرسول ﷺ.

القسم الثاني: عبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية يقول: لو أنّ لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهو نيته فأجرهما سواء.

فهذا قسم من الناس لديه علم وحكمة، ولكن ليس لديه مالٌ يعمل فيه بعمل القسم الأول من الناس، إلاّ أنه صادق النية في أنه لو كان لديه مال لاتقى فيه ربه، ووصل به رحمه، وأدى منه حقّ الله.

فشأن هذا القسم لدى المحاسبة والجزاء شأن نيته، فهو يثاب على نيته كثواب القسم الأول، إذ كان صادق النية، عالماً حكيماً، يقول: لو كان لي مال لعملت فيه بعمل ذلك العالم الحكيم ذي المال.

فأبان الرسول ﷺ في هذا أن النية الصالحة الصادقة التي لم يمنعها عن التنفيذ إلا مانع خارج عن إرادة الإنسان كافيةٌ وحدها للظفر بالأجر كله دون نقصان، فلا يتوقف الظفر بالأجر على تنفيذ النية بالعمل حينئذ.

أما إذا كان المانع من التنفيذ شيئاً داخلاً في إرادة الإنسان فالأمر يختلف، ويتبع الحساب والجزاء عندئذ واقع حال ما في النفس من ذلك.

القسم الثالث: عبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً، فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقاً، فهذا بأخبث المنازل.

هذا قسم له مال، ولكن ليس لديه علم ولا حكمة في التصرف بماله، ولـمّـا كان هذا القسم محروماً من العلم والحكمة في التصرف وقد وجد سلطان المال بين يديه، فلا بدّ أن يخبط في ماله خبطاً جاهلاً، متبعاً أهواء نفسه جمعاً وإنفاقاً، فيجمعه بغير تقوى الله، من أي طريق يصادفها، حلالاً أو حراماً، وينفقه في غير تقوى الله، إسرافاً وتبذيراً، تلبية لأهواء نفسه وشهواتها، ويبدّده بمعصية الله، ويمسكه عن وجوه الخير، ويمنع حقّ الله فيه، أو يبخل به على نفسه وغيره، فيكنزه ويكاثره، ثم يموت عنه ويتركه، ويجازى عليه عند ربه، ويأتي الوارث من بعده فيستولي عليه، ويكون من حظّه، وقد كدّ في جمعه له مورثه.

وجدير بهذا القسم أن يكون بأخبث المنازل، لأنّ بيـده قوة المـال، فاستعملها أسوأ استعمال، إذ خبط بماله بغير علم ولا حكمة، خبط الأعشى السائر في الظلمات على غير هدى ولا بصيرة.

القسم الرابع: عبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أنّ لي مالاً لعملتُ بعمل فلان، فهو نيته، فوزرهما سواء.

وهذا قسم من الناس هو في منتهى الغباء، يتمنّى أن تكون بيده قوة الجاهلين الذين لا عقل لهم ولا حكمة تضبط سلوكهم، حتى يعمل مثل أعمالهم السيئة التي يخبطون فيها خبطاً خبيثاً، فلا هو متمتع بتلبية شهواته وأهواء نفسه، ولا هو ناج من أوزار المسيئين، إذ جعلته نيته السيئة الخبيثة كالمسيئين نية وعملاً، وجعلته يحمل أوزاراً مثل أوزارهم، من غير فرق بينه وبينهم لأنه لو وجد المال لما قصّر عنهم في الأعمال. فالمانع له من التنفيذ قد كان أمراً خارجاً عن إرادته، فإرادته المصمّمة المحجوزة عن العمل بمانع خارجي هو العجز عن التنفيذ، كافيةٌ لتحميله الوزر المكافىء لوزر العامل المسيء، لأن أصل الامتحان في الحياة إنما هو امتحان الإرادة.

ـ ٥ ـ

في أداء الواجب الربّاني وعلوّ الهمة وعزّة النفس بالله والصبر والرضى بمقادير الله

عن عبدالله بن عبّاس قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال: «يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشي لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

(رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح)

وفي رواية عند غير الترمذي:

«احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أنّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أنّ النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأنّ مع العسر يسراً».

هذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام، وهو يشتمل على كلّيات كبرى من كلّيات العقيدة والأخلاق الإسلامية:

١ ـ ففيه أوّلاً جانب تربويّ مهمٌّ جدّاً، وهو يتمثل باهتمام الرسول ﷺ بتعليم الصغار والغلمان الأصول الكبرى للعقيدة والأخلاق. ويتمثّل أيضاً باستغلاله صلوات الله عليه كلّ فرصة سانحة للتعليم والتربية.

فهذا عبدالله بن عباس ابنُ عمّ الرسول ﷺ غلام لم يبلغ الحلم، يكون رديفاً ذات يوم خلف الرسول على دابّة يركبانها في طريق، فلا يدع الرسول الفرصة تمرّ دون أن يوجّه لابن عمّه الغلام درساً عظيماً من دروس العقيدة والأخلاق، ويخاطبه بقوله: «يا غلام، إني أعلّمك كلمات».

٢ ـ الكلمة الأولى في هذا التعليم النبوي: «احفظ الله يحفظك، احْفظ الله تجده تُجاهك».

هذه الكلمة من جوامع الكلِم في التوجيه الخلقي، الذي يُصلح علاقة الإنسان بخالقه، والمقترن بالتنبيه على الفائدة والثمرة التي يجنيها الإنسان المسلم من التزامه مضمون التوجيه.

والمراد من مطالبة المسلم بأن يحفظ الله، أن يحفظ حقوق الله، فيؤدّيها حقّ أدائها، ولا يهملها، ولا يخونها، ويكون ذلك بحفظ أوامر الله ونواهيه وبحسن مراقبته والتزام طاعته والبعد عن معصيته، مع الثناء عليه بما هو أهله، وشكره بالعبادة والتقرّب والزلفى.

وهذا الحفظ يمثل أعظم فضيلة خلقية يعامل بها الإنسان ربّه. ومن حفظ الله على هذا الوجه حفظه الله من كلّ سوء، وحفظ له ما يستحقه من ثواب عظيم، أعدّه للمحسنين بفضله الكريم، ومن كان يرجو ثواب الله العظيم فإنه لا بد أن يندفع بصدق إلى حفظ حقوق الله عليه وابتغاء مرضاته.

فمن حفظ الله وجد الله أمامه في كلّ أمرٍ من أموره، معيناً وناصراً، وموفّقاً، وممداً بما لا يحصى من العطايا والهبات. ومن حفظ الله وجد الله أمامه عند كلّ أزمة يتعرض لها في حياته، ووجده تجاهه مؤنساً في الوحشة، وصاحباً في الوحدة، وأهلاً في الغربة.

وتأكيد هذه المعاني المفهومة ضمناً قد جاء في قوله ﷺ : «تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدّة» أي تعرف إليه بالتزام طاعته والإحسان بالتقرّب إليه، يعرفْك في شدّتك بالمعونة والمساعدة ورفع الشدّة وتفريج الكرب.

٣ ــ والكلمة الثانية في هذا التعليم النبوي: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله».

وفي هذه الكلمة تأصيل لأسس اعتقادية كبرى، فالسؤال ــ وهو الطلب من القوى الغيبية ــ لا يجوز أن يوجّه إلاّ لله وحده، لأنه هو وحده القادر على إجابة السؤال، والاستعانة بالقوى الغيبية لا يجوز أن تكون إلاّ بالله، لأنه هو وحده القادر على منح المعونة الحقيقية.

وتوجيه السؤال لغير الله تعالى، وطلب الاستعانة من غيره، كلٌّ منهما شرك بالله، وما كان لمؤمن أن يفعل شيئاً من ذلك، فالشرك بالله جحود لا يفعله ذو خلق كريم، وسلوك مستقيم. فمن كان ذا خلق كريم حقّاً لم يجحد بالله فلم يشرك به أحداً، فإذا سأل لم يسأل غيره، وإذا استعان لم يستعن إلّا به.

وترسيخاً لهذه العقيدة أبان الرسول ﷺ أنّه لا نافع ولا ضارّ إلّا الله، فقال لابن عباس: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضرّوك بشيءٍ لم يضرّوك إلّا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفّت الصّحف».

وفي هذا البيان الكاشف لحقيقة مُجريات المقادير قطعٌ لأسباب القلوب من المخلوقين، وربط لها بالخالق الذي بيده مقاليد كلّ شيءٍ وهو على كل شيء قدير.

ونظير هذا البيان ما جاء في الرواية الثانية:

«واعلم أنّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك».

أي إن مقادير الله وأقضيته نافذة لا محالة، فلو استطاع الإنسان استعادة ما مضى من الزمن لم يستطع أن يدفع المقادير التي علم الله أنها ستقع، فليقطع من الناس كلّهم أسباب قلبه، وليربطها بالله وحده لا شريك له.

وفي هذا البيان تربية على خلق الصبر والرضى بقضاء الله وقدره، فمن أيقن أن مقادير الله نافذة لا محالة أعدّ نفسه لاستقبالها بصبر ورضى.

٤ ــ والكلمة الثالثة في هذا التعليم النبوي: «واعلم أنّ النصر مع الصبر، وأنّ الفرج مع الكرب، وأنّ مع العسر يسراً».

فأعطى الرسول ﷺ بهذا البيان السّنن العامّة للمقادير الرّبانية:

فالنصر مقترن بالصبر، وفي بيان هذه السنة الرّبانية ترغيب عظيم بخلق الصبر كلّما كان النصر غاية منشودة، ولا بدّ مع الصبر من تحقق الشروط الأخرى لاستحقاق النصر.

والفرج مقترن بالكرب، وفي بيان هذه السنة الرّبانية ترغيب أيضاً بخلق الصبر كلّما اشتد الكرب على الإنسان.

واليسر يأتي بعد العسر، وفي بيان هذه السنة العامة للمقادير الربّانية ترغيب أيضاً بخلق الصبر كلّما ضاقت حلقات العسر على الإنسان، فما بعد العسر إلاّ اليسر.

هذه سنن ربّانية لم يمتحنها مؤمن بالله آمل بها إلاّ وجدها كذلك.

وهكذا اشتمل هذا الحديث على ما يلي:

(أ) التوجيه للمحافظة على أداء الواجب الربّاني، وهو رأس الفضائل الخلقية.

(ب) التوجيه لتعليق القلب في كلّ المطالب بالله تعالى، وهو أعلى درجة في خلق علو الهمة وعزة النفس بالله.

(ج) التوجيه للرضى بقضاء الله وقدره وصرف القلب عما سوى الله تعالى، وهذا من أرفع درجات مكارم الأخلاق.

(د) التوجيه لخلق الصبر، والصبر من الأصول الكبرى للمكارم الخلقية.

— ٦ —

في الإيمان والجهاد والبذل والتعاون وكفّ الأذى

روى البخاري ومسلم عن أبي ذرّ جُنْدب بن جنادة قال:

قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟.

قال: «الإيمان بالله والجهاد في سبيله».

قلت: أي الرقاب أفضل؟

قال: «أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمناً».

قلت: فإن لم أفعل؟

قال: «تُعين صانعاً، أو تصنع لأخرق».
قلت: يا رسول الله، أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟
قال: «تكف شرك عن الناس، فإنّها صدقة منك على نفسك».
* في هذا الحديث توجيهات خُلقية كريمة:

فالأول: الإيمان بالله، وهو أفضل الأعمال، وأعظم الأسس الأخلاقية، لأنه الاعتراف القلبي والإذعان النفسي للحقيقة الكبرى في الوجود، وهذا الاعتراف وهذا الإذعان سلوك أخلاقي، وعمل من الأعمال، ولذلك جعله الرسول ﷺ أفضل الأعمال.

والإيمان غير مجرّد المعرفة، إنّ المعرفة وحدها لا تكون إيماناً، حتى يقترن بها إذعان قلبيٌّ ونفسي خاضع للإرادة الحرة داخل الإنسان، فهو بذلك يدخل في عموم العمل الإنسان الإرادي، لأنّه حركة إرادية، وليس انفعالاً ضرورياً كحصول المعرفة بعد حصول أسبابها.

والثاني: الجهاد في سبيل الله، وهو من أفضل الأعمال بعد الإيمان، وظاهرة من ظواهر الأخلاق الإيمانية.

فالجهاد في سبيل الله لا يتأتّى في سلوك الإنسان ما لم يسبقه الإيمان، ولا يكون سمة ملازمة لسلوك المؤمن ما لم يسبقه تدريب نفسيٌّ وجسدي، حتى يتأصل في العادة العملية، وهذا يكشف ما في الجهاد في سبيل الله من أنه ظاهرة من ظواهر الأخلاق الإيمانية.

يضاف إلى ذلك أن الجهاد في سبيل الله لا يتحقق في الواقع ما لم تكن الغاية منه ابتغاء مرضاة الله تعالى، وهذه الغاية هي من أرقى الغايات الخلقية.

والثالث: عتق أنفس الرقاب عند أهلها وأكثرها ثمناً، فهو يدخل في خلق الجود وحبّ العطاء، لأنه تنازل عن حقّ الملك الشخصي بوجه من وجوه الخير، وحينما تكون الغاية منه ابتغاء مرضاة الله تعالى، يكون عملاً نابعاً من خُلُق نفسي كريم، غير مقتصر على السلوك الظاهر.

وقد أبان الرسول ﷺ لأبي ذرّ أنّ أفضل الرقاب التي إذا أعتقها مالكها نال الثواب الأفضل عند الله تعالى، هي أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمناً، وذلك

لأنّ بذلها فيه فعالية قوية للنفس، لتعلق النفس بها، وفيه اقتحام عقبة كبرى من عقبات النفس، والله تعالى يقول: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا ممّا تحبون﴾.

والرّابع: معونة المسلم لأخيه، وفي التوجيه لهذا قال الرسول ﷺ لأبـي ذرّ: «تعين صانعاً، أو تصنع لأخرق».

وفي هذا توجيه لعمل أخلاقي كريم، إذ المعونة بذلٌ وعطاء من الجهد للآخرين، وهو من مكارم الأخلاق لا محالة، ما لم تكن معونة على الإثم أو العدوان أو معصية الرسول.

ومعاونة الصانع في صنعته التي يعملها معروف إنساني يقدّمه الإنسان لأخيه، سواء أكانت معاونة مادّية أو فكرية أو تشجيعية أو غير ذلك. لا سيما إذا كان من يريد الصنعة أخرق لا يحسن ما يحاول فعله، فمساعدته حينئذٍ معروف يشبه البذل للفقير أو المسكين، لأنه فقير في صنعته إلى من يساعده ويصنع له.

والخامس: وهو عمل سلبيّ خُلقي، ويأتي في أدنى مراتب العمل الأخلاقي، وهو أن يكفّ الإنسان شرّه عن الناس، وهو ما أجاب به الرسول ﷺ أبا ذرّ حين قال له: يا رسول الله، أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ فقال له الرسول ﷺ: «تكف شرّك عن الناس، فإنها صدقة منك على نفسك».

أي أرأيت إن ضعفت عن عمل أعين به الناس، أو أفعل به الخير لهم، فأرشده الرسول ﷺ إلى عمل سلبـي يستطيعه كل إنسان مهما بلغ به الضعف، ألا وهو كف شره عن الناس.

فالإمساك عن فعل الشر مع رغبة النفس به سلوك خلقي كريم، يثابُ عليه المؤمن ما ابتغى به وجه الله تعالى، ويكون عندئذ هذا الإمساك عن الشرّ صدقة يتصدّق بها الإنسان على نفسه.

على أنّ كفّ الشرّ عن الناس صدقة خفيّة عليهم، ولكنّها لا تدرك عند كثير من الناس، لا سيما إذا كان كفّ الشرّ عملاً إراديّاً مقصوداً مع حاجة النفس إليه، أما حينما يكون انصرافاً غير مقصود لعدم تعلّق النفس به، فإنه حينئذٍ لا يكون كفّاً أخلاقياً، إذ العمل الأخلاقي هو ما كان أثراً لدافع أخلاقي، ومقترناً بنيّة أخلاقية.

وفي الحديث دلالة على حرص أصحاب الرسول ﷺ على أمور دينهم، وما يقرّبهم إلى الله تعالى من الأعمال، وما يغنمون به أعظم الأجر عنده، وعلى حرصهم على الارتقاء في سلّم المجد العظيم، ولذلك كانوا النموذج الأمثل للمجتمع الأخلاقي المسلم.

ـ ٧ ـ

في التعاون بين المسلمين والحث على العلم ومسؤولية الإنسان الشخصية، وفي أن الجـزاء من جنس العمـل

روى مسلم عن أبـي هريرة أنّ النبـي ﷺ قال:

«من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كُرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عونٰ العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلّا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه».

في هذا الحديث حثٌ على وجوه من معونة المؤمن لأخيه المؤمن، وبيان لقاعدة من قواعد الجزاء الربّاني، وهي أن الجزاء يكون من جنس العمل.

* وقد اشتمل على موضوعات سبعة، فيها توجيهات جميلة، لفضائل جليلة:

١ ـ **الموضوع الأول**: ما تضمنه قول الرسول ﷺ : «من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة».

فقرر هذا البيان أن الجزاء بالثواب من جنس العمل إلّا أنه أعظم وأجل.

والتنفيس في اللّغة يأتي بمعنى التفريج والتوسعة، وكأن هذا المصدر مأخوذ من النَّفْس التي يضغط فيها الهم والغم والحزن، فالتنفيس عنها هو إخراج ما يضغط في داخلها من ذلك، بتوسعة وتفريج، أو مأخوذٌ من النَّفَس وهو الذي يتنسمه الإنسان فيستروح به، ويخلص به من حالة الضيق المادّي الذي يصيبه إذا هو لم يأخذ منه جديداً ولم يطرد منه محترقاً، ثم جرى نقل هذا المعنى المادي على سبيل الاستعارة إلى المعاني النفسية.

والكَرْب في اللّغة الحزن والغمّ الذي يأخذ بالنفس، ويضغط فيها ضغطاً مؤلماً، والاسم منه الكُرْبة، وجمعُها كُرَب.

والكُرَبُ الضاغطات في الأنفس المؤلمات لها، لا تستريح الأنفس منها إلّا بالتنفيس.

وهنا يأتي دور مساعدة المؤمن لأخيه المؤمن، بتنفيس الكُرب عنه إذا هي حلّت به، أو حلّ به شيءٌ منها. وبغية مساعدته ينظر في سبب الكربة: فإذا كانت كربته من جهة فقره وحاجته ساعده حتى يسدّ حاجته، ويرفع عنه ضرورته، سواء أكان ذلك من ماله، أو من مساعيه الحسنة، بدعوة ذوي الإحسان إلى البذل له والتوسعة عليه. وإذا كانت كربته بسبب حاجته إلى قرض حسن يدفع به ضرورة ملحّة أقرضه. وإذا كانت كربته بسبب مصيبة حلّت فيه واساه وعزّاه حتى تنفرج عنه الكربة. وإذا كانت كربته بسبب حاجته إلى شفاعة حسنة شفع له. وإذا كانت كربته بسبب حاجته إلى زواج سعى في تزويجه. أو بسبب حاجته إلى عمل سعى في تهيئة العمل الملائم له. أو بسبب حاجته إلى تداوٍ من علّة سعى له فيما يريد حتى تنفرج كربته. أو بسبب حالات نفسيّة خاصّة واساه ونصح له وعالجه علاجاً نفسياً حتى ينفس عنه كربته.

وجزاؤه عند الله أن يكافئه على عمله بثواب من جنس عمله، وذلك بأن ينفّس الله عنه كربة من كُرَب يوم القيامة، وفرق كبير بين كُرَب الدنيا وكُرَب يوم القيامة. إنّ كُرَب الدنيا كلّها لو جمعت لا تعادل بعض كُرَب يوم القيامة، فَنِعْمَ الثوابُ ثواب من ينفّس الكرب عن إخوانه المؤمنين في هذه الحياة الدنيا، إنّه لثواب عظيم.

هذا الخلق الاجتماعي العظيم الذي يدعو إليه الإسلام يشتمل على عنصر المشاركة الوجدانية، وعنصري المساعدة المادّية والمعنوية، ويعبّر عن حقيقة الأخوة الإيمانية في الواقع التطبيقي، ويبرز معاني الجسدية الواحدة القائمة بين المؤمنين، وكلّ هذه الفضائل من صميم مكارم الأخلاق الاجتماعية.

٢ ـ **الموضوع الثاني**: ما تضمنه قول الرسول ﷺ: «ومن يسّر على معسرٍ يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة».

وقرر هذا البيان أيضاً أنّ الجزاء بالثواب في سنّة الله من جنس العمل، إلّا أنه أعظم وأجل، إنّها سنة ربّانية، وقاعدة تربوية عظيمة.

فمن يسّر على معسر في الدنيا يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة.

والتيسير هو التسهيل والمسامحة، ويكون التيسير على المعسر من وجوه شتّى. منها التيسير على المدين إذا حلّ أجل الدين ولم يجد عنده ما يفي به دينه، وذلك بإنظاره أو مسامحته، والله تبارك وتعالى يوصينا بهذا فيقول في سورة (البقرة ٢):

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾.

فأمر بالنّظِرة إلى الميسرة، والنّظِرة هي الانتظار، ووجّه إلى ما هو خير منها وهو التجاوز والمسامحة، وسمّى ذلك صدقة، لأنّه من قبيل الصدقة الخفيّة.

وقد جاء في الحديث الصحيح أنّ رجلاً كان يداين الناس فإذا حلّ الأجل ولم يجد لديهم ما يؤدون منه ديونهم تجاوز عنهم، فكافأه الله على ذلك فتجاوز عنه وأدخله الجنة.

ومن التيسير على المعسر التيسير في المبايعات، وذلك بالتساهل معه إذا لم يكن لديه ما يفي بثمن السّلعة، أو بتأجيل بقيّة ثمنها.

ومن التيسير على المعسر التيسير على الصانع الذي لم يتمكّن من تأدية

العمل في الوقت المحدّد له، وذلك بالتسامح معه، وبتأجيله إلى وقت آخر، إلّا أن يكون كاذباً مراوغاً فللكاذب جزاؤه.

وهكذا تكثر المجالات التي يكون فيها التيسير على المعسرين، وجزاء الميسّرين أنّ الله تبارك وتعالى ييسّر عليهم أمورهم في الدنيا دار الابتلاء والجزاء الأصغر، وفي الآخرة دار الجزاء الأكبر.

٣ ـ **الموضوع الثالث**: ما تضمنه قول الرسول ﷺ : «ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة».

فمن أخلاق المسلم أن يستر أخاه ولا يفضحه، ما لم يجاهر في معصيته أمام الناس، وما لم تكن معصيته ممّا يتعلّق بها حقٌ من حقوق الناس، أو حقّ من الحقوق العامة، أو تفضي إلى الإضرار بمصالح المسلمين الكبرى.

وجزاء من يستر أخاه المسلم أن يستره الله في الدنيا وفي الآخرة.

وجاء في حديث آخر للرسول ﷺ : «لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلّا ستره الله يوم القيامة».

٤ ـ **الموضوع الرابع**: ما تضمنه قول الرسول ﷺ : «والله في عَوْن العبد ما كان العبد في عون أخيه».

فمعاونة المسلم لأخيه المسلم فضيلة خلقيّة يقترن بها دائماً عون من الله له مكافأة له على عمله.

ومَن هذا الإنسان الذي لا يحتاج إلى معونة الله في أموره كلها؟ ومَن هذا الإنسان الذي يستطيع أن يستغني عن الله في أيّ شأن من شؤونه؟

إنّ جَزاء من يكون في عون أخيه واصل إليه تباعاً ما دام في عون أخيه، ولكن ثواب الله دائماً أعظم من عمل الإنسان، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والثواب الرّباني معجّل ومؤجل.

فمن كان في حاجة إلى معونة ربّانية في أمر من أموره فليسع في معونة أخ

مسلم له يجد الله معه يمدّه بعونه، وييسّر له أمره، وهذا من الأمور المجرّبة التي يقترن بها برهانها التطبيقي.

ومجالات المعونة كثيرة جداً لا تكاد تحصر، ولكن يشترط في المعونة أن لا يكون فيها معاونة على الإثم أو العدوان، أو مخالفة لأوامر الله ونواهيه، أو لأوامر الرسول ونواهيه، وفيما عدا ذلك تستحبّ المعونة أو تجب، على حسب واقعة الحال التي تستدعي المعونة.

فالعون يكون في مجال المساعدة بالمال، وبالجسم، وبالقول، وبالجاه، وبالفكر والمشورة النافعة، وبالعلم، وبالشفاعة الحسنة، والإمداد بالقوة والإمداد بالرجال، وما من عمل في الحياة إلّا له جوانب يمكن أن تكون مجالاً من مجالات العون، والعونُ الأسمى يكون في الإيثار.

والعون مظهر من مظاهر خلق حب العطاء أحد الأسس الأخلاقية العامة التي تنبع منها جملة من مكارم الأخلاق.

٥ ـ **الموضوع الخامس**: ما تضمّنه قول الرسول ﷺ: «ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة».

ففي هذا القول النبوي دعوة إلى الأخذ بسُبُل العلم والمعرفة، وحثُّ جميل على التماس العلم وسُلوك طرقه.

ومن الروائع التي اشتمل عليها هذا التوجيه أنّ طرق العلم والمعرفة هي طُرق إلى الجنة، لأن العلم الصحيح الذي لا تدليس فيه ولا تزوير، من شأنه أن يدل على الله، لأن الله تبارك وتعالى قد أودع في كلّ حقيقة علمية من حقائق الوجود دليلاً عليه سبحانه، فمن طلب الحقيقة صادقاً في طلبها سهّل الله له طريقاً يوصله إلى معرفة الحقيقة، وهذه الحقيقة لا بدّ أن تنقله إلى معرفة الله، ومن كان صادقاً مع نفسه في طلب الحقيقة الصغرى فإنّ الحقيقة الكبرى ستفرض نفسها عليه، فيذعن لها ويؤمن بها، وعندئذ يسلك طريقه بالإيمان إلى جنّة الرضوان، فمن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة.

وفي مقدمة العلوم التي من التمسها سهّل الله له بها طريقاً إلى الجنّة علوم

الدين، على أن العلوم الأخرى ـ باستثناء العلوم الضارة المحرمة، وباستثناء الآراء الباطلة والأكاذيب التي تسمى علماً ـ من شأنها أن توصل طالب الحق الصادق في طلبه إلى معرفة الله، وهذه المعرفة تأخذ به إلى سلوك طريق الجنة، لأنّ العلوم الكونية الحقّة تدلّ بظاهرة الإتقان وإحكام الصنعة على المتقن الحكيم، فمن كان صادقاً في طلب الحقيقة، باحثاً عنها بحث العالم المنصف توصّل إلى معرفة الله، ومن توصّل إلى معرفة الله وهو في نفسه منصف محبٌّ للحقّ فلا غرو أن يؤمن، والإيمان الصادق هو فاتحة الطريق الموصل إلى الجنة، ولذلك نجد معظم العلماء المنصفين الباحثين عن الحقيقة مهما كان نوع اختصاصهم ينتهون بعد التعمق في البحث العلمي إلى الإيمان بالله جلّ وعلا، وهذا ما تشهد به أقوالهم الكثيرة واعترافاتهم الصادقة.

٦ ـ الموضوع السادس: ما تضمنه قول الرسول ﷺ: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلّا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده».

فقد اشتمل هذا التوجيه النبويّ على فضيلة ذات ثلاث عناصر:

(أ) الاجتماع في بيت من بيوت الله.

(ب) تلاوة كتاب الله.

(ج) تدارس معاني كتاب الله فيما بينهم.

وهذا الاجتماع يشتمل على عبادة الالتقاء على الخير، وعبادة الجلوس في بيت من بيوت الله، وعبادة تلاوة كتاب الله، وعبادة تدارس العلم الذي اشتمل عليه هذا الكتاب المجيد.

أمّا الاجتماع بين المسلمين المؤمنين فله ثمرات طيبات جداً، إذ تتلاقح فيه القلوب والأفكار، وتتعاون فيما بينها على الارتقاء في معارج مرضاة الله تعالى، لا سيما إذا كان هذا الاجتماع في مسجد من المساجد، حيث تتنزّل رحمات الله، وتكثر نفحات الخير، وتتعاقب وفود الملائكة.

وأمّا تلاوة كتاب الله تعالى ففضلها عظيم، روى الترمذي عن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال:

«فمن قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف».

(قال الترمذي: حديث حسن صحيح)

وروى مسلم عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه».

وروى البخاري عن عثمان بن عفّان قال: قال رسول الله ﷺ:

«خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه».

فإذا اقترنت بتلاوة القرآن مدارسته كان ذلك خيراً وأعظم أجراً، لأنّ القرآن إنما أنزل في الأصل لتدبّر معانيه، والعمل بما فيه، والقرآن يأتي يوم القيامة يحاجّ عن صاحبه الذي كان يعمل به، روى مسلم عن النوّاس بن سمعان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا، تقدُمُه سورة البقرة وآل عمران تحاجّان عن صاحبهما».

فمن يعمل بالقرآن تكون حجته عند الله معه، لأنه هو الكتاب الذي أنزله الله وأمر الناس بالعمل بما اشتمل عليه من أحكام، فمن عمل به فقد أدّى ما فُرض عليه من قبل الله عزّ وجلّ.

ولصاحب القرآن في الدنيا ميزة يوم القيامة، وقد جاء بيان هذه الميزة في حديث رواه أبو داود والترمذي بإسناد صحيح عن عبدالله بن عمْرو بن العاص، أنّ النبي ﷺ قال:

«يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق، ورتّل كما كنت ترتل في الدنيا، فإنّ منزلتك عند آخر آية تقرأ».

وفي هذه الفضيلة التي دعا إليها الرسول ﷺ دعوةً إلى الجماعة، وإلى تلاقي المؤمنين على الخير في أماكن العبادة، وقد اشتمل هذا الخير على تلاوة

تعبدية ومدارسة علمية، فهي جملة فضائل تقوّي أواصر الجماعة، وتغذّي روح التعاون بين المؤمنين.

والخيرات التي يظفر بها المجتمعون في بيت من بيوت الله على تلاوة كتاب الله ومدارسته فيما بينهم، قد بينها الرسول في أربعة أمور:

الأول: تنزل عليهم السكينة، والسكينة في اللغة تأتي بمعنى الوقار والطمأنينة القلبية، وهي مشتقة من السكون، وإنما يكون السكون النفسيّ والقلبي حينما تمرّ على الإنسان نفحات السعادة الرّبانية، وقد تمثّلت السكينة لبعض أصحاب الرسول ﷺ بصورة سحابة تنزلت من السماء، روى البخاري ومسلم عن البراء قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف، وعنده فرس مربوط بشطَنَيْن[1]، فتغشته سحابة، فجعلت تدنو، وجعل فرسه ينفر منها، فلمّا أصبح أتى النبيّ ﷺ فذكر له ذلك، فقال ﷺ: «تلك السكينة تنزّلت للقرآن».

الثاني: تغشاهم الرحمة، أي تعمّهم وتنزل عليهم رحمة من عند الله، لاجتماعهم، وتلاوتهم كتاب الله، وتدارس معانيه فيما بينهم.

الثالث: تحفّهم الملائكة، أي تحف مجلسهم من كلّ جوانبه، وقد ثبت في الصحيح أنّ بعضهم يحفُّ بعضاً بأجنحتهم حتى يملأوا ما بينهم وبين السماء الدنيا.

الرابع: يذكرهم الله فيمن عنده، وهذا تشريف كبير لهم، ورفع لأقدارهم في الملأ الأعلى.

٧ ــ **الموضوع السابع**: ما تضمنه قول الرسول ﷺ: «ومن بطّأ به عمله لم يُسرع به نسبه».

في هذا الكلام البليغ دعوة رفيعة إلى العمل الذاتي الذي تكتسب به الفضائل والكمالات، وفي هذه الدعوة تغذية لخلق علوّ الهمة وشحذٌ لها.

---

(١) بشَطَنَيْن: أي بحبلَيْن.

وفي هذا الكلام البليغ دعوة إلى عدم الاعتماد على مجد النسب فإنه لا يغني صاحبه عند الله من دون عمل ذاتي يؤهل الإنسان لارتقاء مجد حقيقي، فمن بطّأ به عمله فلم يساير ركب المتقدمين أو ينافسه ويسابقه لم يستطع مجدُ نَسَبه أن يجرّه فيجعله مع الركب، فضلاً عن أن يدفع به إلى مراتب المنافسة والسبق، بل سيبقى في ركب المتخلّفين الذين بطّأت بهم تقصيراتهم في العمل، أو أعمالهم السائرة في غير طريق الارتقاء والتقدّم، ولن تغني عنهم أنْسابهم.

ومع أن أرقى الأنساب وأعظمها مجداً نسب محمد رسول الله ﷺ، فقد نادى محمّد في الأقربين من أهله فقال: «يا صفية عمةَ رسول الله اعملي لنفسك لا أغني عنك من الله شيئاً. يا فاطمة بنتَ محمد اعملي لنفسك لا أغني عنك من الله شيئاً. يا عبَّاسُ بنَ عبدالمطلب اعمل لنفسك لا أغني عنك من الله شيئاً».

فلو كانت الأنساب تنفع الذين لا يعملون لما ألحّ رسول الله ﷺ على الأقربين من أهله أن يعملوا، ولما قال لهم: لا أغني عنكم من الله شيئاً.

ولو كانت الأنساب تنفع أصحابها لنفع النسب إلى نوح عليه السلام وَلَده الذي كان من المغرقين، لكن كفره بالله وسوء عمله قد قطع ما بينه وبين أبيه من وشائج النّسب، فقال الله تعالى له:

﴿إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح﴾.

أما الإبداع البلاغي في كلمة الرسول ﷺ: «ومن بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه» فيظهر فيه أمران:

الأول: ابتكار الفكرة التي تعزّ إلا على ذكي ألمعي، وهي عملٌ يبطىء ونسب لا يُسرع، وأبكار الأفكار تستقبلها النفوس بمسرة وانشراح.

الثاني: الجمع اللطيف بين المتضادات المتخاطرة التي يستدعي بعضها بعضاً، فالنفس حينما يُذكر أحد المتضادين تنطلق بسرعة إلى الثاني منهما، فإذا استكمل البليغ به الصورة الأدبية أرضى نفوس مخاطبيه وأوجد لديها إحساساً بالجمال الفني، فانفتحت لتفهم الكلام وتدبّر معانيه وحفظه وترديده.

— ٨ —

في الحرص على فعل المعروف وإن قلّ

وروى البخاري ومسلم عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ :

«ما منكم من أحد إلاّ سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدّم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلاّ ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلاّ النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشقّ تمره، فمن لم يجد فبكلمة طيبة».

أي فمن لم يجد نصف تمرة أو مقدارها يتصدّق به، فليقل كلمة طيبة، فالكلمة الطيبة الخفيفة على اللسان الهينة على النفس قد يكون لها أثر عظيم وثواب جسيم.

ما أعظم حرص الإسلام على فعل المعروف ولو كان المتيسّر منه شيئاً قليلاً فهو مساهمة جميلة وكريمة في فعل الخير والبرّ، ولذلك فإن الله تبارك وتعالى لا يضيّع مثقال ذرّة، فالعمل سواءٌ أكان قليلاً أو كثيراً، خيراً أو شرّاً مشمول عند الله بقانون: ﴿فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره﴾.

وصيانة لكرامة من يفعل المعروف القليل من احتقار الناس لفعله، نهى الرسول ﷺ بشدّة عن احتقار واستصغار المعروف الذي يقدّمه المسلم لأخيه المسلم، أو احتقار الموسرين ما يقدّمه المعسرون من صدقات قليلة في أبواب الخير العامة.

ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن أبـي هريرة، أنّ النبـي ﷺ قال:

«يا نساء المسلمات، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فِرْسَنَ شاة».

أي لا تحقرن جارة هدية لجارتها، ولو كان قدرها ظلف شاة، وهذا أحقر ما يمكن أن يُهدى في الأحوال النادرة.

واحتقار الصدقات التي يتصدّق بها المتطوعون الفقراء من المؤمنين، سمة من سمات المنافقين، وهذه السمة لا تليق بالمسلم في حال من الأحوال، وفي شأن المنافقين قال الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾.

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية أن الرسول ﷺ قد حثّ على الصدقة إعداداً لغزوة تبوك، فجاء عبدالرحمن بن عوف بأربعة آلاف، فقال: يا رسول الله مالي ثمانية آلاف، جئتك بنصفها وأمسكت نصفها، فقال: «بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت». وجاء أبو عقيل (وهو من فقراء الصحابة) بصاع من تمر، فقال: يا رسول الله، أصبت صاعين من تمر، صاعٌ أقرضه لربي، وصاع لعيالي.

فلمزهما المنافقون، وقالوا: ما الذي أعطى ابن عوف إلا رياء، وقالوا: ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا؟ مشيرين إليه باستهزاء واحتقار. وقالوا أيضاً: إنما أراد أن يذكّر بنفسه، فاحتقروا ما قدّم ولمزوه بذلك.

فانتصر الله له، وأثبت أنه كان صادقاً مع الله في بذله، وأنه بذل ما في وسعه، فهو مؤمن متطوّع في الصدقة، لا يجد إلاّ جهده، وأما جزاء الذين سخروا منه فسخرية الله منهم وعذاب أليم.

وروى مسلم عن أبي ذرّ قال: قال لي النبي ﷺ:

«لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طليق».

دلّ هذا الحديث على أنّ لقاء المسلم أخاه بالتحية والبشر والوجه الطليق عمل من أعمال المعروف التي يثاب عليها لأنه يدخل به السرور إلى قلبه.

ومن البرّ كلّ عمل أو قول يُدخل السرور إلى قلوب الناس، ما لم يكن فيه إثم ومعصية لله تعالى.

والحديث يحثّ على فعل المعروف صغيراً كان أو كبيراً، جليلاً كان أو حقيراً، فما دام المعروف عطاءً من مالٍ أو جاهٍ أو جسم أو بشرٍ أو قولٍ حسن، فهو برٌّ قد يصادف ذا حاجة، فيقع عنده موقعاً حسناً، وكثيراً ما يصدُّ

الإنسان عن فعل المعروف احتقاره لما بيده ممّا يملك في ساعته تقديمه، أو ممّا طاوعته نفسه أن يقدمه، وحلاً لهذه العقدة الصادّة عن فعل أنواع كثيرة من المعروف، الذي قد يكون له أثر كبير عن الموجّه له رغم احتقار فاعله له.

وأدنى ما يفعل الإنسان من معروف أن يلقى أخاه بوجه طليق، إذ لا يكلّفه شيئاً غير بسط عضلات وجهه بطلاقة وابتسامة محبّبة للناظرين، ومع ذلك فعلى المسلم أن لا يحتقر هذا العمل الصغير، فقد يكون له أثر عند الناس كبير، أمّا أثره عند الله فعظيم.

ومن هذا القبيل قول الرسول ﷺ : «اتقوا النار ولو بشق تمرة».
(رواه البخاري ومسلم عن عديّ بن حاتم)

— ٩ —
في حبّ العطاء وقوة الإرادة وعلوّ الهمة

روى البخاري ومسلم عن أبـي هريرة قال: جاء رجلٌ إلى النبـي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال:

«أن تصدّق وأنت صحيح شحيحٌ تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتّى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان».

أي ولا تهمل بذل الصدقة وأنت في حال صحتك وشُحك بالمال، وأنت في حالة نفسية تخشى معها الفقر وتأمل الغنى، حتى إذا بلغت الروح الحلقوم، وذلك عند النزع وخروج الروح، قلت عندئذٍ في وصيتك: لفلان كذا، ولفلانٍ كذا، وقد كان هذا الذي تبذله وأنت في هذه الحالة لفلانٍ ما لا محالة، أي إنّ مالك كلّه صائر لغيرك لا محالة، وغيرك يكنّى عنه بفلان.

وفي هذا الحديث من التربية الخلقية أمران:

الأول: يوجّه فيه الرسول ﷺ المسلم إلى فضيلة خلق حبّ العطاء، لا سيما العطاء الذي يكون في محله، والذي يبتغى به وجه الله تعالى، وهو عطاء الصدقة، ولا سيما أيضاً العطاء الذي يكون الإنسان معه شديد الحرص على

ما يملك، واسع الأمل بالحياة، غير مرتقب الموت وغير يائس من طول البقاء، وطول الأمل يكون عادة في حالة الصحة والقوة، ومع طول الأمل يزداد الطمع بالدنيا والحرص على أموالها ومتاعها، وهذا ما ذكره الرسول ﷺ جواباً للسائل الذي سأله: أي الصدقة أفضل، بقوله: «أن تصدّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى».

الثاني: يوجّه فيه الرسول ﷺ المسلم لخلق قوة الإرادة وخلُق علوّ الهمّة، اللّذين ينشأ عنهما الحزم والعزم والمبادرة إلى فعل الخير، دون تهاون أو إهمال أو توانٍ أو تقصير، فكثير من الناس يريد الخير ولكن ينقصه الحزم والعزم، وتتقاصر همّته عن التنفيذ، فيصاب بداء التهاون والإهمال والتواني والكسل والتسويف في الأمور، حتى يضيع عمره كلّه، وعندئذ يجد نفسه أمام أجله المحتوم، وليس في صحيفة أعماله ما يعطيه ثمرة نافعة، وليس في مزرعة حياته إلا قفرٌ مغبر، أو نبات غير مثمر. فإذا أراد أن يتدارك ما فات لم يسعفه الوقت بأن يغنم ما يطمع فيه، وعندئذٍ لا يجد أمامه إلاّ الوصية يوصي بها، فيوصي لفلان بكذا من تركته، ولفلان بكذا، مع أنّ تركته صائرة حتماً إلى غيره، فهو بعطائه هذا إنما يعطي من مال غيره، لا من مالٍ له فيه مطمع لنفسه، ولذلك لم يأذن الله له بأن يتصرّف إلاّ في حدود ثلث ماله، وهذه صدقة تصدّق الله بها عليه، إذ أذن له أن يوصي بثلث ماله لغير الوارثين أما الوارث فلا وصية له كما ثبت في بيان الرسول ﷺ.

— ١٠ —

في الرحمة بذوي الحاجات والحث على العطاء

روى مسلم عن جرير بن عبدالله البَجَلي قال: كنّا في صدر النهار عند رسول الله ﷺ فجاء قومٌ عراةٌ، مجتابي النّمار أو العباء، متقلّدي السيوف، عامّتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتمعر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثمّ خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام، فصلى ثم خطب فقال:

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها

زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام. إن الله كان عليكم رقيباً﴾.

والآية التي في الحشر:

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظرْ نفسٌ ما قدمت لِغَدٍ واتقوا الله * إن الله خبير بما تعملون﴾.

«تصدق رجلٌ من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرّه، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشقّ تمرة».

قال: فجاء رجلٌ من الأنصار بصُرّة كادت كفّه تعجز عنها بل قد عجزت. قال: ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلّل كأنه مُذْهبة، فقال رسول الله ﷺ:

«من سنّ في الإسلام سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقُصَ من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقُصَ من أوزارهم شيء».

في صدر النهار: أي في أوله.

عُراة: جمع عارٍ، وهو من أخلقت أثوابه.

مجتابي النمار: أي مقطعي الثياب، والنمار جمع نِمرة، وهي بُردة من صوف يلبسها الأعراب مخططة تشبه جلد النمر.

فتمعّر وجه رسول الله: أي تغير لونه شفقة عليهم وتألماً لفقرهم.

الفاقه: الفقر والحاجة.

يتهلّل: أي يستنير ويتلألأ.

كأنه مُذهبة: أي كأنه فضة مموهة بالذهب.

الوزر: الحملُ الثقيل.

يستأثر بمشاعرنا في هذا الحديث إنسانية الرسول ﷺ الكاملة، ورحمته العظيمة، وشفقته الكريمة، بهؤلاء المضريّين البؤساء، الذين قدموا عليه صلوات الله عليه بأثوابهم المقطعة وجوعهم الظاهر، وفاقتهم التي تبعث الألم في قلوب الرحماء.

إن إنسانية الرسول الكاملة لم تمرّ على مشهد فاقه القوم المضريّين مرور أكثر الناس الذين تبلّد حسهم الإنساني، فلا يجدون انفعالاً وجدانياً نحو ذوي الحاجة يدفعهم لمواساتهم ورفع الضر عنهم، ولكنّ إنسانيته الكاملة صلوات الله عليه قد انفعلت لهذا المشهد انفعالاً بالغاً، ظهر في تلوّن وجهه رحمة بهم، ثم ظهر في دخوله إلى بيته لعلّه يجد عنده ما يواسيهم به، ثمّ ظهر باهتمامه البالغ بهم، الأمر الذي دعاه إلى جمع الناس، وحثهم بنفسه في خطبة مؤثرة رائعة على مواساة هؤلاء القوم ذوي الفاقة، وهو ما دفع المسلمين إلى أن يساهموا بمعوناتهم، حتى ترابى كومان من طعام وثياب بين يدي الرسول ﷺ قبل أن ينفضّ الجمع عقب صلاة الظهر على ما يظهر.

ألا فليتخذ القادة وعظماء الناس هذا الإنسان الكامل ذا الخلق العظيم أسوة حسنةً به يقتدون، وبهديه يسترشدون، فمن قصة هذا الحديث يتبين لنا ما كان يتحلّى به الرسول ﷺ من خلق الرحمة والمشاركة الوجدانية، وما كان يتحلّى به من جود نفسي عظيم، فالجواد إذا لم يجد ما يبذله بلغ الألم من نفسه مبلغاً كبيراً، ولا يُسرّي عنه هذا الألم إلا أن يجد الباذلين قد قاموا بما كان يريد أن يقوم به، ولا يشعر بالسعادة حتى يرى ذوي البؤس قد مسحت على صدورهم يد السعادة بتفريج الكرب، وإزالة البؤس.

والرسول ﷺ يخطب المسلمين بنفسه، ويحمل بنفسه مهمة الجباية للفقراء.

وكانت طريقة دعوة الرسول ﷺ لمساعدة هؤلاء القوم الفقراء طريقة بارعة بالغة اللّطف والرقة، فقد جاءت بأسلوب الخبر لا بأسلوب الأمر، وبأسلوب التنكير والإبهام لا بأسلوب الخطاب، وجاء التوجيه للبذل في حدود اليسر والاستطاعة، حتى لا يعتذر منهم معتذر بأنه لا كثير عنده ينفق منه، وحتى

لا يخجل منهم مقلٌّ بما يقدّم من قليل عطاء. وبإيجاز رائع أرشد وحثّ وبلغ الغاية.

واستجابة لهذه الدعوة الرفيقة الرقيقة إلى البذل تسابق المسلمون إلى تقديم ما جادت أنفسهم به، لقد علمهم الرسول ﷺ كيف تكون العاطفة الأخوية، والرحمة الإنسانية، والمشاركة الوجدانية، وكيف ينبغي أن تكون أخلاق المسلمين تجاه إخوانهم المسلمين.

ويدلّ على كمال إنسانية الرسول ﷺ مشهده وقد امتلأ قلبه سروراً وابتهاجاً، حتى طفح فظهر على وجهه تهلّلاً وإشراقاً وبشراً، حينما رأى عطايا الصدقةتترابى بين يديه لسدّ حاجة هؤلاء الفقراء الذين قدموا إليه بائسين.

ثم لم ينس الرسول ﷺ التنويه بفضل أول من بادر من المسلمين إلى تقديم صدقته، فسنّ بسبقه إلى البذل سنّة حسنة تبعه فيها غيره، وانتهز الرسول ﷺ هذه المناسبة لإعلان مبدأ هام من مبادىء الإسلام، وأصل عظيم من أصوله، فقال: «من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجرُ من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

وفي هذا إعلان لأصل من أصول المحاسبة والجزاء، وهو المحاسبة على العمل وعلى آثار العمل، خيراً كان أو شراً.

ـ ١١ ـ
في صدق التوكّل على الله

عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«لو أنكم تتوكّلون على الله حق توكّله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً».

أي تذهب في أوّل النهار ضامرة البطون فارغتها، وتروح في آخر النهار ممتلئة البطون من الشّبع.

هذا الحديث يؤكد العقيدة الإيمانية في قضيّة الرزق، ويوجه المؤمن إلى صدق التوكل على الله، حتى تكون مساعيه في اكتساب الرزق متّسمة بخلق الثقة بالمقادير الربانية، وبالوعد الرباني الذي ضمن الله فيه لعبادة أرزاقهم، وكلّفهم السعي لتحصيل ما قسم لهم، فما تموت نفس حتى تستوفي ما قدّر لها من رزق.

وهذه العقيدة الإيمانية قد تولى القرآن الكريم بيانها في مواضع كثيرة وفي مناسبات مختلفة، حتى يطمئن الناس على أرزاقهم، فلا يقلقوا من أجلها، ولا تكون سبب بخلهم أو جبنهم أو تتبعهم طرق الكسب الحرام.

ومن النصوص المقرّرة لهذه الحقيقة الإيمانية قول الله تعالى في سورة (الذاريات ٥١):

﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

فقد أقسم الله مؤكداً على أن قضية الرزق قضية مضمونة في السماء ﴿وفي السماء رزقكم﴾.

وهذا الضمان حقّ ظاهر، وهو قريب من متناول الإنسان، وواقع في ملكه مثلما يملك الإنسان نطقه ﴿فورب السماء والأرض إنه لحقٌّ مثلما أنكم تنطقون﴾.

ومن النصوص المقرّرة لهذه الحقيقة، قول الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾.

فهذا النص يقرر ويؤكد أن رزق كل دابة في الأرض إنما هو على الله، وهو سبحانه ضامن لهذا الرزق.

وقول الله تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

ولكنّ الرزق قد يأتي الإنسان من حيث يحتسبه، أي من الجهة التي يدخلها في حسابه، وقد يأتيه من حيث لا يحتسب، ولكنّ الذين يتّقون الله يميزهم بأنه سبحانه يرزقهم من حيث لا يحتسبون، ودليل هذا قول الله تعالى في سورة (الطلاق ٦٥):

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾.

لكنّ الرزق المضمون لا يشترط أن يكون متساوياً بين أفراد المرزوقين، بل التفاوت والتفضيل بين الأفراد هو السنة الثابتة في قضية الرزق، ويدلّ عليه نصوص كثيرة، منها قول الله تعالى في سورة(النحل ١٦):

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ﴿٧١﴾﴾.

أمّا التفضيل فله حكم ربّانية كثيرة، منها امتحان الناس بعضهم ببعض، ومنها امتحان الغني هل يشكر أم يكفر، وامتحان الفقير هل يصبر أم يضجر.

هذه قضية الرزق وما يتعلّق بها من مفاهيم إيمانية، ومن واجب المؤمن الخلقي في علاقته بربّه خالقه ورازقه أن يؤمن به، وبكل صفات الكمال التي له، وبكل ما أخبر به، وإلّا كان مدنّساً بقذارة الجحود والكنود، وبخساسة نكران الحقّ ونكران الجميل، وبخساسة التكذيب بالحقّ.

فمن حقّ من ضمن الرزق لعبده ضماناً قطعياً وهو يعلم أنه لا يخلف وعده، أن يصدّقه وأن يسعى في اكتساب رزقه الذي قدره له كما أمره، وحين يسعى في اكتساب رزقه كما أمره لا يعلّق قلبه بالأسباب التي يباشرها، بل بمسبب الأسباب الذي ربط النتائج بها.

وهذا سلوك أخلاقي واجب، لأن تأدية الحقوق الواجبة ممّا تفرضه مكارم الأخلاق.

فتعليق القلب بالخالق مسبّب الأسباب مع مباشرة الأسباب التي أمر بها هو التوكّل الحقيقي على الله، وهو التوكّل الحقيقي المطلوب في الإسلام، وهو ظاهرة إيمانية، وظاهرة خلقية.

ـ ١٢ ـ
في حمد الله والرضى عنه وما يقترن بهما من ظواهر خلقية

روى مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنّ الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها».

فمن جلائل فضائل خلق المسلم أن يكون كثير الحمد لله، في أحواله كلّها، إذا أكل حمد الله، وإذا شرب حمد الله، وإذا قضيت له حاجة حمد الله، وإذا ربح في تجارته حمد الله، وإذا سَلِم من مكروه حمد الله، وإذا تعلّم مسألة من العلم حمد الله وهكذا في أمره كله، حتى فيما يكره من الأمور، لأنه لا يعلم أين يكون الخير، هل هو فيما يحبّ أو فيما يكره.

والله تعالى ليرضى عن عبده إذا كان كثير الحمد له، لأن العبد يبرهن بحمده لربّه على أنه ذو خلق كريم، يعترف للمنعم بنعمه فيحمده عليها، وللمحسن بإحسانه فيثني عليه به.

إنّ حمد المنعم على نعمه مظهر من مظاهر مكارم الأخلاق، وهو يرجع إلى حبّ الحقّ وإيثاره والاعتراف به، ومقابلة الجميل بالثناء عليه.

والحمد لله في الأحوال كلّها أثر من آثار رضى القلب عن الله، ورضى القلب عنصر من عناصر السعادة. فالحمّاد في سائر أحواله سعيد في حياته، والسعادة أجلّ نعمة في الحياة يسعى إليها العقلاء، ولكنهم كثيراً ما يجهلون طريقها، ويخطئون في طلبها من غير أسبابها ووسائلها، فيقعون في متاهات كثيرات، وتخونهم الأماني فلا يجدون ما ينشدون، ويتكشّف لهم بعد التجربة

أنّهم كانوا يطلبون الشراب من السراب، ويرجون الأمن من متن العباب، ويبدو لهم بعد فوات الأوان، أنهم كانوا يحرثون في الماء، ويبذرون في الهواء.

كم تصوّر ناس سعادتهم في المال فلما جاءهم المال لم يكن سبب سعادتهم، بل ربما كان سبب شقائهم.

وكم تصوّر ناس سعادتهم في البنين والذرية فلما جاءهم ما يرجون من ذلك لم يكن سبب سعادتهم، بل ربما كان سبب شقائهم وسبب تعاستهم.

وكم تصوّر ناس سعادتهم في الجاه والمجد الدنيوي، فلما ظفروا من ذلك بما يرجون لم يكن سبب سعادتهم، بل ربما كان سبب متاعبهم الكثيرة وسبب شقاء لهم وتعاسة، حتى إنّهم ليحسدون آحاد الناس ممّن لا جاه لهم ولا مجد على ما يتمتعون به من سعادة وهناءة عيش، ورضى قلب وطمأنينة نفس.

وكم تصوّر ناس سعادتهم في الحصول على لذّات الجسد ومتعه، فلمّا نالوا من ذلك نهمتهم لم يجدوا أن سعادتهم قد تحققت، بل ربما كانت هذه المتع التي سعوا إليها سبب آلام كثيرات حلّت في أنفسهم أو أجسادهم.

لكنّ حمد الله في الأحوال كلّها ورضى النفس عن الله من العناصر التي تمنح الأنفس سعادتها لا محالة.

فالعاقل هو الذي يستطيع أن يتكيّف مع الأحوال التي تكتنفه، وأن يكون راضي القلب والنفس بها، حامداً الله عليها، ساعياً في التحسين ودفع ما يكره ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فإن لم يستطع تقبّل الواقع بنفس هنيّة رضيّة، وسأل الله في ذلك الرضى والأجر وحسن المثوبة.

وتدريب النفس على حمد الله في كلّ الأحوال من شأنه أن يحلّي الإنسان بعدّة فضائل خلقية، منها خلق الصبر، وعدم التضجّر، ومنها حسن مواجهة الناس بطلاقة وجهٍ، وسماحة نفس، ومنها البعد عن كلّ نكد وتذمُّر وضيق صدر، ومنها معاملة الناس بالإغضاء عن السيئات والهفوات، ومعاملتهم بالعفو والإحسان، إلى غير ذلك من أخلاق كثيرة، فهي جميعها من ثمرات تأصيل

خلق الحمد لله في نفس المؤمن، ولذلك علّمنا الإسلام أن نحمد الله على كل ما يجري لنا من خير، وأن نحمده على كل ما يصيبنا من مكروه، لأن المكروه لأنفسنا ربما كان هو الخير لنا، والله يعلم حقائق الأمور، في حين أننا كثيراً ما نجهلها.

ومن صفات المؤمنين أنهم حامدون لله. قال الله تعالى في وصفهم في سورة (التوبة ٩):

﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

فالمؤمنون من صفاتهم أنهم تائبون، أي يرجعون إلى ربّهم بالطاعة، كلّما ابتعدوا عنه بالمعصية، ويرجعون إليه بالاستغفار والندم على ما فرّطوا في جنب الله.

ومن صفاتهم أنهم عابدون لله خاضعون له، غير متمردين على أوامره ونواهيه، وغير مستكبرين عن عبادته.

ومن صفاتهم أنهم حامدون.

ومن صفاتهم أنهم سائحون، أي يصومون طاعة لله، وأنهم مصلّون راكعون ساجدون.

ومن صفاتهم أنهم حرّاس المجتمع المسلم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن صفاتهم أنهم حافظون لحدود الله فلا يتجاوزونها ولا يقعون فيها، بل يلتزمون ما أمرهم بالتزامه، وهؤلاء لهم البشرى من الله.

- ١٣ -

في التحذير من الظلم ومن الشحّ

روى مسلم عن جابر، أن رسول الله ﷺ قال:

«اتّقوا الظلم فإنّ الظلم ظلمات يوم القيامة، واتّقوا الشّحّ فإن الشحّ أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم».

في هذا الحديث يحذّر الرسول ﷺ من رذيلتين من رذائل الأخلاق، هما الظلم والشحّ، ويبيّن عاقبة الظلم الوخيمة، ويكشف آثار الشحّ الضارة في المجتمع الإنساني، فالشحّ أهلك في التاريخ الإنساني أمماً، حملهم على سفك الدماء واستحلال المحارم، فأفضى بهم ذلك إلى الهلاك.

وإذ يحذّر الرسول ﷺ من الظلم يذكر ما يتعرض له الظالم من عقاب شديد على ظلمه، فالظلم يوم القيامة ظلمات شديدة رهيبة، مشتملة على عذاب أليم يمسّ الظالم عقاباً له على ظلمه. وقد أطلق الرسول الظلم ولم يحدّد نوعاً من أنواعه، ليشمل أنواع الظلم كلّها، الظلم في المال، وفي الأنفس، وفي الأعراض، وفي الحكم والقضاء، وفي العقائد وفي اتباع الظن، إلى سائر أنواع الظلم.

والظلمات يوم القيامة مقرونة بالعذاب، فقد ثبت في القرآن أنّ المنافقين والمنافقات يحرمون من النور يوم القيامة، فيسعون وراء المؤمنين يقولون لهم: انتظرونا نقتبس من نوركم، فيُقال لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً، ويضرب بين الفريقين بسور له باب، باطنه فيه الرحمة التي يسعد بها المؤمنون، وظاهره من قِبَله العذاب الذي يشقى به المنافقون، قال الله تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾.

ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً: أي ارجعوا إلى أعمالكم التي عملتموها في ماضي حياتكم في الدار الدنيا فالتمسوا نوركم منها إن كان لكم فيها عمل صالح. ولكن أنّى لهم ذلك، إنهم لم يعملوا إلاّ ما يضاعف لهم الظلمات، وعندئذ يضرب بينهم وبين المؤمنين الذين دخلوا الجنّة بسورٍ له باب، باطن هذا السور من جهة الجنة فيه الرحمة، وظاهره حيث تتكاثف الظلمات من قِبَله العذاب.

وإذ يحذّر الرسول ﷺ من الشحّ يبيّن أنه أهلك أمماً سابقة، إذ حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم.

فالشحّ يفضي إلى مخاطر وأضرار يعرّض الأمة التي يشيع فيها ويستولي على أفرادها للهلاك، وهذه الحقيقة مؤيّدة بالوقائع التاريخية في الأمم السالفة.

والسبب في ذلك أنّ الشحّ يرافقه طمع الشحيح، ورغبته بالاستزادة، ويرافقه هضم الحقوق المالية ومنعها مستحقّيها، ومع هذين الأمرين الخبيثين توجد توتّرات اجتماعية خطيرة قائمة على الحقد والحسد والرغبة بالانتقام، وفي مقابلها كبر وأنانية ورغبة بالأثرة والاستعلاء وحبّ التسلّط.

ويوجد مع الشحّ الزائد عند الواجدين ضروراتٌ حياتية عند المحرومين، تدفع بهم إلى ارتكاب جرائم السرقة والسلب والنهب والقتل.

وهذه مناخات ملائمة لسفك الدماء واستحلال المحارم فيكثر القتل وينتشر الزنى.

وأمّة تنتشر فيها هذه الجرائم بنسبة واسعة لا بدّ أن ينتهي الأمر بها إلى الهلاك. وهكذا تنكشف طائفة من حلقات السلسلة السببية التي تبدأ بالشحّ وتنتهي بالهلاك.

ـ ١٤ ـ
في عدم المجاهرة بفعل السوء

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«كلّ أمّتي معافى إلاّ المجاهرين، وإنّ من المجاهرة أن يعمل الرجل باللّيل عملاً ثمّ يصبح وقد ستر الله عليه فيقول: يا فلان عملتُ البارحة كذا وكذا. وقد بات يستره ربّه، ويصبح يكشف ستر الله عليه».

فمن الناس من يفعلون السوء سرّاً، ويصبحون قد سترهم الله، فيأتون ويتحدّثون بين الناس بما فعلوا من إثم، كأنّهم لم يفعلوا شيئاً، وقد يتفاخرون بين الناس بما فعلوا كأنّهم قد فعلوا أمراً حسناً، وهذا مجون وتهتّك وقِحَة، وهو مثل المجاهرة العلنية بفعل السوء، ولا يكون من ذي حياء، وقد جاء في الحديث: «إنّ مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى، إذا لم تستحي فاصنع ما شئت».

فمن لاحياء عنده هان عليه أن يجاهر بما يفعل من قبيح، والمجون صفة من لا أخلاق له ولا فضيلة عنده تردعه وتمنعه عن القبائح.

سئل أحد أهل المجون: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت لا فرق عندي مدحني الناس أو ذمّوني. فقال له السائل: لقد استرحْتَ من حيث تَعِب الكرام.

فالماجن يفقد بمجونه كرامة نفسه، ويرضى لها مقام الذلّ والمهانة، ويرضى لها مقام الخزي والندامة والعذاب المهين يوم القيامة.

أمّا من يستحيي بخطيئته، ويتستّر فيها ويتوارى، ولا يتحدّث بها أمام الناس، فإنّ العافية مرجوّة له برحمة الله وتوفيقه، لأنّ حياءه الذي منعه من المجاهرة وجعله يتوارى ويتستّر، عنصر خلقي كريم سيأخذ بيده إلى مقام الاستحياء من الله، فيترك القبائح كلّها في سرّه وعلنه، لأنه يعلم أنّ الله مطلع عليه مراقب له، وسيحاسبه على أعماله حساباً عادلاً.

فالتستّر بفعل القبائح عمل أخلاقي فاضل، وستر المسلم أخاه المسلم

عمل أخلاقي فاضل، وكلّ منهما يساعد على كتم الرذيلة وإشاعة الفضيلة، بخلاف المجاهرة والفضيحة فإنّهما يساعدان على نشر الرذيلة وإشاعة الفواحش والقبائح بين الناس.

ـ ١٥ ـ
في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإنكاره وتغييره

١ ـ روى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

٢ ـ وروى مسلم عن عبدالله بن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال:

«ما من نبيّ بعثه الله في أمّة قبلي إلّا كان له من أمّته حواريّون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنّها تخلُف من بعدهم خلوف[١] يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل».

٣ ـ وروى البخاري عن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، إلّا أن تَرَوْا كفراً بواحاً[٢] عندكم من الله فيه برهان، وعلى أن نقول بالحقّ أينما كنّا لا نخاف في الله لومة لائم».

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاولة تغيير المنكر بالنصيحة وبالطرق

---

(١) خلوف: جمع خَلْف، وهم أقوام وأمم تأتي بعد أقوام وأمم، فتكون خلْفاً لهم، كقرنٍ وقرون.
(٢) بواحاً: أي جهاراً معْلناً ظاهراً.

العملية المثمرة، مساهمة جليلة في صيانة المجتمع وتقويمه وإصلاحه، وكلّ مساهمة في إصلاح المجتمعات الإنسانية وتقويمها وصيانتها أعمال أخلاقية فاضلة.

وحينما لا يستطيع الإنسان تغيير المنكر بيده، ولا إنكاره بلسانه، فإنه لا يبقى لديه إلّا أن ينكره بقلبه، وحركة القلب أوّل العمل الأخلاقي، ثم تأتي من بعدها ظواهر السلوك القولية أو العملية، وحين تقف عقبات دون ظهورها، أو لا توجد الاستطاعة لتنفيذها، أو تتخاذل النفس بالجبن، فإنّ العمل القلبي وحده يُعتبر في نظر الحقيقة عملاً أخلاقياً إلّا أنه عمل ضعيف من جهة آثاره المادّية الظاهرة، والعمل الأقوى منه هو ما كان له آثار في اللّسان، والأقوى منهما ما كان له آثار في التطبيق العملي، ولذلك وصف الرسول ﷺ إنكار القلب للمنكر بأنه أضعف الإيمان، مع إثبات أنه عمل إيماني.

وليس دون إنكار القلب مرتبة ضعيفة من مراتب الإيمان، فما دون إنكار القلب للمنكر إلّا الرضى بالمنكر، ثم استحسانه، ثم المتابعة عليه وفعله ونشره بين الناس، وكلّ ذلك ليس فيه من الإيمان مثقال حبّة من خردل، لأنه عمل لا يقتضيه الإيمان بحال من الأحوال، بل هو مناف لمقتضياته، فهو يقع خارج القوس الإيماني.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإنكاره ومحاولة تغييره من مكارم الأخلاق الإيمانية، لما فيها من خدمة اجتماعية، وصيانة للمجتمعات عن الانزلاق في مزالق الانحراف.

ولذلك حرص الإسلام حرصاً شديداً على جعل كلّ المسلمين والمسلمات حرّاساً لأسوار الفضائل وتعاليم الدين الحنيف، فمن جاهد منهم المنحرفين بيده فهو مؤمن، ومن جاهد بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهد بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل.

والرسول ﷺ يحمّل المجتمع المسلم مسؤولية تقويم المنحرفين وحراسة حدود الإسلام، بمستويات تتناسب مع مستويات الاستطاعة لكل فرد منهم، وهذه المسؤولية مسؤولية دينية أخلاقية معاً.

ولذلك كان من بنود البيعة التي بايع الرسول ﷺ عليها أصحابه، أن يقولوا بالحقّ أينما كانوا، وأن لا يخافوا في الله لومة لائم، والقول بالحقّ يتضمّن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ووظيفة حراسة المجتمع لحمايته من الانحراف وظيفة اجتماعية إلزامية، لا يجوز التخلّي عنها في حال من الأحوال والتخلّي عنها يعرض الأمّة كلّها للعقوبة العامة، وهذا ما هدّد به الرسول ﷺ في مناسبات متعدّدة، منها ما رواه الترمذي وقال: حديث حسن، عن حذيفة عن النبيّ ﷺ قال:

«والذي نفسي بيده، لتأمُرُنّ بالمعروف ولتنهوُنّ عن المنكر، أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثمّ تدعونه فلا يستجابُ لكم».

ومنها ما رواه أبو داود والترمذي والنسائي بأسانيد صحيحة، عن أبي بكر الصدّيق قال: يا أيّها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يا أيّها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم﴾ وإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمّهم الله بعقاب منه».

ومنها ما رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن، عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنّ أوّل ما دخل النقص على بني إسرائيل، أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتّق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحلّ لك، ثمّ يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلمّا فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض». ثم قال:

﴿لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عَصَوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون. ترى كثيراً منهم يتولّون الذين كفروا لبئس ما قدّمت لهم أنفسهم أن

سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون. ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكنّ كثيراً منهم فاسقون﴾[1]. ثم قال:

«كلاّ والله لتأمرُنّ بالمعروف، ولتنهوُنّ عن المنكر، ولتأخذُنّ على يد الظالم، ولتأطُرُنّه على الحقّ أطراً، ولتقصرُنّه على الحقّ قصراً، أو ليضربنّ الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم».

وفي حديث المبايعة المبايعةُ على السمع والطاعة، والسمعُ والطاعة من أخطر الفضائل وأجلّها في تكوين الأمم القوية المتماسكة، وإن أيّة أمّة لا تتحلى بخلق السمع والطاعة لقادتها لا تستطيع أن تبني نفسها البناء الجماعيّ القويّ المتماسك الحصين.

— ١٦ —
فيمن يأمر بالمعروف ولا يأتيه وينهى عن المنكر ويأتيه

روى البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار في الرّحا، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه».

هذا الحديث يبين حال معذّب بسيّئاته من معذّبي نار جهنم، يؤتى به يوم القيامة، فيلقى في النار على طريقة القذف المذلّ المهين، فيصطدم بما في النار اصطداماً عنيفاً يحطّمه ويشُق بطنه، فتندلق أقتاب بطنه، أي تخرج أمعاء بطنه بتتابع سريع، فتلمس شدّة العذاب. إنّها أمعاء كان يأكل فيها الأموال باسم الدين، ويحشوها حشو الجشعين، ويتعاظم بها تعاظم المترفين، فإذا رآها

(١) الآيات من٧٨ ــ ٨١ من سورة (المائدة ــ ٥).

مندلقة أمامهُ طار صوابه وتعاظم عذابه، وتراكبت عليه الذلّة، فيدور في النار كما يدور الحمار في الرّحا، فراراً ممّا يلاقيه من عذاب، ولكن أين المفرّ؟ إنه يفرّ فيجد نفسه يدور فيعود إلى المكان الذي فرّ منه، وهكذا تكون صورة عذابه.

ويرى الناس الذين كانوا يشاهدونه في الدنيا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهم منغمسون في معاصيهم، غير مكترثين بموعظة منه ولا تذكير، وقد كان يتعاظم عليهم في الدنيا بفضل العلم وبفضل التقوى التي كان يرائي الناس بها، فيناله الخزي، فيخفض رأسه ويغمض عينيه، فتكون صورته في كل ذلك كصورة الحمار الدائر في الرّحا، بدورانه وذلّته وإغماض عينيه، ولكنّ العصاة الذين كانوا يرونه في الدنيا واعظاً مرشداً يعجبون لأمره، فيأتون إليه فيقولون: يا فلانُ مالك؟!. ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. إذ كنت عالماً بالحلال والحرام، عارفاً بشرائع الله، متصدّياً لمهمة التوجيه العامّ، والأمر بوجوه الخير والنهي عن وجوه الشرّ، فما الذي دهاك فرماك بهذا العذاب المهين؟

فيقول: بلى، كنتُ آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه.

إن هذا العذاب الذي يناله هذا الفريق من الناس هو نتيجة المقت الرّباني الذي يحل بالذين يقولون ما لا يفعلون، وإنّه لكبُر مقتاً عند الله أن يقولوا ما لا يفعلون. قال الله تعالى في سورة (الصف ٦١):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾.

وقد استنكر الله هذا الخلق من اليهود أشدّ الاستنكار، فقال سبحانه وتعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٤٤ ﴾.

هذا التباين بين ما يدعو الإنسان إليه من فضائل، وبين ما يعمله في ذات نفسه ويمارسه من سلوك، تباين يتنافى مع الفضيلة الخلقية.

لأنّ هذا الإنسان إمّا أن يكون مؤمناً بما يدعو إليه، أو غير مؤمن، فإن كان غير مؤمن بما يدعو إليه، فهو إذن كاذب مراءٍ منافق، قد اتخذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صناعة من الصناعات، يستدر منها مالاً أو جاهاً أو أيّ عرض من أعراض الدنيا لنفسه، والكذب والرياء والنفاق من أقبح رذائل الأخلاق، لذلك فهو يستحق هذا العقاب المهين الأليم في نار جهنّم. وإن كان مؤمناً بما يدعو إليه من خير، فهو إذن عالم أحمق لا عقل عنده، إذ يعرف الخير وينحرف عنه، ويعرف الشرّ وينغمس فيه، ولا يكون هذا في الإنسان إلّا ثمرة انهيار أخلاقي في نفسه. فإما أن يكون مرضه الأخلاقي مرض الكبر عن الطاعة، ومن الطبيعي أن يستحق المستكبر هذا العذاب الأليم المهين، وإما أن يكون مرضه الأخلاقي مرض ضعف الإرادة وتخاذلها أمام سلطان الشهوات وأهواء النفس، وقد كان عليه أن يقوّي من إرادته، ولو أنه كان صادقاً مخلصاً في إرشاده ونصحه للناس، لاستطاعت أقواله ونصائحه أن تؤثر فيه تأثيراً ما، ومع التكرار والمتابعة يستقيم حاله، ويصير من الذين يعملون بما يقولون، لأنّ النصيحة الصادقة سلاح ذو حدّين: أحدهما يؤثر بالناصح، وثانيهما يؤثر بالسامع. فإذا هو استمرّ على حاله من الانحراف في السلوك، ومن مخالفة أعماله لأقواله، فهو إنسان قد تبلّد حسّه الأخلاقي، ومات ضميره ووجدانه، وتحوّل إلى تاجر أقوال، له منها مغانم ومنافع دنيوية، وصار إنساناً لا عقل عنده يعقله عن الشر، وعندئذ يكون علمه وتكون أقواله حجّة عليه، ولا ريب عندئذ أن يستحق هذا العذاب المهين الأليم.

فقوله تعالى للذين يأمرون الناس بالبرّ وينسون أنفسهم: ﴿أفلا تعقلون؟﴾ أي أفليس لديكم عقل يعقلكم عن اتباع أهوائكم وشهواتكم التي تزيّن لكم الإثم والمعصية وجحود الحقّ الذي جاءكم به الرسول محمد ﷺ.

على أن من كان مخلصاً في دعوته وإرشاده ونصحه، فلا بدّ أن يأتي عليه يوم تؤثر في نفسه أقواله، حتى يكون من أهل الاستقامة قولاً وعملاً. لذلك فعلى مرتكب الإثم أن ينصح الآخرين بعدم ارتكابه، وإن لم يستطع هو كفّ

نفسه عنه، لأنه إذا أخلص في نصحه استفاد هو من كلام نفسه مثل استفادة الآخرين منه أو أكثر.

ولكنّ الرذيلة الخلقية تتمثل باتخاذ صنعة الكلام تجارة دنيوية بالدين، إذ الحسّ الأخلاقي والحسّ الديني يتبلدان معها ثم يموت.

— ١٧ —

أصناف الناس بالنسبة إلى الهداية كأصناف الأرض بالنسبة إلى الغيث

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعَوْا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلِم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

الكلأ: ما تنبته الأرض من مرعى الدواب.
العشب: هو الرطب من البقول البرّية ينبت في الربيع.
الأجادب من الأرض: صلاب الأرض التي تمسك الماء فلا تشربه سريعاً.
القيعان: جمع قاع، والمراد منها أنواع من الأرض لا تمسك الماء ولا تنبت الكلأ.

يمثل الرسول ﷺ في هذا الحديث الهداية والعلم اللّذيْن بعثه الله بهما للناس بمثال مادّي مشاهد في أحداث الطبيعة، ألا وهو غيث السماء الذي ينزل على أصناف شتى من الأرض.

فالهدى والعلم كالغيث من السماء، وأصناف الناس في استقبال الهدى والعلم كأصناف الأرض في استقبال الغيث، فكل صنف منهم يشبه صنفاً منها.

ولمّا كان الهدى والعلم الرّبّانيان فيهما للناس حياة سعيدة باذخة المجد عزيزة الجانب، كان فيهما شبه بالغيث الذي ينزل من السماء، إذ فيه حياة الأرض ونضارتها ورونقها، هذا وجه شبه بينهما.

ووجه شبه آخر وهو أن الهدى والعلم الربانيان منزلان على الرسول ﷺ من السماء أي من جهة السموّ والعلو، وكذلك الغيث ينزل أيضاً بأمر الله وقضائه من جهة السماء.

ووجه شبه ثالث وهو أن الهدى والعلم الرّبّانيان أمران نقيان طاهران من كل باطل أو فساد، وكذلك الغيث الذي ينزل من السماء ينزل نقياً طاهراً من كلّ رجس ودنس.

ووجه شبه رابع وهو أن الهدى والعلم الرّبّانيان أمران يقدّمهما الرسول ﷺ إلى الناس جميعاً ليتعلّموا ويهتدوا، وكذلك الغيث إذ ينزل في بلد فإنه يشمل رقعة أرضها، فيصيب مختلف أصنافها جميعاً بنسبة متساوية، دون تفريق بين حجر صلد، ورمالٍ غير متماسكة، وتربة خصبة، وأرض سبخة.

(أ) فطائفة طيبة من الأرض يشبهها طائفة طيبة من الناس، إذ من الملاحظ أنّ غيث السماء ينزل عامّاً على جميع أصناف الأرض، كما يبلغ الرسول ﷺ الهدى والعلم لجميع الناس.

أمّا الغيث فتستقبله الأرض الطيبة الجيدة التربة الليّنة الجانب، وهي متعطشة له، مستعدة للحياة، خيّرة معطاء، غنية بالخصْب والنماء، فتنتفع من الغيث لنفسها، وتنفع بنباتها وثمراتها غيرها.

وكذلك نجد في الناس طائفة طيبة، تتقبّل الهدى والعلم، فتنتفع بهما اعتقاداً وعملاً، وتنفع الناس بهما دعوة وهداية وتعليماً.

والصفة الخلقية لهذه الطائفة هي التواضع ولين الجانب وحبّ الحقّ وإيثاره، وحبّ العطاءللآخرين.

ومعلوم أنّ أفراد هذه الطائفة الطيبة يتفاوتون فيما بينهم تفاوتاً كبيراً.

(ب) وطائفة أخرى أجادب من الأرض يشبهها طائفة من الناس.

والأجادب أرض لا خصب فيها، ولا خير عندها، لكنّها مطمئنة الجانب، يصيبها الغيث من السماء فتحفظه في منخفضاتها وفي تجاويفها، ولا تستكبر عن تلقّيه وحفظه. إلاّ أنها لا ترتشفه، فلا يخالط منها تربة صالحة. لذلك فهي لا تعطي ثمراً، ولا تنبت نباتاً حسناً، إنما تحتفظ بما ينزل عليها من الغيث، فيأتي الناس فيجدون ما عندها من ماءٍ فيأخذونه فينتفعون به، وهذه الطائفة من الأرض متفاوتة في مقادير ما تحفظ من ماء على مقدار ما عندها من استعداد للاستيعاب، فمنها ما يحوي البحيرات الكبيرة، ومنها ما يحوي الجرعات القليلة، ومنها ما هو بين ذلك.

وكذلك نجد في الناس طائفة كهذه الأجادب من الأرض، يُلقى عليها الهدى والعلم، فلا تقبل في ذاتها الخير والهداية، فلا تنبت عملاً صالحاً، ولا تمنح خيراً ولا ثمراً، لكنها تستوعب ما يلقى إليها استيعاب الحفظ المجرّد، فيأتي إليها طلاب الهداية والمعرفة، فيجدون ما عندها من ذلك، فيتعلّمونه ويعملون به، وينتفعون وينفعون.

والصفات الخلقية لهذه الطائفة صفات فيها بعض النفع للآخرين، ولكن ليس فيها نفع لأصحابها، فلديها حرص على تحصيل مجد بين الناس، ولكن ليس لديها قوة إرادة تضبط سلوكها على صراط الهداية، وتكبح جماح أهوائها وشهواتها.

(ج) وطائفة ثالثة من الأرض هي قيعان، يشبهها قسم من الناس لا خير فيه لنفسه ولا خير فيه لغيره.

نعم، في الأرض صخور قاسية ملساء، وأرض متحجّرة صلدة، ورؤوس جبال مستكبرة، ورمال ذرّاتها قاسية مبعثرة، ينزل عليها الغيث من السماء، فيصيبها كما يصيب غيرها من الأرض، لكنّها لا تمتصّ ماءً ولا تمسكه ولا تحفظه، ولا تنبت عشباً ولا كلأً، فهي لا تنتفع من الماء بنفسها، ولا تمسكه لمن ينتفع به.

وكذلك نجد في الناس طائفة كهذه القيعان، يقرع أسماعها هدى

الإسلام وعلومه، وتصدم عيونها أنواره، وتنزل عليها غيوثه، لكنّها لا تعبأ بهدي منه ولا معرفة ولا ترفع بشيءٍ من ذلك رؤوسها، قسوةً في قلوبها، وكبراً في نفوسها، وجفاءً في أخلاقها، فهي لا تقبل من الحقّ علماً ولا عملاً، يحجبها عن الخير شيءٌ في نفوسها مثل الشيء الذي نجده في صخرة صمّاء من الأرض، أو مثل الشيء الذي نجده في أرض صلبة مستوية ينسفح عنها الماء، أو مثل الشيء الذي نجده في رمل صلب الذّرات لا تماسك فيه.

وهذا القسم من الناس هو قسم الكفرة الجهلة، الذين يستكبرون عن العلم والعمل معاً، وتقسو قلوبهم، وتتحجّر عقولهم، فهم لا خير عندهم لأنفسهم، ولا خير عندهم لغيرهم.

والصفات الخلقية لهذه الطائفة من الناس فيها الكبر والقسوة، وجفاف العاطفة والانكماش عن التأثّر بالخير، أو تقديم النفع لأحد من الناس.

— ١٨ —

في تكريم ذوي الفضل وآداب المجالس

— روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: خرجتُ مع جرير بن عبد الله البجلي في سفر، فكان يخدمُني، فقلت له: لا تفعل. فقال: إنّي قد رأيت الأنصار تصنع برسول الله ﷺ شيئاً آليت أن لا أصحب أحداً منهم إلّا خدمته.

فهو رضي الله عنه يكرمهم بذلك تكريماً لرسول الله ﷺ لأنهم كانوا يخدمونه في حياته.

٢ — وروى مسلم عن عقبة بن عمرو البدري الأنصاري، أن رسول الله ﷺ قال:

«يؤم القوم أقرأهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواءً فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواءً

فأقدمهم سنّاً، ولا يؤمَّنَّ الرجلُ الرجلَ في سلطانه، ولا يقعد في بيته على تكرمته إلّا بإذنه».

فمن الآداب الإسلامية تقديم الأعلم، والأسبق في صالح العمل، والأكبر سنّاً على من سواهم.

٣ ــ وروى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

«لِيَلِنِي منكم أولو الأحلام والنهى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وإيّاكم وهيشات الأسواق».

هيشات الأسواق: أي جماعات الأسواق التي تختلط دون تنظيم ولا تنسيق، فيختلط فيها الصغير بالكبير، والجاهل بالعالم، وذو المكانة بغيره دون تمييز، فهذا الاختلاط الذي لا تمييز فيه مخالف للآداب الإسلامية.

وجاء في كلام الرسول ﷺ قوله: «أنزلوا الناس منازلهم».

٤ ــ وروى البخاري ومسلم أنّ عبد الرحمن بن سهل ذهب يتكلم وفي القوم من هو أكبر منه سنّاً، فقال له الرسول ﷺ: «كبّرْ كبّرْ».

أي ليتكلّم من هو أكبر منك سنّاً، وهذا الأدب قد تعلّمه أصحاب رسول الله ﷺ والتزموه، فهذا سمرة بن جندب يقول فيما رواه البخاري ومسلم: لقد كنت على عهد رسول الله ﷺ غلاماً، فكنت أحفظ عنه، فما يمنعني من القول إلّا أن ههنا رجالاً هم أسنّ منّي.

٥ ــ وروى الترمذي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما أكرم شابٌ شيخاً لسنّه إلّا قيض الله له من يكرمه عند سنه».

٦ ــ وروى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ أتي بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام، وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام:

«أتأذن لي أن أعطي هؤلاء».

فقال الغلام: لا والله يا رسول الله لا أؤثر بنصيبي منك أحداً، فتلّه رسول الله ﷺ في يده.

قال الشراح: الغلام هو ابن عباس.

فتلّه: أي ألقاه إليه بشيء من العنف الدال على عدم ارتياح الرسول ﷺ.

فمن الآداب الإسلامية في المجالس أنّ أول حلقة المجلس يمثلها دائماً وجه القوم ومتقدّمهم حيثما كان من المجلس، وقد التزم أصحاب رسول الله ﷺ هذا الأدب الإسلامي من الآداب الاجتماعية، فكانوا يبدأون برسول الله ﷺ في كل المجالس التي يكون فيها، فيقدمون إليه الشراب أوّلاً إذا كانت الضيافة على شراب، أو الطعام إذا كانت الضيافة على طعام.

فوجه المجلس هو واسطة العقد الذي ينبغي أن يبدأ به أوّلاً، سواء أكان في صدر المجلس أو في طرفه، ثمّ من على يمينه، ثم من على يساره.

٧ ــ وروى مسلم عن عبد الله بن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال:

«أراني في المنام أتسوّك بسواك، فجذبني رجلان أحدهما أكبر من الآخر، فناولتُ السواك الأصغر منهما، فقيل لي: كبّرْ، فدفعته إلى الأكبر».

فدلّ هذا الحديث على أنّ البدء بالأكبر من الآداب الإسلامية التي أمر بها الرسول في المنام.

ــ ١٩ ــ
في تربية الصغار على عفة النفس وعدم الشره والطمع . . وآداب الطعام

روى البخاري ومسلم عن عمر بن أبي سلمة ربيب رسول الله ﷺ قال: كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ:

«يا غلام سمّ الله، وكُل بيمينك وكلُ ممّا يليك».

فما زالت تلك طعمتي بعد.

تطيش في الصحفة: أي تدور في نواحي صحفة الطعام لاختيار أطيب ما فيها.

فما زالت تلك طعمتي بعد: أي فما زلتُ بعد ذلك متقيّداً بالأدب الذي أمرني به رسول الله ﷺ في طعامي، فأنا أسمّي الله وآكل بيميني، وآكل ممّا يلي مجلسي من صحفة الطعام.

نستفيد من هذا الحديث أنّ الرسول ﷺ كان لا يدع مناسبة ملائمة لتوجيه نصيحة، أو تعليم أدب من آداب الإسلام، أو خلق من أخلاقه، دون أن يوجّه فيها ويبينّ ويعلم، وكان لا يفوّت فرصة يستطيع فيها أن يؤدّب ويربّي صغيراً أو كبيراً دون أن يؤدّب فيها ويربّي.

فهذا ربيب رسول الله ﷺ يعلمه الرسول أدب الطعام، وأدب مؤاكلة الناس، ويعلّمه أنّه ليس من الأدب الإسلامي أن يطلق الآكل مع القوم لطمع نفسه وشرهها العنان، فيتعدّى الجهة التي تلي مجلسه من القصعة، إلى الجهات الأخرى التي تلي جلساءه عليها، لأنّ في ذلك سوء أدب من جهة، وعدواناً على حقّ الشركاء من جهة ثانية. وهو يدلّ على طمع وشره، فهو يتنافى مع الخلق الكريم، لأنّ من تدور يده في صحفة الطعام ومعه آكلون يشاركونه فيها لينتقي اللحم منها أو لينتقي أطايب الطعام وأجوده إنسان شره طمّاع أنانيٌ لا يكترث بحقوق الآخرين.

إنّ الطعام حينما يوضع بصفة جماعيّة لعدد من الآكلين هو موزّع حكماً عليهم، وكلّ واحد منهم يأكل منه في حدود الجهة التي يجلس إليها، مع مراعاة التسامح في نصيب كلٍّ منهم، زاد نصيبه أو نقص. والمفروض فيهم أن يؤثر بعضهم بعضاً ويُكْرِم بعضهم بعضاً، لا أن يتسابقوا إلى تناهبه، ويتسارعوا إلى ازدراده، فهذه قبائح الجشعين. أمّا القناعة والتسامح والإيثار فتلك آداب الفضلاء وأخلاق المؤمنين.

أمّا الأكل باليمين فهو أدب إسلامي جميل، يرجع إلى توزيع أنواع الأعمال بين اليمين والشمال. فالأعمال الشريفة كالأكل والشرب والكتابة والمصافحة والإشارة عند التشهد في الصلاة والإشارة إلى إنسان أو شيء، قد جعلها الإسلام من خصائص اليد اليمنى، والأعمال المهينة كالاستنجاء وإزالة القذارات وما أشبه ذلك قد جعلها الإسلام من خصائص اليد اليسرى. وهذا ينمّ عن ذوقٍ رفيعٍ جدّاً، يتصل بما تقتضيه القواعد الجمالية والآداب الذوقية. ومن مارس هذا التوزيع مذ صغره صار عادة ثابتة لديه.

وأمّا التسمية عند بدء الطعام فهي عبادة وشكرٌ لله تعالى، وأدب مع الله المنعم بالطعام، وتذكّر لعنصرٍ من عناصر القاعدة الإيمانية، واستعانةٌ بالله عزّ وجل على ما بدأه من عمل.

وفي اهتمام الرسول ﷺ بتربية الصغار وتعليمهم توجيه للأولياء أن يربّوا صغارهم ويعلّموهم، حتى ينشأوا نشأة إسلامية فاضلة، وهذه التنشئة الإسلامية توفّر على المجتمع الإسلامي كثيراً من مشكلات المستقبل، فتربية الأجيال الناشئة على الإسلام أسلم طريق لبناء المجتمع الإسلامي الفاضل، بل المجتمع الإنساني الكامل.

ومن التوجيه للعناية بتربية الصغار على الفضائل الإسلامية ما رواه أبو داود بإسناد حسن، عن عَمْرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرّقوا بينهم في المضاجع».

خاتمة

كان الفراغ من كتابة هذا السِّفْر في الأخلاق الإسلامية وأسسها ليلة الاثنين الحادي والعشرين من شهر رجب من العام الهجري ١٣٩٨ الموافق للخامس والعشرين من شهر حزيران سنة ١٩٧٨ ميلادية.

والله أسأل أن ينفع به، ويجعله خالصاً لوجهه، ويكتب له القبول في الأرض، ويضاعف به الأجر لي، ولزوجتي التي هيأت لي الجوّ الملائم لكتابته، وكانت خير حاثّ لي على إتمامه، وأن يثيبَ من يقرأه فيُهْديني نصيحته، أو يصلح خطأً يعثر عليه، ويغضي عن هفوات قد يلاحظها.

كما أسأل الله أن يضاعف أجر من يقوم بواجب الدعوة إلى الله منتفعاً مما كتبت، ومما كتب غيري من هدى وعلم نافع.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل، والحمد لله على توفيقه، والصلاة والسلام على رسوله محمد وعلى إخوانه النبيين والمرسلين.

مكة المكرمة في: ٢ من شهر رجب سنة ١٣٩٨هـ
الموافق: لـ ٢٥ من حزيران سنة ١٩٧٨م

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

فهـــرس

الفصل الثالث: قوّة الإرادة

الفصل الرابع: الدافع الجماعي

الفصل الخامس: المحبة للآخرين

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الفصل السابع: حبّ العطاء وفروعه وظواهره السلوكية

الفصل الثامن: سماحة النفس

الفصل التاسع: علو الهمة

الفصل العاشر: ظواهر خلقية لأكثر من أساس خلقي

الموضوع	الصفحة

الباب الخامس

نصوص مشروحة تشتمل على جوانب أخلاقية

[تم الكتاب بعونه تعالى]